ديفيد كريست

حرب الشفق

خفايا ثلاثين عامًا من الصراع الأميركي - الإيراني



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

ديفيد كريست

حرب الشفق

خفايا ثلاثين عاماً من الصراع الأميركي - الإيراني





شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٦
ISBN: 978-9953-88-942-9 النسخة الورقية
ISBN: 978-6144-58-424-8 النسخة الإلكترونية
Originally published as: **The Twilight War.**

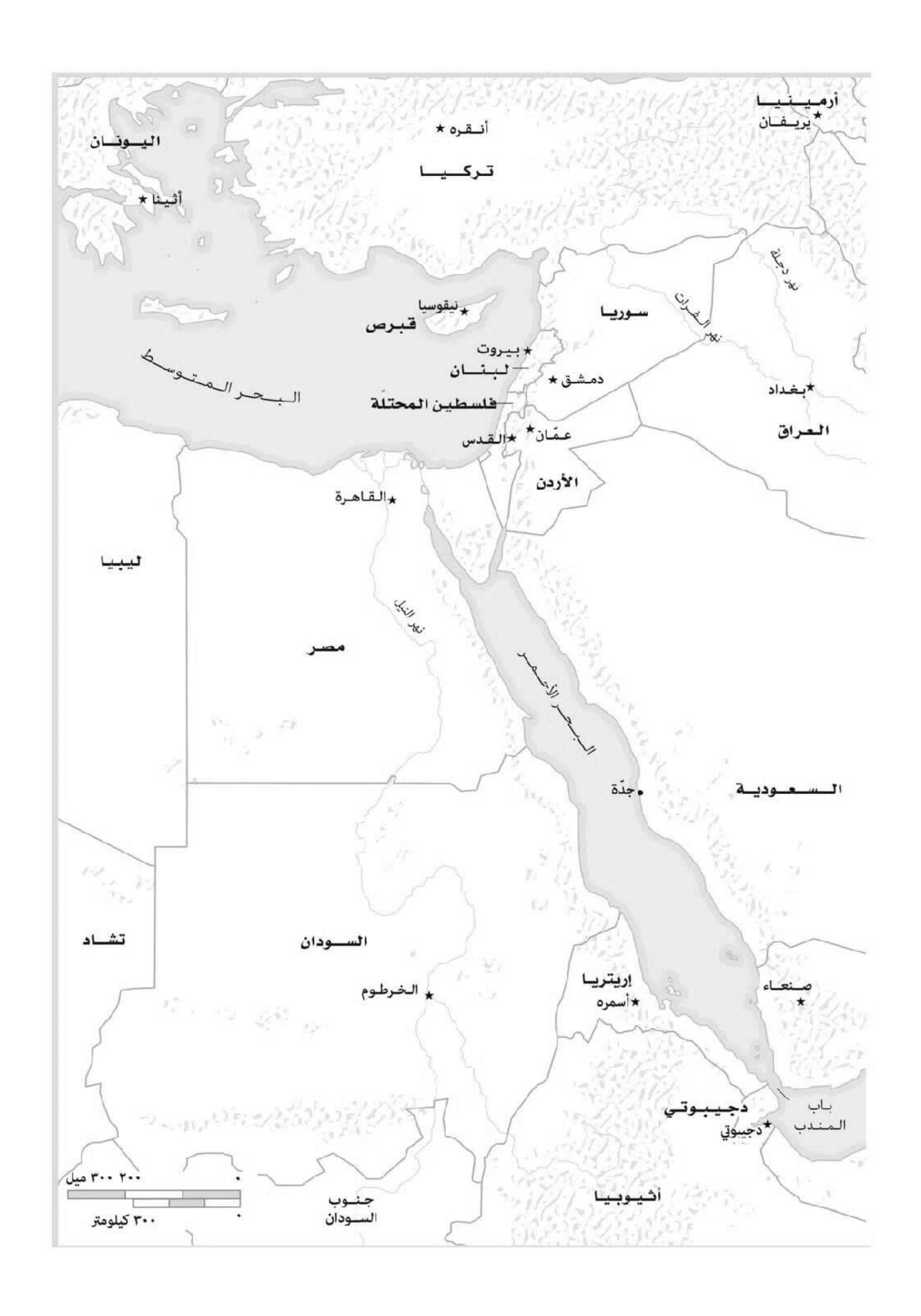
ترجمة: رجاء شلبي

تدقيق الترجمة: فاديا عبدوش ـ أنطوان باسيل ـ الطيب الحصني
تصميم الغلاف: داني عوّاد
صورة الغلاف: Wikimedia.org/Don Koralewski
الصور داخل الكتاب: تقدمة من الكاتب الذي أذن باستعمالها
الخرائط: Jeffrey L. Ward
الإخراج الفني: بسمة تقي

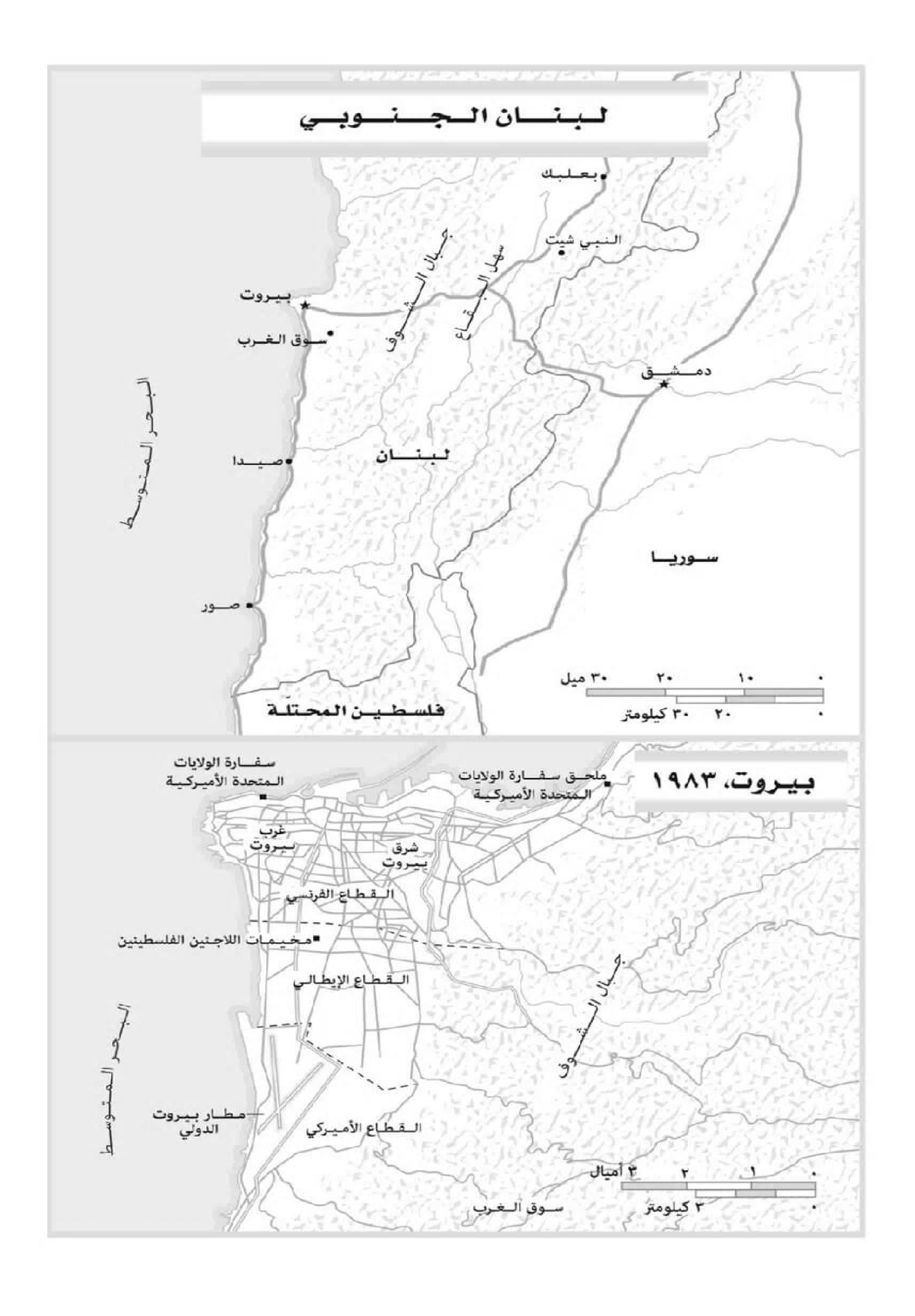
المحتويات



الشرق الأوسط (نظرة عامّة)



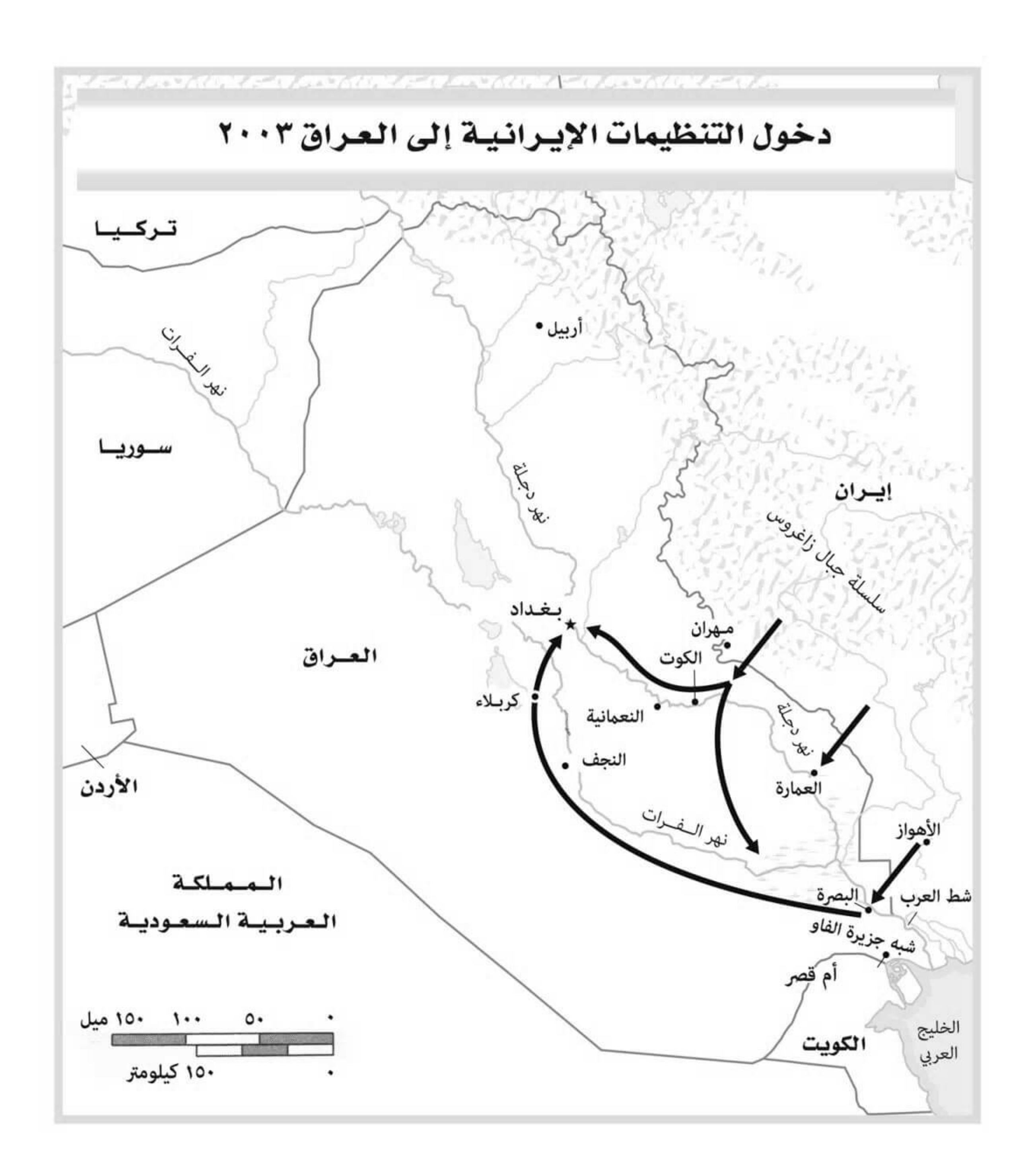
أرمينيا
يريفان
أنقره
اليونان
تركيا
أثينا
نيقوسيا
قبرص
سوريا
نهر الفرات
نهر دجلة
بيروت
لبنان
دمشق
البحر المتوسط
فلسطين المحتلّة
بغداد
عمّان
القدس
العراق
الأردن
القاهرة
ليبيا
نهر النيل
مصر
البحر الأحمر
جدّة
السعودية
تشاد
السودان
إريتريا
صنعاء
الخرطوم
أسمره
دجيبوتي
باب المندب
دجيبوتي
٢٠٠ ٣٠٠ ميل
٣٠٠ كيلومتر
جنوب السودان
أثيوبيا



لبنان الجنوبي
بعلبك
النبي شيت
جبال الشوف
سهل البقاع
بيروت
سوق الغرب
دمشق
البحر المتوسط
صيدا
لبنان
سوريا
صور
٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ ميل
٠ ٢٠ ٣٠ كيلومتر
فلسطين المحتلة
بيروت، ١٩٨٣
سفارة الولايات
المتحدة الأميركية
ملحق سفارة الولايات
المتحدة الأميركية
غرب
بيروت
شرق
بيروت
القطاع الفرنسي
مخيمات اللاجئين الفلسطينين
جبال الشوف
القطاع الإيطالي
البحر المتوسط
مطار بيروت
الدولي
القطاع الأميركي
٠ ١ ٢ ٣ أميال
٠ ٣ كيلومتر
سوق الغرب



الخليج العربي
العراق
حقول النفط في خوزستان
شط العرب
عبادان
أم قصر
شبه جزيرة الفاو
جزيرة بوبيان
مدينة الكويت
الكويت
جزيرة خارك
بوشهر
قناة
ميناء الأحمدي
راس الخفجي
جزيرة فارسي
إيران
بندر عبّاس
جزيرة قشم
جزيرة لارك
حقل غاز الشمال
هرمز
مضيق
رأس تنورة
الظهران
المنامة
جزيرة كيش
جزر طنب
البحرين
جزيرة سرّي
جزيرة
أبو موسى
منصة رستم
منصة سرّي
جسك
الدوحة
قطر
منصة ساسان
دبي
خورفكان
الفجيرة
المملكة
العربية السعودية
أبو ظبي
١٥٠ ميل ١٠٠ ٠
١٥٠ كيلومتر ٠
الإمارات
العربية المتحدة
سلطنة عُمان
جزيرة مصيرة


دخول التنظيمات الإيرانية إلى العراق ٢٠٠٣
تركيا
أربيل
نهر الفرات
سوريا
نهر دجلة
إيران
سلسلة جبال زاغروس
بغداد
مهران
الكوت
العراق
كربلاء
النعمانية
نهر دجلة
النجف
العمارة
الأردن
نهر الفرات
الأهواز
المملكة
العربية السعودية
البصرة
شط العرب
شبه جزيرة الفاو
أم قصر
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ميل
٠ ١٥٠ كيلومتر
الكويت
الخليج العربي



المحطات النووية والمواقع العسكرية
الإيرانية المهمّة
أرمينيا
أذربيجان
تركمنستان
بحر
قزوين
جلفا
تبريز
بندر أنزلي
مشهد
طهران
همدان
قم
أراك
إيلام
نهر دجلة
بغداد
نطنز
إيران
أصفهان
دزفل
سلسلة جبال زاغروس
العراق
الأهواز
خرمشهر
بندر مهشهر
عبادان
شيراز
الكويت
بوشهر
بم
باكستان
أفغانستان
المملكة
العربية السعودية
الخليج العربي
بساتين
بندر عبّاس
كيش
البحرين
قطر
جَسك
جابهار
الإمارات
العربية المتحدة
محطة نووية
قاعدة بحرية
مطار
٠
١٠٠
٢٠٠
٣٠٠ ميل
٣٠٠ كيلومتر

تمهيد

يتدفَّق يوميّاً خُمس صادرات النّفط العالمي عبر مضيق هرمز، الذي يربط بعرض ثلاثين ميلاً الخليج العربي[1] بالعالم الخارجي. ويقوم سلاح البحرية الأميركيّة منذ عام 1949 بدوريات في هذا الممر المائي، مستعرضاً القوة الأميركية وضامناً التدفق المستمر لشريان حياة الاقتصاد العالمي. ثمّة مناطق قليلة بذلت فيها الولايات المتحدة دمها ومالها بغية الحفاظ على مصالحها أكثر مما بذلته في هذه المنطقة من العالم. ففي السّنوات الخمس والعشرين الماضية خاضت الولايات المتحدة ثلاث حروب في المنطقة، منها اثنتان في العراق وثالثة، هي موضوع هذا الكتاب، لا تزال قائمة على شكل صراع مستمر مع إيران.

قد لا يكون هذا الجسم المائي الحيوي استراتيجياً مكاناً جذاباً أحياناً. فعندما تعصف الرّياح المحمّلة بالغبار والرّمال يتشكل ضباب يُعشي البصر يختلط فيه الأفق والمياه الموحلة في نسيجٍ بنيٍّ أغبش. وإذا أضفت إلى ذلك ظهور مجموعات متشابكة من ثعابين البحر السّامة، وارتفاع درجات الحرارة إلى أكثر من 50 درجة مئوية ونسبة الرطوبة العالية أيضاً، ستجد أماكن قليلة جداً يخدم فيها الجنود الأميركيون والأميركيّات بمثل قسوة الخليج العربي.

كان صباح الرّابع من شهر نيسان/أبريل 2003 أفضل من أيام كثيرة سبقته أو تلته. فالنسيم البحري المنشّط وشروق الشمس الرائع بشّرا خيراً بمهمة اليوم. كان قد مضى أسبوعان على الغزو الأميركي للعراق. وكرائد في مشاة البحرية الأميركية، كنت قبالة مدخل شط العرب، وهو نهر واسع شكّله التقاء نهري دجلة والفرات، ويعيّن الحدود الفاصلة بين إيران والعراق. كنت على متن قَطَمران[2] ضخم، وهو من أغرب السفن في سجلّات الأسطول البحري. وقد بُني القَطمران ليكون عبّارة سريعة، لا يزال جوفها الكهفيّ العميق يحتوي «باراً» ومقاعد للركاب بغية الاسترخاء والاستمتاع بمشروبات «الكوكتيل». استبدل البحّارة الخمر بصناديق مياه معبّأة وعصير. وشغل مركز قيادة متطوّر نصف الصالة تقريباً، حيث أزيلت الكراسي والطّاولات لوضع قواعد أجهزة الكمبيوتر وشاشة كبيرة تُظهر الرموز العسكرية الزرق والحمر والخضر التي تشير إلى مواقع جميع السفن والطائرات الأميركية والعراقية والإيرانية الموجودة في المنطقة في اللحظة الراهنة.

وكنت من بين قلّة من مشاة البحرية الذين ألحِقوا بفرقة النخبة التابعة لقوات العمليات الخاصة في البحرية (SEALS). كنت جنديَّ احتياط عندما تمّ استدعائي إلى الخدمة الفعلية من قبل قيادة قوات العمليات الخاصة لأتّخذ موقعي مع هذه المجموعة تحت إمرة نقيب نشيط يدعى روبرت هاروارد. وكنت قد خدمت تحت إمرته قبل ذلك بسنة، عندما دخلت قوات العمليات الخاصة أفغانستان بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر وطاردت عناصر طالبان والقاعدة المختبئين في كهوف ومزارع في الأجزاء الجنوبية الشرقية الوعرة من تلك الأرض القاسية. كانت مهمّتنا هذه المرّة إنزال أربعة زوارق صغيرة مدجّجة بالسلاح لتمخر شط العرب صعوداً وتصل إلى البصرة، ثاني أكبر مدينة عراقية ومن أهم موانىء البلاد. كان الهدف من العملية ضمان حرية الملاحة للأميركيين والبحث عن زوارق انتحاريّة محتملة تخشى البحرية الأميركية أن تنبثق فجأةً من الخلجان الصغيرة وتتكرر كارثة المدمِّرة الأميركية كول التي حدثت قبل بضعة أعوام.

لم تكن هذه حربي الأولى في الشّرق الأوسط. فقد أمضيت ثمانية أشهر أحترق بأشعة شمس الصحراء إبّان الحرب الأولى ضد صدّام حسين عام 1991. وقد أُلحِقت آنذاك بكتيبة استطلاع مدرعة من مشاة البحرية تحت إمرة كيث هولكومب، الذي أصبح فيما بعد جنرالاً. والذي سبق له أن عمل كرقيبٍ في الأمم المتحدة في جنوب لبنان. كان هولكومب يعرف اللغة العربية، وقد فتنني بقصصه عن ما أسماه حرب العصابات التي تشنُّها مجموعة شيعيّة تُدعى حزب الله ضد الجيش الإسرائيلي الحديث. أثارت تلك التّجربة برمّتها اهتمامي بالشرق الأوسط. وبعد الحرب، عدت إلى الجامعة لنيل الدكتوراه في تاريخ الشرق الأوسط الحديث خلال السنوات العشر الهادئة التي فصلت بين الصراعين الكبيرين اللذين عاشهما العراق.

كنت على دراية أكثر من العديد من معاصريّ من العسكريين بالعلاقات المتعثرة بين الولايات المتحدة وإيران. خلال ثمانينيات القرن العشرين، تولى والدي، وكان جنرالاً بأربع نجوم في مشاة البحرية واسمه جورج كريست، قيادة القيادة المركزية الأميركية «سنتكوم CENTCOM»، المسؤولة عن جميع القوات الأميركية في الشرق الأوسط. في ذلك الوقت كان الاتحاد السوفيتي يسيطر على تفكير واشنطن وكانت أوروبا، لا الشرق الأوسط، المسرح الأكثر أهميّةً بالنسبة لجيشنا. بيد أنّ والدي والقيادة المركزية الأميركية كانا منهمكَين في أثناء ذلك في نزاعٍ غريب مع إيران، أفضل وصف له هو حرب عصابات في البحر، حيث كان الحرس الثوري الإيراني الشرس يقوم بزرع الألغام سراً بواسطة زوارق الدَّهو الشراعية وبشن هجمات كر وفر ضد القوافل الأميركية بواسطة أسطول من السفن المدفعية الصغيرة. فانخرطت الولايات المتحدة وإيران في شبه الحربِ هذه التي دامت عامين تقريباً، وبلغت ذروتها في أكبر معركة بحرية في تاريخ الأسطول البحري الأميركي منذ الحرب العالمية الثانية، فيما كان البنتاغون قلقاً حيال ردع جحافل الدّبّابات السوفيتية في سهول أوروبا الوسطى أكثر من قلقه حيال مواجهته إيران. غير أن الفرس أثبتوا على مدى السنوات الثلاثين الماضية، أنهم، وليس الروس، الخطر الأكثر ديمومة الذي يتهدّد الولايات المتحدة.

عندما كنت أبحث عن موضوع للأطروحة اكتشفتُ هذه الحرب السرّية مع إيران التي ظلّت مجهولة إلى حدٍّ كبير. قضيتُ السنوات الخمس التّالية في البحث وكتابة قصّة هذه الحرب الأولى مع إيران، وكيفية اندراجها في السياق الأوسع لسياسة الرئيس رونالد ريغان في منطقة الشرق الأوسط.

ومع ذلك لم تكن إيران في ذهني عندما بزغ الفجر فوق مياه الخليج الزرقاء صباح يوم الرابع من نيسان/أبريل من العام 2003. كنت أشاهد من داخل مركز قيادة القطمران، الذي حُوِّل إلى سفينة حربيّة، زوارقنا الحربية الأربعة وهي تبحر شمالاً ببطء متوغّلةً في شط العرب وتشقُّ بحذر طريقها عند الحد الفاصل بين إيران والعراق. كان هاروارد قلقاً من أن يستفز ذلك إيران، وحاول جاهداً تجنب المواجهة، فأرسل عنصراً من قوات العمليات الخاصّة (SEAL) يجيد الفارسية مع قارب القيادة، وأعطى أمراً للأسطول الصغير بالإبحار والتعمّق في المياه الإقليميّة العراقية، حتى أنه جنح مرات عدة. ونصبنا أيضاً العلم الإيراني بصورة مؤقّتة على أحد الزوارق، حيث اعتبر هاروارد أن ذلك سيبدي نوايانا الحسنة. كان ردّ فيلق الحرس الثّوري الإسلاميّ الإيراني بأن أرسل نحونا أربعة قوارب صغيرة اقتربت بسرعة قصوى، كان أكبرها قارب بوغهامر مستطيل ضيّق سويديّ الصّنع مجهّزٌ بمدفع رشّاش مزدوج الفوهة في مقدِّمته. إنه القارب نفسه الذي كان لعنة بحرية الولايات المتحدة زمنَ خدمة والدي فيها منذ خمسة عشر عاماً. انطلقت القوارب بسرعةٍ فائقة، جارّةً خلفها ذيولاً من الزبد الأبيض إلى الجانب العراقي من القناة المائية وأحاطت بنا ووجهت مباشرةً نحو مقدّمة قاربنا قاذفة صواريخ متعددة الفوهات. بدا أنّ تبادلاً لإطلاق النّار مع جارة العراق الفارسية القوية قد أصبح وشيكاً. وبدا لي فجأةً أنّ بحثي حول إيران لم يعد مجرّد عمل أكاديمي.

لم أعلم إلاّ في وقت لاحق، أثناء إعداد موضوع هذا الكتاب، أنّ القيادة المركزية الأميركية في الشرق الأوسط أو الموظفين المدنيين في وزارة الدفاع الأميركية لم يتجشّموا عناء التفكير في إيران أثناء التخطيط لإطاحة صدّام حسين. لم يكن من المفترض أن نتفاجأ بالحادث مع الإيرانيّين قبالة السّواحل العراقيّة. ولم تكن هذه الحادثة الوحيدة التي جرى إغفالها في واحدة من أسوأ الحملات العسكرية تخطيطاً التي نفذّها الجيش الأميركي. مع انسحاب آخر جندي أميركي في أيلول/سبتمبر 2011، كان نحو خمسمئة أميركي قد لقوا حتفهم على أيدي المليشيات المدعومة من إيران، وكانت الحكومة العراقية المنتخبة ديمقراطياً التي تشكّلت على حساب الكثير من الدّماء والأموال الأميركيّة، قد تمّ الترويج لها من طهران.

لساعات الشفق أو الغسق أهميّتها الخاصة في الحرب. فعيوننا لا تتكيّف بسرعة مع تغير الضوء، ودورات الجسم الطبيعية تجعل الجنود في حالة متدنّية من التأهّب. وقد خبرتُ ذلك بنفسي كطالب ضابط في مشاة البحرية. فمع اقتراب الغسق، وبعد يوم من المشي الطويل المجهد في أحراج كوانتيكو بولاية فيرجينيا، وفيما كنت أكافح منهكاً طوال الساعة الأخيرة من أجل حفر حفرة قتال عبر متاهة من جذور الأشجار بمجرفة صغيرة قابلة للثني وغير مناسبة للقيام بهذه المهمة إلى درجة الإحباط، صرخ فجأةً النقيب: «تأهّب!» مع إلقاء شمس الغروب بظلالها على الغابة، فنزلت في حفرتي التي لمّا تنتهي بعد وأشهرت بندقيتي خارج الحفرة بين الأغصان والأشجار. قال المدرب

كجزء من درس مُعاد ومكرّر في التكتيك الحربي: «أنت دوماً أكثر عرضةً لهجوم العدو خلال فترات الشفق والغسق البحريين»، وتابع قائلاً بأسلوب من يسرد وقائع علمية بحتة: «الغسق والفجر فترتان انتقاليّتان».

عندما التحقت بالمدرسة الأساسية (Basic School) الإلزامية، عام 1987، حيث تستمر الدروس مدة ستة أشهر بالنسبة للوافدين الجدد برتبة ملازم ثانٍ من مشاة البحرية، كان الكثير من الضباط والمجندين المتطوعين قد شاركوا في حرب فيتنام. لقد انحفرت دروس ذاك الصراع في الذاكرة الجمعية للقوّات المسلّحة، فكثيراً ما كان مسلّحو الفيتكونغ[3] يهاجمون في ساعات الشفق. على الرغم من أن التكنولوجيا الحالية تسمح للجيوش الحديثة بشن هجوم في الليالي غير المقمرة أو عندما تكون شمس الظهيرة في سمتها، إلا أنّ الفكرة تبقى تكتيكاً عسكرياً صالحاً. ففي تموز/يوليو 2008 وقعت واحدة من أسوأ الهجمات التي تعرض لها الجيش الأميركي عند بزوغ أول شعاع شمس في سماء شرق أفغانستان، وذلك عندما هاجم مقاتلو طالبان موقعاً نائياً فقتلوا وجرحوا ستة وثلاثين جندياً. علقت بذهني هذه الحادثة مع أننا لم نتعرض لأي هجوم خلال فترة تدريبنا في كوانتيكو.

الشفق أو الغسق استعارة دقيقة للحالة الراهنة بين الولايات المتحدة وإيران. فمع انعدام العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، والاكتفاء في بعض الأحيان باجتماعات عرضية في زوايا حانات الفنادق المظلمة وعبر وسطاء غامضين، فإنّ كلا الطرفين يفتقر إلى وجهة نظر دقيقة عن الطرف الآخر. فالولايات المتحدة تعوزها المعرفة الواضحة بالقادة الإيرانيين وببنية الحكومة الإيرانية المعقّدة، في حين تزداد إيران عزلةً وجهلاً بالولايات المتحدة. هذه المنطقة الرمادية خطيرة، والتهديد الناجم عن سوء التقدير كبير، ويمكن أن تكون التداعيات العسكرية خطيرة أيضاً. فمنذ ثلاثة عقود والبلدان يتأرجحان بين الحرب والسلم. وانتقلت العلاقات، في أوقات مختلفة، من نور السلم إلى ظلام الحرب. وفي النهاية، لا يزال عام 2012 يبدو شبيهاً بعام 1979 بصورة ملحوظة، فالبلَدان ما زالا على خلاف شديد.

يتحمّل كلا البلدين بعض الملامة على إدامة هذا الصراع. لقد ولدت الثورة الإيرانية من العداء للولايات المتحدة الأميركية، وما زال الزعماء الذين قادوا هذه الثورة قبل ثلاثين عاماً في السلطة ولا يرون أي حاجة إلى تغيير مواقفهم. فالقادة الإيرانيون يرفضون النفوذ الأميركي الراهن في المنطقة، ومع كل صيحة تنادي بـ «الموت لأميركا»، يأملون إعادة إشعال الحماسة ذاتها التي أوصلتهم إلى سدة الحكم وخلعت ديكتاتوراً مكروهاً، هو شاه إيران، فرضته الولايات المتحدة الأميركية على إيران على أثر انقلاب عام 1953. قد تكون الولايات المتحدة الرجل الصالح في هذا النزاع، لكنّ هذا لا يعني أنها الرجل المثالي. فقد رفضت إدارتنا بوش إشارات حسن النية الإيرانية، كما رفضتنا أيضاً قبول أي حوار لمعالجة مخاوف إيران الأمنية المشروعة. كما دعمت الولايات المتحدة صدام حسين ومموليه العرب في حرب دامية ضد الجمهورية الإسلامية راح ضحيتها مئات الآلاف من الجنود الإيرانيين. ولا تزال لازمة تغيير النظام شعاراً متكرّراً، وإن كان غير واقعي، في العديد من الدوائر في واشنطن.

في العام 1994 بدأت بإجراء الأبحاث من أجل هذا الكتاب، المتضمن أكثر من أربعمئة مقابلة، فذهبت أولاً إلى تامبا حيث المقر الرئيس للقيادة المركزية الأميركية كي أتحدث إلى الضبّاط المكلفين إدارة هذه الحرب الإيرانية الباردة انطلاقاً من مبنى متهالك شبيه بالمتاهة في قاعدة ماكديل (MacDill) للقوّات الجوية. وسافرت إلى الشوارع الخلفية من الأحياء الشيعية في جنوب لبنان وإلى عواصم دول الخليج العربي المترفة حيث أجريت مقابلات مع إيرانيين وعرب معنيين بهذه القصة. اطّلعت على أوراق والدي ومن ثم على القليل من كمٍّ هائل من الأوراق الشخصية والوثائق الرسمية الأخرى.

على الرغم من تغيّر الموضوع الذي ركّز عليه الكتاب وتكشّف التاريخ عن حقائق جديدة باستمرار، إلا أن جوهر القصة ظل على حاله وهو أنّ البلدين متورّطان في شبه حرب بقيت مجهولة إلى حدٍّ كبير منذ الثورة الإيرانية في عام 1979. لقد واجه ستة رؤساء أميركيين مختلفين خصماً عنيداً على ما يبدو في طهران. شهد كل رئيس حدثاً محدَّداً دفع البلدين ذهاباً وإياباً مثل كرة لعبة «الفليبر» بين التقارب والحرب. وما وجدت نفسي منخرطاً فيه صباح ذلك اليوم من شهر نيسان/أبريل في شمال الخليج كان الفصل الأخير من الملحمة المستمرة لهذا الصراع الغامض.

تتواصل هذه القصة في التكشف. وعند كتابة هذه السطور كانت إيران قد هددت بأنها ستغلق مضيق هرمز، وبدا أن البلدين عادا إلى الجانب المظلم من الصراع العسكري. فالملحمة على ما يبدو تدور في حلقة لا نهاية لها. وبعد قراءتي مذكّرة حديثة توجز سياسات إدارة بوش الساعية لبناء تحالف عربي ضد إيران، كان بإمكاني، مثلما أخبرت نائب قائد البحرية في «سنتكوم» جون آلن، استبدال هذه المذكرة بمذكرة أخرى كُتبت قبل خمسة وعشرين عاماً، حيث إن سلفه كان يواجه التحدّي نفسه الذي طرحته إيران. إن سعي إيران للحصول على التكنولوجيا النووية زاد من المخاطر والتوتر لكنه لم يكن دافعاً إلى الصراع.

حاولت أن أروي قصة هذا الصراع المستمر منذ ثلاثة عقود بين إيران والولايات المتحدة بمنتهى الدقة والإنجاز. تبدأ القصة مع أحداث الثورة الإيرانية التي زرعت بذور الصراع وحولت البلدين بشكل حاسم من حليفين إلى خصمين، وتستمرّ إلى القصص الكامنة وراء العناوين الرئيسية في صحف اليوم. الأفكار المطروحة في هذا الكتاب هي أفكاري، ولا تمثّل وجهات نظر وزارة الدفاع أو الحكومة الأميركية.

قال لي رايان كروكر، الدبلوماسي الأميركي الخبير، في مقابلة أجريتها معه: «بالنسبة إلى إيران، لا وجود للتاريخ، فالتاريخ هو الحاضر وهو ممتدٌّ حتى اللحظة. نحن الأمة الأقل اهتماماً بالتاريخ وتطوّراته وهم الأمة الأكثر اهتماماً به». في روايتي لهذه القصة، آمل أن أصوّب هذه الوقائع. كنت أحد المشاركين في هذه القصة وباحثاً موضوعياً في عناصرها، ولا سيما أنني صرت مؤخراً مستشاراً لكبار مسؤولي وزارة الدفاع. إنها حرب أشباح، مجهولة إلى حدٍّ بعيد، والأرجح أنها الصراع الأكثر أهميةً والأشدّ غموضاً في التاريخ الحديث. إنها حرب الشفق.

الفصل الأول

«في قلوبكم ملكٌ صغير»

في الساعة الثانية فجراً من يوم الرابع من كانون الثاني/يناير من عام 1979، أيقظ جرس الهاتف الآمن المزعج الجنرال روبرت «دوتش» هايزر قائد القوات الجوية الأميركية وجعله ينهض بسرعة من سريره الدافئ في مدينة شتوتغارت الألمانية. لم تكن المكالمة المبكرة أمراً مفاجئاً لهايزر البالغ من العمر أربعة وخمسين عاماً، فأثناء الأزمات يعمل المرء وفق توقيت واشنطن. مع انتهاء يوم العمل على الساحل الشرقي، كان من الشائع تلقي سلسلة متتابعة من أسئلة اللحظة الأخيرة من وزارة الدفاع «البنتاغون» تحرمك من النوم العميق حتى ولو كنت جنرالاً بأربع نجوم.

كان دوتش هايزر، البدين بعض الشيء وذو الوجه المستدير المخدَّد، ينتمي إلى مجتمع قاذفات القنابل في القوات الجوية. فقد حلّق فوق اليابان إبان الحرب العالمية الثانية بطائرة بأربعة محركات من طراز B-29، وقاد الطائرة ذاتها في الأيام الأولى من الحرب الباردة، بيد أنها كانت محمّلة هذه المرة بقنبلة ذرية مخصصة للاتحاد السوفيتي. مع تقدّم تكنولوجيا الطائرات الأميركية، تقدّم هايزر أيضاً في مهنته. فقد حلّق بطائرة من طراز B-52 في مهمات فوق شمال فيتنام، وتقلّد منصبه الحالي كنائب لقائد القوات الأميركية في أوروبا في شهر أيلول/سبتمبر من العام 1975.

قبل أسبوع من تلك المكالمة الصباحية المبكرة تبادل هايزر مكالمات عديدة مع رئيسه الجنرال ألكسندر هيغ ومع رئيس هيئة الأركان المشتركة الجديد الجنرال ديفيد جونز الذي تجمعه به معرفة قديمة، ودارت المكالمات حول السفر إلى إيران في مهمة سرية. كان هايزر قد عزّز، خلال الأعوام الثلاثة المنصرمة، علاقة ودّيَّة بشاه إيران محمد رضا بهلوي، الذي يُعدّ واحداً من أهم حلفاء أميركا في الشرق الأوسط. وفيما كانت ثورة شعبية تندلع في إيران وتفكّك عُرى الملَكية فيها،

أرادت واشنطن إرسال مبعوث عسكري رفيع المستوى إلى إيران للعمل مع الجيش الإيراني، لكنّ طبيعة العمل ظلّت غير واضحة.

لم يُخرّج الجيش الأميركي الحديث الكثير من الجنرالات المهتمّين بالسياسة بقدر ألكسندر هيغ، الذي كان ذات يوم مساعد الجنرال المتعجرف القوي دوغلاس ماكآرثر[4] وتمرّس بساحات القتال في واشنطن فضلاً عن ساحات شرق آسيا. استهجن هيغ ردّ إدارة كارتر الضعيف تجاه الثورة الإيرانية وحثَّ أميركا على إظهار دعم أكثر ثباتاً للشاه. ولكن أكثر ما كان يهمه هو ألا تتلطخ سيرته المهنية جراء الفشل الناجم عن انهيار إيران، فعمد إلى النأي بنفسه عن المأساة الدائرة في طهران. وعندما أشار الجنرال جونز الى أن هايزر هو الشخص المثالي لنقل رسالة إلى القيادة الإيرانية، عارض هيغ الفكرة بشدة وبصوتٍ عالٍ بوصفه القائد الأعلى لقوات التحالف في أوروبا ورئيس هايزر[5].

في الساعة الثانية صباحاً رفع دوتش هايزر سمّاعة الهاتف وسمع صوت رئيسه الفظ يقول: «دوتش، لقد خسرنا. ستذهب إلى إيران»[6].

عندما أدّى الرئيس الأميركي جيمي كارتر القسَمَ الدستوري صبيحة اليوم المشمس البارد الواقع في العشرين من شهر كانون الثاني/يناير 1977 لم تكن في باله إيران ولا حتى الخليج العربي. كان الرئيس الأميركي يدرك أهمية نفط الشرق الأوسط، ولكن بدلاً من أن يركّز على ضمان وصول الأميركيين إلى هذا النفط، اهتم في مبادراته السياسية بقضية أساسية ألا وهي الطلب الأميركي المتزايد على الفيول المستورد. أصبحت أزمة الطاقة الناشئة لازمةً كرّرتها إدارته منذ بداية ولايته، فرمى الرئيس بكامل ثقل منصبه لحلّ أزمة الطاقة التي كانت تلوح في الأفق، مفجّراً قنبلته الأولى في خطابه الذي ألقاه بعد أسبوعين تماماً من انتقاله إلى البيت الأبيض وبثته قنوات التلفزة على الصعيد القومي. جلس كارتر على كرسي خشبي قرب نار الموقد المشتعلة في مكتبة البيت الأبيض مرتدياً سترةً من الصوف وراح يحاضر في مستمعيه حول الحاجة إلى التضحية المشتركة في ما يخص توفير الطاقة.

وبعد ثلاثة أشهر أتبع كارتر هذا الخطاب بخطابٍ آخر بُثّ في وقت الذروة. ففي مساء 18 نيسان/ أبريل 1977 كان مشاهدو التلفاز يتوقّعون مشاهدة الدراما العائلية الشعبية التي تتحدث عن الحياة المتقشّفة التي عاشها سكان الحدود وعنوانها «بيت صغير في المروج» (Little House on the Prairie)، لكنّهم رأوا بدلاً من ذلك رئيساً متجهماً يرتدي بذلة داكنة. بدأ الرئيس خطابه في تلك الليلة بلهجة حادة على الرغم من لهجته الجنوبية الدافئة، فقال: «أريد أن أتوجّه إليكم بحديث غير سار عن مشكلة لم يسبق لها مثيل في تاريخنا. وهي تشكّل التحدي الأكبر الذي سيواجهه بلدنا طوال حياتنا، في ما عدا منع وقوع الحرب». حذّر الرئيس من أنّ الطلب على النفط الخام بحلول عقد الثمانينيات سيفوق احتياطي النفط العالمي، وتنبّأ بعواقب كارثية كإغلاق المصانع وفقدان الوظائف وارتفاع نسبة التضخم وتنافس عالمي ضارٍ على موارد الطاقة النادرة. قال كارتر أيضاً: «إن لم نتصرّف على الفور فسوف نواجه أزمةً اقتصادية واجتماعية وسياسية من شأنها أن تهدّد مؤسساتنا

الحرة». وأضاف في واحدة من أشد عباراته وقعاً خلال فترة رئاسته: «إن أزمة النفط التي تلوح في الأفق هي المعادل الأخلاقي للحرب»[7].

لقد ورث الرئيس كارتر سياسة أميركا في الخليج العربي التي استندت كلّياً إلى الحرب الباردة. في شهر آذار/مارس 1946 اندلعت أولى الأزمات بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفيتي في تلك المنطقة، عندما رفض الاتحاد السوفيتي مغادرة الجزء الشمالي من إيران في نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم حرك دباباته باتجاه العاصمة الإيرانية طهران مهدداً إياها[8]. وعندما عارضت الولايات المتحدة بشدة هذا التصرف تراجعت موسكو لعدم رغبتها في دخول الحرب في ذلك التوقيت[9]. وخلال العقود الثلاثة اللاحقة، وبينما كانت الولايات المتحدة تركز مواردها لمواجهة موسكو في أوروبا الوسطى، عملت المملكة المتحدة باعتبارها القوة العسكرية الرئيسة في الشرق الأوسط التي تحميه من التوسع السوفيتي. وكان لبريطانيا حضور عسكري كبير في المنطقة حيث كانت مشيخات الخليج لا تزال تابعة للاستعمار. ولكن في كانون الثاني/يناير 1968 أعلن رئيس الوزراء هارولد ويلسون عن قرار الحكومة البريطانية، التي كانت تعاني ضائقةً مالية، سحب كامل قواتها المسلحة من الخليج العربي منهيةً بذلك احتلالاً دام 140 عاماً. وفي الوقت الذي أُنزل فيه علم المملكة المتحدة عن المشيخات المستقلة، كانت الولايات المتحدة، العاجزة عن التقدم في فيتنام، تفتقر إلى الموارد العسكرية اللازمة لنشرها في الخليج[10].

هكذا، ابتكر الرئيس ريتشارد نيكسون في أوائل عقد السبعينات خطةً جديدة لاقتصاد القوة تُعرف بشكل غير رسمي باسم استراتيجية «الركيزتين التوأمين» (twin pillars strategy)، وهي تعني أن يبقى أمن الخليج العربي الذي تشرف عليه أميركا مستنداً الى القوّتين اللتين تعارضان بشدّة الشيوعية في المنطقة وهما المملكة العربية السعودية وإيران. إن اقتران عائدات النفط السعودي ومكانة المملكة الإقليمية، باعتبارها حاضنة المدينتين المقدستين مكة والمدينة المنورة، بالقوة العسكرية الإيرانية سيسمح بجعل هاتين الدولتين مفوَّضتي أميركا لاحتواء الاتحاد السوفيتي. كتب كسينجر في مذكراته قائلاً: «إن الفراغ الذي خلّفه انسحاب بريطانيا سوف تملأه قوّة محلّية صديقة لنا». لقد ارتكز الأمن الأميركي في الخليج العربي إلى حدٍّ كبير على القوة العسكرية المتنامية لشاه إيران.

تقلّد شاه إيران محمد رضا بهلوي هذا الدور بحماس. فمنذ إعادته إلى العرش بدعم من الاستخبارات المركزية الأميركية «السي. آي. إيه.» عقب انقلاب عام 1953، أثبت الشاه أنه طموح وميّال إلى التوسّع وشديد المناهضة للشيوعية. وقد كشف في جميع الدوائر الدبلوماسية عن نيّته في السعي إلى إرساء سطوة إيران كقوة إقليمية جديدة. لعب الشاه بحذق على المخاوف الأميركية من الشيوعية وحصل على التمويل اللازم من عائدات النفط (بترودولار) - التي زادت أربعة وعشرين ضعفاً في السنوات السبع بين عامي 1968 و1975 - فاستطاع تعزيز القوات العسكرية الإيرانية

لتصبح أكبر قوة في الشرق الأوسط[11]. وقد باعت إدارتا الرئيسين الأميركيين نيكسون وفورد أسلحة إلى إيران بقيمة 12 مليار دولار تقريباً وقدّمت للحاكم الإيراني المطلق الأسلحة الأكثر تطوّراً في الترسانة الأميركية، إذا ما استثنينا الأسلحة النووية.

لم يكن الشاه يتورّع عن استخدام قوته العسكرية المكتسبة حديثاً للانقضاض على جيرانه. ففي تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1971، بعد انتهاء انسحاب القوات البريطانية من الخليج وإعلان استقلال محمياته السابقة -دولة الإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين- أكّد الشاه مجدداً، وبالقوّة، سيطرة إيران على جزيرتي «طنب الكبرى» و«طنب الصغرى» وجزيرة أبو موسى المتنازع عليها في الخليج العربي. على الرغم من صغر الجزر (لا تبلغ مساحة جزيرة «أبو موسى» أكثر من اثني عشر كيلومتراً مربعاً) إلا أنها تحتل موقعاً استراتيجياً هاماً. فجزيرة أبو موسى مثلاً تقع في وسط الممر المائي العميق الذي يؤدّي إلى الطرق الغربية لمضيق هرمز، وينبغي لأي ناقلة نفط أن تمر بالقرب من هذه الجزيرة في دخولها الخليج أو خروجها منه. ودعم الشاه أيضاً المتمرّدين الأكراد في شمال العراق، ما دفع بنائب الرئيس العراقي آنذاك صدام حسين إلى التوقيع مكرهاً على اتفاقية الجزائر عام 1975، التي تمّ بموجبها ترسيم الحدود الجنوبية بين البلدين، فاعتبر خط التالوك في شط العرب -وليس ضفة الشط على الجانب الإيراني- بمثابة الحدود الرسمية بينهما؛ ويعدّ شط العرب قناة مائية استراتيجية بين البلدين ومدخلاً مهماً للعراق إلى الخليج العربي[12].

واصل الرئيس كارتر سياسة «الركيزتين التوأمين» التي وضعها الرئيس نيكسون، ولكن بقدر أقل من الحماسة، وأعرب عن أمله في بداية عهده في جعل الخليج العربي منطقةً منزوعة السلاح. كما طرح على موسكو فكرة تخفيض كمية الأسلحة التي تبيعها للعالم الثالث، وكان من شأن هذه الاستراتيجية أن تشمل إجراء تخفيض جذري لكمية الأسلحة التي تبيعها أميركا لكلٍّ من المملكة العربية السعودية وإيران[13]. ثم اقترح الرئيس الأميركي عقد معاهدة للحدّ من القوّات البحرية في المحيط الهندي كخطوة أولى قد تؤدي إلى اتفاق حول جعل ذلك الجسم المائي منطقةً منزوعة السلاح. لم يفضِ أيٌّ من الاقتراحين إلا إلى مناقشات روتينية، إذ رفضت موسكو بشدة أن تحدّ من توريد شحنات الأسلحة إلى المشترين في الشرق الأوسط، فقد كانوا جميعهم من بين كبار زبائن الأسلحة السوفيتية[14].

لقد قسم شرخٌ أساسي فريق كارتر للشؤون الخارجية، وكان الخصمان الرئيسان هما مستشار كارتر للأمن القومي زبيغنو بريجينسكي ووزير خارجيته سايروس فانس. ولد بريجينسكي، البالغ من العمر حينها تسعة وأربعين عاماً، في بولندا، وهو عضو في الحزب الديمقراطي، ولديه خبرة طويلة في السياسة الخارجية، ويُعدّ أحد صقور الحرب الباردة. في حين كان فانس يبلغ من العمر ستين عاماً، وقد شغل منصب نائب القائد العام للجيش ونائب وزير الدفاع في الإدارتين الديمقراطيّتين السابقتين. على الرغم من أن المستشارَين اتفقا عموماً مع كارتر بشأن

تشديده على حقوق الإنسان، لكنهما تصادما في كل قضية مهمة أخرى. ولم تشكّل المخاطر المحتملة المرتبطة بهذين الرجلين وفلسفتيهما المتنافستين في الإدارة ذاتها مفاجأةً لأيٍّ كان. سَخِرَ هاملتون جوردان، المدير الشاب لحملة كارتر الانتخابية، خلال العملية الانتقالية الرئاسية قائلاً لكارتر: «إذا عيّنتَ بعد تولّيك الرئاسة سايروس فانس وزيراً للخارجية وزبيغنو بريجينسكي رئيساً لمجلس الأمن القومي، فسأعتبر عندئذٍ أننا فشلنا، وأستقيل». عيّن الرئيس كارتر كلا الرجلين، وبقي جوردان رئيساً لموظّفي البيت الأبيض[15].

اختلف الرجلان أيضاً في آرائهما حول الخليج العربي. دافع بريجينسكي من جانبه بشدة عن وجود عسكري أميركي أقوى، معتبراً نفط الخليج بمثابة خاصرة الغرب الضعيفة في ما يخصّ الاتحاد السوفيتي، وشدّد على ضرورة تأمين حرّية الوصول إلى نفط الشرق الأوسط. ففي حال شُحّ الموارد النفطية، لن تكون معركة الحرب الباردة القادمة من أجل برلين بل من أجل الرياض أو طهران. أراد الوزير فانس من ناحيته التقليل من دور الجيش الأميركي في منطقة الخليج. فعرض رأياً سائداً داخل وزارة الخارجية مفاده أن وجود القوات الأميركية في الخليج العربي ستكون له نتائج عكسية، ففي منطقة ذات إرث استعماري طويل وشكوك عميقة بدوافع القوى العظمى من الأفضل الإبقاء على القوات الأميركية وراء الأفق بدلاً من زيادة وجودها العسكري في المنطقة[16].

تكمن وجهة نظر وزير الدفاع الجديد هارولد براون في الوسط. وكان براون يبلغ من العمر تسعة وأربعين عاماً، وقد حصل على شهادة الدكتوراه في الفيزياء من جامعة كولومبيا عن عمر اثنين وعشرين عاماً فقط. وكان يصف نفسه بأنه رجل موضوعي بارع في التحليل، وكان عالماً لامعاً وصل إلى البنتاغون بوصفه أحد «الفتيان النوابغ» في فريق عمل وزير الدفاع روبرت ماكنمارا في عهد الرئيس كينيدي. أمضى براون القسم الأكبر من الستينيات في اكتساب شهرة يستحقها بوصفه معتدلاً وواقعياً، ولكنه، في ما يتعلّق بالشرق الأوسط، كان يتفق عموماً مع بريجينسكي في تقييمه المتشدد للنوايا السوفيتية. فقد كان يشاطره قَلَقَهُ بشأن هيمنة السوفيت على الخليج العربي قائلاً: «إن من شأن السيطرة السوفيتية على هذه المنطقة أن تجعل قسماً كبيراً من العالمين الصناعي والنامي تابعاً فعلياً للسوفيت»[17].

على الرغم من هذه الخلافات، بقيت المخاطر ضئيلة بالنسبة لواشنطن، إذ بدا أن الشاه مستقرّ في السلطة وفي جيب أميركا. في كانون الثاني/يناير من العام 1977 أصدرت وكالة الاستخبارات والبحوث التابعة لوزارة الخارجية تقريراً متفائلاً، تردّدت فيه وجهات نظر المجتمع الاستخباراتي بشأن احتمالات بقاء الشاه سياسياً، وجاء فيه: «من المرجح أن تظل إيران مستقرة تحت قيادة الشاه خلال السنوات القادمة. وثمة احتمال كبير أن تحظى إيران بفترة من الازدهار والاستقرار النسبيين، على الأقل حتى منتصف الثمانينيات»[18]. خلال زيارة كارتر لطهران في كانون الأول/ديسمبر من العام 1977، أي في نهاية السنة الأولى من ولايته، أكّد مجدداً دعمه للشاه

في حفلٍ فخم بمناسبة ليلة رأس السنة، مشيراً إلى أن إيران بقيادة الشاه «جزيرة آمنة في إحدى أكثر المناطق اضطراباً».

بيد أن كل شيء لم يكن وردياً مثلما اعتقدت أجهزة الاستخبارات الأميركية في ما يخصّ حكم بهلوي. في بداية عقد الستينيات شجّع الشاه على نحو فاعل عملية التحديث والعلمنة، وفرض إعادة توزيع الأراضي الزراعية بصورة قسرية ولاسيما الممتلكات الشاسعة العائدة إلى رجال الدين الشيعة، فكان هذا الأمر بمثابة ضربة في صميم ثروتهم ونفوذهم. كما أمر الشاه ببيع الشركات التي تملكها الدولة؛ ومنح المرأة حق الاقتراع، ومكّنها من تقلُّد المناصب السياسية، وألغى التعليم الديني الإسلامي في المدارس. كان الشاه شديد النفور من الإسلام ويعتبره قوة رجعية تعيق بناء إيران جديدة وعصرية. نجم عن هذا النوع من التحديث الذي عمد إليه الشاه تغييرٌ اجتماعي سريع وعدم استقرار متزايد[19]. فقد بقيت الثروة النفطية المكتشفة حديثاً في إيران بأيدي نخبة صغيرة، بينما زادت البطالة في المناطق الريفية، وازداد عدد سكان طهران خمسة أضعاف مع تدفق الفلاحين إلى المدينة بحثاً عن فرص عمل[20].

في العام 1975 ألغى الشاه الانتخابات وأبطل عمل الحزبين السياسيين المستقلّين اسمياً لصالح حزب واحد مخلص لنظام بهلوي، فتلاشت كل أشكال الدعوة إلى الملكية الدستورية. وبقدر ما كانت حركة المعارضة تنمو وتكبر، بقدر ما كانت حالة الاستياء في شوارع طهران، التي كان يغذّيها آلاف الطلاب المتخرّجين حديثاً من الجامعات الغربية، تتفاقم.

كان آية الله الخميني منذ البداية من أشد المعارضين العلنيين لمخطّطات الشاه، وكان رجل دين من مدينة قم. أقلقت انتقادات الخميني القاسية واللاذعة لعلمنة المجتمع الشاه، فأمر في العام 1963 بسجن الخميني البالغ من العمر ستين عاماً، ثم نفاه خارج البلاد في العام التالي. استقر الخميني في مدينة النجف الشيعية المقدسة في العراق حيث استمرّ بالتحريض على سلالة بهلوي «الفاسدة» وضد الولايات المتحدة الداعمة لها. كان الخميني يحظى باحترام وتقدير أعداد كبيرة من الإيرانيين، وكان كلٌّ من العلمانيين والإسلاميين المعارضين للشاه يرون في الخميني شخصية روحانية، إذْ فضّل الخميني البقاء بمنأى عن الخلافات السياسية، فراح يضع النهج السياسي العام تاركاً التفاصيل لمستشاريه الأساسيّين. وقد أخطأ الكثير من المراقبين الغربيين حين اعتبروا أنّ هذا الأسلوب في القيادة يشير إلى أن الخميني ينوي أن يؤدّي دور إمامٍ شيعيّ تقليديّ: أي أن يتمتّع بالنفوذ والقوّة بعيداً عن السياسات الدنيوية. غير أن آية الله الخميني كان يمتلك رؤية واضحة لمستقبل إيران، ولم يكن ذلك باتجاه الديمقراطية الغربية أو الملكية الدستورية. دعا الخميني إلى التطهر من كل المفاسد وإلى أسلمة المجتمع الإيراني. وكان يرى أن التاريخ يؤكّد أنه لا يمكن الوثوق بالعرش الإمبراطوري، ويعتقد بضرورة رحيل النظام الملكي. أراد آية الله الخميني إعادة تشكيل إيران كجمهورية إسلامية جديدة، وأن يحل المسجد محل العرش الإمبراطوري.

بدأت قوة الشاه تنهار في أواخر العام 1977. توفي نجل الخميني الأكبر بنوبةٍ قلبية كما يعتقد، بيد أنه اتّهم الشاه وشرطته السرية «سافاك» بقتل ابنه. وبعد ذلك بوقتٍ قصير نُشر مقال في 7 كانون الثاني/يناير من عام 1978 في صحيفة حكومية يسخرُ من آية الله ويشككُ في مؤهلاته

الدينية وحتى في ميوله الجنسية. فاندلعت أعمال شغب في مدينة قم الدينية، أطلقت الشرطة خلالها النار على عددٍ من المحتجّين؛ وتراوح عدد القتلى وفقاً للتقارير المختلفة من ستة قتلى إلى ثلاثمئة قتيل. بقيت الشوارع هادئة مدة أربعين يوماً بعد هذه الأحداث حداداً على الموتى وفق العُرف الإيراني ولكن ما إن انتهت فترة الحداد، في 18 شباط/فبراير، حتى اندلعت احتجاجات على قتل المحتجّين في كل المدن الإيرانية الكبيرة. تحولت الأحداث في مدينة تبريز إلى أعمال عنف، فأرسلت الحكومة الجيش لقمع الاضطرابات، ما أسفر عن مصرع أكثر من مئة شخص. وتكرّر هذا النمط من الأحداث خلال الأشهر التي تلت، فعقب كل حدث من الأحداث كانت تلي فترةٌ من الحداد ثم اشتباك آخر بين المحتجين وقوات الأمن الحكومية.

تزايدت شدة الهجمات وعنفها، ولاسيما ضد أهداف اعتُبرت غربية ومنحلّة أخلاقياً، مثل محلات بيع الخمور ودور السينما. في أحد الحوادث الأشد ترويعاً قام أنصار الخميني بإضرام النار في سينما ريكس، الواقعة في مبنى تجاري مكون من طابقين في مدينة عبدان المعروفة بمينائها. غمر الدخان الأسود الكثيف العديد من أصحاب المحلات، وانتشرت النار بسرعة لتصل إلى دار السينما. توفي أكثر من أربعمئة شخص، قضى معظمهم حرقاً وكانوا لا يزالون جالسين في مقاعدهم. كثيراً ما يحلّ الشك في وجود مؤامرة محل الواقع في الشرق الأوسط؛ فعلى الرغم من أن الأدلة كانت ضد مؤيدي الخميني، إلا أن شائعةً انتشرت في الشارع الإيراني مفادها أن الحكومة هي التي أضرمت النار لتشويه سمعة المعارضة الدينية[21]. حوّلت هذه الشائعة الكثير من الذين كانوا يقفون على الحياد إلى معارضين للشاه بشكل نهائي وحاسم، وحدّدت بداية نهاية حكمه الذي استمر ربع قرن[22].

وجد الشاه نفسه في موقفٍ صعب، فإن حاول سحق المعارضين فسيواجه غضب الولايات المتحدة بسبب انتهاك حقوق الإنسان، وإن سمح باستمرار الاحتجاجات فإنه بذلك يشجّع المعارضة[23]. إلا أنه لم يقم بأيٍّ من الأمرين، ففي 22 تموز/يوليو اجتمع برئيس «السافاك» لمناقشة السياسة التي يجب اتباعها حيال المتظاهرين، وانتهى الاجتماع بأن أصدر الشاه تعليمات واضحة بوجوب قمع المظاهرات بالقوة، كما أجاز للجيش إطلاق النار[24]. غير أن تعليماته لم تُنفَّذ قط، إذ أبى المجنَّدون الإلزاميّون إطلاق النار على الحشود. وبعد أقل من شهر، في 19 آب/أغسطس، غيّر الشاه طريقة تعامله مع المحتجّين وأفرج عن 711 سجيناً سياسياً، انضم معظمهم على الفور إلى الاحتجاجات في الشوارع[25]. أوجزت مذكرة صادرة عن مدير مكتب وكالة الاستخبارات المركزية في الشرق الأدنى، المسؤول عن إيران، رأياً حول الصعوبات التي تواجه العاهل الإيراني جاء فيها: «أطلقت مساعي الشاه لتحديث إيران العنان لردود أفعال قوية غير متوقعة لم يجرِ احتواؤها بالأحكام العرفية أو بتقديم التنازلات التدريجية للمعارضة»[26].

أمرت الحكومة العراقية الخميني بمغادرة العراق جرّاء إلحاح الحكومة الإيرانية وربما لتدارك حدوث انتفاضة مماثلة بين أفراد شعبها ذي الغالبية الشيعية، في محاولة يائسة منها لعزل الخميني عن الجماهير الإيرانية[27]. وكان الخميني قد طلب في البداية اللجوء إلى الكويت، ولكن أمير

الكويت رفض إدخاله عند الحدود، وكان هذا الرفض لحسن حظه. فقد نصحه مستشاره المقرّب إبراهيم يزدي أن يجد له ملجأً في بلدٍ ديمقراطي. رأى يزدي، الذي عاش فترة طويلة في الولايات المتحدة، أن الصحافة الحرة من شأنها أن تسهّل انتشار رسالة الخميني. فانتقل آية الله الخميني إلى منزل في نوفل لو شاتو (Neauphle-le-Château) في ضواحي باريس، حيث تحرّر من قيود البعث العراقي، ووجد متنفّساً أكثر حريةً في الصحافة الغربية المتعاطفة مع لغته الخطابية الثورية. وقد أجرت الصحافة في الأشهر القليلة الأولى من إقامته أكثر من 450 مقابلة صحفية معه كجزء من حملة إعلامية ماهرة ضد الشاه[28].

توسّع نطاق الاحتجاجات وراح أنصار الخميني يُهرِّبون إلى داخل إيران شرائط كاسيت تحمل تسجيلات لأحاديث الخميني، وانضمّ التكنوقراط والإصلاحيون الديمقراطيون والشيوعيون والتجار الساخطون جميعهم إلى الاحتجاجات المتنامية، وأضرب عمال النفط، وبلغ العنف أشدَّه في أوائل كانون الأول/ديسمبر عندما خرج مئات الآلاف من المتظاهرين إلى الشوارع. وفي الوقت نفسه، وافق الخميني على إرسال فرق صغيرة من مؤيديه إلى العراق وسوريا ولبنان ليتدرّبوا على حرب العصابات من أجل خوض العصيان الطويل الذي يترقّب الخميني شنَّه ضد منافسه من أجل السيطرة على إيران[29].

فاجأت الاضطرابات التي واجهها الشاه الرسميين في واشنطن. في البداية، لم تأخذ الحكومة الأميركية الجانب الديني للمعارضة بعين الاعتبار. وأشار هنري بريشت، مسؤول مكتب إيران في وزارة الخارجية الأميركية، قائلاً: «لم يسبق أن اندلعت ثورة إسلامية على الإطلاق»[30]. ومع أن السفارة الأميركية في طهران هي خامس أكبر سفارة أميركية في العالم، لم يدرك إلّا قلّة من الدبلوماسيين الأميركيين مشاعر المعارضين في الشارع. فقد كان الشاه يسيطر بشكل فعّال على المعلومات المتاحة للدبلوماسيين، ولم تشجّع وزارة الخارجية الدبلوماسيين على الخروج والتحدث إلى المعارضين، ولاسيما الزعماء الدينيين. قال أحد الضباط السياسيين متذكّراً تلك الفترة: «أشكُّ فيما إذا كان أحدٌ في السفارة قد عرف مُلّا»[31].

لقد خصّصت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية موارد ضخمة للتجسّس على الاتحاد السوفيتي وتعقُّب الشيوعيين داخل إيران، غير أنها لم تركِّز جهودها في جمع المعلومات الاستخبارية على تجنيد جواسيس داخل إيران. قال أحد العملاء المتقاعدين من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية ساخراً: «كان لدينا بوليس الشاه السري، السافاك، ينقل إلينا ما يحدث»[32]. تعاونت وكالتا المخابرات الإيرانية والأميركية بالفعل لتعقُّب منظمة مجاهدي خلق الإيرانية، وتُعرف أيضاً باسم منظمة مجاهدي الشعب الإيراني، وهي جماعة هجينة يسارية إسلامية قامت بسلسلة أعمال قتل إرهابية ضد أميركيين في إيران، من بينها استهداف العميد هارولد برايس من سلاح الجو الأميركي وتعرضه لإصابات خطيرة في أحد الانفجارات الأولى التي استخدمت فيها عبوات ناسفة يدوية الصنع في منطقة الشرق الأوسط. وضعت وكالة الاستخبارات المركزية

دراساتٍ عن السيرَ الذاتية للقادة العسكريين والمدنيين الإيرانيين المهمّين[33]، بيد أنها كرّست الجزء الأكبر من جهودها لمواجهة النفوذ السوفيتي في المنطقة[34]. ذكرت وكالة التجسس في التقويم الذاتي لجهودها عن عام 1976 أن التقارير التي تقدمها البعثة حول معظم المواضيع مُرْضية للغاية بشكل عام[35]».

ارتكب المجتمع الاستخباراتي الأميركي خطأً هائلاً عندما لم يدرس الشاه نفسه. في العام 1974 سافر الطبيب الفرنسي الشهير المختص بأمراض الدم جان برنار سراً إلى إيران لمعالجة العاهل الإيراني الذي كان يعاني من تضخّم بالطحال. شخّص الدكتور برنار المشكلة كحالة خطيرة من سرطان الدم الكروي اللمفاوي المزمن ومرض والدنستورم المتمثّل بوجود الغلوبُلين الكبروي في الدم[36]. مع ذلك، رفض الشاه بشدة الخضوع لاختبارات إضافية أو البدء في علاج السرطان خوفاً من تسرّب خبر مرضه. وظل مرضه خافياً عن واشنطن بالرغم من انتشار شائعات عن اعتلال صحته في طهران. جعل السرطان الشاه فاتر الهمة على نحوٍ متزايدٍ ومنطوياً على نفسه. غير أن واشنطن واصلت دعمها له غير مدركة أن الرجل الذي تعتمد عليه أميركا لحماية نفط الخليج العربي كان يحتضر.

قسّمت الاضطرابات في إيران إدارة كارتر وفق خطوط معروفة. فمن ناحية أراد بريجينسكي من الشاه أن يستخدم القوة لسحق المقاومة، واعتقد أنه يتوجّب على الولايات المتحدة أن تعبّر عن دعمها التام للشاه، فدعا إلى إيفاد حاملة طائرات الى خليج عُمان لإظهار الدعم. ومن ناحية ثانية حذّر وزير الخارجية سايروس فانس من أن الإيرانيين قد يفسّرون تحركات القوات الأميركية في المنطقة على أنها تمهيد للغزو، في حين وجب على الولايات المتحدة مساعدة إيران كي تنتقل من الأوتوقراطية إلى الديمقراطية.

كما وتخبّطت أفكار الرئيس الأميركي نفسه، ففي الوقت الذي تعاطف فيه، في قرارة نفسه، مع الإصلاحات الديمقراطية التي يطالب بها معارضو الشاه، اعترف بالضربة الاستراتيجية الخطيرة التي ستتعرّض لها الولايات المتحدة في حال إطاحة الشاه. وظلّ منزعجاً من سجل الشاه السيئ في ما يتعلّق بحقوق الإنسان، فكثيراً ما كان المعارضون السياسيّون يتعرّضون للسجن والتعذيب. ولكن، من ناحية ثانية، أيّد العاهل الإيراني باستمرار كلّاً من إسرائيل واتفاقيات كامب ديفيد المبرمة بين إسرائيل ومصر برعاية كارتر والموقّعة في أيلول/سبتمبر من عام 1978، وقد أسهم عرض الشاه الإيراني حينذاك تأمين متطلبات إسرائيل من الوقود في موافقة هذه الأخيرة على الانسحاب من سيناء والتخلي عن سيطرتها على حقول النفط في «أبو رديس» غرب سيناء.

وافق كارتر على إرسال حاملة طائرات لترسو قبالة الساحل الإيراني لإظهار العزيمة الأميركية، كما أرسل مبعوثه اللبق، نائب وزير الدفاع، وارن كريستوفر، الذي عمل فيما بعد وزيراً للخارجية في عهد الرئيس بيل كلينتون بين عامي (1993- 1997)، ليقابل السفير الإيراني في واشنطن ويبلغه دعم الرئيس كارتر غير المشروط للشاه[37]. وبعد أسبوع كتب الرئيس كارتر رسالةً

موجزة بخطّ يده إلى الشاه قال فيها: «اسمحوا لي مرةً أخرى أن أعرِب عن أطيب تمنياتي لكم وأنتم تواصلون جهودكم الناجحة من أجل الإصلاحات الاجتماعية والسياسية المفيدة لإيران»[38].

كان السفير الأميركي في طهران وليام سوليفان عضواً متمرّساً في السلك الدبلوماسي، وكان يتميّز بحسن الذوق وأناقة الملبس فضلاً عن شعرٍ كثٍّ أشيب. شغل سوليفان في السابق منصب السفير مرتين، إحداهما في لاوس في أوج الحرب الفيتنامية، ولم يكن غريباً عن الوجه القذر للسياسة الخارجية، فقد دعم في لاوس الحرب السرية التي كانت تقودها وكالة الاستخبارات المركزية ضد الفيتناميين الشماليين.

حاول سوليفان إثارة مسألة فتح حوار مع الخميني، وعندما قال له الشاه ذات مرة إنّ أنصار الخميني «نشطاء شيوعيّون سرّيون»، رفض الفكرة رفضاً قاطعاً. وكان يرى بالمقابل أن تأثير الإسلام الشيعي أقوى من أي أيديولوجية فرضها الغرب، وخصوصاً الشيوعيّون العلمانيون[39]. واعتبر أن أنصار الخميني يمسكون بالسلطة الحقيقية خلف حركة المعارضة، وأنهم بمثابة متراس طبيعي ضد الجماعات الشيوعية. ولاحظ أن أي حكومة ستأتي بعد الشاه سوف تحتاج إلى دعم الخميني لتسهيل نقل السلطة بصورة شرعية إلى حكومة ديمقراطية جديدة، وأنه كلما عجّلت واشنطن بالاعتراف بذلك كان أفضل لمكانة أميركا في إيران المستقبل[40].

رفض بريجينسكي آراء سوليفان بشأن الوضع في طهران وأخبره أن الأمر ليس خياراً بين الشاه والديمقراطية، فإذا سقط الشاه سيدفع الخميني لا محالة بنظام الحكم الجديد باتجاه الثيوقراطية. بدأ مستشار الأمن القومي محادثات سرية من وراء سوليفان مع بعض المتشددين داخل الحكومة الإيرانية، حول إمكانية تولّي الجيش السلطة[41]. وفي 28 تشرين الأول/أكتوبر 1978 عُقد اجتماع في البيت الأبيض مع مدير وكالة الاستخبارات المركزية ستانسفيلد تيرنر، طلب فيه بريجينسكي من الوكالة النظر في تقديم معلومات يمكن استخدامها لإضعاف المعارضة وتعزيز مكانة الشاه. وافق تيرنر، لكنه حذّر بريجينسكي من أن العديد من أعضاء الكونغرس يرون أنّ الشاه ليس ديمقراطياً البتّة بحيث أنهم لن يتساهلوا بشأن برنامج سري يهدف إلى إبقائه في السلطة[42].

ردّ تيرنر بعد بضعة أيام، أنّ بوسع وكالة الاستخبارات المركزية المساعدة على إبقاء الشاه في السلطة على المدى القصير، ما قد يوفر متنفّساً للحكومة الإيرانية. ولكنه رأى أن ثمّة حاجة إلى أن يستخدم الشاه «أقصى القوة» من أجل ضمان نجاح هذه الاستراتيجية. حذّر المحلّلون في وكالة الاستخبارات المركزية من أنّ ذلك لن يحلّ مشاكل الشاه على المدى الطويل، وأن عليه التحرّك بمزيد من السرعة لتشكيل حكومة مدنية منتخبة ديمقراطياً[43].

لم تردع كل تلك التحذيرات بريجينسكي، فسأل سوليفان عن احتمالات نجاح استيلاء الجيش على السلطة في حال كان الشاه على استعداد لاستخدام أقصى درجات القوة لسحق المعارضة. رد سوليفان، في سلسلة كثيفة من المحادثات الهاتفية الآمنة، بأنّ الانقلاب العسكري قد

يكون ممكناً، ولكن مع كل يوم يمرّ تنخفض فرص التوصل إلى نتائج ناجحة. والأهم من ذلك، بحسب سوليفان، هو أن التكلفة التي ستتحملها المصالح الأميركية على المدى الطويل ستكون باهظة جداً، وأنّ الخسائر في الأرواح ستكون كبيرة، الأمر الذي من شأنه أن يعرقل أي إمكانية لدفع البلاد باتجاه الديمقراطية. أثار سوليفان مرةً أخرى فكرة إقامة اتصالات مع المعارضة، لكن مستشار الأمن القومي رفضها رفضاً قاطعاً. على مرّ الأيام التالية، ازدادت سخونة التبادلات في الآراء بين الرجلَين حول هذه القضية، وكثيراً ما كانا يصيحان الواحد في وجه الآخر، وكانت جدالاتهما تُسمع بوضوح في الغرف المجاورة[44].

في 8 أيلول/سبتمبر 1978، انطلقت حشود ضخمة من المتظاهرين، الذين لم يكن يعلم معظمهم أن الشاه قد أعلن الأحكام العرفية في اليوم السابق، وتجمّعت في ساحة جاله في طهران. عندما تحرّك الجيش تحولت المظاهرة إلى احتجاجات عنيفة فأطلق الجنود المتوتّرون النار على المتظاهرين. وعلى الرغم من أن العدد الحقيقي للقتلى من المدنيين الإيرانيين لم يتجاوز المئة، انتشر خبر بسرعة في الشوارع عن وقوع آلاف الجرحى من المتظاهرين السلميّين، بينهم العديد من النساء. يُعرف هذا اليوم حالياً في إيران بيوم الجمعة السوداء. روّعت المذبحة كلّاً من الشاه والمتظاهرين، وجعلت هؤلاء الأخيرين يبهتون ويعيدون التفكير في تصرفاتهم. ولكن، مثلما لاحظ المحلل في وكالة الاستخبارات الأميركية والمؤرّخ العسكري المتخصّص بالشؤون الإيرانية ستيفن وارد، «أساءت الحكومة التصرّف في ما كان ربّما إحدى أفضل الفرص المتاحة لها لاستعادة السيطرة»[45]. في الوقت الذي كانت فيه المعارضة تترنّح، اختار الشاه المصالحة، فعزل مسؤولين أمنيين، وأفرج عن المعتقلين المعارضين وزجّ مكانهم في السجن ببعض عملاء السافاك التابعين له، وأمر الجيش بإطلاق النار فوق رؤوس الحشود. وبدلاً من أن تسترضي تصرفات الشاه الثوار جعلتهم أكثر جرأةً إذ بدا لهم ضعيفاً ومتردداً.

بعد مرور بضعة أيام على أحداث يوم الجمعة السوداء اتصل الرئيس كارتر بالشاه وأكّد له استمرار الدعم الأميركي، فضلاً عن أهمية الليبرالية في إيران. نشر الشاه الحديث حرفياً في الصحف كمؤشر للدعم الأميركي، غير أن فعلته أتت بنتائج غير مرجوة. فبالنسبة إلى الشعب الإيراني، ظهر ذلك كما لو أن الولايات المتحدة تدعم الحكومة التي أطلقت النار على عشرات الآلاف من المدنيين العزّل في ساحة جاله، فتأجّجت روح الشعب بالكراهية للشاه وللمؤيّد الرئيس له في واشنطن[46].

لأجل الحصول على فكرة أفضل عما كان يجري في شوارع طهران في أوائل تشرين الثاني/نوفمبر 1978، وصل ستانلي أسكوديرو إلى طهران. وأسكوديرو دبلوماسي من أصول مكسيكية من مدينة دايتونا في فلوريدا، كان يبلغ من العمر حينها خمسة وثلاثين عاماً ويجيد اللغة الفارسية، وكان قد خدم قبل ذلك بوقتٍ قصير أربع سنوات في السفارة الأميركية في طهران. بشعره الأسود وبشرته الداكنة، كان من السهل أن يبدو واحداً من أهل البلد- ربما ليس من طهران، مثلما اعترف هو بنفسه، ولكن من منطقة بعيدة عن المركز مثل آذربيجان. لم تكن مهمته السابقة في إيران

في أوائل السبعينيات ناجحة جداً بحيث تُعزِّز تقدمه في حياته المهنية. فقد أغضب أسكوديرو رؤساءه في وزارة الخارجية في «فوجي بوتّوم» جرّاء تشكيكه في قدرة أسرة بهلوي الحاكمة على البقاء في السلطة على المدى الطويل. وعلى الرغم من أنه لم يتوقع الصعوبات الحالية التي يواجهها الشاه، إلا أنه شكّك صراحةً في قابلية دوام حكم نجل الشاه. لم يكن تقييمه للوضع هو ما أراد أن يسمعه هنري كيسنجر أو وزارة الخارجية. لقد فاقم أسكوديرو أخطاءه في الخروج عن تحفّظات السياسة التي كانت تتبعها وزارة الخارجية بلقائه المتكرّر بمعارضي الشاه، ولاسيما الزعماء الدينيّين. قال في وقت لاحق: «إن إيران مهمة جداً للولايات المتحدة، واعتقدتُ أنّ من الأفضل لنا أن نقيم علاقات مع أي جهة تحكم إيران أيّاً تكن، سواء كان الشاه أم كانت المعارضة. ولكن هذا الاعتقاد لم يحظَ بالتأييد اللازم في واشنطن»[47]، فأُبعد أسكوديرو عن الواجهة ونُقل للعمل في مكتب شؤون المنظمات الدولية في وزارة الخارجية، وبدا عندئذٍ أن حياةً مهنية باهتة في انتظاره. بيد أن متاعب الشاه أعادت إحياء مكانة أسكوديرو. ففي خريف عام 1978 سأله كلٌّ من نائب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى هارولد سوندرز والمسؤول عن مكتب إيران هنري بريشت فيما إذا كان مستعداً للعودة إلى طهران لتقييم وضع المعارضة واحتمالات بقاء الشاه في الحكم.

أجاب أسكوديرو ممتعضاً: «تريدون مني أن أذهب وأجتمع بالأشخاص أنفسهم الذين أوقعوني أصلاً في المتاعب، وأخبركم أشياءً تعرفون أنها لا تتناسب مع السياسة الحالية؟».

اعترف سوندرز وبريشت لأسكوديرو أنه كان محقّاً في توقعاته بشأن الشاه، وأضافا قائلين: «ليس لدينا أي شخص آخر نرسله يمتلك فرصة معقولة للنجاة». قَبِل أسكوديرو عرضهما. قال بعد ذلك بسنوات ضاحكاً من الموضوع: «كنت شاباً ومغفّلاً»[48].

ما أن وصل أسكوديرو إلى طهران حتى بدأ بالتشبّه بالسكّان المحليين ساعياً للتسلّل إلى داخل الثورة، فارتدى ملابس إيرانية وقصّ لحيته في شكل شائع لدى عموم الرجال الإيرانيين، ونأى بنفسه عن السفارة كي لا يُكشَف أمره، فكان يأتي إليها في الظلام فقط لكي يزوّد السفير سوليفان بكل جديد، وأقام في شقق أصدقاء إيرانيين موثوق بهم، وكثيراً ما كان يغير سكنه حرصاً على سلامته وسلامتهم.

سافر أسكوديرو إلى قم والتقى آية الله سيد شريعتمداري المعارض للشاه ولكن الأقل تطرفاً من الخميني والأكثر ودّاً حيال الولايات المتحدة. تظاهر أسكوديرو بأنه صحفي والتقى زعماء دينيّين ينتمون إلى معسكر الخميني ليفهم وجهات نظرهم عن الثورة، وهي آراء أكّدت وجهة نظر بريجينسكي حول النوايا الحقيقية للخميني وحدْس سوليفان بشأن أهمية آية الله في مستقبل إيران[49]. اكتشف أسكوديرو أن القيادة الدينية أدّت دوراً بارزاً في تصاعد المظاهرات المناهضة للحكومة، لاحظ أن «المظاهرات نُظِّمت بصورة جيدة». لقد نظّم القيّمون على المظاهرات الحشود، وقد وضع كلٌّ منهم شريطاً مميّزاً على ذراعه، وضبطوا الهتافات، وأبقوا الجماهير موحّدة. تألّفت الحشود من خليط من جميع المنتقدين للشاه، غير أن الحركة الإسلامية كانت الأكثر تنظيماً والأفضل تمويلاً.

لعب أنصار الخميني، أمثال محمد بهشتي الذي كان ممثل الخميني في مدينة هامبورغ الألمانية ويتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة[50] دوراً محورياً في تنظيم الاحتجاجات.

تنكّر أسكوديرو بزيّ طالب وتسلّل بين الجموع المناهضة للشاه حيث اختلط بآلاف المتظاهرين الآخرين الذين كانوا يهتفون «الموت للشاه! الموت للشاه!» ورفع قبضة يده في إشارة للتحدي عندما انضمّ إلى الحشود التي تصدّت للجيش الإمبراطوري. انطوت مهمّته على خطرٍ بالغ، فإذا اكتشف الطلاب أو رجال الدين مسؤولاً في الخارجية الأميركية في وسطهم، فسيكون الانتقام سريعاً وقاتلاً.

سرعان ما أصبح واضحاً لأسكوديرو أن أيام الشاه باتت معدودة. وقد عزّزت تقاريره رأي سوليفان في حتمية إطاحة الشاه. ففي العديد من البرقيات المرسلة إلى كلٍّ من فانس وبريجينسكي كتب السفير الأميركي أن الحل الوحيد المتاح هو الضغط من أجل تشكيل حكومة ديمقراطية قبل أن تخرج الثورة عن نطاق السيطرة ويصبح من المستحيل إنقاذ أي شيء من الكارثة التي تلوح في الأفق[51].

في 12 كانون الأول/ديسمبر 1978، رفع الدبلوماسي المخضرم الخبير بالشرق الأوسط جورج بال تقريراً عن إيران للرئيس دعم فيه تقارير أسكوديرو. عمل جورج بال في قضايا الشرق الأوسط في إدارتي الرئيسين نيكسون وكارتر، وكان له دور فاعل في مساعدة نيكسون على تطوير استراتيجية «الركيزتين التوأمين». كرّر بال وجهة نظر سوليفان وقال صراحةً إن الشاه بحاجة إلى العمل فوراً لتحقيق الانتقال إلى حكومة مدنيّة ونقل كل السلطات، باستثناء منصب القائد العام للقوات المسلحة، وإلاّ «سوف ينهار»، وفق توقعات بال[52].

وافق كارتر على مضض على أول عملية سرية له من أجل إيران في محاولة أخيرة لإنقاذ الشاه. كان الرئيس شديد النفور من مثل هذه الأعمال، لكنه اقتنع أخيراً بمحاولة القيام بعمل محدود. بدأت وكالة الاستخبارات المركزية حملة عمليات نفسية محدودة جداً لتسليط الضوء على دعم حزب «توده» الشيوعي الإيراني لعودة الخميني، في محاولة يائسة لحشد مناهضي الشيوعية لدعم الشاه وتقويض حركة المعارضة. فشلت المحاولة وأنهتها وكالة الاستخبارات المركزية بعد أكثر من شهر بقليل على بدايتها[53]. بينما كان المحتجّون الإيرانيّون يتّهمون السفارة الأميركية بأنها «وكرُ جواسيس»، كتب أحد كبار موظفي البيت الأبيض إلى مستشار كارتر للأمن القومي زبيغنيو بريجينسكي قائلاً: «من المثير للسخرية أن نُتّهم بالتجسّس على هذا النطاق الواسع انطلاقاً من سفارتنا في طهران في حين أننا لم نفعل شيئاً يُذكر»[54].

مع اقتراب يوم عيد الميلاد سنة 1978، ساد التشاؤم في كلا العاصمتين واشنطن وطهران. وقد أمر الرئيس كارتر، كصورة رمزية، بإطفاء أضواء شجرة عيد الميلاد الوطنية المنصوبة في الباحة الإهليلجية خلف البيت الأبيض لتوفير الكهرباء. وكتب سوليفان أنّ ترتيلة العيد الوحيدة التي

سُمعت في السفارة الأميركية في طهران ردّدها «حشدٌ ضئيل نوعاً ما من المراهقين، الذين مرّوا أمام السفارة هاتفين «Yankee Go Home» أي «أيها الأميركي، عد إلى ديارك»»[55].

في 4 كانون الثاني/يناير 1979، وصل الجنرال دتش هايزر إلى العاصمة الإيرانية، فصُدم، وهو يقود سيارته عبر طهران، لما آلت إليه هذه المدينة النابضة بالحياة، فالمتاجر كانت مغلقة والشوارع المعتادة على الازدحام وحركة السير الفوضوية متوقفة.

أصرّ هايزر القلِق على أن يزوّده الوزير براون بتعلّيمات خطية في ضوء اعتراضات ألكسندر هيغ الصريحة على مهمته. وعندما وصلت الرسالة قبل مغادرته إلى طهران مباشرةً، كانت التوجيهات غامضة ومشوّشة بقدر سياسة الولايات المتحدة تجاه الأزمة. طُلب من هايزر أن ينقل إلى الشاه دعم الرئيس الأميركي المستمر للجيش الإيراني باعتباره الوسيلة الحاسمة للانتقال إلى حكومة مستقرة جديدة: «من المهم للغاية أن يقوم الجيش الإيراني بكلِّ ما في وسعه ليبقى قوياً وسليماً من أجل مساعدة حكومة مدنية مسؤولة على القيام بوظيفتها بشكل فعّال»، وفق ما ورد في التعليمات. «وأثناء مرور الجيش الإيراني بهذه الفترة الانتقالية، ينبغي أن يعلم أن الجيش الأميركي والحكومة الأميركية، من الرئيس نزولاً، يقفان خلفه بقوة»[56]. ظلّ ما نقلته هذه الرسالة بالضبط إلى القوات الإيرانية المسلحة لغزاً محيِّراً بالنسبة لهايزر. كان فانس يقصد من ذلك إبلاغ القادة العسكريين الإيرانيين أن الولايات المتحدة تدعم عملية الانتقال إلى حكومة ديمقراطية. من ناحية ثانية، أراد بريجينسكي من هايزر إعطاء الضوء الأخضر للجيش الإيراني للقيام بانقلاب وإعلان الأحكام العرفية والاستيلاء على السلطة. مثّلت اللغة المشوّشة للتعليمات التي أُعطيت لهايزر حلاً وسطاً بين الموقفين المتنافسين، لكنها أوقعت كلاً من الرسول والجمهور المستهدف في حالة من الارتباك بكل ما للكلمة من معنى.

وصل هايزر إلى السفارة للقاء السفير سوليفان، وكان اللقاء الأول من لقاءات عديدة جرت خلال الشهر التالي. قال السفير فجأةً لهايزر: «لقد انتهى الشاه، وانحطّ الجيش حتى أنه أصبح غير قادر على عمل أي شيء». قد يكون آية الله الخميني وحكومة إسلامية أفضل من انقلاب عسكري، وكلّما عجّلت الولايات المتحدة في البدء بإصلاح علاقتها مع رجل الدين القوي كان ذلك أفضل لها على المدى الطويل. ولكن كارتر كان قد حظّر أي محادثات مع الخميني على أساس أنها قد تقوّض سلطة الشاه الضعيفة. ورداً على ذلك أرسل سوليفان رسالةً شديدة اللهجة إلى فانس حثّه فيها على القيام بمحادثات مباشرة مع الخميني. «ينبغي أن تعلموا أن الرئيس ارتكب خطأً كبيراً قد يكون من المتعذّر تصحيحه بإحجامه عن إرسال مبعوث إلى باريس لمقابلة الخميني. لا أستطيع أن أفهم الأساس المنطقي لهذا القرار المؤسف. أحثّكم على الانضمام فوراً إلى هارولد براون في هذا النداء كي يتوقف الجنون!»[57].

في صباح اليوم التالي، الموافق لـ 11 كانون الثاني/يناير، غادر هايزر وسوليفان السفارة، وتوجّها عبر المدينة إلى قصر الشاه الرحب لتسليم رسالة الرئيس الداعمة ومناقشة الاحتمالات

المستقبلية في ما يتعلّق بالزعيم الإيراني. وجد الرجلان الشاه منهكاً وهزيلاً، ويرتدي ملابس داكنة على نحوٍ غير معهود بدلاً من الزي العسكري الذي لم يلبس سواه منذ بداية الأزمة. بدا من الواضح أنه مريض، ولم يُظهر أي حيوية أو قوة توحي بثقته في بقائه السياسي على المدى الطويل.

بعد برهة من الحديث في أشياء متفرّقة أثار الشاه احتمال مغادرة إيران في «عطلة طويلة»، وأعرب عن أمله في أن يساعد ذلك على تهدئة الشارع، وكان لا يزال يحلم على ما يبدو في العودة إلى عرشه بعد أن تهدأ الأمور. وسأل: «متى ينبغي أن أذهب؟»

رد سوليفان فوراً: «في أقرب وقت ممكن، ربما يكون ذلك أفضل لجميع الأطراف المعنيّة»، فوافق الشاه.

في ختام الاجتماع ذَكّرَ الجنرال هايزر الشاه بمحادثة جرت بينهما منذ خمسة أشهر فقط، في بداية المتاعب التي يواجهها الشاه. وكان هذا الأخير أكّد بشكل قاطع أن قائد سلاح الجو لن يفقد السيطرة على السلطة. فسأل هايزر: «ماذا حدث يا صاحب الجلالة؟»

فكّر محمد رضا بصمت لبعض الوقت، وهو يحملق مغضَباً في سوليفان من خلال نظّارته السميكة، ثم قال: «إن قائدك الأعلى يختلف عنّي. أنا قائد أعلى يلبس فعلياً الزي العسكري، ولكي أصدر الأوامر اللازمة في هذه الحالة...» توقف عن الكلام ثم استأنف قائلاً: «هل يمكنك كقائدٍ أعلى للقوات المسلحة أن تأمر بقتل شعبك؟»[58].

في 16 كانون الثاني/يناير 1979 غادر الشاه إيران إلى مصر في «عطلته الطويلة»، ولم يعد بعد ذلك إلى إيران. احتفل مئات الآلاف من الإيرانيين المبتهجين حتى حلول الظلام. مشى هايزر في السفارة المظلمة إلى الغرفة الآمنة من أجل حديثه المسائي مع واشنطن، وكان كل شيء هادئاً للغاية، ولكنه أحسّ بوجود «شعور مختلف في الجو».

التقى الجنرال هايزر القادة العسكريين الإيرانيين مراراً خلال الشهر التالي، وساعد في تطوير سلسلة من الخيارات العسكرية للحفاظ على النظام وضمان الانتقال السلس للسلطة. كان الخيار الأكثر تطرفاً هو الخيار (سي) - انقلاب عسكري يهدف إلى قمع أي إضراب وأي مقاومة واستعادة السيطرة على البلاد. عندما أوجز هايزر هذا الخيار العسكري في مكالمة هاتفية آمنة مشتركة مع بريجينسكي وبراون، انحاز مستشار الأمن القومي بريجينسكي بقوّة الى هذا الخيار الذي ينسجم مع دعمه المُعلن منذ وقتٍ طويل للقيام بانقلاب عسكري بغية الحفاظ على حكومة مؤيدة للولايات المتحدة، وشدّد قائلاً: «ينبغي إبقاء خيار الانقلاب مطروحاً على الطاولة»، وسأل: «هل بوسع الجيش تنفيذ ذلك؟»

أجاب الجنرال هايزر: «نعم، إذا استمر بالحفاظ على تماسكه».

على أي حال ظلّت مسألة إطلاق النار على المعارضة من قبل الجيش قيد البحث، نظراً إلى أن المجنّدين الإلزاميين، مثلما أثبتت التجربة، لا يحتملون قتل مواطنيهم الإيرانيين. فضلاً عن

ذلك، كان الشاه يسيطر على القيادة العسكرية بإحكام، ولم يكافئ القادة العسكريين الذين أبدوا قدراً كبيراً من المبادرة.

عاد آية الله الخميني إلى طهران في 1 شباط/فبراير على متن طائرة نفّاثة، وخرج نحو خمسة ملايين شخص إلى الشوارع للترحيب به. وبتحفيز من هايزر أمّن الجيش الإيراني للخميني الحماية والمرافقين وأيضاً طائرة مروحية ليتنقل في أرجاء المدينة. كان مشهداً غريباً عندما أمرت قيادة الشاه العسكرية بحرس الشرف والحماية للرجل الذي كانوا يكرهونه جميعاً.

ليلة 9 شباط/فبراير أعاد التلفزيون الإيراني الإيراني بثّ شريط عودة الخميني، ما حرّض مجموعة من الضباط الفنيين من ذوي الرتب المتدنية، يطلق عليهم اسم هُمَافران (ما يوازي ضبّاط صف في الجيش الأميركي)، للاحتجاج علناً ضد الشاه في قاعدة جوية تقع في شرق طهران وتضم مركز قيادة سلاح الجو الإيراني. اشتبك الهُمَافران مع كتيبة من وحدة النخبة التابعة للشاه والمسماة «الخالدون». وفي صباح اليوم التالي شق الهُمَافران طريقهم بالقوة إلى مستودع أسلحة وبدأوا بتوزيعها على المنشقيّن العسكريين الآخرين واليساريين المتعاطفين معهم، وسرعان ما اندلعت اشتباكات ضارية بين المتمردين والجيش الإيراني في جميع أنحاء المدينة. بلغت الأحداث ذروتها في سلسلة من الهجمات الدراماتيكية وقعت في 11 شباط/فبراير، وهو اليوم الذي لا يزال يُحتفل به في إيران كعيد وطني يُطلق عليه اسم عيد انتصار الثورة الإسلامية. ففي ذلك اليوم اقتحمت الحشود هيئة الأركان العليا -النسخة الإيرانية عن البنتاغون- فتمرّد الجنود وأطلقوا النار على قائد أركان الجيش خارج مبنى مركز قيادته وأردوه قتيلاً. في نهاية اليوم كانت بقايا النظام القديم قد أزيلت كلياً، وزُجّ بكل القيادة العسكرية الإيرانية العليا تقريباً في السجن[59].

بعد أسبوع، وبعد عودته إلى شتوتغارت، كان هايزر يتحدّث إلى هيغ حول خطط تقاعد هذا الأخير عندما قطع مساعد عسكري المحادثة للإبلاغ عن مكالمة هاتفية مهمة من واشنطن. رفع كلٌّ من هيغ وهايزر سماعة هاتف؛ في الطرف الآخر كان هناك نائب وزير الدفاع تشارلز دنكان وبريجينسكي ورئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال جونز، وكانوا قد خرجوا لتوّهم من اجتماع في البيت الأبيض اتّخذ فيه أخيراً قرار جعل القيادة الأوروبية تضع الخطط لتدخّلٍ عسكري في إيران. وقبل أن يتّخذ الرئيس قراراً يتعلق بتنفيذ مثل هذه العملية، كانت الفرقة المجوقلة 82 من الجيش الأميركي من قاعدة فورت براغ العسكرية قد وُضعت في حالة تأهب. سأل جونز الجنرال هايزر فيما إذا كان على استعداد للعودة إلى طهران وقيادة انقلاب عسكري.

تساءل هايزر في سرّه مشكّكاً في الأمر: «لماذا لم يسأل هذا السؤال عندما كنت في طهران وكان الجيش الإيراني لا يزال سليماً؟»

قال هايزر وهو يكتم غضبه المتزايد: «سيدي، سوف أفكر في القيام بذلك لكنّ العملية ستحتاج إلى تمويل غير محدود، كما وسأحتاج إلى انتقاء عشرة إلى اثني عشرة جنرالاً أميركياً، وإلى عشرة آلاف من أفضل الجنود الأميركيين، لأنه ليست لديّ أي فكرة حالياً عن عدد القوات

الإيرانية التي يمكنني الاعتماد عليها. وأخيراً، يجب أن أحظى بدعم وطني كامل». ساد الصمت في الطرف الآخر من الهاتف.

بعد وقفة طويلة استأنف هايزر قائلاً: «لا أعتقد أن الأشخاص الذين أتحدث إليهم مستعدون لهذا النوع من العمل، ولا أعتقد أن الشعب الأميركي سيدعمه. الجواب واضح: العملية غير قابلة للتطبيق».

طرح بريجينسكي بضعة أسئلة روتينية، وسأل جونز هيغ إن كان لديه أي تعليق. أجاب هيغ بشكل مقتضَب «كّلا». انتهت المحادثة وانتهى معها أي حديث عن انقلاب أو تدخل عسكري أميركي.

في الوقت الذي أرادت فيه الجمهورية الإسلامية الجديدة الإبقاء على الضباط الكفوئين لإدارة الجيش، سارعت الحكومة لتطهير القوات المسلحة الإيرانية من مؤيدي حكم الشاه المتشدّدين. كان أحد هؤلاء القائد سعيد زنكنه، وهو رجل متوسط القامة أصلع لكنه ذو شخصية مميزة وتأثير قوي. انضم زنكنه إلى البحرية الإيرانية الإمبراطورية في العام 1964م[60]. ففي العام 1977، أي قبل اندلاع الثورة بسنتين، أصبح زنكنه القائد العام للأسطول الإيراني الجديد المؤلّف من حاملات صواريخ فرنسية الصنع، زُوِّدت كل منها بصواريخ هاربون الأميركية المتطورة المضادة للسفن، والقادرة على استهداف سفينة وضربها من على بعد ستين ميلاً بحرياً[61].

بعد الثورة، تلقّى زنكنه أمراً لحضور اجتماع إلزامي مع رجل دين بارز. قال رجل الدين أمام الضباط الحضور: «في قلوبكم جميعاً ملكٌ صغير، وعلينا أن نجتثّه». مع أنه لم يقل هذا الكلام بلهجة الوعيد، إلّا أن نيّته كانت واضحة.

كان زنكنه، المسلم ذو التوجه العلماني، قد أيّد بشدّة الإصلاحات التي أجراها الشاه، ولم يستطع ببساطة أن يجبر نفسه على العمل لصالح حكومة اعتبرها خاضعة لهيمنة رجال دين رجعيين غير متعلّمين. وبعد رحيل الشاه دخل مكتب قائد العمليات البحرية، الذي أصبح فارغاً، وكتب خطاب استقالته.

بعد بضعة أيام استدعى رجل دين كان قد عُيّن مؤخراً أدميرالاً زنكنه إلى مكتبه وسأله: «لماذا قدمت استقالتك؟ لقد نظرت في ملفك الخاص، وليست لديك أي علاقة سياسية بالشاه أو جرائمه».

أجاب زنكنه بتشبيه ديني علم أن رجل الدين سيفهمه، فقال: «أنا لا أعرف الإسلام بالقدر الذي تعرفه أنت، لكنني أعلم أن عليّاً كان رجلاً عظيماً. ومع ذلك، إذا كنتُ امرأة متزوجة وأراد عليٌّ أن يأخذني إلى السرير، فلن أسمح له».

وقّع رجل الدين بالموافقة دون أن يحول نظره عن زنكنه، فسارع القائد بالخروج من المكتب، متوقعاً على الأقل رصاصة في رأسه لِوقاحته، لكنه، لحسن الحظ، غادر المبنى وهو على قيد الحياة، وفي العام التالي غادر البلاد إلى الولايات المتحدة.

أرادت إدارة كارتر مواصلة علاقات دبلوماسية طبيعية مع الحكومة الإيرانية الجديدة. اختار آية الله الخميني بنفسه أوّل رئيس وزراء للحكومة الإيرانية المؤقتة، وهو مهدي بازركان، البالغ من العمر اثنين وسبعين عاماً. كان بازركان مسلماً ملتزماً، وفي الوقت ذاته ديمقراطياً علمانياً يؤيد استمرار العلاقات مع الولايات المتحدة. ظلت السفارة الأميركية في طهران مفتوحة على الرغم من تقليص خدماتها القنصلية، وحتى بعد أن استولى طلاب يساريّون غلبتهم الحماسة الثورية مدة ست ساعات على الأرض التابعة للسفارة في شهر شباط/فبراير. أمر آية الله الخميني بإخراج الطلاب من السفارة على الفور، غير راغب في إعطاء مثل هذا الانتصار الدعائي للماركسيين الذين باتوا ينافسونه أكثر فأكثر على السلطة. ولكنّ ذلك الاستيلاء كان نذيراً لأمور سوف تلي في المستقبل.

عندما غادر سوليفان منصبه كسفير في آذار/مارس من عام 1979، رشّح كارتر دبلوماسياً آخر من ذوي الخبرة خلفاً له، هو والتر كاتلر. بضغط من سيناتور نيويورك جاكوب جافيتس تمّ اتخاذ قرار ينتقد الحكومة الإيرانية الجديدة بعد أن أعدمَ النظام الجديد رجل أعمال بارزاً من يهود إيران كانت تربطه علاقات وثيقة بالشاه، فضلاً عن تنامي الشعور باتخاذ النظام مواقف معادية للسامية. أثار هذا الإجراء احتجاجات عنيفة خارج محيط السفارة الأميركية التي تبلغ مساحتها سبعة وعشرين فداناً، ومُزّق العلم الأميركي، وكُتبت شعارات ورُسمت صور معادية للولايات المتحدة الأميركية على جدران السفارة. صرفت وزارة الخارجية النظر عن اسم كاتلر، وأرسلت في حزيران/يونيو من العام 1979 بروس لينجن البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً كمكلف جديد بالأعمال ودبلوماسي أميركي رفيع المستوى إلى إيران. كان لينجن ضابطاً بحرياً في منطقة المحيط الهادىء خلال الحرب العالمية الثانية، وعُين مرّة من قبل في طهران مباشرةً بعد أن دبّرت الولايات المتحدة وخطّطت للانقلاب الذي أعاد الشاه إلى السلطة عام 1953.

واصل لينجن اجتماعاته مع المسؤولين الإيرانيين في محاولة لتطبيع العلاقات بين البلدين. كانت إحدى المشاكل الكبرى التي واجهته تحديد وضع أسلحة ومعدّات عسكرية وقطع غيار ببلايين الدولارات كانت مُعدَّة لإيران ولا تزال بالانتظار في الترانزيت أو في المستودعات الأميركية. في حين لم يكن مستغرباً أن تطلب إيران الأسلحة والمعدّات، أظهرت واشنطن تخوفها وفكرت ملياً في حسنات إرسال إمدادات عسكرية إلى عدو محتمل من جهة، وفي إمكانية أن تشكّل إيران الجديدة هذه حليفاً لأميركا ضد السوفيت من جهة أخرى. التقى لينجن برئيس الوزراء الإيراني في 11 آب/ أغسطس، وأعرب بازركان عن الرغبة في التعاون الوثيق بين البلدين، ولكنه صرّح أن دعم حكومة الولايات المتحدة للشاه لا يزال عائقاً قوياً أمام صداقة البلدين. أجاب لينجن أن حكومته لا نيّة لديها في محاولة إعادة تنصيب الشاه على العرش. رحّب بازركان بهذا التأكيد متشككاً[62].

في حزيران/يونيو 1979، سافر نائب رئيس الوزراء الإيراني إلى السويد، والتقى مسؤولين أميركيين. وقد ضمّ الوفد الأميركي واحداً من أفضل المتخصصين في الشؤون الإيرانية في وكالة الاستخبارات المركزية، هو جورج كاف البالغ من العمر خمسين عاماً. كان كاف طويل القامة نحيل الجسم وذا ملامح هادئة تنمّ عن ميل إلى التأمّل والتفكير، وكان يتكلّم اللغة الفارسية بطلاقة وخدم دورتين في إيران، أولاهما في العام 1958. التقت المجموعة لمناقشة تطبيع العلاقات

بين البلدين، وعلى مدى الشهرين التاليين وضعت هذه المحادثات إطاراً لمحادثات أكثر توسّعاً جرت في طهران. أرسلت وكالة الاستخبارات المركزية إلى طهران روبرت آيمز، مسؤول الاستخبارات القومية عن الشرق الأدنى، الذي انضمّ إلى لينجن وغيره من كبار مسؤولي وزارة الخارجية لمناقشة تحسين العلاقات بين البلدين. وقد اجتمعوا مراراً برجل دين عنيد ولكن ودود، هو آية الله محمد بهشتي. كان بهشتي رجل الدين الأكثر نفوذاً في إيران بعد الخميني وأحد أهم واضعي دستور الجمهورية الإسلامية الإيرانية الجديد، وكان أيضاً زعيماً له شأن في المجلس الثوري «الغامض» الذي شُكِّل حديثاً. تكوّن هذا المجلس الذي أنشأه الخميني من الملالي والإسلاميين المخلصين، وكان السلطة الفعلية وراء قناع بازركان. مع أن بهشتي لم يكن يحب الولايات المتحدة كثيراً، إلا أنه أيدّ المحادثات حول التطبيع.

واصل المفاوضون الأميركيون اجتماعاتهم السرية طيلة فصل الخريف من عام 1979، وأحرزوا تقدماً بطيئاً من أجل رأب الخلافات بينهم. جرى الاجتماع الأخير في الجزائر العاصمة في 1 تشرين الثاني/نوفمبر من عام 1979، بين مستشار الأمن القومي الأميركي بريجينسكي ورئيس الوزراء الإيراني بازركان. قال بريجينسكي للوفد الإيراني إن الولايات المتحدة قد اعترفت بالثورة ولا نيّة مطلقاً لديها في محاولة إعادة الشاه إلى السلطة. ومع ذلك انتهت المحادثات بشكل مفاجئ. فقد تسربت أخبار الاجتماع، ما أثار غضب الطلاب المتطرفين نظراً إلى أن أياً من أعضاء القيادة الإيرانية لا يرغب في أن يُعرف أنه يفاوض الشيطان الأكبر.

في 23 تشرين الأول/أكتوبر 1979، كان بروس لينجن جالساً إلى مائدة الإفطار في مقر السفارة عندما أحضر له حارس من مشاة البحرية رسالةً عاجلة. جاء في البرقية أن الحكومة الأميركية قررت السماح للشاه بدخول البلاد للعلاج من مرض السرطان، وأوعزت للينجن أن يبلِّغ الحكومة الإيرانية أنه سيُسمح للشاه بدخول الولايات المتحدة لأغراض إنسانية بحتة. كان الشاه يعاني من مرضٍ مميت، وقد ضغط مناصروه في الكونغرس على الرئيس كارتر كي يسمح له بدخول الولايات المتحدة فوافق الرئيس على مضض.

أدرك لينجن أنَّ أحداً في الحكومة الإيرانية الجديدة لن يصدّق هذا البيان، فرفع اعتراضات قوية إلى مقر القيادة. ظل الوضع في إيران مضطرباً، فشعب هذا البلد سيقابل بعدائية صريحة أي شيء يشتمّ منه رائحة تجديد التعاون بين الولايات المتحدة والشاه. كان ذلك خطأً فادحاً، ولم يكن لدى لينجن أو لدى أي شخص آخر في وزارة الخارجية من العارفين بالشأن الإيراني أي أوهام بشأن الرد الإيراني المحتمل: سيجتاح الإيرانيون السفارة.

كان جورج كاف في باريس عندما تلقّى برقيةً تطلب منه العودة إلى طهران لمساعدة لينجن في تقديم تفسير للحكومة الإيرانية حول السماح للشاه بدخول الولايات المتحدة. اتصل جورج كاف هاتفياً بـلينجن وقال له: «بروس، لا أعتقد أن بوسعي فعل الكثير لمساعدتك».

أجاب لينجن: «أجل، ستكون مجرّد شخص آخر يُقبض عليه في السفارة».

أشار محسن سازكارا، وهو مهندس تلقى تعليمه في الغرب ومن المؤيدين الأوائل للثورة، قائلاً: «لم يصدّق أحد في إيران أن الشاه قد سافر إلى الولايات المتحدة لأسباب إنسانية. لقد دعمت

الولايات المتحدة الشاه، وسوف تعيده إلى السلطة وتطيح الثورة. هذا ما اعتقده الجميع في إيران». سرت شائعة مرض الشاه بالسرطان لسنوات في شوارع طهران. وفقاً للرجال في الحكومة الثورية الجديدة، لا بدّ أن واشنطن وجهازها الاستخباري المنتشر في كل مكان كانا على دراية بمرض الشاه. لذا بدا السماح للشاه بدخول الولايات المتحدة بشكل مفاجىء أمراً فظيعاً جداً، وبدت تبريرات لينجن لشرح الموقف مثيرةً للسخرية.

أصبحت تنبؤات لينجن وكاف واقعاً. انطلقت أول مظاهرة ضخمة ضد الولايات المتحدة في 1 تشرين الثاني/نوفمبر. أُلقيت بعض الحجارة، ولكن حدث أكثر من ذلك بقليل. في ليلة الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر، حضر لينجن، في مقر وزارة الخارجية الإيرانية، العرض الأول لفيلم وثائقي جديد عن الثورة. على الرغم من أن موضوعه كان مناهضاً للولايات المتحدة، إلا أن لينجن وجده مثيراً للاهتمام، ولاسيما لقطات اقتحام الحشود سفارة الولايات المتحدة في شباط/فبراير. في اليوم التالي كان لينجن يحضر اجتماعاً في وزارة الخارجية الإيرانية عندما وردت تقارير مفادها أن طلاباً يحاولون تسلق جدران السفارة الأميركية. حاول العودة بسيارته إلى المجمع، لكنّ موظّفي السفارة نبهوه إلى ضرورة البقاء بعيداً، فالوضع كان يوشك أن يصبح شديد الخطورة، فعاد إلى وزارة الخارجية الإيرانية، وأجرى اتصالاً من هاتفٍ مدني أبلغ فيه واشنطن بالوضع المتدهور في السفارة[63].

عندما وصلت أنباء اندلاع أعمال شغب في السفارة الأميركية في طهران إلى ألكسندر هيغ في مركز القيادة الأوروبية في باتش باراكس في ألمانيا، سارع قائد لواء فيلق مشاة البحرية جورج كريست، الذي كان قد رُقّي حديثاً إلى هذا المنصب، إلى مركز العمليات، فقد كان مسؤولاً عن تتبُّع الأحداث الجارية، بصفته النائب (جي-3) أو ضابط العمليات. اتصل كريست من هاتف غير آمن بالسفارة لمعرفة ما يجري. رنّ جرس الهاتف مرات عدة قبل أن يردّ رجل في الطرف الآخر بالفارسية. سأله كريست سؤالاً فاكتشف أن الرجل لا يفهم الإنكليزية.

صاح كريست قائلاً: «أحتاج إلى شخص يجيد الفارسية»! وأرسل ضباطاً إلى مقر القيادة الأوروبية سعوا جاهدين لإيجاد شخص في المبنى يمكنه التحدث إلى الإيراني على الهاتف. لم يكن هناك شخص واحد يجيد الفارسية من بين مئات الأشخاص في مركز القيادة، بمن فيهم العاملون في قسم الاستخبارات. بعد بضع دقائق من الحديث المبلبل، فقد الطالب الإيراني المرتبك اهتمامه فأغلق الهاتف[64].

تآمرت مجموعة من طلاب يمثلون الجامعات الإيرانية لإطلاق عملية الاستيلاء على السفارة الأميركية بالتنسيق فيما بينهم. أطلقوا على أنفسهم اسم الطلبة المسلمون أتباع خط الإمام، وألهمهم في تحرّكهم تصريح أدلى به الخميني منذ وقت غير بعيد يهاجم فيه بشدّة الولايات المتحدة، فقرروا توجيه ضربة إلى الشيطان الأكبر. بالرغم من أن دخول الشاه إلى الولايات المتحدة كان المحفّز المباشر لإطلاق هذه الخطوة، إلا أن التخطيط لها كان جارياً منذ أيلول/سبتمبر. وعندما عجز حراس الأمن من مشاة البحرية (المارينز) عن إيقاف تقدّم الجموع باستخدامهم الغاز المسيل

للدموع بكمّيات هائلة، قرّروا بحكمة منهم عدم استخدام الرصاص لإنقاذ المجمّع. ناشد لينجن قوات الأمن الإيرانية لإرسال قوّة لطرد الطلاب من السفارة، ولكن لم يحضر أحد. وتم في الحال جمع موظفي السفارة الأميركية وعرضهم مقيَّدين ومعصوبي الأعين أمام وسائل الإعلام العالمية المذهولة.

في البدء أراد الطلاب احتلال السفارة لبضع ساعات فقط. كانت حركتهم، بشكلٍ ما، النسخة الإيرانية للحركة الاحتجاجية الطلابية في أميركا في ستينيات القرن العشرين، حيث يقوم الطلاب باحتلال مكتب الرئيس، ويدخنون سيجاره، ويصدرون بضعة بيانات، ثم يغادرون المكان مطلقين تعليقات يهنّئون بها أنفسهم على تحدّيهم المؤسسة الرسمية.

بيد أن الاستيلاء على السفارة الأميركية في إيران اكتسب حيويةً خاصة به. اتصل وزير الخارجية الإيراني إبراهيم يزدي بـالخميني وحصل على إذن بالذهاب إلى السفارة وإخراج الطلاب منها. ولكن سرعان ما عدل آية الله نفسه عن قراره. فمع أنه لم يكن يعلم مسبقاً بتحرُّك الطلاّب، إلا أنّ الاستيلاء على السفارة منحه الفرصة لتوطيد سلطته وحشد الرأي العام خلف الإسلاميين على حساب الليبراليين والقوميين الذين كان الخميني يعتبرهم خصوماً رئيسيين لرؤيته الخاصة للدولة الإسلامية داخل الحركة الثورية. عندما صادق آية الله الخميني علانيةً على هذا العمل، استقال في اليوم التالي كلٌّ من بازركان ويزدي ومعتدلون آخرون احتجاجاً. جعل هذا الأمر المجلس الثوري والإسلاميين ينفردون بالسلطة، وعمل أنصار الخميني خلال العام التالي على إزالة ما تبقى من المعتدلين والعلمانيين من مواقع السلطة.

في غضون الأيام الـ 444 التالية، عاش اثنان وخمسون أميركياً، بمن فيهم لينجن، أوقاتاً صعبة كرهائن بعد أن احتجزهم طلاب إيرانيون متطرفون. على أثر ذلك جمّد الرئيس كارتر الأصول المالية الإيرانية، وقطع العلاقات الدبلوماسية، وحاول بمختلف الوسائل إنهاء الأزمة سلمياً. رفع كارتر إمكانية القيام بأي عمل عسكري عن الطاولة نظراً إلى ظهور انقسامات داخل الإدارة حول كيفية التعامل مع الأزمة. وأيّد مستشار الأمن القومي بريجينسكي استخدام القوة، في حين كان سايروس فانس قلقاً من عواقب مثل هذا العمل على الرهائن. انحاز كارتر إلى جانب فانس مدة ستة أشهر.

أخذت وطأة هذه التحديات تؤثّر سلباً في الرئيس كارتر. الذي كان يجد متعة بالغة في التفاصيل السياسية. وكان يثير إعجاب موظفي البيت الأبيض بقدرته الفائقة على قراءة المعلومات وحفظها من أكداس مكدّسة من المستندات والوثائق. أعاد الرئيس إلى موظّفيه مذكّرات مطوّلة علّق عليها بخطّ يده على الصفحة الأخيرة، وغالباً ما كانت تزخر بتصحيحات نحوية. استهلك هذا الاهتمام بالتفاصيل التافهة كارتر، ولاسيما متطلبات الاهتمام بأزمة الرهائن. كان ينام بمعدل خمس ساعات ليلاً، وكان يصل إلى المكتب البيضاوي في الخامسة والنصف صباحاً ولا يغادره قبل منتصف الليل. وقد خفّض مسافة ركضه اليومي من خمسة إلى ثلاثة أميال، وكثيراً ما كان يركض حول الأرض المحيطة بالبيت الأبيض في وقت متأخر من الليل. أصبح نزقاً وسريع في الغضب أكثر فأكثر على نحو غير معهود، وكثيراً ما كان يتعامل مع موظفيه بحدة دونما سبب.

حاولت الولايات المتحدة مراراً التفاوض مع الإيرانيين، ولكن دون جدوى. وقد لخّص تقريرٌ صادر عن وزارة الخارجية تحديات التفاوض مع الجمهورية الإسلامية بما يلي:

> من الواضح أننا نتعامل مع وجهة نظر تختلف جذرياً عن منظورنا، ومع وضع داخلي فوضوي. ترتكز شخصيتنا ومجتمعنا على التفاؤل: تاريخ طويل من القوة والنجاح، وإمكانية المساواة، وحماية المؤسسات المنصوص عليها في الدستور، والإيمان بقدرتنا على التحكم في مصيرنا. أمّا إيران، بالمقابل، فلديها تاريخ طويل مؤلم من الغزوات الأجنبية والاحتلال والهيمنة. تعتمد طريقتهم في النظر إلى الأشياء على هذا التاريخ وعلى العزاء الذي وجده معظم الإيرانيين في الإسلام الشيعي. إنهم يثمّنون البقاء ويشجّعون عليه. كما أنهم ماكرون وقَدَريّون ونزّاعون إلى الشك والارتياب وكارهون للأجانب.

وضع الجيش الأميركي جملةً من الخطط، من بينها فرض حصار بحري على إيران. قُدِّر لضابط البحرية المشاكس في مكتب رئيس العمليات البحرية جيمس ليونز الملقب بـ «آيس» (Ace) أن يلعب دوراً مهماً في ما يتعلق بإيران على مدى العقد التالي من الزمن، وهو من وضع خطة تُستخدم فيها قوات بحرية تدعمها طائرات تنطلق من الحاملات للاستيلاء على جزيرة «خرج» الإيرانية المهمة، التي يتدفق عبرها 95٪ من إجمالي النفط الإيراني إلى الناقلات المنتظرة. لم تكن هناك حراسة في الجزيرة وكان من السهل نسبياً أن تصل إليها القوات البرمائية الأميركية. قال ليونز: «إن استوليتم على جزيرة خرج، فلن تتمكن إيران من تصدير قطرة نفط واحدة»[65].

في 20 آذار/مارس من عام 1980، عقب اجتماع مع مستشاري الرئيس كارتر للسياسة الخارجية في البيت الأبيض، أمر نائب مستشار الأمن القومي ديفيد آرون ورئيس الأركان المشتركة ديفيد جونز بإخلاء الغرفة من الجميع باستثناء قلة قليلة من الأفراد العاملين في الاستراتيجية العسكرية، وسأل آرون عن خطة الحصار قائلاً: «هل ستكتفون بوقف صادرات إيران من النفط أم ستحتاجون أيضاً إلى محاصرة كل موانئها؟ وإذا قامت الولايات المتحدة بمثل هذا العمل، فماذا سيكون ردّ إيران؟[66]».

أجاب مدير وكالة الاستخبارات المركزية ستانسفيلد تيرنر عن سؤال آرون قائلاً: «لكي تكون العملية فعالة ينبغي قطع جميع الواردات بما فيها المواد الغذائية. سيكون لهذا تأثيرٌ كبير في الاقتصاد الإيراني في غضون أسبوعين». لكن اليابان سوف تتضرّر بشدة لأنها تستورد من إيران 10٪ من مجمل الفيول الذي تستهلكه. وأضاف تيرنر أنَّ نقص النفط في السوق العالمية وما قد ينشأ عنه من أزمة من شأنه أن يرفع أسعار النفط بنسبة تتراوح من 15 إلى 30٪.

ورداً على سؤال آرون الثاني بشأن ردّ فعل إيران حذّر ممثل وزارة الخارجية ديفيد نيوسوم أن الحصار من شأنه أن يؤدي إلى ردّ فعل قوي في كلٍّ من إيران والعالم الإسلامي، ونبّه قائلاً: «يمكن أن يؤدّي الحصار في أسوأ الحالات إلى شروع المسلحين بقتل الرهائن».

رفض تيرنر هذا التنبؤ الأليم، ومع ذلك اعتبر أن إجراءً كهذا قد يعزّز موقف المعتدلين الإيرانيين. انفضّ الاجتماع دون اتّخاذ أي قرار. في النهاية، رفض الرئيس كارتر خيار الحصار طالما أنه يعرّض حياة الرهائن للخطر.

كانت الخطة العسكرية الوحيدة التي درسها كارتر بجديّة هي مهمة الإنقاذ التي أُطلق عليها اسم مخلب النسر (Eagle Claw)، باستخدام قوة دلتا (Delta Force)[67] الحديثة الإنشاء المؤلّفة من نخبة من المقاتلين. شكل الجنرال ديفيد جونز خلية تخطيط جديدة مستقلة داخل مديرية (جي-3) التابعة لهيئة الأركان المشتركة، وتُعرف باسم مديرية العمليات الخاصة. تلت ذلك شهور من التخطيط والتدريب في الولايات المتحدة ومصر وسلطنة عمان. وأعطى كارتر الإذن بتنفيذ العملية في ربيع عام 1980.

في 24 نيسان/أبريل 1980 أقلعت مروحيّات من على سطح حاملة طائرات أميركية على متنها نخبة من القوات الأميركية، كانت على موعد رتّبته وكالة الاستخبارات المركزية مع شبكة من المؤيّدين بالقرب من طهران سينقلون الجنود الأميركيين بالشاحنات إلى طهران. بعد إنقاذ الرهائن، كان على المجموعة كلّها أن تتجمّع في ملعب بالقرب من السفارة، حيث ستحط حوّامات تطير بهم جميعاً إلى الحرّية.

لكن بعد وقوع سلسلة أعطال ميكانيكية في الحوّامات، قررت القوات الأميركية إلغاء مهمة الإنقاذ المحفوفة بالمخاطر. وكانت إحدى الحوامات قد اصطدمت بطائرة رباعية المحرّكات من طراز C-130 أثناء عملية تزوّد بالوقود في مهبط طائرات صحراوي ناءٍ في إيران يُعرف باسم (صحراء رقم1) وقد أسفر الحادث عن مقتل ثمانية أميركيين. بعد فشل مهمة إنقاذ الرهائن فرّ أحد عشر ضابطاً من وكالة الاستخبارات المركزية، كانوا قد تسللوا سابقاً إلى إيران، وغادروا عن طريق مطار طهران متنكرين بزيّ رجال أعمال أو عبر محافظة بلوشستان الوعرة على حدود إيران الشرقية بمساعدة إيرانيين متعاطفين معهم، وغادرت معهم رئاسة كارتر وأي أمل واقعي في التقارب مع إيران.

الفصل الثاني

استراتيجية كبرى جديدة

في مساءٍ بارد من شهر كانون الثاني/يناير من العام 1980 انطلقت من باحات البيت الأبيض الجنوبية قافلة مكونة من سيارات ليموزين سود يرافقها رجال شرطة. سار الموكب الرئاسي مدة ست دقائق في جادة بنسلفانيا وصولاً إلى مبنى الكابيتول[68] الأميركي الذي كانت قبّته البيضاء الرائعة تتلألأ في الليل. كان الرئيس جيمي كارتر سيلقي في غضون ساعة خطابه الأخير عن حالة الاتحاد أمام جلسة مشتركة للكونغرس وجمهور يشاهده عبر التلفزة في جميع أنحاء العالم.

كان كارتر يدرك أهمية هذا الخطاب. ففي اليوم السابق، عبّر كبير موظفيه والمؤتمن على أسراره الشاب هاملتون جوردان عن شعوره بأهمية هذا الخطاب في مذكرة سرّية طويلة موجّهة إلى الرئيس وحده: «في الأشهر القادمة، سوف تقومون برسم وتحديد وتنفيذ سياسة أميركية جديدة لن تحدد طابع العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على مدى السنوات العشرين المقبلة فحسب بل وستحدّد أيضاً، وإلى حدٍّ كبير، ما إذا كانت بلادنا ستلعب دوراً فعالاً كزعيمة للعالم الحر أم لا[69]».

كانت نيّة جوردان رسم الخطوط العريضة لاستراتيجية تهدف إلى إنقاذ حظوظ الرئيس السياسية، فالانتخابات الرئاسية الأميركية تجري كل أربع سنوات بغضّ النظر عن وجود أزمات وطنية أو دولية، والجدول الزمني ليس دائماً لصالح الرئيس. كان ذلك العام عام انتخابات، وقد واجه كارتر حتى ذلك المساء من يوم 23 كانون الثاني/يناير 1980 مشكلات سياسية متصاعدة، فإيران لا تزال تحتجز اثنين وخمسين رهينة أميركية، فضلاً عن حالة الركود التي يعيشها الاقتصاد الأميركي. وفي الشهر المنصرم حطّ وضعٌ معقّد آخر في السياسة الخارجية على مكتب الرئيس: حرّك الاتحاد السوفيتي ثلاث فرق عسكرية مؤلّلة إلى أفغانستان النائية الواقعة في آسيا الوسطى لدعم الحكومة الشيوعية الوليدة في ذلك البلد الجبلي. أنذرت هذه الأزمة الجديدة بمواجهة خطيرة بين

القوّتين العظميين في إطار الحرب الباردة. وعلى الصعيد الداخلي أيضاً واجه كارتر تحدّياً من داخل حزبه، من قبل سيناتور ماساتشوستس إدوارد كنيدي، كما واجه احتمال وجود خصم جمهوري مقلق في الانتخابات الرئاسية: إما حاكم كاليفورنيا السابق رونالد ريغان وإما السياسي المحنك في الشؤون الخارجية جورج بوش.

اعتلى الرئيس كارتر المنبر بعد الساعة التاسعة مساءً بقليل، وألقى الرجل القادم من ولاية جورجيا خطاباً من أشرس الخطابات التي ألقاها على الإطلاق، حيث قال: «بدأ عقد الثمانينيات في خضمّ الاضطرابات والصراعات والتغيير. إن المنطقة التي تهددها الآن القوات السوفيتية في أفغانستان ذات أهمية استراتيجية كبيرة، فهي تحتوي على أكثر من ثلثي النفط القابل للتصدير في العالم. (...) يحاول الاتحاد السوفيتي الآن ترسيخ موقعٍ استراتيجي له، الأمر الذي يشكّل تهديداً خطيراً لحرية حركة نفط الشرق الأوسط»[70].

كانت أهم نقطة في خطاب الرئيس المقتضب، الذي استغرق ثلاثين دقيقة، هي أنه رسم خطاً في رمال الخليج العربي: «فليكن موقفنا واضحاً تماماً؛ سوف يُعتبر أي هجوم تشنّه أي قوة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج العربي بمثابة هجوم على المصالح الحيوية الأميركية، وسوف يتم التصدي لمثل هذا الهجوم بكل الوسائل اللازمة بما فيها القوة العسكرية»[71].

بعد أشهر من التردد والحيرة في التعامل مع أزمة الرهائن المحتجزين في إيران، رحّب الرأي العام الأميركي والصحافة بالقرار الرئاسي[72]. نشرت مجلة التايم مقالاً حمل عنوان: «كارتر يمسك بزمام الأمور». عندما ألقى الرئيس خطابه الأول في ربيع عام 1977، وخصصه للحديث عن الطاقة، لم يذكر الخليج العربي، وها هو الآن يتعهّد بإرسال الولايات المتحدة إلى الحرب لحماية هذا المورد النفطي الخارجي إن دعت الحاجة. يُعدّ ذلك تحولاً ملحوظاً بالنسبة لرئيس وصل إلى السلطة في أعقاب حرب فيتنام، وافتخر بأن أحداً من رجال القوّات المسلّحة الأميركية ونسائها لم يلقَ حتفه في أرض المعركة في عهده. طرح الرئيس للمرة الأولى، في ما سيُعرف لاحقاً بمبدأ كارتر، أن الولايات المتحدة تعتبر نفط الخليج العربي حيوياً لمصالح البلاد، وأنّ الدفاع عنه يستحقّ إنفاق المال الأميركي وإراقة الدماء[73].

منذ الأيام الأولى لإدارة الرئيس كارتر قدّم فريقه المعني بالسياسة الخارجية مجموعة كبيرة من الأفكار لوضع استراتيجية عسكرية جديدة من أجل حماية النفط في الخليج العربي من الاتحاد السوفيتي. ودعا الرئيس بعد وقتٍ قصير من تولّيه منصبه إلى إعادة تقييم الاستراتيجية الأميركية في الحرب الباردة على جميع الصّعد. ترأس العالم السياسي البارز من جامعة هارفرد صموئيل هنتنغتون المراجعة في مجلس الأمن القومي، وأكّد فيها أن الخليج العربي منطقة مناسبة للتوسع السوفيتي، ويرجع ذلك بشكلٍ رئيسي إلى الطابع الهش للأنظمة الحاكمة في المنطقة، وصعوبة وصول النفوذ الأميركي إليها. وبناءً على هذه المراجعة صادق الرئيس كارتر في 24 آب/أغسطس 1977 على المرسوم الرئاسي 18 القاضي بتشكيل «قوة انتشار مكونة من فرق

عسكرية خفيفة»، وهي تنظيمٌ عسكري يمكن نشره بسرعة، دون فترة استعداد طويلة، في أي بقعة ساخنة من العالم، سواء أكانت كوريا، أم الشرق الأوسط مثلما تبادر إلى ذهن بريجينسكي وهنتنغتون[74].

لم يكن هذا المفهوم جديداً بل كان ركيزةً سياسية أساسية إلى حدٍّ ما لدى نخبة المفكرين في شؤون الدفاع في الحزب الديمقراطي منذ إدارة الرئيس كينيدي. في مواجهة مشكلة مماثلة، ورداً على حروب العالم الثالث «المستلهمة» من الاتحاد السوفيتي، أوصى وزير الدفاع روبرت ماكنمارا في العام 1961 بتشكيل قوة سريعة التحرّك تكون قاعدتها داخل الولايات المتحدة وقادرة على الاستجابة بسرعة لأي أزمة عالمية. ولقيادة هذه القوة أنشأ البنتاغون ما يسمّى «قيادة الضربات العسكرية الأميركية» وجعل مقرّها في مبنى جديد مربّع الشكل ومخطط باللونين الأبيض والأسود في قاعدة ماكديل لسلاح الجو في مدينة تامبا بولاية فلوريدا[75]. غير أن قيادة الضربات واجهت معارضة من جانب قوات البحرية وقوات مشاة البحرية (المارينز)، مما حدَّ من فاعليتها. فمشاة البحرية كانت تعتبر نفسها قوّة الرد السريع، ولاسيما للقيام بمغامرات عسكرية خارج نطاق حرب كبيرة، وكانت تدافع عن مهمتها هذه بكثيرٍ من التشدّد. كما رفض سلاح البحرية ببساطة إقامة أي مقرات مشتركة غير بحرية لمراقبة سفنه والتحكم فيها[76]. فألغى الرئيس نيكسون هذه الفكرة وأمر بحلّ قيادة الضربات[77].

لم تحقّق فكرة كارتر بخصوص قوة انتشار سريع نجاحاً كبيراً في البداية. فعلى الرغم من إعلان الرئيس عن هذه الفكرة إلا أنها تلاشت في عالم البيروقراطية ووقعت ضحية دراسات لا نهاية لها من قبل طاقم عمل الرئيس واللامبالاة عموماً داخل أروقة البنتاغون. ظلّ الخبراء في البنتاغون يوصون، حتى بعد إطاحة الشاه، بالاعتماد على «التحالفات الإقليمية»، ولا سيّما مع إيران والمملكة العربية السعودية، وبيع المزيد من الأسلحة لكلا البلدين لتعزيز قدراتهما العسكرية[78]. ففي الوقت الذي كان فيه الشعب الأميركي لا يزال يعاني من مخلفات حرب فيتنام وآثارها، لم يكن أحد في واشنطن يرغب في القيام بمغامرة عسكرية في العالم الثالث، أو في إنشاء قيادة مخصّصة لهذا الغرض حصراً.

أتى رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال ديفيد جونز من وحدات قاذفات القنابل الاستراتيجية مثله مثل الجنرال دوتش هايزر. ولد جونز في ساوث داكوتا، وكان آنذاك في السابعة والخمسين من عمره. كان في السابق طياراً يقود طائرة من طراز B-29، وعمل مساعداً لمخطِّط إلقاء القنابل الحارقة على المدن اليابانية، الضابط المثير للجدل كورتيس ليماي. أُعجب كارتر بجونز عندما كان رئيساً لأركان سلاح الجو فاختاره لهذا المنصب العسكري الرفيع في العام 1978. يشترك جونز وكارتر بنمط إداري متشابه، ألا وهو الميل لمبدأ الإدارة التفصيلية.

اعتقد جونز أن من الخطأ تحويل القوات العسكرية من لعبة الحرب الباردة الرئيسة في أوروبا إلى الشرق الأوسط. وقال لوزير الدفاع هارولد براون عقب اجتماع رسمي حول الشرق

الأوسط في شهر أيلول/سبتمبر 1978: «ينبغي ألاّ تتورّط قوات الجيش الأميركي المقاتلة في الحالات الطارئة البسيطة، إلاّ إذا اجتاحت موسكو إيران»[79]. في غياب أزمة محدّدة، لا حاجة ملحة لإنشاء قوة الانتشار السريع وإضاعة وقت القوات العسكرية سدى. فأجاب الوزير براون بجفاء: «تطلَّبَ الأمرُ أزمة لكي تسترعي فكرة جيّدة الاهتمام اللازم. كان لاستيلاء الخميني على إيران هذا التأثير»[80].

في 2 كانون الأول/ديسمبر 1978 أرسل بريجينسكي مذكّرةً سرية إلى الرئيس كارتر يشرح فيها قلقه لأن الشرق الأوسط يتحوّل على نحو سريع إلى «قوس أزمات»، وكتب قائلاً: «ليس لديّ أدنى أشك في أننا نواجه بداية أزمة كبيرة شبيهة في بعض أوجهها بأزمة أوروبا في أواخر الأربعينيات». إن صحّ ذلك فإنه سيكشف المنطقة أمام السوفيت لاستغلالها، الأمر الذي يشكّل تحدياً خطيراً للأمن الأميركي[81].

كانت رؤية بريجينسكي الاستراتيجية واضحة وجازمة، وكان بارعاً في تركيز الاجتماعات وتكثيفها بغية بحث النقاط الرئيسية، فيقطع المناقشات غير الأساسية ويرفع بسرعة التوصيات إلى الرئيس كارتر[82]. كان مستشار الأمن القومي يعتبر أن الشرق الأوسط مرتبطٌ ارتباطاً وثيقاً بالحرب الباردة الأوسع مجالاً، ويرى أن التركيز على أوروبا يغفل إدراك الدينامية الحقيقية ومفادها أن نفط الخليج العربي هو «كعب أخيل» الغرب ونقطة ضعفه. وأنّ في وسع الاتحاد السوفيتي إخضاع أوروبا بمجرّد قطع نفط الشرق الأوسط، فيغلق بذلك الصُّنبور الذي يدير المحركات الاقتصادية في أوروبا الغربية واليابان. ونظراً إلى أن الولايات المتحدة كانت على شفا كارثة سياسية مع انتشار الثورة الإيرانية في شوارع طهران، اقترح بريجينسكي صياغة إطار أمني جديد في منطقة الخليج العربي.

أيّد وزير الدفاع براون رؤية بريجينسكي، وأمر روبرت كومر، وكيل وزارة الدفاع للشؤون السياسية وثالث أكبر موظف مدني في البنتاغون، بإجراء مراجعة شاملة للخطط العسكرية المتعلّقة بإيران والخليج العربي. يعدّ كومر رجلاً محنكاً في واشنطن، ولديه خبرة في الشؤون الخارجية تمتد لأربعة عقود تقريباً، وقد أيّد سياسات الرئيس ليندون جونسون في فيتنام إبّان الستينيات وترأس الجانب السياسي لجهود التهدئة في جنوب فيتنام. لهذا السياسي، الذي يضع نظّارتين، صوتٌ مدوٍّ وشخصية تتناسب مع صوته. لقّبه سفيرٌ غاضبٌ خلال حرب فيتنام يدعى هنري كابوت لودج بـ «بوب موقد اللحام» (Blowtorch Bob) قائلاً: «إن المجادلة مع السيد كومر أشبه بقاذفة لهب مسدَّدة إلى قفاك». رفع كومر تقريراً إلى وزير الدفاع براون يفيد أن تخطيط هيئة الأركان المشتركة أقل من مُرضٍ؛ والحقيقة أنه أسرَّ له بأن التخطيط «رديء للغاية»[83].

لا يكمن سبب ذلك في عدم إدراك الجنرالات والأدميرالات أهمية الخليج العربي، بل في أنّ الجيش لم يكن متحمّساً لتخصيص موارد لمنطقة الشرق الأوسط، وكان لكل قسم مبرراته الخاصة في هذا الشأن. بالنسبة إلى الجيش، كانت المنطقة تشتّت انتباه القوّات الاحتياطية المطلوبة

بشدّة عن لعبة الحرب الباردة الرئيسة ضد السوفيت في أوروبا الوسطى. ففي أعقاب حرب فيتنام، التزم الجيش الأميركي فكرياً ومالياً ببناء قوات تقليدية تكون مستعدة لخوض معركة كبرى بالدبابات والمدفعية في ألمانيا. ونظراً إلى التفاوت الكبير بين القوات الأميركية والسوفيتية في أوروبا من حيث العدد، اعتبرت القيادة العسكرية أن سحب القوات بعيداً عن الجبهة الرئيسة في الحرب الباردة سيكون تصرّفاً طائشاً. وكتبت هيئة الأركان المشتركة بشكل جماعي إلى براون قائلةً: «إن القوات الأميركية المستخدمة في الدفاع عن منطقة الخليج العربي لن تكون متاحة لأوروبا، مما يزيد من المخاطر الكبيرة المترتّبة عن ذلك»[84]. وفي الوقت الذي شارك فيه الأدميرالات إخوانهم في الجيش بعض مخاوفهم بخصوص تحويل السفن بعيداً عن الجهود الرئيسة ضد السوفيت - أي عن المحيطين الأطلسي والهادئ - كان الخليج العربي يمثّل تحديات كبيرة للبحرية الأميركية. فمنذ عام 1949 أبقت الولايات المتحدة، كإثبات وجود، على أسطول بحري صغير متمركز في البحرين ويطلق عليه اسم قوة الشرق الأوسط، إلا أن البحرية كانت تملك خبرة محدودة في تنفيذ العمليات العسكرية في هذه المنطقة النائية والحارة. يبعد الخليج العربي ثلاثة آلاف ميل عن أقرب قاعدة بحرية، ولم تكن لدى الولايات المتحدة مرافق مرفئية أو بنية تحتية لوجستية لدعم العمليات البحرية الواسعة النطاق في المنطقة[85]. يُضاف إلى ذلك، وهو أمر لا ينبغي الاستخفاف به، أن تحريم الكحول والفصل بين الجنسين وفق العقيدة الإسلامية أدّيا إلى جعل معظم المرافىء التي تتوقف فيها السفن للتزوّد بالمؤن في المنطقة غير محببة نوعاً ما بالنسبة إلى البحارة الأميركيين[86].

في 9 كانون الثاني/يناير من عام 1979، اجتمع وزير الدفاع براون بأعضاء هيئة الأركان المشتركة الخمسة، وهم رئيس هيئة الأركان المشتركة بالإضافة إلى رؤساء الأسلحة الأربعة. عُقد اللقاء في قاعة اجتماعاتهم، المسماة «تانك» (Tank) وتعني دبابة، في الدائرة الخارجية E من البنتاغون. تقع هذه القاعة في آخر رواق الجناح التنفيذي التابع لرئيس الأركان، في ممر طويل تصطف على طوله مكاتب تشغلها القيادة العسكرية العليا وغرفة طعام رئيس هيئة الأركان، ويعود تاريخ تسمية هذه الحجرة إلى أيام هيئة الأركان المشتركة الأولى خلال الحرب العالمية الثانية، عندما اجتمعت الهيئة المشكّلة حديثاً في حجرة من الدور السفلي في مبنى دائرة الصحة العامة في جادة كونستيتوشن آفنيو. دخل المجتمعون إلى «التانك» بعد أن نزلوا درجات عدة ثم اجتازوا مدخلاً ضيقاً مقنطراً، ما أعطى انطباعاً بدخولهم دبابة ذات هيكلٍ فولاذي بدلاً من قاعة اجتماعات حكومية.

قدمت قيادة الأركان المشتركة، بعد أن ضغط عليها قادتها السياسيّون، خطةً إلى وزير الدفاع وضعتها على عجل القيادة الأوروبية برئاسة ألكسندر هيغ. وترتكز فكرتها على إرسال قوات أميركية لحماية حقول النفط السعودية في حال تحرك السوفيت نحو الخليج العربي نتيجة الاضطرابات السائدة في إيران. أُطلق عليها اسم الخطة التنفيذية رقم 4230، وتعمل على تحريك قوة يبلغ قوامها حدّ سبعة آلاف رجل من الولايات المتحدة بحيث تصل أولى القوّات المجوقلة من قاعدتها في فورت براغ بولاية نورث كارولينا في أقل من ثلاثة أيام. كانت الخطة بدائية، في أحسن الأحوال، وتتطلب عشرين يوماً من التحضير قبل أن تتمكن القوات الأولى من الطيران إلى المملكة العربية السعودية. وكانت وزارة الدفاع الأميركية تفتقر إلى الطائرات والسفن للتحرك بسرعة إلى

الخليج، فضلاً عن إخفاق واشنطن في إرساء الأسس الدبلوماسية اللازمة مع الدول العربية لنشر الجنود الأميركيين فيما لو أرادت واشنطن إرسالهم.

سافر براون إلى الشرق الأوسط لتقييم الموقف بنفسه، فوجد أن الحكومات في المنطقة منفعلة ومتوترة إزاء الأحداث الحاصلة في إيران ومتشككة في الالتزام الأميركي بضمان أمنها. وفي محاولة لتهدئة مخاوف هذه البلدان كان البنتاغون قد نشر مؤخراً سرباً من طائرات F-15 في المملكة العربية السعودية بناءً على طلبها[87]، ومع ذلك ضغطت الحكومة السعودية القلقة سراً على براون للحصول على ضمانات دفاعية ملموسة أكثر[88].

أمر براون الجيش باتخاذ بعض الخطوات الفورية لتعزيز الوجود العسكري الأميركي في منطقة الخليج[89]، فنفّذت قيادة الأركان المشتركة الأمر بأن وضعت خطّة مبتكرة لإجراء أربعٍ وخمسين مناورة عسكرية منفصلة. شكّلت هذه المناورات زيادةً كبيرة في الوجود العسكري الأميركي في دول الخليج على الرغم من أن العديد منها لم يتعدَّ إرسال سرب من الطائرات إلى المملكة العربية السعودية أو عُمان للطيران مع قوّاتهما الجوية مدة أسبوع، أو التدريب على تقنيّات البحث والإنقاذ، أو زيادة انتشار القوات البحرية الروتيني في دول الخليج. عبر تعاقب هذه المناورات على مدار سنة كاملة، أصبحت تعادل وجوداً دائماً للقوات العسكرية الأميركية في دول الخليج العربية تحت ستار التدريبات[90].

جهدت الإدارة الأميركية لوضع استراتيجية جديدة، إلا أنها واجهت مجدّداً انشقاقات جدّية داخل فريق سياسة كارتر الخارجية. في 1 آذار/مارس من عام 1979، اجتمع وزيرا الدفاع والخارجية مع مستشار الأمن القومي على طاولة الغداء التي تجمعهم أسبوعياً. تركز موضوع حديثهم يومئذٍ حول الخليج العربي. كان بريجينسكي وبراون يفضلان توسيع القواعد الأميركية في المنطقة بغية دعم القوة العسكرية التي يصبح من الممكن نشرها بسرعة في الخليج العربي في حال تحرك السوفيت باتجاه إيران. بيد أن وزير الخارجية سايروس فانس رفض هذا الرأي معتبراً أن وجوداً عسكرياً أميركياً أكثر بروزاً للعيان في المنطقة سيؤجج، ببساطة، المشاعر المعادية للولايات المتحدة ليس في إيران فحسب، بل وفي جميع الدول العربية أيضاً. ورأى أنّ على الولايات المتحدة إظهار اهتمامها بمصلحة دول الخليج، وأنّ عليها في الوقت نفسه التواري عن الأنظار كي لا يُنظر إليها على أنها استعمار جديد.

بعد يومين من ذلك، أي بعد شهر على عودة آية الله الخميني إلى إيران، حاول بريجينسكي انتزاع قرار بالقوّة في رسالة سرية للغاية إلى الرئيس. كتب بريجينسكي أن الأزمة في إيران تشكّل تحدياً خطيراً للغرب، وأنها من الأزمات التي يمكن أن «تخرج عن نطاق السيطرة على نحوٍ خطير». بوجود القوّات السوفيتية في أفغانستان، التي يبدو أنها تستعد لغزو باكستان أو إيران، لا تشعر دول الخليج العربية الموالية للغرب بالثقة الكافية بقدرة واشنطن على حمايتها ولا برغبتها في ذلك. واقترح بريجينسكي إعادة توجيه الاستراتيجية بشكل كامل نحو الشرق الأوسط، داعياً إلى

توسيع القواعد العسكرية بشكل كبير في المنطقة، بحيث تكون القوات العسكرية مخصّصة للتدخل لمواجهة أي عدوان سوفيتي، ويكون الوجود البحري الأميركي دائماً في الخليج العربي[91].

في نهاية شهر حزيران/يونيو 1979، كان كبار مهندسي سياسة كارتر الخارجية قد رسموا الخطوط العريضة لخطة دفاعية جديدة في منطقة الخليج العربي، أُطلق عليها اسم «هيكلية أمن الخليج العربي». وقد جمعت هذه الاستراتيجية بين مواقف بريجينسكي وفانس، ونصّت على أن تقوم الولايات المتحدة بتعزيز علاقاتها مع دول الخليج الموالية للغرب من خلال اتفاقيات ثنائية تسمح للولايات المتحدة باستخدام القواعد العسكرية في الخليج وفي محيطه، وببيع المزيد من الأسلحة لدول الخليج العربية لتمكينها من تحمل عبء أكبر في الدفاع عن حقول نفطها. ونصّت الخطة أيضاً على اتخاذ الجيش الأميركي مواقع له في محيط الخليج العربي، استعداداً للتدخل المباشر في الخليج أو إيران في حال وقوع هجوم سوفيتي. وقد احترم هذا النهج حساسيات العرب، الذين يريدون العمل مع الولايات المتحدة لكنهم لا يرغبون بالضرورة في وجود عدد كبير من «الكفار» في قلب العالم العربي. وافقت الولايات المتحدة على إبقاء هذه الاستراتيجية «محدودة» وبعيدة عن الصحافة وعلى العمل بصمت مع دول الخليج لبناء أوثق العلاقات العسكرية[92]. ركزت وزارة الدفاع على كلٍّ من عُمان والصومال وكينيا ودييغو غارسيا لإقامة أولى قواعدها. رفضت السعودية السماح بوجود أي قواعد أميركية على أراضيها، لكنها وافقت سراً، مع الهمز والغمز، على زيادة مطاراتها وتعزيز بنيتها التحتية العسكرية، وقبلت ضمنياً أن يستخدم الجيش الأميركي هذه المرافق في حال تعرضت المملكة لتهديد حقيقي من إيران أو السوفيت. بعد ثلاث سنوات من المباحثات، مضى البنتاغون قدماً في إنشاء قوة انتشار سريعة تكون بمثابة قوّة التدخّل الرئيسية في الشرق الأوسط[93].

سمحت بريطانيا العظمى لأميركا باستخدام مطارها في جزيرة دييغو غارسيا الصغيرة في المحيط الهندي، وأنفقت وزارة الدفاع الأميركية نحو 600 مليون دولار على مدى السنوات الأربع التالية لرفع مستوى تجهيز هذا المطار. كما توصّلت وزارة الخارجية الأميركية إلى اتفاق مع سلطنة عمان لاستخدام أربعة مطارات لهبوط الطائرات، وأنفقت على مدى السنوات الثلاث التالية أكثر من 200 مليون دولار لتطوير القواعد الأميركية الجوية والبحرية[94]. كان موقع إحدى هذه القواعد في جزيرة المريشة -وهي قاعدة تابعة لسلاح الجو البريطاني منذ الثلاثينيات - ملائماً جداً للمتطلّبات الأميركية. وتقع هذه الجزيرة المعزولة على بعد خمسة عشر ميلاً من الساحل العماني في خليج عُمان بالقرب من مضيق هرمز. وعقب التوقيع على عقد إيجار هذه الجزيرة لمدة عشر سنوات بين واشنطن ومسقط، في عام 1979، وسّعت الولايات المتحدة المدرج الصغير وبنت مدرجاً ثانياً لاستقبال الطائرات المقاتلة. كما رفعت من مستوى تجهيز المرافق والمباني، منشئةً مواقع قادرة على استيعاب ستة وعشرين ألف جندي. استُعملت هذه القاعدة فيما بعد كقاعدة انطلاق لعملية الإنقاذ الفاشلة في إيران التي جرت في نيسان/أبريل 1980، وظلّت منشأةً أميركية أساسية على مدى

العقدين التاليين، فشكّلت، على سبيل المثال، قاعدةً لمجموعة أخرى من قوات العمليات الخاصة الأميركية، هي تلك التي دخلت أفغانستان في تشرين الأول/أكتوبر 2001.

سمح الرئيس المصري أنور السادات، دون ضجة إعلامية، للقوات الأميركية باستخدام القواعد العسكرية المصرية، وكانت مصر في هذه الخطة منطقة دعمٍ لوجيستي للقوات الأميركية في الدفاع عن الخليج العربي، ونقطة عبور مهمة لنشر القوات في الخليج العربي. أرسل كومر مساعده لشؤون التخطيط السياسي، والتر سلوكومب، لمعاينة المرافق المصرية. كان سلوكومب في الأربعين وكان خبيراً بارعاً في المؤسسة الدفاعية ضمن الحزب الديمقراطي، وتسنّم فيما بعد موقع الرجل الثالث في البنتاغون في عهد الرئيس بيل كلينتون، كما لعب دوراً رئيساً في قرار حل الجيش العراقي في آيار/مايو 2003 بعد إطاحة صدام حسين.

قام سلوكومب بجولة في مطار قرب القاهرة، ثم توجّه إلى معسكر مصري كبير مهجور في شبه جزيرة رأس بناس الممتدّة في البحر الأحمر عند الربع الثالث للخط الساحلي المصري (من الشمال إلى الجنوب). بُني هذا المرفق قبل حرب تشرين الأول/أكتوبر مع إسرائيل عام 1973 (حرب يوم الغفران) وشمل مرفأً ومدرجاً كبيراً لهبوط الطائرات وإقلاعها[95]. كان هذا المعسكر مثالياً بالنسبة لسلوكومب، فهو يقع على مفترق ميناءَي جدة وينبع السعوديين في البحر الأحمر، ويمكن أن يشكّل أيضاً وسيلةً أخرى لإدخال القوات الأميركية إلى السعودية في حال استولى السوفيت على مضيق هرمز. كما أنه يقع خارج مدى تحليق الطائرات السوفيتية، ويشكّل قاعدةً ممتازة للطائرات الأميركية الضخمة كالقاذفة B-52 ومنطقة تجميع للجيش الأميركي المتّجه إلى إيران، ويمكن بعد إجراء التحسينات عليه أن يكون قاعدة انطلاق لفرقة عسكرية أميركية كاملة، والأهم أنه يقع على بعد ثلاثمئة كيلومتر تقريباً من أقرب مدينة، الأمر الذي يسمح ببناء القاعدة فيه بسرية. أحب كلٌّ من الوزير براون والجنرال جونز فكرة سلوكومب، وضخّت الولايات المتحدة أكثر من 200 مليون دولار على مدى السنوات القليلة التالية لرفع مستوى تجهيز المرافق، بعد موافقة الكونغرس، وأصبح معسكر رأس بناس محوراً رئيساً بالنسبة للجيش الأميركي[96].

أثار قرار إنشاء قوة الانتشار السريع جدالاً وشجاراً بين الدوائر المختلفة في البنتاغون. وفي الحقيقة لم يكن أي ضابط كبير يريد إنشاء هذه القيادة الجديدة، ولكن كل الجنرالات والأدميرالات أرادوا السيطرة عليها، في حال أُنشئت، وعلى المال الذي سيُنفق حتماً على هذه المهمة الجديدة. اقترح الجيش وسلاح الجو جنرالاً بثلاث نجوم من الجيش لقيادة قوة الانتشار السريع بإمرة قيادة الجاهزية التي يقع مقرها في تامبا، وهي خليفة قيادة الضربات، وتشتمل مسؤولياتها على التخطيط في زمن الحرب لنشر وحدات الجيش وسلاح الجو انطلاقاً من قواعدها في الولايات المتحدة الأميركية. وأضاف الجيش أن مركز القيادة هذا ينبغي أن يقتصر على زمن الحرب فقط، بينما تتولّى القيادة الأوروبية التي يهيمن عليها الجيش إدارة العمليات في الشرق الأوسط في زمن السلم. وليس مستغرباً أن يتّخذ قائد العمليات البحرية الأدميرال توماس هايوارد وجهة نظرٍ مختلفة، فقد قال إنّ قوة الانتشار السريع ينبغي أن تكون قوة مستقلة، وتخضع اسمياً ربّما لقيادة الجاهزية، ولكن يجب أن تبقى على تواصل مباشر مع قيادة الأركان المشتركة التي ستشرف

على التخطيط العسكري في الشرق الأوسط. وأملت القوّات البحرية أن يُخرج ذلك قوة الانتشار السريع من قبضة الجيش ويضعها تحت إمرة البنتاغون، بحيث تصبح كلمة البحرية مسموعة أكثر لدى القيادة. اتّخذ رئيس هيئة الأركان المشتركة ديفيد جونز قراراً وسطاً وأعرب عن دعمه لسلاح الجو والجيش معاً، ولكن نظراً لميله إلى لمبدأ الإدارة التفصيلية، فقد استحسن فكرة تعزيز سيطرته مع الأركان المشتركة على قوة الانتشار السريع.

مع اقتراب صيف عام 1979 من نهايته، واستمرار تعنّت العسكريين، عيل صبر الرئيس كارتر بفعل المأزق الحاصل، فسأل براون قائلاً: «من المسؤول عن قوة الانتشار السريع؟ هل هي قيادة المحيط الهادىء (PACOM)؟ هل هي القيادة الأوروبية (EUCOM)؟ من المسؤول؟» حاول وزير الدفاع أن يؤكد للرئيس أنهم قد أحرزوا تقدماً، ولكن كارتر لم يقتنع البتة، وكتب على هامش إحدى مذكرات براون مخربشاً: «لا أرى أن أي تقدّم فعلي قد أُحرز»[97]. تعب براون أيضاً من المساومات والمماحكات التي لا تنتهي بين الجنرالات والأدميرالات، وكتب إلى جونز قائلاً: «الهدف من قوة الانتشار السريع هو أن تكون امتداداً للقوّة العسكرية لا ذريعةً لتبرير زيادة عدد القوّات أو الميزانيات»[98].

بعد أشهر من الجدال صاغت الأركان المشتركة تسويةً معقّدة، تصبح قوة الانتشار السريع الجديدة بموجبها هيئةً مشتركة مستقلة تحت إمرة جنرال بثلاث نجوم، تقدم تقاريرها إلى قيادة الجاهزية وتشاطرها مركزها في تامبا. من ناحية ثانية، سيكون لقيادتها مكتب اتصال منفصل في واشنطن يسمح لها بالوصول مباشرةً إلى الأركان المشتركة وكبار المسؤولين في البنتاغون. بالرغم من أن التسوية لم تكن مثالية، إلا أنها كانت جيدة بما فيه الكفاية بالنسبة إلى الوزير براون. قبل أسبوعين من الاستيلاء على السفارة الأميركية في إيران أرسل براون مذكرةً إلى الجنرال جونز يأمره فيها بإنشاء القيادة الجديدة في الأول من آذار/مارس من العام 1980. وبالرغم من أن الهدف الأوّلي لقوّة الانتشار السريع الجديدة هو منطقة الخليج العربي والشرق الأوسط، إلا أنها سوف تُستخدم أيضاً في «الحالات الطارئة التي تهدّد المصالح الأميركية في أي مكان من العالم»[99].

كان بول كزافييه كيلي، بقامته الطويلة ومنكبيه العريضين ووجهه العريض، شبيهاً بأحد أفراد مشاة البحرية (المارينز) وكان سلوكه ينمّ عن ثقة كبيرة بالنفس. ولد كيلي في العام 1928، في ذكرى يوم الهدنة، وكان رجلاً فاتح البشرة أحمر الشعر فخوراً بأصوله الإيرلندية ومدافعاً عنها. اتفق كلٌّ من نقاده ومؤيديه على أنه إنسان عاطفي وأنه كثيراً ما يأخذ الانتقادات المهنية على محمل شخصي، لاسيما إذا كانت تتعلق بسلاح مشاة البحرية العزيز على قلبه. وهو رجلٌ مخلصٌ لأسرته؛ فالأولوية الوحيدة في حياته التي تأتي قبل مشاة البحرية هي زوجته وأولاده. تولّى قيادة مشاة البحرية في فيتنام ثم خدم كضابط ارتباط خلال محادثات السلام في باريس التي أنهت المشاركة الأميركية في حرب فيتنام. أعطت هذه المهمة كيلي أول جرعة قوية من سياسة واشنطن والدبلوماسية الأميركية، فهو لم يكن معجباً بهذه الأخيرة على الاطلاق، فقد شهد خدع هنري كيسنجر عندما كان وزيراً للخارجية ومستشاراً للأمن القومي في عهد الرئيس نيكسون[100].

تلقى بول كزافييه كيلي، بعد ظهيرة يوم جمعة من خريف عام 1979، اتصالاً هاتفياً من أمينة سر الجنرال جونز تسأله إن كان يناسبه الاجتماع برئيس هيئة الأركان المشتركة في الساعة العاشرة صباحاً من اليوم التالي، للحديث إليه بوصفه أول قائد لقوة الانتشار السريع[101]. وكان قائد مشاة البحرية يضغط بشدة كي تُسلّم القيادة لفيلقه، وفي حين اعترض جونز على هذا الأمر واعتبره مجرّد حركة ضيقة الأفق، كان صوت نقاش الساعين في أرجاء مكتب وزير الدفاع يتردّد عالياً[102]. صبيحة يوم السبت، وبينما كان كيلي يستعد للذهاب بسيارته إلى وزارة الدفاع، اتصلت به أمينة سر رئيس هيئة الأركان المشتركة ثانية، لتخبره أن جونز قد استدعي إلى اجتماع في البيت الأبيض، وأنها لا تدري كم من الوقت سيستغرق الاجتماع، وسألته إن كان يستطيع الانتظار قائلةً إنها ستعاود الاتصال به حالما يعود جونز.

أجاب كيلي: «حسناً، الأمر مرتبط بموعد انتهاء الاجتماع. لقد وعدت حفيدتي أن أصحبها بعد ظهر اليوم لمشاهدة فيلم سنو وايت والأقزام السبعة، ولا يمكنني تفويت ذلك».

لحسن حظ حفيدة كيلي وحياته المهنية أيضاً، عاد الجنرال جونز إلى مكتبه في وزارة الدفاع، ووصل بول كزافييه كيلي حوالي الظهر للقاء ودّي وغير رسمي مع قائد سلاح الجو. كان كيلي يرتدي بزةً رسميةً خضراء داكنة وعلى صدره الأيسر مجموعة كاملة من الأوسمة، وبدا كما لو أنه قادم من الهيئة المركزية، وسرعان ما اكتشف جونز أن عقل كيلي يتناسب ومظهره، فقد أُعجب جونز بما رآه، وعرض قيادة قوة الانتشار السريع الجديدة على رجل المارينز. عند خروج كيلي من المكتب قال له جونز بمكر: «جنرال، استمتع بسنو وايت». اكتفت أمينة سر جونز بابتسامةٍ عريضة.

في 1 آذار/مارس 1980، أصبحت القيادة الجديدة أمراً واقعاً وأُطلق عليها رسمياً اسم قوة المهام المشتركة للانتشار السريع (RDJTF)، ومقرها في قاعدة ماكديل الجوية، وهي قاعدة جوية مترامية الأطراف في مدينة تامبا بولاية فلوريدا. أُنشئت هذه القاعدة في شبه جزيرة شاسعة تبعد حوالى خمسة أميال إلى الجنوب من البنايات الشاهقة المطلّة على وسط مدينة تامبا. تشكّل القاعدة الجوية المنبسطة في بقعة مليئة بأشجار الصنوبر والنخيل قاعدةً نموذجية تابعة لسلاح الجو الأميركي، يحتشد فيها مضمار غولف بثماني عشرة حفرة ومرسى للمراكب وشاطئ صغير جذاب، يطل على خليج تامبا الهادئ، وعلى مشهد السفن السياحية والتجارية، المبهج والجميل، التي تدخل تامبا وتخرج منها. أنشئت هذه القاعدة خلال الحرب العالمية الثانية لتدريب طيارين جدد لقاذفات القنابل، وقد صُوّرَت وعُرّف الجمهور بها في فيلم عُرض عام 1955 بعنوان: القيادة الجوية الاستراتيجية (Strategic Air Command)، الذي كان فيلماً دعائياً صريحاً لسلاح الجو أدّى دور البطولة فيه الممثل جيمس ستيوارت.

أقام بول كزافييه كيلي مركز قيادته في بناء كبير مربع الشكل نصف مطمور بجانب مدرج الطائرات، في ركن معزول من القاعدة. سُمّي المقرّ «المبنى 5201»، وكان يُعرف بـ «مول هول» (جحر الخلد) ولا يمكن الوصول إليه إلاّ عبر طريق واحد فقط بطول كيلومتر ونصف. وقد شُيّد

مبنى «مول هول» في عقد الخمسينيات ليكون بمثابة غرفة لانتظار الأوامر ومركز قيادة قاذفات القنابل النووية التي تنتظر معركة أرمجدون. يؤوي المبنى، حتى كتابة هذه السطور، قيادة العمليات الخاصة التي تدير الحروب السرية في أفغانستان والشرق الأوسط.

تطورت القيادة الجديدة بنجاح على الرغم من خمول الأسلحة الأربعة وعدم مبالاتها في تأمين موظفيها البالغ عددهم 250 موظفاً. لقد خلق الغزو السوفيتي لأفغانستان جواً متأزّماً في «مول هول»، حيث كان الضباط يعملون بشكل روتيني ست عشرة ساعة في اليوم. بعد أقل من شهرين من التكليف الرسمي بإنشاء القيادة أجرى كيلي التدريبات الأولى الكاملة للوحدة في جبال ولاية ايداهو. يُعدّ هذا الجهد متواضعاً مقارنةً بما سيتبعه، وشمل نقل كتيبة عسكرية واحدة جواً في عملية دفاع زائفة عن باكستان ضد الغزو السوفيتي. كانت تلك العملية هي الأولى من برنامج تدريبٍ قاسٍ في مختلف أنحاء الشرق الأوسط، أُطلق على أكبر عملية تدريب فيه اسم «النجم الساطع»، وجرت في تشرين الثاني/ نوفمبر من العام 1980؛ وشملت إرسال نحو ستة آلاف وخمسمئة جندي أميركي مدة عشرين يوماً كل سنتين إلى الصحراء المصرية للقيام بمناورات عسكرية، ولا تزال العملية مستمرة حتى يومنا هذا[103].

سرعان ما بدأ مساعدو كيلي التخطيط لحرب عالمية ثالثة في إيران، معتبرين أن هناك خطتين روسيتين محتملتين لغزوها، قد تكون إحداها توغّلاً سريعاً الهدف منه احتلال أذربيجان الإيرانية، إما لدعم انقلاب شيوعي في طهران وإما لإحباط الثورة الإسلامية ومنعها من الانتشار والوصول إلى السكان المسلمين في الاتحاد السوفيتي. وتنطوي الخطة الثانية على تهديد أكثر خطورة، وذلك بتنفيذ غزو واسع النطاق لإيران، تُستخدم فيه خمس عشرة فرقة إلى أربع وعشرين، هدفه الاستيلاء بسرعة على حقول خوزستان النفطية في جنوب غرب إيران، فضلاً عن عنق الزجاجة الحيوي الذي يشكّله مضيق هرمز، لوقف تدفق النفط إلى الغرب[104]. توقّع أحد مخطّطي الحرب الأميركيين أنه بعد إخضاع إيران «قد يشنّ السوفيت عملية هجومية ضد الدول العربية في المنطقة»، فتدمّر الطائرات السوفيتية منشآت نفطية في المملكة العربية السعودية فينخفض تدفق النفط الخام إلى الغرب، وأن توضع دبابات الجيش الأحمر في مواقع تهدّد تركيا والجناح الجنوبي لحلف شمال الأطلسي. وخشي المخططون العسكريون الأميركيون من أن يحاول السوفيت شنّ هجوم خاطف باستخدام القوات المجوقلة لاحتلال مضيق هرمز، وربما الهبوط بالمظلات في حقول النفط السعودية واحتلال المملكة في هجوم مباغت.

كانت هذه المخاوف الأميركية عبثية؛ فحتى لو استخدمت موسكو جيشها بأكمله، وتلقّت دعماً واسع النطاق من جانب حلفائها الإقليميين مثل العراق وسوريا، فإنها ستواجه مهمةً صعبةً جداً في احتلال إيران، فضلاً عن منطقة الشرق الأوسط بأكملها. كما تبدو سخيفة وغير واقعية فكرة أن الجيش الأحمر بوسعه تزويد مئات الآلاف من الجنود بالرصاص والفاصولياء والبنزين على مساحة طولها ألف ميل من خلال طريق الإمدادات الذي يجتاز جبال زاغروس الشاهقة في إيران، ولاسيما في ضوء ضعف أدائه العسكري في أفغانستان. ومع ذلك سادت حالة من الذعر في واشنطن بعد الغزو السوفيتي لأفغانستان، ولم يشك أيٌّ من الحزبين، الديمقراطي والجمهوري، في واقعية قلق

واشنطن، ولاسيما أنه كان سنة الانتخابات الأميركية، وأنّ الإدارة الأميركية تتلقّى انتقادات لتهاونها في الدفاع.

اعتمدت خطط كيلي الحربية المتعلقة بإيران على دعم دول الخليج العربية[105]. فقد رأى أنه ينبغي حشد وتجميع القوات والطائرات الأميركية في المملكة العربية السعودية وسلطنة عمان والبحرين، لحماية منشآتها النفطية من جهة، ولتكون قاعدة انطلاق للتحرك مباشرةً إلى إيران من جهة ثانية، فيقتحم مشاة البحرية الأميركية، مدعومين بطائرات البحرية المنطلقة من حاملة للطائرات، الشواطئ حول بندر عباس، ويحتلون الميناء والمطار لتأمين مضيق هرمز وجزيرة خرج التي يتدفق منها 96٪ من صادرات النفط الإيرانية[106]. وبعد تأمين الطرق البحرية في الخليج العربي تقوم ثلاث فرق من الجيش الأميركي باحتلال ميناء بوشهر الواقع في المنطقة الشمالية من الخليج، ومن ثم تتحرك نحو الداخل لاحتلال مدينة شيراز الإيرانية ذات الموقع الاستراتيجي على سفوح جبال زاغروس. وما أن تثبت القوات الأميركية مواقعها تماماً في هذه القواعد، حتى تقوم بالانتشار لوقف تقدّم القوات السوفيتية المتحرّكة جنوباً عبر الجبال، وحماية حقول النفط في خوزستان والخليج العربي[107]. ومثلما كان يحدث في أوروبا في الوقت نفسه، تمّ تخصيص ما لا يقل عن مائتي ألف جندي من الرجال والنساء لغزو إيران[108].

أصبح الوقت كلمة السر الحاسمة لدى المخططين الأميركيين. قدّرت وكالة استخبارات الدفاع أنها لا تستطيع التنبؤ بحدوث عملية توغل محدودة إلاّ قبل سبعة أيام فقط من حدوثها، وربما قبل ثلاثة أسابيع فقط في حالة الغزو الواسع النطاق. غير أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تحشد في الأسابيع الثلاثة الأولى سوى خمسة وثلاثين ألفاً فقط من الجنود ومشاة البحرية، الذين سيتم نقلهم جواً إلى منطقة الخليج. وتوقع المخططون، سواء في تامبا أو البنتاغون، أن أي عملية لنقل عدد كبير من القوات المقاتلة إلى الخليج ستستغرق ثلاثين يوماً. في ظل أفضل الظروف، لم يكن الوقت لمصلحة كيلي في السباق نحو إيران[109].

على أي حال، كانت لدى كيلي ورقة رابحة لكسب الوقت ووقف تقدم السوفيت نحو إيران، ألا وهي الأسلحة النووية. لم تُحجم الولايات المتحدة قط عن التخطيط لاستخدام الأسلحة النووية من أجل الدفاع عن نفط الخليج العربي. ترددت واشنطن في قصف الاتحاد السوفيتي نفسه بالأسلحة النووية خشية منها أن تؤدي هذه الخطوة إلى حرب نووية شاملة، وقد خمّن أحد المخططين الأميركيين في العام 1982 أن مثل هذه الحرب ستؤدّي إلى مقتل 50 إلى 75 بالمئة من سكان الولايات المتحدة. ومع ذلك كان يُنظر إلى القوات السوفيتية في إيران على أنها هدفٌ مشروع. فإذا كان الجيش الأحمر يستعد للفوز في السباق إلى مضيق هرمز، فإن الأسلحة النووية التكتيكية ستكون القوة المختارة لمنعه من بلوغ ذلك[110].

في البداية لم يكن ميزان الأسلحة النووية في الشرق الأوسط يميل لصالح الولايات المتحدة، فقد حشد السوفيت ترسانةً هائلة من الأسلحة الاستراتيجية موجّهةً الى منطقة الخليج العربي

وقادرةً على تدمير القواعد العسكرية والموانئ والمصافي والحقول النفطية في المنطقة. كما نشر السوفيت ضمن دروعهم وفرقهم المؤللة 152 صاروخاً تكتيكياً متحرّكاً مصمّماً لحمل رؤوس نووية، فضلاً عمّا يقرب من 300 قذيفة مدفعية نووية. وكان مقر الصواريخ البالستية البعيدة المدى في جنوب القوقاز السوفيتية، ما يُسهّل وصولها إلى أي ركن من أركان الشرق الأوسط. وقد عزّز هذه الترسانة وجود 283 طائرة حربية قادرة على إلقاء قنابل نووية ذات قوة تدميرية تفوق بشكلٍ هائل القنبلة التي أُلقيت على هيروشيما. وكشفت الاستخبارات الأميركية عن وجود غرف محصّنة تحت الأرض تختزن أسلحة نووية في أربعة مطارات سوفيتية لدعم غزو إيران فقط.

في كانون الأول/ديسمبر من العام 1980، أعدّ مساعد وزير الدفاع للشؤون السياسية كومر دراسة حول إمكانية استخدام الأسلحة النووية للدفاع عن الخليج العربي. قال كومر إن الهدف الأول هو ردع أي عدوان سوفيتي على إيران وإذا فشل الردع فمن شأن استخدام الأسلحة النووية تبليغ موسكو أن الولايات المتحدة مصممة على الدفاع عن الخليج. وافق كومر على ثلاثة خيارات في استخدام الأسلحة النووية ضد الاتحاد السوفيتي في إيران. تُستخدم هذه الأسلحة في الخيارين الأولين داخل إيران فقط، بهدف منع تقدّم القوات السوفيتية من خلال تدمير الممرّات الجبلية الواقعة على الحدود الإيرانية السوفيتية وجبال زاغروس، ما يعيق تحرك موسكو جنوباً باتجاه الخليج. ولكن في حال أصبحت القوات السوفيتية داخل إيران بالفعل، فسوف تدمر مدفعية الجيش الأميركي النووية التكتيكية القوات البرية الأمامية التي تهاجم القوّات الأميركية. ويرتكز الخيار الثالث على توسيع الهجمات النووية الأميركية لتصل إلى قواعد ومواقع الصواريخ النووية في جنوب الاتحاد السوفيتي، وضرب مركز القيادة النووية السوفيتية، والقواعد اللوجستية، والقوات التقليدية. خلصت خطة البنتاغون إلى أن الهدف منها هو تدمير قدرة موسكو على «مواصلة عملياتها العسكرية في إيران».

عُرف خيار كومر بشأن استخدام أسلحة نووية في إيران بـ «الخيار السلبي»، في ما يشبه كلام الدكتور سترانجلوف في الفيلم الشهير؛ حيث تقوم القوات الأميركية الخاصة بموجبه بتفجير أجهزة نووية في معابر جبلية رئيسة وأنفاق وطرق تمتد من الاتحاد السوفيتي حتى غرب إيران، حيث يؤدي التفجير النووي إلى انهيارات جبلية ثلجية تمنع تقدّم الدبابات السوفيتية إلى داخل إيران. ولأن الوقت كان بمثابة كعب أخيل بالنسبة إلى قوة الانتشار السريع الأميركية، أشار كومر في دراسته قائلاً: «إن إغلاق المعابر أمام الغزو الأولي من شأنه أن يعوق بشكل كبير تقدم الجيش الأحمر، وإذا لم يردّ السوفيت بالمثل فقد يوفّر ذلك وقتاً إضافياً للولايات المتحدة كي تنشر قواتها». علاوةً على ذلك، ثمة ميزة إضافية في هذه العملية وهي عدم استهداف القوات السوفيتية بصورة مباشرة، نظراً إلى أن ذلك قد يؤدّي إلى تصعيد سريع وبالتالي الى حرب نووية. خصص البنتاغون أكثر من عشرين قنبلة نووية مُدمرة لهذه المهمة في إيران، تُعرف شعبياً باسم «قنابل مانباك (manpack) النووية»، وهي متوفرة في المخزون الأميركي منذ الخمسينيات. تزن كلٌّ من هذه القنابل أقل من 163 باونداً (75 كيلوغراماً)، ويمكن إنزالها بسهولة بالمظلات أو تهريبها سراً بواسطة فريق صغير من القوات الخاصة. قضت الخطّة بطمر هذه القنابل النووية وضبطها على

قدرات تفجيرية مختلفة، بحيث تشكّل متفجرة صغيرة نسبياً تدمّر نفقاً كبيراً، أو تولّد انفجاراً ضخماً يدمّر ممراً جبلياً بأكمله[111].

أشار كومر إلى أن الجانب السلبي الوحيد في هذه الاستراتيجية هو أنها تتطلب استخدام الأسلحة النووية أولاً، وكتب أن هذا الاستخدام الوقائي للأسلحة النووية «ينطوي على خطر تصعيد يتعذر ضبطه». وحتى في حال اللجوء إلى «الخيار السلبي»، قد يردّ السوفيت بالمثل فيمحون موانئ بوشهر وبندر عباس من الوجود للحؤول دون رسوّ القوات الأميركية الوافدة فيها. بيد أن هيئة الأركان المشتركة وكذلك كومر لم يعتبرا هذا الردّ مؤذياً للغاية. كتب كومر أنه في حسابات الحرب الباردة المؤلمة «قد تكون النتيجة الصافية، أقلّه في المدى القصير، هي خلق وضع عسكري محايد في ما يتعلق بالقوات البرية التابعة لكلٍّ من الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفيتي». فإن لم يتمكن كلا الجانبين من الدخول إلى إيران، فإن الولايات المتحدة تكون قد حققت هدفها المتمثل في الحفاظ على حقول النفط. ولم يفكر أحد في ما قد يكون رأي إيران في مثل هذا السيناريو.

لم تهبّ الرياح السياسية لصالح الرئيس جيمي كارتر في تشرين الثاني/نوفمبر عام 1980. ألقى الناخبون بالديمقراطيين خارج السلطة في الإعصار الذي تمثّل في شخص رونالد ريغان، الذي فاز بأربع وأربعين ولاية من أصل خمسين، وبأغلبية ساحقة في الانتخابات الرئاسية. وهكذا وقع عبء تنفيذ مبدأ كارتر على عاتق خليفته. غير أن خطاب كارتر عن حالة الاتحاد، ذاك الذي ألقاه في ليلة باردة من شهر كانون الثاني/يناير، أطلق استراتيجية أميركية جديدة، مهمة لمنطقة الشرق الأوسط. والتأم أخيراً فريق كارتر للسياسة الخارجية في السنة الأخيرة من عهده حول خطة جديدة للدفاع عن النفط في الشرق الأوسط، بعد تخبطه وتشرذمه بسبب أزمات الشرق الأوسط المتلاحقة.

واصل الرئيس كارتر في الشهر الأخير من عهده تعديل استراتيجيته تجاه الشرق الأوسط، فوقّع في 7 كانون الثاني/يناير أمراً سرياً يعارض السياسة الأميركية القائمة على حرية الملاحة في الخليج العربي، وأذن للبنتاغون، على وجه الخصوص، باستخدام القوة لمنع إيران من إغلاق مضيق هرمز أمام صادرات النفط. كما وقّع قبل انتهاء ولايته بخمسة أيام فقط آخر توجيهاته، الذي يقضي بإعداد هيكلية بريجينسكي الأمنية من أجل الخليج العربي. شمل هذا التوجيه الذي كُتب في المقام الأوّل لصالح الإدارة الجديدة القرارات التي تمت مناقشتها ومراجعتها بعناية طوال السنة المنصرمة. وقد أرسى كارتر عنصراً جديداً في السياسة الخارجية وهو أن الولايات المتحدة قد تستخدم القوة لمنع إيران من عرقلة التدفق الحر للنفط من الخليج العربي[112]. تحركت الحكومة الأميركية لتطوير علاقات عسكرية وثيقة مع الدول العربية الموالية للغرب المحيطة بإيران، وتوصّلت إلى اتفاقات ضمنية تُسهّل عمليات ذراع أميركا العسكرية الجديدة المخصّصة للتدخل في الشرق الأوسط. وقد تم تنقيح الخطط العسكرية الأولى لقتال السوفيت. ومع أن مؤيدو ريغان أعلنوا عن بزوغ فجر جديد يبشّر بموقف أشد حزماً ضد الاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة، إلا أن جيمي كارتر كان هو من وضع فعلياً حجر الأساس لاستراتيجية أميركية كبرى للعقد المقبل[113].

الفصل الثالث

بوب الأسلاك الشائكة

في 20 كانون الثاني/يناير أصبح رونالد ويلسون ريغان الرئيس الأربعين للولايات المتحدة الأميركية. قضى جيمي كارتر القسم الأعظم من صباح يومه الأخير في منصبه وهو يضع اللمسات الأخيرة على عملية إطلاق سراح الرهائن الأميركيين في إيران. كان يوماً حلواً ومراً بالنسبة إلى كارتر؛ كان الرئيس الجديد قد أدّى اليمين الدستورية عندما غادر الرهائن مطار طهران على متن طائرتهم إلى الجزائر وإلى الحرية.

كان ريغان في التاسعة والستّين من عمره، ما جعل منه أكبر رئيس منتخب للولايات المتحدة. على الرغم من تجاعيد وجهه المستطيل التي توحي بتقدمه في السن، كان حيوياً ونضراً بقدر ما دلّ عليه شعره الأسود الغامق، ومبتهجاً دوماً، فنادراً ما كان يظهر عليه الغضب. كان هذا القائد الجديد للقوات المسلحة يمتلك حسّاً قويّاً بالصواب والخطأ وعُرف عنه تجنبه تعقيدات التفاصيل السياسية. فقد كان يقدم رؤية كونية واسعة وصلبة تتمثّل بالاستقامة الأخلاقية لقيم العالم الحر في مواجهة الإمبراطورية السوفيتية التوسعية الشريرة.

كان ريغان يكره المواجهات الشخصية، ويتجنّب الخلافات وجهاً لوجه، ويميل إلى تأجيل القرارات غير السارة ولاسيما إن كانت تمسّ معارفه القدامى العاملين في الإدارة. لعلّ ذلك أدّى إلى اجتماعات رائعة مع العاملين في الإدارة، لكنّه أدّى أيضاً إلى انفضاض جلسات مهمة بشأن الأمن القومي دون أن يكون لدى أيٍّ من الحاضرين أدنى فكرة عمّا قرره الرئيس فعلاً.

بدا الرئيس الجديد للوهلة الأولى نقيض سلفه تماماً. فكارتر بدا أشبه بناظر مدرسة يوبّخ تلامذته؛ أما ريغان فقد بدا ساحراً. وفي حين كان كارتر يبحث عن الفوارق السياسية الدقيقة، ظل ريغان شخصاً لا اختصاصياً، ينأى عن وضع يديه في العجين. كانت لكارتر رؤية واضحة لطريقة التقدّم في الشرق الأوسط عبر عملية السلام العربية الإسرائيلية وقوة الانتشار السريع؛ في حين لم تكن لدى ريغان أي قناعات راسخة في هذا الشأن عندما تولّى منصبه. كان كارتر بطيئاً في إدراك

الخطر الذي تشكّله المغامرة السوفيتية في الشرق الأوسط؛ أما ريغان فقد كان عازماً على مواجهة التوسع السوفيتي عندما وصل إلى المكتب البيضوي.

أُعجب قائد فيلق مشاة البحرية الأميركية الجنرال روبرت بارو بالرئيس الجديد. وكان بارو سيّداً جنوبياً طويل القامة حسن السلوك من ولاية لويزيانا، وكان قد حاز وسام صليب البحرية، ثاني أرفع وسام عسكري في البلاد، عندما كان قائد سرية خلال الانسحاب الملحميّ من منطقة خزان شوزين في كوريا. وعلى الرغم من احترامه الكبير لتفكير وزير الدفاع هارولد براون وذكائه، إلا أنه كان يضمر شكوكاً حيال العديد من سياسات كارتر الدفاعية، التي اعتبر أنها تركت أميركا ضعيفةً وعرضةً للهجوم من جانب الاتحاد السوفيتي. وزاد الانقباض في نفس بارو جرّاء صدمة أزمة الرهائن التي دامت عاماً كاملاً وكارثة فشل مهمة إنقاذهم. جاء وعد ريغان في حملته الانتخابية بزيادة الإنفاق على الدفاع كبلسم ملطّف خفّف من مخاوف بارو والعديد من زملائه الجنرالات.

خلال اللقاء الأوّل بين قائد المارينز وريغان على المنصة أثناء الاستعراض العسكري بمناسبة خطاب تولية الرئيس، مرّ تشكيلٌ عسكريٌّ يحمل العلم الأميركي، فاستدار الرئيس نحو بارو وسأله فيما إذا كان من اللائق أن يردّ الرئيس التحية الخاصة بالعسكريين على الرغم من كونه مدنياً[114].

أجاب بارو بلهجته اللويزيانية البطيئة: «نعم سيدي الرئيس، فأنتم القائد العام للقوات المسلحة». فردّ ريغان التحية، مسجّلاً بذلك سابقةً لا تزال مستمرّة حتى يومنا هذا.

تحفّظ المُعيّنون السياسيون الذين شكّلوا الإدارة الجمهورية الجديدة على بقاء أشخاص من عهد كارتر في مناصبهم، وقلّما اهتموا خلال الفترة الانتقالية بالاطلاع على مبادرات كارتر الخاصة، كما أبدوا ازدراءً واضحاً تجاه أي شخص وافق على سياسات كارتر تجاه إيران والاتحاد السوفيتي، التي كانت تُعتبر ضعيفة وليّنة أكثر من اللازم. تحمّل رئيس هيئة الأركان المشتركة، الجنرال ديفيد جونز، القسط الأكبر من عدم الاحترام الذي أبداه الفريق المدني الجديد. اعتقد الجمهوريون أن جونز كان أكثر من راغب في مجاراة سياسات كارتر، كالتّخلي عن السيطرة الأميركية على قناة بنما، والتخفيضات في برامج الدفاع، كبرنامج قاذفة القنابل B-1. من جانبه فكّر الرئيس ريغان في صرف جونز من عمله، قد بقي له عام واحد كي يغادر منصبه كرئيس لهيئة الأركان المشتركة، لكنّه قرّر عدم صرفه خشية أن تشكّل إقالة جونز سابقةً سيئة، والحل الذي ارتآه هو أن يقصي ببساطة جونز عن أي مداولات جدّية إلى أن يتمكن من تعيين قائد يروق له أكثر. ورفض ريغان في السنة الأولى من رئاسته الذهاب إلى البنتاغون والاجتماع بهيئة الأركان المشتركة. وكان ذلك ازدراءً استثنائياً لم يترك المجال لأي أوهام في واشنطن حول تفكير الإدارة الجديدة بخصوص أعضاء السلك العسكري الذين عملوا في وزارة الدفاع في عهد كارتر. ولم يكن لهذا الموقف تأثير أقل على العسكريين مما لو قام ريغان باستبدال جونز[115].

تقاعد ديفيد جونز في الموعد المحدد في حزيران/يونيو عام 1982، فعيّن ريغان الفريق أول جون «جاك» فيسي في منصب المستشار العسكري الأعلى الجديد. كان فيسي جندياً متواضعاً من الذين خبروا ساحات القتال، وترقّى في الرتب العسكرية ومُنح منصباً قيادياً في معركة أنزو الدامية في إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية. كان رئيس الأركان المشتركة الجديد رجلاً نحيلاً أشيب الشعر ومتفانياً؛ لم يكن معاصروه يرون فيه توقّد الذكاء، لكنه كان يحظى بالاحترام داخل المؤسسة العسكرية، وعُرف عنه صدقه واستقامته، وهما الصفتان اللتان أعجب بهما الرئيس ريغان. لم تكن الحرب بالنسبة إلى فيسي تدريباً أكاديمياً؛ فقد اختبر القتال عن قرب من خلال مشاركته في ثلاث حروب، وظل متحفظاً بشأن المخاطرة بحياة الشبان، فقد كان يرى أن القوة العسكرية يجب أن تكون الخيار الأخير.

واصل فريق ريغان للسياسة الخارجية العمل بالعديد من سياسات كارتر الدفاعية في الخليج العربي لكن أن الفريق كره الاعتراف بذلك. أعدت هيئة الأركان المشتركة في وقت مبكر من إدارة ريغان دراسةً جديدة حول بناء قواعد إضافية للقوات الأميركية بدءاً من المغرب ووصولاً إلى الصومال عكست قرارات الرئيس كارتر. راقت هذه الدراسة وزير الدفاع كاسبر واينبرغر، وضغطت إدارة الرئيس ريغان للحصول على مبلغ إضافي بقيمة 700 مليون دولار لبناء قواعد في الشرق الأوسط لدعم قوة الانتشار السريع[116].

في 30 أيلول/سبتمبر 1981، اجتمع فريق ريغان للأمن القومي في قاعة مجلس الوزراء الواقعة بجانب المكتب البيضوي لوضع اللمسات الأخيرة على مرسوم قرار سيوقعه الرئيس حول مقاربة الإدارة في ما يخص إيران؛ فإطلاق سراح الرهائن لم يؤدِّ إلى تحسين العلاقات بين طهران وواشنطن. كتب مستشار الأمن القومي ريتشارد آلن إلى وزير الدفاع موضحاً أن موضوع تحسين العلاقات بين البلدين يتوقف على «استعداد إيران لإثبات احترامها للقانون الدولي والعرف المتحضّر عبر قيامها بإجراءات محددة»[117]. وأكّدت هذه الوثيقة السياسية الجديدة مرّةً أخرى على أهمية منع أي هيمنة سوفيتية على النفط الإيراني، ووضعت خطوات لزيادة جمع المعلومات الاستخباراتية داخل إيران، ومنع توسع الثورة الإسلامية، وتشجيع المعتدلين الموالين للغرب داخل الحكومة الإيرانية[118]. ظلت هذه الخطوات حجر الزاوية والركن الأساس في السياسة الأميركية تجاه إيران على مدى السنوات الثماني التالية من رئاسة ريغان.

كان وزير الدفاع الجديد كاسبر واينبرغر شديد البأس كما أنه كان دمثاً وأنيقاً. كان ابن ولاية كاليفورنيا صديقاً مقرباً من ريغان على الصعيدين السياسي والشخصي ونصيراً جمهورياً راسخ الإيمان. وقد شغل في عهد الرئيس نيكسون منصب مدير الميزانية ووزير الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية. وبخلاف أسلافه المباشرين الذين شغلوا منصب وزير الدفاع كان «كاب» (cap)، مثلما كان يناديه معظم العاملين في البيت الأبيض في عهد ريغان، قد شهد الحرب عندما خدم في منطقة المحيط الهادىء خلال الحرب العالمية الثانية كضابط مشاة، وفي وقت لاحق كضابط

استخبارات في طاقم عمل ماكآرثر. وقد أثّرت خدمته العسكرية القصيرة على نظرته إلى الأمور في منصبه الجديد.

عندما وصل واينبرغر إلى مكتبه في البنتاغون في الطابق الثالث من الدائرة الخارجية (E)، أزال على الفور صورة رسمية كبيرة لأول وزير دفاع، وهو جيمس فورستال القاسي المظهر، الذي كان يعاني من الاكتئاب فانتحر بإلقاء نفسه من نافذة عالية في البرج الضخم في مستشفى بيثيسدا البحري. واستبدل بها واينبرغر لوحةً أكثر إلهاماً رسمها تيتيان منذ أكثر من أربعمئة عام، تُمثل كاردينالاً كاثوليكياً وهو يمنح بركته لرئيس دير، وهي لوحة غنية بالألوان وجدها الوزير الجديد مريحةً للأعصاب. كما زيّن مكتبه الفسيح بتمثالين نصفيين من البرونز، يمثل الأول دوغلاس ماكآرثر، رئيسه في زمن الحرب، ويمثل الثاني جندي مشاة. كتب واينبرغر في وقتٍ لاحق: «أردت أيضاً أن أوضّح أن إدارتنا لم تكن قلقة من أن تكون ميّالة أكثر مما ينبغي إلى العسكريّة»[119].

كان واينبرغر رجلاً حذراً في السياسة؛ والقوة العسكرية، برأيه، ملاذٌ أخير وليس أولاً. أشار المؤرخ العسكري الشهير ستيفن ريردين قائلاً: «كان واينبرغر يحب امتلاك القوة، لكنه لم يرغب حقاً في استخدامها». لخّص واينبرغر أفضل ما تتضمنه فلسفته في كلمةٍ ألقاها في مأدبة غداء أُقيمت في 28 تشرين الثاني/نوفمبر 1984، في نادي الصحافة الوطني القائم في شارع البيت الأبيض. لخّص وزير الدفاع، في ما أصبح يُعرف بمبدأ واينبرغر، جملةً من المعايير التي ينبغي تلبيتها لإشراك القوّات الأميركية في القتال: يجب أن تكون المعركة من أجل المصالح الوطنية الحيوية فقط ولأهداف محددة بوضوح من أجل تحقيق النصر، وفقط إذا حظيت بدعم الشعب الأميركي».

عكست هذه الرؤية معتقدات الأشخاص الذين أحاط واينبرغر نفسه بهم، ولاسيما اثنين من أهم المقربين إليه هما كبير مساعديه العسكريين اللواء كولن باول ونائب مساعده ريتشارد أرميتاج[120].

أُعجب باول بواينبرغر منذ أن خدم تحت إمرته لفترة وجيزة في برنامج زملاء البيت الأبيض في عهد إدارة الرئيس فورد. يسهل على المرء أن يحب باول، فقد كان يتحلّى بالعديد من أفضل الصفات التي يجب أن يتحلّى بها القائد العسكري، إذا كان ذكياً ودقيقاً في لغته ويتمتّع بابتسامة جذابة وبحس الفكاهة. وكان باول يوحي بالإخلاص والاحترام من قِبل رؤسائه ومرؤوسيه على السواء، ولكن لم يكن بالإمكان وصفه بأنه ذو خبرة مباشرة في أرض المعركة، فقد كان هذا الجنرال السياسي البارع ذو التأثير القوي مختلفاً اختلافاً كبيراً عن رئيس هيئة الأركان المشتركة جون فيسي. عندما وصل باول إلى واشنطن للمرة الأولى في شهر أيلول/سبتمبر من عام 1969، كان ضابطاً برتبة متوسطة، ولم يغادرها قط إلا للقيام بجولات قيادية إلزامية قصيرة لضمان الترقيات. عندما تولى منصب كبير المساعدين العسكريين لواينبرغر، كان قد عمل في أروقة البنتاغون نحو عقد من الزمن، وسبق له أن شغل هذه الوظيفة نفسها ككبير المساعدين العسكريين لنائب وزير الدفاع في إدارة كارتر.

كان ريتشارد أرميتاج حالة غير عادية في واشنطن نظراً لمزاياه العديدة، فقد تشكّل هذا الرجل في قالب مختلف عن غيره في هذه المدينة المنتجة للسياسيين المصقولي الحاشية وجماعات الضغط والمحامين. خدم دورات عدة في فيتنام كضابط بحرية، وكان رافع أثقال متحمساً، ويمشي يومياً حتى نادي ضباط البنتاغون الرياضي الذي كان أشبه بمتاهة مظلمة تفي بالغرض كصالة رياضة للبنتاغون. كان أرميتاج آنذاك في عقد الأربعينيات من العمر، لكنّه كان يرفع بسهولة على جهاز رفع الأثقال وزناً أثقل مما كان يرفعه معظم الجنود الأصغر منه سناً. كان صريحاً وفظاً ومتواضعاً في تصرفاته؛ شعره خفيف وصدره كالبرميل، ما جعله يشبه العم فيستر في المسلسل التلفزيوني: «عائلة أدامز»، باستثناء عينيه الزرقاوين اللامعتين اللتين تدللان على رجاحة عقله وطاقته الكبيرة غير المحدودة. كان أحد المقربين من واينبرغر، ويمكن القول إنه الرجل الأكثر نفوذاً في وزارة الدفاع الأميركية. قال جنرال بأربع نجوم عنه: «إذا أردت أن يُنفَّذ شيء، فعليك الذهاب إلى ريتش».

وجد واينبرغر على مكتبه في أول يوم له كوزير جديد للدفاع رسالةً من الجنرال فولني وارنر تتضمن سلسلةً من التوصيات تهدف إلى أن يوضع تحت إمرته مركز قيادة قوة الانتشار السريع، التي يقودها بول إكس كيلي، ومركز قيادة نخبة مكافحة الإرهاب المعروفة باسم قيادة العمليات الخاصة المشتركة في قاعدة فورت براغ[121]. كان واينبرغر قد تابع التاريخ المعقّد لقوة الانتشار السريع، ورأى أن فكرة حرب برية كبرى في إيران غير واقعية، وأيّد الذين يرون أن ما تحتاجه القوّات المسلّحة ليس قوّة تدخّل لمنطقة الشرق الأوسط بل قوة ردع. ومع ذلك فقد واجه المعضلة نفسها التي واجهها الوزير براون، وهي أن الجيش كان لا يزال منقسماً بصورة يائسة حول كيفية التعامل مع إيران والشرق الأوسط.

كان واينبرغر يعرف من تجربته العسكرية القصيرة مخاطر الحدود بين الوحدات، حيث تبرز المشاكل عندما تلتئم وحدتان صديقتان معاً، وكان يقول: «سبق لي أن رأيت بعض الصعوبات عندما تكون الحدود القيادية مشتركة بين الوحدات، إذ يحاول العدو استغلال هذا التلاحم بين وحداتنا»، مشيراً إلى أن في الشرق الأوسط لدينا حدوداً كهذه بين قيادتين مستقلتين ضخمتين كل منهما تحت إمرة جنرال بأربع نجوم هما القيادة الأوروبية وقيادة المحيط الهادىء، اللتان تغطّيان المنطقة الأشد اضطراباً في العالم. واعتبر أن قوة الانتشار السريع تفاقم مشكلة تحديد المسؤول الفعلي في حال وقوع حرب في الشرق الأوسط، وفكر قائلاً: «نحتاج إلى رجلٍ واحد تُعهد إليه المهمة في المنطقة كلها»، وقد حفزته رسالة وارنر على اتخاذ التدابير اللازمة لذلك.

في أوائل نيسان/أبريل 1981، اجتمع كاسبر واينبرغر في غرفة «التانك» مع هيئة الأركان المشتركة لمناقشة مستقبل قوة الانتشار السريع. لم يدعم أيٌّ من الألوية الخمسة المجتمعين فكرة الإبقاء على هذه القوة. ذكَّر واينبرغر بوجهة نظر رئيس العمليات البحرية قائلاً: «سوف تؤدي العمليات في الخليج العربي إلى نشر الأسطولين بشكل كبير»[122]. تجاهل الوزير رأي كلٍّ من هيئة الأركان المشتركة وفولني وارنر، وأيّد بول كزافييه كيلي، وأمر قوة الانتشار السريع بالانضمام إلى مركز قيادة جديد يقوده جنرال بأربع نجوم. ستكون هذه القيادة قيادة جديدة موحدة، مثلما وصفها

البنتاغون، تتحكّم بالقوات العسكرية الأميركية كلّها في جميع أنحاء الشرق الأوسط، بغضّ النظر عن السلاح (أكانت قوات جوية أم بحرية أم برية).

زاد قرار وزير الدفاع من حدة المناقشات الجدلية بين السادة الخمسة الذين غزا الشيب شعرهم، والمجتمعين في «التانك». تجادلوا حول الوحدات التي ينبغي إلحاقها بالقيادة الجديدة، وما هي البلدان التي ينبغي أن تشملها (وكانت مصر وإسرائيل محور الجدال الرئيس) و استنفدت أيضاً قيادة البنتاغون كمية هائلة من طاقتها الذهنية لتسمية القيادة الجديدة التي سيقودها جنرال بأربع نجوم. وهدف أحد الاقتراحات إلى تسميتها «قيادة الهلال». واقترح أحدهم تسميتها «القائد الأعلى للشرق الأوسط، وأفريقيا، وجنوب غرب آسيا»، وتختصر بـ (CINCMEAFSWA). اقترح الفريق روبرت كينغستون، بديل كيلي في قوة الانتشار السريع، «تسميتها القيادة المركزية الأميركية» لما يعطيه الاسم من انطباع بالأهمية، ومع ذلك لم تحب هيئة الأركان المشتركة هذه التسمية، حيث لم يتضح لها بما ترتبط صفة مركزية القيادة، فتقدّمت بالمقابل باقتراح تسمية «قيادة جنوب غرب آسيا». اعترض بعض البيروقراطيين على هذه التسمية كونها تبدو شبيهةً جداً بقوة تدخل، وكان هذا هو سبب وجودها في الواقع. كتب أحد مساعدي واينبرغر العسكريين إلى الوزير قائلاً: «سمعت أحدهم يذكر (WEINLUCCICOM)، لكني لم أفهم إلامَ ترمز الحروف[123]». واستمر الوضع على ما هو عليه شهراً تلو شهر.

في النهاية كسر بعض الدفع اللطيف من الرئيس هذا الجمود. لقد فهم رونالد ريغان الدمار الذي ألحقته إيران بسلفه، وتحمّس على نحو غير اعتيادي لتشكيل قيادة عسكرية لمنطقة الشرق الأوسط. وكتب إلى واينبرغر عند سماع قراره بتشكيل مركز قيادة للشرق الأوسط بأربع نجوم: «أؤيد ذلك بحماسة. لطالما شعرت أن أهمية هذه المنطقة تحيجنا إلى أمثل الترتيبات القيادية الممكنة، وهذا يعني قيادة مستقلة. أوافق على قراركم وأتطلع إلى تفاصيل الخطة التنفيذية». وعندما مرّت سنة من دون إنشاء أي قيادة جديدة، بعث الرئيس برسالة مهذبة وحازمة إلى واينبرغر يذكّره فيها بضرورة تزويده بمعلومات حديثة حول تفاصيل القيادة الجديدة. نبّه الرئيس البنتاغون بضرورة التقدّم في العمل[124]. ونجح الأمر.

أنهى البنتاغون بسرعة تفاصيل قيادة الشرق الأوسط الجديدة على الرغم من محاولات البحرية إحباط المبادرة في اللحظات الأخيرة، بدعم من رئيس لجنة المخصصات النافذة في مجلس الشيوخ، السيناتور تيد ستيفنز من ولاية آلاسكا[125]. وافق واينبرغر على تسميتها بـ «القيادة المركزية الأميركية»، أو سنتكوم (CENTCOM) مثلما يختصر الجيش اسمها. شمل حيز مسؤوليتها تسعة عشر بلداً، بدءاً من مصر في الغرب حتى باكستان في الشرق وصولاً إلى كينيا في الجنوب. جاءت معظم القوات المخصصة لـها من قوات كانت وقتئذٍ ضمن إطار قوة الانتشار السريع، وأنشأ كلٌّ من الجيش وسلاح الجو مراكز قيادة ثانوية لدعمها. أعاد الجيش تفعيل الجيش الثالث الشهير لقيادة فرقها العسكرية من أجل منطقة الشرق الأوسط؛ كان هذا الجيش تحت إمرة

الجنرال جورج باتون في أوروبا الغربية، وعمل كرأس حربة للقوات المدرّعة الأميركية في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية[126]. ومن أجل تهدئة مخاوف الجنرال بارو بشأن الجهة التي ستقود سنتكوم. عقد الجنرال فيسي اتفاقاً ضمنياً يقضي بأن يتناوب كلٌّ من الجيش ومشاة البحرية على منصب قائد القيادة المركزية الأميركية، واستمر هذا التفاهم على مدى السنوات العشرين التالية، حتى عام 2003، عندما أدت الضغوط الناتجة عن الاحتلال الأميركي المضطرب للعراق إلى تعاقب قادة الجيش على القيادة.

أنهى قرار واينبرغر حياة فولني وارنر المهنية، إذ رفض وارنر أي مهمة قيادية كبرى أخرى في أوروبا، وكتب إلى واينبرغر قائلاً: «نظراً إلى أنني لم أعد أحظى بدعم هيئة الأركان المشتركة، أطلب أن أُعفى من مهامي»، فوافق واينبرغر. أحسّ فولني وارنر بالمرارة فكتب رسالةً من خمس صفحات إلى الرئيس ريغان ينتقد فيها بشدة قرار واينبرغر وهيئة الأركان المشتركة المحدودة الأفق وغير الفعالة[127]. رفض وارنر أن يُقام استعراض عسكري بمناسبة تقاعده من الخدمة، وبدلاً من ذلك قام مع بعض رفاقه المقربين منه بالقفز بالمظلات من طائرة في فورت براغ، حيث كان برميل من البيرة ينتظر هواة القفز بالمظلات في منطقة الهبوط. وكتب قائلاً: «كانت تلك هي الطريقة التي أردت الذهاب بها، مع عددٍ من الأصدقاء وبضعة أقداح من البيرة[128]».

لقي قرار تشكيل القيادة المركزية الأميركية ترحيباً حاراً من جانب العرب الموالين للغرب. بعد ظهر يوم 16 كانون الأول/ديسمبر من العام 1982، وعند غروب الشمس تماماً، وصل الأمير الدمث الذكي بندر بن سلطان، وكان سفير السعودية لدى واشنطن، إلى مكتب واينبرغر لينقل إليه رسالة من العاهل السعودي. قال الأمير: «إن الملك فهد يدعم مئة بالمئة إنشاء القيادة المركزية الأميركية الجديدة، ويعتبرها خطوة جيدة، خطوة سترسل الإشارة الصحيحة إلى السوفيت»، وأضاف أن القيادة المركزية الأميركية أزعجت موسكو للغاية، مشيراً إلى أن السوفيت حاولوا إقناع المملكة العربية السعودية أن إنشاء القيادة المركزية الأميركية الجديدة ليس إلا وسيلة أميركية للسيطرة على المنطقة. وأخبر بندر الوزير أن الملك رفض هذه الحجة، وأنه يؤيد بشدة الأهداف الأميركية في الخليج العربي.

ومع ذلك، ووفق الأسلوب السعودي المألوف، أنهى بندر الاجتماع مصرحاً بوضوح أن حكومته سوف تضطر إلى الإدلاء بتصريحات عامة تنأى بنفسها عن القيادة المركزية الأميركية، ولكن ينبغي على واينبرغر ألّا يعير التصريحات بالاً. فهم واينبرغر وأومأ موافقاً، وانفضّ الاجتماع بضحكٍ نابعٍ من القلب فيما كان الرجلان يتأمّلان الازدواجية التي سادت في الشرق الأوسط[129].

كانت إسرائيل، حليفة واشنطن القوية في الشرق الأوسط، البلد البارز الوحيد في المنطقة غير السعيد بمخطط الدفاع الأميركي الجديد. فقد شعرت الدولة اليهودية بالقلق من تداعيات قيادة عسكرية أميركية مخصصة لدعم العرب فقط، وأعربت عن أملها في توثيق العلاقات العسكرية التي

من شأنها أن تعزز العلاقات بين البلدين. دفعت إسرائيل بقوة لإدراجها في خطط الدفاع الأميركية لمنطقة الشرق الأوسط، وشددت الحكومة الإسرائيلية على الدور السوفيتي في النزاع العربي الإسرائيلي، فهي تعرف تمام المعرفة وجهات نظر القادة المدنيين الجدد في واشنطن من صقور الحرب الباردة. فبعد شهر واحد فقط من تدشين القيادة الجديدة ظهر وزير الخارجية الإسرائيلي إسحاق شامير في غرفة اجتماعات البنتاغون لمقابلة وزير الدفاع واينبرغر. أكّد شامير تكراراً لواينبرغر أن الاتحاد السوفيتي خلق القدر الأكبر من عدم الاستقرار في المنطقة، وقال لواينبرغر بثقة، وإن لم يكن بصدق كلي، خلال أحد لقاءاتهما الأولى: «إن منظمة التحرير الفلسطينية منظمة إرهابية تعمل مباشرةً لمصلحة الاتحاد السوفيتي». وكرّر رئيس الوزراء مناحيم بيغن هذه النغمة في أول لقاء له بريغان في المكتب البيضوي، فهو لم يكن يرى أي فارق يُذكر بين الدول العميلة للاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط وبين تلك المنضمة لحلف وارسو في أوروبا، وعرض استخدام القواعد الجوية والموانئ الإسرائيلية، بل وذهب إلى حدّ اقتراح تحليق سلاح الجو الإسرائيلي في الخليج العربي لمصلحة الجيش الأميركي. في المقابل، أراد من الولايات المتحدة أن تلغي بصورة أساسية اتفاقياتها الراهنة مع العرب الذين يدعمون قوة الانتشار السريع، واختار البدء بالعراق باعتباره العدو الرئيس لإسرائيل، وبالتالي عدو الولايات المتحدة، بسبب برنامجه العسكري التقليدي الكبير والنووي الناشئ. لم تشمل نقاط البحث واقع أن لا علاقة بين قلق إسرائيل من قوّة العراق العسكرية وبين الحرب الباردة، لكنّ دفاع رئيس الوزراء الإسرائيلي بقوّة عن فكرة أن إسرائيل تشكّل رصيداً ومكسباً لواشنطن في الحرب الباردة أثّر في المسؤولين الأميركيين[130].

لم يحتج وزير الخارجية الجديد في إدارة الرئيس ريغان ألكسندر هيغ إلى الإقناع البتة؛ فقد كان ينظر بالفعل إلى الشرق الأوسط من خلال عدسة الحرب الباردة، وكان من المؤيدين المتحمسين لإسرائيل. رأى ومعه ريغان أيضاً أنه ينبغي إدراج إسرائيل في القيادة المركزية الأميركية، وشاركهما واينبرغر هذا الرأي منذ البداية.

ومع ذلك قامت هيئة الأركان المشتركة والمدنيون في وزارة الدفاع بإقناع واينبرغر كي يقدم توصيةً ضد إدراج إسرائيل في القيادة المركزية الأميركية. كانت هيئة الأركان المشتركة ترى أن موقع إسرائيل بعيد جداً عن الخليج العربي، وأن عملية إدراجها في (سنتكوم) من شأنها تعريض الاتفاق المهم المبرم مع الدول العربية للخطر[131]. قام بينغ ويست، وكان جندياً متمرّساً في مشاة البحرية حارب في فيتنام وأصبح مسؤولاً مدنياً رفيعاً عن القضايا العسكرية بمعزلٍ عن الاتحاد السوفيتي، بتحذير واينبرغر من أن ريغان واقع على نحو مفرط تحت تأثير مسؤولٍ موالٍ لإسرائيل في مجلس الأمن القومي، وأن هذا ما يفسّر رغبة الرئيس في إدراج الدولة اليهودية في القيادة المركزية الأميركية.

أغضب هذا التلميح واينبرغر كثيراً وردّ على ويست قائلاً: «إنه الرئيس. ولا أهمية لمن استشار قبل اتخاذ قراره».

ومع ذلك، رجع واينبرغر عن موقفه بعد أن اجتمع مع هيئة الأركان المشتركة في حجرة «التانك» في 25 أيار/مايو 1982، وكتب إلى ريغان توصية بوجوب احترام مشاعر العرب وعدم ضم إسرائيل ولبنان وسوريا إلى قيادة الشرق الأوسط الجديدة، وقال: «لا أؤيّد هذه الفكرة بشكل كامل، ولكن بوسعنا تغييرها إذا اقتضى الأمر»[132].

عُيّن روبرت كينغستون، الملقب بـ «بوب الأسلاك الشائكة»، قائداً عاماً للقيادة المركزية الأميركية بدلاً من بول كزافييه كيلي. كان كينغستون طويل القامة نحيل الجسم، صارماً في سلوكه وسريع الانفعال بطبعه، وكان على دراية بكل ما يخص أعمال الحرب. أشار جار هاينز، الذي عمل مدةً طويلة مؤرخاً مدنياً في القيادة المركزية الأميركية، إلى أن «لدى كينغستون نظرة زوراء تقول للشخص: لا تتعرّض لي». وقد نال لقبه عندما كان يمدّ سياجاً من الأسلاك الشائكة حول مركز قيادته لمنع الجنود من المشي على العشب. لم يكن كينغستون مفكراً استراتيجياً كبيراً، لكنّه كان محارباً وذا موهبة فطرية في ما يخص قيادة الرجال في المعركة. وعلى الرغم من أنه كان ملازماً شاباً خلال الحرب الكورية، إلا أنه قاد قوة قوامها مئة رجل، وصلت إلى ضفة نهر يالو المتجمد على الحدود الصينية، وتميز وبرز مراراً وتكراراً خلال الانسحاب المرتبك الذي نفّذه طيران الجيش الأميركي باتجاه الجنوب بعد التدخل الصيني في الحرب في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1950.

تعاون كينغستون طويلاً مع وكالة الاستخبارات المركزية. فقد انتقل بعد جولته الأولى في كوريا إلى هيئة عسكرية غير نظامية مشتركة بين وكالة الاستخبارات الأميركية والجيش، كانت تساعد عملاء من كوريا الجنوبية على التسلل إلى كوريا الشمالية، وتقود شّن غارات من غواصات، فتفجّر قطارات وجسوراً في العمق خلف خطوط كوريا الشمالية. كان كينغستون أحد الأميركيين القلائل الذين نزلوا على الشاطئ مع عملاء كوريين في مهمّات تخريبية. وقال في وقتٍ لاحق: «كنت أعتبرها متعةً كبيرة في ذلك الوقت»[133]. أصبح بعد مهامه في كوريا واحداً من بين الضباط العسكريين القلائل الذين التحقوا بدورة ضباط وكالة الاستخبارات المركزية، حيث تدرّبوا على كيفية التعامل مع العملاء الأجانب. وفي ربيع عام 1967 تولى كنغستون قيادة العملية 34، وهي مهمة حساسة للغاية أُرسلت فيها فرق من العملاء الفيتناميين الجنوبيين إلى فيتنام الشمالية في محاولة لتنظيم تمرد ضد الحكومة الشيوعية. أطلقت وكالة الاستخبارات المركزية هذه المهمّة في أوائل الستينيات، وتولّى الجيش مسؤوليتها في عام 1964.

خامر كينغستون الشك، بعد وصوله بوقت قصير، أن ثمة اختراقاً في العملية برمتها، فالعملاء الخمسمئة الذين تمّ إنزالهم في الشمال تعرّضوا للقتل أو تبيّن أنهم عملاء مزدوجون يعملون لصالح الشيوعيين. نقل كينغستون الأخبار السيئة إلى رئيسه الكولونيل جون سينغلوب -وهو عميل أسطوري سابق في مكتب الخدمات الاستراتيجية، كان قد هبط بالمظلة في فرنسا قبل ساعة الصفر- فقال له بطريقته الفظة المعتادة: «ماذا تريد أن تخبر هو شي منه[134]؟ إن أعضاء فُرقك عملاء مزدوجون، وبوسعي إرسال الرسالة إلى «هو» من خلالهم»[135].

حافظ كينغستون على علاقاته في وكالة الاستخبارات المركزية بعد وصوله إلى تامبا بوصفه القائد الجديد لـ (سنتكوم)، وأصبح يقوم بزيارات متكررة إلى مقر الوكالة في لانغلي بولاية فرجينيا[136]. كان يتمتع بموهبة خاصة في الحصول على معلومات «السي. آي. إيه.» الطازجة من خارج القنوات العادية، فكان يحصل على معلومات فريدة لا تتوفر عادة لجنرال بأربع نجوم، وقد انتبه في نهاية المطاف نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية روبرت غيتس إلى ذلك فأمر بإغلاق هذه القنوات الخلفية، وأصدر توجيهاته بألاّ تعطى سوى وثائق المخابرات المصادق عليها فقط إلى القيادة المركزية الأميركية من خلال القنوات التقليدية في وكالة استخبارات الدفاع[137].

ارتكزت خطة كينغستون التي ورثها عن كيلي والمتعلقة بالدفاع عن إيران في مواجهة السوفيت على استراتيجية جبال زاغروس. واستندت هذه الاستراتيجية، التي سُمّيت في ما بعد خطة العمليات 1004، إلى مخاوف الحرب الباردة القديمة من غزو سوفيتي محتمل لإيران قد يهدّد وصول الغرب إلى نفط الشرق الأوسط. كانت الخطة تدعو إلى نشر أربع فرق عسكرية وثلاث حاملات طائرات أميركية، لتأمين الخطوط البحرية الخارجة من الخليج العربي أولاً، ومن ثم إنزال قوات عسكرية في بندر عباس في مضيق هرمز، وكذلك في الطرف الشمالي للخليج قرب عبدان، ومن هناك يتقدم الأميركيون باتجاه الشمال الشرقي إلى داخل إيران بهدف إقامة خط دفاع على طول جبال زاغروس، وهي سلسلة جبلية ضخمة ووعرة تشمل العديد من القمم التي يتجاوز ارتفاعها ألف قدم، وتمتد من شمال شرق العراق قرب كردستان حتى الجنوب الشرقي، وتنتهي بالقرب من مضيق هرمز.

عندما أعاد كينغستون النظر في خطة إيران وجد أنّ الضعف الصارخ الوحيد فيها هو: كيف سيكون ردّ فعل الجمهورية الإسلامية تجاه نشوء أزمة بين القوى العظمى؟ استنتج كينغستون أنه في حال قيام الاتحاد السوفيتي بعملٍ أُحادي الجانب لاجتياح إيران، ربما لدعم انقلاب موالٍ للسوفيت، قد يضع الخميني كراهيته للولايات المتحدة جانباً ويتعاون مع الجيش الأميركي. فعندما تكون إيران متعاونة مع الأميركيين أو، أقلّه، واقفة على الحياد، فإن ذلك يُحسّن بصورة هائلة من فرص نجاح الجيش الأميركي. كانت القيادة المركزية الأميركية تأمل في العمل مع الجيش الإيراني، واستخدامه للدفاع عن حقول نفط خوزستان في جنوب غرب إيران، الأمر الذي قد يقلّل من مخاوف إيران من أن الولايات المتحدة لا تريد سوى الاستيلاء على نفط البلاد[138].

ومع ذلك، أعادت وكالات الاستخبارات في آب/أغسطس 1983 تقييم افتراضاتها بشأن التزام إيران الهدوء في حال وصل الجيش الأميركي بشكل ظاهر وصريح لحمايتها من الشيوعيين. وخلص محللو وكالة استخبارات الدفاع إلى أن إيران تكره الأميركيين بقدر ما تكره السوفيت، ومن المرجح أن تقاوم كلتا الدولتين بالقوة نفسها. ووصل تقييم وكالة الاستخبارات المركزية إلى النتيجة نفسها، مشيراً إلى أن الحكومة الإيرانية قلقة بشأن رغبات القوى العظمى السّرية في تكرار الحرب العالمية الثانية وتقسيم إيران: «فالخميني وكوادره الدينية غرسوا في الشعب الإيراني الخوف من تواطؤ القوى العظمى لتقسيم إيران إلى مناطق نفوذ منفصلة». وإذا دبّر السوفيت انقلاباً في إيران

ونصّبوا فيها حكومة عَمِيلةً لهم، كما فعلوا في أفغانستان، فستواجه القيادة المركزية الأميركية مقاومةً شديدة في حال تدخلها، وستقتنع إيران بأن واشنطن وموسكو متواطئتان لقلب نظام الحكم في الجمهورية الإسلامية. وفي هذه الحالة، يجب على القيادة المركزية الأميركية أن تكافح لشقّ طريقها إلى إيران قبل أن تشتبك مع الجيش الأحمر[139].

عَدَّلَ كينغستون خططه لتعكس هذا الواقع، فبات على الجيش الأميركي الانتظار إلى أن يعبر السوفيت أولاً الحدود إلى داخل إيران، وعند توجّه معظم الجيش الإيراني شمالاً لمقابلة الجيش الأحمر، سيتسنّى لمشاة البحرية والجنود الأميركيين الاستيلاء على مينائي بوشهر وبندر عباس من دون أن يواجهوا مقاومةً كبيرة. والأهم من ذلك، أنّ المخططين في القيادة المركزية الأميركية ظنوا أنهم إذا انتظروا حتى تبدأ موسكو ضرباتها أولاً، سيصبح الإيرانيون أكثر استعداداً للتعاون مع الجيش الأميركي لمواجهة غزو يقوم به الشيوعيون[140].

انعكست تجربة كينغستون الواسعة في العمليات السرية في اعتقاده بضرورة أن تقوم القيادة المركزية الأميركية بإنشاء تنظيم سري في إيران. وفي حال تمكّن الأميركيّون من إجراء الترتيبات الملائمة اللازمة مع الجيش الإيراني، أمل كينغستون أن يمهد ذلك الطريق لوصول قوات أميركية إلى إيران والمساعدة على تنظيم المقاومة الإيرانية ضد السوفيت. اعتبر كينغستون خطط حلف شمال الأطلسي نماذج ينبغي اتّباعها. ففي حال نشوب حرب في أوروبا الوسطى، ستقوم وزارة الدفاع الأميركية بإدخال فرق صغيرة من القوات الخاصة خلف الخطوط السوفيتية في أوروبا الشرقية كي تنفذ مهام عمل مباشر، فتفجّر الجسور وتهاجم أهدافاً مهمة في عمق خطوط العدو الخلفية، وتشنّ عمليات حرب غير تقليدية، الأمر الذي يتطلب العمل مع القوات التي تشن حرب عصابات ضد السوفيت، من أجل إشعال ثورة داخل دول أوروبا الشرقية المنضوية دونما حماس في حلف وارسو[141]. وقد أنشأ الجيش الأميركي مخابئ سرية للأسلحة والمتفجرات في جميع أنحاء أوروبا الشرقية لدعم هذه الخطة.

وضع كينغستون خطةً عدوانية لقوات العمليات الخاصة من أجل إيران، وأنشأ مركز قيادة سرياً للغاية في تامبا، أُطلق عليه اسم قوة مهمات الحرب غير التقليدية المشتركة، يقوده عميد في الجيش. وتقضي الخطة بأن تعمل تحت إمرة مركز القيادة هذا فرقة كبيرة مؤلّفة من بضعة آلاف من أفراد قوات الجيش الخاصة، وفرق العمليات الخاصة التابعة للبحرية (SEALs)، وطائرات سلاح الجو ومروحياته، وأن تقوم هذه الفرقة بعمليات سرية في إيران. وسوف تطير مجموعة القوات الخاصة الخامسة التابعة للجيش الأميركي، التي تدربت بصورة خاصة من أجل الشرق الأوسط مع أشخاص يتكلمون اللغتين الفارسية والعربية، لتأسيس مقراتها في منطقة السيب بسلطنة عمان. بعد ذلك يتم إرسال كتائبها الثلاث إلى تركيا وباكستان والمملكة العربية السعودية[142]. وسوف تطير هذه القوات سراً إلى إيران قبل بدء الأعمال العدائية وتنتشر قرب الممرات الجبلية في المناطق الشمالية الغربية على طول الطرق التي من المحتمل أن تمرّ فيها القوات السوفيتية في غزوها لإيران.

وسوف تدمر هناك مجموعة مختارة من الطرق والجسور وخطوط السكك الحديدية لعرقلة التقدم السوفيتي. وفي الوقت نفسه يجري جنود آخرون اتصالات مع قوى المقاومة الإيرانية للبدء بتنظيم جيش لحرب عصابات خلف الخطوط الروسية.

في حال واجه الأميركيون مقاومةً إيرانية، تقوم نخبة العمليات الخاصة البحرية بالاستيلاء على ميناءي بندر عباس وبوشهر المهمين، وتقضي على المدافعين عنهما قبل أن يُتاح لهم الوقت لتنظيم أي دفاع متماسك. ويكون عندئذٍ بوسع مشاة البحرية الأميركية أو نخبة قوات الصاعقة البرية الأميركية الانتقال بسرعة جواً لتأمين الميناء الذي يُعدُّ نقطة اتصال مهمة لدعم قوّة فرق الدبابات الأكبر عدداً التي ستلحق بها.

يقع مقرّ هيئة دعم نشاط الاستخبارات (ISA) في مجمع متواضع خارج واشنطن العاصمة. كانت هذه الهيئة إحدى الوحدات «السوداء» الأكثر سريّةً في الجيش الأميركي، وقد تأسست في آذار/مارس 1981، ويعود سبب إنشائها إلى أزمة الرهائن الإيرانية وما تبعها من مهمة إنقاذ فاشلة. وعُرّفت هذه الهيئة الجديدة بأنها مجموعة مؤلّفة من سلاح الإشارة والاستخبارات الإلكترونية من أجل دعم وحدات القوات الخاصة. شهدت هذه الهيئة في سنواتها الأولى أعمالاً مريبة، فقد قدمت دعماً مالياً واستخباراتياً لضابط سابق برتبة مقدم في قوات الجيش الخاصة، أصبح فيما بعد مرشحاً رئاسياً هامشياً هو جيمس «بو» غريتز، فدعمت خططه الخيالية لإنقاذ سجناء الحرب الأميركيين الذين يفترض أنهم تُركوا في لاوس بعد حرب فيتنام. رداً على ذلك قام نائب وزير الدفاع فرانك كارلوتشي في العام 1982 بتعليق جميع عمليات هيئة دعم نشاط الاستخبارات (ISA) بصورة مؤقتة، مشيراً في مذكرة أرسلها إلى الوكيل السياسي في وزارة الدفاع فْرِد إيكله إلى أنه وجد تجاوزاتها «مقلقة إلى أبعد حدود». أصدر واينبرغر في العام التالي نظاماً أساسياً جديداً للهيئة وضعها بموجبه تحت إمرة قيادة فورت براغ حيث تم كبح جماحها، وسرعان ما وضعت الهيئة ماضيها وراءها وتطورت لتصبح إحدى الوحدات الرائدة في الجيش الأميركي. بحلول عام 1987 زاد عدد أفرادها بقيادة الكولونيل جون لاكي الثالث ليصل إلى نحو أربعمئة فرد موزّعين في سرايا منفصلة للعمليات السرية وجمع الإشارات والاتصالات[143].

في العام 1983 أوكل القائد الأعلى لاستخبارات الجيش أو «جي-2» (G-2) الفريق وليام أودوم إلى هيئة دعم نشاط الاستخبارات مهمّة توسيع قنواتها وتجنيد عملاء لها في إيران من أجل دعم القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم). كان أودوم، النحيل الجسم ذو النظارات المحاطة بإطار قرني، جندياً عالماً مثقّفاً، وخبيراً بالاتحاد السوفيتي، يحمل الماجستير والدكتوراه من جامعة كولومبيا، وقد برز كمساعد عسكري لمستشار كارتر للأمن القومي زبيغنيو بريجينسكي. اعتبر أودوم أن ما يحتاجه كينغستون هو عملاء إيرانيون من مستوى متدنٍّ يمكنهم مساعدة القوات الأميركية فعلياً على دخول إيران - عملاء إيرانيون يعرفون الطرق بدقّة وتفصيل ويمكنهم أن يقولوا لك، على سبيل المثال، ما الثقل الذي يمكن أن يتحمله جسر معيّن.

قال أودوم في وقت لاحق: «أود الحصول على شركات لسيارات الأجرة، وأخرى للشحن، ومديري فنادق»، قال أودوم لاحقاً: «عملاء على مستوى متدنٍ، لكن أشخاصاً يمكنهم استقبالك في المطار وإدخال القوّات بسرعة إلى البلاد». بدعم من رئيس أركان الجيش الجنرال شي ماير، تغير مستوى أولوية الاستخبارات البشرية في إيران التابعة لهيئة دعم نشاط الاستخبارات، فأصبحت في المرتبة الثانية من حيث الأولوية وراء التجسّس على السوفيت في أوروبا[144].

عملت هيئة دعم نشاط الاستخبارات بشكل وثيق مع مجموعة صغيرة من الضباط تحت إمرة كينغستون في تامبا، وشكلت مفرزتين خاصتين تركزان عملهما على إيران. عملت المفرزة الأولى (E) سراً انطلاقاً من مبنى فاربن المؤلف من تسعة طوابق في فرانكفورت في ألمانيا الغربية، كان المبنى إبّان الثلاثينيات مقراً للفيلق الخامس في الجيش الأميركي والاستخبارات العسكرية المضادة والعمليات السرية في أوروبا والشرق الأوسط. وركّزت هذه المفرزة على مجموعات المقاومة الإيرانية داخل إيران والمنفيين الإيرانيين خارجها؛ وسرعان ما توسعت وأنشأت لها مكتباً آخر في باكستان تدير منه العمليات والعملاء داخل إيران نفسها[145]. وعملت المفرزة الثانية (L) في الولايات المتحدة بصورة علنية على التقرّب من ضباط الجيش الإيراني السابقين وإقناعهم بالاتصال بأصدقائهم القدامى وزملائهم الذين لا يزالون في إيران للحصول على معلومات مباشرة عن حالة الجيش الإيراني.

كانت هيئة دعم نشاط الاستخبارات أقل نجاحاً في التقرّب من الجماعات العرقية والانفصالية المتباينة داخل إيران ورعايتها، ولاسيما الأكراد في المناطق الشمالية الغربية. واعتقد أودوم أن الأكراد يمكن أن يشكّلوا حليفاً طبيعياً للولايات المتحدة، وأنهم قد يؤمّنون أيضاً ملاذاً آمناً بديلاً لقوات العمليات الخاصة الأميركية. قال أحد ضباط مخابرات الجيش الأميركي في وقت لاحق: «كان بإمكاننا الوصول إلى الأكراد، ولكن الأتراك والعراقيين رفضوا أن تقوم الولايات المتحدة بتحريض أي حركة انفصالية لدى الأكراد - باستثناء الحركات التي يسيطرون عليها- لخوفهم من أن تمتد الى بلدانهم».

نفض موظفو أودوم الغبار عن خطة دفاع قديمة، كان اسمها المشفر «أرمش/ماغ»[146] (Armish/Maag)، وهي الخطة التي وضعتها مجموعة القوات الخاصة العاشرة من أجل الشاه للدفاع عن إيران ضد الغزو السوفيتي. تتضمن الخطة بيانات تفصيلية من أجل استهداف الأنفاق والممرات الجبلية المؤدية إلى شمال إيران من جهة أذربيجان السوفيتية. كان جيش الشاه قد استخدم هذه المعلومات تمهيداً لإعداد الجسور والأنفاق لعمليات التفجير. وقد أكد أحد الإيرانيين، الذي أصبح يعمل بعد ذلك لمصلحة هيئة دعم نشاط الاستخبارات، أن المتفجرات قد أزيلت، ولكن الثقوب التي أحدثت على طول دعائم الجسور ومداخل الأنفاق بقيت في أمكنتها. بحصول قوات الجيش الخاصة على هذه المعلومات، لم تعد تحتاج إلاّ إلى وضع المتفجرات من جديد بغية العمل بسرعة لقطع العديد من الطرق المهمة التي يحتاجها الاتحاد السوفيتي لغزو إيران. واعترف محلل في الجيش في وقت لاحق بأن هذه المعلومات وفرت سنوات من البحث.

غير أن هيئة دعم نشاط الاستخبارات أثارت حفيظة وكالة الاستخبارات المركزية. وكانت الوكالة مسؤولة قانونياً عن تجنيد كافة العملاء خلال زمن السلم، واعتبرت ضباط هيئة دعم نشاط الاستخبارات مجرّد هواة. أمّا هوارد هارت، وكان عميلاً سرياً متمرّساً في وكالة الاستخبارات المركزية، أشرف على عملية تسليح المجاهدين في أفغانستان في بدايتها وأدار في وقت لاحق شعبة وكالة الاستخبارات المركزية ذات الأنشطة الخاصة التي تسيطر على جميع القوات شبه العسكرية، فاعتبر أن الجيش يفتقر إلى الدقة في العمليات الحساسة، وقال بهذا الصدد إن أفراد الجيش رجال وطنيون ولكنهم، بصفة عامة، هواة حسنو النية عندما يتعلق الأمر بعمليات عسكرية غير نظامية وتجسس. عندما يرسل الجيش شخصاً للتجسس في إيران متنكراً بزي رجل أعمال من الشرق الأوسط فإنه يبدو كرجل يدّعي أنه رجل أعمال، في حين أنه عندما ترسل وكالة الاستخبارات المركزية شخصاً إلى إيران فإنه يبدو رجل أعمال حقيقياً من الشرق الأوسط»[147]. من جانبه كان الجيش آنذاك ينظر إلى وكالة الاستخبارات المركزية على أنها متراخية. استخدم ضابط أميركي كبير في الجيش، عمل عقدين من الزمن مع وكالة الاستخبارات المركزية، مختصراً عسكرياً معروفاً ذا صلة بالقادة أو القيادات المركزية هو (C2)، ويعني «القيادة والتحكم»، ولكن عندما تدون وكالة الاستخبارات المركزية (C2) فهي تعني «التحكم والمصداقية».

على الرغم من أنه تعيّن على هيئة دعم نشاط الاستخبارات تنسيق جميع عملياتها مع وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي، إلا أن هذه الأخيرة كانت تنظر إلى تلك الوحدة العسكرية وكأنها عائق يتطفل على ميدان اختصاصها. أدرك أودوم أن وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي تريد إغلاق هذه الهيئة، واتّهم بعض ضباطه الوكالة بأنها شوّهت المشكلات التي واجهتها هذه الهيئة، وسرّبت إلى الكونغرس معلومات تضر بها في العام 1982، الأمر الذي كاد يؤدّي إلى حلّها. بحسب أودوم، أضعفت وكالة الاستخبارات المركزية عمليات البنتاغون المتعلقة بإيران. دعا رئيس مركز وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية في باكستان الضابط المسؤول عن العمليات الإيرانية في هيئة دعم نشاط الاستخبارات إلى حفل كوكتيل دبلوماسي في إسلام آباد، وتعمّد رئيس المركز البقاء بالقرب من الضابط، وأعلن بصوت عالٍ أنهما يعملان معاً، ونظراً إلى كون رئيس المركز يعمل بصورة مكشوفة، فقد أدّى ربط الضابط علناً بالعمل الاستخباراتي إلى كشف غطاء هذا الأخير وإجباره على مغادرة البلاد، الأمر الذي أوقف تجنيد الجيش للعملاء في باكستان. أغضبت هذه الحركة السخيفة التي قامت بها وكالة الاستخبارات المركزية كبار المسؤولين في وزارة الدفاع الأميركية ولاسيما واينبرغر[148].

وصل طاقم إدارة ريغان إلى الحكم مقتنعاً بأن مكائد المغامرة السوفيتية هي السبب في معظم مشكلات الأمن القومي الأميركي[149]. وكان يُنظر إلى الصراع العربي الإسرائيلي إلى حدٍّ كبير من منظور الحرب الباردة: فالدعم الأميركي للإسرائيليين كان عامل تحريض ضد زبائن السوفيت، كسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية. أنشا كينغستون وهيئة دعم نشاط الاستخبارات منظمة تجسسية سرية في إيران ترتكز مهمتها على مواجهة الاتحاد السوفيتي، لا الجمهورية

الإسلامية. قللت هذه الرؤية الأحادية من أهمية الأسباب التاريخية والإقليمية التي تقف وراء الاندلاع المستمر لصراعات سادت المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية. بكلام لطيف، يمكننا القول إن الثورة الإيرانية لم توافق تماماً رؤية هيئة دعم نشاط الاستخبارات للعالم. غير أن واشنطن بدّلت، وإن ببطء، هذا الرأي قصير النظر، وبدأت تدرك أن إيران ذاتها هي التي تمثل التحدي الحقيقي في وجه السيطرة الأميركية على الخليج العربي وليس الاتحاد السوفيتي. والمحفّز وراء هذا التبدّل في وجهة النظر الأميركية كان إحدى أكبر الحروب الدموية التي شهدها العالم منذ الحرب العالمية الأولى.

الفصل الرابع

وكرٌ من الجواسيس

كان وليام كيسي في الثامنة والستين من العمر عندما عيّنه رونالد ريغان لإدارة منظمة التجسّس الأميركية الرئيسية. لم يكن مدير الاستخبارات المركزية الجديد يشبه جيمس بوند بأي شكل من الأشكال؛ بل كان في الواقع أشبه بأستاذ جامعي متقاعد. كان هذا النيويوركي يجرّ قدميه أكثر مما يمشي، وكان أصلعاً وخدّاه بارزين، كما أنه كان يحني قامته الطويلة لتقدمه بالسنّ، ويتمتم بشكل غير مفهوم أحياناً، وهي عادةٌ تزداد سوءاً لديه كلّما أدلى بشهادةٍ أمام الكونغرس، هذه المؤسسة التي كان يزدريها بالإجمال. كانت ملابسه مجعّدة، وبقع الطعام تلطّخ سترته وربطة عنقه، فضلاً عن قشرة رأسه التي تغطي معطفه. ويشير معاصروه إلى أن الأكل معه لا يناسب ضعاف القلوب.

تميّز كيسي بذاكرة قوية على الرغم من تقدمّه في السن. فبما أنه كان يحبّ المطالعة وكان طالباً ذكياً في كلية التاريخ، جاب مكتبات واشنطن للحصول على كتب تتعلق بالاتحاد السوفيتي بشكل خاص، وغالباً ما كان يشتري عدداً كبيراً من الكتب في جولة واحدة. لطالما بدا في حالة غيبوبة أثناءالاجتماعات، مرتمياً إلى الخلف في كرسيه المنتفخ، وعيناه بالكاد تظهران من وراء جفونه الواهنة. كان يستعيد نشاطه فجأة، ليطرح سلسلة سريعة من الأسئلة الاستقصائية.

كان كيسي متميّزاً في عمله داخل الحكومة وخارجها في آن. عمل رئيساً للاستخبارات الأوروبية في مكتب الخدمات الاستراتيجية (الذي سبق وكالة الاستخبارات المركزية) في خلال الحرب العالمية الثانية. ثم عمل محامي شركاتٍ بعد الحرب، وأصبح رئيساً لهيئة الأوراق المالية والبورصات في عهد الرئيس نيكسون. وبما أنه عضوٌ مخلصٌ في الحزب الجمهوري، فقد تولّى إدارة حملة الرئيس ريغان لانتخابات عام 1980، وكان يطمح إلى أن يصبح وزيراً للخارجية. وعندما ذهب هذا المنصب إلى ألكسندر هيغ، قَبِلَ كيسي بحماسة منصب مدير وكالة الاستخبارات المركزية، وركّز على إعادة تنشيط القسم السري التابع لها والذي رأى أنه بات ضعيفاً بسبب تحقيقات الكونغرس والقيادة الرديئة في السبعينيّات.

كان كيسي خياراً مثالياً لرئاسة وكالة الاستخبارات المركزية نظراً لمواهبه في التنظيم والتخطيط. وقد صرّح ريتشارد هيلمز، الذي كان شريك غرفة كيسي في لندن خلال الحرب العالمية الثانية، وتولّى لاحقاً إدارة وكالة الاستخبارات المركزية، قائلاً: «يتميّز هذا الرجل ببراعة فطرية وحسّ متميّز في الأعمال السرية»[150]. في عام 1944 أُرسل كيسي إلى باريس لتنشيط الجهود الرامية إلى توظيف عملاء في ألمانيا. وقد عبّر والتر لورد وكان ضابطاً زميلاً له في مكتب الخدمات الاستراتيجية، عمل في عهده ثم كتب رواية عن التايتانيك بعنوان «ليلة للذكرى» عن تلك الفترة قائلاً: «كانت فترة ركود. غاب عنها أي حسّ لتحقيق أي هدف». ولكن سرعان ما نال كيسي إعجاب لورد ومرؤوسين آخرين، وقد وصفه لورد مضيفاً: «كان كيسي صريحاً ونافد الصبر، لكنّه كان يعرف تماماً ماذا يجب أن يسأل»[151]. نشّط كيسي المركز الرئيسي، وأمر بتنفيذ بعض المهام الحربية التي تُعدّ من أخطر العمليات. كان يصل آنذاك إلى ألمانيا جواً أكثر من مئة عميل ينتحلون شخصيات عمال أجانب، بهدف التجسّس وتحديد مواقع صناعية رئيسية لقاذفات الحلفاء. والجدير بالذكر أن اثنين وستين عميلاً قدّموا معلومات لكيسي، الذي لم يخسر إلا 5٪ من العملاء[152].

على الرغم من أن كيسي كان مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، إلا أنه لم يكن لديه أي اهتمام أو ميل لتطبيق بيروقراطيتها. وقد أفاد روبرت غيتس الذي رَئِسَ مديرية المخابرات، وهي القسم التحليلي لوكالة الاستخبارات المركزية، أربع سنوات في عهد كيسي ثم عُيّن مديراً للوكالة ومن ثم استلم منصب وزير الدفاع في عهدَي الرئيسين جورج دبليو بوش وباراك أوباما، أن كيسي «كان ينوي أن يستلم إدارة الخدمة السرية»، وأضاف قائلاً: «لا أعتقد أن كيسي كان ليفهم الهيكل التنظيمي لوكالة الاستخبارات المركزية في السنوات الأولى من عمله فيها حتى لو كانت حياته تتوقف على ذلك»[153].

كان كيسي ينظر إلى الأزمات العالمية من خلال عدسة الحرب الباردة فقد كان مناهضاً للشيوعية وخصماً عنيداً للاتحاد السوفيتي، وأصبح في صفوف المؤيدين المهمين داخل الإدارة في ما يتعلق باتخاذ إجراءات شبه عسكرية في أميركا الوسطى، وتسليح المقاومة المكوّنة من المجاهدين في أفغانستان لمحاربة الجيش الأحمر. بالنسبة إليه، كان الغزو السوفيتي لأفغانستان يلبّي رغبة الإمبراطورية الروسية الطويلة الأمد في الحصول على ميناء لها في المياه الدافئة، لكن هذه الرغبة قد تحولت الآن مع السيطرة على النفط في الشرق الأوسط. لم يكن يهتمّ بالصراعات الإقليمية أو تداعياتها على المدى الطويل، ولكنه كان يهتمّ بكيفية تأثيرها على ميزان القوى في التنافس بين الشرق والغرب.

ذَكَرَ ضابط رفيع المستوى في وكالة الاستخبارات المركزية عمل في الشرق الأوسط أنه كان ذات مرة يتناول العشاء مع المدير في العام 1986، ودار الحديث حول الاستراتيجية الأميركية الطويلة الأمد في أفغانستان بعد طرد السوفيت منها، فسأل الضابط كيسي: «ماذا سنفعل بعد أن نحقق الفوز؟»

أجاب كيسي: «لن نفعل شيئاً! بمجرد أن نهزم الروس نكون قد انتهينا»، وضرب كفاً بكف للتأكيد على هذه النقطة. إن تركيز الولايات المتحدة على السوفيت بهذه الطريقة أعمى بصرها وحال دون أن تدرك مخاطر أخرى.

لم يكن كيسي يرى أن إيران تشكل تهديداً جوهرياً فقد كان يعتقد أن ما يجعل الثورة الإيرانية مهمة هو أنها ألغت وجود المدافع الأساسي عن نفط الخليج العربي ضد التوسّع السوفيتي. كما أنه قلّل من أهمية الحركة الإسلامية التي تقف خلف الخميني. إلا أنه كان قلقاً من أن تستغل موسكو سقوط الشاه، وتحوّل إيران إلى بلد آخر تابع للسوفيت. لقد فهم الخطر الذي يشكّله الإرهاب الإيراني، وأقلقه اختطاف رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية وليام باكلي في لبنان عام 1985، بيد أنه كان يعتقد أن الحل الطويل الأمد هو جلب إيران إلى الحظيرة المعادية للسوفيت، وكان يرى أن وكالة الاستخبارات المركزية يلزمها تثقيف وتشجيع سياسيين معتدلين وإصلاحيين موالين للغرب في طهران، كما يلزمها عملاء من داخل الحكومة الإيرانية، للتأثير بشكل إيجابي، ومعارضة الموقف المناهض للولايات المتحدة.

كان لقلق كيسي سبب وجيه في ما يتعلّق باستيلاء الشيوعيين على إيران خلال السنوات الأولى التي تلت الثورة. لقد تحدى حزب «توده» الموالي لموسكو حكم الخميني علناً، وأعلن العصيان المدني ضد الجمهورية الإسلامية. كما قام هذا الحزب في تموز/يوليو 1981 بتفجير البرلمان الإيراني، مما أسفر عن مقتل رئيس الوزراء وإصابة المرشد الأعلى المستقبلي آية الله علي خامنئي الذي صار عاجزاً عن تحريك ذراعه اليمنى إلا بشكل جزئي عندما انفجرت قربه قنبلة مخبأة في جهاز تسجيل. كان كيسي يرى يد موسكو الخفية وراء المعارضة اليسارية الإيرانية، ويعتقد أنه إذا نجح حزب «توده» في إسقاط حكم الملالي، فإن ذلك سيؤدي إلى تحويل إيران إلى دولة تابعة للسوفيت مثل كوبا.

في العام 1983 اقترح منشقّ سوفيتي على وليام كيسي طريقة لضرب الحركة الشيوعية في إيران ضربة قاتلة. وفي خريف 1982 فرّ ضابط كبير في المخابرات الروسية المتمركزة في طهران يدعى فلاديمير كوزيشكين إلى بريطانيا العظمى حاملاً معه كنزاً دفيناً من وثائق تتعلق بعمليات تجسّس سوفيتية. شارك جهاز الاستخبارات الخارجية في لندن (MI6) هذه المعلومات زملاءه في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية الذين وضعوا قائمة طويلة بأسماء عشرات الجواسيس السوفيت وأعضاء من حزب توده في إيران مواليين لموسكو. أمر كيسي بتمرير هذه القائمة سراً إلى طهران من خلال المنفيين الإيرانيين، فقامت قوات الأمن الإيرانية على الفور باعتقال وإعدام العشرات من الشيوعيين والاشتراكيين المشتبه بهم، وهكذا تم استئصال المعارضة الداخلية من الجمهورية بمساعدة بسيطة من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية[154].

كان لدى ضباط وكالة الاستخبارات المركزية العاملين في مقرها الرئيسي في لانغلي بولاية فرجينيا آراء مختلفة حول وجهات نظر مديرهم في ما يخص إيران واحتمالات التأثير في النظام. وكان المحللون المختصون بالشأن السوفيتي في لانغلي يميلون إلى مشاركة كيسي رأيه المثير للقلق، إلّا أن المحللين في شعبة الشرق الأدنى ظلّوا يشكّكون في الأمر. وأجرت شعبة الشرق

الأدنى في شهري آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر من العام 1983 تقييمين استخباريين حول العلاقات السوفيتية الإيرانية، وخلصت إلى أن الجهود السوفيتية الرامية إلى التودّد إلى الجمهورية الإسلامية قد باءت بالفشل، وأن هذه العلاقات ساءت أكثر بسبب دعم إيران للمجاهدين في أفغانستان. وأشارت تقارير لاحقة صادرة عن وكالة الاستخبارات المركزية إلى النتيجة نفسها، مضيفةً أن حزب تودة قد اندثر. لكن كيسي ظل غير مقتنعاً، وتمسك بمسوّدة تقرير عام 1985 التي خلصت إلى أن السوفيت قد يتمكنون من زيادة نفوذهم من خلال مبيعات الأسلحة إلى إيران التي تستميت للحصول عليها في حربها مع العراق[155].

أشار جورج كاف، وهو أحد الخبراء الرئيسين في الوكالة بالشأن الإيراني، قائلاً: «لا أحد يشكّك في أهمية إيران. إذا أردت أن يَحلَّ الاستقرار في الشرق الأوسط، عليك أن تقيم علاقة ذات مغزى مع إيران». ومع ذلك، لم يصدّق كاف ولا غيره من ضباط وكالة الاستخبارات المركزية العاملين في لانغلي أن بوسع موسكو التودّد إلى النظام الإسلامي. كان احتقار الخميني للولايات المتحدة مشوباً بكراهيته للإلحاد والشيوعية، وكانت خطب يوم الجمعة القاسية التي يلقيها موجّهة إلى موسكو وواشنطن على حدٍّ سواء.

أشار مسؤول متقاعد في وكالة الاستخبارات المركزية يُدعى جاك ديفين عمل في إيران بمنتصف عقد الثمانينات قائلاً: «كان هناك إصلاحيون في طهران، ولكنهم جميعاً من نتاج الثورة. تتمحور نقاشاتهم حول الإصلاح الاقتصادي لا السياسي»[156].

كانت محطة وكالة الاستخبارات الأميركية في طهران واحدة من أكبر المحطات في العالم خلال عهد الشاه، وعندما تولى كيسي قيادة الوكالة كانت جهود التجسس الأميركي في إيران في حالة من الفوضى. فاستيلاء الطلبة على السفارة الأميركية واحتجاز رئيس المحطة بين رهائنها أنهى كل ما تبقى من عمليات تجسّس لصالح وكالة الاستخبارات المركزية، لكنّ كيسي صمّم على إحياء عمليات التجسس البشري داخل إيران. فعلى الرغم من كون هذه الأخيرة إحدى الدول ذات الأهمية الاستراتيجية القصوى في الشرق الأوسط، إلا أن وكالة الاستخبارات المركزية لم تكن تعرف أي شيء تقريباً عما يحدث فيها، إذ إن ضبّاط الوكالة لم يتمكّنوا من معرفة أسخف الأمور حتى، كغلال المحاصيل السنوية مثلاً. أراد كيسي معرفة ما إذا كانت الحكومة الإيرانية تميل إلى موسكو، فوضع عملاء أميركان هناك لأجل ذلك، كي يستميل إيران من جديد إلى طرف الولايات المتحدة في الحرب الباردة.

أصبحت مهمة وكالة الاستخبارات المركزية في إيران موضوعاً للنقاش داخل إدارة الرئيس ريغان، وكانت فكرة زيادة عدد الجواسيس البشرية مطلباً واضحاً، لذا فقد وقّع الرئيس تصريحاً رئاسياً بعد وقت قصير من توليه منصبه، وهو مستندٌ قانوني يسمح بعملية سرية، وصادق على تجديد الجهود لبناء شبكة تجسس في إيران.

لم تكن الإدارة متأكدة تماماً من الجدوى الفعلية لمحاولة قلب نظام الحكم في إيران، فاجتمع كبار المسؤولين في مجلس الأمن القومي في 9 آذار/مارس 1981 في غرفة عمليات البيت الأبيض

للتداول في الإجراءات السرية المحتملة ضد إيران، ولم يحضر الاجتماع مساعدون أو كتبة محاضر جلسات. اتفقت النخبة المجتمعة على أن يتم البحث عن مجموعة «يمكننا دعمها لزعزعة استقرار إيران»، وذلك بحسب مذكرة مكتوبة بخط اليد احتفظ بها أحد المجتمعين. ولكن استعصى على الحضور تحديد مجموعة لتدعمها أميركا. فكروا بمساعدة الأكراد، ولكن سرعان ما رفضوا الفكرة خشية إغضاب تركيا، وهي عضو مهم في حلف شمال الأطلسي (الناتو). طالب كيسي بالبحث في جماعات المنفى التي يتزعمها ضباط سابقون في الجيش الإيراني، وفي حركات انفصالية أخرى، مثل تلك التي تشكّلت في بلوشستان.

في 30 أيلول/سبتمبر، اجتمع عمداء السياسة الخارجية التابعون لريغان من جديد في قاعة مجلس الوزراء في البيت الأبيض للبحث في موضوع إيران. ترأس الاجتماع مستشار الأمن القومي ريتشارد آلن، ووُضعت اللمسات الأخيرة على توجيهات قرار الأمن الوطني المتعلق بإيران كي يوقّعه ريغان. اتفق الرجال على هدفين سياسيين رئيسيين هما منع الهيمنة السوفيتية على إيران، ووقف انتشار الثورة الإيرانية في جميع أنحاء الشرق الأوسط. اعتقدوا أن مفتاح الحل يكمن في جرّ إيران إلى معسكر الحرب الباردة الأميركية، وهذا لن يكون سهلاً، فقدرة الولايات المتحدة على إسقاط الحكومة الإيرانية ضئيلة؛ كما ستكون فرص النجاح قليلة إذا قامت وكالة الاستخبارات بانقلاب شبيه بانقلاب عام 1953، فهو لن يؤدي إلا إلى زيادة العداء للولايات المتحدة، وهذا سيصبّ في مصلحة موسكو. ومع ذلك اعتقد المجتمعون أن ثمة إجراءات بوسع الحكومة الأميركية اتخاذها للتأثير في الجمهورية الإسلامية، كتوسيع نطاق بث إذاعة صوت أميركا، والعمل مع حلفاء ذوي نفوذ أكثر تأثيراً داخل الحكومة الإيرانية، والبحث عن المعتدلين فيها. والهدف من ذلك هو تثقيف وتجنيد موظفين عسكريين ومدنيين موالين للولايات المتحدة يمكنهم إبعاد السياسات الإيرانية عن الاتحاد السوفيتي وتخفيف مواقف النظام الإيراني المعارضة للولايات المتحدة وجعلها أكثر اعتدالاً. وأشارت إحدى المذكرات إلى أن ضباط كيسي سيسعون للوصول إلى «قوى في إيران تؤيد تشكيل حكومة أكثر اعتدالاً»[157].

بعد مرور يوم أو يومين وقّع الرئيس ريغان أمراً تنفيذياً يطلب فيه من وكالة الاستخبارات المركزية أن تجري عملية مهمة واسعة النطاق أُطلق عليها اسم «برنامج النشاط السري الإيراني». كان الهدف من هذا البرنامج تلطيف السلوك الإيراني تجاه الولايات المتحدة ومنع امتداد الثورة الإيرانية وتوسعها. بدأ ضباط الاستخبارات بالبحث عن إيرانيين داخل البلاد وخارجها من الذين يفضلون إقامة علاقات أفضل مع الولايات المتحدة، والذين يملكون قدرة التأثير في كبار المسؤولين الحكوميين. أطلقت وكالة الاستخبارات المركزية حملة ذات تأثير واسع. فطورت إذاعة صوت أميركا برامجها باللغة الفارسية للتخفيف من حدة الدعاية المعادية للولايات المتحدة في وسائل الإعلام الإيرانية. وعملت وكالة الاستخبارات من خلال باكستان على تعزيز أفضل العلاقات بين إيران والمجاهدين الذين يقاتلون الجيش الأحمر في أفغانستان، بهدف تسليط الضوء على التهديد السوفيتي وعلى الأهداف المشتركة لواشنطن وطهران الرامية إلى هزيمة السوفيت. بدأت وكالة الاستخبارات المركزية بتمرير معلومات استخباراتية بشكل غير مباشر إلى طهران، عبر

الحكومتين السويسرية والجزائرية، تلقي الضوء على الأطماع السوفيتية في إيران، وتؤكد على دعم واشنطن لوحدة الأراضي الإيرانية.

ظلت الإدارة الأميركية منقسمة حول المعارضة المسلحة داخل إيران. ذلك أن برنامج النشاط السري الإيراني الذي وقعه الرئيس ريغان حظر تزويد المنفيين في الخارج أو المنشقين في الداخل بالأسلحة. ولكن في العام 1982، عندما حلّ الموعد السنوي لمراجعة البرامج، قال تشارلز كوغان، مدير الاستخبارات المركزية للشرق الأدنى وجنوب آسيا، خلال اجتماع في البيت الأبيض في العام 1982: «إذا كانت الولايات المتحدة جادة حقاً في مواجهة التهديد الإيراني، فلماذا لا يتم تسليح المعارضة في الجمهورية الإسلامية؟ فالقضية الأساسية تكمن في ما إذا كان النظام الإيراني الحالي متوافق مع مصالح الولايات المتحدة».

وأشار نائب مستشار الأمن القومي روبرت ماكفرلين إلى أن الولايات المتحدة يجب أن تتّخذ تدابير أكثر صرامةً لإطاحة النظام الإيراني. وكتب في 10 أيلول/سبتمبر من العام 1982 مذكرةً قال فيها: «من الصعب التوصل إلى قرار بشأن هذه القضية من دون رفع القيود عن تزويد المعارضة الإيرانية بالأسلحة الفتّاكة. فإذا توصّلنا إلى إنجاز هذا الأمر، سنخطّط مع المعارضة الإيرانية وحكومات صديقة حول كيفية إحداث اضطرابات في إيران».

وافق كاسبر واينبرغر على هذا الرأي. وكثيراً ما كان وزير الدفاع يعبّر عن حاجة الإدارة إلى النظر في برنامج يكون أكثر طموحاً، يحل محل البرنامج الحالي، أو على الأقل يضعف الجمهورية الإسلامية بشكل ملحوظ. قد لا تؤدي عملية تسليح حركة معارضة إلى إطاحة الخميني، إلا أن دفع إيران إلى محاربة طابور خامس سيستنزف الطاقة الثورية التي قد تتوجه بطريقة أو بأخرى إلى الخارج نحو حكومات عربية صديقة.

وقد وافق كيسي واينبرغر. فدعم تمرّدٍ إيراني لا يختلف عما كان يقوم به كيسي بالفعل مع الكونترا في نيكاراغوا والمجاهدين في أفغانستان. «إن تعزيز برنامج عمل سري ضد إيران من شأنه أن يُطمئن السعوديين وغيرهم من الذين لهم مصلحة جدية معنا في احتواء إيران»، هذا ما كتبه موظف في مجلس الأمن القومي موضحاً لكيسي وواينبرغر إيجابيات القيام بعملية شبه عسكرية تكون أكثر عدوانية ضد إيران.

في 13 حزيران/يونيو من العام 1982، وافق الرئيس ريغان على توصية فريقه للأمن القومي ومفادها أن تقوم وكالة الاستخبارات المركزية بالتحري لإنشاء معارضة مسلحة ضد إيران. وأُرسل رجال تحرٍّ عبر دوائر استخبارات إلى كلٍّ من المملكة العربية السعودية وسلطنة عمان من أجل إنشاء حركة تمرد داخل إيران، وإدخال أسلحة للمتمردين عبر هذين البلدين من أجل إبعاد واشنطن عن العملية. سافر فريق مشترك يضم عناصر من الجيش والاستخبارات المركزية إلى عُمان للبحث في «إنشاء» قاعدة مقترحة لجيش حرب عصابات في شبه جزيرة مسندم، وهي نتوء أرضي يلتف حوله مضيق هرمز. طرحت وكالة الاستخبارات المركزية على العراقيين العمل معاً لإسقاط الحكومة الإيرانية، وذلك في خلال تبادل الاستخبارات مع بغداد. ولم يكن مستغرباً أن يوافق صدام حسين على هذه الفكرة بلهفة وسرور.

مع ذلك، لم يوافق ريغان في نهاية المطاف على تسليح ثورة مضادة داخل إيران. قال ماكفرلين: «كانت الجوانب السلبية تفوق المكاسب دوماً»[158]. كما استنتجت وكالة الاستخبارات المركزية أخيراً أنْ ليس بمقدور أي جماعة مسلحة أن تشكّل تحدياً خطيراً للنظام الإيراني. وأعربت وزارة الخارجية باستمرار عن قلقها من أن يعزز ذلك العداء للولايات المتحدة، ويقضي على أي أمل في المصالحة، وقد أجمع عدد كبير من المحللين في وكالة الاستخبارات المركزية على هذا الرأي. وبعد أشهر من الجدل والنقاش حول إنشاء حركة تمرد في إيران، آلت الفكرة إلى الفشل ولم يتم العمل بها.

إن بناء شبكة تجسس في إيران ليس بالأمر اليسير. لقد كانت إيران، في لغة الجاسوسية، «بلداً محظوراً». ذلك أن عدم وجود سفارة أميركية توفر غطاءً لضباط وكالة الاستخبارات المركزية، أو تكون بمثابة قاعدة للعمليات، يفرض على الوكالة التسلل إلى إيران من خارج البلاد. أنشأت الوكالة مكتباً جديداً لها داخل أحد أجنحة مبنى آي. جي. فاربين (I.G. Farben) في فرانكفورت للانطلاق بعملياتها الإيرانية، وهو المقر نفسه الذي يضمّ وحدة دعم أنشطة الاستخبارات، والفيلق الخامس في الجيش الأميركي وعمليات الجيش السرية الإقليمية. وكان المبنى يُعدّ أيضاً بمثابة قاعدة الدعم الرئيسية لعمليات وكالة الاستخبارات المركزية في أوروبا وأفريقيا والشرق الأوسط. أطلقت لانغلي على وحدتها الجديدة اسم طهفران (Tehfran)، وهو مزيج من الأحرف الأولى لكلمتي طهران وفرانكفورت. شكّلت ألمانيا غطاءً موثوقاً للعملية؛ ذلك أن العديد من الإيرانيين الذين نُفوا إليها بعد العام 1979 استقرّوا فيها. حافظت مدينة بون على علاقاتها الدبلوماسية مع طهران، وكان الكثير من الإيرانيين يسافرون إلى فرانكفورت، فاستطاعت وكالة الاستخبارات المركزية أن تأتي بسهولة بمجندين إلى المدينة لغربلتهم وتدريبهم، وكذلك لإجراء لقاءات عرضية في بعض الأحيان بين المدرّبين والعملاء[159].

بدأت وحدة «طهفران» العملية المضنية لتجنيد العملاء. كانت تركيا بمثابة ممر للمواطنين الإيرانيين الذين يحاولون الهرب من القمع في ظل حكم آية الله، ولاسيما أنهم لا يحتاجون إلى تأشيرة لدخول تركيا. امتلأت أنقرة واسطنبول بالمهاجرين الفرس الساعين للحصول على تأشيرات سفر إلى أوروبا أو الولايات المتحدة.

سرعان ما احتلت تركيا مركز الصدارة في سباق التجسس بين واشنطن وطهران. استخدمت وكالة الاستخبارات المركزية القنصلية الأميركية في اسطنبول مركزاً لتجنيد العملاء من أجل وحدة «طهفران»، وتمّ تعيين ضابط استخبارات لمهمة انتقاء الإيرانيين الملائمين للتجنيد. أصبح محيط القنصلية المكان المفضّل للتجنيد بالنسبة إلى ضباط الاستخبارات الأميركية.

تَذكَّرَ فيليب جيرالدي، الذي عمل في القنصلية الأميركية في اسطنبول وأدار عملياتها الإيرانية بين عامي 1986- 1989، قائلاً: «كان عبء العمل ثقيلاً». عبر التدقيق والبحث في أكوام استمارات طلب التأشيرات عن أشخاص خدموا في الجيش أو لهم ارتباطات سياسية، كان فيليب

يجري نحو عشرين مقابلة كل أسبوع، لينتهي إلى اقتراح شخص أو اثنين. «كنا نتعقب كل واحد من هؤلاء شهرين ثم يتم الاختيار. كانت خيارات التجنيد موقّقة في كثير من الأحيان»[160].

وجدت وكالة الاستخبارات المركزية أرضية خصبةً وسط ضباط الجيش الإيراني. فالكثير منهم درس في مدارس الولايات المتحدة وكلياتها، ولهم أصدقاء مقربون في الجيش الأميركي. كانت القوات البحرية والجوية الإيرانية الأكثر تأييداً لأميركا، وقد قام جيرالدي نفسه بتجنيد ثلاثة من كبار ضباط سلاح الجو، من بينهم ضابط برتبة عميد. كان ضباط وكالة الاستخبارات المركزية العاملون على تجنيد عملاء وإدارة أنشطتهم في أوروبا يراقبون الإيرانيين المهمين، أي أولئك «الذين يحتاجون المساعدة ويمتلكون معلومات يمكننا استخدامها»، حسب قول أحد موظفي الوكالة المتقاعدين. كانت وكالة الاستخبارات المركزية، بعملها تحت غطاء دبلوماسي واستخدامها أسماء حركية، تعزّز ولاء مجنّديها للولايات المتحدة أو كراهيتهم للشيوعية. وعندما يخفق ذلك كان الأميركيون يمارسون أسلوب الإجبار للحصول على تعاون المجندين، فكانوا يعرقلون طلب تأشيرة الولايات المتحدة التي يطمع المجنّد في أن تحصل عائلته عليها لقاء قيامه بالتجسس لصالح لانغلي. لقد أثبتت هذه الوسيلة أنها إحدى الوسائل الأكثر فاعلية من بين الوسائل التي تلجأ إليها وكالة الاستخبارات المركزية لضمان تعاون المجندين[161].

أحد الذين جنّدهم جيرالدي في أيلول/سبتمبر 1986، كان النقيب البارز في سلاح الجو الإيراني، مسعود بابايي، الذي طار إلى اسطنبول مع عائلته لطلب تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. كان بابايي يجيد اللغة الإنكليزية، إذ إنه تخرّج من مدرسة تدريب الطيارين في ولاية تكساس. تعاون بابايي بسخاء مع جيرالدي خلال مقابلته، وتطوع بإعطاء معلومات مفصّلة عن حالة سلاح الجو الإيراني وعن الحرب مع العراق. قال جيرالدي عنه: «إنه من ألطف الرجال الذين قد تلتقيهم يوماً». أحضرت وكالة الاستخبارات المركزية متحدثاً بالفارسية لإقناعه بالعمل لمصلحة الأميركيين، فوافق على العودة إلى إيران لبضع سنوات مقابل الحصول على تأشيرة مضمونة له ولعائلته[162].

كان ضابط البحرية النقيب توراج رياحي أحد الذين قبلوا بالعرض الأميركي. كان نظراؤه من الضباط الإيرانيين يحترمونه جداً، وسرعان ما رُقّي لقيادة سرب مروحيات إزالة الألغام الأميركية الصنع. توراج رياحي، الذي يتكلم اللغة الإنكليزية بطلاقة، ذو البشرة الفاتحة والشعر البني الفاتح وشاربٍ باللون نفسه، لم يشعر، مثل الكثير من الضباط العلمانيين، بالتآلف مع الحكومة الدينية الجديدة. كان مولعاً بالولايات المتحدة وله أقارب في هاواي. كما أنّ نمط الحياة الغربية الذي ألفه رياحي لم يكن مقبولاً في ظل حكم آية الله الخميني. فقد كان يصنع النبيذ في قبو منزله، ويستقبل مع زوجته الضيوف ويلعبون معهم الورق ويشربون الكحول بحرية، بل إنه كان يسمح لابنته بشرب بعض عينات الكحول في بعض الأحيان[163].

سافر رياحي في شتاء عام 1985 إلى العاصمة التركية أنقرة للحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة لابنه كي يغادر ويعيش مع عمته في هاواي. لم تكن هذه القضية سهلة بالنسبة إلى ضابط في الجيش الإيراني، فقد كان ابنه متخلفاً سنتين عن الخدمة العسكرية الإلزامية، وأراد النقيب رياحي إبعاده كي لا يصبح في عداد الشهداء الكُثر في الحرب مع العراق. كان يؤمن بأن خمسة أعوام من الحرب والثورة لم تجلب إلا الخراب. مع أنه كان وطنياً متحمساً، إلا أنه كان يكنّ ازدراءً متزايداً لرجال الدين الحاكمين، الذين ينوون، حسب اعتقاده، إرجاع إيران إلى الوراء وحرفها عن طريق الحداثة. وكان يرى أن الولايات المتحدة ستوفر مستقبلاً أفضل له ولعائلته على الرغم من ألمه الناجم عن إبعاد ابنه.

شقّ النقيب رياحي طريقه إلى السفارة الأميركية المترامية الأطراف عبر الأوتوستراد المزدحم المسمّى «بولفار أتاتورك». سلّم السفارة صور جواز سفر، وملأ بالتفصيل استمارة طلب التأشيرة. وبعد بضعة أيام قابل ضابط مكتب الخارجية الأميركية، كما اجتمع أيضاً بأحد موظفي السفارة عرّف عن نفسه باسم «باركر» فقط. عمد باركر، اللطيف والغامض، إلى اختصار الروتين الحكومي، وسارع إلى ختم طلب تأشيرة ابن رياحي، وأخبر النقيب الإيراني أن الأمور يمكن أن تتم بسرعة عن طريق سفارة ألمانيا الغربية. في المقابل، طلب باركر معلومات عن الجيش الإيراني.

وافق النقيب رياحي على شروط باركر انطلاقاً من براغماتيته ومثاليته. «كان رياحي رجلاً صالحاً، لكنه كان ساذجاً في ما يتعلق بواقع التجسس القاسي»، هذا ما أشار إليه في وقت لاحق صديقه المقرب، الضابط في البحرية سعيد زنكنه، مضيفاً: «كان يعتقد أن وكالة الاستخبارات المركزية ستعتني به»[164].

سافر رياحي مع ضابط وكالة الاستخبارات المركزية إلى فرانكفورت في ألمانيا مستخدماً جواز سفر مزوراً، حيث خضع لاختبار كشف الكذب القياسي للتأكد من أنه ليس عميلاً مزدوجاً لمصلحة المخابرات الإيرانية. ثم درّبته وكالة الاستخبارات المركزية حول كيفية التواصل مع المشرفين عليه في الوقت الذي كانت تجري ترتيبات تأشيرة ابنه. وهكذا أصبح النقيب رياحي رسمياً عميلاً للاستخبارات الأميركية، أو، كما وصفه معلق الأخبار الإيراني، واحداً من أولئك الذين «باعوا دينهم وشرفهم لقاء بريق وكالة الاستخبارات المركزية المضلّل»[165].

جنّدت وكالة الاستخبارات المركزية في النهاية خمسة ضباط بحرية[166]. كان أحد أثمن مغانم الوكالة صديقاً مقرباً لرياحي، العميد البحري كانوش حكيمي، الذي كان له دور بارز في المباحثات المتعلقة بالعديد من اتفاقيات الأسلحة الإيرانية الحساسة، وأحرز نجاحاً كبيراً في شراء صواريخ «سيلكوورم» (Silkworm) الصينية القوية المضادة للسفن، التي من شأنها أن تُمكن إيران من السيطرة على مضيق هرمز وتهديد السفن التي تبحر من هذه النقطة وتنقل النفط إلى العالم[167].

جنّدت وكالة الاستخبارات المركزية، بالإضافة إلى ضباط الجيش، مجموعة مختلفة من المدنيين. شملت هذه المجموعة محامياً في وزارة الخارجية الإيرانية، ومسؤولين محليين في الحكومة، ومهندساً يعمل في مصنع كيميائي، وكلهم بوسعهم الوصول إلى نطاق واسع من معلومات تحتاجها الاستخبارات الأميركية[168]. بل إنّ الوكالة عملت على اختراق الحرس الثوري الإيراني، وكان من بين هؤلاء المجندين منشقون عن الحرس الثوري على الرغم من ولائهم العلني للدولة. كان بعضهم شباباً مثاليين، انضموا إلى الثورة ثم تمردوا على الجمهورية القمعية التي انبثقت عنها، وبعضهم الآخر أراد ببساطة حياةً أفضل في أميركا.

كان أحد أولئك المجندين مسؤولاً في الحرس الثوري، عُرف باسمه المستعار رضا خليلي، وكان ينحدر من عائلة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة. درس خليلي في ولاية كاليفورنيا حيث تعيش عمته. التحق بالحرس الثوري مع بعض أصدقائه بدافع من حماسة الشباب. خدم خليلي في وحدة الدعاية، حيث حظيت مهاراته باللغة الإنجليزية بالتقدير، في حين تسلّم أحد أصدقائه منصباً رفيعاً في وحدة الاستخبارات في الحرس.

أُصيب خليلي بخيبة أمل بعد زيارة قام بها إلى سجن إيفين، فقد شهد الضرب المبرّح الذي يتعرض له السجناء السياسيون أو أفراد أسرهم[169]. عاد خليلي إلى كاليفورنيا لزيارة عمته وهو مصاب بخيبة الأمل تلك. ولم تكن تمضي مدة وجيزة حتى فكّر في الانشقاق، وقرر الاتصال بمكتب التحقيقات الفيدرالي حيث عرض خدماته وقدم المعلومات التي بحوزته. فأحالوه إلى وكالة الاستخبارات المركزية، وبعد التحريات واختبار كشف الكذب المعتاد أُدرج اسمه رسمياً بين عملاء الوكالة الدائمين.

وضع المحلّلون في واشنطن قائمةً بأسئلة حصرية لهؤلاء العملاء: ما هرمية قوات الحرس الثوري وما هي تكتيكاتها العسكرية؟ من هم الزعماء الدينيون الصاعدون؟ ما الذي يُقلق الناس على الصعيد المحلي؟ كيف كان الوضع السياسي في كردستان والأقاليم الأخرى؟[170]

استخدمت وحدة (طهفران) في فرانكفورت وسائل عدة للتواصل مع عملائها داخل إيران. استلم عدد محدود من العملاء معدات متخصصة تسمح بإرسال رسائل مشفرة عبر خطوط الهاتف العادية إلى (طهفران). اشترى خليلي وقلة آخرون أجهزة راديو تعمل على الموجات القصيرة من السوق السوداء، وكانوا يستمعون إلى الرسائل البرقية المُشفرة التي تأتي عبر موجات الأثير على شكل زمر من الأرقام في أوقات محددة مسبقاً. حيث تُترجم هذه الأرقام إلى رسائل شخصية باستخدام شيفرة أخرى[171].

كانت الوسيلة الرئيسية للتواصل مع عملاء وكالة الاستخبارات المركزية حيلة قديمة يعود تاريخها إلى قرن من الزمن: الحبر المخفي. ظلت وسائل الوكالة المختلفة من أقدم الأسرار المحفوظة في الأرشيف الوطني، ولم تُرفع السرية عن بعضها حتى العام 2011م[172]. كان

الجواسيس الإيرانيون يجيبون باستخدام أدوات الكتابة غير المرئية تقريباً، كأقلام البلاستيك وغيرها من المواد المطلية بمادة كيميائية خاصة، تترك بقايا مخفية يمكن استرجاعها بالمحلول المناسب. كان خليلي يستخدم نوعاً خاصاً من ورق الكتابة. فكان يكتب على وجه الرسالة رسائل ودية إلى أصدقاء مزعومين في فرانكفورت، ويدوّن المعلومات على قفاها بقلم خاص من أدوات الكتابة السرية، فيقوم ضابط وكالة الاستخبارات المركزية في طهران بالاطّلاع عليها عبر غسل الورقة بمحلول خاص[173]. تم تبادل المئات من هذه الرسائل بين إيران وألمانيا، واعترف أحد ضباط سلاح الجو أنه أرسل وحده 110 رسائل إلى «طهفران»[174].

أنتجت شبكة التجسس خليطاً من الشائعات والحقائق. لم يكن بين الجواسيس المُجَنَّدين أحد من مقام عالٍ تماماً بحيث يؤثر في النظام أو يسلط مزيداً من الضوء على موقف إيران تجاه القوى العظمى، مثلما كان يأمل كيسي. وكثيراً ما كانوا يقدمون معلومات خاطئة[175]. أخبر أحد العملاء مشرفيه الأميركيين بأن إيران زودت حزب الله اللبناني بمروحيات وتنوي تسليحه بالصواريخ، ولكن عندما راجعت وكالة الاستخبارات المركزية كل مصادرها الإيرانية كي تتأكد من صحة التقرير، بما في ذلك استجواب طيار إيراني انشق مؤخراً وذهب إلى العراق، خلص مسؤولو الاستخبارات إلى أن التقرير خاطئ وأنه استند إلى الثرثرات الدائرة في نادي الضباط الإيرانيين.

بيد أن العملاء قدموا معلومات مفيدة ساعدت واشنطن في إحباط مغامرات عسكرية إيرانية. لقد زوّد أحدهم وكالة الاستخبارات المركزية بمعلومات حول محاولة إيران شراء صواريخ مضادة للسفن من طراز إكسوسيت (Exocet) فرنسية الصنع، مما دفع بوزارة الخارجية الأميركية إلى التدخل وإفشال عملية البيع. كما قدّم فني يعمل في صيانة الطائرات في سلاح الجو الإيراني رسوماً بيانية مهمة عن القاعدة الجوية الإيرانية الكبيرة قرب بوشهر. وساعد آخرون الجيش الأميركي على تحديد أهداف مهمة في سلاحي الجو والبحرية الإيرانيين، من بينها موقع منشآت الضبط والتحكم التي يستخدمها الحرس الثوري.

بالإضافة إلى تجنيد جواسيس، سمحت خطة العمل السرية الإيرانية لوكالة الاستخبارات المركزية بتجنيد الإيرانيين المنفيين. بدأت الحركة المناهضة للخميني بعد وقت قصير من إطاحة الشاه. في بداية شهر آب/أغسطس 1979، شرعت مصادر وكالة الاستخبارات المركزية بنقل أخبار عن مساعٍ يقوم بها ضباط سابقون في الجيش الإيراني لتنظيم معارضة خارجية ضد رجال الدين في طهران. ظهر أحد التجمعات الأولى في لندن بقيادة جنرال سابق في سلاح الجو الإيراني يدعى حسن توفانيان، وهو رجل مثير للإعجاب وصفه الجنرال هويزر قائلاً: «إنه محرّك بشري يعمل بطاقة 110٪». وجرى الاجتماع في فندق في لندن جمع ضباطاً إيرانيين سابقين من أتباع الشاه من مختلف أنحاء أوروبا والولايات المتحدة لرسم خطة لقلب نظام حكم الخميني ومناقشتها. علمت الحكومة الإيرانية بهذا الاجتماع بعد الاستيلاء على السفارة الأميركية عندما جمع الطلاب أجزاء رسالة ممزقة، وُجدت في السفارة، تصف اجتماع توفانيان في لندن[176].

كانت وكالة الاستخبارات المركزية تدفع ملايين الدولارات لتنظيمات المغتربين المختلفة، معتقدةً أنها مقرّبة من القيادة الإيرانية. كان التنظيم المفضل لدى كيسي يتزعمه الأدميرال أحمد مدني الذي كان مقره في ألمانيا. ينتمي مدني إلى عائلة شيعية متدينة عريقة؛ كان مؤيداً قوياً للثورة، وشغل منصب أول وزير للدفاع بعد الثورة قبل أن يستولي عليه الإسلاميون. وحافظ على اتصالات قوية داخل المؤسسة العسكرية الإيرانية[177].

وفقاً للكاتب كينيث تيمرمان، اجتمع كيسي ونائب رئيس موظفي البيت الأبيض مايكل ديفر في كانون الثاني/يناير 1983 بسايروس رضا بهلوي، أكبر أبناء الشاه، وذلك في نادي تشيس تشيفي خارج واشنطن العاصمة، وشرع الشاب البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً بالحديث عن ضعف الحكومة الإسلامية والأزمة الاقتصادية المتنامية، وعن الفرص المتاحة لإعادة النظام الملكي. وأضاف أحد أنصاره قائلاً: «إن شعب إيران سيحمل جلالته على الأكتاف إلى طهران!»

اقترح ابن الشاه أن تساعده الوكالة على تأسيس شبكة مؤلّفة من عملاء استخبارات إيرانيين سابقين، تقوم بجمع معلومات من داخل إيران كجزء من مخطط يهدف إلى إعادته إلى الحكم. كان ذلك ضرباً من الخيال؛ فالشاه الشاب لم يكن يلقي أي دعم داخل إيران. لكن الأمر أتاح لكيسي والإدارة الأميركية فرصة سماع ما يريدان معرفته. فوافق كيسي أن يدفع راتباً شهرياً لدعم جهود الشاه الابن على الرغم من الازدراء العام في إيران تجاه عائلة بهلوي[178].

موّلت وكالة الاستخبارات المركزية سراً، كجزء من الحملة ضد النظام الإيراني، محطة إذاعية مصرية تبث في الداخل الإيراني أربع ساعات يومياً برامج دعائية مناهضة للخميني. وسرعان ما أصبحت المحطة تبثّ قصصاً تهدف إلى تسليط الضوء على المشكلات في عهد الخميني، بدءاً بنقص المواد الغذائية وانتهاءً بتجاوزات الحرس الثوري الوحشية[179]. قال أحد رجال الشرطة السريين المتقاعدين من وكالة الاستخبارات ساخراً إن الوكالة دعمت بثاً تلفزيونياً بُثّ في إيران تحدث فيه رضا، ونجح البرنامج في قطع بثّ قناتين مدة إحدى عشرة دقيقة بالضبط في 5 أيلول/سبتمبر من العام 1986، وهي المدة التي اعتبرَ أنها تعكس بقصرها قدرات الشاب الفعلية.

لقد أثبت المنفيون أن فائدتهم محدودة، وكان مسؤولو وكالة الاستخبارات المركزية ينظرون إليهم بتشكك كبير. «المنفيون يستندون إلى الشعلومات»، قال رجل المباحث المتقاعد جاك ديفين، مستخدماً المصطلح غير الرسمي الذي يشير إلى المزج بين الشائعات والمعلومات الاستخباراتية. مضيفاً: «كثيراً ما كانوا مُخترقين من قبل عملاء مزدوجين، أو يعملون وفق أجندتهم الخاصة التي لا تتفق بالضرورة مع أهداف الولايات المتحدة. ولن يكونوا أبداً السبيل إلى السلطة، لكنهم هناك على الدوام، ويمكنهم إيجاد جمهور يصغي إليهم».

تحرر جورج كاف، الذي عمل فترةً طويلة جاسوساً في إيران، في وقت مبكر من وهم جماعات المعارضة. في تموز/يوليو 1980، رسمت مجموعة مكونة من ضباط رفيعي المستوى في سلاح الجو خطة للقضاء على الحكومة الثورية بأكملها من خلال قصف مواقع حكومية وعسكرية

رئيسية في طهران بدءاً من منزل الخميني. كان قائد سلاح الجو الإيراني، الرائد سعيد مهديون، رأس حربة هذه الخطة داخل إيران، وهو ابن تاجر ثري من تبريز، وعُرف بأنه أحد أفضل طياري سلاح الجو. جمّع سعيد مهديون بهدوء نحو اثنتي عشرة طائرة من طراز F-4 في قاعدة عسكرية كبيرة في نوجه بالقرب من طهران، حيث ستقوم ثلاث طائرات تحت جنح الظلام بقصف منزل الخميني، وضرب كل مبنى في مجمع الخميني بقاذفة ضخمة لقنابل تزن 750 رطلاً وقنابل عنقودية وبأسلحة موجهة بدقة. وفي تتابع سريع ستضرب طائرات أخرى مقر إقامة الرئيس ورئيس الوزراء والثكنات العسكرية ومركز قيادة الحرس الثوري. وبعد مقتل الخميني، سيدخل شابور بختيار من العراق إلى البلاد على رأس قوة من المنفيين، لينضم من ثم إلى بعض العناصر المنشقة عن الجيش لقلب نظام حكم الجمهورية الإسلامية. تورطت معظم جالية المغتربين الإيرانيين بما صار يُعرف بانقلاب نوجه الذي موّله الأدميرال مدني المقيم في ألمانيا.

لم يكشف بختيار ولا أي قائد آخر من قادة الانقلاب عن تفاصيل الخطة لوكالة الاستخبارات المركزية، ولعلّ السبب هو تجنّب الكشف عن تواطؤ صدام حسين. طلب بختيار، خلال لقاء له مع كاف في باريس، من وكالة الاستخبارات المركزية توفير مروحيات لنقل عملائه إلى «داخل إيران وحولها»، وعندما ضغط كاف بغية الحصول على تفاصيل دقيقة مثل توقيت الانقلاب ومكانه، وسببه، وكيفية تنفيذه، وعدد الرجال- ظل بختيار يراوغ. قبل بدء الهجوم بقليل، حذّر مغترب إيراني السفارة الإيرانية في باريس من الانقلاب، فتحركت الحكومة الإيرانية بسرعة وحشدت مئات الأشخاص. اضطر قائد سلاح الجو مهديون إلى الاعتراف أمام محكمة كنغرية شكلية، سُجلت وقائعها على شريط فيديو، فأُدين وفقئت إحدى عينيه من قبل جلاديه قبل أن يمطروا جسده بالرصاص.

فكّر كاف بالجماعات المتباينة التي تحاول إطاحة آية الله الخميني وقال باستياء: «رفض المنفيون التعاون فيما بينهم. لقد أراد كلٌّ منهم أن يكون زعيماً». وأضاف مازحاً: «ولد كل ذكر إيراني وهو يحمل في دماغه رقاقة تُرَدِّد: أنا زعيم الشعب الإيراني».

كان لدى وليام كيسي ووكالة الاستخبارات المركزية عميل آخر مهووس بإيران: وزارة الدفاع الأميركية. في صيف عام 1981 أعاد الجنرال كينغستون النظر في خطط القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) للردّ على الغزو السوفيتي لإيران. كان العنصر الرئيسي في خطة الجنرال كينغستون الجديدة ينطوي على نشر فرق من القوات الخاصة السرية لتنظيم جيش حرب عصابات والقيام بعمليات تخريب وراء خطوط الجبهة الروسية. بيد أن الأمر كان يستلزم أن تقوم وكالة الاستخبارات بإنشاء تنظيم أهلي داخل إيران. فالوكالة هي وحدها التي لديها تفويض قانوني يسمح لها بالقيام بعمليات شبه عسكرية سرية في وقت السلم (على سبيل المثال، أي عملية تخفي التورط الأميركي وتسمح لواشنطن باستخدام سياسة الإنكار). من الناحية النظرية، توجّب على الوكالة بناء أساسات شبكة شبه عسكرية من السكان الأصليين في زمن السلم، تكون أكبر بكثير من قوات الجيش الأميركي الخاصة -المعروفة باسم القبعات الخضر بسبب خوذاتها الفريدة من نوعها- ليتم استخدامها في زمن الحرب[180]. كما توجّب على الوكالة أن تنسق عملياتها شبه العسكرية مع

كينغستون. كان الهدف مزامنة خطط الوكالة مع الخطط العسكرية للتأكد من أن كليهما لا يشتغل لأغراض متعارضة.

بدأت وزارة الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية في ربيع العام 1982 بالعمل على وضع خطة مشتركة من أجل إيران. ونجح كينغستون بخبرته الواسعة مع وكالة الاستخبارات المركزية في إقناع وزير الدفاع بالموافقة على تمويل عملية لـ «السي. آي. إيه.» تقضي ببناء شبكة سرية شبه عسكرية داخل إيران. ستكون هذه الشبكة بمثابة الأساس الذي ستستند إليه قوات كينغستون الخاصة للقيام بثورتها ضد الجيش الأحمر[181]. دعم كيسي الاتفاق بقوة، كونه يقدّم وسيلةً إضافية لإنشاء روابط واتصالات جديدة في إيران، بتمويل من وزارة الدفاع.

تطلّب موضوع إيران التزاماً كبيراً من جانب وكالة الاستخبارات المركزية. ذكرت إحدى مذكرات وزارة الدفاع أنه ينبغي على وكالة التجسس بناء طابور خامس داخل إيران يهدف إلى تقويض أي «حكومة على الطراز الفيشي من الحكومات» تنصّبها موسكو. كانت وكالة الاستخبارات المركزية بحاجة إلى تجنيد الإيرانيين الذين سيرحبون بالمظليين الأميركيين الواصلين في منتصف الليل. كما تعيّن على الوكالة توفير المعلومات العسكرية بخصوص الطرق والجسور والمطارات، وإنشاء محطات لتجميع القوات الأميركية الواصلة، وتولّي عمليات التخريب، وإنقاذ الطيارين الذين سيسقطون.

أنشأت وكالة الاستخبارات المركزية داخل خلية «طهفران» في فرانكفورت تنظيماً جديداً- أُطلق عليه اسم سري لا معنى له هو «قاطرة BQ»- لإدارة العمليات شبه العسكرية في إيران. واختارت وكالة الاستخبارات ضابطاً سابقاً من القوات الخاصة للإشراف عليه، وصفه ضابط سابق في الاستخبارات يدعى رعوئيل غرشت بأنه «فظّ ولكن محبوب». كان يعمل بشكل وثيق مع مجموعة صغيرة من ضباط رفيعي المستوى في الجيش في مقر القيادة المركزية الأميركية في تامبا، حيث حددت هذه المجموعة أهدافاً دقيقة سوف يفجّرها عملاء إيرانيون، وحددت أيضاً المطارات التي يريد الجيش الأميركي استخدامها لدعم خطة البنتاغون الحربية.

قدّم البنتاغون بضعة ملايين من الدولارات، فجنّد تنظيم «قاطرة BQ» أكثر من ستة فرق يراوح عدد عناصر كلٍّ منها بين أربعة وستة رجال. تضمنت هذه الفرق ضباطاً من الجيش الإيراني، وبضعة مجنّدين سابقين خدموا في الجيش وفلاحين من قرى يعتبرها الجيش الأميركي مواقع إستراتيجية. كما وجُنِّد الكثير من الأشخاص في أذربيجان الإيرانية، الواقعة شمال غرب إيران والممتدة عبر الحدود مع الاتحاد السوفيتي[182]. كانت مهمة بعض العملاء الإيرانيين مقتصرة على مراقبة القوات السوفيتية عبر الحدود بصورة مستمرة، أو رصد بعض البلدات الحدودية المهمة مثل جلفا، حيث تمر كل الواردات والصادرات الإيرانية من وإلى الاتحاد السوفيتي عبر الطريق السريع الرئيسي وخط السكك الحديدية[183]. حاولت وكالة الاستخبارات المركزية تدريب رؤساء

الفرق وفحصهم عبر الجهاز الكاشف للكذب. أشار العديد من المجندين لاحقاً إلى أنهم نقلوا جواً إلى عُمان كي يتدرّبوا على الأسلحة المتخصصة والمتفجرات.

كان خطاب وكالة الاستخبارات المركزية الموجّه إلى كل مجند يقلل من أهمية توظيفه من قبل الولايات المتحدة ويشدد على ضرورة الدفاع عن إيران ضدّ الملحدين والشيوعيين المعادين للإسلام؛ وعلى أن المجندين يخدمون بلدهم عندما يساعدون الولايات المتحدة التي تدافع عن إيران ضد الشيوعية.

كان محمد زنيف يغانه، الموظف في وزارة الإسكان شمال إيران، عميلاً نموذجياً. ادّعى في وقت لاحق أن صديقه، المدرج اسمه على جدول الرواتب في وكالة الاستخبارات المركزية، أغراه بالسفر إلى تركيا بحجة شراء الكريستال لبيعه في السوق السوداء، وأنه صار فجأةً يُقرّبه من شخص أميركي يتكلّم الفارسية وقد طلب منه العمل مع الولايات المتحدة لمساعدة إيران وحمايتها من هجوم روسي. كان مبلغ خمسمئة دولار في الشهر حافزاً إضافياً له فوافق على العمل. مسح أرض مزرعة دواجن منعزلة وعاينها لتكون منطقة هبوط محتمل للقوات الأميركية، وأرسل خريطة مفصلة عن المنطقة الخلفية للمزرعة إلى فرانكفورت[184]. تم تجنيد صاحب المزرعة، وانضم إلى فريق يغانه، فحدد الرجلان مناطق أخرى لهبوط المروحيات.

فكرت وكالة الاستخبارات المركزية في تلك المرحلة أن تستخدم هؤلاء العملاء لتنفيذ هجمات سرية ضد نظام الخميني. كان الاقتراح أن يتم استخدام عملاء «قاطرة BQ» لقصف مواقع عسكرية إيرانية حساسة، كمراكز القيادة والتحكم في طهران أو ميناء بوشهر -أي «قصف وكر هتلر المحصن»، على حد وصف ضابط متقاعد في وكالة الاستخبارات المركزية. بدأت الوكالة، بناءً على طلب من وزارة الدفاع، تنظر في استخدام عملاء «قاطرة BQ» للهجوم على منصات الصواريخ المضادة للسفن الجديدة الصينية الصنع حول مضيق هرمز في العام 1987 لكنّ أيّاً من هذه المقترحات لم يتحقق.

لاحظ الضابط هوارد هارت، الذي عمل مدة طويلة في وكالة الاستخبارات المركزية، قائلاً: «العملاء أناس مضحكون، فقلّة منهم على استعداد للقيام بالمهمة الفعلية المتمثّلة في زرع القنابل، أو شن هجوم على بلدهم. سوف يعطونك معلومات دقيقة عن مواقع حساسة وإحداثيات نظام تموضعها العالمي، ولكن أن يقوموا هم أنفسهم بتنفيذ الهجوم على هذه المواقع، فهذه قفزة هائلة[185].

على الرغم من الدعم الذي قدمه كيسي، رأى الكثيرون داخل وكالة الاستخبارات المركزية أن «قاطرة BQ» هدرٌ للوقت. فمديرية العمليات لم تقم دوماً بتعيين أفضل الضباط في «التنظيم»، وكانت تتصل بمركز القيادة في لانغلي من خلال ضابط في الوكالة رفع مؤخراً دعوى قضائية ضدها متعلّقة بإعاقة جسدية، يُفترض أنها آلام مزمنة في الظهر، وربح الدعوى في نهاية المطاف، وأجبر وكالة الاستخبارات المركزية أن تشتري له كرسيّاً خاصّاً يجلس عليه حتى تقاعده.

ذات مرة سافر نائب رئيس وحدة «طهفران»، وهو ضابط سابق في الجيش، إلى تركيا وبحوزته ثمانية جوازات سفر إيرانية مزوّرة لعملاء من المقرر أن يستخدموها للعودة إلى إيران في مهمة جماعية. أشار فيليب جيرالدي إليه قائلاً: «كان رجلاً أخرق، وكان بوسعه أن يفسد أي شيء». بعد إصدار وثائق مزورة لهؤلاء العملاء الإيرانيين، جمع نائب رئيس وحدة «طهفران» جوازات سفرهم الحقيقية ووضعها في جيب معطفه، وتوجه إلى المطار كي يعود إلى فرانكفورت. عندما مرَّ من خلال جهاز الكشف عن المعادن، ظهر قلمان في جيب قميصه على الجهاز، فأُمر بإفراغ جيوبه، فوجد حراس الأمن التركي بحوزته حزمة جوازات السفر فأُلقي القبض عليه. عندما لم يعد إلى فرانكفورت، أُرسل جيرالدي لإحضاره، وما إن وصل الفندق الذي يقيم فيه نائب رئيس وحدة «طهفران» اعتقلته الشرطة التركية هو أيضاً. وبما أن جيرالدي موظفاً في السفارة، ويحمل جواز سفر دبلوماسي، فقد أطلق الأتراك سراحه. بيد أن إطلاق سراح نائب رئيس وحدة «طهفران» تطلّب جهداً كبيراً، انطوى على تقديم بعض الخدمات للمخابرات التركية.

قال أحد ضباط وكالة الاستخبارات المركزية: «كانت مهمتهم مضحكة؛ لم يأخذ أحدٌ منهم الأمر على محمل الجد»، مضيفاً: «من غير المرجّح أن يحتل السوفيت إيران وإن قاموا بذلك فسيكون تأثير تلك الفرق الست مثل تأثير بعوضة عند ارتطامها بشاحنة». والأهم من ذلك، لم يستطع أحد ذكر كيف ستكون ردة فعل آية الله الخميني لحظة وصول القوات الأميركية الخاصة إلى إيران علماً أن النظام الإيراني كان معادياً للولايات المتحدة دون ريب. أشار ضابط آخر في الوكالة قائلاً: «لدينا الآن خطة للدفاع عن أولئك الذين لا يريدون أن يتم الدفاع عنهم في مواجهة الذين لا يخططون للهجوم عليهم».

لم يقف عملاء وزارة الاستخبارات والأمن الوطني الإيرانية مكتوفي الأيدي في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة تجنّد فيه جواسيس وتدفع لجماعات المنفى. لقد برع الإيرانيون منذ أيام الشاه والسافاك في مكافحة التجسس. تشكّل جهاز المخابرات الإيراني الجديد في آب/أغسطس من العام 1984 عبر توحيد مجموعات استخباراتية صغيرة ظهرت بعد الثورة. والمثير للدهشة أنه، على الرغم من كراهية مؤيدي الخميني لشرطة الشاه السّرية، عملت وزارة الاستخبارات والأمن الإيرانية على توظيف عدد كبير من الضباط السابقين في السافاك - ربما ثلث العاملين لحسابها كانوا يعملون لدى الشاه - وقد أثبتوا براعتهم في التصدي للتهديدات الأمنية تجاه الجمهورية الإسلامية مثلما كانوا يفعلون إبان حكم النظام الملكي.

تلقّت إيران بعض المساعدة من أجهزة تجسس أخرى حريصة على تقويض عمليات وكالة الاستخبارات المركزية. على الرغم من بغض الجمهورية الإسلامية للشيوعية، تغلّبت الغاية المشتركة على الأيديولوجيا عندما أقامت وزارة الاستخبارات والأمن الإيرانية علاقات متبادلة مع أجهزة استخبارات كلٍّ من ألمانيا الشرقية ورومانيا[186]. فقد زوّدت رومانيا إيران بالتكنولوجيا الحديثة ودرّبت الإيرانيين على طائرة تجسس، كما قام الألمان الشرقيون بمراقبة أنشطة «طهفران» في فرانكفورت ووفروا معلومات مهمة لحلّ لغز التجسس الأميركي.

تعقبت مديرية الأمن الخارجي في وزارة الاستخبارات والأمن الإيرانية الجماعات المنشقة، وأنشأت فرقاً ضاربة صغيرة، تختلط بالإيرانيين المسافرين إلى تركيا وتغتال منتقدي النظام الإسلامي. وقد انتقلت هذه الفرق من اسطنبول إلى أوروبا الغربية، وقامت بالعشرات من عمليات الضرب والطعن والتفجير وغيرها من أعمال الترهيب والقتل. في شهر آب/أغسطس 1991، على سبيل المثال، شقّ ثلاثة رجال إيرانيين طريقهم متجاوزين الحارس الفرنسي الذي كان يحرس بيت رئيس وزراء الشاه السابق شابور بختيار، ثم دخلوا عليه وقتلوه مع أمين سره طعناً بسكين المطبخ. نسبت الاستخبارات الأميركية أكثر من ثمانين عملية اغتيال إلى عملاء وزارة الاستخبارات والأمن الإيرانية بين عامي 1980 و1995، وهو تاريخ آخر عملية اغتيال إيرانية معروفة. لم يتم القبض سوى على عدد قليل من ضباط وزارة الاستخبارات والأمن الإيرانية؛ ذلك أنهم كانوا لا يتركون خلفهم سوى جثث هامدة، لنقل على رصيف باريس، بعد إطلاق رصاصة على رؤوس أصحابها من الخلف كدليل على ما فعلت أيديهم.

لسوء حظ وكالة الاستخبارات المركزية، كان عدد كبير من ضحايا وزارة الاستخبارات والأمن الإيرانية من المجنّدين المحتملين لدى الأميركيين. كانت الوزارة تقوم بمراقبة سفارات الولايات المتحدة التي تحاول تجنيد المواطنين الإيرانيين، ولم تستنكف عن قتل المشتبه بهم من المتعاونين مع الأميركيين. اعترف فيليب جيرالدي بذلك صراحةً قائلاً: «كان الإيرانيون على وجه الخصوص جيّدين جداً، وغالباً ما كانوا قادرين على تحديد واغتيال عملائنا الذين كانوا يقدّمون معلومات للسفارة الأميركية ومقرّ وكالة الاستخبارات المركزية في أنقرة»[187].

حاول الإيرانيون في بعض الأحيان تشغيل عملاء مزدوجين لصالح «طهران». استطاع رعوئيل غرشت، وهو رجل أنيس ضخم يجيد الفارسية حلّ محل جيرالدي في القنصلية الأميركية في اسطنبول، الكشف عن اثنين من عملاء وزارة الاستخبارات والأمن الإيرانية خلال مقابلات طلب التأشيرة. لقد بدا كلا الرجلين متلهفاً جداً لتقديم خدماته ومعلومات عن الحكومة الإيرانية.

سرعان ما اكتشفت إيران شبكة تجسس كيسي. فقد تنبّه وزير الاستخبارات والأمن الوطني السابق محمد ريشهري في تموز/يوليو من عام 1985، عندما حاولت وكالة الاستخبارات المركزية تجنيد مسؤول حكومي من الدرجة المتوسطة في أذربيجان الإيرانية لينضم إلى «قاطرة [188]«BQ. للأسف، تقربت الولايات المتحدة من الرجل الخطأ، فبدلاً من أن يتعاون معها نبّه على الفور وزارة الاستخبارات والأمن الإيرانية بشأن حملة التجنيد التي تقوم بها وكالة الاستخبارات المركزية. تعقب الإيراني اثنين من عملاء الوكالة كانا يعملان في وزارة الخارجية الإيرانية، وكان أحدهم لغبائه قد احتفظ في منزله بكل الرسائل المشفّرة التي تصله عبر الراديو من المشرف عليه في الوكالة. اكتشفت الوزارة هذه الرسائل، وكذلك كتاب فكّ رموز الشيفرات، وجهاز الراديو الخاص به.

كانت وزارة الاستخبارات والأمن الإيرانية تعمل بتأنٍّ وصبر. فعلى مدى السنوات القليلة التالية بذل ضباط مكافحة التجسس جهدهم لحل ألغاز شبكة تجسس تديرها وكالة الاستخبارات المركزية، وجنّدت الوزارة جواسيسها داخل الجيش الإيراني للعمل على مراقبة كبار الضباط الذين

قد يكونون عرضةً للعمل بالتجسس لمصلحة وكالة الاستخبارات المركزية. وتمّ تشجيع صغار الضباط على التجسّس على كبار الضباط. بالنسبة إلى النقيب رياحي، جنّدت الوزارة ضابطاً برتبة ملازم أول وطيار زميل لرصد تحركاته. في هذه الأثناء أوعز ضابط استخبارات بارز إلى رضا خليلي أن يغيّر رموزه، فقد كان يعلم أن الإيرانيين يشتبهون به. وقام مع آخرين بالشيء ذاته، واستمروا في نقل المعلومات إلى (طهفران) بينما كانت لانغلي تجهل المصيبة التي تنتظرها. لقد كانت وزارة الاستخبارات والأمن الإيرانية وقتئذٍ تراقب وتنتظر[189].

الفصل الخامس

حيادية مستورة بورقة تين

عندما يتوجه المرء شرقاً باتجاه إيران، منطلقاً من بؤس مدينة البصرة الشديد، ثاني أكبر المدن العراقية، يلاحظ أن شبح معركة قديمة يخيّم على تلك الأرض القاحلة. يمكنك أن ترى بوضوح على مدّ النظر على جانبي الطريق الترابية الوعرة، التي تزدحم بهياكل شاحنات وسيارات أجرة متهالكة وعربات حمير، خنادق تجتاز الصحراء، أميالاً في كل الاتجاهات. ويمكنك أن ترى أيضاً صفوفاً لا متناهية من سواتر ترابية على شكل حرف U ومرابض قتالية واسعة مثلثة الشكل تتآكل ببطء، سُحبت منها الدبابات التي كانت تشغلها فيما مضى وأُرسلت لخوض حروب أخرى، أو أن سكان القرى المحليين حوّلوها إلى خردة معدنية. كما تبدو أرض الصحراء مدروزةً بحفر وخنادق كبيرة وصغيرة، تجعلها أشبه بسطح القمر. وكثيراً ما تكشف الأمطار والرياح عن عظام مبيضّة لجنود دُفنوا على عجل، فتظهر أحذيتهم التي لم تتحلّل بعد، وكذلك أجزاء من أزيائهم الرسمية التي لم يعد تمييزها ممكناً، إضافة إلى جماجمهم التي هشّمتها الطلقات النارية والصفيح الساخن. وبالرغم من مرور عشرين عاماً على انتهاء القتال، إلا أن بقايا ذخائر لم تتفجّر ما زالت منتشرة في الأرض الصحراوية، موديةً على نحو منتظم بحياة الكثيرين من المدنيين ممن ضلوا الطريق وحادوا عن الدروب المعبّدة.

تدلّل هذه المشاهد على حربٍ من أشد الحروب دموية منذ الحرب العالمية الثانية، وهي الحرب العراقية-الإيرانية التي دامت ثماني سنوات من القتل والذبح. وعندما انتهت بحمد الله في شهر آب/ أغسطس من العام 1988، لم يكن الطرفان قد حقّقا الكثير، فالحدود ظلت على حالها دون تغيير، ولم يستولِ أي طرفٍ على أراضٍ تابعة للطرف الآخر، كما لم يخسر أيٌّ من آية الله الخميني أو صدام حسين سلطته. ضحّى أكثر من مليون رجل بأرواحهم، إبان تلك الحرب التي تسبّبت أيضاً بعاهات دائمة لأكثر من أربعة أضعاف هذا الرقم. كانت حرباً عديمة الكفاءة ولم تفِ بالمراد، تبادل خلالها زعيمان جبّاران نيران الأسلحة الحديثة دون تحقيق أي نتيجة مرجوّة. شلّت القيود

المؤسساتية كلا البلدين، ومنعت أي تقدّم فعليّ إلا في ما ندر. لم يُعجب الزعيمُ العراقي صدام حسين، وهو عسكري مبتدئ في فنون القتال، بالقادة الذين أظهروا حسّ مبادرة، أو براعة فائقة في ساحة المعركة. أما الجيش الإيراني الذي كان جباراً من قبل فقد طمست دوره وقوته الثورة الإيرانيّة. فبدلاً من استخدام الدبابات، وكتائب المشاة، والطائرات في إطار جيش عقائديّ موحّد ومسلّح بسلاح حديث، آمن الخميني والقادة الثوريون بأن الاندفاع والحماسة الثوريين، المتجسّدين بسيناريو الموجة البشرية، يكفيان للتغلّب على أرتال من الدبابات والمدفعيات العراقية التي اصطفت على طول المحاور.

أثرت الحرب في المنطقة تأثيراً واضحاً مع أنها لم تحقق إلا القليل على الصعيد العسكري. استهلكت إيران الحماسة الثورية، وأمست البلاد معزولة يثقلها إحساسٌ عميق بالظلم وانعدام الأمن. كانت الحرب فاتحة للتفوق العسكري العراقي ولحروب دامت عقدين من الزمن بين صدام حسين والغرب. كما أنها عمّقت شكوك أهل الخليج بإيران. ودفع خوف الولايات المتحدة المتزايد من تهديد إيران لسيطرة واشنطن على نفط الشرق الأوسط، إلى تحالف أميركي عراقي غير متوقّع، ما لبثت واشنطن أن ندمت عليه.

كان صدام حسين براغماتياً ومصاباً بجنون العظمة في آن. فهو يتحدّر من قبيلة رعاة سنّية، من مدينة تكريت شمال بغداد. بشعره الكالح السواد وشاربيه، برز صدّام أولاً في صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي بوصفه عضو قيادة قطرية قبل أن يصل إلى سدة الحكم في عام 1979. كان تركيزه الحقيقي على بقائه السياسي وتعظيم قدره مع أنه كان ينادي بالعلمانية والمثل الاشتراكية الغربية كالعلم للجميع وحق المرأة بالتصويت. وقد اقترن دهاؤه السياسي بنزعةٍ عنيفةٍ إلى الارتياب، بحيث كان يعمد إلى سجن أو إعدام كلّ من يُظهر كفاءة عليا. و«كان صدّام حذراً على الدوام من الأذكياء»، هذا ما قاله علي حسن المجيد، الملقب بـ «علي الكيماوي»، نظراً لدوره في قتل مئات من المدنيين الأكراد بالغاز في عام 1988 لسحق خطر كان محدقاً بحكم صدام[190].

وجد الرئيس العراقي نفسه بسرعة في مرمى الثورة الإيرانية. لم ينس آية الله الخميني أن صدام حسين قد أمر بطرده من العراق تلبيةً لرغبة الشاه. فكان المرشد الأعلى يكن الاحتقار لصدام ولحزبه البعثي العلماني. وانتقد الخميني علناً النظام العراقي معتبراً أن البعثيين «أفسدوا الإيمان الحقيقي»، ودعا شيعة العراق الذين يشكّلون غالبية السكان إلى التمرّد. كما شدّد آية الله بشكل صريح على وحدة جميع المسلمين، رافضاً المفاهيم الغربية التقليدية المتعلّقة بالدول القومية والهوية القومية. كما ذكّر بأن الأمة هي الأساس الوحيد الذي بُنيت عليه السياسات الإسلامية، وبأن مفهوم الأمة الإسلامية الموحدة الذي أكّد عليه الرسول شكّل القوة الدافعة للرؤية الثورية الإيرانية. قال المرشد الأعلى في إحدى خطب يوم الجمعة العديدة التي تناولت هذا الموضوع: «سنقوم بتصدير ثورتنا إلى كل مكان في العالم... إلى أن يصدح صدى شهادة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» في جميع أنحاء البسيطة».

اقترنت أقوال الخميني بالأفعال. إذ بدأت إيران بدعم انفصاليين أكراد في شمال العراق، وتسلّل عملاء إيرانيون محرّضون إلى العراق، وزودوا جماعات شيعية معارضة بالأسلحة

والتدريب. وزادت إيران من دعمها لحزب الدعوة الإسلامي، وهو حزبٌ شيعي ضم في صفوفه عدداً من القادة العراقيين المستقبليين، ولاسيما رئيسي الوزراء العراقيين إبراهيم الجعفري ونوري المالكي. نقل حزب الدعوة مقرّه الرئيسي إلى طهران بعد مضي فترة وجيزة على سقوط الشاه، وصعّد من عملياته التي اتخذت شكل حرب عصابات ضد الحكم البعثي في العراق. في نيسان/أبريل 1980، قام إرهابيون تدعمهم إيران باغتيال عشرين مسؤولاً عراقياً، وتعرّض طارق عزيز الذي كان يشغل منصب نائب رئيس مجلس الوزراء العراقي، ويعدّ أحد المقربين من الرئيس العراقي[191]، لمحاولة اغتيال كادت تنجح. رداً على ذلك، وبتحفيزٍ سري من المملكة العربية السعودية القلقة للغاية من أن تؤجّج الثورة الإيرانية مشاعر الشيعة في المحافظات الشرقية في المملكة، شدّد نظام بغداد قبضته عبر اعتقال زعماء دينيين بارزين، وطَرْد آلاف الشيعة، وأخذ يحرّض العرب في جنوب إيران على التمرّد. زاد التوتر على طول الحدود، وصارت المناوشات العسكرية تجري بصورة اعتيادية. رداً على إحدى عمليات التغلغل الإيراني التي جرت في 14 كانون الأول/ديسمبر من العام 1979، تقدمت القوات العراقية مسافة خمسة كيلومترات داخل الحدود الإيرانية قبل أن تنسحب تحت وابل من نيران المدفعيات الثقيلة التي سقطت قذائفها على طول الحدود الجنوبية الإيرانية. وما إن حلَّ صيف عام 1980 حتى بدت إيران والعراق في استعداد تام للحرب[192].

كان صدّام حسين ينظر إلى الثورة الإيرانية باعتبارها تهديداً وجودياً وفرصة في آن. كانت إيران بالنسبة إليه تبدو ضعيفة. فالثورة الإيرانية قضت على العديد من فيالق ضباط جيش الشاه التي كانت مدعاة فخر، وأطلقت العنان لتوتّرات طويلة الأمد بين الأغلبية الفارسية والأقليات الإثنيّة في إيران، كالأكراد في الشمال والبلوش في الجنوب. أراد الزعيم العراقي إلغاء اتفاقية الجزائر المبرمة في 1975 مع إيران، وهي اتفاقية فرضها الشاه، وتم بموجبها ترسيم الحدود بين البلدين عند نقطة خط القعر في شط العرب، ما أتاح لطهران التحكم في نصف المنفذ الوحيد لبغداد إلى الخليج العربي. وكان يتطلع أيضاً للسيطرة على محافظة خوزستان الإيرانية، الواقعة على الحدود بالقرب من البصرة، والتي تغطّي رمالها معظم احتياطيات النفط الإيراني. كانت غالبية سكان خوزستان من العرب، ما جعل صدّام يعتقد أنهم سيرحّبون بـ «تحريره» إيّاهم من السطوة الفارسية. تزخر السجلات العراقية التي تم الاستيلاء عليها بعد الغزو الأميركي في عام 2003 بمثل هذه الأفكار التي لا تصدر سوى عن شخصٍ مصاب بجنون العظمة. اعتقد صدام حسين أن معاهدة السلام المصرية التي وقعها الرئيس المصري أنور السادات مع إسرائيل ألغت زعامة مصر للشعب العربي، وأن عباءة القيادة قد أصبحت على أكتاف العراق. فارتدى صدام هذه العباءة وتصور نفسه زعيماً جديداً للشعب العربي. واعتبر نفسه صلاح الدين الأيوبي الجديد، قدره أن يوحد الشعب العربي في حملةٍ عظيمةٍ لاستعادة القدس، مؤمّناً بذلك طريق الخلافة الجديدة.

في تشرين الأول/أكتوبر من العام 1979، قبل أن يقتحم الطلبة الإيرانيون السفارة الأميركية بشهر واحد، عاد ضابط الاستخبارات المركزية جورج كاف إلى طهران، وبحوزته بعض المعلومات الاستخبارية الشديدة الحساسية والتي كان يأمل أن تؤثر في الحكومة الإيرانية الجديدة

وتقنعها بصدق الولايات المتحدة. والتقى وزير الخارجية إبراهيم يزدي، وهو شخص براغماتي ومعتدل تربطه بكاف معرفة منذ سنوات.

قال كاف ببساطة: «إن العراق يخطط لغزو إيران». لدى الاستخبارات الأميركية أدلة قوية على ذلك، من بينها اعتراض اتصالات. وقبل مغادرته واشنطن كان كاف قد رأى صوراً التقطتها الأقمار الاصطناعية للجيش العراقي وهو يتدرب لعبور شط العرب. مع أنه لم يذكر هذه الأدلة البصرية لِيَزَدي، إلا أنه نقل أن وكالة الاستخبارات المركزية تتوقع هجوماً عراقياً في العام المقبل.

وكشف كاف لِيَزَدي عن وجود محطة لجمع المعلومات الاستخباراتية من خلال رصد الإشارات بإدارة وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، تقع في مدينة إيلام بالقرب من الحدود العراقية الموازية لبغداد. وقد بنت الوكالة هذه القاعدة بطلب من الشاه، وبدأ تشغيلها عام 1973، وكلمة السر المستخدمة فيها إبكس (Ibex). وكانت غاية هذه القاعدة الوحيدة هي التنصت على العراق. كما صُممت أربع طائرات من طراز C-130 خصيصاً لإيران مهمتها اعتراض الاتصالات العراقية، وإرسالها إلى المحطة الأرضية، حيث تتم ترجمتها وتحليلها. سارع كاف قائلاً: «الجنرال الذي كان يدير المحطّة لا يزال في إيران»، مضيفاً: «من الضروري أن تعيد إيران تنشيط المحطة لمعرفة ما يرمي إليه العراق»[193].

بيد أن يزدي رفض نصيحة كاف معبراً عن ذلك بالتلويح بيده. وقال بالفارسية: «لا يجرؤون!» وكان يمكن لتغاضي إيران عن تحذير وكالة الاستخبارات المركزية أن يكون مدمّراً للجمهورية الإسلامية الوليدة لو لم يكن خصمُ إيران صدام حسين.

خلال مؤتمر صحفي أقيم في نهاية الحرب الأميركية الأولى على العراق عام 1991، قال الجنرال الفظّ نورمان شوارزكوف عبارته الشهيرة عن فطنة صدام حسين العسكرية: «لم يكن صدام بارعاً في الإستراتيجية، ولم يتعلم الفنون الخاصة بالعمليات الحربية والتكتيك، كما أنه ليس قائداً عسكرياً ولا حتى جندي. لكنه مع ذلك رجل عسكري كبير». لا شيء يؤكّد صحة هذا التصريح أكثر من الهجوم العراقي العشوائي على إيران.

في22 أيلول/سبتمبر من عام 1980، حاول العراق شن هجوم يحاكي الهجوم الإسرائيلي خلال حرب 1967، من خلال تنفيذ هجوم جوي مكثف على المطارات الإيرانية وتدمير سلاح الجو الإيراني قبل البدء بالهجوم البرّي. لكن المحاولات العراقية أثبتت فشلها في تلك المحاكاة، فتم فعلياً تدمير ثلاث طائرات فقط. ورد الطيارون الإيرانيون بحدّةٍ مثيرة للدهشة. فخلال النزاع الجوي الذي افتتح الأسبوع الأول من الحرب، بدا تفوّقهم جلياً، لاسيما بسبب تدريبهم ومعدّاتهم الأميركية، فبرزت براعتهم وهم يحلّقون في السماء الصافية الزرقاء لجنوب بلاد الرافدين. ولكن النقص في قطع الغيار والطيارين قلّص على الفور عدد الطلعات الجوية الإيرانية، وإلا لانتهى الغزو العراقي قبل أن يبدأ. وقد ظنّ صدام حسين المتوهم أن الطيارين الإسرائيليين كانوا قد أنجزوا فعلاً تلك الهجمات الفعّالة.

زحفت تسع فرق عسكرية عراقية عبر الحدود نحو وسط إيران وجنوبها، في غزوٍ يمكن وصفه بأنه النقيض التام للحرب الخاطفة. كان الجيش العراقي يتحرك ببطء على الرغم من تشتّت المقاومة الإيرانية. وكثيراً ما كانت الأوامر تُرسل مباشرةً من القيادة العليا في بغداد إلى قادة الفرق العسكرية، متجاهلة مركز قيادة الفيلق الذي تمرّ الأوامر عبره عادةً. كان قادة الجيش العراقيون يعملون من دون أيّ خطة واضحة لعدم وجود أهداف عسكرية مخطّط لها. ولأنهم لم يرغبوا بالتشكيك في أساليب صدام حسين، لم يحقّق قادة الجيش العراقي أيّ شيء. كانت الوحدات تتقدّم بضعة كيلومترات وتتوقف فتحفر خنادق وتنتظر أوامر أخرى من بغداد.

سمح هجوم صدام الخجول لإيران بأن ترسل تعزيزاتها إلى الجبهة دون أي رادع، وتفرض على العراق قتالاً في أرض قاحلة مكشوفة ومفتوحة على مصراعيها. لقد منح أسلوب بغداد المتردد في الغزو طهران متسعاً من الوقت، فاستطاع الجيش الإيراني غير المنظم أن يحشد خلال بضعة أسابيع قوات كافية لصدّ فرق المدرعات العراقية. نجح العراقيون في الاستيلاء على مدينة واحدة فقط من بين المدن المهمة في خوزستان، وهي خرمشهر (المحمرة) التي تقع على ميناء، والتي أطلق صدام حسين عليها آنئذٍ اسم عربستان، علماً أنها لم تسقط في يده إلا بعد أربعة أسابيع من حرب الشوارع، راح ضحيتها ستة آلاف جندي عراقي.

رأت إيران أن الولايات المتحدة هي التي كانت تقف وراء العدوان العراقي. كان الإيرانيون يعتقدون بأن الولايات المتحدة لم تستقبل الشاه لأسباب إنسانية كما ادّعت، بل بهدف التخطيط لإنقلاب ما وعلى هذا النحو أيضاً، ساد رأيٌ في شوارع طهران مفاده أن العراق لم يكن ليتجرّأ على الهجوم على إيران دون الحصول على إذن من القوة الأميركية العظمى. ورأت إيران أن البلدين تواطآ لإجهاض الثورة. وتأكدت شكوك القادة الإيرانيين عندما تسرّبت أنباء مفادها أن رئيس الوزراء الأخير تحت حكم الشاه شابور بختيار، قد انضم إلى العراقيين ودخل الجزء المحتل في إيران. «كان يُعتقد أن بختيار يسعى إلى إقامة حكومة مستقلة في المنطقة ستعترف بها الولايات المتحدة وغيرها، ما سيؤدي إلى إشعال حرب أهلية داخل إيران[194]».

على الرغم من أن الولايات المتحدة كثيراً ما تُلام وتُدان بشأن ما يحدث في الشرق الأوسط، إلا أن يد واشنطن الخفية لم تكن وراء الهجوم العراقي. أشار غاري سيك، الذي تولى ملف الخليج العربي تحت إمرة بريجينسكي في البيت الابيض، قائلاً[195]: «لقد تفاجأت الحكومة الأميركية عندما وقع هجوم بهذا الحجم». رفض كارتر إلحاح بريجينسكي للنظر في خيارات عسكرية أكثر جديَّة للضغط على الخميني بغية الإفراج عن الرهائن[196]. كان آخر شيء يريده البيت الأبيض هو حرب إقليمية واسعة النطاق، واندلاع أزمة أخرى في الشرق الأوسط، يُحرض عليها حاكم مصاب بالميغالومانيا في بغداد[197].

من جانبه، وجد آية الله الخميني فرصة في بدء الحرب. رأى ستيفن وارد، وهو محلل بارز بالشأن الإيراني في وكالة الاستخبارات المركزية، أن الغزو العراقي لإيران أثبت بأنه «هبة من الله» إلى الجمهورية الإسلامية الجديدة». «فالعدوان العراقي ضَمن بقاء نظام الملالي من خلال

إحياء القوميّة الشعبية وصرف الانتباه عن انزلاق البلاد نحو الاستبداد»[198]. وكثيراً ما ردد آية الله الخميني هذا الكلام أيضاً، وجاهر بأن التهديد العراقي منح الجمهورية الإسلامية الفرصة لحشد دعم الشعب للنظام، وكان مبرراً لازماً للتخلص من المعارضين المحليين كحزب تودة الشيوعي القوي. كذلك سمح الاستيلاء على السفارة الأميركية للخميني بتطهير الحكومة من المعارضة الليبرالية، ووفَّر هجوم صدام حسين العلني مبرراً مماثلاً للقضاء على الشيوعيين وتوطيد سلطة الملالي في جميع أنحاء البلاد. وبينما بدت إيران على مشارف حرب أهلية فعلية، نجح الخميني بحلول عام 1983 بحلّ حزب تودة وبلغ عدد الضحايا الآلاف.

ناضل الجيش الإيراني من أجل دحر الهجوم العراقي. كان نصف عناصر الجيش الإيراني قد فرّوا من الخدمة أو تمّت تصفيتهم منذ قيام الثورة، ولاسيما العديد من الضباط المخضرمين. في كانون الثاني/ يناير 1981، قام القادة الدينيون الذين تفوق معرفتهم القرآنية معرفتهم بكلاوزفيتز[199]، بتحفيز جيش متردّد لشنّ أول هجوم مضاد قوي له. استخدمت إيران معظم احتياطي مدرّعاتها - البالغ عددها ثلاثمائة دبابة تقريباً - في هجوم واسع النطاق في فصل الشتاء الماطر، فغاصت الدبابات الإيرانية في مستنقع من الوحل والطين، وحاولت أن تضرب بشراسة عن مسافة قصيرة باتجاه دبابات عراقية من طراز T-62 محمية بخنادق. ورغم تغلّب الإيرانيين على خصومهم العراقيين عموماً[200]، إلا أن أكثر من ثلثي الدبابات الايرانية التي لا بديل عنها، تحولت إلى مجرد هياكل محترقة ينبعث منها الدخان في مواجهة الخنادق العراقية. كما فقد الجنود المحترفون صدقيتهم بسبب فشل الهجوم الذي شنته القوات المدرعة. وقد انضوى العناصر غير المحترفين الذين أمروا بتنفيذ الهجوم الفاشل ضمن تنظيم خاص عُرف باسم الحرس الثوري.

يعد محسن سازكارا من أوائل المؤيدين لآية الله الخميني. كان قصير القامة وذا عينين زرقاوين صافيتين تُعبران عن فكر ثاقب؛ تعلم في مدارس طهران ومعهد إلينوي للتكنولوجيا في شيكاغو. كان يدرس الهندسة الكهربائية عندما قرر السفر إلى العراق للعمل على مساعدة آية الله في محاولته إطاحة الشاه. على الرغم من كون الخميني شيعياً إلا أنّ الانجذاب إليه لم يكن دينيّاً بقدر ما كان مثالية شبابيّة. مثل العديد من الطلبة الإيرانيين المتعلمين اندفع سازكارا بقوة في الثورة الطلابية الفارسية المشابهة لثورات طلابية قامت في الجامعات الغربية خلال الستينيّات. وقد أشار قائلاً: «كانت الثورة خليطاً من هوية دينية مكتشفة حديثاً وماركسية».

أثبت سازكارا أنه محلل جيد للأحداث، فقد رافق الخميني إلى باريس، حيث ساعد في ترجمة الأخبار الغربية وتنظيم حملة العلاقات العامة المدروسة في وسائل الإعلام الغربية التي أظهرت الشاه بصورة سيئة وركّزت على اعتدال الخميني. عندما عاد الخميني منتصراً إلى طهران رافقه سازكارا، حيث ترجّل من الطائرة مباشرةً قبله.

صار الأمن مصدر قلق كبيراً في الأشهر الأولى من قيام الجمهورية الإسلامية الجديدة. شعرت الحكومة الجديدة أنها محاصرة بعدما أصبحت الأسلحة المنهوبة من مخازن الجيش خلال مرحلة الاحتضار الفوضوي لحكم الشاه منتشرة في كل مكان، ووجدت طريقها إلى أيدي

الشيوعيين، والأكراد الانفصاليين الذين استخدموا تلك المعدات العسكرية، ووسعوا هجماتهم ضد الحكومة المركزية الضعيفة في طهران. ظل ولاء الجيش مشكوكاً فيه. وقام المتمردون السنة في تركمانستان على طول الحدود مع الاتحاد السوفيتي بتلمّس دعم موسكو للقيام بحركة استقلالية، فوعدتهم بمساعدتهم إذا أظهروا قدرة عسكرية كافية للسيطرة على منطقة واسعة. كان النظام الجديد قلقاً للغاية من انقلابٍ بقيادةٍ أميركية يهدف إلى إعادة وتنصيب الشاه، أو حتى غزوٍ أميركي تحت ذريعة خلافٍ ملفّق على الحدود مع تركيا يستلزم تدخّلاً من حلف شمال الأطلسي. قال سازكارا: «اعتقد الجميع أن الولايات المتحدة تريد إسقاط الثورة وإعادة الشاه. كان ذلك حقيقةً راسخة بالنسبة إلينا»[201].

بدأ سازكارا وآخرون يشتغلون على تصوّرٍ لجيشٍ شعبي للدفاع عن الثورة. مستعينين بالأساليب الماركسية، أرادوا أن يبنوا تنظيماً عسكريّاً يتألّف من متطوّعين من الشعب لقتال مجموعة كبيرة من الأعداء الأجانب والمحليين.. كتب سازكارا المسودة الأولى لقانون الجيش الشعبي، وهو تنظيم مثالي لا يضم ضباطاً، وتنطلق توجهاته من الإجماع الشعبي بإشراف مجلس يضم خمسة أعضاء، يرأسه آية الله. في 4 نيسان/أبريل 1979، التقت مجموعة من الطلاب بمن فيهم سازكارا بآية الله الخميني في منزله في مدينة قم لاطلاعه على التنظيم العسكري المقترح. لم ينظر الخميني إليهم، بل جلس بهدوء مكتّفاً يديه، وراح يصغي إليهم باهتمام. عندما انتهوا، رفع الخميني بصره وبدا على وجهه وميض ابتسامة استثنائية، ثم قال: «نعم، إنها فكرة جيدة جداً. أنا قلقٌ بشأن حدوث انقلاب أميركي».

سرعان ما اكتشف سازكارا ظهور فرقتين مشابهتين ضمن الحرس الثوري. ترأس إحداهما نجل آية الله حسين علي منتظري ذو الميول الليبرالية، وكان مقرها في ثكنة عسكرية قديمة. أما الوحدة الثانية فكان مقرّها غرب طهران، وقد أنشأها السجناء السياسيّون السابقون، ومُقدّم سابق في الحرس الإمبراطوري الذي كان مكلفاً بحماية الشاه، وبضعة أعضاء من أسرة الشاه الذين أيّدوا الخميني وتجسّسوا سراً لصالحه. اندمجت هاتان الوحدتان العسكريتان الوليدتان بعد اجتماعات عدة مع مجموعة سازكارا.

في أيار/مايو 1979 أصبح جيش الشعب حقيقة. وصار معروفاً رسمياً باسم حرس الثورة الإسلامية، أو «سپاه ـپاسداران» باللغة الفارسية. وسُمي ببساطة بالحرس الثوري (the Revolutionary Guard) باللغة الإنكليزية. أنشأ الحرس مقره الرئيسي في مبنى جديد تماماً في طهران، تم بناؤه حديثاً بغية السماح لشرطة الشاه السرية، السافاك، بمراقبة المكالمات الهاتفية المحلية. كان المبنى خالياً، وبعض نوافذه مكسرة، وهو الضرر الوحيد الذي لحق به خلال الثورة.

قام سازكارا بدعوة مصطفى تشمران إلى المقر الجديد، المفروش بالأثاث والمزود بهواتف، ليطلعه على التنظيم الجديد. كان تشمران بروفسوراً لامعاً في الهندسة، يُدرس في جامعة بيركلي، ويعمل في مختبر الدفع النفاث التابع لوكالة الفضاء الأميركيّة «ناسا». وكان يحظى باحترام شديد في الأوساط الأكاديمية الإيرانية باعتباره الطالب الوحيد في جامعة طهران الذي نال علامة كاملة في اختبار الديناميكا الحرارية تحت إشراف مهدي بازركان، المدرس الأشد صرامة

في الجامعة، وأول رئيس وزراء في الحكومة الثورية. بيد أن تشمران اهتدى إلى الدين في السبعينيّات، فأدار ظهره للعلم وترك لحيته تنمو، واستبدل مسطرته الحاسبة بكلاشنيكوف. سافر إلى لبنان الذي كان غارقاً في الحرب الأهلية الطائفيّة، حيث أسس الجناح العسكري للميليشيا الشيعية الأبرز. اعتقد سازكارا أن تشمران هو خيار عقلاني لقيادة جيش الشعب الجديد هذا.

علّق تشمران بحماسة: «إنه أمرٌ رائع!» عندما اطّلع على المخطّط، مضيفاً: «لكنك بحاجة إلى قيادة عسكرية مدربة». تراجع تشمران عن فكرة إنشاء تشكيل عسكري لا رتب فيه لكونها غير مجدية، فاستدعى مجموعة إيرانية صغيرة من لبنان لتبدأ بتدريب أول كادر مكون من مئتي ضابط، تم اختيارهم وفقاً لالتزامهم الأيديولوجي بالخميني. التحق بهؤلاء آخرون من ذوي الخبرة العسكرية، وكان من بينهم القائد المستقبلي للحرس الثوري محسن رضائي الذي قاتل مع منظمة مجاهدي خلق قبل أن تميل بتفكيرها إلى ماركس أكثر من ميلها إلى النبي محمد[202]. وفي تطور غريب، عرض عدد من ضباط المخابرات السابقين في جيش الشاه مهاراتهم المكتسبة لمساعدة الحرس الثوري في القضاء على أعداء الدولة. وسرعان ما ازداد عديد الحرس ليصل إلى الآلاف، وكانوا يقدمون تقاريرهم للخميني وحده.

بحلول العام التالي نُقل كلٌ من تشمران وسازكارا إلى وظائف أخرى في الحكومة الجديدة، واستمر التنظيم الذي ساعدا على إنشائه في تطوره. نظم تشمران، بصفته وزيراً للدفاع، قيادة الحرس وحدّثها في ظلّ إشراف رجال الدين على كل مستوى من مستويات القيادة. وعندما اشتد عود الحرس الثوري راح يقاتل مختلف الحركات الانفصالية بوصفه قوة مكلّفة بالأمن الداخلي. وأصبح أداة رئيسية لترسيخ السلطة وتعزيزها في أيدي الجمهورية الإسلامية، وانبثق من بين صفوفه العديد من القادة المستقبليين في إيران.

فرضت الحرب العراقية تحولات في الحرس الثوري. فوجد نفسه متورطاً في حرب تقليدية كبيرة في حين أن دوره الأساسي لم يكن يتعدّى مكافحة التمرّد. راح يجذب ويجند شريحة واسعة من السكان الشيعة الفقراء من باب واجب الغيرة الدينية، ناهيك بالأجور والمخصّصات الكبيرة التي كان يقدمها، فازداد عديد الحرس ليصل إلى أكثر من ربع مليون جندي في الخطوط الأمامية. بيد أن ازدراء الحرس الثوري للجيش الإيراني النظامي حال دون أي اندماج معه، فظهر الحرس الثوري كقوة منفصلة وجيش موازٍ، سرعان ما تجاوز الجيش النظامي ليس في العدد فحسب، بل في النفوذ أيضاً. كما أنه لقي تأييداً من قوات الميليشيا الشعبية الموالية للخميني التي يُطلق عليها اسم باسيج، الذي يعني بالفارسية «تعبئة». وكانت قوات الباسيج تتألف من أكثر من ستمئة ألف عنصرٍ، شكّلوا قوة حاضرة باستمرار للالتحاق بالحرب الثوري.

في نيسان/أبريل 1981، شنّ الحرس الثوري هجوماً على شكل موجة بشرية بقيادة شبابٍ من الباسيج، غير مسلّحين في الغالب، طهّروا حقول الألغام العراقية بأجسادهم. على الرغم من الخسائر المروعة، اجتاح هؤلاء المتطوّعون في الحرس الثوري غير المدربين الدفاعات العراقية، واستولوا على خنادق المواجهة، لكن هجومهم ما لبث أن توقف بسبب شحّ الذخيرة ونقص القوات

الآلية. وقد سقط تشمران نفسه شهيداً في بداية هذه الهجمات، أصابته قذيفة هاون عراقية أودت بحياته بينما كان يقود مجموعة من ميليشيا الباسيج.

وصف الإيرانيون هذا الفوز بأنه فتحٌ جديد في الحروب الإسلامية إذ حلّت الحماسة الثورية محلّ الكفاءات العسكرية التقليديّة، كمفتاحٍ أساس للنصر. كما رأوا أن الإيمان بالله والالتزام بنشر الثورة من شأنهما أن يهزما أسلحة الغربٍ وتكتيكاته وتدريبه؛ وأن التكلفة البشرية روحانية، يحثّ عليها المجتمع الذي يثمّن الشهادة. وسرعان ما امتلأت مقبرة بهشت زهراء المترامية الأطراف في جنوب غرب طهران بالقبور -المزينة بصور وتذكارات شخصية- لآلاف الشبان.

لقد أثبتت موجة الهجمات البشرية تلك فاعليتها. لم ينس أحد الضباط العراقيين الذين شهدوا هذه الهجمات صورة ما يقرب من اثني عشر عنصراً من عناصر الحرس الثوري وهم يركبون دبابة ويطلقون قذائف الآر.بي.جي باتجاه موقعه. وحتى بعد أن ضُربت دبابتهم، قفز الناجون فيما البعض تلتهمه النار، وواصلوا عدوهم نحو الجنود العراقيين، إلى أن سقطوا تحت وابل من نيران المدافع الرشاشة عند سفح الخندق العراقي. وعلّق بجفاء قائلاً: «لقد وتَّر هذا المشهد قواتنا، ففرَّ الكثيرون»، مضيفاً أنه كان يتمنى لو كان الجيش العراقي يضمّ من أمثال هؤلاء. أصبحت عمليات الحرس الثوري مع مرور الوقت أكثر تطوراً إذ فرضت الضرورة العسكرية ارتفاع مستوى الكفاءة والمهنية والتخلّي عن مستوى الهواة. فازداد الحرس الثوري براعة في سبر الخطوط العراقية والتحقق منها، واكتشاف المواقع الدفاعية الضعيفة والثغرات بين الوحدات العراقية. فاحتشدت بعدئذٍ قوات الباسيج والحرس الثوري تحت جنح الظلام، وتسللت خلف الخطوط العراقية، وفتحت مراراً وتكراراً ثغرات في الدفاعات العراقية.

بدأ الجيش بترقية ضباط مفضلّين لدى الحرس الثوري بعد الحصول على موافقة آية الله الخميني.ما أدى إلى تحسين العلاقات بين القوتين المنفصلتين وتعزيزها، لاسيما في ظلّ تسلّم هؤلاء الضباط ذوي التفكير المتقارب مراكز قيادية في الجيش. فبدأت دبابات الجيش وقوات المشاة المدعومة بسلاح المدفعية بالإفادة من عمليات التسلل الليلية التي يقوم بها الحرس. ناضلت إيران شهوراً طوالاً وهي تعزز هجماتها. كان كل هجوم يتطلب أسابيع لتجميع العتاد الحربي والإمدادات. سددت ضرباتها باتجاه جيش صدام، وطردته ببطء من إيران، إلى أن عاد بحلول صيف عام 1982 إلى مشارف البصرة، ثاني أكبر مدينة عراقية.

ناقشت القيادة الإيرانية خطواتها المقبلة في الحرب، وكانت منقسمة في موقفها. لم يؤيد أحد القبول بوقف إطلاق النار الذي عرضه صدام حسين فجأة. ضغط نجل الخميني أحمد الخميني، وكذلك رئيس أركان الجيش من أجل تنفيذ هجوم عنيف للاستيلاء على البصرة وإطاحة صدام حسين وإقامة دولة إسلامية داخل العراق. غير أن كلاً من رئيس إيران، المرشد الأعلى المستقبلي سيد علي خامنئي، ووزير الخارجية علي أكبر ولايتي، ورئيس البرلمان وقائد القوات المسلحة البرغماتي علي أكبر هاشمي رفسنجاني، كانوا أقل دمويّة في شأن غزو العراق، وناقشوا فكرة فرض تعويضات عقابية تنهي قدرة صدام حسين على تهديد الثورة. عارض رئيس هيئة الأركان العامة،

الجنرال ظاهر نجاد الغزو لأنه كان يخشى أن ينظر المجتمع الدولي إلى إيران كخصم وليس كضحية للعدوان. كان رأي آية الله الخميني يقع بين الرأيين. إذ أراد بشدة قلب نظام الحكم البعثي ونشر الثورة الإسلامية، لكنه شاطر الجنرال نجاد مخاوفه بخصوص أن يُنظر إلى إيران على أنها المعتدي. وعليه فضّل المرشد الأعلى تحقيق إطاحة صدام حسين وطرده من دون غزو العراق.

في حزيران/يونيو 1982، بلغ النقاش ذروته في اجتماع محوري لمجلس الدفاع الأعلى ذي النفوذ والتأثير، وهو الجهاز الإيراني المعادل لمجلس الأمن القومي الأميركي. وظلّ كلٌّ من ولايتي وخامنئي يعارضان فكرة غزو العراق، بيد أن رفسنجاني غيّر رأيه ووافق على الفكرة، وناقش مع متشددين آخرين إمكانية الاستيلاء على البصرة. في ربيع ذلك العام، انتشر عملاء المخابرات الإيرانية في جميع أنحاء جنوب العراق والكويت، ونقلوا تقارير مفادها أن السكان الشيعة منفتحين على رسالة إيران الثورية ومستعدين للثورة؛ الأمر الذي ستنجم عنه سلسلة من ردود الأفعال، وسيؤدي إلى إطاحة صدام حسين، وربما أمير الكويت الموالي للغرب أيضاً. كان على الخميني اتخاذ القرار النهائي. وعلى الرغم من تحفّظاته الشخصية، إلا أنه انحاز إلى المتشددين ووافق على شنّ هجوم قوي للاستيلاء على البصرة وإنهاء نظام البعث. وما إن اتخذ المرشد الأعلى قراره حتى قلب الصفحة نهائياً. وراح في السنوات التالية يدعو دوماً لحرب حتى النصر. وستمضي ست سنوات أخرى تتخلّلها خسارات بشرية عظمى قبل أن يغيّر رأيه من جديد.

في 21 حزيران/يونيو، صرّح آية الله الخميني على الملأ بأن «الطريق إلى القدس يمر عبر كربلاء». وأعلن عن رؤية عظيمة لامتداد الهلال الشيعي على طول الشرق الأوسط. وقد اصطفّ مجلس الدفاع الأعلى المنقسم خلف هذا القرار. دفعت إيران بجيشها قدماً إلى العراق بحماسة ثورية وإحساس بنصر إلهي متوقع، مصممة على الاستيلاء على البصرة، وإسقاط نظام البعث، وتنصيب حكومة إسلامية شيعية موالية لإيران. وأصبحت هتافات «الحرب! الحرب حتى النصر!» تصدح في شوارع طهران[203].

دُقَ ناقوس الخطر في البيت الأبيض مع استعداد إيران لشن هجوم كبير على البصرة. كتب مستشار الأمن القومي وليام كلارك للرئيس ريغان في 12 تموز/يوليو قائلاً: «يبدو أن إيران ستغزو العراق في الأيام القليلة المقبلة»، مضيفاً: «وبالنظر إلى أداء الجيش العراقي في ما مضى، يبدو من المرجح أن إيران ستنجح في تحقيق أهدافها العسكرية في نهاية المطاف». وحذر الرئيس أنه في حال نجحت إيران في إسقاط صدام حسين، فإن ذلك سيشكّل تهديداً مباشراً لدولة الكويت والمملكة العربية السعودية، وخطراً جسيماً على المصالح الأميركية في المنطقة. وكتب كلارك أيضاً: «هدفنا الرئيسي هو وضع حد للحرب قبل أن تتمكن إيران من الهيمنة على المنطقة».

في الساعة الخامسة من يوم 12 تموز/يوليو من العام 1982، عقد كلارك اجتماعاً مع فريق كبار خبراء السياسة الخارجية في إدارة الرئيس رونالد ريغان بغرفة العمليات في البيت الأبيض. كان المزاج متشائماً فيما تحلّق الرجال حول الطاولة الخشبية في غرفة الاجتماعات الصغيرة ذات النوافذ الضيقة. ولم يأتِ التقرير الأول الذي قدمه ضابط استخبارات بما يذكر لتحسين المزاج. توقع ضابط استخبارات وزارة الدفاع أن يقوم الإيرانيون بهجومهم على البصرة خلال الـ

24 إلى 48 ساعة القادمة، وكما توقّع أن يكون أن القتال ضارياً، وأن تستولي إيران على المدينة رغم ضراوته. انكمش رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال فيسي عندما وصف المحلل تنظيم الجيش العراقي وبيّن عدم كفاءته. فبدلاً من أن تستخدم الوحدات العراقية الحواجز الطبيعية، كالدفاع من وراء الأنهار، استقرت أمامها، كما قبعت القوات الاحتياطية المدرعة القادرة تقريباً على إحباط الهجمات الإيرانية على بعد أربعة أيام أو أكثر عن الجبهة الحرجة في البصرة.

اتخذت إدارة ريغان منذ البداية موقفاً داعماً للعراق. كانت الولايات المتحدة والعراق قد قطعا علاقاتهما الدبلوماسية بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967، واستمرّت العلاقات متوتّرة على مدى خمس عشرة سنة من الوساطات ومحاولات التقريب بينهما. لكن البلدين كانا يتشاركان الكره للجمهورية الإسلامية الإيرانية الجديدة، كما أن واشنطن رأت في الحرب فرصة لإبعاد العراق عن مزوّده الرئيسي بالسلاح وهو الاتحاد السوفيتي. وكتب مساعد وزير الدفاع بينغ ويست إلى الوزير كاسبر واينبرغر في مذكرة يشرح فيها إيجابيات توثيق العلاقات العسكرية مع العراق وسلبياته قائلاً: «إن توثيق العلاقات مع العراق من شأنه أن يعود بالنفع على الولايات المتحدة، ويمكن أن يحول العراق إلى دولة معارضة لكل من إيران وسوريا»[204]. في ربيع وصيف عام 1981، وصلت قافلة من دبلوماسيين أميركيين كبار إلى العراق لعقد اجتماعات مع أحد المقربين إلى صدام حسين، وهو رجل قوي ينتمي إلى الطائفة المسيحية وعضو في حزب البعث، يدعى طارق عزيز[205]. وعلى وقع احتساء كؤوس الويسكي التي كان عزيز يقدّمها من وقت لآخر من مخزن الخمور الكبير الحسن التجهيز الذي امتلكه، انتقل البلدان تدريجياً نحو تطبيع العلاقات الدبلوماسية.

كان الحافز الرئيسي للميل الأميركي نحو العراق هو قلق الولايات المتحدة من هزيمة الجيش العراقي على أيدي الحرس الثوري الإيراني. كانت أزمة المستنقعات والرمال حول البصرة تقضّ مضجع البيت الأبيض في واشنطن في حرّ شهر تموز/يوليو. وهيمن جو الأزمة حالما أدركت الولايات المتحدة أن إيران تشكل الخطر الرئيسي على الهيمنة الأميركية على الخليج العربي. وقد لخّص ضابط برتبة مقدم في سلاح الجو في نهاية أحد الاجتماعات الآراء التي تم تداولها قائلاً: «على الرغم من أن سياستنا لا تفسح مجالاً فعلياً للمناورة، إلا أن منع الحكومة العراقية من الولاء لإيران هو حتماً في مصلحة الولايات المتحدة»[206]. رأت أميركا ضرورةً في حماية الدول العربية المعتدلة ضدّ أيّ عدوان إيراني والحفاظ على نفط منطقة الشرق الأوسط. لكن التحدي الذي كان يواجه واشنطن، من وجهة نظرها، هو دعم العراقيين دون استعداء إيران ودفعها إلى المعسكر السوفيتي.

مع ذلك، ظهر ذاك الصيف توافق في الآراء بشأن دعم العراق في دائرة ريغان الداخلية التي كثيراً ما كانت تنقسم. منحت الولايات المتحدة دعمها لصدام حسين، وقامت بالتأثير على الأردن والمملكة العربية السعودية من أجل دعم بغداد[207]. تعاون ريغان عبر توقيع قرار أمني بغاية

السرية، يوجه بموجبه الحكومة لاتخاذ جميع التدابير الهادفة إلى الحؤول دون خسارة العراق أمام إيران ما عدا التدخل العسكري المباشر[208].

لم يكن الجميع داخل مؤسسة السياسة الخارجية الأميركية متفقين بشأن الميل نحو العراق. عارض وليام تافت في وزارة الدفاع الطرح المتفق عليه، معتبراً أن العراق ليس أفضل من إيران بكثير. ومن جانبها، كانت مديرية شؤون الشرق الأدنى في وزارة الخارجية مرتبكة ولا تشعر بالارتياح إزاء الانحياز إلى العراق، ولاسيما مدير الشؤون الإقليمية فيها فيليب ويلكوكس ورئيسه نائب مساعد وزير الخارجية جيمس بلاك، فكلاهما رأى أن من شأن هذا الانحياز أن يؤدي إلى إغلاق الباب أمام أي فرصة للتطبيع مع إيران[209]. وانضم إليهما خليط من صقور الحرب الباردة، أمثال بول وولفويتز في وزارة الخارجية، وريتشارد بيرل في وزارة الدفاع اللذان عارضا دعم العراق بسبب اعتقادهما أن صدام حسين يمثل خطراً أكبر. وأعرب بيرل عن قلق خاص بشأن نقل تكنولوجيا المعلوماتيّة الأميركية إلى العراق، خشية منه أن تنتهي في أيدي الاتحاد السوفيتي.

ومع ذلك، كانت القيادة العليا في البيت الأبيض، والبنتاغون، ووزارة الخارجية، تميل إلى اعتبار العراق أهون الشرين. إذ بوسع صدام حسين أن يوفر الاستقرار في المنطقة ويكون بمثابة حصن ضد إيران. كما أن العراق أكثر استقلالاً، وقد يكون بالإمكان التماس ابتعاده عن موسكو. كما تردّد ذكر أزمة رهائن إيران خلال النقاشات. كان وزير الدفاع كاسبر واينبرغر يكره النظام الإيراني، ولم يغفر له استيلاءه على سفارة الولايات المتحدة. لذا كان يؤيد إلى أبعد حد أي خطة من شأنها أن تزعج جمهورية إيران الإسلامية[210]. قال ريتشارد أرميتاج: «لم يكن صدام حسين محبوباً. كما أن الطرفين كانا سيئين. من المؤسف أن الحرب لم تدم إلى الأبد»[211].

لم يُحسم النقاش بين عشية وضحاها. إذ سارت الحرب ببطء على مدى العامين التاليين، وتراجعت هجمات العراق في ساحة المعركة، ووقف الرئيس ريغان بثبات إلى جانب الذين يدعمون توثيق العلاقات مع صدام حسين. على الرغم من أن واشنطن كانت منزعجة من انتهاكات حقوق الإنسان في العراق واستخدامه غير المقيّد للأسلحة الكيميائية، اتخذت الولايات المتحدة تدريجاً موقفاً تجاه الحرب العراقية - الإيرانية وصفه مسؤول رفيع في وزارة الخارجية بـ «حيادية مستورة بورقة تين».

تحركت الولايات المتحدة، بعد اجتماع البيت الأبيض في 12 تموز/يوليو، لطمأنة حلفائها في الخليج. كان لدى دول الخليج العربي سبباً وجيهاً للقلق من الغضب الإيراني، ودعمت دولٌ عديدة بينها سراً الغزو العراقي. في غمرة الابتهاج القصير الذي شعرت به جموع أهل السنة بعد الهجوم العراقي، سمحت عُمان والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة لمئة طائرة عراقية تقريباً أن تنطلق من قواعدها الجوية لتوجيه ضربة ضخمة على بندر عباس[212]. انزعجت واشنطن، وضغطت لدفع هذه البلدان إلى سحب الطائرات العراقية من قواعدها، تفادياً لانطلاقة حربٍ شرق أوسطية أخطر بكثير وأوسع بكثير. ومع ذلك، سمحت المملكة العربية السعودية سراً لطائرات

عراقية تهاجم ناقلات نفط إيرانية بالقرب من مضيق هرمز أن تتزود بالوقود من قواعدها أثناء عودتها.

حاولت الولايات المتحدة طمأنة الحكومة السعودية المتقلبة. فأرسل ريغان رسالة شخصية إلى الملك فهد في المملكة العربية السعودية معرباً فيها عن مخاوف أميركية من أي انتصار تحققه إيران، وعارضاً «استعداد الولايات المتحدة للتعاون من أجل الدفاع عن المملكة». أرسلت الولايات المتحدة إلى الرياض، تحت اسم بعيد عن الشبهات هو قوة الارتباط الأوروبية إلف-واحد (Elf-one)، أربع طائرات أواكس من طراز E-3 (ذات نظام المراقبة والإنذار المبكر)، ترافقها ناقلات للتزود بالوقود في الجو[213]. وقد استُمدّت هذه الطائرات من طائرة البوينغ 707، وهي مزودة برادار دوّار على شكل صحن قادرٍ على اكتشاف الطائرات الإيرانية من على بعد أكثر من أربعمئة ميل بحري. تعد هذه الطائرات بمثابة الركيزة الأساسية في نظام الدفاع الجوي السعودي المحكم والمصمم أميركياً والموجّه ضد إيران. كما أبقى السعوديون على طائرات مقاتلة أميركية الصنع من طراز F-15 في الجو لتكون على استعداد لاعتراض أي طائرة إيرانية يتم الكشف عنها بواسطة أواكس. وقد قام فنيون أميركيون بإنشاء شبكة اتصالات تغطي جميع أرجاء المملكة، وتربط طائرات أواكس الأميركية بسلاح الجو الملكي السعودي. كما قام سلاح الجو الأميركي بإنشاء مركز عمليات، يحتوي رادارات ومعدات اتصال تستقبل بيانات أواكس، في قاعدة الملك عبد العزيز الجوية بالقرب من مدينة الظهران[214].

كانت الحكومة السعودية قلقة من تداعيات الكشف صراحة عن سماح حارس أقدس مكانين في العالم الإسلامي بوجود عسكري أميركي دائم داخل المملكة. ولهذا حاول الأميركيون الابتعاد عن الأضواء. فكانت تحط كل أسبوع طائرة الشحن C-141، التابعة لسلاح الجو الأميركي، محملة باللوازم والإمدادات وكانت تنقل أيضاً طيارين بملابس مدنية، يتنقلون لأداء أوامر ومهام مؤقتة تراوح مدتها بين 21 و179 يوماً. كان يتم إيواء هؤلاء في فنادق محلية. مكث معظم الأميركيين في الرياض في فندق اليمامة، وهو مبنى غير لافت للنظر، واشتُهر بالكرة الرخامية التي تزن سبعين رطلاً تتوسط بهوه الكبير. وكانت حافلات سعودية تنقل الأميركيين كل يوم من ثكناتهم المريحة إلى القاعدة الجوية السعودية القريبة[215]. ظل هذا الروتين سارياً دون تغيير طيلة السنوات الست التالية، بحيث تناوب آلاف الطيارين الأميركيين في المملكة العربية السعودية بشكل هادئ، وكان كل ذلك يجري على مرأى العامة ومن دون أي اتفاق رسمي بين البلدين.

وسعت واشنطن ضمانات الائتمان لتتيح شراء منتجات زراعية أميركية لدعم الاقتصاد في بغداد[216]. وقد شكّل ذلك ربحاً مفاجئاً للمزارعين الأميركيين، حيث بلغت صادرات المنتجات الزراعية 345 مليون دولار عام 1983، وارتفعت لتصل إلى 652 مليون دولار خلال السنتين اللاحقتين[217]. كما تم أيضاً تحرير مئات الملايين من الدولارات كي يستخدمها العراقيون في شراء معدات عسكرية. توسط نائب الرئيس جورج بوش الأب لدى وليام درابر رئيس بنك التصدير

والاستيراد في الحكومة الفيدرالية الذي كان زميلاً له في الدراسة بجامعة ييل، كي يوسع الائتمان المتعلق بشراء سلع ومنتجات أميركية، ويتجاوز موظفيه من أجل منح بغداد مبلغ 500 مليون دولار تقريباً لتمويل خط أنابيب جديد للنفط العراقي يصل إلى الأردن، وتتعهد شركة بكتل الأميركية ببنائه. وكتب بوش لصديقه درابر قائلاً: «يمكن لبنك التصدير والاستيراد أن يلعب دوراً حاسماً في ما يتعلّق بجهودنا في المنطقة»[218].

في كانون الأول/ديسمبر 1983، أوفد ريغان إلى بغداد وزير الدفاع السابق، الجمهوري النافذ دونالد رامسفيلد. وكان قد عينه الرئيس مبعوثاً خاصاً له في الشرق الأوسط، وكلفه بملفات ينبغي بحثها تتعلق بعدد كبير من المسائل التي تواجهها الولايات المتحدة، بدءاً بعملية السلام في الشرق الأوسط وانتهاءً بالحرب العراقية-الإيرانية. كان رامسفيلد مناضلاً عنيداً، وبارعاً ومعقداً في آن معاً؛ ويمكن أن يكون ساحراً ولاذعاً على حدٍّ سواء. وصل إلى بغداد في 9 كانون الأول/ديسمبر من العام 1983 بعد أن قضى أشهراً عدة في تعلم الأسس الدبلوماسية. كان يحمل معه رسالة وديّة من الرئيس ريغان إلى صدام حسين. عقد اجتماعاً طارئاً مع طارق عزيز استمر ساعتين ونصف الساعة، ناقشا خلاله كل التصدعات السياسية التي تواجهها المنطقة. كان عزيز، الطليق في اللغة الإنجليزية، بليغ اللسان كما رامسفيلد، فاتفق الرجلان إلى حد كبير حول وجهات نظر مشتركة بين البلدين، وبصورة خاصة كبح نفوذ إيران.

قال رامسفيلد لعزيز: «ليس لدى الولايات المتحدة مصلحة في انتصار إيران، بل على العكس، نحن نرفض توسع النفوذ الإيراني على حساب العراق». وقد كتب عن ذلك لاحقاً قائلاً: «شعرت بأن لدينا اهتمامات مشتركة، ولاسيما في ما يتعلّق بالأمن والاستقرار في منطقة الخليج التي تعرضت للخطر بسبب الثورة الإيرانية»[219].

التقى رامسفيلد في اليوم التالي صدام حسين لمدة تسعين دقيقة. وكان هذا الاجتماع هو الأرفع مستوى بين الدولتين منذ ما يقرب من عشرين عاماً. ظهرَ صدام بزي عسكري، واضعاً كتافة المشير وحاملاً مسدساً على وركه. وعرض التلفزيون العراقي المصافحة الطويلة بين الرجلين، وهي مصافحة أسف لها دونالد رامسفيلد كثيراً في وقت لاحق عندما استخدم شريط الفيديو بشكلٍ مفرط على شبكة الإنترنت بعد إطاحة الولايات المتحدة الرئيس العراقي نفسه في عام 2003، وكان رامسفيلد حينها وزيراً للدفاع. أعرب صدام عن سروره من لهجة رسالة ريغان الدافئة، وقال لرامسفيلد إنها توحي بتفهم عميق وجاد لتداعيات الحرب ومخاطرها، ولاسيما لخطر الانتصار الإيراني. وذكّر صدام حسين قائلاً: «لقد كان لنشأة جيلٍ كامل من العراقيين والأميركيين بشكلٍ متباعد ودون أن يفهم طرفٌ الآخر تبعاتٍ سلبية قد تؤدي إلى سوء فهم». أكّد رامسفيلد على كلام حسين وأضاف أنه على الرغم من الخلافات بين الولايات المتحدة والعراق إلا أن البلدين لديهما وجهات نظر مشتركة، ولاسيما في ما يتعلق بالاستقرار في منطقة الخليج العربي وكبح جموح إيران. كما أعرب رامسفيلد عن قدرة الدعم الأميركي الملائم على منع هزيمة العراق، وتعهد بالعمل على الحدّ من تدفق الأسلحة إلى إيران التي تواصل هجماتها العسكرية. في حين انتهى الاجتماع بين رامسفيلد وحسين من دون عقد أيّ صفقة كبرى، أكد رامسفيلد مجدداً على الدعم الأميركي لحرب

العراق ضد إيران. وتمّت إعادة البلدين إلى مسار العلاقات الدبلوماسية الكاملة التي تأكّدت رسمياً مع تبادل السفراء في تشرين الثاني/نوفمبر 1984م[220].

إذا كان مكتب الخدمة الخارجية قادراً على إنتاج دبلوماسيين «أحذيتهم موحلة»، فمن المؤكد أن ضابط الاستخبارات البحرية السابق روبرت أوكلي، ذا الجسم النحيل والسحنة المتعبة، هو أحد أفراد هذه السلالة النادرة. بحلول عام 1984 كان أوكلي قد أكمل ما يقرب من ثلاثين عاماً من الخبرة في السياسة الخارجية، فقد خدم جولة في مجلس الأمن القومي، وشغل منصب سفير في كلٍ من زائير والصومال، كما كان له نصيبه في المشاركة في الحروب ولاسيما حرب فيتنام. ينظر أوكلي، مثل معظم زملائه، إلى إيران باعتبارها الخطر الرئيسي للمصالح الأميركية. فعلى الرغم من عدم ميله إلى صدام حسين، إلا أنه كان يرى أن فوز إيران سيحلّ بمثابة كارثة على الولايات المتحدة وحلفائها العرب.

ترأس أوكلي اجتماعات الإدارات المختلفة بقيادة مجلس الأمن القومي لتنسيق الدعم من أجل العراق. واجتمع مع ممثلين عن وزارة الخارجية والدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخزانة في مبنى المقر التنفيذي القديم الواقع بجانب الجناح الغربي للبيت الأبيض، وناقش المجتمعون أحدث المعلومات الاستخباراتية عن جبهة القتال، وبحثوا سبل تقديم أفضل مساعدة للجيش العراقي، والتماس دعم بلدان أخرى للعراق.

رفضت الولايات المتحدة تقديم دعم عسكري مباشر للعراق لكن واشنطن شجعت بشدة دولاً أخرى على القيام بذلك. درس فريق أوكلي متطلبات صدام حسين العسكرية، وحاول تأمين تلبية دول مانحة لتلك الاحتياجات. وهكذا مثلاً زوّدت كوريا الجنوبية العراق بقذائف مدفعية من عيار 155 مم تستخدم على مدفعيّات طويلة المدى قدمتها جنوب أفريقيا. وتقربت الحكومة الأميركية سراً من الفرنسيين والإيطاليين لبيع معدات إضافية إلى العراق. أيد الرئيس ريغان المبادرة شخصياً وضغط على رئيس الوزراء الإيطالي لتزويد العراق بأسلحة خلال اجتماع في المكتب البيضوي. والتزمت فرنسا وإيطاليا بذلك. بالنسبة لباريس، كان الأمر تجارة مربحة حيث باتت نسبة 40٪ من مبيعات الأسلحة الفرنسية تأتي من العراق خلال النصف الأول من عقد الثمانينيات، وتضمنت المبيعات عقداً ضخماً لبيع 130 طائرة مقاتلة[221]. باع الفرنسيون العراقيين خمس طائرات سوبر إتندارد (Super Étendards) متقدمة، تحمل صواريخ إكسوسيت (Exocet) مضادة للسفن. وقد سمحت هذه الطائرات للعراق بضرب ناقلات نفط إيرانية بصورة فعالة في جميع أنحاء الخليج. وصلت الطائرات وعلى متنها فريق من مستشارين فرنسيين، قاموا بتدريب العراقيين على كل ما يتعلّق بتشغيلها بدءاً بصيانة الطائرة ووصولاً إلى تعلم تكتيكات ضد إيران.

انتزع فريق أوكلي التزامات من الحكومة المصرية والأردنية لتوفير المزيد من المساعدة؛ فأرسل كلا البلدين مستشارين عسكريين إلى العراق[222]. أرسل الرئيس المصري حسني مبارك آلاف «المتطوعين» إلى العراق، انضموا إلى لواء جاء من اليمن الشمالي، قاتلوا في الخنادق جنباً إلى جنب مع العراقيين. وافق الأردن على القيام بدور وسيط لنقل رادارات أميركية الصنع إلى

العراق، قادرة على اكتشاف صواريخ إيرانية قادمة. فقدمت واشنطن الرادارات إلى الأردن الذي أرسلها بدوره إلى بغداد. توصلت الولايات المتحدة مع مصر إلى اتفاق سري تبيع القاهرة بموجبه فائض معداتها القديمة السوفيتية الصنع للعراق، مقابل أن تزود واشنطن جيش مبارك بأسلحة أميركية أكثر تقدماً. فباعت مصر العراق على مدار الحرب معدات عسكرية بلغت قيمتها أكثر من مليار دولار[223].

اتخذ أوكلي موقفاً متساهلاً تجاه تقديم مساعدات غير عسكرية إلى العراق. فباعت الولايات المتحدة العراق معدات اتصالات، وستين مروحية هيوز (Hughes)، (وهي المروحية نفسها التي تستخدمها القوات الخاصة في الجيش الأميركي)، فضلاً عن ألفي شاحنة ثقيلة بقيمة 234 مليون دولار. دفع العراق بكل هذا العتاد إلى جيشه. واستخدمت وزارة الخارجية الأميركية منطقاً ملتوياً لتبرير بيع الشاحنات، مشيرة إلى أن العراق في موقع دفاع، لذا «فمن غير المرجح أن يستخدم الشاحنات الآن للمساهمة بشكل ملحوظ في زعزعة استقرار المنطقة»[224].

كما عملت الولايات المتحدة على قطع تدفق مماثل للأسلحة إلى إيران. كانت إيران تشتري أسلحة بقيمة ملياري دولار كل عام، وذخائر وقطع غيار لتلبية احتياجاتها العسكرية. أصبحت تجارة الأسلحة مربحة؛ وأصبح في إمكان أي بلدٍ يستطيع تلبية الحاجة أن يحقّق أرباحاً طائلة. تدفقت الأسلحة إلى إيران علناً وبطرق غير مشروعة من جميع أنحاء العالم في تجارة أسلحة سرية. التقى عملاء إيرانيون في فرانكفورت ولشبونة مع تجار أسلحة مشبوهين، غرضهم الاستفادة من خلال توفير قطع غيار أميركية الصنع لطهران. باعت إسرائيل وبلدان أوروبية وآسيوية سراً معدّات تتوافق مع المعدات الإيرانية الأميركية الصنع. باعت إسبانيا وحدها بين عامي 1983 و1985 صمامات احتياطية للمدفعيات وذخائر حربية وأسلحة صغيرة بقيمة 280 مليون دولار. في الفترة نفسها، ذهب 28 في المئة من مجمل صادرات الأسلحة البرتغالية إلى إيران، وتضمنت نحو أربعة آلاف صاروخ من طراز تاو (TOW) أميركية الصنع، نُقلت بطرق غير مشروعة. كما جددت بلجيكا وحلفاء آخرون في حلف الناتو محركات طائرات إيرانية من طراز F-4م[225].

بدأت الولايات المتحدة في ربيع 1983 عملية «استانش» (Operation Staunch - أي الثبات) بقيادة ريتشارد فيربانكس من أجل الحد من تدفق أسلحة إلى إيران. فبعد أن نجحت وزارة الخارجية بإزالة العراق عن قائمة الإرهاب، أعلنت وقتئذٍ أن إيران دولة تدعم الإرهاب. سمح ذلك لحكومة الولايات المتحدة بفرض قيودٍ على الصادرات المتوجهة إلى إيران، فمنعت بموجب ذلك تصدير أي أسلحة أميركية الصنع إلى طهران. كان فيربانكس يدرك استحالة وقف جميع مبيعات الأسلحة إلى إيران، لكنه ركز على وقف بيع معدات متطورة مثل رادارات وقطع غيار للطائرات[226]. وكان يُصدر كل شهر مذكرتي احتجاج أو ثلاثاً للدول الأوروبية والآسيوية من أجل الضغط عليها لوقف هذه الصادرات. وأُعطيت تعليمات للسفراء في أوروبا وآسيا «تعظ» بفضائل عملية الثبات، ومفادها أن تزويد إيران بالأسلحة سوف يؤدي إلى مخاطر استدامة الحرب.

دعم الجيش الأميركي هو أيضاً حملة فيربانكس الدبلوماسية. سافر ضباط كبار في القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) إلى الشرق الأوسط، حاملين تعليمات تقضي بإقناع نظرائهم بالموافقة على فرض حظر أسلحة على إيران، والعمل على توحيد الجهود للحد من بيع أي معدات من شأنها أن تساعد الجيش الإيراني[227].

اتفقت الولايات المتحدة مع كوريا الجنوبية على عدم بيع قطع غيار للطائرات، وتدخلت لدى إيطاليا لوقف نقل مروحيات من طراز بوينغ شينوك (Boeing Chinook). وافقت بريطانيا العظمى على تضييق الخناق على شركاتها التي تبيع معدات ذات استعمالات عسكرية. في نهاية المطاف أدى هذا الإلحاح من قبل دبلوماسيين أميركيين إلى إجماعٍ واسع النطاق في كل من أوروبا والشرق الأوسط، حول مسؤولية إيران تجاه إدامة الصراع في الخليج. وجدت طهران نفسها معزولة أكثر فأكثر وأصبح موقفها الدبلوماسي دفاعياً، لاسيما بسبب معارضتها وقف إطلاق النار. في أواخر 1981، وقع ريغان قراراً سرياً يسمح لوكالة الاستخبارات المركزية بتمرير معلومات استخباراتية إلى العراق من خلال دول ثالثة. بدأ ضباط وكالة الاستخبارات المركزية إعطاء نظرائهم الأردنيين في دائرة المخابرات العامة معلومات استخباراتية متدنية المستوى حول ترتيبات تقوم بها القوات الإيرانية بغرض تمريرها إلى العراق. استفاد صدام حسين من هذه المعلومات التي زُعم أنها أتت من الأردن. واستعرضها شخصياً وعاينها قبل إعطائها إلى أفراد مخابراته العسكرية الخاصة. في أي حال، ليس من الواضح إن كان صدام حسين قد علم أن المعلومات تصله مباشرة من الولايات المتحدة. وقد أوضح جنرال رفيع في استخبارات الجيش العراقي يدعى وفيق السامرائي في وقت لاحق قائلاً: «كنت متأكداً أن الأردن غير قادر على الحصول على مثل هذه المعلومات»[228]. كما شكّلت العربية السعودية سبيلاً آخر لتمرير المعلومات الاستخباراتية الأميركية إلى صدام حسين. فكما حال الأردن، ربطت علاقة طويلة الأمد تربط وكالة الاستخبارات المركزية بمديرية المخابرات العامة السعودية. كانت وجهة نظر المملكة العربية السعودية تجاه إيران متطابقة مع وجهات نظر حلفائها السنة في بغداد، ولهذا فقد كانت مستعدة هي أيضاً لتمرير معلومات مماثلة.

بعد الانتصارات التي حققتها إيران في العام 1982، سمح ريغان لوكالة الاستخبارات المركزية بزيادة دعمها الاستخباراتي للعراق. في حزيران/يونيو 1982، وصل فريق من ثلاثة أعضاء إلى بغداد لأيام عدّة، يرأسه أميركي يبلغ من العمر خمسين عاماً، قدم نفسه باسم «طومسون». أجرى الفريق اجتماعات مطولة مع رئيس الاستخبارات العسكرية العراقية وجهاز المخابرات العراقي. قال طومسون في كلمته الافتتاحية مع العراقيين: «نحن هنا لمساعدتكم، ومستعدون أن نوفر لكم مزيداً من المعلومات سوف تساعدكم في حربكم ضد إيران».

تبادل الجانبان وجهات النظر حول الجيش الإيراني، واتفقا على ضرورة توفير معلومات استخباراتية أفضل لمواجهة الهجمات الإيرانية حول البصرة. وقال طومسون إن وكالة الاستخبارات المركزية على استعداد لتوفير معلومات منتظمة حول تحركات القوات الإيرانية من أجل منع المزيد من التقدم الإيراني. وفي ختام الاجتماع، أعطى طومسون العراقيين رسومات تفصيلية تستند إلى صور جويّة أميركية لمواقع القوات العسكرية الإيرانية المحتشدة شرق البصرة في جنوب غرب

إيران. في النهاية، شكر صدام حسين الأميركيين، وأعطى موافقته على التعاون الاستخباراتي الموسع.

نظراً لعدم وجود سفارة أميركية في العراق أو علاقات دبلوماسية رسمية معه حتى عام 1984، اتفق الجانبان على إنشاء محطة غير رسمية في بغداد يرأسها ضابط رفيع من وكالة الاستخبارات المركزية، سيكون بمثابة همزة وصل بين البلدين[229]. ولدعم هذا الفعل، أنشأت وكالة الاستخبارات المركزية خلية استخبارات عراقية صغيرة داخل شعبة الشرق الأدنى التابعة لمديرية العمليات، تضم خليطاً من قدامى المحاربين وضباطاً جدداً، تحوّل الكثير منهم إلى الجيل الجديد من الجواسيس الأميركيين في الشرق الأوسط. عبر هذه المحطة تم جمع صور من الأقمار الصناعية عن جبهة القتال كما تم اعتراض الاتصالات الإيرانية، ودُمجت هذه المعلومات في وثائق سرية لا تعرّض المصادر للخطر ولا تكشف عن القدرات الفعلية. نقلت وكالة الاستخبارات المركزية من لانغلي إلى العراقيين هذه المعلومات المنقّحة في وثائق تحدد مواقع الوحدات الإيرانية والمستودعات، وملخّصات توضح أين ستشن إيران هجومها المقبل وفق توقعات الاستخبارات الأميركية. كما قدمت الوكالة معلومات محدّدة فيما يتعلق بقدرات المعدّات والتجهيزات المصنعة في الولايات المتحدة التي تستخدمها طهران، ولاسيما طائرات F-4 وF-14، التي تُعد قلب سلاح الجو الإيراني.

أشرف كلير جورج، المسؤول عن الذراع السرّي للوكالة، على عملية تبادل المعلومات الاستخباراتية عن كثب. بالنسبة لهذا الجاسوس المحترف البارع، كانت الأهمية الحقيقية للحفاظ على هذه التبادلات الاستخباراية مع العراق في تجنيد عملاء عراقيين جدد من بين قياديي الجيش وأجهزة المخابرات. وعندما أصبحت البصرة مهدّدة، أمر جورج بتمرير معلومات عديمة الأهمية إلى بغداد، هدفها التأكيد على استمرار الحوار بين ضبّاطه والضباط العراقيين والضغط عليهم، علماً أنها لم تكن في الواقع كافية لتؤثر على مجريات المعركة. أشار والتر باتريك لانغ، رئيس عمليات الشرق الأوسط في وكالة استخبارات الدفاع، قائلاً: «كانت الاستخبارات المركزية تزود العراقيين بمعلومات ضئيلة جداً»[230].

بشكلٍ عام، ظلت وكالة الاستخبارات المركزية غير متحمسة بشأن الميل السياسي نحو العراق. قال الخبير المؤثر في شؤون الشرق الأوسط كينيث بولاك الذي لمع نجمه في مديريّة التحليل التابعة للوكالة في عقد الثمانينيات: «كنا أنا وزملائي المحلّلين حذرين، فصدام حسين شخصية سيئة للغاية»[231]. ولم يكن بولاك وحده الذي رفض الرأي القائل بأن صدام حسين أهون الشرين.

على الرغم من ابتهاج صدام الملحوظ بالمعلومات التي كانت وكالة الاستخبارات الأميركية تقدمها، كان العراقيون يشكّكون بشدة بهذه المعلومات الاستخباراتية. قال جورج كاف من وكالة الاستخبارات المركزية: «اعتقدوا أننا قد نحاول تضليلهم بطريقة أو بأخرى». وهكذا، فقد بدأ

العراقيون يتغيرون في شباط/فبراير من عام 1984. وبعد مضي عامين على الهجمات البشرية العقيمة في الجبهة ضد الدفاعات العراقية حول البصرة، جمعت إيران سراً أكثر من ربع مليون رجل لشنّ هجوم مفاجئ على هور الحويزة المحصن في شمال البصرة، الذي تبلغ مساحته سبعمئة ميل مربع. شقّ الإيرانيون طريقهم عبر قناة مياهها عميقة وسوداء بعد أن أبحروا بأسطول صغير مؤلف من قوارب ومراكب صنعوها بشكل بدائي لهذه الغاية، وأنشأوا مواقع القتال على جزر طبيعية يكسوها العشب والقصب، وكذلك على عدة جزر اصطناعية تستخدم للتنقيب عن النفط. لعبت التضاريس لمصلحة قوات المشاة الخفيفة الإيرانية، وفاجأت جرأتهم العراقيين. كادت القوات الإيرانية أن تستولي على ممر ضيّق يمرّ عبره الطريق الرئيسي الذي يصل البصرة ببغداد. علمت إيران أنها إذا قطعت هذا الطريق الحيوي، فستنقطع البصرة وسكانها البالغ عددهم مليون نسمة عن سيطرة بغداد.

تنبهت وكالة الاستخبارات المركزية، فأسرعت بإرسال صور جديدة عن هذه القوات الإيرانية إلى بغداد. نصحت الوكالة العراقيين بشدة أن يسدوا هذه الثغرة قبل أن يتمكن الإيرانيون من استغلال تقدمهم. حشد العراقيون العربات المدرعة المتفوقة والمدفعية، وشنوا هجوماً مضاداً في معركة تعد من أكبر معارك الحرب وأكثرها وحشية. أمطرت قذائف عراقية غاز الأعصاب القاتل، وتمّ تحويل خطوط الطاقة الكهربائية إلى المستنقع، فتعرض العديد من المدافعين الإيرانيين لصدمات كهربائية. بعد أشهر من القتال، صمد الإيرانيون في مواقع ضيقة على جزر صغيرة بمستنقع ينتشر فيه البعوض، لكن أكثر من عشرين ألف إيراني قضوا في محاولة اجتياز الطريق الرئيسي الفاشلة[232].

عندما استعيدت العلاقات الدبلوماسية بالكامل في العام 1984، فتحت وكالة الاستخبارات المركزية محطّة واسعة النطاق في بغداد، أشرف عليها رئيس محطة كان يتلقى توجيهات مباشرة من مديرية العمليات[233]. التقى رئيس المحطة رسمياً في مناسبات منفصلة مع أربعة عشر مسؤولاً من كبار المسؤولين العراقيين على مدى السنوات القليلة التالية، لكن العلاقات الفعلية كانت أوسع من ذلك بكثير وأكثر استمرارية. قامت وكالة الاستخبارات المركزية بترحيل البيانات السرية المتعلقة بعمليات الطائرات الإيرانية التي حصلت عليها من السعودية وطائرات أواكس وأجهزة الاتصال الأوروبية إلف-1، ومرّرت مباشرة إلى بغداد أحدث الصور الملتقطة عن وحدات إيرانية، حيث سمح رئيس المحطة بإظهار نسخة للعراقيين أُجري عليها تغيير طفيف. كان للقادة العراقيين مطلق الحرية في دراسة الصور، وتدوين الملاحظات، والاحتفاظ بالرسوم التفصيلية التي أعدّها محلّلو وكالة الاستخبارات المركزية. ورغم قيام العراقيين بمقارنة الصور التي كانت تردهم من وكالة الاستخبارات بصورٍ أخرى كانت تصلهم من الفرنسيين، إلى أن هذه المعلومات الاستخباراتية الأميركية أمدّتهم برؤية غير مسبوقة للقدرات العسكرية الإيرانية، ولقدرات الاستخبارات الأميركية على السواء.

الفصل السادس

خطة شارون الكبيرة

إن لبنان الحديث هو نتاج الاستعمار الأوروبي والمفاوضات الشرق أوسطية العجولة. فقد اقتطع الفرنسيون البلاد من الإمبراطورية العثمانية العجوز بعد الحرب العالمية الأولى، ومنحوا الدولة الصغيرة استقلالها في العام 1943. إلا أنهم ركّبوا حكومة لبنان على شكل عقدة غورديوس[234]. إذ يشارك في السلطة المسيحيون الموارنة والسنة والشيعة والدروز وأكثر من اثنتي عشرة طائفة أخرى وفق اتفاق يوزّع كل وظيفة عليا في الحكومة على أساس انتماء السكان الديني، وذلك وفق إحصاء العام 1932- وهو آخر إحصاء جرى في البلاد. جاء في ذاك الإحصاء العتيق جداً أن المسيحيين يشكّلون غالبية السكان، وبالتالي فقد مُنحوا بصورة دائمة منصبَيْن لهما نفوذ قويّ هما رئاسة الجمهورية وقيادة الجيش. في حين مُنح السّنة، وهم ثاني أكبر طائفة في البلاد، منصب رئاسة الوزراء الأقل نفوذاً، بينما خُصِّص للشيعة منصب رئاسة البرلمان ذو النفوذ الأضعف. سار هذا النظام ولو متعثّراً على مرّ العقود الثلاثة التالية، وازدهر لبنان. ذلك أن عقلية اللبنانيين التجارية جعلتهم يتخطون انقساماتهم السياسية. وقد ورد في إحدى الروايات أن أستاذاً لبنانياً سأل تلميذه: «كم يساوي اثنان زائد اثنين؟» فأجاب التلميذ: «هل أنا البائع أم الشاري؟»[235]

برغم هذا التوافق الظاهري اللماع كان لبنان يتداعى بأسسه الهشّة. فعندما تغيرت التركيبة السكانية، لم يعد نظام تقاسم السلطة يعكس الحقائق داخل البلد. وجاء قيام دولة إسرائيل ليزيد زعزعة هذا التوازن الهشّ بسبب وصول مئتي ألف لاجئ فلسطيني محرومين من حقوقهم المدنية إلى جنوب لبنان. أُعطيت لأبناء الطائفة الشيعية في جنوب لبنان، الذين يعتبرهم أبناء بلدهم المسيحيون والسّنة أشخاصاً ريفيين أقل تحضّراً، مناصب وزارية ثانوية تخلو من سلطة حقيقية، بيد أنها كانت الطائفة الأسرع نمواً في البلاد، لذا سرعان ما أصبحت تمثّل ثلث السكان. وفي النهاية، تحطمت واجهة الوحدة اللبنانية خلال سبعينيات القرن الماضي، وذلك عندما وصل آلاف المقاتلين من منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة الزعيم القومي الفلسطيني ذي الشخصية الكاريزمية ياسر

عرفات إلى لبنان بعد أن طُردوا من الأردن بالقوة. أنشأ عرفات في لبنان دولة أمر واقع مكونة من جيش منفصل وحكومة موازية في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في بيروت الغربية وجنوب لبنان. كان الفلسطينيون يشنّون هجمات متكررة على شمال إسرائيل، وكان الشيعة المساكين في جنوب لبنان هم الذين يتحمّلون وطأة الانتقام الإسرائيلي العنيف والعشوائي أحياناً. استاء السكان الشيعة بشدة من عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، وكذلك المسيحيون الموارنة الذين يحكمون لبنان ورأوا في الفلسطينيين تهديداً لسلطتهم في البلاد.

في نهاية المطاف انفجر برميل البارود في شهر نيسان/أبريل من العام 1975 عقب محاولة فاشلة قامت بها منظمة التحرير الفلسطينية لاغتيال بيار الجميل، رئيس حزب الكتائب المسيحيّ اليمينيّ بينما كان يغادر الكنيسة. فقام جنود مشاة متهورون تابعون للجميل بالثأر لزعيمهم فنصبوا كميناً مسلحاً لحافلة، أسفر عن مصرع سبعة وعشرين مدنياً فلسطينياً. سرعان ما أخذ لبنان بالتفكك والانقسام على أسس طائفية إلى مجموعات وأحزاب انغمست في مجازر ومجازر مضادة. دخلت قوات سورية إلى لبنان لحفظ السلام، بعد أن استحصل الرئيس السوري حافظ الأسد على تفويض من جامعة الدول العربية مكَّنه من الهيمنة على البلاد. في الوقت الذي أدى فيه رونالد ريغان اليمين الدستورية، كان لبنان بلداً بالاسم فقط. فقد لقي مئة ألف شخص تقريباً حتفهم خلال ست سنوات من الحرب الأهلية، وقسّمت الفصائل المتحاربة البلاد: كانت بيروت الغربية وجنوب لبنان تحت سلطة منظمة التحرير الفلسطينية والقوى اليسارية السنّية، وحركة أمل الشيعية؛ أما بيروت الشرقية فكانت تحت نفوذ المسيحيين المتنافسين؛ واحتل المسيحيون والدروز التلال المحيطة بمدينة بيروت، بينما سيطر الجيش السوري على شمال لبنان وغربه بالإضافة إلى تحصّن قواته في بيروت الغربية.

في تموز/يوليو من العام 1981 جرت مواجهات دموية بصورة استثنائية بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، وقد أسفرت عن مصرع أكثر من خمسمئة شخص، وهدّدت بتوسّع الحرب مع سوريا. كان وزير الدفاع كاسبر واينبرغر يخشى أن يؤدي ذلك إلى تقويض الدعم العربي للقيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) التي أُعلن عن تشكيلها مؤخراً، فأرسل ريغان المفاوض الأميركي البارع فيليب حبيب كي يرعى وقفاً لإطلاق النار. نجح حبيب - وهو لبناني الأصل أميركي المنشأ ترعرع في حي يهودي في بروكلين - في التوصّل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار في لبنان بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. إلا أن السلام بقي غير مستقر، فضلاً عن أنه لم يكن يحظى بتأييد الكثيرين في حكومة الليكود اليمينية بزعامة رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن، وخصوصاً وزير دفاعه آرييل شارون.

في العام 2002، وصف الرئيس جورج دبليو بوش آرييل شارون في مؤتمر صحفي بأنه «رجل سلام». هذا الوصف الشهير الذي يتعارض تماماً مع أفعال القائد الإسرائيلي طوال خمسين عاماً[236]. في الواقع، كان آرييل شارون محارباً. انضم إلى وحدة شبه عسكرية عندما كان يافعاً، ووصل في نهاية المطاف إلى القيادة العليا حيث شنّ الهجوم الإسرائيلي الجريء على الضفة الغربية في قناة السويس أثناء حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973. كان شارون في بعض الأحيان قاسياً عديم

الرحمة، واستحق لقب «البلدوزر» لضخامته وأسلوبه، وأثبت أنه يتمتّع بالذكاء والتهور في آن مثل الفرسان القدماء.

كان شارون وبيغن يتلّهفان لفرصة تسمح لهما بتدمير منظمة التحرير الفلسطينية. وقد قال كبير المحلّلين المتقاعد في وكالة استخبارات الدفاع جيف وايت الذي عمل في لبنان لحساب رئيس هيئة الأركان المشتركة: «كان بيغن يعتبر عرفات أسوأ من هتلر». وسّع آرييل شارون نطاق الهدنة في لبنان من جانب واحد لتشمل أيّ هجوم معادٍ لليهود في شتّى أنحاء العالم، مؤكّداً أن منظمة التحرير الفلسطينية وبيروت مرتبطتان بكل الهجمات الإرهابيّة، وعليهما في نهاية المطاف تحمّل مسؤوليتهما.

وضع آرييل شارون خطة لحل المشكلة اللبنانية، عبر القيام بعملية اجتياح واسعة باستخدام القوات المدرعة الإسرائيلية. كانت إسرائيل منذ العام 1975 تُقيم علاقات عسكرية وثيقة مع بعض المسيحيين الموارنة، فتزوّدهم بالأسلحة والمعدات. اقترح شارون هجوماً مشتركاً لتدمير منظمة التحرير الفلسطينية وإنهاء الوجود السوري في لبنان. وكانت الخطة تقضي بأن تجتاح قوات الدفاع الإسرائيلي الجرّارة بيروت، وتدمّر قوة عرفات الهزيلة، وتسحق في طريقها الجيش السوري أيضاً. وبعد إزاحة هذين العائقين، يتولّى بشير الجميل رئاسة الجمهورية ويعترف بدولة إسرائيل، وهكذا ينتقل لبنان بضربةٍ واحدة من متسبّب بالمشاكل لإسرائيل إلى مصدر قوة مفيد لها[237]. في كانون الثاني/يناير من العام 1982 طار شارون سراً إلى بيروت والتقى بشير الجميل ووالده بيار لإتمام الصفقة، وقد وافق قائد الكتائب على مخطط شارون. اقتضت الخطة أن يقود الإسرائيليون العمليات القتالية الرئيسية ضد منظمة التحرير الفلسطينية والسوريين، في حين يقوم المسيحيون بتنظيف الشوارع من بقايا منظمة التحرير الفلسطينية وإخراجهم من أبنية بيروت الغربية، وهي مهمّة لم يكن شارون متحمّساً للقيام بها لأن الجيش الإسرائيلي لا يتقبّل فكرة وقوع ضحايا في صفوفه.

عمل كلٌّ من بيغن وشارون على كسب دعم الولايات المتحدة لخطتهما، فقد كانا يدركان تماماً قصر نظر القوة الأميركية العظمى المنحصر في الحرب الباردة، وراحا يؤكدان مراراً وتكراراً لـريغان وغيره من كبار المسؤولين الأميركيين أن الاتحاد السوفيتي يدعم سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية وأنّ أهم دور يمكن لإسرائيل أن تلعبه هو دحر عملاء موسكو هؤلاء. في شباط/فبراير من العام 1982 قدّمت إسرائيل لـواينبرغر لمحةً عامة عن العملية المقترحة التي تقتضي احتلال ما يقرب من نصف لبنان.

أقلق غزو إسرائيل للبنان معظم الرسميين في واشنطن وروَّعهم، وكانت وكالة الاستخبارات المركزية تخشى أن يؤدي الغزو إلى تدخل سوفيتي، وجادل بينغ ويست من وزارة الدفاع أن العمل العسكري لن يحلّ مشكلة إسرائيل على المدى الطويل. كتب واينبرغر قائلاً: «لن تموت النزعة القوميّة الفلسطينية بموت البنية التحتية لمنظمة التحرير الفلسطينية، ناهيك عن القومية العربية والأصولية الإسلامية». بل إن وزير الدفاع كان أكثر حدةً وقدّم توصيةً إلى ريغان بأن تقوم الولايات المتحدة بردع الإسرائيليين عبر تهديدهم بالامتناع عن بيعهم المزيد من الأسلحة[238].

شاطر الدبلوماسيون المحترفون في وزارة الخارجية هذا الرأي. كتب لويس بول بريمر الذي كان حينئذٍ مسؤولاً رفيعاً في مكتب وزارة الخارجية: «ينبغي توجيه الجهود الرئيسية نحو ردع العمل الإسرائيلي، وعلينا في الوقت ذاته الحدّ من خسائرنا عبر فصل الولايات المتحدة عن أي عمل قد تقوم به إسرائيل في لبنان قبل حدوثه»[239].

غير أنّ رئيس بريمر، ألكسندر هيغ، الذي رُقّي من رتبة جنرال كبير في أوروبا إلى منصب وزير الخارجية، لم يكن يوافقه الرأي. يُعدّ هيغ مؤيداً قوياً للدولة اليهودية وكان ينظر إلى الأزمة العربية الإسرائيلية من منظار الحرب الباردة، وكان يحرّض الوسيط الأميركي ضد العرب المدعومين من السوفيت. لم تدخل في حسابات هيغ الجذور التاريخية للصراع، ولا حتى البيئة الطائفية التي عزّزت الحرب الأهلية اللبنانية. كان لبنان ساحة من ساحات الحرب الباردة، وكان هيغ يرى الانتصار الإسرائيلي من هذا المنظار بالتحديد وقد اتّهمه النقّاد في وقت لاحق بأنه أعطى الإسرائيليين الضوء الأخضر سراً لشنّ هجومهم، لكنه كان ينكر هذه التهمة على الدوام، وقد دعمت الأدلة الوثائقية وجهة نظره. فخلال لقاء جمعه بجنرال إسرائيلي يدعى أوري ساغي أكّد هيغ مراراً وتكراراً أن أي هجوم إسرائيلي غير مبرر ستكون له تداعيات «خطيرة» على العلاقات الأميركية الإسرائيلية[240]، ومع ذلك أيّد بوضوح هجوماً إسرائيلياً قوياً على منظمة التحرير الفلسطينية إذا استند إلى استفزاز مشروع.

قال وزير الخارجية الأميركي هيغ بحماس، عقب اجتماع له مع شارون، مشيراً بيده إلى خريطة لبنان: «كما ترى، في حال توجّب عليهم الهجوم، سوف تقتضي خطتهم ربط المجموعة هنا في الجنوب بالمسيحيين هناك».

اندفع موريس دريبر الدبلوماسي المتحفّظ عادةً قائلاً بصورة عفوية: «بحق الله، سيدي الوزير، يفصل بين الطرفين مليون ونصف مليون مسلم، منهم مليون شيعيّ على الأقلّ!» كان هذا الواقع بمثابة مفاجأة لهيغ[241].

حصل شارون في 4 حزيران/يونيو 1982 على المبرّر الذي يريده لشنّ حرب عندما تعرض السفير الإسرائيلي لإطلاق نار في لندن فأصيب بجروح خطيرة. لم يكن أمراً ذات أهمية كون الجناة ينتمون إلى تنظيم أبو نضال المنشقّ عن منظمة التحرير الفلسطينية والمعارض بشدة لعرفات. بعد الحادث بيومين، في صباح يوم الأحد الواقع في 6 حزيران/يونيو، تدفقت القوات الإسرائيلية إلى لبنان في ثلاثة أرتال جرّارة، متوجهةً بسرعة نحو الشمال.

طمأن مسؤولون إسرائيليون الولايات المتحدة مجدداً بأنهم لا ينوون التقدم نحو بيروت أو بدء حرب مع سوريا، وأكّد رئيس الوزراء بيغن شخصياً للرئيس ريغان أن جيشه لن يتوغل أكثر من أربعين كيلومتراً في لبنان - أي المسافة الكافية ليصبح شمال إسرائيل بمنأى عن صواريخ منظمة التحرير الفلسطينية. وقد أخبر السفير الإسرائيلي واينبرغر قصة مماثلة[242]. في 9 حزيران/ يونيو، طار فيليب حبيب إلى دمشق، بعد أن اجتمع مع بيغن، وأكّد للرئيس حافظ الأسد أن إسرائيل

لا مصلحة لها في حرب مع سوريا. لكن كلام الإسرائيليين كذّبته تماماً تحركات الجيش الإسرائيلي، فبينما كان حبيب يجري محادثات مع الأسد أمر شارون بشنّ هجوم على مواقع صواريخ جو - جو السورية في سهل البقاع. حلّقت طائرات سلاح الجو السوري غير المستعدّ والذي لا يضاهي المقاتلات الإسرائيليّة لمواجهة هذه الأخيرة. وفي معركة جويّة عنيفة دامت طوال النهار تغلّب الطيارون الإسرائيليون على السوريين، مسقطين اثنتين وثمانين طائرة حربية دون أن يخسروا طائرة واحدة. أبرق حبيب مذعوراً إلى هيغ قائلاً: «إنني مندهش ومحتار مما حدث اليوم. لقد جعل رئيس الوزراء الإسرائيلي مهمتي ميؤوساً منها ومحكوماً عليها بالفشل»[243].

بعث رئيس الوزراء السوفيتي رسالة إلى ريغان عبر الخط الساخن بين واشنطن وموسكو محذراً من أن الهجوم الإسرائيلي قد خلق «وضعاً خطيراً للغاية»، وأنه يجازف بالتسبّب بحرب واسعة النطاق بين القوى العظمى. أثارت الرسالة هلع الرئيس ريغان فدعا إلى وقف إطلاق نار بدءاً من اليوم التالي عند الساعة السادسة صباحاً بتوقيت لبنان ثم أرسل تحذيراً إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي قائلاً: «مناحيم، إن رفض إسرائيل الموافقة على هذه الهدنة سوف يؤدي إلى تفاقم ما يُعتبر الآن تهديداً خطيراً للسلم العالمي وستفسد إلى الأبد علاقة أقدّرها حقّاً. المخلص رون»[244].

قبل بيغن بوقف إطلاق النار الذي دعت إليه أميركا شكلياً، لكنه رفض بالفعل وقف تقدم الجيش نحو الشمال، داعياً هذا التقدّم بالهدنة «المتنقّلة». سأل بيغن حبيب عقب وصوله إلى تل أبيب قادماً من دمشق، بعد أن ضمن تأييد الأسد للهدنة، قائلاً: «أرنا أين وردت هدنة مُوضعية، في رسالة الرئيس»؟

«عمَّ تتحدث؟» سأل فيليب حبيب رئيس الوزراء غير مصدّق ما يسمعه، خلال اجتماع ساده جو من التوتر، وأضاف: «أي هدنة هي هدنة موضعية!»[245]

وافق بيغن أخيراً على وقف إطلاق النار، ولكن ليس قبل أن يدفع شارون برتلٍ عسكري إلى لبنان الذي تسيطر عليه سوريا، حيث اصطدمت قواته مع فرقة مدرعات سورية كانت تحاول وقف التقدم الإسرائيلي. انضم الإسرائيليون إلى قوات الجميل في غضون ثمانية أيام فقط، وحاصروا في بيروت الغربية ليس فقط منظمة التحرير الفلسطينية بل عناصر من الجيش السوري أيضاً. فرض الإسرائيليون الحصار على بيروت الغربية التي تسيطر عليها منظمة التحرير الفلسطينية وبدأوا بقصفها قصفاً عنيفاً، حيث أطلقت المدفعية في يوم واحد ألف قذيفة مدفعية تزن الواحدة منها مئة رطل على منطقة مكتظة بالسكان مساحتها ستة أميال مربعة فقط.

أثارت المذبحة الوحشية والتضليل الإسرائيلي بخصوص الغاية الحقيقية من حربهم حفيظة الرئيس ريغان. أوصى مدير وكالة الاستخبارات المركزية وليام كيسي بقطع الدعم الاستخباراتي عن إسرائيل الذي كان يقدّمه لها واينبرغر، واقترح ريتشارد أرميتاج أنه يتعين على الولايات المتحدة أن تنظر في تعليق العلاقات الدبلوماسية «الطبيعية» مع إسرائيل والضغط من أجل استصدار قرار من مجلس الأمن يدين الهجوم الإسرائيلي. وبّخ الرئيس الأميركي رئيس الوزراء الإسرائيلي بيغن، عندما جاء إلى واشنطن في 21 حزيران/يونيو، بشأن تصرفات إسرائيل.

لم يكن هيغ راغباً في كبح جماح الإسرائيليين. فبعد أن استطاع شارون محاصرة ياسر عرفات، شاطر هيغ شارون الرغبة في القضاء على هذا الأخير، وقال غاضباً بعدما وبّخ ريغان رئيس الوزراء الإسرائيلي: «والله، سأقول لبيغن أن يدخل بيروت وينهي المهمة»[246]. كان هيغ مقتنعاً بأنّ على الولايات المتحدة أن تدعم إسرائيل، وتُخرج السوريين، وتساعد الجميل على تشكيل حكومة لبنانية جديدة. وأيّد نشر قوة كبيرة لحفظ السلام ربما يصل تعدادها إلى أربعة عشر ألف رجل للمساعدة على دعم حكومة الكتائب الجديدة[247]، وكتب إلى ريغان قائلاً: «إنّ انتصاراً إسرائيلياً سريعاً سيتيح لنا الفرصة لتعزيز موقفنا».

عارض كلٌّ من واينبرغر والجنرال جون فيسي بشدة إرسال أيّ قوات حفظ سلام أميركية إلى الساحة اللبنانية المحتدمة. «إن أي إدخال لقوات أميركية إلى لبنان دون التوصل إلى اتفاق سوف يعرّض حياة أميركيين للخطر في حرب استنزاف محتملة متواصلة من قبل كل الفصائل المتطرفة في المنطقة». كان كلا الرجلين يخشيان أن يؤدي ذلك إلى تصعيد التدخل الإيراني أو السوري.

أغضبت وجهات نظر وزارة الدفاع وتدخّلها في السياسة اللبنانية وزير الخارجية المتعجرف هيغ، وسرعان ما تدهورت علاقاته الشخصية مع الإدارة الأميركيّة بما في ذلك موظّفو البيت الأبيض، وفي 25 حزيران/يونيو قدّم هيغ المرهف الإحساس استقالته مشيراً إلى خلافات تتعلق بالسياسة الخارجية. لم يأسف ريغان لرؤية الجنرال المتغطرس يرحل مع أنه كان يميل فعلاً إلى آرائه في ذلك الوقت، وكتب في مذكراته قائلاً: «في الواقع، كان الخلاف الوحيد بيننا هو من يقرّر السياسة أنا أم وزير الخارجية»[248].

عيّن الرئيس جورج بي. شولتز محلّ هيغ، وهو جندي سابق من جنود البحرية وجمهوري عتيد. كان وزير الخارجية الجديد يشاطر هيغ العديد من آرائه حول الشرق الأوسط ولكنه لم يكن مثله سريع الانفعال والغضب، بل كان يتميز بالذكاء والجدية ورباطة الجأش، وقلّما كان يغضب، ولكن إذا حدث وغضب تضيق عيناه بشكل واضح وترتفع نبرة صوته بشدة. أثبت شولتز عناده وصلابته في المواجهات البيروقراطية، وكان عنيداً تماماً مثل كاسبر واينبرغر، وسرعان ما اختلف الرجلان حول مسائل سياسية كثيرة، بما فيها لبنان.

توسّط حبيب من أجل التوصل إلى اتفاق يقضي بإجلاء منظمة التحرير الفلسطينية. غادر عرفات وخمسة آلاف مقاتل من المنظمة إلى تونس على متن سفن غربية في الوقت الذي انتشرت فيه قوات البحرية الأميركية (المارينز) وقوات حفظ السلام الفرنسية والإيطالية في جميع أنحاء بيروت لتكون بمثابة حاجز بين الخصوم حتى مغادرة منظمة التحرير الفلسطينية. لم يكن من السهل إقناع إسرائيل بوقف إطلاق النار، مما تطلب مذكّرة تهديد أخرى أرسلها ريغان إلى بيغن قال فيها: «ينبغي وضع حدّ لسفك الدماء هذا الذي لا لزوم له، ولاسيما في صفوف المدنيين الأبرياء. أُصرُّ على وقف إطلاق النار الآن وحتى رحيل منظمة التحرير الفلسطينية عن بيروت. العلاقة بين بلدينا على المحكّ»[249].

لم يدعم واينبرغر ولا حتى فيسي خطة حبيب. كتب الجنرال فيسي إلى وزير الدفاع قائلاً: «بوضعنا القوات الأميركية بين منظمة التحرير الفلسطينية والإسرائيليين فإننا في الواقع نؤجج وضعاً صعباً ومتوتراً أصلاً بدلاً من تهدئته».

ما إن رحل عرفات حتى سُحبت قوات حفظ السلام، لكن الوضع ظلّ متوتراً في محيط بيروت. فقد كان شارون يسعى جاهداً لدخول بيروت الغربية، وظل مقتنعاً بأن العديد من مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية قد تخلّفوا عن الرحيل وظلوا في المدينة وفي مخيمات اللاجئين الفلسطينيين جنوب بيروت. في الوقت الذي نجا فيه عرفات من مأزقه، بدت خطة شارون الكبيرة لإعادة هيكلة لبنان في متناول يده، ولم يمنعه من تنفيذها حتى النهاية إلا التعنت الأميركي.

على الرغم من غضب الرئيس الأميركي من بيغن، إلا أنّ خطة إدارة ريغان لإعادة الاستقرار إلى لبنان كانت تحاكي إلى حدٍّ كبير مخطط شارون. قدّمت واشنطن الدعم للحكومة اللبنانية من خلال تعزيز جيشها، الذي كان تقليديّاً المؤسّسة الأقل طائفية في لبنان. ومع تعزيز قدراته، وسّع الجيش اللبناني سيطرته تدريجياً خارج بيروت. والشخص الذي دعمته الولايات المتحدة للوصول إلى رئاسة الجمهوريّة لم يكن سوى بشير الجميل نفسه.

مع أن الجميل كان يدافع عن الوحدة الوطنية وإنهاء الحرب الأهلية، إلا أنه كان يعمل بطريقة زعيم المافيا الشهير طوني سوبرانو أكثر منه كالرئيس الأميركي أبراهام لينكولن. فقد أمر بقتل منافسه المسيحيّ الأبرز طوني فرنجية، واشتهرت ميليشيا الكتائب التي يتزعمها بتنفيذ العديد من الفظائع إبان الحرب الأهلية. يتذكّر السفير الأميركي في لبنان روبرت ديلون قائلاً: «حين لم يكن بشير منهمكاً بالدماء كان يبدو شخصاً ودوداً. كان يتمتّع بسحرٍ طفوليٍّ رائع»[250].

على الرغم من أن ضابطاً متقاعداً في وكالة الاستخبارات المركزية، كان قد عمل في لبنان في بداية الثمانينيات، وصف الجميّل بأنه «قاتل سفاح»، إلا أن الرئيس الأميركي ريغان دعمه.

سبّب هذا الأمر على الفور نفوراً لدى الكثير من الشيعة اللبنانيين. حتى ذلك الحين، كان للدبلوماسيين الأميركيين علاقة جيدة مع هذه الشريحة من السكان المتنامية في لبنان. يتذكّر ناثانيال هاول، الخبير في شؤون الشرق الأوسط، أنه كان يتجول في أحياء الشيعة المهملة، ويستمع إلى همومهم، ويُشعرهم بحسن النوايا الأميركية نحوهم. كانت تصرفاته نموذجاً لما كان يقوم به دبلوماسيون أميركيون حتى في أحلك أيام الحرب الأهلية. لكن الاجتياح الإسرائيلي وتّر هذه العلاقات بشدّة، وجاءت الصفقة التي عُقدت مع الجميّل رئيس الكتائب لتنهي هذه العلاقات.

في الساعة الرابعة مساءً من يوم الثلاثاء الموافق في 14 أيلول/سبتمبر 1982، وصل بشير الجميل إلى مقر الكتائب في بيروت الشرقية لإلقاء كلمة أمام أتباعه. كان اللبناني الماروني حبيب الشرتوني البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً والعضو في الحزب القومي الاجتماعي السوري يراقبه. بتحريض من الرئيس حافظ الأسد الراغب في الانتقام من إسرائيل، انتظر الشرتوني حتى تأكد من وصول رئيس الكتائب إلى المنصة، ثم صعد سطح مبنى مجاور وضغط على زر، مفجّراً عن بعد عبوة ناسفة قوية كان قد زرعها مسبقاً في شقة شقيقته الواقعة فوق قاعة

الاجتماع مباشرة[251]. قضى الجميل تحت ركام الإسمنت في انفجار استعملت فيه مادة الكورديت المتفجّرة وقضى معه ستة وعشرون آخرون من كبار أعضاء حزب الكتائب.

وفّرت هذه العملية لشارون الذريعة التي كان يتمنّاها، فاحتل الجيش الإسرائيلي بيروت الغربية. اجتمع شارون مع قادة الكتائب على سطح مبنى مؤلف من خمسة طوابق، كان بمثابة مقر أمامي للقيادة الإسرائيلية، يبعد بضعة مئات الأمتار عن مخيم شاتيلا للاجئين الفلسطينيين[252]. كان الاتفاق أن يتحرّك مقاتلو الكتائب نحو هذا المخيم، وكذلك نحو مخيم فلسطيني آخر قريب هو مخيم صبرا، من أجل استئصال المقاتلين الفلسطينيين الذي يعتقد شارون أنهم ما زالوا يمكثون فيهما. نفذ مقاتلو الكتائب في اليومين التاليين الانتقام تحت أعين الجيش الإسرائيلي اللامبالية، إلا أنهم ارتكبوا مجزرةً بحقّ أبرياء بدلاً من استئصال مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية. تنقّل عناصر الكتائب بصورة منهجية بين المخيمين، وقتلوا ما بين 800 و2000 مدنيٍّ - من الشيوخ والنساء والأطفال- في عملٍ اعتُبر من أسوأ الأعمال الإرهابية التي ارتكبت في الشرق الأوسط الحديث[253]. أدّت الاحتجاجات الدولية التي أعقبت هذه العمليّة إلى إقالة آرييل شارون.

صدمت المجزرة ريغان، فأرسل في 29 أيلول/سبتمبر جنود البحرية إلى بيروت كجزء من قوة حفظ السلام البريطانية والفرنسية والإيطالية. وقد أُطلِق على مهمتهم الضبابية اسم «تواجد». أفضل تعريف لهذا «التواجد» أطلقه مدير الشؤون السياسية والعسكرية في وزارة الخارجية الأميركيّة جوناثان هاو حين قال إنه «لدعم الحكومة اللبنانية والقوات المسلحة اللبنانية. وهو يوفر للحكومة اللبنانية دليلاً واضحاً على القلق الدولي تجاه لبنان، وسيكون عنصراً للاستقرار والثقة الضروريين لتعزيز سعي الحكومة للحصول على اعتراف وطني بها»[254]. لم تتغيّر الخطة الأميركية عموماً. كان الهدف من إرسال البحريّة الأميركيّة طمأنة الحكومة اللبنانية ومنحها متنفساً لازماً لإعادة بناء جيشها الذي يتيح لها بسط سيطرتها تدريجياً على كامل الأراضي اللبنانيّة. أما في ما يتعلّق بمنصب الرئاسة فقد حوّلت الولايات المتحدة دعمها إلى أمين الجميل، شقيق بشير الأصغر، وهو رجلٌ تنقصه جاذبية أخيه الأكبر وبراعته الشديدة[255].

باشرت البحرية الأميركية مهمة وجودها الغامضة بحيويتها المعتادة، حيث تمركزت حول المطار وسيَّرت دوريات لتظل على مرأى من السكان اللبنانيين. لم يشجع الجنرالات الكبار والأدميرالات على اتخاذ تدابير دفاعية احترازيّة مثل التحصّن بخنادق وإنشاء سواتر ترابية وخنادق دفاعية مضادة للمركبات كونها ستعزل المارينز وتحدّ من إمكانية رؤيتهم على الأرض. في الأشهر الستة الأولى لوجودهم في لبنان، كانت علاقة المارينز بجميع الفصائل المتحاربة جيدة، بما في ذلك السكّان الشيعة المحيطين بالمطار الذين كانوا يزوّدون الأميركيين بمعلومات عن تهديدات وشيكة.

قامت الخطة الأميركية لإنقاذ لبنان على شائعة كاذبة. فعلى الرغم من سمعة الجيش اللبناني الحسنة بوصفه مؤسّسة تضم طوائف البلاد جميعها، إلا أنه كان يعاني من النزاع الطائفي ذاته الذي ابتليت به البلاد بأسرها، حيث ظل ولاء الجنود لاصطفافاتهم الطائفية أقوى من ولائهم للجيش

الوطني. كان المسيحيون الموارنة يهيمنون على ضباط القيادة. ولم تؤدِّ تصرفات أمين الجميل إلا إلى تعميق الانقسامات، فقد استخدم جهاز الاستخبارات العسكرية لاستهداف خصومه من المسلمين، وشكّل قوةً خاصة في الجيش لمهاجمة خصومه. كما شكّل لواءً جديداً في الجيش كلّ أفراده من ميليشيا الكتائب الموالية له فقط. في كانون الأول/ديسمبر من العام 1982، عيّن أمين الجميل إبراهيم طنّوس في منصب قائد الجيش. وعلى الرغم من أن المارينز الواصلين حديثاً كانوا ينظرون إلى طنّوس بوصفه مستقلاً، إلا أن الرجل كان لديه تاريخ طويل من التورّط مع حزب الكتائب، فقد كان كبير مستشاري بشير الجميل العسكريين. حاول طنّوس بناء قوة متعددة الطوائف، إلا أنّ مشاعره المؤيدة لإسرائيل أثارت توجّس العديد من الفصائل المتواجدة في البلد. أشار ضابط متقاعد في وكالة الاستخبارات الأميركية عمل في لبنان في تلك الحقبة إلى ذلك قائلاً: «كنا نجد صعوبة في التمييز بين الحكومة اللبنانية والمسيحيين أو الكتائب. لم يكن ثمة فرق بين الاثنين، على الأقل من وجهة نظر المسلمين»[256].

بما أن الولايات المتحدة كانت تعزّز قدرات الجيش اللبناني فقد خسرت مفهوم الحياد الأميركي. عندما قرر الجيش اللبناني تسديد ضربات إلى ميليشيات شيعية ودرزية في محاولة لتوسيع رقعة سيطرته في محيط بيروت، دعمت مدفعيته الهجوم من مواقع داخل محيط فيلق البحرية الأميركية في المطار، فوجد المارينز، الذين كانوا يقيمون حواجز تفتيش مشتركة مع جنود من الجيش اللبناني، أنفسهم على الفور هدفاً للأطراف التي كانت تقاوم الجميل[257]. في مؤتمر صحفي صرّح الزعيم الدرزي القويّ وليد جنبلاط: «في الواقع، مجرّد أن يقدّم المارينز الدعم اللوجستي والخبرة والتدريب للجيش الفئوي، فهذا وحده يكفي كي نعتبرهم أعداء»[258].

زادت مبادرة وزير الخارجيّة شولتز للسلام فجوة الحياد تلك، فقد راح يتنقل جيئةً وذهاباً بين إسرائيل وسوريا ولبنان في محاولة للتوصّل إلى اتفاق يدفع سوريا وإسرائيل إلى سحب قواتهما ويقنع لبنان بقبول السلام مع الدولة اليهودية. لكن الدبلوماسي الأميركي البارز لم يوسِّع محادثاته لتشتمل على مصالحة وطنية لبنانيّة، واستبعد فئات مهمّة من النسيج اللبنانيّ لاسيما الشيعة والدروز. نجح شولتز في إقناع أمين الجميل بالموافقة على تسوية سلام تُملي إسرائيل معظم بنودها في 17 أيار/ مايو 1983، ولكن سرعان ما انهار الاتفاق عندما رفض السوريون سحب قواتهم، وكان ذلك شرطاً مسبقاً لسحب إسرائيل قواتها[259]. جاءت أخبار الصفقة السريّة بين إسرائيل والحكومة اللبنانية لتؤكد الصورة المرتسمة في مخيمات اللاجئين الفقيرة والأزقة الخلفية في بيروت، ومفادها أن الحكومة اللبنانية ليست إلا أداةً في أيدي المسيحيين والإسرائيليين. وقد أشار واينبرغر إلى ذلك قائلاً: «إذا اعتُبر الجيش اللبناني أداةً بيد الفصيل المسيحي الماروني فلن يتمكن أيّ دعم له من قبل الولايات المتحدة من إرساء التوافق الضروري لاستعادة الدولة سيادتها على أراضيها»[260].

في ربيع عام 1983، وجد الكولونيل تيموثي جيراغتي، قائد المارينز الوافد حديثاً إلى المطار، أنه مكبّل بسياسة حكومته الفصامية. كان جيراغتي أحد المحاربين الحائزين وسام الحرب

في فيتنام، ويتميز بتسريحة جندي المارينز أي «الشعر القصير جداً والمحلوق من الجانبين» وبهيئته الصارمة، وكان يدرك الخطر الذي تواجهه قواته في لبنان. ظلت مهمة جيراغتي أن يُبقي المارينز «موجودين» على الأرض وحضورهم ظاهراً في البلاد، وفي الوقت نفسه تقديم الدعم للجيش اللبناني. على الرغم من أن قواته كانت متمركزة في مواقع ثابتة منخفضة ومكشوفة حول المطار إلا أنّ إقامة سواتر ترابية وخنادق كانت تبدو متعارضة مع مهمة حفظ السلام التي كان يضطلع بها. إن الدعم المتزايد الذي كان الأميركيون يقدّمونه للجيش اللبناني جعل المارينز هدفاً واضحاً لمعارضي أمين الجميل[261]، أشار جيراغتي إلى ذلك، وهو يستعيد أحداث الماضي، قائلاً: «إن إجراء برنامج تدريبي شامل للجيش اللبناني والمشاركة في الوقت نفسه بمهمة حفظ السلام مهمّة متناقضة بطبيعتها»[262].

ومع ذلك تعلّق المارينز بوهم عدم الانحياز. قال جيراغتي لمؤرخ في المارينز في أيار/ مايو عام 1983: «في الحقيقة نحن ملتزمون بدور حفظ السلام هنا. إنه التزام سياسي بالدرجة الأولى. الجانب الدبلوماسي والسياسي يطغى على الجانب التكتيكي». تحاشى جيراغتي استخدام القوة، وكان يحرص على أن يحمل رجاله بنادق فارغة من الرصاص، وكان قلقاً من حصول إطلاق نار عرضيّ أكثر مما كان يخشى الدروز أو الشيعة. وكان محقاً في ذلك ولاسيما بعد حادث عجيب تسبّب به جندي مارينز أطلق النار عرضياً من بندقيته فأصاب الرصاص سيقان جنديين لبنانيين كانا يركضان معاً على طول الطريق المحيط بالمطار[263].

بسبب ارتباط الولايات المتحدة بفصيل واحد في الحرب الأهلية، فقد أخذت القذائف تتساقط على نحوٍ متزايد في محيط المطار. حافظ المارينز على ضبط النفس، لكنهم توقفوا عن ممارسة رياضة الجري حول المطار؛ عوضاً عن ذلك، راح خيرة جنود الأمّة يحفرون خنادق إضافية ويملأون المزيد من أكياس الرمل، واعتمدوا نمط عيش الخلد، فلا يخرجون من خنادقهم إلا في الحالات الاضطراريّة[264].

استمر وزير الخارجيّة شولتز في دفاعه عن بقاء المارينز في لبنان على الرغم من تدهور الوضع، وقال أمام لجنة مجلس النواب للشؤون الخارجية: «إنهم رادع مهم ورمز من رموز الدعم الدولي للحكومة الشرعية في لبنان، وإن سحب قوات المارينز من شأنه أن يعرّض الحكومة وما نسعى لتحقيقه للخطر»[265].

لم تفعل الأركان المشتركة أي شيء لإخراج جيراغتي من ورطته، ولم يفكر أحد في واشنطن في تغيير قواعد الاشتباك التي تقيّد جيراغتي، وطوال مدة المناقشات التي استمرت أشهراً في القيادة حول تسليح الجيش اللبناني، قلّما نوقشت تداعيات هذه السياسة على سلامة قوات المارينز في المطار. وقد اعترف جنرالات البنتاغون ومدنيوه، الذين كانوا يترددون باستمرار على مقر جيراغتي الواقع قبالة الطريق الرئيسي المؤدي إلى مبنى المطار، بهشاشة وضع المارينز إلّا أنهم ظلوا ملتزمين بالسياسة المعتمدة. وقد خطر لوزارة الدفاع الأميركية إرسال كتيبة أخرى قوامها ألف

رجل مارينز، مما يسمح للمارينز بتوسيع نطاقهم ويمنحهم حيزاً أكبر للتحرك، ولكن لم يوافق واينبرغر وفيسي على توسيع الالتزام على الأرض[266]. وفي حين أوصت الأركان المشتركة، بما فيها قائد مشاة البحرية الجديد بي. أكس. كيلي، بتجنّب التورط في الاقتتال الداخلي المتزايد على الأرض، إلّا أنها لم تقترح تغيير مهمة المارينز القائمة على حفظ السلام أو تغيير وضعيتها الدفاعية[267].

لكن جيراغتي لم يعزّز موقفه. فذات مرة، وبينما كان فيسي خارج المدينة، تصرف نائبه الأدميرال جيمس واتكنز من تلقاء ذاته وقام بطلب جيراغتي ليسأله تقييمه للوضع، وسأله: «هل هناك أي شيء تودّ القيام به بصورة مختلفة أو تحتاجه؟ هل تريد إحداث تغيير ما في المهمة؟» أجاب جيراغتي بـ «لا» على كل سؤال طرحه واتكنز[268].

في أواخر تموز/يوليو من العام 1983، وصل نائب مستشار الأمن القومي الكولونيل روبرت «بود» ماكفرلين إلى بيروت كمبعوث رئاسي جديد، ليحل محل فيليب حبيب. كان ماكفرلين يبلغ من العمر ستة وأربعين عاماً، وقد تخرج من الأكاديمية العليا للبحرية، وتقاعد من البحرية برتبة عقيد بعد أن شغل مركزاً مرموقاً كضابط مدفعية، وخدم مرّتين في فيتنام قبل أن يصبح أول رجل مارينز زميل في البيت الأبيض، ثم مساعداً عسكرياً لهنري كيسنجر خلال الأيام الأولى من الانفتاح على الصين. عندما اكتشف ماكفرلين البيت الأبيض وتباهج واشنطن، مثله مثل العديد من ضباط الجيش الآخرين، أصبح من الصعب عليه أن يعود إلى الأعمال المملة في ثكنات الجنود.

سرعان ما تغيرّ منصب ماكفرلين فأصبح مستشار ريغان الثالث للأمن القومي، وبقي في هذا المنصب سنوات عدة. غير أنه لم يكن يوحي بالثقة لمعاصريه، وكان حديثه متكلّفاً، وصوته رتيباً، وغالباً ما كان يستخدم تعابير تهدف إلى إبهار محاوريه أكثر مما تهدف إلى إطلاعهم على معلومات مفيدة. وقد عزّز سلوكه السوداوي الكئيب هذا الرأي، فعلى الرغم من أنه شخص ودود إلا أنه يبدو قلقاً وغير واثق من نفسه. كان زعيما الإدارة الأميركية -واينبرغر وشولتز- يشكّكان بعمق في براعته في السياسة الخارجية، وقد أشار وزير الدفاع الرافض له إلى ذلك قائلاً: «يتصف ماكفرلين بقصر نظر جليّ للعيان»[269].

كانت الحرب الباردة توجّه مفهوم ماكفرلين للنزاع بدرجة كبيرة. باستقراره في مقر إقامة السفير الأميركي في بيروت الشرقية، رأى ماكفرلين أن يد سوريا، وبدعم من الاتحاد السوفيتي، وراء الكثير من أقطاب المعارضة للحكومة اللبنانية. ولم يؤثر في حساباته السياسية واقع أن دعم سوريا للدروز مبني على خلفية سياسية محلية وليس على أيّ مخطط وضعته موسكو. أراد ماكفرلين على الفور توسيع المهمة العسكرية الأميركية لدعم الجيش اللبناني الوليد، فطالب بكتيبة أخرى من أجل تعزيز سيطرة المارينز على التلال الاستراتيجية غرب المطار، واقترح تعيين مستشارين أميركيين في الجيش اللبناني[270].

عارض جيراغتي هذا التحول العلني من الحياد إلى القتال. فعندما استقدمت قوات المارينز راداراً عسكرياً متطوّراً لكشف القذائف المنطلقة، أراد ماكفرلين استخدامه لمساندة الجيش اللبناني. أبدى كلٌّ من جيراغتي وقائده الأعلى اللواء البحري المساعد إدوارد مارتن تحفظات جديّة حول هذه المهمة المتحولة تدريجياً عن أهدافها. كان مارتن طياراً حربياً ومن ذوي الخبرة، وأمضى ست سنوات في سجون فيتنام الشمالية، وقد أرسل رسالةً حادة النبرة قال فيها: «إنّ الموقف الحيادي المتوازن والدقيق تجاه مختلف الأطراف معرّض للخطر، ففي حال اعتقد طرفٌ ما أن هذه المعلومات تساعد منافساً له على تحديد أهداف لأسلحته، فإن القوات الأميركية المتعددة الجنسيات ستصبح هدفاً لانتقامه»[271].

لقد حدث ما توقّعه مارتن. فمع تزايد دعم الولايات المتحدة للجيش اللبناني ضد الدروز والشيعة بدأ عدد الخسائر بين صفوف مشاة البحرية يتزايد، فخلال أكثر من شهر بقليل، من 4 آب/ أغسطس إلى 7 أيلول/سبتمبر عام 1983، قُتل أربعة جنود مارينز وجُرح ثمانية وعشرون، أيّ ما يعادل ثلاثة أضعاف الخسائر التي تكبّدتها البحرية طوال الأشهر العشرة التي قضتها قوات المارينز في لبنان منذ انتشارها[272].

وصل تأزّم الوضع إلى ذروته في أيلول/سبتمبر 1983. فمع تصاعد الخسائر في الأرواح سحبت إسرائيل دباباتها من جبال الشوف وتوجّهت جنوباً إلى خطّ يمكنها الدفاع عنه بشكل أفضل. وقد خلق ذلك فراغاً في التحكم بالتلال الاستراتيجية المطلّة على بيروت، فراحت الميليشيات على اختلافها ـ المسيحيّة والدرزية والشيعة- تتسابق كي تملأه. وقد فازت في هذا السباق قوة قوامها ثلاثة آلاف رجل من كتائب الجميل، لكن سرعان ما هزمتها قوات الزعيم الدرزي وليد جنبلاط بدعمٍ من المدفعية السورية. أمر الجنرال طنوس الجيش اللبناني بالهجوم لإعادة سيطرة الحكومة اللبنانية على المنطقة وكذلك لحماية الكتائب المنهزمة[273]، وخصّص لذلك أفضل وحدة عسكرية لديه، اللواء الثامن، وهي وحدة متعدّدة الطوائف (مع أن غالبية ضباطها من الطائفة المسيحية تدرّبت على يد القوات الأميركية الخاصة، وبقيادة جنرال متردّد وسريع الاضطراب ومحب لفرنسا اسمه ميشال عون. احتدم القتال حول بلدة إستراتيجية صغيرة اسمها سوق الغرب. كانت البلدة قبل الحرب مكاناً لطيفاً لقضاء عطلة الصيف، تقبع بين أشجار الصنوبر وتطلّ على المدينة ومينائها، لكنها أصبحت موقعاً استراتيجياً، وأي طرف يسيطر عليها يهدّد بيروت الشرقية المسيحية.

كانت تصل من ميشال عون تقارير محمومة على نحو متزايد، تحذّر كلاًّ من ماكفرلين، وكبير مستشاريه العسكريين الهادئ والمتحدث بأناة تينيسين، والعميد كارل ستينر قائد القوات الخاصة، الذي كان قد أُرسل من قبل القيادة كممثّلٍ لها لدى الجيش اللبناني. أرسل ماكفرلين برقية إلى البيت الأبيض يحثّه فيها على القيام بردّ عسكري أميركي عاجل وتوسيع مهمة قوات المارينز لتصبح قتالية، وكتب قائلاً: «ثمة مصالح استراتيجية كبيرة للولايات المتحدة والعالم الغربي في شرق البحر المتوسط... وهذا يبرّر بالتأكيد إمكانية استخدام القوة العسكرية».

في الليلة التالية، قصفت القوات الدرزية اللواء الثامن من الجنوب والشرق. فطلب طنّوس مساعدة ستينر. كان قائد القوات الخاصة ستينر يحب الجنرال اللبناني عون[274]، فتوجّه إلى ماكفرلين طالباً منه توفير دعم عسكري للواء الثامن المأزوم عسكريّاً.

في صباح يوم الأحد، كتب ماكفرلين برقية من المكتبة الكائنة في مقر إقامة السفير الأميركي، أصبحت مشهورة في سجلات السياسة الخارجية الأميركية. وعُرفت بمذكرة «السماء ستهبط» وجاء فيها: «هذه رسالة لطلب التحرك. من المتوقّع أن يُشن هذا المساء هجومٌ ثانٍ ضد الوحدة نفسها في الجيش اللبناني. مخزون الذخيرة والمعنويات منخفضٌ ما يطرح إمكانية أن يقوم اللواء المعادي باختراق محيط بيروت، فهو يتمتع بقوة أكبر وبدعم ناري وإمداد واسع. وتابع ماكفرلين بأسلوب مأساوي قائلاً: «قد نجد أنفسنا الليلة في خطوط العدو».

ألقى ماكفرلين اللوم على ما أسماه «الزعرنات» السورية والإيرانية اللاحقة. لقد عَبّر عن القضية وكأنها جزء لا يتجزأ من نزاع ملحمي في إطار الحرب الباردة، ذلك أنه إذا سقطت بلدة سوق الغرب، فسيخضع لبنان بأكمله بعدئذٍ للعميل السوفيتي الموجود في دمشق. من الضروري أن تكلف الولايات المتحدة قواتها الجوية بالردّ على الفور، أو تخاطر بفقدان معركة كبرى ضد الشيوعيين. كما أشار ديفيد مارتن، المحارب القديم ومراسل شبكة سي بي إس نيوز في البنتاغون، بذكاء في كتابه الذي يتحدث عن إدارة ريغان والإرهاب، الصادر في العام 1990، قائلاً: «كان وقع الرسالة جيداً على مسمع الرئيس الذي كان يتفاخر بأنه لم يخسر شبراً واحداً من الأرض أمام الشيوعيين أثناء وجوده في السلطة»[275].

ظل واينبرغر يشكّك في ماكفرلين وفي تنبؤاته الكارثية، وبعد أن قرأ البرقية وبّخ مركز القيادة العسكرية الوطني كي يحدّث معلوماته الاستخباراتية. أخبر العميدُ المراقب في المركز الوزيرَ أن تقييم وكالة استخبارات الدفاع التي يرأسها «لم يشر إلى رداءة الوضع كما يرى ماكفرلين». في الواقع، لقد صَدَّ اللواء الثامن الهجوم[276].

في الساعة السادسة مساءً، عقد مسؤولون كبار اجتماعاً في غرفة العمليات في البيت الأبيض لمناقشة ما ينبغي القيام به في شأن بلدة سوق الغرب المنعزلة التي تعتمد الآن على هيبة أميركا ونفوذها. دعم شولتز رأي ماكفرلين إلا أن واينبرغر ظل متعنتاً، فقرّر الرجلان الوصول إلى حلٍّ وسط وهو أن يُحال قرار استخدام القوة برمته إلى النقيب جيراغتي، وأن يتركا الأمر لهذا القائد البحري كي يقرر ما إذا كان يتوجّب عليهم دعم الجيش اللبناني. وفي المساء وقّع الرئيس ريغان أمراً بهذا الشأن، مفاده: «إن التضاريس المطلة على محيط سوق الغرب أمرٌ حيوي لسلامة وحدات المارينز الأميركية. وبناءً على ذلك، إذا قرر قائد الميدان الأميركي أن قواته تتعرض للخطر جرّاء هجوم تشنّه قوات غير لبنانية، وإذا طلبت الحكومة المضيفة ذلك، يؤذن لقوآتنا بتقديم الدعم العسكري الملائم»[277].

قاوم الكولونيل جيراغتي خطة ماكفرلين في البداية، فهو يعرف أن رجاله المارينز سيدفعون الثمن إذا تدخلت أميركا مباشرةً في سوق الغرب. لقد غضب رجل البحرية الواقعي بشدة وتبادل كلمات حادّة مع ستينر حول الحكمة من التدخل الأميركي المباشر في الحرب. وعندما اقترح ستينر إشراك فريق صغير من المارينز مع اللواء الثامن لتوجيه إطلاق النار من سلاح البحرية والجو، احتدّ جيراغتي مرةً أخرى وقال: «أعتقد جازماً أن هذا تعدٍّ مباشر على مهمتي»[278]. خلال أحد هذه الأحاديث الانفعالية بينه وبين ستينر، صاح جيراغتي قائلاً: «ألا تدرك أيها الجنرال أننا نحن من سيدفع الثمن هنا؟ سوف نُذبح!»[279].

تلقى جيراغتي في وسط هذه الأزمة مكالمةً هاتفية من واشنطن. كان في طريقه للاجتماع بالجنرال طنوس عندما اتصل به فريق عمله طالباً منه العودة إلى المقر، فثمة شخص يستخدم رمز اتصال مجهول هو «الحاجز الفضي 6» يريد التحدث إلى قائد البحرية. كان المتحدث على الطرف الآخر من الهاتف الرئيس رونالد ريغان.

قال الرئيس بأسلوبه المتفائل المعتاد: «أخبر رجال البحرية أن الأمة بأكملها فخورة بكم وبالعمل الرائع الذي تقومون به في هذه الظروف العصيبة».

شكر جيراغتي ريغان، فهو يكنّ المودة للرئيس الجمهوري، وانتهت المكالمة مع البحرية الأميركية بالشعار الخاص بفيلق البحرية: «أوفياء دائماً، سيدي الرئيس»[280].

على الرغم من أنها كانت لفتة كريمة نموذجية من جانب ريغان، إلا أنه كان من الأفضل أن يقدّم خدمةً للمارينز عبر تصحيح سياسة إدارته الضعيفة التي تسيّر سياسة لبنان على غير هدى. في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تحمل قطع الغيار والذخيرة لدعم اللواء الثامن في التلال القريبة من بيروت، استمرت الإدارة بإنكار المشاركة الفعلية في الحرب الأهلية. ألقى ريغان غير الواثق من ضرورة استخدام القوة المسؤولية على كاهل النقيب جيراغتي ليقرر إذا كان من الحكمة أن تصعّد قوات المارينز التدخّل العسكري الأميركي أم لا.

في 19 أيلول/سبتمبر قُصفت بلدة سوق الغرب بالمدفعيّة الثقيلة واستُهدفت مواقع ميليشيا الكتائب حول بيروت. بعدئذٍ هاجم سلاح المشاة والمدرّعات التابعان للدروز اللواء الثامن بعد أن انضم بعض الفلسطينيين إلى القتال لترجيح الكفّة. تحت ضغط توسّلات الجنرال طنّوس المطالبة بالمساعدة، وعلى أثر الكشف عن معلومات استخباراتية تشير إلى دعم سوري وإيراني للمهاجمين، رضخ في النهاية كلٌّ من جيراغتي وماكفرلين وستينر. قذفت أربع سفن حربية أميركية حوالي 370 قذيفة مدفعية متفجرة على مدفعية الدروز ورتل من دباباتهم. وقد أدّت هذه القوة النارية إلى صدّ الهجوم الدرزي.

قال جيراغتي: «أعتقد أن دورنا تغيّر بشكل واضح عندما قمنا بإطلاق النار دعماً للجيش اللبناني في سوق الغرب»، مضيفاً: «هذه الخطوة أزاحتنا عن خط الحياد». وبالفعل تبيّن لاحقاً أنّ

الثمن الذي ستدفعه بحرية جيراغتي بسبب خروجها عن خط الحياد وتورّطها في الحرب الأهلية أعلى بكثير مما كان متوقعاً[281].

الفصل السابع

عملٌ مذهل

في ساعات الليل المظلمة من أحد أيام صيف 1982، حطت طائرة إيرانية ذات أربعة محرّكات من طراز بوينغ 707 في دمشق. نزل أربعة وعشرون فرداً من الحرس الثوري تقريباً على سلم الطائرة المعدني، وكان في استقبالهم السفير الإيراني حجة الإسلام علي أكبر محتشمي. وفق التعليمات المحددة التي تلقّاها وزارة الخارجية الإيرانية، حثّ محتشمي رجال الحرس الثوري على عبور الحدود إلى لبنان حيث أنشأوا مقرّاً لهم ضمّ بعض المنازل الشاغرة وفندقاً يقع بالقرب من الآثار الرومانية الرائعة في بعلبك، التي تضم ثلاثة من أكبر المعابد الأثرية الصامدة، وهي معابد جوبيتير وفينوس وباخوس.

تمت الموافقة على هذا العمل السري خلال اجتماع سابق مع مسؤولين كبار في دمشق. لم يضمّ الوفد الإيراني محتشمي وحسب، بل ضمّ كذلك وزير الدفاع وقائد الحرس الثوري محسن رضائي. كان قائد الحرس البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، شخصاً براغماتياً متعصّباً، درس علم الاقتصاد وكان يحضّر رسالة الدكتوراه، ولم تطأ رجلاه أي مدرسة غربية. كان قوياً وقاسياً، كما كان موظّفاً موثوقاً لدى كلّ من الخميني وخليفته آية الله خامنئي. فهو الذي حوّل الحرس الثوري من جيش غير منظّمٍ إلى قوة عسكرية قاطعة كالسيف تابعة للجمهورية الإسلامية[282].

جرى الاجتماع في وقتٍ حاسمٍ من الحرب العراقية-الإيرانية. كان آية الله الخميني قد اتخذ للتو القرار المصيري لغزو العراق وإطاحة صدام حسين. وقد منحه الغزو الإسرائيلي للبنان فرصة جديدة لنشر رسالته بين السكان الشيعية المتعاطفين معه وضرب محتلّ القدس اليهودي البغيض بشكلٍ مباشر، في خطوةٍ إضافية تهدف إلى نشر ثورته الدينية.

في البداية، رفض الرئيس السوري حافظ الأسد السماح للعديد من عناصر الحرس الثوري عبور بلاده. لم تكن ثورة الخميني تكنّ مشاعر مودة تجاه الحاكم السوري الاشتراكي العلماني. لكن

الأسد سمح، بعد اندلاع الحرب العراقية الإيرانية لبعض العسكريين الإيرانيين بالمجيء إلى دمشق من أجل مضايقة منافسه البعثي المكروه صدام حسين بإمكانية وجود تهديد عسكري إيراني على حدود العراق الغربية. ولكن عندما حثّ شارون على قتال الجيش السوري خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان، قرر الأسد الانتقام من شارون عبر فتح البوابة لجنود الخميني للردّ على شارون.

أصبح هؤلاء الرجال الأربعة والعشرون طليعة ثمانمئة رجل من الحرس الثوري الإيراني، أُرسلوا إلى قاعدة موجودة في وادٍ خصب في شرق لبنان[283]. وسرعان ما انتقلوا إلى مأوى دائم في بعلبك بحماية الجيش السوري، فاستولوا على قاعدة للجيش اللبناني هي ثكنة الشيخ عبد الله. لم تكن مهمّتهم تختلف كثيراً عن مهمة القوات الأميركية الخاصة أي ذوي القبعات الخضر، إذ أرادوا تقديم المساعدة العسكرية والسياسية والإنسانية للبنانيين الشيعة المضطهدين، لينشروا بذلك رسالة إيران الثورية في المشرق العربي. في غضون ثلاث سنوات، جمع هذا الوفد الإيراني العديد من المقاتلين المختلفين الشيعة في أكبر نجاح حققته سياسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية الخارجيّة: وهو إنشاء حزب الله. على مدى السنوات القادمة، تحول هؤلاء المقاتلون من مجموعات صغيرة إلى حزب سياسي كبير في لبنان، يتفوق جناحه العسكري على الجيش اللبناني. ضرب مقاتلوه أقوى جيش في المنطقة -جيش إسرائيل- في حربين وقام بعملية تفجير مُحكمة ألحقت أضخم هزيمة تكتيكية بالجيش الأميركي منذ الحرب الكورية.

صاغت الحرب الأهلية اللبنانية مستقبل سيد علي[284] المهني مثلما فعلت بالكثير من الشباب الشيعة الذين نشأوا في جنوب بيروت. إنه ابن لأب فقير عمل في المطار في شركة طيران شرق أوروبا، وكان عمره سبعة أعوام فقط عندما اندلعت الحرب. ولما أصبح يافعاً، اشتدّت رغبته في القتال وكان يلعب لعبة الجيش مع رفاقه، ولكن ببنادق AK-47 حقيقية. أراد عيش مغامرة القتال ولاسيما عندما رأى الشبان اليافعين ينضمون إلى ميليشيا أمل بقيادة رجل علماني يدعى نبيه بري. فالتحق بها هو أيضاً، ونفخ البوق في فرقتهم الموسيقية، إلى أن أصبح مؤهلاً لاستبدال البوق ببندقية. تعوّد أن يذهب ورفاقه يومياً إلى ساحات المعارك ليسدّدوا طلقاتٍ نحو الكتائب أو الفلسطينيين، بدلاً من تسديد كرة القدم في ملاعب الهواة. عمل سيّد علي بعدئذٍ حارساً شخصياً لرجل الدين البارز الشيخ محمد مهدي شمس الدين. وكان شمس الدين رجلاً معتدلاً وفقاً لمعايير الحرب الأهلية اللبنانية. مع أنه كان يشاطر موسى الصدر وجهات نظره بشأن إسرائيل، إلا أنه وعظ بالعصيان المدني ضد الإسرائيليين، وبالمصالحة المسيحية-الإسلامية. قال ذات مرة: «لا يوجد لبنان من دون مسيحييه، ولا يوجد لبنان من دون مسلميه».

أثر موسى الصدر، رجل الدين اللبناني الإيراني المولد، في بيئته السياسية. ضغط بغية زيادة نفوذ الشيعة في لبنان، فضلاً عن شن حرب ضد إسرائيل لتحرير الأراضي المحتلة. كان شعار الصدر المتكرر: «إسرائيل شرٌ مطلق»[285]. دفع اختفاء الصدر في العام 1978 خلال رحلة كان يقوم بها إلى ليبيا، بشريحة واسعة من السكان الشيعة إلى مساندة حركة أمل التي أسّسها.

تتميز الطائفة الشيعية في إيران ولبنان بتاريخ طويل ومتداخل من العلاقات التي تمتد على مدى أكثر من أربعمئة سنة. تزوّجت الأسر فيما بينها، ودرس الأئمة اللبنانيون في المعاهد الدينية نفسها التي ارتادها الأئمة الإيرانيون في قم أو النجف. أثارت الثورة الإيرانية حماسة العديد من الشيعة اللبنانيين، وكان الخميني منارةً ومثّل مستقبلاً جديداً للجماهير المضطهدة في جنوب لبنان. قاتل عدد قليل من الإيرانيين في لبنان خلال الحرب الأهلية وأبرزهم مصطفى تشمران، أحد مؤسسي الحرس الثوري. كما حضر عدد قليل من الإيرانيين المدفوعين دينياً إلى المساجد البيروتية للدعوى، في محاولة منهم لزرع بذور ثورة الخميني. يتذكّر سيد علي قائلاً: «كان يوجد إيرانيون من حولنا دوماً، يصلون في المساجد ويقدمون لنا الدعم».

عندما كان شارون في غمرة حماسته لتدمير منظمة التحرير الفلسطينية، كان يجهل كلياً طبيعة سكان لبنان الشيعة الذين اعترضوا طريق جيشه. في البدء كان الكثيرون من الشيعة سعداء بالتخلص من منظمة التحرير الفلسطينية، واستقبلوا الجنود الإسرائيليين بحرارة، ورشوهم بحفنات من الأرز المعطر والزهور، ولكن سرعان ما تغيرت هذه الحفاوة. كان الجيش الإسرائيلي يستخدم قوة النيران على نحو واسع النطاق، معتمداً تكتيكه المعتاد والمتمثل باستهداف يمكن أن يشكل تهديداً له بنيران الدبابات، كسيارة متوقفة أو حتى منزل يشرف على مواقعه، فقتل العديد من المدنيين. اشتغل الإسرائيليون الذين افتقروا إلى التدريب المناسب في ثقافة غريبة عنهم، فاعتمدوا القسوة أثناء احتلالهم مما أثار غضب العديد من الشيعة وفتح الباب واسعاً لرسالة إيران المقاومة[286]. قال الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله[287]: «لست متأكداً مما إذا كان حزب الله سيولد لو لم يغز شارون ويبغن لبنان. أشكّ في الأمر».

ما إن وصل المزيد من عناصر الحرس الثوري، حتى بدأوا يشقون طريقهم في الأحياء الشيعية الفقيرة في جنوب بيروت. عملوا وكلاءً رعاية اجتماعية ومستشارين عسكريين في آنٍ. فقاموا بتمويل مدارس ونظموا خدمات أساسية، كجمع القمامة وتصميم شبكات الصرف الصحي. كان الإيرانيون يرتادون المساجد المحلية، فيتلون بعد صلاة الجمعة خطباً تمجد آية الله الخميني، وتعزز العلاقات الطبيعية بين الشيعة في إيران ولبنان. ربط وكلاء إيران بشكل متكرر التجاوزات الإسرائيلية بالولايات المتحدة، الداعم الأكبر لإسرائيل، معتبرين أن الاثنين يعملان معاً ضد المسلمين والثورة الإيرانية على حدٍّ سواء.

أثبت قادة مستقبليون عدة في الجيش الإيراني أنفسهم خلال خدمتهم ضمن الحرس الثوري في لبنان. كان من بين هؤلاء وزير الدفاع الإيراني المقبل، أحمد وحيدي، الذي شغل منصب مستشار عسكري، وشكل في وقت لاحق وحدةً استخباراتية، تحولت في نهاية المطاف إلى الوحدة النخبوية السرية المسؤولة عن العمليات الخاصة شبه العسكرية التابعة للحرس الثوري، التي أُطلق عليها اسم فيلق القدس.

وضعت إيران تسلسلاً قيادياً رسمياً لعناصرها في لبنان. كانت تصل أوامر وزير خارجيتها من طهران إلى السفارة الإيرانية في سوريا، حيث يقوم سفيرها محتشمي لنقل الأوامر إلى الحرس الثوري في البقاع إما عن طريق الراديو وإما بواسطة البريد. وكانت تهبط طائرات شحن

إيرانية بانتظام في مطار دمشق، فتفرغ شحناتها من الأسلحة والذخائر التي يتم نقلها عبر الشاحنات إلى لبنان.

عملت السفارة الإيرانية في لبنان بمثابة حلقة أخرى في عمليات الحرس. كان كمال ماجد أحد المكلفين بالأعمال في السفارة، وهو أحد الطلبة الذين استولوا على سفارة الولايات المتحدة في عام 1979. أمضى حياته ضابطاً في الحرس الثوري، ثم انتقل إلى السودان حيث شغل منصب سفير إيران هناك، فأشرف على مساعٍ شبه عسكرية مشابهة هادفة إلى توسيع نفوذ إيران على طول البحر الأحمر[288]. قدم الملحق العسكري، العقيد أحمد متوسليان، التوجيه التكتيكي لعمليات الحرس المبكرة في بيروت. نشأ متوسليان في طهران وعمل في لبنان تحت غطاء دبلوماسي، فشكّل قناة رئيسية تربط بين المجتمع الشيعي في بيروت الغربية والحرس الثوري في بعلبك. كما لعب هذا القائد الشعبي الفاتن، دوراً هاماً في رعاية وتشجيع مقاتلي حركة أمل اللبنانيين.

قسم الاجتياح الإسرائيلي ميليشيا حركة أمل الشيعية الأساسية برئاسة نبيه بري. اختلف أعضاؤها اختلافاً حاداً حول مدى التعاون مع إسرائيل أو مواجهتها، وأيضاً حول دور إيران في تنظيم الشيعة. رفض بري العروض الإيرانية، معتبراً أن حركته لبنانية ورافضاً تلقي التوجيهات من طهران. ولكن العديد من مقاتلي الحركة الشباب. توجّهوا نحو إسلام أكثر فاعلية سياسيّاً. كان من المرجح أن ينفصل أنصار الخميني عن بري حتى ولو لم تغز إسرائيل لبنان، ولكن تصرفات إسرائيل هيّجت الدعوة إلى الجهاد وإلى إقامة دولة إسلامية في لبنان[289]. ساعد الحرس الثوري في بث هذا الاستياء من خلال انتقاد براعة حركة أمل العسكرية، وتقديم تدريبات ومعدات لتحسين قدرات الشيعة القتالية[290].

في النهاية، قسمت هذه الانشقاقات الناشئة حركة أمل خلال اجتماع ساده جو من التوتر جرى ذات مساء في منزل شمس الدين الواقع جنوب المطار. كان نبيه بري قد شارك في الجهود التي تقودها الولايات المتحدة لإنهاء الحصار الإسرائيلي المفروض على بيروت الغربية. وبرّر هذا التصرف بأنه محاولة لتجنب المزيد من الإصابات في صفوف السكان الشيعة الذين وجدوا أنفسهم في مرمى النيران بين الإسرائيليين ومنظمة التحرير الفلسطينية. عندما وصل بري إلى منزل شمس الدين، نشب خلاف حاد حول مستقبل حركة أمل. اتهم شبابٌ متهوّرون نبيه بري بالمساومة على قضية الشيعة من خلال إبرام صفقة مع العدو الأميركي والإسرائيلي. في نهاية الليلة، انفصل العديد من الشبان المقاتلين عن قيادة بري، بمن فيهم سيد علي، الذي كان يحرس منزل شمس الدين.

انتقل سيد علي إلى منزل والديه في جنوب بيروت خائباً. كان عاطلاً عن العمل ويتوخّى الإثارة. دعاه صديقه محمد خضر برفقة ثلاثين صديقاً تقريباً من أصدقاء الحي إلى منزله. كان أخ خضر يعمل سائقاً لدى رجل دين شاب وصاعد يدعى حسن نصرالله. اختار الإيرانيون محمد خضر لمهمة تجنيد وبناء خلية في الحي الذي يسكن فيه. أخبر خضر أصدقاءه عن الخطط الإيرانية، ولاسيما لناحية مقاومة المحتل الإسرائيلي. شرح لهم تعاليم الإمام الخميني، وشدّد على أهميّة الإسلام في حياة كل فرد وأهميّة مقاومة الشيطان الأكبر المخادع. تفاعل معظم الحاضرين مع

كلامه، ومن بينهم سيد علي، في حين لاقى طرحه رفض البعض الآخر وقد أشار سيد علي إلى ذلك لاحقاً قائلاً: «لقد أثار الأمر اهتمامي. كنت شاباً ومتسرّعاً آنذاك».

بحلول العام 1984، قدرت الاستخبارات الأميركية عدد أفراد الحرس الإيراني العاملين في لبنان بـ 800 فرد. على الرغم من وجود هذا العدد، ظلت إيران حذرة إزاء انخراط الحرس الثوري في القتال الدائر في لبنان، تاركة هذه المهمة لحلفائها اللبنانيين. استقدم الإيرانيون مقاتلين شيعة إلى مقرّهم في سهل البقاع حيث أدار الحرس الثوري معسكراً تدريبٍ منظماً. في حين كانت ثكنة الشيخ عبد الله بمثابة مقر إيراني، فقد تم إنشاء ثلاثة معسكرات أخرى للتدريب العسكري. كان اللبنانيون يتلقّون هناك التدريبات الأساسية الخاصة بالرماية والمتفجرات، ليتم تدريبهم، في دورات لاحقة، على التقنيات الأكثر تطوّراً الخاصة بتدمير دبابات العدو.

أظهر الحرس الثوري مرونة فائقة في تدريب المجندين الجدد. فنظراً لكثرة عدد الطلاب الشباب المجندين، كان الإيرانيون يقيمون التدريبات أثناء فترات الاستراحة الواردة في البرنامج الدراسي. كما حاول الحرس الثوري تلبية حاجة الطلاب الذين لا يتسنى لهم الوقت الكافي للتنقّل بين الدروس من بيروت إلى البقاع، عبر إقامة صفوف تدريبٍ في بيروت. كان سعيد علي يتابع دروسه في معهد مهني يدرس فيه هندسة الديكور. وانضم في عطلته الصيفية إلى إحدى المخيمات التي تبعد ساعة تقريباً عن بعلبك.

كانت الدروس السياسية والدينية تقطع النظام العسكري الحربي. من خلال مترجمين إلى العربية، كان المحاضرون الإيرانيون إما يمجدون الخميني وإما يحاضرون بموضوعات دينية. وكثيراً ما كان حسن نصرالله يحاضر كزائرٍ، ويقدم خطب لاهبة يتحدّث فيها عن قيم هذا النضال. أصبح سيد صديقاً لـ نصرالله، وكثيراً ما ذهب إلى منزله. يتذكّر سيد علي قائلاً: «كان نصرالله شخصية جذابة جداً، يخبر النكات بأسلوب جميل، وتعلو وجهه دائماً ضحكة أو ابتسامة».

جندت إيران، بالإضافة إلى سيد علي، شخصاً آخر أكثر أهمية، انشق عن نبيه بري بعدما كان مؤيداً له، يدعى حسين الموسوي. كان الموسوي مدرّس كيمياء قبل أن يصبح ثورياً. بعد الاجتماع الخلافي في منزل شمس الدين، شكل الموسوي مجموعته الانفصالية الخاصة وأطلق عليها اسم أمل الإسلامية. كان شاباً مثالياً مثل سيد علي، ومن المؤيدين المتحمسين لآية الله الخميني، وأعلن جهاراً قائلاً: «نحن أبناء إيران». فرَّ بعد انشقاقه عن بري إلى قريته في سهل البقاع كي يؤسس فرقته. وفقاً لـروبرت باير، وهو ضابط متقاعد في وكالة الاستخبارات المركزية، تزعّم الموسوي عملية الاستيلاء على ثكنة الشيخ عبد الله، ودعا الحرس الثوري لاستخدامها لتكون قاعدة[291].

لقيت إيران تأييداً أكبر في لبنان عندما ساند رجل الدين البارز آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله رسالة الحرس الثوري. يعد فضل الله باحثاً ذي شهرة كبيرة وكاتباً غزير الإنتاج حول الإسلام، استقرّ في ضاحية بيروت الجنوبية حيث جمع تحت إدارته عدداً من المنظمات الإنسانية التي كانت تقدم خدمات أساسية إلى الأحياء الشيعية الفقيرة. زادت قوته عندما طردت

الحكومة العراقية العشرات من طلّاب الشريعة اللبنانيين في حملة ضد التطرف الشيعي، إذ تجمّع الكثير منهم حول فضل الله، وأصبحوا الركيزة الأساسية لمؤيديه[292].

رحّب فضل الله بالثورة الإيرانية، وأيّد علناً المقاومة الشيعية التي نادى بها آية الله الخميني، إذ قال عنها: «إنها تساعد الشيعة وتمنحهم القوة». كان فضل الله محفزاً رئيسياً للمقاومة الشيعية بعد الاجتياح الإسرائيلي، وكانت انتقاداته البلاغية لحكومة الولايات المتحدة في كثير من الأحيان تتّفق مع نقد الخميني اللاذع لها نفسه.

بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان، جاء وفد إيراني إلى مُجَمّع فضل الله في ضاحية بيروت الجنوبية للقاء آية الله. أراد الإيرانيون منه أن يقود عملياتهم في لبنان. فقد كان الكثيرون من أنصار إيران الأوائل يصلون في مسجده، وكان ملهمهم[293]. رفض الشيخ فضل الله ذلك، لأن توجهاته الدينية تنطلق من النجف وليس من قم. ولم يرغب أن يكون تابعاً لإيران على الرغم من اعتناقه أفكار الخميني حول الإسلام السياسي، فاللبنانيون عربٌ وليسوا فرساً، والنضال اللبناني يجب أن يخوضه اللبنانيون أنفسهم[294].

سبّب موقف الشيخ فضل الله وإصراره على معارضة قيادة إيران للمقاومة الشيعية توتراً كبيراً مع الحرس الثوري. كان له من الوقار بين الشيعة ما يمنع تصفيته، فبقيت علاقة الإيرانيين به مضطربة. لكن الاستخبارات الأميركية فشلت في إدارك هذه الاختلافات والتقسيمات الهامة في صفوف الشيعة، وظلّت السفارة الأميركية في بيروت لسنواتٍ تشير إلى فضل الله على أنه «المستشار الروحي لحزب الله»، وهو توصيفٌ نفاه كلٌ من حزب الله وفضل الله نفياً قاطعاً[295].

انطلقت المقاومة ضدّ إسرائيل والولايات المتحدة والمدعومة من إيران على نحو متشنج. فقامت فصائل بهجمات ضعيفة وغير منظّمة ضد الجيش الإسرائيلي في جميع أنحاء بيروت وجنوب لبنان. علق سيّد علي بخصوص هذه العمليات المبكرة قائلاً: «خسرنا من ذخيرتنا الكثير، وقُتِل الكثيرون أو جُرحوا دون أن نحقق ما يُذكر».

كانت أولى ضرباتهم الكبرى ضد الإسرائيليين في 11 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1982. في الساعة السابعة صباحاً، نفذ أحمد قصير البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، ابن بلدة دير قانون النهر الصغيرة التي تبعد عشرة أميال فقط عن مدينة صور اللبنانية، عمليةً انتحارية بسيارته، مستهدفاً مبنى مؤلف من سبعة طوابق، كان بمثابة مقر رئيسي للجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان. أراد قصير الانتقام للعديد من أفراد أسرته الذين فقدهم خلال عملية توغل إسرائيلية في جنوب لبنان عام 1978. سوّت السيارة المفخخة المعبأة بمتفجراتٍ واسطوانات غاز المبنى بالأرض. وأصيب جندي إسرائيلي كان في الطابق الخامس؛ نجا بأعجوبة بعد سقوط كرسي وثلاجة حول رأسه فشكلا شرنقة حماية أنقذته من أطنان الحديد الصلب والإسمنت التي سقطت فوقه[296]. غير أن الحظ لم

يحالف خمسة وسبعين جندياً إسرائيلياً آخرين، بمن فيهم نخبة عناصر جهاز الأمن الداخلي الإسرائيلي، المعروف باسم الشين بيت، فضلاً عن أربعة عشر عربياً كانوا يخضعون للتحقيق. أعلنت إسرائيل يوم حداد على القتلى، وما زال هذا الهجوم يُعتبر من بين أسوأ الهجمات الانتحارية التي استهدفت الإسرائيليين منذ ذلك الحين[297].

ظلت إسرائيل غافلة عن هذه القوة الجديدة التي انطلقت إثر عدوانها. عندما كان لبنان في حالة فوضى، كانت هجمات حزب الله الأولى شبيهة بـ «شجار الإبل في الصحراء»[298]، على حد تعبير أحد مؤسسي الحزب. وأعلنت جماعة غير معروفة، اسمها منظمة الكفاح المسلح، مسؤوليتها عن الهجوم[299]. وفي وقت لاحق، أعلن حزب الله أن التفجير في صور كان أول عملية استشهادية يقوم بها. امتنع الحزب عن الإعلان عن التفاصيل حتى عام 1985، أي بعد انسحاب الإسرائيليين في مدينة صور في العام نفسه، وذلك من أجل تجنيب أسرة سائق السيارة المفخّخة أي انتقامٍ اسرائيلي وقد أقام أنصار إيران نصباً تذكارياً في بلدته، واستلمت أسرته شخصياً من آية الله الخميني صورة للإمام نُقش عليها شعار الجمهورية الإسلامية[300].

لقد بيّن ذلك أيضاً الاستخدام الأول لما يمكن أن يكون السمة المميزة لنجاحات حزب الله العسكرية وهي العمليات الاستشهادية. كانت السيارات الملغومة شيئاً اعتيادياً في لبنان خلال الحرب الأهلية. بيد أن الشيعة الموالين لإيران أعطوا معنىً فريداً لهذا التقليد اللبناني، وذلك بوضع إنسان خلف عجلة القيادة. شددت المعتقدات الفريدة لهذه الطائفة الإسلامية على الاستشهاد، ولم تجد إيران نقصاً في السائقين المستعدين لمقايضة حياتهم من أجل القضية والفوز بالمجد الأبدي. في الوقت الذي أدانت إسرائيل والولايات المتحدة هذه الأعمال باعتبارها أعمالاً إرهابية، لم تكن هذه الهجمات في الواقع إرهاباً. كان مؤسسو حزب الله يصنعون المجسّمات الشبيهة بالقنابل الذكية ويوجّهونها نحو خصومهم العسكريين غير المستعدين. قال لبنانيٌّ تربطه علاقة بالحزب: «لو كان باستطاعة حزب الله إسقاط قنابل موجّهة بنظام جي. بي. أس عن بعد ثلاثين ألف قدم لما احتاج إلى الاستشهاديين».

في البداية، ظلت الميليشيات الشيعية الموالية لإيران حركة متصدّعة. يتذكّر سيد علي قائلاً: «أراد الجميع أن يكون في موقع المسؤولية». دعمت إيران جماعات متعددة، بما فيها جماعة أمل الإسلامية بزعامة حسين الموسوي فضلاً عن غيرها من الجماعات المنشقة اللبنانية. وفي تقرير أعدته الاستخبارات الأميركية عام 1984 لوزير الدفاع كاسبر واينبرغر، تم ذكر عشرة ميليشيات لبنانية مختلفة تدعمها إيران، من بينها حزب الدعوة اللبناني، وهو نظير لأحزاب الدعوة في العراق ودول الخليج العربي التي ترعاها إيران. ينقسم حزب الدعوة إلى جناحين شبه مستقلّين: جبهة سياسية، يطلق عليها اسم اتحاد الطلبة المسلمين، وذراع عسكرية، تُسمى جند الله. كان لدى جماعة أمل الإسلامية مجموعة فرعية تُسمى «قوات الحسين الانتحارية» التي جندها الموسوي لتنفيذ عمليات استشهادية. قال الجميع بأن عددهم أَقلّ من ألف مقاتل، ولكن تقرير الاستخبارات الأميركية أفاد بأنهم يتلقون دعماً واسع النطاق في الأوساط الشيعية[301].

كان العملاق الحقيقي في المقاومة الشيعية النّامية هو رجلٌ يبلغ من العمر عشرين عاماً فقط اسمه عماد مغنية. ولد قرب مدينة صور في تموز/يوليو 1962، وهو الابن الأكبر بين أربعة أولاد، يصفه أصدقاؤه بأنه كان متألقاً ولديه إمكانيات أكاديمية. التحق بجامعة بيروت لعام واحد فقط قبل أن ينقطع عن الدراسة وينخرط بالقتال في الحرب الأهلية اللبنانية كجندي في وحدة النخبة التابعة لياسر عرفات، في القوة رقم 19. كان شاباً قوياً، يتميز بلحيته الداكنة وشخصيته الرزينة، ويمتلك موهبة زعيم معركة بصورة فطرية. كان فصيحاً وملتزماً التزاماً كاملاً بنضال الإسلام ضد إسرائيل. ويشيد سيّد علي: «في الواقع، لم يكن مغنية يتحدث عن شيء آخر». قال تشارلز آلن وهو مدير العمليات السابق في وكالة الاستخبارات المركزية: «كان عماد مغنية بارعاً في تنظيمه وعمله. وقد تمتّع قلائل من بين مساعديه بكفاءة مشابهة»[302].

كان للاجتياح الإسرائيلي أثره على مغنية أيضاً. في تموز/يوليو 1982، استقلّ سيارة أجرة وذهب إلى بعلبك حيث قابل ضابطاً من الحرس الثوري الإيراني وشخصاً عربياً يدعى الشيخ حسين[303]. أحب مغنية أرض المعركة، ورمى بكل طاقته الكبيرة في تنظيمه الخاص، حركة الجهاد الإسلامي. كان الإيرانيون مفتونين به. كما أن علاقته بـعرفات وبالعديد من القادة الشيعة جعلت منه رجلاً لا غنى عنه. فتح مغنية الباب أمام النفوذ الإيراني في لبنان بطرق لا يستطيع فعلها الغريب[304].

أصبح مغنية أكثر من حليف لإيران؛ بات شريكاً لها. قلّدته إيران رتبة ضابط في الحرس الثوري، وبكاه العديد من رفاقه الإيرانيين بصدق عند وفاته بانفجار سيارة مفخّخة في دمشق في العام 2008. يُعد مغنية شخصية أسطورية بوصفه القائد العسكري لحزب الله طيلة عقدين من الزمن. كان يتراءى لإسرائيل والولايات المتحدة أنه وراء كل عملية فدائية أو عمل إرهابي. قاد مغنية الكثيرين حتى عندما كان لا يزال يافعاً. عرفه قلّة من الناس؛ وأخفى هويته الحقيقية حتى عن ابنه الوحيد مصطفى. تنكّر مغنية بشخصية بائع أحجار كريمة عندما قابل أسامة حمدان رئيس عمليات حركة المقاومة الإسلامية حماس في لبنان[305].

حاولت إيران أن تحوّل هؤلاء المؤيدين المتباينين إلى قوة متماسكة. فشكلت المجلس اللبناني، وهو لجنة مكونة من خمسة أعضاء من كبار رجال الدين اللبنانيين والإيرانيين من أجل تنسيق الأنشطة الدينية والسياسية والعسكرية للمجموعات الشيعية الراديكالية الموالية لإيران. تركّزت جميع التدريبات العسكرية التي كان الحرس الثوري يقوم بها في بعلبك. في 27 حزيران/يونيو 1983، وُضعت مجموعتان رئيسيتان هما -أمل الإسلامية بزعامة الموسوي وحركة الجهاد الإسلامي بزعامة مغنية- تحت سيطرة الضباط الإيرانيين مباشرة. بحلول عام 1984، أبلغت الاستخبارات الأميركية عن اسمٍ جديد يجمع الميليشيات الموالية لإيران هو: حزب الله.

لم يغب دور إيران المتصاعد في لبنان عن اهتمام الولايات المتحدة. قام مدير وكالة الأمن القومي وليام أودوم، وهي أكبر وكالة أميركية للتنصت، بتحركات نشطة في الشرق الأوسط في

أوائل نيسان/ أبريل 1983، تضمنت التوقف في بيروت لإجراء محادثات مع رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية وقوات المارينز في المطار. قام رقيب المدفعية، المخوّل جمع الإشارات الصغيرة التي ترد من سَرِية استطلاع اللاسلكي التابعة للمارينز، بتزويد أودوم ببعض الاتصالات التي تم اعتراضها بين ثكنة الشيخ عبد الله والقنصلية الإيرانية في بيروت. تذكّر أودوم بعض فحوى هذه الرسائل قائلاً: «الوجود الإيراني يتصاعد». كان الإيرانيون يناضلون فعلاً لإيجاد ما يكفي من الناطقين بالعربية لتلبية متطلباتهم[306].

لم يشاطر أودوم إدارة ريغان تفاؤلها بشأن لبنان. عاد من بيروت منزعجاً بشدة. كان يرى أن الهجمات المتزايدة على قوات المارينز والنفوذ الإيراني المتنامي في أوساط الشيعة لا يبشران بالخير لأميركا. وكتب إلى رئيس أركان الجيش إدوارد ماير لدى عودته إلى واشنطن قائلاً: «يكفي أن الإرهابيين حاولوا الاعتداء على المارينز لنفهم أن الآتي أسوأ»[307].

بعد مرور بضعة أيام فقط على زيارة أودوم لبيروت، انحرفت سيارة مرسيدس خضراء عبر شوارع بيروت المزدحمة في 17 نيسان/أبريل 1983، وكانت على وشك أن تصطدم بشاحنة تفريغ وبأم وطفليها. زاد السائق من سرعته بشكلٍ فجائي، ثم انعطف بسيارته سالكاً طريقاً فرعياً، ليتجاوز من بعدها الحراس المرتبكين ويتوجّه مباشرةً نحو واجهة السفارة الأميركية المؤلفة من سبعة طوابق. اخترقت السيارة واجهة السفارة الأمامية فاصطدمت بعنف بباب الردهة وانفجرت[308]. حرف الانفجار العنيف واجهة المبنى بأكملها، فطار أحد عشر حارساً لبنانياً ورئيسهم إضافة إلى الرقيب الأول تيري غيلدين من القوات الخاصة في الجيش الأميركي، الذي صادف أنه كان منتظراً في الرواق الأمامي أن يحضر السفير ليذهبا إلى موعد[309]. وصل رجال المارينز من المطار من أجل توفير الأمن لعمال إنقاذ كانوا يحفرون وسط الأنقاض لانتشال جثث القتلى والجرحى. بلغت الحصيلة النهائية للقتلى ثلاثة وستين قتيلاً، من بينهم سبعة عشر أميركياً[310]. والأمر الخطير هو أن التفجير أدى إلى التخلّص ممن كانوا يقومون بعمليات التجسّس الأميركية داخل لبنان. إذ كان سبعة من القتلى من موظفي وكالة الاستخبارات المركزية، بمن فيهم رئيس المحطة ونائبه ورئيس عمليات الوكالة في الشرق الأوسط روبرت أميس الذي صادف أنه كان يزور السفارة، وكان مجتمعاً مع موظّفي السي. آي. إيه في غداء عملٍ سيىء التوقيت عندما انفجرت القنبلة. قلائل هم ضباط الاستخبارات الذين عرفوا عن الشرق الأوسط بقدر ما كان أميس يعرف. كان وليام كيسي والبيت الأبيض يقدّرانه. قال عميل متقاعد في وكالة الاستخبارات المركزية يعرف أميس عن كثب: «إذا كان ثمة شخص لا يمكن أبداً الاستغناء عنه فهو بوب».

راح رئيس وكالة الأمن القومي أودوم يتمعّن في الاتصالات المعترضة محاولاً معرفة الجُناة. أشارت شذرات من الاتصالات التي جرت بين وزارة الخارجية الإيرانية وسفاراتها في بيروت ودمشق إلى سعيٍ غامض إلى ضرب المصالح الأميركية في لبنان. وقد خلص محللو وكالة

الأمن القومي إلى أنها تشير إلى هجوم السفارة[311]، رغم أن الأدلة كانت عرضيّة للغاية. وافق أودوم قائلاً: «بدا الاستنتاج منطقياً».

بعثت وكالة الاستخبارات المركزية على الفور بمجموعة ضباط حالة إلى السفارة. وشملت المجموعة امرأةٌ ناطقةٌ بالعربية (من بين القليلات اللواتي كنّ يُجِدنها) انتقلت إلى بيروت في أول مهمة لها مع الوكالة. كان وليام باكلي رئيس المحطة الجديد ضابطاً نحيلاً ويبدو كئيباً وذي خبرة ميدانية محدودة، فقد أمضى الجزء الأكبر من حياته المهنية في المكتب. كان كيسي قد ضغط على باكلي المتحفظ ليتولى المهمة. كان مدير الوكالة يحب باكلي، ولم يكن عدد ضباط وكالة الاستخبارات المركزية الكبار من ذوي الخبرة في الشرق الأوسط مرتفعاً. أما ضباط المارينز، فكانت آراؤهم به متباينة. من جانبه كان الكولونيل جيراغتي يكن له التقدير، وتطورت علاقتهما بصورة جيدة، لكن الكثيرين من صغار الضباط وصفوه بالمتعجرف. كان لدى باكلي عيب واحد خطير بالنسبة لضابط استخبارات هو أنه لا يستطيع تذكر أسماء الناس، فاحتفظ في جيب قميصه بقائمةٍ تضمّ أسماء ضباط وكالة الاستخبارات المركزية الذي يعملون معه جميعهم وذلك إسعافاً لذاكرته.

في أوائل آب/أغسطس 1983، كان المارينز في حالة تأهب قصوى بعد اعتراضهم اتصالات لاسلكية وحصولهم على تأكيد من مصدر بشري شيعي بأن ميليشيا موالية لإيران[312] ستنفذ هجوماً وشيكاً. عندما اشتدّ القتال حول بلدة سوق الغرب، اعترض المارينز مراراً مناقشات تكتيكية باللغة الفارسية. وصل أحد المترجمين المتخصصين باللغة الفارسية إلى لبنان للمساعدة في فك شيفرة الذبذبات وترجمتها، وكان هذا أحد خمسة فقط متخصصين بالفارسية تضمّهم قوات البحرية الأميركية.

نقل روبرت ماكفرلين إلى البيت الأبيض في 9 أيلول/سبتمبر تورط إيران. وقال إن الهجمات على اللواء الثامن الذي يقوده ميشيل عون لم يكن عملاً لبنانياً، بل فعلاً شائناً اشتركت فيه قوات إيرانية وسورية معاً. لم تستطع الولايات المتحدة أن تقف موقف المتفرج عندما أرسلت هاتان الدولتان إلى لبنان قوات للتدخل ولمعارضة الحكومة اللبنانية الشرعية. لفت ماكفرلين النظر إلى المفارقة الساخرة في موقفه. إذ اعتبر الولايات المتحدة مذنبة بالجرم نفسه أيضاً، فهي جاءت من خارج لبنان مع قواتها العسكرية لتدعم فصيلاً واحداً في حرب أهلية.

قام الجيش السوري بتوفير غطاء حماية لعناصر متعددة اللغات معارضةٍ للحكومة التي تدعمها الكتائب، لكن ذلك لم يكن يمثّل فعلاً ما اعتبره ماكفرلين غزواً خارجياً. اشتبك الدروز والشيعة والفلسطينيون جميعهم مع قوات العماد عون في التلال المحيطة ببلدة سوق الغرب. كان الحرس الثوري يترصد من الخلف، ويقدم النصيحة لحلفائه. في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة تساعد فيه الجيش اللبناني عمليّاً، وجدت مشاة البحرية الأميركية، التي ترمز بوضوح للجيش الأميركي، نفسها هدفاً لجميع المعارضين لأمين الجميل والإسرائيليين.

بالنسبة لآية الله الخميني، كانت أميركا تواصل قيادة الهجوم ضد الثورة الإسلامية. رأى أنه لا يوجد أي مبرر يحمي قوات المارينز الأميركية من الهجمات الانتقامية في لبنان طالما أن أميركا تساعد العراق. كان الأمر متشابكاً، وكلّ معركة هي جزء من الصراع الكبير بين الجمهورية الإسلامية والولايات المتحدة: الخير مقابل الشر. بينما كان الدروز يقصفون قوات المارينز، اتجهت الميليشيا الإيرانية إلى سلاحها الدقيق.

في 1 أيلول/سبتمبر 1983، التقى ضابط من الحرس الثوري بحسين الموسوي في ثكنة الشيخ عبد الله. أراد الموسوي تفجير ما أطلق عليه اسم «أهداف خاصة». ظل الموسوي متردداً حول ما ينبغي تدميره بالضبط، لكنه كان يميل بتفكيره نحو مواقع الكتائب المسيحية في بيروت الشرقية. نقل الإيراني ذلك بإخلاص إلى السفير محتشمي في دمشق الذي نقله بدوره إلى طهران. وحالما احتدم القتال حول سوق الغرب، وضغط ماكفرلين وستينر على جيراغتي لتوجيه ضربات جوية، تقرب الموسوي من الإيرانيين من جديد. كان يريد هذه المرة المساعدة في الحصول على ثلاثين طنّاً من مادة التي إن تي ومتفجرات بلاستيكية.

استرعى ذلك اهتمام محتشمي، فطلب من الموسوي أن يأتي إلى دمشق ليشرح له ما ينوي القيام به بكل هذه المواد الفتاكة. في 22 أيلول/سبتمبر، توجه سيد، وهو قريب للموسوي برفقة أبي حيدان الموسوي، شقيق قائد «قوات الحسين الانتحارية»، إلى العاصمة السورية حيث قابلا السفير في مكتبه في السفارة الإيرانية. أوضح اللبنانيان للسفير أنه على الرغم من أن الإيرانيين لا يفكرون بهدف محدد، لكنهم يعتزمون القيام بهجوم مفاجىء ضد أعدائهم -الأميركيين أو الكتائب أو الجيش اللبناني.

استمع محتشمي باهتمام، وأجاب: «نعم، عليكم بالتأكيد تركيز عملياتكم إلى أقصى حد ممكن على القوات الأميركية أو الكتائب أو الجيش اللبناني». ثم اقترح السفير الإيراني قائلاً: «يجب القيام بعملية غير عاديّة ضد مشاة البحرية الأميركية».

أحب سيد الفكرة. لم تكن قد خطرت في باله، فتوجيه ضربة ضد المارينز سوف يقوض المخططات الأميركية والإسرائيلية بأكملها في لبنان. أوعز محتشمي إليه بأن ينسق أعماله مع حزب الله، وكان يقصد بذلك عماد مغنية.

سأل سيد بحماس: «لعلنا نزور إيران عندما ننتهي من هذه المهمة العظيمة. وربما نلتقي آية الله الخميني مباشرة؟»[313]

قال محتشمي: «ستكونون موضع ترحيب»، ونهض لمصافحة سيد متمنياً له حظاً سعيداً. ثم أضاف: «لكن الحكومة الإيرانية لا يمكنها دعوتكم رسمياً. من الأفضل أن نبتعد عن الأنظار».

بعد هذا اللقاء بيومين، اتصل السفير محتشمي بطهران، وأخبر وزير الخارجية الإيراني عن لقائه هذا. ناقش مسؤول رفيع اقتراح الموسوي، ومن المرجح أن آية الله الخميني أعطى الموافقة النهائية على الهجوم.

وصلت الموافقة إلى محتشمي على شنّ هجوم مذهل ضد مشاة البحرية الأميركية.

في يوم 18 تشرين الأول/أكتوبر، وصل أبو حيدان الموسوي وعشرون عضواً من «قوات الحسين الانتحارية» إلى بيروت قادمين من بعلبك. فشلت إيران في توفير ما يكفي من المتفجرات، لذلك التقى أبو حيدان موسوي مع جهة فلسطينية بغية الحصول على أكثر من أربعة آلاف رطل من المتفجرات. في اليوم التالي، وصلت ثلاث شاحنات أمام مكتب أمل الإسلامية في بيروت محملة بالطلبية. تجاوزت هذه الكمية المتفجرة ما يمكن تعبئته داخل سيارة مفخخة لبنانية بكثير، وبدت قوات الموسوي على استعداد للوفاء بوعدها بمشهد مذهل.

بعد بضعة أيام، أجرى محتشمي مكالمة هاتفية بالثكنة في بعلبك. تحدث مع ضابط من الحرس الثوري الذي نقل بدوره أمر السفير للمضي قدماً في الهجوم. كان يريد مهاجمة قوات حفظ السلام الفرنسية أيضاً بالإضافة إلى قوات المارينز. كانت فرنسا قد باعت للتو العراق طائرات هجومية متطورة من طراز سوبر إتندارد (Étendards Super)، حتى إنها نشرت فريقاً عسكرياً لتدريب الطيارين العراقيين وتقديم المشورة التكتيكية لهم. كانت الحكومة الإيرانية تعترض على الموقف الفرنسي، وعليه اعتبرت أن القوات الفرنسية في لبنان هدف مشروع. وافقت أمل الإسلامية على مهاجمة الفرنسيين، وأتت هذه الموافقةجزئياً بسبب قصف الطائرات الفرنسية الأخير لقوات إسلامية كان تردّ على هجمات تستهدفها بقذائف الهاون.

جهزت «قوات الحسين الانتحارية» شاحنتين على الأقل بآلاف الأرطال من المتفجرات وأسطوانات الغاز المضغوط لتعزيز القوة التدميرية للقنبلة. كان فتيل التفجير موصولاً بالقرب من مقود القيادة، كي يصل إليه السائق بسهولة، ويتمكن من إشعال الحمولة حتى لو كان جريحاً.

كان الرجل المرجح اختياره لتنفيذ الهجوم ضد المارينز هو عاصي زين الدين، وهو من معارف سيد علي المقرّبين. وكان والداه يعيشان على بعد مبنيين من منزل سيد علي، أي على مقربةٍ شديدة. كان زين الدين ميسور الحال خلافاً لسيد علي، فوالده يمتلك سلسلة من الشركات الصغيرة والشقق المؤجّرة. يتذكّر سيد صديقه زين الدين أيام المدرسة عندما كان مراهقاً، فقد كان يتمتع بروح الفكاهة والسخرية ويضحك بصوت مرتفع. ولا يزال سبب اختياره دون غيره غير واضح. يتذكّر سيد علي أيضاً أن زين الدين كان ورعاً ونقياً أكثر من أي شاب آخر انضم إلى حزب الله. وعندما بدأ التخطيط للعمليات الاستشهادية، قام مدربو زين الدين بفصله عن الجنود الآخرين[314].

تنصتت الاستخبارات الأميركية على المحادثات بين السفارة الإيرانية في دمشق والمكتب الرئيسي في طهران. في 27 أيلول/سبتمبر، أصدرت وكالة الأمن القومي خطاباً أوجزت فيها الهجوم الوشيك، وتضمّن كلمات السفير الإيراني التي تدينه، والتي طلب فيها «تنفيذ عمل فريد من نوعه ضد مشاة البحرية الأميركية». للأسف، لم ينتشر الخطاب سوى ضمن نطاقٍ استخباراتي محدود للغاية، ولم يكن الكولونيل جيراغتي وسلسلة قيادة المارينز من بين الذين ينبغي إعلامهم. في 25 تشرين الأول/ أكتوبر، سارع مدير الاستخبارات البحرية إلى مكتب رئيس العمليات البحرية

حاملاً خطاب وكالة الأمن القومي الصادر في أواخر أيلول/سبتمبر والمتضمّن موجزاً عن مخطط هجوم وشيك. للأسف، حدث ذلك بعد يومين من تنفيذ «قوات الحسين الانتحارية» مهمتها.[315]

بدأ صباح بيروت نموذجياً. أشرقت الشمس ساطعة وجميلة. وكان برنامج رجال المارينز المحيطين بالمطار في ذاك اليوم أكثر هدوءاً من المعتاد لأنه كان يوم الأحد. فقد بقيوا فترة أطول في أكياس نومهم بعد أن حصلوا على نصف ساعة إضافية من الراحة، كما أُلغي اجتماع الموظفين الصباحي المعتاد في مقر الكتيبة في الساعة السادسة. قبل يوم واحد، في 22 تشرين الأول/أكتوبر 1983، استضافت قوات المارينز فرقة موسيقية غربية تغنّي الكاونتري ونقلت البيتزا جواً من سفينة تابعة للبحرية قبالة الساحل اللبناني. احتلّ المارينز ثلاثة مبانٍ تقع بالقرب من الطريق الرئيسي ذي الحالات الأربع والمؤدي إلى نهاية مطار بيروت. عزفت الفرقة الموسيقية أمام مبنى كبير مكون من أربعة طوابق يضم مكاتب كتيبة المشاة. يرتفع المبنى عن الطابق الأرضي بواسطة أعمدة ضخمة، وفيه ردهة مفتوحة، وكان في الأصل مكتباً لإدارة الطيران اللبنانية. تم استبدال ألواح النوافذ الزجاجية الكبيرة التي تزين الطابق العلوي بألواح من البلاستيك والخشب الرقيق بعد أن تكسرت جراء إطلاق القذائف، وتم تعزيزها بآلاف من أكياس الرمل. ظل الهيكل المبني من الإسمنت والفولاذ صلباً، ويوفر قدراً من الحماية ضد طلقات الرصاص وقذائف الهاون. وقد وافق القائد الأعلى لقوات مشاة البحرية، الكولونيل تيموثي جيراغتي، على تخصيص هذا الطابق فقط للكتيبة التابعة له كي تتمركز فيه وحدتها الكبيرة الخاصة بالدعم الإداري. وهكذا فإن نحو 350 فرداً من مشاة البحرية كانوا ينامون في غرفهم المغبرة تحت سقف متهدم كبير، يحميهم من المطر وأشعة شمس البحر الأبيض المتوسط.

كانت رصاصات طائشة قد أصابت الجانب من المبنى الذي كانت الفرقة تعزف فيه في الليلة السابقة، كما سقطت بضعة صواريخ بالقرب منه. ارتفع مستوى التنبه والحذر لدى قوات المارينز، لكنها كانت ليلة هادئة بالنسبة لبلد تخضّه حرب أهلية. ذهب أحد أفراد مشاة البحرية بدون تهيّب لممارسة رياضة العدو في صباح ذلك اليوم، فتسبّب لنفسه بتوبيخٍ وجّهه له رقيب الحرس ستيفن راسل.

في حوالي الساعة الخامسة صباحاً من يوم 23 تشرين الأول/أكتوبر، دخلت شاحنة مرسيدس صفراء بلا أضواء، إلى موقف عام فسيح للسيارات، مفتوح من الناحية الجنوبية على مبنى مقر المارينز ومن الشرق على طريق عام يؤدي إلى نهاية مطار بيروت. فصل سياج من الأسلاك الشائكة الدائرية ارتفاعه ثلاثة أقدام جزءاً من موقف السيارات عن بناء مقر الكتيبة. دارت الشاحنة دورة واحدة ثم غادرت. لاحظ العريف إدي دي فرانكو الشاحنة من موقع حراسته، لكنه لم يعرها الكثير من الاهتمام لاسيما أن حركة الشاحنات شبه اعتيادية حول المطار، فلم يجد مبرّر ليقدّم تقريراً بما حدث إلى الرقيب راسل. بعد ساعة، لاحظ حارس آخر سيارةَ مرسيدس بيضاء يقودها سائق انحنى على مقعد الركاب والتقط صورة لمجمع المارينز.

في الساعة السادسة و22 دقيقة، سمع دي فرانكو صوت دوران محرك. نظر إلى موقف السيارات تماماً في اللحظة التي انحرفت فجأة شاحنة مرسيدس صفراء كانت منطلقة مسرعة، وارتطمت بسياج الأسلاك الشائكة، ثم توجّهت مباشرة وبسرعة نحو مقر الكتيبة على بعد سبعين

يارِدة. كان العقيد جيراغتي قد منع الحراس من حمل بنادق ملقمة لتجنب إطلاق الرصاص بشكلٍ غير مقصود. أدرك دي فرانكو ما كان سيحدث، فخلع بصعوبة عن كتفه بندقيته من نوع M-16 ولقم مخزنها. لم يكن هناك متسعٌ من الوقت. انطلقت الشاحنة الكبيرة بسرعة فائقة ومرت به؛ كان السائق قوقازياً ذا شارب كث، ويمسك بعجلة القيادة بإحكام، نظر إلى دي فرانكو بازدراء فيما ابتسامة عريضة ترتسم على وجهه. عبرت الشاحنة من خلال إحدى بوابات السور المفتوحة ومرّت عبر فراغٍ بعرض ثمانية أقدام يفصل بين أنبوبين كبيرين متسخين من أنابيب الصرف الصحي الموضوعة على الأرض[316].

كان الرقيب راسيل يدير ظهره في حجرته الصغيرة المبنية من أكياس الرمل عند مدخل مبنى مقر المارينز، متحدّثاً مع العدّاء العنيد، وأجهزة اللاسلكي المتعدّدة الموضوعة بجانب أذنه تصدر صفراتها. سمع صوت طقطقة أو فرقعة حالما مرّت الشاحنة مسرعة فوق الأسلاك الشائكة. وعندما تناهت الجلبة المتزايدة الصادرة عن محرك الديزل إلى مسامعه، التفت حوله فإذا به يرى واجهة شاحنة كبيرة تتجه مباشرة إليه[317].

ركض راسيل في الساحة المفتوحة صارخاً مرة تلو الأخرى: «استلقِ على الأرض!» ألقى نظرة عاجلة من فوق كتفه تماماً فرأى المرسيدس الصفراء تصطدم بكوخ الحراسة وتحطّمه، فيما الرمل والخشب يتناثران في الردهة. استقرت الشاحنة في منتصف الردهة، فتحطمت واجهتها الزجاجية. غدا كل شيء ساكناً لعدة ثوان طوال. نظر راسيل خلفه إلى الشاحنة، وهو يركض موعزاً لمشاة البحرية بالانخفاض إلى الأرض»، فرأى الضوء البرتقالي والأصفر يلمع في مقدمة السيارة لحظة انفجار ما يعادل عشرين ألف رطل من المتفجرات البالغة الشدّة تعزّزها أسطوانات الغاز القابلة للاشتعال[318]. اندلعت موجة هائلة من الحرارة وطار راسيل بفعل الصدمة خمسة عشر قدماً في الهواء، فاحترق لحمه وصار يدور حول نفسه بعنفٍ شديد.

انتقل الانفجار على الفور إلى أعلى مركز المبنى المفتوح، وأحدث في السقف شكلاً على هيئة حرف V مقلوب، كما انزاح المبنى بأكمله عن أساساته، فانهار هيكله وانطوى مثل الأكورديون، واستوت الطوابق الأربعة بالأرض، محدثةً شكلاً كسحابة الفطر الضخمة أمكن رؤيته من كافة أنحاء المدينة. حدد مكتب التحقيقات الفيدرالي في وقت لاحق نوع المتفجرات المستخدمة بعد العثور على بقايا منها على قطعة ثياب داخلية لما تبقى من جسد أحد جنود مشاة البحرية الذي صادف أنه كان يتمرن في صالة رياضية صغيرة قريبة من مكان توقف الشاحنة[319].

نجا عدد قليل من المارينز الذين حالفهم الحظ حيث كان بعضهم ينام على سطح المبنى، فنجحوا في البقاء على قيد الحياة عندما تشبثوا بالجزء العلوي من المبنى المنهار. وانفجر قائد الكتيبة، الكولونيل هوارد غيرلاتش، ونُسف من مكتبه، وانتهى به المطاف في بقعة بجانب كومة من الأنقاض كانت منذ لحظات مقر قيادته. غطى غبار الإسمنت المطحون الرمادي اللون كل شيء. وتناثرت قطع من اللحم البشري حول مجمع المارينز. كما طار جسد أحدهم وهو لا يزال في كيس

نومه بعدما قذف به الانفجار إلى شجرة. كاد أحد المارينز الذين تم إنقاذهم أن يتقيّأ عندما ركلت جزمته شيء إسفنجي[320]. تطلع إلى الأسفل فإذا به يرى يداً مقطوعة تتجه راحتها إلى الأعلى وفي إصبعها ما بدا كخاتم زواج. كانت أوراق الرسائل والكتيّبات التقنية والصور الإباحية تنهمر حول الأنقاض بينما بذل الناجون المذهولون وعمال إنقاذ لبنانيون جهداً كبيراً لسحب الجرحى من تحت الأنقاض.

كان جيراغتي في مكتبه في الطابق الثاني لمبنى يقع في بقعة مشجرة على بعد مسافة قصيرة. فجر الهجوم نوافذ المبنى الذي كان فيه جميعها فتطايرت الشظايا حول المكاتب. هرع إلى الطابق السفلي وتوجه إلى مقره الرئيسي. وعندما انزاح دخان الغبار والحطام عن المكان، رأى جيراغتي أن المبنى قد اختفى بأكمله. حصل على الفور على هاتف آمن، وطلب قائد الأسطول السادس، وأخبره بأن الخسائر سوف تكون ضخمة[321].

في الوقت ذاته، استهدف انفجار شاحنة ملغومة أخرى مقر القيادة العسكرية الفرنسية القريبة. كان المظليون الفرنسيون قد انتقلوا مؤخراً إلى مبنى مكون من تسعة طوابق ليكون مقرهم الرئيسي، على شاطئ البحر في بيروت الغربية، وكانوا بذلك يأملون توفير حماية أفضل. فتح الحراس الفرنسيون النار على الشاحنة وهي تقترب، وقد يكون السائق قد جُرح قبل أن يفجر شحنته القاتلة[322]. توفي في صباح يوم الأحد 241 من الجنود الأميركيين و58 من المظليين الفرنسيين. كانت حصيلة الخسائر في الأرواح في يوم واحد بالنسبة لمشاة البحرية الأميركية هي الأسوأ منذ معركة إيوجيما التي جرت عام 1945.

بعد 23 تشرين الأول/أكتوبر اختفى عاصي زين الدين تماماً ولم يعد يراه أحد على الإطلاق. رفضت عائلته الحديث عن ابنها ومكان وجوده أو تورطه. ولكن لا أحد من جيرانه المقربين يشّك في أنه هو الذي تسبب بالتفجيرات التي هزت بيروت صباح ذاك الأحد. بدأ والداه فجأة بالسفر إلى إيران بانتظام حيث عاملهم المسؤولون كضيوف مهمّين. وتضمنت الزيارة مقابلة مع آية الله الخميني.

الفصل الثامن

هاملت الأميركي

في الساعة الثانية من صباح يوم 23 تشرين الأول/أكتوبر عام 1983، رَنَّ الهاتف الآمن لمستشار الأمن القومي الجديد روبرت ماكفرلين. كان على الطرف الآخر ضابط من القوات المسلحة، وقد نقل إليه من غرفة عمليات البيت الأبيض خبر الهجوم على المارينز في بيروت. كان كلٌّ من جورج شولتز وروبرت ماكفرلين في أوغوستا بولاية جورجيا بصحبة الرئيس ريغان، الذي كان يقيم في كوخ أيزنهاور المطلّ على أرض النادي الريفي الفخم الذي يُعدّ موطن بطولة الغولف للمحترفين. لقد قصد ريغان هذا المكان في نهاية الأسبوع ليقضي عطلته، ملتمساً الراحة بعيداً عن واشنطن، إلا أن الأمور جرت عكس ذلك. ففي الليلة السابقة ظل الرئيس حتى ساعة متأخرة من الليل يناقش التدخل العسكري في دولة غرينادا الصغيرة الواقعة في منطقة الكاريبي. كما أنّ جولته في الغولف تعثّرت عند الحفرة السادسة عشرة، عندما احتجز رجل مضطرب عقلياً رهائن في النادي وطلب التحدث إلى الرئيس. اضطرّ ريغان إلى التحدث إلى الرجل، فقط كي يتخلص منه وينهي الموقف. لحسن الحظ، أُلقي القبض على الرجل وانتهت الدراما ولم يصب أحد بأذى.

ارتدى ماكفرلين ملابسه وذهب لمقابلة الرئيس في كوخ أيزنهاور. استقبله ريغان مرتدياً «برنس حمام» فوق منامته، ومنتعلاً خفّاً. كرّر ماكفرلين التفاصيل الشحيحة، ومفادها أن التقارير الأولية تؤكد مصرع سبعين فرداً على الأقل من مشاة البحرية وإصابة مئة آخرين، قائلاً للرئيس ولشولتز أن الحصيلة ستزداد بالتأكيد. بدا الرئيس مصدوماً ومن ثم غاضباً، وقال: «أولاد الساقطات. دعونا نجد طريقة لملاحقتهم»[323]. حزمت حاشية الرئيس الأمتعة وتوجّه الجميع على الفور إلى واشنطن.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي اجتمع ريغان بكبار مستشاريه في غرفة العمليات. قدّم كاسبر واينبرغر تقريراً سريعاً بالمستجدّات، جاء فيه: «اخترقت شاحنة المبنى على طريقة الكاميكاز. حصيلة الضحايا حتى هذه اللحظة 111 قتيلاً و115 جريحاً؛ هذه الحصيلة سترتفع

بكلّ تأكيد». تابع الوزير واينبرغر موضحاً أن شاحنة أخرى ضربت القوات الفرنسية التي مُنيت بخمسة وسبعين قتيلاً و عدد من الجرحى[324].

أضاف نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية جون ماكماهون، الذي كان ينوب عن وليام كيسي في الاجتماع، قائلاً: «قد يكون الإيرانيون وراء ذلك»، ثم أردف: «فقد فجّروا سفارتنا في نيسان/أبريل».

سأل الرئيس: «ألا يمكننا عمل شيء حيال إيران؟»

رد شولتز: «إننا بحاجة إلى جهود استخباراتية كبيرة لمعرفة من يقف وراء الهجوم».

بيد أن واينبرغر حذّر من أنّ عليهم أن يتأكدوا من الهدف الصحيح قبل البدء بالقصف، قائلاً: «سيجعلنا القصف نشعر جميعاً بتحسّن»، ومضيفاً: «لكنه لن يعاقب الأشخاص المسؤولين عن الهجوم»، ومن ثم اقترح مرّة أخرى سحب قوات مشاة البحرية إلى السفن بعيداً عن الشاطئ للحدّ من إمكانيّة التعرّض لأفرادها.

اعترض شولتز بشدّة واحتجّ قائلاً: «إن سحب المارينز الآن من شأنه أن يقوّض سياستنا بالكامل»، ثم أضاف: «سوف يكون الأمر كارثياً بالنسبة إلى هيبة أميركا». ومن ثم اقترح القيام بجهود دبلوماسية جديدة يقودها الرئيس لأجل لبنان.

في الساعة الرابعة بعد الظهر، اجتمع الرئيس ومستشاروه مرةً أخرى في غرفة العمليات في الطابق السفلي من البيت الأبيض. قدم مكماهون هذه المرة أدلّة دامغة ضدّ إيران، وقال إن شخصاً اتّصل بوكالة أنباء في بيروت مدّعياً أن جماعةً يقودها حسين الموسوي ومنشقة عن حركة أمل على صلة وثيقة بإيران هي التي نفذت الهجوم، ثم سرد بالتفصيل جدولاً زمنياً للعملية قدّمه لوكالة الاستخبارات المركزية مسؤول أمني لبناني تربطه علاقات وثيقة بالموسوي. كانت معلوماته مثيرة للإعجاب، فقد كانت تتضمن تفاصيل تحركات منفذي الهجوم بدءاً من بعلبك وصولاً إلى بيروت وتحضيراتهم له. كان العميل قد شاهد ثلاث شاحنات صغيرة محملة بالمتفجرات أمام مكتب الموسوي في ضاحية بيروت الجنوبية. واصل مكماهون وزوّد الرئيس بسلسلةٍ من الاتصالات التي تمّ اعتراضها بين إيران وسفارتها في دمشق توجّه إلى «تدمير أهداف أميركية»، جميعها تشير إلى ضلوع إيران المباشر مع الموسوي. أضاف مكماهون في ختام خلاصته أن مصادر استخبارات فرنسية ذكرت أن الإيرانيين أخلوا قنصليتهم في بيروت بعد التفجير مباشرةً تحسباً لهجوم انتقامي. كانت معلومات مكماهون أقرب ما يكون إلى الأدلة الدامغة، علماً أنه يصعب أن يجد المرء أدلة دامغة في عالم الاستخبارات الغامض.

أعلن شولتز بحزم، بعد العرض الذي قدّمه مكماهون، قائلاً: «إننا بحاجة إلى إظهار بأسنا، واتخاذ إجراءات ضد الذين ارتكبوا هذا العمل الوحشي، وإلى تقوية الحكومة اللبنانية».

حذّر واينبرغر مرةً أخرى من اتّخاذ إجراءات عسكرية لمجرد الانتقام، وقال معارضاً: «يجب أن تكون الإجراءات موجّهة مباشرةً ضد الذين ارتكبوا هذا الفعل».

بعد أن استمع ريغان إلى شجار الخصمين أمر هيئة الأركان المشتركة بالتخطيط للقيام بضربة جوية انتقامية، وأضاف الرئيس الذي من الواضح أن فداحة الكارثة قد هزّته: «ينبغي علينا إظهار أن القضية تستحق الموت من أجلها». أمر ريغان قائد البحرية، بول كزافييه كيلي، بالذهاب إلى بيروت للنظر في الخطوات الضرورية الأخرى الواجب اتّخاذها لحماية المارينز. وعندما نهض كيلي ليترك الطاولة ويغادر غرفة العمليات وضع ريغان ذراعه حول منكبي الجنرال العريضين وقال له بحرارة: «في أمان الله»[325].

ينبغي أن يكون الانتقام العسكري أمراً مفروغاً منه بعد مصرع 241 جندياً أميركياً، بيد أن انقسامات حادة ظهرت داخل الإدارة حول هذه المسألة منذ الاجتماع الأول في البيت الأبيض. أراد ماكفرلين تدخلاً عسكرياً مباشراً حتى قبل الهجوم على المارينز، وضغط مع نائبه اللواء البحري جون بويندكستر للقيام بعملٍ عسكريٍ. من جانبه، كان واضحاً أن ريغان يفضّل ردّ الفعل. في خطاب متلفز، يوم 27 تشرين الأول/ أكتوبر، نظر الرئيس إلى الكاميرا وقال للأمة: «لدينا أدلة قويّة مفادها أن الهجوم على المارينز نفّذه إرهابيّون استخدموا الأسلوب نفسه لتدمير سفارتنا في بيروت. إنّ الذين ارتكبوا هذه الفظاعات يجب أن يُقدّموا إلى العدالة، وسيكون لهم ذلك»[326]. في اليوم التالي، عبّر الرئيس عن رأيه بصراحة وكتب إلى الوزير واينبرغر والجيش يأمرهم «أن يتأكدوا من المواقع التي تستخدمها العناصر المسؤولة عن تفجير23 تشرين الأول/أكتوبر، ومهاجمة تلك المواقع بشكل حاسم بالتنسيق مع الفرنسيين إذا أمكن ذلك»[327].

لكن على الضفة الأخرى من نهر بوتوماك كانت وزارة الدفاع المكلّفة بتنفيذ أمر الرئيس أقلّ حماسةً لاستخدام القوة. كان كلٌّ من الوزير واينبرغر والجنرال جون فيسي قد عارضا نشر قوات المارينز، وأرادا خروجها حالاً من المستنقع نظراً لتدهور الوضع اللبناني ولأنه ما من حلّ دبلوماسي يلوح في الأفق. لقد شهد فيسي نصيبه من الحرب، فهو جندي نال وساماً وترقّى في الرتب العسكرية، ولا يميل إلى موقف ماكفرلين الذي يبدو أنه متحمس جداً لجرّ الولايات المتحدة إلى الحرب اللبنانية. ويتفق معه واينبرغر الذي قال في العام 1994: «من السهولة بمكان قتل الناس، وقد يجعل ذلك البعض يشعر بالراحة، ولكن لكي تحقق القوة العسكرية بعض الإنجازات يجب أن يكون لها هدف واضح. لسنا متأكدين على نحو دقيق من هوية مرتكبي هذا العمل الشنيع»[328].

يتذكّر بويندكستر قائلاً: «كان واينبرغر وفيسي عضوين في نادي «لن تكون هناك فيتنام ثانية إطلاقاً»، وقد عارضا أي عملية عسكرية في ذلك الوقت، وليس في لبنان فحسب. أراد كاسبر واينبرغر جيشاً قوياً ولكنه كان يرفض استخدامه». عارض كلٌّ من بويندكستر وماكفرلين العديد من الأعذار التي قدمها واينبرغر وفيسي اللذان لم يجدا دليلاً دامغاً؛ كانت ثكنة الشيخ عبد الله قريبة جداً من بعض الآثار الرومانية الشديدة الأهمية، وقد تتعرض لضربة عن طريق الخطأ، وإذا تمّ استخدام صواريخ كروز ولم تنفجر فستقع هذه الصواريخ في أيدي السوريين، فيُخترق نظام توجيهها السري للغاية. يتذكّر بويندكستر قائلاً: «كان هناك دائماً سبب يمنعنا من عمل شيء»[329].

في حين كان فيسي يعدّ خطة عسكريّة للانتقام دونما حماس، مضى أدميرال من داخل البحرية الأميركية قدماً بخطة تفجير أعدّها بنفسه من أجل لبنان. كان من وضع الخطوط العريضة لهذه الخطّة السرية وتفصيلاتها ضابط حرب غواصات، اللواء البحري الواسع الخيال جيمس ليونس، الملقّب بـ «آيس»[330]. يفتقر هذا الضابط الشجاع ذو الشعر الخفيف إلى اللباقة، ويعبّر عن رأيه في كثير من الأحيان بحدّة ولاسيما عندما يتعامل مع رؤساء يعتبرهم حمقى. كان ليونس يريد أن يضرب بعلبك بقوة، وقد سلّم وكالة الأمن القومي اعتراض مكالمة تربط إيران بالهجوم على المارينز بعد يومين فقط من التفجير، وقال في وقت لاحق: «إن كانت هناك وثيقة ذهبية من عيار 24 قيراط فهي هذه الوثيقة. «إنها ليست كالتفاهات التي يزوّدنا بها ابن عم زوجة محمد، سائق سيارة الأجرة، الرابعة»[331].

ذهب ليونس إلى لانغلي بعد أيام قليلة من الهجوم، وتناول الغداء مع نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية جون ماكماهون ورئيس محلّلي الاستخبارات روبرت غيتس. كان ليونس يتواصل في الخفاء مع كيسي وبويندكستر في مجلس الأمن القومي. كان كلٌّ من الرجلين يشاطر ليونس مقاربته التي تقوم على التحدّي والعدوانية في التعامل مع الجيش السوفيتي، ولم يكن أدميرالات البحرية بالطبع جزءاً من جمهور «لن تكون هناك فيتنام ثانية إطلاقاً».

بعد ظهر ذلك اليوم، نقلت وكالة الاستخبارات المركزية إلى ليونس معلومات استخباراتية تربط بجلاء أتباعاً إيرانيين من ثكنة الشيخ عبد الله بالذين هاجموا مشاة البحرية. قال أحد الرجال لليونس: «لا يمكنك إعطاء أي شيء أزودك به للأركان المشتركة، لأنني لا أريد أن أقرأ عنه في صحيفة بوست (Post)». كان ذلك كافياً لطمأنة ليونس، فهو لا يريد العمل من خلال فيسي أو الأركان المشتركة.

وضع ليونس من مكتبه في وزارة الدفاع الأميركية خطة لسلاح البحرية فقط، مفادها أن تقوم ثماني طائرات بمهاجمة ثكنة الشيخ عبد الله وسحقها. كان يخامره الشك في أن يكون السوفيت قد فكّوا شيفرة الاتصالات البحرية (التي كانت بحوزتهم بفضل شبكة تجسّس ووكر)، لذا فقد عمد إلى إرسال خطّته الّتي أعدّها بنفسه عبر البريد إلى القوة البحرية قبالة سواحل لبنان. بقيامه بهذا العمل كان ليونس قد تجاوز التّراتبيّة المعهودة في أركان القيادة، أي تجاوز الجنرال بيرني رودجرز، وهو قائد عسكري في القيادة الأوروبية، ونائبه ريتشارد لاوسون، وهو قائد في سلاح الجو، المشرفان على العمليات في لبنان.

أمر اللواء البحري جيري أو. توتل حاملة الطائرات الراسية في المياه الزرقاء العميقة قبالة السواحل اللبنانية وعدداً كبيراً من المرافقين أن يستعدّوا للردّ على الموسوي وإيران. اشتهر توتل عن حقّ في أوساط مرؤوسيه بأنه قائد عدواني وواسع الخيال وسليط اللسان، وقد اكتسب لقب «ق.ض.أ.ق - قصير ضئيل أبله قبيح»[332]؛ لكنه كان ذكياً وأدخل أجهزة الكمبيوتر في نظام قيادة سلاح البحرية، وأنجز أوّل موقع عالمي لتحديد موقع أي سفينة في الوقت الحقيقي وكشفها، وعُرف النظام باسم جوتس JOTS، ويرمز إلى نظامٍ تكتيكيّ عملياتي مفصلي (joint operational

tactical system)، ويطلق عليه الجميع في الخدمة «نظام جيري أو. توتل» ببساطة. صقل توتل خطة ليونس بأن أضاف إليها بضع طائرات إضافية من باب الاحتياط. ظلّ رئيسه لاوسون في شتوتغارت غافلاً عن هذا العمل الفردي على الرغم من كون طياريه في حالة تأهب قصوى للاشتراك في الهجوم، وادّعاء ليونس بأنه أرسل فريقاً صغيراً للتحدث إليه.

أمر رئيس العمليات البحرية الأدميرال جيم واتكينز ليونس، حين رأى أن خطته قد صارت بين يدي توتل، أن يذهب إلى الجنرال فيسي ليطلعه على الأمر. كان فيسي غاضباً بسبب تحايل ليونس على روجرز، وأمره بتسليم كل المعلومات الواردة إليه من وكالة الاستخبارات المركزية إلى الأركان المشتركة ووكالة استخبارات الدفاع.

أجاب ليونس: «لا أستطيع عمل ذلك بسبب العقد الذي وقّعته مع وكالة الاستخبارات المركزية». لم يلقَ هذا الرد قبولاً حسناً لدى فيسي ووانبرغر في وقت لاحق.

في يوم الأحد الموافق 6 تشرين الثاني/نوفمبر، ظهر رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال فيسي ضيفاً في البرنامج السياسي المتلفز (Meet the Press). عندما ضُغط عليه بالأسئلة بشأن من كان وراء الهجوم، وحول موقفه من الانتقام، تردّد فيسي بالإجابة رغم علمه أن تقارير الاستخبارات تشير إلى إيران وحلفائها اللبنانيين، وقال لريتشارد هالوران مراسل صحيفة نيويورك تايمز: «في الحقيقة لا أعرف من فعل ذلك. ليتني أعرف». وعندما سُئل عن الانتقام، رفض فيسي الإجابة بصورة قاطعة عن أي خطط للقيام بذلك، واكتفى بالقول: «عندما يُقتل جنود أميركيّون، مهما بلغ عددهم، سيكون رد فعلي الغريزي هو الثأر»[333].

في اليوم التالي، اجتمع ريغان مجدداً مع فيسي وضباط كبار آخرين للتباحث في الردّ العسكري. كان على الرئيس أن يسافر في اليوم التالي إلى آسيا في رحلة تستغرق أسبوعاً، ما استلزم أن يتّخذ قراراً بشأن توقيت الضربة وما إذا كانت ستحدث قبل عودته أو بعدها. أحاط فيسي الرئيس علماً بأن القيادة الأوروبية المشتركة المسؤولة عن العمليات في لبنان، قد وضعت لائحة بستّة عشر هدفاً كلها معادية بشكل واضح للقوات المتعددة الجنسيات. وقد تضمنت اللائحة اللاعبين كلّهم باستثناء المسيحيين، وكان اللاعبون هم: الإيرانيون والسوريون، والدروز والفلسطينيون والشيعة. شملت الأهداف بعلبك وقواعد أخرى تابعة لإيران، وصفها واينبرغر بأنها «معسكرات إرهابية سورية» وأشار إليها على أوراق ملاحظاته ذات قياس (3×5). بدا الرئيس مقتنعاً بالأدلة التي تشير إلى الذين هاجموا المارينز والمظليين الفرنسيين، لكنه وافق على الاجتماع مجدداً في اليوم التالي قبل صعوده الطائرة.

تضمّنت فترة بعد الظهر سلسلةً من الاتصالات الآمنة بين جميع المسؤولين: اتصل ماكفرلين بواينبرغر معرباً عن تأييده لفكرة القصف فوراً، في حين اتصل فيسي بواينبرغر وعبّر عن شكوكه بشأن المعلومات الاستخباراتية التي تربط بعلبك بالجناة؛ اتصل واينبرغر بمكماهون في وكالة الاستخبارات المركزية وأخبره بشأن مخاوف رئيس هيئة الأركان المشتركة فيسي. لم يكن لدى وكالة الاستخبارات أي تحفظات حول من كان وراء الهجوم.

في 8 تشرين الثاني/نوفمبر، اجتمع ريغان بمستشاريه مرةً أخرى قبل المغادرة إلى آسيا. اقترح كلٌّ من فيسي وواينبرغر اللذان اجتمعا في الغرفة الحمراء في البيت الأبيض التأني حتّى عودة الرئيس، ما سيسمح لهما بجمع المزيد من المعلومات عن بعلبك. وافق ريغان على تولّي القضية بعد عودته من اليابان وكوريا الجنوبية. لكنه بدا في حيرة من تحفظات واينبرغر. بعد أن ألقى ريغان كلمته الوداعية في الغرفة الشرقية توجّه إلى الوزير قائلاً: «كاب، اعتقدت أنك كنت تخطط لقصف المخيم؟» لا يوجد أي شيء مدون يشير إلى ردّ واينبرغر.

بعد سفر الرئيس تواصلت الاجتماعات في واشنطن من أجل توجيه ضربة انتقامية. قدّم فيسي أحدث المعلومات حول الأهداف المقترحة في سهل البقاع ووافق على التعاون مع الجيش الفرنسي بشأن أي أعمال انتقامية. بيد أن واينبرغر أصرّ على رفضه المطلق لأي انتقام، كما كتب في مذكراته بعد أحد اجتماعات البيت الأبيض، قائلاً: «نحتاج إلى معلومات استخباراتية أفضل عن مواقع العدو».

استمرّت هذه النغمة حتى بعد عودة ريغان في 14 تشرين الثاني/نوفمبر. من جانبه أخبر فيسي الرئيس أن الجيش مستعدّ لكن المخاطرة تكمن في فقدان طائرات جرّاء تعرّضها للقصف من قبل المدفعيات السورية المضادة للطائرات، وقد يؤدي الرد إلى توسّع رقعة القتال ليشمل قوات المارينز في المطار، التي من المرجح أن تتحمل العبء الأكبر من الانتقام السوري. وتذرّع واينبرغر مرّةً أخرى بأنهم يحتاجون إلى معلومات استخباراتية أفضل قبل الهجوم، فتمّ تعليق أي ضربة مرةً ثانية. كتب ريغان في مذكراته: «كانت لدينا بعض المعلومات الإضافية، ولكنها ظلت غير كافيه لتوجيه الضربة».

في اليوم التالي التقى ريغان مجدداً مستشاريه العسكريين. حاول مدير وكالة الاستخبارات المركزية الفظّ وليام كيسي هذه المرة تحدي قلق واينبرغر المفرط بأن قدّم دليلاً قوياً حول دور ثكنة الشيخ عبد الله كقاعدة للتخطيط والهجوم على المارينز، وربط الفاعلين أيضاً بقاعدة أخرى قريبة في سهل البقاع، في بلدة النبي شيت، تبعد ثلاثة أميال عن الحدود السورية. ردّ واينبرغر عليه بأن أضاف معلومات جديدة مفادها: يمكن أن يكون هناك بعض الجنود من الجيش اللبناني لا يزالون في ثكنة الشيخ عبد الله، ينبغي التأكد من مغادرتهم قبل مباشرة القصف.

في الوقت الذي كان ريغان ميّالاً إلى توجيه ضربة عسكريّة، انتاب كلاً من فيسي وواينبرغر خوف مفاجئ مما سيقوله الرئيس وقتئذٍ. أخبر الرئيس لفيف المجتمعين بأنه يريد التأكد من أنهم استطاعوا ربط الهدف مباشرةً بالمسؤولين عن التفجير، وأن أي خطأ من شأنه أن يؤدي إلى تصاعد الأزمة اللبنانية. انتهى الاجتماع مرّةً أخرى دون اتخاذ أي قرار. وافق كيسي على النظر مجدداً في مصادر وكالة الاستخبارات المركزية وإطلاع المجتمعين على النتيجة في اليوم التالي.

في ذلك المساء أباد الإسرائيليون أحد المواقع الجدالية عندما قصفت طائراتهم القاعدة الشيعية في النبي شيت. لم تكن لدى بيغن أي تحفظات بشأن صلة هذه القاعدة بالذين هاجموا الأميركيين. في وقت سابق، وقبل أقلّ من أسبوعين، انفجرت شاحنة شفروليه خضراء جانب البوابة الرئيسية لمقر قيادة إسرائيلي في صور، كان يقودها شاب من الطائفة الشيعية يبلغ من العمر

عشرين عاماً، وصفه جندي إسرائيلي كان يقوم بواجب الحراسة بالقرب من المدخل بأنه «بدا شاباً لطيفاً». خلافاً لمشاة البحرية الأميركيين كان الحرّاس الإسرائيليون يحملون أسلحة، فأطلقوا النار على السائق. فجّر الشاب كميّة من المتفجرات زنتها 800 - 1000 رطل، مما أدّى إلى انهيار المبنى ومقتل تسعة وثلاثين جندياً. للمرّة الثالثة في أقلّ من أسبوعين، كانت حركة أمل الإسلامية، وجناحها العسكري «قوات الحسين الانتحارية»، تستخدم سلاحها الدقيق لتوجيه ضربات مميتة إلى أعدائها. لم تناقش إسرائيل إلى ما لا نهاية عقلانية الرد مثل واشنطن، فقد انقضت أربع طائرات حربية إسرائيلية على قاعدة النبي شيت وقصفت ثلاثة مبان في معسكر التدريب ومستودعاً للذخيرة قريباً منها. توفي حوالي ثلاثين مقاتلاً شيعياً بالإضافة إلى سقوط أكثر من خمسين جريحاً، من بينهم خمسة مستشارين إيرانيين[334]. كان يُفترض أن يكون حسين الموسوي نفسه ضمن هذه الإحصائية، بيد أنه كان قد غادر المخيم قبل يومين فقط إلى بيروت لرؤية والديه.

كانت الدوريات الروتينية لحاملات الطائرات في شرق البحر المتوسط. تعني أنه قد أصبح بحوزة توتل رمزين من رموز قوة الجيش الأميركي مع أكثر من 150 طائرة للثأر لمشاة البحرية (المارينز). وسّع توتل خطّته عبر استخدام اثنتي عشرة طائرة هجومية، لقصف ثكنة الشيخ عبد الله وقاعدتين أخريين، مدعومةً بأجهزة تشويش إلكترونية ومقاتلات اعتراضية. في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر سافر إليه جواً نظيره الفرنسيّ، قائد حاملة الطائرات كليمنصو (Clemenceau) الصغيرة، حاملاً رسالةً تسمح له بالقيام بضربة مشتركة مع الأميركيين. وافق توتل، ووضع الضابطان مخطّطاً لتقسيم الأهداف في محيط بعلبك بحيث تم تسليم الطيارين الأميركيين الأكثر كفاءة الجزء الأكبر من المهام. أراد الفرنسيون تنفيذ الهجوم في غضون ثماني وأربعين ساعة، في 17 تشرين الثاني/نوفمبر. تمنّى توتل لو تنتقم الولايات المتحدة بالطريقة عينها التي استخدمها الإسرائيليون، لكنّه توخى الحذر وأوعز للأدميرال الفرنسي أنه لم يحصل بعد على أي أمر بالهجوم، وبأن يديه مقيّدتان إلى أن يحرّرهما البنتاغون وأيدي طياريه المحترفين.

في 16 تشرين الثاني/نوفمبر، اجتمع ريغان مع مستشاريه مجدداً في المكتب البيضوي. وبعد أن ناقشوا ودرسوا بدقّة المعلومات الاستخبارية حول الهجوم الجويّ الإسرائيلي، بدّد كيسي مخاوف واينبرغر حول ثكنة الشيخ عبد الله. كانت وكالة الاستخبارات المركزية قد زادت عدد موظفيها في سفارتها في بيروت إلى اثنين وعشرين فرداً منذ تفجير مقرّ مشاة البحرية. بات الآن لديهم مصدر داخل المجمّع وأكّد وجود موقع عسكري إيراني حصري لا يحتوي على مدنيين، فأوصى كيسي بضربه، وظلّ واينبرغر غير مقتنع.

ما قرّره الرئيس ريغان ذلك اليوم ظل محلّ جدلٍ مديد. غادر ماكفرلين المكتب البيضوي وهو على قناعة بأن الرئيس قد أذن بالهجوم بالتنسيق مع الفرنسيين، وندم في وقت لاحق لأنه لم يحصل على أمرٍ مكتوبٍ بشنّ الهجوم، ومع ذلك لم يكن لديه أي شّك في نوايا الرئيس المنسجمة مع توصيات كيسي وماكفرلين. ولكن واينبرغر يذكر أن الاجتماع انتهى بصورة مختلفة؛ فهو لم يتلقَّ أي توجيه من هذا القبيل من ريغان. وما كتبه في مذكراته عن ذلك الاجتماع يؤكّد ما يتذكّره إذ قال:

«انتهى الاجتماع، توجّب علينا الحصول على مزيد من المعلومات الاستخباراتية»[335]. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي ينفضّ اجتماعٌ مع الرئيس ويكون المجتمعون غير واثقين مما قرره ريغان، فقد كان الرئيس يكره المواجهات الشخصية وكانت المشاعر تزداد حدّةً مع كل تأخير في الضربات الجوية.

ما كان معروفاً هو أن فيسي اجتمع مع واينبرغر في وقت لاحق من ذلك اليوم وقال له: «إنهم على وشك حسم الأهداف اللبنانية»، وهذا يعني أن الجيش الأميركي على استعداد لتوجيه ضربة. كما تلقى وزير الدفاع مكالمة من نظيره الفرنسي عبّر فيها الأخير عن حماسة باريس للقيام بهجومٍ مشتركٍ مع الأميركيين. ولم يكلّم وزير الدفاع الرئيس مطلقاً بعد اجتماع مجلس الأمن القومي ليفهم ما إذا كان ريغان قد أمر فعلياً بالهجوم لكن واينبرغر أراد عكس الأمر[336]. على الرغم من استعداد الجيش الأميركي المسبق إلا أن الأدميرال توتل لم يتلقَّ أي أمر من البنتاغون بالتنفيذ.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، الموافق 17 تشرين الثاني/نوفمبر، اتصل ماكفرلين بالمركز الوطني للقيادة العسكرية للاستفسار عن مجريات الهجوم الجوي الذي افترض أنه نُفّذ مع بزوغ الفجر في لبنان. قال المسؤول العسكري على الطرف الآخر: «أمر الوزير بإيقاف الهجوم».

غضب ماكفرلين، واتصل بواينبرغر وسأله: «لماذا لم ينفذوا الهجوم؟» وفقاً لماكفرلين، أجاب وزير الدفاع: «لا أظن أن الوقت مناسب لأي ضربة». بعد وصول الرئيس ريغان إلى مكتبه البيضوي، ذهب ماكفرلين إليه وأخبره أن الوزير واينبرغر لم يأمر بالهجوم. يتذكّر ماكفرلين أن ريغان غضب بصورة واضحة وضرب قبضة يديه بعنف على مكتبه الضخم المصنوع من خشب السنديان.

أضاف ماكفرلين مشدداً: «لا بدّ أن تفعلوا شيئاً سيدي الرئيس. لا يمكن لمسؤول وزاري أن يتجاهل أوامركم!».

عندما كان واينبرغر متوجهاً إلى البنتاغون في ذلك الصباح اتصل به مستشاره العسكري في سيارته، اللواء كولن باول، وأخبره أن وزير الدفاع الفرنسي شارل هرنو يريد التحدث إليه على الفور بشأن الغارة الجوية في لبنان. عندما وصل إلى مكتبه تشاور واينبرغر مع الجنرال فيسي الذي أخبره أن الفرنسيين ينوون القيام بالضربة في غضون ساعة، ولكن الخطة الأصلية تدعو إلى ضربة أميركية فرنسية مشتركة، فالفرنسيون، من دون الطائرات الأميركية، لا يمكنهم ضرب سوى هدفين في بعلبك.

اتصل واينبرغر بعدئذٍ بهرنو في باريس. قال الوزير الفرنسي إن قواته جاهزة لتنفيذ الضربة، وأضاف: «يمكننا تأخيرها مدة خمس وستين دقيقة إذا أراد الأميركيون الانضمام إلينا». وفقاً لملاحظات دوّنها واينبرغر حول المحادثة أجاب الوزير: «لم يُصدر الرئيس قراراً بعد، فهو لا يزال ينظر في الأمر»، وقال إنه لا يملك أي أوامر من الرئيس بإشراك الأميركيين في العملية،

وأضاف: «لسوء الحظ، الوقت متأخر جداً بالنسبة إلينا لمشاركتكم هذه العملية»، متمنياً حظاً طيباً للفرنسيين[337].

اتصل واينبرغر بماكفرلين وأخبره بشأن المحادثة التي أجراها مع هرنو والهجوم الفرنسي الوشيك. أمل ماكفرلين بإنقاذ عملية الهجوم المشترك، فأرسل على الفور رسالة إلى الفرنسيين مفادها أن الولايات المتحدة لا تزال «قادرة على الاشتراك في الهجوم، لكنها لا تستطيع القيام بذلك في صباح ذلك اليوم»، لأن الوقت غير كافٍ.

لكن فرنسا لم تؤخر هجومها الجوي، فأقلعت أربع عشرة طائرة مقاتلة من طراز سوبر إتندارد (Étendard) من على متن حاملة الطائرات كليمنصو دون أي دعم أميركي. ومع حلول شمس الأصيل انقضّت الطائرات على ثكنة الشيخ عبد الله من الجهة الخلفية. كان غرضها استهداف مبنى مقر زعيم حركة أمل الإسلامية حسين الموسوي، فأسقطت بضع قنابل، وأطلقت بعض الصواريخ، فسقط معظمها في مدينة بعلبك أو ضربت سفوح الجبال دون أن تؤدي إلى إصابات. فشل الهجوم الفرنسي فشلاً ذريعاً، فشنّت الصحافة الباريسية هجوماً على الرئيس فرانسوا ميتران بسبب الردّ العسكري الضعيف وغير الدقيق. كما استشاطت الحكومة الفرنسية غضباً في قرارة نفسها بسبب رفض حلفائها المفترضين الردّ على الهجوم على القوات المتعددة الجنسيات[338].

تذكّر جون بويندكستر قائلاً: «لم يغفر لنا الفرنسيون عدم دعمنا لهم في الهجوم»، فقد اعتقدوا أنّ الولايات المتحدّة قد خانتهم جرّاء انسحابها من الهجوم المشترك، ونُظر إلى رفض واينبرغر الاشتراك في الهجوم بمثابة عملٍ خائن تجاه حليف. وقد انتقم الفرنسيون بعد مرور ثلاث سنوات. ففي نيسان/ أبريل 1986 نقلت معلومات استخباراتية تورط ليبيا بزعامة معمر القذافي في تفجير ملهى ليلي في برلين أسفر عن مقتل اثنين من الجنود الأميركيين. جاء دور باريس وقتئذٍ لإحباط غارة جوية أميركية، فقد رفض الفرنسيون السماح للطائرات الحربية الأميركية بالإقلاع من إنكلترا والتحليق فوق مجالهم الجوي، ما أجبر الطائرات الأميركية على الطيران سبع عشرة ساعة ذهاباً وإياباً في جميع أنحاء أوروبا. أعرب الرأي العام الأميركي حينها عن غضبه إزاء تصرّف فرنسا، ولم يفهم أحد في الحكومة، باستثناء قلّة قليلة، الأسباب التي كانت وراء عدم التعاون الفرنسي.

في النهاية، لم يفعل الرئيس ريغان شيئاً. أرسل واينبرغر مذكّرة إلى القائد الأعلى للقوات المسلحة، الرئيس ريغان، مفادها أنه ليس من مبرّر لقيام الولايات المتحدة بهجمتها وذلك على ضوء الضربات الجوية الفرنسية والإسرائيلية على بعلبك. عارضه ماكفرلين بشدّة، ولكن ريغان وقف إلى جانب واينبرغر. وانطلاقاً من الإحساس بالواجب، كتب ماكفرلين إلى واينبرغر مشيراً إلى قرار الرئيس الصادر في 22 تشرين الثاني/نوفمبر قائلاً: «ينبغي علينا وقف الخطط الحالية والاستعدادات لتنفيذ هجمات وقائية رداً على مأساة 23 تشرين الأول/أكتوبر». على الرغم من تصريحاته العلنية المتكررة التي تعهّد فيها بمعاقبة مرتكبي الهجوم، قرر ريغان بهدوء ألّا يفعل شيئاً رداً على الهجوم الذي أسفر عن مقتل عدد من الجنود في يوم واحد أكبر من أي عددٍ نتج في أي يوم آخر منذ الحرب العالمية الثانية.

أمر ريغان بغارة جوية واحدة باهظة الثمن لا علاقة لها بقصف الثكنة وكان فشلها ذريعاً. أطلقت سوريا صاروخاً على طائرة استطلاع أميركية كانت تحلّق فوق مواقعها العسكرية في شرق لبنان. كان فيسي هذه المرة متأكداً من أنه لا وجود لخطة خاصة بالبحرية وحدها، ومن أن القيادة الأوروبية هي التي سوف تشرف على العملية العسكرية. حدّدت القيادة في شتوتغارت لتوتل ثلاثة عشر هدفاً منفصلاً، الأمر الذي كان يتطلب ما يقرب من أربعين طائرة تنطلق من على متن كلا الحاملتين لتنفيذ الانتقام. عزم توتل على تنفيذ الضربة عندما تصل الطائرات فوق الموقع في عزّ الظهيرة، حيث تكون الشمس في وجه المدافع السورية، وهكذا ستسمح الرؤية بتحديد الهدف بسهولةٍ والتحقق منه. أيقظ أحد المساعدين توتل في الساعة الخامسة صباحاً، وأبلغه بوصول رسالة تعطيه تعليمات بضرب السوريين في الساعة السابعة والنصف صباحاً، أي بعد ساعتين ونصف الساعة فقط.

قال لقائد أسطوله: «هذا غير ممكن، فتهيئة الذخيرة في الطائرات وحدها تستغرق أربع ساعات. أحتاج إلى تأخير التوقيت ساعتين إضافيّتين على الأقلّ».

عاد طلب توتل إلى الجنرال لاوسون في القيادة الأوروبية، الذي طلب بدوره مرّتين من هيئة الأركان المشتركة تأخير توقيت العملية. لكن الطلب رُفض، ولم يُعرف بوضوح سبب الرفض، ولكن يبدو أن فيسي قدّم ملاحظات إلى ملحقيات الدفاع في سفارات بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، بشأن توقيت الضربة، في تمام الساعة السابعة والنصف صباحاً، وبالتالي حُسِم أمر توقيت العملية بالنسبة إلى ضابط العمليات في هيئة الأركان المشتركة، وإن لم يتعمّد فيسي ذلك.

حلّق الطيّارون بطائراتهم عالياً بسرعة. انطلقت ثماني وعشرون طائرة فقط من أصل ثمانٍ وثلاثين وفق المخطط، من بينها طائرة واحدة فقط محمّلة بالقنابل بشكلٍ كاملٍ. أسقطت المدفعية السورية طائرتين. وتم إطلاق النار على إحداهما عندما كانت تهبط من علوّ ألفي قدم، وكانت طائرة بمقعدين من طراز A-6، ويقودها مارك لانج، البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً. قال ضابط السلاح المرافق للانج الملازم أول روبرت غودمان: «أتذكر أن الطائرة كانت تهوي، وبدلاً من أن أرى السماء كنت أرى الأرض». ألقى كلٌّ من الطيارين بنفسه قبل أن تصل الطائرة إلى الأرض بقليل، لكن لانج أخفق في فتح مظلّته، فتوفي متأثراً بجراحه بعد وقتٍ قصير من إلقاء القبض عليه من قبل القوّات السورية. نجا غودمان لكنه أُصيب بثلاثة كسور في أضلاعه، فنُقل إلى دمشق ووُضع في زنزانة في طابق سفليّ. أمضى وقته يشاهد أفلام جون واين القديمة والكوميديا التلفزيونية[339] «Gimme a Break!». سافر القسّ الذي تحوّل إلى مفاوض جيسي جاكسون إلى دمشق وأمّن الإفراج عن الطيار، ما كان محرجاً للإدارة الأميركية، وأُقيم بمناسبة ذلك حفلٌ محرج في «حديقة الزهور» (Rose Garden)، حضره ريغان للترحيب بغودمان، ولشكر المرشح الرئاسي الديمقراطي جيسي جاكسون.

ازداد التوتر بين واينبرغر وماكفرلين، فكتب الرجلان مذكرتين إلى الرئيس كلٌّ منهما نقيض الأخرى. كان مستشار الأمن القومي مستاءً بمرارة من رفض واينبرغر الردّ على الهجوم الذي استهدف المارينز، وظل يكره الاعتراف بفشل سياسة الولايات المتحدة تجاه لبنان التي رعاها،

فكتب إلى ريغان يحفزه على مواصلة سياسته في بيروت، وأخبره بشأن تنامي قوة الجيش اللبناني قائلاً: «هناك تقدم، وثمة مؤشرات إلى مزيد من التقدم في المستقبل القريب»، مضيفاً: «هذا يعني أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن ترضخ لإرهاب ترعاه دولة»[340].

أما واينبرغر فقد جادل بصورة معاكسة، حيث كتب في مذكرته عن العيوب التي تخلّلت مهمة الوجود الأميركي المنوطة بمشاة البحرية والتي أدّت إلى كارثة كان من المستحيل في رأيه أن تبقى قوات حفظ السلام ساكنة في غمرة حرب أهلية. على ضوء حجم الهجوم فإن المزيد من المخابئ والخنادق لن يمنع «الاستنزاف الكبير والمستمرّ لقواتنا»، كتب واينبرغر لريغان. لقد تدهور الوضع السياسي في لبنان إلى درجة جعلت واينبرغر وفيسي يوصيان مرةً أخرى بسحب مشاة البحرية على وجه السرعة[341].

في أوائل عام 1984 انهارت الواجهة المتعددة الطوائف للحكومة والجيش اللبنانيين. فقد أصدر السيد فضل الله فتوى تدعو الشيعة إلى ترك الجيش بعد الاقتتال بين الميليشيات الموالية لإيران والجيش اللبناني، فانشقّ بين عشيةٍ وضحاها لواء لبناني بأكمله. وفي غضون أيام تشتت الجيش على أساس طائفي. بالتالي فشل المسعى الأميركي الهادف إلى إعادة بناء لبنان بطريقة ترضي واشنطن. بسبب اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية سعت إدارة ريغان إلى التقليل من خسائرها، فانسحبت آخر قوّات المارينز من المطار إلى سفنها قبالة السواحل اللبنانية في 26 شباط/ فبراير من العام 1984.

نظر أحد أفراد مشاة البحرية برتبة ملازم إلى المدينة في الأسفل من على متن المروحية، والأوساخ تكسوه كونه عاش أشهراً في الوحل في مخبئه، وأخذ يفكّر في الأشخاص الذين عرفهم ورآهم قتلى ومشوّهين بين أنقاض مقرّ كتيبته. ثم فكّر بينه وبين نفسه: «من أجل كل هذه التضحيات، آمل أن نكون قد أنجزنا شيئاً». في النهاية، لقي 269 فرداً من مشاة البحرية والبحارة والجنود حتفهم؛ وبقي لبنان على حاله.

على الرغم من مغادرة مشاة البحرية، استمرّت المشكلات داخل الإدارة، وقد بلغ العداء أشده خلال اجتماع إفطار في صباح يوم 5 نيسان/أبريل الباكر بحضور ماكفرلين وشولتز ونويل كوتش، وهو موظف مدني بارز في وزارة الدفاع. أعدّ كوتش بياناً مفاده أن الولايات المتحدة استخدمت مصطلح «إرهاب» على نحو انتقائي للغاية، قائلاً: «عندما يتورط أصدقاؤنا في هذا السلوك فإنه يكون دائماً من غير اللائق دبلوماسياً الإشارة إليه على أنه إرهاب مدعوم من دولة»، مضيفاً أن المشكلة ليست إيران بل تكمن في أن الولايات المتحدة تدعم فصيلاً واحداً في الحرب، وقال: «إذا رددنا على إيران بقوات عسكرية علنية فإننا بذلك نوفّر لإيران عذراً لمعاملتنا بالمثل».

حدقّ شولتز، الغاضب بوضوح، بعينيه الحولاوين إلى كوتش مباشرةً، وقال: «إنني أختلف معك تماماً. لا يمكننا أن نسمح لما حدث في بيروت أن يمرّ دون عقاب». واتهم كوتش بأنه أصبح خبيراً في الإحصاء. وأضاف: «الحقيقة البغيضة هي أن التفجيرات في لبنان قد غيّرت الشرق

الأوسط بأن خلقت ردود أفعال عامّة أجبرت المارينز على الانسحاب من لبنان». إنّ افتقارنا إلى الإرادة سوف يشجّع إيران وإرهابيين آخرين.

انتقم الإسرائيليون بعض الشيء للولايات المتحدة ولمقتل المارينز. ففي العام 1984 أرسلوا إلى سفير إيران في سوريا كتاباً يتحدّث عن الأماكن الشيعية المقدّسة. عندما فتح علي أكبر محتشمي الطرد البريدي انفجر باتراً عدّة أصابع وجزءاً من إحدى يديه[342].

ما إن نكصت الولايات المتحدة على أعقابها حتى تحولت إيران وحلفاؤها اللبنانيون إلى الهجوم، فتوالت سلسلة من التفجيرات الانتحاريّة بسيارات مفخخة ضدّ الغرب وفاق نجاحها توقعات منفذيها. كانت إسرائيل تترنّح، وغادرت القوات الأميركية والأوروبية لبنان. في أيلول/سبتمبر 1984، ضربت إيران وحلفاؤها اللبنانيون مرّةً أخرى مبنىً تابعاً للسفارة الأميركية في الضواحي المسيحية في بيروت الشرقية. كان هذا المبنى المؤلف من ستة طوابق قد أنجز مؤخراً، وهو محمي بجدارٍ منخفض يطوّق المبنى وبحواجز ملتفة منصوبة على طول الطريق الرئيسي المؤدّي إلى المدخل. اتّخذ مشاة البحرية الأميركية إجراءات أمنيّة في محيطه، ولكن بضغط من وزارة الدفاع الأميركية للحدّ من الانتشار العسكري الأميركي في لبنان سُلّمت مهمة الحراسة للبنانيين متعاقدين، في ما عدا العدد الصغير من أفراد مشاة البحرية التابعين للسفارة الذين أوكلوا مهمة حراسة المبنى.

عاين المقاتلون الشيعة المتمركزون في التلال القريبة مبنى السفارة، وبعد حصولهم على موافقة طهران، التي نقلها إليهم مرّةً أخرى سفيرُها في دمشق، بنوا بالقرب من ثكنة الشيخ عبد الله نموذجاً مصغراً باستخدام البراميل لوضع تصوّر عن الشوارع المؤدية إلى المبنى الملحق بالسفارة. تدرّب المقاتل المكلّف بتفجير المبنى مراراً وتكراراً على كيفية بلوغه، في كل مرّة كان يزيد سرعته عبر الحواجز المتعرّجة. وفي 20 أيلول/سبتمبر، سلك المهاجم الطريق الحقيقي، وعند اقترابه من المبنى زاد من سرعته. فتح حارسان النار فانحرف المهاجم دخولاً وخروجاً عبر الحواجز المصمّمة لإيقافه وفجّر قنبلته في أقصى الجدار الذي لا يبعد إلا عشرين قدماً عن الممر الشمالي للمبنى الملحق بالسفارة. قُتل على الفور جنديّان أميركيان كانا يعملان في مكتبيهما حالما تحطّم جزء من المبنى. كما أدّى الانفجار إلى إصابة السفير الأميركي بجروح طفيفة[343]. للمرة الثانية خلال بضع سنوات ضعضعت الميليشيات المدعومة من إيران البعثة الدبلوماسية الأميركية في لبنان[344].

بعد أن أفاق على خبر الهجوم طار ريغان لحضور تجمعات سياسية في ولايتي آيوا وميشيغان، وعندما سأله أحد الطلاب عن هذا الهجوم الأخير في لبنان وجّه ريغان لومه على نحو ماكر إلى سلفه وإلى «شبه الخراب في قدرات استخباراتنا» أثناء رئاسة كارتر. لحسن حظ ريغان، لم يسأل أحد عن مسؤولية الرئيس في ما يتعلق بالسياسة الخارجية الكارثية الخاصّة بلبنان[345].

بعد يومين، اجتمع ريغان بموظفيه في غرفة العمليات. أحضر ماكفرلين وبويندكستر الصور التي التقطها قمر تجسس صناعي فوق بعلبك. كشفت الصورة مضماراً منعزلاً فيه براميل مصفوفة في نمط متميز وآثار عجلات شاحنة تدلّ على أن السائق كان يزيد من سرعته في كل

دورة يقوم بها. قارن محلّل شديد الملاحظة تلك الصورة بطريقة الاقتراب من المبنى الملحق بالسفارة؛ فكانتا الصورتان متطابقتين تماماً. ركّزت الاستخبارات مرّةً أخرى على المقيمين في بعلبك في ما يتعلق بالهجوم على الولايات المتحدة[346].

كانت المناقشات قد تجاوزت الآن الخطوط المألوفة. كان واينبرغر وفيسي يتوخيان الحذر، وقالا إن أفراد أسر المهاجمين الأبرياء هناك. وفي الوقت نفسه كان ماكفرلين وشولتز يضغطان للقيام بعملٍ عسكريّ. وقد وافقهما كيسي قائلاً إن معلوماته تؤكد عدم وجود نساء أو أطفال في ثكنة الشيخ عبد الله، ولكنه غير متأكد من عدم وجود الرهائن الثلاث الأميركيين الذين احتجزهم لبنانيون موالون لإيران في تلك الثكنة. قال الرئيس إنه لا يعترض على الردّ العسكري شرط أن يحول فعلاً دون وقوع هجمات في المستقبل، ولكنه كان قلقاً من أن يُنظر إلى الهجوم على أنه انتقام، الأمر الذي يحطّ من مكانة الولايات المتحدة بطريقة أو بأخرى. اعترض ماكفرلين قائلاً إن السبيل الوحيد لمنع حدوث هجمات مستقبلية هو معاقبة المسؤولين عنها.

أخطأ الرئيس ريغان مرةً أخرى في اتخاذه جانب الحيطة، فبعد أن قال لشولتز أن يبعث برسالة شديدة اللهجة إلى سوريا بسبب دعمها التكتيكي للإرهابيين، قضى بقية يومه في صياغة خطاب يلقيه في الأمم المتحدة، وفي التخطيط لاجتماع مع وزير خارجية الاتحاد السوفيتي[347].

أصبح وزير الخارجية شولتز على نحو متزايد الناطق باسم الأقلية الممتعضة الداعية إلى الردّ على الهجمات المباشرة ضدّ الولايات المتحدة. ووافق ماكفرلين في أنّ الانتقام من شأنه أن يكون دافعاً لإيران وسوريا لإعادة التفكير قبل تكرار أعمالهما الإرهابية. في 25 تشرين الأول/ أكتوبر ألقى شولتز خطاباً علنياً في نيويورك حذّر فيه قائلاً: «قد لا نملك أبداً هذا النوع من الأدلة التي تخوّلنا المثول أمام المحكمة القانونية الأميركية، ولكن لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا أن نصبح هاملت الأمم، قلقين إلى ما لا نهاية حول تنفيذ الردّ وكيفيته». أشاد شولتز، وهو يتحدث أمام جمهور غالبيته من اليهود، بالطريقة الإسرائيلية «في اتخاذ تدابير عاجلة وناجحة ضدّ الإرهابيين». وذكرت صحيفة نيويورك تايمز أيضاً أن «السيد شولتز وحده تقريباً بين كبار المسؤولين يشنّ بمفرده فعلياً حملة منذ الربيع الماضي من أجل اعتماد سياسة القوة تجاه الإرهابيين»[348].

في النهاية، أصبح ريغان هاملت الأميركي. استمرّ الجدل حول الردّ على أي هجوم إرهابي أسبوعاً بعد أسبوع في البيت الأبيض إلى أن تلاشت في نهاية المطاف الهجمات من ذاكرة الناس. بينما كان ريغان ينعم بفوزه الانتخابي الكاسح في تشرين الثاني/نوفمبر، كان تردّده وسياسته الخاطئة في لبنان يعادلان عمل لاعب كرة قدم يُقصي حارس مرماه، فأهالت إيران مباشرةً لكمةً على ذقن الجيبر (the Gipper)[349]. لا شيء من هذا كان قدراً محتوماً. لقد فتحت السياسة الإسرائيلية قصيرة النظر والحرب الأميركية الباردة الساذجة الباب لإيران في لبنان، وأنتج الهوس الإسرائيلي قصير النظر الهادف إلى تدمير المقاومة الفلسطينية عدواً أكثر خطورة، وأدّى تركيز اهتمام الحكومة الأميركية على وقف النفوذ السوفيتي في الشرق الأوسط إلى تدخل مضلل في النزاع اللبناني، الأمر الذي بالكاد فهمته واشنطن. في هذه العملية، شجّعت نجاحات حزب الله إيران على

تقدير أهمية استخدام هذا السلاح البديل المروّع والبالغ الدقة، أي الشاحنة المفخّخة، كأداة ناجحة لقهر قوة عظمى.

برزت في غضون ذلك أزمة جديدة في لبنان استنزفت إدارة ريغان تقريباً. ففي 4 تموز/يوليو من عام 1982، وبينما كان الملحق العسكري الإيراني العقيد أحمد متوسليان، الضابط في الحرس الثوري، واثنان آخران من الدبلوماسيين الإيرانيين عائدين إلى بيروت، أوقفهم جنود الكتائب المسيحية عند نقطة تفتيش في البلدة الساحلية البربارة التي تبعد ثلاثين ميلاً عن العاصمة من جهة الشمال. أنزلت الميليشيا الرجال الثلاثة من سيارتهم؛ وكان عناصر الكتائب بذلك آخر من رأى هؤلاء الرجال الثلاثة الذين أُعدِموا جميعاً بعد وقت قصير من اختطافهم. أغضب اختطاف الدبلوماسيين الإيرانيين، لاسيما قائدهم البارز في الحرس الثوري، طهران[350]. رداً على ذلك أمرت إيران بخطف رهائن على أمل المقايضة بهم. في 19 تموز/يوليو 1982 اختطف مسلحون ملثّمون نائب رئيس الجامعة الأميركية في بيروت ديفيد دودج عندما كان يتمشى كعادته بعد الظهر سيراً على قدميه. وهو ابن حفيد مؤسس الجامعة الأميركية، ولد في بيروت ويقيم في لبنان منذ فترة طويلة، كما أنه قضى فيه خدمته العسكريّة في المنطقة إبان الحرب العالمية الثانية. قُيّد دودج واقتيد إلى دمشق، ومن هناك أخذته طائرة إيرانية إلى سجن قرب طهران. اعترضت الاستخبارات الأميركية الاتصالات الإيرانية حول نقل دودج إلى إيران، ولم تفلح الاحتجاجات الدولية على اختطافه والتواطؤ الإيراني في ترحيله على إطلاق سراحه إلا بعد سنة تماماً من اختطافه. كان خطف دودج خطأً فادحاً من قِبل الحرس الثوري، ذلك أن ترحيله إلى إيران ورّط الحكومة الإيرانية وفضح عملياتها في لبنان. اتّخذ الحرس الثوري قراراً مدروساً وهو أن يوفر الوسائل والتدريب ويترك أمر احتجاز الرهائن للبنانيين. كان على الحكومة الإيرانية أن تبقى بعيدة عن الأضواء وألّا تكون مرتبطة مباشرة بعمليات الاختطاف[351].

كان احتجاز الرهائن تقليداً عريقاً في بلاد الشام تورطت فيه الأطراف كلّها. وأصبح اختطاف الغربيين، في الثمانينيات، هوايةً لأتباع إيران. إن اعتقال أعضاء من حزب الدعوة في الكويت واحتجاز مئات الشيعة في السجون الإسرائيلية أطلق موجةً من احتجاز الرهائن لمبادلتهم بالمعتقلين. في العام 1984 خُطف اثنان من الأميركيين ومواطن فرنسي من الشارع. كان من بينهم الأستاذ في الجامعة الأميركية ومدير مكتب قناة التلفزة الأميركية CNN جيريمي ليفين. انتزع جنون احتجاز الرهائن على مدى السنوات القليلة التالية ما يقرب من مئة أجنبيّ من الشوارع اللبنانية، غالبيتهم أميركيون (خمسة وعشرون أميركياً في مجملهم) وأوروبيون.

لكن الغنيمة الكبرى التي غنمتها إيران كانت في 16 آذار/مارس 1984. كان وليام كيسي قد أرسل وليام باكلي شخصياً إلى بيروت ليشغل منصب مدير مكتب وكالة الاستخبارات المركزية لإعادة بناء عمليات الوكالة في أعقاب تفجير السفارة في نيسان/أبريل 1983. لم يصغِ باكلي إلى الذين نصحوه بتغيير روتينه اليومي حرصاً على سلامته، لذا، ما إن غادر منزله في وقته المعتاد حتّى انقضّ عليه فريقٌ بقيادة عماد مغنية ووضعوه في شاحنة رينو قديمة. تعقّب أحد مشاة البحرية،

كان يعمل في محطة الإشارة بالسفارة، خاطفي باكلي عندما خدّروه ونقلوه خارج بيروت في تابوت. وجد الخاطفون في جيب باكلي ورقةً تتضمّن أسماء جميع ضباط وكالة الاستخبارات المركزية العاملين في لبنان، وقد أدّى فضح جميع عناصر الاستخبارات الأميركية إلى تجميد عملياتها في لبنان.

لم يُعرف إلى أين أخذ مغنية باكلي. اعتقد البعض في الاستخبارات الأميركية في ذلك الحين أنه قد يكون نُقل جواً إلى إيران للتحقيق معه. كتب مخبر سرّي يدعى بوب باير من وكالة الاستخبارات المركزية أن باكلي والعديد من الرهائن الآخرين قد نُقلوا إلى مبنى في ثكنة الشيخ عبد الله، تميّزه يافطة خشبية كُتب عليها «مساكن الضباط المتزوجين». عُذِّب باكلي بوحشية من قبل خاطفيه خلافاً لغيره من الرهائن، وأُجبر على كتابة مخطوط طويل حول أنشطته التجسسية. ولشدة استياء الإيرانيين منه تركه خاطفوه اللبنانيّون يموت بالالتهاب الرئوي في حزيران/يونيو أو تموز/يوليو 1985. عندما بلغ نبأ موته مسمع القائد الكبير في الحرس الثوري علي صالح شمخاني استشاط وصرخ في وجه مرؤوسيه في اجتماع عقد في طهران بأن وفاة رهينة قيّمة كهذه عمل غبي وبلا جدوى، وأمر، فيما يبدو، بإرسال طبيب إلى لبنان للعناية بصحة رهائن مرضى آخرين[352].

لم تكن عمليات الخطف منظّمة جداً، فما إن بدأت حتى شاعت موضة الخطف في البلاد، فكان أي شخص يعرف أميركياً، يجمع بعض أصدقائه ويختطفه. لعب عماد مغنية بعد وفاة باكلي دوراً رئيسياً في محاولة وضع الرهائن كلّهم في عهدة قيادة مركزية واحدة. كان أحد محتجزي الرهائن يدعى فاروق ويمتلك عدة وكالات للسيارات. أثناء سفره جنوباً إلى صيدا ليثخن تاجراً ضرباً ويستردّ ما هو مدين به له من المال، اعترض مغنية سيارته وتنحّى به جانباً وأمره بتسليمه رهينتين كان قد اختطفهما، فانزعج فاروق كثيراً.

لعب مغنية أيضاً دوراً رئيساً في عملية صارخة نفذها حزب الله وهي اختطاف طائرة بوينغ 727 تابعة لخطوط «تي دبليو أي» (TWA) عندما كانت في طريقها من أثينا إلى روما، وذلك بهدف الإفراج عن أعضاء من حزب الدعوة في الكويت. وتصاعدت حدة التوتر في بيروت في خلال أسبوعين في شهر حزيران/يونيو من عام 1985. ضرب الخاطفان محمد علي حمادي وحسن عز الدين بوحشية روبرت ستيثم، الغوّاص في قوات البحرية الأميركية، الذي صادف وجوده على متن طائرة وكان يسافر ببطاقة هوية عسكرية، ثم أطلقوا النار عليه وألقوا بجثته على مدرج مطار بيروت.

لم يكن سيد علي يعلم مسبقاً بعمليّات الاختطاف ولكنه عندما سمع باختطاف طائرة TWA في بيروت انضمّ إلى أعضاء آخرين من حزب الله لحراسة الطائرة والركاب في حال حاولت الولايات المتحدة إنقاذهم. تدخل زعيم حركة أمل نبيه بري وسيطر على ركاب الطائرة وأفراد طاقمها مطالباً بمبادلتهم بأسرى لبنانيين محتجزين في إسرائيل، فأصبح بعضهم أيضاً بمثابة ورقة مساومة[353]. كان رئيس البرلمان الإيراني هاشمي رفسنجاني عائداً من ليبيا فتوقف في دمشق للقاء الرئيس حافظ الأسد. انتقد رفسنجاني عملية الاستيلاء على الطائرة. وفي اجتماع ضمّ أيضاً السفير

الإيراني في دمشق محتشمي عُقدت صفقة للإفراج عن الرهائن المتبقين في طائرة TWA مقابل إطلاق سراح سجناء محتجزين في إسرائيل. بحلول نهاية حزيران/يونيو أطلقت إسرائيل سراح 766 سجيناً لبنانيّاً، وعاد جميع الرهائن الأجانب البالغ عددهم 150 على متن الطائرة إلى ديارهم باستثناء الغوّاص الأميركي روبرت ستيثم.

في كانون الثاني/يناير من العام 1985، طلب كيسي من تشارلز آلن إدارة مكتب الأمن القومي لمكافحة الإرهاب. كان تشارلز آلن طويل القامة ونحيل الجسم وذا شخصية عملية مهذبة، ويصف نفسه بأنه مدمن على العمل، وكان يشرف على برنامج حساس في وزارة الدفاع الأميركية. بينما كان في لبنان يشهد عن كثب تنامي قوة حزب الله، أدهشه كثيراً تدفق كمية هائلة من الأسلحة إلى مقاتلي حزب الله من طهران عبر مطار دمشق. كانت تصل طائرة من طراز Il-76s روسية الصنع إلى العاصمة السورية وفق جدول أسبوعي، حيث يتم تفريغ حمولتها ونقلها بالشاحنات إلى سهل البقاع. قال آلن: «لقد كان تنظيماً مختلفاً جداً عن أي تنظيم إرهابي واجهته الولايات المتحدة».

كان مصير الرهائن الغربيين يثقل على كاهل ريغان. لاحظ آلن قائلاً: «كان ريغان رجلاً من طراز غير عادي»، مضيفاً: «كانت محنة الرهائن وعائلاتهم تؤرقه وجدانياً، فأصبح مهووساً بالإفراج عن الرهائن في لبنان، إلى درجة أن قلقه أفسد فرصة إنقاذهم»[354].

ركّز آلن على اختراق حزب الله والحصول على مزيدٍ من المعلومات لدعم مهمة الإنقاذ العسكرية. كانت بيروت الغربية منطقة محرّمة عملياً على وكالة الاستخبارات المركزية، وعلى الرغم من محاولة الوكالة الحصول على بعض مصادر المعلومات فيها، إلا أنها لم تكن في الواقع قادرة على اختراق حزب الله، فأنشأت بدلاً من ذلك مصادر غير مباشرة. وقع ريغان بعد اجتماع له في البيت الأبيض مرسوماً رئاسياً «لإنشاء فريق لمكافحة الإرهاب اللبناني»، تديره هيئة استخبارات تابعة للجيش. أيّد الفكرة روبرت أوكلي ثم منسق وزارة الخارجية لشؤون مكافحة الإرهاب ورئيس مديرية العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية كلير جورج باعتبارها وسيلة لمواجهة المسلّحين الشيعة الذين هاجموا قوات المارينز والسفارة الأميركية. قال أوكلي في وقت لاحق: «أردنا أن نكون على يقين من أن الفريق المخصّص للعمل في لبنان مدربّ ومنضبط جيداً؛ لأننا، بطبيعة الحال، لا نريد 'مدفعاً طليقاً' آخر يجوب شوارع بيروت». ترأس العملية فرع الأنشطة الخاصّة شبه العسكرية التابع للوكالة، لكنه وجد الفريق غير كفء، ولم يجنّد إطلاقاً أي عميل مفيد لوكالة الاستخبارات المركزية[355].

في العام 1986، طلب كيسي ونائبه روبرت غيتس من آلن ترؤس وحدة عمل تابعة للوكالة لتحديد مكان الرهائن، وهذا ما فعله في الأشهر الأربعة عشر التالية، حيث أرسل ضباطاً وعملاءً ووسائل جمع معلومات أخرى عبر الخط الأخضر في بيروت الغربية في محاولة منه للعثور على الرهائن. كما عمل مع كارل ستينر وقوات الدلتا، ووضعوا شبكة دعم داخل لبنان وقبرص للشروع في مهمة إنقاذ. لكن الجيش أراد أن تبقى عيون رجاله على الهدف، وألّا يثقوا

بالأحكام التكتيكية لضباط وكالة الاستخبارات المركزية ولا بأي عميل لبنانيّ من عملائها. ومع ذلك، كان احتمال وضع ضابط من الجيش سراً قرب ثكنة الشيخ عبد الله أو في بيروت الغربية معدوماً تقريباً، الأمر الذي حدّ بشدة من إمكانية القيام بأي محاولة لإنقاذ الرهائن. جمع رجال ستينر مرات عدّة في قبرص معلومات استخباراتية عن مكان وجود أحد الرهائن، ولكن تلك المعلومات لم تبدُ جازمة، كما لم يحصل الفريق المحبط المكوّن من القوات الخاصة وقوات الصاعقة البحرية على فرصة لإظهار براعته وشفاء بعضٍ من غليله.

حاولت وكالة الاستخبارات المركزيّة أو الموساد الإسرائيلي في مناطق مختلفة الرد بالمثل. كان أحد أهدافهما الرئيسية هو عماد مغنية. اشتبهت وكالة الاستخبارات المركزية بوجود مغنية في باريس لسبب من الأسباب فاقترح كيسي خطفه من الشارع دون إبلاغ الفرنسيين. علم روبرت أوكلي من زميل له في مكتب التحقيقات الفدرالي بنيّة وكالة الاستخبارات المركزية المتعلّقة بخطف مغنية، فذهب لرؤية شولتز على الفور في مكتبه الكائن في الطابق السابع كي يعرب عن اعتراضه. قال أوكلي للوزير: كيف يمكن للولايات المتحدّة انتقاد الآخرين لقيامهم بالخطف، ثم تمارس السلوك نفسه؟ إن القيام بهذا العمل من جانب واحد سوف يفسد تعاوننا مع الفرنسيين في ما يتعلق بمكافحة الإرهاب أو غيرها من القضايا الحساسة[356].

حالما انتهى أوكلي من مرافعته اتصل بود ماكفرلين بشولتز وقال له: «لقد وافق الرئيس على توصية مدير الاستخبارات المركزية كيسي بخطف مغنية في باريس». بدأت عندئذٍ معركة حامية الوطيس استمرّت ثلاثة أيام متتالية في غرفة عمليات البيت الأبيض مع القضاء ومكتب التحقيقات الفيدرالي وأوكلي المعترض على الخطف، لكن ماكفرلين ووكالة الاستخبارات المركزية كانا موافقين على العملية. انتهى الجدال عندما تبيّن في النهاية أن التقرير زائف والمعلومات غير صحيحة.

بعد أسبوعين، شوهد مغنية مرة أخرى في باريس. أبلغت الولايات المتحدة فرنسا بهذا الأمر، فأرسل كيسي رئيس شعبة وكالة الاستخبارات المركزية الأوروبية دوان «ديوي» كلاريدج للتنسيق مع باريس للقبض على مغنية. داهمت الشرطة الفرنسية غرفة في فندق اعتقدت وكالة الاستخبارات أن مغنية يقيم فيه، ولكنها بدلاً من أن تجد ما بُلّغت عنه من إرهابي لبناني يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، وجدت سائحاً إسبانياً في الخمسين من عمره. ومع ذلك، أعطى ضابط المخابرات الفرنسية لكلاريدج صورة مغنية ليتم إيقافه بالمطار أثناء عودته إلى بيروت[357].

وضع مدير وكالة الاستخبارات المركزية كيسي السيد فضل الله نصب عينيه. تختلف التفسيرات حول الأسباب التي دفعت كيسي إلى إزاحة اللبنانيين. قام أعضاءٌ من الكتائب المسيحية، الذين درّبتهم الولايات المتحدة وأعدّتهم، بركن سيارة معبأة بكاملها بالمتفجرات قرب منزل السيد فضل الله والمسجد الذي يخطب فيه، فانفجرت السيارة في 5 آذار/مارس 1985 أثناء أداء صلاة يوم الجمعة. قُتل في الانفجار ثمانون شخصاً وأُصيب أكثر من مائتين بجروح، لكن الهجوم أخطأ هدفه، فلم يصب فضل الله[358].

بعد محاولة اغتيال السيد فضل الله الفاشلة عاد الإيرانيون يعاملونه مجدداً بإجلال في محاولة للتقرّب منه على أمل رأب صدع الخلافات بين الطرفين. ذكر مستشار مقرّب من فضل الله يدعى هاني عبد الله مازحاً: «كلّ من يُغضب الأميركيين إلى درجة أن يحاولوا اغتياله يصبح مَرضيّاً عنه من قِبَل طهران».

الفصل التاسع

المهجع النائم[359]

في صباح يوم الأحد الموافق في 13 أيار/مايو 1984، كانت ناقلة النفط الكويتية أم قصبة تتجه جنوباً خارج الخليج العربي. كانت تحمل شحنة نفط مكرّر للمملكة المتحدة، وتتحرك بتثاقل في الماء. نقلت طائرة استطلاع إيرانية موقع الناقلة إلى قاعدة جويّة بالقرب من بوشهر. بعد ساعة، حلّقت طائرة إيرانية من طراز F-4E، مموّهة بتدرّجات البنّي الصحراوي الفاتح والداكن، مصدرة هديراً يصمّ الآذان ومخلّفة دخاناً أسود. مسحت هذه الطائرة ذات المقعدين جميع أنحاء الخليج في خلال أقلّ من خمس عشرة دقيقة. ظهر ضابط حرب إلكترونية إيراني على شاشة فيديو صغيرة، وركّز العدسة مباشرة على ناقلة النفط ذات سعة الثمانين ألف طن؛ ثم أطلق عليها صاروخي مافريك صغيرين، من نوع الصواريخ التي تُستخدم لتدمير الدبابات وليس ناقلات النفط العملاقة. ضربت الصواريخ الناقلة مباشرة في وسطها، فاشتعل حريق صغير، قام طاقم السفينة بإطفائه بسرعة. في اليوم التالي، أطلقت طائرة إيرانية صاروخاً آخر مجدداً، فألحقت أضراراً حقيقية هذه المرّة، حيث أحدثت ضرباتها هوّة عمقها خمسة أمتار في جانب ناقلة نفط كويتية أخرى، يطلق عليها اسم بهرا. وبعد يومين، أضافت إيران السعودية على قائمة أهدافها، فضربت صواريخ إيرانية ناقلة النفط السعودية ينبوع برايدا (Yanbu Pride) بينما كانت راسية في مرفق لتحميل النفط في ميناء رأس تنورة. وقد انخفض الطيّار الإيراني في هجومٍ على الناقلة السيئة الحظ، قاصفاً إياها في مدفعها الرشاش[360]. على مدى الأشهر السبعة التالية، ضربت إيران خمس عشرة سفينة إضافية من سفن الخليج العربي.

أدّت هذه الهجمات إلى تصعيد بارز في الحرب العراقية-الإيرانية. فهدّدت الحرب التي باتت تعرف باسم حرب الناقلات النفطية الخليج العربي بأكمله، منذرة بالحدّ من تدفق النفط الثمين من الشرق الأوسط. هاجمت إيران والعراق على مدى السنوات الأربع التالية أكثر من خمسمئة

سفينة، ما أدى إلى فقدان أو إتلاف أطنان من شحنات النفط، تعادل نصف ما تمّ خسارته في المحيط الأطلسي خلال الحرب العالمية الثانية[361]. بالنسبة للولايات المتحدة، حولت حرب الناقلات النفطية التوترات المتأجّجة بين طهران وواشنطن إلى حرب حقيقية استخدمت فيها أسلحة نارية.

صدام حسين هو الذي بدأ حرب الناقلات. بعد فترة وجيزة من اندلاع الحرب العراقية-الإيرانية، أعلن كلا الجانبين مناطق محظورة، قد تتعرّض سفن شحن محايدة لخطر الهجوم عليها إذا مرت في هذه المناطق. أصدرت إيران «بلاغاً للتجارة» أعلنت فيه عن منطقة حظر تمتد من بعد 12 ميلاً بحرياً عن الساحل الإيراني إلى 60 ميلاً خلال فترة الحرب الدائرة. وأمرت طهران السفن غير المتجهة نحو الموانئ الإيرانية بالبقاء خارج هذه المنطقة. وكان غرض إيران المعلن من ذلك هو ضمان سلامة الملاحة المحايدة، ولكن دافعها الحقيقي هو أن تسمح للقوات الجوية والبحرية الإيرانية بالتحرّك بحريّة على طول نصف الخليج العربي، وأن توفر لها أيضاً القدرة على مهاجمة السفن المتجهة إلى العراق أو الداعمة له. لكن إيران وفّرت بذلك للعراق «منطقة معارك حرة» «free fire zone» ذلك أن السفن المتوجّهة إلى الموانيء الإيرانية كانت الوحيدة التي تُبحر في منطقة الحظر الإيرانية[362]. وعليه شكّلت أي سفينة في هذه المنطقة هدفاً واضحاً للعراق، واستفاد الطيّارون العراقيّون من منطقة الحظر استفادة كاملة. وبسبب تعثر حرب الخنادق التي جرت خارج البصرة في شباط/فبراير 1984، صعّدت طائرات عراقية هجماتها ضد صادرات النفط الإيرانية، فقصفت سفن شحن إيرانية في منطقة المعارك الحرة التي حدّدتها إيران بالقرب من جزيرة خرج وبوشهر[363].

استخدم العراق الطائرات الفرنسية التي حصل عليها مؤخراً واستفاد من التدريب الفرنسيّ. في أوائل تشرين الأول/أكتوبر من عام 1983، استأجر العراق من فرنسا خمس طائرات من طراز سوبر إتندارد. صممت هذه الطائرات لإطلاق صواريخ إكزوسيت المضادّة للسفن، وقد استخدمها العراق في خطوط الهجوم الأمامية ضدّ سفن الشحن الإيرانية، إلى أن سلّمته فرنسا في عام 1985 طائرات مقاتلة من طراز F-1 أكثر تطوّراً. في الوقت الذي جعل هذا الدعم العسكري الفرنسي العلنيّ قوات حفظ السلام الفرنسية أهدافاً للتفجيرات الانتحارية في بيروت، أعطى سلاح صدام الجوي قدرة لا مثيل لها لضرب ناقلات نفط تغادر محطّة النفط الإيرانية الرئيسية في جزيرة خرج. فكان الطيارون العراقيون يقلعون بطائراتهم الفرنسية الأنيقة من مطارات عراقية، ويحلّقون بمحاذاة الساحل الكويتي والسعودي، وكثيراً ما كانوا يعبرون المجال الجوي في كلا البلدين باتفاق ضمني. وعندما كانوا يحلقون فوق جزيرة فارسي الإيرانية الصغيرة، الواقعة جنوب الحدود السعودية الكويتية تماماً، كانوا ينعطفون شرقاً نحو جزيرة خرج والمنطقة الإيرانية المحظورة - وهي مناورة عسكرية عُرفت باسم الشرك الفارسي- ويطلقون صواريخهم على أول بقعة تظهر على شاشات الرادار قبل أن ينسحبوا منها بأقصى سرعة، عائدين إلى العراق بغية عدم التعرض لهجوم معاكس من قبل طائرة إيرانية.

على مدى ثلاثة أشهر، بدءاً من شباط/فبراير وحتى نيسان/أبريل 1984، أغرقت طائرات عراقية أو ألحقت ضرراً كبيراً بما يصل إلى ست عشرة سفينة. وشمل ذلك سفناً لدول صديقة، عندما ضرب صاروخ إكزوسيت عراقي ناقلة سفينة العرب التي تعود ملكيتها للمملكة العربية السعودية، وكانت تشحن 340 ألف طن من النفط الخام الإيراني وتتجه إلى فرنسا. اندلعت النار بالسفينة وحوّلتها إلى كرة نارية ضخمة، ما أدى إلى خسارتها بالكامل ومقتل أحد أفراد طاقمها[364].

لم تردّ إيران فوراً على تلك الاستفزازات العراقية. فعلى الرغم من الاتهامات التي وجهتها الولايات المتحدة إليها في وقت لاحق، ومفادها أن إيران تنشر الحرب في جميع أنحاء الخليج، لم تكن إيران تريد حرب الناقلات. كان العراق يُصدّر معظم نفطه عبر خطوط أنابيب تصل إلى تركيا، إذ لم يكن لديه سوى عدد قليل من الناقلات التي يمكن مهاجمتها. وحاولت طهران باستمرار التوصل إلى وقف إطلاق النار على سفن الشحن[365]، كونها الطريدة الرئيسية في حرب الناقلات.

بعد أن فكّرت إيران ملياً في خياراتها، وأطلقت تهديدات جوفاء بشأن إغلاق مضيق هرمز، قررت حكومتها اعتماد إستراتيجية مختلفة، ألا وهي ضرب داعمي آلة الحرب العراقية، أي كلّ من المملكة العربية السعودية والكويت. وهكذا أصبحت ناقلة النفط أم قصبة الضحية الأولى للانتقام الإيراني صباح يوم الأحد الموافق في 13 أيار/مايو. كانت إيران تفتقر إلى العلاقات الودية مع فرنسا وفرضت عليها أميركا حظراً شديداً للإتجار بالأسلحة، فهاجم الأسطول الإيراني المترهل سفناً في شمال الخليج بطائرات أميركية بمقعدين من طراز F-4، وقَصَفها بعنف بضربات انتقامية رداً على الهجمات العراقية المستمرة على جزيرة خرج.

على الرغم من أن العراق هو الذي بدأ حرب الناقلات، وجهت دول الخليج العربي أصابع الاتهام إلى إيران. في 21 أيار/مايو 1984، طلبت هذه الدول عقد اجتماع لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لمعالجة الهجمات الإيرانية وقضية حرية الملاحة البحرية في الخليج. في 1 حزيران/يونيو من العام 1984، أصدرت الأمم المتحدة القرار (552)، الذي يدعو جميع الدول إلى احترام حق حرية الملاحة البحرية، وحذرت طهران مؤكدة أنها ستلجأ إلى «اتخاذ تدابير فاعلة» إذا لم تلتزم بالقرار[366]. فردت إيران بسخط ونقمة على هذا التوبيخ الانتقائي الصادر عن هيئة تحكم العالم تجاهلت دور العراق في توسيع الحرب خارج اليابسة.

ردّت المملكة العربية السعودية على الهجمات الإيرانية بأن حدّدت منطقة حظر جوي في شمال الخليج أطلقت عليها اسم خط الفهد تيمّناً بالملك السعودي. غطّى هذا الخط مجالاً واسعاً في الخليج، وشمل حقول النفط السعودية البعيدة عن الشاطئ. وحذرت الحكومة السعودية إيران بأنها سوف تعترض أي توغّل جوي عبر هذا الخط، وأنها سوف تستخدم القوة إذا ما عبرت أي طائرة إيرانية هذا الخطّ لمهاجمة سفن شحن سعودية. كان سلاح الجو الأميركي من وراء الكواليس بمثابة العمود الفقري لخط الفهد. فالتزمت طائرات أواكس الأميركية الصنع الموجودة في قاعدة الظهران

المراقبة الجوية، في حين كانت ناقلات نفط أميركية تقوم بتزويد طائرات سعودية مقاتلة من طراز F-15 بالوقود جواً لتتمكن من حراسة خط الفهد.

في 5 حزيران/يونيو، كشفت طائرة أواكس أميركية طائرتين إيرانيتين من طراز F-4 وهما تعبران خطّ الفهد وتتجهان نحو طائرتين مقاتلتين سعوديتين، كان في إحداهما مدرب طيران أميركي يجلس في المقعد الخلفي. تجاهل الإيرانيون تحذيرين بالتراجع، وبدلاً من أن يتراجعوا، اتصلوا لاسلكياً بقاعدتهم للحصول على التعليمات. بتشجيع من المدرّب الأميركي الجالس في المقعد الخلفي من المقصورة، «تورط» الطياران السعوديان الخاضعان للتدريب بأن وجه كلٌّ منهما صاروخاً حرارياً. فأصاب أحدهما الهدف وحوّل الطائرة الإيرانية إلى كرة من اللهب مسقطاً طيّارَيْها في المحيط.

أقلع على الفور ما يقارب الستين طائرة من كلا الجانبين، وبدا الأمر وكأن معركة جوية كبرى على وشك أن تبدأ فوق الخليج العربي. لكن تراجعت إيران أولاً. وسحب قائد الجناح الإيراني طائراته بغية تجنب مواجهة كبرى لا يرغبها أي من الطرفين[367]. غضب وزير الدفاع السعودي من تصرف سلاح الجو السعودي العدواني ضد إيران، وخشي أن يؤدي ذلك إلى تصعيد الهجمات على سفن الشحن السعودية. لكن إيران تعلّمت درساً مختلفاً[368] مفاده ألا ترسل طائراتها بعد الآن لاعتراض خطّ الفهد وألا تستخدم وسائلها الشحيحة من الطائرات الحربية لمهاجمة سفن شحن في شمال الخليج. فهذا المشهد الاستثنائي من الثبات السعودي أزال فعلياً التهديد الجوي الإيراني وقضى عليه. قال السفير السعودي الأمير بندر إلى كاسبر واينبرغر: «لقد انتصر الحسم على الوقاحة الإيرانية!».

أمّا في واشنطن فأدت حرب الناقلات إلى عقد اجتماعات شديدة التوتر في غرفة عمليات البيت الأبيض. اتفق الجميع على ضرورة دعم العراق وتعزيز قدرات مجلس التعاون الخليجي العسكرية، غير أن الخلافات السياسية العميقة التي بدت واضحة خلال الأزمة اللبنانية انتقلت إلى هذه المناقشات الجديدة بشأن حرب الناقلات.

اعتقد كلٌّ من روبرت ماكفرلين وجورج شولتز أن طهران سوف تستخدم الهجمات العراقية كذريعة لتوسيع عملياتها الإرهابية وزعزعة استقرار دول الخليج العربي، وأنها تسعى للقيام بهجوم دراماتيكي آخر ضدّ الجيش الأميركي، ربما باستخدام طائرة انتحارية ضد سفينة حربية في الخليج العربي. كان شولتز لا يزال غاضباً لأن الولايات المتحدة لم تردّ على تفجير المارينز. وأكد لواينبرغر خلال أحد الاجتماعات الأسبوعية على مائدة الإفطار أنه يجب على الولايات المتحدة ألّا تتغاضى عن معاقبة الإرهاب، إذ إن ذلك سيؤدّي إلى هجمات في الداخل الأميركي وضدّ حلفائنا. ذهب ماكفرلين أبعد من وزير الخارجية مقترحاً خلال أحد اجتماعات البيت الأبيض أن على الولايات المتحدة النظر في توجيه ضربة وقائية ضد إيران.

كان وزير الدفاع واينبرغ ينظر إلى هذا التهديد بالحرب بتشكّك[369]. لقد اختلف مع ماكفرلين في اجتماعات عدّة خلال شهري حزيران/يونيو وتموز/يوليو، بحجة أن هذا الاقتراح من شأنه أن يجرّ الولايات المتحدة إلى الحرب العراقية-الإيرانية ويوسّعها. عُرف عن واينبرغ أنه مبارزٌ عنيد، وقد أعاق المشاورات بين الوكالات بعناد مطلق أثناء الاجتماعات[370].

سلك مرؤوسو واينبرغ مسلكاً مختلفاً لضبط أفكار ماكفرلين وشولتز الحربية وتلطيفها. فأثاروا المخاوف المستمرة المتعلقة بالعزلة الإيرانية الطويلة الأمد. يعدّ فريد إيكله الرجل الثالث في وزارة الدفاع، ونائباً لوزير الدفاع على الصعيد السياسي، وقد حذّر من أن العمل العسكري ضدّ إيران لن يوقف عملياتها الإرهابية ولن يحقق أكثر بكثير مما يمكن للعراق أن يحقّقه. بدا إيكله في بداية الستينات من عمره، شعره أشيب، واشتهر أساساً بكتاباته عن الحرب الاستراتيجية والنووية. كأحد صقور الحرب الباردة الأقوياء، كثيراً ما اقترح إيكله القيام بعمل سري ضد السوفيت في أفغانستان[371]. ومع ذلك، فقد اعتمد خط المصالحة في ما يخص الشأن الإيراني، وقد شرح ذلك قائلاً: «إن القضية الأهمّ على المدى المتوسط تكمن في الدور السوفيتي في إيران ما بعد الخميني. إذا ما أقحمنا أنفسنا في مواجهة أعمق مع إيران، فإننا سنسهّل بذلك على السوفيت إثبات وجودهم»[372].

اتفق موظفون مدنيون آخرون في البنتاغون على أن الولايات المتحدة تحتاج إلى خطة «لإعادة تأسيس علاقات واعدة ومشجعة مع إيران معتدلة في فترة ما بعد الخميني»، مثلما كتبت مساعدة نائب وزير الدفاع، ساندرا تشارلز، مكرّرة آراء رئيسها إيكله[373]. في حين كان واينبرغ لا يعير أدنى اهتمام لإعادة نسج أي علاقة مع الجمهورية الإسلامية، كان للموضوع أثره على كلٍّ من وليام كيسي وبولد ماكفرلين وأخيراً رونالد ريغان.

في نهاية المطاف، أصدر الرئيس ريغان قرارين يتعلّقان بحرب الناقلات. وذكّر مجدداً بالهدف الأميركي القاضي بمنع أي انتصار إيراني. ورفض أي هجوم عسكريّ على إيران، لكنه أمر القوات الأميركية بالتأهّب للردّ فوراً إذا هاجمت إيران سفينة تجارية أميركية أو حاولت وقف التدفق الحرّ للنفط عبر مضيق هرمز[374]. بالإضافة إلى ذلك، سمح ريغان بنقل 400 صاروخ من طراز ستينغر بهدف تطوير الدفاع الجوي في المملكة العربية السعودية وتحسينه، كما قدّم مساعدات عسكرية إضافية لدول الخليج العربي.

انتشر مسؤولون من الإدارة الأميركية في المنطقة لطمأنة العرب. وتنقل مبعوث الرئيس، دونالد رامسفيلد، بين عواصم دول الخليج العربي، لتعزيز علاقاتٍ دفاعية وثيقة مع واشنطن، ولتشجيع العرب على وضع خطط طارئة بالتعاون مع القيادة المركزية الأميركية، مقدماً وعوداً لهم بتزويدهم بأسلحة جديدة. ترأس جون بويندكستر، بوصفه نائب مستشار الأمن القومي، فريقاً مشتركاً بين الوكالات الأميركية توجه إلى المملكة العربية السعودية حيث وجدَ المسؤولين السعوديين في

حال غضب، غير راضين عن عدم اتخاذ ريغان موقفاً أكثر تشدداً. أخبره أحد المسؤولين السعوديين أن: «الملك لن يكون في موقف يسترضي إيران»، مضيفاً: «نحن عازمون على ضرب إيران إذا صعّدت هجماتها ضدّ ناقلاتنا!» ومع ذلك رفض الملك أن يصرّح بدعم المملكة السعودية للولايات المتحدة ضد إيران وبالسماح لقوات أميركية باستخدام قواعد سعودية، رغم ضغوط بويندكستر. على الرغم من الهجمات الإيرانية، ظلّت دول الخليج متردّدة في السماح بوجود قوات أميركية على أراضيها[375]. لقد شجعت هذه الدول الولايات المتحدة على اتخاذ إجراءات ضد إيران، لكنها آثرت في حال اندلاع حرب أن تبقى على الهامش تماماً.

أخفى ريغان تحفظاته الشخصية بشأن هذه المساعدات غير المحدودة لهؤلاء الأصدقاء الضعفاء. فعندما وضع ماكفرلين على مكتب الرئيس اقتراحاً بتقديم المزيد من المروحيات والمدفعيات للكويت، قرأ «الجيبر» (The Gipper) الاقتراح ثم رفع بصره قائلاً: «بود، إن المصالح الحالية للحكومة الكويتية في العمل معنا عابرة في أحسن الأحوال». وأضاف بارتياب: «إن الولايات المتحدة تحمل بشكل متزايد مسؤولية الدفاع عن بلد ينتقد سياستنا علناً».

في 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1985، سلّم الجنرال روبرت كينغستون مقاليد القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) للجنرال جورج بي. كريست من مشاة البحرية. كان كريست نحيلاً وشعره داكن، وهو ابن ضابط في البحرية؛ درس في جامعة فيلانوفا، وهي الجامعة نفسها التي درس فيها الجنرال بي. إكس. كيلي. كان هذا الأخير وقتئذٍ قائداً في مشاة البحرية، وقد ضغط على واينبرغر والجنرال جون فيسي باتجاه تعيين كريست ليكون أول فرد من مشاة البحرية يتقلّد منصباً بهذه الأهمية إذ إنه مسرح القيادة الموحدة. كان الميثاق الأساسي للقيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) ينص على تناوب قادة الجيش والبحرية على قيادتها، وكان الوقت قد حان لتسليم القيادة لمشاة البحرية. لقد جعلت تجربة كريست التي قضاها خارج حدود خدمته مرشّحاً قوياً، فلديه تجربة مشتركة غير مسبوقة، حيث شغل منصب مساعد للرئيس في الخمسينيات، وكان مساعداً لرئيس هيئة الأركان خلال حرب فيتنام، ونائب ضابط عمليات أوروبا خلال أزمة الرهائن الإيرانية، وتولى مؤخراً منصب نائب مدير هيئة الأركان المشتركة خلال أزمتي لبنان وغرينادا. كان كيلي مدركاً أن كلاً من وزير الدفاع ورئيس هيئة الأركان قد فكّرا كثيراً بكريست بعدما راقباه خلال عمله اليومي في منصبه كنائب لمدير هيئة الأركان.

في منتصف عقد الثمانينيات، لم تكن القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) قط مركز العالم العسكري الأميركي. ظلت منطقة الشرق الأوسط في حالة ركود، وكان الضباط المتدرّجون يتفادون الذهاب إلى مقرّ (سنتكوم) في تامبا، هذا المقر الذي كان الكثيرون من بين العسكريين يسمّونه «المهجع النائم». وبما أن التركيز العسكري الأميركي كان على الحرب مع السوفيت في أوروبا، قلائل جداً رغبوا في الذهاب إلى مسرح عمليات من الدرجة الثالثة كالشرق الأوسط. كان عدد ضباط (سنتكوم) الذين ينتقلون إلى التقاعد يفوق عدد أولئك الذين ينتقلون ضمن مهمات جديدة. عندما عاد صديقي اللواء الجوي صموئيل سوارت إلى تامبا في عام 1986، وهو ضابط عمليات

جديد في سلاح الجو، كتب له أحد أصدقائه ممازحاً: «لقد انتقلت من القيام بكل أنواع الأعمال إلى عدم القيام بأي عمل»[376].

ركّز الجنرال كريست على تجميع أفضل طاقم لمقرّه المؤلف من 751 شخصاً. أحضر اللواء دونالد بنزلير من الجيش ليكون رئيساً جديداً للأركان. فخبرته تؤهله حيث عمل في مركز قيادة الجيش الأوروبي الضخم، وتسلم مؤخراً منصب نائب رئيس الأركان في قيادة التعليم والتدريب التابعة للجيش، كما خدم مع كريست في هيئة الأركان المشتركة من عام 1981 حتى عام 1983، وقد طلب كريست منه أن يتنازل عن منصبه ليكون رئيساً للأركان التابعة له. كان بنزلير صعب المراس إلا أنه تميّز بالحكمة والإخلاص. وهو الذي بدأ «عملية القطع (Operation Slash)»، وهو برنامج مصمم للتخلص من الأفراد عديمي الفائدة وجلب ضباط ذوي طاقة متجددة لأركان الجيش. كان هدفه الأول هو إحالة كولونيل بارز كان منشغلاً بإدارة أعماله الخاصة في المدينة إلى التقاعد[377].

واجه كريست تحديات حربين كبيرتين. فبعد وقت قصير من تولّيه منصب قائد القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم)، بدأ الجيش السوفيتي عملية واسعة النطاق في أفغانستان. قرر الرئيس السوفيتي ميخائيل غورباتشوف، الذي تقلّد منصبه حديثاً، أن يطلق العنان للجيش السوفيتي في محاولة أخيرة لكسب الحرب من دون علم الاستخبارات الأميركية في ذلك الحين. قامت قوات النخبة السوفيتية الخاصة، المعروفة باسم قوات سبيتسناز، تدعمها مئة طائرة هجومية في الخطوط الأمامية بمطاردة المتمردين بلا هوادة. وزاد السوفيت من هجماتهم بصورة دراماتيكية في باكستان. في عام 1986 وحده، شن السوفيت أكثر من 880 غارة جوية وبرية، وهاجموا قواعد متمردين ودمّروا مستودعات الإمداد[378]. وأنشأ الجيش السوفيتي مسرحاً جنوبياً جديداً عالي المستوى لقيادة العمليات العسكرية، وتم تعيين جنرال ذي خبرة عالية قائداً جديداً لهذه العمليات، وهو الرئيس السابق لأركان القوات السوفيتية في ألمانيا الشرقية.

انسجم كريست مع التقييم العام الذي يُظهر رغبة السوفيت بتأمين موانئ المياه الدافئة ونفط الشرق الأوسط[379]. أعدت مجموعة من المحللين من داخل مديرية الاستخبارات دراسة بيّنت توسعاً روسياً تدريجياً حازماً في جنوب القوقاز منذ مئتي سنة. وذكرت الدراسة أن الغزو السوفيتي لأفغانستان كان أحد أكثر مظاهر هذه النزعة التوسّعية. كتب كريست لرئيس هيئة الأركان المشتركة في الإدارة الأميركية قائلاً: «على أي حال، من المفيد أن نتذكّر أن السوفيت كانوا قد احتلّوا إيران أربع مرات في القرن العشرين وحده»[380].

كان مشاة البحرية مدركين تماماً أنه في حال وقوع حرب شاملة ضد الاتحاد السوفيتي، فإن القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) ستصبح مسرحاً نائياً في حالة ركود. فهي لن تقوم بإرسال أي قوّات بريّة إلى إيران أبداً. وفي حال وقوع حرب كبيرة مع موسكو، فإن القوات الخاضعة لقيادة سنتكوم، مثل الفرقة المجوقلة 82، ستختار الذهاب إلى الجبهة الرئيسية في أوروبا بدلاً من الذهاب

إلى إيران. قال كريست في وقت لاحق: «كانت الخطط غير واقعية، ولكن وجب الاحتفاظ بها لتمويل الدفاع نظراً لارتباط الموارد كلها بخطط حرب سوفيتية علماً أنها المبرّر الأساس لوجود القيادة المركزية الأميركية»[381].

لكن توسّع الحرب العراقية-الإيرانية سرعان ما طغى على المشهد، فلم تعد المخاوف المتعلّقة بالحرب الباردة تشكّل قلق قائد القيادة المركزية الأساسي. في شباط/فبراير 1986، حشدت إيران أكثر من مئة ألف رجل، فاعتقد مسؤولو استخبارات أميركيون وعراقيون كانوا مجتمعين في بغداد أن إيران سوف تشن هجوماً آخر كبيراً ومباشراً على البصرة. عوضاً عن ذلك، فقد عبرت في 10 شباط/فبراير ليلاً قوارب صغيرة محملة بحرس ثوري إيراني مصبَّ شط العرب وسط عاصفة ماطرة كانت تتدفق بغزارة، واستولت بسهولة على شبه جزيرة الفاو، وهي نتوء أرضي موحل يشكّل محطّةً نفطية أساسية لجميع صادرات النفط الخام العراقية عن طريق الخليج العربي. عزز الإيرانيون بسرعة مواقعهم، وتقدّم نحو ثلاثين ألف جندي، شمالاً عبر الطريقين الضيّقين المؤديين إلى ميناء العراق الوحيد أم قصر وإلى مدينة البصرة. أمر صدام حسين، الذي لحق به الخزي، باستعادة شبه الجزيرة على الفور. فألقى الجيش العراقي بثلاثة من أفضل فرقه العسكرية في هجوم تدريجي غير كفوء، ما دفع بالمدافعين الإيرانيين العنيدين إلى الردّ بسرعة، فأصابوا نحو ثمانية آلاف جندي[382]. إن افتقار إيران إلى الشاحنات والدبابات لنقل جنودها بالإضافة إلى قدراتها اللوجستية المتواضعة، منعاها من الإفادة من انتصارها في الفاو للدخول إلى البصرة من الجهة الجنوبية، وغدت هذه الجبهة موقع حرب خنادق أخرى. لكن المكاسب الإيرانية أزعجت الدول العربية كلها في الشرق الأوسط، وأكثر دولتين انزعجتا هما الكويت والمملكة العربية السعودية.

دخلت حرب الناقلات منعطفاً خطيراً آخر عندما أعلنت إيران حصاراً موسعاً على العراق. فأخذت البحرية الإيرانية تصادر أي شحنة عسكرية متجهة إلى العراق، بما في ذلك الشحنات المنقولة عن طريق بلد ثالث مثل الكويت أو المملكة العربية السعودية. وبدأت بتطبيق قرارها هذا من خلال اعتراض السفن التي تدخل مضيق هرمز، والاستفسار عن جنسيتها والموانئ التي رست وسترسو فيها. أوقف الإيرانيون كل السفن المتجهة إلى الكويت، وأصعدوا على متنها فرق تفتيش مكونة من بحارة إيرانيين للتحقق من بيانات الحمولة وفتح أي حاويات مشبوهة. وتمّ تحويل أي سفينة تحمل على متنها بضائع مشبوهة إلى بندر عباس حيث كانت السلطات الإيرانية تجري تفتيشاً دقيقاً على البضائع المحتجزة وتستولي على المعدات العسكرية[383]. في الأشهر الثمانية الأولى، تم إيقاف ست وستين سفينة، وتفتيشها، وهو عددٌ قليل نسبة إلى عدد السفن التي دخلت الخليج، لكن الأمر شكّل قلق وإزعاجاً للجميع ولا سيما الدول الداعمة للعراق[384].

في حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح يوم 12 كانون الثاني/يناير 1986، كانت سفينة الشحن الأميركية، المسماة الرئيس تايلور (President Taylor)، والبالغ طولها 600 قدم، تبحر على بعد أربعة وعشرين ميلاً قبالة سواحل دولة الإمارات العربية المتحدة، حاملةً على متنها

شحنة صغيرة من القطن. كانت متّجهة إلى ميناء الفجيرة حيث ستحمّل شحنة من مواد غذائية مخصّصة للجمعية التعاونية للمساعدة والإغاثة في كل مكان (CARE) وبرنامج خدمات الإغاثة الكاثوليكية قبل أن تتوجه إلى الهند. اقترب من السفينة التي ترفع علم الولايات المتحدة قاربٌ إيراني صغير تابع لخفر السواحل، وطلب منها عبر جهاز الراديو أن «تتوقف».

حاول قائد سفينة الرئيس تايلور روبرت رايمان الاحتجاج، فرد قائلاً :«نحن نبحر في المياه الدولية. لا يحق لكم إيقافنا».

فوجّه القارب الإيراني سلاحه على التاجر الأعزل، وصدر صوت إيراني عبر جهاز الراديو يصر بأدب على أن تُوقف السفينة «محرّكاتها». لم يكن لدى رايمان أي خيار سوى الانصياع.

أنزل الإيرانيون قارب زودياك مطاطي صغير بين أمواج البحر، وصعد في الحال سبعة إيرانيين بينهم ضابطان على متن سفينة الرئيس تايلور، وسيطروا على جهاز الاستقبال المثبت في السفينة وعلى ثلاثة وأربعين من أفراد طاقمها. طلبوا من قبطان السفينة القائد رايمان إبراز بيانات سفينته، ففعل، وبعد أن فتشوا السفينة ونظروا في حاويتين أعربوا عن رضاهم وقالوا للسيد الأميركي أنهم أرادوا فقط التحقق من أن السفينة لا تحمل بضائع مهربة متجهة إلى العراق. في أقل من ساعة، غادر الإيرانيون السبعة، تاركين سفينة الرئيس تايلور تواصل طريقها إلى الفجيرة[385].

في اليوم التالي من الحادث، اعترف متحدث باسم البنتاغون أن المشكلة بالنسبة للولايات المتحدة تكمن في أنه يحق لإيران، بموجب القانون الدولي، أن تفتش سفناً تشتبه بأنها تنقل عتاداً حربيّاً إلى العراق. واجه الأميركيون مشكلة قديمة تكمن في حقّهم بالتجارة الحيادية، مقابل حق دولةٍ محاربة في الإبقاء على الحصار البحري. إلا أن احتقار واينبرغر المطلق لإيران، ووقوع حادثة سفينة الرئيس تايلور تلك بعد ثلاثة أشهر فقط على اختطاف السفينة الإيطالية أكيلي لاورو (Achille Lauro) من قبل فلسطينيين أثناء قيامها برحلة بحرية، وإطلاق النار على الأميركي المسنّ ليون كلينجوفر في كرسيه المتحرك والإلقاء به من على متن السفينة، كلّها عوامل جعلت إدارة ريغان غير متحمّسة للمخاطرة بأزمة رهائن أخرى مع دولة سجلّها حافل باختطاف الأميركيين كرهائن.

في 1 شباط/فبراير، أرسلت وزارة الخارجية رسالة تحذيرية مقتضبة للحكومة الإيرانية عبر السفارة السويسرية في طهران، جاء فيها: «بصرف النظر عن المسائل القانونية المعنية، إن الصعود على متن سفن ترفع علم الولايات المتحدة وتفتيشها من قبل قوات إيرانية مسلحة خلال فترة يسودها توتر حاد وصراع إقليمي حدثٌ قد يؤدي إلى مواجهة بين وحدات عسكرية أميركية وإيرانية، وهي مواجهة لا يرغبها كلا البلدين»[386].

وكتب الجنرال فيسي إلى الوزير واينبرغر قائلاً: «يبدو أنه لا مفرّ من التصعيد إذا استمر الوضع، على ما هو عليه[387]».

أمر واينبرغر البحرية أن تمنع أي صعود على متن سفن التجارة الأميركية[388]. كما أصبحت السفن الحربية الأميركية تواكب السفن التجارية الأميركية، مبحرةً على مسافة قريبة منها، بغية اعتراض أي سفينة إيرانية تقترب من السفن التجارية. على أن يتوجّه ضابط بحرية أميركي إلى أي سفينة تجارية يتم اعتراضها من قِبل الإيرانيين، ليتحقق بنفسه من وجود أي معدات عسكرية متجهة للعراق. ثم يقوم ضابط البحرية بإعلام القبطان الإيراني بعدم وجود أي بضائع مهرّبة. ولأن الولايات المتحدّة التزمت عدم تزويد العراق مباشرة بالأسلحة، كان من غير المتوقّع بتاتاً أن تحمل سفينةٌ ترفع العلم الأميركي عتاداً حربياً، علماً أنه إذا حدث ذلك، كان قائد البحرية المناوب يطلب تحويل السفينة إلى ميناء محايد، ليسمح للإيرانيين من ثم بالصعود على متنها لإزالة أي مواد محظورة تحت إشراف البحرية الأميركية[389]. لم يكن يتم تحويل أي سفينة تجارية أميركية إلى موانئ إيرانية تحت أي ظرف من الظروف[390]. وفي حال إصرار الإيرانيين على الصعود على متن السفينة رغم تأكيدات البحرية الأميركية بعدم وجود مواد مهربة، «يمكن للقائد المناوب استخدام الوسيلة التي يراها مناسبة، بما في ذلك القوة العسكرية المدروسة، لإحباط أي محاولة من هذا القبيل»، كما كتب بويندكستر إلى واينبرغر.

بعد مضي وقت قصير على حادثة سفينة الرئيس تايلور، وضع كريست خطة لمهاجمة إيران في حال حاولت التعرّض لسفن الشحن المحايدة. رسم مخططو القيادة المركزية الأميركية عملية سرية، أُطلق عليها اسم «استدعاء حل» (Invoke Resolve)، فهي تستدعي ضربات جوية كثيفة على قوات بحرية إيرانية في بندر عباس. في 7 شباط/فبراير 1986، قدم كريست لمحة عامة عن العملية أمام رئيس هيئة الأركان المشتركة ووزير الدفاع في اجتماع جرى في حجرة التانك. كانت تنطوي الخطة على أن تنطلق طائرات تابعة للبحرية الأميركية عن حاملة الطائرات المتوقّفة في خليج عُمان، وتضرب قبل بزوغ الفجر مقراً مهماً للدفاع الجوي، يقع خارج منطقة الخليج العربي، بالقرب من مدينة جاسك الصغيرة ذات الميناء، ثم تحلّق على علوّ منخفض باتجاه الخليج العربي، وتدمر صواريخ أرض - جو الإيرانية من طراز هوك (Hawk) التي تطوق بندر عباس وكذلك مطار بندر عباس الدولي الذي يشكّل المهبط الجنوبي الرئيسي لسلاح الجوّ الإيراني فضلاً عن كونه مطاراً تجارياً. كما خُطّط لأربع عشرة طائرة قاذفة من طراز B- 52 أن تنطلق في الوقت نفسه من جزيرة غوام، تدعمها حوالي خمسين ناقلة تزوّدها بالوقود في الجوّ، ومجموعة طائرات استطلاع متطورة، وطائرات حرب إلكترونية، لتطلق صواريخ كروز موجهة بدقّة، من شأنها أن تصيب أهدافاً يصعب الوصول إليها، مثل مبنى مقرّ المنطقة البحرية الأولى الواقع بالقرب من مستشفى. ثم تنطلق تسع طائرات ضخمة بأربعة محرّكات -كل واحدة منها قادرة أن تحمل 60 ألف رطل من القنابل- وذلك لضرب قاعدة بندر عباس البحرية. تعمل هذه الطائرات في مجموعات تتكوّن كلّ منها من ثلاث طائرات، ويمكن لكل مجموعة أن تشبع، عن ارتفاع ميل، منطقة طولها

ميل ونصف الميل بشظايا ساخنة ومواد خام متفجرة[391]. في حال حاولت إيران الرد وتصعيد النزاع، ستكون الولايات المتحدة مستعدة للقيام بمزيد من الضربات الجوية، مسقطةً ألغاماً من الجو في ميناء بندر عباس مما سيؤدي إلى إغلاقه بصورة فعلية في وجه أي سفينة عسكرية أو مدنية[392].

رأى الجنرال كريست أن الطريق الوحيد على المدى الطويل أمام مهجعه النائم لمواجهة الروس أو الإيرانيين هو بناء علاقات عسكرية مع دول الخليج العربي. في ربيع عام 1986، وبعد أربعة أشهر فقط على تسلمه القيادة، كتب الجنرال كريست رسالة مطولة إلى الوزير واينبرغر يشرح فيها ما يدور في فكره، قائلاً: «على أصدقائنا وحلفائنا أن يأخذوا على عاتقهم جزءاً من المسؤولية من أجل الدفاع عن المنطقة وهذا ثمن من أثمان حرب التحالف»[393]. كان التحالف مع مصر قائماً بالفعل، لكن القصور الأساسي تمحور حول الخليج العربي، ولاسيما أن مجلس التعاون الخليجي لم يكن يشكّل حليفاً عسكرياً موثوقاً.

اقترح كريست إقامة اتفاقيات عسكريّة دفاعية ثنائية مع كل دولة خليجية على حدة، على أن يقوم جهاز كريست بتنسيق جهود هذه الدول ضمن قوة متحدّة تعزّز القدرة العسكرية الأميركية. كما كتب إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال كرو قائلاً: «سوف يوفر ذلك كحدّ أدنى الفرصة لفتح مجالات جديدة مع بلدان كانت شبه محظورة على الجيش الأميركي».

سافر كريست وبنزلر إلى واشنطن لإطلاع واينبرغر على الفكرة، وفي نيّتهما ما التركيز على بلدان ثلاثة اعتبرا العلاقة معها واعدة وهي: المملكة العربية السعودية، والبحرين، والكويت. أحبّت قيادة البنتاغون الفكرة وسمحت لكريست أن يمضي قدماً. اشتغل كريست على الفكرة بعدئذٍ من خلال ريتشارد مورفي الذي كان يرأس مكتب شؤون الشرق الأدنى في وزارة الخارجية. اعتبر مورفي بدوره أن الفكرة مميزة، وبعد الحصول على موافقة وزير الخارجية شولتز، صدرت تعليمات إلى السفارات في منطقة الخليج لمساعدة جهود التخطيط في القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم).

يعطي مظهر جيرميا بيرسون للوهلة الأولى انطباعاً يذكّر بمحاربٍ دبلوماسي. فرأسه مستدير وكبير ومظهره الخارجي تعوزه الأناقة. لقد وصفه ضابط رفيع المستوى قليلاً: «إنه يبدو مثل كيس كبير». فهو طيار يجسد شخصية الطيّار المقاتل. ولكن عينيه الزرقاوين الصافيتين توحيان بذكاء خارق. حصل على شهادة في هندسة الطيران، وانضمّ إلى سلاح البحرية في عام 1960، واستحق شارته كطيار في فيلق البحرية لتميّزه في حرب فيتنام. أصبح في وقت لاحق طيار اختبار، كما اختير لبرنامج روّاد الفضاء. بعد مضي أربعة أشهر على ترقيته إلى رتبة عميد في نيسان/أبريل من عام 1986، انتقل وزوجته في حرارة الصيف الخانقة إلى تامبا في ولاية فلوريدا، حيث تسلّم مهمة قائد القيادة الأمامية ومفتّش عام في المركز الرئيسي للقيادة المركزية الأميركية. كان بيرسون قلقاً إلى حد ما إزاء الواجبات التي ستوكل إليه، وكذلك حيال رئيسه الجديد قائد القيادة المركزية الأميركية. لم يكن قد سبق له أن خدم ضمن أي قيادة مشتركة، كما أن الجنرال كريست كان معروفاً في البحرية بعدم استساغته للطيارين. لكن قائد سلاح البحرية، الجنرال بول كيلي، كان قد أعطى توصية قوية به؛ كما أن كريست أُعجب ببيرسون بعد لقائه به في مكتبه في قاعدة ماكديل

الجوية، ولا سيما بسبب هدوئه وثقته بنفسه، فقرّر على هذا الأساس إعطاء العميد فرصة إثبات نشاطه وحماسته.

تزعّم بيرسون تخطيطاً عسكريّاً ثنائيّاً في القيادة المركزية الأميركية مع دول الخليج العربي، وأطلق عليه اسم مشفّر هو «نيو سبلاندور»[394] (New Splendor). أسسّ خليّة تخطيط صغيرة في داخل المقر الرئيسي، تقوم بتقديم تقاريرها مباشرة إلى الجنرال كريست. وقد تألّفت الخلية بمعظمها من مشاة بحرية وإن لم يُعرف إذا كان ذلك محض صدفة أم مقصوداً. صار بيرسون يسافر جوّاً كل أسبوع تقريباً إلى منطقة الخليج، متنقلاً بين دوله وأخرى وبانياً جسوراً من الثقة مع هذه الدول عبر الساعات الطويلة التي كان يقضيها مع المسؤولين هنا وهناك، متحدثاً ومحتسياً أكواباً من الشاي الشديد الحلاوة. ولتمرير الوقت أثناء الرحلة التي تستغرق تسع عشرة ساعة من تامبا إلى الخليج، كان يراجع أشرطة اللغة العربية التي أعدّها معهد اللغات في القوات المسلّحة، فاكتشف أنه قادر على تعلم هذه اللغة الصعبة. وسرعان ما تمكّن من التخاطب باللغة العربية -وكان ذلك جديداً بالنسبة لضباط الجيش في القيادة المركزية الأميركية- ما عزّز موقفه بشكل كبير مع نظرائه العرب. قال بيرسون ضاحكاً: «على الأقلّ تحميني اللغة من سرقة التجار لي في السوق»[395].

كان لدى عرب الخليج ارتيابٌ محق تجاه الولايات المتحدة. فقد شكّك جميعهم بقدرة واشنطن على الحفاظ على سرية التعاون بينهم وعدم الكشف عنه لصحيفة نيويورك تايمز. نظر بعض الزعماء العرب إلى القيادة المركزية الأميركية بمثابة قوة تدخل أميركية، لم تكن مهمتها سوى تحقيق أهداف الولايات المتحدة في المنطقة[396]. فكان الجميع يسأل بيرسون مراراً وتكراراً: «هل يمكننا الاعتماد على واشنطن إذا ما هاجمتنا إيران؟».

ولكي يساعد كريست بيرسون، فقد عمد إلى مشاطرة دول الخليج إحاطات استخباراتية سرية حول الحرب العراقية-الإيرانية. قال كلويد فيستر مدير استخبارات القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) والعميد في الجيش: «كانت هذه إحدى الوسائل التي استخدمناها لبناء الثقة والتعاون وحثّ دول الخليج على التفكير بأمنها»[397]. وقد استقبل الزعماء الإقليميون وضباط المخابرات هذه البادرة بشكل إيجابي جداً كما كان متوقّعاً، وصار أفرادٌ من وكالة الاستخبارات المركزية يرافقون بيرسون في سفراته لتقديم أحدث المعلومات حول إيران بالاستناد إلى مصادر لا يمكن سوى لقوةٍ عظمى الاستحصال عليها.

تحولت اجتماعات بيرسون تدريجاً من المباني الحكومية إلى المنازل الخاصة لكبار الزعماء. وتحولت الأحاديث مع هؤلاء الزعماء من روتينية إلى موضوعية، وذلك بعد أن استشار بيرسون مكتب مورفي لشؤون الشرق الأدنى في وزارة الخارجية الذي كان يتحدث معه بانتظام[398]. عبرّ قادة الخليج بصورة شخصية عن قلقهم من النوايا الإيرانية، والكارثة التي ستحل بأنظمتهم إذا هزمت طهران العراق. واتهموا إيران بأنها تحاول إنشاء هلال شيعي عبر العالم العربي، يمتد من

لبنان ويصل إلى العراق نزولاً إلى الخليج «العربي»، كما ارتأوا تسميته بدلاً من الخليج العربي. أعربت البحرين والمملكة العربية السعودية عن هذه المخاوف بأعلى صوت نظراً لوجود عدد لا بأس به من السكّان الشيعة في كلا البلدين. كان حاكم البحرين، الشيخ عيسى، يكره الإيرانيين ويعتبرهم متعجرفين، وينوون إثارة السخط بين رعاياه الشيعة. وكررّ وزير الدفاع السعودي المتنفّذ الأمير سلطان تحذيرات مماثلة لبيرسون. وشدّد على حاجة الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية لدعم صدام حسين لأنه يعد حاجزاً عازلاً ضد إيران، ومن الضروري أن يكونوا على أهبة الاستعداد لاستخدام القوة العسكرية. لخص بيرسون تلك المواقف بإيجاز مفيد قائلاً: «كانوا جميعهم متوجّسين بشدة من الإيرانيين».

في حزيران/يونيو 1987، حققت خطة نيو سبلاندور أول نجاح لها عندما عُقد اتفاقٌ مع البحرين للدفاع عن الإمارة الصغيرة ضد أي هجوم إيراني. بعد اجتماعات مطولة في مقر سلاح الدفاع البحريني في المنامة مع وزير الدفاع الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ورئيس أركان القوات المسلحة اللواء عبد الله بن سلمان آل خليفة، وافقت الولايات المتحدة على تقديم طائرات من طراز F-16 وغيرها من الطائرات لتعترض اتصالات إيرانية، ومنظومات أسلحة في حال وقوع أي هجوم إيراني. ووعد الشيخ خليفة ببناء غرفة قيادة محصنة «تحت الأرض» بالقرب من المنامة لدعم الجيش الأميركي، (على أن تقوم الولايات المتحدة بتركيب جناح الاتصالات بغرفة القيادة)، وإنشاء مطار جديد أيضاً في الطرف الجنوبي من البلاد مخصص للجيش الأميركي بصورة خاصة[399].

عقد بيرسون اتفاقاً مماثلاً مع الكويت. تقع الحدود الكويتية، على عكس البحرين، على الجبهة الرئيسية للحرب العراقية-الإيرانية. فعندما تم الاستيلاء على الفاو، اهتزّت نوافذ مقرّ إقامة السفير الأميركي في الكويت العاصمة بفعل هدير المدفعيات ونيرانها. قلق الأمير من أن يحاول الجيش الإيراني تطويق المدافعين العراقيين عبر الكويت، الدولة التي تدعم حكومتُها الحكومةَ العراقية دعماً كاملاً. وافق بيرسون على أن تقوم الحكومة الأميركية بتعزيز نظام الدفاع الجوي الكويتي من خلال بيع الكويت صواريخ هوك للدفاع الجوي ليتم نصبها حول الكويت العاصمة.

أثبتت المملكة العربية السعودية أنها الدولة الأكثر صعوبة. أجرى دفق مستمرّ من الدبلوماسيين والجنرالات مفاوضات مجهدة مع الوفد السعودي برئاسة قائد القوات الجوية السعودية، الفريق الصارم أحمد البحيري، تحت إشراف وزير الدفاع المتنفّذ الأمير سلطان. وبحثوا في التهديدات الإيرانية محتملة ضد المملكة، بما في ذلك هجوم بري إيراني واسع النطاق، وهجوم جوي على منشآت وناقلات نفط سعودية[400]. بناءً على إلحاح واينبرغر، حاول كريست مراراً وتكراراً الحصول على موافقة السعوديين بغية السماح للولايات المتحدة بموضعة معداتها العسكرية في السعودية بشكلٍ مسبق، وبإتاحة القواعد الجوية السعودية للطائرات الحربية الأميركية. لكن في كل مرة كان السعوديون يحيدون عن الموضوع بتهذيب. مع أن الجانبين حققا تقدماً في ترسيخ دمج طائرة أواكس الأميركية في منظومة الدفاع الجوي السعودي واتفقا على الدفاع عن خط الفهد، إلا أن

السعوديين لم يظهروا حماسةً تجاه أي صيغةٍ رسمية. وقد أشار بنزلر إلى أن السعوديين كانوا يحصرون الحديث باحتمال هجومٍ إيراني وحاجتهم إلى المساعدة في حال الهجوم فقط، بما يُظهر رغبتهم في أن تظلّ القيادة المركزية الأميركية بعيدة في ما عدا ذلك. قال الجنرال راسيل فيوليت الذي كانت تربطه علاقة وثيقة مع العائلة المالكة في السعودية: «كان طلبنا أكبر مما يمكن للسعودية تلبيته قبل الغزو العراقي للكويت»[401].

في تشرين الأول/أكتوبر 1985، حل الأدميرال وليام كرو محل فيسي ليكون رئيساً لهيئة الأركان المشتركة وأبرز رجل عسكري في البلاد. كرو، الأصلع الرأس والممتلئ الجسم، نشأ في ولاية أوكلاهوما، وترقى في الرتب العسكرية جراء فطنته السياسية وليس بسبب قدراته القتالية. كما شغل كرو المدعّم بدكتوراه في العلوم السياسية مناصب استراتيجية وسياسية عدة تتعلّق بالحكمة الأميركية، منها منصب مساعد مستشار الرئيس إيزنهاور في مجال البحرية. والمنصب الوحيد الذي شغله في حياته خارج نطاق دعم الحكومة الأميركية كان تطوّعه عام 1970 كمستشار كبير للقوات النهرية في فيتنام الجنوبية. وقد تركت تجربته في قتال الجبهة الوطنية لتحرر جنوب فيتنام (الفيتكونغ) بمراكب دوريّة صغيرة في روافد دلتا نهر الميكونغ ذات المياه البنية تأثيراً بالغاً على وجهات نظره بشأن الحرب. وقد عبّر عنها في وقت لاحق قائلاً: «لم يكن لديّ رؤية ضابط بحري تقليدي، إذ كانت رؤيتي أقرب إلى الجيش أو المارينز، ومفادها أن القتال يجب أن يكون على شكل حرب عصابات»[402]. تولى كرو في السبعينيات قيادة قوة الشرق الأوسط التي اتّخذت مقراً لها في البحرين. وقد أتاحت له هذه المهمة الدبلوماسية البحتة فهم الديناميات السياسية الخاصة بالخليج العربي والحكومات العربية.

عندما كانت الولايات المتحدة تناقش استراتيجية إيران، اضطر الكونغرس في العام 1986 إلى إصدار تشريع شامل حول وزارة الدفاع التي اعتبرت حينها ضيقة الأفق. أُطلق عليه رسمياً اسم قانون إعادة تنظيم وزارة الدفاع. علماً أنه غالباً ما كان يُشار إليه باسم باري غولدووتر ووليم نيكولاس وهما عرّابا هذا القانون. كما بحث كلٌّ من سام نان وليس آسبن من بين آخرين في أفضل السبل لدمج القوى المختلفة ضمن قوّةٍ حربية مشتركة أكثر فاعلية. كانت الحاجة إلى هذه القوة حقيقية، لا سيما في ظلّ التنافس المستعر بين مختلف الإدارات والذي ألقى بثقله على البنتاغون. إذ كان كلّ فرعٍ يطوّر إمداداته ويديرها بشكلٍ مستقل، ولم يكن بإمكان الأنظمة الأساسية، مثل رادارات الدفاع الجوي البحري وسلاح الجو، أن تتبادل البيانات، بسبب عدم الاتساق بين أجهزة الإرسال الخاصة بها. وحتى المعدات البسيطة التي تحتاجها جميع الإدارات العسكرية مثل مفاتيح الشق، فكانت تختلف بين إدارةٍ وأخرى. تم تمرير قانون غولدووتر-نيكولاس، الذي يعدّ أول إعادة هيكلة رئيسية لوزارة الدفاع منذ عام 1947، على الرغم من اعتراضات وزير الدفاع واينبرغر ورؤساء الأجهزة. وقد رقى هذا القانون رئيس هيئة الأركان المشتركة ليصبح المستشار العسكري المباشر للرئيس عوضاً عن هيئة مشتركة تتألف من رئيس هيئة الأركان المشتركة ورؤساء المكاتب الأربعة. رسم القانون بوضوح التسلسل القيادي العسكري، انطلاقاً من الرئيس ثم وزير الدفاع

وصولاً إلى القادة حملة رتبة أربع نجوم، مثل كريست في القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم). كما وفّر القانون لهؤلاء القادة حرية واسعة لتنظيم وتوظيف قوى المكاتب الأربعة في مسارحهم. إضافةً إلى أنه وضع حداً لإمكانية اتخاذ قراراتٍ تنفيذية من قبل رؤساء الأجهزة وحَصَرَ مسؤولياتهم في تدريب قواتهم وتجهيزها. سجلّ القانون نهاية سيطرة قائد العمليات البحرية على أسطوله[403].

جاء ردّ كرو الأول على هذا القانون الجديد بكتابة رسالة شخصية إلى قادة القيادات الموحدة طالب فيها باعتماد الانتقال البطيء نحو هذه السياسة الجديدة. اختار كرو عدم ممارسة سلطاته الجديدة، واستمرّ في الاستئناس بآراء مختلف رؤساء الأركان بهدف التوصّل إلى قراراتٍ متّفق عليها بالإجماع[404].

استغرق قبول القانون الجديد وقتاً طويلاً ولم يتم سوى بسبب الضرورة. كان التغيير مؤلماً بالنسبة للمؤسسات المحافظة مثل الجيش الأميركي. إيران هي التي فرضت هذا التغيير لسوء حظ الجنرالات والأدميرالات داخل البنتاغون. إذ كانت الحرب تلوح في الأفق، وقد وفّر الحرس الثوري الإيراني فرصة اختبار هذه الطريقة الجديدة في الحرب المشتركة.

الفصل العاشر

أسلحة لآية الله

في صباح يوم 18 حزيران/يونيو 1985، كان أبرز مساعدي وزير الدفاع كاسبر واينبرغر العسكريين، اللواء كولن باول، جالساً بمكتبه في جناح واينبرغر الفسيح والفخم الكائن في ملحق خارجي بالطابق الثالث في البنتاغون. تكدّست حزمة من الوثائق السرية الموجّهة إلى واينبرغر في صندوق بريد باول الخاص، فالوثائق الشديدة السرية يُسلّمها سُعاة بريد في طرود مقفلة ومؤمنة. ثبّت باول عينيه فوراً على وثيقة كُتب عليها «سري للغاية»، ووُسمت بـ (eyes only) أي لا يطلع عليها إلا المرسل إليه، وكانت عبارة عن مشروع قرار توجيهي للأمن القومي صادر عن البيت الأبيض. كانت هذه التوجيهات واحدة من أهم الوثائق التي تصدرها الحكومة، تحمل توقيع الرئيس، وهي عبارة عن خطة مفصّلة لسياسة الولايات المتحدة الخارجية، وتفيد كموجّه رئيسي للحكومة الأميركية برمتها. حمل غلاف الرسالة توقيع مستشار الأمن القومي بولد ماكفرلين، والعنوان التالي: «سياسة الولايات المتحدة تجاه إيران».

كانت مقترحات ماكفرلين تغييراً جذرياً في السياسة الأميركية تجاه إيران. بدأ ماكفرلين قائلاً: «إيران تشهد تطوّراً سياسيّاً حيويّاً. لقد خلق عدم الاستقرار، الذي أحدثته ضغوط الحرب العراقية-الإيرانية والتدهور الاقتصادي والصراعات داخل النظام، إمكانية حدوث تغييرات كبيرة داخل إيران. إن وضع الاتحاد السوفيتي أفضل من وضع الولايات المتحدة من حيث قدرته على استغلال، أي صراع على السلطة، قد يؤدي إلى تغيرات في النظام الإيراني والاستفادة منه». إن المستقبل يشي بحدوث اضطرابات متزايدة تعطي موسكو فرصة ذهبية لاستغلال القلاقل. إن الحاجز الاستراتيجي الذي توفره إيران لحماية النفط في الخليج العربي سوف يزول، الأمر الذي يفتح الباب لوضع المنطقة برمّتها بصورة فعلية تحت هيمنة الاتحاد السوفيتي. وهذا من شأنه أن يُنذر بكارثة، وأن يشكّل تهديداً استراتيجياً خطيراً للغرب إن لم تضع الولايات المتحدة استراتيجيةً جديدة.

بدلاً من احتواء إيران، الذي يدعو إليه واينبرغر، اقترح مستشار الأمن القومي الانفتاح على إيران. فقد أوصى ماكفرلين ببيع الأسلحة لإيران عبر حلفاء كوسيلة لتقويض النفوذ السوفيتي وتضميد جروح العناصر «المعتدلة» داخل النظام وكسب رضاها. وبذلك يمكن إرجاع إيران إلى صف الغرب وتوجيهها ضد الاتحاد السوفيتي.

أرسل باول الوثيقة بأمانة إلى واينبرغر نظراً إلى كونه غير مخوّل بالرد عليها، وكتب على ورقة بيضاء صغيرة إضافية ألصقها برأس رسالة واينبرغر: «وزارة الدفاع، وردتك هذه الرسالة ضمن سري للغاية وموسومة بألا يطّلع عليها إلا المرسل إليه. بعد اطّلاعك عليها، أقترح تحويلها إلى ريتش أرميتاج لتحليلها».

ذُهل كاسبار واينبرغر. فهو لم يغفر للنظام الحالي في طهران استيلاءه على السفارة الأميركية واحتجازه الرهائن مدّة 444 يوماً، واعتبر هذا إهانةً وطنية. وقال في سرّه إن «المعتدلين يرقدون في القبور». هل يحاول هذا الرجل في البيت الأبيض الآن أن يطلب منا التقرب إليهم بروحية التسامح، وعلى ضوء فرضية وجود نوع من براغماتيين خياليين حول الخميني؟ هذا كلام فارغ»[405]. أعاد واينبرغر الوثيقة مرةً أخرى إلى باول مخربشاً على ورقة مساعده العسكري البيضاء: «هذا القرار أسخف من أن أعلّق عليه. في كل الأحوال قم بنقلها إلى ريتش، ولكن الفرضية هنا تقول: 1) بأن إيران على وشك السقوط، 2) وبأننا نستطيع الاتفاق مع الإيرانيين على أسس عقلانية. هذا القرار يشبه الطلب من القذافي إجراء محادثة وديّة مع واشنطن».

كان ردّ فعل أرميتاج على مشروع القرار مماثلاً لردّ فعل رئيسه، وقال بغضبٍ وبكلّ اختصار: «هراء».

في حزيران/يونيو 1985 لم يكن أحد يدرك أن مقترح ماكفرلين سوف يجعل الولايات المتحدة تخطّ سياسة خارجية من شأنها أن تؤدي إلى أكبر فضيحة في إدارة ريغان، وهي فضيحة إيران - كونترا، حيث كانت أرباح مبيعات الأسلحة المنقولة سراً إلى إيران تنفق في تمويل ميليشيا موالية للولايات المتحدة تقاتل الحكومة اليسارية في نيكاراغوا. توالت ثلاثة تحقيقات حكومية بالإضافة إلى لوائح اتهام متعددة قبل أن يطوي المستشار القانوني المستقل آخر تحقيق في العام 1993، فانتهت هذه القضية بعد أن أصدر الرئيس المنتهية ولايته جورج بوش الأب سلسلةً من قرارات العفو في اللحظة الأخيرة. في الواقع، كانت فضيحة إيران-كونترا قضيتين منفصلتين: الأولى هي محاولة إدارة ريغان تجهيز ميليشيات مناهضة للشيوعية في نيكاراغوا ودعمها، والثانية هي بيع أسلحة إلى إيران على أمل عبثي في الإفراج عن سبع رهائن أميركيين يحتجزهم حزب الله، كمقدمة لتجديد العلاقات الدبلوماسية مع الجمهورية الإسلامية. وقد قام بالجمع بين العمليتين في البيت الأبيض مقدّم من مشاة البحرية، يعتقد أنه أقوم من الآخرين أخلاقاً، يُدعى أوليفر نورث.

بعد ظهر يوم 3 تموز/يوليو 1985، قام ديفيد قمحي، وهو مدير عام في وزارة الخارجية الإسرائيلية وصديق مقرب إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريز، بزيارة مكتب بولد ماكفرلين الواقع في الجناح الغربي في آخر الرواق المؤدي إلى المكتب البيضوي. بعد حديث عادي

حول الطقس الحارّ والرطوبة في واشنطن، طلب قمحي التحدث إلى ماكفرلين على انفراد. كان ماكفرلين يحترم قمحي، فهو خريج جامعة أكسفورد، وقد أحرز نجاحاً ملحوظاً في عمله مع جهاز الاستخبارات الإسرائيلية المعروف بالموساد. كان الرجلان قد عملا معاً قبل عامين من ذلك، أثناء تدخل الولايات المتحدة في بيروت، ووجده ماكفرلين ذكياً جداً، وكانت آراؤهما متقاربة حول الشرق الأوسط[406]. عندما غادر الموظفون الآخرون الغرفة قال قمحي: «جاء مايكل ليدين إلينا وسألنا إن كانت لدينا أي أحكام وآراء في ما يتعلق بحركة إيرانية معارضة. قلنا له: نعم».

كان مايكل ليدين ثرثاراً، ونصّب نفسه خبيراً بالشرق الأوسط، وتركه مجلس الأمن القومي بموجب عقد غير ثابت. وكان كثيراً ما يقضي إجازاته في إسرائيل، ولديه اتصالات جيدة مع مسؤولين كبار في الحكومة هناك. في أوائل شهر أيار/مايو 1985، سافر ليدين إلى إسرائيل جوّاً والتقى مدة ساعة تقريباً رئيس الوزراء الإسرائيلي بيريز. أعرب الأخير عن استياء المخابرات الإسرائيلية من إيران بعض الشيء، ودعا إلى أن يعمل البلدان معاً لتحسين معلوماتهما حول إيران. نقل ليدين ذلك بحماس إلى ماكفرلين.

قال قمحي: «قبل عام تقريباً بدأنا نتحدث إلى إيرانيين ساخطين. نعتقد أننا نتواصل مع أناس مستعدّين وقادرين في آن على تغيير الحكومة مع مرور الوقت فيما لو وُجد من يدعمهم».

وصف قمحي إيران بأنها على وشك الانهيار بسبب تزايد المعارضة الداخلية. بيد أن المعتدلين الموالين للغرب داخل الحكومة يحتاجون إلى دعم خارجي، ولاسيما من الولايات المتحدة. ولإظهار حسن نواياهم، عرضوا الإفراج عن الرهائن الأميركيين في لبنان مقابل الحصول على بعض المعدّات العسكرية على الأرجح. وأنهى قمحي قائلاً: «إنهم واثقون من قدرتهم على القيام بذلك». بدا الأمر أروع من أن يُصدّق: ذلك أن الانفتاح على الإيرانيين المعتدلين قد يوجّه إيران من جديد نحو الولايات المتحدة، بالإضافة إلى الإفراج عن الرهائن في لبنان.

بعد بضعة أيام ذكر ماكفرلين اقتراح قمحي للرئيس ريغان. رد ريغان قائلاً: «يا إلهي، هذا خبر عظيم!» وأوعز إلى ماكفرلين بتحرّي هذه المسألة.

لم يكن اقتراح قمحي جديداً، فقد اقترح السفير الإسرائيلي في واشنطن موشي أرينز خطةً مماثلة في تشرين الأول/أكتوبر 1982، تقضي باستخدام السلاح للتأثير في الحكومة الإيرانية. لقد وضعت الحرب العراقية-الإيرانية البلدين الحليفين، إسرائيل والولايات المتحدة، على طرفي نقيض في الصراع، فعلى الرغم من الدعم الإيراني لحزب الله، كانت إسرائيل تعتبر العراق بزعامة صدام حسين عدواً أخطر من إيران. وعارضت الحكومة الإسرائيلية بشدّة جهود إدارة ريغان في دعم العراق سراً والسماح لدول أن تكون طرفاً ثالثاً في توفير الأسلحة. كانت علاقات إسرائيل بإيران جيدة خلال حكم الشاه، وكان العديد من كبار الإسرائيليين لا يزالون يضمرون أفكاراً حول جعل إيران حليفاً طبيعياً ضد عدوّهم العربي المشترك. ضغطت إسرائيل مراراً وتكراراً على المسؤولين في إدارة ريغان لتأييد مخططها لبيع أسلحة للإيرانيين، كوسيلة لتحسين العلاقات مع إيران[407].

في صيف العام 1985 عثر عملاء يعملون لصالح الولايات المتحدة في شحن أسلحة بصورة سرية إلى المقاومة في نيكاراغوا، في مستودع في العاصمة البرتغالية لشبونة، على أسلحة إسرائيلية مرسلة إلى إيران. وعندما تمّت مواجهة مسؤول إسرائيلي رفيع المستوى أجاب أن إسرائيل لم تنتهك الحظر المفروض على بيع الأسلحة لإيران من الناحية التقنية، لأن الأسلحة يتم شحنها عن طريق شركة خاصة، وكل طائرة تهبط لتفرغ أسلحة تعود محملةً أيضاً بيهود إيرانيين. وقد سمحت الحكومة الإسرائيلية بذلك لأنها تودّ أن تكسب ثقة العناصر المعتدلة في الجيش الإيراني التي قد تزداد قوّةً بما يكفي لتشكيل حكومة إيرانية أكثر عقلانية[408]. كان قمحي الآن يفاتح ماكفرلين بهذه الفكرة نفسها[409].

كان منوشهر غربانيفار هو المصدر الإسرائيلي في داخل النظام الإيراني. ولد غربانيفار في إيران في مطلع الأربعينيات، وهو يصف نفسه بأنه رجل أعمال يعمل في الاستيراد والتصدير، وقد راكم ثروةً كبيرة من خلال بيع خدماته إلى وكالات استخبارات مختلفة، بما في ذلك سافاك الشاه والموساد الإسرائيلي. كان قصير القامة وممتلئ الجسم، وجهه مستدير وخفيف الشعر، ويمتلك شخصية قوية وأسلوب بائع سيارات مستعملة مهذب.

تقرّب غربانيفار في عام 1984 من ضابط استخبارات في الجيش الأميركي يعمل في منطقة الشرق الأوسط، فحوّله هذا الأخير إلى المشرفين على عملية «طهفران» التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية في فرانكفورت. ادّعى غربانيفار أن لديه معلومات حول عملية اختطاف رئيس مكتب وكالة الاستخبارات المركزية وليام باكلي التي تمت مؤخراً في بيروت، ومعلومات أكثر أهميةً أيضاً، فهو على معرفة بشأن تدبير مؤامرة لاغتيال مرشحين إلى الانتخابات الرئاسية الأميركية المقبلة. عرضت وكالة الاستخبارات المركزية غربانيفار على جهاز كشف الكذب، فأخفق في المسائل المهمة كلها. في حزيران/يونيو، أجرى مكتب وكالة الاستخبارات المركزية في فرانكفورت اختباراً آخر لغربانيفار للكشف عن الكذب، لكنه أخفق هذه المرة أيضاً، فخلصت وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي إلى أنه لا يمكن الوثوق به، وأصدرت «إشعار غش»، تنذر فيه جميع وكالات الاستخبارات الأميركية من استخدام غربانيفار كمصدر استخباراتي[410].

في يوم الخميس الموافق في 11 تموز/يوليو التقى ليدين تاجر أسلحة إسرائيلياً يعمل مستشاراً لرئيس الوزراء بيريز يدعى أدولف «آل» شويمر، وتناولا الغداء سوياً. قال شويمر لليدين إن غربانيفار وصل إلى أعلى مستويات الحكومة في طهران، بما فيهم رجل الدين المعتدل المعروف مهدي كروبي. اقترح غربانيفار على الولايات المتحدة أن تسمح لإسرائيل ببيع إيران نحو مئة صاروخ من طراز تاو (TOW) مضاد للدبابات مقابل إطلاق سراح الرهائن السبعة في لبنان، قائلاً إن مبادلة الأسلحة بالرهائن سوف تؤدي إلى تحسين العلاقات مع نظام الخميني. أحب ليدين الفكرة فكتب إلى ماكفرلين قائلاً: إن صواريخ تاو هي جزء من هذه العملية «وستكون دليلاً على حسن النية، واختباراً لما سيحدث إذا وافقت إيران على أي تقارب معنا»[411]. لم ينظر ماكفرلين في التوصيات بنظرة نقدية دقيقة طالما أن الاقتراح جاء من أرفع مستوى في الحكومة الإسرائيلية. فكّر

ماكفرلين أن مئة صاروخ مضادّ للدبابات لن تغيّر بالتأكيد من ميزان القوى في الحرب العراقية-الإيرانية، واعتقد أن المكاسب تفوق أي مخاطر إذا كان ذلك سيضمن حلّ قضية الرهائن في لبنان ويمهّد الطريق نحو الانفتاح على المعتدلين في النظام الإيراني[412].

كان الرئيس ريغان راقداً في سرير في مستشفى بيثيسدا البحرية خارج واشنطن، في ضواحي ولاية ماريلاند، وقد تعافى من إزالة ورم سرطاني في القولون. ذهب ماكفرلين إلى غرفة الرئيس. جلس ريغان في سريره، وكان تعباً لكن في حالة معنوية جيدة. بعد مناقشة بعض القضايا الجديدة المتعلقة بالتحكّم بالأسلحة مع السوفيت، طرح ماكفرلين الاقتراح الإسرائيلي. ابتهج ريغان باحتمال الإفراج عن الرهائن، وقال إنه يتفهم لماذا يريد الإيرانيون إطاحة الخميني. شجّع ريغان مستشاره للأمن القومي على متابعة الاقتراح الإسرائيلي[413].

طار قمحي بعد ذلك إلى واشنطن والتقى بماكفرلين. سأل قمحي: هل ستبيع الولايات المتحدة أسلحة إلى إيران؟ ثم أردف قائلاً في حال لم تقم الولايات المتحدة بذلك: «ما رأيك لو زوّدنا نحن [الإسرائيليون] إيران بالسلاح؟» فهذا سيرفع التكلفة عن واشنطن، كما سيجنّب الأميركيين موقفاً حرجاً جراء تقديمهم أسلحة إلى إيران مباشرة. وأراد قمحي تأكيدات في حال قامت إسرائيل بذلك، بأن تلتزم الولايات المتحدة بإعادة ملء المخزون الإسرائيلي من صواريخ تاو.

عاد الرئيس ريغان إلى البيت الأبيض بعد أن تعافى من العملية الجراحية، والتقى صباح يوم 6 آب/ أغسطس كبار مستشاريه في مقرّ إقامته في الطابق الثاني. جلست المجموعة في الطرف الغربي البعيد عن المدخل الرئيسي الطويل، في غرفة جلوس مريحة طليت جدرانها باللون الأصفر، وتحت نافذة واسعة على شكل نصف قمر تطلّ على المكتب الصحفي وعلى رواق أبيض طويل يؤدي إلى الجناح الغربي والمكتب البيضوي. كان ريغان يرتدي ثوباً فضفاضاً، وجلس خلال الاجتماع على كرسي أحمر مزين بالأزهار. افتتح ماكفرلين الجلسة بملخص عن لقائه مع قمحي والعرض الإسرائيلي المتعلّق بشحن صواريخ تاو بدلاً من الولايات المتحدة، شريطة أن نعّوضهم «نحن» عن مخزونهم من الصواريخ.

عارض واينبرغر الفكرة على الفور وقال: «لا أعتقد أن العملية قانونية»، وأضاف: «يتطلب الأمر إبلاغ الكونغرس حتى إذا قام طرف ثالث بشحن الصواريخ». وقال أيضاً في ما يخصّ الانفتاح على إيران: «لا شيء يشير إلى أن هناك تغييراً طفيفاً في ما يخصّ الخبث المعادي للغرب والموقف المناهض للولايات المتحدة من قبل القائمين على السلطة في إيران». وأضاف متشائماً: «هذا الأمر سيعرّضنا للابتزاز من قبل أي شخص يعلم بالموضوع»[414].

يكره شولتز وواينبرغر كلٌّ منهما الآخر، وكثيراً ما كانا على خلاف حول السياسة، ولكنهما في هذه المسألة كانا متفقين. وافق شولتز على استنتاجات واينبرغر وبعد دراسة دقيقة للفكرة خلُص إلى أن العملية من شأنها أن تقوّض على نحو خطير دبلوماسية الولايات المتحدة العامة بشأن عزل إيران، وعلى الرغم من تصريحاته التي تدعو إلى الانفتاح على إيران، بدا الأمر لشولتز مثل صفقة سلاح مقابل رهائن.

على الرغم من عدم حضور مدير وكالة الاستخبارات المركزية بيل كيسي هذا الاجتماع إلا أنه كان الرجل الوحيد الذي دعم ماكفرلين، فهو يشترك مع ماكفرلين بشأن مخاوفه من النفوذ السوفيتي في إيران، ويرى آفاقاً في التودد إلى إيران من خلال السلاح. في 17 أيار/مايو 1985، عزز ضابط استخبارات في وكالة الاستخبارات المركزية يدعى غراهام فولر مجدداً هذه الرؤية في مذكرة أرسلها إلى كيسي يشير فيها إلى أن حظر الأسلحة عن إيران قد يصبّ ضدّ مصلحة الولايات المتحدة عن طريق تحرك الإيرانيين لإقامة علاقات وثيقة مع الاتحاد السوفيتي، فهم يسعون بشدّة للحصول على الأسلحة من السوق العالمية لمواصلة حربهم مع العراق.

بالنسبة إلى كيسي، كان ما اقترحه مستشار الأمن القومي يعيد ببساطة صياغة مهمة وكالة الاستخبارات المركزية الحالية دون إضافة أي تغيير إليها منذ المرسوم الرئاسي الصادر عام 1981، الأمر الذي يقتضي إقامة قنوات داخل إيران للتأثير في النظام. لقد مضت أربع سنوات، وما زالت وكالته تعاني من صعوبة الوصول إلى القنوات الداخلية في إيران. فعلى الرغم من أنها بنت شبكة تجسّس في البلاد، إلّا أنها تتكون أساساً من ضباط جيش من متوسطي الرتب وبيروقراطيين، ولم يستطيعوا اختراق حاجز السريّة الذي يطوق الجمهورية الإسلامية. فظل صناع القرار الحقيقيون المحيطون بالخميني بعيدي المنال. وإذا كان لدى الإسرائيليين اتصالات جديدة قد تساعد وكالة الاستخبارات المركزية على إنجاز هذه المهمة فإن كيسي سوف يساندهم. كان كيسي قلقاً أيضاً على مصير وليام باكلي، رئيس مكتب وكالة الاستخبارات المركزية، الرهينة لدى حزب الله، الذي شجّعه على الذهاب إلى لبنان في أعقاب تفجير السفارة في العام 1983. في ربيع ذلك العام بدأت تقارير تفيد أن الإيرانيين كانوا يعذبون باكلي تصل إلى الوكالة[415]. فإذا اعتقد الإسرائيليون أن غربانيفار قد ينجح في تحرير باكلي، فلِمَ لا ندعه يحاول؟

لم يتخذ الرئيس ريغان قراراً صباح ذلك اليوم، لكنه دعا ماكفرلين إلى المكتب البيضوي بعد أيام. وصف ماكفرلين اللقاء في وقت لاحق قائلاً: «جلس الرئيس بهدوء وسكينة بضع لحظات، ثم ضغط أنامله بشدّة بصورة تلقائية وحدق في السجادة، وأخيراً رفع بصره وقال: «حسناً، لقد فكّرت في الأمر، وأريد المضي قدماً فيه. أعتقد أنه الشيء الصائب الذي ينبغي عمله[416]».

كانت فكرة الانفتاح على إيران تراود الرئيس المتفائل دوماً منذ فترة طويلة. وقّع ريغان خلال فترة ولايته الأولى ثلاث رسائل على طاولة مكتب البيت الأبيض وسلّم كلّاً منها إلى الحكومة الإيرانية من خلال وزراء خارجية بلدان مختلفة يحثّ إيران فيها على تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة[417]. ولمّا لم يتلّق رداً، ظنّ أن الدولتين المتدينتين ستظلان حليفتين طبيعيتين ضد السوفيت فضلاً عن قضيتهما المشتركة في أفغانستان. أربكت محنة الرهائن الأميركيين السبعة ريغان وأزعجته، فهو رجل رقيق القلب بطبيعته، وكثيراً ما كان يفكّر بقلبه عوضاً عن عقله أثناء اتخاذه القرارات.

قال بويندكستر في وقت لاحق: «كان الرئيس يتحدّث دائماً عن الرهائن، وبدا موضوع الرهائن في وقت من الأوقات من أولوياته الكبرى»، مضيفاً: «ولكن الموضوعين مترابطان. ينبغي علينا الوصول إلى الإيرانيين حتى لو لم يكن هناك رهائن[418]».

في 20 آب/أغسطس 1985، هبطت طائرة إسرائيلية مستأجرة من طراز بوينغ 707 في طهران، وكانت تحمل 96 صاروخاً من طراز تاو (TWO) أميركية الصنع. لكن الرهائن لم يغادروا لبنان. ادّعى غربانيفار الذي رافق الشحنة إلى إيران، أن عناصر من الحرس الثوري استولوا على الصواريخ من مدرج المطار وتواروا عن الأنظار؛ ولم تصل الأسلحة إلى المعتدلين المقصودين. خلال اجتماع صاخب في أوروبا أوضح غربانيفار أنّ على الولايات المتحدة أن ترسل الدفعة الثانية المكونة من 400 صاروخ تاو من أجل إطلاق سراح أحد الرهائن. بعد مكالمة هاتفية بين ريغان وماكفرلين، وافق ريغان على شحن الدفعة الثانية من الصواريخ.

في وقت مبكر من صباح يوم 15 أيلول/سبتمبر هبطت طائرة إسرائيلية مستأجرة أخرى في الشمال الغربي من مدينة تبريز الإيرانية محمّلة بـ 408 صواريخ. جاء غربانيفار هذه المرّة مع الطائرة. عرض الإيرانيون إطلاق سراح أحد الرهائن وقالوا إن بوسع الولايات المتحدة أن تقرّر اسم الرهينة. أراد ماكفرلين وكيسي إطلاق سراح باكلي، ولكن الايرانيين نقلوا من خلال غربانيفار أن باكلي «مريض جداً» ولا يمكن إطلاق سراحه. في الواقع، كان باكلي ميتاً منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر. ثم طلب ماكفرلين إطلاق سراح القس بنيامين وير، لأن أسرته كانت تنتقد بصورة علنية محاولات الإدارة الأميركية الإفراج عن الرهائن. وهكذا، فقد أسفر شحن 504 صواريخ عن تحرير رهينة واحدة.

تحسباً لتحرير الرهائن المحتمل بدأت هيئة الأركان المشتركة تعمل على وضع خطة طوارئ لتأمين إطلاق سراح الأميركيين في بيروت ونقلهم بسلام إلى قبرص والعودة بهم إلى الولايات المتحدة. أنهكت جهود العمل المضنية في تفاصيلها داخل مجلس الأمن القومي رجل البحرية المقدم أوليفر نورث، البالغ من العمر اثنين وأربعين عاماً. يتميز نورث الحائز وسام البحرية بجاذبية وحيوية، ويكنّ الاحترام للمحاربين القدامى في فيتنام. وصل نورث إلى البيت الأبيض عام 1981 باعتباره واحداً من بين بضعة ضباط عسكريين تم تعيينهم في غرفة متواضعة بالطابق الثالث في مبنى المكتب التنفيذي القديم المجاور للجناح الغربي. كان من المرجح أن يستمر نورث في عمله العسكري بنجاح، ولكن وظيفته المثيرة ونفوذها في مجلس الأمن القومي أغرياه بالبقاء، فمدّد دورته الوظيفية في البيت الأبيض، وكان وقتئذٍ يمضي عامه الخامس فيه. كان نورث يتمتع بسمعة يستحقها عن جدارة، فهو «شخص ماهر يمكن الاعتماد عليه لإنجاز الأمور»، على حد تعبير روبرت غيتس من وكالة الاستخبارات المركزية.

كذب غربانيفار بشأن أشياء كثيرة وكبيرة، ولكن الإسرائيليين كانوا يعلمون أن بوسعه حقيقةً الوصول إلى مسؤولين إيرانيين كبار هم في أمسّ الحاجة إلى الأسلحة الأميركية. ذلك أنّ المعدات العسكرية الإيرانية كلها كانت من صنع الولايات المتحدة. بعد ست سنوات من الحرب والحظر الذي فرضته الولايات المتحدة على الأسلحة كانت إيران تعاني نقصاً مزمناً في مخزونات

الذخيرة وقطع الغيار الضرورية لمواصلة تشغيل آلة حربها. كانت الصواريخ ذات أهمية خاصة لمواجهة تفوّق العراق في الطائرات والدبابات. في حين بقيت الحكومة الإيرانية ملتزمة بكسب الحرب وتصدير الثورة، حدثت انشقاقات داخل الحكومة بين البراغماتيين والأصوليين بشأن التقرب من الغرب من أجل الحصول على أجهزة عسكرية ضرورية، وبصورة خاصّة التقرب من الولايات المتحدة. ترأس المعسكر الواقعي صديق آية الله الخميني الحميم، رئيس البرلمان الإيراني هاشمي رفسنجاني، فهو رجل سياسي بارع وحذق على الرغم من فساده، فقد أصبح ثرياً في وقت لاحق جراء احتكاره صادرات الفستق الإيراني، كما أنه كان قائداً للجيش في الحرب فيما مضى. لا يتورع رفسنجاني عن القيام بالتجارة مع الشيطان الأكبر من أجل كسب الحرب. فإذا كان هذا الأمر سيؤدي إلى تحسين العلاقات بين البلدين، فليكن. كان رئيس الوزراء مير حسين موسوي يؤيد رفسنجاني ويشاطره آراءه، وقد دعا إلى العمل مع الإسرائيليين مع أن دعوته هذه كانت مدفوعة بالحاجة الحربية أكثر منها من أي انفتاح على الغرب. عمل موسوي القوي مهندساً معمارياً قبل الثورة، وكان ينتمي إلى الجناح اليساري في الحركة الإسلامية.

تربّع في الجانب الآخر من المنشقين خليفة المرشد الأعلى ونائبه آية الله حسين علي منتظري، فهو ليبرالي حسب المعايير الإيرانية، درس العلوم الدينية في مدينة قم، ويعد من كبار المؤيدين المخلصين للثورة لكنه يؤمن بحكومة تكون أكثر ليبرالية ومتعددة الأحزاب، يترأسها فقيه إسلامي ويحكمها ضمن حدود الديمقراطية التعددية. وقد اصطدم لاحقاً بالخميني حول التكتيكات الصارمة المستخدمة لقمع المعارضين، ولاسيما الإعدامات الجماعية التي أمر بها الخميني في العام 1988. بيد أنه لم يكن يجد أي مصلحة في أي تقارب مع الولايات المتحدة على الرغم من آرائه الديمقراطية الشخصية. لقد أبقى على ميليشيا مسلّحة خاصّة به يتزعمها مهدي هاشمي شقيق صهره، وهو شخصٌ دوغمائي متعصّب دموي، قضى فترة من حياته في السجن أثناء حكم الشاه لقيامه بقتل البغايا والمثليين جنسياً. وظلّ مخلصاً لمنتظري كلياً، وعمل على تصدير الثورة إلى لبنان من خلال حزب الله.

وصل إلى آية الله الخميني خبر الصفقات السرية مع الأميركيين والإسرائيليين بعد شحن الدفعة الثانية من صواريخ تاو، فانحاز إلى طرف البراغماتي رفسنجاني. الشيء الذي غاب عن ماكفرلين، وعتّم عليه غربانيفار، هو عدم وجود جناح «معتدل» في إيران البتة. كان كل زعيم فصيل يعلم بالصفقات السرية وقد صادق عليها المرشد الأعلى. بالنسبة إلى الخميني، لم يكن من مجالٍ إطلاقاً لانفتاح استراتيجي وإنما ضرب العراق وتصدير الثورة. ولم يكن يتردد في توجيه الأسلحة الأميركية نحو صانعيها.

تحمّس الإيرانيون، وقد أغرتهم شحنات الأسلحة، للحصول على المزيد منها. شملت قائمة غربانيفار الطويلة صواريخ جو - جو متطورة، وصواريخ مضادّة للسفن من طراز هاربون، وصاروخ هوك مضاد للطائرات أميركي الصنع، أُجريت عليه تحسينات مختلفة، وقد ادّعى غربانيفار زوراً أن إيران تحتاجه لمواجهة قاذفات الدب السوفيتي التي انتهكت مراراً المجال الجوي الإيراني. كانت هذه الحجة من النوع الذي يروق لصقور الحرب الباردة في الإدارة[419]. ولتقديم شيء يرغب فيه الأميركيون أجرى غربانيفار تعارفاً بين ليدين ومهدي كروبي مدّعياً أنه زعيم

«تيار الوسط»، أي الفصيل المعتدل المفترض داخل الحكومة الإيرانية على حد وصفه[420]. ادّعى كروبي أنه مستشار مقرّب من المرشد الأعلى، وأنه يقضي ثلاثة أيام أسبوعياً في منزل الخميني[421]. فهو إذاً مسؤول كبير، وهذا هو النمط الذي يروق لماكفرلين ويأمل الاتصال به. في الوقت الذي أعاق ماكفرلين عملية بيع بعض الأسلحة الأكثر تطوراً، أذن ريغان بثمانين صاروخاً مضاداً للطائرات من طراز هوك، ليتم إرسالها إلى إيران عبر إسرائيل.

في مساء يوم 22 تشرين الثاني/نوفمبر، أيقظت دوين كلاريدج مخابرة هاتفية كانت من أوليفر نورث الذي قال: «اسمع، لدي مشكلة مرتبطة بالبرتغال. أحتاج أن أراك فوراً». كان نورث وكلاريدج صديقين، وكانا يلتقيان بين حين وآخر لتناول مشروب في بار يسمى «تشارليس بليس» في ماكلين بولاية فيرجينيا[422]. بعد مضي بضع ساعات على المكالمة الهاتفية اجتمع الرجلان في مكتب كلاريدج بمقرّ وكالة الاستخبارات المركزية. أوضح نورث أنه بحاجة إلى مساعدة كلاريدج في تسهيل تسليم إسرائيل معدات تنقيب عن النفط إلى إيران. في الحقيقة، كانت الطائرة تحمل صواريخ هوك، وكان عليها أن تحطّ في البرتغال حيث سيتم نقل الصواريخ إلى طائرة أخرى محايدة قبل نقلها جواً إلى طهران. بيد أن إسرائيل أرسلت الطائرة دون الحصول على إذن بالهبوط، فاشتبهت الحكومة البرتغالية في أن الطائرة تحمل ما هو أكثر من معدات تنقيب عن النفط، فلم تأذن لها بالهبوط في لشبونة.

لتجنب الهبوط في البرتغال أمر كلاريدج طائرة من شركة سانت لوسيا للخطوط الجوية التي تعود ملكيتها لوكالة الاستخبارات المركزية أن تطير بالصواريخ مباشرةً من إسرائيل إلى طهران. كان يقود الطائرة طيار من ألمانيا الغربية، وهبطت في طهران في الساعات الأولى من يوم 25 تشرين الثاني/ نوفمبر. كان في استقبال الطائرة على مدرج المطار رئيس الوزراء موسوي. تستطيع طائرة وكالة الاستخبارات المركزية الصغيرة أن تحمل ثمانية عشر صاروخاً فقط، وقد أرسل الإسرائيليون نسخة قديمة عن الصواريخ، حافلة بالعلامات العبرية ورُسمت نجمة داود على كل صاروخ. غضب موسوي غضباً شديداً واتصل بغربانيفار، الذي بدوره اتصل بليدين. كان غربانيفار في حالة شبه هستيرية، صارخاً مراراً وتكراراً أن الولايات المتحدة قد خدعتهم. كان ينبغي لكارثة صواريخ هوك أن تنهي قضية الأسلحة الإيرانية برمتها. عوضاً عن ذلك، أقنعت المسألة أولئك الذين دعموها بضرورة أن تقوم الولايات المتحدة بدور مباشر أكثر في عمليات نقل الأسلحة.

في يوم السبت الموافق 30 تشرين الثاني/نوفمبر 1985، كان الرئيس ريغان قد انتهى من تشذيب شجرة الجوز الضخمة الموجودة أمام فناء مزرعته في ولاية كاليفورنيا عندما وصلته رسالة سرية وُسمت بألا يطلع عليها سوى المرسل إليه. كانت الرسالة من بولد ماكفرلين يقدّم فيها استقالته، مشيراً إلى أن إقامته في واشنطن قد طال أمدها وأنه يريد قضاء مزيد من الوقت مع عائلته. وفي مناسبة الإعلان للصحافة عن رحيل ماكفرلين، الذي تم بعد خمسة أيام من تقديم استقالته، قال الرئيس في 4 كانون الأول/ديسمبر لماكفرلين مازحاً بصورة عفوية: «أود أن أحذرك من أنني قد

أستدعيك من وقت إلى آخر لطلب مشورتك ونصيحتك الحكيمة»[423]. أعلن ريغان أن نائب ماكفرلين، اللواء البحري جون بويندكستر، سيكون المستشار الجديد للأمن القومي. كان رابع شخص يتقلّد هذا المنصب في عهد إدارة ريغان. كان بويندكستر لامعاً على نحو لا شك فيه. تخرّج من أنابوليس وكان الأوّل في صفه، ثم نال شهادة الدكتوراه في الفيزياء النووية من معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا في العام 1964. يدخن الغليون بلا توقف، ويتميز بسلوكه الهادئ وولعه بالتأمل والتفكير. بيد أن واينبرغر لم يعتقد أن منصب مستشار الأمن القومي يناسب بويندكستر: «فهو لا يمتلك أوراق اعتماد قوية في السياسة الخارجية». مع أن بويندكستر عمل بصورة فعّالة في إدارة الموظفين في مجلس الأمن القومي، إلا انه أثبت أنه شخصٌ موالٍ للبيت الأبيض. ويشاطر أيضاً صديقه الحميم بيل كيسي ازدراءه للكونغرس، وذلك لتدخله في الشؤون الخارجية.

ناقش بويندكستر وريغان كارثة نقل الأسلحة الإسرائيلية في تشرين الثاني/نوفمبر، واتفق كلاهما على أن الإسرائيليين قد عرقلوا الشحنة، وأن الحلّ يكمن في أداء الولايات المتحدة دوراً أكثر فاعلية. في صباح يوم 7 كانون الأول/ديسمبر، المصادف لإحياء الذكرى السنوية لبيرل هاربر، واليوم السنوي للعبة كرة القدم بين كلّيتي الجيش والبحرية، اجتمع ريغان مرةً أخرى مع ماكفرلين وشولتز وواينبرغر وبويندكستر ونائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية جون ماكماهون الذي حلّ محل كيسي، نظراً لخضوع الأخير للعلاج في نيويورك لإصابته بالسرطان. تحولت الجلسة إلى حوار متبادل وصريح بشكل ملحوظ مع الرئيس وكلٍّ من شولتز وواينبرغر. جال شولتز بصورة حماسية معلناً أنه ضد التعامل مع الإرهابيين، وقال: «علينا وضع حد لهذه العملية»، مضيفاً: «ينبغي إيقافها، فنحن نشجع الإيرانيين على الخطف من أجل الربح».

تحول ريغان إلى كاسبر واينبرغر وسأله: «ما رأيك؟»

رد وزير الدفاع: «هل أنتم مهتمون حقاً برأيي؟» فهو يدرك تماماً أن الرئيس يعلم أنه عارض الفكرة منذ البداية.

أجاب ريغان بإيجاز: «أجل».

كرر واينبرغر تعليقات شولتز، وشرع في شنّ هجوم عنيف على استمرار الاتصالات بالإيرانيين، فالنظام في إيران ما زال مناهضاً لأميركا جوهرياً، وقال: «إن ذلك سوف يقوّض عملية «استانش» وجهدنا بكامله لاحتواء إيران، وسوف نفقد صدقيتنا كلها أمام حلفائنا. ثمة مشكلات قانونية مرتبطة بهذه العملية، سيدي الرئيس، ناهيك عن المشكلات السياسية. يعدّ هذا الأمر انتهاكاً لقانون مراقبة تصدير الأسلحة الذي أصدرناه حتى ولو تم من خلال الإسرائيليين. إنه ينتهك حظر أسلحتنا على إيران، وهذا غير مشروع»[424].

ردّ ريغان، وقد أحبطته اعتراضات واينبرغر وشولتز العنيفة، قائلاً: «حسناً، لن يغفر لي الشعب الأميركي البتة إذا فوّت الرئيس العظيم والقوي ريغان فرصة إطلاق سراح الرهائن حتى

ولو كانت بتجاوز هذه المسألة القانونية». أجاب واينبرغر ساخراً: «فإذاً يا سيدي الرئيس ساعات الزيارة هي يوم الخميس».

لقد تردّد ريغان. فقد أظهرت الملاحظات التي دوّنها واينبرغر بخط يده خلال هذا الاجتماع أن الرئيس كان يعتقد أن الأسلحة ستذهب إلى عناصر معتدلة داخل إيران لا إلى الحرس الثوري. في نهاية الاجتماع فكر واينبرغر أن تعاونه مع شولتز قد نجح. لدى عودته إلى وزارة الدفاع سأله مستشاره العسكري كولن باول كيف كان الاجتماع. أجاب واينبرغر مبتسماً ابتسامة طفيفة: «اعتقد أنّ الفكرة قد وئدت في مهدها».

لكن ريغان ظلّ متردداً إزاء التخلي عمّا اعتبره بصيص الأمل الوحيد للإفراج عن الرهائن. على الرغم من كل الوعود التي نُكثت، أمّنت صفقات الأسلحة الإفراج عن رهينة واحدة فقط من الرهائن المحتجزين في بيروت؛ ولا يسع ريغان أن يقنع نفسه ببساطة ويعترف بأن الولايات المتحدة لا يمكنها القيام إلا بالقليل للتأثير في حزب الله[425].

أشار بويندكستر قائلاً: «لا أحد خارج البيت الأبيض يعتقد أن ثمة إيرانيين معتدلين بوسعنا العمل معهم». قال بيل كيسي معارضاً: «أرى أنّ علينا أن نحاول، وأظن أن الرئيس يوافقني الرأي». وقال لريغان: «إنها عملية محفوفة بالمخاطر، ولكن هذه حال كلّ العمليات المهمّة».

بدلاً من أن توأد الفكرة المتعلقة بإيران، قام مجلس الأمن القوميّ برئاسة بويندكستر بإعادة إحيائها. في 17 كانون الثاني/يناير من عام 1986، وقّع ريغان أمراً جديداً للقيام بعملية سرية، فقد كلّف وكالة الاستخبارات المركزية بتولّي مهمة نقل الأسلحة. الهدف لم يتغيّر. أراد ريغان تقوية العناصر المعتدلة داخل الحكومة الإيرانية «من خلال إظهار قدرتها على الحصول على موارد لازمة للدفاع عن بلدها ضدّ العراق وتدخل الاتحاد السوفيتي»[426]. وبدلاً من استخدام أسلحة إسرائيلية، سوف تبيع الولايات المتحدة صواريخ من طراز تاو أو هوك مباشرةً إلى إيران من خلال الإسرائيليين الذين سيقومون بدورهم بنقلها إلى وسطاء غربانيفار في طهران[427].

وكّل مدير وكالة الاستخبارات المركزية كيسي جنرالاً متقاعداً من سلاح الجو هو اللواء ريتشارد سيكورد للمساعدة على تسهيل نقل الأسلحة الأميركية إلى إيران. كان سيكورد موزعاً للأسلحة، وقد قام بتزويد الكونترا بأسلحة أيضاً بطلبٍ من كيسي ونورث. وتم إدراج إطلاق سراح الرهائن بوصفه منفعة عرضية في القرار، ولكن ظل هذا الجانب مهماً جداً في ذهن ريغان. عندما وقع الرئيس القرار، قبل أن يتوجه إلى مركز بيثيسدا للعلاج الفيزيائي، كتب في مذكراته قائلاً: «الأمر الوحيد الذي كان بحاجة إلى بتّ هو انتظار مجلس الأمن القومي لقرارنا المتعلق بمسعانا لتحرير خمسة رهائن في لبنان. يتضمّن ذلك بيع صواريخ تاو مضادة للدبابات إلى إيران. لقد وافقت على المضي قدماً»[428].

نقل غربانيفار طلباً جديداً من معارفه في طهران. أراد الإيرانيون هذه المرة معلومات استخباراتية عن العراق. ذهب مكماهون إلى البيت الأبيض لرؤية بويندكستر والتعبير عن اعتراضه الشديد على تزويد إيران بأي معلومات استخباراتية. قال مكماهون مجادلاً: «كان الأمر مقتصراً على توفير صواريخ دفاع فقط للإيرانيين، وهذا الأمر مختلف عن تزويدهم بمعلومات استخباراتية حول تحركات الجيش العراقي لأننا بذلك نتيح لهم إمكانية لشنّ الهجمات». قد يؤدي ذلك إلى انتصار إيران في الحرب، وستنجم عنه «نتائج كارثية» بالنسبة إلى الولايات المتحدة. لم يناقش بويندكستر هذا الأمر بل، على العكس، اعتبره فرصةً ينبغي استغلالها، قائلاً: «يمكن إفساد خارطة تحركات الجيش العراقي في أي حال».

بعد ظهر ذلك اليوم التقى نورث في وكالة الاستخبارات المركزية روبرت غيتس وجون ماكماهون وتوم تويتين لمناقشة نوع المعلومات الاستخباراتية التي سيزودون إيران بها. اتصل غيتس عن طريق الهاتف الآمن بتشارلز آلن، وهو ضابط في وكالة الاستخبارات المركزية من ذوي الخبرة، عُين ضابطاً للاستخبارات القومية لمكافحة الإرهاب، وطُلب منه العمل مع بعض المحلّلين في شعبة الشرق الأدنى لانتقاء بعض المعلومات الاستخباراتية المحدودة لتزويد إيران بها. قال غيتس إن الطلب جاء من البيت الأبيض، لكنه شدّد على آلن أن يتأكد من أن المعلومات التي سيتم توفيرها «لن تعطي أي أفضلية فعلية للجيش الإيراني»[429].

في اليوم التالي، سلّم آلن غيتس خريطة تبيّن اصطفاف القوات العراقية على طول الحدود الإيرانية، بما في ذلك مواقع قيادات الوحدات العسكرية العراقية ومواضع التجهيزات العسكرية الأساسية[430]. في محاولة لتخفيف الضرر أظهرت الخريطة تفاصيلَ الخط الأمامي لفرقة عسكريّة عراقية واحدة في وسط العراق بعيدة جداً عن الجبهة الجنوبية الحاسمة القريبة من البصرة. أُعطيت المعلومات بعد بضعة أيام لغربانيفار ومن ثم وصلت إلى يد الجيش الإيراني، الذي استخدم هذه الهدية غير المتوقّعة، فشنّ هجوماً ليلياً أسفر عنه تراجع القوات العراقية ميلاً ونصف الميل إلى الخلف. ما اضطر العراق إلى إرسال فيلق المدرعات الاحتياطي لاستعادة خط الجبهة، وقد تمكّن من ذلك ولكن بعد أن قدّم أكثر من ألف ضحية[431]. أُعطيت إيران أيضاً المخطّط الكامل لمعركة القوات البرية والجوية العراقية، وكانت هذه المعلومات توفرها وكالة استخبارات الدفاع غير المطّلعة[432].

لم يكن أفراد وكالة الاستخبارات المركزية يثقون بغربانيفار. التقى تشارلي آلن بغربانيفار في منزل ليدين في 13 كانون الثاني/يناير ليتحقق بدقّة من معلومات هذا الإيراني عن خفايا الحكومة الإيرانية. خلص آلن إلى أن رجل الأعمال الإيراني هذا «مخادع ومحتال»[433]. وشاطره هذا الشعور رئيس مكتب إيران جاك ديفين الذي طلب إخضاع غربانيفار مرة أخرى لاختبار كشف الكذب. فشل هذا الأخير مرةً أخرى شأن ثلاث عشرة مسألة رئيسية من أصل خمس عشرة تتعلق بعلاقته بالحكومة الإيرانية ودقة تصريحاته عنها. ولكن مدير وكالة الاستخبارات المركزية ظل ملتزماً بالمبادرة. قد يكون غربانيفار بالغ في ما يتعلق بنفوذه داخل الحكومة الإيرانية، ولكن إذا

تمكن من توفير قنوات موثوقة إلى الحكومة، فهذا يستحق المخاطرة. قال كيسي مجابهاً: «حسناً، ربما يكون غربانيفار محتالاً ونصاباً». ومع ذلك مضت العملية قدماً[434].

تبعاً لقرار الرئيس، وجّه أمر واينبرغر الممتعض الجنرال باول بالعمل مع الجيش لنقل أربعة آلاف صاروخ من طراز تاو إلى وكالة الاستخبارات المركزية. نسّق باول عملية التسليم مع نائب رئيس أركان الجيش، الجنرال ماكسويل ثورمان.[435] في 15 شباط/فبراير حملت طائرة بيضاء متواضعة، نُقش على هيكلها عبارة «النقل الجوي الجنوبي»، من قاعدة كيلي لسلاح الجو القريبة من سان أنطونيو بولاية تكساس، أول دفعة صواريخ مكونة من خمسمئة صاروخ تاو، وطارت بها إلى إسرائيل. وهناك نقل طاقم أرضي الصواريخ إلى طائرة إسرائيلية قامت بالمرحلة النهائية ونقلتها إلى إيران، ووصلت إليها في 17 شباط/فبراير. بعد عشرة أيام، وصلت الدفعة الثانية المكونة من خمسمئة صاروخ تاو إلى المطار العسكري- المدني المشترك في بندر عباس. على الرغم من بيع ألف صاروخ إلى إيران، لم تظهر أي رهينة من أزقة بيروت الخلفية.

ومع ذلك ظلّ نورث وبويندكستر متفائلين. في 25 شباط/فبراير رتب غربانيفار اجتماعاً في فندق الشيراتون في فرانكفورت، ضمّ نورث ومستشاراً من مكتب رئيس الوزراء موسوي يدعى محسن كانغارلو يرافقه ضابط من الحرس الثوري الإيراني يدعى علي سامي واثنان من كبار ضباط الاستخبارات العسكرية الإيرانية. أسفرت المحادثات التي استمرّت يومين بين الأميركيين الطامحين إلى الإفراج عن الرهائن وكانغارلو بأن طلب الأخير طلباً مريباً جداً بالنسبة إلى الولايات المتحدة وهو تزويد إيران بصواريخ جو - جو متقدّمة لأسطول طائراتها المقاتلة من طراز F-14. أعطى نورث الإيرانيين الخريطة التي أعدّتها وكالة الاستخبارات المركزية والتي تُبين وحدات عراقية متمركزة على طول الجبهة المركزية، وحاول مراراً وتكراراً إقناعهم بالتهديد الذي يشكّله الاتحاد السوفيتي على بلادهم، آملاً أن يؤدي ذلك إلى تعزيز التعاون بين الولايات المتحدة وإيران في الحرب الباردة. انفضّ الاجتماع، واتفق الجانبان على عقد اجتماع آخر رفيع المستوى في جزيرة كيش في الخليج العربي.

أرسل نورث رسالة إلكترونية متفائلة إلى ماكفرلين، وصلته عبر حاسوبه المنزلي السري، كتب فيها: «على الرغم من إمكانية فشل كل ذلك، إلا أنني أعتقد أننا قد نكون على وشك تحقيق انفراج كبير، ليس بشأن الرهائن/الإرهاب بل بشأن العلاقة ككل»[436].

ردّ ماكفرلين على رسالة نورث الإلكترونية قائلاً: «حسناً فعلت. لو عرف العالم وحسب كم مرة حافظت على نزاهة سياسة الولايات المتحدة ونباهتها لنصّبوك وزيراً للخارجية».

لم يسر أي شيء في هذه القضية كما كان مخططاً له. فالاجتماع في كيش لم ينعقد. طلب غربانيفار وقتئذٍ إرسال المزيد من الأسلحة إلى إيران وبأعداد كبيرة أيضاً. وشملت هذه المجموعة 240 قطعة غيار مختلفة لصواريخ هوك، وصواريخ جو - جو، وصواريخ هاربون متطورة مضادة

للسفن. قبل نورث هذا الطلب، وأعدّ خطّة معقدة بحيث يتمّ بموجبها مبادلة المال والرهائن بالأسلحة في سلسلة عمليات متوالية، ولكن هذا أيضاً أخفق في تخطي مرحلة المحادثات.

قرر كيسي دعم نورث بأن يرسل كبير المحللين في الشأن الإيراني في وكالة الاستخبارات المركزية جورج كاف في مهمة إلى إيران في آذار/مارس 1986 كمبادرة أولية. كان كيسي يرى أنهم بحاجة إلى ضابط عمليات من ذوي الخبرة يجيد اللغة الفارسية. كان كاف ينظر إلى غربانيفار نظرة قاتمة بعد أن شهد على إخفاقه في اختبار كشف الكذب في كانون الثاني/يناير، وكان لديه شك بأن الإسرائيليين يكفلونه.

سافر كاف إلى باريس واجتمع مع غربانيفار والمحاور الإسرائيلي الجديد ويُدعى عميرام نير. يبدو نير في منتصف الثلاثينات من عمره، وهو حسن المظهر وشعره أسود كثيف وأجعد، خدم فترةً وجيزة مراسلاً عسكرياً في التلفزيون الإسرائيلي قبل أن ينضمّ إلى حزب العمل. رقّاه بيريز في العام 1984 ليصبح مستشاراً له في مكافحة الإرهاب. عمل بصفته هذه بشكل وثيق مع أوليفر نورث خلال عملية خطف طائرة أكيلي لاورو (Achille Lauro)، ولعب في خريف عام 1985 دوراً مسانداً لقمحي أثناء عمله مع واشنطن لبيع الأسلحة إلى إيران. كان دور نير هذه المرة الإبقاء على الاستخدام الأميركي لغربانيفار.

سحب كاف نير جانباً وسأله: «هل تحرّيت تماماً عن غربانيفار؟».

أجاب نير: «نعم، إنه جدير بالثقة»، ولكن كاف ظلّ غير مقتنع.

ظلّ مجلس الأمن القومي ووكالة الاستخبارات المركزية يتستران بقوة على حيثيات القرار الرئاسي حول العملية السرية وشحنات الأسلحة المتتالية. وكان أوليفر نورث قلقاً من أن تقوم وكالة الأمن القومي بالكشف عن تفاصيل عمليات نقل الأسلحة، فأراد حدّ انتشار أي اعتراض اتصالات، وأمر مدير الوكالة وليام أودوم باستبعاد كلٍّ من شولتز ووانيبرغر. رفض أودوم العنيد الانصياع لنورث المنزعج وردّ قائلاً: «أنا أعمل عند وزير الدفاع والرئيس، وليس عند بيل كيسي أو أوليفر نورث». كان لدى أودوم اعتراض اتصالات وثيقة الصلة بالموضوع نقلها إلى باول. «كان واينبرغر يعلم بكل عملية نقل أسلحة تتم في غضون أيام قليلة من خلال التقاط الإشارات»[437].

فكّر أودوم في تقديم المعلومات نفسها إلى الوزير شولتز، لكن وزير الخارجية رفض. لقد عارض بشدة صفقات السلاح، وكلّما قلّت معرفته بالموضوع، كلّما ازداد شعوره بالارتياح والسعادة. لكن وزارته كانت تعرف بالتأكيد فحوى الصفقات. كان مساعد وزير الدفاع أرميتاج يتحدث يومياً إلى نظيره في وزارة الخارجية أرنولد رافيل حول التطورات المهمة المتعلقة بتقارير الاستخبارات حول الصفقات السريّة مع إيران[438].

كان أودوم يعتقد أن الفكرة برمتها متهورة، وقد ذهب إلى مكتب واينبرغر في أحد الأيام بعد الظهر وناقش الرجلان عملية الأسلحة مقابل الرهائن. قال أودوم: «إنك تعلم أن هذه العملية

سرعان ما ستُفضح، ما سيسبّب أزمةً كبيرة أكره الإقرار بها». «لِمَ لا تذهب إلى الرئيس وتقنعه أن يأمر بإيقافها، ففرص نجاحها منعدمة».

أجاب واينبرغر وقد بدا عليه الإحباط: «بيل، لقد حاولت»، مضيفاً: «لم يعد بالإمكان إقناعه الآن».

الرجل الوحيد الذي ظلّ يجهل هذه الإشكالات كان رئيس هيئة الأركان المشتركة وليام كرو، الذي اكتشف القضية مصادفةً في تموز/يوليو 1986. كان مساعده التنفيذي الفريق جون موليرينغ يحضر اجتماعاً في مجلس الأمن القومي، وفيه أشار نورث عن غير قصد إلى شحنات الأسلحة الإيرانية. وبعد الاجتماع توجّه موليرينغ وريتش أرميتاج معاً إلى وزارة الدفاع.

سأله موليرينغ: «ما المقصود بشحنات الأسلحة الإيرانية؟»

رد أرميتاج: «ألا تعلم ماذا يطبخون؟ تعال إلى مكتبي عندما نصل وسوف أطلعك على المستجدّات». أخبر موليرينغ كرو على الفور، الذي بدوره واجه واينبرغر.

قال واينبرغر هازاً كتفيه: «عارضت ذلك، ولكن الرئيس أصدر القرار، ولن يغيّر رأيه. لم أرَ أي داعٍ لإقحامك فيه»[439].

بدا في نيسان/أبريل أن غربانيفار قد حقّق إنجازاً عظيماً. عاد من إيران واقترح عقد اجتماع في طهران مع مسؤولين إيرانيين رفيعي المستوى، بما في ذلك لقاء مع رئيس البرلمان الإيراني رفسنجاني ورئيس الوزراء موسوي كجزء من تبادل قطعيّ في ما يخصّ الأسلحة مقابل الرهائن. في البداية، سافر كاف ونورث إلى طهران برفقة غربانيفار للتمهيد لعقد اجتماع موسّع مع ماكفرلين. عرض غربانيفار عليهم استخدام طائرة من طراز لير (Lear) ومنزلاً للإقامة في طهران. لكن بويندكستر عارض هذا الأمر معتبراً إياه مخاطرةً كبيرة جداً، ولا سيما إذا تسرّبت الأخبار قبل انعقاد اجتماع ماكفرلين الشديد الأهمية[440].

أرسل نورث مذكّرةً إلى بويندكستر: «أعتقد أننا نجحنا، الحمد لله الذي قبل صلاتي وتوسّلاتي»[441].

في 25 أيار/مايو عام 1986، هبطت طائرة إسرائيلية غير موسومة بعلامة، بقيادة وكالة الاستخبارات المركزية، في مطار طهران في الساعة الثامنة ونصف صباحاً. كان الوفد الأميركي يتألف من بولد ماكفرلين وأوليفر نورث وجورج كاف وأحد أعضاء فريق العمل في مجلس الأمن القومي واسمه هورد تيتشر والإسرائيلي عميرام نير (الذي ادّعى أنه أميركي) وعامل اتصالات من وكالة الاستخبارات المركزية لتأمين اتصالات آمنة للوفد المرافق لبويندكستر في واشنطن. نقلت

طائرتهم أول دفعة من قطع غيار صواريخ هوك، فيما كانت طائرة أخرى تحمل اثنتي عشرة دفعة إضافية تنتظر في إسرائيل، لتنطلق حالما يتم إطلاق سراح الرهائن. أدخل حرس المطار الإيراني المجموعة إلى صالة كبار الشخصيات، وبينما كانوا ينتظرون ظهور شخص ما راحوا يتبادلون حديثاً قصيراً مهذباً مع قائد القاعدة الإيرانية الذي كان يسليهم بالحديث عن عرض جوي استخدمت فيه بعض طائرات من طراز F-4 تم تبديل قطع غيارها من شحنة استلمتها إيران مؤخراً من الغرب.

في الواقع، لقد أُصيب الإيرانيون بالذهول تماماً جراء زيارة الوفد الأميركي. على الرغم من قبول الزيارة والكشف عن موعد وصول ماكفرلين، لم يتخيّل الإيرانيون حقيقةً أن الأميركيين سوف يأتون. عندما سمع الحرس الثوري بمجيء هذا الوفد الغريب إلى طهران أرسل رجاله إلى السفارة الأميركية القديمة للبحث في الملفات الشخصية. وقد فحصوا الملفات فحصاً دقيقاً، لكنهم لم يعثروا على اسم ماكفرلين أو نورث في أي ملف، ولكنهم عثروا على اسم جورج كاف، ولذلك وافقوا على الاجتماع مع الأميركيين[442].

بعد مرور أكثر من ساعة ظهر غربانيفار مع كانغارلو في سيارة مقطورة، وكان كلاهما يبدو قلقاً. اعتذر غربانيفار لوصول الأميركيين مبكراً، واصطحبهم إلى عدة سيارات قديمة من شأنها أن تكون بمثابة موكبهم المتواضع. توجهوا إلى فندق هيلتون القديم - الذي تحول اسمه إلى فندق الاستقلال- حيث قام الحرس الثوري على عجل بإخلاء الطابق العلوي بأكمله للوفد الأميركي غير المتوقع. أُرسلت رسالة آمنة إلى البيت الأبيض بشأن وصولهم، جاء فيها: «تم التعامل معنا بتهذيب على الرغم من مرافقة رجال الحرس الثوري اللصيقة لنا، الذين يراقبون غرفنا شخصياً وتقنياً أيضاً»[443].

بدأ الاجتماع الأول في الساعة الخامسة مساءً. وصل ثلاثة إيرانيين إلى الاجتماع لم يكن بينهم أي مسؤول بارز أو كبير. افتتح الإيرانيون الاجتماع بترديد سلسلة من مظالم وشكاوى وتجاوزات أميركية. لم يبالِ ماكفرلين بذلك، وبدأ يعدّد ملاحظات تم إعدادها بغية تحريك المفاوضات.

أخبر ماكفرلين الإيرانيين أن الرئيس ريغان طلب إليه أن يقوم بما هو ضروري من أجل إيجاد أرضية مشتركة لإجراء مباحثات في المستقبل، ومحاولة إيجاد أرضية مشتركة أيضاً للتعاون، وأن الولايات المتحدة لا رغبة لديها في قلب الثورة الإيرانية، وهي على استعداد للعمل مع الحكومة الإيرانية.

ومع ذلك، سرعان ما أصبح واضحاً أن الطرفين يريان ما اتُّفق عليه من منظورين مختلفين تماماً. فقد كانت الولايات المتحدة تتوقع الإفراج عن الرهائن فوراً، وقبل وصول أي صاروخ إضافي من صواريخ هوك، في حين اعتقد الإيرانيون أن الولايات المتحدة تنوي أن توفر لهم شحنات ضخمة من الأسلحة وقطع الغيار، وأنّ الرهائن سيُطلق سراحهم في وقت لاحق. أصبح

واضحاً لكاف أن غربانيفار كان قد وعد الإيرانيين بالكثير جداً في ما يخص الأسلحة، الأمر الذي لن توافق عليه الولايات المتحدة على الإطلاق. كان غربانيفار يكذب على كلا الطرفين.

أعرب ماكفرلين في رسالة بعث بها إلى بويندكستر عن رأيه في الحكومة الإيرانية: «قد يكون الأكثر تعبيراً أن نتصور كيف تكون الحال بعد حدوث هجوم نووي، حيث يصبح خياط نجا من الموت نائباً للرئيس؛ ويصبح طالبٌ تخرج حديثاً وزيراً للخارجية؛ ويصبح وكيل مراهنات محاوراً في جميع المحادثات مع الدول الأجنبية. مع أن المسؤولين أفضل مستوىً من ذلك فإن عدم كفاءة الحكومة الإيرانية كي تقوم بما هو مطلوب يتطلّب إعادة نظر من قبلنا لمعرفة أسباب إخفاقها المتكرر في القيام بمهامها»[444].

عندما هددّ ماكفرلين بالمغادرة وعده الإيرانيون بترتيب لقاء مع مسؤول رفيع المستوى. وبعد وقت قصير وصل عضو البرلمان، ومستشار رفسنجاني السياسي الرفيع هادي نجف آبادي إلى الطابق الخامس عشر في فندق هيلتون القديم للاجتماع بالأميركيين. كان نجف آبادي قصيراً وملتحياً، وقد أُعجب به الوفد على الفور. كان هذا الملا المعمَّم مختلفاً، فهو مثقف وواثق من نفسه، وقد تعلّم في الغرب ويتكلّم الإنكليزية بطلاقة.

كررّ ماكفرلين سبب وجودهم في إيران وآماله في أن تكون هذه الزيارة بداية صداقة جديدة وانفتاح استراتيجي بين البلدين، وشدّد على التهديد الذي يشكّله الاتحاد السوفيتي لإيران. قال لهم إن الولايات المتحدة على علم بمخطط سوفيتي لغزو إيران، وإن السوفيت قد أجروا بالفعل مناورتين على هذا المخطط، وأن لدى الولايات المتحدة مصدر رفيع المستوى، هو لواء سوفيتي يدعى فلاديمير، أكّد النوايا السوفيتية. كان هذا محض افتراء، لفّقه ماكفرلين وهو على متن الطائرة، لكنه يؤدي إلى الفكرة الرئيسية وهي أن الولايات المتحدة تريد أن يدرك الإيرانيون أن موسكو هي التي تشكل الخطر الأكبر على الأمن الإيراني لا واشنطن.

سلّم ماكفرلين نجف آبادي رزمةً من الأوراق أُعدّت بمنتهى الذكاء تتضمن معلومات وضعتها وكالة الاستخبارات المركزية حول القوات السوفيتية المحتشدة على طول الحدود الإيرانية، ثم أبلغ الإيرانيين أن السوفيت أخبروا منافسهم صدام حسين مؤخراً أنهم سيبذلون كل ما في وسعهم لتجنيب العراق خسارة الحرب. لم يأتِ ماكفرلين ببساطة على ذكر أن الدبلوماسية الأميركية تقوم بالشيء نفسه للعراق.

وافق نجف آبادي على تقييم ماكفرلين بشأن التهديد السوفيتي، وشدّد لنظيره الأميركي على المخاطرة التي تقوم بها حكومته للقاء الأميركيين. بدا كل شيء باعثاً على الأمل. أبرق ماكفرلين إلى بويندكستر رسالة متفائلة قليلاً: «وأخيراً وصلت إلى مسؤول إيراني جدير... إننا في طريقنا إلى تحقيق مكسب استراتيجي لنا على حساب السوفيت. لكن الأمور ستجري ببطءٍ شديد»[445].

أضاف نجف آبادي شروطاً جديدة وضعها حزب الله لإطلاق سراح الرهائن، وتتضمن انسحاباً إسرائيلياً من مرتفعات الجولان، وتعويضاً مالياً للمتضررين، وإطلاق سراح سبعة عشر

سجيناً شيعياً، اعتُقلوا بسبب مشاركتهم في سلسلة تفجيرات ضخمة جرت في الكويت في تموز/يوليو 1983. اجتمع الوفد الأميركي على الشرفة لتجنّب أجهزة التنصّت التي افترضوا أن تكون مزروعة في غرف الفندق. لا أحد يمكنه التأكد فيما إذا كان الإيرانيون يحاولون ببساطة انتزاع مزيد من التنازلات أم أنهم كانوا يعانون صعوبات في السيطرة على أتباعهم. تشبث ماكفرلين بتعليمات بويندكستر وأصرّ على الإفراج عن الرهائن أولاً دون شروط مسبقة جديدة[446].

تواصلت المحادثات يوم الثلاثاء الموافق 27 أيار/مايو. تجادل الجانبان حول أولوية إرسال قطع غيار صواريخ هوك فوراً أم الإفراج الفوري عن الرهائن. وصل نجف آبادي التوفيقي بعد الظهر يحمل «أخباراً سارة» مفادها أن الخاطفين اللبنانيين أسقطوا جميع مطالبهم باستثناء الإفراج عن زملائهم في الكويت، ثم طلب من الولايات المتحدة إرسال قطع الغيار فوراً إلى إيران. لم يكن الأميركيون قادرين على تأمين ذلك، لكنهم أعدّوا مشروع قرار، أملوا أن يرضي الإيرانيين، مفاده أن الولايات المتحدة «ستعمل على الإفراج عن السجناء الشيعة وعلى أن تتم معاملتهم بصورة حسنة». لم ينجح ذلك، ولكن المحادثات استمرّت على نحو جيد صباح اليوم التالي. كانوا مثل طرفين يساومان في السوق. هدّد ماكفرلين بالانسحاب إن لم يُفرَج عن الرهائن جميعاً، وعرض نجف آبادي والإيرانيون الآخرون إطلاق سراح رهينتين أخريين فوراً مقابل مزيدٍ من قطع الغيار للصواريخ. بعد أن أجرى ماكفرلين مكالمة هاتفية مع بويندكستر، عند الساعة الواحدة والنصف صباحاً، أعطى الإيرانيين مهلة حتى الساعة الرابعة لتحرير جميع الرهائن قائلاً إن طائرةً محمّلةً بما تبقى من قطع غيار صواريخ هوك ستصل طهران في الساعة العاشرة صباحاً إن أُفرج عنهم. وفي حال لم يحدث ذلك فإن الوفد الأميركي سيرحل. تراجع الإيرانيون، طالبين مزيداً من الوقت؛ أعطى ماكفرلين الإيرانيين مهلة حتى الساعة السادسة ونصف صباحاً. وعندما لم يظهر الرهائن، تناول الوفد الأميركي الفطور وحزم أمتعته كي يذهب إلى المطار.

طلب نجف آبادي، الذي بدا منهكاً، مرةً أخرى، مزيداً من الوقت، قائلاً: «الرهائن ليسوا تحت سيطرتنا».

أجاب ماكفرلين: «بتّ تعرف مطلبنا. عندما تصبح قادراً على تحقيقه، أعلمني».

كان الأميركيون في قرارة أنفسهم قلقين من أن يحاول الإيرانيون احتجازهم كرهائن، ولكن التهديد الحقيقي جاء من معارضين للمباحثات من داخل النظام. فقد ذاع خبر وصول ماكفرلين والأميركيين، ولم يسرّ الجميع به. فحشد مهدي هاشمي مجموعةً للذهاب إلى الأميركيين والنيل منهم، وفي حوالي الساعة الثامنة صباحاً انتظم حشده المكون من عناصر من الحرس وتوجّهوا نحو الفندق. جاء كانغارلو إلى الفندق وقال لكاف بصوت مرتفع: «هيئوا أنفسكم جميعاً. عليكم مغادرة البلاد فوراً!» أحضر الإيرانيون ثلاث سيارات قديمة بالية عصيّة على الوصف، وأخذوا مجموعة ماكفرلين عبر شوارع خلفية إلى القسم العسكري في المطار. لو أنّ هاشمي نجح في مسعاه لكان ريغان قد واجه مشكلة رهائن خاصّة به.

ما إن صعد كاف الطائرة حتى اقترب منه ضابط كبير في استخبارات الحرس الثوري يدعى فريدون مهدي-نجاة وتوسّل إليه أن يبقى بضعة أيام أخرى. لقد شعر كلا ضابطي المخابرات

بالمودّة أحدهما تجاه الآخر بعد محادثات استمرت ثلاثة أيام. قال لكاف: «سنبقى على اتصال». أومأ كاف برأسه موافقاً.

عندما كان ماكفرلين يستعد لركوب الطائرة أخبر أحد الإيرانيين أن هذه المرة هي الرابعة التي يفشل الإيرانيون في احترام اتفاق، وقال: «إن عدم ثقتنا بكم سوف يدوم فترة طويلة. لقد ضاعت فرصة مهمة». ما إن أغلق باب قمرة القيادة حتى تحرّكت طائرة الـ 707 ذات الأربعة محركات على المدرج، وأقلعت في الساعة 8:55 صباحاً.

تابع الرئيس ريغان مهمة ماكفرلين عن كثب، وكتب في مذكراته بعد أن وصله خبر فشل المهمة: «يبدو أن تجار السجاد وحزب الله [...] وافقوا على إطلاق سراح رهينتين فقط. أخبرهم بود برفضه التامّ، وذهب إلى المطار، وغادر إلى تل أبيب. إنها خيبة أمل مفجعة بالنسبة إلينا جميعاً»[447].

كان ينبغي أن ينهي اجتماع طهران الفاشل هذه القضية. اقترح ماكفرلين على ريغان إنهاء القضية عندما أطلعه على مجريات المهمة بعد عودته إلى واشنطن، لكن ريغان رفض الإقرار بالهزيمة. واصل غربانيفار ونير تشجيع هذه السياسة، ووجدا نورث شريكاً مستعداً حيث استمر يعمل بحماسة في الخطة.

في 26 تموز/يوليو، أفرج حزب الله عن الأب لورانس جينكو، مدير «الإغاثة الكاثوليكية» في لبنان، بعد أن قضى 564 يوماً في الأسر القاسي. كان غربانيفار قد وعد الإيرانيين بالاثنتي عشرة منصة المتبقية الخاصة بصواريخ هوك حالما يتم الإفراج عن جينكو. بالنسبة إلى مدير وكالة الاستخبارات المركزية وليام كيسي، لقد أعطت هذه العملية صدقية لغربانيفار، وكتب قائلاً: «لا شك في أن الاتصالات بالإيرانيين قد أعطت ثمارها هذه المرة». ونسب هذا النجاح إلى نير، راعي غربانيفار. ورغم أنه لم يكن مسروراً من الصفقة التي رتبها غربانيفار، إلا أنه أوصى بمواصلة شحنات الأسلحة كوسيلة لتأمين الإفراج عن رهائن إضافيين. وقد خلت توصية كيسي من أي ذكر لاستراتيجية الانفتاح على إيران لمواجهة الاتحاد السوفيتي التي كان يدعو إليها بشدة منذ ربيع العام 1985م[448].

حمل جينكو معه شريط فيديو من رهينة أخرى، ديفيد جاكوبسن، يظهر فيه وهو ينتقد ريغان لعدم قيامه بما يكفي لإطلاق سراح الرهائن. أخذ ريغان ذلك على محملٍ شخصي؛ فقد تألّم جرّاء محنة الرهائن وأغضبه أن يُتَّهم، هو أو إدارته، بأنهم لم يفعلوا ما يكفي للإفراج عن الرهائن. في 29 تموز/ يوليو، اتصل ريغان بالأب جينكو ليعرب له عن احترامه وتقديره، ووجّه إليه دعوة لزيارة البيت الأبيض. وقد لبّى الأب جينكو الدعوة، ووصف ريغان الزيارة، في 4 آب/أغسطس، بأنها كانت «تجربة وجدانية». لقد حرك الأب جينكو مشاعر ريغان، فوافق على إرسال الاثنتي عشرة منصة المتبقية من قطع غيار صواريخ هوك إلى إيران. وصلت الشحنة عن طريق إسرائيل في 4 آب/أغسطس، وتحولت العملية برمتها وقتئذٍ إلى مجرد صفقة سلاح مقابل رهائن.

كان بويندكستر يرى أن الولايات المتحدة بحاجة إلى قناة جديدة تربطها بالحكومة الإيرانية، فقد كان محبطاً، وأراد قناة ثانية كي ينحّي نير والإسرائيليين وغربانيفار، لذا طلب من نورث بعد لقاء طهران مباشرةً البحث عن قناة اتصال جديدة. اجتمع فريق نورث بعد جهد جهيد بعلي هاشمي بهرماني، ابن شقيقة هاشمي رفسنجاني، وهو ضابط في الحرس الثوري وله سجل متميز في قتال العراقيين. كان بهرماني ذكياً وضليعاً في السياسات الغربية وقضايا الشرق الأوسط، وكان يدعو إلى إقامة أفضل العلاقات مع الغرب، وقد أعرب عن رغبته هذه خلال زياراته المتكررة إلى أوروبا. في 25 آب/أغسطس، التقى بهرماني في بروكسل سيكورد ومغترباً إيرانياً يعمل معه اسمه ألبرت حكيم. لم تلقَ هذه القناة الثانية ترحيباً جيداً في إسرائيل، ولكن ابن شقيقة رفسنجاني تعهّد بتأمين تواصل أفضل مع النظام الإيراني بعيداً عن غربانيفار المحتال.

في 19 أيلول/سبتمبر، وصل بهرماني وضابطان من الحرس الثوري، كان أحدهما فريدون مهدي-نجاة الذي قابله كاف وماكفرلين في طهران، إلى واشنطن لعقد اجتماع طارىء مع الأميركيين. كان المرشد الأعلى قد وافق شخصياً على زيارة بهرماني، فضلاً عن أن الزيارة اقتضت جهداً كبيراً من الجانب الأميركي، حيث نسَّق نورث مع كلٍّ من مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية من أجل مجيء الوفد الإيراني إلى الولايات المتحدة. ولكن في ذلك اليوم كان ابن شقيقة رئيس البرلمان الإيراني جالساً في مكتب أوليفر نورث الكائن في مبنى المكتب التنفيذي القديم بالقرب من البيت الأبيض مباشرة.

بعد يومين من المحادثات توصّل الجانبان إلى أرضية مشتركة حول عدد من القضايا. استجاب بهرماني للمخاوف الأميركية بشأن الاتحاد السوفيتي، وعرض تقديم دبابة سوفيتية من طراز T-72، سبق أن غنمها الإيرانيون، إلى الأميركيين لدراستها، وقال إن حكومته تريد تعاوناً استراتيجياً مع الولايات المتحدة، واقترح تشكيل لجنة مشتركة بين البلدين لتسوية خلافاتهما[449]. ستكون المهمة الأولى للجنة هي العمل على إبرام اتفاقيات تجارية، وما إن يتحقق ذلك على أرض الواقع، ربما بعد ستة أشهر، سيعيد البلدان التمثيل الدبلوماسي بينهما. اقترح بهرماني سبلاً يمكن للبلدين من خلالها دعم المجاهدين في أفغانستان، واقترح إقامة قاعدة داخل إيران لتسهيل تدفق الأسلحة الأميركية للمجاهدين. وقد صدم أحد كبار ضباط الحرس الثوري كاف، وذلك عندما قال في أحد الأيام أنه مسرور من أن الأميركيين بدأوا بتزويد المجاهدين بصواريخ ستينغر المتطورة، فقد حصلت إيران للتو على عشرة صواريخ منها من مصادرها الخاصة لدى المجاهدين، وقد تبيّن لاحقاً أن إسماعيل خان هو هذا المصدر.

أحضر بهرماني قائمة طويلة بالأسلحة وقطع الغيار، وكانت تشتمل على قطع غيار لصواريخ هوك المفضلة دائماً، وعشرة آلاف قذيفة لمدافع الهاون الطويلة المدى المتطورة الأميركية الصنع. طمأن نورث بهرماني بأنهم يستطيعون إرسال الكثير من هذه الأسلحة في أقرب وقت حالما تُحلّ قضية الرهائن. فيما كان الإيرانيون يماطلون بخصوص الإفراج عن الرهائن، اتفق الجانبان عموماً على مبادلة الرهائن بالأسلحة وفق آلية واحدة بواحدة.

زوّد نورث الإيرانيين بخريطة أعدّتها وكالة الاستخبارات المركزية، زاخرة بالملاحظات والتعليقات عن مواقع القوات العراقية وراء الخطوط الأمامية، فضلاً عن بعض المعلومات الإضافية عن القوات السوفيتية. ولكن بدلاً من إعطائهم شيئاً مبنيّاً على صور الأقمار الصناعية، أعطوهم خريطة عراقية مضى عليها خمسة عشر عاماً وضعت عليها الوحدات العسكرية، وكانت متاحة تجارياً.

نشأت علاقة ودية بين جورج كاف وبهرماني الأصغر منه سناً. خلال أحد لقاءاتهم، وضع بهرماني أمام كاف ثلاث رسائل على الطاولة، كانت نسخاً عن الرسائل الثلاث التي كان ريغان قد أرسلها إلى إيران يحثها فيها على إنشاء أفضل العلاقات بين البلدين. قال بهرماني: «هل أرسلتم حقاً هذه الرسائل؟».

أجاب كاف: «نعم»، وفوجيء بأن الإيرانيين لم يتحققوا من صحتها.

ثم طلب بهرماني من كاف أن يقدّم الأميركيون المساعدة لتحقيق وقف إطلاق النار مع العراق قبل أن يضيف أن الإيرانيين يريدون شنّ هجوم أخير للاستيلاء على البصرة فقط. سأله كاف: «حسناً، ماذا ستفعلون بعد الاستيلاء على البصرة؟»

أجاب دون تردد: «سوف نعلن بالطبع عن قيام دولة شيعية مستقلّة في العراق، عاصمتها البصرة»! ضحك كاف بينه وبين نفسه في وقت لاحق: «كان شاباً صغيراً جداً وساذجاً ولم يدرك معنى ما كان يقول».

بعد محادثات اليوم الأول سمح نورث للإيرانيين بالقيام بجولة خاصة في الجناح الغربي. تجولت المجموعة في الشارع المؤدي من مبنى المكتب التنفيذي القديم إلى المدخل الجانبي للبيت الأبيض المميز. ساروا مروراً بالردهة المؤدية إلى غرفة العمليات في البيت الأبيض، ثم صعدوا إلى الطابق التالي، ومرّوا بقاعة مجلس الوزراء وغرفة روزفلت. هناك أخذ بهرماني ورفيقاه من الحرس الثوري يحدّقان في المكتب البيضوي، ولم يكن يحول بينهما وبين دخول هذا الحرم الأميركي المقدّس إلا حبل من اللبّاد.

اعتقد كلٌّ من نورث وكاف أن الاجتماع قد سار على ما يرام. كتب نورث إلى بويندكستر: «يبدو أننا على اتصال مع أعلى المستويات في الحكومة الإيرانية». شبّه نورث المفعم بالحماسة ريغان بتيودور روزفلت الذي نال جائزة نوبل للسلام لإنهائه الحرب الروسية اليابانية عام 1905 قائلاً: «هل سيعمل أحدهم على أن ينال رونالد ريغان الجائزة نفسها؟»[450].

بعد مغادرة الإيرانيين، ذهب كاف إلى مكتب بويندكستر. كان كاف المخضرم في وكالة الاستخبارات المركزية يعتقد أن بهرماني جادّ في رغبته في تحسين العلاقات بين البلدين، وقال لبويندكستر: «أعتقد أننا سنحصل على رهينتين أو ثلاث». كان كاف يعتقد أن هذه القناة قد تؤدي إلى الحل الدبلوماسي الذي يتطلّع إليه الرئيس.

تواصلت المحادثات في شهر تشرين الأول/أكتوبر، وتحوّلت مرةً أخرى إلى سلسلة مبادلات: خمسمئة صاروخ تاو مقابل رهينة واحدة. ومن ثم على الولايات المتحدة التوسّط لدى الكويتيين للإفراج عن عددٍ من المفجّرين السبعة عشر الذين تدعمهم إيران وتعتقلهم دولة الكويت في سجونها بعد قيامهم بتفجيرات عام 1983. بعدئذٍ سترسل الولايات المتحدة خمسمئة صاروخ آخر من طراز تاو إلى إيران، يلي ذلك الإفراج عن رهينة إضافية. ستنظر الولايات المتحدة بعد ذلك في إرسال ذخائر مدفعية وتوفير معلومات استخباراتية إضافية حول العراق مقابل وعود من إيران للقيام «بقصارى جهدها للإفراج عن بقية الرهائن»[451]. في 28 تشرين الأول/أكتوبر عام 1986 وصلت الدفعة الأولى من الأسلحة المكونة من خمسمئة صاروخ تاو إلى إيران، وبعد خمسة أيام أطلق اللبنانيون سراح الرهينة ديفيد جاكوبسن[452].

بين شهري أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر، اختُطف ثلاثة أميركيين على التوالي من شوارع بيروت - كأنما ليحلّوا محلّ الذين أُطلق سراحهم- وهم: فرانك ريد، وجوزيف سيسيبيو، وإدوارد تريسي. بعد مضي أكثر من عام على تزويد إيران بالأسلحة أسفرت العملية عن الإفراج عن ثلاث رهائن واحتجاز ثلاث غيرهم - كانت حصيلة التعامل مع الخاطفين اللبنانيين صفراً.

بعد مرور يوم واحد على إطلاق سراح جاكوبسن نشرت مجلة «الشراع» اللبنانية قصة مهمة ماكفرلين السرية في طهران. على الرغم من عدم دقة بعض التفاصيل المهمة - كتاريخ اللقاء - إلا أنها تحدثت عن اجتماعات عبر قنوات خلفية بين إيران والولايات المتحدة. اشتبه كاف بأن يكون غربانيفار قد سرّب الخبر، لأنه كان لا يزال على علاقة ودية مع جميع الفرقاء السياسيين في طهران، ولكن الفاعل الحقيقي كان آية الله منتظري. ففي تشرين الأول/أكتوبر اعتقلت السلطات الإيرانية مهدي هاشمي لاختطافه دبلوماسياً سورياً، فسرب أنصاره تفاصيل الصفقات السرية لكي يثأروا له ويحرجوا الخميني.

في اليوم التالي اعترف رفسنجاني بزيارة ماكفرلين خلال كلمة ألقاها بمناسبة الذكرى السابعة لاحتلال السفارة الأميركية في طهران، وقال إن الأميركيين جلبوا «كعكة على شكل مفتاح لتكون مفتاحاً لاستعادة علاقات»، مضيفاً: «بيد أن الأطفال كانوا جياعاً فأكلوا الكعكة»[453]. ومثلما حذر واينبرغر في العام الفائت، تسربت أخبار مبيعات الأسلحة إلى إيران، وجُنّ جنون وسائل الإعلام.

نفت إدارة ريغان صحة الخبر في البداية وارتبكت. في 6 تشرين الثاني/نوفمبر، سأل أحد المراسلين ريغان خلال توقيع مشروع تعديل قوانين الهجرة في حجرة روزفلت الواقعة تماماً قبالة الرواق المفضي إلى المكتب البيضوي: «سيدي الرئيس، هل أبرمنا أي صفقة مع إيران من أي نوع كان؟» أجاب ريغان في أول تصريح له من تصريحاته العديدة المضلِّلة: «لا تعليق»، ثم حذر الصحافة من الخوض في عمليات تخمين «بشأن قصة جاءت من الشرق الأوسط، فهذه القصة لا أساس لها بالنسبة إلينا. هذا كله يصعّب علينا أكثر مساعينا لتحرير رهائن آخرين»[454].

التقى ريغان في 10 تشرين الثاني/نوفمبر فريق السياسة الخارجية الرفيع في المكتب البيضوي لمناقشة مسألة الأسلحة الإيرانية وماذا ينبغي قوله للجمهور. كان هذا الاجتماع هو النقاش الأول لتفاصيل صفقات السلاح والاجتماع الأول على مستوى رفيع بشأن هذا الموضوع خلال عام تقريباً. على الرغم من التجهّم المخيّم في الغرفة حاول الرئيس ريغان الحفاظ على طبعه المرح الذي يتميز به؛ فتبادل مع نائبه جورج بوش الأب بعض النكات السوقية إلى حدٍ ما. في بداية الاجتماع قدّم بويندكستر لمحة عامة عما جرى خلال العام الماضي فتحدث عن المرسوم الرئاسي الذي صدر في كانون الثاني/ يناير، وعن مبيعات الأسلحة التي جرت. وأعرب كلٌ من واينبرغر وشولتز عن دهشتهما لدى سماعهما بالمرسوم الرئاسي وحجم صفقات الأسلحة مع الإيرانيين، وقال شولتز بحدة لبويندكستر «لم أكن أعلم بذلك». فيما يتعلق بوزير الخارجية كان هذا صحيحاً، ولكن واينبرغر كان يعلم معظم التفاصيل تقريباً من خلال اعتراض مكالمات وكالة الأمن القومي التي كان يزوده بها الجنرال أودوم. انتقد شولتز المقترحات الإيرانية برمتها وقال: «لقد جرجرنا الإسرائيليون إلى عمليّتهم، لذا لم يعد بوسعنا الاعتراض على بيعهم الأسلحة إلى إيران»، ثم أضاف: «يقع على عاتق الحكومة رعاية مواطنيها، وبعقدكم صفقة لتحرير رهائن فإنكم تعرّضون كل شخص للأسر في المستقبل».[455]

ظلّ ريغان على إنكاره، وقال: «إننا لم نعقد أي صفقة مع العدو من أجل رهائننا. سيرحل الوغد العجوز [الخميني] في يوم من الأيام، ونحن نريد نفوذاً أكبر في الحكومة الجديدة». ثم أضاف ريغان: «في الواقع، الخاطفون لا يستفيدون شيئاً على الإطلاق. إننا نشتري الدعم والفرصة لإقناع الإيرانيين».

لم يرد ريغان ولا حتى بويندكستر أن تُكشف التفاصيل كلّها، الأمر الذي من شأنه أن يعيق إطلاق سراح المزيد من الرهائن ويعرض للخطر الذين تعاونوا في إنجاز العملية في إيران. حذر واينبرغر قائلاً: «نحن الذين أتحنا للإسرائيليين والإيرانيين الفرصة لابتزازنا من خلال إذاعة شذرات ومجتزآت منتقاة من القصة الكاملة».

في 13 تشرين الثاني/نوفمبر، وعند الساعة 8:01 مساءً، خاطب الرئيس ريغان الأمة من المكتب البيضوي في خطاب ألقاه في وقت ذروة حضور المشاهدين، فحيّاهم «مساء الخير»، ثم قال: «أعلم أنكم قرأتم، ورأيتم، وسمعتم قصصاً كثيرة في الأيام القليلة الماضية تنسب إلى بحارة دنمركيين ومراقبين مجهولين... وبصورة خاصة إلى مسؤولين حكوميين مُغْفَلي الأسماء من إدارتي. حسناً، سوف تسمعون الحقيقة من مصدرٍ في البيت الأبيض، وأنتم تعرفون اسمي».

واصل ريغان ساخطاً: «الاتّهام الموجّه إلى الولايات المتحدة هو أنها شحنت أسلحة إلى إيران كفدية لإطلاق سراح الرهائن الأميركيين في لبنان، مما أضعف حلفاءنا وانتهك بصورة سرية السياسة الأميركية لمكافحة المتاجرة غير المشروعة مع الإرهابيين. هذه التهم عارية تماماً عن الصحة». ثم تحدث بعبارات عامة عن الصفقات مع الإيرانيين، وركز فقط على دورها باعتبارها مبادرة استراتيجية مع إيران لإنهاء الحرب الإيرانية-العراقية، وجزءاً من استراتيجية احتواء واسعة ضد السوفيت. وأنه أذن لماكفرلين بالذهاب إلى إيران عندما ظهرت مفاوضات واعدة، مشبّهاً هذه

الزيارة بزيارة كيسنجر السرية للصين كجزء من هذا الانفتاح الدبلوماسي. غضب الرئيس من الشائعات القائلة إن الولايات المتحدة قد أرسلت «سفناً أو طائرات» محمّلة بالأسلحة الأميركية بالكامل إلى إيران لإنقاذ الرهائن. اعترف ريغان أنه على الرغم من أن الولايات المتحدة قد زوّدت إيران بكمية ضئيلة من أسلحة «دفاعية»، إلا أن هذه الشحنات المتواضعة مجتمعة بالكاد تعادل حمولة طائرة شحن واحدة.

في أفضل تقدير، لم يخبر الرئيس الجمهور الأميركي إلا بنصف الحقيقة، فأساس الانفتاح على إيران ارتكز بالكامل على رهائن، وبالأخص بالنسبة إلى الرئيس. ففيما كان كيسي وماكفرلين ينظران إلى تلك القضية من منظور التأثير الاستراتيجي في طهران، كانت نظرة ريغان إلى المفاوضات مع إيران تتسم بقصر النظر، فقد كان ينظر إليها، سواء في مناقشاته الخاصة أو في مذكراته الشخصية، على أنها محاولة لتحرير الرهائن، فضلاً عن إقامة علاقات أفضل مع الملالي كمنفعة هامشية. لقد تحولت الجهود التي بذلها نورث في الأشهر الستة الأخيرة من المفاوضات إلى مجرّد صفقة، وهي السلاح مقابل الرهائن، ووافق الرئيس ريغان شخصياً عليها. على أي حال، إذا كان الرئيس يكذب عمداً أو يخدع نفسه هو أمرٌ خاضع للنقاش، بيد أن الولايات المتحدة لم تتفاوض مع نظام تعتبره إرهابياً فحسب بل باعت أيضاً كبار ضباط الذراع العسكرية للثورة الإسلامية -الحرس الثوري- طائرات محملة بأسلحة متطورة يمكن استخدامها بسهولة للقيام بعمل عدواني، فضلاً عن أنها أفسحت لهم المجال للقيام بجولة في البيت الأبيض.

لم تقتصر تداعيات قضية السلاح مقابل الرهائن على واشنطن. لقد عارض خليفة المرشد الأعلى آية الله منتظري بحدّة إجراء أي صفقة مع الولايات المتحدة، ودعا علناً إلى تنفيذ حكم الإعدام بحق كل من اجتمع بالأميركيين. إلّا أن الخميني أعلن تأييده لتلك الجهود ودافع عن العملية لكونها ضرورة فرضتها احتياجات الحرب الملحة. تبادل الزعيمان الدينيان الخميني ومنتظري سلسلةً من الخطابات عرضا فيها خلافاتهما أمام الجمهور الإيراني، فعزل الخميني خليفته منتظري، وأمر بإعدام مهدي هاشمي وعدد من أتباعه على الرغم من مناشدات منتظري للعفو عنهم.

حين انفضح الانفتاح السري على إيران بشكل كامل أمر ريغان وزارة الخارجية بتولي مسؤولية أي محادثات جديدة مع الإيرانيين. انضمّ تشارلز دنبر، الضابط في الخدمة الخارجية الذي لم يكن له علم مطلقاً بالمحادثات التي جرت مع الإيرانيين، إلى جورج كاف للقاء فريدون مهدي-نجاة في 13 كانون الأول/ديسمبر في فرانكفورت، وعمل دنبر وفق التعليمات التي تلقاها. بقيت المخاوف الاستراتيجية المرتبطة بالاتحاد السوفيتي التي أدت إلى عمليات نقل الأسلحة على حالها. ومع ذلك، ستتوقف عمليات تزويد إيران بالأسلحة، ولن يتم تطبيع العلاقات معها ما دامت إيران تؤيد احتجاز الرهائن وتدعم الإرهاب. حاول مهدي-نجاة التودد إلى الأميركيين قائلاً إن إيران ملتزمة بمواصلة الانفتاح الاستراتيجي، وأخذ يدفع باتجاه التزام الولايات المتحدة بوعودها السابقة في ما يتعلق بتوفير أسلحة إضافية والمطالبة بالإفراج عن إرهابيي حزب الدعوة المعتقلين في الكويت في مقابل أن تستخدم إيران نفوذها للإفراج عن الرهائن الأميركيين. في النهاية، وصل الطرفان إلى طريق مسدود[456].

رجع دنبر إلى الولايات المتحدة؛ وبقي كاف في أوروبا لزيارة أحفاده. في 14 كانون الأول/ديسمبر، تلقى كاف مكالمة في غرفته بالفندق. كان المتحدث على الطرف الآخر هو مهدي - نجاة، وقد طلب لقاء كاف على وجه السرعة في صباح اليوم التالي. وافق كاف على لقاء مهدي نجاة، فالرجلان أصبحا صديقين خلال السنة الماضية.

قال مهدي - نجاة إنه تحدث إلى رؤسائه (في حين خامر كاف شعور بأنه تحدث إلى مسؤول إيراني بارز في فرانكفورت)، وحاول أن يقنع كاف قائلاً: «إن طهران تحرص بشدة على المضي قدماً، وترغب في أن تضع وزارة الخارجية خطة بسرعة»، وأن الولايات المتحدة وعدت إيران بتزويدها بصواريخ تاو وبمعلومات استخباراتية، وأن تتعاون معها بغية التخلّص من صدام حسين. وحَثَّ كاف على مراجعة واشنطن مرة أخرى كونها أخلفت بتعهداتها بشأن هذه الالتزامات.

لم يرد الوزير شولتز إغلاق قناة التواصل مع إيران على الرغم من اعتراضاته التي طال أمدها. كان مهدي - نجاة قد تشاور مع رفسنجاني، وكانت هناك مؤشرات إلى أن وزير الخارجية الإيراني مهتمّ بالعمل من خلال هذه القناة. كما أن شولتز لم يرد توريط وكالة الاستخبارات المركزية، لذلك أمر كاف بعدم الدخول في التفاصيل. خطط دنبر للاجتماع بمهدي - نجاة مرة أخرى في جنيف في 27 كانون الأول/ ديسمبر، وذلك لإعادة فتح القناة من جديد وتمرير الرسائل، بيد أن أيام توفير الأسلحة والمعلومات الاستخباراتية ولَّت[457].

في 19 كانون الأول/ديسمبر، أحضر أودوم لواينبرغر، انطلاقاً من إحساسه بالواجب، اعتراضات المكالمات المتعلقة بالاجتماع وبالاتصالات السرية التي تجريها وزارة الخارجية الأميركية. غضب واينبرغر وأرسل على الفور مذكرةً قاسية اللهجة إلى البيت الأبيض جاء فيها: «ظننت أننا قد انتهينا من هذا المسلسل الإيراني بأكمله، وقدمت شهادتي بذلك أمام لجان الكونغرس خلال الأسبوع الماضي. لذا فقد صعقت عندما علمت، بعد أن قدمت شهادتي، أن «مفاوضين» أميركيين لا يزالون يجتمعون بالإيرانيين أنفسهم». غضب واينبرغر من شولتز لأنه لم يخبره بشأن الاجتماعات وكتب إليه قائلاً: «سأكون ممتناً لمنحي فرصة تقديم حججي إلى الرئيس حول ضرورة عدم استمرارنا في التعامل مع هذه القنوات في إيران»[458].

تراجع شولتز عن موقفه واعترض على لهجة واينبرغر العدائية، ولكن وزير الدفاع نجح أخيراً في وأد فكرة تقديم الأسلحة إلى إيران مقابل الرهائن.

في العرف العام، صُوِّرت صفقات الأسلحة الإيرانية بوصفها سياسة مارقة اعتمدها موظفو الأمن القومي، في غفلةٍ من الرئيس. في الحقيقة، إن تزويد إيران بالسلاح مبادرة استراتيجية استمرت خمس سنوات، فهي متجذرة بعمق في مخاوف الحرب الباردة من سقوط إيران الثورية في الفلك السوفيتي. وفيما كانت حكومة الولايات المتحدة تحاول عزل إيران في العلن، أمر ريغان وكالة الاستخبارات المركزية بإجراء اتصالات سرية مع الحكومة الإيرانية في مسعى صامت لإعادة إيران إلى الغرب. كان مهندسو هذه الاتصالات -روبرت ماكفرلين وجون بويندكستر ووليام كيسي-

يرون أن توفير الأسلحة هو مجرد وسيلة أخرى لإيجاد مجموعة براغماتية داخل الحكومة الإيرانية للعمل معها. وقد كتب بويندكستر في افتتاحية صحيفة «وول ستريت جورنال» في ذروة الفضيحة أنه يعتقد اعتقاداً راسخاً بأن زرع مجموعة كهذه سوف يبدّد، بمرور الوقت، الشكوك العميقة المتبادلة التي تنتاب كلا الجانبين. وأن إيران قد تصبح مرةً أخرى حصناً منيعاً في مواجهة التوسع السوفيتي، وأن من شأن هذه العملية المساعَدة في الإفراج عن الرهائن الأميركيين في لبنان ولجم الإرهاب الإيراني. ولهذا وافق ريغان عندما خربش على مخطوط بويندكستر ووقّع بأحرف اسمه الأولى: «عظيم.ر.ر».[459]. بدلاً من تحقيق ذلك تدهورت العملية وتدنّت إلى مستوى مقايضة أسلحة برهائن، وأصبحت فضيحة سياسية. غضب المسؤولون الحكوميون في كلٍّ من واشنطن وإيران بشدّة بعد انفضاح العملية. كان الإرث الحقيقي لقضية الأسلحة الإيرانية هو تلاشي أي أمل في التقارب على مدى العقدين التاليين.



أيام أفضل: الرئيس جيمي كارتر يلتقي حليف أميركا القوي شاه إيران في

البيت الأبيض عام 1977. (Carter Library)



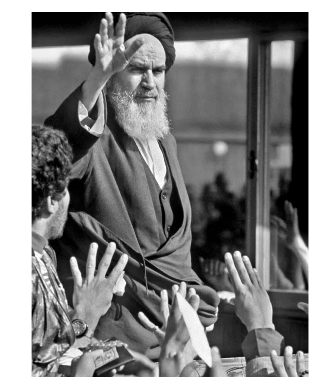
عرض الدبلوماسيين وأفراد مشاة البحرية الأميركية أمام وسائل الإعلام من قبل

الطلاب المؤيدين للخميني بعد اقتحامهم السفارة الأميركية في طهران،

تشرين الثاني/نوفمبر 1979. (Associated Press)



الرئيس كارتر (إلى اليسار) يجتمع مع مستشاره للأمن القومي، زبيغنيو بريجينسكي (في الوسط) ووزير الخارجية سايروس فانس (إلى اليمين) بالقرب من حديقة ورود البيت الابيض. وقد انقسم مستشارا كارتر بعمق حول كيفية التعامل مع الثورة الإيرانية؛ فبريجينسكي دعا إلى انقلاب عسكري إيراني، و فانس داعم الانتقال إلى الديمقراطية. (Associated Press)



آية الله روح الله الخميني يلوّح لحشد ضخم تملأه الحماسة قبيل عودته إلى إيران من المنفى بعد سقوط الشاه في شباط/فبراير 1979. (Getty Images)



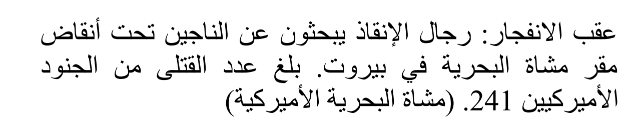
الجنرال في مشاة البحرية بول إكس كيلي (كان قائدًا لمشاة البحرية وقت التقاط الصورة عام 1986) قاد أول قيادة عسكرية متعددة الخدمات للقوات الأميركية مخصصة للشرق الأوسط. دفع كيلي نحو قيادة أميركية عسكرية دائمة للدفاع عن الخليج العربي، الأمر الذي أثار جدلاً داخل البنتاغون. (وزارة الدفاع)



مبنى مقر كتيبة قوات مشاة البحرية في بيروت، لبنان، ربيع عام 1983. حاول مشاة البحرية البقاء على الحياد في الحرب الأهلية اللبنانية، إلا أن دعم إدارة ريغان للحكومة التي يسيطر عليها المسيحيون جعلهم هدفًا للمليشيات المدعومة من إيران. (مشاة البحرية الأميركية)



صباح الأحد 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1983: ارتفاع سحابة فطر ضخمة فوق ضاحية بيروت الجنوبية بعد أن اقتحم انتحاريّ مقر قوات مشاة البحرية بشاحنة مملوءة بالمتفجرات. (مشاة البحرية الأميركية)



عقب الانفجار: رجال الإنقاذ يبحثون عن الناجين تحت أنقاض مقر مشاة البحرية في بيروت. بلغ عدد القتلى من الجنود الأميركيين 241. (مشاة البحرية الأميركية)





الرئيس رونالد ريغان (إلى اليسار) يجتمع مع فريقه للأمن القومي لبحث الرد على تفجير مقر قوات مشاة البحرية في بيروت. من الأمام: نائب الرئيس جورج إتش دبليو بوش؛ يجلس إلى يسار ريغان: وزير الخارجية جورج شولتز؛ إلى يمينه: وزير الدفاع كاسبار واينبرغر. (مكتبة ريغان)

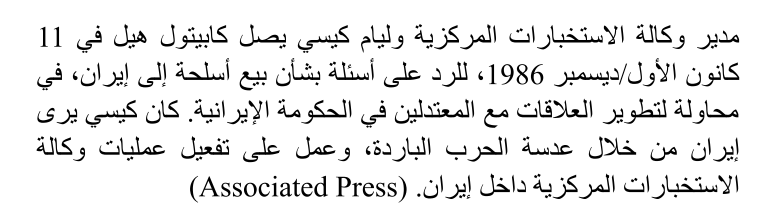


حثّ نائب مستشار الأمن القومي جون بويندكستر على الردّ على تفجير مقر مشاة البحرية في بيروت. ولكن على الرغم من تصريحات إدارة ريغان العلنية إلا أنها لم تردّ عسكريًّا على أسوأ يوم لقوات المارينز منذ أيو جيما عام 1945. (Associated Press)



الجنرال المشاكس جيمس ليونز الملقّب بـ«آيس» (إلى اليسار) يحيي وزير الدفاع كاسبار واينبرغر في هاواي في 18 حزيران/ يونيو 1987. استغلّ ليونز المناسبة ليطرح خطته السرية لشن حرب على إيران. (جيمس ليونز)





مدير وكالة الاستخبارات المركزية وليام كيسي يصل كابيتول هيل في 11 كانون الأول/ديسمبر 1986، للرد على أسئلة بشأن بيع أسلحة إلى إيران، في محاولة لتطوير العلاقات مع المعتدلين في الحكومة الإيرانية. كان كيسي يرى إيران من خلال عدسة الحرب الباردة، وعمل على تفعيل عمليات وكالة الاستخبارات المركزية داخل إيران. (Associated Press)



رئيس هيئة الأركان المشتركة، الأدميرال وليام كرو، يطلع ريغان ومستشاريه للأمن القومي في غرفة العمليات بالبيت الأبيض على خطة لحماية ناقلات النفط الكويتية من هجوم إيراني. رأت الإدارة في ذلك فرصة لتعويض الأضرار الناجمة عن مبيعات الأسلحة الإيرانية و نشر قوات عسكرية في الخليج العربي الحسّاس. (Associated press)



السفينة «يو إس إس ستارك» تحترق بعد إصابتها عن طريق الخطأ من قبل صاروخين عراقيين، ما أسفر عن مقتل سبعة وثلاثين بحارًا. (وزارة الدفاع)



قافلة بحرية أميركية تواكب الناقلات الكويتية تعبر الخليج في صيف العام 1987. كداعمٍ رئيس للعراق في حربها ضد إيران أصبحت الكويت هدفاً للهجمات الانتقامية الإيرانية. (وزارة الدفاع)



قائد القيادة المركزية الأميركية الجنرال جورج كريست، مشاة البحرية الأميركية (إلى اليسار)، يتحدّث إلى ملازم البحرية بول هيلنبراند حول عمليات ضد الزوارق الإيرانية الهجومية. قام الجنرال البحري بقيادة جميع القوات الأميركية في الشرق الأوسط خلال عامين متوترين من الحرب الباردة مع إيران. (بول هيلبراند)



فرقة العمليات الخاصة في البحرية تقتحم السفينة الإيرانية «إيران أجر» (AJR). في واحدة من أكبر الانقلابات الاستخباراتية في التاريخ الحديث، هاجمت قوات العمليات الخاصة الأميركية السفينة الإيرانية بينما كانت تزرع الألغام التي من شأنها إغراق السفن الحربية الأميركية. (وزارة الدفاع)



طاقم زورق دورية أميركية يقوم بإنقاذ بحارة سفينة «إيران آجر» التابعة للحرس الثوري الإيراني الذين أخلوا سفينتهم في الليلة السابقة بعد أن قصفتها مروحيات الجيش الأميركي، 22 أيلول/ سبتمبر 1987. (وزارة الدفاع)



الفصل الحادي عشر

خاتم في الإصبع الأميركية

«لقد بلغنا حضيض الحضيض»، قال ريتشارد أرميتاج عشية عيد الميلاد في 1986، ففضيحة إيران-كونترا كانت تهدد رئاسة ريغان.

وقع الأمر المحتوم التالي المرتبط بصفقات الأسلحة الإيرانية. فمنذ شحنة صواريخ «تاو» الأولى طلب كلٌّ من الإسرائيليين والأميركيين من الإيرانيين أثماناً باهظة، فقد طالبت إحدى الفواتير إيران بدفع 10,000 دولار ثمناً لكل صاروخ، في حين كانت تكلفة وزارة الدفاع الأميركية الفعلية للصاروخ الواحد بحدود 3,500 دولار. سرعان ما تراكم بفعل ذلك فائض بملايين الدولارات، من الأموال الإيرانية، من خارج الاعتمادات. وعوضاً عن تحويل الأموال إلى وزارة الخزانة الأميركية، ضخّها أوليفر نورث مع الجنرال سيكورد لشراء أسلحة لمتمرّدي نيكاراغوا الذين تدعمهم الولايات المتحدة، وقد أطلق نورث في وقت لاحق على هذه الخطة اسم «فكرة رائعة». تم ذلك بطريقة غير قانونية، وأخذ الكونغرس يتحرّك بسرعة لعقد جلسات الاستماع في ذلك الربيع، وهو يجرّ كبار المسؤولين، بمن فيهم جون بويندكستر وأوليفر نورث، أمام الكاميرات في جلسات استماع تعد مثيرة جدّاً كجلسات ووترغيت قبل ذلك بعقد.

وجّهت اللجنة الرئاسية التي تنظر في المسألة، وقد ترأسها السيناتور الجمهوري القوي السابق جون تاور، انتقاداً خفيفاً إلى ريغان على أسلوب قيادته المتراخي، ولسماحه لمجلس الأمن القومي بإدارة العمليات وليس الاكتفاء بتنسيق السياسات، وخلص تقرير تاور إلى أن الرئيس كان يقايض الأسلحة بالرهائن. فقد أعرب ريغان، على غرار كلود رينس في فيلم «كازبلانكا» (Casablanca)، عن «صدمته» من هذه القضية على الرغم من أن دوره فيها كان أساسياً منذ البداية.

سبّب التوتر الناجم عن الفضيحة نميمةً وعداوة صريحتين داخل الإدارة. وقام الوزير جورج شولتز بتصرّف نادر بظهوره على التلفزيون وانتقاده الرئيس علناً على إتجاره بالأسلحة مع آية الله. أغضب هذا التصرف السيدة الأولى نانسي ريغان التي أسرَّت للسفير السعودي الودود، الأمير بندر، أن على شولتز أن يرحل بسبب «عدم وفائه للرئيس»[460]. رفض ريغان الأخذ بمشورة زوجته وطرد وزير خارجيته على الرغم من استمرار الجدل والمشاحنات اللفظية بينهما خلال الاجتماعات التالية في غرفة العمليات في البيت الأبيض، حول العملية كلّها والحكمة من ورائها. وبالرغم من الفضيحة المتزايدة ظل ريغان يعتقد أنها كانت محاولة جديرة بالاهتمام[461].

تسببت الفضيحة بعملية تطهير كبرى في البيت الأبيض، فقد استقال بويندكستر، وجاء فرانك كارلوتشي بوصفه المستشار الجديد للأمن القومي، وجاء معه إلى البيت الأبيض مساعد واينبرغر العسكري السابق كولن باول بوصفه نائباً له، وانضم إليهما روبرت أوكلي الذي قَبِلَ على مضض حقيبة الشرق الأوسط. وفي وكالة الاستخبارات المركزية تعرض وليام كيسي إلى أزمة قلبية حادة في كانون الأول/ ديسمبر، وبقي على فراش الموت في المستشفى، وبعد محاولة فاشلة لتعيين روبرت غيتس خلفاً له، وافق وليام وبستر، مدير مكتب التحقيقات الفدرالي، على ترؤس وكالة الاستخبارات.

تسببت أخبار صفقات واشنطن السريّة مع إيران بأزمة ثقة في الشرق الأوسط. قال بيتر بورليه، الذي كان يترأس مكتب شؤون شمال الخليج في وزارة الخارجية: «في حين كنا نرسل مسؤولين رفيعي المستوى لرؤية ملك المملكة العربية السعودية وأمير الكويت ونحذرهما من المخاطر التي سيواجهانها في حال هزمت إيران العراق، اتضح أننا كنا نرسل أسلحة إلى إيران ويمكنكم تخيل ردة فعلهم. لم يتوقعوا أن نفعل ذلك!»[462]

عقدت منظمة التعاون الإسلامي اجتماعها السنوي في الكويت في كانون الثاني/يناير 1987، وناقش أعضاؤها، وسط ضجيج قذائف مدفعية الحرب العراقية-الإيرانية، السياسة الحقيقية للولايات المتحدة في المنطقة والغدر الأميركي. ففي الوقت الذي كانت واشنطن تضغط فيه علناً على الدول كي لا تبيع أسلحة لطهران، كانت هي تقوم بذلك في السر. وقد طمأنت الولايات المتحدة تكراراً المسؤولين السعوديين، الذين كانوا يشتبهون بنقل الأسلحة، أن لا وجود لمثل هذه الأعمال السرية. هزّت أخبار هذه السياسة المخادعة ثقة العرب المعتدلين في حسن نوايا الحكومة الأميركية ما أدى إلى التشكيك في صدقية وقوف أميركا ضدّ إيران، ولم يصدّق إلا قلّة منهم عذر إدارة ريغان بأنها عملية مارقة جرت في أقبية البيت الأبيض[463].

وقد علّق الدبلوماسي المخضرم في شؤون الشرق الأوسط ريتشارد مورفي على موقف العرب من الولايات المتحدة بالقول: «إن أميركا قوة تآمرية ناجحة إلى حدٍّ كبير (...) إن دول الخليج تلومنا بشدة، وتتمسّك بشدّة بفكرة أن للدول مصالح لا عواطف، وأننا إن رأينا أن من مصلحتنا اللعب مع إيران فسنلعب. لكن ذلك أغضبهم»[464].

علّقت ساندرا تشارلز، التي ترأست سياسة الشرق الأوسط في البنتاغون في ظل أرميتاج، قائلةً: «لقد ارتاب بنا زعماء المنطقة بسبب فضيحة إيران-كونترا». وعندما أظهرت تقارير الاستخبارات أن إيران نصبت صواريخ هوك المضادة للطائرات في جزيرة أبو موسى المتنازع عليها - وهي نوعية الصواريخ نفسها التي باعها نورث ورفاقه إلى إيران - قال وزير دفاع دولة الإمارات العربية المتحدة لتشارلز خلال أحد الاجتماعات بينهما: «من الرائع معرفة أن الصواريخ التي زوّدتموهم بها باتت تشكّل الآن تهديداً لقواتكم. يا لها من ورطة وضعتم أنفسكم فيها»[465].

أحيا كارلوتشي وباول عملية «استانش» من جديد، وكلّف الرئيس ريغان وزير الخارجية شولتز رسمياً قيادة مهمة تنسيق جهود جديدة بين الوكالات لوقف تدفق الأسلحة إلى إيران، وأسند الأخير المهمة إلى وكيل الوزارة لشؤون المساعدة الأمنية، عضو الكونغرس السابق عن ولاية إيلينويز، إدوارد دروينسكي، الذي شكّل لجنة عملية «استانش» المكوّنة من أعضاء يمثلون الحكومة كلّها، بما في ذلك وكالات الاستخبارات. كانت اللجنة تجتمع مرّة كلّ أسبوعين في مبنى المكتب التنفيذي القديم، وتستعرض أحدث التقارير الاستخباراتية الصريحة والحساسة حول الأسلحة المتجهة إلى إيران، وطورّت ردّاً منسقاً على مستوى الحكومة لإلغاء أي مبيعات. حققت عملية «استانش» الجديدة نجاحاً فورياً، ولاسيما في أوروبا، فقد انخفضت إلى حد كبير مبيعات الأسلحة من أوروبا الغربية إلى إيران، وتراجعت من مليار دولار في العام 1986 إلى أقلّ من 200 مليون دولار في النصف الأول من العام 1987، ولم تبع إلا أربع فقط من دول حلف الناتو أسلحة إلى إيران بينما كان عددها في العام الفائت 23 دولة. وأمرت المملكة المتحدة إيران بإغلاق مكتب مشتريات السلاح في لندن الذي اشترت طهران من خلاله ما يُقدَّر بسبعين بالمئة من أسلحتها[466].

فيما واصلت وزارة الخارجية عملية «استانش»، لجأ البنتاغون إلى الاتصالات العسكرية-العسكرية المستمرة للتخفيف من الضرر السياسي. ولاحظ ريتشارد مورفي: «كانت الروابط العسكرية-العسكرية من خلال القيادة المركزية الأميركية مصدر راحة لهم، وأظهرت رسوخ العلاقة. وقد حدث أن كان ريتشارد أرميتاج يتلقى انتقاداً شديداً من العاهل الأردني الملك حسين بشأن التضارب في السياسة الأميركية تجاه إيران، بينما كان ضباط أردنيون وضباط من القيادة المركزية الأميركية في الغرفة المجاورة يخطّطون للقيام بإحدى المناورات وكأن شيئاً لم يكن»[467]. كما لاحظ قائد القيادة المركزية الأميركية ذلك أيضاً بعد جولة سريعة له في المنطقة. كتب الجنرال كريست إلى واينبرغر: «على المدى القصير، نجا تعاوننا العسكري من الصدمة وبقي سليماً، وهو في موقع يمكّنه من تخفيف آثار الصدمة عن عناصر أخرى من عناصر علاقاتنا في المنطقة»[468].

وفيما استهلكت الفضيحة السياسيين في واشنطن، تصاعدت حرب الناقلات على نحو درامي. فقد قصفت الطائرات العراقية خمساً وستين سفينة ترفع أعلامَ دولٍ مختلفة كانت تعبر إلى الموانئ الإيرانية، وأذنت المملكة العربية السعودية لطائرات الميراج العراقية بالتزود بالوقود في قواعدها الجوية، ما سمح لها بأن يبلغ مداها مضيق هرمز، وأضاف العراقيون إليها طائرات قاذفة

بعيدة المدى كانت مشتراة حديثاً من موسكو، وهذه الطائرات المتثاقلة ذات المحرّكات الأربعة، ويطلق عليها اسم بادجر (Badger)، تحمل أسلحة ضاربة قوية - صواريخ كروز صينية الصنع ذات رؤوس حربية تعادل قوتها التفجيرية ثلاثة أضعاف قوة صواريخ إكزوسيت[469].

زاد عرب الخليج مساعداتهم للعراق، ودفعت المملكة العربية السعودية تكاليف تحسين خطوط أنابيب النفط العراقية التي تمرّ عبر تركيا، وقدّمت الكويت والمملكة العربية السعودية مساعدات للعراق بقيمة مليار دولار شهرياً، وبلغت مساهمة الكويت وحدها في 1987 نحو 13 مليار دولار[470]، كما وفتحت الباب أمام تدفق المساعدات العسكريّة إلى العراق، فوصلت في أسبوع واحد فقط من شهر كانون الأول/ ديسمبر 1986 سبع ناقلات أسلحة سوفيتية إلى الكويت، وهو أمر لم يسبق له مثيل، محمّلة بأكثر من ثلاث كتائب دبابات من طراز T-72، بالإضافة إلى طائرات من طراز ميغ 29 المتطورة[471].

بعد مرور سبع سنوات على الحرب والثورة تضاءلت إلى حدٍّ كبير قدرات الرد العسكرية الإيرانية التقليدية. وفقاً لتقديرات استخبارات الدفاع الأميركية، أدّت تركيبة من النقص في قطع الغيار والخسائر في القتال إلى تقلّص سلاحها الجوّي إلى ما لا يزيد عن اثنتي عشرة طائرة صالحة للعمل، كُرّس معظمها للجبهة العراقية. وبعدما أسقط السعوديون طائرات F-4 الإيرانية، استخدم الإيرانيون مروحيات إيطالية الصنع مزودة بصواريخ صغيرة لمهاجمة سفن الشحن، ونقلوا العمليات إلى جنوب وسط الخليج، حيث راحوا يعملون من جزيرة أبو موسى ومنصة «سيّري» النفطية، فقصفوا ثماني عشرة سفينة في 1986 قبل أن يؤدي النقص في قطع الغيار إلى توقف العمليات الجوية[472].

أُلقي عبء شنّ الحملة العسكرية الإيرانية على كاهل بحرية الشاه التي كانت تثير الإعجاب فيما مضى. لقد تولّى رجال الدين المناصب العليا بعد الثورة لمراقبة ولاء سلاح البحرية، مما أدى إلى رحيل الضباط إمّا للعمل في «شركة الناقلات الوطنية الإيرانية» وإما إلى المنفى. حاولت الحكومة، مع اندلاع الحرب العراقية-الإيرانية، الإبقاء على الضباط الضروريين لتشغيل الطائرات والسفن، وغالباً ما كانت تنجح بمناشدة مشاعرهم الوطنية، وبقي آخرون يحملهم على ذلك انتماؤهم العائلي أو الحاجة إلى المعاش أكثر مما يحملهم عليه التعلّق بالبلاد. كان بينهم ضباطٌ محترفون ذوو تدريب أميركي، ترقّوا في الرتب وتولوا قيادة أسطول البحرية الذي استُنزف في حربه الأولى الكبرى ضد صدام حسين.

بحلول العام 1986 كان سلاح البحرية في الجمهورية الإسلامية الإيرانية يضمّ خمسة عشر ألف رجل وثماني عشرة سفينة حربية، وقد أدى النقص في قطع الغيار والخسائر التي تكبّدتها إيران إلى خفض عدد السفن الحربية إلى النصف، ولم تكن تُبحر في وقت واحد من سفن الأسطول الإيراني سوى سفينة واحدة أو اثنتين. كان لدى إيران صاروخ واحد فقط مضاد للسفن صالح للعمل من طراز هاربون نصبته على متن الزورق الصاروخي «جوشان»، وشكّل تعقّب هذا الصاروخ

الوحيد، ولسنوات، محطّ تركيز مكتب الاستخبارات البحرية الأميركية[473]. وتركّز الجزء الأكبر من العمليات الإيرانية على أربع فرقاطات صغيرة بريطانية الصنع، سُلّحت كلٌّ منها بصواريخ صغيرة مضادة للسفن من طراز «سي كيلر» (Sea Killer) وبمدفع سريع الطلقات عيار4.5 بوصة.

كانت القيادة الإيرانية تنظر إلى سلاح البحرية النظامي بشيء من الازدراء؛ وكانت تشكّ بأن الضباط يضمرون تعاطفاً خفيّاً تجاه أصدقائهم القدامى في سلاح البحرية الأميركية، وكانت ترتاب عن حق بولائهم للجمهورية الإسلامية. فقد قدّمت البحرية عدداً قليلاً من الشهداء، واعتقد الحرس الثوري أن هذا السلاح يفتقر إلى التفاني الحقيقي والروح الهجومية. وفي تموز/يوليو 1985 نفّذ الحرس الثوري على متن زوارق آلية صغيرة أول عملية بحرية لهم، واستولوا على سفينة الشحن الكويتية «المحرّق». وفي غياب أي مصادر أخرى لتوسيع عملياتها البحرية، حققت بحرية فيلق الحرس الثوري الإيراني، كما سُمّيت ذراعه البحرية، نموّاً سريعاً لتصير مع أوائل 1987 الوسيلة الأساسية لمهاجمة سفن الشحن.

في حين كان سلاح البحرية الإيراني يتضمن قوة محترفة تدربت في الغرب، فإن بحرية الحرس الثوري كانت مكوّنة من ضباط هواة، عوّضت حماستهم عن افتقارهم إلى التدريب. كان جنود الحرس مزيجاً من الثوريين المخلصين والمجنّدين الإلزاميين، وقد حدث أن فرّ أحد أفراد الحرس الثوري من الجيش، وقصد بوشهر لزيارة صديق يخدم في البحرية، فسحبه الحرس الثوري من الشارع ليجد نفسه بعد أربع وعشرين ساعة يخدم على مدفع رشاش في زورق صغير في وسط الخليج العربي.

كان قِوام سلاح البحرية هذا أسطولاً مرتجلاً مكوّناً من بضع مئات من القوارب الصغيرة، وهي مزيج من قوارب صيد سمك ذئب البحر من طراز بوسطن ويلر (Boston Whaler) وزوارق سريعة. إذا استطاع المرء أن يتخيل سرباً من قوارب صيد مجهزة بقاذفات صواريخ ورشاشات وهو يهاجم ناقلة بطول ثلاثة ملاعب لكرة القدم، فيمكنه أن يأخذ فكرة عمّا يبدو عليه هذا التهديد الجديد في الخليج. كان أسطول المدفعية الصغيرة (Mosquito fleet) هذا يفتقر إلى القوة النارية لإغراق ناقلة نفطية، لكنه كان قادراً على أن يُلحق بها ضرراً كبيراً بها وأن يقتل أفراداً من طاقمها.

في العام 1984، سمحت الحكومة السويدية، على الرغم من اعتراضات أميركية، ببيع إيران نحو أربعين قارباً معدنياً من نوع «بوغامر» (Boghammer)، وُصفت بأنها «طرّادات بمقصورة». وقد استولى الحرس الثوري على هذه القوارب كلها[474]. وقد بلغ طول الواحد منها واحداً وأربعين قدماً، يجرّه محرّكان من نوع «فولفو»، ويمكن أن تصل سرعته إلى خمسٍ وأربعين عقدة. هذه القوارب المسلّحة بصواريخ عيار 107 مم، وقاذفات آر بي جي-7، ورشاشات عيار 12,7 ملم، صارت العمود الفقري للأسطول البحري الصغير للحرس.

كانت بحرية الحرس الثوري تستخدم أساليب بسيطة لمهاجمة السفن، فقد كانت تعمل في مجموعات مكونة من ثلاثة إلى خمسة قوارب وتقترب من ضحيتها حتى تصل إلى جوارها، ثم تنطلق بأقصى سرعة إلى أمام الناقلة المستهدفة، وتنتظر ببساطة حتى تمرّ بها الناقلة فتفتح نيران أسلحتها الآلية وقذائفها الصاروخية على برج قيادتها وهيكلها الضخم. وقد طوّرت في وقت لاحق تكتيكات أكثر حنكةً، فكانت تقترب من السفينة بسرعة عالية من اتجاهين متعاكسين وترشق السفينة بنيران أسلحتها في هجمات عابرة منسّقة ومتكرّرة. ووقع هجومها الأول في نيسان/أبريل 1987، حيث واجهت، في ذلك العام، اثنتان وأربعون سفينة أخرى مصيراً مماثلاً[475]. في 16 أيلول/سبتمبر 1987، وقع حدثٌ ذو مغزى شكّل باكورة التغيير في التكتيكات الإيرانية، فقد استُخدم للمرة الأولى في تاريخ حرب الخليج قاربٌ سريع لمهاجمة ناقلة النفط الكويتية «الفنطاس»، في هجوم ليلي لم يسبق له مثيل. وقد أنهى هذا الهجوم العبور الليلي الآمن.

عمل الحرس الثوري انطلاقاً من قواعد سلاح البحرية الإيرانية نفسها، ولاسيما بندر عباس وبوشهر، بيد أنه احتفظ بقيادة موازية ولكن مستقلة. كان سلاح البحرية النظامي والحرس الثوري (ولا يزالان) منقسمين إلى أربع مناطق قيادية لكلٍّ منها التسمية نفسها، وهكذا فإن المنطقة البحرية الأولى في بندر عباس أو المنطقة البحرية الثانية في بوشهر هو الاسم نفسه لمقرّ قيادة سلاح البحرية النظامي وأسطول بحرية الحرس الثوري. ولكن، باستثناء الاسم، عملت القيادتان في شكل مستقل إحداهما عن الأخرى. وحاول الإيرانيون في 1987 تشكيل قيادة مشتركة تعمل على تنسيق عمليات سلاح البحرية النظامي وأسطول بحرية الحرس الثوري، بيد أن هذه المحاولات فشلت عندما رفض الحرس الثوري التعاون وإخضاع عملياته لإمرة قيادة واحدة.

كانت العلاقة بين الحرس الثوري وسلاح البحرية الإيرانية سيئة، فقد كان الكثيرون من ضباط سلاح البحرية المحترفين يزدرون عناصر الحرس الثوري ويعتبرونهم، في السر، متغطرسين وغير منضبطين، فيما كان عناصر الحرس الثوري ينظرون إلى رجال البحرية النظامية على أنهم محافظين جداً ولا يزالون يتعاطفون مع حليفهم السابق، أي البحرية الأميركية. وقد تبادل الفريقان إطلاق النار في أكثر من مناسبة، بما في ذلك الحادث الذي وقع بين مروحية تابعة لسلاح البحرية الإيرانية وقارب صغير من أسطول بحرية الحرس الثوري بالقرب من إحدى منصّات النفط. ولكن سرعان ما أصبح أسطول بحرية الحرس الثوري أقوى، وفي إحدى المرات أجبر الحرس قائد سلاح البحرية الإيرانية على الاستقالة عندما عارض عملية استيلائهم على سفينة شحن كويتية.

بيد أن القوّتين كلتيهما لم تكونا تبديان الكثير من الانضباط، وكان بعض القادة يتجاهلون أوامر قيادة منطقة كلٍّ منهم. في تموز/يوليو 1987، أكّد هاشمي رفسنجاني لوزير الخارجية الياباني أن إيران لن تهاجم الناقلات اليابانية في منطقة الخليج، لكن ضباطاً مستقلّين في الرأي من الحرس الثوري هاجموا ناقلتين يابانيتين[476]. استحق قبطان الفرقاطة البحرية «سابلان»، الرائد البحري عبد الله منافي الذي رُقّي مؤخراً إلى رتبة لواء بحري وقائد للعمليات البحرية، لقب القائد المشاغب، فقد تجاهل، وهو المتعصب، في مرات عدة أوامر المنطقة البحرية الأولى في بندر عباس بعدم إطلاق

النار على سفن تجارية محدّدة. أقرّ منافي بأنه تلقى الأمر بعدم إطلاق النار، ومن ثم فتح النار على الناقلة السيئة الحظ، واستهدف عمداً برج القيادة ومقصورات المعيشة، ليقتل أكبر عدد ممكن من الطاقم. ولهذا استحقّ القبطان منافي لقباً يلائمه وهو «القبطان الشرير».

اعتمدت إيران، بغية العثور على الناقلات ومهاجمتها، على بضع طائرات استطلاع أميركية الصنع من طراز P-3 وإيرانية من طراز C-130، وقد جُهّز بعضٌ منها بأجهزة استقبال الإشارات الاستخباراتية التي زوّدت وكالة الاستخبارات المركزية الشاه بها قبل سقوطه. أثبتت هذه المعدات فائدتها في رصد الاتصالات اللاسلكية للسفن، وفي التحقق من الموانئ التي تقصدها، ونقل معلومات إلى المنطقة البحرية.

كانت حلقة الوصل الرئيسية في نظام المراقبة الإيراني هي الجزر المستولى عليها من قبل إيران والمنصّات النفطية في الخليج العربي الواقعة على جانبي طرق الناقلات. كانت هذه المقرات خاضعة لإمرة قيادة سلاح البحرية الإيرانية النظامي، وكانت تُستخدم كمواقع قيادة ومراقبة وقواعد عمليات متقدمة في آن، ثم أصبحت قواعد انطلاق للمروحيات في البداية، ومن ثم للقوارب الصغيرة التابعة للحرس الثوري، ووفرت حلقة اتصال مهمّة بين مقرات القيادة البرية والقوات البحرية العاملة في الخليج التي يبعد بعضها مسافة نحو 100 إلى 200 ميل. وباستثناء جزيرة «فارسي»، التي تفيد المنطقة البحرية الثانية في بوشهر، قدّمت قواعد المنصات والجزر كلها الإفادة إلى قيادة المنطقة البحرية الأولى، وهي الأكبر، في بندر عباس.

في شباط/فبراير من العام 1986 أصدر مقرّ قيادة المنطقة البحرية الأولى أمر عمليّات مفصّل لتعقب أهداف محتملة ومراقبتها، بما فيها السفن الحربية التابعة لسلاح البحرية الأميركية. قسّمت القيادة جنوب الخليج ومضيق هرمز إلى مناطق شرقية وغربية، وأنشأت مقرات تابعة لها في جزيرتي لارك وأبو موسى وميناء سيريك (خارج الخليج تماماً عند مدخل مضيق هرمز). قدّمت هذه المقرات الملحقة تقاريرها مباشرةً إلى بندر عباس عبر شبكة اتصال لاسلكية مشتركة كي تخبر القيادة الإيرانية بأي سفن «مشبوهة». بالإضافة إلى ذلك، وضع سلاح البحرية الإيرانية أربعة رجال في كل منصّة، وكانوا يدّعون أنهم موظفون في شركة النفط الوطنية الإيرانية، وكانت مهمتهم تقضي بمراقبة كل السفن التي تمر بمنصاتهم، كلٍّ على حدة، ونقل هذه المعلومات إلى بندر عباس[477]. وإذا حدّد قائد المنطقة البحرية سفينةً كهدف للهجوم، يتم نقل الأمر إلى أي منصّة من المنصّات أو جزيرة من الجزر الواقعة على طول مسار السفينة المستهدفة، وينقل الأمر أيضاً إلى السفن التابعة لسلاح البحرية أو قوارب الحرس الثوري الصغيرة فتنطلق إلى الأمام. وقد وقع أكثر من ثلث الهجمات الإيرانية كلها على سفن شحن كانت موجودة على بعد خمسين ميلاً بحرياً من المنصات الرئيسية الثلاث وهي سيري ورستم وساسان[478].

بينما كان سلاح البحرية الإيرانية يدير العمليات من المنصات البحرية، احتاجت زوارق الحرس الثوري الصغيرة إلى هذه المنصات لتكون قواعد تجمّع لها، فهي لا تستطيع أن تبحر لوقت

طويل في المياه المفتوحة. فكانت هذه الزوارق تتجمع في أي وقت حول أي منصّة وتستخدم أجهزة استقبال لاسلكية تخصّ سلاح البحرية لنقل رسائل إلى مقر قيادة الحرس الثوري.

صعَّد أسطول الحرس وسلاح البحرية النظامي ضرباتهما على السفن السعودية والكويتية، فهاجما إحدى وأربعين ناقلة، كان معظمها في وسط الخليج وقبالة سواحل دولة الإمارات العربية المتحدة، بما في ذلك ناقلة كانت تنتظر لتتزود بالنفط الخام في دبي[479]. وحوّلت الأساطيل الإيرانية في مطلع أيلول/سبتمبر 1986 غضبها الشديد نحو الكويت الضعيفة، فمن أصل هجمات إيران الواحدة والثلاثين التالية وُجّهت ثمانٍ وعشرون منها إلى الناقلات الكويتية[480]. فرفعت شركة لويدز اللندنية قيمة قسط التأمين خمسة أضعاف على السفن المتوجهة إلى الكويت[481]، وحاولت الناقلات أن تنطلق ليلاً أملاً في أن تتجنب البحرية الإيرانية[482]. صعّدت إيران من ضغطها بأن أرسلت مخربين إلى الكويت قاموا بتفجير أنبوبين رئيسين متفرعين للنفط الخام.

كانت الكويت ضحية غير محبّبة على نحو خاص، وقد وضعت المصادفة الجغرافية سكانها القليلي العدد فوق واحدٍ من أكبر احتياطيي العالم من النفط، وتدين الكويت بوجودها كلِّه إلى بريطانيا العظمى، فقد اقتطعت القوة الاستعمارية العظمى السابقة هذه المحمية، وأرسلت في 1961، بعد الاستقلال، سبعة آلاف جندي ومشاة بحرية لمنع العراق، الذي يدّعي، وثمة أسس لهذا الادّعاء، أنها تاريخياً جزءٌ منه، من التهامها. استجلبت الكويت عشرات الآلاف من الفلسطينيين الأفضل تعليماً لتشغيل بيروقراطيتها وتطوير صناعاتها النفطية، لكنها رفضت منح أشقائها العرب حقّ الاقتراع وعاملتهم بشكلٍ مختلف بدافع من الخوف.

حاولت الكويت، في خلال الحرب الباردة، التلاعب بالولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي من أجل مصلحتها الخاصة، فهي الدولة الخليجية الوحيدة التي حافظت على علاقات دبلوماسية كاملة مع السوفيت، الأمر الذي كان بمثابة شوكة ثابتة في خاصرة العلاقات الكويتية الأميركية[483]. وعلى الرغم من سلوكها الدبلوماسي المتوازن فقد بقيت دولة ضعيفة تحيط بها الذئاب، والقصف المستمر الذي يرجّ النوافذ في مدينة الكويت جاء وكأنه رسالة تذكير لعائلة الصباح الحاكمة بهذا الضعف. كانت الكويت تخشى الإيرانيين، لكنها ألقت بدعمها وراء المخادع صدام حسين الذي كان يطمع فيها ويرفض إيجاد حل لنزاعهما الحدودي الطويل الأمد. وفيما ظلت الكويت على مسافة من الولايات المتحدة قدر الإمكان حتى لا تغضب جارتها الفارسية، أخذت في النهاية تتطلّع إليها للحفاظ على بقائها.

وقد علّق المستشار السياسي لوزارة الخارجية في القيادة المركزية ناثنيال هويل قائلاً: «يتظاهر الكويتيون بالحياد، ولكنهم عندما يراهنون على أموالهم يسلّمونها للغرب»[484].

أدت الهجمات التي تشنّها إيران على ناقلات الكويت النفطية إلى تضاعف شعور وزير النفط الكويتي الشيخ علي خليفة بالقلق. بدا علي خليفة، بشاربه وملامحه الناعمة، أشبه برجل أعمال

دولي أكثر منه ببدويٍّ عربي. كانت الأسرة الحاكمة تعتبره حاذقاً وذكياً وذا ذهنٍ تجاريّ جيّد، ولهذا السبب عيّنه حاكم الكويت، الشيخ جابر الصباح، لإدارة المشروع التجاريّ الأهم بالنسبة إلى الكويت. وتولّى، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، إدارة شركة النفط الكويتية، فساعد على تحويلها إلى مؤسسة عالمية، بما في ذلك إنشاء أربعة آلاف محطة وقود في أوروبا[485].

في صيف العام 1986 ناقش علي خليفة والأعضاء البارزون في أسرة الصباح كيفية الردّ على الهجمات الإيرانية، فقد كانت تستهدف، على عكس هجمات طهران الإرهابية، قلب الاقتصاد الكويتي. فكّروا ملياً في استخدام سلاح البحرية الكويتي الصغير لحماية سفنهم، لكن وزير الدفاع الشيخ سالم الصباح عارض ذلك لأن إيران ستهاجم زوارق الدوريّات الكويتية وتجرّهم بذلك إلى الحرب العراقية-الإيرانية. وافقه علي خليفة في الرأي شاعراً أنّ إيران لن تردعها إلا حماية تقدمها قوة عظمى[486].

وتمثّل السؤال الحقيقي الذي أثقل على فكر الزعماء الكويتيين في ما إن كان بإمكانهم الوثوق بالولايات المتحدة. فإذا ازدادت حرب الناقلات سوءاً، آلن تلوذ واشنطن بالفرار، مثلما فعلت في بيروت قبل عامين، وتترك الكويت الصغيرة جداً في مواجهة غضب إيران؟ قرر علي خليفة اختبار الموقف الأميركي.

تلقّت السفارة الأميركية في مدينة الكويت في 10 كانون الأول/ديسمبر استفساراً غير عادي من شركة النفط الكويتية، عن الشروط المطلوبة لتسجيل السفن في الولايات المتحدة[487]، وسئل إدوارد غنيم، الموظف في وزارة الخارجية الأميركية، الذي عُيِّن لاحقاً سفيراً للولايات المتحدة لدى الكويت، إذا ما كانت الناقلات ستحظى «بحماية سلاح البحرية الأميركية» فيما لو تمّ تغيير أعلامها[488]. وفي اليوم ذاته أرسل مدير تطوير أسطول شركة ناقلات النفط الكويتية تيم ستافورد تلكساً إلى خفر السواحل الأميركية يطلب فيه التوجيه فيما يخصّ إمكانية رفع العلم الأميركي على أربع ناقلات كويتية تنقل غاز النفط السائل ومسجّلة حالياً في فرنسا.

ردّ خفر السواحل بأن رفع إلى تيم ستافورد قائمة لا يتصورها العقل باللوائح القانونية، بدءاً بعدد مطافئ الحريق اللازمة على متن الناقلة وانتهاءً بمتطلبات مكافحة التلوث. ينبغي على أي ناقلة تريد شركة ناقلات النفط الكويتية تسجيلها تحت علم الولايات المتحدة أن: 1) يكون رُبانها مواطناً أميركياً؛ 2) يكون 75٪ على الأقل من طاقمها من المواطنين الأميركيين؛ 3) تكون مملوكة من قبل شركة أميركية أو شركة تكون غالبية أعضاء مجلس إدارتها من المواطنين الأميركيين؛ 4) تكون متاحة للجيش الأميركي لاستخدامها في الحرب[489].

بيد أن الشيخ علي خليفة راوغ في سياسته وقارب بهدوء خصم واشنطن، فاجتمع بالسفير السوفيتي بشأن تسجيل بعض السفن تحت علم المطرقة والمنجل. ردّت موسكو على الفور بالموافقة ودون إثارة أي قلق بشأن مطافئ الحريق أو ملكية الشركات. وفي اليوم التالي اتصل علي خليفة

هاتفياً بـالسفير الأميركي أنطوني كوينتون لإطلاعه على العرض السوفيتي المتعلق بنقل نفط الكويت كلّه إما في ناقلات سوفيتية وإما في سفن كويتية ترفع العلم السوفيتي، وسأل بتهذيب: «هل الولايات المتحدة على استعداد لمنافسة التعهد السوفيتي فتقبل برفع أعلامها على بعض الناقلات الكويتية أو كلها». وقد استذكر ذلك مستشار الأمن القومي فرانك كارلوتشي قائلاً[490]: «لقد كان الأمر بمثابة صفعة ابتزازٍ خفيفة.

أطلق اتصال الشيخ علي خليفة نقاشاً جديداً داخل الإدارة الأميركية التي كانت لا تزال تعاني بسبب سياستها الخارجية في الشرق الأوسط في أعقاب فضيحة إيران-كونترا. وفي حين لم يتم التشكيك أبداً بالمبادئ الأميركية الأساسية المتعلّقة باحتواء التوسّعين السوفيتي والإيراني، برزت اختلافات في الرأي حول ما إذا كان هذا العرض الكويتي غير المتوقع يدعم هذه الأهداف. ولخّص شولتز وجهات نظره في مذكرة خاصّة لكبار المسؤولين بقوله: «لا يتمثّل دور الولايات المتحدة في أن تأخذ زمام المبادرة لحماية سفن الشحن المحايدة في الخليج»[491]. ظلّت وزارة الخارجية عموماً متردّدة إزاء الإسراع في قبول الطلب الكويتي، الذي لا يبدو أكثر من محاولة سافرة للضغط على الولايات المتحدة كي تنقذ الاقتصاد الكويتي دون أن تحصل في المقابل على الكثير[492].

اصطدم واينبرغر، مرةً أخرى، مع شولتز. جادل واينبرغر بأن الولايات المتحدة تلقت طلباً للمساعدة في منطقة حيوية للأمن الأميركي، وأن هذا يوفّر فرصةً عظيمة لتطوير العلاقات العسكرية الوثيقة اللازمة لأمن الولايات المتحدة - وهو ما تصوّره مشروع «نيو سبلاندور» (New Splendor)، وأنّ من شأن أي تراخٍ أن يخاطر بتقويض موقف الولايات المتحدة في الخليج العربي، ويفتح باب هذا الخليج أمام السوفيت[493]. وفي ما يخصّ الجوانب القانونية المتعلقة بتغيير العلم أكّد وزير الدفاع أنه ليس مهماً إن سُجّلت السفن في الولايات المتحدة أم لم تسجل، وأكّد أيضاً أنه إذا قررنا حماية السفن الكويتية فسيمكننا القيام بذلك لأنه، من ناحية، يصبّ في مصلحتنا، ويخدم، من ناحية ثانية، مبدأ حرية البحار. عبّر واينبرغر عن موقفه قائلاً: «لا يوجد أدنى شك حول صوابية الطلب والغرض من مساعدتنا لهم. حصل ذلك في المياه الدولية، ونحن والجميع بحاجة إلى النفط، فلمَ لا نفعل ذلك؟»[494].

على الرغم من أن واينبرغر قال في وقت لاحق إن كارثة إيران-كونترا لم تؤثر في قراره، إلا أن موظّفي مجلس الأمن القومي، ريتشارد أرميتاج وروبرت أوكلي، نظرا إلى الطلب الكويتي من خلال عدسة الفضيحة. قال أرميتاج: «وفّر ذلك فرصةً ذهبية لمساعدة العرب المعتدلين واستعادة صدقية الولايات المتحدة بعدما هدّمها الكذب في فضيحة إيران-كونترا»[495]. وافقه أوكلي الرأي مضيفاً أن سياسة الولايات المتحدة في حال يرثى لها، وأن الخوف من أي انتصار إيراني هو أمرٌ جديّ[496]. منح طلب الشيخ علي خليفة واشنطن الفرصة لتبرهن بوضوح الدعم أميركي لحلفائنا في الخليج، ولتظهر في أي جانب نقف في ما يخصّ إيران[497].

سرعان ما انتهى الشتاء ليفسح المجال للربيع دون أي التزام أميركي قوي تجاه الكويت.

في النهاية أعلنت الكويت خبراً كان له وقع الصاعقة. فقد أعلن الشيخ عبد الفتاح البدر من شركة الناقلات النفطية الكويتية لدبلوماسيين أميركيين، روَّعتهم المفاجأة، أن الكويت والاتحاد السوفيتي قد توصّلا إلى اتفاق من أجل تسجيل خمس ناقلات، جميع أفراد طواقمها من السوفيت، وتواكبها ثلاث سفن حربية سوفيتية ما بين خورفكان، في الإمارات العربية المتحدة، والكويت[498]. كانت الحكومة الكويتية لا تزال ترغب في العمل على تسجيل ستّ سفن مع الأميركيين، ولكن السوفيت كانوا أكثر استجابةً بكثير، ولم تستغرق العملية برمّتها إلا أسبوعاً واحداً في مقابل عشرين أسبوعاً مع خفر السواحل الأميركية.

تسبّب هذا الخبر بحالة من الذهول في الطابق الثالث في وزارة الدفاع، وأعدّت مديرة شؤون الشرق الأوسط ساندي تشارلز مسودة مذكّرة يطرحها واينبرغر في اجتماع الإفطار الأسبوعي صباح اليوم التالي مع كارلوتشي وشولتز[499]، وأوصت أن تعرض الولايات المتحدة حماية الناقلات المذكورة الإحدى عشرة كلها - بما فيها الناقلات الخمس التي عرضت موسكو حمايتها - بغضّ النظر عن الوثائق التي يطلبها خفر السواحل أو حتى لو رفعت العلم الوطني للولايات المتحدة الأميركية[500].

في صباح اليوم التالي كسر واينبرغر الجمود وقال إنه إذا فشلت الولايات المتحدة في التصرف فستخاطر بتوسّع الوجود العسكري السوفيتي في الخليج، ولا يمكننا الاكتفاء بالجلوس والسماح للإيرانيين بتخويف الكويت. في حين وافقه كارلوتشي، ظل شولتز غير مقتنع. بعد مرور ساعة من الجدل اتصل واينبرغر بالرئيس مباشرةً، فوافق ريغان على حماية ناقلات النفط الكويتية الإحدى عشرة كلها[501].

بعث واينبرغر على الفور برسالة إلى وزير الدفاع الكويتي الشيخ سالم الصباح جاء فيها:

يعتقد الرئيس أن استمرار شنّ الهجمات على الملاحة غير المحاربة، مقروناً بالتهديد الذي تنطوي عليه صواريخ «سيلكوورم» (Silkworm) الإيرانية، يشكّل تهديداً خطيراً لمصالحنا الأمنية المتبادلة. لقد طلب الرئيس مني أن أنقل إليكم استعداده لتوفير حماية لهذه الناقلات الإحدى عشرة المسجّلة حالياً في الكويت، ونحن على استعداد لتوفير هذه الحماية للسفن الكويتية سواء سعت الكويت لتسجيلها تحت علم الولايات المتحدة أم لم تفعل[502].

ضغطت حكومة الولايات المتحدة على الكويت فوراً كي تتراجع عن اتفاقها مع السوفيت، لكن بات لدى الشيخ سالم والكويتيين اليد الطولى. فبعد أن وجّه سالم اللوم للأميركيين لتلكّئهم وبيروقراطيتهم المعقدة أكثر من اللازم، أضاف أنه مستاء من طلبهم من الكويتيين تغيير قراراتهم السياسية، وقال: ففي النهاية، «الكويت دولة ذات سيادة».

وفي ما يخصّ التراجع عن اتفاقهم مع السوفيت قال: «بوجود الإرادة توجد الوسيلة»، ولكنه عاد وحذّر قائلاً: «في إنكلترا، عندما يطلب الرجل يد امرأة، لا يمكنه التراجع، وهذه هي الحال بين الكويت وموسكو».

ردّ نائب القنصل الأميركي جيمس هوبر بشكل حاذق قائلاً: «لا يصبح الزواج رسمياً إلى أن يضع الرجل خاتماً في إصبع المرأة. هل وضعت الكويت خاتماً في الإصبع الروسية؟»[503].

أجاب الشيخ سالم بمكر: «دعنا نقل إن يدنا تكاد تصل إلى يدهم، ولكن حتى الآن لم يوضع الخاتم في الإصبع الروسية».

في 9 آذار/مارس اجتمع علي خليفة بولي العهد الأمير سعد وأجرى بعد ذلك اتصالاً هاتفياً بكريست في تامبا. وافقت الحكومة الكويتية على التخلي عن العروس الروسية، وقبلت العرض الأميركي بحماية الناقلات النفطية الكويتية الإحدى عشرة كلها. لقد وضعت الكويت الخاتم في الإصبع الأميركية[504].

وصل رئيس هيئة الأركان المشتركة وليام كرو إلى البحرين لحضور اجتماعات مقررة مع أميرها وقائد قوة الشرق الأوسط الأدميرال هارولد بيرنسن قبل أن يتوجه إلى الكويت لإتمام الاتفاق. علم كرو بعد وصوله أن علي خليفة لم يكن صادقاً تماماً، فالكويت لا تزال تنوي استئجار ثلاث ناقلات سوفيتية لشحن بعضٍ من نفطها الخام. أصاب هذا الاكتشاف كرو بالصدمة[505].

سأل كرو بيرنسن: «هل ينبغي علينا وحسب إلغاء العرض وترك الكويت تتدبّر أمرها ضدّ إيران؟ هل ندع الكويت تنجز الصفقة الأفضل مع السوفيت؟» فقد أيّد رئيس الأركان عموماً فكرة تغيير العلم، ولكنه شاطر في قرارة نفسه الكثير من مخاوف شولتز، كما أنه لم يكن معجباً بموقف الكويت المتحفظ تجاه الولايات المتحدة، ولم يتعاطف كثيراً مع لعبها على حبلي القوتين العظميين.

قال بيرنسن: «سيدي، أعتقد أن الأوان قد فات. من شأن التراجع الآن أن يقوّض على نحو خطير صدقية أميركا مع دول مجلس التعاون الخليجي الأخرى»[506]. ولمّا هدأ غضب كرو أخيراً، اتفق مع بيرنسن. لم يكن بوسع الولايات المتحدة أن تقوم بالكثير غير المضي قدماً ومحاولة التخفيف من الأهمية المكتَشَفة حديثاً للسوفيت في الخليج العربي[507].

تلاعبت الكويت بحذاقة بكلتا القوتين العظميين لتوفير الحماية لنفسها ضدّ إيران، فقد وافقت على وضع الخاتم في الإصبع الأميركية، لكنها تركت الباب مفتوحاً لعشيقها الروسي.

عمدت القيادة المركزية الأميركية، وقد اتخذت قرارها السياسي، إلى تعزيز خططها من أجل حماية الناقلات الكويتية الإحدى عشرة. في الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة 6 آذار/مارس اتصل كريست بضابط عملياته اللواء الجوي صموئيل سوارت ليدعو إلى «عقد مجلس الإدارة»، كما كان القائد يسمّي كبار ضباط أركانه[508]. وقد أطلعهم كريست، في الاجتماع الذي

استمرّ ساعتين، على عملية تغيير العلم المقترحة، وقد اختير لها عشوائياً اسم «المجوهرات الخاصة» (Private Jewels). وقضت توجيهات واشنطن إلى كريست بـ «التقليل من تعرض الأميركيين للخطر»، لكن أن يبقى على استعداد لتوجيه ضربات انتقامية إلى إيران في غضون ستٍّ وتسعين ساعة.

عانت القيادة المركزية الأميركية من عدة أوجه قصور في ما يخصّ عملية قوافل السفن المقبلة، فهي لم تكن تفتقر وحسب إلى خطة جاهزة للاستخدام، بل افتقر كريست أيضاً إلى قيادة بحرية عليا تابعة له لإدارة ما سيشكّل بالتأكيد مهمة بحرية[509]. حاول الفريق روبرت كينغستون وفشل في حمل أسطول البحرية على تخصيص سفن من الأسطول الخامس لمساندة القيادة المركزية فغدا عنصر القوة البحرية التابعة لكريس مؤلفاً من عميد بحري في هاواي يتولّى الميزانيات والأعمال المكتبية، وانتقل بذلك العبء الثقيل للعملية إلى أسطول الخليج العربي الصغير، أي قوة الشرق الأوسط. تأسّست هذه القوة عام 1949، وتتألف من سفينة القيادة وعدد قليل من المدمرات تتخذ من منشأة بحرية بريطانية قديمة في البحرين قاعدةً لها[510]. لم يرد سلاح البحرية الأميركية لها أن تكون أبداً أكثر من أسطول بحري صغير يرفع علماً. وفي حال نشوب صراع في الشرق الأوسط، ستصل إليه أعداد كبيرة من أسطول المحيط الهادئ في هاواي، مع قائده ذي الأربع نجوم، لتولّي الأمور. لم يغيّر إنشاء قيادة عسكرية مشتركة مسؤولة قانونياً عن الشرق الأوسط من مخطط سلاح البحرية الأميركية. ويمكن القيادة المركزية الأميركية خوض المعركة البرية في إيران، لكن أسطول المحيط الهادئ هو من سيتحكّم بالسفن الحربية، ربما لمساندة القيادة المركزية الأميركية، ولكنه في نهاية المطاف سيقوم بذلك من جانب واحد بغضّ النظر عن رغبات قائد القيادة المركزية الأميركية في تامبا.

لم يكن قائد قوة الشرق الأوسط من ذلك النوع من الأدميرالات الذي قد تختاره المؤسسة لمثل هذه العملية الهامة، فقد تخرّج العميد البحري هارولد بيرنسن من «دارتموث» لا من «الأكاديمية البحرية»؛ فهو طيّار ولكنه ليس من أفضل الطيارين، وقد قاد طائرات بمحرّك مروحي للمراقبة الجوية والإنذار تفتقر للإثارة. يبقى أن بيرنسن على معرفة بالخليج العربي، فقد تولّى قيادة سفينة القيادة في الشرق الأوسط «لاسال» عند اندلاع الحرب العراقية-الإيرانية، وعمل مؤخراً لدى كريست بوصفه كبير ضباط التخطيط في القيادة المركزية حيث حاز احترام كريست وتقديره. عوّض بيرنسن بفطنته السياسية ما كان يفتقر إليه من خصال في مهنة البحرية، فبرنسن، ذو الشخصية المتّسمة بالهدوء التي أعجبت زعماء دول الخليج، كان يفهم العرب كما لم يفهمهم سوى عدد قليل من الضباط العسكريين الآخرين. كان ذكياً ومفكّراً غير تقليدي في أكثر الأجهزة تقليديةً، وأقام، بوصفه مبعوثاً بارعاً، علاقات قوية مع أمراء الخليج وملوكه. وهذه المهمة سياسية بقدر ما هي عسكرية. أثبت بيرنسن أنه الخيار الأمثل بالرغم من أنه لم يحظَ بثقة تراتبية القيادة البحرية ولاسيما قائد العمليات البحرية الأدميرال كارلايل تروست. وصل إلى تامبا ضابط العمليات لدى بيرنسن، النقيب ديفيد غريف، للمساعدة في عمليات التخطيط في القيادة المركزية الأميركية. وقد مرّت الأيام القليلة التالية في مناقشات حتى ساعاتٍ متأخرة من الليل تهدف إلى وضع تصوّرٍ للعملية المقبلة لمرافقة الناقلات.

في 13 آذار/مارس، أطلع الجنرال كريست رؤساء الأركان في قاعة المحاضرات في البنتاغون على الخطة. كان تصوّر كريست قائماً على توسيع النظام الأساسي المعمول به منذ حادثة السفينة «الرئيس تايلور». سترافق سفينة حربية واحدة أو سفينتان ناقلات النفط على طريق بطول 600 ميل، يمتد من خورفكان خارج الخليج تماماً حتى ميناء الكويت. طلبت القيادة المركزية سفينتين إضافيتين (ليصبح مجموع عدد سفن «قوة الشرق الأوسط» ثماني سفن) لحماية ناقلات النفط والحفاظ على روابط الاتصالات مع طائرات أواكس التابعة لسلاح الجو في المملكة العربية السعودية ومع حاملة الطائرات الموجودة بعيداً في خليج عُمان[511].

في يوم الأحد 22 آذار/مارس، التقى فريق بيرنسن لأول مرة بمسؤولين رسميين كويتيين في مجال النفط وبممثلين عن السفارة للحديث عن خطة المواكبة. لم يكن بيرنسن يمتلك ما يكفي من السفن للقيام بحركة مكوكية متواصلة، ولكن كان بوسعه جمع سفينتين أو ثلاث معاً عند كل طرف لتواكب من ثم الناقلة على طول الطريق البالغ 600 ميل. قال البدر إن ذلك سيؤخر تسليم شحنات النفط، ولكن لم يكن لديه من خيار سوى الموافقة على الخطة الأميركية، وسرعان ما اتفقوا على عدّة طرق للقوافل تقع جنوب الخليج وتتفادى منطقة الحظر الإيراني، ووافقت الكويت على السماح لضابط في البحرية الأميركية بالتمركز في مقر شركة ناقلات النفط الكويتية للعمل كضابط اتصال، حيث سيقوم، متسلّحاً بهاتف يعمل عبر الأقمار الصناعية، بتنسيق جداول مواعيد الناقلات مع قوة الشرق الأوسط. بالإضافة إلى ذلك، وافق البدر على السماح بأن يرابط ضابط على متن كل ناقلة في خلال عملية المواكبة. كما وافقت الكويت على شراء أجهزة لاسلكي محمولة قصيرة المدى لكل ضابط من هؤلاء الضباط بغية التواصل مع السفن الحربية المرافقة. سيكون عملهم تقديم النصح لقباطنة الناقلات في الأمور العسكرية والتنسيق بين ربابنة السفن المدنيين وقائد القافلة.

استقبلت طهران أخبار ترتيبات مواكبة السفن الكويتية بالنقد المعهود اللاذع، فقد قال الرئيس الإيراني خامنئي، الذي سيصير المرشد الأعلى في المستقبل، إن طلب الكويت الحماية من الولايات المتحدة «إهانة للمنطقة»، وحذّر من أن مدينة الكويت ومنشآتها النفطية تقع في مرمى القوات الإيرانية، وأضاف في 27 نيسان/أبريل: «إن إيران لم تستخدم بعد قدراتها للضغط على الكويت»[512].

كانت إيران تمتلك خيارات عسكرية أخرى إضافةً إلى قواتها البحرية الضئيلة. ففي شهر آب/ أغسطس 1986 سافر ضابط في البحرية الإيرانية، هو العميد البحري كنوش حكيمي، إلى الصين لعقد صفقة سرية تهدف إلى شراء صواريخ كروز القوية المضادّة للسفن، الصينية الصنع، من طراز «سيلكوورم». بالرغم من أنها تُوجَّه برادار غير متطور نسبياً، فإن هذه الصواريخ، المصممة على شكل حبة البطاطا، مجهزة برأس حربي يحتوي على ألف رطل من المتفجرات، وقادر على إلحاق أضرار خطيرة بأي ناقلة نفط كبيرة الحجم وإغراق أي سفينة حربية أميركية. وافقت الصين على بيع إيران اثنتي عشرة قاذفة وما يصل إلى مئة صاروخ، وسرعان ما وصل المزيد من الإيرانيين للتدرّب على استخدام هذا السلاح الجديد[513].

علمت الاستخبارات الأميركية على الفور بالصفقة، فقد صادف أن حكيمي كان مسجلاً على جدول معاشات وكالة الاستخبارات المركزية، فضلاً عن أن جهاز الاستخبارات البريطاني (MI6) كان لديه عميل سرّي يعمل على القضية. ادّعى تاجر السلاح الإيراني، جمشيد هاشمي، أنه تفاوض، في 1985- 1986، على صفقة بقيمة 452 مليون دولار خلال عشرة جولات من المساومات في الصين. وقد عمل هاشمي، خلال تلك الفترة، لحساب المخابرات البريطانية، وكان يلتقي المشرف عليه «مايكل» الذي يتقن اللغة الفارسية مرّةً في الأسبوع في لندن[514]. مرّرت الحكومة البريطانية هذه المعلومات إلى وكالة الاستخبارات المركزية.

واجه وزير الدفاع واينبرغر نظيره الصيني بهذا الأمر في اجتماع لهما في البنتاغون، إلا أن الأخير نفى ببساطة إرسال صواريخ إلى إيران. لم يصدّق واينبرغر الأمر وأجابه: «لقد حصلنا عبر الأقمار الصناعية والتصوير الفوتوغرافي على صور لأول شحنة غادرت الصين وتم تفريغها في بندر عباس»[515].

بحلول شهر كانون الثاني/يناير 1987 كانت لدى إيران بطارية «سيلكوورم» واحدة عاملة، وقد أعلنت عن هذا الواقع عبر إطلاقها صاروخاً باتجاه ميناء الكويت قبل اجتماع منظمة التعاون الإسلامي تماماً. بدأت إيران ببناء سلسلة من عشر منصّات إطلاق إسمنتية لصواريخ سيلكوورم، وطوّقت بها مضيق هرمز. اعتبرت وكالة الاستخبارات المركزية والقيادة المركزية الأميركية ذلك تهديداً كبيراً جديداً لسفن الشحن الخليجية والسفن الحربية الأميركية، فقد باتت إيران تمتلك الوسائل لعرقلة صادرات النفط بصورة جديّة، وبوسع صاروخ «سيلكوورم» -مداه خمسون ميلاً بحرياً- أن يحول ناقلة نفط عملاقة وزنها أربعمئة ألف طن إلى كومة من الخردة. كما أصبح بإمكان إيران السيطرة على مضيق هرمز ومهاجمة أي سفينة تدخل إليه أو تخرج منه[516].

جعل رئيس هيئة الأركان المشتركة من الحصول على أحد هذه الصواريخ لدراسته وتحليله أولويةً قصوى لوكالة استخبارات الدفاع التي نجحت في ذلك في ربيع عام 1987 بمساعدة من جهاز استخبارات آخر. وبغضّ النظر عن تهديدات خامنئي وصواريخ «سيلكوورم» الجديدة، لم يكن بيرنسن ولا حتى كريست يعتقدان أن لدى إيران النية لافتعال قتال. وجاء في تقويم عملاني طويل أعدّه كريست أنه «يبدو من غير المرجح أن تهاجم إيران عمداً سفينة أميركية مقاتلة أو ناقلة ترفع العلم الكويتي ترافقها الولايات المتحدة». شددّت خطة القيادة المركزية الأميركية على الردع بدلاً من الهجوم، ولن يخاطر الإيرانيون بجرّ الولايات المتحدة إلى الرد. كما وفرت حاملة الطائرات الراسية في بحر العرب القوة اللازمة لردع حاسم، فضلاً عن أن الجيش الإيراني يعرف تمام المعرفة قدرات الجيش الأميركي[517]. بدت المخاطر الناجمة عن العملية المقبلة ضئيلة للغاية، ومع ذلك، فبعد مضي شهر على تهديدات خامنئي أصبحت مخاطر حرب الناقلات فجأةً حقيقية. لقد أطلق صدّام حسين مرّة أخرى جرس المنبّه.

الفصل الثاني عشر

نداء استيقاظ

في الثامنة من صباح 17 أيار/مايو 1987 غادرت الفرقاطة الأميركية «ستارك» العاصمة البحرينية المنامة، واختفت تدريجياً في الأفق متجهةً شمالاً إلى مياه الخليج العربي الزرقاء الداكنة. والفرقاطة «ستارك»، التي تولّى إمرتها النقيب بريندل أر. كلين، ابن بنسلفانيا الذي يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عاماً قضى عشرين عاماً منها في الخدمة، من فئة صُمِّمت أصلاً بوصفها سفينة حراسة غير مُكلفة لقوافل الأطلسي في الحرب العالمية الثالثة، وهي ذات بدن أملس وهيكل ضخم أشبه بصندوق، ومسلّحة بالقليل من كل شيء، بدءاً بصواريخ أرض-جو وأخرى مضادة للسفن وانتهاءً بمدفع رشاش عيار 20 ملم؛ والأخير يشبه مدفع «آر2-دي2» الأبيض في حرب النجوم، ويُدعى منظومة الانقضاض وهي قادرة على إطلاق ثلاثة آلاف طلقة في الدقيقة الواحدة ومصمّمة لإسقاط الصواريخ المتجهة نحوها. يتألف طاقم الفرقاطة «ستارك» من 221 رجلاً، وستوفر مع السفن الشقيقة درعاً لحماية الكويت من إيران.

تقع المحطة المُخصّصة لستارك عند حافة منطقة القتل في حرب الناقلات. اتجهت هذه الفرقاطة، التي تعدّ محطّة رادار لقوة الشرق الأوسط، إلى شمال-وسط الخليج العربي، على بعد خمسين ميلاً تقريباً قبالة الساحل الإيراني ونحو عشرين ميلاً خارج منطقة الحظر الإيرانية. وكانت المنطقة الواقعة شمال «ستارك» تماماً قد شهدت نحو 340 هجمة جوية وصاروخية، شنّها العراق على سفن شحن إيرانية، أسفرت عن إغراق أربعين سفينة أو إلحاق الضرر بها[518]. كانت الطائرات العراقية في الآونة الأخيرة قد بدأت بقصف السفن المتجهة إلى إيران في أقصى الجنوب، وكانت تحلّق مباشرةً في أجواء المناطق التي تعمل فيها السفن الأميركية[519]. قبل أن تبحر «ستارك» بثلاثة أيام ضرب صاروخ إكزوسيت ناقلة بنمية على بعد ستين ميلاً فقط عن الموضع المخصص للفرقاطة. في ذلك اليوم نفسه كادت المدمرة الأميركية «كونتز» (Coontz) تفتح النار على طيّار عراقي لم ينتبه للتحذيرات واقترب حتى بُعد عشرة أميال من السفينة الحربية، قبل أن يستدير فجأةً

عندما سمع طنيناً في سماعته بثّه رادار توجيه الأسلحة من «كونتز»[520]. في ذلك المساء، أرسلت قوة الشرق الأوسط تقريراً استخباراتياً إلى سفنها يفيد عن هجمات وهمية على سفن في وسط الخليج وتوقعت أن يستمر هذا المنحى للأسبوعين المقبلين.

أدرك بريندل جيداً التهديد العراقي. في اليوم التالي لحادثة المدمرة «كونتز» ذهب هارولد بيرنسن في إبحار استجمامي مع قائد «ستارك»[521]. أشار بيرنسن إلى حادث اليوم السابق الذي وقع بالقرب من موقع تشغيل «ستارك» وطلب من بريندل أن يحضر في اليوم التالي تقريراً استخباراتياً موجزاً عن الهجمات العراقية الوهمية الأخيرة في وسط الخليج، إضافةً إلى قواعد استخدام القوة. كان الطيارون العراقيّون يحلّقون بسرعة وعلى مستوى منخفض بمحاذاة ساحل الخليج الغربي بالقرب من المملكة العربية السعودية، ويبلغون سريعاً منعطف جزيرة «فارسي» ثم يستديرون شرقاً إلى الخليج، وعند هذا الحد كانوا يشغّلون رادارات الاستكشاف بحثاً عن هدف في منطقة الحظر الإيرانية[522]، وغالباً ما كانوا يطلقون النار على أول هدف يظهر لهم دون أن يحاولوا التحقق من هوية السفينة. أعطى بيرنسن تعليماته لبيرندل بأن يُطلع ضباطه على هذه المعلومات حتى لا يكون لديهم شك في الخطر الذي يشكّله الطيارون العراقيون المتهورون[523].

إنها ليست المرة الأولى التي يسمع فيها النقيب بريندل عن قواعد الاشتباك في منطقة الخليج العربي. عندما وصلت سفينته إلى الشرق الأوسط كان في استقبالها في جيبوتي النقيب ديفيد غريف وروبرت براون وهو ضابط في الاستخبارات يعمل تحت إمرة بيرنسن[524]. شدّد براون على أن «احتمال شنّ هجوم متعمّد على السفن الحربية الأميركية ضئيل، ولكن هذا الهجوم العشوائي في الخليج العربي يشكّل خطراً ملحوظاً»[525]. راجع غريف بدقة وثيقتين رسميتين حول استخدام القوة تؤكدان على مسؤولية كل قائد سفينة «بأن يتخذ كل التدابير والاحتياطات الممكنة لحماية وحدته العسكرية»[526]. تسمح قواعد الاشتباك لأي سفينة أن تعترض أي طائرة ذات نوايا عدوانية، بما فيها التصويب على سفينة أميركية برادار التحكّم بإطلاق النار، أو الطيران صوبها بصورة هجومية. ولا يمكن توقّع ما قد تفعله الطائرات العراقية ويجب على الدوام اعتبارها عدائية[527]. غادر غريف ضباط «ستارك» بفكرة أخيرة: «إننا لا نريد، ولا ننوي استيعاب أي هجوم أول».

وفيما توجّهت «ستارك» إلى منطقة الخطر، ظلّ الوضع على متنها سائباً على نحو غريب. لقد فشلت حصافة بيرنسن في تبديل موقف بريندل، واستمرت السفينة تعمل كما لو أنها تبحر قبالة مربطها في مايبورت بفلوريدا، لا في خضمّ حربٍ مشتعلة[528].

ركّز الضابط التنفيذي في السفينة على التفتيش الإداري المقبل لمحرّكات السفينة. وفي قلب «ستارك»، في المساحات المغلقة لمركز معلومات المعركة، حيث يضيء وميض مجموعة من الشاشات وأجهزة استشعار المعركة المكان الضيّق، لم يكن أيٌّ من الضباط يعلم وضعية الدفاع التي يجب أن تتخذها السفينة، كما لم يبدُ أنهم يقدّرون التهديد الذي تشكّله كلٌّ من إيران أو العراق[529].

ففي ذلك الصباح بالذات نفذت طائرات عراقية هجومين منفصلين بصواريخ إكزوسيت على ناقلتين إيرانيتين ضخمتين تقومان برحلات مكوكية، هما «أكوامارين» و«زيوس». جمع بريندل بين مهمتين -مهمة ضابط المراقبة ومهمة ضابط التحكم بالأسلحة، وهذا يعني فعلياً عدم وجود من يشغل مركز ضابط مراقبة الأسلحة الحساسة، ولم تكن أي قطعة سلاح جاهزة للعمل، فالمدافع الرشاشة من عيار 12,7مم لم تكن مذخّرة، وقد استلقى طاقمها على سطح السفينة، وكان ربما نائماً، وكانت دفاعات السفينة المصمّمة لكشف الصواريخ القادمة واعتراضها مطفأة.

في الساعة 7:55 مساءً، التقطت طائرات أواكس الأميركية، التي حلّقت انطلاقاً من المملكة العربية السعودية، طائرة ميراج عراقية تقلع من قاعدة جوية بالقرب من البصرة، وتطير جنوباً في الوضعية العادية لمهاجمة سفينة شحن إيرانية. بُثّ هذا المسار بالزمن الحقيقي إلى السفن الحربية الأميركية -بما فيها «ستارك»- بما يوفّر تحديثاً مستمرّاً لمكان وجود الميراج، التي، وبسبب مشاكل التوافق بين نظم أسطول البحرية وسلاح الجو، ظهر رمزها على شاشات رادار أسطول البحرية بوصفها طائرة «صديقة»[530]. بالإضافة إلى ذلك، أخذت المدمرة «كونتز» (coontz)، التي كانت راسية وقتئذٍ بمحاذاة الرصيف في المنامة، بتحديث موقع الطائرة العراقية من خلال البثّ الذي تقوم به كل خمس دقائق على اللاسلكي الآمن إلى كل السفن الحربية، بما في ذلك «ستارك»[531].

دخل النقيب بريندل إلى مركز معلومات المعركة بعد مرور خمس عشرة دقيقة على أول ظهور للطائرة العراقية. أخبر كبير ضبّاط المراقبة، الملازم أول باسيل مونكريف، ربّانه عن الطائرة العراقية وأنها حلّقت للتو فوق سطح المياه وعبرت فوق الخليج العربي. طلب القائد بريندل من الضابط مونكريف أن يراقب الطائرة العراقية عن كثب ثم غادر، ولم يمعن، على ما يبدو، فكره كثيراً في الأمر نظراً إلى أنه كان قلقاً بشأن التفتيش المقبل للمحرّك. بات من الروتيني بالنسبة إلى السفن الحربية الأميركية الراسية شمال البحرين أن تتخذ طواقمها مواقع الاستعداد للقتال كإجراء احترازي عندما تحلّق طائرة عراقية فوق الخليج، ولكن أفراد طاقم «ستارك» لم يفكّروا في القيام بذلك في تلك الليلة[532].

على الرغم من تعليمات بريندل منذ البداية بمراقبة طائرة الميراج العراقية عن كثب، لم يبدُ الاهتمام على أي رجل من الرجال التسعة في مركز معلومات المعركة. وحتى عندما أفادت الأواكس بأن الطائرة العراقية قد بلغت منعطف جزيرة «فارسي» متجهةً شرقاً في مسار يبعد أحد عشر ميلاً عن موقع «ستارك»، ذهب أحد الفنيين اللذين يعملان على أجهزة التحكم بإطلاق النار، وهو المشرف على الرادار ونظام أسلحة قصيرة المدى (CIWS)، لقضاء حاجته وغاب طيلة الدقائق العشرين التالية.

التقط رادار «ستارك» طائرة الميراج على بعد سبعين ميلاً وهي تواصل الاقتراب بسرعة تبلغ ستة أميال في الدقيقة، فأبلغ عامل الرادار مونكريف أن مسار الطائرة العراقية المتوقّع سيأخذها

إلى مسافة أربعة أميال بحرية من «ستارك». ظلّ مونكريف غير مكترث، حتى عندما اكتشفت مجسّات السفينة بثّ رادار البحث من الميراج. وبعد ذلك بدقيقة، وقد باتت الطائرة العراقية تبعد ثلاثة وأربعين ميلاً فقط، سأل أحد المراقبين، وهو ضابط الصف بوبي دنكان، الملازم أول مونكريف إن كان عليهم أن يبثّوا التحذير المعتاد وفق ما تنصّ عليه قواعد الاشتباك. أجاب مونكريف: «كلا، انتظر»، اعتقاداً منه أن الطائرة ستعود أدراجها، أو أنها أبعد من أن تتمكن من تلقّي التحذير الصوتي الأميركي. بدلاً من ذلك، طلب منهم مونكريف ملء التقرير الإداري المطلوب حول الحادث.

وفي البحرين، شعر ضابطٌ كان يراقب الوضع من على متن سفينة القيادة بالقلق واتصل بستارك للتأكد من أنهم على بيّنة من الميراج التي تقترب بسرعة.

أجاب مونكريف: «بالتأكيد... التقييم هو أنها طائرة عراقية F-1... السمت 269، المدى 27 ميلاً بحرياً، انتهى». وصل الضابط التنفيذي في «ستارك» الرائد البحري رايموند غاجان بعد أن قضى نصف الساعة الأخير في مقصورة بريندل يناقش مسألة فحص المحرك، وعندما شعر أن الأمر غير ملحّ اكتفى بالتحدّث إلى مونكريف حول القضايا الإدارية الروتينية، ولم يعطِ الكثير من الانتباه للطائرة العراقية التي تقترب بسرعة وعلى مستوى منخفض من سفينتهم. في الساعة التاسعة وسبع دقائق أطلق الطيار العراقي صاروخه الأول من على بعد اثنين وعشرين ميلاً فقط[533].

فيما كان الصاروخ العراقي يشقّ طريقه مسرعاً دون أن تكتشفه «ستارك»، لاحظ مونكريف في النهاية أن مسار طائرة الميراج سيمرّ مباشرةً فوق سفينته فأمر دنكان أخيراً بإرسال تحذير إلى طائرة F-1 العراقية: «إلى الطائرة المجهولة، هذه سفينة حربية تابعة للبحرية الأميركية، عند زاويتكم 076 وعلى بعد 12 ميلاً. مطلوب منكم التعريف عن هويتكم والتصريح بنواياكم، انتهى». لم يأتِ أي ردّ من الطيار العراقي الذي أطلق بعد ذلك صاروخه الثاني.

اكتشفت «ستارك» هذه المرة راداره، وقد ظهر على شاكلة نغمة حادة أمكن سماعها بسهولة في كافة أنحاء مركز القتال[534]. وفيما كان غاجان يراقب بلا مبالاة مونكريف، الذي شعر بالخطر، وهو يبثّ إنذاراً ثانياً للطائرة وأرسل بحاراً إلى سطح المركب لتسليح موزّعات شعيرات التشويش التي تقذف بغيمة من شرائط الألمنيوم المصمّمة للتشويش على الصواريخ. وبعد بعض الارتباك حول أي رادار ينبغي استخدامه أعطى مونكريف أمراً لرادار إطلاق النار في «ستارك» بالتصويب على الطائرة، وقد فعل ذلك على مضض، لأنه خشي على ما يبدو أن تُفسّر الطائرة العراقية ذلك على أنه عمل عدائي. سُمع قرابة ذلك الوقت صوت رادار صاروخ ثانٍ ينبعث من طائرة الـ F-1، ولسبب غير مفهوم لم يفكّر أحد بتفعيل نظام الأسلحة القصيرة المدى (CIWS)، وهو النظام الدفاعي الأفضل ضدّ الصاروخ القادم، أو حتى بإصدار نداء الاستعداد للمعركة.

بعد دقيقتين من إطلاق الصاروخ الأول كشف برج مراقبة «ستارك» وجود وميض ساطع تماماً قبالة المقدمة اليسرى للسفينة و«نقطة صغيرة زرقاء قادمة من وسط ذلك الوميض». صاح

دنكان في سماعته الرأسية: «صاروخ متّجهٌ نحونا!» ولكن كان الأوان قد فات.

أصاب صاروخ إكزوسيت الأول ميسرة السفينة. دخل عبر إحدى مناطق الرسو وشقّ طريقه إلى داخل مقصورة ضباط الصف. لم ينفجر رأس الصاروخ لكنه غَمَر المقصورة من داخلها بالفيول المحترق. احترق ما يصل إلى ثمانية وعشرين رجلاً على الفور جراء الحريق الهائل. سمع البحارة من داخل السفينة صوت انفجار مكتوم، فهرع النقيب بريندل، الذي صادف وجوده في الحمام في ذلك الوقت، وصعد بسرعة إلى حجرة القيادة.

صدر صوت متوتر من مكبّرات الصوت الداخلية : «صاروخ يتّجه إلى الداخل!» سُمعت في كل أنحاء السفينة الصلصلة المعدنية الداعية إلى اتّخاذ المواقع القتالية في الوقت نفسه تماماً الذي ضرب فيه الصاروخ الثاني، على بعد ثمانية أقدام عن الصاروخ الأول؛ انفجر رأسه المحمَّل بـ 330 رطلاً من المتفجرات، فتطايرت الأجزاء المعدنية والبشرية واخترقت الشظايا الحواجز الفاصلة وأحدثت فجوة واسعة في جانب السفينة[535].

امتلأت «ستارك» على الفور بدخانٍ كثيفٍ خانق، فارتدى المحاصرون في المنطقة المصابة أجهزة التنفس الخاصة بالهروب الطارئ - وهي في الأساس كناية عن أقنعة فيها من الهواء ما يكفي خمس عشرة دقيقة - وأخذوا يتعثرون في الظلام وهم يحاولون عبور الفتحات المزدحمة وتفادي أسلاك الكهرباء المتدلية. قفز ستة رجال أو سقطوا من الفجوة إلى مياه الخليج، وألقى بحار نبيه من على سطح السفينة لاثنين منهم سترتي نجاة بعد سماعه النداءات التي تطلب النجدة. حاول رجالٌ عبثاً الوصول إلى البحارة المحاصرين في مقصوراتهم وهم يصرخون طلباً للمساعدة قبل أن يأتيهم الدخان والنار.

كان الأدميرال بيرنسن في حجرة الطعام المخصّصة للضباط في سفينة قيادة قوة الشرق الأوسط «يو إس إس لا سال (USS La Salle)، يقيم حفل عشاء لوداع ضابط مغادر، وكان سفير الولايات المتحدة لدى البحرين سام زاخم ضيف الشرف. نزل ضابط المراقبة إلى حجرة الطعام وطلب من بيرنسن القدوم إلى مركز القيادة، وسرعان ما تبعه ضباط أركان آخرون تاركين السفير زاخم يتساءل عمّا حدث، وبعد مرور نحو خمس دقائق قرّر أن يذهب ليستطلع الأمر بنفسه.

هناك التقى زاخم بيرنسن الذي بدا عليه الاضطراب الواضح وهو يقول: «سيدي السفير، لقد أُصيبت ستارك»[536]. ذُهل زاخم، وتذكّر أنه قبل يوم واحد فقط كان يشاهد طاقم فرقاطة «ستارك» وهو يهزم طاقم «لا سال» في كرة الطائرة، وقدّم له النقيب بريندل علبة بيرة من نوع «كورس».

طلب بيرنسن مجيء سفن إضافية فوراً لمساعدة «ستارك»، وبدأت «لا سال» تتهيّأ للتوجه شمالاً وتولّي عمليّة الإنقاذ، كما بعث الطاقم بإحدى مروحياته، المسماة «بطّة الصحراء» (Desert Duck)، وهي تحمل خزانات أوكسجين إضافية وأجهزة لمكافحة الحريق ومساعداً طبّياً. وفي هذه الأثناء اتصل السفير زاخم بوليّ عهد البحرين وحصل على إذن باستخدام مشافي البلاد لمعالجة

البحّارة ذوي الإصابات الأكثر خطورة. أفرغت البحرين الوحدة الرئيسية للحروق تحسّباً لاستقبال عدد كبير من الإصابات، ووصل إليها بحّاران مصابان بحروق شديدة قبل أن يتمّ نقلهما جواً مع بحّارة آخرين إلى وحدة الحروق الخاصة بالجيش الأميركي في مركز «بروك الطبي العسكري» في سان أنطونيو بولاية تكساس[537].

انتشر الحريق بسرعة في «ستارك»، وأتى في غضون ساعة واحدة على طابقين، والتهمت ألسنته مركز معلومات المعركة والمطبخ وكادت تصل إلى مستودع الصواريخ الأمامي، فأمر بريندل بغمره بالماء. صهرت الحرارة الشديدة الأقنعة الواقية من النار، بل وصهرت حتى مفتاحين في جيب الملازم الأوّل وليام كونكلين. وجّهت فرق الإطفاء في العنبر الأمامي، بقيادة الملازمين الأوّلين مونكريف وكونكلين، خراطيم المياه إلى النيران التي أخذت تقترب أكثر فأكثر من المستودع، فيما قشّرت حماوة النار الطلاء عن قاعدة إطلاق الصواريخ[538].

تمّ تلافي الكارثة بفضل جهود فرق الإنقاذ ووصول قاطرات مدنية مزودة بخراطيم إضافية، ولكن كمية المياه الكبيرة التي تدفقت على النار تسبّبت بميلان كبير للسفينة بات يهدّد بانقلابها. تشاور بريندل وغاجان واتفقا على إحداث ثقوب في جانب السفينة لتصريف المياه الزائدة[539]، وهكذا تمّ تفادي أزمة إضافية.

في اليوم التالي أنقذت مروحية بحرينية أربعة رجال من أصل ستة سقطوا في البحر، في حين أنقذت سفينة حربية أميركية البحار الخامس وانتشلت جثة السادس الذي قضى متأثراً بجروح بالغة جدّاً. أمضى الناجون ليلة شاقة في البحر المفتوح وهم يتفادون أسماك القرش وثعابين البحر.

حتى الإيرانيين حاولوا تقديم العون فأرسلوا مروحيتين للمساعدة في البحث والإنقاذ، وحدّد لهم بيرنسن منطقة بحث بعيدة جدّاً عن «ستارك» على الرغم من أنهم كانوا مؤهلين مهنياً.

انتشرت أخبار كارثة «ستارك» بسرعة في واشنطن، وأبلغت قيادة المركز الوطني العسكري أرميتاج فاتّصل بدوره هاتفياً بواينبرغر قائلاً: «لقد قصفت الصواريخ العراقية الفرقاطة الأميركية ستارك، عن غير قصد على الأرجح». نقل وزير الدفاع الرسالة إلى مستشار الأمن القومي فرانك كارلوتشي، وفي غضون ساعة من ضربة الصاروخ الأول علم الرئيس بالمأساة التي وقعت في النصف الآخر من العالم. كتب ريغان في مذكراته: «كان يوماً جميلاً إلى أن تلقيت مكالمة من فرانك [كارلوتشي]»[540].

كان الجنرال كريست في ولاية بنسلفانيا يتسلّم شهادة دكتوراه فخرية من جامعة «فيلانوفا» التي درس فيها. كان قد أقلع أخيراً عن التدخين، وعدا عن توقه الشديد إلى سيجارة كان يستمتع بزيارته التي تضمّنت إلقاء خطاب أمام ضباط بحرية تخرجوا حديثاً برتبة ملازم من مدرسة تدريب ضباط البحرية الاحتياط. وقد عاد في ذلك المساء إلى تامبا، حيث قابله على مدرج المطار ضابط رفيع هو العميد وين ستشرام يرافقه موظفون آخرون.

كان يفكّر قائلاً: «إنه لأمر جميل أن يأتي فريقي للترحيب بي هنا بعد حصولي على مكافأتي الشرفية»، ولكنه ما إن وصل إلى السيارة حتى علم بما حدث لـستارك. ستمرّ خمس سنوات أخرى قبل أن يحاول كريست من جديد الإقلاع عن التدخين[541].

في النهاية، وبعد اثنتي عشرة ساعة، تمكّن طاقم ستارك من إخماد الحريق، لتبدأ من بعدها المهمة المروعة المتمثّلة في العثور على القتلى ونقلهم. كانت حصيلة القتلى النهائية سبعة وثلاثين بحاراً.

أمر كريست العميد البحري غرانت شارب بإجراء تحقيق. وما إن وصل شارب إلى الخليج حتى بدأ وفريقه بالتحقيق رسميّاً يوم 26 أيار/مايو من على متن سفينة «لا سال»، فيما هيكل ستارك في الجوار ولا تزال رائحة الحريق المميزة عالقة في الهواء. في حين أثنى تقرير شارب على النقيب بريندل وضباطه وأفراد الطاقم (بمن فيهم غاجان ومونكريف) لبطولتهم ومهارتهم في مكافحة الحريق وإنقاذ سفينتهم[542]، وجّه تقريره لائحة اتّهام لاذعة للانعدام التام لوضعية الاستعداد على متن ستارك: «لقد فَشِل الضابط قائد السفينة في توفير قيادة ذات توجّه قتالي، ما سمح بانعدام الجاهزية للحرب المضادة للطيران إلى درجة لم يكن فيها فريق مركز معلومات المعركة التابع له قادراً على الدفاع عن السفينة»[543].

في غضون ذلك وصل فريقٌ آخر إلى بغداد للتحقيق في الحادثة، وكان برئاسة أدميرال من سلاح البحرية ويضمّ الخبير الاستخباري البارز بات لانغ، الذي كان يدير عمليات العراق لحساب وكالة استخبارات الدفاع. كان في استقبال الأميركين في بغداد موكبان منفصلان من المسؤولين العراقيين، الأول من جهاز المخابرات والثاني من وزارة الخارجية، وقد رافقا الوفد إلى فندق الرشيد وسط بغداد. كان صدام حسين متوتراً بشأن ردّ الفعل الأميركي على الهجوم، وقلقاً من أن تتحول الولايات المتحدة ضدّ العراق، فتوقف تبادل المعلومات الاستخباراتية أو حتى تسحب دعمها لتدفّق المال والأسلحة إلى آلة حربه. في اليوم التالي اجتمع لانغ والأميركيون الآخرون برئيس استخبارات سلاح الجوّ العراقي صابر عبد العزيز الدوري. سبق للدوري أن تولى قيادة فرقة الحرس الجمهوري، ولانغ كان يعرفه: «كان الدوري أحد هؤلاء الرجال الذين يدخل إليهم الضوء ولا يخرج مطلقاً؛ فقد كان رجلاً سيئاً وقاسياً جداً، ولم يكن من الرجال الذين يمكن خداعهم».

شرح هذا القائد العراقي كيف قسّموا منطقة الحظر الإيراني إلى مربعات صيد، وأنه تمّ تكليف كلٍّ من طيّاريهم بمربّع، وقضت أوامرهم بمهاجمة أول هدف بحري يرصدونه، ونفى اللواء الدوري أن يكونوا قد استهدفوا السفينة الأميركية، واتّهم «ستارك» بأنها شردت إلى داخل منطقة الحظر الإيرانية[544]. نفى لانغ وضباط سلاح البحرية ذلك بشدّة واتّهموا الطيار العراقي بأنه من هواة إطلاق النار. ورفض العراق السماح للأميركيين بمقابلة الطيار الذي نفّذ الهجوم، ولكن لانغ، الذي يتقن اللغة العربية، لاحظ وجود شاب برتبة عسكرية في الغرفة، بدا أنه كان يردّ على أسئلة زملائه العراقيين المتعلقة بالهجوم. قال: «لقد جاءوا بالطيار، ولكنهم رفضوا وحسب أن نقابله». أقنع الأميركيون الدوري أن من مصلحة العراقيين أن يقدموا اعتذاراً، خصوصاً وأن الولايات

المتحدة تزوّدهم بالمعلومات الاستخباراتية[545]. ووافقت الحكومة العراقية على دفع 27 مليون دولار كتعويض للذين قُتلوا.

بعد مغادرة الأميركيون تحوّل مزاج صدام حسين من القلق إلى الازدراء الساخر، وقال الدكتاتور العراقي لكبار مساعديه في أحد الاجتماعات: «إذا هاجم شخص ما سفينتي فسأقصف المطار الذي أقلعت منه الطائرة!»

أثار الهجوم على «ستارك» عاصفة أخرى من الانتقادات في واشنطن لسياسات إدارة ريغان المتعلقة بالخليج العربي، ورأت الإدارة أن الأمر صار أشدّ إلحاحاً الآن لمواصلة تغيير أعلام الناقلات الكويتية، فالانسحاب الأميركي بعد «ستارك» ستكون له عواقب كارثية على مصالح الولايات المتحدة، ولاسيما في أعقاب الانسحاب من بيروت[546].

لم يُظهر، قبل حادثة «ستارك»، إلا عددٌ قليلٌ داخل الكونغرس اهتماماً بحضور إيجازات البنتاغون المتعلقة بعملية الناقلات الكويتية. أما الآن، وبعدما نشرت كل المجلات الإخبارية المهمة على أغلفتها صوراً لسبعة وثلاثين نعشاً في أحد العنابر في دوفر، بولاية ديلاوير، عقد الكونغرس فجأةً سلسلةً من جلسات استماع جدالية متواصلة، انقسمت إلى حدٍّ كبير بين الاتجاهات الحزبية الداعمة لفكرة حماية سفن الشحن في الخليج من قبل الولايات المتحدة وبين المعارضة لها[547]. ولم يسعف إدارة ريغان أن المياه السياسية كانت معكّرة بالفعل إذ تزامن ذلك مع جلسات الاستماع المتعلقة بفضيحة إيران-كونترا. ندَّدَ المنتقدون بالمشروع في قاعة مجلس النواب، خشية أن يجرّ ذلك الولايات المتحدة إلى فيتنام أخرى، وأصروا على تطبيق قانون سلطات الحرب، الذي يقضي بأن يحصل الرئيس على موافقة الكونغرس للاستمرار في أي عمليّة تستغرق أكثر من ستين يوماً.

مضت الولايات المتحدة قدماً باتجاه عملية تغيير أعلام الناقلات في أعقاب الهجوم على «ستارك» على الرغم من تشكيك الكونغرس، ودافع ريغان بحزم عن قراره قائلاً: «سجّلوا هذه النقطة جيّداً: لن نسمح للإيرانيين بالتحكّم في استخدام الخطوط البحرية الحيوية في الخليج العربي. كما لن يُسمح لهذه الخطوط بأن تقع تحت سيطرة الاتحاد السوفيتي»[548].

خلافاً لوجهة النظر العامة، ركّزت أجهزة الأمن القومي بأكملها على قدرة كريست وبيرنسن على تجنّب كارثة أخرى مماثلة. في 22 أيار/مايو، أي بعد ستة أيام من مأساة «ستارك»، سافر كريست إلى واشنطن لإجراء سلسلة من الاجتماعات تُوّجت باجتماعٍ في البيت الأبيض. كان رونالد ريغان، الذي شعر بالتأثّر، قد غادر بالطائرة إلى جاكسونفيل، فلوريدا، لحضور مراسيم تأبين قتلى سفينة «ستارك»، ولكنه كان قد أعطى، قبل مغادرته، تعليمات لكارلوتشي للتأكد من أن قواعد الاشتباك واسعة بما فيه الكفاية، وأن لدى الجيش الأميركي كل القوات التي يحتاجها لحماية السفن الكويتية. نقل الجنرال روبرت هيريس هذه التعليمات إلى كريست في رسالة ذات طابع «سريّ وشخصي»، وذكر أن القائد الأعلى أبلغ وزير الدفاع شخصياً أنه يريد «موقفاً احترازياً أكثر من

ذلك بكثير»[549]. لا يُعتبر الحفاظ على الوضع القائم، مع هذا الاهتمام الرئاسي، مساراً عملياً مقبولاً، وفي اجتماع في مكتبه، قبل أن يغادر إلى البيت الأبيض، سأل واينبرغر كريست صراحةً إذا ما كان لديه القوات اللازمة للقيام بالمهمة؛ وإلا «يجب أن تطلبها».

وحذّر كرو، في اجتماع مجلس الأمن القومي بعد ظهر ذلك اليوم، من أنه لا يستطيع أن يضمن عدم حصول أي إصابات أخرى، لكن إيران كانت شديدة الحذر في أفعالها، فقد كانت تعلم أن في وسعنا ضرب أهداف عسكرية أو اقتصادية من حاملة طائراتنا ساعة نريد. قال كرو لكارلوتشي إنه من غير المرجح أن تحاول إيران تحدّي قوافل الولايات المتحدة[550]، وضغط كلٌّ من واينبرغر وكرو لتحرير قواعد الاشتباك بغية تجنّب حادثة أخرى مشابهة. وافق كارلوتشي وقال إن الرئيس يريد التأكد من أن لدى القوات الأميركية كل ما تحتاجه لتنفيذ مهمتها، وطلب من واينبرغر وكرو العودة إليه «بشكل عاجل» إذا ما كان كريست يحتاج إلى المزيد من القوات للمضي في عملية مواكبة القوافل[551].

بعث كريست برسالة إلى بيرنسن في المساء وضعه فيها في الصورة ونقل إليه نبرة اجتماع بعد ظهر ذلك اليوم في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض قائلاً: «الطقس حارٌّ جداً في المطبخ»[552].

لم يعتقد بيرنسن أن ثمة حاجة إلى إدخال أي تعديلات على القواعد التي تحدّد استخدام القوة. فالمشكلة هي «ستارك» لا الوثيقة. ولكن كان المطلوب تغيير الوقائع السياسية في واشنطن. ردّ كريست على بيرنسن: «تلقّينا إشعاراً. لا يمكننا تحمّل ضربة ثانية. علينا أن نبادر إلى إطلاق النار. يُسمح لقائد السفينة، بل في الواقع يُطلب منه، أن يطلق النار إذا تبيّن أن سفينته في خطر»[553].

ردّ بيرنسن في اليوم التالي ببعض القواعد الجديدة. سيتم تحذير أي طائرة تبعد خمسين ميلاً بحرياً عن أي سفينة حربية، وسوف يتهيأ قادة السفن للاشتباك عندما تصبح الطائرة على بعد خمسة وعشرين ميلاً أو بينما هي خارج المدى المجدي لصاروخ إكزوسيت.

وافق واينبرغر، في 8 حزيران/يونيو، على هذه التغييرات. شددت القواعد الجديدة على أن المسؤولية النهائية تقع على عاتق القبطان في الدفاع عن سفينته ضدّ أي هجوم أو تهديد يُظهر نيّة عدائية، كأن يقوم بزرع الألغام أو استخدام رادارات أسلحته[554]، وحظرت على السفن أو الطائرات الأميركية دخول المياه الإقليمية الإيرانية أو العراقية أو مجالهما الجوي، بما في ذلك مناطق الحظر المُعلنة، وأن الاستثناء الوحيد يتمثل في أنه إذا تعرضت القوات الأميركية لهجوم انطلاقاً من هذه المناطق، فيمكنها في هذه الحالة أن تطاردهم في هذه المناطق، ولكن فقط إذا ظلت القوة المعادية تشكّل تهديداً وشيكاً على سلامة طائرة أو سفينة أميركية، وأن على القوات الأميركية، فور زوال التهديد، أن تنسحب فوراً إلا إذا طلبت الأركان المشتركة عكس ذلك[555].

في هذه الأثناء وجد البعض أن التسمية العملانية للقوافل، «المجوهرات الشخصية» (Private Jewels)، لها وقع قذر، ومع إعادة النظر في ضوء جديد إلى العملية غيّر البنتاغون التسمية العملانية إلى آخر له رنّة أفضل على الأذن: «الإرادة الجدّية» (Earnest Will).

في 27 أيار/مايو أرسلت القيادة المركزية الأميركية خطتها المتعلقة بمرافقة ناقلات نفطية بعدما أعيد إحياؤها، وقد تضمنت، بالرغم من بساطتها، عدة أجزاء متحركة، حيث ستقوم قوة الشرق الأوسط بمواكبة من ناقلة إلى ثلاث ناقلات معاً إما من الكويت وإما من عُمان، وتتجه من ثم على امتداد الطريق الواقع جنوب الخليج، على أن تحرس كل قافلة سفينتان أو ثلاث سفن حربية، وتبقى على بعد أربعة آلاف ياردة من الناقلات، وستتمركز سفن إضافية تابعة لسلاح البحرية عند كلٍّ من مدخلي مضيق هرمز تماماً خارج مدى صواريخ «سيلكوورم» الإيرانية. كما ستتمركز سفينة حربية أخرى شمال الخليج للحفاظ على روابط الاتصالات مع طائرة أواكس التي قاعدتها في السعودية. وسيستغرق عبور الناقلة يومين بسرعة عشرين عقدة في الساعة، سواء كانت متجهة إلى الكويت أو خارجة منها محملة بالنفط[556].

إذا حاولت إيران التدخل فستكون حاملة الطائرات في خليج عُمان على استعداد لتوجيه ضربة. وأمر كريست، كإجراء وقائي، بوضع طائرات حربية من سلاح الجو على أهبة الاستعداد للطيران إلى المملكة العربية السعودية وسلطنة عمان. حَدَّثَت القيادة المركزية الأميركية مخططات ضرب إيران لتشمل عشرة أهداف مختلفة، حيث ستضرب صواريخ كروز مواقع دفاعية بحرية وجوية تقع حول قواعد إيرانية في بندر عباس وجاسك وبوشهر[557].

أخرجت البحرية الأميركية مؤخراً أربع سفن حربية من المستودعات، وأراد رئيس العمليات البحرية أن يرسل إحداها، وهي السفينة الحربية ميسوري، إلى الخليج لتحلّ محلّ حاملة الطائرات. كان المخططون العسكريون في تامبا يعشقون هذا النوع من البوارج الحربية، التي تعود إلى الحرب العالمية الثانية، فهي مسلحة بتسعة مدافع من عيار 16 بوصة، يطلق كل منها قذيفة يعادل وزنها وزن سيارة فولكس فاغن بيتل، وقد أضيف إليها الآن صواريخ كروز توماهوك المتقدمة، لكنها بقيت الرمز المثالي لدبلوماسية البوارج الأميركية، ففي وسع هذه السفينة الحربية وحدها أن تدمر أي منشأة عسكرية إيرانية في جنوب الخليج العربي. وفيما تدمّر صواريخ كروز التي على متنها مقرات القوة الجوية التابعة للبحرية الإيرانية في بندر عباس، ستبحر «مايتي مو» (الاسم الذي تشتهر به ميسوري - المترجمة)، التي يحميها حزام مدرّع بسماكة أربع عشرة بوصة، إلى المضيق فتقصف مدافعها بطاريات صواريخ «سيلكوورم» وتجعلها أثراً بعد عين. وكانت دراسة أعدّها مختبر الفيزياء التطبيقية في جامعة «جونز هوبكنز» قد خلصت إلى أن بوسع هذه السفينة الحربية أن تتحمل الإصابة بأحد عشر صاروخ «سيلكوورم» قبل أن تُشلّ قدرتها على العمل، ولا يوجد في المخزون الإيراني كلّه ما يكفي من الصورايخ لإغراق هذه السفينة الحربية التي يبلغ وزنها خمسة آلاف طنّ. كما أن الطائرات الانتحارية لا تشكّل هي الأخرى مشكلةً كبيرة، وكانت «ميسوري» قد تلقّت اثنتين منها في 1945 قبالة سواحل اوكيناوا ونجت دون أي أثر يُذكر،

اللهم إلا تقشّر بعض الطلاء[558]. اجتمعت هيئة الأركان المشتركة في قاعة المحاضرات في البنتاغون في 12 حزيران/يونيو ووافقت على إرسال هذه السفينة الحربية المدعومة بطرّادين وثلاث مدمرات إلى الخليج. وبالرغم من أن عملية مواكبة القوافل ستكون قد بدأت بالفعل، إلا أن مجموعة العمل القاتلة هذه لن تصل إلى الخليج إلا مع نهاية شهر آب/أغسطس.

وصلت مجموعة أخرى من الضباط الموضوعين تحت إمرة القيادة المركزية الأميركية إلى بغداد لمناقشة ترتيب سريّ بين البحرية الأميركية وسلاح الجوّ العراقي. وقد توصّل البلدان إلى اتفاق رسمي يتضمن سلسلة من الإشارات الإلكترونية التي تسمح للطائرات العراقية بمواصلة قصف الناقلات الإيرانية وتجنّب الاصطدام بالبحرية الأميركية. فعندما تنفذ طائرة عراقية عملية «أقدام رطبة»، وهو التعبير الذي يطلقه الطيارون على التحليق على علو مخفوض فوق الماء، يعلن الطيار عن وجوده لكل السفن الحربية الأميركية وذلك بتشغيل رادار طائرته بضع دقائق، فتتصل طائرة أواكس الأميركية، التي تحلّق انطلاقاً من المملكة العربية السعودية، بالعراقي على تردد لاسلكي محدد سلفاً يتولى الملحق العسكري الأميركي في بغداد تزويد العراقيين به مرّة كل شهر[559]، فيردّ الطيار العراقي باستخدام علامة نداء محددة سلفاً زوّده بها الجيش الأميركي، فتقوم الأواكس بتمرير مواقع السفن الأميركية كلها في شمال الخليج[560]. كانت هناك تدابير صارمة في حال فشل الطيار العراقي في الالتزام بهذا البروتوكول، من بينها إسقاطه إذا خرق مجال الثلاثين ميلاً بحرياً لأي سفينة أميركية دون الاتصال بالأميركيين[561].

عمل هذا الترتيب السري في البداية بشكل جيد. وقال كرو لواينبرغر: «أعتقد أن تفاهمنا الأولي مع المندوبين العراقيين قد خفض بشكل كبير مخاطر دخول قواتنا في اشتباك»[562]. هذّبت الدولتان هذه الإجراءات على امتداد الأشهر التالية بما حسّن التنسيق بين الطائرات العراقية وسفن البحرية[563]، وبات على الطيارين العراقيين أن يرسلوا هذه المعلومات ووجهة سيرهم الجديدة إلى الأميركيين عندما يبلغون منعطف جزيرة «فارسي»، ويعمد العراقيون من ثمّ، مستخدمين سلسلةً من الرموز الموجزة التي اتّفق عليها البلدان، إلى نقل المعلومات عن هدفهم الإيراني المقصود، وما إذا كانت الطائرات جميعها في طريقها لضرب الموقع عينه أم مواقع عدّة. تطوّرت الاتصالات بين الولايات المتحدة والعراق بحيث مكّنت المراقبين الجويين الأميركيين من توجيه الطائرات العراقية لتلتفّ حول السفن الحربية الأميركية[564]. وجرت على مدار الأشهر الثلاثة التالية محادثات إضافية في بغداد بين البلدين لتحسين إجراءات التعاون بينهما. فقد كانت قوة الشرق الأوسط تزوّد العراق بالتفاصيل المتعلقة بحركة السفن الأميركية، وساعدت الولايات المتحدة العراق، خلال محادثات مع رئيس عمليات سلاح الجوّ العراقي اللواء سالم بن سلطان، في تنقيح أنماط طيرانه بما يسمح للأميركيين بأن يرصدوا مواقع العراقيين بشكل أفضل، مع الاستمرار في السماح لهم بمهاجمة الملاحة الإيرانية. ولم يحدث إلا خلاف وحيد وذلك عندما حاول عقيد في سلاح الجو الأميركي منع العراق من مهاجمة سفن بعيدة جداً في جنوب الخليج، فردّ سالم قائلاً: «إذا حددّ صدام حسين الهدف

فينبغي على الطيارين بلوغه». وحيث أن الرئيس العراقي يحبّ اختيار الأهداف، فإن عزة نفسه تمنعه من الموافقة على تجنّب مهاجمة أي جزء من الخليج.

فكّرت الولايات المتحدة في تطوير ترتيب مماثل مع الإيرانيين ولكن الأمر لم يتجاوز بضع مناقشات حول طاولة الاجتماعات في البنتاغون. لم يكن للأدميرال كرو مصلحة في الحديث مع إيران، وعلى ما قاله لواينبرغر لدى تصديقه على تقرير شارب المتعلق بحادثة السفينة ستارك: «لا يوجد أي مؤشر يدلّ على أن للحكومة الإيرانية مصلحة في النقاش العقلاني لأي مسائل مشابهة، بما في ذلك إجراءات منع التداخل الإلكتروني»[565].

بدلاً من ذلك، كان الإيرانيون يتنصّتون على هذا السيل المستمرّ من الاتصالات اللاسلكية بين الأميركيين والعراقيين، وقد علموا بالفعل بتبادل المعلومات الاستخباراتية المستمر هذا، الأمر الذي أعاد تأكيد وجهة نظرهم حول التواطؤ العسكري بين أعدائهم. لقد جعل التعاون بين سلاح البحرية الأميركية وسلاح الجو العراقي سفن بيرنسن أهدافاً مشروعة في نظر القيادة الإيرانية، فكانت «ستارك» عن غير قصد بمثابة نداء استيقاظ للحرس الثوري أيضاً.

إذا كانت الصفقات السرية قد وضعت العرب والأميركيين في مركب واحد في مخطط إعادة تسجيل السفن، فإن تصدعات خطيرة ظهرت في داخل السلاح العسكري الذي يتولى المسؤولية الكبرى عن تنفيذ الخطة، ألا وهو البحرية الأميركية. وقد تمثّلت المشكلة الحقيقية بالنسبة إلى الرجال الذين يرتدون الزي الأزرق الداكن والضفيرة الذهبية في أن الأزمنة تتغير فيما سلاح البحر المحافظ لا يزال متعلّقاً بالماضي. فقد حتّم كلٌّ من الحرب الحديثة وقانون «غولدووتر-نيكولاس» في آن التداخل القطبي بين الأسلحة الأربعة. كانت البحرية تعمل إلى حدٍّ كبير بمفردها دون أن تلتفت كثيراً إلى الجيش أو سلاح الجو، بيد أن تصديق الكونغرس على قانون «غولدووتر-نيكولاس» قلب ميزان القوى لمصلحة القيادة المشتركة لضباط النجوم الأربعة، وولّت بذلك أيام العمليات العسكرية التي يقوم بها الجيش وحده أو البحرية وحدها، وتحوّل الزي الأخضر والزي الأزرق إلى الأرجواني، وهو الاسم غير الرسمي الذي عُرف به الضباط المسؤولون في القيادة المشتركة.

في السنوات التالية، شكّلت الولايات المتحدة جيشاً أكثر فعاليةً بكثير من خلال مجموع أجزائه، بيد أن عملية رفع العلم الأميركي على ناقلات غير أميركية حدثت في غمرة هذه الآلام الناشئة، وقد تطلّب ذلك تغييراً في جسم الضباط، فتمّ وضع ضباط نشأوا في النظام الجديد محل الضباط القدامى. كتب كرو في مذكّراته في العام 1987: «كان مشهد قيام ضابط من المارينز بقيادة مهمة بحرية حصراً مزعجاً للغاية للكثيرين في المجتمع البحري». وقد أثارت خطط كريست العسكرية بشأن إيران، والتي اشتملت على طائرات الأواكس التابعة لسلاح الجو وطائرات دعم مقاتلة تابعة للبحرية، سخط الأدميرال[566].

الشيء الوحيد الذي اتفق عليه الرجلان هو أن إيران لن تخاطر باندلاع حرب من خلال اعتراض عمليات مواكبة الناقلات. ويبدو أنه ليس لدى إيران من سبب لمحاربة الولايات المتحدة

أيضاً. عكست ورقة استخبارات القيادة المركزية الأميركية وجهة النظر السائدة في مجتمع الاستخبارات الأميركية ومفادها: «إن التهديد الرئيسي للقوافل الأميركية هو هجوم عَرَضي آخر شبيه بالهجوم على السفينة ستارك. ومن غير المرجح أن تهاجم إيران عمداً زورقاً حربياً أميركياً أو ناقلة تملكها الكويت تواكبها الولايات المتحدة»[567]. ولم تعتبر القيادة المركزية الأميركية أن سلاح البحرية أو الطائرات الإيرانية تشكّل تهديداً كبيراً. أما صواريخ «سيلكوورم» المشتراة من الصين فقصة مختلفة، فقد كان أحد مواقع هذه الصواريخ نشطاً وثمانية مواقع أخرى على وشك أن تصبح جاهزة حول مضيق هرمز. أشارت مصادر استخباراتية إلى أن هذه الصواريخ تخضع لسيطرة مركزية جدّاً وأن أي قرار بالهجوم سوف يُتّخذ على أعلى مستويات الحكومة الإيرانية: آية الله خامنئي[568].

في حزيران/يونيو 1987، أرسلت وزارة الخارجية الأميركية تحذيراً شديد اللهجة إلى طهران عبر السفارة السويسرية ضد استخدام صواريخ «سيلكوورم»، وأن الولايات المتحدة ستعتبر استخدامها مسألةً خطيرة، وأنها سوف تردّ بقوة هائلة ضدّ المواقع العسكرية والاقتصادية. لم تردّ إيران قطّ على رسالة الاحتجاج الأميركية، ولكنها لم تطلق صاروخاً واحداً من هذه الصواريخ من مواقع إطلاقها حول مضيق هرمز على الرغم من كل العداء الذي ظهر في العام التالي بين البلدين.

كانت إيران تمتلك بعض الألغام، ولكن لم يعرها أحد بالاً سواء في تامبا أو واشنطن. في يوم الجمعة 26 حزيران/يونيو، بعد أقلّ من شهر على انطلاق القافلة الأولى، أطلع محلّل في وكالة استخبارات الدفاع مجموعة من كبار الضباط بثلاث نجوم في حجرة الاجتماعات في البنتاغون على خطر الألغام الإيرانية، وخلص ضابط الاستخبارات خلال عرضه الذي استغرق ثلاثين دقيقة قائلاً: «لا نعتقد أن ألغام إيران تشكّل، في الوقت الراهن، تهديداً كبيراً لسفن الشحن في الخليج. وعلى الرغم من أن الإيرانيين قادرون على زرع الألغام على نطاق صغير... إلا أنهم، بحسب تقديراتنا، لا يملكون القدرة على زرع حقول ألغام بطريقة منهجية والحفاظ عليها. فالتهديد نفسي في الدرجة الأولى».

وأضاف المحلل أن الإيرانيين يفتقرون إلى التدريب والخبرة في زرع الألغام، ولا يملكون أي سفينة خاصّة بزرع الألغام: «على الرغم من إمكانية تحويل سفن مقاتلة صغيرة أو سفن تجارية لزراعة الألغام، إلّا أننا لم نلحظ أي محاولة أو جهود تُبذل في هذا الخصوص». وفي ما يتعلّق باستخدام مراكب شراعية صغيرة فإن «الطبيعة غير المتطورة أبداً لهذه المنصات الإيرانية تجعلها محدودة بنطاق صغير وبعمليات زرع ألغام غير دقيقة»[569].

لسوء الحظ أن القادة في طهران لم يقرأوا تخمينات الاستخبارات الأميركية، فقد أعدت براعة إيران ووسع حيلتها مفاجأةً قبيحة لكلٍّ من القيادة المركزية الأميركية وسلاح البحرية.

الفصل الثالث عشر

يدُّ الله الخفيَّة

صباح يوم 6 حزيران/يوليو 1984، غادرت سفينة شحن صغيرة، تسمّى «غات» (Ghat)، ليبيا في طريقها إلى ميناء «عصب» (Assab) الإريتري. تستغرق الرحلة عادةً ثمانية أيام ذهاباً وإياباً عبر قناة السويس، ولكن لم يكن أي شيء في هذه الرحلة روتينياً. كانت «غات» تحمل، بدلاً من البضائع المعتادة من مواد غذائية وصناديق سلع، ألغاماً بحرية متطورة سوفيتية الصنع مصمّمة للانفجار بعنف حالما يتناهى إليها صوت سفينة تمرّ. وكان على متنها، بدلاً من طاقمها المدني العادي، بحارة ليبيون، من بينهم قائد قوات الألغام لدى معمر القذافي، يشرفون على حجرة القيادة. وكانت السفينة ما إن تصبح في البحر الأحمر حتى ينزل البحارة لوحاً شديد الانحدار في مؤخرة السفينة ويدحرجون بسرعة الألغام في المياه حيث تستقر في قاع البحر الممتلئ بالطمي. قامت سفينة زرع الألغام بنثر بذورها المدمّرة عند ممرين ضيّقين في كلٍّ من طرفي البحر الأحمر: الأول في الطرف الشمالي لخليج السويس قبل قناة السويس تماماً، والثاني في الطرف الجنوبي حول مضيق باب المندب حيث يضيق أحد أكثر ممرات النقل البحري ازدحاماً في العالم ليصبح بعرض 20 ميلاً.

لم يستغرق عمل الليبيين وقتاً طويلاً كي يحقّق نتائجه. ففي مساء 9 تموز/يوليو انفجر لغم خارج قناة السويس بسفينة شحن ترفع علم الاتحاد السوفيتي، تسمى «كنود جيسبرسن» (Knud Jespersen). وقد تكتّمت الحكومة المصرية على هذا الحادث، لأنها لا تريد ترويع التجار الذين يستخدمون القناة ويوفرون دخلاً رئيساً للقاهرة، ولكن أصبح من المستحيل إخفاء الأمر عندما أخذ عدد كبير من السفن بالانفجار نتيجة ارتطامها بألغام خارج القناة، في الطرف الأقصى للبحر الأحمر حول باب المندب[570].

أصبح زرع الألغام في البحر الأحمر في شهر آب/أغسطس قصة بوليسية دولية مذهلة تتناقلها الصحف وتحاول التكهن بمن يقف وراء هذا الهجوم الإرهابي الذي يستهدف التجارة العالمية. واتّهمت مصر إيران، فقد كان مسؤولون إيرانيون يتفاخرون في طهران علناً باستخدام الألغام لإغلاق مضيق هرمز كوسيلة لمعاقبة دول الخليج التي تدعم العراق، وبدأت طواقم السفن الحربية المصرية بالصعود إلى السفن الإيرانية العابرة لقناة السويس بحثاً عن الجاني[571]. وافقتها الحكومة السعودية الرأي، واعتقدت الرياض مع بدء موسم الحج السنوي أن إيران تنوي إحراج المملكة عن طريق زرع ألغام في ميناءي جدة وينبع في البحر الأحمر، اللذين يصل إليهما عشرات الآلاف من الحجاج بملابس الإحرام البيضاء الخاصة بمناسك الحج، فإذا أصاب لغم أحد السفن المحمّلة بالحجاج فإن الخسائر في الأرواح ستكون مروّعة. ظلت وكالات الاستخبارات الأميركية متشكّكة، كما أن تقرير مكتب الاستخبارات البحرية شكّك في تورّط إيران إذ لم تكن بحريتها تمتلك إلا عدداً قليلاً من الألغام ولم تكن لديها سفن تستخدمها لزرعها. وسرعان ما كشفت الاتصالات تورّط معمر القذافي.

انضمت البحرية الأميركية إلى أسطول دوليّ لنزع الألغام[572]. وفي الساعة التاسعة مساءً من يوم 6 آب/أغسطس وقّع وزير الدفاع كاسبار واينبرغر أمراً بالانتشار، فأقلعت طائرة شحن في منتصف الليل من نورفولك بولاية فيرجينيا، تحمل على متنها مروحيات كبيرة من طراز RH-53D، لإزالة الألغام، بالإضافة إلى مئتي رجل، توجّهوا جميعهم إلى مصر[573]. وما إن وصل أفراد الطاقم إلى مصر حتى ركّبوا المروحيات وطاروا بها إلى السفينة البرمائية الأميركية «شريكسبورت» (USS Shrixport) وبارجة قوة الشرق الأوسط «يو إس إس لا سال» (USS La salle) لبدء كسح الهدايا التي تركها الزعيم الليبي[574]. رفض الإيطاليون والفرنسيون المشاركة في أيّ ترتيبات عسكرية مع الولايات المتحدة إذ كانت ذكريات الكارثة التي وقعت مؤخراً في بيروت حيّةً في أذهانهم. لم ترغب باريس في العمل مع البحرية الأميركية، مشيرةً علناً إلى أنها لا تريد الانخراط في أيّ «حملة» أميركية في البحر الأحمر[575].

كانت عملية البحث عن الألغام بطيئة وجدّية، فقد كان السونار يمسح قاع المحيط طولاً وعرضاً بينما كانت مهمة التحري عن الأجسام المشبوهة مناطة بالغواصين أو المركبات الموجَّهة عن بعد. كان البحر الأحمر مفروشاً بأشياء تمّ رميها فيه منذ سنوات: براميل نفط قديمة وأنابيب وعلب قهوة وسيارات وألغام خلّفتها الحرب العالمية الثانية والحروب العربية الإسرائيلية الأحدث عهداً. وكان على المروحيات الأميركية القيام بمهمة إضافية غير مستحبّة وهي كسح الألغام من أمام يخت الملك السعودي فهد الذي قرّر في هذا التوقيت السيئ القيام برحلة استجمام بحرية، مجتازاً مسافة أربعة عشر ميلاً من جدّة.

أصابت ألغام البحر الأحمر في نهاية المطاف ست عشرة سفينة، ولم يتمّ العثور إلا على لغم واحد؛ قام غوّاص متفجرات بإبطال مفعوله. كان الرقم التسلسلي لهذا اللغم 99501، ما يشير إلى أنه واحد من مئات الألغام الساحلية المماثلة التي باعها الاتحاد السوفيتي لليبيا. خلال ندوة حول

العملية في معهد البحرية في أنابوليس بولاية ماريلاند قال الخبير البحري سكوت تروفر: «أصبح تهديد زرع الألغام للقيام بأعمال إرهابية في المناطق البحرية المهمّة تهديداً حقيقياً، سهل التنفيذ، ومن المتوقع أن يتصاعد»[576]. لم يحفظ هذا الدرس عن ظهر قلب إلا بلد واحد: إيران.

لم يكن سلاح بحرية الشاه يولي الألغام البحرية اهتماماً كبيراً على الإطلاق، إذ لم تكن هناك إلا خطة وحيدة في كتبه، أُعدّت في العام 1970، وأُطلق عليها خطة الشكل-V لزرع حقول ألغام بالقرب من مضيق هرمز، وهي تُزرع بهذا الشكل لمنع مرور سفن الشحن عبر المضيق بغية السماح للناقلات الإيرانية فقط بالعبور. قبل الثورة نفّذت القوات البحرية الإيرانية عملية واحدة فقط لزرع الألغام، ولكن الحرب مع العراق حفّزت الجمهورية الإسلامية الإيرانية الجديدة على الاستفادة من الألغام البحرية. في العام 1981 اشترت إيران من كوريا الشمالية كمية قليلة من الألغام البدائية التي تُفجَّر سلكياً، وهي ألغام «ميام» الصغير التي تزن الحشوة الناسفة لكلٍّ منها أربعة وأربعين رطلاً، وكمية أخرى من ألغام M-08 الأكبر حجماً. لكن تصنيع هذين النوعين كان يعتمد على تكنولوجيا قديمة، فالأخير صُنع بعد عام 1908 - قبل الحرب العالمية الأولى- وهو روسي التصميم، شكله شبيه بكرة سوداء كبيرة معلّقة بحامل يشبه المرساة، محشوّ بـ 250 باونداً من المواد الناسفة القوية، ولكنه لا ينفجر إلا حين يحتكّ أحد قرني اللغم بالسفينة فيُشحَن كهربائياً. الحقيقة أنه لا يمكن استخدام كلا اللغمين في المياه العميقة، مثل مياه مضيق هرمز، ولكن يمكن زرعهما بسهولة في المياه الضحلة في أنحاء كثيرة من الجانب العربي في الخليج العربي.

اهتم الحرس الثوري اهتماماً كبيراً بزرع الألغام في البحر الأحمر. كانت تربط بين طهران وطرابلس علاقات عسكرية ودية، وفي إحدى المناسبات رتبت السفارة الإيرانية لضابط في الحرس الثوري رحلة إلى طرابلس لإجراء محادثات مع الزعيم الليبي الذي كان هو من قام بتنفيذ عملية زرع الألغام. راقت للقيادة الإيرانية إمكانية الإنكار المعقولة التي توفرها الألغام البحرية. أما ليبيا فلم تعانِ أي عواقب جراء عملية زرع الألغام في المياه الدولية التي تسببت بأضرار فادحة، وظل التورّط الليبي غامضاً؛ فما لم يتم القبض عليهم بالجرم المشهود فمن الصعب إثبات من الذي قام بزرع الألغام. وهكذا بدت الألغام البحرية وسيلة مثالية؛ فهي وسيلة قليلة المخاطر يمكن اعتمادها للضرب في الخليج العربي.

شكل قائد الحرس الثوري، محسن رضائي، مجموعة صغيرة مكونة من ثمانية ضباط لتطوير صناعة الألغام لأجل إيران. في أواخر عام 1984، اجتمع هذا الفريق في «الهيئة الوطنية للصناعات الدفاعية» في طهران في محاولة لدراسة هندسة بعض ألغام كوريا الشمالية بهدف إنتاج بديل إيراني لها، في حين قدمت ليبيا البديل السوفيتي الحديث لإجراء المقارنة بينهما. صمّم الفريق خزاناً كبيراً للمياه وملأوه بالمياه المالحة قرب طهران لاختبار إسقاط اللغم الذي صنعوه وعملوا على تذليل العديد من التحديات لإسقاط المرساة بشكل صحيح ليتمكنوا من نشر الألغام في العمق المطلوب. خلال العام التالي أجرى المهندسون أربعة اختبارات في الصحراء الإيرانية، ومنها اختبار للعبوة الناسفة التي سيحشون بها اللغم. ولكن الهندسة الرديئة أزعجت الفريق المصمّم، فقد تبيّن أنه لا يمكن الاعتماد على صواعق التفجير، وفشلت المراسي مراراً وتكراراً في إرساء اللغم

كما يجب، ولم يتمكن المصممون من زرع الألغام في العمق الذي يريدونه. كما فشلوا في زرع الألغام إذ كانت ترتفع وتطفو عالياً جداً ما يجعلها تتمايل على السطح. ومع ذلك، بحلول منتصف عام 1985 تغلب فريق التصميم بما فيه الكفاية على معظم هذه المشاكل وبدأوا بالإنتاج. بوشر بأول تصميم إيراني لألغام من نوع (Myam) م SADAF-01 وأيضاً (M-08) SADAF-02 في شهر تموز/يوليو، وقد تمّ إنتاجهما في مصنع للذخيرة شمال طهران. كان يُنتج ما لا يقل عن اثنين وعشرين لغماً كل أسبوع، وكان الإيرانيون يطمحون إلى إنتاج ثلاثة آلاف لغم منها، وبدأوا بتخزينها بالقرب من بندر عباس على بعد 155 كيلومتراً شمالاً، في مستودع البحرية الضخم للذخيرة سيد آباد في سيرجان. وفي الوقت نفسه صادرت القوات البحرية الإيرانية النظامية أربع سفن للصيد في بوشهر وأجرت تعديلات على مؤخرة كل مركب لإضافة لوح منحدر. كان رجال البحرية يرتدون زيّ الصيادين لإخفاء مهمتهم، وراحوا يتمرّنون مراراً وتكراراً على دحرجة ألغام وهمية من على متن المراكب الشراعية.

في آذار/مارس من العام 1986 قامت نخبة من مشاة البحرية الإيرانية العاملة في القوارب، التي كانت تابعة لجيش الشاه، بتنفيذ أولى العمليات الإيرانية لزرع الألغام في المياه الضحلة قبالة العراق بغية دعم الهجمات الإيرانية المختلفة الهادفة إلى احتلال البصرة، واشترك معهم الحرس الثوري في قوارب صغيرة، وقد تسللوا مراراً عبر ممرٍّ يؤدي إلى ميناء العراق الرئيس «أم قصر» في الخليج العربي وتمكّنوا من زرع الألغام في قناته وأقفوا فعلياً دخول سفن الشحن إليه[577].

وضعت إيران خطة عسكرية تسمّى «غدير»، نسبةً إلى اسم معركة شيعية جرت في القِدَم[578]، وكان الهدف منها محاربة الأسطول الأميركي. تمّت الموافقة الرسمية على هذه الخطّة في العام 1984، وأصبح هدف إيران الرئيس الردّ على أيّ هجوم أميركي. كانت الخطة الإيرانية تتطلّب التنسيق بين البحرية النظامية وسلاح الجو والحرس الثوري تحت قيادة مشتركة لشنّ هجمات على نطاق واسع في الخليج. شكّل الحرس الثوري والبحرية النظامية أربع مجموعات على السطح، تألفت كلٌّ منها من بارجة أو سفينة بحرية يدعمها عددٌ من قوارب الحراسة الصغيرة وسفن الخدمات اللوجستية التي تحولت إلى سفن لزرع الألغام، وكانت حميعها تتحرك بسرعة تحت غطاء جوي ومدفعي لتهيئة ثلاثة حقول ألغام كبيرة في غرب مضيق هرمز، وكان هدفها عدم السماح للسفن التجارية بالمرور عبر المضيق ولا يستنثنى من هذه السفن إلا السفن المتوجهة إلى إيران التي ستتمكن من سلوك طرق آمنة عديدة تُركت عمداً مفتوحة عبر حقول الألغام. وما إن تتمّ المهمة حتى تهاجم أربع مجموعات قتالية سفن البحرية الأميركية المتواجدة في مرمى نيرانها.

بدت خطة «الغدير» على الورق مثيرةً للإعجاب، فهي تشير إلى تعاون كبير بين الجيش النظامي والحرس، ولكن الواقع أن الجيش النظامي لم ينسّق بشكل جيد مع القوى الأخرى والسبب يرجع، إلى حدٍّ كبير، إلى العداء بين بحرية الحرس الثوري والقوات البحرية النظامية الإيرانية. كما أنه لم تنشأ قطّ أي قيادة مشتركة لقيادة القوات البحرية إلا على الورق. ومع ذلك، عندما اكتشفت

قوات العمليات الخاصة الأميركية خطة «الغدير»، في العام 1987، أذهلت طموحات إيران في زرع الألغام الجيش الأميركي، ففي أقل من سنتين انتقلت إيران من التجارب في خزانات المياه المالحة في الصحراء إلى القدرة الفعلية على زرع مئات الألغام بهدف وقف صادرات النفط الخليجية.

في شهر أيار/مايو، قررت إيران أن تختبر بعضاً من ألغامها الجديدة في الكويت على أمل تخويف الأمير لدفعه إلى التراجع عن قراره المتعلق بتسجيل الناقلات الكويتية لدى خفر السواحل الأميركية ورفع العلم الأميركي عليها[579]. غادر مركبان شراعيان كبيران بوشهر، واختلطا بمراكب صيد الأسماك وتهريب البضائع، حيث أنزلا أربعة عشر لغماً في خطين متوازيين على شكل شعاعين خارجين من إحدى عوامات ملاحة القناة[580]. كانت الألغام متباعدة بعناية إذ يبعد كل لغم عن الآخر مسافة ثلاثين متراً، وحتى لا تعيق الألغام عمليات صيد السمك والتهريب الإيرانية حرص الإيرانيون على أن يكون عمق اللغم عشرة أقدام على الأقل، وهو عمق أخفض بكثير من عمق المراكب الشراعية ولكنه عميق بما فيه الكفاية لإلحاق الضرر بناقلة نفط كبيرة.

في اليوم نفسه واجهت البارجة «ستارك» محنة، حيث دخلت الناقلة السوفيتية «المارشال تشيوكوف» (Marshal Chuykov) البالغ وزنها ثمانية وستين ألف طن من المدخل الرئيس للمياه العميقة إلى ميناء «الأحمدي» في الكويت كي تتزوّد بشحنة من النفط الخام الكويتي. كانت على بعد ميلين شرقاً عوامتان ملاحيتان تراقبان مدخل القناة، فإذا بانفجار هائل يهزّ الناقلة فيحدث فيها شقّاً طوله ثمانية أمتار وعرضه ستة أمتار في ميمنتها، واحتاجت الأضرار إلى إصلاحات كبيرة في مرافق حوض سفنٍ جاف في دبي. وفي الشهر التالي أصابت الألغام ثلاث سفن، كلّها على بعد ثلاثة أرباع الميل من المنطقة التي واجهت فيها السفينة «تشويكوف» مصيرها السيئ. «أعتقد أن لدينا وضعاً خطيراً هنا»، قال قائد القيادة المركزية الأميركية جورج كريست لرئيس هيئة الأركان المشتركة وليام كرو[581].

طلب السفير الأميركي في الكويت، أنطوني كوينتون، من الكويتيين أن يشدّدوا المراقبة العسكرية أكثر لمنع زرع ألغام إضافية. إلا أن الكويتيين كانوا يفتقرون إلى الأجهزة والصبر المطلوبين لمواجهة هذا التحدي الإيراني، وكان رد فعلهم الأول هو محاولة استئجار من يقوم بهذه المهمة نيابةً عنهم وفكّروا أيضاً في استئجار كاسحات ألغام هولندية. وبما أن الألغام الإيرانية كانت تهدّد القوافل كلها فقد عرضت واشنطن إزالتها، الأمر الذي سرَّ الأمير طالما أنه لن يجلب الكثير من الأميركيين إلى بلاده.

أرسلت الولايات المتحدة سراً فريقاً مكوناً من ثمانية عشر رجلاً إضافةً إلى عشرين طناً من المعدات لنزع الألغام[582]، وقد وصل الفريق في 22 حزيران/يونيو وسرعان ما انطلق في العمل على متن زورق القَطْر «الكويتي» عند مدخل قناة ميناء الأحمدي. بعد ثلاثة أيام التقط السونار لغماً مزروعاً في الشعاب المرجانية الضحلة، على عمق مئة قدم من المياه حيث كان صندوق أسطوانة التفجير يطفو على بعد عشر أقدام فقط تحت السطح، فنزع الغواصون فتيله وحملوه إلى الولايات

المتحدة لتحليله. كانت لدى المملكة المتحدة مصادرها وكانت قد حصلت على قائمة الأرقام التسلسلية للألغام التي صُنعت في إيران، وعندما قارن البريطانيون قائمتهم بالرقم المنقوش بحروف بيض على جانب اللغم الذي وجده الأميركيون تبيّن أن الرقم متطابق تماماً مع القائمة في تسلسله الصحيح.

خلال الشهر التالي عمل غطاسو البحرية على اكتشاف ألغام إضافية، وقاموا بتدميرها[583]. لقد زُرعت هذه الألغام بعناية كي تغطي القناة، ومن الواضح أنها لم تكن ناتجة عن زرع عشوائي للألغام بواسطة مراكب شراعية بل ناتجة عن خطة مرسومة بدقة لمهاجمة سفن الشحن الكويتية. وبينما كانت إيران تستخدم الألغام ضد الكويت لم يغيّر أحد في واشنطن أو تامبا الافتراضات التي تسير على أساسها عملية حماية القوافل الأميركية، إذ ظل كلٌّ من بيرنسن وكريست وكرو يعتقدون أن إيران لن تجرؤ أبداً على شنّ هجوم علني ضد الولايات المتحدة. كانوا يثقون بقدرة الردع التي تؤمّنها حاملة الطائرات وبالقوة النارية الأميركية ويستبعدون التفكير في أي هجوم من هذا النوع. ولم تقم القيادة المركزية الأميركية إلا بخطوة متواضعة إذ طلبت من نورفولك وضع سرب من المروحيات الكاسحة للألغام على أهبة الاستعداد للتدخّل في الخليج العربي. ولكن بعض الضباط فكّروا في أن هناك احتمالاً أن تهاجم إيران قوات الشرق الأوسط بزوارق انتحارية أو أن تشنّ هجمات إرهابية ضدها، ولهذا السبب تمّ إرسال قوات أمن بحرية إضافية لحماية مقر قوات الشرق الأوسط في البحرين. ولكن لم يشأ أحد أن يصدّق أن طهران قد تزرع ألغاماً في مناطق أبعد من ميناء الكويت على الرغم من تزايد التقارير الاستخباراتية التي تحذّر من اتّساع رقعة زرع الألغام في منطقة الخليج. ضغطت القيادة البحرية على كلٍّ من واينبرغر وكرو لتخفيض قوات عملية إرنست ويل، الأمر الذي أسهم في إراحة القيادة العسكرية الأميركية القلقة التي كانت تخشى ردّ فعل إيرانياً تجاه الولايات المتحدة باعتبارها أحد الداعمين الأساسيين للرئيس العراقي. وفي هذا الوقت انضمت السعودية إلى هذا المشهد، فقد وصلت كاسحات الألغام السعودية، ومع اقتراب موعد انطلاق أول قافلة بدا أن وجود السفن السعودية والكويتية الكاسحة للألغام، تؤازرها الخبرة الأميركية، كافياً للتعامل مع أي أعمال إيرانية أخرى ضد سفن الشحن. كان بيرنسن راضياً عن الوضع إلى درجة أنه أوصى بإعادة بعضٍ من الرجال الأميركيين الثماني عشر إلى البلاد لمنع تفاقم الحساسيات الكويتية تجاه وجود الأميركيين على أراضيها.

كانت القيادة الإيرانية قلقة من مهاجمة الأميركيين بشكل مباشر. فبعد فشل عملية زرع الألغام في ميناء الكويت في تغيير رأي الأمير الكويتي في شأن العمل مع الأميركيين، برز جدال حاد داخل مجلس الدفاع الأعلى، وهو هيئة إيرانية لصنع القرار الأمني الوطني، وراح كبار الضباط في الجيش الإيراني النظامي يصرّون على توخّي الحذر، فقد أمضوا جزءاً كبيراً من حياتهم المهنية يعملون مع الأميركيين ويعرفون عن كثب القوة التدميرية التي بوسع الولايات المتحدة إنزالها بإيران. ولكن قائد الحرس الثوري اللواء محسن رضائي رفض مخاوفهم معتقداً أن ضباط القوات البحرية والجوية لا يزالون يحتفظون بشيء من المودةً لأميركا ويعشقون التكنولوجيا الأميركية، وأخذ يضغط في اتجاه المواجهة المباشرة مع الأميركيين، وحثّ على مهاجمة السفن الحربية الأميركية.

قال رضائي لزملائه خلال اجتماع جرى في طهران في حزيران/يونيو: «الأميركيون حريصون على عدم وقوع إصابات في صفوفهم، وبدا ذلك بوضوح في فيتنام وبيروت»، ثم أضاف: «إن أي خسائر ستدفع الأميركيين إلى الفرار من الخليج!» كما رفض رضائي وقادة آخرون في الحرس الثوري - ممن اقتصرت تجربتهم العسكرية على قتال الجيش العراقي الضعيف- الاعتراف بقوة سلاح الجو الأميركي، وقالوا: «تمكّنا من تحدي القوات الجوية العراقية التي يدعمها الغرب مدة سبع سنوات، وبوسعنا أن نتحدى الطائرات المقاتلة الأميركية أيضاً».

كانت براغماتية هاشمي رفسنجاني تدفع على الدوام باتجاه الوسطية، وصرّح أن الضغط على الكويت كي تسحب دعمها للعراق أمر ضروري حتى تربح إيران الحرب، وأن المواكبة الأميركية إنما تساند صدام حسين فحسب. لكن الطيارين الأميركيين أفضل تدريباً بكثير من الطيارين العراقيين؛ وأشار إلى أن الأميركيين تمكّنوا من إسقاط قنبلة على منزل القذافي خلال الهجوم الجوي على ليبيا في نيسان/أبريل 1986، وأن بوسع الأميركيين أن يفعلوا الشيء نفسه بمنزل المرشد الأعلى. ولكن فكرة زرع ألغام سرية ضد الأميركيين كانت تستهويه، ففي رأيه إن زرع ألغام بصورة سرية ضد الأميركيين من شأنه أن يكبّدهم الخسائر اللازمة لدفعهم إلى مغادرة منطقة الخليج، ولكنه ظلّ يقلّل من احتمال قيام الأميركيين بعملية انتقامية كبيرة. وبقي السؤال هل نهاجم الأميركيين مباشرةً، مثلما طالب رضائي، أم نزرع الألغام خلسةً في طرق السفن الأميركية؟ القرار النهائي بقي لآية الله الخميني. وفي أوائل شهر تموز/يوليو انحاز المرشد الأعلى إلى طرف رفسنجاني، على الرغم من اعتراضات رضائي اللفظية، وأمر بالقيام بحملة زرع ألغام سرية ضد القوافل الأميركية القادمة قريباً، دون القيام بأي هجوم علني على أي سفينة حربية أميركية.

لم تكن الاستخبارات الأميركية على علم بالجدال الدائر بين القيادات الإيرانية، وسرت شائعات مفادها أن الإيرانيين يخططون لهجوم إرهابي على مقر بيرنسن في البحرين، لذا أمر واينبرغر موظفي الولايات المتحدة بتجنّب الذهاب إلى الأماكن العامة والتزام منازلهم أو أماكن عملهم، وأرسل مشاة بحرية إضافيين لحراسة القاعدة[584].

قام الجيش الأميركي بالتحضيرات من أجل مرور أول قافلة كويتية. وحتى تتمّ تلبية الشروط القانونية للمُلكية الأميركية كان على شركة ناقلات النفط الكويتية إنشاء شركة وهمية في دوفر بولاية ديلاوير، باسم «شركة تشيسابيك للملاحة» (Chesapeake Shipping Inc)، وكان الهدف إعادة تسجيل السفن الإحدى عشرة جميعها بين منتصف شهر حزيران/يونيو ونهاية أب/أغسطس. في هذه الأثناء وصل مفتشو خفر السواحل إلى الكويت لضمان استيفاء السفن لشروط السلامة الأميركية، وغُضَّ النظر عن كثيرٍ من المتطلبات[585]. على الرغم من أن معظم أفراد الطاقم ظلّوا من الرعايا الأجانب، إلا أن الكويت تعاقدت مع ربابنة أميركيين محترفين جدد للسفن التجارية من «شركة غلينيغال (Gleneagle) لإدارة السفن» في هيوستن. كان أولهم قبطاناً بحرياً متقاعداً، اسمه فرانك سيتز جونيور، وقد تولّى قيادة أكبر سفينة، وأول سفينة تمّ تغيير علمها، وسادس أكبر ناقلة في العالم حيث تصل حمولتها إلى أربعمئة ألف طن، وتمّ تغيير اسمها وقتئذٍ من «الرِكاب» Rekkab-(al) إلى «بريدجتون» (Bridgeton)[586].

في الأسبوعين الأولين من شهر تموز/يوليو، سافر الجنرال كريست مرتين إلى واشنطن لإطلاع رؤساء الهيئات ووانبرغر على مجريات وضع القوافل البحرية[587]. لقد وافقت البحرين على الاشتراك في توجيه ضربات جوية فيما لو هاجمت إيران الجزيرة انتقاماً منها على تأييدها للولايات المتحدة. أما الكويت فبقيت أكثر تحفظاً، مع أن الولايات المتحدة تحرس قوافلها وترافقها، وأعلنت أنها لن تسمح للطائرات الحربية الأميركية بدخول الإمارة إلا في حال قامت إيران بغزوها. توقع كريست في حال حدوث شيء كهذا أن يطلب الأمير قوات أميركية مقاتلة.

توجّه كرو ووانبرغر إلى مبنى الكونغرس لإطلاع قادته على التفاصيل السرية للعملية. بعد الجلسة مباشرةً، عقد رئيس لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب، ليس آسبن، مؤتمراً صحفياً وشرع في وصف كل تفاصيل العملية الحساسة، بما في ذلك عدد السفن وطائرات الدعم «أواكس» التابعة للمملكة العربية السعودية[588]. في صباح اليوم التالي، نشرت صحيفة «واشنطن بوست» مزيداً من التفاصيل، بما في ذلك تفاصيل اتفاق حقّ التحليق فوق الإمارات الحساس جداً. جنّ جنون كلٌّ من واينبرغر وكرو من آسبن بسبب تسريبه هذه المعلومات التي تلحق الضرر بالعملية.

دفاعاً عن نفسه اتصل آسبن بكرو قائلاً: «طالما أن المعلومات سرية ومحظورة، لِمَ لم يخبرني أحد بذلك؟ لم يقل لي أحد أبداً إنه تقرير سري»[589].

أجاب كرّو مشكّكاً: «افترضت أنك تعرف ما هي الأمور السرية. إن بيانات السفن الحربية جميعها سرية».

أصرّ آسبن على القول: «لم يخبرني أحد على الإطلاق بأنه تقرير سرّي. اعتقدت أنني أحاول رفع المعنويات!» قال واينبرغر لاحقاً عن زلة لسان آسبن ساخراً: «زلّة لسانه قد تغرق سفينة».

في 21 تموز/يوليو 1987، جرت على مؤخرة الناقلة «بريدجتون» البالغ طولها ألف قدم مراسم رفع العلم. كان عشرات السفن التي كانت تنتظر عبور المضيق راسية في ميناء «خورفاكان» العماني، وكان هناك في هذا الوقت جمع غفير من المسؤولين الكويتيين وضباط الجيش الذين كانوا ينظرون إلى السفير الأميركي كوينتون وهو يرفع على السارية علم أميركا المخطط ذا النجوم، حيث كان النسيم الشديد يجعله لافتاً للانتباه في أجواء الصيف الرطبة والحارة[590]. قدّم العلم عضو الكونغرس عن ولاية كنتاكي وكان يريد أن يرفعه بنفسه، ولكن مراعاةً للحساسيات الكويتية، ونزولاً عند رغبة الكويت في الحفاظ على تمثيل منخفض للأميركيين وسريّة العملية، قرر كوينتون أن يحتفظ بشرف رفعه لنفسه[591].

كان بيرنسن يخشى أن تكون التسريبات قد أطلعت إيران على موعد انطلاق القافلة الأولى، فاتّخذ احتياطات إضافية لتبقى بعيدة عن السفن الأخرى في الميناء، كما جهّزت السفن الحربية الأميركية أسلحتها تحسباً لمحاولة إيران مهاجمة القافلة وهي راسية. في تلك الليلة تشاور بيرنسن

مع كريست بشأن خيارات رد الجيش الأميركي في حال حاولت إيران أن تترجم نسختها عن هجوم «بيرل هاربور»[592].

مرت الليلة المشوبة بالقلق بهدوء. ومع عدم وجود ما يشير إلى أن الإيرانيين يترصّدون القوافل خارج عُمان توجّهت صباح اليوم التالي أول قافلة، قافلة «إرنست ويل»، إلى مضيق هرمز، ترافقها سفينتان حربيتان أميركيتان وبارجة صغيرة. كانت القافلة تضم أيضاً سفينتين رُفعت عليهما أعلام أميركية، الأولى كانت ناقلة النفط العملاقة «بريدجتون» (Bridgeton) وناقلة أصغر حجماً تنقل الغاز السائل واسمها «غاز برينس» (Gas Prince).

كانت الساعات العشر الأُوَل من العبور الذي يستغرق يومين هي الفترة الأشد خطورةً، فالقافلة عرضةٌ للهجوم ما دامت ضمن مجال صواريخ «سيلكوورم» الإيرانية التي تطوّق المضيق، ولكن كانت تحلق فوق القافلة قوات جوية وبحرية وطائرات مراقبة وطائرات التزويد بالوقود جواً وطائرات مقاتلة؛ وكذلك كانت طائرات p-3 الرباعية المحركات، التي يُطلق عليها اسم مُشفّر هو «ريف بوينت» (Reef Point)، تحوّم فوق جزيرة «مصيرة» العُمانية، وتستخدم أجهزة رؤية متطورة لاستكشاف مواقع الصواريخ الإيرانية. كانت الطائرات المقاتلة والقاذفات تنطلق من على حاملة الطائرات وتحلّق على بعد مئتي كيلومتر خارج خليج عُمان بغرض المراقبة من علو، وكانت تتزود بالوقود جواً بواسطة ثلاث طائرات ضخمة من سلاح الجو كانت تنطلق من جزيرة «دييغو غارسيا» الصغيرة الواقعة في المحيط الهندي[593]. كما أطلق سلاح الجو طائرة الاستطلاع السوداء الأنيقة SR-71 Blackbird من الطرف الآخر من العالم، إذ حلّقت من قاعدة كادينا، في أوكيناوا، وبدعم ما لا يقل عن خمس عشرة طائرة ناقلة للوقود متمركزة على طول الطريق. قطعت طائرة «Blackbird» طريقها عبر مضيق هرمز والخليج العربي، وحلّقت بسرعة ماخ[594] عند تخوم الغلاف الأرضي على ارتفاع ثمانين ألف قدم. كان السحاب الكثيف يحجب الرؤية بعض الشيء، ولكن ما إن وصلت طائرة الاستطلاع فوق المضيق حتى بدت السماء خاليةً من الغيوم. عندما التقطت الطائرة صوراً قامت أجهزة الاستشعار بجمع البيانات عن الصواريخ الإيرانية، وقد قام بذلك الطياران - المتخصصان مايك سميث ودوغ سوفر- حيث قاما بدورة واسعة بطيئة فوق شمال الخليج قبل أن يتوجها إلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية، وقُدِّرت تكلفة القيام بهذه المهمة المنهكة التي دامت إحدى عشرة ساعة فقط بمليون دولار[595]. بما أن أحداً على الطائرة لم يرَ شيئاً غير عادي، أعطى بيرنسن الضوء الأخضر كي تمضي القافلة قدماً.

كان كلٌّ من كرو وكريست في مراكز القيادة الخاصة بهما في واشنطن وتامبا طوال الساعات العشر القادمة، وكانا يتواصلان بواسطة هاتف آمن مفتوح. كان كريست يقدّم معلومات مُحدَّثة منتظمة إلى رئيسه وهو لا يتوقف عن تدخين سجائر من نوع «كارلتون»، سيجارة تلو الأخرى. وفي إحدى اللحظات بلغ التوتر أوجه، فقد التقط رادار ناقلة «يو أس أس كيد» (USS Kidd) المرافقة مروحيةً مجهولة الهوية تُحلّق فوق القافلة. أطلقت السفينة الحربية إشارة إنذار

ضوئي، فإذا بالمروحية تغادر فجأة، وتبيّن أخيراً أنها تنتمي إلى السلطة الرابعة فقد كانت تحمل فريقاً من المراسلين والمصورين.

لمّا دخلت القافلة الخليج دون وقوع حوادث تنفّس الجميع الصعداء ثم عاد القلق عندما اقتربت من منطقة الخطر التالية التي تنتشر فيها قاعدة للحرس الثوري مؤلفة من قوارب صغيرة منتشرة في جميع أنحاء جزيرة أبو موسى. بدت القوات الإيرانية مرةً أخرى غير مبالية، فاستمرت القافلة بالتوجّه شمالاً، ولم يحدث شيء إلا سماع لغة عدائية كانت تبثّها الإذاعة الإيرانية: «إذا كان المسؤولون الأميركيون يتوقعون أن ترضخ الجمهورية الإسلامية لسياساتهم المستبدة من خلال استعراضهم العسكري وتهديداتهم، ففي انتظارهم عواقب مريرة ستكون أكبر بكثير من تجارب لبنان أو فيتنام»[596].

على الرغم من توجيهات المرشد الأعلى للثورة الإسلامية، أراد القائد الأعلى للحرس الثوري، رضائي، مهاجمة القافلة عند مرورها بجزيرة «فارسي» ليلاً في 23 تموز/يوليو، ولكن أحد عناصر الحرس الثوري أبلغ آية الله الخميني بنية رضائي، فكان أن قام الخميني بكبح جماح قائده المتحمّس جداً وأمره أن يدير عملية زرع الألغام المتفق عليها وأن يتفادى خوض معركة مباشرة مع القوات البحرية الأميركية.

التزم رضائي المعاقب آنئذٍ بما أُمر به. غادر زورق صغير جزيرة «فارسي» متوجهاً عشرين ميلاً غرباً إلى أن وصل إلى عوّامة اسمها «ميدل شولز» (Middle Shoals)، بعد ذلك توجّه شمالاً على طول طريق الناقلة مسافة عشرة أميال أخرى إلى أن وصل إلى نقطة تضيق عندها حركة المرور فتلتفّ حول منطقة حظر الحرب المعلنة من قبل إيران. لقد زرعت وحدة خاصة من الحرس الثوري، كانت قد أمضت عدة أسابيع تتدرب على هذه المهمة، سلسلة من الألغام بحيث يبعد كل لغم عن الآخر مسافة خمسمئة ياردة، ثم عادت مسرعةً إلى جزيرة «فارسي».

في 23 تموز/يوليو، بعد غروب الشمس تماماً، كشفت العمليات الأميركية لاعتراض الاتصالات قاربين من قوارب الألياف الزجاجية خارج جزيرة «فارسي». جاء ضابط مخابرات بيرنسن، الجنرال هاول كونواي زيغلر، إلى حجرة بيرنسن على متن سفينة «لا سال» وقام الاثنان بتقييم الملاحظات ومقارنتها لفهم حقيقة هذا التطور. فالتصرفات الإيرانية وما بثته إذاعة الحرس الثوري تشير إلى أن إيران تخطط لمهاجمة القافلة بزوارق سريعة عند مرورها بجزيرة «فارسي»، ومن المفارقات أنّ الاستخبارات الأميركية كشفت رغبة رضائي في مهاجمة القافلة التي أحبطها آية الله إلا أنها لم تتوقع عملية زرع الألغام التي كان الإيرانيون قد خططوا لها.

أبلغ كريست بيرنسن بهذه المعلومات فأمر بدوره القافلة أن تتّخذ مساراً مختلفاً لتجنّب القناة الرئيسة في الكويت وأن تبطئ سرعتها كي تصل إلى جزيرة «فارسي» في الصباح التالي لأن النهار سيسمح باستهداف القوارب الصغيرة المُهاجمة بصورة أفضل[597].

عند الفجر، أمر بيرنسن مروحية باستكشاف الطريق أمام القافلة وطلب أن يكون الطرّاد «يو إس إس فوكس» (USS Fox) في الطليعة، وعندما مرّت القافلة بالجزيرة الإيرانية المُهَدِّدة لم تشاهد أي قارب هجوم ولا حتى قارب صيد. استقبل كرو في وزارة الدفاع هذا الخبر بارتياح واتصل بواينبرغر ونقل له أن أسوأ ما في الأمر قد انتهى، وتوجّهت القافلة إلى الكويت، وتوقّع أن يتم تسليم الناقلات للبحرية الكويتية بعد ظهر ذلك اليوم. وبدأت صحاف الفطور تُقدّم إلى طاقم السفينة القائم على المراقبة في مقصورة ربان ناقلة النفط العملاقة «بريدجتون».

فجأةً سمع قائد السفينة، النقيب سيتز، قعقعةً معدنية. فقد ضربت موجة هائلة أسفل السفينة فهزتها على امتداد طولها وكأن أحداً ما أمسك بحافة بساط وراح ينفضه بقوة. عندما بلغت الموجة منصة قيادة السفينة «بدا وكأن مطرقة وزنها خمسمئة طن ضربت السفينة»، هذا ما يتذكره النقيب سيتز. دفعت الصدمة صحاف الطعام وتطايرت بما فيها من لحم مقدّد وبيض، وسارع الرجال يتشبثون بما حولهم حتى لا يقعوا أرضاً. «لم يكن هناك شك في أننا ارتطمنا بلغم»[598]. فتح اللغم ثغرةً قطرها خمسين متراً مربعاً في جانب الناقلة العملاقة. تباطأت سرعة «بريدجتون» لكنها لم تتوقف رغم الضرر الذي لحق بها، فقد كان باستطاعة قعرها الكهفيّ المقعّر والفارغ أن يصرّف المياه التي راحت تُغرق المقصورات، غير أن السفن الحربية الأميركية الأصغر منها لن تكون محظوظة إلى هذا الحد فيما لو ارتطمت بلغم، فأخذت تبحث عن ملاذٍ لها بسرعة خلف الناقلة الكبيرة، وسار الحرس في خطّ مستقيم في إثر «بريدجتون» محتمين بالناقلة لتجنّب ضربات ألغام إضافية.

في ساعات الصباح الباكر انتشر خبر اللغم الذي ضرب «بريدجتون» بسرعة في دوائر حكومة الولايات المتحدة أسرع من انتشاره في هيكل الناقلة الضخم. يذكر أحد الشهود أن كريست، الذي كان يراقب العملية من مركز قيادته في تامبا، «وثب عن كرسيه بكل معنى الكلمة» عند سماعه الأخبار. اتصل الضابط المناوب في مركز القيادة العسكرية القومية بالأدميرال كرو الذي كان نائماً في مقرّه في فورت ماير وأبلغه بمحنة «بريدجتون»، فقام كرو بعمل غير عادي بالنسبة إلى ضابط كبير في البلاد: التقط الهاتف واتصل مباشرةً ببيرنسن على متن بارجته في الخليج. كان كرو يحب بيرنسن، فقد التقيا في ألمانيا وأُعجب رئيس هيئة الأركان ببيرنسن نظراً إلى معرفته بالسياسة الخليجية وتعقيدات مهمة القافلة الكويتية، حتى إن كرو أيّد عضوية بيرنسن في «نادي يخوت نيويورك»، وكثيراً ما كان يتصل به مباشرةً دون معرفة كريست[599].

سأل كرو بشكل مقتضب: «ما الذي يحدث بحق الجحيم؟»

زوّده بيرنسن بالتفاصيل. «لقد ارتطمت بريدجتون بلغم، ولكن لم يسقط ضحايا وها هو الموكب على وشك الوصول إلى الكويت بنصف سرعته[600]». استدعى كرو سائقه وارتدى زيّه العسكري فوراً وتوجّه إلى وزارة الدفاع.

عند وصول القافلة بأمان إلى الكويت، جلس بيرنسن في مكتبه في المقصورة الخاصة به، وقال في سرّه: «إنها لعبة جديدة ونحن لا نلعب الألعاب». ثم كتب رسالة إلى رئيسه في تامبا جاء فيها: «تعتبر أحداث هذا الصباح تغييراً واضحاً وخطيراً في السياسة الإيرانية حيال المصالح العسكرية الأميركية في الخليج العربي. ما من شكّ في أن القوات الإيرانية كانت تستهدف على وجه التحديد المجموعة المواكبة لعبور الناقلات، وأنها وضعت الألغام في الماء بقصد إلحاق الضرر أو إغراق العديد من السفن بأي ثمن ممكن». وهكذا كانت «بريدجتون» ضحية ابتسم لها الحظ وحسب. وقال إن الإيرانيين أجروا حساباتهم وهي إما أن الولايات المتحدة لن تنتقم وإما أنهم سينجون من ضربة مماثلة لتلك التي لحقت بليبيا، مشيراً إلى القصف الأميركي رداً على تفجير القذافي ملهىً ليلياً في برلين[601]. بيد أن بيرنسن حذّر من ضربة جوية دون تبصّر. فالشعب الإيراني أنهكته الحرب، وأي هجوم بري سيخدم الحكومة ويساعدها على حشد الجماهير وراءها، مضيفاً: «لسنا بحاجة إلى شهداء في بندر عباس».

بعد ظهر ذلك اليوم أجرى بيرنسن وكريست حديثاً هاتفياً طويلاً لمناقشة سبل المضي قدماً. على الرغم من أن كلا الرجلين لا يتوقعان مثل هذه الخطوة الجريئة من قبل إيران، إلا أنهما اتّفقا على ضرورة تجنّب جرّ الولايات المتحدة إلى حرب مع هذا البلد، والبحث عن طرق أخرى للرد، كالحصار البحري أو زرع الألغام في بندر عباس. غير أن الأولوية الآن هي للتخلص من الألغام، فأمر كريست بوقف إبحار القوافل ريثما يتمكنون من الحصول على قوات جديدة لدعم قوة بيرنسن في الشرق الأوسط.

نظر القادة الإيرانيين إلى أخبار كارثة «بريدجتون» بشماتة، ونسبوا علناً الظهور المفاجئ للألغام إلى التدخل الإلهي وعمل يدّ الله الخفية، وبعد يوم واحد على ارتطام «بريدجتون» باللغم أثنى رئيس البرلمان الإيراني هاشمي رفسنجاني على المسؤولين ووصفهم بـ«ملائكة الله التي تنزل وتقوم بما هو ضروري»[602]. وأضاف رئيس الوزراء مير حسين موسوي أنّ «يداً خفية أحبطت هذه المخططات الأميركية. لقد ثَبُتَ مدى ضعف الأميركيين رغم ضخامة عمليتهم العسكرية في الخليج العربي لمواكبة ناقلات النفط الكويتية»[603]. بعد تنفيذ المهمة قدّم القائد رضائي وقائد القوات البحرية الإيرانية لمغاوير الحرس الثوري الذين زرعوا الألغام ساعات يدّ ذهبية مكافأةً لهم على بطولتهم.

فاجأت عملية التفجير البنتاغون الذي لم يكن مستعداً لها. في صباح ذلك اليوم، وفي اجتماع كان مقرراً مع الرئيس ومع رؤساء مكاتب إدارته حول أسرى الحرب في فيتنام، تمت مناقشة كيفية التعامل مع إيران. لقد بنى الأميركيون فرضيتهم بأن الإيرانيين لن يزرعوا ألغاماً خارج قناة الكويت على رغبتهم في الحفاظ على عدد قليل من القوات العسكرية وليس على معلومات استخباراتية موثوق بها. في الواقع كانت هنالك حاجة ملحّة إلى المزيد من السفن ولا سيما كاسحات الألغام. إن أقوى سلاح بحرية في العالم تعرض لهجوم نفذته زوارق سريعة تزرع الألغام، والقوافل لن تتمكن من استئناف مسيرها حتى يتم إزالة خطر الألغام.

تكلم الرئيس ريغان بلهجة حذرة عند بدء الاجتماع قائلاً: «فلنتريث قليلاً ولنحدّد ما الذي حدث قبل اتخاذ أي إجراء».

كشف قائد هيئة الأركان المشتركة كرو عن معلومات جديدة. من الواضح أنّ «بريدجتون» قد ارتطمت بلغم، ولكن الاستخبارات لم تجزم بشكل قاطع أن إيران هي المسؤولة مع العلم أن الأدميرال لم يكن لديه أدنى شك في هوية الذين وضعوا الألغام. ثم قدّم خلاصة حول المقدرات الأميركية المضادة للألغام، وأصرّ على توفير طائرات هليكوبتر من سرب المروحيات (HM-14) المضادة للألغام كي تكون جاهزة للاستخدام خلال اثنين وسبعين ساعة مع أنها مكلفة وتحتاج إلى قاعدة جوية لتعمل منها؛ كما طلب توفير سفينة تقف في الخليج لتكون بمثابة منصة للمروحيات[604]. وقال أيضاً: إننا بحاجة إلى سفن كاسحة للألغام في الخليج لتلبية الاحتياجات على المدى الطويل.

سيكون التوجه الأول هو الطلب من السعوديين المساعدة على نزع الألغام. كانت لدى المملكة العربية السعودية أربع كاسحات ألغام أميركية الصنع بُنيت في السبعينيات، وهي تُستخدم للقيام بدوريّات أكثر من التفتيش عن الألغام. وقد عرض كرو العمل مع الأمير بندر رغم قلة ثقته بالتدريب السعودي وعدم إيمانه بأي عملية حقيقية قد يقومون بها[605].

في اليوم التالي، دعا الأدميرال كرو بندر؛ فعلى الرغم من خلفيتيهما المختلفتين كانت تجمع بين الأدميرال الأكلاهومي والطيار المقاتل السعودي الثري علاقة وثيقة. في البداية كان الرجلان يتحدثان معاً عدة مرات في الأسبوع، وسرعان ما صارا يتحدثان كل يوم. كان كلاهما سياسياً محنكاً، وكانا يتبادلان وجهات نظر متشددة بشأن إيران. كثيراً ما كان بندر يزور مكتب كرو لوقت قصير دون موعد مسبق، وكثيراً ما غيرّ الرئيس جدول مواعيده ليستقبل الأمير الشاب الذي كانت له مكانة مرموقة استحقها عن جدارة باعتباره شخصاً يتمتع بسلطة الاطلاع على بواطن الأمور في واشنطن.

قال كرو بنبرة جادة توحي بخطورة الأزمة: «في الواقع نحن بحاجة إلى مساعدتكم، نحتاج إلى كاسحات ألغامكم لمسح مسار القافلة».

أجاب بندر: «إننا نبحث عن أفضل السبل للمضي قدماً. المشكلة هي أن الناس هنا لا يعرفون كيف يبقون أفواههم مغلقة. لا نريد أن يتم الإعلان عن مساعدتنا لكم في الصحف. هل بإمكانك إرسال شخص إلى بيتي لإجراء محادثات حول هذا الموضوع؟» وأسرع كرو فوراً بإرسال أحد الجنرالات إلى منزل بندر للبحث في الأمور المطلوبة.

بعد ثلاثة أيام اتصل بندر بدوره وقال إن والده الأمير سلطان، الذي كان يتولى منصب وزير الدفاع، قد وافق على كسح الألغام على طول القناة الكويتية حتى الموقع الذي تعرّضت فيه «بريدجتون» للكارثة. ومع ذلك فشل تفاؤل بندر في التأثير على الخمول السعودي، فقد اتصل كريست على الفور بكرو ليبلغه بأن لا أحد رأى كاسحة سعودية، حتى إنّ البحرية السعودية أذنت لكل قادة سفنها بالذهاب في إجازة لثلاثة أسابيع.

اتصل كرو المحبط ببندر وسأله عن كاسحات الألغام وقادتها. مرّ يومٌ آخر قبل أن يرد بندر ويخبر كرو أن والده أمر قادة السفن بالعودة، وأنهم سوف يبدأون بكسح الألغام بشكل يومي. وقد صدق في كلمته، إذ ظهرت بعد ظهر ذلك اليوم أول كاسحة سعودية في الخليج وراحت تقوم بمهماتها بشكل دوري كلّ يوم فتجول في المياه بضع ساعات وتبقى على بُعدٍ شاسع من جزيرة «فارسي» وعن أيّ ألغام إيرانية.

أثبت الأوروبيون أنهم لا يجاملون أيضاً. فبناءً على طلب واينبرغر أرسل وزير الخارجية شولتز رسائل إلى حكومات بريطانيا وفرنسا وهولندا وألمانيا يطلب منها سفناً لكسح الألغام على أمل «الحصول على إجماع دولي ضد زرع الألغام غير المشروع في المياه الدولية»[606]. وفي أقل من أسبوع ردّ الحلفاء الأوروبيون كلهم برفض طلب وزير الخارجية لتقديم المساعدة، ونظروا إليه على أنه عمل عسكري أميركي أحادي الجانب لدعم العراق. وحدها فرنسا عرضت اقتراحاً معاكساً، حيث اقترحت باريس بيع الأميركيين اثنتين من كاسحات الألغام الخاصة بها، على أن يشرف عليها بحارة فرنسيون غير نظاميين حتى يتم تدريب طواقم أميركية عليها يحلّوا محلهم. لم تكن البحرية الأميركية مهتمة كثيراً بشراء السفن الفرنسية، لذلك حاول كرو أن يؤثر في الكويتيين لاستئجار سفينتين من أجل قواتهم البحرية، ولكن لم تُظهر الكويت ولا فرنسا أي اهتمام بهذا الترتيب.

عند الساعة العاشرة من صباح يوم 27 تموز/يوليو التقى كرو في مكتبه رئيس العمليات البحرية، الأدميرال كارلايل تروست، ونائب ضابط العمليات الأدميرال هانك موستين. جلسوا حول مائدة مستديرة صغيرة وناقشوا خياراتهم للتعامل مع الألغام الإيرانية. لم يكن لدى أيٍّ منهما حماسة شديدة لمهمة القافلة، وخصوصاً موستين الذي عارض علناً العملية، من جهة، وسيطرة القيادة المركزية الأميركية على سفن البحرية من جهة أخرى.

سأل تروست: «لمَ لم يَتَولَّ السعوديون أو الدول الأوروبية مهمة إزالة الألغام؟»

أجاب كرو: «يدفع الوزير نحو هذا الاتجاه، ولكننا نحتاج إلى الحصول على مصادر قوة لنا هناك والآن. الضغط السياسي يتزايد لإعادة تسيير القوافل في أسرع وقت ممكن، والوزير واينبرغر نفد صبره».

اتفق الجميع على أن الرد الأسرع هو أن تطير مروحيات الـ HM-14 وتتحد مع سفينة بحرية، وكانت أفضل سفينة أميركية مرشّحة للقيام بهذه المهمة هي «يو إس إس غوادالكنال (USS Guadalcanal) البرمائية التي يتّسع متنها لـ800 رجل. كما أنه توجد حالياً، قبالة سواحل كينيا، حاملة طائرات صغيرة تحمل مشاة بحرية متوجهين إلى الصومال للقيام بمناورة عسكرية. على المدى البعيد سترسل الولايات المتحدة الأميركية سفنها الخاصة، أما حالياً فالقوة الموجودة قائمة على الساحلين الشرقي والغربي.

بعد ذلك تحدث كرو مع واينبرغر حول المستجدات. لقد تمّ إرسال كل المخزون الأميركي القادر على كسح الألغام وكل ما تستطيع الطائرة أو السفن الحربية حمله إلى منطقة الخليج: ثماني

طائرات هليكوبتر من طراز HM-14 يمكن أن تكون في الخليج في أوائل أب/أغسطس وستعمل عن متن سفينة «غوادالكنال» (Guadalcanal)؛ وسيتم إرسال القوارب الأربعة الكاسحة للألغام، الراسية في تشارلستون بولاية ساوث كارولينا، والقادرة على حمل ثمانين طناً، والمصمّمة لكسح الألغام حول الموانئ الأميركية، بحيث تُحمّل على السفينة البرمائية الأميركية «رالي» (USS Raleigh) وتصل في مطلع أيلول/سبتمبر. وبالإمكان تجهيز 6 كاسحات ألغام أكبر حجماً، لكنها لن تصل حتى شهر تشرين الثاني/نوفمبر.

لم يكن توقيت الإخفاق الذريع في الخليج ليكون أسوأ من ذلك بالنسبة إلى إدارة ريغان، ففي هذا التوقيت السيئ انعقدت جلسة استماع في الكونغرس حول فضيحة إيران-كونترا وبُثّت على الهواء مباشرة. كان أوليفر وجون بويندكستر شاهدين وكان يليهما واينبرغر. مع أن نورث اعترف بتمزيق الوثائق وبالكذب وبمخالفة القانون، إلا أنه ظهر، إلى حدٍ ما، كبطل شعبي، و«ذهب السيد سميث إلى واشنطن» كواحدٍ من المارينز. أما صحيفة نيوزويك فقالت: «لقد ارتقى نورث التلّ بمزيجٍ من الاستقامة والولاء للعلم الأميركي والغطرسة»[607]. بعد شهادته، أرسل ريغان إليه رسالة قائلاً: «أحسنت».

تحمّل بويندكستر اللوم بطيب خاطر، ولكن هذا الأدميرال لم يفقد أبداً هدوءه ورباطة جأشه، وأثناء الاستجواب كثيراً ما كان يتناول قداحته من نوع زيبو ليشعل غليونه، وهو تصرف يسمح له ببضع ثوانٍ إضافية ليسلسل أفكاره.

ظل بويندكستر ثابتاً على شهادته ومفادها أنه اعتقد أن ريغان سوف يدعم المبادرة، وأنه تعمّد إخفاء الأمر عن الرئيس لحمايته من هذه السياسة المثيرة للجدل[608].

في هذه الأثناء كان الغضب والتذمّر من مهمة القافلة البحرية يزداد ليس فقط في الكونغرس بل في الإدارة الأميركية أيضاً. كان جيمس ويب، الذي كان قد نُصب مؤخراً وزيراً للبحرية، في طليعة المعارضين لها، ومن المعارضين أيضاً كان هناك أولي نورث وزير الشباب وهو من الأكاديمية البحرية. الحقيقة أن هاتين الشخصيتين المعارضتين والعنيفتين قاتلا بشراسة الملاكمين داخل المؤسسة العسكرية الأمر الذي زاد من شهرتهما كرجلين ترعرعا في الشموخ. ومن الأشياء المعروفة عن ويب أنه حاز صليب البحرية -ثاني أعلى وسام عسكري- كضابط صغير قبل أن يتحول إلى الكتابة، فكتب رواية شعبية حول فيتنام بعنوان «حقول النار» (Fields of fire)، وكثيراً ما وُصِف بأنه جنرال لا يمتلك خبرة عملية رغم خبرته كضابط. وكان أيضاً قد خدم ثلاث سنوات كمساعد وزير، وأحبه واينبرغر. في العام 1987، عندما تنحى جون ليمان رئيس البحرية، نصح وزير الدفاع ريغان بأن يحلّ ويب محله، وسرعان ما ندم واينبرغر على قراره، فكثيراً ما كان يصطدم مع ويب العنيد حول ميزانيات الدفاع والسياسة الأميركية.

سأل ويب واينبرغر متشككاً خلال اجتماع في شهر أيار/مايو: «كيف سنعرف أننا ربحنا؟ ما هو النصر؟ ولماذا نورّط أنفسنا في حرب الخليج؟»

أجاب واينبرغر: «عندما نُبحر بقافلة عبر الخليج بنجاح فإننا بذلك نؤكّد حقنا في حرية الملاحة، وهذا نصر».

أغضبتْ تعليقات ويب وزير الدفاع، وتساءل ذات مرة مرتاباً: «لدينا أقوى سلاح بحرية في العالم، ومع ذلك لا نستطيع الحفاظ على تدفق النفط أمام عدو مسلّح فقط بقوارب صيد من طراز 'بوسطن هلرس' وبعدد قليل من الألغام القديمة؟» مع أن ويب وافق علناً على دعم مهمة القافلة البحرية إلا أنه في قرارة نفسه كان يشعر بأنهم يتجهون نحو عملية شبيهة بما حدث لهم في فيتنام.

بالمقابل، اقترح بيرنسن أن يضعوا معاً كاسحة ألغام مؤقتة، وطلب من كريست أن يجهزوا قاطرة مدنية بالإضافة إلى كاسحة ألغام مسنّنة كي تسير في مقدمة القافلة، فهذا الشكل المسنن الذي يأتي على شكل V يستطيع تحرير أي ألغام إيرانية وعندئذ ستطفو على سطح الماء فيسهل حينئذٍ تدميرها عبر إطلاق النار عليها. الأمر يحتاج فقط إلى وجود سفينة مساحتها كبيرة ذات مؤخرة مفتوحة.

بعد يوم من ارتطام «بريدجتون» باللغم رفع بيرنسن سماعة الهاتف وطلب فتاح البدر رئيس شركة ناقلات النفط الكويتية. ونظراً إلى أنهما كانا يتحدثان عبر هاتف تجاري غير آمن، تحدث بيرنسن حول القضية موضحاً أنه يبحث عن سفينة نفطية ذات سطح عريض من الخلف «لوضع بعض الأشياء»[609]. أجاب البدر أن لديه باخرتين يمكن أن تلبيا هذه الحاجة، وأن لديه أيضاً قاطرتان، اسماهما «هنتر» (Hunter) و«ستريكر» (Striker)، وأنهما راسيتان في «خورفكان». في اليوم التالي توجّه بيرنسن إلى الكويت لمناقشة الفكرة[610]. سأل البدر بيرنسن بتشكك عن سلامة القاطرتين، فالطاقم يعمل تحت إمرته على الرغم من أنهما مسجلتان في ليبيريا: «ماذا لو ارتطمتا بلغم؟»

أجاب بيرنسن: «سيكون ذلك بعيد الاحتمال، فقد زُرعت الألغام الإيرانية على عمق اثني عشر قدماً.

بدت فكرة الاعتماد على قاطرتين مضحكة داخل البنتاغون ولكنهم وجدوها حيلةً سياسية رادعة. والمشكلة أنه حتى لو قطعت القاطرتان لغماً فلن تستطيع الناقلات الضخمة السير وراء أيٍّ منهما وتجنّب الألغام العائمة آنئذٍ، والمشكلة الثانية المثيرة للقلق هي أن الألغام الإيرانية زُرعت بعيداً عن جزيرة «فارسي» واستقرت في كل مكان بدءاً من سطح المحيط حتى قاعه وذلك مرده إما إلى عدم الكفاءة أو إلى سوء تصميم اللغم. والخلاصة أن القاطرتين ستكونان معرضتين للارتطام بلغم كالذي ارتطمت به بريدجتون[611]. ولكن على الرغم من الاعتراضات أوضح كرو أنه لا يوجد خيار بديل في المدى القصير.

في 28 تموز/يوليو، أمر كرو بتشغيل مجموعة كاسحات الألغام الموجودة في مستودع في نورفولك على أن يرافقها ثمانية من البحارة لتشغيل المعدات. لقد وصلت القاطرتان المتفق عليهما

إلى حوض بناء السفن الصغير «بَسْرِك» في البحرين حيث كان البريطانيون هم الذين يتولون إدارته. كان أفراد الطواقم يعملون تحت إمرة البريطانيين على إضافة ألواح إضافية للقاطرتين وإضافة رافعة أيضاً من أجل المهمات التي ستوكل إلى القاطرتين هنتر وستريكر، ثم فُحصتا فحصاً دقيقاً للتأكد من أن النظام يعمل بصورة مرضية. سوف تتحرك القاطرتان جنباً إلى جنب وستمسحان ممراً واسعاً عرضه أكثر من 270 ياردة، وهو أكثر من المطلوب لتخصيص ممر آمن لأضخم الناقلات التي غيّرت أعلامها. كان العاملون الذين يشغلون القاطرتين يدركون خطورة مهمتهم. كانت كل قاطرة تضم أربعة أميركيين وطاقماً صغيراً مؤلفاً من رجال باكستانيين وسريلانكيين وكانوا جميعهم تحت إمرة البريطانيين، وكان الغرض بالطبع من وراء هذا الطاقم هو العمل على كسح الألغام قبل مرور القوافل. الحقيقة أن أي لغم زُرع على عمق أقل من اثني عشر قدماً من ثقل الزورق سيتحول إلى كاسح ألغام بشرية. قبل انطلاق القافلة الأولى بفترة وجيزة، يتذكر بيرنسن أن قائد القاطرة القلق والعصبي المزاج سأل: «هل تعتقد أن هذه العملية آمنة جداً؟» فجاء ردّ بيرنسن غير مطمئن إذ قال: «آمل أن تدفع لك شركة ناقلات النفط الكويتية أجراً مضاعفاً على هذا العمل لأني أعتقد أنك تستحق ذلك»[612].

كان الرائد البحري فرانك ديماسي قد شاهد أخبار السفينة بريدجتون على التلفاز. قال ديماسي للضابط التنفيذي كين ميريك عندما كانا يشربان القهوة ذات مساء في مقصورته الصغيرة في كاسحة الألغام «إينفليكت» (Inflict): «هل تعلم يا كين، إننا في طريقنا إلى الخليج العربي». ديماسي يشبه أي قائد آخر يعمل ضمن القوة الخاصة بكسح الألغام، فهو محارب قديم قضى خمسة عشر عاماً في البحرية ونشأ في بنسلفانيا ويتميز بالثقة بالنفس.

أجاب ميريك: «سيدي الرئيس، بلغنا من العمر خمسة وثلاثين عاماً، سنكون في الطاقم الاحتياطي. على أي حال لن يرسلونا إلى الحرب أبداً!»[613].

في التعزيزات الضخمة لقوة بحرية قوامها 600 سفينة ظلت كاسحات الألغام -أو مضادات الألغام كما يسمونها بدقة- واقفة بلا حراك بعد أن رحلت إلى الدول الأوروبية للدفاع عن حلف شمال الأطلسي. لدى الولايات المتحدة تسع عشرة سفينة خشبية قديمة تقشّر خشبها، راسية في تشارلستون بولاية ساوث كارولينا وسياتل وواشنطن، وهي مصنّفة من فئة كاسحات الألغام التي ثلث طاقمها المؤلف من خمسٍ وسبعين رجلاً يُعدّون من محاربي عطل نهاية الأسبوع، فقد استند تدريبهم في السنوات العشرين الأخيرة على الإبحار مرة واحدة في الشهر، وأسبوعين في السنة. تتجنّب سفن «الساحل الغربي» العمل في الليل لأن قاطعات أشجار التنوب العملاقة «دوغلاس» تتركها كي تجرفها المياه نحو شواطئ «بوجيه ساوند» الأمر الذي قد يؤدي إلى خرق السفن وفتح ثقوب كبيرة في هياكلها الخشبية[614].

مضت ستة وثلاثون عاماً على آخر مواجهة للقوات البحرية مع عدو يستخدم الألغام البحرية في عرض البحر، وذلك عندما أحبطت كوريا الشمالية (مع مستشارين سوفيت) على نحو

محرج الإنزال الأميركي قبالة ميناء «ونسان» في العام 1951م[615]. وقد لخّص قتذاك قائد الأسطول، العميد البحري آلن سميث، فشله وإحباطه في رسالة إلى قائد العمليات البحرية الذي ظل في مركزه أربعة عقود: «لقد فقدنا السيطرة على البحار وتركناها لأمة من دون بحرية، بسبب استخدامنا أسلحةً تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى وسفناً تعود إلى زمن ولادة المسيح»[616].

على الرغم من أن أسماء هذه السفن المشاكسة - غزو، شجاع، انتقام - مرتبط بالحرب إلا أنها كانت في نهاية عمرها أشبه بسفن خرقاء، فقد كان هيكلها العلوي ذو الأضلاع الثمانية شبيهاً بمكان كبير جذّاب للصيد ولاسيما عندما تهتز السفينة مثل قطع الفلين جيئةً وذهاباً في الأمواج العريضة للبحار المفتوحة. وكان نصف الأسطول تقريباً يحتوي على محركات من صنع شركة «باكارد» البائدة، بحيث صار إيجاد المزيد من قطع الغيار أمراً عسيراً بمرور السنين. لم تكن أي واحدة من هذه السفن مجهزة بأجهزة تعمل عن بعد، كتلك الشائعة الاستخدام في الأساطيل البحرية الأوروبية، بحيث تسمح لهم بتفحّص لغم يُشتبه به من مسافة آمنة. عوضاً عن ذلك، كان ينبغي على الغطاس الأميركي أن ينزل بنفسه إلى البحر للتحقق عند وجود أي اشتباه بجسم ما، وهذا عمل خطر مميت[617]. من ناحية أخرى عمل مهندسو البحرية على تغليف هيكل سفن الأسطول الفولاذي بالخشب من الخارج للتقليل من انبعاث الإشارات المغنطيسية لحمايتها من التأثير الإلكترومغنطيسي للألغام. وعدا البارجة الأميركية «USS Constitution»، البالغة من العمر مئتي عام، كانت هذه السفن الخشبية هي الأخيرة في الأسطول الأميركي.

لكن صدق حدس ديماسي. ففكرة إرسال هذه السفن الهرمة إلى الخليج العربي أصبحت واردة بقوة بعد حادثة بريدجتون. في 25 تموز/يوليو، اتصل كرو بقائد أسطول المحيط الهادئ الأدميرال آيس ليونس وقال له: «إننا نبحث في إمكانية إرسال بعض كاسحات ألغام المحيطات». كان ليونس يتوقع هذا بالفعل فقال: «إننا نجهّزها الآن، لكن علينا أن نُخبر السعوديين والفرنسيين»، وعندما اتضح أن السعوديين غير قادرين والأوروبيين غير راغبين، انتشر الخبر بسرعة، ومفاده أن بعض كاسحات ألغام المحيطات توجّهت للحرب[618].

استقرّ قرار البحرية على إرسال ست كاسحات ألغام، على أن تأتي من الساحلين الشرقي والغربي[619]. كانت المشكلة الرئيسة هي كيفية إيصالها إلى الخليج الذي يبعد تسعة آلاف ميل. قرر كبار ضباط البحرية قطر هذه الكاسحات، فكان القرار أن يتم قطرها عبر استخدام سفينتين ضخمتين تعملان على سحب الكاسحات باستخدام الأسلاك المعدنية. أما الغرض من سحب هذه الكاسحات فكان التخفيف من الضغط على محركاتها والسماح باستخدام نصف قوة هذه المحركات فقط، والثبات على سرعة 30 عقدة المناسبة. بدءاً من الأسبوع الأول من شهر أيلول/سبتمبر بدأت سفينتا «الساحل الشرقي» و«الساحل الغربي» وخلفهما الكاسحات، كل منهما كبطة تسير خلفها فراخها الثلاث، رحلةً استغرقت ستة أسابيع حتى تلتقي في البحرين في نهاية المطاف[620].

ثمة قول مأثور يعود إلى القرن التاسع عشر يصف البحارة بالقول: «سفنٌ خشبية ورجال حديديون». الحقيقة أن هذه الرحلة التي تعبر مُحِيطين بسفن ضيقة طولها 170 قدماً استحضرت هذا القول إلى ذهن البحارة في القرن العشرين. كانت الكاسحات تؤمّن المياه العذبة للعاملين فيها على فترتين فقط في اليوم، وكانت مدة كل فترة 20 دقيقة، لذا كان البحّارة يقفون في طابور لأجل الاستحمام، فكان الرجل يقفز إلى إحدى الكبائن الثلاث، ليبلل نفسه بالماء، ثم يخرج مسرعاً ليرغي نفسه بالصابون، فيأتي الرجل التالي ليأخذ حصته من الماء والاستحمام. أما الأطعمة الطازجة على السفن فكانت نادرة وكانت الوجبة تتألف يومياً من اللحوم المعلبة أو فطائر الجبنة والصلصة الحمراء. كانت السفن تتمايل بطريقة غير معتادة في المحيط المرتفع الأمواج إلى درجة أن العديد من البحارة اعتادوا أن يحملوا «أكياس التقيؤ». كان كلا الأسطولين يشقّ طريقه بصعوبة. أثناء عبور الأطلسي مالت دفة قيادة السفينة «Illusive» إلى اليسار بقوة وعلقت بحبل شدّ السفينة «Fearless» فراحتا تنجرّان معاً إلى أبعدهما التيار عن بعضهما. واصطدمت كاسحتا ألغام في المحيط الهادئ أثناء عملية القطر، فتقرر إرسال إحداهما إلى خليج سوبيك لإصلاحها[621].

ظل بيرنسن متفائلاً بأن الصراع لن يتوسّع مداه مع أن كل موارد الترسانة الأميركية لإزالة الألغام في الطريق إلى الخليج، وكان يمنّي نفسه بأن إيران لن تزرع ألغاماً إضافية، وكان يعتقد أيضاً أن إيران حصرت حملتها لزرع الألغام في شمال الخليج أي على الطريق المتوجّه إلى الكويت فقط. كما كتب في إحدى رسائله في أوائل آب/أغسطس[622]: «في الواقع، لم تزرع إيران ألغاماً في وسط الخليج وجنوبه، ربما لأن الإيرانيين لا يريدون تعريض السفن التي لا تربطها علاقة بالكويت لأي تهديد».

لكن القيادة الإيرانية كانت تنظر إلى الوضع بصورة مختلفة تماماً. فقد كانت مغامرة الخميني مع «اليد الخفية» تنجح، وكان الحرس الثوري الجريء يطالب وقتئذٍ بزرع المزيد من الألغام ضد الشيطان الأكبر. وعلى عكس توقع بيرنسن، سيكون أي مكان فيه سفينة أميركية هدفاً مشروعاً. بينما كانت الولايات المتحدة تهرع لإرسال مروحيّات وسفن إلى الخليج، كان السفير الإيراني في طرابلس يجتمع بالقذافي، في 1 آب/أغسطس. لقد نجح تعاونهما في مجال الألغام البحرية نجاحاً كبيراً، وقبلت آنئذٍ الحكومة الإيرانية أيضاً عرضاً بمزيد من المساعدات العسكرية.

قال السفير الإيراني في طرابلس للزعيم الليبي: «ثمة احتمال قوي لمواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة بسبب نوايا الرئيس الأميركي وعزمنا الراسخ على الرد. لقد انتهت المرحلة الأولى من زرع الألغام في البحر، وكما رأيتم، لقد ارتطمت ناقلة النفط الأولى بلغم».

كان آيس ليونس، الذي كان يراقب من مركز قيادته في هونولولو، غاضباً. فقد تعمّدت إيران استهداف الولايات المتحدة وزرعت ألغاماً في المياه الدولية في خرق واضح للقانون الدولي، ومع ذلك لم تفعل واشنطن شيئاً رداً على هذا العدوان السافر. على الرغم من أن القيادة المركزية الأميركية وكريست كانا يقودان العملية، فقد ظل ليونس، بوصفه قائد أسطول المحيط الهادئ، الآمر على السفن جميعها خارج منطقة الخليج، بما في ذلك حاملة الطائرات، عندما لم تقم طائراتها بحماية

قوافل كريست. كان آس ليونس يعمل على خطته السرية الخاصة للتعامل مع الإيرانيين، ومع أن رئيسه رون هايز لم يكن يدعمه على الإطلاق، لكن نائب الرئيس كان يصغي إليه. كل ما كان مطلوباً هو فرصة سانحة.

الفصل الرابع عشر

فرصة سانحة

قال الكابتن كيفن هيلي لرئيسه الأدميرال جيمس «آيس» ليونس خلال استراحة قصيرة بين الاجتماعات: «الرئيس كرو يريدك أن تتصل به». لم يعتبر الضابط التنفيذي هذا الطلب من الأدميرال وليام كرو غريباً، فمنذ بدء أزمة بريدجتون أخذ كرو يتحدث يومياً مع صديقه القديم ليونس. كان الرئيس يفتش عن أفكار جديدة حول كيفية الرد على زرع إيران للألغام.

كان ليونس مساعداً مفيداً لكرو، فقد عمل منذ السبعينيات مع كرو الذي استغله بحثاً عن أفكار لمحاربة السوفيت وعن سبل لإنجاز المهام التي غالباً ما كانت تتم خارج القنوات الاعتيادية. قال كرو عنه بعد مرور سنوات: «كان آيس ليونس ذا عقلٍ مبدع، وكان يحب الحلول الإبداعية الخلّاقة وغير التقليدية»[623]. يعتبر كرو ليونس رجلاً قادراً على إنجاز الأمور بشكل عسكري لا يمكن لعقل كرو السياسي أن يفعله، كما أنه يمنح الرئيس فرصةً للإنكار إن ساءت الأمور.

حالما ذهب هيلي إلى مكتبه رفع ليونس سماعة الهاتف. سأل كرو: «هل من أفكار؟ يمكنك أن تتصل بي مباشرةً إن احتجت أن تطلعني على أيّ معلومات؟»

لدى ليونس اقتراحات دوماً. «ستسنح الفرصة في وقت لاحق من هذا الشهر». ثمة حاملتان ستتحركان خارج مياه الخليج، وسوف تصل السفينة الحربية «ميسوري» إلى الشرق الأوسط. «قد نكون في وضع يسمح لنا بممارسة ضغط كبير على الإيرانيين». وتابع ليونس قائلاً: «فلنحافظ على السرية الشديدة».

كانت فكرة هزيمة الإيرانيين تروق لكرو، فقد دافع في الجلسات المغلقة عن فكرة استيلاء قوات العمليات الخاصة على جزيرة «فارسي»، لكن نائب مستشار الأمن القومي كولن باول لم يدعم مثل هذه الخطوة العدوانية. بيد أن هذه الخطوة هي نموذج عن أفكار ليونس التي يحبها كرو. أجاب كرو: «حسناً، أعطها اسماً رمزياً، أياً كان، وابدأ».

بعدما سأله عن أفكاره حول ضرب إيران، أمر كرو ليونس: «ابعث برسالة إلي».

كانت لدى آيس ليونس بالفعل خطة حربية بشأن إيران، أطلق عليها اسم «فرصة سانحة». فقد وضع ليونس في أوائل العام 1986 خطةً سرية للغاية خارج القنوات العسكرية العادية، حيث صمّم ببراعة، دون معرفة الجنرال كريست في القيادة المركزية الأميركية، خطةً تقوم على سلاح البحرية فقط، وتستمر يومين فقط، وتقضي بتنفيذ هجمات عقابية على مواقع عسكرية إيرانية على طول الساحل الإيراني بدءاً من «شاه بهار» خارج منطقة الخليج وصولاً إلى بوشهر. وبما أنه مقتنع بأن إيران لا تستطيع الوقوف في وجه هجوم أميركي وأنّ القوة العسكرية ستُسقط النظام، فقد خطّط ليونس لقصف عشرات الوحدات العسكرية الإيرانية، بما في ذلك المقرات الرئيسة والمطارات والموانئ ومواقع الصواريخ... وستوجَّه هذه الضربات من حاملتي طائرات وسفينة الحرب العالمية الثانية «يو إس إس ميسوري» التي ستُطلق وابلاً من القذائف الثقيلة. بيد أن خطة ليونس لن تتوقف عند تدمير القوة العسكرية الإيرانية، ففي اليوم التالي من خطته العظيمة سيتم استهداف الاقتصاد الإيراني من خلال تدمير المخزون النفطي في جزيرة «خرج» ومصفاة الوقود الإيرانية الوحيدة والمرافئ الرئيسة. كما ستقوم الطائرات الأميركية بتدمير الأرصفة الإيرانية، وسيؤدّي زرع الألغام إلى إغلاق الموانئ الإيرانية الكبيرة في بوشهر وبندر عباس. قال ليونس: «إن زرع الألغام في بندر عباس وبوشهر وتدمير منشآت الميناء سيحول دون حصول إيران على المنتجات النفطية المكرّرة والعتاد الحربي الضروري». كان الأدميرال ينوي أيضاً تحويل المفاعلين المنجزين جزئياً، اللذين يولّدان الطاقة من الماء، في بوشهر إلى ركامٍ من الإسمنت والحديد[624].

كان ليونس يقلب هذه الفكرة في رأسه منذ أشهر لكنه لم يعرضها على وزير الدفاع إلا قبل شهر من انطلاق القافلة الأولى في حزيران/يونيو من العام 1987. ففي 18 حزيران/يونيو توقّف كاسبار واينبرغر وريتشارد أرميتاج في هونولولو في طريق عودتهما من آسيا، فوجدها ليونس فرصةً لعرض خطته لإسقاط نظام الخميني في عهد إدارة الرئيس ريغان. عند الساعة الثالثة بعد الظهر قام واينبرغر بزيارة ليونس في مكتبه. جلس الرجلان إلى طاولة فيما جلس أرميتاج والضابط التنفيذي كيفين هيلي في الخلف. سحب الأدميرال الجريء خطته بشأن إيران، وانحنى إلى الأمام في مقعده.

بدأ كلامه قائلاً: «سيدي الوزير، لدينا فرصة». في 26 آب/أغسطس سوف تدعم حاملة الطائرات «رينجر» (Ranger) الحاملة «Constellation» المتمركزة في خليج عُمان، ما يمنحنا فرصة قصيرة في ظل وجود مجموعتين قتاليتين. كما قررت هيئة الأركان المشتركة إرسال السفينة الحربية «ميسوري» وخمس سفن حربية إضافية إلى الخليج في الوقت نفسه تقريباً. ثم سحب ليونس خطته «الفرصة السانحة»، المؤلفة من أربع عشرة صفحة، وتابع: «لم يسبق أبداً أن توفّر هذا القدر من القوة التدميرية بالقرب من الخليج العربي»، وأضاف: «بوسعنا أن نقطع واردات الإيرانيين وصادراتهم بمعدل 70٪. الهدف من هذه الضربات هو تسهيل حرية الملاحة وممارسة الضغط على إيران للدخول في مفاوضات جادة لإنهاء الحرب العراقية الإيرانية».

استمع واينبرغر بتهذيب لكنه لم يسجّل أيّ ملاحظات. لم يكن واينبرغر ينوي قصف إيران دون أي استفزاز مسبق من قِبلها أو توريط الولايات المتحدة في حرب واستعداء العديد من الحلفاء في الخليج. كان واينبرغر يعتبر ليونس ناشطاً، وهذا الأداء يتماشى مع شخصيته التي دفعته للاستفادة من زيارته ليُنفّذ جدول أعماله. حاول وزير الدفاع عدة مرات أن يقف ليغادر المكان، لكن ليونس كان يلوّح باستمرار بيديه ليبقيه جالساً. بعد ساعة غادر واينبرغر دون أن يعلّق. أما أرميتاج فاكتفى بهزّ رأسه وقال: «ما قاله آيس مجرد هراء، فوزير الدفاع لا ينوي أن يُشعل حرباً مع إيران»[625].

كان ليونس يعرض خطته بحماسة على أيّ مسؤول كبير يصل إلى هاواي، وعندما جاء وزير البحرية جيمس ويب لقي ليونس منه رداً أكثر إيجابية. لم يكن ليونس يكنّ الكثير من الاحترام للوزير الثلاثيني، لكنه عرض عليه أن يطلعه على أفكاره ووجهات نظره الأخرى. أعطاه ويب الضوء الأخضر قائلاً: «إذا احتجت إلى التحدث إليّ في أي وقت فاتّصل بي مباشرةً». فسّر ليونس هذه الرسالة كإشارة واضحة إلى أن لا داعي للقلق بشأن التراتبية العسكرية[626].

هذا لا يعني أن آيس ليونس كان يأبه كثيراً لشكليات الحصول على إذن من رئيسه، فقد كانت علاقته برئيسه في قيادة المحيط الهادئ، الأدميرال رونالد هايز، متوترة. كما أن خطط ليونس التي تهدف إلى تخويف السوفيت كانت تثير قلق قائد العمليات البحرية الأدميرال كارل تروست، لاسيما بعض الغارات الجوية الوهمية والاستفزازية على القوات السوفيتية في بيتروبافلوفسك، فقد كان يخشى أن يسعى ليونس إلى إشعال حرب مع السوفيت. قال تروست: «لا يأخذ آيس التراتبية العسكرية بعين الاعتبار إلا إن كانت تناسب مصالحه. كان يضع السياسة الأميركية ويعدّ الوسائل اللازمة لتنفيذها دون أي توجيه من رؤسائه. أعتقد أن أمثاله من الرجال يشكّلون خطراً»[627].

الآن، حين أخذ كرو يلتمس أفكاراً، وجّه ليونس رسالةً إليه. في 11 آب/أغسطس أرسل ليونس إلى كرو وثيقة من ست صفحات مطبوعة على أوراق خاصة به تحمل علامة الأربع نجوم، عرض فيها العديد من الاقتراحات حول كيفية إدارة عملية الخليج العربي، قائلاً: «لقد توصّلت إلى أن السفن والطائرات مهما بلغ عددها لن تردع إيران طالما أن قادتها يعتقدون أننا لن نردَّ على الهجمات الانفرادية».

ودعا إلى استخدام خطته التي أسماها «الفرصة السانحة». ولكن ليونس عاد فحدّث خطته وأضاف إليها فكرة استخدام مدافع عيار 16 إنش الموجودة على متن السفينة الحربية «ميسوري» لتدمير مواقع صواريخ «سيلكوورم» التي تطوّق مضيق هرمز، فيما ينزل المشاة من الوحدة البحرية الثالثة عشرة على الشواطئ لاحتلال جزيرة أبو موسى الصغيرة ذات الموقع الاستراتيجي. كتب ليونس في الفقرة الافتتاحية من الخطة مشدّداً على الرئيس كرو: «يجب أن يكون ردنا قوياً وحاسماً. فالتدابير الجزئية والتدريجية لن تنفع إذا أردنا لفت انتباههم»[628]، واقترح يوم 29 آب/

أغسطس كأفضل توقيت للضربة، أي عندما تكون السفينة الحربية والحاملتان والقوة البرمائية البحرية قريبةً من الخليج. وكتب: «لن نحصل على فرصة مماثلة إلا بعد وقتٍ طويل»[629].

وبما أن ليونس لا يثق بأمان قنوات الاتصال العادية فقد أرسل محاميه، الكابتن موريس سينور، ليسلّم الرسالة والنسخة الأخيرة من خطته (الفرصة السانحة) إلى مكتب كرو في البنتاغون. وعلى الرغم من ازدراء ليونس العام للمحاميين العاملين في البحرية إلا أنه كان يثق بسينور الذي كان يبادله الاحترام. وقد قال هذا المحامي عن رئيسه: «قد يكون الأدميرال ليونس وقحاً وفجاً ومتغطرساً، لكنه أذكى ضابط بحرية التقيته»[630]. نفّذ سينور بإخلاص ما طُلب إليه، فترك رزمة الأوراق السرية مع الضابط التنفيذي في مكتب كرو وزميله في البحرية النقيب جوزيف ستراسر.

في اليوم التالي اتصل كرو بليونس بعد أن قرأ رسالته وقال: «ما تطلبه من حكومة الولايات المتحدة والرئيس كثير».

مع انعقاد جلسات الاستماع في الكونغرس بشأن «إيران-كونترا»، ومع تعرّض إدارة ريغان لحملة قاسية كل ليلة على نشرات الأخبار المسائية، قال ليونس: «بيل، هذه الخطة ستُنقذ الرئيس»[631]. احتفظ القائد كرو بالرسالة وبخطة ليونس في ملفّاته، ولم يُطلع عليها كريست أو تروست.

على أي حال، اتفق كرو وليونس معاً على أن تناور السفينة الحربية الضخمة «يو إس إس غوادالكانال» (Guadalcanal USS) لتتجاوز صواريخ «سيلكوورم» (سيلكوورم) الإيرانية المنتشرة في مضيق هرمز لتصل إلى الخليج حيث سيتم استخدامها لدعم مروحيات إزالة الألغام.

سأل كرو: «هل لديك أيّ فكرة حول كيفية عبورها؟» ثم أضاف: «لا نريد أي رسائل».

أجاب ليونس المتحمّس: «أنا سأهتم بالتفاصيل، وستكون الشخص الوحيد المطّلع على الأمر. لا نستطيع إخبار أحد خشية أن يتسرّب الخبر».

قال كرو: «حسناً». ووضع ليونس في اليوم نفسه خطةً لتمويه سفينة تزن تسعة عشر ألف طن لتصبح كسفينة نقل عبر إضافة أشرعة وصوارٍ مضيئة للإيحاء بأنها سفينة تجارية لا سفينة حربية تحمل مشاة بحرية ومروحيات لسلاح البحرية.

قلق ليونس من التسريبات الصحفية واعتقد أن العديد منها يأتي من داخل البنتاغون، لذا ابتكر حيلةً أخرى لخداع الجيش الأميركي، حيث أرسل رسالةً كاذبة مفادها أنّ «غوادلكانال» (Guadalcanal) تعاني أعطالاً كهربائية وأنها سوف تتأخر أربعة أيام قبل أن تتوجّه إلى الخليج العربي. أطلق ليونس على الخطة اسم «عملية سليبر». لم يكن أحد يعلم أن الرسالة كاذبة إلا كرو وقائد الأسطول السابع العميد البحري بول ديفيد ميلر. وبعد يومين أطلع ليونس كرو على المستجدات بشأن «عملية سليبر» قائلاً لمساعد كرو، العميد البحري جوناثان هاو، الذي بدا حيادياً:

«سوف تعبر السفينة المضيقين في ليلة الرابع عشر، ولكنها ستبدو كسفينة شحن عادية»، وأضاف: «احتفظ بهذه المعلومات لنفسك ولرئيسك، ولا تدع أي شخص آخر يعلم بالأمر، فنحن لا نحتاج إلى إثارة التساؤلات»[632].

خدعت «عملية سليبر» الجنرالات والأدميرالات الأميركيين، وأبحرت «غوادالكانال» (Guadalcanal) دون إجراء أيّ اتصالٍ لاسلكي، وقد أنارت أضواءها التي جعلتها تبدو سفينة شحن كبيرة. وكانت هيئة الأركان المشتركة ونائب عمليات كرو يخبرون القيادة المركزية بأن أعطالاً كهربائية قد أخّرت رحيل «غوادالكانال»، وظل الضابطان المسؤولان عن منطقة الشرق الأوسط والمحيط الهندي غافلَين أيضاً عمّا يجري. كان كريست ونظيره في قيادة المحيط الهادئ رون هايز، العاملان على خطتهما الخاصة لحماية «غوادالكانال»، غافلَين عن مكائد كرو وليونس. غير أن الشك ساور كريست عندما علم أن السفينة «غوادالكانال» قد غادرت دييغو غارسيا، وسأل كرو عن الأمر. في الليلة التي سبقت عبور «غوادالكانال» مضيق هرمز طلب كرو من مساعده أن يتصل بليونس ليطلع قائد القيادة المركزية على الخدعة التي سيقومون بها.

أجاب ليونس: «حسناً، يمكنه أن يخبر كريست فقط، فلا أحد في القوات البحرية يعلم بالأمر واحرص على أن يفهم الرئيس ذلك».

أجاب هاو: «حسناً - إنه يعلم».

عبرت «Guadalcanal» مضيق هرمز ليلة 14 آب/أغسطس دون وقوع حوادث. أشارت البحرية الإيرانية إلى السفينة المجهولة الهوية كي تتوقف تماماً، مثلما يفعل الإيرانيون عادةً، لكن ربان سفينة «Guadalcanal» رفض الامتثال، ولم يبدِ الجيش الإيراني الكثير من الاهتمام بسفينة حاويات غريبة. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أي دليل يشير إلى نية إيران مهاجمة هذه السفينة إلا أن ليونس بقي مسروراً بإنجازه وقال: «لقد تجاوزناهم وتسللنا بسهولة!»

انعكست تداعيات الخدعة العسكرية على أعلى مستوى في البنتاغون، واعتبرها كريست تجاوزاً سافراً من قبل ليونس لقيادته، فما فعله استهداف لدور القائد. وحينما علم رون هايز بوصول «Guadalcanal» غير المتوقع إلى البحرين غضب هذا الأدميرال، الهادئ عادةً، واستدعى ليونس على الفور.

قال ليونس لهايز باستخفاف: «لا تتحدث إليّ. كرو هو من أعطى الأوامر».

لم يصدّق هايز أن كرو كان على علم بالأمر وأنه خدعه، لذا سارع إلى الاتصال به واشتكى تجاوز ليونس إياه. تعاطف كرو معه ولكنه لم يخبره بأنه من أعطى التوجيهات لآيس».

بسبب تورط أميركا بتصرفات صبيانية، زادت طهران من حدة تحذيراتها القاسية. وقال الرئيس الإيراني علي خامنئي: «من الأفضل لهم أن يغادروا المنطقة وإلا ضربناهم بشدة، ولسوف

يندمون على ما أفعالهم». أخذت الولايات المتحدة الخطاب على محمل الجد[633]، وحذّرت وكالة الاستخبارات المركزية من أن إيران ستنفّذ على الأرجح المزيد من الهجمات بالألغام لوقف عملية القافلة الكويتية.

ضغط الشيخ عبد الفتاح البدر، رئيس مجلس إدارة شركة ناقلات النفط الكويتية، على بيرنسن للموافقة على أن تُبحر سفينة «غاز برينس» (Gas Prince) التي تمّ تغيير العلم الذي ترفعه، مع حمولتها من الغاز بسبب العقود الملزمة التي وقّعتها الشركة. ولكن بيرنسن حذّر من هذه الخطوة، إذ كان لدى الاستخبارات الأميركية دليل قاطع على وجود جاسوس لإيران داخل شركة البدر، وهو الأمر الذي لم يطلع الشيخ البدر عليه. زوّد هذا الجاسوس الحرس الثوري بمعلومات عن القافلة «بريدجتون»، وسوف يكرّر الأمر مرةً أخرى، وهذا يعني أن عبور قافلة أخرى سيشكّل مخاطرةً كبيرة جداً قبل امتلاك بعض القدرة على إزالة الألغام.

لكن بيرنسن امتثل مكرهاً لطلب البدر فخرجت القافلة من الكويت في اليوم نفسه الذي أطلق فيه خامنئي تهديداته. رافقت سفينتان حربيتان أميركيتان سفينة «غاز برينس» جنوباً، وظلت السفن على مقربة من الساحل السعودي بعد مرورها بجزيرة «فارسي»، فيما تقدّمها الجيش السعودي كاسحاً الألغام ومقدّماً مساندة جوية من طائرتين مقاتلتين من طراز F-15. ولخداع الإيرانيين قدّم ضابط ارتباط البحرية في الكويت لشركة ناقلات النفط الكويتية مساراً مزيّفاً، ولم يبلغ قائد القافلة ربّان سفينة «غاز برينس» بالمسار الحقيقي إلا بعد أن أبحرت القافلة من الكويت. وقد أبحرت عبر منطقة الحظر الإيراني لتجنّب الألغام الإيرانية، ولكنها أبلغت العراق بمرورها تجنّباً لأي هجوم آخر شبيه بالهجوم على «ستارك».

كانت الولايات المتحدة ترى التهديدات في كل مكان. فقد اقتربت طائرة إيرانية ذات أربعة محركات من طراز P-3 إلى مسافة 25 ميلاً تقريباً من السفينة الأميركية «كلاكرينغ» (USS Klakring)، المتموضعة في الخليج، فرصدتها الرادارات ما جعلها تغيّر وجهتها إلى الاتجاه المعاكس[634]. كما تعقّبت سفينة حربية إيرانية الأميركيين، وعندما تحسنت الأحوال الجوية ظهرت القوارب الإيرانية الصغيرة في الأفق واقتربت بحيث أصبحت على بعد بضعة أميال من القافلة، وهي مسافة كافية للقيام بهجمات انتحارية أو مباغتة، وبدأت ثماني سفن حربية إيرانية بالتقدم - وهي الجزء الأكبر من الأسطول الإيراني.

بَدتْ المخاوف الأميركية مبرَّرة عندما اكتشفت السفينة «يو إس إس كيد» (USS Kidd) راداراً يحدد الأهداف لصواريخ «سيلكوورم»، ربما تمهيداً لإطلاق أحد هذه الصواريخ التي تزن ألف باوند. ولكن طائرة إلكترونية أميركية من على متن حاملة الطائرات «Constellation» شوّشت على الفور على الرادار الإيراني، واشتغلت الهواتف بين واشنطن وتامبا وقوة الشرق الأوسط للتحذير من احتمال حدوث هجوم إيراني. أمر قائد مجموعة التدخّل على متن حاملة الطائرات، وهو شخص متغطرس وعدواني ومقاتل مخضرم شديد الذكاء وحائز على أوسمة

ويدعى لايل بول، بإقلاع طائرة إضافية كي تكون على استعداد لقصف مواقع الصواريخ الإيرانية. مرّت لحظات مشحونة بالتوتر، لكن إيران لم تطلق أي صاروخ، وتوقفت ذبذبات الرادار، وأكملت القافلة الأميركية طريقها بأمان دون وقوع حوادث في المياه المفتوحة في المحيط الهندي.

اعتبر ليونس والأدميرال بول، قائد مجموعة التدخّل، أن التصرفات الإيرانية تعكس نيتها العدائية، وهذا يعني أن على الولايات المتحدة أن تردّ بقوة إذا حاول الإيرانيون ذلك مرةً أخرى. ولكن بيرنسن لم يعتبر هذه التصرفات تهديداً، وأنها أقرب إلى محاولة تمريغ أنف الأميركيين[635].

في 4 آب/أغسطس، بدأ الحرس الثوري الإيراني مناورات استمرت أسبوعاً في مضيق هرمز تحت اسم «الشهادة»، وأخذ راديو طهران يحذّر مراراً وتكراراً السفن والطائرات من «الاقتراب من منطقة المناورات»، مضيفاً «أن الجمهورية الإسلامية في ايران ليست مسؤولة عن الخطر الذي تتعرض له السفن والطائرات في حال اقترابها من منطقة المناورات التي يتم فيها استخدام الصواريخ والقذائف».

أما ما أثار القلق أكثر فهو التحريض الإيراني على اندلاع انتفاضة خلال أداء مناسك الحج حيث أمر آية الله الخميني الحرس الثوري ببدء انتفاضة في مكة المكرمة خلال موسم الحج في تموز/يوليو من العام 1987، وذلك عقاباً للمملكة العربية السعودية على دعمها للولايات المتحدة والعراق، فبدأ مئات العناصر من الحرس بالسفر بهدوء إلى المملكة العربية السعودية على هيئة حجاج، حاملين معهم على متن الطائرات الإيرانية بنادق وسكاكين. كانت الخطة تدعو إلى مظاهرة ضخمة ضد المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة لإحراج الملك وخلق الاضطراب داخل مملكته[636].

كان رضا خليلي لا يزال جزءاً من جواسيس وليام كيسي في محطة للـ«سي. آي. إيه.» (CIA) في فرانكفورت. في أحد الأيام جاء إليه أحد أصدقائه فرحاً لأنه تم اختياره للمشاركة في عملية بهذه الأهمية، وقد قال هذا الصديق لخليلي: «لقد تمّ ترتيب الأمور والعاهل السعودي سيسقط»، ثم أضاف: «هؤلاء العرب هم عبيد لأميركا، وسوف يدفعون الثمن هذه المرة». بعد هذا الخبر كتب خليلي رسالةً سرية إلى وكالة الاستخبارات الأميركية قال فيها:«تم إرسال الآلاف من عناصر الحرس كحجاج على متن الخطوط الجوية الإيرانية. تهدف الخطة إلى تحريض المسلمين للمشاركة في مظاهرة تندد بالسياسات الأميركية والإسرائيلية. إنهم يعتزمون تصعيد المظاهرة بحيث تتحول إلى انتفاضة ضد المملكة العربية السعودية»[637].

كشفت وكالة الاستخبارات المركزية هذه المعلومات للسلطات السعودية، التي منعت دخول معظم الحرس وأسلحتهم، وعندما اندلعت الانتفاضة المدبّرة في 1 آب/أغسطس كانت قوات الأمن السعودية مستعدة وجاهزة، وعندما رفع أول إيراني السلاح فتح السعوديون النار من أسلحة رشاشة، فلقي 275 إيرانياً من الحرس الثوري والحجاج الأبرياء مصرعهم. بعد ظهر ذلك اليوم اتصل

الأمير بندر بكرو قائلاً: «يلقبوننا بالمخنثين مع أننا أسقطنا طائرتهم [طائرة F-4 أسقطت في العام 1984] وقتلنا الآن حوالي ثلاثمئة إيراني!» وأضاف: «المشكلة الإيرانية سوف تسوء أكثر»[638].

تبادل كرو وكريست الحديث بعد ظهر يوم 7 آب/أغسطس، فقد أثار العديد من التقارير الاستخباراتية القلق حول النوايا الإيرانية، وأصدر مكتب الاستخبارات البحرية تقريراً حذّر فيه من تهديد خطير، يتوقع حدوثه في مدة أقصاها من سبعة إلى عشرة أيام، حيث ستقوم إيران «بأعمال عدائية ضد مصالح الولايات المتحدة في الخليج العربي»[639]. شدّد كرو لكريست على أن القلق يتزايد في واشنطن من بدء حرب أو تكرار حادث سفينة «ستارك»، وقال إنها بهلوانية سياسية قد تطيح قادة السفن فرداً فرداً لتمتد أكثر»[640].

تبيّن أن ما قاله من الأمير بندر وما جاء في التقارير صحيح، فسرعان ما ظهر هدف إيران الحقيقي من وراء مناورة «الشهادة». وسط كل الدعاية التي أحاطت مناورتها التهديدية، أبحرت السفينة الإيرانية «شاراك» (Charak) المستخدمة عادةً في عمليات الإمداد، من ميناء بندر عباس، وانفصلت عن المناورة وتوجهت إلى ميناء خورفكان، المرفأ الرئيس الذي يدعم كل سفن الشحن التي تدخل الخليج والموقع المعتمد لتجمّع قافلة «بريدجتون». وفي 8 أو 9 آب/أغسطس زرعت السفينة «شاراك» سلسلة مكونة من ستة عشر لغماً ضخماً من عيار M-08 في منتصف مرسى الناقلات ثم عادت مسرعةً إلى إيران.

لم تتمكن إيران هذه المرة من أن تفاجئ بيرنسن أو حتى الاستخبارات الأميركية، فبينما كان بيرنسن يستعد لاستئناف الرحلة جاءه ضابط استخباراته القائد زيغلر «بتسجيل» من وكالة الأمن القومي، وهو عبارة عن مقتطفات من محادثة تبادلها الحرس الثوري تم الإشارة فيها إلى أن عمليات زرع الألغام المقبلة ستكون في «مكان تجتمع فيه الأشياء». وأضاف زيغلر أن هذا المكان المشار إليه غير معروف ما سبّب ذعراً كبيراً داخل مجتمع الاستخبارات، واعتقدت وكالة استخبارات الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية أن الإيرانيين يهدفون إلى زرع الألغام في مرفأ الكويت. جلس بيرنسن وراح يحدق في الخارطة مع زيغلر ومع رئيس عملياته ديفيد غريف. لقد ركّز الجميع على احتمال أن يكون الهدف داخل الخليج باستثناء بيرنسن الذي وصل إلى استنتاج مختلف مفاده أن المكان قد يعني ميناء خورفكان[641].

اتصل بيرنسن على الفور بكريست وقال له: «أعتقد أن خورفكان هو هدفهم، أريد تأخير القافلة المقبلة مدة أربعٍ وعشرين ساعة، وأن أعيد تجميعها إلى جنوب مكان التجميع السابق»[642].

ظل كريست متشككاً، فقسم الاستخبارات J-2 التابع له يوافق وكالة استخبارات الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية الرأي، إلا أنّ قائد القيادة المركزية الأميركية لم يفرض رأيه على بيرنسن وقال له: «هال، إذا كنت تعتقد أن من الأفضل تعديل الجدول الزمني للقافلة فافعل»[643].

في 10 آب/أغسطس تبيّن أن بيرنسن كان على حق، فالناقلة «تكساكو كاريبيان» (Texaco Caribbean) رست في خورفكان طوال الليل قبل أن تتجه إلى أمستردام وعلى متنها شحنة من النفط الخام الإيراني، وفجأةً هزّ انفجار قوي الناقلة نتيجة ارتطامها بلغم أحدث فيها شقاً بطول أربعة أمتار ما أدّى إلى تدفق نحو 2.5 مليون برميل من النفط الخام[644]. لم تغب هذه المفارقة عن الأميركيين: كانت ضحية ألغام إيران سفينة تحمل نفطها. ولكن السخرية توقّفت بعد خمسة أيام حين تحولت الألغام إلى أداة قتل، فقد انفجر لغم آخر بسفينة إمداد إماراتية صغيرة اسمها «آنيتا» (Anita) تقوم بجولتها لخدمة السفن الراسية، حيث مزّق اللغم الضخم السفينة «آنتيتا» وحوّلها إلى شظايا، مما أسفر عن مقتل ستة رجال على الفور، بما في ذلك ربان السفينة البريطاني الجنسية[645].

ارتدّت حادثة الألغام تلك قبالة منطقة الفجيرة الإماراتية عكسياً على إيران، فبدل أن يخاف الغرب تحمّست أوروبا لتقديم الدعم في إزالة الألغام من المياه الدولية، وبعد مرور أقل من أسبوعين من رفض طلب أميركي لإرسال كاسحات الألغام، وافقت بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا على إرسال سفن لإزالة الألغام إلى الخليج العربي. أرسلت المملكة المتحدة أربع كاسحات ألغام إضافة إلى سفينة دعم، وبدأت بتولي عمليات مواكبة السفن المسجلة في بريطانيا. وأرسلت بلجيكا وهولندا قوة مشتركة شملت سفينة دعم وكاسحتي ألغام يقودها عميد بحري سابق عمل من قبل على إزالة الألغام الليبية من البحر الأحمر. في الشهر التالي، انضمّت إيطاليا إلى جهود الولايات المتحدة فأرسلت ثلاث بوارج وثلاث كاسحات ألغام للمساعدة في إبقاء الخليج مفتوحاً. وذهبت فرنسا إلى أبعد من ذلك، إذ أرسلت ثلاث كاسحات ألغام وإحدى حاملتي طائراتها، كليمنصو، إلى الخليج العربي[646].

مع أن مكافحة الألغام أصبحت مهمة تقوم بها دول عدة معاً إلا أنها لم تترجم إلى تحالف دولي ضد إيران. ورغم أن التعاون العسكري ـ العسكري المباشر وتبادل المعلومات الاستخباراتية حول إيران ظلّ وثيقاً، إلا أن الحكومات حرصت على ألا تتحالف علناً مع الولايات المتحدة. لم تكن هناك قيادة مشتركة، وكان التنسيق لإزالة الألغام يجري بين ضباط البحرية في اجتماع أسبوعي في الخليج. ورغم قيام وزارة الدفاع والخارجية بمساعٍ لإيجاد مقاربة موحدة لمواجهة الألغام الإيرانية، إلا أن مصالح الدول الأخرى الاقتصادية في المنطقة لم تكن متطابقة دائماً مع مصالح واشنطن. في تشرين الأول/أكتوبر كان الفرنسيون والبريطانيون أول الواصلين فأزالوا بسرعة أربعة عشر لغماً قبالة الفجيرة، ووجدوا لغمين في المراسي... كان هذا كل ما تبقى من الألغام التي ضربت السفينتين «آنيتا» و«تكساكو كاريبيان»[647].

كما أن حاملة الطائرات الفرنسية قدمت يد العون للأميركيين، فبعد زراعة الألغام في خورفكان أخبر وزير الدفاع الفرنسي واينبرغر سراً إن بلاده ستنظر في مسألة شنّ غارة جوية مشتركة على إيران إن هي استمرت في زرع الألغام. أرادت باريس أن تصفّي حسابها مع إيران بعد التفجيرات التي حصلت في بيروت قبل أربع سنوات. عندما توقفت حاملة الطائرات كليمنصو

في جيبوتي، أرسل كريست بيرنسن لإجراء محادثات مع الأدميرال الفرنسي. اتفقت الدولتان على إجراء تدريبات مشتركة بين حاملتي الطائرات، وأطلع الأميركيون الفرنسيين على بعض خططهم الحربية التي رسموها ضد إيران، وأصبح القائد زيغلر مقتنعاً بأن فرنسا ستقف مع قوة الشرق الأوسط في حال نشوب حرب[648].

أصبح رفسنجاني الوجه الإعلامي لردّ إيران على زرع الألغام في الفجيرة، وقد ألقى باللوم على الولايات المتحدة لدعمها للعراق وتسبّبها بالأزمة. «لقد أعلنت إيران مراراً وتكراراً أن عملياتها في الخليج العربي هي بدافع الانتقام. لو مُنع المسؤولون عن خلق حالة عدم الاستقرار من القيام بذلك لانحلّت المشاكل كلها»[649]. وفي خطبة الجمعة التي ألقاها رفسنجاني في الحادي والعشرين من آب في جامعة طهران عرض مساعدة إيران في الجهود الدولية الهادفة إلى إزالة الألغام لكنه في الوقت ذاته صب اللوم على الولايات المتحدة لأنها السبب الذي أدّى إلى زرع الألغام، قائلاً: «إنّ الوضع في الولايات المتحدة يدفع الأميركيين إلى خوض المغامرات في المقلب الآخر من العالم»، وأشار إلى أن الإدارة الأميركية تحتاج إلى استعادة شعبيتها في أعقاب فضيحة بيع الأسلحة للإيرانيين، التي سمّاها رفسنجاني «عار ماكفرلين». ولم يأتِ رفسنجاني على ذكر تورّطه الكبير في هذه الفضيحة التي قال إنها كشفت عن «فساد أخلاق» أميركا.

في الوقت الذي ألقى فيه رفسنجاني باللوم على العراق أو الولايات المتحدة بشأن الألغام، تفاخر قائلاً: «إذا كنا ننوي زرع الألغام، حسناً، يا الله، فهذه قصة مختلفة تماماً... هذا ضمن حدود مواردنا. بوسعكم إرسال سبعٍ وعشرين أو ثمانٍ وعشرين سفينة إلى الخليج. ستكون أي سفينة من هذه السفن هدفاً لنا. كانت هناك أربعة أهداف، والآن هناك سبعة وعشرون هدفاً»[650].

رداً على زرع الألغام أرسلت الولايات المتحدة رسالة احتجاج إلى إيران عبر السفارة السويسرية، لكنها طمأنت الإيرانيين إلى الحياد الأميركي مع التأكيد على حرية الملاحة والحق في حماية السفن التي ترفع علم الولايات المتحدة. دعت الولايات المتحدة إيران إلى قبول وقف إطلاق النار مع العراق والامتناع عن زرع ألغام إضافية إذ «ستعتبر الولايات المتحدة ذلك تصعيداً خطيراً للغاية ويشكّل تهديداً عسكرياً مباشراً». لم تردّ إيران على رسالة الولايات المتحدة واعتبرتها مزيداً من اللغو الفارغ[651]، وزرع الإيرانيون ثلاث سلاسل من الألغام تستهدف بشكل مباشر الولايات المتحدة، وردّت القوة العظمى بتحذير فاتر.

ردّت إيران على تلك الخطوة بزرع المزيد من الألغام، وأسقطت سفينة أخرى تابعة للحرس الثوري تعمل من جزيرة «فارسي» سلسلة من ألغام «ميام» الصغيرة على بُعد اثني عشر ميلاً جنوب نطاق «بريدجتون» حيث تحوّل القافلة طريقها للالتفاف حول منطقة الحظر الإيراني. لقد أدارت السفينة الإيرانية مؤخرتها لجزيرة سعودية صغيرة اسمها «كاران» وتوجهت عائدةً ببساطة إلى جزيرة «فارسي» مسقطةً لغماً كل ثلاثمئة ياردة. لم يكن الهدف من هذه الألغام القافلة

بل كاسحات الألغام الأميركية التي تتحرك في هذا الامتداد وهي في طريقها شمالاً للقيام بمسح ميداني في طريق «بريدجتون»، وقد زرع الإيرانيون الألغام على عمق ليس بكبير[652].

عندما أصبحت السفينتان «Hunter» و «Striker» على أهبة الاستعداد سيّرت الولايات المتحدة الأميركية قافلتها الكبرى الأولى منذ حادثة «بريدجتون»، وكان ذلك في 8 آب/أغسطس، متجنّبةً خورفكان وألغامها. في هذه الأثناء ساد توترٌ شديد في واشنطن حيث كان كرو يتصل بكريست هاتفياً كل ساعة ليحصل على أحدث المستجدات، فيما أمضى قائد القيادة المركزية الأميركية معظم وقته في هذه الأيام الثلاثة في مركز قيادته الخاص به يرصد تقدّم القافلة، وكان نادراً ما ينام على سرير في مكتبه. عندما دخلت القافلة مضيق هرمز وأصبحت في مرمى صواريخ «سيلكوورم» (أو «سيلكوورم»)، دخل كرو إلى متاهة مركز القيادة العسكرية القومية واحتل مقعداً في قاعة الاجتماعات الصغيرة، حيث يجلس عميد بحري أربعاً وعشرين ساعة في اليوم كضابط مراقب قبالة منطقة واسعة مفتوحة، وحيث يتعقّب الضباط الميدانيون الأحداث في جميع أنحاء العالم. كان كرو يراقب حركة السفن، مستعداً للاتصال فوراً إما بواينبرغر أو كارلوتشي الموجودين في غرفة العمليات في البيت الأبيض في حال قرر الإيرانيون مهاجمة القافلة[653].

كانت طائرة استطلاع سوداء (SR-71) بطول 107 قدم تحلّق على طول الخليج ملتقطة الصور لمواقع صواريخ «سيلكوورم»، ثم تتجه شمالاً لتصوير زوارق الحرس الثوري الإيراني في «فارسي» وبوشهر وجزيرة «خرج». ولكي تستدير الطائرة كانت تحلق على علو مرتفع فوق كلٍّ من الكويت والمملكة العربية السعودية، وكان الأمير بندر قد حصل على إذن من الملك كي تعبر الطائرة القطاع الشمالي الشرقي للمملكة. ومع تحليق الطائرة (SR-71) فوق بندر عباس كانت وزارة الخارجية ترسل رسالة عاجلة تُعلم فيها السفارات الأميركية في كلٍّ من بغداد والرياض والكويت بتحليقها. كانت الطائرة تعبر المياه الإقليمية الإيرانية قبل أن تتوجه غرباً وتحلق فوق الكويت والمملكة العربية السعودية، ثم تستدير مصدرةً دويّاً عالياً جداً يهزّ الكويت العاصمة[654].

كان ليونس يتطلع إلى خوض معركة مع إيران، وقد أمر العميد البحري لايل بول على متن حاملة الطائرات الأميركية (constellation) بإرسال طائراته المقاتلة من طراز F-14 نحو بندر عباس. حلّقت الطائرات مرات عدة عمداً في الأجواء الإيرانية، إما لترهيب إيران وإما لإشعال الحرب التي يريدها ليونس[655]. قبل نحو ساعتين من دخول القافلة المضيق أقلعت طائرة الإسناد P-3 التابعة للبحرية الأميركية من القاعدة الجوية في جزيرة «مصيرة» العُمانية، فالقيادة المركزية الأميركية تعتبر طائرات P-3 عنصراً أساسياً في رصد مواقع صواريخ «سيلكوورم» الإيرانية لأنها مزودة بأنظمة مراقبة كهربائية ضوئية استثنائية. ما إن انطلقت الطائرة نحو المضيق خارج المجال الجوي الإيراني وحلقت في الخليج حتى أقلع ما بدا أنه طائرة إيرانية من طراز F-4 من بندر عباس واقتربت من ذيل طائرة P-3. وخشية أن تطلق طائرة F-4 النار على الطائرة P-3 العديمة الحيلة اتجهت طائرتان من طراز F-14 صوب الطائرة الإيرانية لمواجهتها. انقضت

الطائرتان الأميركيتان المقاتلتان ذات الأجنحة العريضة على الطائرة الإيرانية من الأعلى، وأطلقت الطائرة الأميركية التي في المقدّمة صاروخ جو-جو واحد فتحطّم على الفور دون بلوغ الهدف ثم أطلقت كل طائرة من الطائرتين صاروخاً فسقطا بعيداً لأن الطيارين ضغطا على الزناد على عجل دون تحديد موقع الطائرة. استدارت طائرة الـ F-4 الإيرانية بصعوبة وعادت إلى القاعدة الجوية في بندر عباس، وقررت الطائرتان الأميركيتان عدم تعقّبها[656].

بدلاً من التحريض على إيران أوصل الاشتباك الجوي العداء الملتهب بين كريست وليونس إلى درجة الغليان. في اليوم التالي، وبعد فحص دقيق للأشرطة وإشارات المعلومات التي جمعتها وكالة الأمن القومي، خلص بيرنسن وكريست إلى أن الطائرة الإيرانية لم تكن F-4 بل كانت طائرة C-130 الرباعية المحركات الأبطأ منها بكثير، يستخدمها الإيرانيون للمراقبة البحرية. بعد مراجعة الأدلة أيقن كلاهما أن الطائرة الإيرانية لم تكن متوجهة نحو طائرة P-3، ومن المرجح أيضاً أنها لم تكن تعلم أصلاً بوجود الطائرة الأميركية هناك، فأرسل كريست رسالة «شخصية» وجهها إلى كبار القادة العسكريين، دون أن يذكر ليونس بالاسم، حذّر فيها من ضرورة «الاحتراس من» بدء حرب غير مقصودة مع الإيرانيين. اعتبر كريست تصرفات ليونس تهوراً وتصعيداً خطيراً يدفع بالصراع الخافت إلى حرب واسعة النطاق لا يريدها كلا الطرفين[657].

استدعى كريست لايل بول وطلب منه توضيحات حول الحادث، فردّ بول عليه بوقاحة، وذلك أن حاملة الطائرات التي يقودها بول قد غادرت موقعها لإسناد عملية «إرنست ويل» والقيادة المركزية الأميركية، لذلك فقد عاد بول عملياً وصار تحت إمرة قيادة المحيط الهادئ وليونس. قال العميد البحري الفظ والداعم لليونس بمرح للجنرال البحري ذي الأربع نجوم: «لا أجوبة لدي عن أسئلتك. أنا لا أعمل تحت إمرتك الآن»[658].

امتقع وجه الجنرال كريست من الغضب. «من يظن نفسه ابن العاهرة هذا!» واتصل بكرو كي يشكوه إليه، فوعده رئيسه أن ينظر في الأمر. وفي الوقت نفسه واصل كرو علاقته الجانبية بليونس. عندما تسربت الأخبار، وأوردت شبكة «سي إن إن» تقريراً بالحادث بعد مرور يومين على وقوعه، اقترح ليونس على كرو قائلاً: «قل إنها كانت ضربة تحذيرية للإيرانيين». أحب كرو الفكرة وقدّم تقريراً بالحادثة على هذا النحو[659].

طفح كيل الجنرال كريست من ليونس وبول والبحرية. إن قلة قليلة من الضباط ذوي المراتب العالية يملكون خبرته كما أنه يحتفظ حتى بنسخة من تشريع غولدووتر-نيكولاس في درج مكتبه العلوي كمرجع، والغاية من هذا التشريع هو إصلاح هذا النوع من ضيق الأفق في التفكير وهو يعطيه السلطة القانونية لإدارة العمليات العسكرية في المنطقة الموكلة إليه، وإن لم يطبّق كرو القانون فسيوصل القضية إلى أعلى المراجع.

عندما اتّسع نطاق عملية «إرنست ويل» لتشمل بارجة حربية وحاملة طائرات وحوالى ثلاثين سفينة حربية، وزاد احتمال القيام بعمل عسكري ضد إيران، فإنها بذلك باتت أعلى من

صلاحيات الأدميرال ذي النجمة الواحدة في قيادة القوات الأميركية في البحرين. في 10 آب/ أغسطس اجتمع كرو على انفراد بتروست في مكتبه لمناقشة القيادة والسيطرة على منطقة الخليج العربي. لم يدعُ كرو كريست إلى الاجتماع مع أن الأمر يؤثر تأثيراً مباشراً في قواته. وافق رئيس العمليات البحرية تروست على أن يعود بسرعة بتوصية لكرو، وهو ما فعله في اليوم التالي. كان المخطط الذي وضعه ضابط عملياته، نائب الأدميرال هانك موستين، يتفق إلى حدٍّ كبير مع وجهات نظر ليونس واقترح إيكال المهمة إلى قيادة البحرية الحالية.

تحدّى الجنرال كريست العملية بتوصياته، واقترح تشكيل مقر قيادة جديد: قوة تدخّل مشتركة لقيادة جميع القوات العسكرية المشاركة في عملية «إرنست ويل». تضم هذه القوة السفن الحربية أو حاملات الطائرات من خارج منطقة الخليج وطائرات القوة الجوية الموجودة في المملكة العربية السعودية وقوة الشرق الأوسط التي يقودها بيرنسن، على أن تقدّم هذه القيادة تقاريرها إلى الجنرال كريست فقط في تامبا. قال كريست في مقابلة أجريت معه في العام 1988: «قامت هيكلية القيادة بأكملها على الإيماءات والمصافحات»، وأضاف: «لقد انتهكت هذه القيادة كل ما أعرفه عن وحدة القيادة». إذا قررت إيران التصعيد، فلا بدّ أن نجد طريقة لتنسيق الأعمال الفردية. ما أردته هو إنشاء قيادة موحدة للقوة كلها ودمج جميع مواردنا تحت إمرة قائد واحد يخدمه فريق عمل يتألف من أعضاء من التشكيلات كافة. لن يقع حادث آخر يقول فيه قائد حاملة طائرات التي تدعم القوافل إنه لا يخضع لآمر القيادة المركزية الأميركية[660].

مع أن كريست من الناحية التقنية كان يتمتع بسلطة إنشاء هذه القيادة بنفسه، إلا أن تنفيذ الفكرة بشكل أحادي سيثير الكثير من الجدل، لذا عرض الفكرة على أرميتاج للتأكد من حصوله على دعم واينبرغر، وفي13 آب/أغسطس، وهو اليوم الذي أخبر كرو فيه كريست عن خدعة ليونس في خصوص «غوادالكنال» (Guadalcanal)، بعث قائد القيادة المركزية الأميركية رسالةً رسمية اقترح فيها تكليف كرو بإنشاء القوة المشتركة. بناءً على أحكام قانون غولدووتر- نيكولاس الذي أُقرّ حديثاً سوف تتولّى القوة المشتركة قيادة جميع القوات المشاركة في عملية «إرنست ويل» بغضّ النظر عن السلاح الذي تتبعه وموقعها داخل الخليج أو خارجه. اقترح كريست تعيين أدميرال بحري قائداً لهذه القوة نظراً إلى أن أكثر القوات الموكلة بهذه العملية تابعة لها، على أن يكون نائبه عميداً من سلاح الجو، بما أن تشكيلات الطائرات العسكرية ستكون حاسمة في أيّ هجمات ضد إيران[661]. مع أن تشكيل هذا النوع من القيادة بات أمراً روتينياً اليوم - في الواقع هو الأمر الطبيعي في العمليات العسكرية - إلا أنه في العام 1987 كان يتجاوز الأعراف السائدة، وبدت فكرة وجود عميد من القوات الجوية على متن سفينة بحرية أمراً سريالياً.

في اليوم التالي اجتمع واينبرغر وقادة هيئة الأركان المشتركة لمناقشة اقتراح كريست. ومع دعم واينبرغر لهذه الفكرة، وافق الرؤساء وكرو سريعاً على توصية كريست[662]. تركّزت مداخلاتهم فقط على خفض رتبة القائد من ثلاث نجوم إلى نجمتين.

لكن ليونس كان لا يزال يحدوه الأمل في أن يعطيه كرو الضوء الأخضر لتنفيذ خطته «فرصة سانحة»، وطار في 17 آب/أغسطس إلى حاملة الطائرات «Constellation» حاملاً معه أحدث نسخة عن خطة الحرب ضد إيران التي أراد تسليمها بنفسه إلى لايل بول. عندما عادت حاملتا الطائرات «Constellation» و«Ranger» في 28 آب/أغسطس، أبحرت الأولى نحو الجنوب الشرقي متجهةً إلى المحيط الهندي لتعود إلى مينائها الرئيس في المحيط الهادئ. بعد بضعة أيام، في 3 أيلول/سبتمبر تحديداً، وصلت السفينة «ميسوري» (Missouri) في الوقت الذي أمر فيه ليونس سراً حاملة الطائرات التي يتولى قيادتها بول بالعودة إلى شمال بحر العرب. ستكون قوات ليونس في المكان المناسب للقيام بعمل عسكري كبير ضد إيران إذا لم تتصرف هذه الأخيرة بحكمة. لا شك أنها وسيلة ذكية لبناء القوات سراً تحت أنف الجيش الإيراني، لكن ليونس، بعمله هذا، لم يستشر أيّاً من القائدين -هايز وكريست- اللذين يملكان بحكم القانون حق اتخاذ مثل هذه القرارات. شجّع رئيس هيئة الأركان المشتركة ليونس لكنه احتفظ بذلك لنفسه ولم يبلغ قط وزير الدفاع الذي كان لديه أكثر من مجرد رغبة عابرة في أن تهاجم الولايات المتحدة دولةً أخرى.

في ذلك المساء، التقى ليونس وبول شخصاً أحمر الشعر واثقاً من نفسه أكثر مما ينبغي يدعى توني لِسّ، قائد أسطول الإسناد البحري «Ranger» الوافد حديثاً. انضم إليهم الأدميرال دينيس بروكس الذي اختير قائداً جديداً للقوة المشتركة، والذي لم يكن ليونس يكنّ له الاحترام[663]. كان بروكس قد عاد لتوه من البحرين ومن اجتماعه الأول مع بيرنسن وكريست، فأمره ليونس أن يطلعه على ما قاله له كريست. كل ما قاله بروكس أغضب ليونس، فقد كان كريست قد أعطى بروس تعليمات محددة وأبلغه أنه سيعمل معه فقط وأن عليه ألاّ يتواصل مع ليونس. اعتقد بروكس أن وظيفته الجديدة ستجعله ينال نجمة ثالثة فاقترح أن يتألف فريق عمله من 120 شخصاً. قال ليونس لبروكس وهو يسمعه يتحدث عن استبعاده من العملية: «ستكون محظوظاً لو حصلت على نجمة واحدة».

لكن ما أغاظ ليونس في الواقع هو إشارة عابرة من بروكس إلى خطة «الفرصة السانحة»، فأوقف النقاش فوراً وأخرج بول وليس من الحجرة ليتحدث إلى بروكس على انفراد ويوبّخه لإفشائه خطته السرية.

لم تكن لدى ليس أدنى فكرة عمّا تحدث عنه بروكس، فاجتمع على انفراد بأحد مساعدي ليونس الذي كان يعرفه منذ سنوات عدة، وعندما أصبحا وحدهما في الممر المظلم سأله: «ما الأمر؟».

«الأمر حساس للغاية، ولكن الأدميرال ليونس يستعد لمهاجمة إيران باستخدام حاملة الطائرات الخاصة بك «كوني» (Connie) و«ميسوري» (Missouri) عند وصولها».

أجاب لِيس مصعوقاً، وقد أدرك خطورة ما يدبّره ليونس:«يا للهول!».

كان عقل آس ليونس متخماً بأفكار أخرى بشأن إيران، وفيما كان على متن الناقلة «كوني» (Connie) اتصل بقائد قوات الغوص في المحيط الهادئ، العميد البحري جيمس رينولدز، قائلاً له: «اختر أفضل رجل في غرب المحيط الهادئ وزوّده بأفضل الطوربيدات والألغام». ثم أردف: «الفكرة هي إرسال غواصة إلى الخليج لزرع ألغام في المناطق الإيرانية الرئيسة، لجعلهم يعتقدون أنها ألغامهم التي زرعوها، ولنسف عددٍ من سفنهم إذا أمكن. ألقِ نظرة على القنوات في محيط جزيرة لارك. لا تطلع أحداً على الأمر. يجب أن يبقى سرياً».

بعد يومين عاود رينولدز الاتصال بليونس وقال له: «إن الغواصة يو إس إس هونولولو (USS Honolulu) ستصل إلى خليج سوبيك في التاسع عشر ويمكنها أن تحمل الألغام وتصل إلى الموقع المناسب في الثلاثين من شهر آب/أغسطس». بدا رينولدز متخوفاً من مخطط زرع الألغام، وشعر بالقلق لأن عمق المياه في الخليج لا يناسب غواصة زرع الألغام.

علم ليونس أنّ عليه أن يحصل على إذن من كرو للقيام بذلك، ولكن توقيت وصول الغواصة سيكون مثالياً كسلاح إضافي لخطة «الفرصة السانحة».

عاد ليونس إلى هاواي وهو راضٍ عن سير الأمور، وتوقف في «غوام» لقضاء ليلة، وهي فترة كافية للاتصال بتروست والتعبير عن مخاوفه بشأن بروكس. اشتكى ليونس قائلاً: «هذه المؤامرة بين هايز وكريست تهدف إلى إبعادي عن الصورة»، ثم انتقد قرار تعيين بروكس وقال لقائد العمليات البحرية: «لا أستطيع أن أعبر عن مدى خيبة أملي بتعيين بروكس لهذه المهمة. إننا بحاجة إلى مراقبة ذلك بعناية فائقة. لا نريد إحراج البحرية وهذا البلد».

وافق تروست ليونس الرأي في معظم الكلام الذي قاله، فهو يرى أن ليس من الحكمة التغاضي عن خبرة أسطول المحيط الهادئ، لكنه استغرب أن يصف قائدين ميدانيين يقومان بعملهما بالعصابة. كما أنه يكنّ الكثير من الاحترام لبروكس.

ظل ليونس ينتظر كلمةً من كرو، ومع مرور الوقت راح يفكّر مرةً أخرى في أن الولايات المتحدة لا تتحلى بالجرأة اللازمة للتعامل مع إيران. وفي 27 آب/أغسطس اتصل بكرو الذي كان في فورت ليفنوورث لحضور اجتماع للقادة الميدانيين. تحدث ليونس إلى الكابتن ستراسر، الضابط التنفيذي الذي يعمل مع كرو، وسأل: «هل عليّ التحدث إلى القائد بشأن خطة الفرصة السانحة؟»

مع أن كرو شجّع خطة ليونس إلا أنه لم يقل له أبداً إن الخطة ستُنفّذ. بدلاً من ذلك، تحدث ستراسر بالنيابة عن القائد كرو فقال: «في ظل غياب أيّ استفزاز إيراني آخر، لا أحد هنا لديه الرغبة في القيام بذلك».

لم يكن كرو مستعداً للضغط من أجل مهاجمة إيران، فتم إغلاق النافذة أمام خطة «الفرصة السانحة» التي تصوّرها ليونس. تناوبت حاملات الطائرات في أداء عملها، وتوجه لايل بول عائداً إلى «الساحل الغربي». اشتكى ليونس بعد سنوات قائلاً: «لقد أضعنا فرصة ذهبية سنحت لنا لهزيمة الإيرانيين في حين كان الخطر محدوداً، وربما لإسقاط النظام».

لكن سلوك آيس ليونس الغريب وصل أخيراً إلى نقطة القطيعة مع رئيسه رون هايز. تعمّد آيس وبشكل متكرر ألا يُطلع هايز على أفعاله وخططه، كاستخدام غواصة من ضمن طاقم السفينة «غوادالكنال» (Guadalcanal) لإغراق السفن الإيرانية، أو الدفع باتجاه تنفيذ خطة «الفرصة السانحة»، ما أزعج الأدميرال الدمث في هونولولو.

وجّه هايز رسالة إلى واينبرغر مفادها: إما أنا وإما آيس ليونس، وإن لم يرحل ليونس فسيقدّم هايز استقالته. وصلت الرسالة إلى صندوق بريد أرميتاج فسارع إلى سحبها واتصل بهايز قائلاً: «كان من الأفضل عدم إرسال تلك الرسالة. أولاً، لأننا لا نريد أن يطّلع عليها كل من في المبنى. ثانياً، إن لم يوافق الوزير على طرد آيس فسيكون عليك أن تتقاعد».

اتفق الرجلان على إتلاف الرسالة ومفاتحة واينبرغر سراً. رتّب أرميتاج مكالمة هاتفية بين الرجلين. بعد شرح كل مناورات ليونس وافق واينبرغر هايز الرأي. لا بدّ من طرد ليونس، وأراد الوزير أن يحيله على التقاعد وهو برتبة نجمتين لا بأربع نجوم كما هو معتاد.

بعد التحدث إلى ويب اتصل واينبرغر بتروست الذي كان يقضي إجازة في منزله، على شاطئ فرجينيا. «أريد إحالة ليونس على التقاعد فوراً، وليرحل وهو بنجمتين». وافق تروست الذي لم يكن يحب ليونس، لكنه اقترح إحالته على التقاعد برتبة ضابط بأربع نجوم إذا وافق دون أن يثير أيّ ضجة.

كان تروست على علم بقضية أخرى يمكن أن تُستخدم ضد آيس، فقد قدّم أحد العناصر العاملين على طائرة ليونس شكوى على الخط المباشر حول وجود انتهاكات واختلاس. فحين كان آيس على متن حاملة الطائرات «Constellation»، سمح لقائد الأسطول البحري، دواين غراي، بأن يستخدم طائرته ليعود إلى اليابسة من أجل إلقاء خطاب، وقد أرسل ليونس على متن الطائرة قطعة من الأثاث لابنته في نورفولك. كانت الخطة أن تحضر ابنته إلى حيث تحطّ الطائرة بغراي كي تستلم قطعة الأثاث، ولكن غراي حاول أن يقدّم خدمة لرئيسه فسأل الطيار إذا كان لديه سبب للذهاب إلى نورفولك، وعندما قال الطيار «بالطبع» أرسل غراي الطائرة فأوصل الطيار قطعة الأثاث مع ابنة ليونس وذلك من دون معرفة ليونس. زعمت الشكوى أن ليونس يسيء استخدام الطائرات الحكومية.

في الساعة الثامنة وأربعين دقيقة من صباح 4 أيلول/سبتمبر كان ليونس جالساً إلى مكتبه الكبير في هاواي، وهو نفسه الذي استخدمه الأدميرال نيميتز خلال الحرب العالمية الثانية. اتصل به تروست وطلب منه أن يتحدث إليه على خط لا يخضع للمراقب، فوضع الضابط التنفيذي الذي يعمل مع ليونس، كيفين هيلي، السماعة على الفور.

بدأ تروست كلامه قائلاً: «لا أعرف أي شيء عن هذا الموضوع، ولكن طُلب مني أن أُخبرك أنك انتهكت التراتبية في القيادة، ويريدون أن تتقاعد في الأول من شهر تشرين الأول/أكتوبر. سننتظر ردّك حتى يوم غد». لن يكون هناك مزيد من النقاشات.

بعد بضع ساعات استطاع ليونس أخيراً التواصل مع كرو: «بيل، بحق الجحيم ما هذا الهراء؟ «أجاب كرو الذي كان يتحدث للتو مع رون هايز: يعتقد هايز أنك تجاوزته. لم أطلب منك قط ألا تطلع رؤساءك على ما تفعله. كما أنك في ورطة مع وزير البحرية بسبب استخدامك طائرتك لأغراض شخصية».

«ما الذي تتحدث عنه؟ لم يسبق لي أن أسأت استخدام طائرتي».

ردّ كرو: «أرسلت الطائرة إلى نورفولك لأغراض شخصية».

أجاب ليونس غير مصدّق: «لا أعرف حتى عمّا تتحدث. ثم أنت طلبت مني ألا أُرسل أي رسائل أو أُخبر أحداً بما نفعله.»

قال القائد في مكر: «لم أطلب منك قط أن تخفي الأمر عن رؤسائك. لكن لا يزال لديك الكثير من الأصدقاء هنا في واشنطن».

صُعق ليونس. لم يصدق أن كرو قد طعنه من الخلف عندما لم يدافع عنه في واشنطن. «حسن لا يبدو لي على هذا النحو بالنسبة إلي. لمَ لم يتم استدعائي إلى المحكمة لأدافع عن نفسي؟»

قال كرو وكأن المسألة مجرد تغيير بسيط في الخدمة العسكرية: «رأينا أن من الأفضل التعامل مع هذه القضية بهذه الطريقة. ولكن عندما ينتهي الأمر بسلام أريدك أن تأتي لزيارتي وعندئذٍ يمكننا أن نتحدث، فثمة الكثير من الأمور التي يمكن القيام بها».

في الواقع، ليس من مصلحة كرو أن يحضر ليونس للدفاع عن نفسه ويكشف اتفاقاتهما السرية، خصوصاً وأن كرو تجنّب عمداً التراتبية التي وُجّهت إلى ليونس تهمة تجاوزها الآن. ظل كرو صامتاً. ومن أجل المنفعة السياسية تحمّل ليونس اللوم والعقاب. لم يذكر القائد كرو لواينبرغر أو تروست أي شيء عن الأحاديث الخاصة التي جرت بينه وبين ليونس. ولم يكلّم آيس ليونس كرو ثانيةً على الإطلاق.

وافق ليونس على التقاعد، لكنه رفض فضح نفاق كرو، وعندما سُئل عن السبب أجاب: «قضيت أربعين عاماً أخدم في البحرية. لن أشارك في تشويه سمعتها»[664].

في 1 تشرين الأول/أكتوبر، شكر ليونس فريق عمله في حفل تقاعد بسيط على سطح الباخرة «أنتيتام» (Antietam)، وقال بإيجاز قبل مغادرته: «لقد رحل محارب البحرية القديم... هذا كل ما بوسعي قوله الآن»[665].

الأمر المثير للدهشة هو أن كرو أرسل بكل وقاحة رسالة شخصية إلى ليونس يشيد فيها بخططه وإبداعاته: «أقدّر كثيراً صداقتك والمشورة الحكيمة التي قدّمتها لي خلال اجتماعاتنا المتكررة. سوف تترك فراغاً من الصعب ملئه. أحرّ التحيات، بيل»[666].

عندما قرأ ليونس الرسالة تمتم قائلاً: «عليك اللعنة».

انتقل ليونس إلى منزله في ماكلين، بولاية فيرجينيا، بيد أن مشاكله تفاقمت، فقد أخذت السكاكين الطويلة تطعن الأدميرال المستقيل في ظهره، وكان تروست على رأس تلك الحملة، حيث راح عملاء من التحقيقات الجنائية البحرية يتعقبونه ويضايقونه، وخلال السنة التالية شرعوا يراقبون من يأتي إلى منزله ومن يخرج منه، وأجروا سلسلة من التحقيقات. وفيما حاول العملاء دفع ضباط آخرين إلى القسم بأن ليونس استخدم طائرته الحكومية لينقل كلابه إلى عروض خاصة للكلاب، صادر آخرون أوراقاً سرية كان قد أرسلها إلى «أرشيف البحرية التاريخي» في واشنطن. كان ليونس وزوجته يجمعان التحف، فانتشرت شائعات تقول إن ليونس استخدم طائرته لنقل التحف من أجل عمل زوجته. وعلى الرغم من أن زوجته لا تبيع التحف، إلا أنّ المحققين عملوا ساعات على التحقيق في هذا الاتهام غير المؤكد. بعد ذلك اتُّهم ليونس بإخراج وثائق سرية للغاية من قيادة المحيط الهادئ، وثائق لا ينبغي أن تغادر خزنة القيادة. أراد تروست توجيه اتهامات، لكنه لم يتمكن من الحصول على موافقة وزير البحرية. وقال ليونس لاحقاً: «كل ما صادروه هو وثائق من شأنها أن تحرجهم - هذا ما أرادوه». عرض نائب رئيس العمليات البحرية، هنتنغتون هارديستي، على ليونس أن يبقى خلال رحلة عودته، لكنه رفض، بيد أنه طلب أن يبقى معه مضيفان من السفينة لمساعدته. لم يستطع أحد تذكر ذلك، واضطر ليونس أن يدفع للحكومة نفقات سفر المجنّدَين. قال محامي ليونس، موريس سينور: «كان الأمر حقداً وانتقاماً بكل معنى الكلمة». بعد مضي أكثر من عام أمر وزير البحرية الجديد وليام بال أخيراً بوقف المضايقات.

أصبح ليونس بعيداً لكن متاعب القيادة المركزية الأميركية مع البحرية بقيت على حالها. نُشرت مقالات جديدة في صحيفة «سان دييغو يونيون» (San Diego Union)، التي لديها مصادر قوية داخل التسلسل الهرمي في البحرية، مفادها أن حادث اللغم الذي تعرّضت له بريدجتون نجم عن عدم وجود تخطيط بحري سليم في مقر تامبا. وحذّر ضباط كبار، رفضوا الكشف عن أسمائهم، من «المزيد من الأخطاء ستكلّف ضحايا».

ليس فقد أن كريست قد وضع أخيراً حداً لليونس وأسطول المحيط الهندي، بل كان كبار ضباط البحرية مذعورين من خطته للتعامل مع الإيرانيين. بدلاً من النظر إلى النزاع على أنه معركة بحرية تقليدية، رأى كريست أنه أقرب إلى التمرد وحرب العصابات في البحر. وكان نهج كريست أقرب إلى حرب فيتنام أو العراق بعد العام 2007. تلك المعركة لن تقوم التكنولوجية العالية، فالزوارق الصغيرة والمروحيات ستكون أشدّ تأثيراً وفعاليةً من السفن التي يبلغ ثمنها مليارات الدولارات.

أيّد كرو كريست علناً، وقال خلال زيارة قام بها إلى ولاية كاليفورنيا: «إن الانتقادات [الموجّهة لكريست] خاطئة تماماً». لكن وراء جدران البنتاغون ثمة قائد مخادع ذو وجهين يحمل سكاكين لطعن كريست أيضاً.

الفصل الخامس عشر

فرقة المطاردة الليلية

بينما كان النزاع متواصلاً بين كبار الضباط العسكريين، كان عبء إيقاع الهزيمة بإيران مُلقى على كاهل هال بيرنسن وطاقمه الصغير، المؤلف من ثلاثة عشر رجلاً عاملاً على متن سفينة القيادة القديمة المطليّة باللون الأبيض. ظل بيرنسن صاحيّاً حتى وقت متأخر من الليل يتحدث مع بضعة ضباط مهمّين لكي يعيد النظر في خطته. لقد اتضح أن القيادة الإيرانية لا تخشى قوة البحرية الأميركية، وخاطرت بشنّ حرب من خلال استهدافها أول قافلة أميركية[667]. ما إن خرج الحصان من الإسطبل حتى راح محللو الاستخبارات العسكرية يزوّدونه باستمرار بمعلومات عن هجمات محتملة قد يشنّها الحرس الثوري الإيراني في المستقبل[668].

كان أحد المشتركين الرئيسين في مناقشة بيرنسن ضابط استخباراته المثير للجدل، القائد هاول كونواي زيغلر، الذي وصفه أحد الضباط المتقاعدين بـ«العبقري المجنون - كلا هاتين الصفتين تنطبقان عليه تماماً»، في حين لقّبه آخرون بـ «الدرويش الذي يدور حول نفسه». فعقله يعمل بسرعة، ويجد حلولاً غير تقليدية لمشكلات غير عادية. ثمة مقولة شائعة عنه قالها الكثيرون من الذين تمت مقابلتهم: «يأتي بعشرة حلول للمشكلة؛ تسعة منها بلا قيمة، ولكن الحل العاشر يكون مذهلاً». كان دور زيغلر في «قوات الشرق الأوسط» يتجاوز مهامه الاستخباراتية. بعد مرور وقت قصير على حادثة ارتطام «بريدجتون» بلغم أرسله بيرنسن إلى جيبوتي للتفاوض مع الفرنسيين حول زيادة دعمهم لعملية الحراسة. ولكن زيغلر نفسه كان يقحم نفسه بقرارت ذات علاقة بالعمليات مسبّباً بذلك الإزعاج للكثيرين ممن اعتقدوا أنه يورّط نفسه في أمور يصعب عليه الخروج منها، فلقّبوه لقباً مسيئاً هو «كونواي تويتي»[669]. بيد أن تحليلاته هي التي استطاعت كشف عمليات الحرس الثوري. والأهم من ذلك أن بيرنسن وطاقم العمليات من موظفيه كانوا يحترمونه ويثقون به، وكانوا مقتنعين بأن تفكيره الإبداعي مطلوب لمواجهة التهديد الإيراني.

«ما هو التهديد إذاً؟» سأل بيرنسن زيغلر متفكّراً ذات ليلة. «التهديد الذي نواجهه غير تقليدي في الأساس». الإيرانيون يختلفون عن أي عدو قاتلته البحرية الأميركية، إنهم يشكّلون تهديداً لنا بتقنياتهم الحربية غير المتطوّرة من ألغام وهجمات الكرّ والفرّ التي يشنّونها بزوارق سريعة مزودة برشاشات عديمة الارتداد وبقاذفات صواريخ غير دقيقة ولكن فتاكة. إنهم يعملون بطريقة تشبه أسلوب الفيتكونغ أكثر مما يشبهون اليابانيين. تشكل صواريخهم «سيلكوورم» خطراً، لكنه كان يعتقد أنه من المرجّح ألا تتجاوز إيران هذا الحدّ؛ لأنها تدرك جيداً أن هذا التجاوز سوف يستدعي ردّاً أميركياً شاملاً من شأنه أن يدمّر القوة البحرية والجوية الإيرانية[670]. وأشار بيرنسن قائلاً: «إنهم الآن منشغولون كلياً بالعراق».

طوال اليومين التاليين راح بيرنسن وزيغلر وضابط عملياته يجرون عمليات عصف فكريّ لتحديد طريقة التعامل مع التهديد الإيراني، في خلال اجتماعات ليلية متأخّرة للأركان على متن السفينة الحربية «لا سال»، وكانوا يجرون مكالمات هاتفية مطوّلة مع الجنرال جورج كريست الذي كان في القيادة المركزية الأميركية في تامبا بفارق في الوقت يبلغ ثماني ساعات. طور بيرنسن نظاماً قويّاً لمراقبة الإيرانيين. بدا من غير الواقعي أن تغطّي المراقبة طول الخليج البالغ خمسمئة ميل، لذا استهدف بيرنسن النقاط الضيّقة الضحلة قرب جزيرتي فارسي وأبو موسى اللتين تعدان أفضل المواقع لزراعة الألغام بغية استهداف القوافل الأميركية، استناداً إلى صورة للعمليات الإيرانية رسمها زيغلر. قام بيرنسن بتقسيم الأميال الخمسمئة في الخليج العربي إلى ما يقرب ثماني مناطق دوريات، سوف تتمركز فيها سفن حربية أميركية بشكل دائم تقريباً[671]. في حال قررت بعض الطائرات الإيرانية المغامرة، وهذا بعيد الاحتمال، فهناك طراد متمركز في وسط منطقة الخليج وآخر خارجه مرتبطان بمنظومة «أواكس» للإنذار المبكر والاستطلاع الجوي في المملكة العربية السعودية. ولكن هزيمة الألغام الإيرانية وهجمات الكر والفر لا يمكن أن تنجزها سفن حربية أو قاذفات قنابل كبيرة، فبرأي بيرنسن ثمة حاجة إلى طائرات هليكوبتر وبعض الزوارق الصغيرة للسيطرة على هذه المساحة الواسعة من الخليج العربي[672].

يمثّل الجزء الشمالي من الخليج العربي القريب من جزيرة «فارسي» العقبة الكبرى. هنا، تدفع المياه الضحلة سفن الشحن إلى ممرّ ضيق وعميق محاذٍ بشكل غير مريح للتحصينات الإيرانيّة في جزيرة فارسي، والحرس الثوري يسيطر على مسافة المئة ميل التي تمتدّ من الكويت إلى الجزيرة. ولكن سلاح الجو الإيراني لم يكن يشكّل خطراً جدياً، فقد كان مكتفياً بصدّ نظيره العراقي وحماية ناقلات النفط الإيرانية. بيد أن الألغام الإيرانية وامتداد الحرب العراقية الإيرانية المستّعرة في الشمال القريب جعلا القيادة المركزية الأميركية مترددة جداً في المجازفة بإرسال مئتي بحار وسفينة قيمتها مليار دولار إلى منطقة بدأ كثيرون في تامبا وخارج الخليج يشيرون إليها على أنها «بلاد الهنود»[673]. ولكن إن لم تحافظ الولايات المتحدة على وجود دائم ما لمنع الإيرانيين من زرع الألغام دون حسيبٍ أو رقيب، فإن عملية «إرنست ويل» لحماية ناقلات النفط الكويتيّة ستكون قصيرة الأجل. كما كان على بيرنسن إيجاد وسيلة لضبط تحركات «قبيلة الكومانتشي الإيرانيّة».

أرسل زيغلر تقريراً إلى بيرنسن أثر تأثيراً بالغاً في تفكير الأدميرال، وكان عبارة عن تحليل سريع للأضرار التي لحقت ببريدجتون أعدّه مهندسو البحرية الأميركية ومكتب الاستخبارات البحرية، ذكروا فيه أن اللغم الذي ضرب السفينة كان يطفو على عمق عشرين قدماً تقريباً تحت سطح الماء، الأمر الذي يشكّل تهديداً قوياً للسفن الحربية التابعة للبحرية الأميركية (ذلك أن هيكل البوارج يغوص في الماء على عمق ستة وعشرين قدماً). لكن التقرير لم يتوصّل إلى اقتراح استخدام مراكب أصغر حجماً كطرادات خفر السواحل، فـ«هذه المراكب الصغيرة، حسب رأي بيرنسن، تستطيع المناورة بحرية في المنطقة دون أن تتعرض لخطر الاصطدام بلغم مثبّت مغمور بالماء».

لم تكن لدى بيرنسن فكرة عمّا يملكه الجيش الأميركي من طرادات الدوريات لذا قام، هو وضابط عملياته الكابتن ديفيد غريف، بالاطّلاع على نسخة من «دليل جين للسفن الحربية» ليرى أي نوع من الطرادات صغيرة تمتلكها البحرية. وفيما كانا يُقلّبان الصفحات وجدا أن الخيارات المناسبة ضئيلة؛ فليست هناك إلا ثلاثة مراكب من هذا النوع، أحدها مصنوع من الألياف الزجاجية، ويبلغ طوله اثنين وثلاثين قدماً، وهو مصمّم في الأصل ليمخر أنهار فيتنام، وقد ذاع صيته مؤخراً لاستخدامه بشكل أساسي في تصوير فيلم «القيامة الآن» (Apocalypse Now). لقد أوكل هذا المركب، الذي يتكوّن طاقمه من خمسة أفراد، إلى القوات الاحتياطية. كان بالإمكان نقله جوّاً لكنه لم يكن مؤهلاً للعمل إلا في البحار الهادئة جداً. ومن السفن التي وجداها في قائمة السفن الحربية الأميركية مركب قتالي انسيابي التصميم مخصّص للعمليات الحربية الخاصة بالبحرية الأميركية، ويطلق عليه اسم «سيفوكس» (Seafox)، وهو مصنوع من مادة تحجبه عن الرادارات. هذا المركب قد يكون مفيداً للعمليات السرية ضدّ الإيرانيين، ولكن المركب الصغير الآخر، الذي كان أفضل الخيارات الثلاثة، كان طرّاد خفر السواحل «مارك 3» المصنوع من الألياف الزجاجية والبالغ طوله خمسة وستين قدماً. بني هذا الطرّاد في أوائل السبعينيّات بناءً على الاحتياجات التي فرضتها حرب فيتنام وخبرتها، ويصل مداه إلى 450 ميلاً، ويمكن أن تصل سرعته حتى ثلاثين عقدة. يحتوي على قمرة قيادة ومقصورة تؤوي طاقماً مؤلفاً من عشرة أفراد وتحميهم من تقلبات الطقس. لم تُصمّم طرادات «مارك 3» للعمل في البحار المفتوحة، كما أنها كانت تفتقر إلى وسائل الراحة مثل مقصورة للاستحمام، ولكنها مزوّدة بمدافع رشاشة من عيار 40 ملم في المقدمة وببنادق رشاشة عيار 20 ملم في المؤخرة، هذا عدا قاذفات القنابل الأوتوماتيكية والرشاشات الثقيلة. اعتقد بيرنسن أن هذا النوع من السفن الصغيرة يمكن أن يفي بالغرض.

بيد أن ذلك كله يوصلنا إلى السؤال المنطقي التالي: «أين ستكون قاعدة هذه الطرادات؟» فالمراكب الصغيرة ليست مكتفية ذاتياً؛ فهي تحتاج إلى قاعدة للتزود بالوقود، واستراحة الطاقم، وملجأ تأوي إليه في الطقس العاصف. والخليج العربي معروف بأن أمواجه تصبح عاتية أحياناً. قد تكون الكويت، أو المملكة العربية السعودية، مستعدة للسماح بإقامة قاعدة أميركية صغيرة، لكن البلدين بعيدان عن قناة الشحن، ما يعيق عملية توفير عملية دعم مناسبة على مدار الساعة. فكر

بيرنسن: «ما نحتاجه هو منصّة بحرية يمكن أن تعمل، انطلاقاً منها، جميع السفن الصغيرة أو المروحيات أو أي شيء آخر نريده»[674].

عندما بدأ بيرنسن بدراسة فكرة استخدام القوارب اتّصل برئيس شركة ناقلات النفط الكويتية فتاح البدر. جرى الحديث بينهما عن هذه القضية عبر خطٍّ هاتفيٍّ مفتوح، وسأل بيرنسن البدر إن كانت لديه سفن يمكنها أن تستوعب طائرة هليكوبتر. قال البدر لبيرنسن إن بإمكانه استخدام مركبين ذاتيّي الدفع يملكهما خفر السواحل الكويتي. كلا المركبين أشبه بعبّارة ليست فيها مقصورات مخصّصة للمسافرين، ولها سطح واسع يمكن أن يكون مدرجاً لإقلاع المروحيات وهبوطها. وبما أن الكويت لم تستخدم أيّاً منهما، رغم أنها دفعت ثمنهما، فستكون مسرورة بأن يستخدمهما الأميركيون... طار بيرنسن إلى الكويت وتجول في السفينتين. للأسف، لا يستوعب هذان المركبان سوى أربعين شخصاً تقريباً، وربما مروحية أو مروحيتان، وهذا لا يكفي أبداً. «ما أحتاج إليه هو شيء يمكننا تحريكه ويكون قادراً على احتواء مئتي شخص، وعلى استقبال مروحيات، وبحيث يمكننا ربط قوارب على جانبيه.»

أجاب البدر: «حسناً، اذهب وجِدْ ما تريد ونحن ندفع ثمنه»[675].

كانت لدى بيرنسن علاقة وديّة برجل أعمال أميركي من هيوستن يملك شركة مقرّها في الشارقة بالإمارات العربية المتحدة، وتعمل في تأجير السفن للخدمات النفطية. كانت قلة من الأميركيين تعرف الخليج مثلما يعرفه هذا الرجل، وكان سريع البديهة وبطيء الكلام كسكان جنوب أميركا[676].

قرّر بيرنسن أن يتّصل به. قال: «هذه المكالمة ليست لتبادل الحديث. إنني أبحث عن مراكب يمكنني أن أضع على متنها بعض المروحيات وتكون قادرة على حمل حوالي مئتي شخص.»

عاود الرجل الاتصال به بعد ساعات قليلة قائلاً: «لقد تكلّمت مع صديق لي في ‘براون أند روت’». و‘براون أند روت’ هو أحد أفرع شركة هاليبرتُن التي كانت لها مشاريع كثيرة لدعم الصناعة النفطية في أنحاء الخليج العربي، بما في ذلك مع الإيرانيين. تابع الرجل حديثه قائلاً: «إنهم يمتلكون بارجتين لبناء آبار النفط غير مستخدمتين تربضان في البحرين. إحداهما تدعى ‘هرقل’. ثمة مكتب لشركة ‘براون أند روت’ على بعد ميل من مربض سفينتك، فلمَ لا تذهب إلى هناك وتتحدّث إليهم. لقد أنجزت الترتيبات مع ممثل ‘براون أند روت’ في الشرق الأوسط».

أسرع بيرنسن إلى سيارته وتوجّه إلى مكتب «براون أند روت» وقابل الممثل الأول للشركة، وهو بريطاني يدعى جون راهتز، وقد أكّد له أن هناك مركبين تملكهما شركة «براون أند روت» وأنهما راسيتان في البحرين، وأن «هرقل» و«ويمبراون VII» قد يلبّيان الحاجة الأميركية. وبعد أن أطلع بيرنسن على تصاميم هذين المركبين غادر الرجلان إلى حوض بناء السفن الصغير حيث يرسو المركبان.

للوهلة الأولى بدا المركبان في حالة مزرية، فقد كان مظهرهما الخارجي صدئاً وطلاؤهما متقشّراً وعلى سطحيهما أكوام مكدّسة من المعدات الصدئة والكابلات. «يبدوان في حالة رهيبة»، قال بيرنسون لراهتز. ثم عندما ركبا على متن كلٍّ منهما وقاما بدورة لاحظا أنهما سليمتان، كما لاحظا أن «هرقل» أفضل بقليل، فقد كان أكبرهما، وكان أحد أكبر المراكب النفطية في العالم، إذ يبلغ طوله 400 قدم وعرضه 140 قدماً، وهو مسطّح وواسع. كان قد صُمِّم لبناء منصات النفط البحرية ومدّ خطوط الأنابيب تحت الماء. كانت هناك منصة بيضاء مرتفعة مخصّصة لهبوط طائرة هليكوبتر وبرج مراقبة صغير في أحد طرفيه، وفي الطرف الآخر، في أعلى قاعدة أسطوانية واسعة مستطيلة، متراس مستطيل دهُن باللون الأحمر والبرتقالي، موصول برافعة ضخمة طولها أكثر من 50 قدماً. كُتب في نهاية الرافعة بأحرف سود ضخمة على خلفية صفراء باهتة اللون كلمة «كلايد». يرتفع ذراع الرافعة البالغ طولها 250 قدماً فوق المركب بأكمله، فيبدو «هرقل» مائلاً إلى الجانب بصورة واضحة. كان فسيحاً في وسطه، وفيه مساحة مفتوحة مسطحة مثالية للمروحيات ولاستيعاب مراكب الدوريّات الصغيرة. تحت ظهر المركب الرئيس يؤمّن «هرقل» مضجعاً لـ160 رجلاً، بالإضافة إلى مطبخ واسع ومطعم ومقصورة للاستحمام وحتى مسرح للترفيه مزيّن بستائر زرق. كان في المركب ميزة إضافية تتمثل في كونه مزدوج الهيكل، وهذا مناسب لعمليات محتملة في المنطقة التي تنتشر فيها الألغام بالقرب من جزيرة «فارسي»، ويحيط بالهيكل خزان لمقاومة الفيضان يمكن أن يوفر حماية ممتازة من الألغام.

كان المركب «ويمبراون» أصغر حجماً، فقد كان طوله 250 قدماً فقط وعرضه 70 قدماً. لقد صُمِّم هذا المركب لحفر آبار النفط البحرية، وتمّ تجهيزه بقوائم قابلة للإزالة أو للتمدّد، بواسطة هذه القوائم يمكن رفع المركب بأكمله برافعة هوائية فيتحوّل إلى منصة عمل ثابتة. يحتوي في أحد طرفيه على منصة صغيرة مسطحة للمروحيات، مجاورة لمبنىً مرتفع مخصّص للمكاتب يعلو السطح الرئيس[677]. لم يكن يحتوي على رافعة مثل الرافعة التي بُنيت على متن «كلايد»، إذ كان يخدم أهدافاً تجارية أكثر من الأول. وكانت مرافق المركب واسعة وقادرة على استيعاب نحو مئة فرد زيادة عن قدرة «هرقل». كان كلا المركبين يطوفان على عمق منخفض نسبياً الأمر الذي يجعلهما أقل عرضةً لضربات الألغام. كانا يرسوان بواسطة نظام رسو بأربع نقاط ويمكن نقلهما بواسطة قاطرات فقط، وهو إجراء يستغرق ساعتين فقط لرفع المرساة وتحريك المركب بسرعة أربع عقد في الساعة فقط[678]. قال بيرنسن إن المركبان سوف يعملان بصورة جيدة بعد تنظيفهما وإزالة الخردة عنهما وطليهما بطبقة جديدة من الدهان».

أطلع بيرنسن الجنرال كريست على الموضوع برسالة موجزة طرح فيها أفكاره قائلاً:

«برأيي، لكي ننجح في شمال الخليج ينبغي علينا أولاً تسيير دوريات حراسة مكثفة لمنع الإيرانيين من زرع الألغام؛ كما يجب، ثانياً، كسح الألغام القليلة التي قد ينجحون في زرعها في المياه بالإضافة إلى جهودنا في الحراسة؛ وثالثاً، علينا حماية الناقلات التي غيّرت أعلامها من الهجمات الإيرانية التي قد تنفّذها قوارب صغيرة أثناء عبورها شمال الخليج. أعتقد أن بوسعنا تحقيق النتيجة المرجوة إذا ما استخدمنا مجموعة متنوّعة مؤلّفة من مراكب الحراسة الصغيرة نسبياً والسفن والمروحيات.»

يمكن إجراء دوريات حراسة أفضل في المنطقة إذا تمّ استخدام طائرات هليكوبتر هجومية وقوارب صغيرة تدعمها قوات العمليات البحرية الخاصة ومشاة البحرية الأميركية، بدلاً من استخدام السفن البحرية العادية[679].

أحب الجنرال كريست الفكرة، وقال في مقابلة أجريت معه عام 1988: «إن أفعال الإيرانيين تذكّرني بفيتنام. فقد كانوا يزرعون ألغاماً وقنابل على جانبي الطريق على طول طرقنا وخطوط إمداداتنا الرئيسية. يبدو لي أن الإيرانيين يفعلون الشيء نفسه ولكن في الماء». وقد أطلق قائد القيادة المركزية الأميركية عبارة خاصة على هذا النوع غير التقليدي من الحروب التي وجد الأميركيون أنفسهم متورطين فيها، وهي عبارة «حرب العصابات البحرية». أرسل كريست خطة بيرنسن إلى قائد هيئة الأركان المشتركة كرو وإلى الأدميرال رونالد هايز في رسالة سرية موجّهة إليهما وحدهما.

اقتنع كرو على الفور، هو أيضاً، بمخطط بيرنسن. إن جولته في منطقة «دلتا ميكونغ» خلال حرب فيتنام جعلت فكرة كهذه مألوفة بالنسبة إليه. وقتذاك كانت الخطة تدعى «العوم البحري»، حيث بنت البحرية قاعدة عائمة من خلال ربط العديد من الزوارق معاً في جنوب منطقة «دلتا ميكونغ»، وشكّلت هذه الزوارق مجتمعةً قاعدة دعم أمامية لزوارق خفر السواحل التي كانت تجول قرب ضفة النهر في محاولة لكبح جماح مقاتلي حركة الفيتكونغ الذين كانوا يتحركون على امتداد نهر «كوا لون». قدّم القائد كرو على الفور دعمه لهذه الخطة، وبعد اجتماع بينه وبين كاسبار واينبرغر، يوم 31 تموز/يوليو، وافق وزير الدفاع على نشر جميع سفن دوريات خفر السواحل التي طلبها بيرنسن، بما في ذلك ثمانية مراكب من نوع «مارك 3»، بالإضافة إلى أربع سفن ستأتي من الأسطول الثاني الخاص في نورفولك بولاية فيرجينيا، وأربع أخرى من الأسطول الأول الخاص في كورونادو، بولاية كاليفورنيا[680].

عيّن بيرنسن ضابطين جديدين لتحويل الفكرة إلى واقع. في 11 آب/أغسطس، وصل القائد ريتشارد فلاناغان من ولاية كاليفورنيا. كان فلاناغان قائداً للأسطول الأول الخاص في القوات البحرية، الذي يضمّ جميع مراكب خفر السواحل على الساحل الغربي للولايات المتحدة[681]. الواقع أن فلاناغان كان قد اكتسب خبرته في ممرات دلتا نهر ميكونغ المائية، وكان يعرف «العوم البحري»[682]. بعد يوم من وصول فلاناغان حضر الكابتن فرانك لوغو إلى البحرين. التحق لوغو بالبحرية منذ العام 1953، ولديه خبرة هائلة في المهام التشغيلية والقيادية، وهو ضابط أركان كفؤ ومن ذوي الخبرة، وقد شغل مؤخراً منصب ضابط عمليات الأسطول الثاني، وكان من المقرر أن يبدأ التدريب استعداداً لتولي قيادة طرّاد جديد على «الساحل الغربي». تمّ تداول اسم لوغو باعتباره في فترة استراحة بين مهمتين، وهو يحظى باحترام كبير لدى كافة رتب البحرية، بما في ذلك رئيس العمليات البحرية تروست ونائبه، اللواء البحري هانك موستين[683].

كان إبقاء قضية زوارق خفر السواحل قيد السرية التامة هاماً جداً. وكان كريست ينوي حصر المطّلعين على الفكرة في المؤسسة العسكرية بقلّة، فأرسل رسالة أوجز فيها تصوره عبر قناة اتصال خاصة بالاسم الرمزي «برايفي سيل» (Privy Seal). اقترحت القيادة المركزية الأميركية نشر بارجتين، أو قواعد بحرية متنقّلة مثلما أسموها رسمياً، على طريق القافلة، على أن تغطّي كلّ بارجة خمسين ميلاً، وذلك بهدف منع الإيرانيين من زرع الألغام وتنفيذ هجمات بالقوارب الصغيرة على سفن الشحن الأميركية، على طريق طوله مئة ميل يمتد من ميناء الأحمدي قبالة الكويت حتى جنوب جزيرة فارسي[684]. كل قاعدة بحرية ستكون مربضاً لأربعة زوارق خفر سواحل طول الواحد منها 65 قدماً ومروحيات للعمليات الخاصة تابعة للجيش. إذا حاول الإيرانيون مهاجمة القاعدة البحرية مباشرةً، فستحميها قوات العمليات البحرية الخاصة ومشاة البحرية المسلحين بقاذفات قنابل أوتوماتيكية، ومدافع ثقيلة وصواريخ مضادة للدبابات، وصواريخ مضادة للطائرات من طراز ستينغر. وبشكل عام، ستضمّ كل قاعدة بحرية 140 رجلاً[685].

في هذه الأثناء كانت إيران تزيد من ضغطها على الكويت، فأطلقت ثلاثة صواريخ من طراز «سيلكوورم» نحو محطة النفط الكويتية الرئيسة في ميناء الأحمدي. ومع أنها جميعها سقطت إلى الجنوب بالقرب من بعض الفيلات على شاطئ البحر في ميناء عبد الله دون أن تخلف أضراراً، إلا أنها كانت تذكيراً صارخاً للكويت بشأن عداوتها لجارتها الشمالية. ردّاً على ذلك طردت الكويت خمسة دبلوماسيين إيرانيين يشتبه في أنهم عملاء سرّيون[686].

كان بول إيفانكو يبدو قدوةً لنخبة قوات العمليات البحرية الخاصة، فقد كان قياديّاً بالفطرة، طويل القامة، رياضي الجسم، ذا شعر داكن وشاربين رفيعين بلون شعره. كان قد ذاع صيته كضابط عدواني أو حتى بلا رحمة، وكان قد خدم كمجند في فيتنام. ترقّى في الرتب العسكرية، وأصبح الآن قائد الوحدة 20 في الأسطول البحري في نورفولك. بعد أن تسلّم قيادته الجديدة وصلته رسالة عاجلة أثناء حفل الاستقبال الذي أقيم لهذه المناسبة تقضي بمنحه ثمانٍ وأربعين ساعة فقط لتجهيز قواربه الأربعة وسبعة وستين ضابطاً وجندياً على متن السفينة البرمائية «يو إس إس رالي (USS Raleigh) والتوجّه إلى منطقة الخليج العربي. في حين بقي إيفانكو أسبوعين في نورفولك يبحث عن المزيد من قطع الغيار وعن قاربي «سيفوكس» أصغر حجماً لنقلهما إلى البحرين، تولّى ضابطه التنفيذي، الملازم أول بيتر ويكول، أمر الزوارق وأبحر على متن السفينة «رالي». يشترك ويكول مع رئيسه بالكثير من المميزات الشخصية، فمع أنه قصير وقوي البنية إلا أنه عدواني ومفرط النشاط. كان قد أُصيب بحروق شديدة أثناء تأدية مهامه كمراقب في لبنان عندما هرع إلى خيمة لإنقاذ رجل أصيب بانفجار سخان غاز البروبان[687].

وصل ويكول والقوارب إلى منطقة الخليج في نهاية شهر آب/أغسطس، وبعد ذلك بأسبوع أجرى أول دوريّة له شمال جزيرة فارسي قبل انطلاق قافلة «إرنست ويل». اتضح أن مراقبة مسافة 530 ميلاً مهمة شاقة وتستغرق خمسة أيام. فبينما كانت بارجة الجنوب توفر لرجالها

الاستحمام ووجبات ساخنة، كان ضجيج المحركات المتواصل في القوارب الصغيرة المصنوعة من الألياف الزجاجية يجعل الرجال والقوارب يصابون بالإرهاق والوهن.

ناضل البنتاغون لتلبية ما طلبه بيرنسن من مروحيات. كانت البحرية تستخدم طائراتها المروحية في الأصل في مهام تدمير الغواصات، ولم ترغب في أن تتحول مروحياتها إلى طائرات مسلّحة. وكان لدى مشاة البحرية مروحيات هجومية بالفعل على متن «غوادالكنال» لكن طياريها كانوا يفتقرون إلى المهارات اللازمة للطيران الليلي وهو الوقت الذي يقوم فيه الإيرانيون بزرع الألغام[688].

أُطْلِع كرو على وحدة النخبة في الأسطول الجوي التابع للجيش، المسماة قوة المهمة 160 (TF-160)، «فرقة المطاردة الليلية»، المتمركزة في قاعدة الجيش الشاسعة في فورت كامبل، بولاية كنتاكي، مقرّ الوحدة إيربورن 101. تشكلت «فرقة المطاردة الليلية» (Night Stalkers) في تشرين الأول/أكتوبر 1981، عقب المحاولة المشؤومة لإنقاذ الرهائن الأميركيين في إيران؛ كانت مهمتهم الوحيدة توفير مروحية لدعم قوات العمليات الخاصة[689]. كانت الوحدة تقوم بعملياتها باستخدام مجموعة متنوعة من مروحيات ذات تصميم مميّز، إحداها كانت مروحية «ماكدونيل دوغلاس 530» (McDonnell Douglas 530) التي أُجريت عليها تعديلات، وكانت تُعرف ضمن مجموعة مروحيات (TF-160) بـ«الطائر الصغير» (little bird). يتكون طاقمها من شخصين، وتبلغ سرعتها 120 عقدة، ومداها مئة ميل. تلك المروحيات الصغيرة، التي تشبه حبّات الحلوى الهلامية، كانت تتميز بقدرتها العالية على المناورة وجهوزيتها السريعة وهدوئها الاستثنائي. فقد صمّمت مروحة الهيلكوبتر 530 بطريقة تجعلها تصدر أزيزاً خافتاً بدلاً من الهدير العالي الذي تصدره معظم المروحيات. وقد قال أحد رجال قوات العمليات البحرية في هذا الصدد: «في الليل، يمكنك أن ترى معالم المركبة قبل أن تسمع صوت محركاتها الدائرة.» هذه الطائرة مصمّمة للعمل حصراً في الليل؛ وقد قضى طياروها مئات الساعات من التحليق وهم يستخدمون نظارات الرؤية الليلية[690]. وهناك نوعان من طائرات الهليكوبتر هذه: نوع هجومي مجهز برشّاش صغير عيار62,7 ملم على أحد جانبيها، وحجيرة صواريخ عيار 75,2 بوصة وبنادق تُطلق طلقات شبيهة بالسهام على الجانب الآخر. بوسع الرشّاش الصغير إطلاق ثلاثة آلاف طلقة في الدقيقة ما يجعله يقطع الهدف كمنشار أكثر منه كرشّاش. تعمل هذه المروحيات في ثلاثية، واحدة للقيادة والتحكم، مجهزة برادار أمامي يعمل بالأشعة تحت الحمراء ونظام تصوير، واثنتان عبارة عن طائرين هجوميين[691].

طار القائد المستقبلي لجميع قوات العمليات الخاصة الأميركية الرائد براين «دوغ» براون، الجنرال ذو الأربع النجوم، إلى تامبا ليطلع كريست على قدرات وحدته. كان براون، البالغ ثمانية وثلاثين عاماً، قد أمضى عشرين عاماً من عمره في الجيش. فقد تطوّع في العام 1967، ولم يمضِ وقت قصير حتى استحق ارتداء القبعة الخضراء الخاصة بقوات الجيش الخاصة. نال فيما بعد ترقية، قبل الذهاب إلى مدرسة الطيران وإلى فيتنام، حيث حصل على وسام «صليب

الخدمة المميّزة في الطيران». في الواقع، لقد نال براون شهرةً استحقها بالفعل بسبب ذكائه وكفاءته اللذين جعلاه يتقدّم في الجيش.

لم يكن الجنرال كريست مفتوناً كثيراً بالقوات الخاصة، وكان يشاركه هذه النظرة العديد من ضباط المشاة الذين حاربوا في فيتنام، فقد كانوا ينظرون إلى القبعات الخضر -وقوات البحرية الخاصة- على أنهم «آكلي أفاع» عدوانيين إلى حدّ التهور، وينبغي أن يظلّوا تحت المراقبة الدقيقة. وصل بروان إلى تامبا في أحد أيامها الصيفية الحارة المزعجة، فوجد قائد القوات البحرية متأهباً للقتال، ولكن كريست علّق قائلاً إنه غير متأكد من أن لدى مروحيات وحدته قوة نارية كافية لمواجهة القوارب الإيرانية الصغيرة. يقول براون مستذكراً: «لم يكن كريست يعتقد أن بوسعنا القيام بالمهمة في الواقع». ولكن طيار الجيش تمسّك بموقفه قائلاً: «سيدي، هناك رجال يستطيعون إطلاق الصواريخ وآخرون لا. نحن من الرجال الذين يستطيعون ذلك!»[692].

كان كريست شخصيّاً سعيداً بالمعلومات التي وصلته، فدوّن على عجل قائمة بقدرات فرقة المطاردة الليلية في مفكّرته ذات الغلاف الأسود. ففي الكواليس، أحب رئيس هيئة أركان القيادة المركزية الأميركية، اللواء دون بنزلر، فكرة استخدام الجيش، فهو يدرك مدى قوة (TF-160) من مهمة سابقة للجيش. لذا فقد عمل مع كلٍّ من هيئة أركان الجيش في واشنطن ومع وحدته في تامبا للدفع باتجاه نشر وحدته، وفعل الكثير للتغلب على المعارضة الناشئة في الرتب الأدنى ضمن القوات المسلحة التي ترفض التعاون غير التقليدي بين الجيش والبحرية[693].

في 4 آب/أغسطس، حلّقت طائرة النقل C-5 وحدها في السماء قادمةً من فورت كامبيل. كانت حمولتها السّرية تتكون من ست مروحيات من نوع «الطائر الصغير»، بالإضافة إلى تسعة وثلاثين رجلاً وخمسة صنايق كبيرة من المعدّات. وصلت الطائرة إلى مطار البحرين سراً في ساعات الصباح الأولى في الخامس من شهر آب/أغسطس، وسارت على المدرج حتى وصلت إلى عنبر الطائرات الصغيرة الخاصة بالبحرية الأميركية في المطار. وافق البحرينيون على مضض على السماح للمروحيات بالهبوط العبوري في مطارهم شريطة أن تغادر الطائرة قبل طلوع الفجر، وأن تموّه صناديق الذخيرة والأسلحة بغلاف وكتابة غامضة بحيث لا يُعرف محتواها[694].

كان في استقبال براون والآخرين رائد من سلاح الجو يرتدي عباءة وغترة وعقالاً، بدا كشيخ بزيّ عربي يُذكّر بلورنس عرب عصري، في محاولة واهية للتمويه. أوضح الرائد لهم أنّ عليهم، وفق خطة لتغطية تحركاتهم، اللحاق بمروحية بحرينية إلى خارج المطار. ثم أضاف: «سوف نتصل بالبرج، عليكم أن تطفئوا أضواءكم وتلحقوا بنا. سنجتاز مسافة عشرة أميال إلى الخارج ونلتفّ، وتتابعون أنتم الرحلة إلى السفينة 'لا سال'». في خلال ساعة ركّب طاقم الجيش المروحيات الست التي انطلقت تتعقّب المروحية البحرينية عن قرب، وهبطت على متن «لا سال».

وفي اليوم التالي قابلوا بيرنسن وأركان عملياته. كانت مقدرات TF-160 تُحاط بالسرية التامة داخل الجيش الأميركي، ولم يكن لدى بيرنسن ولا موظفيه فكرة عما بوسع هذه المروحيات

فعله. اقترحوا في البداية استخدامها لتحلّق في وضح النهار على رأس القوافل بحثاً عن ألغام. عارض براون بطريقة مهذبة قائلاً: «سيدي، سنفعل ما تريد، ولكن ذلك هدر لقدرة هائلة. إننا مقاتلون ليليون»! لقد أرسلتهم القيادة المركزية الأميركية بهدف استخدامهم لمطاردة القوارب الإيرانية الصغيرة المشبوهة أو تلك التي تزرع الألغام ليلاً، وليس للتحليق في وضح النهار في مقدمة القوافل بحثاً عن الألغام. الواقع أن بإمكان أي مروحية عاديّة القيام بذلك. فهم بيرنسن الفكرة على الفور، وبعد يومين أرسل كتيبة إلى الباخرة الأميركية «يو إس إس جاريت» (USS Jarrett) لمرافقة قافلة «إرنست ويل» المقبلة.

دعماً لمهمة بيرنسن طلب ضابط الاستخبارات البارز في القيادة المركزية الأميركية، العميد كلويد فيستر، المزيد من المعلومات الاستخباراتية عن منطقة الخليج. بعد مناقشات مع مستشار الأمن القومي فرانك كارلوتشي والرئيس ريغان، وافق واينبرغر، في 9 أيلول/سبتمبر، على القيام بعمليات استخبارات قومية سرية كجزء من عملية دعم لمهمة «إرنست ويل» عن كثب، وأطلق على هذه العملية الاستخباراتية اسماً استثنائياً فريداً هو عملية «بولين كونت» (أي غبار الطلع)، حيث تُرسَل فرق تشكلت خصيصاً لهذه المهمة من وكالة استخبارات الأمن القومي إلى منطقة الخليج[695]. تسافر هذه الفرق حاملةً أجهزة اتصال صغيرة وتتموضع في الخطوط الأمامية، كلٌّ منها على متن مدمرة أو فرقاطة من مدمرات وفرقاطات البحرية التي تقوم بدوريّات في الخليج. كان الغرض منها مزدوجاً: الأول، توفير قدرة أفضل للتنصت على الاتصالات العسكرية الإيرانية، والثاني، الاستفادة من مجموعة واسعة من الإشارات الاستخباراتية الأميركية[696]. هذا يسمح بإرسال المعلومات الاستخباراتية القومية مباشرةً إلى القوات التكتيكيّة الأحوج إليها، إذ تسمح لها بالردّ بسرعة على أي معلومات استخباراتية يلعب فيها الوقت دوراً حسّاساً يتم جمعها في مقر وكالة الأمن القومي في فورت ميد بولاية ماريلاند. ترتدي هذه القوات سراويل خضر وزرق غير مميّزة، وقد انضمّت إلى مجموعة متنامية من الوحدات «السود» المشابهة، من كتيبة الاستطلاع اللاسلكي المؤلفة من خمسة رجال، إلى وحدة النخبة في الجيش تحت إمرة قيادة العمليات الخاصة الأميركية (سوكوم) ووحدة الدعم الاستخباراتي (ISA)[697]. وكما قال أحد رجال الاستخبارات في وقت لاحق: «كانت مجموعة من القطط والكلاب ’المخيفة‘ تتجول في الخليج مرتديةً أزياء جميلة»[698].

في الوقت الذي كانت قوات الشرق الأوسط تطبّق نظامها الجديد في المراقبة، اهتمت القيادة المركزية الأميركية بإعداد مجموعة جديدة من الخطط السرية للتعامل مع الإيرانيين. بعد فترة وجيزة من ارتطام «بريدجتون» بلغم، فرضت هيئة الأركان المشتركة إعادة النظر في خطط «تطبيق الحلول» (Invoke Resolve). وكجزء من هذا المسعى بدأت القيادة المركزية الأميركية بالاهتمام بتطوير بدائل تهدف إلى «اقتلاع عيون إيران»، حسب وصف كريست. كانت فكرته تقضي بالاستيلاء على الجزر الإيرانية الرئيسة في الخليج مثل فارسي أو أبو موسى أو سري أو طنب. الجزر الثلاث الأخيرة ما زالت موضع نزاع مع دولة الإمارات العربية المتحدة بعد أن احتلها الشاه وضمّها إلى إيران بحكم الأمر الواقع. ولمّا جسّ كريست نبض دول مجلس التعاون الخليجي استنتج أن الاستيلاء عليها لن يغضب كثيراً الجانب العربي في الخليج، ولن يتسبّب بتصعيد درامي

كبير من قبل الإيرانيين كما لو شنّ الأميركيون هجوماً مباشراً على البرّ الإيراني، مثل إحدى الجزر الإيرانية الأصليّة كبندر عباس أو جزيرة قشم. إن الاستيلاء على هذه البؤر الإيرانية في الخليج العربي سوف يزيل قواعد عملياتهم الرئيسة ويبعد قواتهم البحرية والحرس الثوري الإيراني بشكل فعّال عن منطقة الخليج، ويعيدهم إلى موانئهم، ويقضي على قدرة إيران على إرسال أيّ قوى عسكرية إلى منطقة الخليج يمكن أن تهدّد حركة مرور ناقلات النفط.

كانت وجهة النظر هذه مهمة جداً، لاسيما في نظر البيت الأبيض ووزير الدفاع. والواقع أن كلاًّ من واينبرغر وريتشارد أرميتاج دعما استراتيجية كريست. لم تكن لدى واينبرغر نيّة لتوريط الولايات المتحدة في حرب كبرى مع إيران أو دفعها لاجتياح البرّ الإيراني. أضف إلى ذلك أن الاتحاد السوفيتي كان لا يزال يشكّل تهديداً في أوروبا والشرق الأقصى، والولايات المتحدة تفتقر، ببساطة، إلى القوة التي تحتاجها لتنتشر على مساحة إيران الشاسعة ولتحقّق أي نتيجة حاسمة أو نهائية. كانت مشاعر أرميتاج صدىً لمشاعر واينبرغر، فمهما كان نظام الخميني ضعيف الشعبية، إلا أن الإيرانيين شعب فخور بقوميته، وهو يخشى أن يؤدّي مثل هذا الهجوم الصريح إلى احتشاد الجماهير وراء الملالي وبالتالي يزيد الدعم لهذا النظام. وكان أرميتاج يرى أن أي تصعيد جدّي في الصراع سيؤدي على الأرجح إلى أن تطلق إيران أذرعها في الغرب، أضف إلى ذلك أنّ لدى الإيرانيين شبكة إرهابية قوية في أوروبا، وقد استنتجت وكالة الاستخبارات الأميركية أن الإيرانيين سيحاولون على الأرجح استخدامها إذا ما هاجمت الولايات المتحدة الأراضي الإيرانيّة. وبالتالي، المهمّ بنظر واينبرغر وأرميتاج، هو أن تشن واشنطن حرباً محدودة على إيران لتحقيق أهداف الولايات المتحدة المتمثلة في ضمان حرية الملاحة وحماية ناقلات النفط الكويتية وفرض ما يكفي من الضغط لاحتواء الطموحات الإيرانية في الخليج دون تصعيد الصراع.

بالإضافة إلى هذه الخطط العلنية ضد إيران، طلبت القيادة المركزية الأميركية المساعدة على تطوير خيارات سريّة، في حال قرّر الرئيس ريغان أن تردّ واشنطن على اعتداءات الإيرانيين بـ«يد واشنطن الخفية»، فكان أن أوكلت مهمة تطوير الخطط «السود» إلى قيادة العمليات الخاصة التي أُنشئت حديثاً، وهي على بعد بضع مئات من الياردات فقط من مقر القيادة المركزية الأميركية في قاعدة ماكديل للقوات الجوية. ولأن جيمس ليندسي كان قائداً حديث العهد على رأس قيادة العمليات الخاصة ويتطلّع إلى مهمّة يقوم بها فقد دعم فكرة إعداد خطط متعدّدة ضد إيران، وأمر بإنشاء خلية تخطيط خاصة لدعم الجنرال كريست. ضمّت هذه الخلية الضابط الأسطوري في القوات الخاصة العقيد واين لونغ. كان هذا الأخير يعمل بشكل وثيق مع خلية تخطيط خاصة أخرى مماثلة ضمن القيادة المركزية الأميركية J-3، تحت قيادة ضابط مدفعية الجيش العقيد جيمس «غانر» لوز، فوضعا عدداً من الخيارات، وفي أواخر تموز/يوليو وفي شهر آب/أغسطس تحولت هذه الخيارات من مناقشات تُجرى في قاعة الاجتماعات إلى خطط مكتوبة.

من الأفكار التي لاقت استحساناً تلك التي قضت بالتخلص من السفن المشتبه بأنها تقوم بزرع الألغام والراسية في مينائي بوشهر وبندر عباس. حدّدت الاستخبارات الأميركية بدقّة السفن القليلة نسبيّاً المشتبه بها، وهي عبارة عن سفن دعم وسفن برمائية صغيرة، وتأكّدت من معلوماتها

من خلال بيانات الأقمار الصناعية أو الإشارات الاستخباراتية. باتت الفكرة كما يلي: فريق صغير من الضفادع البشرية يتمّ إنزاله عن سفينة أميركية أو غواصة في المياه الدولية، وباستخدام مركبة نقل صغيرة وسريعة تعمل فوق وتحت الماء خاصة بالقوات العمليات الخاصة يتسلّل الرجال الضفادع ويدخلون خلسةً إلى مرفأ إيراني، عاملين فقط تحت سطح الماء دون أن يصدروا أي جلبة أو يتركوا أيّ أثر يشير إلى وجودهم، ثم يسبحون إلى السفن المستهدفة ويزرعون متفجرات موقوتة في أسفل هياكلها، وعندما تبتعد قوة العمليات الخاصة وتصبح بأمان تنفجر الشحنات الناسفة فتغرق سفن زرع الألغام في قاع الخليج. وبما أنه لا دليل يشير إلى مسؤولية الولايات المتحدة فسوف تعتمد واشنطن سياسة الإنكار المقنع. إنها مجازفة عالية الخطورة بالطبع، لذلك اعتبرها الرئيس وكبار مستشاريه العسكريين خيار الملاذ الأخير. وبحسب وصف أحد الضباط الكبار: «سوف تذوق طهران السمّ الذي تطبخه».

رسمت هذه الخلية خططاً أخرى أقل سريةً بكثير. فكّروا في استخدام قوات العمليات الخاصة لتنفيذ سلسلة من غارات الكرّ والفرّ على مواقع صواريخ «سيلكوورم» الإيرانية وعلى الجزر الإيرانية أيضاً، على أنّ تساندها نيران رشاشات البحرية الأميركية وطوّافاتها. كان مخططو قوات العمليات الخاصة في الخليج، وأيضاً في تامبا، أقل حماسة بشأن هذه الخيارات. فهذه الخطط محفوفة بالمخاطر، والجزر صغيرة جداً ومحصّنة بشكلّ كبير ومن الصعب تنفيذ غارة عليها دون الاستيلاء على الجزيرة بأكملها، وهذا يتطلّب قوة برية أكبر من تلك التي تمتلكها قيادة العمليات الخاصة الأميركية في البحرية، كما ويستدعي جلب قوة إضافية من مشاة البحرية. وللتعامل مع صواريخ سيلكوورم في جزيرة قشم ابتكروا خطة تقوم على إدخال كتيبتي «رانجر» بواسطة مروحيات MH- 53 التابعة للقوات الجوية الأميركية تنطلق من جزيرة «مصيرة» في سلطنة عمان بهدف تدمير المواقع الإيرانية بعملية سريعة، مكثفة ومباشرة. قال واين لونغ في وقتٍ لاحق: «لم تصل هذه الخطط إلى مرحلة التدريبات أبداً، ولكننا وضعنا الخطط المطلوبة في حال احتجنا إليها»[699].

حاولت بعض المخططات الغريبة التي وضعها لونغ استغلال الانقسامات داخل إيران لتوفير غطاء للعمليات السرية الأميركية. قضى أحدها استخدام المنفيين الإيرانيين، للتسلل إلى إيران بمساعدة قوات العمليات الخاصة الأميركية وضرب بعض مواقع صواريخ «سيلكوورم» المنتشرة حول مضيق هرمز. كما أملت خطة ثانية الاستفادة من التوتر المتزايد الذي كشفت عنه الاستخبارات الأميركية بين الحرس الثوري المتشدّد والقوات البحرية والجوية الإيرانية النظامية التي درّبتها الولايات المتحدة. لم يكن الاقتران بينهما ناجحاً؛ إذ كانت الثقة بين الطرفين معدومة. فالأول يضمّ أشخاصاً عقائديين متحمّسين لكن يفتقرون إلى التدريب، أما الثاني فكان أكثر احترافاً ومتحفظاً بعض الشيء. لقد كانت قيادتاهما منفصلتين، فقد كان الحرس الثوري مستقلاً عملياً وفي كثير من الأحيان لم يكن يبلغ طهران بشأن أنشطته وعملياته. وقد نشبت بين القوتين في مناسبات عدة خلافات أدت إلى تبادل إطلاق النار. كان العقيد لونغ يأمل في الاستفادة من هذا النزاع، فهو يوفر للولايات المتحدة القدرة على الإنكار في الوقت الذي تسعى فيه إلى إذكاء التوتر القائم بين

الجيش النظامي والحرس الثوري. لذلك رسم لونغ خطة يستخدم فيها مروحية أميركية من طراز هيوي (Huey) - وهي مركبة شائعة الاستخدام في الجيش الإيراني- سيتم إعادة طليها باللونين البني والأسمر الضارب إلى الصفرة، بما في ذلك الشارة الوطنية الإيرانية بحيث تُطلى بالأخضر والأبيض، ورسم شعار أحمر دائري على ذيل المروحية، فتبدو كأنها مروحية إيرانية. سيقودها طيار أميركي برتبة ضابط صف من القوة TF-160 يجيد الفارسية، وستقترب هذه المروحية الإيرانية المموّهة من إحدى منصات النفط التي يستخدمها الحرس الثوري لشنّ هجمات على سفن الشحن في الخليج، كمنصة سيري أو رستم، وبعد إلقاء التحية على العاملين في المنصة لطمأنتهم وجعلهم يصدقون أن هذه المروحية صديقة، تقترب المروحية من أهدافها ثم تطلق وابلاً من نيران الرشاشات والقذائف الصاروخية. وإذا حالف الحظ الطيار فسيقصف المنصة ويوقف العمل فيها، وسوف يلقى اللوم على الوحدات الممتعضة في الجيش الإيراني. لكن الرئيس ريغان لم يوافق قط على العملية، الأمر الذي أغضب لونغ[700].

قال بيرنسن في إحدى مقابلات التاريخ الشفهي: «كان يبدو أن كل شيء يسير على خير ما يرام، إلى أن كادت العملية برمتها أن تتوقف تقريباً»[701] حين ارتفعت الاعتراضات البيروقراطية بعد أن انصدمت هيئة الأركان المشتركة والمكاتب الأربعة بمخطط القيادة المركزية الأميركيّة الرسمي المتعلق بإقامة قواعد بحرية متنقّلة. طالبت القيادة البحرية بأكملها ومؤيدها الأمين قائد قوات مشاة البحرية الأميركية الجنرال ألفريد براون بشدة بإلغاء هذه الفكرة، ورفض الأمين العام للبحرية جيمس ويب تحمّل مسؤولية أي شيء يتعلق بالبرنامج. كما رفض المعارضون هذه القواعد البحرية المتنقّلة بحجة أنها لم تكن متنقّلة بالفعل ولأنها تفتقر إلى أي حماية ضد الطائرات أو الصواريخ المتجهة نحوها. الحقيقة أن القواعد البحرية المتنقّلة كانت بمثابة إغراءٍ متدلٍّ قبالة إيران يضمّ ثلاثمئة أميركي لا حول لهم ولا قوة في مواجهة الصواريخ إيرانية وأمام هجوم جوي محتمل قد يقضي عليهم جميعاً. اعترض النقاد على أن تقود قوات العمليات الخاصة هذه المهمة إذ تعذّر عليهم أن يفهموا كيف يمكن دمج هذا المزيج من مشاة البحرية والبحارة وقوات العمليات الخاصة في وحدة متماسكة. في عصر يسود فيه ضيق الأفق في الخدمة، تكون قلّة ممّن يرتدون الزي العسكري مستعدة للقبول بمثل هذا المستوى من التوافق بين القوات المسلحة[702].

طيلة الأسبوع التالي تدفقت المذكرات والرسائل والمكالمات الهاتفية الآمنة إلى القيادة المركزية الأميركية وإلى مكتب رئيسها من كل مسؤول رفيع في القيادة البحرية، كلّها تعارض الفكرة. كتب أحد الأدميرالات قائلاً: «إنها مجازفة لا مبرّر لها بحياة الجنود الأميركيين». واعتبر قائد الأطلسي، الأدميرال لي باغيت الابن، أن الفكرة مجنونة، وقال لكرو وكريست أيضاً خلال الاجتماع السنوي للقادة حملة الأربع نجوم في فورت ليفنوورث: «إنها ثكنات بيروت العائمة!»

كانت أشد الرسائل قسوةً تلك التي أرسلها رجل البحرية المتهور والطيار المغرور اللواء رويال مور الابن، ذو الشعر الداكن والذقن المربعة. كونه ضابط عمليات الأدميرال رونالد هايز في قيادة المحيط الهادي، ما إن تناهت إلى مسمعه فكرة القاعدة البحرية حتى رفع سمّاعة الهاتف

واتصل بنظيره في القيادة المركزية الأميركية، اللواء صموئيل سوارت، في سلاح الجو، معترضاً بشدة على هذه الخطة واصفاً إيّاها «بالفكرة التي لا تقوم على التمعن والتفكير بل على التكهن وقلة الدراية» وأنها «ستسبّب بقتل الناس»[703].

فاقمت معارضة إنشاء القواعد البحرية مشكلات كريست داخل البنتاغون. دعا كرو قائد القيادة المركزية الأميركيّة للمجيء إلى واشنطن للدفاع عن حجم القوة المشتركة أمام هيئة الأركان في المركز الرئيسي. على مدى ساعتين قام القادة بانتقاد مركز القيادة الذي تمّ التخطيط لإقامته، وقد تزعّم هذا الهجوم كلٌّ من تروست وآل غري. اعتبر الحاضرون أن الـ 96 رجلاً الذين يريدهم كريست رقمٌ كبير، لذا قام القادة سريعاً بتخفيض العدد إلى النصف، أي إلى اثنين وخمسين رجلاً، وذلك دون الدخول في تحليل ما يستطيع أن يفعله كلّ فرد منهم. انتقدوا بحدة العملية برمتها وقيادة كريست المشتركة وخطة المراقبة، ورفضوا بشكل قاطع الكثير من أفكار كريست، كتعيين قوة عمليات خاصة لإدارة جميع العمليات الخاصة، والقواعد البحرية المتنقّلة. كما انتقد غري تعيين نائب من القوات الجوية وقال بازدراء: «إذا قُتل الأدميرال فسيكون لديك رجل من سلاح الجو يقود سفن البحرية». فكّر كريست وهو يهزّ رأسه: «إذا كان علينا أن نقلق بشأن مقتل أدميرال فلدينا مشكلات أكبر من مسألة استبداله البسيطة».

أوقف كرو أخيراً الانقسامات المريرة والشجارات داخل المؤسسة العسكرية قائلاً: «علينا أن ندعم جورج وأن نتأكد من حصوله على كل ما يحتاج إليه». ولكن قائد هيئة الأركان المشتركة أيّد فكرة تحجيم المقرات المشتركة ودعم الخطة الجديدة لمحاربة عصابات البحرية الإيرانية.

ضغط بعض كبار ضباط البحرية وقتئذٍ باتجاه إقالة كريست، ولكن الذين خططوا لذلك ظلّوا مجهولين، ولكن ظهرت بصمات نائب رئيس العمليات البحرية الأدميرال هنتنغتون هارديستي وآيس ليونس في تلك الجهود[704]. كانت فكرة القواعد البحرية هي القشة التي قصمت ظهر البعير ضمن سلسة من القرارات التي اتّخذها كريست والتي يُعتقد أنها تقوّض استقلالية عمل القوات البحرية وتفتقر إلى الحسّ العسكري السليم. نزولاً عند ضغوطهم أثار كرو القضية مع واينبرغر في مناسبتين منفصلتين. قال كرو في اجتماع مع وزير الدفاع: «لعلنا بحاجة لاستبدال كريست. لقد فقد ثقة البحرية». وقبل يومين فقط من ترؤس كرو اجتماعاً بشأن إقالة آيس ليونس أوصى باستبدال كريست بتوم مورغان نائب قائد القوات البحرية. لم يتم تسجيل إجابة واينبرغر، ولكن ريتش أرميتاج المقرب منه تذكّر قائلاً: «لقد تصرّفت البحرية بشكل سيئ للغاية طوال العملية بأكملها. من المرجح تكون قد فقدت ثقتها بوزير الدفاع». بقي كريست في منصبه، ولم يعد كرو إلى إثارة هذا الموضوع ثانيةً إطلاقاً[705].

لم يكن كريست يعلم أن كرو كان يناقش مسألة استبداله، والواقع أن كريست استسلم للضغوط الممارسة عليه فعقد في مقره في قاعدة ماكديل الجوية مؤتمراً استمر ثلاثة أيام تناول فيه موضوع القواعد البحرية. صباح يوم 9 أيلول/سبتمبر تجمّع الضباط المحتشدون في القاعة الرئيسة في الطابق الثاني في المبنى المركزي، تماماً تحت مكتب كريست. وقد حضر ضباط كبار وممثلون

عن جميع إدارات وزارتي الدفاع والبحرية، وكان معظمهم يرتدي زي البحرية الأزرق وكانوا ينوون إسقاط المخطط[706]. أوضح لوغو الفكرة عموماً: «سوف تتمركز بارجتان على امتداد مئة ميل في شمال الخليج لتغطية هذه المنطقة الضيقة الاستراتيجية، وستكون كل قاعدة بحرية مسؤولة عن فرض سيطرتها على ‘ممرّ’ طوله خمسين ميلاً، على طول طريق القافلة». هذا يعدّ بديلاً لا كلفة له عن المخاطرة بحياة العديد من مقاتلي البحرية. هذا المزيج من طائرات الهليكوبتر والقوارب الصغيرة وقوة النيران المتوافرة على البارجتين للدفاع عنهما هو أكثر من قادر على التعامل مع أي تهديد إيراني. كانوا يهدفون إلى تحريك القواعد البحرية عشوائياً كل بضعة أيام بين الجزر ومنصات النفط السعودية المنتشرة في شمال الخليج بهدف إضعاف احتمال أن يقوم الإيرانيون باستهداف القواعد البحرية[707].

كان الضباط يصغون بتشكيك ولكن بانتباه، وكانوا يطرحون الأسئلة بين الفينة والأخرى. وعندما سُئل عن احتمال قيام إيران بإنزال على البارجتين ردّ لوغو قائلاً إن الجنود المكلّفين ستكون بحوزتهم مسدسات عيار 9 ملم ورشاشات M-16 وبنادق آلية مختلفة وقنابل يدوية، وسيكونون قادرين على «صدّ الجنود الذين قد يتمّ إنزالهم». أدّى ذلك إلى تعليق ساخر مكتوم من قبل ضابط برتبة ملازم ثانٍ: «هل ستزوّدنهم بقطالس[708] البحارة أيضاً؟»[709].

لم يؤثر المؤتمر البتة في تغيير آراء المعارضين للقواعد البحرية، إذ ظلت الغالبية العظمى من الحضور تعارضها[710]. في اليوم التالي للمؤتمر أرسل رويال مور رسالة شخصية إلى كبير ضباط التخطيط لدى كريست، العميد البحري وليام فوغارتي، قائلاً: «بيل، تعلم أنني أثرت شكوكاً خطيرة حول فكرة القواعد البحرية. وتقييمي بعد ما رأيته وسمعته هو أن ثمة شوائب كثيرة في الفكرة بحيث ينبغي التخلّي عنها»[711].

كان الأدميرال كرو قد أيّد فكرة القواعد البحرية المتنقّلة منذ لحظة التفكير فيها، ولكن مديرية العمليات الخاصة به في هيئة الأركان المشتركة أوصت، هي أيضاً، بعدم الشروع في هذه المغامرة[712].

في حين كان كريست يمتلك السلطة القانونية لتنفيذ خطة القواعد البحرية المتنقّلة، وكانت لديه النية للدفع قدماً في نشر المراكب على الرغم من تصاعد معارضة الإدارات البحرية بأكملها، إلا أنّ القضية رُفعت إلى مكتب واينبرغر. هددت معارضة البارجتين بقتل فكرة القواعد البحرية المتنقلة. بل حتى ريتش أرميتاج، المؤيد القوي لكلٍّ من كريست وفكرة البارجتين، كان يخشى أن تكون المعارضة أقوى من أن يستطيعوا تجاوزها.

وصل كرو إلى البحرين في 17 أيلول/سبتمبر، حيث قضى اليومين التاليين وهو يستطلع سفناً أميركية عدة وصعد على متن سفينة خفر السواحل «مارك 3»، كما وصعد على متن السفينة هرقل، وتحدث إلى قوات البحرية الخاصة بشأن عملياتهم المخطّط لها ومخطط الدفاع عن

البارجتين. وبعد جولته تلك، وعلى أثر اجتماعات عديدة مطولة مع بيرنسن، بعث برسالة إلى واينبرغر وكريست وضعت حداً للهجوم العلني من جانب البحرية فيما يتعلق بالقواعد البحرية المتنقلة. وبعد أن أشاد كرو بهال بيرنسن، تحدث عن البارجتين قائلاً: «أدرك أن هناك الكثير من المعارضين لإرسال البارجتين، ولكن بعد الجولة التي قمت بها أصبحت مرتاحاً لفكرة إرسالهما أكثر من ذي قبل». البارجتان بديل «منطقي» وينبغي المضي قدماً فيه[713]. وافق واينبرغر.

كانت قيادة الملازم عبدول فولادفَند متراخية. مباشرةً بعد وفاة الشاه في العام 1979 تسلّم عبدول قيادة سفينة لوجستيّة يبلغ طولها 176 قدماً كانت تُدعى قبل الثورة «آريا رَخش» و«إيران أجر» بعدها. عبدول فولادفند رجل نحيل، يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، شعره داكن وكثّ. في مقدمة السفينة المطلية بلون رمادي ضبابي ثمة جسرٌ متحرك وسطح واسع مفتوح لتحميل البضائع، ويرتفع في مؤخرتها مبنىً ضخم فيه قمرة الربان وغرف لطاقم مؤلف من عشرين فرداً تقريباً. لقد تركت الحرب بصماتها على سفينة فولادفاند الصغيرة فكان يكتفي على مر السنوات القليلة الماضية بتنقلات قصيرة من بندر عباس لإمداد الجيش الإيراني في جزيرة أبو موسى ومنصات النفط، ولكن مشقة الحرب دفعت بفولادفند إلى تخزين الإمدادات فملأ حجرته بالمواد الغذائية، بما في ذلك الأسبرين المنتج في إيران الذي تبيّن أنه دواء وهمي. لم تكن نظافة السفينة أو صيانتها من أولويات الكابتن الشاب. لقد بنى اليابانيون «إيران أجر» في العام نفسه الذي تولّى فيه فولادفند مهمة تشغيلها، لكن حتى في ذلك الوقت كانت تُظهر عليها علامات الصدأ وتقشّر الطلاء، ولم يسبق أن قام بتنظيفها فالشحوم والأوساخ تعم كل المقصورات والغرف. المرحاض الوحيد على متنها تعطّل منذ زمنٍ طويل، لكن هذا لم يمنع الطاقم من استعماله، فكان البراز يفيض في المرحاض والرائحة النتنة تلاحق الطاقم في كلّ أنحاء السفينة.

تعدّ بندر عباس مدينة صغيرة نسبياً، ففي منتصف الثمانينيات كان عدد سكانها اثني عشر ألف نسمة فقط، وهي الميناء الإيراني الرئيس في الجنوب ومركز تجاري رائد في المنطقة. داخل حاجز الأمواج الإسمنتي الكبير ثمة منطقتان متميزتان: منطقة تجارية وقسم البحرية الواقع في ميناء يتّخذ شكل الحرف اللاتيني (L). وتحتلّ قاعدة بحرية إيرانية المحور الأفقي القصير لهذا الحرف. في شهر آب/أغسطس من العام 1987 تلقّى فولادفند أمراً بأن يرسو بسفينته في الجانب التجاري في ميناء بندر عباس، وأن تُربَط «إيران أجر» بأحد الأرصفة التي على شكل حرف (T) بين السفن التجارية. في مستودع كبير قريب من الرصيف، كان الحرس الثوري يخزن العشرات من الألغام الأسطوانية السوداء الكبيرة المعدّة لتحميلها على متن سفينة زرع الألغام. ظلت الألغام هناك أكثر من شهر، إلى أن جاء عميل إيراني من البحرين وأعطى الحرس الثوري جدولاً بمواعيد إبحار إحدى السفن، فاتخذت طهران قراراً سريعاً بمحاولة تلغيم هذا الهدف ما دامت لديها الفرصة.

في منتصف شهر أيلول/سبتمبر، وصل ضابطان من الحرس الثوري يرافقهما فريق صغير وتوليا أمر سفينة فولادفند. كان يقود هذه المجموعة الخاصة برويز فَرشجيان، وهو بحار قديم قضى ستة عشر عاماً في البحر، كما أنه يتكلّم اللغة الإنكليزية بطلاقة، ويُعدّ داعية إسلامياً قوياً. كان نائبه فرهاد إبراهيمي شخصاً هادئاً يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً، وهو محارب قديم

قضى عشرين عاماً في مشاة البحرية الإيرانية، وانضم إلى الحرس الثوري حيث درّبته قوات الحرس الخاصة لتنفيذ عدد من الهجمات الفدائية ضد العراقيين. إبراهيمي رجل مثير للإعجاب، ويتكلّم اللغة الإنكليزية بطلاقة، ويحب التباهي بثروته وسلطته من خلال وضع ساعة رولكس خاصة بالغوص باهظة الثمن[714]. أمر فَرشجيان بإخراج ثمانية عشر لغماً من المستودع وتحميلها على سطح السفينة المفتوح بسرعة، فوُضعت مع براميل النفط وغُطّيت بقماش القنّب الثقيل في محاولة لإخفاء شحنته غير المشروعة، وقام طاقم السفينة بتلحيم لوح معدني على مؤخرة السفينة ليتدلى على جانبها الأيمن. كان الإيرانيون قد قرروا شنّ هجوم آخر بالألغام. لقد شجّعتهم نجاحاتهم السابقة على المضي في ذلك، فقرروا هذه المرة استهداف بيرنسن مباشرة. أراد فَرشجيان زرع ألغام في القناة الرئيسية المؤدّية إلى البحرين وفي القاعدة البحرية الأميركية، وصادف أن السفينة «لا سال» كانت تنوي إجراء مناورات مدفعية في المنطقة التي خطّط فَرشجيان أن يزرع فيها ثمانية عشر لغماً[715].

لم يرحّب طاقم سفينة «إيران أجر» بالوافدين الجدد، فقد كان أفراد الحرس الثوري يعاملون رفاقهم الأقلّ تفانياً في خدمة القضيّة بغطرسة واضحة، وكانوا يأكلون وينامون على حدة، ونادراً ما كانوا يختلطون بهم. الحقيقة أن بعض بحارة البحرية النظامية كانوا يكرهون الجمهورية الإسلامية، وقد كشف أحد المجنّدين أنه لو لم يكن المعيل الوحيد لأمه العجوز لانشقّ عن البحرية بكل سرور.

غادرت «إيران أجر» بندر عباس بهدوء في 20 أيلول/سبتمبر، وكانت التعليمات الأولى التي وُجِّهت إلى فَرشجيان تقضي بأن يُبلغ عن موقعه كل ساعة، وكان يفعل ذلك بتفانٍ، وينهي كل رسالة بـ«قائد الوحدة الخاصة لمهمة إيران أجر»[716]. بما أن المهمة كانت سرية فقد موّه فَرشجيان العملية بصفتها عبور روتيني إلى الميناء الشمالي في بوشهر. لقد بالغ الإيرانيون في سرّية هذه المهمة وقفز ثمانية جنود إيرانيين على الأقل عن متن السفينة ليقوموا بزيارة سريعة لعوائلهم وأصدقائهم في بوشهر. بعد الوقوف طوال الليل في منصة «رستم» النفطيّة لنيل الموافقة النهائية واصلت «إيران أجر» الإبحار شمالاً، وفي مساء يوم 21 أيلول/سبتمبر انحرفت السفينة عن مسارها وتوجّهت غرباً نحو البحرين.

كادت الاستخبارات الأميركية أن تضيّع «إيران أجر». الواقع أن أقمار التجسس التقطت صورة ألغام على رصيف تحميل السفن قرب سفينة «إيران أجر» وسفينة أخرى مربوطة إليها في 16 آب/أغسطس من العام 1987، ولكن تلك الصورة فُقدت بطريقة ما ولم تصل إلى بيرنسن في الخليج. قبل ثلاثة أيام من مغادرة «إيران أجر» بندر عباس ذكر استشاري لدى الاستخبارات: «لا أتوقّع أن تزرع إيران أيّ ألغام في الأسبوع القادم». علم زيغلر بهذا الهجوم الوشيك بعد مغادرة سفينة «إيران أجر» المرفأ؛ حيث بدأت سلسلة من اعتراضات المكالمات تتدفق إلى مقرّه الصغير السري على متن «لا سال»، كلّها صادرة من سفينة تطلق على نفسها اسم «وحدة المهمة الخاصة» تقدّم تقاريرها على شكل رسائل سريعة لمقرّها كلّ ساعة. بدأ زيغلر بتتبع تحركات «إيران أجر»،

وعندما توقفت في منصة رستم النفطية المحصّنة بالحرس الثوري تلقّت بلاغاً رسمياً بأن العملية ستكون في الساعة الحادية عشرة في الليلة التالية، فأسرع زيغلر ليخبر بيرنسن. أمر قائد قوة الشرق الأوسط البارجة «يو إس إس جاريت» بالتحقّق من البلاغ. كان على متن هذه الفرقاطة الأميركية ثلاثاً من مروحيات «الطائر الصغير» (Little Birds) التابعة للجيش[717].

في الساعة العاشرة مساءً أقلعت ثلاث مروحيات على شكل حبة فاصولياء هلامية صغيرة من على متن السفينة في ليلة غير مقمرة، وفي غضون أربعين دقيقة كانت المروحيات قد اقتربت من السفينة الإيرانية في حدود مئتي ياردة، وبقيت تحلّق بحذر عكس اتجاه الريح لئلا يُسمَع هديرها. كان الطياران الأميركيان يراقبان، وقبل حلول ساعة السِحْر، في الحادية عشرة تماماً، أمر فرشجيان بإطفاء أضواء الملاحة على السفينة. ثم أمر إبراهيمي ستة إيرانيين برفع الغطاء الثقيل عن الألغام وبراميل النفط، وبدأوا بطريقة ممنهجة بدمج وترتيب تلك الأجسام الكروية السود على سطح السفينة المكشوف. كان فرشجيان يحمل ساعة ميقاتية لتحديد المسافات الفاصلة بين الألغام، وأمر بدحرجة مواد متفجرة تزن 253 باوندا أسفل سلم السفينة المتحرك الصغير لتسقط في المحيط. بخصوص ذلك، نقل أحد طياري الجيش كان يراقبهم قائلاً إنهم كانوا يدفعون «بأجسام تشبه الألغام» عن جانب السفينة[718].

أصغى بيرنسن وضابط عملياته إلى تقارير يرسلها مركز القيادة على متن سفينة «لا سال». كان بيرنسن في الجهة الأخرى من الحجرة يتحدث على الهاتف الآمن مع كريست الذي صادف وجوده في خليج عُمان في اجتماع له مع ديني بروكس، تزامناً مع جهوزية قوات المهمة المشتركة الجديدة رسمياً، في اليوم الذي غادرت فيه سفينة فيه «إيران أجر» الميناء. وعندما سمع بيرنسن كلمة «جسم يشبه لغماً» أمر غريف: «أطلقوا عليهم النار».

أجاب غريف متردداً: «سيدي، إنه مجرد جسم يشبه لغماً».

أجاب بيرنسن: «هراء! إنها ألغام!»[719]

حلّقت مروحيتا «ليتل بيرد» على نحو منخفض وبسرعة، وبينما كانت الأولى ترشّ بمدفعها الصغير سطح المركب بألفي رصاصة تقريباً راحت الثانية تطلق وابلاً من قذائف المدفع الرشاش المتفجرة باتجاه منصة الربّان ومؤخرة السفينة. صادف أن كان أحد البحارة الإيرانيين كان يلقي القمامة فتلقّى قذيفةً في وجهه شقّت رأسه نصفين، فتطاير دماغه ودمه اللزج فوق سطح السفينة. وانفجر خزان غاز البروبان فقتل بحاراً آخر كان بالقرب من المحرك[720]. استدارت المروحيتان يمنةً ثم عادتا نحو المركب في جولة أخرى، فقامتا بتمشيط منصة الربان وسطح السفينة بالرصاص والقذائف المسمارية الممتلئة بالسهام الصغيرة، ثم سارعتا بالعودة إلى السفينة «جاريت» لتتسلحا من جديد، فيما كانت «إيران أجر» قابعة في الماء وقد اشتعلت فيها النيران وتوقفت عن العمل.

عندما رجعت المروحيتان بعد حوالى خمس عشرة دقيقة لم يصدّق الطياران ما يريان، فقد وجدا السفينة ماضيةً قدماً ورجال إبراهيمي يدفعون بالمزيد من الألغام من الجانب. عادت المروحيتان الأميركيتان لتقوما بجولتين هجوميتين إضافيتين. قُتل إيرانيّ على الفور وهو يدفع بلغم إلى المياه، في حين وقع آخر عن السفينة واختفى في البحر المظلم. وأدّى الهجوم إلى إصابة فرشجيان: فقد اخترقت رصاصة جنبه وبترت أخرى جزءاً من يده؛ فيما تطايرت شظايا من قذيفة مسمارية نحو جنبه ففتحته وظهر عظم حوضه. وأطاح انفجار بإبراهيمي فأوقعه على السطح المعدني فأُصيب وجهه بكدمات بالغة. هذه المرة اكتفى الإيرانيون بهذا المقدار من الإصابات وصاح الملازم فولادفند: «غادروا السفينة!»

قفز عشرات الرجال من الجانب الآخر، بينما توجّه عشرة آخرون إلى قارب نجاة حاملين معهم فرشجيان المصاب بجروح خطيرة، وفرّ آخرون بواسطة زورق سريع قابل للنفخ من طراز «زودياك». عندما اقتربت إحدى مروحيات الجيش وانخفضت لتحوم على مستوى منخفض قفز أحد الإيرانيين إلى الأعلى نحوها وقام بحركة اعتبرها الطيّار «إشارة تهديد». وحيث أن المروحيتان كانتا تحلقان بجانب القارب فقد سحب أحد طياري الجيش مدفعاً رشاشاً وصوّب نحو الرجل وأطلق النار عليه فأرداه[721].

وصل خبر الاشتباك إلى البنتاغون في غضون ثلاثين دقيقة، فأسرع كرو يعقد اجتماعاً قصيراً مع واينبرغر قبل أن يتوجه إلى متاهة المركز القومي للقيادة العسكرية في منطقة تخضع للحراسة وتقع أسفل رواق مكتبه في الطابق الثاني، حيث قضى الساعات الثماني التالية في رصد الأزمة. بعد إبلاغ البيت الأبيض وأعضاء رئيسيين في الكونغرس، أعطى واينبرغر الإذن بالاستيلاء على السفينة الإيرانية.

تسبّب هذا الأمر بتوتّر شديد لمستشار الأمن القومي فرانك كارلوتشي ونائبه كولن باول. تحدّث باول إلى واينبرغر قائلاً: «لقد تمّ إبلاغ الرئيس، لكننا لا نريد أن نخاطر بحياة الأميركيين عبر الاستيلاء على السفينة. إننا نريد احتواء الأمر ودفعهم إلى الاستسلام». ثم أضاف: «وإذا قاوموا نطلق عليهم النيران عندئذ». لم يرَ أيٌّ من واينبرغر أو كرو أي مغزى لهذا التوجيه، ومضى ما يقرب من ساعة قبل أن يبلغ كارلوتشي أخيراً واينبرغر أن الرئيس وافق على أن يستولوا على السفينة، على أن يتمّ تجنّب أيّ مخاطر غير ضرورية يمكن أن تعرّض الجنود الأميركيين للخطر[722].

كان الرائد البحري مارك توماس ينعم بنومٍ هانئ في حجرة خاصة على متن سفينة «غوادالكنال» عندما قطعت نومه، بُعيد منتصف الليل، أنباء المعركة النارية مع سفينة «إيران أجر». بشرة توماس السمراء تجعله يبدو عربياً أكثر منه أحد أفراد النخبة في البحرية الأميركية، وكان لعينيه المشرقتين وابتسامته المعدية وطبعه الهادئ تأثير كبير جعله يكتسب شعبية لدى كبار الضباط ورجال فصيلته البالغ عددهم خمسة عشر رجلاً. كان في الأصل جزءاً من وحدة غوردون كيزر البرمائية، ولقد ضغط العقيد البحري بقوة للحفاظ عليه على متن السفينة في دييغو غارسيا.

أراد بيرنسن الآن الاستعانة بخبرة ومهارة قوة العمليات الخاصة للاستيلاء على سفينة زرع الألغام المنكوبة، فاستدعى توماس رجاله، الذين سارعوا يرتدون بزّاتهم العسكرية وحلّقوا باتجاه «لا سال». وجد توماس هناك رجال بيرنسن يحاولون وضع خطة عاجلة للاستيلاء على سفينة «إيران أجر» ومحاصرة البحارة الإيرانيين الذين تبعثروا في المياه التي تنتشر فيها الألغام. اقترح توماس هجوماً سريعاً متزامناً تقوم خلاله المروحيات بإنزال على السفينة بواسطة الحبال وتهاجم مشاة البحرية السفينة في الوقت نفسه بواسطة القوارب المطاطية[723].

لكن بيرنسن كان قد تحدث للتو إلى كرو. عاكساً التوتر السائد في واشنطن أمر كرو بيرنسن أن بوسعه الاستيلاء على القارب فقط في حال لم يواجهوا مقاومة مسلحة على متنه. أخبر بيرنسن كرو وكريست أنهما يستطيعان الاستيلاء على «إيران أجر» صبيحة اليوم التالي، بعد شروق الشمس تماماً، لتجنب الارتطام بالألغام ولكي يكونوا قادرين على رؤية أي إيراني مسلح[724]. سوف تستخدم قوة العمليات الخاصة أحد قوارب «لا سال» اللوجستية لاقتحام السفينة في وضح النهار، وستقوم مروحيتان هجوميتان من نوع «كوبرا» تابعتان لمشاة البحرية الأميركية وزوارق بول إيفانكو الدوريّة بتوفير الدعم في حال وقعوا في ورطة[725].

مع أشعة شمس يوم 22 أيلول/سبتمبر الأولى كان سطح سفينة «لا سال» يضجّ بالحركة، ثم صعد توماس متن أحد المراكب وتوجّه نحو السفينة الإيرانية المنجرفة تحت أشعة الشمس الزرقاء المشرقة. جثم أفراد قوة العمليات الخاصة على حواف المركب، وسحب قائد المركب بمساعدتهم السلاسل المعدنية وشغّل محركاته ليحافظ على مركبه ملاصقاً للسفينة الإيرانية. حالما تسلّق توماس وفصيلته السفينة فكّر بينه وبين نفسه: «قنبلة يدوية واحدة يمكن أن تقتلنا جميعاً». تحرّكوا بسرعة للاستيلاء على الجسر وغرفة المحركات، ثم قاموا بتفتيش السفينة بشكل دقيق بحثاً عن مخرّبين مختبئين في الحجرات. لكن ما عدا الجثث الثلاث التي وجدوها كانت السفينة خالية[726].

اكتشفت قوة العمليات الخاصة كنزاً من المعلومات الاستخباراتية. فقد رمى الإيرانيون، في عجالتهم، راديو التشفير الخاص بهم من فوق السفينة، لكنهم تركوا رزماً من البرقيات التي فُكّت شيفراتها، واكتشفوا خطة «غدير» السرية بكاملها لزرع الألغام بهدف إغلاق مضيق هرمز. كان ذلك تصرفاً مستهتراً من قبل البحرية الإيرانية، فقد وجد الأميركيون خريطة مفصّلة عن جميع العمليات الإيرانية السرية لزرع الألغام، كما وجدوا رزمة من الرسائل تتضمن تفاصيل عن دور منصاتهم النفطية في تنسيق الهجمات، ودور القيادة الإيرانية وإجراءات التوجيه. كما علمت الولايات المتحدة أنهم كانوا يتنصّتون على الاتصالات اللاسلكية الصادرة عن ناقلات النفط التي تتمّ مرافقتها. ولاحظ أحد أفراد القوة الخاصة وجود قطعة من الورق عالقة في فوهة المرحاض الكريه الرائحة، فوضع أحدهم في يده قفازاً وسحبها مكرهاً ليكتشف كتاب شيفرة مهمّ، حاول بعض أفراد طاقم السفينة إخفاءه على عجل[727].

عثر الأميركيون أيضاً بين الوثائق على رسائل تذكارية مؤثرة للأشخاص الذين تعرّضوا للهجوم. وجد عنصر مشاة البحرية الناطق بالفارسية مع إحدى الجثث صورة لولد في العاشرة من عمره يبتسم، وكان بعمر ابنه[728].

حالما أخلى توماس السفينة ظهرت فجأةً سفينتا «إيفانكو» و«ويكول» العائدتين لخفر السواحل قبالة الجانب الأيمن. في غمرة عجلتهما لمغادرة البحرين جنح القارب الوحيد المجهز بجهاز استقبال آمن. لم تكن لديهما فكرة عن التردد الذي تستخدمه قوات توماس، ولا يمكنهم إنذار «لا سال». دون أيّ تردّد اندفعوا إلى الأمام بنيّة شنّ هجومهم الخاص على السفينة الإيرانية. كانوا عاقدي العزم على قتل أي شخص حي على السفينة ولكنهم لم يكونوا على علم بأن قوات توماس قد سبقتهم إليها.

لمح إيفانكو رجلاً داكن البشرة يحمل بندقية، فأمر على الفور بتوجيه كل البنادق نحوه. لطالما اعتبر توماس أن إيفانكو عدواني أكثر مما ينبغي، وقد لفت هذا التصرّف انتباهه، فقال: «حسناً بول، من فضلك لا تقتلني!»[729]

كان ويكول يقود القارب الذي في الطليعة وأمر رجاله بعدم إطلاق النار حتى يعطيهم الأمر. عندما اقترب من الجانب الآخر من سفينة «إيران أجر» رأى القارب التابع للبارجة «لا سال»، فقال: «كاد قلبي يقفز من مكانه وأنا على وشك أن أطلق النار على صديقي»[730].

بعد تجنّب الكارثة التفت إيفانكو وويكول إلى انتشال الناجين. أطبق قاربهما على قارب نجاة دائري برتقالي ساطع تغطّيه خيمة. لم يكونا متأكدين مما ينتظرهما عندما صوّب ويكول بندقيته نحو الإيرانيين وأومأ لهم أن يرفعوا أيديهم في الهواء. امتثل الجميع على الفور، وسبح جميعهم الواحد تلو الآخر نحو زورق ويكول، فقيّدهم الأميركيون وغطّوا عيونهم بشريط رمادي لاصق وكدّسوهم بشكل فظ على أرضيّة القارب الخشنة. عندما اكتشف أحد أفراد القوة الخاصة مسدساً مع أحدهم لكمه فأُغمي عليه، وألقى بالسلاح في البحر.

لم يبقَ إلا رجل واحد داخل الطوف: القائد فرشجيان. أمسك ويكول مسدساً وسبح باتجاهه وقفز على قارب النجاة المتمايل في مكان قريب منه. بدأ ويكول يفتش عن السلاح، غير متأكد من نوايا الإيراني، فاندسّ إصبعه عن غير قصد داخل جرح غائر في ضلعه، فصرخ فرشجيان من الألم. تراجع ويكول ووجّه بندقيته نحو وجه فرشجيان ثم يدرك أن الرجل لا يبغي تفجير نفسه. نُقل فرشجيان بأسرع ما يمكن إلى القارب الأميركي. نظر الإيراني إلى ويكول وقال له بلغة إنكليزية متقنة: «لا يزال أربعة من رجالي في الماء؛ هل يمكنك إنقاذهم؟» تأثر ويكول تماماً. «من الصعب عدم احترام هذا الرجل الذي كان يفكّر في رجاله على الرغم من جروحه»[731]. كانت الحصيلة النهائية وفاة خمسة إيرانيين والقبض على ستة وعشرين شخصاً كان بعضهم في حالة خطرة مثل فرشجيان.

كان الاستيلاء على سفينة «إيران أجر» إحدى أقوى الضربات الموفقة للاستخبارات الأميركية في التاريخ الحديث. وتبين أن اليد التي فجّرت السفينة الأميركية لم تكن «يد الله الخفية» بل كانت يداً مصنوعة من لحمٍ ودم إيرانيين. بعد ظهر ذلك اليوم زار كريست وبيرنسن معاً السفينة الإيرانية، جالبين معهما مصورين، وفي اليوم التالي نشرت الصحف في جميع أنحاء العالم على صفحاتها الأولى صور تسعة ألغام على سطح سفينة «إيران أجر» المكشوف.

نفت إيران أن السفينة كانت تحمل ألغاماً، وتحدث الرئيس علي خامنئي أمام الأمم المتحدة واصفاً الاتهامات الأميركية بـ«الكذب والافتراءات». كما وقال متحدث إيراني إن السفينة كانت تحمل مواد غذائية فقط[732].

بينما كان السجناء الإيرانيون يُعادون إلى وطنهم عبر عُمان - جميعهم كانوا يرتدون قمصاناً قصيرة الأكمام قدمتها لهم البارجة الأميركية «لا سال» - طار واينبرغر إلى الخليج وتفقّد السفينة[733]، وهناك قال الوزير المبتهج للصحافيين المجتمعين إن الاستيلاء على السفينة: «إنها ليست بندقية ينبعث منها الدخان وحسب بل هي بندقية مستعرة»[734]. لقد تلقّى الأميركيون الإطراء على العملية حتى من قبل الاتحاد السوفيتي. ابتسم واينبرغر وأشار إلى الألغام الموجودة على سطح السفينة قائلاً: «هذه أكبر حمولة من المؤن الغذائية أراها في حياتي»[735].

أمر واينبرغر بإغراق سفينة «إيران أجر»؛ ومن ثم تعمّد أن تسحب السفينة الحربية الأميركية سفينة زرع الألغام الإيرانية إلى داخل منطقة الحظر الإيرانية. وهناك فخّخ بول إيفانكو السفينة وفجّرها من الأسفل، فغرقت بسرعة ولم يتبقَّ منها سوى بقعة نفط وعدد قليل من براميل النفط التي حاولوا بها، دون جدوى، إخفاء حمولتهم الفتّاكة[736].

أوقف الإيرانيون فوراً جميع عمليات زرع الألغام، ووافق آية الله الخميني على سحب اليد الخفية وشعروا بالحرج وانكشفوا أمام العالم الذي أدانهم. ولكن إيران لم تذعن للضغوط الأميركية، فبعد الاستيلاء على «إيران أجر» قال الرئيس علي خامنئي في طهران خلال صلاة الجمعة: «سوف نردّ على الأفعال أميركية الشريرة في الخليج العربي». كان الإيرانيون ينوون أن يزيدوا الوضع في الخليج سخونةً حتى يتحوّل إلى قدر حامية جداً بالنسبة إلى الأميركيين.

الفصل السادس عشر

النجاة بأعجوبة

عندما قرأ الأدميرال وليام كرو مذكرة وكالة الاستخبارات المركزية الفائقة السرية أدرك فوراً حجم الأزمة. الولايات المتحدة على شفا حرب في الشرق الأوسط. ذكر التقرير الصريح الصادر في نهاية شهر أيلول/سبتمبر 1987 أن إيران تعتزم شنّ هجوم بحري ضخم على المملكة العربية السعودية بهدف شلّ إنتاج النفط السعودي. كانت أجهزة الاستخبارات الأميركية قد أصدرت تقريراً خلال الشهر الماضي حول احتشاد غير اعتيادي لمجموعة قوارب صغيرة على متنها بحارة من الحرس الثوري المتحمّس في شمال الخليج العربي، وأكّدت صور أقمار صناعية حديثة أن ثمة قوارب يتمّ نقلها بواسطة شاحنات من جنوب إيران[737]. ولكن نوايا إيران أشكلت على البنتاغون؛ وشكَّ محلّلون في أن تكون مجرد مناورة عسكرية. ومع ذلك، كان هذا التقرير يصف بالتفصيل أعداد القوارب الإيرانية وأهدافها في المملكة العربية السعودية، وتوقّع حتى وقت الهجوم الذي سيحدث في غضون اثنتين وسبعين ساعة. كانت بين يدي كرو الخطوط العريضة لخطة الحرب الكاملة التي ستشنّها طهران.

سأل كرو ضابط وكالة الاستخبارات المركزية: «ما مدى مصداقية مصدرك؟»

أجاب الضابط: «إنه عميل جديد، نقيب في البحرية يحتلّ مركزاً رفيعاً في الجيش الإيراني، وقد أثبت سابقاً أنه يمكن الاعتماد عليه».

بعد مراجعة المعلومات والتحقق منها بسرعة مع نائب مستشار الأمن القومي كولن باول في البيت الأبيض أذن كرو لضابط وكالة الاستخبارات المركزية بالانصراف وراح يدور بكرسيه، ثم التقط سماعة الهاتف الآمن عن الخزانة الصغيرة وراء مكتبه الخشبي الفخم وضرب على زر الهاتف الآلي ليتصل تلقائياً بالسفير السعودي في واشنطن الأمير بندر بن سلطان. ظلت علاقتهم

قوية مع بندر الذي ساعد على تأمين الدعم المالي لحروب وكالة الاستخبارات المركزية السرية في أفغانستان وأميركا الوسطى، وكان قد استضاف في الآونة الأخيرة اجتماعاً في منزله الواقع على نهر بوتوماك بين وكالة الاستخبارات المركزية والمسؤولين العراقيين حول تبادل المعلومات الاستخباراتية التي تحصل عليها الأقمار الصناعية بشأن إيران[738].

بعد ظهر ذلك اليوم اجتمع الرجلان في مكتب كرو. بدأ كرو الحديث قائلاً: «لدينا معلومات من مصادر استخباراتية عن تخطيط إيراني لهجوم وشيك على منشآتكم النفطية»، وأضاف: «الإيرانيون يغرقون عمداً موجات اتصالاتهم اللاسلكية بمعلومات كاذبة، لذلك لا نعرف يوم الهجوم على وجه الدقة ولكن من المرجح أن يكون في الثاني من شهر تشرين الأول/أكتوبر. من الضروري أن تستقبلوهم استقبالاً حاراً»[739].

«قلت لك إن الإيرانيين يخطّطون لشيء ما»، أجاب بندر، في إشارة إلى محادثة جرت بين الرجلين في وقت سابق، مضيفاً وقد تملكه الغضب: «إذا أُجبرنا على ذلك فسوف نردّ بقسوة». كان منسوب الغضب لديه يرتفع وهو يتابع كلامه: «سنقصف منشآتهم النفطية !خططنا العسكرية قابلة للتنفيذ؛ سنضرب منشآت النفط الإيرانية في جزيرة خرج وميناء بوشهر مستخدمين عشر طائرات تورنادو!» وأضاف قائلاً: «أريد فقط أن أعرف إن كنتم ستساندوننا؟»

في شهر تموز/يوليو من العام 1987 كانت إيران قد حاولت إثارة انتفاضة في مكة المكرمة خلال موسم الحج السنوي، وقد وصل العشرات من جنود الحرس الثوري سراً إلى المدينة المقدسة مسلحين ببنادق ومتفجرات، ولكن أحد عملاء وليام كيسي من وكالة الاستخبارات المركزية داخل الحرس الثوري، يدعى رضا خليلي، أرسل بلاغاً إلى الوكالة عن المخطط الإيران، وقد مررت وكالة الاستخبارات المركزية المعلومات للأمن السعودي، الذي تصرف بشدة ضد الإيرانيين، ما أسفر عن مقتل 275 متظاهراً إيرانياً، بما في ذلك بعض المدنيين السيئي الحظ. دعا قائد الحرس الثوري اللواء محسن رضائي إلى الردّ. لطالما دعا رضائي، المهندس الكهربائي السابق المشاكس، إلى مهاجمة المملكة العربية السعودية أو القوات الأميركية في الخليج، وكاد ينجح في القيام بذلك في ليلة القافلة الأولى لو لم يكبح المرشد الأعلى جماحه. هذه المرة، اتّفق آية الله الخميني مع رضائي على ضرورة تلقين الكويت والمملكة العربية السعودية درساً.

كان النقيب توراج رياحي رئيس قسم الخطط البحرية في طهران، وقد عمل عن كثب مع ضابط من ضباط الحرس الثوري، كان زميلاً له في بحرية الشاه القديمة، في رسم خطة للرد على المملكة العربية السعودية، أطلقوا عليها اسم «عملية الحج». أظهرت الخطة مستوىً نادراً من التعاون بين الحرس الثوري والقوات البحرية الإيرانية. كان الإيرانيون ينوون جمع عشرات قوارب الحرس الصغيرة في بوشهر وجزيرة خرج في شمال الخليج، بالإضافة إلى إحدى أصغر سفن البحرية المزوّدة بالصواريخ التي ستشكّل سفينة القيادة ويتولاها ضابط من الحرس الثوري، ثم سينقسم هذا الأسطول البحري المكوّن من سرب من الزوارق الصغيرة إلى ثلاثة أساطيل صغيرة ستتحرك تحت جنح الظلام بشكل جماعي في منطقة الخليج ومن ثم تهاجم منشآت نفطية سعودية وكويتية مختلفة حول منطقة الخفجي بصواريخ ومدافع رشاشة. كما وستقوم مجموعة منهم بإنزال

رجال الكوماندوس في المملكة العربية السعودية لتدمير محطة ضخ نفط الحيوية، وربما إحدى محطات تحلية المياه السعودية التي تؤمن معظم المياه العذبة للمملكة الصحراوية.

في 30 أيلول/سبتمبر 1987 وصل الجنرال رضائي إلى ميناء بوشهر على الخليج العربي. لإدارة «عملية الحج» أنشأ الإيرانيون مركز قيادة مؤقتاً في مبنى سكني قديم بجانب رصيف السفن في بوشهر. ومن طهران جاء النقيب رياحي ليخدم بوصفه كبير ضباط البحريّة، برفقة قائد الحرس الثوري الجنرال رضائي الذي يشرف على العملية بنفسه. استغلّ الإيرانيون مناوراتهم العسكرية في جميع أنحاء مضيق هرمز، التي أطلقوا عليها اسم «الشهادة» وتمّ التسويق لها جيداً، وبدأوا يسحبون سراً من الماء عدداً من الزوارق الحربية من طراز «بوسطن ويلر» الصغيرة المسلّحة، وحمّلوها على عربات نقل مسطحة، وغطّوا القوارب بالأقمشة لإخفاء طبيعتها عن أعين المتطفلين والأقمار الصناعية الأميركية العابرة. قاد الحرس الثوري خلال عدة أسابيع عدداً لا يُحصى من الزوارق إلى بوشهر، وجمع سراً في شمال الخليج أكثر من أربعين سفينة صغيرة وزورق دوريّة مزوّد بقاذفة للصواريخ.

بعد إغراق سفينة «إيران أجر» قرّر القائد الإيراني إنشاء قوة اعتراض تعرقل أي تعزيزات أميركية تتحرك من البحرين. سوف يضع بضعة زوارق تحمل مفاجآت سيئة على حدود قناة الشحن. وفي حال ظهرت مروحيات الجيش «ليتل بيرد» مرة أخرى فسوف يحضر الحرس الثوري صاروخ ستينغر، وهي منظومة صواريخ أميركية محمولة مضادة للطائرات متطورة جداً. كانت الحكومة الأميركية قد قرّرت مؤخراً أن تسمح لوكالة الاستخبارات المركزية بتوفير هذه الصواريخ للمجاهدين الأفغان الذين يقاتلون السوفيت، والواقع أن هذه صواريخ غيّرت مجرى الحرب ضد موسكو. لكن إسماعيل خان، أحد أمراء الحرب الأفغانية وصديق إيران، قام بتهريب عشرة من هذه الصواريخ إلى الجيش الإيراني دون علم الوكالة. وتعتزم إيران الآن بابتهاج توجيه الأسلحة التي صنعتها أميركا نحو الشيطان الأكبر. عندما اقترب موعد الهجوم وصل كبار المسؤولين من طهران ليشهدوا العملية وانضموا إلى كوادر ضباط الجيش والبحرية.

يعدّ النقيب رياحي عميلاً ثميناً لوكالة الاستخبارات المركزية، فقد أثبت جدارته مراراً وتكراراً من خلال إرساله معلومات موثوقة ودقيقة عن الجيش الإيراني، وها هو الآن الضابط البحري الأعلى رتبةً في أهم عملية عسكرية إيرانية في الحرب كلها. تمكّن رياحي، وبدرجة عالية من المخاطرة، من نقل تفاصيل الهجوم الإيراني بسرعة إلى المسؤول عنه في طهران. لم يكن واضحاً كيف مرّر المعلومات؛ قد يكون نقلها من خلال رجل ناطق باللغة الألمانية في طهران يُعرف ببساطة باسم «النمساوي». ظلت الجنسية الحقيقية لهذا الرجل غامضة، علماً أنّ وكالة الاستخبارات المركزية كانت تقوم بجهود للتجسس على إيران في فيينا «فقد كانت النمسا، من بين بلدان أخرى، بلداً يستطيع فيه الإيرانيون الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة». ظهر هذا الرجل الغامض من الظل في إحدى المناسبات، حيث حضر ذات ليلة حفلاً في منزل النقيب رياحي، وقدّمه رياحي على أنه الرجل الذي ساعده في الحصول على تأشيرة لابنه[740].

ما إن تنبّهت القيادة المركزية الأميركية إلى التهديد حتى بدأت بمراقبة حشد القوارب الصغيرة بالقرب من بوشهر. في 26 أيلول/سبتمبر أبلغت وكالة استخبارات الدفاع عن وجود ثلاثة وثلاثين قارباً صغيراً فقط في الميناء. وبعد أربعة أيام اكتشفت الاستخبارات الأميركية ما يصل إلى سبعين زورقاً للحرس الثوري تحتشد على طول جبهة تمتدّ خمساً وأربعين ميلاً[741]. دفع هذا التنبيه الأمير بندر للذهاب إلى مكتب كرو بعد ظهر ذلك اليوم.

في1 تشرين الأول/أكتوبر كان الجنرال جورج كريست في المنطقة، فاتصل بكرو ليطلعه على نتائج محادثاته مع كبار المسؤولين العسكريين في السعودية ومفادها أنه في حال قيام إيران بالهجوم فإن السعوديون سيسمحون للطائرات المروحية الأميركية المقاتلة وطائرات المراقبة بدخول المملكة. أراد كريست إرسال ثلاث طائرات أميركية P-3 توربينية تابعة للبحرية إلى المملكة العربية السعودية فوراً لأنها مجهزة برادار سطحي ممتاز لكشف الزوارق الإيرانية. اتّصل كرو ببندر ونقل الطلب مضيفاً أن هذه الطائرات «غير هجومية». اتصل الأمير بندر على الفور بوالده وزير الدفاع في الرياض وحصل على موافقته لنشر طائرات P-3 في قاعدة الملك عبد العزيز الجوية في الظهران. عيّن كريست رئيس أركانه، دون بنزلر، لتنسيق التفاصيل مع الجيش السعودي[742]. في اليوم التالي اجتمع كلٌّ من كرو وكريست وأرميتاج وبندر (يرافقه لواء سعودي) على عجل في مكتب الرئيس كرو. بدا بندر عصبياً وقلقاً ولكنه كان يستخدم لهجة التحدي. ومع ذلك، كانت حكومته قلقة بشكل واضح وتريد تطمينات بشأن الدعم الأميركي إذا هاجمت إيران. قال كرو إن طائرات P-3 في طريقها إليهم، ومن المتوقع أن تصل إلى الظهران في غضون ثلاثة أيام، وعرض كريست نشر مروحيات هجومية أو طائرات مقاتلة إذا طلب السعوديين ذلك.

مساء 2 تشرين الأول/أكتوبر كانت طائرة الاستطلاع الأميركية «أواكس» في المملكة العربية السعودية تقوم بدوريات مراقبة شمال الخليج. طائرة الأواكس، المصمّمة للكشف عن الأهداف المتنقّلة جواً، في تلك الليلة استخدمت رادارها لرصد أي حركة على سطح الماء. التقط الرادار فجأةً خمسة وأربعين جسماً صغيراً تتحرك بسرعة نحو الحدود السعودية الكويتية ومنشأة الخفجي النفطية. يبدو أن الهجوم قد بدأ، فأطلق الطيار إنذاراً عاماً، وعندئذٍ حرّكت المملكة العربية السعودية الطائرات المقاتلة. F-15 أمر هارولد بيرنسن في قوات الشرق الأوسط البارجتين اللتين تحملان مروحيات الجيش «ليتل بيرد» بالإضافة إلى حاملة طائرات الهليكوبتر «غوادالكنال» ومروحية هجومية من البحرية بالتوجه بأقصى سرعة شمالاً لاعتراض الحشد الإيراني[743].

عندما وصلت مجموعة السفن والطائرات الأميركية والسعودية، لم يجدوا الأسطول الإيراني، بل وجدوا عدداً قليلاً فقط من سفن الصيد الشراعية القديمة كانت تبحر في المياه. في اليوم التالي بدأت الطائرات الأميركية P-3 بالطيران، ولم ترَ أيضاً أي شيء غير عادي. لقد اختفت القوات الإيرانية ببساطة بعد أسبوع من التحذيرات الاستخباراتية.

اتّهم القادة العسكريون في السعودية الأميركيين باختلاق قصة الهجوم بأكمله، وتلقّى بنزلر توبيخاً قاسياً من معاون قائد القوات السعودية البرّية المشكّك القائد يوسف راصد الذي اتّهمه بأنه يقوم بخدعة متقنة لجلب القوات العسكرية الأميركية إلى داخل بلاده. وأشار آخرون إلى أن تحليق الطائرات جرى في ليلة عاصفة؛ ولعلّ أواكس التقطت موجات صغيرة فحسب؟[744]

في الحقيقة، كان محسن رضائي ينوي مهاجمة المملكة العربية السعودية تلك الليلة، ولكن الظلام الحالك والبحر الهائج أفشلا هجومه. وزورق الصواريخ الذي يعمل كسفينة قيادة أضاع وجهته وسار في الاتجاه الخاطئ. و غرق أحد القوارب الصغيرة في المياه الإقليمية وقذفت الأمواج بالقوارب الأخرى وبعثرتها جميعها في شمال الخليج[745]. أمر قائد الحرس الثوري المقدام بالقيام بمحاولة أخرى في الأسبوع التالي. هذه المرة لم يتمكن النقيب رياحي من إرسال رسالة إلى الأميركيين المسؤولين عنه في طهران.

هذا هو الوضع الذي نفّذت فيه البارجة «هرقل» مهمّتها الأولى في شمال الخليج. عُيّن بول إيفانكو قائداً لها، ومنذ وصولها في أوائل أيلول/سبتمبر عملت قوة العمليات الخاصة بلا كلل لتجهيز هذه القاعدة البحرية المتنقلة. ملأ رجاله عشرين ألف كيس من الرمل وثبتوا دروعاً معدنية بالستية حول مرابض المدفعية في الزوايا الأربع. كانت هناك مضاجع قديمة للطاقم ومعدات حفر فأزالها وأقام مكانها مستودعات للذخيرة وحظيرة للطائرات ومركزاً للاتصالات. أحياناً كان أربعون شخصاً يعملون معاً في اللِحام على مدى أربع وعشرين ساعة متتالية يوميّاً لتحويل السفينة «هرقل» إلى قاعدة مسلّحة تعجّ بالأسلحة وبـ 177 رجلاً من مشاة البحرية ومشغّلين اختصاصيين إضافةً إلى عدد قليل من اللغويين العاملين في الاستخبارات[746]. وفي الوقت عينه كان العمل مستمرّاً على سفينة «ويمبراون» (Wimbrown)، ولكنها، للأسف، لن تكون جاهزة للاستعمال قبل شهر كانون الأول/ديسمبر.

كان على متن «هرقل» طاقم من المدنيين مؤلف من حوالى ثلاثين فرداً يعملون بكلِّ طاقتهم، مثل عمال اللّحام والطباخين ومشغّلي الونش. على الرغم من الطبيعة السرية للقواعد البحرية، كان طاقم المدنيين الذين عيّنهم «براون أند روت» مجموعة متنوعة من الباكستانيين والفليبينيين. والمشكلة في هؤلاء أن خلفياتهم الحياتية لم تكن واضحة كما يجب وهذا ما جعل ضباط الاستخبارات يقلقون من احتمال أن يكون بعضهم جواسيس إيرانيين أو مخربين[747]. على أي حال، تمّ إحضار آخرين غيرهم خلال العام التالي من وجود القواعد البحرية المتنقلة، لكنهم، في ما عدا تقديم أطباق الكاري الحار جداً للطاقم الأميركي، كانوا يتصرفون على نحو لائق وبصمت.

الأمر الذي لا يصدّق هو أنه في السادس من تشرين الأول/أكتوبر، حين سحبت قاطرتان السفينة «هرقل» إلى محطتها قرب جزيرة «فارسي»، لم يكن أيٌّ من إيفانكو أو ويكول على علم بالحرب التي كادت تندلع بين إيران والمملكة العربية السعودية في الأسبوع المنصرم[748]. في اليومين الأولين كانا يرسلان قوارب الدوريّة للبحث عن السفن المشبوهة، فوجدا مركباً إيرانياً واحداً

يخرج من قمرة قيادته هوائي، يبدو أنه كان يجمع معلومات استخباراتية عن البارجة، فشعر كلٌّ من إيفاكو وويكول بعدم الارتياح. كانت أقرب سفينة أميركية هي الفرقاطة «يو إس إس ثاتش» (USS Thach) التي تؤمّن الدفاع الجوي لهرقل، وكانت على بعد 20 ميلاً إلى الجنوب ما استدعى قول ويكول: «كان لدينا شعور بأننا مكشوفون أمنياً»[749].

مساء 8 تشرين الأول/أكتوبر تحدث إيفاكو وويكول حول وضعهما، وكان لديهما شك قوي بأن الإيرانيين ينوون شنّ هجوم، فقررا إنشاء غرفة تنصّت في محاولة منهما لمعرفة ما الذي يفعله الإيرانيون في جزيرة «فارسي» بدلاً من الجلوس وانتظارهم، وكانا يرسلان بعد حلول الظلام مركبَي دورية من طراز سيفوكس مجهّز كلّ منهما برادار صغير لاستقبال الترددات، وعلى متنهما شخصان يجيدان اللغة الفارسية من مشاة البحرية يستخدمان أجهزة تنصّت متطورة. عندما يمرّ المركبان بالقرب من العوامة «ميدل شولز» التي تشير إلى أن المياه ضحلة، على مبعدة خمسة عشر ميلاً تقريباً غرب جزيرة فارسي، سيتوقفان فتختلط إشارات راداريهما بإشارات رادار العوامة[750]. من هناك، يستطيع اللغويون من مشاة البحرية التنصت على الجزيرة الإيرانية وقوارب الحرس الثوري الصغيرة. والواقع أن تكتيكات مماثلة قد أثبتت نجاحها عندما استخدمتها مروحيات مشاة البحرية في أجزاء أخرى من الخليج[751].

بدأت العملية بعد حلول الظلام. غادر مركبا الدورية السفينةَ «هرقل» في الساعة التاسعة ليلاً وأضواؤهما مطفأة، يرافقهما قارب سيفوكس الصغير. توجهوا إلى العوامة الواقعة على بعد ثمانية أميال فقط. من أجل الحيطة والأمان أرسل إيفانكو ثلاث مروحيات «ليتل بيرد» لتسبق المركبين وتستكشف منطقة العوامة قبل وصول مركبي الدورية اللذين يتحركان ببطء[752]. لاحظت المروحية الأولى، وهي تراقب عبر كاميرا بالأبيض والأسود تعمل بالأشعة تحت الحمراء، وجود ثلاثة زوارق بالقرب من العوامة. فكّر الطيار: «هذا غريب! لا يفترض أن تكون زوارقنا قد وصلت». وعندما اقترب حوالى مئة ياردة رأى شخصاً في قارب صيد صغير يميل على بندقية رشاشة ثقيلة مثبتة على حامل ثلاثي في مقدمة القارب ويتهيأ لإطلاق النار، فاستدارت المروحية الأميركية بقوة إلى اليسار، وانطلق رشق من الطلقات النارية في إثرها فمرت الرصاصات قرب زجاج قمرة القيادة، لكنّها أخطأت المروحية بقدمٍ واحدة تقريباً.

لم يكن الأميركيون يعلمون أن محسن رضائي قد قرّر تلك الليلة نفسها إعادة محاولة تنفيذ خطة هجوم «عملية الحج» التي أُحبطت قبل أسبوع بسبب سوء الأحوال الجوية. في الوقت الذي تجمع فيه الأسطول الرئيس حول بعض المنصات النفطية الإيرانية في شمال حقل «فريدون» النفطي، غادر بوشهر صباح ذلك اليوم طراد يحتوي على قمرة قيادة واسعة من طراز «بوغمر» (Boghammer) وقاربان أصغر منه حجماً، وتوجهت إلى جزيرة فارسي. كان يقود الفريق ضابط شاب قوي وكفوء من الحرس الثوري اسمه مهدوي. قال لرجاله: «إنكم ذاهبون لتنفيذ مهمة عظيمة!»[753] لكن لم يكن كل أفراد الطاقم البالغ عددهم عشرة يشاركون القائد حماسته، فقد كانوا

مجموعة متنافرة من المجندين الإلزاميين الذين لم يألفوا البحر: أحدهم كان عاملاً في مزرعة ضخماً وأميّاً، وآخر كان قد فرّ من الجيش وسافر إلى بوشهر لزيارة صديق فالتقطه الحرس من الشارع وألقوا به على متن القارب ليعمل طباخاً[754].

بعد توقف قصير في جزيرة فارسي، حيث انتظروا حلول الظلام وتلوا أدعيتهم، انطلقت القوارب الثلاثة بعد الغروب بقليل. كان الأسطول الصغير يتألف من مركب «بوغمر» وعلى متنه خمسة رجال بما فيهم الضابط المسؤول، إضافةً إلى قاربين صغيرين للصيد مصنوعين من الألياف الزجاجية يحمل كلٌّ منهما ثلاثة أشخاص فقط من بحرية الحرس الثوري مزودين بأسلحة تقليدية، أي قاذفة صواريخ عيارها 107 ملم ورشاشات ثقيلة وأسلحة من عيار أصغر. إلا أن أحد الإيرانيين على متن «بوغمر» كان يحمل أحد صواريخ ستينغر الأميركية الصنع، ولديه أوامر بإطلاق النار على أيّ طائرة هليكوبتر أميركية يراها[755]. كانت مهمة مهدوي منع الأميركيين من التدخل في الهجوم الكبير على المملكة العربية السعودية.

توقفت الزوارق الثلاثة بالقرب من العوامة وتجمّعت. كان أفراد الطواقم الإيرانية يتبادلون الحديث، ويسترخون، ويدخنون السجائر، ويتهيئون حتى للذهاب إلى السرير في منتصف الليل. سمع أحد الرجال على أحد القوارب الصغيرة صوتاً خافتاً لدوران محرك طائرة هليكوبتر فأسرع إلى رشاشه وراح يطلق النار في الظلام في اتجاه مصدر الهدير.

انسحبت مروحيتا «ليتل بيرد» وتوجهتا نحو القاربين الهجوميين المتخلّفين في الخلف. أطلقت إحداهما باتجاه زوارق الحرس الثوري قذيفتين من الأسهم المسمارية الصغيرة الفتّاكة، أعقبتها المروحية الأميركية بوابل من نيران المدافع الرشاشة والصواريخ المتفجرة. اشتعل أحد قوارب الألياف الزجاجية ككرة نارية وانشطر نصفين فانتشر الوقود المحترق في المياه. جاء طيار الجناح الأميركي وأطلق النار على القارب الصغير الآخر والـ«بوغمر» فاندلعت النيران في هذا الأخير. حاول أحد أفراد طاقم الـ«بوغمر» الانطلاق به إلى الأمام بأقصى سرعة محاولاً المناورة لتجنّب التعرض للقصف، لكن القائد أمره بالدوران والعودة ثم الإبطاء في محاولة لالتقاط الناجين من الزورقين الآخرين. ولكن مروحية الـ«ليتل بيرد» أغارت مرةً أخرى، فاستقبلها بريق صاروخ أو قذيفة انطلقت من الـ«بوغمر»، ومرت دون أن تسبب أذى للمروحية. زاد الـ«بوغمر» سرعته وحاول الفرار مناوراً بعصبية. أمسك أحد الإيرانيين بالعلم الإيراني وجثا على ركبتيه على أرضية المقصورة وراح يصلي طالباً النجاة. أطلقت مروحية الـ«ليتل بيرد» الأخيرة عليه صاروخاً انزلق على المياه وضرب مقصورة الطراد بشكل مباشر من جانبه فاشتعل خزان الوقود. انفجر القارب وتحوّل إلى كرة ملتهبة، مما أسفر عن مقتل الرجل الذي كان يصلي في المقصورة على الفور إضافةً إلى مهدوي، وغرق المركب في أقل من ثلاثين ثانية.

حين رأى إيفانكو النار بوضوح في الظلام على بعد ثمانية أميال أعلن الاستنفار على الفور. عندما اتخذت فصيلة الأمن البحري مواقعها تمّ إنزال مركب الدورية المتبقّي إلى الماء لينضمّ إلى المركب الآخر الذي كان يعمل على توفير الحماية المحلية والدعم. ألقت مشاة البحرية وقوات العمليات الخاصة قنابل يدوية في الماء على جوانب البارجة في حال وجود ضفادع بشرية إيرانية

تحوم حولهم استعداداً لاقتحام «هرقل»، وأمر القائد بإطلاق مركبي الدوريّة الآخرين ليتّخذا موقعهما إلى شمال البارجة مباشرةً. وكذلك وصلت ثلاث مروحيات «ليتل بيرد» إضافية كتعزيزات.

انطلق مركبا الدورية الأميركيّان بأقصى سرعة، ووصلا إلى مكان الحادث بسرعة. كانت النار مندلعة والحطام متناثراً في الماء، فانتشلا خمسة إيرانيين، واكتشفا وجود رجل سادس حروقه بليغة متشبّثاً بالعوامة. وبينما كانوا يتابعون البحث ببطء عن مزيد من الناجين لحظ الضابط جيمس كيلز وجود صندوق من مادة الستيروفوم عائماً في المياه، بدا كذلك الذي يحتوي بطارية لصاروخ ستينغر، فنزل عن جانب القارب إلى المياه وسبح لانتشال الصندوق. تبيّن أنه دليل صادم! وبسرعة البرق وصل الخبر إلى الرئيس الأميركي بأنّ إيران تملك صواريخ سطح-جو الأكثر تطوراً في الترسانة الأميركية.

بوجود مسعف واحد فقط أنشأ ويكول مركزاً للإسعاف في مكتب صغير طليت أرضيته باللون الأحمر المناسب لهذه المهمّة. راح المسعف يعمل بشكل محموم لإنقاذ الإيرانيين الستة. كانت حروق أحدهم شديدة فتوفي متأثّراً بها بعد وقت قصير من وصوله، وكان بينهم بحار آخر من الحرس الثوري مشاكس جداً وكان يشتم أميركا متمتماً باللغة الفارسية، وظلّ يتلوى وعلى ما يبدو يحاول النهوض عن حمّالته لقتلهم. انحنى عليه أحد أفراد القوات الخاصة عابساً وقال: «ما هو شعورك بعد أن أطلق عليك الشيطان الأكبر النار؟» أدرك ويكول أن هناك شيئاً أكثر من الكراهية يتملك هذا الساخط الإيراني، فصوب مسدسه على المصاب وأمر المسعف بأن يقلب الرجل. عندما أزالوا قميصه تدفّق الدم من ظهر المصاب برصاصة. حاول المُسعف سدّ الجرح، وحملوه على السلم المؤدّي إلى مدرج المروحيات على ظهر المركب ونقلوه إلى مروحية خاصة بالإسعاف الطبي كانت في الانتظار. في منتصف السلّم أطلق البحار حشرجةً «وفجأةً صار ثقيلاً جداً» على ما يذكر أحد الذين كانوا يحملونه. توفي هذا الإيراني الثاني لكن الأربعة الأخرين ظلوا على قيد الحياة ونقلتهم الطائرة إلى مستشفى ميداني موجود على متن سفينة حربية كانت في انتظارهم.

على الفور استدعى النقيب فرانك لوغو بيرنسن الذي كان يتناول العشاء في المدينة مع بعض المسؤولين البحرينيين. بعيداً في الجنوب أطلق أحد الإيرانيين صاروخاً من المنصة «رستم» باتجاه مروحية تابعة للبحرية الأميركية تعمل انطلاقاً من إحدى البارجات، فأمر قائد قوة الشرق الأوسط أن يكون الأسطول بأكمله في حالة تأهب قصوى.

بينما كان إيفاكو يحاول الرد على الأسئلة الملحّة التي تطرحها قوة الشرق الأوسط المتوتّرة جرّاء المعركة التي جرت عند العوّامة، التقط رادار «هرقل» أربعين مركباً صغيراً متوجهاً جنوباً نحو القاعدة البحرية المتنقّلة. بدا لويكول أن ما يجري جزءٌ من هجوم منسّق بدأ مع القوارب الصغيرة قرب العوامة[756].

التقط إيفانكو الجهاز اللاسلكي واتّصل بقائد مركبي الدورية الملازم أول جون رورك الذي كان متواجداً في طريق الهجوم الإيراني.

«جون، هل لديك اتصالات عالية السرعة؟»

«عُلم حضرة القائد. ما هي أوامركم؟»

أجاب إيفانكو بهدوء: «استدر؛ وقاتل». وهذا ما فعله رورك[757].

على بعد عشرين ميلاً جنوباً كان النقيب جيري أودونيل يتمرّن في صالة رفع الأثقال على المدمرة الأميركية «يو إس إس ثاتش» (USS Thach) عندما تلقى مكالمة من ضابط المراقبة: «حضرة النقيب، مطلوب وجودكم في غرفة العمليات». هرع أودونيل إلى الغرفة المظلمة الممتلئة بأجهزة الإرسال والاستقبال وبرادارات شتّى. كانت مروحيته تطير مستخدمةً رادارها في توجيه مروحيات «ليتل بيرد»، فأعادها أودونيل إلى سفينته لأخذ مسعفه إلى البارجة «هرقل» لمعالجة الأسرى الجرحى[758].

ثم كشف رادار أودونيل الأسطول الإيراني الصغير الذي كان يتّجه غرباً باتجاه المملكة العربية السعودية، ولم يبدُ أنه كان قادماً من إيران. نقل أودونيل المعلومة إلى لوغو على متن البارجة «لا سال»، وأعلن الاستنفار وانطلق بالسرعة القصوى دون انتظار الإذن بذلك. هرع الرجال إلى مواقعهم القتالية وجهّزوا قاذفات القنابل الأوتوماتيكية ولقّموا الرشاشات، بينما كانت البارجة تُخلّف وراءها ذيلاً من زبد البحر الأبيض وهي تبحر شمالاً بسرعة ثلاثين عقدة للتموضع بين «هرقل» والقوارب الصغيرة الإيرانية. وهناك انضمت إليها أربعة مراكب دورية وست مروحيات «ليتل بيرد» تابعة للجيش، كلّها محتشدة لمواجهة أسطول الحرس الثوري الذي يقوده محسن رضائي.

فجأةً بدأت صور الرادار تتشوّش ثم اختفت تماماً، مع أن لا شيء كان يشير إلى رداءة الطقس بحيث يحول دون الرؤية، فاستنتج أودونيل أن التردّد مزيّف بسبب ظهور الساحل السعودي في جزء من الصورة إلى جهة اليمين. ظل إيفانكو وويكول مقتنعين بأن ثمة تواجداً إيرانياً، ثم أرسل قائد «ثاتش» إلى بيرنسن رسالة مفادها أن الصور مضلّلة.

كانت القوتان البحريتان على حق. فعملية «حج» كانت في أوجها، وكانت الأساطيل الإيرانية الثلاثة قبالة الساحل السعودي على وشك أن تفتح النار. كانت القوارب الإيرانية قد أنزلت رجال الكوماندوس على الشاطئ السعودي عندما وصلت الأنباء عن وقوع الكارثة في عوّامة «ميدل شولز» إلى مقر قيادتها المؤقت في بوشهر. فاجأت شراسة ودقة الهجوم الأميركي الحرس الثوري، فقد أغرق الأميركيون ثلاثة قوارب وقتلوا سبعة بحارة، وهم الآن يتوجهون بالمروحيات والسفن نحوهم من الجنوب. استنتج رضائي، أو نائبه، فوراً أنهم سائرون إلى كمين، فالواضح أن السعوديين والأميركيين في انتظارهم. عندئذٍ أمر رضائي أسطوله بالتراجع فوراً، وسارع بالعودة إلى بوشهر.

«لم يدرك أحد الكارثة التي كنّا على وشك الوقوع فيها تلك الليلة»، هذا ما قاله كلٌّ من إيفانكو ولوغو. إن وصول قائد «هرقل» بالمصادفة ساعد على إحباط أكبر عملية بحرية حربية

للحرس الثوري في تلك الحرب. أحياناً من الأفضل لك في الحرب أن تكون محظوظاً على أن تكون ماهراً. في 8 تشرين الأول/أكتوبر 1987 كانت قوات العمليات الخاصة الأميركية محظوظة وماهرة معاً. لم يكن الرجال القلقون العاملون على متن «هرقل» يعلمون أن تلك الحادثة المرّة هي الأولى والأخيرة التي يحاول فيها الإيرانيين بجدّية تحدّي البارجات الأميركية للسيطرة على شمال الخليج.

في بوشهر، اشتبه محسن رضائي وغيره من كبار الضباط على الفور بأن أحداً ما قد سرّب المعلومات إلى الأميركيين. لا بدّ أن بينهم أحد الخونة. بدأ عملاء مكافحة التجسس الإيرانيين يتقصّون عن كبار الضباط القلائل الذين كانوا على علم بتفاصيل خطة «عملية حج». ونظراً إلى معرفة وزارة الاستخبارات والأمن بعملية طهران لوكالة الاستخبارات المركزية، فقد ركّزت على أولئك الذين ما زالوا يتعاطفون مع الأميركيين، ومن بينهم النقيب رياحي.

قررت إيران، الغاضبة من الهزيمتين المتتاليتين، الردّ على المتّهم الرئيس الذي جلب الأميركيين إلى المنطقة، وهذا المتهم كان «الكويت». بعد أسبوع من معركة عوامة «ميدل شولز» رست ناقلة النفط «سنغري» (Sungari) المسجّلة في ليبيريا في محطة النفط الرئيسة في الكويت، في جنوب مدينة الكويت مباشرةً، لنقل شحنة من النفط الخام. ظهر في البعيد ضوءٌ ساطع أشبه بإشارة ضوئية، ثم أصبح الضوء أكثر وضوحاً وراح يقترب. انطلق صاروخ «سيلكوورم» الضخم فوق الأمواج تماماً وضرب رأسه الحربي الذي يزن ألف باوند جانب «سنغري» ما تسبّب باندلاع الحريق فيها ولكن لم تقعّ إصابات في الأرواح.

في اليوم التالي اقتربت الناقلة «سي آيل سيتي» (Sea Isle City) لتملأ خزاناتها بالنفط الكويتي قبل القافلة التي تليها، ولكن قائد الناقلة انحرف انحرافاً طفيفاً ليعاين الأضرار التي لحقت بـ«سنغري» في اليوم السابق. لقد اختار التوقيت الخاطئ للسياحة، إذ انطلق صاروخ «سيلكوورم» آخر فأصاب الهيكل العلوي الأبيض للناقلة «سي آيل سيتي». خرق الصاروخ حجرة القيادة وغرف الطاقم، وأدّى الانفجار العنيف إلى إصابة قائد السفينة الأميركي وحارس برج المراقبة الفيليبيني بالعمى الدائم وإلى جرح ستة عشر فرداً من أفراد الطاقم الآخرين.

على الرغم من أن الرئيس الإيراني علي خامنئي قد قال: «الله وحده يعلم من أين جاء الصاروخ» إلا أن الاستخبارات الأميركية وجدت، بعد ما تعقّبت مسارات الصواريخ، أنها انطلقت من شبه جزيرة الفاو العراقيّة الخاضعة لسيطرة الإيرانيين[759]. في الواقع، كان الإيرانيون قد غنموا صاروخي السيلكوورم من الجيش العراقي.

قاد اللواء البحري دينيس بروكس قوة المهمة المشتركة التي أُنشئت حديثاً من جميع القوى المشاركة في عملية القافلة. قرّر إطلاق هذه العملية عبر تزويدها بالقليل من المعلومات من بيرنسن. لم يحب بروكس فكرة القواعد البحرية المتنقّلة، ولم يحب كثيراً خطة المراقبة التي قضت بنشر سفن وكالة الأمن القومي حتى أصغر مراكبها، ولكنه كان يعرف ما يريده رئيسه الجنرال كريست من

الخطة. وبما أن واشنطن لم تكن تريد اتخاذ إجراءات أشدّ، فإن على الولايات المتحدة أن تتقدّم لتدمير المنصات النفطية التي تُمكِّن الحرس الثوري من العمل في الخليج. وأول منصّة كان كريست يريد ضربها هي منصة «رستم». ورستم في الواقع هي عبارة عن ثلاث منصات، إذ كانت هنالك منصتان تبعد الواحدة عن الأخرى مئة ياردة فقط، فيما تقع الثالثة على بعد ميلين تقريباً إلى الشمال، وكل واحدة تشبه مبنىً مربعاً ومرآباً للسيارات مؤلفاً من ثلاثة طوابق قائمة على دعائم. لقد سهّلت هذه المنصات مهمة «إيران أجر» وكانت بمثابة مركز قيادة أمامي رئيس للقوارب الإيرانية الصغيرة. كما أن موقعها الاستراتيجي في الجنوب الأوسط للخليج على امتداد طريق القوافل يجعل الجيش الإيراني يتزوّد بسيل مستمر من التقارير حول حركة السفن الأميركية في الخليج[760]. مع أن كريست أمر بروكس أن يحذر الإيرانيين تجنّباً للخسائر في الأرواح، إلا أنه هدّد بأن أيّ إظهار للعداء سوف يُقابَل بالقوة النارية الأميركية. أضف إلى ذلك أن كريست أذن له بدخول المياه الإقليمية الإيرانية والمجال الجوي الإيراني إن لزم الأمر[761].

في ظهيرة يوم 19 تشرين الأول/أكتوبر حشد أربع مدمّرات وبارجتين قبالة «رستم» لبدء الردّ الأميركي على صواريخ «سيلكوورم»، وأُطلق على العملية الاسم المشفّر «عملية نيبل آرتشر». على الجانب الآخر ربضت سفينة جيري أودونيل «يو إس إس ثاتش» (USS Thach) وعلى متنها قوات مارك توماس للعمليات الخاصة. سمع الإيرانيون عبر قناة الاستقبال اللاسلكي البحري النظامية باللغتين الإنكليزية والفارسية ما يلي: «إلى منصة رستم النفطية، هذا سلاح البحرية الأميركية. لديكم عشرون دقيقة لإخلاء المنصة».

أخذ الإيرانيون التحذير على محمل الجدّ. نظر توماس من منصة القيادة في السفينة «ثاتش» فاستطاع أن يرى بوضوح الإيرانيين وهم يتمسّكون بأسفل سلم إحدى المنصات ويصعدون على متن زورق قطر مربوط. شكّلت السفن الحربية الأميركية الخمس خطاً قتالياً محكماً، لا تفصلها عن بعضها سوى ألف ياردة، وراحت تتقدّم ببطء ومدافعها منخفضة[762].

ثم صدر الأمر بإطلاق النار، وفي الساعة التالية أمطرت السفن الأميركية المنصات ومضخّاتها القريبة بالقذائف الواحدة تلو الأخرى. لكن معظمها أخطأ الهدف، فالقذائف كانت تسقط فوق أو تحت أو تمرّ ببساطة دون أن تحدث أضراراً بمنصات النفط، ولكن عدداً كافياً من القذائف أصاب الهدف فتصاعد الدخان فحجب الهدف. دمّرت القذائف منصّة الهليكوبتر وقطعت إحدى الدعامات الأساسيّة للمنصّة[763].

كان مارك توماس ينظر إلى النيران المضطرمة من قمرة القيادة في أعلى برج «ثاتش». وافاه نقيب سمين بعض الشيء يضع نظارات ويرتدي لباسه الكاكي وخوذته الخضراء المصنوعة من الصلب. كان النقيب قارئاً نهماً لمجلة «سولجر أوف فورتون» (Soldier of Fortune)، وقد أصبح مقرباً من توماس، يسأله رأيه في قطع السلاح البيض والأسلحة الناريّة. قال النقيب وهو يلكم الهواء بقبضتيه: «لقد ركلنا مؤخرتهم بحق!». بعد إطلاق أكثر من ألف مخزن دوّار من الطلقات

صدر الأمر بوقف إطلاق النار وتوجّهت المدمّرة «ثاتش» وعمليات قوات البحرية الخاصة نحو المنصّة.

اقترب توماس وقوات العمليات الخاصة من المنصتين المدمّرتين المشوّهتين عند غروب الشمس تماماً. كانت إحداهما قد تحوّلت إلى برج ملتهب. لقد أشعلت إحدى القذائف الغاز المتصاعد من تحت الأرض، وتبيّن لاحقاً أن صمام الأمان الذي يمنع حصول انفجار ارتجاعي كهذا كان قد رُكِّب بالعكس. كنت تشعر بالحرارة الشديدة حتى على بعد مئتي ياردة. كان من الخطير جداً أن يحاولوا النزول لى المنصّة المشتعلة لذلك توجّهت قوات توماس للعمليات الخاصة لاحتلال المنصة الشمالية التي لم تُقصف للتأكد مما إذا كان عليها أيّ معلومات استخباراتية مفيدة.

مع حلول الظلام توجّه توماس نحو المنصات، وأخذ يقترب منها بحذر. مع أنها كانت تبدو مهجورة، استطاع أن يرى بوضوح ماسورة مزدوجة لمدفع مضاد للطائرات. أطلق أفراد قوات العمليات الخاصة طلقات رشاشة لإخلاء المنصة ممّن تبقّى من الإيرانيين، ثم تسلقوا السلم من قواربهم وانتقلوا من غرفة إلى غرفة لتطهير البناء المكون من ثلاثة طوابق. استغرقت العملية أكثر من ساعتين. تناهى صوت من إحدى الغرف، فألقت قوات العمليات الخاصة قنبلةً يدوية فيها، وعندما دخلوها وجدوها فارغة: كانت الأصوات آتية من جهاز اللاسلكي. وفّرت الغرفة ثروةً أخرى من المعلومات الاستخباراتية للأميركيين، فقد تكدّست فيها رزم من الرسائل، ما زال بعضها متدلياً من جهاز التلكس. أخذ رجال توماس جميع الوثائق، ونسفوا كل الأسلحة والأجهزة اللاسلكية، ثم عادوا إلى «ثاتش». عندما رجع الجميع بأمان، أدّى تفجير خمسمئة رطل من المتفجرات، كانوا قد زرعوها في إحدى المنصّات، إلى إغراقها بالكامل في البحر. ظلت النيران مندلعة بالمنصة الأخرى حتى شهر آب/أغسطس من العام 1988، حين قامت طواقم الإصلاح بعد الحرب بوقف تدفق النفط والغاز. أما الاسم الذي أطلقته قوة الشرق الأوسط على العملية فكان «شعلة الحرية».

نشرت الولايات المتحدة بعد العملية بارجة ومجموعة من عاكسات موجات الرادار السداسية العائمة حول محطة النفط في الكويت، وأقنعت القيادة المركزية الأميركية الكويتيين بنشر صواريخ مضادة للطائرات على الجزيرة الشمالية لإسقاط أي صواريخ أخرى. والواقع أن الرادارات العاكسة أثبتت جدارتها في مطلع تشرين الثاني/نوفمبر، عندما انطلق صاروخ سيلكوورم آخر من الفاو ليضرب فقط مبنى عاكس موجات الرادار بدلاً من الناقلة الراسية على مقربة منه.

إنّ تصاعد العنف وإحباط الهجوم على المنشآت النفطية السعودية فتحا الباب أمام المزيد من طائرات المراقبة الأميركية لرصد أنشطة الإيرانيين. كجزء من قواتها الجوية السرية كانت وكالة الاستخبارات المركزية تحتفظ بفيلق جوي صغير شبه العسكري على مقربة من وليامزبورغ بولاية فيرجينيا. كان هذا الفيلق يعمل تحت إمرة مجموعة العمليات الخاصة داخل شعبة العمليات الخاصة بالوكالة، وكانت تشكيلته مكونة من عشر طائرات ذات أجنحة ثابتة ومن طائرات هليكوبتر مزودة بمعدات رؤية ليلية ونظام رادار للمراقبة هو الأكثر تطوراً في العالم، فضلاً عن رادار مراقبة يعمل بالأشعة تحت الحمراء ورادار مصمّم خصيصاً لكشف التضاريس ويسمح بالتحليق على مستوى منخفض في الظلام الدامس، وتشتمل كذلك على المروحيات الصغيرة الهلامية الشكل

(Hughes/MD-500s) المماثلة لمروحيات «ليتل بيرد» (Little Birds) في 160ATM- التابعة للجيش الأميركي. في الواقع، إن طائرات الجيش ووكالة الاستخبارات هي نتاج للبرنامج نفسه الذي صُمِّم للجيش أصلاً. فعندما نضبت الأموال في العام 1971 تدخلت وكالة الاستخبارات المركزية سرّاً لإتمام المشروع، فشكّل الجيش والوكالة وحدة طيران مشتركة سُمّيت «سيسبراي» (Seaspray)، وسرعان ما انقسمت الوحدة إلى وحدتين مختلفتين، واحدة «بيضاء»، أي علنية، أو كما تُعرف علناً بـ«وحدة TF-160 في فورت كامبل»، والأخرى «سوداء»، أي سرّية[764].

في أيلول/سبتمبر من العام 1987 تلقى مدير عمليات وكالة الاستخبارات المركزية توم تويتن مكالمة هاتفية من الجنرال كولن باول. تخرّج تويتن من جامعة «أيوا»، وهو الآن في أوائل الخمسينات، يبدو نحيلاً وشعره أشيب. لقد استحق سمعته كرجل بيروقراطي عميق التفكير وقليل الكلام. بعد ظهر ذلك اليوم نقل باول إليه طلباً من وزارة الدفاع: «هل وكالة الاستخبارات المركزية على استعداد لتقديم بعض طائراتها بغية استخدامها في الخليج لدعم عمليات الحراسة؟»

ليس لدى وكالة الاستخبارات المركزية سوى عدد قليل من هذه الطائرات، وهي مطلوبة جداً في جميع أنحاء العالم. في السنوات الأخيرة لعبت هذه الطائرات دوراً كبيراً في الحرب الأميركية السرية في أميركا الوسطى، ولكن بحلول عام 1987 انتهى هذا الدور إلى حدٍّ كبير. فكّر تويتن ملياً بطلب باول ثمّ قال إنه لا يرى مانعاً في ذلك، ولكنه أراد أن يعرض الأمر على المدير الجديد المعيّن حديثاً، المحامي الكفؤ والشهير وليام وبستر[765]. كان هوارد هارت وقتئذٍ مديراً لشعبة العمليات الخاصة، وبالتالي لديه طائرات شبه عسكرية؛ تلقّى هارت في الوقت نفسه تقريباً مكالمة هاتفية على هاتفه الآمن من أدميرال في البحرية من مكتب كرو»: سيد هارت، من الضروري إجراء عمليات في الخليج العربي ونحتاج إلى أجهزة للرؤية الليلية بالأشعة تحت الحمراء. وللأسف ليس لدينا أي شيء من هذا. هل لديكم مثل هذه الأجهزة؟»

فكّر هارت مندهشاً: «لا بد أنها مزحة»، ثم قال: «أيها الأدميرال، إنكم من بحرية بلادي، وتقولون أنْ ليس لديكم أي شيء يطير ويمكن أن يرى في الليل؟

«لا، ليس لدينا»، أجاب الضابط الكبير، مضيفاً أنه يسعى للحصول على هذه الأجهزة، لكنه يحتاج الآن إلى ما يغطّي العجز كإجراء مؤقت.

بعد رسالة رسمية يطلبون فيها المزيد من الدعم من واينبرغر، صاغتها مديرية J-3 للعمليات الخاصة في هيئة الأركان المشتركة، عقد ويبستر اجتماعاً مع كبار المرؤوسين لمناقشة الطلب. اتفق الجميع دون تردد على أنه ينبغي لوكالة الاستخبارات المركزية أن توافق على الطلب وتدعم القوات العسكرية. رد ويبستر على واينبرغر بالموافقة على توفير الطائرات، شرط ألاّ تطير ضمن «نطاق التهديد المعروف» لمنظومة الأسلحة الإيرانيّة. هذا يعني أن على الطائرات البقاء بعيدة عدة أميال بحرية عن منصات إيران البحرية. وافق واينبرغر وكرو على هذا الشرط. ومع أن

الطيارين الماهرين من وكالة الاستخبارات المركزية لم يلتزموا بهذا طوال العام التالي، ظلّ هذا الشرط مكتوباً على الورق[766].

أرسل هارت عدداً من ضباط وكالة الاستخبارات المركزية إلى البحرين للاجتماع بكلٍ من بيرنسن وضابط استخباراته القائد زيغلر لتذليل صعوبات الخطة التكتيكية مع قوات الشرق الأوسط، وهي مقدمة ضرورية بغضّ النظر عمّا بلغوه في الخليج[767]. وافقت وكالة الاستخبارات المركزية على أن تأخذ هذه الطائرات توجيهاتها من بيرنسن، علماً أن طائراتها لا تقع تحت الإمرة الفعلية لبيرنسن في الخليج، كما وافقت على أن تقدّم معلوماتها الاستخباراتية مباشرةً لقوات الشرق الأوسط ولقوة المهمة المشتركة بقيادة بروكس.

اتصل الأمير بندر بوالده وزير الدفاع السعودي، فوافقت المملكة العربية السعودية بعد التشاور مع الملك بأن تكون لطائرات وكالة الاستخبارات المركزية قاعدة في زاوية نائية من القاعدة الجوية الأميركية المتنامية في مدينة الظهران. في ليلة 14 تشرين الثاني/أكتوبر هبطت طائرة نقل تابعة للقوات الجوية الأميركية سراً في مهبط الطائرات السعودي في الظهران، وكانت تحمل على متنها ثلاث طائرات هليكوبتر تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية: طائرتان صغيرتان من طراز Hughes/MD-500s، وطائرة هليكوبتر كبيرة من طراز Bell 212 خاصة بالبحث والإنقاذ. وفي تلك الليلة انضمت طائرة رابعة إليها، هي طائرة «ميرلين» (Merlin) الأنيقة ذات المحركين والمجهزة برادارات FLIR للبحث والرؤية الليلية، فضلاً عن اتصالاتها الآمنة عبر الأقمار الصناعية بواشنطن.

للمحافظة على سريتهم واستقلاليتهم، وُضعت الطائرات في عنابر منفصلة بعيداً عن الكتيبة المؤلفة من 700 رجل لدعم القوة P-3s وطائرات الأواكس. يعمل رجال الوكالة في الخفاء، ويرفضون الإفصاح للبحرية والقوات الجوية عمّن يعملون لأجله، علماً أن السرّ افتضح بسرعة وأصبح معروفاً. وقد قال الجنرال شارل هورنر في هذا الخصوص مقهقهاً: «كانوا يأتون إلى قاعة الطعام ونادي الضباط ويحاولون الاختلاط بالطيارين الآخرين كما لو أنهم مجرد طيارين عسكريين زملاء، وكان معظمهم كذلك بالفعل، لكنّهم كانوا مريبين بعض الشيء بشعورهم ولحاهم الطويلة»[768].

كانت وكالة الاستخبارات المركزية تستخدم أقنية اتصالات خاصة مع المخابرات السعودية لتبديد أيّ مخاوف بشأن طائراتها ولتأمين غطاء سري لإخفاء هويتها. لكن ما إن وصلت الوكالة إلى السعودية حتى واجهت الشكوك نفسها التي واجهها وصول طائرات P-3s. كان بعض المسؤولين السعوديين في وزارة الدفاع يعتبرون أنها جزء من حيلة أميركية لتأمين تواجد عسكري لهم في المملكة. فضلاً عن أن قيام الطائرات استطلاع أميركية من طراز SR-71 بطلعات استطلاعية بعد ستة أيام فقط على وصولها، أي في 20 تشرين الأول/أكتوبر، لم يكن عاملاً مساعداً لتبديد قلق السعوديين. بينما كان تركيز الطيارين وارن ماكيندي وراندي شيلهرس منصبّاً على مواقع صواريخ

سيلكوورم الإيرانية حول مضيق هرمز، اضطرهما شعاع الاستدارة الواسع لطيارتهما ذات المحركين بلاكبيرد (Blackbird)، أثناء الطيران وعلى ارتفاع شاهق، إلى التحليق لفترة وجيزة فوق جزء من المملكة العربية السعودية. بالنسبة إلى بعض العرب المشكّكين كانت إيران أو المملكة العربية السعودية الهدف الحقيقي لهذه الزيادة المفاجئة لعدد طائرات الاستطلاع الأميركية[769].

في غضون ثلاثة أيام من وصولها حلّقت الطائرات الأربع الأُوَل مستخدمةً كلمة السر «إيغر غلاسيه». في الواقع، لقد صُنعت الطائرة «ميرلين» (Merlin) لملء الفجوة الحاصلة في تعقب الإيرانيين بعد مغيب الشمس، فتجهيزاتها تعمل بشكل جيد ويمكنها أن تحوم فترة أطول في الخليج. كما كانت طائرات «ليتل بيرد»، التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية، تعمل بشكل جيد، تماماً مثل طائرات TF-160، وقد صُمِّمت قمرات القيادة فيها خصيصا للتحليق بنظارات الرؤية الليلية[770]. كانت الطائرات تربض في حظائرها خلال النهار، وتحلّق ليلاً فقط. تحاول أن تنخرط بحركة المرور الجوي العادي فوق الخليج قبل أن تنحرف عن خطّها وتتوجّه نحو الجانب الإيراني من الخليج، وغالباً ما كانت تطير في المنطقة المحظورة على الطائرات العسكرية الأميركية. كانت طائرة «ميرلين» تحوم هناك في منطقة الحظر بضع ساعات كل ليلة وهي ترصد تحركات السفن الإيرانية المشبوهة. كانت تولي اهتماماً خاصاً لنقاط الاختناق الثلاث الرئيسة التي تعبرها الناقلات: مضيق هرمز وجنوب الخليج قرب أبو موسى؛ والخليج الأوسط قرب المنصات الإيرانية في رستم وساسان شمال دولة الإمارات العربية المتحدة؛ وفي الشمال بالقرب من جزيرة فارسي وحقول فريدون النفطية[771].

حسب الاتفاق، كان الطيارون يأخذون تعليماتهم من مقر قوات المهام المشتركة في الشرق الأوسط، ويبلّغون المعلومات لضابط اتصال من موظفي بروكس، بعد أن يتم تحليلها بسرعة بواسطة خلية صغيرة من محللي وكالة الاستخبارات المركزية يكونون على اتصال مباشر بالطائرات من قاعدتها في الظهران. كان الطيارون يحلّقون على مسافة بعيدة عن المنصات والسفن الإيرانية حتى اعتقد بعض الضباط أنهم يتجنّبون التعرّض للخطر أكثر من طياري TF-160، فهم يحلّقون محاولين تجنّب الرشاشات والصواريخ الإيرانية التي تُطلَق عن الكتف. كانوا يحلّقون تقريباً كل ليلة، وفي كثير من الأحيان في الجانب الإيراني من الخليج، يتعقبون السفن الإيرانية المشبوهة ويملأون الفراغ بطائراتهم التي لا مثيل لها ضمن سلاح الجيش الأميركي.

لم يكن من الطبيعي بالنسبة إلى طيّاري وكالة الاستخبارات المركزية المتمردين العمل وفق انضباطية وصرامة الجيش الأميركي. كانوا يحلقون حيث يُطلب منهم، لكن تقديم تقارير مفصّلة عن خطط الطيران للعاملين في قوات الشرق الأوسط كانت تزعج هؤلاء الذين يتطلب عملهم التواري عن العيون والبقاء غير مرئيين.

يتذكر ديفيد غريف قائلاً[772]: «لم يكونوا راغبين في التنسيق مع أيٍّ كان». هذا التصرف كاد يكون قاتلاً تقريباً في إحدى المرات. فقد كشفت بارجة أميركية طائرة صغيرة مجهولة الهوية،

كانت قادمة مباشرة في اتجاهها من الجانب الإيراني في الخليج. بعد محاولة استيقافها عبر جهاز الاتصال اللاسلكي، قام طاقم البارجة وقوة الشرق الأوسط على متن «لا سال» بالتحري عنها، إذ لم تكن لديهم معلومات عن طائرة صديقة ستتواجد في الجوار. بعد أخذ أشدّ الخيارات عدوانية بالاعتبار، مثل التصويب عليها بواسطة رادار التحكم بإطلاق النار، طلبت المدمّرة الأميركية إذناً بالاشتباك معها. لحسن الحظ، لم تكن طريقة تحليق الطائرة تدلّ على أنها طائرة انتحارية، فأمر قائد سرب المدمرة، النقيب دونالد داير، الطاقم بعدم إطلاق النار، قائلاً في سرّه: «الأرجح أنها إحدى طائراتنا»[773].

في اليوم التالي أجرت البحرية تحقيقاً في شأن الطائرة الغامضة التي كاد طاقمها يقابل خالقه، فاتضح أنها كانت طائرة «ميرلين» التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية. عندما اتُّهمت الوكالة بعدم الانضباط والمجازفة ردّ طيارو الوكالة بقوة أن مهمتهم ومنطقة العمليات حدّدتها قوات الشرق الأوسط العسكرية، وأنهم في الواقع أخطروا مركز القيادة العليا نفسها بوقت إقلاعهم. فإذا لم تستطع القيادة العسكرية إتمام التنسيق بين الطائرات والسفن التي تملكها التي تجوب المنطقة التي تسيطر عليها في الخليج فـ«المشكلة تكمن إذن في طاقم موظفي العمليات البحرية غير الكفؤ»، قال أحد الذين شاركوا في التحقيق بعد عشر سنوات وكان لا يزال غاضباً. عند تراجع منسوب الشتائم إلى أدنى مستوى، اتفق الجانبان على اتخاذ إجراءات لتجنّب كارثة وشيكة كهذه. وافق طيارو «إيغر غلاسيه» على تقديم خطة الطيران الرسمية قبل كل مهمة يقومون بها من خلال قيادة الجنرال هورنر للقوة الجوية في الظهران على الرغم من أن أهداف مهمتها وعملياتها في المياه الإقليمية الإيرانية سرية للغاية وممنوعة على الجميع باستثناء عدد قليل من القوات الجوية أو ضباط أركان البحرية في الخليج.

في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1987، أرسل جورج كلير من وكالة الاستخبارات المركزية رسالة إلى جوناثان هاو، المساعد التنفيذي لكرو، مستفسراً حول الدعم الطويل الأمد لعملية «إرنست ويل». أراد كريست أن تبقى الطائرات إلى أن يتمكن من العثور على بديل مناسب. «ليس هناك منصة واحدة لوزارة الدفاع تتوفر فيها القدرات التي تؤمنها مارلين». فقد كانت، ببساطة، مفيدة للغاية في تأمين المعلومات الاستخباراتية حول العمليات البحرية للحرس الثوري الإيراني[774]. بعد مناقشة البنتاغون حول إيجاد بدائل سريعة، مثل استئجار طائرة من لانغلي -دون طاقم- أو تعديل طائرة خفر السواحل، وكلاهما مكلف للغاية ويستغرق وقتاً طويلاً، وافقت وكالة الاستخبارات المركزية على أن يبقى الأمر على حاله[775].

في 20 تشرين الأول/أكتوبر، وصلت أولى كاسحتي الألغام القديمة أخيراً إلى الخليج العربي. خلال الأسابيع الستة، التي استغرقتها الكاسحتان لشقّ طريقهما من الساحلين الشرقي والغربي، جرت بينهما منافسة على من منهما ستصل أولاً. فازت كاسحة أسطول الساحل الغربي في السباق: «USS Esteem»، بقيادة النقيب روبرت مكابي، المشاكس والشرس، الذي كان أول من عبر مضيق هرمز[776]. كانت عملية البحث عن الألغام شاقة وبطيئة، فقد كانت كاسحات

الألغام تنتقل ببطء ذهاباً وإياباً عبر الطرق التي تسلكها الناقلة، وكان كل مرور لها يغطي رقعة طولها مئتي ياردة فقط في المياه، فيما طول منطقة الخطر الملغومة في جزيرة فارسي وحدها يبلغ 140 ميلاً مربعاً[777]. عانى أفراد الطاقم العاملين على السطح من ارتفاع درجات الحرارة التي بلغت 130 درجة مئوية، وكان رجال البحرية يطيرون بسترات جليدية تحتوي على قطع من مادة «الجل» المتجمّد معبأة في أكياس تساعدهم على تحمل درجات الحرارة المرتفعة أثناء فترات العمل[778]. كما وافق السعوديون على السماح لطواقم كاسحات الألغام بالاستراحة في منطقة معزولة في ميناء جبيل الصغير. هناك يمكن أن يحصلوا على بعض الراحة ويقيموا حفلات شواء على متن سفينتهم، وقد أطلقت البحرية على هذا النوع من الرحلات اسم «نزهات الشاطئ الفولاذي».

كان كل شيء يبدو لغماً على شاشة السونار، بدءاً من براميل النفط القديمة وصولاً إلى السيارات وإلى أي خردة ملقاة في القاع. كان فرانك ديماسي قائد كاسحة «إنفليكت» (Inflict) يتحقق يومياً من اثنين وتسعين جسماً[779]. أصبحت السفن المحملة بالأغنام الأسترالية والمتجهة إلى الكويت مزعجة بصورة استثنائية، فما إن تقترب السفينة من الميناء حتى ترمي بجميع الخراف الميتة من جانبها. وكانت جثث الخراف المنتفخة تشبه السلاحف، وعندما كانت حوافرها السود تظهر فوق الماء كانت تبدو شبيهة جداً بقرون الألغام الإيرانية.

في 19 تشرين الثاني/نوفمبر كانت سفينة فرانك ديماسي تعمل على بعد حوالى اثني عشر ميلاً جنوب الموقع الذي ارتطمت فيه «بريدجتون» بالألغام. كان الوقت متأخراً والسماء بدأت تظلم حين قرّر ديماسي أن يوقف عملية البحث ذلك اليوم. فجأةً أعلن مشغل رادار البحث بالسونار عن «شيء يشبه لغماً مداه 020 في حدود 450 ياردة.» أخذت السفينة تتقدم ببطء شديد، وعندما اقتربت إلى حدود ثمانين ياردة استطاع الطاقم أن يرى بوضوح شيئاً دائرياً مربوطاً بسلسلة في قاع المحيط. صاح البحّار: «يا إلهي! كابتن، إنه لغم!»

كانت كاسحات الألغام تفتقر إلى مركبة تعمل عن بعد، وهي جهاز متطور جداً متوفر في كاسحات الألغام الأوروبية ويسمح لهم برؤية الألغام عبر الكاميرا وحتى وضع مضادات الألغام عليها. لتفجير اللغم تمّ إرسال غواص للتخلص من الذخائر المتفجرة والتحقق من أنها لغم فعلاً. زُرع أصغر الألغام الإيرانية الصنع من نوع «ميام» (Myam) على وجه التحديد لضرب كاسحات الألغام الأميركية، ولأن الوقت كان متأخراً فقد قرروا قذف عوامة مربوطة بكتلة من الإسمنت وزنها مئتا باوند لتكون بمثابة علامة تدلّهم على الموقع غداً حين يعودون في الصباح التالي.

عند طلوع الشمس توجّه فريق المتفجرات المؤلف من ثلاثة رجال إلى العلامة التي وُضعت في زورق زودياك. نزل أحد الغطاسين من جانب القارب فأصابه الذعر عندما رأى علامة حفرت على جانب اللغم. فالتيار المائي قد جرف الكتلة واصطدمت باللغم. ولو اصطدمت بأحد صمّاماته لما بقي من الرجال ما يمكن إرساله إلى الوطن ليُدفن. زرع الغواص بعناية عبوة من

متفجرات السي فور (C-4) وزوّدها بجهاز توقيت على جانب الأسطوانة وعاد إلى القارب، وسارع الرجال الثلاثة بالعودة إلى الكاسحة «إنفليكت».

عندما راح ديماسي يعود بسفينته إلى الوراء اكتشف السونار لغماً آخر يبعد أربعمئة فقط ياردة عن الأول. دمّر الغواص اللغم الآخر بعد أن انفجر اللغم الأول قاذفاً في الهواء المياه الحارة البيضاء. انتهى ديماسي من تفجير اللغمين وشرع في البحث عن ألغام أخرى على طول السمت. في غضون أيام قليلة استطاع طاقم ديماسي الكشف عن خط الألغام بأكمله، وفي كل مرة كانوا يفجرون فيها لغماً كان الطاقم المبتهج يرسم لغماً صغيراً على جناح الجسر. وفي وقت وجيز كانت السفينة «إينفلكت» مزينة بعشرة ألغام متشابهة.

في هذه الأثناء كانت الكاسحة «فيرلس» (Fearless) تبحث في المنطقة باتجاه الشمال، وقد اكتشفت أحد حقول الألغام الكبيرة من نوع M-08 الذي ضرب الناقلة «بريدجتون» في تموز/يوليو. ووفقاً لاستراتيجيات ديماسي المذكورة آنفاً وصل النقيب جاك روس إلى الألغام ودمّر ثلاثة منها كانت قد زُرعت في خط مستقيم[780]. انضمّ ديماسي إليه، واكتشف خمسة ألغام أخرى. كان الإيرانيون يزرعون ألغامهم بعد أن يكتبوا عليها أرقاماً تسلسلية متتابعة الأمر الذي ساعد على مهمة إزالتها، فعندما كان الغواصون الأميركيون يلحظون أنهم قد تخطّوا رقماً كانوا يدركون أنهم قد فوّتوا لغماً[781]. بحلول نهاية الشهر أنهت كاسحة الألغام القديمة عملية رائعة تمثّلت في الكشف عن عشرين لغماً زرعها الحرس الثوري.

بالإضافة إلى تلك الألغام المزروعة في قاع الخليج كانت عشرات الألغام المنجرفة تشكّل خطراً على سفن الشحن في الخليج. جاء العديد منها من الحقول العراقية والإيرانية في الشمال بعد أن انفصلت عن مراسيها. كذلك أطلق الإيرانيون ألغاماً طافية آملين أن تحملها التيارات إلى مياه الخليج العربي. في يوم عيد الميلاد تقريباً لوحظ جسم عائم خارج ميناء البحرين الرئيس تماماً، فأمرت قوات الشرق الأوسط في منتصف عرض فني للممثل الأميركي «بوب هوب» سفينة روبرت مكابي بالذهاب إلى البحر للتخلص من اللغم. وجدوا اللغم عند غروب الشمس فقرروا تفجيره بإطلاق النار عليه بواسطة بندقية، ولكن بدلاً من أن ينفجر امتلأ صندوق اللغم المجوّف بالماء فغرق في قاع الميناء، وهو لا يزال موجوداً هناك الأمر الذي أزعج حكومة الأمير كثيراً[782].

على مدى الأشهر القليلة التالية أزالت مجموعة قوات كسح الألغام الألغام بشكل فعال، وأوقفت عمليات الحرس الثوري الإيراني في شمال الخليج العربي. في كانون الأول/ديسمبر، انضمت «ويمبرون» (Wimbrown) أخيراً إلى «هرقل» (Hercules)، واستمرت قوات العمليات الخاصة والطيارون التابعون للجيش في صقل خططتهم. كانت الدوريات تتمّ بواسطة قاربين يعملان معاً في فترة الليل ولم يكونا ينفصلان إلا عند التحقق من جسم معين. وكانت مدة كل دورية تراوح من 4 إلى 12 ساعة. في بعض الأحيان، وفي محاولة للتشويش على الإيرانيين، كانوا يوزعون السفن الأربع في تشكيلة هندسية على شكل معين لتظهر كهدف كبير للإيرانيين في جزيرة

فارسي. وعندما تكون السفن في منطقة الحظر، على مسافة اثني عشر ميلاً حول الجزيرة، كانت تنتشر بسرعة عالية فيتحيّر مشغل الرادار الإيراني حيث يبدو الهدف كأنه يتكرر أمام عينيه. في إحدى المرات طارت مروحية من نوع «ليتل بيرد» حول الجانب الآخر من جزيرة فارسي، وحلقت فوق الجزيرة والمباني تماماً. حاول الإيرانيون مطاردتها، فجلس ويكول ينتظر الكمين الذي تعدّه سفن الخفارة ومروحيات «ليتل بيرد». بعد حادثة عوامة «شولز ميدل» يبدو أنه لم تعد هناك رغبة لدى الإيرانيين في التورط مع الأميركيين.

حالما بزغ فجر العام الجديد بدا أن لدى الولايات المتحدة اليد الطولى في نهاية المطاف. ترأس قائد أميركي جديد، هو اللواء البحري توني ليس، زمام الأمور في الخليج، وأبحرت القوافل ذهاباً وإياباً دون مضايقات. ومنذ أن خسرت إيران سفينة «إيران أجر» لم تعد تحاول زرع ألغام أخرى. وتحولت رياح الحرب العراقية الإيرانية لمصلحة العراق، وشعر القادة في طهران باليأس من محاولتهم التقليل من دعم العرب لصدام حسين. ولكن بدلاً من التهدئة كانت شبه الحرب بين إيران والولايات المتحدة الأميركية تبلغ ذروتها فعلاً.

الفصل السابع عشر

أسمى مراتب الشرف

في يوم مشرق من أواخر شهر شباط/فبراير انضم الجنرال كريست إلى هال بيرنسن للاحتفال على ذيل السفينة الأميركية «لا سال»، الراسية في البحرين. عصفت الريح القوية بالأعلام فجنحت المظلة التي تحمي كبار الشخصيات من شمس الشرق الأوسط. أُقيم هذا الاحتفال بمناسبة وصول قائد أميركي جديد، هو اللواء البحري توني ليس، إلى الخليج. كان «ليس» سريع الابتسام والبديهة ولكنه كان حاد المزاج ذا شخصية متفائلة مسرفة في التعبير عن المشاعر، وذا طبع دمويّ تعادله رجاحة عقله، الأمر الذي جعل منه قائداً محبوباً، وكان طياراً محل احترام في البحريةً وقائداً سابقاً لفريق الملائكة الزرق، نخبة البحرية للطيران الاستعراضي. كان القائد الجديد مطّلعاً على ما يحدث في الخليج في الأشهر القليلة الماضية، وكان يقود إحدى الفرق القتالية على حاملة الطائرات في شهر آب/أغسطس عندما جاء آيس ليونس بخطته التي أسماها «فرصة سانحة». كان كريست يرتدي زياً أبيض ذا ياقة عالية. صعد إلى المنصة وخاطب الحاضرين قائلاً: «قال نابليون ذات مرة: "القيادة الموحدة هي أهم شيء في أي حرب". بعد مئة وخمسين عاماً ها نحن نشارك في حفل يشهد على حقيقة هذه الكلمات».

وصل الأدميرال «ليس» لتخفيف العبء عن كلٍّ من دينيس بروكس وهارولد بيرنسن، موحّداً كلاًّ من قوات المهمات المشتركة وقوات الشرق الأوسط بإمرة قائد واحد. فمنذ تشكيل قوات المهمة المشتركة، في أيلول/سبتمبر 1987، أصبحت العلاقات بين مرؤوسي كلٍّ من بيرنسن وبروكس يشوبها الجفاء والنفور. كانت المشكلة تكمن في شخصية كلٍّ منهما المختلفة عن شخصية الآخر، والأهم من ذلك الاختلافات الفلسفية بين قائدي البحرية. كانت مهمة بروكس صعبة، فقد كانت تقتضي إدارة عملية تعرف فيها القيادة الدنيا أكثر منه التعقيدات السياسية والعسكرية لعملية «إرنست ويل». كان بروكس يكره فكرة القواعد البحرية المحمولة، وقد أخّر نشر القاعدة البحرية المحمولة الثانية «ويمبرون» VII م(Wimbrown V11)م[783]. كما عارض الطبيعة اللامركزية لجمع المعلومات الاستخباراتية، وكان يعتبر استخدام قوات العمليات الخاصة عدوانية مبالغاً فيها

تجاه إيران[784]. كان بروكس يرى أن أفضل طريقة لتجنّب الاشتباك مع إيران هي البقاء بعيداً عن منطقة الخليج وعدم اللجوء إلى القوافل المسلّحة إلا عند الضرورة. بطريقة أخرى، تجنّب المواجهة. للأسف، كان ذلك يتعارض ذلك مع مخطط العملية برمّته. والواقع أن نهاية بروكس جاءت عندما استعر غضب كرو بعد مكالمة هاتفية مع بيرنسن أخبره فيها أن بروكس رفض إرسال ناقلة لتسلّم وقود مجاني قدّمته الكويت كتعويض للأميركيين، وكان سبب رفضه هذا هو القلق على سلامة الناقلة العسكرية فيما لو أرسلها إلى إلى الخليج[785]. وقد كلّف قرار بروكس هذا الحكومة الأميركية ما يقرب من خمسة ملايين دولار[786].

فيما كان بروكس يغادر الخليج دون ضجة، بعد أن تمّت إقالته، تلقى بيرنسن وداعاً مناسباً. في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة تغيير القيادة أغدق قائد القيادة المركزية الأميركية الثناء على بيرنسن قائلاً: «إنني متأكد من أن بيرنسن، هذا القائد الهادئ الرابط الجأش، عندما كان يوجد في مقصورته، كانت أفكاره تحاكي أفكارالجنرال جوفري، البطل الفرنسي في الحرب العالمية الأولى الذي قال: «لا أدري من ربح معركة المارن، ولكن لو خسرناها لعرفت من جعلنا نخسرها»[787].

في أوائل العام 1988 كانت الولايات المتحدة مستقرة بثبات في منطقة الخليج. ومع نهاية كانون الثاني/يناير قامت ثلاثون قافلة بالعبور من خليج عمان إلى الجنوب من المياه الكويتية وبالعكس. ومع أن التوتر ظل كبيراً إلا أن النشاط الإيراني خفّ. لكن يبدو أن ما من نهاية قريبة لالتزام الولايات المتحدة، على حدّ ما يكرّره معارضو عملية تغيير طابع العملية، ولكن ما إن حل ربيع العام 1988 حتى وصلت الأحداث إلى نقطة حرجة[788].

عصر يوم 14 نيسان/أبريل من العام 1988، توجهت البارجة «يو إس إس صموئيل بي روبرتس» جنوباً نحو مضيق هرمز، بعد أن رافقت ناقلتي نفط غيّرتا علميهما هما «كينغ غاز» (Gas king) و«روفر» (Rover) إلى الكويت. وهي المرافقة الناجحة الخامسة والعشرون ضمن عملية «إرنست ويل»[789]. كانت السماء صافية والرياح خفيفة، وروبرتس تسير سيراً حثيثاً بسرعة خمسٍ وعشرين عقدة، وكانت متوجهة للقاء ناقلة الوقود لتتزود ببعض الفيول قبل أن تلتحق بقافلة أخرى لإرنست ويل تتجه شمالاً. مرّت بجزيرة شاه آللوم شوال (Shah Allum Shoal) الواقعة على مسافة خمسة وخمسين ميلاً شمال شرقي قطر، وهي منطقة ضحلة المياه تجبر الناقلات التي تسير في عمق معين على التقيد بممر بحري أضيق. كانت البارجة الفرنسية «دوبليكس» (Dupleix) قد مرت في المنطقة قبلها بساعتين ولم تعلن عن أي شيء يثير الريبة. كانت البحريتان تتبادلان الضباط، وأحياناً الأطعمة، ذهاباً وإياباً، كتغيير لطيف في المهمة الأساسية اليومية التي تقضي بإجراء دوريات في الخليج. مؤخراً أقامت «روبرتس» و«دوبليكس» حفلاً مسائيّاً مشتركاً في جناح الضباط على متن «روبرتس»، وتمّ تقديم بعض النبيذ الفرنسي المهرّب، وهذا يُعتبر مكافأة على متن سفينة حربية أميركية جافة. الأهم من ذلك أن مقاتلي السفينتين كانوا يحذرون بعضهم

بعضاً، فعندما تلوح في الأفق سفينة إيرانية تلاحظ «روبرتس» أن المدمّرة الفرنسية تبقى على مقربة استعداداً لتقديم المساعدة[790].

كانت «سامي بي» (Sammy B)، وهو الاسم الذي يطيب لطاقمها أن يدعوها به، بارجة من طراز «أوليفر هاذرد بيري»، من الفئة نفسها التي كانت تنتمي إليها السفينة السيئة الحظ «يو إس إس ستارك». إنها البارجة الثالثة التي تحمل اسم صموئيل بي. روبرتس (Samuel B. Roberts)؛ أما البارجة الأولى التي حملت هذا الاسم فقد غرقت قبالة جزيرة سمر في معركة خليج ليتي في 5 تشرين الأول/أكتوبر من العام 1944، وخسرت خلالها تسعين فرداً من طاقمها. كتب النقيب روبرت كوبلاند، الذي بقي على قيد الحياة، في تقريره بعد الخدمة قائلاً: «أظهر الرجال أسمى مراتب الشرف وهم يقاتلون في مواقعهم بحماسة أينما كانت. كانوا يحاربون ويعملون بهدوء وشجاعة وكفاءة، وما من شرف يمكن أن أحصل عليه أسمى من قيادة مثل هؤلاء الرجال». حُفظ تعبير «أسمى مراتب الشرف» وأصبح شعاراً للسفينتين التاليتين. تبدو «روبرتس» صغيرة الحجم، فطولها 450 قدماً، وبدنها على شكل مدية، وبنيتها العلوية تشبه الصندوق، إلا أنها تحمل أكثر من أربعة آلاف طن وتضمّ طاقماً تعداده 215 رجلاً. كان سلاح البحرية قد صمّم هذه السفينة باعتبارها حلاً غير مكلف لإتمام مهام روتينيّة مثل مقاومة الغواصات وحراسة القوافل.

يبلغ ضابط البحرية بول أكس رين، قائد البارجة روبرتس، من العمر اثنين وأربعين عاماً، وقد ولد في حي برونكس، وتربّى تربية قاسية، تظهر على ساقه آثار طلقة نارية من مسدس عيار 22 مم تعود إلى فترة شبابه الطائش. لكنه في النهاية غيّر مسار حياته، فتخرج في كلية كاثوليكية صغيرة، اسمها ماريست، في بوكيبسي بنيويورك؛ وتقلّد في العام 1968 رتبة ملازم في البحرية. في العام 1972، خلال الأيام الأخيرة من حرب فيتنام، وجد رين نفسه في مهمة غير عادية جداً بصفته ضابطاً في البحرية يقاتل على السطح. لقد طُلب منه العمل كمستشار في إطار حرب وكالة الاستخبارات المركزية السرية في كمبوديا. كما قام بسلسلة من العمليات بالقرب من قواعد الدوريات على حدود لاوس على طول نهر ميكونغ، وأمضى أكثر من مئتي يوم في مناطق القتال تحت وابل قذائف الهاون والرصاص جنباً إلى جنب مع نخبة قوات العمليات الخاصة في البحرية وقوات الدعم المحلية. وكان آخر ضابط في البحرية الأميركية يغادر بنوم بنه بعدما حاصرها الخمير الحمر وأصبحت كمبوديا ساحةً للقتال. غيّرت تلك التجربة رين مدى الحياة، وعلى نقيض العديد من معاصريه الذين لم يسمعوا صوت طلقة رصاص واحدة بسبب الغضب أو لأي سبب آخر، تعلّم رين ما يحتاجه لقيادة الرجال في المعركة، وسعى لغرس أهمية التدريب على الحرب الجديدة في رؤوس مرؤوسيه وتعليمهم أهمية توقّع الدخول في مواقف خطرة.

عُرف عن النقيب رين أنه قائد عدواني ومغرور وصريح إلى أقصى درجات الصراحة. كان يتحدث بصوت مرتفع وبكل ثقة. كما كان عصبيّاً إلا أن طبيعته الطيّبة وروحه المرحة كانتا تُلطفان طبعه. في إطار مهمة مع ضبّاط معظمهم من المهندسين الفنيين، كان رين شخصية جديدة بعض الشيء. لقد كان يتمتّع بكاريزما فانجذبوا إليه وأحبوه، وهكذا حاز رين ولاء ضباطه وأفراد طاقمه.

وصلت البارجة صموئيل بي. روبرتس (Samuel B. Roberts) إلى الخليج في 2 شباط/فبراير 1988، كجزء من سرب المدمرات 22، بقيادة الهندي الأحمر ماضغ التبغ النقيب دونداير. رافقت روبرتس، في خلال الشهرين التاليين، خمس قوافل دخلت عالم الخليج العربي الغريب وحرب الناقلات. في أول عبور له لمضيق هرمز كاد رين أن يطلق النار على طائرتين إيرانيتين من طراز فانتوم F-4 كانتا قادمتين من بندر عباس، ولكنهما ابتعدتا في اللحظة الأخيرة، قبل أن يعطي رين الواقف قرب بحار تداعب إصبعه الزناد الأمر بإطلاق النار. في تلك الليلة كاد رين أن يطلق النار على طائرة «إيغر غلاسيه» (Eager Glacier) تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية كانت قد انطلقت من الظهران في دورية ليلية قبالة الساحل الإيراني. كان روبرتس يستعد لإطلاق صاروخ نحوها حين أبلغته قيادة «ليس» بأنها طائرة صديقة.

وجد رين وروبرتس نفسيهما ينفذان على نحو متزايد استراتيجية جديدة أكثر عدوانية تجاه إيران. جاء وزير الدفاع الجديد فرانك كارلوتشي إلى البنتاغون وفي نيته إجراء بعض التغييرات في العمليات الأميركية في الخليج. كان شبح الإيرانيين وهم يهاجمون السفن التجارية غير المسلّحة على مرأى من السفن الحربية الأميركية يزعجه إلى حدٍّ كبير. كان يوافق رئيس هيئة الأركان المشتركة كرو رأيه القائل أنه من غير المعقول أن يظل قادة سفن الجيش الأميركي مقيدين بقواعد اشتباك صارمة، وأن يكونوا غير قادرين على تقديم المساعدة لبحارة عاجزين عن الردّ على النيران التي تطلقها سفن وزوارق إيرانية صغيرة. اتصل الأدميرال كرو بالجنرال جورج كريست في تامبا في أواخر كانون الثاني/يناير وأعطاه تعليمات تقضي بالتشدّد مع الإيرانيين قائلاً: «جورج، لا تتسبّب باندلاع حرب ولكن كن عدوانياً واستخدم الرادار أو السفينة وكل ما يمكن القيام به لصدّ هجماتهم». لا تستطيع السفن الحربية الأميركية دخول المياه الإقليمية الإيرانية، ولكن إذا دعت الحاجة للتوغّل في منطقة الحظر الإيراني، فليكن.

توجّب على توني لِسّ تنفيذ الإستراتيجية الجديدة. قال ليس: «الإيرانيون جبناء، عندما يرون سفينة قادمة في الأفق يهربون عائدين إلى بلادهم». ثم راح يتحدث بشكل موجز عن الربّابنة الواصلين حديثاً ومن بينهم رين، وأعطى تعليماته قائلاً: «أيها الرجال، نحن في حالة حرب. لا تفقدوا سفينتكم. لديكم رادارات... أحبطوهم، لا تدعوهم يزرعون الألغام، ولا تدعوهم يهاجمون السفن». ما حدث بعد ذلك الاجتماع عبارة عن سلسلة من المواجهات القوية بين الأسطولين وكانت السفينة روبرتس رأس الحربة فيها.

حدثت أول مواجهة بالقرب من جزيرة «سيري» الإيرانية، عندما كشفت روبرتس اقتراب البارجة الإيرانية المتوجهة لمهاجمة الناقلة اليونانية «تنديس» (Tandis) الغافلة عمّا يتهددها. ما إن اقتربت روبرتس من السفينة الإيرانية حتى أمر رين قائلاً: «فليستعد الجميع». كانت البارجة «سبلان» (Sabalan) البريطانية الصنع أصغر من نظيرتها الأميركية، فطولها 311 قدماً فقط، وحمولتها نصف حمولة تلك، لكنها تعدّ السفينة الأقوى في البحرية الإيرانية، فهي مزودة ببرج مدفعي سريع الإطلاق عيار 114 ملم يقع في مقدمة البارجة، وثلاثة صواريخ سي كيلر (Sea Killer) المضادة للسفن الصغيرة نسبياً في الخلف. كان يقود «سبلان» عبد الله منافي، وهو ضابط

في البحرية النظامية ذاع صيته كأحد قادة السفن الإيرانيين الأكثر شراسةً في الحرب. نال هذا القائد البغيض لقب «القبطان الشرير» بسبب سوء سمعة سفينته التي كانت تهاجم عمداً عنابر الطواقم على سفن الشحن المحايدة. حتى عندما أمرت القيادة في بندر عباس «القبطان الشرير» بعدم مهاجمة أي ناقلة، كان في كثير من الأحيان يتجاهل الأوامر أو يكذب علناً على رؤسائه. يبدو أنه كان يبتهج بإطلاق مدافع السفينة نحو أفراد الطاقم وقوارب النجاة الخاصة بهم. بعد ذلك كانت «سبلان» تبعث برسالة عبر اللاسلكي إلى الناقلة المنكوبة تقول فيها: «نتمنى لكم يوماً سعيداً»[791].

اقترب رين بسفينته خلف مؤخرة «سبلان» وأطبق عليها على مسافة ميل واحد. حدق طاقم السفينة الإيرانية إلى الخلف بتوتّر، موجهاً رشاشات محمولة على سطح السفينة باتجاه السفينة الأميركية. ولأن البارجة الأميركية تقع خلف مؤخرة البارجة الإيرانية، لم يستطع القبطان الإيراني الاستدارة بسهولة وسرعة نحو الميناء. أعقبت ذلك رقصة كلاسيكية غريبة. كانت «سبلان» أشبه بأرنب بري يحاول الإفلات من ثعلب يطارده، فراحت تستدير بسرعة إلى اليسار ثم إلى اليمين في محاولة للتخلص من ملاحقة السفينة الأميركية لها واتخاذ وضعية تجعل مدفعها الأمامي في مواجهة «روبرتس» التي كانت تحذو حذوها وتقوم بالحركات نفسها. بعد ساعات عدة اكتفت «سبلان» بهذا القدر من الملاحقة فتوجهت شمالاً نحو إيران، ولم تتبعها روبرتس. في تلك الليلة كتب رين مبتهجاً إلى أخيه قائلاً: «الطاقم في قمة النشوة... على متن البارجة قبطان لا يعرف الخوف!»[792]

كادت المواجهات القليلة التالية بين السفينتين بالقرب من جزيرة أبو موسى تنتهي بإراقة الدماء. ففي حين واصلت «سبلان» التملص من المواجهة، لم تكن شقيقتها السفينة «سابند» (Saband) بهذا الرضوخ. في إحدى المرات، تجسست «روبرتس» الأميركية و«سابند» الإيرانية الواحدة على الأخرى بواسطة الرادار؛ فاستدارت كل منهما على الفور وتوجهت مباشرةً نحو الأخرى. أطبقت كلٌّ منهما على الأخرى بسرعة متساوية بلغت ستين عقدة في الساعة، في لعبة صراع ديكة مميتة. كانت كل واحدة منهما ترقب الأخرى بواسطة رادار التحكم بإطلاق النار، وما إن ذخّر رين صاروخاً وثبته في المقدمة، واستعد لإطلاقه باتجاه «سابند» في حال فتحت السفينة الإيرانية النار، وقبل أن ترتطم السفينتان ببعضهما، حتى «استدارت سابند» وابتعدت.

واصل رين مضايقة السفن الإيرانية قرب جزيرة أبو موسى. وفي إحدى المرات تعقّب سفينة إيرانية طوال الليل على الرغم من أن الطقس كان في أسوأ حالاته في الخليج. كان الموج أعلى من منصات سفينة روبرتس، ومع ذلك ظلّ يلاحق السفينة الحربية الإيرانية في منطقة الحظر الإيراني حتى بزوغ الفجر. كان «ليس» راضياً عمّا يحصل، ومع أنه عاتب رين على «تصرفاته الاستفزازية» إلا أنه كان معجباً بقائد صامويل ب. روبرتس. علّق الأدميرال «ليس» في وقتٍ لاحق قائلاً: «كان رين واحداً من أفضل القبطانة الذين عرفتهم في حياتي».

بدأت الاستراتيجية العدوانية الجديدة تؤتي ثمارها؛ إذ تراجعت الهجمات الإيرانية، بعد أن حققت السفن الأميركية هدفها في إخافتهم. أشارت الاستخبارات الأميركية التي كانت ترصد الاتصالات الإيرانية في مقر المنطقة البحرية الأولى في بندر عباس إلى القلق الإيراني المتزايد من

عدم القدرة على مهاجمة السفن في جنوب الخليج، وأظهر أحد التقارير أن الولايات المتحدة عازمة على القيام بأي شيء «لحماية» آلة صدام حسين الحربية.

كان أحد الأشخاص الذين شهد مباشرةً لعبة القط والفأر تلك هو مراسل وكالة أنباء «أسوشيتد برس» ويدعى ريتشارد بايل. كان بايل قصير القامة أسود الشعر وعلى وجهه مسحة من الحزن، وكان فطناً وسريع البديهة. قلائل هم الصحافيون الذين لديهم خبرة في المعارك مثل بايل، فقد خدم فترة وجيزة في الجيش قبل أن يصبح مراسلاً، وترقّى ليصير مديراً لمكتب «أسوشيتد برس» في سايغون معظم فترة حرب فيتنام. هناك اطّلع على مزايا الجيش الأميركي، وكذلك عايش مأساة الحروب، حين خسر أربعة صحافيين وأصدقاء مقربين له في لاوس، من بينهم المراسل الشهير لاري بوروز. كان بايل المراسل الأميركي الوحيد الذي غطّى باستمرار الحرب العراقية الإيرانية المتصاعدة والتدخل الأميركي فيها من خلال عملية «إرنست ويل» لمواكبة الناقلات. وكان يقيم في البحرين، حيث كانت زوجته تقصد الكنيسة الكاثوليكية الصغيرة نفسها التي يقصدها توني لِسّ وزوجته. كرّس بايل نفسه لمتابعة قصة تغيير أعلام الناقلات فصعد تقريباً على متن كل سفينة في الخليج، وشارك في كلّ التغطيات الصحفية المشتركة، لاسيما أول تغطية لحادثة «بريدجتون».

شهد بايل المضايقات المتزايدة باهتمام كبير، وأدرك تماماً أن الولايات المتحدة قد صعّدت العملية ما يزيد احتمال حصول مواجهةعسكرية. كان على متن «روبرتس» مع رين خلال ملاحقة البارجة الإيرانية طوال الليل. «لم أستطع أن أصدق ما كان يقوم به هذا الرجل رين. لا بدّ أنه أذاق تلك السفينة الإيرانية جحيم الخوف!». قال رين في مقابلة جرت معه في حجرة خاصة على متن السفينة: «إننا ذاهبون لملاحقتها. سوف تعرف أننا هنا، وسنجعلها تعلم أننا نعرف أين هي، وماذا تفعل طيلة الوقت. إنها عملية نفسية». أما أثر ذلك الترهيب على الإيرانيين فتلك قصّة أخرى.

بقدر ما كانت الولايات المتحدة تلاحق القوارب الإيرانية، كان الجيش الإيراني يفعل الشيء نفسه بالبحرية الأميركية. لاحظ الحرس الثوري وجود ثغرة في مخطط المراقبة الأميركية: منطقة تقع في الجنوب الأوسط من الخليج. في صيف العام 1987 أوصى بيرنسن بإعادة تموضع البارجة «غودالكنال» (Guadalcanal) في تلك المنطقة لتأمين المراقبة، لكن طلبه رُفض. حاول «ليس» سدّ تلك الثغرة عن طريق تمركز سفن حربية وتحليق طائرات الـ P-3 العاملة انطلاقاً من المملكة العربية السعودية، لكنه لم يتمكن من الإبقاء عليها في مكانها بشكل مستمر، فوجدت إيران ثغرة يمكن أن تنفذ منها عندما يتم سحب السفن الأميركية المتعددة المهام إلى الشمال أو الجنوب، تاركةً بذلك فتحة مؤقّتة للإيرانيين. وبعدما تأكدت القوات الإيرانية في «رستم» و«ساسان» من ندرة وجود القوات الأميركية في هذه المنطقة قررت التحرك. كانت تلك هي المرة الأولى منذ خمسة أشهر التي تغامر فيها إيران بـ«اليّد الخفية».

بعد اجتماع ضمّ كبار القادة العسكريين في طهران أبحرت السفينة الإيرانية «شراك» في 12 نيسان/أبريل من ميناء بندر عباس دون أن تلفت الأنظار. كانت سفينة صغيرة وزنها 1300 طن وطولها مئتا قدم، وكانت مصمّمة لتكون مركب إسناد أو نقل، وفيها مساحة عريضة مفتوحة مسطّحة من المقدمة حتى منصة الربان وهيكل علوي فوق المؤخرة. كان يعمل على متنها 20

شخصاً عدا عن كتيبة صغيرة من الحرس الثوري المتعصّب. بعد توقّفٍ قصير في جزيرة أبو موسى، حيث حصلت على تعليمات اللحظة الأخيرة، توجّهت «شراك» غرباً مروراً بمنصات النفط الإيرانية التي يحرسها حرس إيرانيون آخرون: سري، وساسان، ورستم. حلقت الطائرات الإيرانية P-3 الرباعية المحركات المصنوعة في الولايات المتحدة بعد ظهر ذلك اليوم، ووفرت بعض المعلومات الاستخباراتية حول مواقع السفن الأميركية، وقدّمت تقريراً بذلك إلى القيادة في جزيرة أبو موسى. أفرغت «شراك» حمولتها في 13 نيسان/أبريل. وفي موقع حيث المياه الضحلة تُجبر السفن على أن تمخر في قناة اتّخذت السفينة الإيرانية موقعها مقابل ضوء ملاحة يلوح في الأفق، ثم أطفأت أضواء ملاحتها وراحت تبحر في الظلام. كان لدى أحد الضباط ساعة ميقاتية في يده، وكان آخرون يجمعون بشكل منهجي أشياء كروية سوداء، رُتّبت على سطح السفينة المسطح المفتوح، ثم دحرجوا بعناية هذه الأشياء على حافة لوح ناتئ من الجانب، فسقط اثنا عشر لغماً في المياه؛ وعلى عكس السفينة «إيران أجر»، تمّ زرع الألغام بشكل دائري بهدف ملء المنطقة بالألغام ولزيادة فرص العثور على هدف. في تلك الليلة، أو في الليلة التالية، قامت «شراك» أو شقيقتها «سورو» (Souru) بمهمة مماثلة على بعد ستين ميلاً تقريباً إلى الجنوب الشرقي على طول مسار ناقلة «إرنست ويل» القديم الذي لم تستخدمه قوافل عدة في الآونة الأخيرة.

عصر 14 نيسان/أبريل، كان القبطان رين في مقصورته يوبّخ الطاهي الخاص به كيفن فورد ممازحاً كعادته، بسبب وجود الكثير من السبانخ على قائمة الطعام. اختار أن يكون العشاء في الليلة التالية شريحة لحم وكركند، وإلى جانبها طبق من السبانخ. أصبح اختيار نوع الخضار مثار جدل على متن السفينة، وكان رين يقرأ شكاوى عديدة توضع في صندوق اقتراحات السفينة عن المبالغة في تقديم السبانخ. صرخ رين: «لا مزيد من السبانخ يا فورد!».

فجأةً انطلقت رعدة واضحة من السفينة وأبطأت «روبرتس» من اندفاعتها في الحال. رنّ جرس الهاتف على الفور في مقصورة رين. كان الضابط المناوب، الملازم أول روبرت فيرهمر الابن على الخط، قال: «سيدي الرئيس، أعتقد أننا دخلنا حقل ألغام».

كان المراقب الأمامي، معاون الربان، ضابطاً مسؤولاً عن العاملين على سطح السفينة، شاباً يدعى بوبي جيبسون. ظل يراقب من مقدمة السفينة مدة ساعة تقريباً، جالساً على كرسي معدني، وكان يراقب الدلافين التي تمر مراراً وتكراراً أمام مسار «روبرتس» في الماء، ويرقب غروب الشمس الجميل بعد ظهر يومٍ دافئ وبحرٍ هادئ ونسيمٍ خفيف. في الساعة 4:39، لاحظ في البدء ثلاثة دلافين «لكنها لم تكن تغطس تحت الماء». تناول منظاره فرأى بوضوح مسامير ضخمة تخرج من أجسام أسطوانية سوداء، كانت الشمس تعكس سطحها المعدني المطلي حديثاً، فدقّ جرس الإنذار على الفور[793].

بقي رين متشككاً. كانت «روبرتس»، مثل كل السفن الأخرى في الخليج، تصادف في طريقها مجموعة من الأشياء الشبيهة بالألغام: أكياس قمامة وبراميل زيت فارغة وأغنام ميتة، وظنّ

رين أنها قد تكون قطعة أخرى من قمامة الخليج العربي. لكن وجوده المطلوب على الجسر له بالطبع أولوية على السبانخ فقال: «حسناً، سأصعد على الفور».

عندما وصل رين إلى الجسر أوضح له فيرهمر أن المراقب الأمامي قد لمح ألغاماً. أخذ رين منظاراً وراح ينظر بنفسه، فرأى على الفور ثلاثة أجسام سود تطفو على السطح، منها اثنان أمام السفينة مباشرةً وواحد على بعد يتراوح ما بين ثلاثمئة وأربعمئة ياردة على ميمنة السفينة، فصاح: «تباً! إنها ألغام!».

بدلاً من مواصلة السير قدماً فكّر رين أن من الأفضل للسفينة أن تتراجع القهقرى على المسار ذاته الذي سلكته، فعكس المحركات ورجع على امتداد آثار السفينة التي ظلت واضحة للعيان بعيداً في الأفق في مياه الخليج الزرقاء. فكّر رين: «بما أننا أبحرنا تماماً على طول هذا المسار فهذا يعني أنه خالٍ من الألغام». أمسك القبطان بمكبر الصوت الداخلي للسفينة وقال: «أمامنا ألغام. توجّهوا إلى مراكزكم القتالية، وحافظوا على الهدوء؛ لا أريد ضوضاء. أريد أن يصعد أكبر قدر ممكن من الجنود إلى السطح فلا داعي أن يكون أي فرد لا لزوم له تحت سطح السفينة في حال ارتطمت بلغم»، ثم أمر مروحية «لامبس» (Lamps) الخاصة بروبرتس أن تحلّق مباشرةً للاستطلاع. كان ضابطه التنفيذي، الرائد البحري جون إيكليبري، يراقب من أعلى جناح الجسر الأيسر، ونشر رين مراقبين على زوايا السفينة الأربع.

بدأت «روبرتس» تتراجع ببطء في مسار مستقيم. كان النقيب رين على جناح الجسر الأيمن يتابع الوقائع بدقة[794]. مرت عشر دقائق، ثم خمس عشرة دقيقة. فكّر رين بينه وبين نفسه: «حتى الآن الأمور تسير بشكل جيد جداً». يسهل الحديث عن التحكم في مسار سفينة وزنها 4000 طن وطولها 450 قدماً وأنت تعود بها إلى الوراء في مسار مستقيم، ولكن القول ليس كالفعل، فقد كانت تنحرف بعض الشيء عن مسارها.

فجأةً شقّ انفجارٌ مدوٍ الهواء. سمع رين وكل شخص آخر على متن السفينة صوتاً لم يسمع مثيلاً لشدته من قبل. لقد رفعت قوة الانفجار مؤخرة السفينة بكاملها من الماء عشر أقدام تقريباً، دافعةً مقدم السفينة بقوة تحت سطح الماء تقريباً. أدّى الانفجار إلى قذف بودي جيبسون، الذي تشقلب شقلبةً كاملة وهبط في وضعية الجلوس على قاذفة صواريخ، وراح رين ومعظم أفراد الطاقم يتدحرجون على سطح السفينة، وانكسرت قدمه بفعل السقوط.

لقد انفجر لغم بمؤخرة السفينة، بين مستودع بندقيات عيار 76 ملم ومستودع الطوربيدات، فأحدث ثقباً قطره اثنتان وعشرون قدماً في الجانب الأيسر للسفينة فتدفق على الفور ألفا طن من المياه على «روبرتس»[795]. ضربت قوة الانفجار محركين من محركات توربين الغاز في السفينة فأوقعتهما عن منصتيهما وقذفت بعض الآلات عالياً فسحقت سطح السفينة إلى الأعلى، وانفجر صهريجان سعتهما عشرة آلاف غالون من الوقود، فتسرّب الوقود إلى أحد المحركات فاشتعل فوراً مرسلاً كرة نارية ضخمة عبر المدخنة ارتفعت في الهواء 150 قدماً على شكل حبّة فطر. غمرت

المياه على الفور غرفة المحرك الرئيسة، وهكذا خلال دقائق غمرت المياه مؤخرة السفينة كلها[796]، وفي غضون دقائق كانت المياه المتدفقة على السفينة تكفي لملء ملعب تنس ارتفاعه نحو ست عشرة قدماً. بدأ التيار الكهرباء على السفينة يتلاشى مع الانتشار السريع للدخان والنيران[797].

حالما سقط الحطام إلى الأسفل جراء الانفجار، استجاب أفراد الطاقم على الفور وركضوا إلى محطة المراقبة المتضررة للتعامل مع الأزمة. قفز المراقب الأمامي، بوبي جيبسون، إلى محطة الطوارئ الخاصة به وراح يبحث عن خرطوم الإطفاء قبل أن يبدأ بالشكوى من ظهره الذي يؤلمه - وهذا طبيعي عندما تُكسر ثلاث فقرات في ظهر المرء.

سار إيكيلبري نحو رين وقال: «سيدي، هل تذكر آخر ترقية لك؟» أجاب رين والغضب بادٍ في صوته: «ما هذا الجحيم الذي ضرب كل شيء؟» رد إيكيلبري: «حسناً، يبدو أنه الجحيم تماماً!» ضحك رين ضحكةً خافتة فقط في محاولة للحفاظ على الفكاهة في أحلك الظروف.

كثر الأبطال على متن «روبرتس» ذاك اليوم، بمن فيهم بحار بغيض يدعى مايكل تيلي، وهو من مواليد ولاية ميسوري، التحق بالقوات البحرية في العام 1984، وعُيّن على متن السفينة «صموئيل ب. روبرتس» عندما تقلّد رتبته. عمل ضابط الصف تيلي بجهد بالغ، ولكن المشكلات كانت تلاحقه، فبعد وقت قصير من انضمامه إلى الطاقم قُبض عليه وهو يشرب الخمر، وكان دون السن القانونية، مستخدماً بطاقة هوية مزورة. أدّى ذلك إلى أن يذهب إلى أول محقق مسؤول عن حالته، فخسر راتبه ووضعت قيود عليه. عندما رست «روبرتس» في أحد موانئ البحر الكاريبي خلال فترة إعدادها قبل نشرها ذهب تيلي وآخرون إلى بعض الحانات المحلية، وبدلاً من أن ينتظر في الطابور الطويل لدخول الحمّام قرّر أن يخفف عن نفسه في الأدغال، فوقف، للأسف، أمام نافذة كبيرة لمطعمٍ محليٍّ فاخر، وإذا به يقابل مرة أخرى القائد رين.

لكن تيلي استخدم روح الدعابة مع رين. بما أن تيلي كان يعمل في الأماكن المخصصة للمهندسين خلال النوبة الليليّة فقد وضع مذكرة في صندوق اقتراحات السفينة قال فيها: «إنني لا أرى ضوء النهار. ألا يمكنكم وضع كوة في الأماكن المخصصة للمهندسين حتى أستطيع رؤية نور الشمس؟»

أوصى ضابط رين التنفيذي وضابط صف كبير آخر بالتخلص من تيلي، وعندما مَثُلَ أمام رين بصفته قائد السارية الموكل بالجلسات التأديبية ومعاقبة المخالفين على السفينة رمى تيلي توسّل إلى رين وناشده قائلاً: «سيدي الرئيس، من فضلك لا تطردني. البحرية كلها عاقبتني»[798]. قرّر رين، رغم اعتراض القيادة العليا، السماح له بالبقاء مع أنه لا يعرف التسامح في ما يخص مخالفة الانضباط. علّق رين قائلاً: «وبعد ذلك خفضت رتبة تيلي العسكرية وأبقيت له مساحة بالقرب من غرفة الهندسة النظيفة». عندما أمر النقيب رين أفراد الطاقم بالصعود إلى سطح المركب وشرعت «روبرتس» بالتراجع عن منطقة الألغام الخطرة بقي تيلي في الأسفل في مكان عمله. لقد قال لرين في وقت لاحق: «لقد أعطيتني الكثير من الفرص. أعتقد أنكم بحاجة إلى بقائي في الأسفل». كان قراره مشكوكاً في صحته.

عندما انفجرت الألغام أدت الفيضانات والحرائق الناتجة إلى تدمير ثلاثة من محركات الديزل الأربعة في «روبرتس» المخصصة للحفاظ على الطاقة الكهربائية لمضخات السفينة. كان المحرك الرابع قد أصابه تصدع في المنظم، والضربة أزاحته من مكانه. بينما كان الطاقم يكافح لإنقاذ السفينة المنكوبة بدأت الأضواء تخفت على متنها ثم انطفأت نهائياً، فسادت الظلمة كل أنحاء السفينة. يعلم رين أنه من دون الكهرباء سوف يفقد سفينته.

أدرك تيلي المأزق عندما حوصر في الطابق السفلي. نزل واثنان آخران من البحارة للتحقق من مولدات الديزل. كان أحدها متضرراً بشدة، وبدا الآخر في حالة جيدة. وبسبب انقطاع الطاقة الكهربائية كان زر إنارة الكهرباء عديم الفائدة، وكان البديل الوحيد هو «بدء الانتحار» كما يقول البحارة. و«بدء الانتحار» هي عملية تشغيل المحرك يدوياً حيث يتم تحرير ضغط الهواء مباشرةً من محرك التشغيل، وبعد ذلك بكبسة زر واحدة يندفع الهواء إلى مصدر الطاقة، وهذا شبيه بتشغيل السيارة عبر الدوس بقوة على دواسة القابض والسيارة تتحرك. الأمر لا يحتمل الخطأ، فإن لم يدر المحرك فسيطير بعيداً ويملأ المنطقة بشظايا معدنية. وافق تيلي على محاولة القيام بعملية «بدء الانتحار»، ونزل بنفسه إلى غرفة ضيقة تحوي المولد. لكن مهمته تعقّدت لأن مولد الطاقة كان معطلاً، مما اضطره للصعود على المحرك والتعامل معه بمفكّ براغٍ. انفجر ضغط هوائي في وجهه، وعاد المحرك إلى الحياة. إنه لأمر مثير للدهشة أن يصلح المعاقب المحرك ويعيده إلى إيقاعه الطبيعي. مع عودة الطاقة الكهربائية سيكون لدى الطاقم حظّ في القتال[799]. فجأةً عادت الأضواء مرة أخرى على متن السفينة، وبسبب الحاجة الماسة إلى الكهرباء عمّ الصخب في كل مكان. كيف أو لماذا، لا أحد يعلم، ولكن رين كان ممتناً لهذه المعجزة.

في غرفة المحرك الرئيس، كان رئيس ضابط الصف أليكس بيريز يصعد إلى فوق من عارضة السفينة عندما وقع الانفجار، الأمر الذي أدّى إلى تحطّم السلّم ووقوعه تحت صفائح سطح السفينة فوق المحركين تماماً في مقصورة أخذت المياه تتدفق إليها بسرعة. عندما وصل فريق الإطفاء وجدوه متمسكاً بالقضبان والمياه تغمره حتى صدره، فسارعوا إلى إعطائه مفتاح ربط ليحاول فك البراغي التي تمسك بالصفائح، وكانت تحت الصفيحة نفسها، ولكنها لم تتحلحل رغم جهوده. أخيراً تسلق أحد البحارة على ما تبقى من الحطام وخاض معركةً في الماء.

سأل الرجل بيريز: «هل ترى الضوء؟»، «أجل»، «حسناً، عليك أن تسبح إليه وإلا غرقت». سبح بيريز حوالى اثنتي عشرة قدماً إلى مكان كان يتدلى منه مصباح يدوي خاص بالحروب، وهناك أمسك بعض البحارة فوراً ببيريز من شعره وقميصه وسحبوه إلى بر الأمان. مشى بيريز ومن ثم انهارت قواه جراء إصاباته الخطيرة، فأُخذ مع آخرين جروحهم خطيرة إلى محطة الإسعاف المؤقتة في هنغار الهليكوبتر.

عند الساعة الخامسة والنصف مساءً، أي بعد خمسٍ وأربعين دقيقة من الارتطام باللغم، تحدث رين إلى «ليس» ليطلعه على آخر المعلومات فقال: «أيها الأدميرال، السفينة تغرق بمعدل قدم واحدة كل خمس عشرة دقيقة. لدي خمسة مصابين بجروح بليغة، وربما أكثر. المياه ترتفع، ولا

يمكن السيطرة على الحرائق». لكنه قال إن بندقيات عيار 76 ملم ما زالت متوفرة وأن السفينة مازالت قادرة على القتال[800].

سأل «ليس» سؤالاً صعباً: «إذا أخذنا بعين الاعتبار وضعكم، ما الذي تبقّى من السفينة برأيك؟ هل فكّرت في إخلائها؟»

أجاب رين عبر الراديو: «لم أفكّر في ذلك على الإطلاق، وليست لدي أي رغبة في مغادرة السفينة. سنبقى مع السفينة ونحارب. في الحقيقة، أعتقد أننا قادرون على الفوز بهذا الشيء!» ثم فكّر بينه وبين نفسه: «ليس لدينا خيار آخر. باختصار، نحن في ورطة»، وفكرة أن يقفز طاقم السفينة إلى المياه الممتلئة بأسماك القرش خيار أسوأ من غيره بكثير.

ردّ ليس: «هل لديك أي شيء آخر تريد قوله؟»

أجاب رين في لهجة حازمة: «أسمى مراتب الشرف!»[801]

لقد كانت لحظات مدهشة لن ينساها إلا قلة من الذين تنصّتوا على الراديو. الغضب اختلط بالفخر، وأخبار رين وأفعاله وصلت إلى الأدميرال تروست.

ناضل الطاقم في الطابق السفلي لإنقاذ السفينة. بدأ الحاجز الأمامي لغرفة المحرك الرئيسية الملاصقة لحجرة أخرى يلتوي جرّاء تدفق المياه، مما يهدّد بإبعاد مضخات إطفاء الحريق، فأخذ البحارة يعملون بشكل محموم لدعم الحاجز المنهار مستخدمين ملابسهم لسدّ الثقوب ووقف الفيضانات. عمل ستة رجال، بما في ذلك الطباخ ومشغل الجهاز اللاسلكي والعمال العاديون في السفينة، على درء الفيضانات. كانوا يخلعون ثيابهم ويسدّون ثقوب الجدار المصنوع من الألمينيوم. جاء رين إلى الأسفل لتقويم المشكلة فأدرك على الفور خطورة الوضع. إن فشل هؤلاء الرجال، سيفقدون السفينة.

جمع رين الرجال الذين كانوا الآن في ملابسهم الداخلية فقط وقال لهم: «عليكم الحفاظ على هذا المكان. ثمة موضعان آخران في السفينة مغموران بالماء ولا تتحمل السفينة أن يمتلئ موضع ثالث به. عليكم الحفاظ على هذا الحاجز، وإن لم تفعلوا فسوف تموتون هنا»[802].

فهم الجميع هذا الكلام. أجاب كيفن فورد والطباخ: «لا عليك يا سيدي». أحضر أحدهم جهاز تسجيل ووضع فيه شريطاً لأغنية شعبية، وعاد الرجال إلى العمل من جديد لتدعيم الحاجز وسدّ الثقوب بأي شيء تطاله أيديهم. صعد رين إلى ظهر المركب والشكوك تراوده بأنه لن يرى هؤلاء الرجال أحياء ثانيةً.

عندما حلّ الظلام، عند الساعة السادسة والنصف مساءً، وصلت أول مساعدة خارجية للبارجة المنكوبة. وصل مشاة البحرية الأميركية «CH-46 سي نايت من ترينتون» لإخلاء الجرحى، الذين نُقل أربعة منهم إلى مستشفى السلمانية في البحرين. كان أحدهم ضابط صف اسمه

ديفيد بوربين، وكانت حروق جسده قد بلغت أكثر من 70٪. وصلت خراطيم إضافية لإطفاء الحريق ومياه للشرب ليرتوي منها الطاقم الظمآن، فقد تضررت أجهزة السفينة «روبرتس» التي توفر المياه العذبة[803]. ثم عادت الطائرة ثانيةً محمّلةً بالمعدات وعمال التلحيم للمساعدة في إحكام سد الشقوق التي شقت السفينة في منتصفها. تحطّم الجزء السفلي من بدن سفينة «صموئيل ب. روبرتس»، واحتفظت فقط بسطحها الرئيسي[804].

عند الساعة السابعة كانت النار قد انطفأت في المساحات الرئيسة، لكنها كانت مضطرمة في الفضاء العلوي. وكإجراء وقائي أمر رين بإفراغ نصف الذخيرة والصواريخ من المستودع المرافق ورميها في البحر. للأسف، قرر أحد البحارة الشباب المرحين رمي مشعل حراري عن الجانب الأيمن نحو الذخيرة التي كانت تتقافز في الماء بجانب السفينة. ذُهل رين وانزعج من ذلك كثيراً فسأله: «لمَ فعلت ذلك؟»

أجاب البحار ببراءة: «أردت أن أضع علامة حيث وضعت الذخيرة في الماء. اعتقدت أنك تريد أن تعرف أين وضعت».

اكتفى رين بهزّ رأسه وتمتم: «يا لهذا اليوم السيئ!».

في الجزء السفلي كان الرجال قد بذلوا أقصى جهودهم. كان الأمر مثيراً للدهشة، فقد سدّوا الثقوب بجهودهم الجبارة، وحافظوا على الحاجز المشقوق، وتفادوا فقدان المساحة المتبقية وحدوث وفيات مؤكدة بين صفوفهم.

في حين تمكّن الطاقم من وقف الفيضانات، استمرت المياه في الارتفاع بمعدل ينذر بالخطر، ولو وقف الشخص على السطح المخصص لتحليق الطائرة لأمكنه، إذا مدّ جسمه، أن يلمس الماء. عندما بلغت المياه المتدفقة حذاء رين استنتج أن الكمية الهائلة من المياه التي يتم ضخها لإطفاء الحريق هي السبب. سوف تُغرق جهود إطفاء الحرائق السفينة فعلاً، فقال: «إننا نفعل ذلك بأنفسنا، نحن نُغرق أنفسنا».

مشى الكابتن رين إلى أن وصل إلى المنصة، وقال لضابط التوجيه والإرشاد: «اكتب في سجل السفينة اليومي. في الساعة 19:50 أمر القائد بوقف إطفاء الحرائق»[805].

كان الضابط التنفيذي، الرائد البحري إيكيلبري مجهداً. انضم إلى رين على جناح المنصة في الوقت المناسب تماماً ليشهد موجة كبيرة من اللهب وانطلاق النار في السماء من وسط السفينة. قال: «سيدي، هل أنت قلق؟»

«لا»، أجاب رين. «لست قلقاً بشأن النار، فهي لم تنتشر، وتخلصنا من الذخيرة، لا أعتقد أننا سننفجر. لكنني أشعر بالقلق بشأن ما يجري في المؤخرة. إننا نغرق، وإذا استمر تدفق الماء فلن نكون قادرين على إنقاذ السفينة».

قال إيكيليبري: «نعم، نعم، سيدي»، مع ذلك ظل متردداً، إلا أنه أصدر أمراً بوقف إطفاء النار بالمياه. في غضون ثلاثين دقيقة توقف الغرق واستقرت السفينة.

عندما تم تخفيف الفيضانات، كانت الخطوة التالية هي إخماد الحريق المستعصي الذي يبدو أنه يضطرم بشدة رغم رغوة إطفاء الحرائق في مكان ما فوق غرفة المحرك. شعر الملازم غوردون فان هوك، كبير المهندسين، وضابط الصف إدواردو سيغوفيا بالخطر الكبير، فذهبا إلى الأسفل كي يحاولا تحديد مكان الحريق. اقترح فان هوك إزالة توربينات الغاز لمحرك موانئ الطرد -وذلك بسحب صفائح معدنية ضخمة تزن عدة أطنان إلى سطح السفينة- نظراً لوجود النيران في الطابق الواقع تحتها. وافق رين مكرهاً، وقام فريق بفك مسامير كبيرة وباستخدام العتلات لنزعها من على صفائح طولها حوالى ثلاث أقدام، فهبّت النار على الفور على ارتفاع عشرين قدماً تقريباً مثل الشعلة. في شيء من الدعابة المروعة التفت فان هوك نحو رين وقال: «لعل هذه الفكرة لم تكن جيدة!»[806].

قال رين وهو يرتعد من الهلع: «أتقول لي ذلك الآن!».

ولكن فان هوك كان محقاً في تقويمه. تم إفراغ خراطيم الرغوة في الثغرة وخلال دقيقتين تقريباً ظهرت سحابة من الدخان الأبيض، وانطفأت النار في نهاية المطاف. كانت الساعة 11:50 مساءً، وهذا يعني أنه مضت ست ساعات على التفجير الأولي للغم.

بعد قرابة أسبوع وُضعت «روبرتس» في حوض ترميم السفن في دبي، وكان النقيب رين قد تلقى مذكرة أخرى من مايك تيلي وضعها في مربع اقتراحات الطاقم، جاء فيها: «كابتن، لقد طلبت فتح كوة في المساحة الهندسية الرئيسة. الحقيقة أنكم تجاوزتم أحلامي الطائشة»[807].

لسوء الحظ أن الطقس في واشنطن ذلك اليوم كان بارداً وعاصفاً على نحو غير عادي، فقد بلغت درجات الحرارة أعلى مستوياتها، وكانت تهبّ ريح شديدة، فاضطر المسافرون للخروج بمعاطفهم الشتوية صباح ذلك اليوم الذي لم يكن يشبه الربيع دون شك. في ذلك الصباح، لم يكن الشرق الأوسط على جدول أعمال الرئاسة في البلاد، فقد كان ريغان يركّز على محادثات معلقة مع الكونغرس بشأن مشروع قانون التجارة القادم وعلى موقعه في استطلاعات الرأي الأخيرة. وكان آخرون، بمن فيهم كولن باول ووليام كرو وجورج شولتز، منشغلين بالتحضير للزيارة المرتقبة لوزير خارجية الاتحاد السوفيتي لمناقشة اتفاق الحد من الأسلحة الهجومية قبل انعقاد قمة الدول العظمى. بعد فترة وجيزة من سماع خبر نكبة «روبرتس» تلقّى كرو اتصالاً من السفير السعودي الأمير بندر. قال بندر مواسياً: «إنني متأسف لسماع ما جرى لبارجتكم»، وعرض عليهم استخدام معدات السعودية لإصلاح «روبرتس»، ثم أضاف السفير السعودي: «ينبغي أن يزور شخص ما جزيرة فارسي!»

في الوقت نفسه، وعلى بعد تسعمئة كيلومتر تقريباً جنوب واشنطن، التقى الجنرال كريست «مجلس إدارته» في مقره في تامبا لمناقشة انتقام محتمل ضد إيران. اتصل الجنرال كريست

بـ«ليس» ليعرف ما إذا وجد السفينة الإيرانية المشتبه بها، «سأطلب الإذن بإغراقها». لكنه كان يتوقع اتصالاً من رئيس الأركان أو وزير الدفاع، وأراد أن تكون عدة مسارات للعمل جاهزة، بحيث تكون لها غاية واحدة وهي شنّ عملية انتقامية واسعة النطاق، و«يجب أن تكون الخطة مرنة بما فيه الكفاية للرد على أي تصعيد إيراني». الخيارات الأكثر وضوحاً كانت، مرة أخرى، المنصات الواقعة على مفترق طرق القافلة، ولكن كريست كان يريد شيئاً أكبر، فأخذ يدعو إلى الاستيلاء على قطعة من الصخور والرمال مساحتها ثلاثة أميال مربعة اسمها جزيرة أبو موسى، التي تحتل موقعاً استراتيجياً في منطقة الخليج وعلى مقربة من مضيق هرمز، فهذه المنطقة تحولت بسرعة إلى مركز رئيس لسفن الحرس الثوري الـ«بوغمر» وللزوارق الهجومية الصغيرة التي تهدّد بتقويض الجهود الأميركية بأكملها على نحو خطير[808].

ولكن كانت لدى كرو فكرة عمّا ينبغي القيام به. قال لكريست: «دمّر السفينة!». لقد حاولت طهران عمداً إغراق سفينة حربية أميركية، ونجحت في ذلك إلى حدٍّ بعيد، وسيكون الردّ الوحيد هو وضع إحدى السفن الإيرانية في قاع المحيط. إنها إعادة صياغة أحداث فيلم الجريمة الأميركي «الممنوع لمسهم» (the untouchables). إنها قوانين شيكاغو: إن أدخلو أحدنا المستشفى فسندخل أحدهم المشرحة.

أراد «ليس» أيضاً الرد بقوة، فقد كان لديه أسطول قوي يمكن الرد بواسطته. ففي الخليج وخارجه ثلاث عشرة مقاتلة بحرية، من بينها طرادتان وحاملة الطائرات «يو إس إس انتربرايز» (USS Enterprise) التي يتّسع سطحها حوالى ستين طائرة مقاتلة. كما وصلت مؤخراً إلى متن السفينة «يو إس إس ترينتون (USS Trenton) قوة مؤلفة من أربعمئة رجل من مشاة البحرية بهدف شن غارات وهجمات على الجزر والمنصات الإيرانية. كان هناك فصيلان كاملان من قوة العمليات الخاصة على اثنتين من القواعد البحرية المتنقّلة.

اقترح «ليس» تزويد مجموعته الجوية البحرية بالمزيد من طائرات B-52 من «غوام» أو «دييغو غارسيا»، التي من شأنها أن تطير نحو بندر عباس من شرق إيران وتقصفه من «الخلف»، حيث تحتشد الدفاعات الجوية الإيرانية[809]. وأُثيرت فكرة استخدام صواريخ كروز توماهوك لضرب أهداف محددة مثل مقر البحرية الإيرانية في بندر عباس[810]. دعا «ليس» اللواء غي زيلر، قائد حاملة المجموعة القتالية في خليج عُمان، إلى ضرب أهداف في بندر عباس، وبخاصة مقر البحرية ومرافق الموانئ البحرية الإيرانية التي تخوّل البحرية الإيرانية العمل في جنوب الخليج[811]. التقى زيلر قائد جناح الناقلة النقيب بوب كانيبا، وهو طيار مقاتل من ذوي الخبرة السابقة بقيادة الجناح. كان لدى زيلر ونائبه، ضابط البحرية آرثر بود لانغستون، خبرة قتالية كبيرة، فقد نال لانغستون وسامين من أوسمة صليب الطيران الفخري لقيامه بأكثر من 270 مهمة قتالية، العديد منها في شمال فيتنام[812]. يعرف طاقم الحاملة الأهداف في إيران جيداً، فقد أجرى سبعاً وعشرين مناورة لاستهداف السفن الحربية الإيرانية، ولضرب أهداف مثل مواقع صواريخ «سيلكوورم» حول مضيق هرمز

وإسقاط ألغام جواً كجزء من خطط القيادة المركزية الأميركية الطارئة التي طال أمدها. عملت الخطة المكثفة على اختيار المعدات العسكرية، وتطوير المجموعات الهجومية التي ستطال أكثر من عشرين موقعاً مختلفاً في جميع أنحاء بندر عباس وكل الطرق المؤدية إلى بوشهر[813].

بعد تسلُّم معلومات زيلر أرسل «ليس» إلى كريست، في 15 نيسان/أبريل، اقتراحاً باستخدام الطائرات لزرع ألغام في مدخل ميناء بندر عباس، المزدحم عملياً بالقوات البحرية الإيرانية. كما أوصى أيضاً بتدمير مبنى مقر قيادة المنطقة البحرية في بندر عباس[814]. وفي الوقت نفسه سوف تُدمر القوات الأميركية المنصات الثلاث -رَخش وسري وساسان- الواقعة في وسط الخليج وجنوبه. أما المكان الوحيد المعقّد فكان موقع «سيري» الذي ينتج النفط الفعّال ويضخّ 180,000 برميل يومياً[815].

في الصباح الباكر من اليوم التالي اجتمع القادة في حجرة «التانك»، وهناك أوضح كرو لكبار الضباط المجتمعين أن هناك توافقاً في الآراء داخل الإدارة للانتقام جرّاء الأضرار التي لحقت بـ«روبرتس»، ولكن كان لدى أعضاء الإدارة أفكار مختلفة جداً بشأن ما ينبغي القيام به بالضبط. نظراً إلى أن اقتراح القيادة المركزية الأميركية كان في متناول اليد فقد أخبرهم كرو: «كريست يريد انتقاماً شديد الوطأة. أما كارلوتشي فلا يريد أي خسائر في الأرواح لدى كلا الجانبين ويريد أن يكون الانتقام محدداً للغاية - ما يزيد قليلا على منصتين». هذا ما قاله كرو المعروف بمصطلحاته الملتبسة عندما يتعلق الأمر بمشاعره. فهو يريد أن يغرق سفينة إيرانية ردّاً على زرع الألغام، ولكنه يريد إغراق سفينة معينة بالتحديد: «سبلان». فبعدما قرأ ما قرأه خلال الأشهر الماضية من تقارير عن ألاعيب النقيب منافي، امتلأ قلب كرو حقداً عليه. ولأنه بحار فقد كان يخشى أن يهاجم منافي البحرية الأميركية، وها هو الآن يشعر بالابتهاج لأنه سيقتل أكبر عدد ممكن من الإيرانيين. هناك سفينة وربان يستحقان عن حق أن يُرسلا على وجه السرعة إلى قاع المحيط.

لم يكن كارلوتشي ولا حتى باول متحمسين كثيراً لشنّ هجوم كبير ضد إيران، لذا دعا كلاهما إلى الاعتدال في الردّ العسكري الأميركي، وخلال اجتماع في غرفة العمليات في البيت الأبيض حذّر باول قائلاً: «لم يُقتل أحد، ولا نريد توسيع نطاق هذا الصراع»، وأورد أن أخطاراً بيئية كثيرة تتهدد المنطقة فيما لو تمّ تفجير إحدى المنصات الإيرانية التي ستتسرب منها عشرات الآلاف من غالونات النفط إلى الخليج. والحقيقة أن كارلوتشي كان متفقاً مع نائبه القديم في مجلس الأمن القومي، وأعرب عن قلقه الشديد من سقوط ضحايا، من الجانبين الأميركي أو الإيراني، وأصر أنه ينبغي قبل أي هجوم أن يسبقه تحذير، لإتاحة الفرصة للإيرانيين لمغادرة السفينة أو المنصة.

ناضل الأدميرال كرو، الحذر عادةً خلال هذا النوع من الاجتماعات، من أجل إنجاح موقفه الملتبس، وأعرب عن اعتراضه بشدة على الأفكار التي يتبنّاها كلٌّ من رئيسه ومستشار الأمن القومي العام. حاول أن يبرهن أنهم قد ذهبوا بعيداً جداً هذه المرة، وأن مجرد رد انتقامي لا يكفي، مستخدماً حجة إغراق السفينة، فقال: «علينا أن نجعل طهران تعلم أننا على استعداد لانتزاع ثمنٍ باهظ». في نهاية المطاف أثّر منطقه في كلٍّ من باول وكارلوتشي، واتفق الجانبان على إضافة

سفينة إلى قائمة الأهداف، ومع ذلك لم يدعم أحد هجوماً برياً على إيران. الشرط الوحيد الذي سيدفعهم لمهاجمة إيران هو أن يطلق الإيرانيون صواريخ «سيلكوورم» على سفينة أميركية، فعنئذاك ستكون كل الرهانات مطروحة، وسوف يسمح وزير الدفاع بانتقام قوي جداً.

بعد ذلك أطلع باول الرئيس ريغان على نتائج الاجتماع. وافق الرئيس بعد مناقشة قصيرة على التوصيات التي تقترح إغراق سفينة ومهاجمة منصتَي «سري» و«ساسان»، ومنصة أخرى إذا دعت الحاجة. قال كرو: ينبغي مهاجمة السفينة «شراك» أو أي سفينة زرعت ألغاماً وإغراقها، ووافق ريغان أيضاً. بعد اتخاذ القرارات طار ريغان، بعد ظهر ذلك اليوم، إلى كامب ديفيد؛ إلى تلال ولاية ماريلاند الغربية؛ لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في ركوب الخيل.

انتهى الاجتماع، وعاد كرو إلى وزارة الدفاع حيث اتصل ثانيةً بكريست في تامبا قائلاً: «لقد عدت من البيت الأبيض، إنهم يريدون سفينة حربية». إذا كانت السفينة «سبلان» في البحر فسيرسلها القبطان الشرير إلى أعماق الخليج. ولتعزيز هذه النقطة الرئيسة أجرى كرو اجتماعاً على الهاتف ذلك المساء مع كريست وليس، اختتمه باقول لليس مباشرةً: «أغرق سبلان. أرسلها إلى الأعماق»[816].

سوف تتشكل قوة لِسّ من ثلاث مجموعات (SAGs)، كل واحدة منها مكونة من ثلاث سفن حربية. سوف تهاجم المجموعة الأولى (SAG B) الهدف الواقع في أقصى الغرب وهو منصة «ساسان». كانت هذه المجموعة بقيادة النقيب جيمس بيركنز من القوات البحرية، وهي مكونة من مدمرتين بالإضافة إلى قوة أخرى قوامها أربعمئة رجل موجودين على متن السفينة البرمائية «ترينتون» (Trenton)[817]. أما المجموعة الثانية (SAG C) فسيكون عليها مهاجمة منصة «سيري» الواقعة إلى الشرق من «ساسان» بقيادة النقيب ديفيد تشاندلر في الطراد «يو إس إس وينرايت» (USS Wainwright)[818]. تستطيع «وينرايت»، بسبب غرفة التحكم والمراقبة فيها، أن تعمل أيضاً كقوة قيادة مضادة للهجمات الجوية، وهذا يعني أن على أي طائرة تنطلق من الحاملة «انتربرايز» لضرب هدف ما في الخليج أن تراجع السفينة «وينرايت» مسجلةً دخولها إلى الخليج قبل الإقلاع لمهاجمة أي هدف داخل مضيق هرمز. وأخيراً المجموعة الثالثة (SAG D) بقيادة النقيب دون داير، وتضم مدمرتين وبارجتين، وسيكون عليها العمل في مضيق هرمز، وقد اختيرت هي بالتحديد للعثور على السفينة «سبلان» وإغراقها[819].

لتوفير غطاء للهجوم الوشيك وضعت قوة المهمة المشتركة التابعة لِسّ والقيادة المركزية الأميركية خطة لخداع الإيرانيين وجعلهم يعتقدون أن نشر القوات في الخليج هو مجرد جزء من قافلة «إرنست ويل» المقبلة. كانت الاستخبارات الأميركية تشتبه في جاسوس إيراني يعمل داخل وزارة النفط الكويتية. لذا أرسلت الولايات المتحدة إلى الكويتيين خطة للمضي قدماً في قافلة كبيرة متجهة إلى الداخل ولجلب المزيد من السفن إلى الخليج لتقديم الدعم للقافلة، على أمل أن تصل هذه المعلومات إلى طهران لتجنّب الاشتباه في طبيعة القوة التي تحتشد. في 17 نيسان/أبريل غادرت ثلاث مقاتلات حاملتها داخلةً الخليج العربي، لتنضم إلى مجموعات سفن السطح. وفي الوقت نفسه

أرسلت انتربرايز بعثات استطلاع فوق مضيق هرمز ودوريات استكشاف جوية وبرية في خليج عُمان، كل ذلك كان من أجل التمويه. ولكن ظلّ أمراً غير مؤكد إذا ما كانت الحيلة قد انطلت على الإيرانيين أم لا[820].

بالإضافة إلى ذلك، تواصلت القيادة المركزية الأميركية ووزارة الخارجية مع السعودية للسماح لطائرات الأواكس والناقلات أن تزوّد الطائرات البحرية المحلقة فوق عمان بالوقود جواً، الأمر الذي أُدرج ضمن اتفاق وُقّع في العام السابق مع أن موافقة مسقط لم يتم تسلّمها رسمياً إلى أن تمّ إطلاق العملية بالفعل[821].

ما إن تموضعت القوات الأميركية حتى تفاجأ المسؤولون الأميركيون بهجوم واسع شنّه العراق لاستعادة شبه جزيرة الفاو. غابت عن القيادة المركزية الأميركية نسبياً تحركات القوات العراقية ليلاً واحتشادها. وللمصادفة المدهشة، هاجمت القوات العراقية إيران على الأرض في الوقت الذي هاجمتها فيه الولايات المتحدة في البحر[822]. شنّ العراق هجوماً مدروساً على المواقع الإيرانية في الفاو، سُمّي بـ«رمضان المبارك». بدأت المدفعية العراقية بقصف مكثّف اقتصر على أهداف معينة، استخدم فيه خليطاً من الذخائر المتفجرة والكيميائية، فتمّ بسرعة تشتيت خط المواجهة في القوات الإيرانية، في حين استخدم غاز الخردل الذي يسبّب حروقاً طويلة الأجل على الوحدات العسكرية الإيرانية، وأطلق نحو 115 صاروخاً من عيار 122 ملم محشوة بغاز الأعصاب أصابت سيئي الحظ من الإيرانيين الموجودين في المقدمة.

في الوقت نفسه الذي شُنّ فيه هجوم برمائي على الطرف الجنوبي من منطقة الفاو ومحاصرة المواقع الإيرانية قُصفت فرقتان من الحرس الجمهوري بأسطوانات تحتوي على مواد كيميائية، وقد نفّذت العملية فرقتان من الجيش النظامي وسلاح الجو العراقي الذي أثبت جدارته أخيراً. في هذا الهجوم قامت القوات العراقية بثلاثمئة طلعة جوية منسقة بشكل وثيق مع القوات البرية، قاصفةً مركز القيادة والتحكم الإيراني، والخدمات اللوجستية، وقوات الاحتياط.

كان التقدم العراقي سريعاً وممنهجاً في آن معاً. وما إن استطاعت وحدات الحرس الجمهوري اختراق حصون العدو حتى قدمت فرقة عسكرية ثالثة عبر خطوطهم مستوليةً على ما تبقى من شبه الجزيرة. بسبب استخدام الأسلحة الكيميائية بكثافة، ولاسيما غاز الأعصاب القاتل، لم تستغرق عملية اجتياح المدافعين الإيرانيين غير المجهّزين تجهيزاً جيداً سوى ستٍّ وثلاثين ساعة، وقد أسفر الهجوم بالأسلحة الكيميائية عن مصرع المئات منهم. في جميع خنادق الإيرانيين تمّ إيجاد حقن أتروبين فارغة بعدما كانوا قد حقنوا المصابين بها للتخلص من آثار غاز الأعصاب السام[823]. ومذّاك لم تعد إيران تهدّد البصرة أو بقاء صدام حسين أبداً.

في اليوم التالي، شنّت الولايات المتحدة هجومها على الخليج العربي في عملية عُرفت باسم فرس النبي.

الفصل الثامن عشر

وداعاً أيها القبطان البغيض

في 18 نيسان/أبريل عام 1988 راح المنبه يرنّ ما إن تجاوزت الساعة الرابعة صباحاً. كان معظم الرجال قد ظلّوا مستيقظين طوال الليل بسبب التوتر وتخطيط اللحظات الأخيرة. بعد أن تناولوا وجبة إفطار تقليدية مكونة من شريحة لحم وبيض، حمل مشاة البحرية أسلحتهم وعتادهم وتوجهوا نحو منصّة الطيران حيث اصطفوا ليصعدوا على متن أربع مروحيات. في الساعة السابعة وخمسٍ وخمسين دقيقة بدأت السفينة الحربية «ترينتون» البث باللغة الإنجليزية والفارسية والعربية: «أيها العاملون في منصة «سيري» لتكرير النفط. هنا السفينة الحربية التابعة للبحرية الأميركية. أمامكم خمس دقائق لإخلاء منصتكم. وإذا قمتم بأي أعمال أخرى غير الإخلاء فسوف ندمّر المنصة فوراً»[824]. كانت قوات مشاة البحرية قد وصلت في شهر شباط/فبراير لتنفيذ رغبة كرايست بالسيطرة على جزر ومنصّات أخرى في حال سمحت واشنطن بإجراءات أكثر عدوانية ضد إيران. كانت قوة مركّزة مؤلفة من أربعمئة رجل وثماني مروحيات على متن سفينة واحدة فقط، وهي «يو أس أس ترينتون»، بقيادة العقيد وليام راكو. قبل وصولها إلى الخليج العربي كانت تلك القوة قد أمضت ما يقرب من خمسة أشهر في التدرّب على هذه المهمة، بما في ذلك العمل مع مكتب التحقيقات الفيدرالي والشركات النفطية المدنية في خليج المكسيك لتحديد طريقة مهاجمة منصات نفطية دون التسبب بكارثة بيئية.

تمركزت السفينة الحربية «ترينتون» وسفينتان أخريان تابعتان لمجموعة سفن السطح التي تعرف بـ (SAG B)، بقيادة النقيب جيمس بيركنز، على بعد خمسة آلاف متر عن منصة ساسان التي تعمل على فصل الغاز عن النفط، وهي واحدة من أكبر المنصات التي تديرها إيران إذ تتألف من سبع منصات منفصلة ذات مستويات متعددة، وكل واحدة منها متاهة من الأنابيب والسلالم

والآبار ومعدات من كلّ نوع وحجم، تترابط كلها بممرّات ترتفع خمسين قدماً فوق سطح الماء، ولكل منصّة وظيفة مختلفة، بدءاً بمنصة إيواء الطاقم إلى منصة الضخ إلى أخرى تضمّ أربع خزانات كبيرة تحتوي على غاز كبريتيد الهيدروجين القاتل ذي الرائحة الكريهة والمسمّى غاز الصرف الصحي. هذا المنتج الكريه هو منتج فرعي لاستخراج الغاز والنفط[825]. بعد مهلة قصيرة أعطاها النقيب بيركنز للإيرانيين لإخلاء المنصة، فتحت «يو أس أس ميريل» (USS Merrill) النار، وأطلقت قذائف تزن سبعين رطلاً نحو منصة ساسان، انفجرت باعثةً في الجو سحابةً كبيرة من الدخان الأسود وأمطرت المجمع بوابل من المعدن الملتهب. رداً على الهجوم أخذ المدافعون الإيرانيون عن ساسان يطلقون النار من فوهات مدافعهم المضادة للطائرات باتجاه الطائرات الأميركية من المنصة الواقعة في أقصى الجنوب. وكانت تسمع أصوات مضاد الطيران المميزة، وأُفرغت قذائف سريعة باتجاه السفينة «ميريل». سقطت كلها في الماء ولم تصب السفينة الحربية. وفي هذا الوقت أصابت قذائف البحرية الأميركية الرشاش الإيراني والمنصة وهرب الطاقم إلى مستويات المنصة السفلية الآمنة، وقفز إيراني واحد على الأقل في الماء هرباً من القصف المميت[826].

علم فريق مشاة البحرية الذي يرصد الاتصالات بين ساسان وبندر عباس أن عدة إيرانيين، يراوح عددهم بين ثلاثة وستة أفراد، بقوا في المنصة «لتدمير» الأميركيين حتى النهاية، في مهمة انتحارية يائسة، ولكن كلٌّ من بيركنز وراكو رفض إعطاءهم أية فرصة. فبعد رشقة أخرى من النيران، أطلقت أربع مروحيات هجومية صواريخ مضادة للدبابات باتجاه مبنى متعدد الطوابق كان بمثابة مساكن للعمال، ثم جنحت بصعوبة، وعادت لتمسح المرافق بإطلاق النار من رشاشات عيار 20 ملم، فاندلع حريق صغير في أحد الممرات الضيقة، فقد أصاب أحد الصواريخ هيكله الخشبي، وسرعان ما اجتاحت النيران الهيكل بالكامل، واضطرمت باعثةً دخاناً أسود في الجو.

عندما توقف إطلاق النار أرسل راكو أفراداً من مشاة البحرية، فاقتربوا من المنصات بمروحيتين سريعتين حلّقتا على مستوى منخفض[827]. وبينما كانت مروحيتان هجوميتان من نوع كوبرا تقصفان الهدف للمرة الأخيرة، ظهرت طائرتا CH-46 ذوتا محركين أعلى المنصات وراحتا تحومان فوق المنصتين المخصصتين لهما وأدليتا على الفور حبلين قبالة السلالم الخلفية للمنصتين، وبدأ مشاة البحرية ينزلقون عليهما[828]. في غضون ثلاثين ثانية، أنزلت المروحيتان ركابهما وابتعدتا بسرعة[829]. انطلق مشاة البحرية على الفور لتأمين المنصات المخصصة لهم، وكان كُّل منهم يغطي الآخر وهم يشقّون طريقهم من الأعلى إلى الأسفل عبر متاهات من الأنابيب والآلات. كان النقيب توماس هاستينغز، رجل البحرية الذكي الذي يتمتّع بكاريزما وتجربة في الحرب غير التقليدية يقود الهجوم على المنصة[830]. تنقل الرجال بحذر شديد عبر الممرات الضيقة المنهارة، وقاموا بتفتيش ما تبقى من المنصة. لم يعثروا على أي إيراني سواء كان حياً أو ميتاً، فأعلن مشاة البحرية، بعد الساعة العاشرة مساءً بقليل، أن منصة ساسان آمنة. ثم تسلق رجل بحرية برج الإرسال الشاهق، وهو أعلى نقطة في ساسان. وثبت عليه علم الولايات المتحدة الأميركية بنجومه وخطوطه، وتحت العلم

الأميركي وضع علم البحرية الأميركيّة على وقع هتافات حماسية أطلقها أولئك الذين في الأسفل[831]. وبعد بضع ساعات، وصل رقيب بحري 1300 رطل من المتفجرات بفتيلين موقوتين أحاط بها سبع منصات وطار عائداً إلى السفينة ترينتون. بعد عشر دقائق انفجرت ساسان انفجاراً هائلاً، وحجبت سحابة سوداء من الدخان والركام المنشأة النفطية فترة وجيزة.

بينما كانت قوات مشاة البحرية تقتحم ساسان، كانت سفن أخرى من البحرية الأميركية وعلى متنها نخبة قوات العمليات الخاصة تقوم بضرب منشأة سيري النفطية. كانت هذه الأخيرة أصغر بكثير من ساسان، إذ تضمّ ثلاث منصات متّصلة بممر ضيق طويل، بالإضافة إلى منصة صغيرة لحرق الغاز الطبيعي تقع في نهاية الممر. كانت الاستخبارات الأميركية على علم بوجود طاقم واحد على الأقل لديه رشاش ثقيل مزدوج الفوهة مضاد للطائرات وربما عشرة من عناصر الحرس الثوري وعشرين من العمّال المدنيين[832].

كان ديفيد تشاندلر القائد الأعلى لمجموعة سفن السطح س (SAG C)، وقائداً للطراد وينرايت الضخم. كان من أبناء جنوب الولايات المتحدة الأميركية، وطريقته بالتعامل مريحة ويتحدث بهدوء متشدقاً بالكلام[833]. في الساعة السادسة صباحاً، أطلق النداء على الطراد واينرايت ليتّخذ الجميع مراكزهم القتالية للبدء بالعملية. أخذ الضابط التنفيذي، كريغ فانس، مكانه في منصة الربان بينما احتل النقيب تشاندلر مقعده في مركز المعلومات القتالية. جلس إلى يساره الملازم الأول مارتن دريك، ضابط أسلحة السفينة، وكانت تحيط به لوحات مفاتيح التحكم بإطلاق الصواريخ والمدفع الرئيس[834]. في الساعة السابعة وخمسة وخمسين دقيقة، عندما كان الضباب يخيم على المياه، أصدر أحد البحارة الإنذارات التي أعطيت لساسان ولكنه أضاف في نكتة ساخرة جملة القبطان البغيض Captain Nasty الشهيرة: «أتمنى لكم يوماً سعيداً»[835].

قبل الساعة الثامنة وربع تماماً أمر النقيب تشاندلر بـ «إطلاق المدافع». سُمعت أصوات مدوية سريعة ومتعاقبة تصم الآذان. في غضون دقيقة تمّ إطلاق ثلاث وعشرين قذيفة حول «سيري» جعلت المدافعين عنها يهرولون للاختباء من وابل الشظايا[836]. استطاع مراقبون على متن السفينة «واينرايت» أن يروا بوضوح إيرانيين يرتدون الزيّ العسكري يسرعون لتشغيل رشاش مضاد للطائرات. أوقف تشاندلر قوات العمليات الخاصة وأمر السفن بفتح النار مرة أخرى، فأطلقت السفن الحربية الأميركية النار واستهدفت أول دفعة من القذائف المنطلقة من على متن «واينرايت» الرشاش المضاد للطائرات، مما أسفر عن مقتل اثنين من الإيرانيين وجرح عدد منهم. سقطت إحدى قذائف «واينرايت» التالية بالقرب من خزانات فصل الغاز الرئيسة في «سيري»، فتشكلت كرة نارية ضخمة على شكل فطر ارتفعت باطراد في الهواء، نشأ عنها حريق قضى على الذخيرة. كما اجتاح دخان أسود كثيف المنصة الرئيسة، وانتشرت حرائق أجهزت على المستوى السفلي من المنصة الرئيسة[837]. قفز الإيرانيون وقد أرهقهم التعب في الماء في حين احترق آخرون وتحولوا إلى رماد. وبينما كانت النيران تشتعل مخلفةً انفجارات ثانوية، اتفق النقيب تشاندلر وقائد قوات

العمليات الخاصة على عدم محاولة احتلال المنصة. بدلاً من ذلك، أسقط الأميركيون في الماء قارب نجاة وصندوق إسعافات أولية طبّية للإيرانيين في الماء، تمكّن ستة منهم من الصعود إلى القارب. لقد تمّ تدمير منصّة «سيري»، ولكن المعلومات الاستخبارية التي كان من الممكن الحصول عليها من المنصّة تلاشت مع ألسنة اللهب[838].

من جهة الشرق، كانت ثلاث سفن تابعة للنقيب دونالد داير من مجموعة سفن السطح الثالثة (SAG D) تحوم قرب جزيرة أبو موسى. كان داير رجلاً ضخماً أصلع الرأس، هادئاً وواثقاً من نفسه بدرجة عالية، اتّخذ من سفينة «يو أس أس جاك وليامز» (USS Jack Williams) باعتبارها مركزاً لقيادته، متحمّساً لوضع خبرة عشرين عاماً من التدريب في أول عملية قتالية له. كانت مهمة داير إيجاد البارجة «سبلان» وإغراقها، فرصد معلومات استخبارية حول حركة مرور السفن لتحديد موقع السفينة. في الساعة الثانية من صباح ذلك اليوم كان القبطان البغيض، الرائد البحري عبد الله منافي، قد اتصل لاسلكياً بمركز القيادة في بندر عباس ليخبرها أن سفينته بحاجة إلى العودة إلى الميناء، وذلك لأن مكثّف المياه العذبة معطّل، الأمر الذي منع السفينة من صنع المياه الصالحة للشرب. كان لدى داير شكوكه بشأن النيل من القبطان البغيض، فقد قال لأحد موظفيه: «لقد عبثنا بوكر للدبابير بواسطة فرقاطة «روبرتس»، ولكن الدبابير لم تخرج من العش»[839].

في تمام الساعة الثامنة صباحاً توجهت سفن داير شمالاً نحو مضيق هرمز بحثاً عن طريدتها. كانت عبارة «إلى مراكز القتال!» تصدح في أرجاء الوحدة الحربية، وجعل رنين الجرس الإلكتروني البحارة ينطلقون إلى مواقعهم القتالية. كانوا يضعون أقنعتهم البيضاء، وقفازات لامعة واقية، وخوذات لونها زيتوني فاتح. وعلى متن سفينة القيادة «جاك ويليامز»، رفع أفراد الطاقم علماً أميركيّاً كبيراً كانت خطوطه ونجومه ترفرف بفعل الرياح القوية. توجهت السفن الثلاث في صف طويل نحو الشمال بسرعة ثلاثين عقدة تقريباً، مخلفةً وراءها ذيلاً أبيض طويلاً من رذاذ الماء يخرج من مقدمة السفن ويقلق سكينة مياه الخليج الساكنة[840]. وفيما كانت سفن داير متوجهة شمالاً نحو المضيق التقطت راداراتها ما يقارب أربعين موجة راديو لقوارب صيد، ومراكب شراعية وسفن تجارية، تزدحم في المضيق الضيق، فأمر طائرة هليكوبتر بالتحليق عالياً لاستطلاع السفينة المعادية. بعد ساعة، علم داير أن «سبلان» كانت بالفعل في بندر عباس، وتأخذ موقعاً لها بين ناقلتين، لتحمي نفسها، كما حلّل البعض، من صواريخ هاربون الأميركية، أو على الأرجح، لتتزود بالمياه العذبة اللازمة لها بسبب المشاكل الميكانيكية[841]. وفي الحالتين، ما دام القبطان البغيض متوقفاً في الميناء فهو بمنأى عن أي هجوم أميركي. أُصيب داير بالإحباط وواصل الإبحار شمالاً في صف طويل، ليصل إلى منطقة التنظيم المروري، فنظراً لضيق الممرات يُطلب من السفن التوقف في خطّ ضيق عرضه ميلان، على جهة اليمين أو اليسار وذلك حسب ما إذا كانت السفن تدخل الخليج أم تغادره[842]. تباطأت السفن وتريثت قبل أن تلتفّ في المكان وتعود أدراجها جنوباً.

بعد الساعة العاشرة صباحاً بقليل علمت الاستخبارات الأميركية أن القارب الإيراني الحامل للصواريخ «جوشان» (Joshan)، الواقع على بعد حوالي أربعين ميلاً بحرياً إلى الشمال من مجموعة سفن السطح الثالثة «تشاندلر» (Chandler)، قد توجهت جنوباً لدعم القوات الإيرانية في «سيري». كان على متن القارب الحامل للصواريخ الفرنسي الصنع طاقم مكون من نحو ثلاثين فرداً بقيادة النقيب عباس مالك. عمل قارب «جوشان» كسفينة قيادة في الأسطول الإيراني في بوشهر، ويعدّ قارباً أسطورياً في البحرية الإيرانية، حيث نفّذ بعض الهجمات الأولى على العراق في بداية الحرب، بما في ذلك الهجوم على منصتين بحريتين لاستخراج النفط تابعتين لبغداد، فتعطلتا عن العمل فترةً وجيزة على إثر الضربة. كانت نقطة القوة الكبيرة لقارب «جوشان» هي أنه يحمل آخر صاروخ هاربون الأميركي الصنع في مخزون الأسلحة الإيراني. وفي حين لا يمكن لأحد تحديد حالة الصاروخ أو التأكّد من أنه لا يزال صالحاً، فإن مجرد وجوده يجعل القادة العسكريين الأميركيين في حالة من التوتر.

عندما وصلت أنباء الهجوم على «سيري» إلى النقيب أمير ياغني، قائد المنطقة البحرية الأولى في بوشهر، أمر مالكاً على الفور بالتوجه جنوباً لدعم «سيري». كان مالك قد أتمّ مهمة مرافقة ناقلة إيرانية وكان يبحر بهدوء عائداً إلى مينائه الرئيس في بوشهر. يعمل مالك مثل نظرائه الأميركيين، وفق مجموعة من قواعد الاشتباك المحدّدة. في الواقع، كانت البحرية الإيرانية أكثر صرامةً من الولايات المتحدة، وحظرت على وجه التحديد المبادرة بإطلاق النار على سفينة حربية تابعة للولايات المتحدة. بقي ما كان من المفترض أن يقوم به مالك من مواجهة للسفن الحربية الأميركية في «سيري» مجهولاً، لكنه أمر بالتوجه إليها بصرامة، وزاد من السرعة، وأخذ مساراً له نحو الجنوب باتجاه «سيري» وسفن تشاندلر الثلاث.

كانت اتصالات «جوشان» مع بندر عباس تُنقل إلى مفرزة الاستخبارات على متن السفينة «وينرايت»، التي كان ضابطها المسؤول يُرسل رسائل العدو العاجلة إلى تشاندلر في مركز المعلومات القتالية إضافةً إلى مجموعة من المعلومات الاستخباراتية عن «جوشان»، بما في ذلك لمحة عن قائدها. بعد نصف ساعة حشد تشاندلر سفنه الثلاث لمواجهة وشيكة[843]، حيث راصف أسطوله الصغير على خط مستقيم مع «وينرايت» غرباً، و«باغلي» في الوسط، و«سيمبسون» شرقاً، وكانت كل سفينة تبعد عن الأخرى حوالى ثلاثة أميال بحرية ولكنها تبقى قريبة بما فيه الكفاية للحفاظ على التواصل البصري فيما بينها، مع الحفاظ على رصد لاسلكي مثلّث الشكل لتحديد موقع «جوشان» بصورة أفضل. اتجهت «وينرايت» إلى الشمال الشرقي بسرعة خمسٍ وعشرين عقدة، وبدأت بحركة واسعة ومتعرجة من جانب إلى آخر لتجعل من الصعب استهدافها بصاروخ[844]. أمر تشاندلر كلاًّ من «سيمبسون» و«وينرايت» بوضع صاروخ أرض- جو من نوع (Standard Missile 1) أو(SM-1) على منصة إطلاق الصواريخ، ولكن عليهما إعداده ليعمل كصاروخ أرض - أرض. فصاروخ (SM-1) غير مزوّد برأس حربي كبير، ولكنه صاروخ دقيق وسريع وقادر بسرعته أن يخترق حاجز الصوت. كما بعث تشاندلر بطائرة هليكوبتر لتحلق عالياً للمساعدة على تحديد موقع «جوشان»[845]. وبعد حوالى نصف ساعة وجدت طائرة الهليكوبتر الزورق حامل

الصواريخ على بعد أربعين ميلاً عن السفن الحربية الأميركية الثلاث وهو يقترب من هذه الأخيرة بسرعة.

نقل تشاندلر ذلك إلى «لِسّ»، وطلب المزيد من التوجيهات. المثير للدهشة أنه تلقى أمراً غير عادي: «أنذر جوشان بالابتعاد»[846]. طلب ليس من تشاندلر أن يطلب من زورق الدورية الإيرانية البقاء بعيداً في محاولة لإنقاذ أرواح إيرانية، وربما لأنه لم يفهم كيف أن كل زورق دوريّة صغير على استعداد لتحدّي عظمة البحرية الأميركية منفرداً. لقد كان ليس في وضع غريب يتأرجح بين الحرب والسلم؛ وهذه التوجيهات الرسمية كان المقصود منها أن عليه أن يجرّب كل الطرق المتاحة لتحذير «جوشان» ودفعه إلى الابتعاد. قال النقيب تشاندلر في وقتٍ لاحق: «كان بإمكاني إطلاق النار عليه من على بعد خمسة وثلاثين ميلاً لو لم يخبروني بأن علي تحذيره ليبتعد». وضعت «وينرايت» القارب الإيراني على موجة راديو تجارية عادية وأمسك الكابتن تشاندلر بالمذياع قائلاً: إلى فرقاطة الدورية الإيرانية... هذه سفينة حربية تابعة للولايات المتحدة الأميركية. لا تعترضي أعمالي. ابقي بعيدة أو سيتم تدميرك»[847].

رد مالك باللغة الإنجليزية بلكنة سيئة ولكن المفهومة قائلاً: «أنا أقوم بواجبي»، وأضاف: «أنا في المياه الدولية ولن أرتكب أية أعمال استفزازية». لكن القوتين ظلّتا تقتربان الواحدة من الأخرى بسرعة خمسين ميلاً في الساعة[848].

ارتفعت حدة التوتر على متن «وينرايت» وبلغت أعلى رتب القيادة. لم يستطع ضابط الأسلحة على «وينرايت»، مارتي دريك، أن يفهم لِمَ لم يفتحوا النار، وحذّر قائلاً: «سيدي، لديه آخر صاروخ من صواريخ هاربون». لكن تشاندلر ظلّ يفكّر أن الأوامر الصادرة إليه تقضي بإنذار الزورق الإيراني ليبتعد، لذا لم يخالف الأوامر، وحافظ على هذه الفكرة حتى وهو يرى «جوشان» يُثبّت راداره للتحكم بإطلاق النار[849]. عبر الشبكة التي تربط السفينة «كورونادو» بتامبا كان جلياً أن قلق كريست وليس يتزايد. أحب ليس فكرة إعطاء الإيرانيين تحذيراً أملاً في تجنّب زهق الأرواح، ولكنه تساءل بعد تحذيرات متكرّرة عن سبب عدم إطلاق تشاندلر النار. توجّه الجنرال كريست بالكلام إلى ضابط أركان كبير كان يجلس بجانبه وسأله بقلق: «لماذا لا يضربه ويخرجه من المياه؟»

وأخيراً، عندما أصبحت المسافة التي تفصل بين القوتين ثلاثة عشر ميلاً فقط، وهي مسافة قريبة بما فيه الكفاية لكي يرى قبطان «جوشان» صاري سفينة «وينرايت» عند خطّ الأفق، أصدر تشاندلر تحذيره الرابع والأخير إلى «جوشان»: «توقّف وابتعد عن السفينة، وإلاّ أغرقتك»[850].

عند ذلك قرّر مالك التصرف، فمادام الأميركيون ينوون مهاجمته فلن ينتظر حتى يتلقّى الضربة الأولى، وأطلق صاروخاً من نوع هاربون. صرخ طيار المروحية الأميركية، الذي كان يراقب من فوق، عبر الميكروفون قائلاً: «أرى سحابةً من الدخان الأبيض!»[851]

صرخ الملازم دريك: «أطلق شرائط الألمنيوم للتشويش على الرادار!» كان أمراً لا لزوم له، لأن ضابط الصف المكلّف بالمهمة كان قد كبس بالفعل الزر، فتصاعدت سحابة من شرائط الألمنيوم في الهواء. في الوقت نفسه، بدأ الطاقم إجراءات إلكترونية مضادة للتشويش على رادار «جوشان»[852]. وأمر تشاندلر سفنه بفتح النار فوراً. أطلقت «سيمبسون» صاروخاً رسم خطاً وراءه وانطلق مباشرةً كالسهم باتجاه «جوشان»، مخلّفاً ذيلاً هزيلاً من الدخان الأبيض. أما المراقبون، الذين كانوا واقفين على جسر السفينة لمشاهدة الصاروخ المنطلق، فأسرعوا عائدين إلى داخل السفينة حالما انطلق الصاروخ من منصته الحديدية مصدراً هديراً يصم الآذان[853].

فاجأ صاروخ الهاربون الإيراني «وينرايت» على حين غرة، فرادارها الذي يتحكّم بإطلاق النار كان قد ضُبط على وضعية سطح سطح. لعل شرائط الألمنيوم المنتشرة في الهواء خدعته، فوجد صعوبة في إيجاد الوضعية المناسبة لمواجهة الصاروخ الإيراني المتّجه نحوه. حاول دريك تفجير الصاروخ عبر نظام الدفاع عن النفس الرئيس في السفينة، مدفع 20 ملم المضاد للصواريخ، لكنه لم يعمل لأن قارب القبطان كان يسدّ مجال رؤيته. تماشياً مع الإجراءات القياسية، أمر الضابط التنفيذي على المنصة في «وينرايت» أن «اتجه يساراً!» للكشف عن كامل مجموعة أسلحتها.

وسط استغراب الجميع ألغى تشاندلر الأمر مبقياً على أسلحة «وينرايت» موجهةً بشكل مباشر نحو الصاروخ القادم. كان عملاً جريئاً، فقد ظنّ تشاندلر أن من الأفضل الإبقاء على وضعية جانبية ضيقة باتجاه صاروخ هاربون، والوثوق بشرائط الألمنيوم والإجراءات الإلكترونية المضادة الموجودة في السفينة التي تستطيع استهداف الصاروخ[854]. استعدّ الطاقم لاصطدام الصاروخ بالسفينة، فانحنى العديد بصورة غريزية ووضعوا رؤوسهم بين أرجلهم وفتحوا أفواههم وسيقانهم - تماماً كما تعلموا أثناء التدريبات.

سمع دريك وآخرون جلبةً قوية أشبه بصوت قطار يتحرك بسرعة ورأوا ما يشبه سهماً نارياً كسهام احتفالات الرابع من تموز/ يوليو. لقد أصاب الصاروخ الجانب الأيمن للطرّاد، مزلزلاً أرجاء السفينة. كذلك قال المراقبون الذين كانوا في المواقع العلوية إن وميضاً برتقالياً مرّ بمحاذاة الجانب الأيمن بعيداً بمسافة مئة قدم عن «وينرايت»[855]. لقد أنقذ قرار تشاندلر باتخاذ وضعية جانبية السفينة على الأرجح، ولكن ينبغي للبحرية الأميركية ألاّ ترتكب خطأً مماثلاً. بعد ذلك واجهت سفينة «جوشان» كل قوة البحرية الأميركية.

مع دخول مضادات الصواريخ الأميركية على خطّ المواجهة أمر مالك «السفينة جوشان» بالاستدارة إلى اليمين لإطلاق شرائط الألمنيوم الخاصة بها في محاولة منها لتشتيت الصاروخ. لقد فعلت الشرائط فعلها، لاسيما أن الإيراني ذكر في وقتٍ لاحق أن الصاروخ الأول قد أخطأ «جوشان» وضرب صفحة الماء وراء سفينته على بعد سبعين متراً تقريباً. لكن الحظ لم يحالفه في المرة الثانية، فقد عثر الصاروخ الثاني على هدفه وأصاب القارب الإيراني مباشرةً، مفجّراً غرفة

المحركات، تاركاً «جوشان» جثةً هامدة في الماء. أصيب مالك بجروح بليغة على أثر ذلك الانفجار، وبُترت إحدى ساقيه. أصاب الصاروخ التالي هيكل السفينة، قاذفاً مالكاً وأفراد الطاقم الآخرين في البحر[856]. ألحقته وينرايت بصاروخ من صواريخها أصاب أيضاً طرّاد الدورية تعس الحظ[857]، وتلاه صاروخ إضافي... كانت إحدى المروحيات الأميركية في هذه الأثناء تحوم قريبةً من «واينرايت» وتنقل إليها المعلومات: «جوشان يحترق. اندلعت النار في هيكله بدءاً بمنصة الربان وانتهاءً بمؤخرته»[858]. تنفيذاً للأوامر، ابتعدت السفينة الأميركية عن «جوشان» تاركةً الصيادين الإيرانيين ينقذون الناجين. ذكر مالك في وقتٍ لاحق أن خمسة عشر رجلاً - نصف طاقمه - قُتلوا في المواجهة مع الأميركيين بالإضافة إلى خسارة سفينته.

بعد أكثر من ثلاث ساعات من الهجوم، الذي نفّذته الولايات المتحدة، بدأ الجيش الإيراني بالتحرك، ولكن بطريقة غير منسّقة ومجزّأة. لم يكن لدى قادة الجيش الإيراني إلا القليل من المعلومات حول نوايا الولايات المتحدة أو مواقع قواتها، ولم يتمّ التنسيق بين الحرس الثوري والقوات الجوية والقوات البحرية.

غرق الزورق «جوشان» تحت الأمواج بمرور الوقت، وخرجت خمسة زوارق إيرانية صغيرة من جزيرة أبو موسى إلى حقول «مبارك النفطية» في دولة الإمارات العربية المتحدة المجاورة وراحت تطلق القذائف الصاروخية على منصة الإنتاج الرئيسة فاشتعلت فيها النيران، لكن لم تقع أي إصابات. بعد ذلك وضعت الزوارق الإيرانية نصب أعينها ناقلة وقود حمولتها مئة ألف طن، تدعى «يورك مارين» (York Marine)، مسجلة في هونغ كونغ وتُستخدم لتخزين النفط من قبل دبي، وشرعت ترشق السفينة بالرشاشات والقذائف الصاروخية. ومن ثم تحوّل غضب الإيرانيين نحو سفينة إمداد ترفع العلم الأميركي حمولتها سبعمئة طن، تُدعى «ويلي تايد» (Willie Tide)، وسفينة باناميّة أصغر حجماً لحفر الآبار يشغّلها الأميركيون، وتدعى «سكان باي» (Scan Bay)[859]. وما إن أنجزت طرّادات «بوغامر» الإيرانية مهمتها حتى عادت إلى أبو موسى كي يتناول طواقمها الطعام، ويحتفلوا، ويعيدوا تسليح أنفسهم.

انطلقت الطائرات الإيرانية من مطار بندرعباس. كان قائد القاعدة المقاتلة التكتيكية التاسعة العقيد أ. زوغي مهزوماً سلفاً. ففقط خمسة من أصل الطائرات الإحدى عشرة، من نوع F-4، كانت قادرة على الطيران. كما أن كافة القوات التي تأتمر بأمره كانت مشتتة جرّاء حزنها على عدد من الطيارين والملاحين الذين كانوا قد قتلوا في حادثة تحطّم طائرة C-130 قبل ثلاثة أيام. لم يكن زوغي يأمل الكثير من مهمته فهو يعرف جيداً قدرات البحرية الأميركية، ويدرك أنّ طياريه سيقومون بواجبهم إذا أرادت واشنطن فتح معركة، لكنه يدرك أيضاً أنه سيحفر مزيداً من القبور.

انطلقت طائرات F-4 الإيرانية من بندرعباس، وقامت بعدة محاولات لبلوغ الجانب الآخر من الخليج العربي، لكنها سرعان ما اكتُشفت وأُعطيت الأوامر لطائرات «تومكات» (Tomcat) بمواجهتها على الفور، فاستدارت الطائرات الإيرانية فوراً عائدةً إلى البر الإيراني الرئيس غير

راغبةٍ في الاشتباك مع المقاتلات الأميركية. تكررت لعبة القط والفأر هذه عدة مرات، ولكن في كل مرة كان الطيارون الإيرانيون ينسحبون أو يرفضون مغادرة المجال الجوي الإيراني الآمن.

أخيراً، قرر أحد الطيارين الإيرانيين المخاطرة، فحلّق عالياً وتوجّه إلى الخليج[860]. حاول تشاندلر تحذيره بالابتعاد ولكنه واصل الاقتراب من سفينته، فأطلق تشاندلر صاروخ أرض - جو. بدا أنّ الصاروخ قد أخطأ هدفه فأمر تشاندلر على الفور بإطلاق صاروخ آخر، ولكن لم يكد الصاروخ الثاني يغادر منصة إطلاقه حتى انخفض ارتفاع تحليق طائرة الـ F-4 فجأةً وسرعتها من 500 عقدة إلى 200 عقدة بحسب ما كشفه رادار «وينرايت»، حيث ظهرت إشارة واضحة إلى انفجار الصاروخ[861]. كان الصاروخ الأول في الواقع قد أصاب الهدف، فضرب جزءاً من أحد أجنحة الطائرة وأمطر جسمها بالشظايا. ثم أخطأ الصاروخ الثاني المرمى ولكن ليس كثيراً، مثلما ذكر الطيار الإيراني في وقت لاحق، فقد رأى الصاروخ يرتطم بالماء بالقرب من الطائرة. المثير للدهشة أنّ الطيار، على الرغم من إصابة أحد محركات الطائرة وحالة الطائرة التي يرثى لها، استعاد السيطرة عليها وتمكّن من الهبوط بطائرته المنكوبة في مطار بندرعباس، وهذا بفضل كلٍّ من الطيار الماهر والهيكل المتين لطائرة الفانتوم الأميركية الصنع[862].

في مركز قيادة المنطقة البحرية الأولى في بندرعباس، أدرك قائد القوات البحرية النقيب أمير يَغنيه أخيراً حجم القوة الهجوميّة الأميركية فقرّر الخروج بالجزء الأكبر من أسطوله، بما في ذلك السفينتين «سهند» و«سبلان» وربما سفينة ثالثة، وهي الأقدم، المدمرة التي تعود إلى حقبة الحرب العالمية الثانية وكانت الولايات المتحدة من بنتها. وجّه يَغنيه «سهند» وأمر بمهاجمة حقل النفط «صالح» التابع لدولة الإمارات العربية المتحدة، وهو مجمع يعمل الجزء الأكبر منه آليّاً ويتألف من ثماني منصات ولا يعمل فيه سوى سبعة مستخدمين، ويقع تقريباً في منتصف المسافة بين مضيق هرمز وحقول نفط «مبارك» التي هاجمتها زوارق «بوغامر»[863]. لسوء حظ يغنيه أن أعداءه الأميركيين علموا بتحركاته، ووصلت هذه المعلومات على الفور إلى قوة داير وإلى المجموعة القتالية في البارجة «انتربرايز».

تلقّت البارجة «سهند» أمراً في الساعة الثانية عشرة والنصف بالخروج من بندرعباس، والمرور بمرسى السفن الخردة الصدئة والجزر القريبة، ومن ثم إلى الممرات الضيقة في مضيق هرمز. أظهر ضابط القيادة في «سهند»، النقيب شهروخوار، عدوانيةً غير معهودة مقارنةً بضباط بحرية بلاده، حيث أمر بمهاجمة المصالح الاقتصادية للبلاد التي تساند العراق، وكانت سفينته على رأس ذلك الهجوم. التقطت طائرة أميركية سفينة شهروخوار أثناء مرورها بجزيرة لارك، وكانت تتوجه نحو حقل «صالح» النفطي بسرعة خمسٍ وعشرين عقدة[864].

استقبلت السفينة «انتربرايز» أخبار مغادرة الأسطول الإيراني بندر عباس بارتياح وبهجة. كان أفراد الطواقم يقفون على أهبة الاستعداد طوال اليوم في غرفة الانتظار، وقد تلقّوا الكثير من الإنذارات الكاذبة في ذلك الصباح، وكانوا يراقبون خروج الإيرانيين، وبدأ الطيارون يشعرون

بالإحباط لفقدانهم الأمل في إقدام الإيرانيين على المغامرة. وما إن علموا أن سفينةً إيرانية، يرجّح أن تكون «سهند» أو شقيقتها «سبلان»، تقوم بالاستكشاف في جزيرة لارك حتى أسرع بولد انغستون بالإقلاع بطائرته في محاولة للعثور على الفرقاطة الإيرانية، كما وانطلقت طائرة A-6 من على سطح حاملة الطائرات وتوجّهت إلى مضيق هرمز.

أمر «توني لِسّ» قوة داير بتشكيل حاجز دفاعي لحماية حقل «صالح» النفطي من هجمة إيرانية وشيكة. صدحت أوامر القيادة في مكبّرات الصوت وهرع أفراد الطاقم مرةً أخرى إلى مراكزهم القتالية. حوّل داير قوته مرةً أخرى باتجاه الشمال، ورصف سفنه الحربية الثلاث بحيث تشكّل خطّاً واحداً، مع مسافة فاصلة تبلغ خمسة أميال، كما طلب من مروحيةٍ أخرى أن تحلّق فوق المنطقة للمساعدة في تحديد موقع الفرقاطة الإيرانية.

تدفقت المعلومات الاستخباراتية تباعاً حول التحركات الإيرانية ما سمح للأدميرال «لِسّ» مرةً أخرى بأن يكون متقدّماً خطوة إلى الأمام لمواجهة تحركاتهم. كان سلاح البحرية قد وضع شخصاً يجيد الفارسية على متن الطائرة EA-6B للتنصّت على الحرس الثوري الإيراني، الذي كان يستخدم أجهزةً لاسلكية محمولة بسيطةً وغير مشفّرة[865]. كانت هذه المعلومات كلها تتدفق إلى خلية الاستخبارات المدمجة على متن «كورونادو»، حيث عمل ضباط الاستخبارات على الربط بين المعلومات لمعرفة ما ينوي الإيرانيون القيام به. وقد استطاعوا بذلك كشف هجومٍ آخر وشيكٍ كان الحرس الثوري الإيراني ينوي تنفيذه على حقل «مبارك» النفطي بواسطة زورق صغير.

انطلقت أربع طائرات من الحاملة «يو أس أس انتربرايز» ودخلت الخليج. كان السرب يتألف من طائرتين مقاتلتين من طراز F-14 مهمتهما تأمين الغطاء العلوي وطائرتين من طراز A-6، ليزرد 503 و507، كل واحدة منها يقودها طيّاران ومسلّحة بمجموعة من الصواريخ والقنابل. أما قائد السرب فكان الرائد البحري الطيار جيمس إنغلر الذي جعل رمز ندائه في الاتصالات كلمة «JINGLES» ما يعكس حبّه للعزف على البيانو. الواقع أن جيمس كان يفتقر إلى خبرة بولد انغستون القتالية، ولكنه كان يتمتع بسمعةٍ يستحقها كضابط لامع وقائد سرب طائرات كفؤ؛ كما أنه كان أحد ضباط المجموعة الجوية الأكثر خبرة، وكان طيار جناحه في ليزرد 507 الملازم أول بول ويب، وقد جعل رمز ندائه عند الاتصال «جاك» لأن شخصيته ليست من النوع الذي يحب الأمور التي لا معنى لها وهو يفضّل معرفة الوقائع فقط. كان داير قد طلب من إنغلر وويب أن يصلا إلى جزيرة أبو موسى للبحث عن زوارق «بوغامر» الإيرانية التي أطلقت النار على حقل النفط في الإمارات العربية المتحدة[866].

لم تكن قواعد الاشتباك تتيح القيام بالعمل الوقائي؛ بل تسمح للقوات الأميركية الرد في حالات الدفاع عن النفس فقط. لذا طلب «لِسّ» الإذن بالاشتباك مع القوارب الإيرانية. تمّ إيصال الطلب إلى البيت الأبيض وإلى مستشار الأمن القومي الأميركي كولن باول. عندما تمّ الاستيلاء الناجح على منصتي سيري وساسان، اتّصل باول بالرئيس وقتئذٍ ليبلغه بذلك، وقد أيقظه من النوم

في الساعة الخامسة صباحاً. بيد أن ريغان نأى بنفسه بشكل ملفت عن العملية تاركاً أمر متابعة مجريات الحرب لباول. ومع ذلك، لا يمكن لأي شخص الموافقة على طلب كهذا إلا الرئيس. أجاب باول: «اسمحوا لي أن أتحقق». التقط خطّاً هاتفيّاً آمناً آخر واتصل بريغان في المكتب البيضوي. بعد أن أوضح باول الوضع بإيجاز، استجاب ريغان دون تردد قائلاً: «نفذ». لم تتطلّب المسألة برمتها سوى عشر دقائق[867].

لم يكن التوقيت ليكون أفضل من ذلك للأميركيين. فإنغلر قادر على أن يرى بوضوح أربعة خطوط بيض على المياه الزرقاء أدناه، متوجّهةً مباشرةً نحو منصة نفطية إماراتية قريبة، فخفّض من علوّه بسرعة أربعمئة عقدة، واضعاً نصب عينيه الزورق الموجود في الطليعة بين زوارق «بوغامر» الأربعة، وهو الزورق الأقرب من المنصة، وأطلق قنبلتين عنقوديتين (Mk-20 Rockeyes) وقذائف صدفية - وهي عبارة عن علب صغيرة تحتوي كل واحدة منها على 247 قنبلة صغيرة على شكل رمح مصمّمة لتنفجر عندما ترتطم بأيّ شيء[868]. جنح إنغلر بالطائرة إلى الجانب بصعوبة، ونظر إلى الخلف فتمكّن من أن يرى بوضوح القنابل العنقودية تنزل جميعها حول البارجة «بوغامر»، لكن دون أن تصيبها. كانت البارجة «بوغامر» تتقدّم متمايلةً بسرعة خمسين ميلاً في الساعة في محاولةٍ يائسة للتملّص من الأميركيين، وكان الإيرانيون العاملون عليها يحدّقون إلى الأعلى بقلق بحثاً عن الطائرتين الأميركيتين المحلقتين فوقهم. حاول الملازم أول ويب استهداف القارب الصغير السريع بقنبلة موجّهة بالليزر زنتها خمسمئة باوند، لكن هذا شبه مستحيل وقد سقطت القنبلة على مسافة قريبة وراء القارب الإيراني السريع، رافعةً برجاً من المياه البيضاء ولكنها أخفقت في إلحاق الأذى بالقارب. جاء الآن دور إنغلر مرةً أخرى؛ انخفض وألقى قنابله العنقودية الثلاث المتبقية. هذه المرة أصابت واحدة على الأقل من هذه القنابل الصغيرة هدفها، وما إن ابتعدت طائرة 6 -A حتى غرقت «بوغامر» وركابها في أعماق الخليج العربي[869].

في ذلك الوقت وصلت طائرة بود لنغستون فوق مضيق هرمز تبحث عن البارجات الإيرانية، فاتجهت جنوب بندرعباس[870]. «كان الطقس صافياً وتستطيع أن ترى ما تحتك بوضوح» على ما وصف لنغستون. «لكن الرؤية لم تكن واضحة من على مسافة بعيدة أمامي». رأى لنغستون في الأسفل أثراً أبيض لسفينةٍ لا لبس فيه، فرجع إلى الوراء وهو واثق «بنسبة 90 بالمئة» من أنّه قد حدّد موقع فرقاطة إيرانية، على بعد خمسة أميال بحرية جنوب غرب جزيرة لارك وكانت متوجهة جنوباً بسرعة خمسٍ وعشرين عقدة بحرية[871].

تجنّباً لأي خطأ قد يؤدّي إلى مهاجمة سفينة أخرى انحدر انغستون بطائرته الـ A-6 في اندفاع شديد ليصبح خلف الفرقاطة، فحلّق بسرعة فوق قمم الموج واستهدف جانب السفينة من الأسفل. كان يرى بوضوح الرقم 7 مرسوماً بخطٍّ عريض على قوسها، وهذا يعني أنها البارجة «سهند». انحرفت A-6 فرأى لنغستون فيها ذخائر مكوّنة من مدفع كبير مزدوج من العيار 35 ملم، وانطلق باتجاهه صاروخان من الصواريخ التي تُطلق عن الكتف من مؤخرة السفينة.

ارتفع لنغستون بالطائرة بشدة وحلّق عالياً وانعطف إلى الجانب مبتعداً، ثم اتصل بحاملة الطائرات قائلاً: «لقد تحقّقتُ من هويتها، رقمها مكتوب عليها!»

سألوه: «وما أدراك أنها هي؟»

«لأنهم أطلقوا النار علي!»

حلّق لنغستون خمسة عشر ميلاً تقريباً خارج نطاق «سهند»، وجهّز صاروخه من نوع هاربون، وتماشياً مع شروط وزير الدفاع كارلوتشي، القاضية بتحذير الإيرانيين قبل فتح النار، بثّ انغستون على تردّد الاستغاثة الدولي قائلاً: «السفينة الإيرانية التي أطلقت النار على طائرة البحرية الأميركية A-6، لديكِ خمس دقائق لإخلاء الطاقم». على أي حال، لم يُعرف ما إذا كان الإيرانيون قد سمعوا التحذير أم لا، لكنّ انغستون لم يتلقّ أيَّ ردّ وواصلت «سهند» مسارها نحو الجنوب. هبط لنغستون بطائرته «إنترودر» إلى مستوى منخفض وأطلق صاروخ هاربون المضاد للسفن. سقط الصاروخ ومرّ بسرعة فوق الماء مجتازاً المسافة الفاصلة عن السفينة الإيرانية.

لم يكن للنقيب شهروخوار أمل بالنجاة، فقد ضرب الصاروخ المنساب الجانب الأيمن بالقرب من منصة الربان وأشعل آتون نار في الداخل، فانبعث الدخان الأسود متصاعداً في السماء الزرقاء الصافية. ثم ألقى انغستون قنبلة موجّهة بالليزر زنتها خمسمئة باوند، فأصابت بدن السفينة.

انطلقت سبع طائرات عن متن حاملة الطائرات «انتربرايز» وتوجّهت نحو «سهند». للأسف، لم تزعج أي طائرة من هذه الطائرات نفسها بإعلام أي سفينة من سفن السطح عن دخولها المجال الجوي. لم يكن لدى داير أي فكرة عن إقلاع أي طائرة من «انتربرايز»، ولم تكشف أي واحدة من الطائرات القادمة عن هويتها بأنها طائرة صديقة أو عدوة، أو حتى ترسل أي رسالة مشفّرة تدلّ على أنها طائرة صديقة. لذ عندما اقتربت الطائرة من المضيق وتوجّهت إلى الخليج ظنّت سفن داير أنها طائرة إيرانية قادمة من بندرعباس.

طلب قائد المدمّرة الأميركية جوزيف شتراوس (Joseph Strauss) إذناً بالاشتباك. كان قائد السفينة ضابطاً عدوانياً يدعى صموئيل أندرسون، نشأ في هاواي، ويبلغ من العمر أربعة وأربعين عاماً، وله شارب يشبه شارب الممثل الأميركي ذي الأصل المكسيكي إدوارد جيمس أولموس. يتمتع أندرسون بسمعة حسنة ومنذ تولّيه القيادة، في حزيران/يونيو من عام 1986، نال إعجاب واستحسان رؤسائه. يقال أنه في إحدى المرات عندما دخل بسفينته ميناء سيدني على سبيل الزيارة دهس قارباً شراعياً تابعاً لمنظمة السلام الأخضر (غرين بيس)، وأنه رسم بفخر قارباً شراعياً مخروقاً على برج السفينة. بسبب هذه التصرفات وغيرها لقّبه طاقمه المعجب به بـ«سلامينغ سامي» (Slamming Sammy)م[872].

بدا لداير أنّ ثمة خطباً في ما يتعلق بالطائرة ومنع أندرسون من القيام بأي خطوة حاليّاً. وهناك، على متن «واينرايت»، كانت لدى تشاندلر أيضاً شكوكه حول هذه الطائرة القادمة التي بدت

كأنها ومضة على شاشة راداره وشكّ في أن تكون من «انتربرايز». بعد التشاور مع داير قرر تشاندلر منع «سلامينغ سامي» عن القيام بأي تصرّف، وبعد وقتٍ قصير اكتُشفت هوية طائرة IFF أخيراً، فتنفّس الجميع الصعداء لتجنّبهم إسقاط إحدى طائراتهم[873].

قرّر داير الإجهاز أيضاً على «سهند». كانت سفنه الثلاث تقف جنباً إلى جنب على بعد عشرين ميلاً تقريباً إلى الجنوب من السفينة الإيرانية المحترقة، فأمر جوزيف شتراوس بتوجيه صاروخ هاربون نحو «سهند». أبطأت المدمرة الأميركية من سرعتها إلى خمس عقد بحرية وخرجت عن السرب. عندها أدار أندرسون الجانب الظاهر من السفينة للكشف عن أسلحتها وتهيئتها لإطلاق النار. اندفع أفراد الطاقم على السفينتين الأخريين والصحافيون المتواجدون على السفينة «جاك ويليامز» (Jack Williams) للصعود إلى الطبقات العلوية لمشاهدة الضربة الوشيكة. صوّرت كاميرا طاقم قناة CNN للأجيال القادمة ولنشرات الأخبار المسائية السفينة «شتراوس» وهي تطلق صاروخاً يخترق عنان السماء، لتغطّي السفينة لبرهة من الزمن سحابةً بيضاء، وبعد ثلاثين ثانية أحدث الصاروخ فجوةً كبيرة في جنب «سهند» الأيمن.

بعد دقيقتين، بدأت طائرات «انتربرايز» بإلقاء القنابل على السفينة الإيرانية التعسة، وأصاب صاروخ آخر السفينة، أضاف إليه انغستون قنبلتين تزن كلٌّ منهما ألفي باوند، أصابت إحداهما السفينة مباشرةً[874]. لكن العقاب الذي كانوا ينزلونه بـ«سهند» لم يكن قد بدأ بعد. فقد أمر قائدها، المصاب بالشظايا وبكسرٍ في ساقه، أفراد الطاقم بمغادرة السفينة فأسرعوا بالنزول إلى قوارب النجاة العائمة ذات اللون البرتقالي الفاقع المجاورة، ولكن القنابل انهمرت في الدقائق الخمس عشرة التالية كالمطر على «سهند». كانت القنابل غير الموجّهة تصيب أهدافها بمقدار ما تخطئها، الأمر الذي دفع قبطان «سهند» في وقت لاحق إلى اتهام طياري الولايات المتحدة باستهداف الناجين في قوارب النجاة بشكل متعمّد. على الرغم من أن هذه الاتهامات لم تؤخذ بعين الاعتبار إلا أنّ بالإمكان تصوّر مدى الرعب الذي عاشه القبطان وأفراد الطاقم بينما كانت المياه تنفجر من حولهم بفعل تساقط القنابل.

تحطّمت «سهند» واشتعلت النيران فيها من مقدمتها إلى مؤخرتها، وعندما كشف الطيارون عن النقاط الساخنة على طول بدنها أشاروا إلى عدم إمكانية السيطرة على الحرائق بداخلها. كان الدخان يتدفق من الفجوات والثقوب والشقوق التي أحدثتها القنابل الأميركية في هيكل السفينة وسطحها.

ما إن هبطت الطائرة على الناقلة حتى هتف الطاقم الأرضي وطاقم السفينة ابتهاجاً بوصولهم. فكّر انغستون قائلاً: «كان ذلك أشبه بالمشهد الأخير من فيلم توب غان (Top Gun)».[875]

في شمال الخليج، أوكلت إلى السفينة الحربية «يو أس أس غاري» (USS Gary) حماية قاعدتين بحريتين متنقّلتين[876]. قضت «غاري» وبارجتان أخريان معظم اليوم في موقعهما الرئيسي، فبينما كان القتال محتداً في الجنوب كان شمال الخليج هادئاً حتى ذلك الوقت. فجأةً كشفت السفينة انطلاق صاروخ «سيلكوورم» فوق منطقة الفاو عن بعد 120 ميلاً تقريباً، وبعد ذلك بوقت قصير اكتشف رادارها الصاروخ القادم. عندئذٍ تحركت السفينة غاري بأقصى سرعتها واستدارت بشدة للكشف عن أسلحتها، ثم أطلقت الشرائط المعدنية وأضواء الوقوع في الشرك؛ وبدأت بإطلاق مدافع 76 ملم باتجاه الصاروخ الذي لا يزال يظهر على شاشة الرادار[877]. رأى شهود عيان جسماً يمرّ بـ«غاري»، ربما عبر الشرائط المعدنية، ثم يصطدم على بعد ميل واحد تقريباً خلف مؤخرة السفينة[878].

في مركز المعلومات القتالية المظلم على متن البارجة «جاك وليامز»، أخذ داير يستمع باهتمام إلى تقارير إذاعية من «يو أس أس غاري» عن صاروخ «سيلكوورم» المتجه نحو البارجة الأميركية، فسفنه من السفن التي تقع ضمن نطاق قذائف «سيلكوورم» الإيرانية في جزيرة قشم. في هذه الأثناء ورد تقرير من إحدى الطائرات الأميركية يشير إلى صاروخ قادم، فأمر داير السفن الثلاث بإطلاق شرائط التشويش على الرادار والتوجّه نحو الجناح الجنوبي بسرعة في محاولة للخروج من نطاق الصواريخ الإيرانية، فأسرعت السفن بالخروج وأطلقت الصواريخ عالياً فانفجرت مصدرةً صوت مفرقعات نارية ودخاناً أبيض، كما نشرت شرائط التشويش المغناطيسية.

بعد دقيقة لفتت فجأةً نقاط المراقبة على سطح السفينة جاك ويليامز انتباه الجميع: «ثمة صواريخ قادمة نحو الشمال في الخلف!» في وقت متأخر بعد الظهر عندما كانت الشمس تغيب في الأفق وترسل أشعتها الذهبية على المياه الزرقاء الهادئة. توجّهت كاميرا قناة CNN المغامرة إلى الشمال في الخلف وصوّرت سطوع توهّج على مسافة قريبة. شرعت إحدى فرق صاروخ ستينغر على متن السفينة بالإطباق لفترة وجيزة على الصاروخ القادم، ولكنها لم تتمكّن من الاستمرار في اعتراض الهدف. حنى مراقبو السطح العلوي رؤوسهم وهم يطلقون بضعة شتائم لأن الصاروخ انحرف بسرعة عند مؤخرة السفينة، وذكر شهود عيان أنه أصاب المنصة عن بعد، وكان ذلك واضحاً للعيان على وهج نور الشمس الغاربة الذهبي الذي صوّرته كاميرا CNN.

في تلك اللحظة كشفت سفن داير إشارات رادارية صادرة عن طائرة إيرانية رباعية المحركات C-130 على بعد خمسة وعشرين ميلاً. خوفاً من أن توفر الطائرات معلومات لمنصّات إطلاق صواريخ «سيلكوورم» عن مواقع السفن الأميركية فتصبح أهدافاً سهلة أمر داير الكابتن أندرسون بالاشتباك مع الطائرات الإيرانية، وما إن جهّزت السفينة جاك وليامز صاروخها حتى تحرّك أندرسون كي يغطّي المسافة بينه وبين الطائرة الإيرانية. أطلق جوزيف شتراوس خمسة صواريخ أرض-جو بشكلٍ متوالٍ على الطائرة الإيرانية، لكنّ أحدها تعطّل وانحرف عن مسار طيرانه، فأمر أندرسون بتدميره في الجو فتناثرت قطعه المعدنية كالمطر على مياه الخليج. كان كل

هجوم يقوم به أندرسون تتفاداه الطائرة الرباعية المحركات الإيرانية المتثاقلة التي تمكّن طيارها الكفؤ من الحفاظ على طائرته بعيداً عن قبضة الموت.

قال داير: «كفى هراءً» وأمر إحدى طائرات F-14 بالاقتراب من الطائرة الإيرانية وتولّي حلّ المشكلة. من الواضح أن طيّار الـ C-130 قرّر عدم المجازفة فحلّق خارجاً من الخليج، والأرجح أنه عاد أدراجه إلى الأراضي الإيرانية.

ذهبت طائرتا «إنغلر ووب» بعد أن أغرقتا «سهند» وتخلصتا من زوارق برغمر لتتزود بالوقود من ناقلة سلاح الجو فوق عُمان وراحتا تبحثان عن زوارق بوغامر أخرى تمّ الإبلاغ عنها لكن تبيّن أنها مجرد قوارب للصيد. طلب داير أن يتوجها إلى جزيرة لارك للبحث عن «سبلان»، وشرع يبحث من خلال الصور بالأسود والأبيض التي تظهر على رادار طائرته متحرّياً مع طيار الجناح عن سلسلة غير منتهية من نقاطٍ لها دلالات شتّى، من حطام سفن إلى مراكب صيد الأسماك التي تنتشر في مياه الخليج في الجنوب الشرقي من جزيرة قشم.

في النهاية خرج القبطان البغيض إلى القتال في الساعة الرابعة والنصف مساء، فسارع إنغلر وويب للإطباق عليه ومهاجمته فوراً[879]. لحظت سبلان اقتراب الطائرات الأميركية فأطلقت صاروخ سطح-جو باتجاه طائرة إنغلر A-6. كان الصاروخ على الأرجح من نوع SA-7 الذي يُطلق عن الكتف. لم يصب الصاروخ الطائرة، ولكن ويب اتصل لاسلكياً وقال إنهم تعرضوا لإطلاق النار. كانت كلٌّ من طائرتي A-6 تحمل صاروخ سطح-سطح من نوع هاربون، ولكن جزيرة لارك كانت تعكس ظلّ «سبلان» فخشي إنغلر ألاّ يستطيع صاروخ هاربون تعقب «سبلان» بسبب اليابسة التي تقع خلفها فيصيب الصاروخ البرّ الإيراني، لذا قرّر عدم استخدام الهاربون لكنه سيندم على ذلك لاحقاً. لم يتبقّى بحوزة إيغلر سوى قنبلة وحيدة موجّهة بالليزر تزن خمسمئة باوند، فألقاها بسرعة على السفينة الإيرانية[880].

دفع إنغلر أداة التحكم بالطائرة إلى الأمام ووجّه طائرته نزولاً في هبوطٍ حاد، ثم أطلق الرامي، الملازم مارك هيراث، القنبلة الوحيدة الموجّهة بالليزر لديهم، فتوجّهت مباشرةً نحو مدخنة السفينة «سبلان». انفجرت القنبلة في عمق السفينة، حيث المحركات، فبدت كما لو أنها تتجشأ، وتصاعدت أعمدةٌ من الدخان الأسود الثقيل وانتشرت بقعة نفطية كبيرة في المياه المحيطة بالسفينة. اتّصل قبطان «سبلان» عبدالله منافي لاسلكياً عبر المحطة الراديوية الدولية بلغةٍ إنكليزية ركيكة، وكان صوته شبه مضطرب، قائلاً: «إنني أغرق! إنني غرق! أرسلوا مساعدة»! بالنسبة إلى رجلٍ تعمّد أن يتسبب بالكثير من البؤس لبحارة تجاريين عُزّل، كان منافي يستحق ما أصابه.

مع تعطّل «سبلان» في الماء، وعدم توفّر أوامر أخرى، عاد إنغلر وويب إلى حاملة الطائرات. وعلى متن «انتربرايز» بدأ الطاقم يُعدّ مجموعةً جديدة من الضربات للإجهاز نهائياً على «سبلان» ومعالجة تقرير استخباراتي جديد عن سفينة إيرانية ثالثة تتقدّم في بندرعباس. بدأ مدرج الطيران بإحضار المزيد من الذخيرة على عجل، واستعدت طائرتان إضافيتان. بات الهدف الآن عاجزاً عن الحركة وقادة الولايات المتحدة يتلهفون لإنهاء عمليتهم. اتّصل «لِسّ» بزيلر وسأله عن

المدة اللازمة للطائرات لبلوغ «سبلان» والإجهاز عليها. ردّ زيلر أن الأمر سيستغرق بعض الوقت، ربما ساعة. بما أن «سبلان» هوجمت في محاولة للدفاع عن النفس فإن هذا التأخير يشي بأن ثمة نيّة لتوسيع قواعد الاشتباك. التقط الجنرال كريست سماعة الهاتف المفتوح وتحدث إلى كرو قائلاً له: «سيكون أمراً جميلاً إن تمّ إغراقها، ولكن سيكون من الصعب أن نقول إنه دفاعٌ عن النفس في هذه الحالة.»

كان وزير الدفاع فرانك كارلوتشي قد ترك البنتاغون لممارسة السباحة الصباحية في حوض صغير في صالة البنتاغون الرياضية. جاء العميد إليه وانتزعه من حوض السباحة، فعاد كارلوتشي بسرعة إلى مركز القيادة.

أطلعه كرو على الوضع قائلاً: «لقد عطّلنا سبلان في الماء، والطائرات تحلّق في سماء المنطقة. بِمَ تنصح؟»

أجاب كارلوتشي: «حسناً، ما رأيك أنت؟» أجاب كرو، وهو الذي دعا إلى استهداف «سبلان» تحديداً، قائلاً: «سيدي الوزير، أعتقد أننا قد أرقنا ما يكفي من الدماء اليوم». أراد كارلوتشي دائماً خفض عدد الضحايا إلى أقصى حد ممكن، فهزّ رأسه قائلاً: «أوافقك الرأي. أخبر الطائرات بعدم الهجوم»[881]. أحضر الإيرانيون سلاسل للسحب ومركبَ «شيرو» (Chiroo) الخفيف وسحبوا «سبلان» إلى بندرعباس وأخلوا المصابين الذين كانوا على متنها.

قبل غروب الشمس، التقط «لِسّ» جهاز اللاسلكي واتصل براكو على متن «ترينتون» وأمره بإرسال طائرتي كوبرا إلى البارجة «وينرايت» ليوفّر لتشاندلر بعض المروحيات في حال شنّت المنصة الإيرانية هجوماً بقارب صغير خلال الليل. اعترض راكو وضابطه الجوي المقدّم لاري أوتلو بشدة، قال إن طياريه حلّقوا نحو اثنتي عشرة ساعة متواصلة؛ فضلاً عن أنهم منهكون ولم يناموا الليلة السابقة، ولكن الأوامر ظلّت قائمة، فبعث أوتلو ضابطه التنفيذي وأحد أفضل طياريه، المقدم ديفيد دينكليبرغر، لمؤازرة النقيب ستيفن ليزلي سي. وكينيث جورج هيل.

وصلت مروحيتا كوبرا رماديتان أنيقتان وحطتا على مدرج الانطلاق على متن «وينرايت» بعد غروب الشمس. كان منسوب الوقود في خزّان طائرة دينكليبرغر هو الأكثر انخفاضاً فكان أول من حطّ. هبط على المدرّج الصغير، وما إن توقّف دوران المحرك بصورة تدريجية حتى نقل الطاقم المروحية إلى حظيرة الطائرات لإفساح المجال لشريكه، حيث جُرّت مروحيتا الكوبرا بالكلّابات والأسلاك المعدنية.

اكتشف رادار «وينرايت» فجأةً سفينةً متواجدةً قبالة مقدمة السفينة مباشرةً على بعد خمسة عشر ميلاً تقريباً، وبدا أنها السفينة الإيرانية اللوجستية «لارك» القادرة بالتأكيد على زرع الألغام أو أي شيء آخر مؤذٍ. طلب تشاندلر من ليزلي وهيل أن يتحققا منها، فانطلقت الكوبرا بسرعة وحلّقت بعيداً، وتلاشى صوت دوران محركها المميز في الظلام الدامس. فجأةً، صدر صوت أحد الطيارين عبر جهاز اللاسلكي، قال بإيجاز: الرادار التقط الهدف! «ولكن لم يكن واضحاً ما إذا كان صاحب الصوت إيرانياً أم أميركياً، ولكن ليزلي انحدر بطائرته الكوبرا بصعوبة وانخفض بها حتى وصل

إلى سطح الماء في مناورة مفاجئة، المقصود منها التهرّب من صاروخ متّجه نحوه. ولكنّ نظارات الرؤية الليلية تجعل رؤية العمق مسطّحة، وفوق صفحة الماء يلتمع الأفق والماء بلون أخضر متدرّج. الحقيقة أنه حتى أكثر الطيارين خبرةً في القوات الخاصة في الجيش يجدون ذلك تحدياً، ولم يكن أيٌّ من ليزلي أو هيل على هذا المستوى من الخبرة في الطيران. ارتطمت طائرة الكوبرا ذات المروحة المزدوجة السريعة الدوران بقوة بمياه المحيط، ما أسفر عن مقتل كلا الطيارين على الفور. وما إن خيمّ الظلام على الخليج حتى أمر «لِسّ» مجموعات العمل الثلاث على السطح بالتوجه إلى الجنوب، بعيداً عن الإيرانيين، واتّخاذ موقف دفاعي. اتّصل كريست بكرو لإعلامه بالمستجدات وقال إن العديد من القوارب الصغيرة التي يحرسها الحرس الثوري تبدو كأنها تستعدّ للهجوم في اليوم التالي، وأضاف: «أعتقد أن يوم غد سيكون صعباً»[882].

لكن الإيرانيين لم يهاجموا. كان يوم 18 نيسان/أبريل مكلفاً لإيران، فقد لقي ما يقرب من ستين إيرانياً مصرعهم وسقط أكثر من مئة جريح. وفي اليومين التاليين من عملية «فرس النبي» ظلّ التوتر شديداً، لكن إيران حافظت على القوارب المتبقية آمنةً في الميناء، ولم يُبدِ الحرس الثوري اهتماماً بالمزيد من الاشتباك مع الولايات المتحدة. في 20 نيسان/أبريل انطلقت أربعة زوارق إيرانية من بوشهر مقتربةً من القاعدتين البحريتين المتنقّلتين الواقعتين في الشمال، لكنها تحولت بعيداً وعادت إلى جزيرة فارسي.

كلّفت البحرية فريقاً بمراقبة صواريخ «سيلكوورم». ومع أن الفريق اشتبه في أن إيران قد أطلقت صاروخاً في شمال الخليج، حينما كانت القوات العراقية تنقل إحدى المدفعيات، إلا أن المحللين لم يجدوا أي دليل على إطلاق أي صاروخ في جنوب الخليج حيث تتمركز قوات داير، وخلص الفريق المعني بمراقبة صواريخ «سيلكوورم» إلى أن ذلك ناجم عن خطأ في الرادار وأن التقرير كاذب وأن الصواريخ صواريخ ضلّت طريقها قادمة من طائرة سامي أندرسون. وعندما سُئل داير إن كانت هناك أدلة على إطلاق صواريخ «سيلكوورم» باتجاه سفنه قال ساخراً: «حسناً، مهما يكن ذاك الشيء فقد كان كبيراً وسريعاً وجاء من إيران».

بعد وقتٍ قصير من القتال كتب الجنرال كريست إلى وزير الدفاع: «الدليل على جودة التخطيط ظهر في النتيجة، فقد تناولنا عشاءً طيباً في الثامن عشر من الشهر». حقّقت عملية «فرس النبي» نجاحاً منقطع النظير بالنسبة إلى الولايات المتحدة، وتراجعت إيران إلى حدّ كبير عن أن تكون تهديداً رئيساً لحركة ناقلات النفط فضلاً عن الأضرار المادية التي لحقت بالبحرية الإيرانية، وتوقفت الهجمات التي كان الحرس الثوري يشنّها بقوارب سريعة خلال الشهر التالي. لقد فوجئت طهران بالتزامن بين كارثة «عملية فرس النبي» وبين استيلاء العراق بسهولة على الفاو. لم يُهزم الحرس الثوري المُدافع عن الفاو ببساطة، لكنه انهار، وكشف تحليل لمواقعهم بعد المعركة أن العديد منهم فروا في لحظة الهجوم العراقي الأولى. وقد قال هاشمي رفسنجاني بعد ذلك إن إيران لا يمكنها أن تواجه الولايات المتحدة والعراق معاً، وأن التوقيت ليس لمصلحة إيران. اتّهمت إيران الولايات المتحدة بنقل القوات العراقية إلى الفاو؛ وعلى الرغم من عدم صحة هذه الاتهامات إلا أن طهران كانت تعتقد ذلك[883].

بعد المعركة، التقى «لِسّ» أمير البحرين، فقال له الأمير: «الإيرانيون لا يفهمون إلا منطق القوة. في المرة القادمة اضربهم ضربةً أقوى بألف مرة!» اتّضح فيما بعد أن إيران لم تعد تحتاج إلى ضربةٍ أخرى. كان آية الله على وشك أن يحوّل مساره.

الفصل التاسع عشر

النـهايـة الرهيبـة

تكثر نظريات المؤامرة في الشرق الأوسط، ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى وجود الكثير من المتآمرين. بالنسبة إلى القادة المتربّعين على عرش السلطة في طهران، عزّزت الهجمات الأميركية والعراقية المشتركة ظاهرياً على الفاو وفي الخليج العربي رأي إيران الثابت منذ زمنٍ طويل بأن ثمة تواطؤاً بين عدوّيها. فالهجوم العراقي الدقيق وكفاءة جيش صدام حسين الحديثة العهد أظهرا تدخّل الشيطان الأكبر. ظهر جواسيس أميركا في كل مكان، وكشفت إيران النقاب عن مخططات وكالة الاستخبارات المركزية شبه العسكرية، وفضح جاسوس في الجيش الإيراني أمر الهجوم العقابي الثأري على المملكة العربية السعودية. كما صعّبت الجهود الجديدة التي تقودها الولايات المتحدة أكثر فأكثر على إيران شراء الأسلحة وقطع الغيار لمعدّاتها الأميركية الصنع، ودفعت القوة العراقية الأميركية المشتركة إيران المثقلة بالديون إلى نقطة اللاعودة. كانت الحرب تقترب من ذروةٍ مأساوية، حربٌ لن يخرج منها أحد سالماً.

يقع مبنى هيئة الاستخبارات التابعة للبنتاغون، الضخم والرمادي، في قاعدة بولينغ الجوية على الجانب الآخر من نهر بوتوماك قبالة البنتاغون. تخضع وكالة استخبارات الدفاع (DIA) لسلطة وزير الدفاع، وتركّز في عمليات جمع المعلومات على القوات العسكرية الأجنبية، وهي تعمل أحياناً جنباً إلى جنب مع الجهاز الذي ينافسها أحياناً في لانغلي. في منتصف الثمانينيات، ترأس العقيد باتريك لانغ والتر قسم الشرق الأوسط وجنوب آسيا في وكالة استخبارات الدفاع. ينتمي هذا الضابط إلى القوات الخاصة في الجيش، وقد خدم جولتين في فيتنام، ثم انتقل ليصبح ضابطاً في منطقة أجنبية، فدرس الشرق الأوسط وأصبح أول أستاذ للدراسات العربية في ويست بوينت. يُعدّ لانغ ضابط مخابرات حاذقاً، وقد ترقّى في نهاية المطاف ليصبح أول مدير لوكالة استخبارات الدفاع التي تتولى الإشراف على كل جواسيس البنتاغون. كان بات لانغ شديد العناد ويخالف في آرائه الاتجاه العام، لاسيّما في ما يخصّ الشرق الأوسط. يعتبره معارفه انتقادياً وساخراً أكثر مما يمكن لمستعرب حقيقي أن يكون عليه. غالباً ما كان ينتقد التصرفات الإسرائيلية، كما أنه لا يكنّ الكثير من

الاحترام لإيران إذ وجد الطلاب الإيرانيين الذين التقاهم في المطعم الجامعي في كلية الدراسات العليا في جامعة يوتا لجوجين ومتغطرسين - وينطبق رأيه هذا على قيادة الجمهورية الإسلامية أيضاً.

أخذت الحرب العراقية الإيرانية الكثير من وقت لانغ بوصفه ضابطاً للاستخبارات العسكرية لمنطقة الشرق الأوسط، وغالباً ما كان يُستدعى لإطلاع كبار المسؤولين على مدّ الحرب وجزرها. وبناءً على توجيهات ريتشارد أرميتاج، المساعد القوي للوزير كاسبار واينبرغر، ضمّت هذه الاجتماعات السفير السعودي في واشنطن الأمير بندر بن سلطان، وهو الشخصية المقرّبة من العديد من الإدارات. في لقائه الأول مع بندر انتقل لانغ إلى منزل الأمير السعودي المترامي الأطراف قبالة شاين بريدج رود الموازي لنهر بوتوماك، حاملاً معه صندوقاً يحتوي على خرائط سرية كبيرة للخطوط الأمامية في الجبهة. فرش الرجلان الخرائط على أرضية مكتب بندر وراحا يحدقان فيها ثلاث ساعات متتالية ويناقشان بدقة الرموز الزرق والحمر التي تمثّل الجيشين العراقي والإيراني[884].

أُعجب بندر بالخرائط والنقاشات كثيراً إلى درجة أنه طلب من أرميتاج أن يجري لانغ النقاش نفسه مع العاهل الأردني الملك حسين. وافق أرميتاج، ووجد لانغ نفسه بسرعة على متن طائرة متجهة إلى عمّان.

وصل الملك متأخراً بضع دقائق. كان يركب الخيل، وكان مرتدياً الجينز وقميصاً ملوناً، وينتعل حذاء رعاة البقر مصنوعاً من جلد الثعبان، ويحتزم بحزامٍ عريض ثبّت عليه إبزيماً فضياً خاصاً بمباريات الروديو له شكل اسم ولاية تكساس. جلسا إلى طاولة رخامية كبيرة لشرب القهوة. وضع لانغ صور الأقمار الصناعية والخرائط وقدّم شرحاً مفصّلاً عن الوضع العسكري الحالي على طول خطوط الجبهة العراقية الإيرانية.

في نهاية العرض الشكلي الذي قدّمه لانغ سأل الملك حسين: «هل هناك ما يستطيع العراقيون القيام به من أجل تحسين وضعهم على الأرض؟»

قال لانغ: «بالطبع يوجد يا صاحب الجلالة» وأشار إلى الخريطة محدِّداً بإصبعه وحدتين عراقيتين قرب البصرة. «يقع خط جبهة الوحدة الأولى على ضفة النهر، وتنتشر الثانية على بعد نصف كيلومتر في الخلف. كلّ وحدة من هاتين الوحدتين منفصلة عن الأخرى، فإذا اكتشفت الدوريّات الإيرانية هذه الفجوة بوسعها أن تندفع مباشرةً عبر الفراغ بين الوحدتين».

سأل الملك: «كيف يمكن تصحيح مثل هذا الخطأ؟»

«لا أدري، لكنه يحتاج إلى تصحيح فوراً».

توجّه الملك حسين إلى رئيس المخابرات الأردنية وسأله باللغة العربية: «هل بوسعك أن تطير إلى بغداد وتطلع إخواننا على هذا الأمر؟»، لكن الملك أدرك فوراً أن لانغ يفهم اللغة العربية

فسأل في ارتباك إن كان بوسعهم أخذ الخريطة وإطلاع العراقيين على سوء تصرف جيشهم. أجاب لانغ: «سيدي، خريطتي هي خريطتكم». بعد ظهر ذلك اليوم وصل فريق من الضباط الأردنيين إلى بغداد ومعهم خريطة لانغ، وفي الوقت ذاته عاد لانغ إلى واشنطن، فحرّك العراقيون قواتهم لإغلاق الثغرة المعرّضة للهجوم على خط الجبهة.

في أوائل عام 1988 استأنف البيت الأبيض مساعدته للعراق بإيعاز من الأردن والكويت والمملكة العربية السعودية. ركّزت وكالة استخبارات الدفاع على مساعدة القوات الجوية العراقية. وأنشأ لانغ خلية مؤلفة من اثني عشر رجلاً، بينهم محلّلو صور الأقمار الصناعية وضباط سلاح الجو، بالقرب من مكتب المدير في مبنى وكالة استخبارات الدفاع في قاعدة بولينغ الجوية. وكان نائب لانغ، الرائد ريك فرانكونا، متخصصاً في القوات الجوية في الشرق الأوسط ويتكلّم اللغة العربية بطلاقة. الواقع أن فرانكونا أصبح صلة الوصل في العمل مع العراقيين. ركّز فريق لانغ على الأهداف القيادية الرئيسة وراء خطوط الجبهة الإيرانية التي إذا ما دُمِّرت فسوف يُحبط ذلك قدرة إيران على شنّ عمليات هجومية واسعة، وقد شملت تلك الأهداف مركز قيادة الفرقة والفيلق، ومستودعات الذخيرة والجسور والسكك الحديدية، وأحواض المراكب حيث يخزّن الحرس الثوري في رصيفها المراكب الصغيرة، ومعسكرات الجيش. لم يكن الإيرانيون يُقدّرون مدى أهمية سلاح الطيران الحديث، فهم يبنون بلا إتقان قواعد إمداد كبيرة ليست محمية بما فيه الكفاية من الهجمات ومعظمها مبنية في العراء، دون حماية كافية ولا يمكن الدفاع عنها من الغارات الجوية أو القصف المدفعي. إن تدمير هذه القواعد سوف يحبط أي هجوم إيراني قبل أن يبدأ. في غضون أيام وضع الفريق مجتمعاً عشرين هدفاً جملةً واحدة، وكان كل هدف يتضمن عدة أهداف فردية للعبور إلى بغداد. كانت الأهداف كلها مرسومة باليد بإتقان نقلاً عن صور الأقمار الصناعية، بالإضافة إلى خرائط لمواقع الأسلحة المضادة للطائرات الإيرانية القريبة[885].

بعد أن حصل كلٌّ من لانغ وفرانكونا على موافقة هيئة الأركان المشتركة في كلٍّ من الولايات المتحدة والعراق توجّها بالطائرة إلى الكويت ومن ثم براً إلى الحدود العراقية حيث كان الملحق العسكري الأميركي في بغداد العقيد ديفيد ليمون ورائد في المخابرات العراقية في استقبالهما. رحّب الرائد العراقي بهما ترحيباً حاراً قائلاً: «لدي أوامر باصطحابكما إلى أي مكان تريدان الذهاب إليه ونحن في طريقنا إلى بغداد». قرّر لانغ اختبار صدقه فقال: «حسناً، أريد أن أرى الخطوط الأمامية الإيرانية قرب البصرة».

توجّهت المجموعة مباشرةً إلى البصرة، وتوقفت على ضفة النهر قرب فندق شيراتون. تسلّق لانغ ساتراً ترابياً قريباً للحصول على رؤية أفضل، وتمكّن من رؤية الخنادق الإيرانية بوضوح على مسافة قريبة. بعد بضع دقائق اقترب الرائد العراقي منه قائلاً: «سيدي، لا بدّ أن الإيرانيين قد لمحوك الآن، لذا أقترح أن تنزل، إلا إن كنت تريد أن تموت هنا». كانت نصيحةً حكيمة، إذ ما إن انطلقوا بالسيارة حتى سقطت ست قذائف مدفعية إيرانية وانفجرت على مقربة من سيارتهم. جمد السائق العراقي مذعوراً وحملق بعينيه من الذهول ويداه متشبّثتان بالمقود بإحكام من الهلع. لكن العقيد ليمون استدرك الأمر فأمسك بالمقود وضغط بقدمه على دوّاسة الوقود، وابتعدوا

في الوقت المناسب تماماً، متجنّبين القذائف الست التالية. وصلوا إلى فندق الرشيد في بغداد، وتوجه كلٌّ من فرانكونا ولانغ مباشرةً إلى الحانة.

التقى لانغ وفرانكونا مجموعةً من الجنرالات والعقداء العراقيين وأطلعوهم على أهدافهم المقترحة، فشعر العراقيون بسعادةٍ غامرة مثلما توقّع لانغ. «لقد رحّبوا بنا مثل أخوة غائبين منذ زمنٍ طويل، أو مثل فرسان وصلوا لإنقاذ القلعة». قال لانغ لهم [للعراقيين]: «سنعطيكم هذه المجموعة من المعلومات الاستخباراتية، ويمكننا أن نقدّم لكم معلومات عن نتائج كل ضربة تقومون بها، ونخبركم ما إذا تمّ تدمير الهدف أم أنه يحتاج إلى توجيه ضربة أخرى، ولكن عليكم أنتم أن تقصفوا هذه الأهداف، فنحن لن نقوم بذلك نيابةً عنكم. ينبغي عليكم أن تدمّروها بأنفسكم»[886].

في اليوم التالي بدأت القوة الجوية العراقية بقصف أول عشرين موقعاً مستهدفاً، وفي الوقت نفسه كانت وكالة استخبارات الدفاع في واشنطن تتأمل الصور بعد كل ضربة لترى ما حققه العراقيون. على الرغم من القوة الجوية العراقية الكبيرة والحديثة، وعلى الرغم من قيام الولايات المتحدة الأميركية بتزويد العراقيين بإحداثيات دقيقة جداً لجملة من الأهداف الإيرانية، إلا أن الطيارين العراقيين كانوا مهتمين بالحفاظ على حياتهم أكثر من اهتمامهم بالفعالية العسكرية، وغالباً ما كانوا يسقطون قنابلهم من ارتفاعٍ عالٍ جداً أو لا يقتربون ببساطة من الهدف. وقد علّق ريتشارد أرميتاج في وقتٍ لاحق على أدائهم بازدراء صريح حيث قال: «لم يكونوا بارعين على الإطلاق». ولكن بفضل ما وفّرته لهم وكالة استخبارات الدفاع من معلومات استخبارتية متوالية، جدّد الطيارون العراقيون هجماتهم مرةً تلو المرة، وقصفوا الإيرانيين حتى تدمير الجسر أو معسكر القوات، مما أسفر عن مقتل مئات الجنود وإعاقة قدرة إيران على الشروع في أي هجوم واسع النطاق.

أقام لانغ وفرانكونا علاقات جيدة مع العراقيين، وتبادلوا الأفكار من أجل قصف نقاط عسكرية إيرانية جديدة. ومع انتهاء الحرب، في آب/أغسطس عام 1988، كانت القوات الجوية العراقية قد هاجمت ما مجموعه خمسة وثلاثين هدفاً مختلفاً زوّدتها الولايات المتحدة بإحداثيّاتها (أي الأهداف). لقد حقّقت الحرب الأميركية بالوكالة ضد إيران نجاحاً ملحوظاً.

لم يأذن وزير الدفاع للانغ بمساعدة الجيش العراقي، ولكن عندما طلب جنرال عراقي رأي لانغ العسكري لم يتردّد الأخير في الإدلاء به. كان لانغ مرةً ضيفاً على إحدى فرق الحرس الجمهوري العراقي أثناء زياراته العديدة لبغداد أو للجبهة، فوضع قائد عسكري عراقي رفيع المستوى خريطةً لخط الجبهة على الطاولة أمام عقيد الجيش وقال: «إننا نفكّر في شنّ هجوم على هذه النقطة فما رأيك في ذلك؟» فقدّم لانغ اقتراحات، مثل مهاجمة الإيرانيين من الجهة المكشوفة بدلاً من قصفهم وجاً لوجه. أخذ العراقيون بنصيحته، وعلى الرغم من أنها لم تحسم الحرب إلا أن الحرس الجمهوري العراقي حقّق سلسلةً من الانتصارات التكتيكية على الجيش الإيراني. أصبح كلٌّ من لانغ وفرانكونا مشهورَين في العراق ووُجِّهت إليهما الدعوة ليحلاّ ضيفَي شرف على فرقة النخبة وهي فرقة حمورابي التابعة لصدام.

كان صدام حسين مسروراً جداً بدعم الاستخبارات الأميركية، وكمكافأة لهم مكّن العراقيون ضباط المخابرات الأميركية من دراسة أحدث الدبابات والصواريخ السوفيتية ومعاينتها، ودُعي

فرانكونا للقيام بجولة في الخنادق الإيرانية التي تمّ الاستيلاء عليها حيث ظهرت أدلة على استخدام العراق للأسلحة الكيميائية من خلال حقن الأتروبينال متناثرة على الأرض التي استخدمها الإيرانيون اليائسون لتجنّب الآثار المروّعة لغاز الأعصاب. أعدّ محللو الجيش الأميركي تقريراً مفصّلاً عن قطعة مدفعية كُتب عليها تحذير استثنائي للغاية: «سري/غير مسموح للبلدان الأجنبية باستثناء العراق»[887]. تكريماً للولايات المتحدة أطلق صدام حسين على فرقة ميكانيكية جديدة في الحرس الجمهوري اسم «توكّلنا»، اختصاراً لعبارة «توكلنا على الله»، المرادف لشعار الولايات المتحدة «إننا نثق بالله». ولكن القوات الجوية الأميركية دمّرت هذه الفرقة بعد ثلاث سنوات خلال عملية عاصفة الصحراء.

زاد صدام الضغط على إيران بطريقته الوحشية المعتادة، حيث أمطر المدن الإيرانية بعشرات الصواريخ، وأطلق ما لا يقلّ عن مئتي صاروخ على طهران، بما في ذلك أحد عشر صاروخاً في يومٍ واحد. كان كل صاروخ يخلّف رقعةً من الدمار ويقتل أو يجرح العشرات من المدنيين، ومع انتهاء الحرب كانت هذه الهجمات قد قتلت أو جرحت اثني عشر ألفاً من المدنيين. أدّت عشوائية التدمير إلى تخويف السكان وترهيبهم، حيث أصابت ضربات صواريخ السكود غير الدقيقة المدارس والمباني السكنية والعمّال العائدين إلى منازلهم. تلقّى أحد الإيرانيين الذين يعيشون في الولايات المتحدة رسالةً تخبره أن السيدة العجوز اللطيفة التي تسكن في الشارع نفسه والتي كانت تعدّ الحلويات قد ماتت بعد أن أصاب منزلها صاروخ عراقي إصابةً مباشرة. ابتعد المدنيون عن وسط المدينة والمباني الحكومية، ونزح الناس جرّاء الخوف والفزع بصورة جماعية من المدن إلى الأرياف. في شهري نيسان/أبريل وأيار/مايو من العام 1988 بدأت الاحتجاجات على استمرار الحرب، وقد أدّى ذلك إلى وقوع صدامات بين الشرطة والطلاب الذين كانوا يرشقونهم بالحجارة. وقعت إحدى المظاهرات بعد سقوط صاروخ سكود على فندق مما أسفر عن مقتل أكثر من مئة شخص كانوا يشاركون في حفل زفاف. بدأ المتظاهرون ينتقدون الخميني نفسه، وكان ذلك سابقة حتى بعد ثماني سنوات من الحرب.

وصلت البارجة «يو أس أس فينسين» (USS Vincennes)، التي تُعدّ الأكثر تطوراً في البحرية الأميركية، إلى الخليج. بدأ العمل على هذه البارجة، التي تنتمي إلى فئة تيكونديروغا، قبل ثلاث سنوات وفاقت كلفتها المليار دولار، وبلغ عدد أفراد طاقمها نحو أربعمئة فرد، وهي مزوّدة بأسلحة حديثة، بما في ذلك مدافع عيار 5 بوصة ومجموعة من الصواريخ المضادة للسفن ومضادات جوية. تكمن قيمة فينسين الفعلية في رادارها، فهذه السفينة الحربية مجهّزة بأحدث نظام «ايجيس» (Aegis) فضلاً عن الرادار والأسلحة وجناح القيادة، مما يجعلها قادرة على تعقّب عشرات الأهداف الموجودة على سطح الماء أو في الجو في وقت واحد والاشتباك معها. في أوائل شهر أيلول/سبتمبر 1987، أرسلت وزارة الدفاع الأميركية هذه السفينة المتطورة إلى الخليج العربي من أجل مراقبة النشاط الإيراني في مضيق هرمز المزدحم. رفض رئيس العمليات البحرية، الأدميرال كارل تروست، إرسال تلك السفينة إلى الخليج، قائلاً لكولن باول: «لماذا تريد وضع الماس في زريبة خنازير؟»[888] ولكن واينبرغر عارضه قائلاً: «ما هي الحرب الأخرى التي سوف

تخوضها سفينةٌ كهذه؟» وأمر، هو وخلَفَه فرانك كارلوتشي، بإرسالها فوصلت إلى الخليج بعد شهر من اشتباكات «عملية فرس النبي»، أي في نيسان/أبريل.

كان قائد السفينة فينسين، القبطان وليام روجرز، لا يخشى الإبحار في الطرق المحفوفة بالخطر. عندما انتهت فترة تأجيل خدمته العسكرية في أواسط الستينيات انضمّ روجرز إلى البحرية، والتحق بمدرسة الضباط في نيوبورت، في ولاية رود آيلاند. كان في حياة هذا الرجل حبان عظيمان: زوجته والبحرية. كان روجرز يتميّز بالثقة بالنفس والعدوانية، وسعى لإثبات جدارة سفينته ونظام ايجيس (Aegis system) المتطور في القتال. عندما عرض الضباط العاملين على متن سفينة واينرايت أن يطلعوا طاقمه على الصور الجوية للخليج ردّد ضباط فينسين دفعةً واحدة: «نظام ايجيس سوف يبيّنها». تمركزت سفينة روجرز داخل الخليج إنما بعيداً عن هجمات الحرس الثوري، محافظةً بذلك على دورها المتمثّل في مراقبة مضيق هرمز، وعادت مهمة تعطيل هجمات الحرس الثوري ومرافقة القوافل إلى السفن والمدمّرات الأصغر حجماً. هذا الدور لم يناسب روجرز كثيراً وأراد القيام بدور أكثر فاعليةً في عمليات التعقّب العدوانية التي بدأها الأدميرال توني لِسّ، فوجّه العديد من الرسائل إلى ليس يحثّه على استخدام قوة البارجة فينسين ضد الإيرانيين كي «تخوض المخاطر التي صُنعت من أجلها»، مثلما قال في إحدى رسائله[889]. علّق الضابط البحري ديفيد كارلسون، قائد السفينة الحربية يو أس أس سايدس (USS Sides)، التي غالباً ما كانت تتواجد بالقرب من فينسين، على سلوك السفينة قائلاً: «أشعر أن كبح لجامها لفترة طويلة لا يلائمها»[890]. وسرعان ما راح البحارة في جميع أنحاء منطقة الخليج يطلقون على فينسين اسم «Robocruiser» تيّمناً بالفيلم الخيالي الذي حقّق شعبيةً كبيرة «روبوكوب» (Robocop)، حيث تقوم شخصية نصفها بشري ونصفها الآخر آلي بتنظيف شوارع المدينة من الجريمة التي تفشّت فيها.

في 29 نيسان/أبريل من العام 1988 أمر الرئيس ريغان القوات الأميركية بتوسيع عملية حماية السفن في الخليج، الأمر الذي غيّر، في الواقع، من قواعد الاشتباك في الخليج وبلبل العمليات القتالية، حيث بات بإمكان السفن الحربية الأميركية اتّخاذ أي إجراء ضروري لإحباط أي هجوم إيراني، بما في ذلك استخدام القوة القاتلة، ولكنها لا تستطيع الانتقام لهجوم حدث سابقاً، وصار لا بدّ من القبض على الإيرانيين بالجرم المشهود. خلال المؤتمر الصحفي الذي أعلن فيه عن التغيير في قواعد الاشتباك قال كارلوتشي في بيانه المحضّر مستبقاً أسئلة الصحفيين عمّا إذا كان هذا يشكّل توسيعاً لمهمة الولايات المتحدة أم انحرافاً عن حيادها: «لسنا رجال شرطة في منطقة الخليج، ولا نرغب في أن نكون كذلك». لكنّ الحقيقة كانت مختلفة بعض الشيء[891].

في شهر حزيران/يونيو زاد النشاط الإيراني العسكري مرةً أخرى في الخليج. فقد واصل العراقيون الضغط البري وتكثيف الهجمات الجوية على المنشآت النفطية الإيرانية وسفن الشحن في شمال الخليج العربي[892]. وكما هو متوقع، ردّ الإيرانيون بأن هاجموا سفن الشحن حول مضيق هرمز. عاد سلاح الجو الإيراني إلى الحياة، وتمّ نقل طائرتين أو ثلاث من نوع F-14 من قاعدة

بوشهر إلى مطار عسكري مدني مشترك في بندر عباس[893]. على الرغم من أن طائرة F-14 مصمّمة لتكون طائرة مقاتلة، أظهرت إيران أنها تميل إلى التحايل، وشعر قسم استخبارات «لِسّ» بالقلق من أن تكون إيران قادرة على تجهيز هذه الطائرات المقاتلة بحيث تكون قادرة على إسقاط القنابل[894]. في 2 تموز/يوليو حذّرت السفينة يو أس أس هالسي (USS Halsey) طائرتين إيرانيتين من الاقتراب منها، إذ كانتا تحلّقان بالقرب من مضيق هرمز ويحتمل أن تكونا عدائيتين[895].

في 2 تموز/يوليو، تلقّت السفينة يو أس أس إلمر مونتغمري (USS Elmer Montgomery) رسالة استغاثة من سفينة كاراما ميرسك الدنمركية (Karama Maersk) التي كانت تغادر شواطئ المملكة العربية السعودية. تحرّكت مونتغمري كي تتدخّل وفقاً لقواعد الاشتباك الجديدة التي وضعتها واشنطن، فرأت ما لا يقلّ عن ثلاثة زوارق للحرس الثوري تطلق النار على السفينة الدنمركية[896]، فأطلقت السفينة الأميركية عدة طلقات تحذيرية على الزوارق الإيرانية السريعة التي أوقفت هجومها فوراً.

صبيحة اليوم التالي اعترض العديد من أفراد الحرس الثوري مرةً أخرى سفينةً تجارية باكستانية، وعندما أُعلم «لِسّ» بالأمر وافق على السماح لمروحيات السفينة فينسين بالتحقق من الأمر، ولكن روجرز اتّخذ قرار تحريك سفينته ما يقارب الخمسين ميلاً إلى الشمال من موقعه للانضمام إلى السفينة مونتغمري. وعندما علم قائد الأسطول بذلك أمر روجرز بالعودة إلى موقعه جنوب جزيرة أبو موسى، ولكن المروحيات ظلّت تتعقّب مجموعةً من زوارق الحرس الثوري كانت متوقفةً قبالة جزيرة قشم داخل المياه الإقليمية الإيرانية، ومع تحليق طائرات الهليكوبتر التابعة لفينسين في السماء أطلق أحد زوارق الحرس الثوري نحو عشرة مخازن من الطلقات باتجاه المروحية - وهي طريقة مألوفة بالنسبة إلى الإيرانيين لتحذير المروحيات العسكرية أو المدنية بالابتعاد عندما تقترب منهم كثيراً.

اتّصل الطيار لاسلكياً بالسفينة قائلاً: «إننا نتعرض لإطلاق النار!»

بتوفّر ذريعة كهذه توجّه روجرز بسفينته ومونتغمري بسرعة تزيد على ثلاثين عقدة إلى الشمال حيث تتموضع الزوارق الإيرانية. بعمله هذا خالف روجرز القواعد المعمول بها القاضية بتجنّب منطقة الحظر الإيرانية، ودخل المياه الاقليمية الإيرانية، وهذه حقيقة سجّلها فريق تصوير المعارك العسكرية الذي صودف وجوده على متن السفينة فينسين[897].

عندما أطبقت السفينتان على القوارب الصغيرة الإيرانية استدار قاربان منها نحو السفن الحربية الأميركية المقتربة؛ أما بقية القوارب الأخرى فقد تصرّفت بطريقة غريبة، وفقاً لروجرز، وبدت كأنها تناور كي تهاجمه. طلب روجرز الإذن بفتح النار مدّعياً أنّ الإيرانيين يستعدون للهجوم وأنهم أطلقوا النار باتجاه طائرته المروحية. لم يكن «لِسّ» أو حتى قيادته على علم بوجود فينسين

في المياه الإقليمية الإيرانية، لكنهما وافقا على طلب إطلاق النار ظناً منهما أن السفينة تتعرض للهجوم.

كان قائد الحرس الثوري الإيراني في بندر عباس شاباً مشاكساً يدعى علي فدوي، وهو ذكي وحذر، مثل العديد من ضباط الحرس الثوري. كان طالباً وتحوّل بفعل الحرب إلى قائد عسكري، بعد أن ترقّى بوتيرة سريعة. ويُعدّ فدوي أحد المؤيدين المتحمّسين للثورة، وكان يعتقد أن الأسطول الإيراني الجديد المكون من قوارب صغيرة وسفن لزرع الألغام استراتيجية فعّالة للتعامل مع الأميركيين أكثر من السفن الكبيرة التابعة للبحرية النظامية. وبوصفه كبير قادة الحرس الثوري في بندر عباس، نظّم فدوي عدداً من الهجمات على سفن الشحن المتوجهة إلى دول الخليج العربي التي تدعم العراق أو المبحرة منها. بعد الهزيمة النكراء التي لحقت بالبحرية النظامية في نيسان/ أبريل، عقب الهجوم على السفينة روبرتس، ظلّ الأسطول المدفعي الصغير المكوّن من قوارب صغيرة وسريعة، التابع لفدوي، القوة الوحيدة القادرة على مواصلة حرب الناقلات. وقد عقَّد الموقف الأميركي العدواني الجديد عملياته، بحيث صار الحرس يتمركز عند حدود منطقة الحظر ويضرب بسرعة الناقلات العابرة قبل وصول الأميركيين. لكن الأميركيين انتقلوا الآن في لعبة القط والفأر إلى مستوى جديد ودخلوا المياه الإيرانية عازمين على القتال.

بعد أن حاصرت السفن الأميركية القوارب الايرانية، تقدّم أحدها ليستطلع السفينة فينسين؛ فمرّ على طول جانب السفينة الضخمة فيما طاقمه الصغير يجثم على أرضية المركب على كلا الجانبين يحدق بعضه في بعض. عندما تهيأت الزوارق الإيرانية الأخرى للانتشار، توجّه زورقان نحو السفن الحربية الأميركية. وصف روجرز هذا التصرف لقيادة «لِسّ» بأنه عمل عدائي، فحصل على إذن من القائد الأميركي نفسه للدفاع عن سفينته ضد هجوم لم يكن إلا من صنع خياله.

عند الساعة 9:43 صباحاً فتحت السفينتان الأميركيتان النار، وتردّد في المكان صدى القذائف التي أُطلقت على الزوارق الإيرانية التي كانت تناور وتطلق النار من رشاشاتها بصورة عشوائية باتجاه الأميركيين[898]. أطلقت السفينتان الأميركيتان ما يقارب مئة قذيفة، وأصابت العديد من الأهداف، فاشتعلت النار بزورقين سريعين للحرس الثوري وغرقا، في حين تضرّر ثالث جرّاء قذيفة وقعت على مقربة منه.

عند الساعة 9:47 أقلعت الرحلة 655 التابعة للخطوط الجوية الإيرانية (إيران اير) من بندر عباس متجهةً إلى دبي. كان محسن رضائيان يتولّى قيادة الايرباص A300 المطلية باللونين الأزرق والأبيض الخاصين بالخطوط الجوية الإيرانية. إنه طيار ذو خبرة، وقد اعتاد القيام بهذه الرحلة القصيرة التي تستغرق ثلاثين دقيقة، فهي رحلة منتظمة تُقلع كل أحد وثلاثاء[899]. في ذلك اليوم كان لدى أحد الركاب مشكلةً في التأشيرة مما أخّر رحلة طائرة إيران اير 655 سبعاً وعشرين دقيقة. بعد أن سمح برج المراقبة في بندر عباس للطائرة بالإقلاع، ونُصح الطيار بالتأكد من ضبط جهاز الاستقبال على الموجة 3، الأمر الذي يثبت أن طائرته طائرة مدنية، أقلع رضائيان باتجاه الجنوب الغربي في خط مستقيم إلى دبي، وبدأ يرتفع بالطائرة إلى أن وصل إلى أربعة عشر ألف قدم، بعيداً عن خط الوسط قرابة 3 إلى 4 أميال تقريباً، وفي ممر جوي عرضه عشرون ميلاً. لم

يكن القبطان يعلم ولا حتى برج مراقبة الحركة الجوية أن مسار رحلة الايرباص يمرّ مباشرةً فوق السفينة فينسين والصدامات الجارية في منطقة الخليج.

كشف رادار فينسين الطائرة التي أقلعت من بندر عباس. وكان البحّار العامل على الرادار قد تلقّى من قبل إشارة إلى وجود طائرة عسكرية (الوضعية 2) وأنها على الأرجح طائرة إيرانية من نوع F-14 جاثمة على أحد مدرجات بندر عباس. عندما أقلعت الايرباص الإيرانية أبقى البحار المؤشر عن طريق الخطأ على الطائرة في بندر عباس لا على الطائرة المُحلّقة فبقي المؤشر يشير إلى الطائرتين بوصفهما طائرة واحدة. وعندما بدأ نظام السفينة يتتبّع بثّ طائرة الايرباص المدنية، أخذ منسق الإحداثيات في السفينة الحربية الرائد البحري سكوت لوستنغ الإشارة الأولية على محمل الجدّ بما أن الطائرات العسكرية الإيرانية تستخدم نظامي البثّ العسكري والمدني في آن أثناء طيرانها. مع أن لوستنغ كان رجلاً ودوداً، وقد أحبه روجرز والصحفيون والإعلاميون الذين كانوا على متن السفينة، إلا أنه لم يشعر من قبل بضغط القتال، فكان ردّ فعله لافتاً تجاه ضغوط الحرب الجارية في الخليج. راجع الضابط الذي يعمل تحت إمرته الرحلات المدرجة فلم يعثر على أي رحلة في ذلك التوقيت، ولم يخطر له البتة أن الطائرات قد تحلّق في غير مواعيدها[900].

بتحرّكه شمالاً نحو المياه الإيرانية وضع روجرز سفينته مباشرةً في مسار تحليق الطائرة الإيرانية. أبلغ لوستنغ الكابتن روجرز، الذي تورّط في معركة من صنع خياله، أن طائرة F-14 قد أقلعت من بندر عباس وأنها متّجهة نحوهم مباشرة.

في تلك اللحظة علقت قذيفة في المدفع الأمامي على متن السفينة فينسين فأمر روجرز بإدارة السفينة حتى يتمكّن المدفع في مؤخرتها من ملاحقة أحد قوارب فدوي. مالت السفينة فينسين إلى الجانب الآخر فتطايرت الكتب وأكواب القهوة والأوراق عبر غرفة العمليات المظلمة حيث يجلس روجرز لتوجيه المعركة. كان الرجال يخوضون أول تجربة قتالية لهم في محيطٍ تعمّه الفوضى والتوتر، فلم تسر الأمور كلها بشكل جيد. ومع الاشتباكات الدائرة في البحر واحتمال اقتراب طائرة حربية من السفينة ومهاجمتها، أصبح لوستيغ شديد التوتر ومقتنعاً بأن الإيرانيين يشنّون هجوماً جوياً وبحرياً متزامناً.

رأى ديفيد كارلسون من على متن السفينة سايدس الطائرة نفسها وهي تقلع من بندر عباس. كان متمركزاً إلى شمال شرق فينسين، ورأى أنّ الرادارات تشير إلى طائرة من طراز F-14، وعندما لم تستجب لأي تحذيرات شفهية أمر كارلسون بإطلاق صاروخ نحوها، وهي إشارة تفسّرها أي طائرة قتالية على أنها تحذير، وعندما لم تغيّر الطائرة مسارها أو سرعتها، واستمرت في مسارها المستقيم وارتفاعها التدريجي دون أن ترسل أي إشارة إلكتروني تتميز بها طائرة الـ F-14، استنتج كارلسون أنها طائرة مدنية، لكنه، للأسف، لم ينقل البتة هذا الاستنتاج إلى روجرز، فقد ظنّ أن أنظمة فينسين الأكثر تطوراً ستُظهر ما لم تظهره أنظمته. لاحقاً، سيندم كارلسون على تردده.

ومع اقتراب طائرة الإيرباص الإيرانية من فينسين بسرعة 360 عقدة، ازدادت التحذيرات، ولكن لم يأتِ أيّ ردّ من الطائرة. سأل روجرز مجدداً عن الطائرة المجهولة الهوية، وذلك باستخدام الحاسوب للتقصّي عن رقمها، 4474.

قال ضابط صف كان يراقب الشاشة على متن السفينة: «الطائرة رقم 4474 تهبط. السرعة 450 عقدة». وكان هذا أيضاً خطأً فادحاً آخر ارتكبه طاقم السفينة فينسين، فأثناء تحديث صورة الرادار بواسطة نظام إيجيس (Aegis) أعاد الكمبيوتر تسمية طائرة الايرباص بالرقم TN 4131، نقلاً عن رادار السفينة يو أس أس سايدس. هذا الرقم غير المعروف لروجرز قام نظام إيجيس بإعطائه هو نفسه لطائرة أميركية كانت تهبط على حاملة طائرات متموضعة وسط خليج عمان. عندما طرح روجرز السؤال، أعطى ضابط الصف الجواب الصحيح، ولكن عن الطائرة الخطأ. من شأن أيّ نظرة سريعة على الرادار من قبل أي شخص في مركز المعلومات أن تظهر فوراً أن الطائرة المعنية مستمرة في الصعود، وأنها لم تسرع، ولم تظهر لديها أيّ أسلحة. لكن أحداً لم يهتم لذلك. اجتمعت مجموعة اتخاذ القرار في مركز القيادة المظلم وأجمع الجميع على أنها طائرة F-14 وأنها أقلعت من بندر عباس لمساندة الحرس الثوري وتتوجه الآن لمهاجمة السفينة فينسين.

كان رضائيان على متن طائرة ايرباص مشغولاً بالحديث إلى البرج في بندر عباس وبإعداد تقرير لتمرير الإحداثيات، وبالتعامل مع متطلبات قمرة القيادة أثناء هذه الرحلة القصيرة. وحتى لو رصد جهازه اللاسلكي تحذير فينسين لما أدرك أن التحذير موجّه إليه هو.

على بعد عشرة أميال، ومع تعاظم ذعر لوستنغ، اضطر روجرز لاتخاذ قرار، فالطائرة لا تستجيب للتحذيرات المتكررة[901]. بعد أن افتعل النقيب روجرز المعركة مع الزوارق السريعة، وجد نفسه الآن متورطاً في مواجهة أكبر مما توقّع. قرابة الساعة 9:54، أي بعد أقل من عشر دقائق على إطلاق أولى قذائفه على زوارق فدوي، مدّ روجرز يده إلى الزر فوق رأسه وأعطى الإذن بإطلاق النار، فومض ضوء على منصة إطلاق الصواريخ الواقعة وراء روجرز.

سأل المسؤول عن إطلاق الصواريخ: «هل هذا أمر بإطلاق النار على TN 4131؟»

قال أحد الضباط: «نعم».

فانطلق صاروخان، مخلّفَين وراءهما ذيلاً من الدخان الأبيض فيما هما يتّجهان نحو الطائرة. أصاب أحدهما جناح طائرة الايرباص الإيرانية والثاني ذيلها، فتحطّمت الطائرة وتناثرت بحيث جرّدت قوة الهواء الركاب من ملابسهم وأسقطت جثثهم العارية كالمطر في مياه الخليج العربي الزرقاء. لقي 290 راكباً مصرعهم على متن الطائرة 655 التابعة للخطوط الجوية الإيرانية.

«إصابة مباشرة! مميتة!» صاح أحد البحارة من على متن فينسين وهو ينظر إلى الرادار. هتف أفراد الطاقم ابتهاجاً قبل أن يطلب منهم الضابط المراقب أن يهدأوا. سرعان ما بدأ مطار دبي

يستفسر عن الطائرة المتأخرة، ولاحظ روجرز أن المروحيات الإيرانية وحتى قوارب فدوي الصغيرة ابتعدت واتجهت في مهمة إنقاذ إلى حيث سقطت الطائرة.

وفقاً للمعلومات التي قدّمها لوستنغ وضباطه، اتّخذ روجرز القرار الصحيح بشأن إطلاق النار، فقد تمّ إعلامه بأن طائرةً عسكرية إيرانية تقترب من سفينته، علماً أنّ أفعاله هي التي أدّت إلى الوضع الراهن حيث لم يكن أمامه أيّ خيار أو وقت لإعادة تقييم وضع الطائرة التي تقترب منه. ومع ذلك ظلّ النقيب روجرز هادئاً، وفي رسالة أرسلها إلى القيادة من على متن سفينته بعد الحادث، قال: «احترق اثنان والبقية غيّرت اتجاهها. تعمل فينسين في بيئتها الطبيعية». كان تعبيراً متبجّحاً على نحو غريب بالنظر إلى ما حدث للتو.

رصّت البحرية والحكومة الأميركية صفوفها وساندت روجرز والسفينة فينسين. كان مبدأ الأدميرال كرو هو دعم القائد الذي يلتزم قواعد الاشتباك ولم يتعرّض لضربة مباغتة كما حدث مع ستارك، وقد أوضح وجهة نظره هذه في مقابلة حيث قال: «من المهم أن يعرف القادة أننا سوف ندعمهم إذا استخدموا القوة للدفاع عن سفنهم»[902]. وفي مؤتمر صحفي بعد الحادث قال كرو إن السفينة فينسين كانت في المياه الدولية طوال الوقت - تشبّثت الولايات المتحدة بالكذب إلى أن كشفت الحقيقة مقالة نشرتها مجلة نيوزويك في العام 1992. وصف التحقيق الرسمي الذي أجراه الأدميرال وليام فوغارتي تفاصيل ما حدث على نحوٍ دقيق، ولكن الحكومة الأميركية نقّحت بعناية التفاصيل الرئيسة التي أظهرت أن السفينة فينسين انتهكت الأوامر المعمول بها وافتعلت المعركة. لم يقدّم التحقيق أي توصيات باتخاذ إجراءات تأديبية ضد أي شخص على متن فينسين وخلص إلى ما يلي: «بناءً على المعلومات التي بنى عليها [الضابط القائد] قراره، والمهلة الزمنية القصيرة المتاحة له كي يتخذ قراره، وقناعته الشخصية بأن السفينة فينسين ويو أس أس مونتغمري تتعرضان للتهديد، فإنه قد تصرّف بحكمة»[903]. ففي غمرة القتال، والوقت القصير المتاح لاتخاذ القرارات، ثمة أخطاء تُرتكب، إنما من دون خبث أو حقد. كانت المأساة نتيجة لتشويشات الحرب.

منحت البحرية الأميركية الأوسمة، ونال القائد روجرز وسام استحقاق الفيلق، وهي جائزة رفيعة المستوى تُمنح عادةً للقائد عقب قيادته الناجحة، لا لشخص مسؤول عن وفاة 290 شخصاً بريئاً [كما جرى مع روجرز الذي أخطأ بحكمه وأطلق صاروخاً على طائرة مدنية إيرانية][904]. كما مُنح لوستنغ وساماً مشابهاً وتمّت ترقيته.

لكن وجهة نظر كارلسون، قائد سايدس، بشأن الأحداث مختلفة عن التحقيق الرسمي، ومفادها: «كانت قوارب الحرس الثوري الإيراني مصدر إزعاج، وسنحت الفرصة لفينسين لتوجيه ضربة فضغطت بشدة على قائد قوات الشرق الأوسط كي تحصل على الإذن بإطلاق النار، وخرج الأمر عن السيطرة: أخفقت المعدات، وخيّم ضباب الحرب»[905].

رفعت إيران شكوى إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة حيث ألقى وزير الخارجية الإيراني، علي أكبر ولايتي، خطاباً مؤثراً أبرز فيه نسخاً عن سجلّ رحلة الطائرة تؤكّد أن الطائرة

مدنية. وفي حين وافق الوفد الأميركي، الذي رئسه نائب الرئيس جورج بوش الأب، على دفع تعويضات لأسر الضحايا، إلا أنه اتّهم إيران بأنها المذنب الحقيقي في هذه المأساة. وبدأ بوش دفاعاً قوياً أمام الهيئة الدولية، اشتمل على أنصاف حقائق وتعتيم وتضمّن تأكيداً على أن الإيرباص الإيرانية قد انحرفت عن مسار رحلتها - الحقيقة أنّ الطائرة كانت ضمن المسار الجوي المحدّد لها[906]. رفضت الأمم المتحدة إدانة التصرفات الأميركية. بل حتى في العالم الإسلامي كانت تداعيات هذا الحادث ضئيلة. وحدها سوريا دعمت إيران علناً. كانت الجمهورية الإسلامية معزولة إلى حدّ أن مقتل 290 مدنياً أخفق في إثارة مشاعر المجتمع الدولي.

في 12 تموز/يوليو، شنّت قوات الحرس الجمهوري العراقي وفرقة المشاة الرابعة هجوماً على طول جبهة تمتد ثمانين ميلاً وقضت في خمس ساعات على كل المعارضة المتبقّية في الجنوب، وواصلت هذه القوات تقدّمها وتوغّلت نحو أربعين ميلاً داخل إيران[907]. كانت المعلومات الاستخباراتية التي قدّمتها وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة استخبارات الدفاع مفتاح النصر العراقي. كما وقللت المساعدة التي قدمتها الاستخبارات الأميركية من فرص الحرس الثوري الإيراني في تحقيق أي تقدّم. قال بات لانغ: «لقد تعززت ثقة الجيش العراقي بنفسه». على أيّ حال، يبقى احتمال هزيمة صدام حسين أمراً قابلاً للنقاش، ولكن مساعدة الاستخبارات الأميركية قلّلت إلى حدٍّ كبير من فرص حصول أيّ خرق إيراني. سمحت توجيهات وكالة استخبارات الدفاع للقوات الجوية العراقية بضرب الركائز الأساسية التي يقوم عليها الجيش الإيراني. كما تحولت القوات الجوية العراقية إلى آلة قتل بفضل تدفق المعلومات الاستخباراتية المستمر وتحليلها وتقييمها من قبل فريق لانغ.

رأى القادة الإيرانيون أن الهدف من إسقاط طائرة الايرباص الإيرانية هو إرسال رسالة لإنهاء الحرب، فبدأت مناقشات جادة حول إنهاء الحرب خشية أن تتخذ الولايات المتحدة إجراءات أكثر تشدّداً ضد إيران. وبعد مرور أيام قليلة على حادث الطائرة التابعة للخطوط الجوية الإيرانية جرى لقاء سري بين آية الله الخميني ورئيس البرلمان رفسنجاني ورئيس الوزراء موسوي وقائد الحرس الثوري محسن رضائي. أعلن رضائي أن الحرس الثوري قادر على مواصلة القتال سنوات، ولكن الآخرين كانت لهم نظرة مختلفة إلى الأمور فأقنعوا زعيم إيران الروحي أن الخيار هو «بين إنهاء الحرب الآن أو مواصلتها ومواجهة انهيار الجمهورية الإسلامية»[908]، وأضافوا أن النظام الإيراني معزول ويواجه تحالفاً أميركياً عراقياً سيسعى جاهداً لهزيمة إيران، بما في ذلك استخدام الأسلحة الكيميائية وقتل المدنيين العزل، وأنهم لا قدرة لديهم على إعادة ما خسروه في ساحة المعركة، وأن الاقتصاد الإيراني في حالة من الفوضى، كما أن بقاء النظام كان على المحكّ. كانت الصواريخ العراقية تنهمر كالمطر على طهران ما خلق حالةً من الهلع في الشوارع. كما أن إيران كانت تفتقر إلى القدرات الصاروخية التي يمتلكها العراق، وكانت عاجزة عن الرد. وخرجت تظاهرات كبيرة في المدن الرئيسة في جميع أنحاء البلاد. رأى الخميني أن ما من خيار آخر أمامه سوى قبول قرار مجلس الأمن ذي الرقم 598 وإنهاء الحرب مع العراق. وقع الهجوم الرسمي

الأخير ضد سفينة متجهة إلى الكويت في 15 تموز/يوليو، حيث هاجم زورقان حربيان إيرانيان سفينة «سي فيكتوري» (Sea Victory) المسجّلة في ليبريا بقذائف الهاون[909].

في 20 تموز/يوليو، في بيان بثّته إذاعة طهران، قال آية الله الخميني أنه اتّخذ شخصياً هذا القرار الصعب وهو القبول بقرار الأمم المتحدة ذي الرقم 598 وإنهاء الحرب مع العراق، التي استمرت ثماني سنوات، وقال إنّ هذا القرار «أمرّ من تناول السم»[910]. جاء بيان آية الله بعد رسالة وجّهها الرئيس الإيراني السيد علي خامنئي في 18 تموز/يوليو إلى الأمم المتحدة قال فيها إن الحرب ضد العراق «قد اتّسع نطاقها الآن وتورّطت فيها بلدان أخرى، بل وقضت على الكثير من المدنيين الأبرياء»[911]. وتابع الخميني قائلاً إنّ إسقاط طائرة الايرباص الإيرانية دفع إيران إلى قبول وقف إطلاق النار، حقناً لدماء المدنيين الإيرانيين الذين عانوا على أيدي أعداء الثورة. دخل وقف إطلاق النار حيّز التنفيذ في 20 آب/ أغسطس، وأصبح الخليج هادئاً للمرة الأولى منذ نحو ثماني سنوات.

في يوم عاصف من شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1988، انتقلت رئاسة القيادة المركزية من الجنرال جورج كريست إلى الجنرال في الجيش نورمان شوارزكوف. كان القائد الجديد ضخماً وضابطاً مهيباً ذا طبع انفعالي لكنه كان يتمتع بكفاءة عالية في التخطيط العسكري، كما أنه محارب قديم. حالما أصبح وقف إطلاق النار ملزماً بدأت الولايات المتحدة سحب قواتها، وفي 11 أيلول/ سبتمبر غادرت السفينة فينسين دونما جلبة ودون أن تحلّ محلّها سفينة أخرى. بعد ثمانية أيام انتهت عملية «إيغر غلاسيه» السرية وأعيدت طائرات وكالة الاستخبارات المركزية المتمركزة في الظهران إلى الولايات المتحدة[912]. فكّرت المملكة العربية السعودية في وضع يدها على القاعدتين البحريتين المتنقّلتين لكنها تراجعت عن ذلك بانتهاء الحرب. في 11 تموز/يوليو 1989 وافق وزير الدفاع على إزاحة السفينة هرقل، وتمّ سحبها إلى البحرين، حيث فكّك البحارة المعدّات الأميركية ونقلوها إلى السفينتين براون وروت. أرادت القيادة المركزية الأميركية مقاومة رغبتها في سحب القوات الأميركية بسرعة، وهي خطوة قد تقلق دول الخليج حيال التزام الولايات المتحدة تجاه المنطقة[913]. في 2 تشرين الأول/ أكتوبر 1989 وقّع الرئيس جورج بوش الأب قراراً إدارياً يتعلق بالأمن القومي ويحمل الرقم 26. وقد أشار هذا القرار الرئاسي إلى أن الخليج العربي منطقة حيوية للمصالح القومية للولايات المتحدة، وأعلن أن الولايات المتحدة قد حقّقت «مستوىً غير مسبوق» من التعاون مع دول الخليج منذ أن بدأت العملية، وينبغي توسيع هذا التعاون من خلال مواصلة المناورات العسكرية المشتركة والتخطيط والترتيبات لإعادة توزيع معدات الولايات المتحدة في المنطقة. وبما أن إنهاء عملية «إرنست ويل» بشكل فوري قد يهدّد هذا النفوذ الجديد، أصدر بوش توجيهات تقضي بإجراء مراجعة مشتركة بين الوكالات وأخذ المعلومات السياسية والعسكرية الواردة من وكالات الاستخبارات بعين الاعتبار قبل إجراء أي تغيير في القوات في الخليج.

في كانون الأول/ديسمبر عُيّن الجنرال كولن باول رئيساً جديداً لهيئة الأركان المشتركة، فأمر بإجراء مراجعة لهيكلية القوات الأميركية وبمواصلة عملية «إرنست ويل». دعا باول إلى توخي الحذر، وقد شعر بالقلق إزاء فكرة تراجع الالتزام الأميركي إزاء الخليج. ولكن هيئة الأركان المشتركة اقترحت أن تقتصر قوات الولايات المتحدة على قوة أساسية تتألف من بارجة وخمس سفن مقاتلة، أو سفينة حربية واحدة بحيث يعود الوضع إلى ما قبل عملية «ارنست ويل». عارض شوارزكوف بشدة هذه الأرقام ولفت إلى أن الكويت مازالت تزوّد البحرية الأميركية بالوقود المجاني بقيمة 6 ملايين دولار كل شهر، وهي مكافأة ستنتهي بانتهاء مهمة الأسطول، وقال إن الولايات المتحدة تستفيد في الواقع من خلال الاستمرار في الترتيبات الحالية، وأنها «العملية العسكرية الوحيدة في العالم التي ربحها صافٍ»[914].

مع ذلك، قدّم شوارزكوف أخيراً تنازلات خلال محادثاته مع باول قائلاً إن بوسعه أن يتدبّر أمره مع خمس مقاتلات. قبل وزير الدفاع ريتشارد تشيني توصية باول بخفض عديد القوات في الخليج. وفي شهر نيسان/أبريل 1990 عادت أخيراً آخر كاسحة ألغام كانت في الخليج من أجل مرافقة القوافل، بعد مرور ما يقارب الثلاث سنوات على رحلتها الشاقة إلى الخليج العربي. لكنها سوف تعود إلى الخليج بعد أربعة أشهر تقريباً، عندما تسبّب صدام حسين، حليف أميركا السابق، بأزمة جديدة أخرى تتمحور حول الكويت.

تحوّل الفصل الأخير من مسلسل ريغان الإيراني إلى واحدة من أكبر الكوارث في تاريخ الاستخبارات الأميركية. قرابة العام 1985، وصل مدير جديد ليدير وحدة «طهفران» (Tehfran) السرية للتجسّس اسمه ستيفان ريختر. تخرّج ريختر، النحيل ذو الشعر الداكن والمولود في واشنطن العاصمة، من الأكاديمية البحرية عام 1963. كُتب تحت صورته في كتاب المدرسة السنوي، الذي يُسمّى «الحقيبة المحظوظة» (Lucky Bag)، أنه «يعتبر نفسه أفضل من يغنّي في الحمّام على الصعيد العالمي». التحق بالخدمة السرية في وكالة الاستخبارات المركزية بعد عمله في البحرية لكنه استمر في ارتداء لباس الأكاديمية البحرية بفخرٍ شديد.

اتّفق ريختر ورئيسه توم تويتن أن مبرّر وجود «الزورق BQ» قد زال، لذا لا حاجة لبقاء حوالى عشرين رجلاً للقيام بعمليات تخريب وهجمات ضد الجيش الأحمر المتعثّر في أفغانستان. ولكن استمرار العملية، على ما يبدو، مرتبط بالدفوعات الثابتة من وزارة الدفاع أكثر منه بأي حاجة عملية. وكان سلف ريختر في «طهفران» قد طرح فكرة تحويل «أفراد الزورق» إلى جواسيس عاديين. على الرغم من أن الغرض من تجنيدهم كان القيام بعمليات شبه عسكرية، وأنهم لم يتموضعوا أو يتدربوا من أجل التجسس، إلا أن ريختر عرض الفكرة بموافقة تويتن. ولم يثر الأمر أي تخوّفات عند المسؤولين الأرفع رتبة.

قال جاك ديفين الضابط المتقاعد من مكتب الشؤون الإيرانية في وكالة الاستخبارات المركزية: «لم تكن حكومة الولايات المتحدة جادة يوماً بخصوص هذا الموضوع. ثمة أرواح على المحك والحكومة لم تلتزم فعلياً بالعملية، وهذا قد يعرّض الناس للقتل».

في هذه المرحلة فاقم قرار دمج أفراد «زورق BQ» مع الجواسيس الآخرين من كارثة وكالة الاستخبارات المركزية. كانت كافة الاتصالات مع العملاء الإيرانيين، بمن فيهم طاقم الزورق، تتم عبر مكتب صندوق بريد في فرانكفورت، ويعود السبب في ذلك إما إلى الكسل وإما إلى عدم الكفاءة، لكن كان من الأسهل استخدام عنوان قريب من «طهفران» بدلاً من مجموعة متنوعة من العناوين المختلفة التي تتطلب موظفاً يسافر لإحضار الرسائل. وزاد الطين بلّة أنّ شخصاً واحداً كان يكتب الرسائل إلى هؤلاء العملاء الأميركيين في إيران وكانت الرسائل مكتوبة بالإنجليزية لا بالفارسية. في إحدى المرات، أُرسلت جميع الرسائل إلى نحو عشرين عميلاً في وقتٍ واحد، كلها من فرانكفورت، وبالخط نفسه، مع عنوان الإرجاع نفسه في فرانكفورت[915].

كانت السلطات الإيرانية على علم بعمل «الزورق BQ»، فقبل بضع سنوات أبلغ أحد المجنّدين لدى وكالة الاستخبارات المركزية المسؤولين الأمنيين الإيرانيين عن اتّصالات ضباط الاستخبارات الأميركية.

تنبّه العملاء الإيرانيون إلى التجنيد الفاشل فوظّفوا عدداً لا يعدّ ولا يحصى من العاملين لفحص البريد الوارد بعناية فائقة. ما كان بإمكانهم أن يغفلوا عن عدد الرسائل غير الاعتيادي المرسلة من فرانكفورت، وبعضها موجّه على الأرجح إلى عملاء «الزورق BQ»[916].

في العام 1987 تنبّه ستيفن ريختر للأمر، وعلى الفور أمر رضا خليلي وغيره من العملاء باستخدام عناوين مختلفة في دول أخرى. ولكن الضرر كان قد حدث بالفعل، فمع توجيه الرسائل إلى فرانكفورت وحدها ودمج عمليات BQ تمكّنت الاستخبارات الإيرانية من كشف شبكة التجسس الأميركية برمّتها داخل إيران.

أثارت تصرفات القائد توراج رياحي الشكوك حوله أيضاً. كما أنّ سفر ابنه إلى الولايات المتحدة زاد من اهتمام وزارة الاستخبارات به. أما هل كان على علم بذلك أم لا، فهذا ظلّ مجهولاً، إلا أنه قام بمخاطرة هائلة في العام 1987 عندما سافر مع زوجته وابنته لزيارة ابنه في هونولولو. فقد التقى رياحي خلال تلك العطلة، على ما يبدو، مع مُشغّليه من وكالة الاستخبارات المركزية لتقديم المعلومات. كما وقام بزيارة لا تنسى إلى ميناء «بيرل هاربور». في صورةٍ له في ذلك اليوم، كان توراج رياحي يبتسم وهو يمسك بابنته الحبيبة ويظهر من خلفه النصب التذكاري الناصع البياض للسفينة «يو إس إس أريزونا» (USS Arizona) تحت السماء الزرقاء. في الحقيقة لم يغب عن انتباه الذين يرصدون تحركات رياحي في طهران أن ميناء بيرل هاربور يؤوي الأسطول الأميركي الذي يواجه البحرية الإيرانية التي يتولّى قيادتها رياحي في شبه حرب للسيطرة على الخليج العربي.

كانت وزارة الاستخبارات الإيرانية تستعد للتحرّك قبل سنة من ذلك، لكنها أجّلت ذلك على أمل اصطياد جائزة أكبر: ضابط في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية يعمل تحت غطاء غير

رسمي، أو أي عميل سري لا غطاء له. في أواخر عام 1987 قرأت الاستخبارات الإيرانية رسالة من «طهفران» إلى أحد العملاء الإيرانيين جاء فيها أنه سيكون هناك «نظام اتصالات جديد لإيران»، وعلى الرغم من أن الرسالة كانت غامضة إلا أنّ الإيرانيين استنتجوا أنها موجّهة إلى عميل سري لوكالة الاستخبارات المركزية، وأملوا في القبض على هذا الجاسوس الأميركي الثمين للغاية. اعتقد ضباط مكافحة التجسس الإيرانيون أن العميل السري سيصل تحت غطاء رجل أعمال أجنبي. في الواقع، يقضي العديد من العملاء السريين حياتهم المهنية بأكملها في وكالة الاستخبارات المركزية متظاهرين بأنهم مواطنون عاديون، ولا يزورن مقر وكالة الاستخبارات المركزية أبداً ولا يظهر أيّ ارتباط لهم بحكومة الولايات المتحدة. إنها مهمة تنطوي على المخاطرة، فالعملاء السريون يفتقرون إلى الحصانة الدبلوماسية، ويعملون من دون غطاء من السفارة يحميهم، وإذا قُبض عليهم فقد يواجهون عقوبة الإعدام[917]. ومع ذلك لم يصل العميل السري مطلقاً، فبعد اعتقالات أفراد «الزورق BQ» استنتجت وكالة الاستخبارات المركزية أن السفر إلى طهران محفوف بالمخاطر[918].

في العام 1988، أراد فريق تدخّل ايراني استهداف ضباط من وكالة الاستخبارات المركزية يقومون بعمليات تجنيد في اسطنبول. ولإجبارهم على الظهور ارتدى فيليب جيرالدي سترةً واقية من الرصاص، وخرج من باب القنصلية الأمامي، وتجاوز الإيرانيين الذين يحتشدون كالعادة حول المدخل في انتظار الحصول على تأشيرات سفر، ثم سار في الشارع، وفي إثره ثلاثة أفراد من فرق المراقبة التركية. خرج رجلان إيرانيان من بين الحشد وتبعاه، وبعد مسافةٍ قصيرة انقضّ عليهما الأتراك شاهرين أسلحتهم، فطرحوهما أرضاً واستولوا على مسدس مخبّأ مع أحد العميلين التابعين لوزارة الاستخبارات الإيرانية[919].

في أيلول/سبتمبر من العام 1988 باشر جهاز المخابرات الإيرانية الهجوم. كانت ملاحقة عملاء «الزورق BQ» السابقين هي الأسهل، فقد كان العديد منهم من الفلاحين البسطاء، ويكفي أن يوضعوا في زنزانة مظلمة مع محققين مخيفين حتى يعترفوا بكل شيء. وعندما يعترف أحدهم ستتمكن وزارة الاستخبارات سريعاً من كشف الفريق بأكمله. وعندما يفشل الإكراه يتم تثبيتهم إلى سرير ويعمدون إلى ضربهم على باطن أقدامهم بقضيب معدني. ومن شأن الحجز لأشهر في زنزانة انفرادية مظلمة، لا يقطع رتابتها سوى الضرب والتخويف بالإغراق والصدمات الكهربائية، أن يُطلق ألسنة أولئك الذين يرفضون إفشاء المعلومات التي بحوزتهم[920].

في شباط/فبراير من العام 1989 أرادت ابنة رياحي البالغة من العمر ثماني سنوات، بعد عودتها من المدرسة، مشاهدة فيلم سندريلا المفضل لديها، لكنها اكتشفت أن شريط الفيديو محطّم مما جعلها تبكي عند عودة والدتها من السوق. في تلك اللحظة طرق أربعة رجال، ذوي ملامح جدية الباب الخارجي، طالبين الدخول، وبدأوا تفتيش المنزل بشكل دقيق بينما كانت زوجة رياحي وابنتها تنتظران بتوتر في غرفة المعيشة.

وصل رياحي بعد بضع ساعات إلى المنزل متعباً بعد أن قضى ساعة في الحافلة في طريق عودته من مكتبه، فاستقبله ضابطان من ضباط الأمن وأمراه بمرافقتهما بهدوء. وفيما راحت زوجته تبكي قبّل رياحي ابنته وودّعها على عجل قبل أن يوضع في المقعد الخلفي لسيارة من دون نمرة ويبتعد.

وفي 21 نيسان/أبريل من العام 1989 كشفت إيران أخيراً شبكة تجسّس عندما أعلن هاشمي رفسنجاني، رئيس البرلمان الإيراني والرئيس المستقبلي لإيران، في خطبة يوم الجمعة أن «العديد من أوكار التجسس قد كُشفت». وتوقف عن الكلام مراراً وتكراراً بعد أن قاطعته صيحات الحشد الكبير الذي راح يهتف: «الإعدام لجواسيس أميركا!»

فردّ عليهم رفسنجاني: «سيتمّ تطبيق شرع الله!»[921].

في 26 نيسان/أبريل، عقد وزير الإعلام مؤتمراً صحفياً باح فيه بأسماء ستة عشر رجلاً موقوفاً، من بينهم النقيب رياحي والعقيد مسعود بابايي من القوات الجوية، مشيراً إلى أن وكالة الاستخبارات المركزية قد جنّدت «مرتزقة» من أولئك الذين يسعون للحصول على تأشيرات سفر إلى أميركا، ووصف هذا الأسلوب بالشيطاني، حيث يتمّ استغلال مواطن الضعف في الإنسان لإجباره على الخيانة[922]. وفي الأشهر القليلة التالية تحدّثت الأنباء الإيرانية عن اعتقال أربعين رجلاً، عُرض بعضٌ منهم أمام الكاميرات في مؤتمرات صحفية يومية حيث اعترفوا بجرائمهم. وعندما سُئل الناطق باسم البيت الأبيض عن هذه المزاعم نفى أي معرفة له بها.

لم تعلم لانغلي بانفضاح شبكة التجسس إلا عن طريق تصريح إيران العلني. وأشار فيليب جيرالدي الذي كان قد غادر عمليات إيران ليعمل في مكافحة الإرهاب أنه علم بالأمر لأول مرة بعد أن قرأه في صحيفة «انترناشونال هيرالد تريبيون»، وقد اقتحم مكتب ريختر مطالباً بمعرفة ما حدث، لكن ريختر لم يجبه. بدأت الأرامل أو اللواتي سيصبحن قريباً أرامل من زوجات الجواسيس يصلن فجأةً إلى القنصلية الأميركية في اسطنبول والسفارة في أنقرة طلباً للمساعدة. اندفع نائب الرئيس الجديد في «طهفران» (Tehfran) غاري شرون (الذي سيلعب دوراً مهمّاً في عمليات وكالة الاستخبارات المركزية شبه العسكرية في أفغانستان بعد 11 أيلول/سبتمبر) وراوول غرشت لتأمين تأشيرات سفر أميركية للنساء وأطفالهن. وقد نُقلت زوجة النقيب رياحي وابنته من طهران إلى اسطنبول، ومن ثم إلى فيينا فالولايات المتحدة حيث عملت وكالة الاستخبارات المركزية على أن تستقرا هناك.

بعد ذلك بشهر، أي في أيار/مايو 1989، بدأ التلفزيون الحكومي الإيراني بثّ مسلسل من أربعة حلقات حول شبكة تجسس وكالة الاستخبارات المركزية باسم «سري للغاية». كان المسلسل مؤلفاً من جزئين: أحدهما وثائقي والآخر دعائي، وقد تضمّن الجزء الوثائقي تفاصيل درامية محيّرة عن تاريخ تدخل وكالة الاستخبارات المركزية الطويل في البلاد ورغبة أميركا في إطاحة النظام الإسلامي. جذب هذا الوثائقي نسبة مشاهدة عالية وشمل عرض مقابلات مع المعتقلين، واصفاً

تدريبهم واستخدامهم الحبر السري للتواصل مع مشغّليهم من الأميركيين. تضمّنت إحدى الحلقات اعترافات رجل أعمال بريطاني هو روجر كوبر، الذي اعتقل في العام 1985 واتُّهم بالتجسس لصالح الحكومة البريطانية، حيث حُكم عليه بالإعدام بالإضافة إلى عشر سنوات سجن[923]. حذّر المسلسل الإيرانيين مراراً من الوقوع في فخ أكاذيب وكالة الاستخبارات المركزية، وقال المعلّق: «إن الوعود الوحيدة التي يحققها الجواسيس ووكالات الاستخبارات لعملائهم ومصادر معلوماتهم هي خيانة النفس وخيانة الوطن والندم والحزن والأسى»[924].

بالنسبة إلى زوجة توراج رياحي وأسرته، لم يكن هذا برنامجاً تلفزيونياً بل مأساة حقيقية تتكشّف. أبقى محتجزو رياحي هذا الرجل في زنزانة معزولة في سجن «أفين» سيئ السمعة في طهران. كان هذا السجن في الماضي منشأةً صغيرة يديرها جهاز «السافاك» في عهد الشاه، لكنه كان يضمّ الآن آلاف السجناء السياسيين من اليساريين والانفصاليين والموالين للعراق. وقد قُتل العديد منهم في حملة إعدامات أمر بتنفيذها آية الله الخميني في شهر تموز/يوليو. عمد المحققون مع رياحي إلى استخدام الحرمان من النوم والضرب في بعض الأحيان على الوجه والجسم، ليعرفوا طبيعة المعلومات التي نقلها إلى الأميركيين ولإجباره على الإقرار بجرائمه علناً.

لكن رياحي أثبت أنه رجل صلب وعصيّ على الكسر، فعلى الرغم من اعترافه بإفشاء خطط الحرب للأميركيين، إلا أنه رفض الإقرار بخيانته. وقد جرت محاكمته أمام محكمة حرب عسكرية خاصة، وسجّلت السلطات الإيرانية المحاكمة على شريط فيديو. نفى رياحي مراراً أثناء وقوفه في قفص الاتّهام أن يكون خائناً لبلده قائلاً: «ما زلت مخلصاً لإيران»، وهذا يعني ضمناً أن الحكومة الإسلامية الحالية ليست كذلك. لم تُبثّ شهادته على شاشات التلفزة الإيرانية، وهذا ليس بمستغرب.

سمح الحراس لعائلته بزيارته مرات عدة. في إحدى المرات أملت زوجته وأقاربه أن يُقنعوا السلطات بإطلاق سراحه ليوم واحد فقط، في 21 آذار/مارس الذي يوافق عيد رأس السنة الإيرانية (عيد النوروز). عند وصولهما إلى السجن حثّت الزوجة ابنتها الصغيرة على المطالبة بالإفراج عن والدها لهذا اليوم، لكن الطلب رُفض فيما مُنحا حق زيارته لوقت قصير في غرفة في الطابق السفلي.

بدا النقيب رياحي منهكاً وهزيلاً. لم يناقش محنته، لكنه اشتكى من أنه يقضي معظم أيامه في زنزانة مظلمة بلا نوافذ. كان الحارس يشفق عليه في بعض الأحيان فيسمح له ببعض الضوء لقراءة القرآن أو أطروحة دينية واجتماعية كتبها آية الله الخميني، وهما من الكتب الشائعة في السجون الإيرانية.

في أوائل شهر تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1990 كانت إيران تستعد لإحياء الذكرى العاشرة لاحتلال السفارة الأميركية في 4 تشرين الثاني/نوفمبر، ويعدّ هذا اليوم عطلةً رسمية ويسمّى «اليوم الوطني لمواجهة الاستكبار العالمي». كانت الحكومة تخطط للقيام بمظاهرة ضخمة أمام السفارة الأميركية السابقة. افتتحت وزارة المخابرات داخل مبنى المستشارية القديمة معرضاً عُرضت فيه ثمانية وستين مجلداً من الوثائق الأميركية السرية التي أُصلحت بعناية شديدة بعد أن تم

تمزيقها من قبل موظفي السفارة قبل احتلالها، فضلاً عن صور ونماذج لطائرات الهليكوبتر المستخدمة في محاولة الإنقاذ الأميركية الفاشلة، وقطع من الطائرة التابعة للخطوط الجوية الإيرانية التي أسقطتها البارجة الأميركية «فينسين» في السنة التي سبقت، وكانت مكبّرات الصوت تذيع اعترافات الجواسيس الأميركيين الذين قُبض عليهم مؤخراً.

عشية الذكرى السنوية الرسمية بدأ التلفزيون الإيراني ببثّ سلسلة أخرى تعرض المزيد من الجواسيس على الشاشة، من بينهم العقيد في القوات الجوية الذي وافق على العمل لحساب وكالة الاستخبارات المركزية مدة سنتين مقابل الحصول على حق اللجوء السياسي. بدا مرهقاً وهزيلاً وراح ينتحب فيما هو يحذّر الإيرانيين من «ألا يقعوا في شباك أجهزة التجسس، لأن أحلامهم الذهبية سوف تتحول إلى كابوس جهنمي». في تلك الليلة سُمح للنقيب رياحي أن يتحدث لفترة وجيزة مع زوجته، فقال لها إنه قد نُقل إلى زنزانةٍ أخرى، وكانت هذه إشارة لا تحمد عقباها بالنسبة إلى المعتقلين في السجون الإيرانية.

في صباح اليوم التالي تجمّع مئات الآلاف من الإيرانيين أمام السفارة الأميركية القديمة احتفالاً باحتلالها قبل عقدٍ من الزمن، رافعين صور آية الله الخميني فيما تردّد في الشوارع صدى هتاف «الموت لأميركا!» وألقى مسؤولون حكوميون بارزون كلمات حماسية تندّد بأعداء الجمهورية الإسلامية[925].

سمح السجانون لرياحي بإجراء اتصال هاتفي أخير مع أسرته. لم تكن زوجته ولا حتى ابنته في المنزل، لكنه تحدث إلى أحد أقاربه الذي كان آخر من سمع صوت توراج رياحي[926].

استخدمت الحكومة الإيرانية ذكرى احتلال السفارة لترسل رسالة واضحة إلى واشنطن حول مصير جواسيسها. رافق رياحي إلى حبل المشنقة في سجن «أفين» ثلاثة ضباط آخرين من البحرية. وضع الجلادون حبل المشنقة أولاً حول عنق العميد كينوش حكيمي الذي كشف عن الأسلحة الحساسة التي اشتراها الإيرانيون من الصين، ثم جاء دور رياحي ليليه ضابطان آخران من صغار الضباط كانا قد تجسّسا لحساب وكالة الاستخبارات المركزية[927]. في اليوم التالي علمت عائلة النقيب بمصيره عندما أعلن تلفزيون طهران عن إعدام أربعة من الخونة[928].

خلال العام التالي أعدمت السلطات الإيرانية أكثر من خمسين رجلاً بما في ذلك بعض المدانين بالتجسس لصالح العراق وإسرائيل[929]. كما حُكم على عدد من عملاء «الزورق BQ»، الذين كان دورهم بسيطاً في مخطط وكالة الاستخبارات المركزية شبه العسكري، بالسجن لفترة قصيرة أو سُمح لهم بقضاء الحكم الصادر بحقهم في منفى داخلي - لم يُسجنوا ولكن حُظرت عليهم مغادرة بلدهم دون إذن[930]، ولا يزال العديد من السجناء يقبعون في غياهب السجون الإيرانية.

لم تحمّل وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) المسؤولية لأيّ شخص عن مقتل عشرين عميلاً جرّاء خطأ من أسوأ الأخطاء في تاريخ الوكالة. وعلى الرغم من نقاط الضعف الإجرائية في

خلية «طهفران»، التي تحدث عنها بالتفصيل التحقيق الداخلي لوكالة الاستخبارات المركزية، قررت القيادة العليا في لانغلي عدم توجيه اللوم لأي شخص أو عرقلة أي مسيرة مهنية. كانت لانغلي تعتبر «الزورق BQ» مسألةً ثانوية. كانت تداعيات وآثار التحقيق محدودة، كما أشار أحد ضباط وكالة الاستخبارات المركزية قائلاً: «كان بوسعك أن تجد نسخاً عن تقرير مكافحة الاستخبارات هذا في لحظة، لتختفي النسخ كلها في اللحظة التالية».

لم يتمكّن جيرالدي من تجاوز الهزيمة ومقتل الرجال الذين جنّدهم من دون داع، وأشار إلى ذلك بمرارة قائلاً: «إننا نستغل الناس إلى أقصى درجة، ومن ثم لا نأبه لهم بتاتاً»، وأضاف: «في نهاية المطاف، ماذا أنجزنا؟ قضى عشرون رجلاً، ورُقّي بعض الأشخاص». وقرّر جيرالدي تقديم أوراق تقاعده رسمياً.

ما إن انتهى العقد حتى فسحت مخاوف الحرب الباردة المجال أمام تحديات جديدة، ووجدت وكالة الاستخبارات المركزية نفسها في الموقف نفسه الذي شهدته قبل عشر سنوات، فشبكة الاستخبارات في حال يرثى لها، كما باءت مساعي وليام كيسي لجلب إيران إلى حضن الدول الغربية بالخيبة والفشل. وإذا نظرنا إلى الأمام نجد أن الحكام المحليين هم الذين يهددون المصالح الأميركية وليس الجيش الأحمر. ترك انتصار صدام حسين الباهظ الثمن العراق مدمّراً لكن مع أكبر جيش عربي. وكانت إيران مضرّجة بالدماء لكنها لم تُهزَم. بعد فضيحة إيران كونترا ظلّ سياسيو واشنطن حذرين إزاء محاولة إذابة جليد العلاقات مع طهران؛ ومع ذلك ظلت الجمهورية الإسلامية مصدر التوازن الطبيعي للعراق. بقيت قضية واحدة مهمّة معلقة: الرهائن الأميركيون في لبنان. لكن مع رئيس إيراني جديد وواقعي، ظهر الأمل في أن يتخلى البلدان عن عدائهما الذي يعود إلى الثمانينيات وتركه وراء ظهريهما.

الفصل العشرون

النوايا الحسنة تولّد نوايا حسنة

في يوم الأحد الواقع في 4 شباط/ فبراير 1990 عاد الرئيس جورج بوش الأب من منتجع كامب ديفيد الرئاسي الواقع في جبال ولاية ماريلاند الغربية حيث قضى عطلة نهاية الأسبوع، فارتدى ملابسه الرسمية، وحضر حفلة موسيقية في البيت الأبيض، ثم اختلى بنفسه في المساء. قرابة الساعة التاسعة وأربعين دقيقة مساءً ورد اتصال هاتفي إلى مقسّم البيت الأبيض. أفادت التقارير أن مساعد الرئيس الإيراني، هاشمي رفسنجاني، هو من اتصل ببوش من طهران. تلقّى المكالمة صديق بوش المقرّب ومستشار الأمن القومي الجنرال برنت سكوكروفت. بدا الرجل الذي على الطرف الآخر صادقاً إلى درجة أن سكوكروفت وافق على إجراء مكالمة هاتفية أخرى بين الرئيسين مساء اليوم التالي.

بذل الرئيس بوش في العام المنصرم جهوداً حثيثة لتحرير بقية الرهائن في لبنان. فقضية الرهائن بقيت حجر العثرة الرئيسي أمام سعي بوش للتقرّب من إيران التي كانت تشكّل بالنسبة إليه الحاجز الفاصل ضد كلٍّ من العراق والاتحاد السوفيتي[931]. في خطاب تنصيبه، في شهر كانون الثاني/يناير الماضي، مدّ الرئيس يد الصلح إلى الإيرانيين في مسعى منه للإفراج عن الرهائن قائلاً: «إن التعاون في هذه القضية سيبقى طويلاً في الذاكرة، فالنيات الحسنة تولّد نيات حسنة. ويمكن للنية الحسنة أن تشكّل مغزلاً يغزل باستمرار». وفي محاولة منه لتبديد المخاوف الإيرانية بشأن التعاون مع أميركا أردف قائلاً: «على الدول العظمى أن تفي بوعودها تماماً كما يفعل الرجال العظماء. وعندما تقطع أميركا وعداً فإنها تلتزم به، سواء أكان ذلك معاهدةً أم اتفاقيةً أم تعهّداً عابراً».

شهدت إيران تغيّرات كثيرة خلال العامين المنصرمين، فقد انتهت الحرب بين إيران والعراق، وانتقل آية الله الخميني إلى دار الآخرة، وحلّ محله رجل دين أقل منه شهرةً يُدعى آية الله السيد علي خامنئي، كما واعتلى رفسنجاني سُدّة الرئاسة. كان هذا الرجل البراغماتي، الذي دعم في وقت سابق عملية مبادلة الأسلحة بالرهائن، يدير شركات بناء في إيران ويتمتع بمهارات خاصة في

حقل الأعمال التجارية. فقد كان شخصاً ذكيّاً سريع البديهة، ويحبّ المال بقدر حبّه للإمام، وسرعان ما أدرك أهمية القطاع الخاص، وسعى إلى الحدّ من حجم تدخل الحكومة في الاقتصاد. هذا وتميّز رفسنجاني بذهنيته المنفتحة في ما يخصّ العلاقات مع الدول الأخرى، ولاسيما الولايات المتحدة، ما جعله يشعر بالقلق إزاء ثبات شعار «فلتسقط أميركا» معتبراً أنه شعار ساذج وله نتائج عكسية. سأل ذات مرة أحد المستشارين ساخراً: «ما معنى هذا الشعار؟» كان يخشى أن يسيء الأميركيون فهم المقصود به، فهو يعني رفض السياسات الأميركية، لا الأمة الأميركية والثقافة الأميركية والشعب الأميركي[932]. حاول رفسنجاني إرسال رسائل جسّ نبض إلى وزارة الخارجية الأميركية مشيراً إلى أن الرئيس الإيراني يريد بناء علاقات أفضل مع الغرب وتجاوز عداء العقد المنصرم.

في مساء اليوم التالي رفع بوش سماعة الهاتف في مكتبه في الطابق الثاني. وفي حين كان المسؤولان المخضرمان في الشؤون السياسية ريتشارد هاس وساندي تشارلز يستمعان إلى المكالمة من غرفة العمليات، تحدث الرئيس الأميركي بواسطة مترجم وزارة الخارجية إلى رجل في طهران يدّعي أنه رفسنجاني[933] مدة تسعٍ وعشرين دقيقة. أكّد المتصل على رغبة إيران في تحسين العلاقات، وعلى استعدادها للإفراج عن الرهائن الأميركيين في لبنان، مُثنياً على جهود الأمين العام للأمم المتحدة خافيير بيريز دي كويلار لتحقيق هذه الغاية. وأضاف رفسنجاني، قبل أن ينهي المكالمة الهاتفية، أنه مستعد للإعلان أمام الملأ عن الإفراج عن الرهائن ليعلم العالم أن إيران هي من خطت الخطوة الأولى لتحسين العلاقات بين البلدين.

لسوء الحظ، لم يكن الرئيس بوش قد تحدث إلى الرئيس رفسنجاني من قبل. وبعد انتهاء المكالمة اتصل بوش بأحد المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية في مدينة فولز تشيرش للاستعلام عن مصدر المكالمة؛ وبعد سلسلة من المحادثات أجراها مع مستشاريه ومع دي كويلار في نيويورك أدرك بوش أنه كان ضحية خدعة، فقد تبيّن أن المتصل هو من المعارضين الإيرانيين لأي تقارب مع الولايات المتحدة، وأراد من خلال ذلك الاتصال أن يُحرج رفسنجاني علناً.

اعتُبر هذا الحادث بمثابة مؤشر مقلق إلى حالة العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران. فالمحادثات ليست منقطعة بين الجانبين فحسب، بل ويبذلان أيضاً الكثير من الجهد لتعزيز هذه القطيعة، حيث يفضلان اللجوء إلى الوسطاء، ما يوفّر لهما القدرة على الإنكار. وعلى الرغم من إتقانهما فن الخطابة، لم يشأ أيٌّ من البلدين أن يتّخذ مبادرة السلام علناً. ظلت الولايات المتحدة تتجاهل إيران إلى درجة أن رئيس الولايات المتحدة لم يستطع حتى التفريق بين اتصال رسمي من رئيس دولة وبين متّصل عابث.

تركت قضية الرهائن الأميركيين المحتجزين من قبل حزب الله في لبنان أثرها على رؤية الرئيس الجديد إزاء إيران. فأصداء فشل عملية السلاح مقابل الرهائن بقيت تتردد، حيث استخدمها الديمقراطيون خلال انتخابات العام 1988 كهراوة سياسية أساسية لتبلغ ذروتها في مقايضة شرسة في كانون الثاني/يناير من العام 1988 عندما أصرّ مذيع قناة «سي بي أس نيوز» التلفزيونية

(CBS News)، دان راذر، على إزعاج بوش بشأن تأييده قرار ريغان بشحن أسلحة إلى إيران، قائلاً له: «جعلتنا نبدو منافقين أمام العالم».

أنكر بوش تلك الاتهامات بشدة معدّداً تفاصيل اعتقال وتعذيب رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية وليام باكلي قائلاً: «إن كنتُ قد ارتكبت خطأً، فاعلم أن الهدف من ذلك الخطأ كان تحرير هؤلاء الرهائن!»

كانت عمليّات خطف الرهائن مربحة في لبنان. في العام 1987 وصل مراسل قناة «أي بي سي» (ABC) التلفزيونية تشارلز غلاس إلى لبنان لإجراء بحث خاص بتأليف كتاب، ولمّا علم ضابط في الحرس الثوري الإيراني بزيارة غلاس المزمعة إلى صيدا اتّجه إلى منزل أحد عناصر حزب الله في الضاحية الجنوبية في بيروت، الذي سارع إلى خطف غلاس في محلة بالقرب من المطار. وعلى الرغم من أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تملك هذه المرة معلومات مفيدة، بما في ذلك رقم لوحة تسجيل إحدى السيارات المستخدمة، إلا أنها لم تتمكن من الوصول إلى غلاس في الوقت المناسب[934]. وفي السنة نفسها اختُطف العقيد البحري ريتشارد هيغينز، الذي كان عضواً في بعثة الأمم المتحدة الأمنية في لبنان، بينما كان متوجهاً في سيارته على الطريق الساحلية لمقابلة زعيم حركة أمل الشيعية. كان المسؤول عن خطفه شخص يُدعى مصطفى الديراني، وكان يتزعم مجموعة صغيرة متعاطفة مع حزب الله تسمى «أفواج المقاومة المؤمنة».

وفي السنة التالية نظّم عماد مغنيّة محاولة أخرى لإطلاق سراح سبعة عشر عضواً من حزب الدعوة من الكويت. بدت إيران هذه المرة أقل حماسة تجاه عمليات حليفها. في 5 نيسان/أبريل أقدم ثمانية أشخاص على خطف طائرة من نوع بوينغ 747، تابعة للخطوط الجوية الكويتية، لدى اقترابها من مدينة الكويت، قادمةً من بانكوك، الرحلة رقم 422، حيث سيطروا عليها وأجبروا ربانها على الهبوط في إيران. غير أن الحكومة الإيرانية وجدت نفسها في موقف محرج وطلبت منهم الرحيل مهددةً بإرسال قوات كوماندوس لاقتحام الطائرة، فاتجهت الطائرة إلى بيروت حيث أدى الضغط الإيراني إلى منع الطائرة من الهبوط، فتعيّن على الطائرة الهبوط في قبرص. ولمّا رفضت الكويت الإفراج عن الأسرى قتل خاطفو الطائرة اثنين من الركاب، لتقلع بعدها الطائرة باتجاه الجزائر، حيث أخبر الخاطفون برج المراقبة بأنهم «ارتدوا أكفان الموت» وأطلقوا على الطائرة اسم «طائرة الشهداء العظماء».

أثناء إقلاع الطائرة من قبرص، وبينما كان مراقب الحركة الجوية يشير إليها بعبارة «الطائرة الكويتية 422»، أجاب أحد الخاطفين بحدة: «كلا! إنها طائرة الشهداء!» فأجاب المراقب: «عذراً، طائرة الشهداء»[935]. ولم يستسلم الخاطفون إلا بعد مرور ستة عشر يوماً، وبمساعدة من الحكومة الإيرانية.

بينما كان كلٌّ من رفسنجاني وبوش يسعيان إلى إنهاء معضلة الرهائن، اضطر الجانبان، في ظل انقطاع العلاقات الدبوماسية بينهما، إلى تلقّي الرسائل وإرسالها عبر الوسطاء. فقد كان

مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى جون كيلي يتلقّى بانتظام رسائل من طهران، أو تقارير عن الرغبة في فتح قنوات تواصل مع حكومته. طالب الإيرانيون بلقاء مبعوث أميركي في أي مكان من أوروبا، شرط أن يبقى الاجتماع سرياً. وكان كيلي حريصاً على الرد على هذه المحاولات لجس النبض فقال: «سنكون سعداء بهذا اللقاء، ولكن ليس في الظل»[936]، ولكن إيران كانت مصرة على إبقاء الأمر سرياً. فبعد أن اكتوى رفسنجاني بنيران مبيعات الأسلحة الإيرانية أراد الاحتفاظ بسياسة الإنكار المعقول لأسباب داخلية، ولا يشأ، بالتالي، أن يُنظر إليه على أنه صاحب المبادرة إلى فتح أبواب المحادثات مع الشيطان الأكبر.

كان حسين موسايان، أحد مساعدي الرئيس الإيراني المقربين منه، مهندساً تلقى تعليمه في أميركا، وشغل منصب رئيس تحرير صحيفة «طهران تايمز» (Tehran Times). بينما كان موسويان يستمع إلى زوّار بارزين يتلون على مسمعه رسائل مماثلة من الأميركيين، احتفظ بسجل عن كافة الأحاديث المتبادل مدوِّناً أكثر من أربعين رسالة موجّهة إلى الرئيس الإيراني من وزراء ورؤساء الدول الأجنبية يطلبون فيها دعم إيران للإفراج عن المحتجزين في لبنان. وكانت الرسائل كلها تُختتم بالعبارة التقليدية نفسها ألا وهي «حان الوقت كي يمضي البلدان قدماً؛ فحُسن النية يولّد حُسن النية»[937].

فاتحت إدارة بوش الأمم المتحدة للسعي إلى إطلاق سراح الرهائن في لبنان، فاتصل الرئيس بوش بالأمين العام للأمم المتحدة بيريز دي كويلار وطلب منه الاجتماع بمستشار الأمن القومي برنت سكوكروفت. وافق دي كويلار، والتقى الرجلان في أحد المنازل في هامبتون في جزيرة لونغ آيلاند. تضمنت الرسالة التي نقلها سكوكروفت من بوش تأكيداً على استعداد الرئيس لاتخاذ سلسلة من الإجراءات المتبادلة للتخفيف من حدة التوتر وإطلاق سراح الرهائن، وقد ارتكزت تلك الرسالة على نص خطاب تنصيب الرئيس ومفهوم تبادل النيات الحسنة، فطلب سكوكروفت من دي كويلار تسليم الرسالة مباشرة إلى رفسنجاني.

كلّف الأمين العام للأمم المتحدة مساعداً له جدير بالثقة يُدعى جياندومينيكو بيكو لإجراء المحادثات بين الأميركيين والإيرانيين. كان الدبلوماسي الإيطالي بيكو مبعوثاً خاصاً لكويلار وتربطه علاقة وثيقة بطهران، فقد زار طهران للمرة الأولى سنة 1983، وتمكن ذلك الموظف المحنك الطويل القامة، على مر السنين، من نيل إعجاب القادة الإيرانيين، ولاسيما رفسنجاني. هذا وأدّى دوراً رئيسياً في المفاوضات التي أدت إلى الاتفاق النهائي لوقف إطلاق النار بين العراق وإيران، الأمر الذي أنهى مذبحة الحرب العراقية الإيرانية. وكان يتمتع أيضاً ببعض الخبرة في إدارة قضايا الرهائن، نظراً إلى وجود اثنين من موظفي الأمم المتحدة بين المحتجزين في بيروت.

في 17 آب/أغسطس من العام 1989 التقى رفسنجاني وزير الخارجية الباكستاني، وتلبيةً للشعار الأميركي وافق رفسنجاني على العمل لتأمين الإفراج عن الرهائن مقابل أن تعلن الولايات المتحدة اعترافها بالجمهورية الإسلامية. كان رفسنجاني حريصاً على طيّ صفحة الحرب، لاسيما وأن إيران تحتاج إلى الاستثمارات الغربية لإعادة بناء اقتصادها المدمّر. وقد أثبت قضية الرهائن فائدتها في هذا السياق حتى بعد مرور وقت طويل على انتهائها.

في 25 آب/أغسطس وصل بيكو إلى طهران لعقد أول لقاء له مع الرئيس رفسنجاني، فاصطحبه الدبلوماسي الإيراني الشاب جواد ظريف، المقدّر له أن يؤدي دوراً مهماً في المحادثات مع الأميركيين، إلى القصر الرئاسي. التقى بيكو الرئيس الإيراني في مكتبه، وهو عبارة، حسب وصف بيكو، عن قاعة «يطغى عليها اللون الأبيض ويغمرها ضياء الظهيرة المتسلل من النوافذ الضخمة»[938]. بينما كان ظريف يقومك بدور المترجم، تحدث مبعوث الأمم المتحدة عن مدى مصداقية عرض الرئيس بوش والمتمثل في العبارة الشهيرة «حسن النية يولّد حسن النية»، وأنه على الرغم من أن بوش كان قادراً على السعي إلى الثأر من إيران لما ترتب عن قضية إيران-كونترا من انعكاسات سلبية، إلا أنه أكّد على استعداده لمعاملة إيران بالمثل في حال تمكّن رفسنجاني من الإفراج عن الرهائن.

استشاط رفسنجاني غضباً، فهو يريد أفعالاً ملموسة لا مجرد أقوال. وفي ما يتعلق بالأشخاص الذين يحتجزون الرهائن، أجاب الرئيس الإيراني: «من الصعب العثور على هؤلاء الأشخاص لأنهم لا يملكون عنواناً محدداً». كانت إسرائيل قد احتجزت شيخاً بارزاً في لبنان، وأراد حزب الله استعادته قبل إطلاق سراح أيٍّ من الرهائن الغربيين[939]، ما يعني أن المهمة ستكون طويلة وشاقة، حسب اعتقاد بيكو.

في تشرين الثاني/نوفمبر 1989 اتّخذ الرئيس بوش مزيداً من الإجراءات لإثبات مصداقيته، حيث تخلص من الحساب المجمّد في مصرف إنكلترا منذ اتفاقيات الجزائر في العام 1981 بغية تسوية المطالب الناجمة عن أزمة الرهائن، ما أسهم في استعادة إيران مبلغاً قيمته 567 مليون دولار، وسمح الرئيس بوش أيضاً بإنشاء قسم لرعاية المصالح الإيرانية في السفارة الباكستانية في واشنطن، واعتُبر هذا الأمر إنجازاً مهمّاً، على الرغم من أن الحكومة الأميركية حددت عدد الموظفين بخمسة وأربعين موظفاً وجعلت مهامه مقتصرة على خدمات السفر فحسب، حيث تمكّن آلاف الإيرانيين المقيمين في الولايات المتحدة من التقدم بطلبات الحصول على تأشيرة للسفر إلى الوطن. وأخيراً، رفض بوش، في أعقاب تفجير طائرة بان آم 103 فوق اسكتلندا، اتخاذ أي إجراء ضد إيران حتى بعد تصويب التقارير الصحافية الأولي وتوجيه أعضاء من الكونغرس، بمن فيهم أشخاص مثل غيلمان، أصابع الاتهام إلى إيران. غير أن الأدلة أشارت في النهاية إلى معمّر القذافي بوصفه المذنب الرئيسي[940].

إلا أن بوش واصل تبادل المعلومات الاستخباراتية مع العراق. كما وتبين خلال جلسة إقرار تعيين روبرت غيتس مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية، في العام 1991، أن الرئيس أذن بتمرير معلومات استخباراتية محدودة إلى العراق تتعلق بالخطط العسكرية الإيرانية. وقبل ثلاثة أشهر من الغزو العراقي للكويت، وبينما كان قائد القيادة المركزية الأميركية الجنرال شوارزكوف يخطط لنزاع محتمل مع العراق، زوّدت وكالة الاستخبارات المركزية العراق بمعلومات استخباراتية خشية أن يؤدي إنهاء تبادل المعلومات الاستخباراتية بينهما إلى جعل إمكانية الوصول

إلى القواعد العسكرية العراقية شبه مستحيل[941]. ولمّا علمت إيران بأمر هذا التبادل المستمر للمعلومات الاستخباراتية، من خلال عميل مزدوج في المخابرات العراقية، لم يخفِ المتشددون في إيران شكوكهم حيال نوايا أميركا الحقيقية في ما يتعلّق بالجمهورية الإسلامية.

سرعان ما أصبحت مسألة إيران مجرد مسألة ثانوية بالنسبة إلى الولايات المتحدة في الخليج العربي. وعند الساعة الثانية صباحاً من الثاني من آب/أغسطس 1990، تمكنت فرقاطة النقيب كيفن كوسغريف (الذي أصبح أدميرالاً مساعداً فيما بعد) من مواكبة ناقلة كويتية في إطار عملية «إرنست ويل» التي بقيت مستمرة بسبب الكسل لا بداعي الضرورة. تولّى النقيب كيفين، الذي كان نحيلاً وعلى قدرٍ عالٍ من الذكاء والجدية، مهام نشر القوات العسكرية مرات عدة في الخليج. ولكن تلك الليلة كانت مختلفة عن الليالي التي سبقتها لاسيما وأن الرادار والأجهزة اللاسيلكية في فرقاطته كانت تبثّ صوراً عن الحرب، وعن أسراب الطائرات العراقية وهي تغير على الكويت، والمروحيات وهي تُنزل القوات العراقية الخاصة على طول الساحل، فيما كانت طوابير الدبابات العراقية تجتاح الإمارة الصغيرة. وفي حين عمّت الفوضى بين صفوف القوات الجوية والبحرية الكويتية، أبرق كوسغريف إلى قيادة قوات الشرق الأوسط طالباً تزويده بالتعليمات، فجاءه الرد التالي: «عليك أن تتريث».

في هذا السياق علّق كوسغريف قائلاً: «لم أكن أرغب في سماع هذا الرد بينما نيران الحرب مشتعلة من حولي». شقّت السفينة الأميركية طريقها جنوباً بعيداً عن الكويت تتبعها قافلة من الناقلات بحثاً عن الحماية. إنها القافلة الأخيرة ضمن إطار عملية «إرنست ويل»[942]، التي ستنطفئ شعلتها لنشهد بعدها على ولادة عملية «درع الصحراء»، تليها بعد فترة وجيزة، عملية «عاصفة الصحراء».

حافظت إيران والولايات المتحدة على نوع من التفاهم غير المستقر خلال الأزمة التي استمرت ثمانية أشهر. كانت إيران تنظر إلى هذه الأزمة الجديدة في الشرق الأوسط على أنها فرصة جيدة ولكنها تنطوي في الوقت نفسه على شيءٍ من المجازفة. رفض رفسنجاني عرض صدام حسين المبهم لدعم العراق مقابل تنازلات كبيرة بعد الحرب، معرباً، في المقابل، عن تأييده للعقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق. وعلى الرغم من إجماع القادة في طهران على عزل صدام حسين إلا أنهم أظهروا بعض القلق من احتمال بقاء القوات العسكرية الأميركية لوقت طويل، ما يهدّد تطلعاتهم البعيدة المدى إلى الهيمنة الإقليمية.

كانت الولايات المتحدة تأمل أن تؤيد إيران قرارات الأمم المتحدة وتبقى على الحياد. لم يتوقع أحد في إدارة بوش أن تؤدي الحرب إلى تقدم مفاجئ. ففي محضر اجتماع اللجنة النيابية الذي صاغه روبرت غيتس ورد ما يلي: «لا نزال متمسكين بسياستنا التي تقضي بأن العلاقات الطبيعية لا يمكن أن تعود إلى مجراها إلا بعد مساعدة إيران في الإفراج عن الرهائن الأميركيين دون مساومة أو ابتزاز»[943].

بقيت الولايات المتحدة خلال حرب الخليج على اتصال غير مباشر مع إيران عبر وسطاء سويسريين، حيث كانت الحكومة الأميركية حريصة على أن تنقل إلى إيران ما لا يقل عن ثلاث مبادرات دبلوماسية في الأسبوع خلال أزمة الخليج (1990- 1991). وشملت هذه معلومات انتشار القوات الأميركية في المملكة العربية السعودية وتعزيز القوات البحرية في الخليج لتجنب إثارة الذعر في طهران بشأن النوايا الأميركية. وطلبت الولايات المتحدة من إيران عدم اتخاذ إجراءات ضد الطائرات الأميركية التي قد تضلّ طريقها وتدخل الأجواء الإيرانية. ولمّا امتنعت إيران عن الرد، اعتُبر صمتها بمثابة موافقة ضمنية: في كثير من الحالات، عندما ضلّت بعض طائرات الحلفاء طريقها ودخلت الأجواء الإيرانية، لم يتخذ الجيش الإيراني أي إجراء. تماماً قبل اندلاع حرب المئة ساعة البرية أبلغت إيران الحكومة الأميركية، عبر الوسطاء السويسريين، أن مروحية أميركية قد هاجمت عدداً من سفن خفر السواحل الإيرانية وطاردتها حتى مصبّ النهر. غير أن أصوات الاحتجاج التي تعالت في إيران تمّ كتمها، واقتصر الأمر على المطالبة بـ«الكفّ عن مثل هذه الأعمال الاستفزازية»، في حين شددت الولايات المتحدة على مسألة التزام إيران بموقفها الحيادي[944]. وقج تبيّن لاحقاً أن التقرير عارٍ عن الصحة.

تلقّت وزارة الخارجية الأميركية مرات عدة معلومات عن مواطن أميركي مُحاصر في الكويت يخطط للهرب إلى إيران. ولمّا أبلغت الولايات المتحدة طهران بهذه المعلومات بادرت الجمهورية الإسلامية إلى العمل على إرسال المواطن الأميركي إلى الحرية[945].

بيد أنّ الحرب ساعدت بيكو ودعمت الجهود المبذولة لإطلاق سراح الرهائن. فالغزو العراقي أدّى إلى تحرير «معتقلي حزب الدعوة السبعة عشر» في الكويت وعودتهم إلى إيران، وشكّل موضوع الإفراج عن هؤلاء المعتقلين، الذين كانوا يقبعون في السجون منذ تنفيذهم عملية التفجير سنة 1983، محط الاهتمام الرئيسي لحزب الله في لبنان. وفي نيسان/أبريل 1991 عاد بيكو إلى ممارسة الضغوطات للإفراج عن الرهائن، فسافر إلى دمشق حيث التقى السفير الإيراني وضباطاً من الجيش السوري قبل توجّهه إلى بيروت. وبعد مضي ثلاثين دقيقة على وصوله إلى لبنان تلقّى اتصالاً من السفارة الإيرانية لتأكيد موعد لقائه بالسيدّ فضل الله في دارته في ضاحية بيروت الجنوبية. توجّه بيكو ليلاً بمفرده إلى مكان اللقاء، واجتمع، والتوتّر بادٍ عليه، بالزعيم الروحي اللبناني الذي استقبله بابتسامة دافئة. وخلال المناقشات التي تلت ذلك أكّد الزعيم اللبناني دعمه للجهود التي تبذلها الأمم المتحدة لإطلاق سراح الرهائن. وعلى الرغم من أن فضل الله لم يكن من صانعي القرارات داخل حزب الله، إلا أنه وافق على العمل مع بيكو لتأمين الإفراج عن جميع الرهائن المحتجزين في لبنان وإسرائيل.

في 10 آب/أغسطس من العام 1991 وجد بيكو نفسه مجدداً في بيروت للقاء مختطفي الرهائن، بالتنسيق مع إيران، وبوصوله إلى السفارة الإيرانية سأل ممثّل الأمم المتحدة ما إذا كان السفير سيرافقه، فأجاب الأخير قائلاً: «كلا يا سيد بيكو، فأنا لا أعرف هؤلاء الأشخاص، وعليك أن تتعامل معهم بنفسك!»[946]

بناءً على تعليمات الإيرانيين غادر بيكو السفارة وراح يتجول في الشارع. كان الصمت مخيماً على المكان الذي كان خالياً إلا من بيكو وشخص آخر يسير على الرصيف. ولم تكد تمضي عشر دقائق على هذه الجولة المثيرة للقلق حتى توقفت سيارة مرسيدس بقربه، ودفعه أحد الركاب إلى المقعد الخلفي فيها. غادر الخاطفون المكان بعد أن عصبوا عيني بيكو وتوقفوا في نهاية المطاف قرب مبنى في جنوب بيروت. اقتاد الخاطفون بيكو إلى غرفة ذات جدران مغطاة بأغطية بيضاء، حيث جاء رجلان ملثّمان لاستقباله. و بعد أن تأكدا من أن بيكو قد جاء بناءً على طلب من الأمين العام للأمم المتحدة انضمّ إليهما رجلٌ ثالث ملثم. وقد تميّز الرجل الثالث بثقته الفائقة في النفس وشخصيته القيادية، وعرّف عن نفسه بأنه يُدعى عبد الله، ولكن يُعتقد أنه كان عماد مغنيّة.

هدأت الأجواء وبدأوا مناقشة مسألة الرهائن وكيفية الترتيب لمقايضة جميع الأشخاص المُحتجزين في المنطقة. في نهاية الحديث عرض الخاطفون على بيكو مقابلة أحد الرهائن، فأصرّ الأخير على أن يرافقه أحد الرهائن كبادرة حسن نية. بعد الأخذ والرد وافقوا على إطلاق سراح الرهينة إدوارد تريسي، وهو أميركي جاء إلى لبنان لبيع الأناجيل. بعد مضي أكثر من خمس سنوات على أسره تدهورت حالة تريسي الصحية إلى حد أنه لم يعد يذكر اسمه، وادّعى أنه كان يتناول طبق «كوردون بلو» ثلاث مرات في اليوم.

لكن هذه الخطوة الصغيرة أطلقت سلسلة من الخطوات أدّت في النهاية إلى الإفراج عن جميع الرهائن الغربيين. فخلال الأشهر التالية تنقّل بيكو ما بين نيويورك وقبرص وبيروت ودمشق، والتقى مراراً وتكراراً مع ظريف وسكوكروفت لتأمين الإفراج عن جميع الرهائن. وقد بذلت إيران أقصى جهودها لدعم المحادثات، لكن بيكو كان يُدرك أن الرجل الملثم المدعو عبد الله هو الوسيط الفعلي. وعقب سلسلة معقدة من عمليات الإفراج عن المعتقلين في إسرائيل ولبنان تمكّن بيكو من إنجاز مهمته في 4 كانون الأول/ديسمبر 1991 مع إطلاق سراح المراسل الصحافي الأميركي تيري أندرسون. وفي وقت لاحق من الشهر نفسه سلّم حزب الله جثتَي كلٍّ من رئيس مركز وكالة الاستخبارات المركزية وليام باكلي والكولونيل ريتشارد هيغينز[947].

بعد أن نفّذ رفسنجاني القسم الذي تعهّد به في الصفقة غير المكتوبة أراد أن تتمّ معاملته بالمثل، ولكن عندما حان الوقت لتثبت الولايات المتحدة الأميركية حسن نيتها تراجعت إدارة بوش ونكثت بوعدها.

في صباح السابع من نيسان/أبريل من العام 1992 سافر بيكو إلى واشنطن للقاء سكوكروفت. كان مستشار الأمن القومي قد أظهر دلائل تشير إلى تراجعه عن التزاماته التي تعهد بها في وقت سابق، ولكنه أثناء وجود بيكو في مكتبه دخل صلب الموضوع مباشرةً قائلاً: «لم يثبتوا حسن نيتهم لكي نبادلهم بالمثل»، واتّهم إيران بالاستمرار في أنشطتها الإرهابية، التي كان آخرها تفجير السفارة الاسرئيلية في بوينس آيرس في شهر آذار/مارس، والذي نفذته إيران رداً على قتل إسرائيل لأحد قادة حزب الله. وأضاف سكوكروفت إلى مجموعة الجرائم الإيرانية مقتل هيغنز الوحشي ومقتل رئيس الوزراء الإيراني السابق شاهبور بختيار في شهر آب/أغسطس من العام

1991 على أيدي ثلاثة أتباع إيرانيين دخلوا منزله في باريس وطعنوه ومساعده بسكين حادة[948].
كان سكوكروفت يخشى التطلعات الإيرانية الإقليمية، وكان يعتبر أن الأساس المنطقي يقضي بالحفاظ على توازن عراقي ضد إيران لعدم عزل صدام حسين خلال عاصفة الصحراء[949]. وعزّز الدعم الإيراني للانتفاضة الشيعية التلقائية في نهاية الحرب مخاوفه بشأن توسّع النفوذ الإيراني. لذا استبعد بوش وسكوكروفت، بعد انتهاء الحرب، إيران عن مؤتمر السلام الإقليمي في مدريد عمداً، ما شكّل صفعةً قوية لن ينساها رفسنجاني أبداً. فبعد إطلاق سراح جميع الرهائن رأى سكوكروفت أنه لم يعد ضرورياً أن تلتزم الولايات المتحدة بالاتفاق، ما شكّل صدمةً للرئيس الإيراني الذي وجد نفسه ضحية خدعة مريرة.

أُسندت إلى بيكو مهمة إبلاغ رفسنجاني بالأمر، فالتقاه بيكو في مكتبه الأبيض المزخرف ونظر إلى عينيه قائلاً له إنه جاء ليخبره بأن الأميركيين قد نكثوا بوعودهم، وأنهم لن يقوموا بأي بادرة حسن نية.

ضاقت عينا رفسنجاني وقال: «لقد تعرضنا للكثير من المخاطر السياسية جرّاء تعاوننا معكم. لم يكن أحد يؤيد هذا التعاون. أظنك تدرك يا سيد بيكو بأنك تضعني في موقف محرج جداً». ثم استطرد الرئيس الإيراني قائلاً: «أعتقد أن من الأفضل لك أن تغادر طهران على وجه السرعة، فما قلته لي قد يبلغ سريعاً مسامع جهات أخرى فتقرر عدم السماح لك بالرحيل»[950].

حاول رفسنجاني المقدام القيام بمبادرة أخرى مستعيناً بالألمان. ففي بداية العام 1990 أرسل السفير الايراني في ألمانيا، حسين موسايان، إلى واشنطن قائمة تتضمن أربع قضايا تشكل موضع خلاف بين البلدين وهي: الإرهاب، وعملية السلام في الشرق الأوسط، وأسلحة الدمار الشامل، وحقوق الإنسان، مؤكّداً أن رفسنجاني على استعداد لإنشاء مجموعة عمل مشتركة لحل هذه القضايا كوسيلة لتمهيد الطريق أمام التقارب بينهما. غير أن الألمان أبلغوا السفير الإيراني أن الأميركيين ليسوا مهتمين بهذا الاقتراح.

لم يغفر رفسنجاني للأميركيين ما فعلوه به. كان بإمكانه التغلب على الدعم الأميركي لصدام حسين لكونه مجرد نتيجة عرضي للحرب، بيد أنه كان يأمل في إحداث تغيير في العالم بعد الحرب. من جهته، اعتبر السفير حسين موسايان أن تلك الخطوة كانت «أول خطأ استراتيجي ترتكبه الولايات المتحدة بعد الحرب». انتهز المتشدّدون في طهران، مثل محسن رضائي، فرصة الرفض الأميركي واتّخذوه دليلاً على أن الولايات المتحدة لم تكن جادة في تحسين العلاقات، وأنها كانت تحتاج إلى عدو جديد بعد انتهاء الحرب الباردة لتبرير طموحاتها الإمبريالية، وكانت إيران تفي بهذا الغرض[951].

بعد مرور بضع سنوات التقى ريتشارد هاس، الذي عمل مع سكوكروفت على ملف السياسة الإيرانية، وزير الخارجية الإيراني في أحد المؤتمرات. عندما سمع الوزير الإيراني اسمه قال له: «أجل يا سيد هاس، النوايا الحسنة تولّد نوايا حسنة»[952].

في العام 1993 عصفت رياح سياسية جديدة في واشنطن. خلافاً للرجل الذي تمكن من هزمه في الانتخابات الرئاسية كان وليام جيفرسون كلينتون، الذي نجح في الوصول إلى البيت الأبيض، عديم الخبرة في السياسة الخارجية. تميّز كلينتون، الذي غالباً ما كان يتأخر في الوصول في المناسبات، بشخصيته العفوية والجذابة وحنكته السياسية، هذا إلى جانب قدرته الخارقة على تذكّر وجوه الناس، حتى الذي التقاهم لوقت وجيزة منذ أشهر خلت أثناء حملته الانتخابية، ما أبهر عدداً كبيراً من المؤيدين المحتملين خلال المسار الذي سلكه ليصل إلى أعلى منصب في البلاد. وأظهرت دراسة عاجلة أن كلينتون أثار إعجاب الكثيرين من كبار الضباط، حتى أولئك الذين اختلفوا معه حول سياساته. كان الجنرال تشارلز كرولاك، وهو من أنصار عقيدة الولادة الجديدة ومن أشد المؤيدين للحزب الجمهوري، قائداً للبحرية خلال فترة ولاية كلينتون الثانية، وقد أبدى احترامه الشديد للرئيس لما أظهره من استعداد مطلق لطلب المشورة وقدرة على استيعاب العمليات العسكرية الحديثة المعقدة.

اتصف كلينتون بميزة اشترك فيها مع غيره من السياسيين الذين شغلوا البيت الأبيض وهي الإيمان بقدرته على الإقناع في حلّ التحديات السياسية الخارجية. كان كلينتون يعتقد أن بوسعه الجلوس مع أي زعيم، مهما كان سيئ السمعة، وحلّ كل الخلافات القائمة بين البلدين. ففي مقابلة له مع صحيفة نيويورك تايمز قبل أسبوع من تنصيبه سئل كلينتون عن مستقبل العلاقات مع صدام حسين فأجاب قائلاً: «أعتقد أنه لو كان جالساً الآن على الأريكة هنا لأحدثت تغييراً كبيراً في سلوكه»، وأضاف في وقتٍ لاحق: «أقول دائماً للجميع: أنا مَعمَدانيّ وأؤمن باهتداء الإنسان إلى الصراط المستقيم حتى وهو على فراش الموت. فإذا كان صدام يريد علاقة مختلفة مع الولايات المتحدة والأمم المتحدة فكل ما عليه القيام به هو أن يغيّر من سلوكه»[953].

لم يتصدر أيٌّ من إيران أو العراق جدول أعمال كلينتون المخصص للشرق الأوسط. فبعد حربها مع العراق، التي دامت ثماني سنوات، كانت إيران مدمّرة كلياً، فيما حيّدت عاصفة الصحراء الدكتاتور العراقي، الذي ظلّ مصدر إزعاج للقوة العظمى الوحيدة المتبقية، والذي لم يعد يشكّل أي تهديد لجيرانه الإيرانيين. احتفظت القيادة العسكرية الأميركية بآلاف الجنود في منطقة الخليج العربي، وبقي كلٌّ من البلدين تحت المراقبة الأميركية، حيث كانت تشرف الولايات المتحدة على حالة السلم بينهما.

حذّر أنتوني ليك، مستشار الأمن القومي الجديد ذو الشخصية الخبيثة، من محاولة التعامل مع طهران، لاسيما بعد فشل أسلافه من الحزب الجمهوري فشلاً ذريعاً في بحثهم عن الاعتدال الإيراني الصعب المنال. فبعد رفض إيران الالتزام بالاعتدال لجهة موقفها المعادي للولايات المتحدة أو الحد من دعمها للإرهاب، فما النفع من إضاعة الوقت في محاولة إجراء محادثات مع خصم عنيد؟[954]. لذا ركّز الرئيس كلينتون اهتمامه على تحقيق السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين بدلا من خوض حروب أسلافه من جديد.

سعى كلينتون إلى إجراء مفاوضات السلام التي كان الرئيس بوش الأب قد باشر بها بعد عاصفة الصحراء، وقد حقق تقدماً كبيراً في العام 1993 عندما أبرم اتفاقاً تمت صياغته خلال

لقاءات سرية في أوسلو بين الدبلوماسيين الفلسطينيين والإسرائيليين، ما أدّى إلى مصافحة مثيرة بين ياسر عرفات وإسحاق رابين في الحديقة الجنوبية للبيت الأبيض.

تولّى مارتن إنديك مهمة تطبيق السياسة الجديدة في الشرق الأوسط في عهد كلينتون. كان إنديك، المولود في لندن والحاصل على شهادته الجامعية في أوستراليا، في الثانية والأربعين من عمره لدى وصوله إلى البيت الأبيض لتولّي منصب مدير رفيع الشأن لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا في مجلس الأمن القومي بعد أن شغل منصب مدير الأبحاث في منظمة اللوبي المؤيدة لإسرائيل، لجنة شؤون إسرائيل العامة الأميركية (إيباك). قبل انضمامه إلى إدارة كلينتون شغل إنديك منصب المدير الأول لـمعهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، وهو مركز أبحاث يضم مجلس خبراء متعاطف مع اسرائيل، وتمكّن بفضل صرامته الفكرية من نيل احترام منافسيه من الخبراء في السياسة العربية في واشنطن. لعب إنديك دوراً حاسماً في كافة المبادرات التي أطلقها كلينتون في الشرق الأوسط، حيث كان من المؤيدين المتحمسين لعملية السلام وبناء تحالفات استراتيجية مع العرب المعتدلين.

أشرف إنديك، بعد وقت قصير من توليه منصبه، على مراجعة سياسة الرئيس في كلٍّ من إيران والعراق. وبنتيجة تلك المراجعة تمّ التأكيد مجدداً على سياسة بوش المتمثلة في احتواء صدام حسين، مع إضافة بيان جديد أصدره كلينتون لوكالة الاستخبارات المركزية يدعو إلى محاولة إطاحة الرئيس العراقي. من جهتها، كانت إيران تمثل مجموعة مختلفة من التحديات. ففي حين كان الرئيس الإيراني البراغماتي رفسنجاني قد قدّم مبادرات لتحسين العلاقات، رأى إنديك أن الحكومة الإيرانية لم تُظهر أي إشارات حقيقية عن رغبتها في الالتزام بخط الاعتدال.

في هذا السياق كتب إنديك: «سرعان ما ظهر إجماع على أن إيران عبارة عن نظامٍ معادٍ مخادع - فهي أكبر دولة راعية للإرهاب الإسلامي المتشدد»[955]. فالدعم الذي تقدمه إيران لحزب الله، وإصدارها فتوى بقتل الكاتب سلمان رشدي بسبب كتابه «آيات شيطانية»، واغتيالها رئيس وزراء إيراني سابق في باريس، ورغبتها في امتلاك أسلحة نووية، وطموحاتها الإقليمية، كل ذلك يعزز تشخيص التمرد الإيراني.

لم ينظر إنديك أبداً إلى خيار إسقاط الجمهورية الإسلامية على أنه خيار عملي، وقد أشار في مذكراته إلى هذه المسألة قائلاً: «لقد نجحت الثورة في منح الشرعية للنظام الديني، شرعية لا يقدر أحد في إيران على تحديها أو يرغب في ذلك». فالنظام حاز شرعيته من الشعب الإيراني، ولم تظهر أي معارضة ملموسة داخل البلاد[956]. وفي حال واجهت البلاد معارضة شديدة لما تمكن أحد في واشنطن من معرفة ذلك، فوكالة الاستخبارات المركزية كانت لا تزال تلملم جراحها جراء الكشف عن شبكة الجاسوسية التابعة لها لأربع سنوات خلت، حيث بات عدد عملائها الناشطين داخل البلاد قليلاً جداً، وكانت أفضل المعلومات الواردة إلى وكالة الاستخبارات مستقاة من المقابلات التي تجريها مع الإيرانيين المنفيين في لوس أنجلوس، لاسيما وأن الكثيرين منهم كانوا يسافرون بانتظام لزيارة عائلاتهم التي لا تزال مقيمة في بلدهم الأم.

لم يجد أنديك خياراً أفضل من فرض العقوبات على إيران وعزلها، لتتمكن بالتالي الولايات المتحدة من الحفاظ على العقوبات التي فرضتها على إيران مع ممارسة الضغط على الدول الأخرى للانضمام إلى الحظر الذي فرضته واشنطن. في نهاية المطاف كان إنديك والرئيس يأملان في أن تدرك الجمهورية الإسلامية التكلفة الاقتصادية الباهظة لأفعالها الشائنة وتسعى إلى تحسين سلوكها لجعل التقارب بين البلدين ممكناً.

كانت وجهة النظر الإسرائيلية تجاه إيران تتوافق مع أهداف واشنطن، فقد كانت لإنديك ومبعوث الرئيس الخاص إلى الشرق الأوسط دينيس روس وجهة نظر مشابهة لوجهة النظر الإسرائيلية تجاه إيران وعملية السلام. كتب روس في كتاب نشره عام 2004 بشأن عملية السلام قائلاً: «كنا نؤمن بشدة بالأهمية الاستراتيجية للعلاقات الأميركية الإسرائيلية، وواثقين من أن الردع الإسرائيلي وإمكانية إقامة السلام يعتمدان على عدم السماح بالتفريق بين أميركا وإسرائيل»[957]. فالسلام بين إسرائيل وجيرانها العرب يمكن أن يعزز، بحسب رأي الرجلين، الأمن الأميركي ويحقق الاستقرار والتنمية الاقتصادية في المنطقة. في هذا الإطار أوضح إنديك قائلاً إن النجاح في إحلال سلام عربي إسرائيلي شامل سيُسهم في عزل العراق وإيران بشكل كامل؛ كما وأن النجاح في احتواء الأنشطة التي يمارسها كلٌّ من هذين النظامين لزعزعة السلام سيُسهّل على جيران إسرائيل العرب تحقيق السلام مع الدولة اليهودية. «لقد كانت خطة بارعة ومنطقية»[958].

استخدم إنديك مجلس خبرائه القديم، في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، كمنبر للكشف علناً عن نتائج مراجعته السياسية كجزء من خطاب واسع النطاق يصف الاستراتيجية الأميركية الجديدة في الشرق الأوسط. وفي 18 أيار/مايو من العام 1993 وصف إنديك الاستراتيجية، في «منتدى سوريف» السنوي للمعهد الذي عُقد في فندق واشنطن، بـ«الاحتواء المزدوج»[959].

على هذا الصعيد قال إنديك: «تترتكز مبادرتنا بشكل أساسي على الامتثال لمفهوم استقلالية النصف الغربي عن النصف الشرقي في المنطقة، على الرغم من تعايشهما». فاحتواء إيران والعراق من شأنه أن يمنح العرب والإسرائيليين حرية عقد السلام، ليُسهم بعدها الشرق الأوسط الموحّد في تعزيز عملية احتواء العراق وإيران[960].

واستطرد قائلاً إن إيران تصطاد في الماء العكر في مختلف أنحاء العالم العربي، باذلةً ما في وسعها لتقويض الحكومات الصديقة، مشيراً إلى محاولات إيران لتعطيل عملية السلام من خلال دعمها لحماس وحزب الله، ومتّهماً طهران بالسعي لامتلاك أسلحة نووية لتتمكن بالتالي من فرض سيطرتها على الخليج العربي بالوسائل العسكرية. وفي مواجهة ذلك على الولايات المتحدة التمسك بالعقوبات الاقتصادية والضغط على أوروبا وآسيا للموافقة على فرض قيود اقتصادية وعسكرية على التجارة مع طهران.

وحذّر إنديك قائلاً: «إذا فشلت جهودنا في تغيير سلوك إيران فسوف تشكّل بعد خمس سنوات من الآن تهديداً أعظم لإسرائيل، وللعالم العربي، وللمصالح الغربية»[961].

اقترنت استراتيجية الإدارة الجديدة حيال إيران بشعارات قاسية أطلقها كبار المسؤولين. فخلال سلسلة من المحادثات الجارية في واشنطن وصف وزير الخارجية المتزمت وارن كريستوفر إيران بالمجرم الدولي الخارج عن القانون لدعمها الإرهاب ومعارضتها عملية السلام. وكتب أنتوني ليك مقالة عدائية في مجلة «فورين أفيرز» (Foreign Affairs) أعرب من خلالها عن دعمه للاحتواء المزدوج ودافع عن الاستراتيجية التي قد تمكّن الولايات المتحدة من تغيير الأنظمة الفاسدة[962].

تسبّب البرنامج النووي الإيراني الجديد بإثارة الكثير من الجدل في واشنطن. وتوقع وزير الخارجية الإسرائيلي شمعون بيريز أن تصبح إيران قادرة على امتلاك القنبلة بحلول العام 1999، قائلاً: «لا أحد بإمكانه الوقوف في وجه دولة إرهابية متطرفة تمتلك أسلحة نووية». وفي المؤتمر نفسه، الذي عقده «معهد واشنطن»، ردّد العضو الجمهوري بول ولفوويتز المخاوف التي أعرب عنها إنديك في مرحلة سابقة قائلاً: «لقد باشر الإيرانيون برنامجاً طويل الأمد لامتلاك أسلحة نووية»، وأضاف محذّراً: «إن المشكلة، في إطارها النووي، لا تعنينا مباشرةً، ولكن إن لم يحدث أي تغيير على مستوى آخر فإن علينا أن نواجه هذه المشكلة في مرحلة ما خلال السنوات الخمس إلى العشر المقبلة»[963].

تقاسم العديد من المسؤولين الرسميين في واشنطن توقعات بيريز بشأن امتلاك إيران القنبلة خلال عقد من الزمن، وأخبر الجنرال جون شاليكاشفيلي، خلال جلسة إقرار تولّيه منصب رئيس هيئة الأركان المشتركة في العام 1993، أعضاء مجلس الشيوخ بأن إيران قادرة على تصنيع سلاح نووي خلال فترة تمتد من ثماني إلى عشر سنوات، أو بين عامي 2001 و2003. وكانت تصريحاته تعكس التخمينات المتداولة في تلك الحقبة في وكالة الاستخبارات المركزية، كما ودعمتها دراسة تقديرية حديثة أجرتها أجهزة الاستخبارات[964].

كان المرشد الإيراني الأعلى الجديد، آية الله علي خامنئي، أقل تحفظاً من الخميني فيما يتعلق بالذرّة. وقد أسهم الكشف عن برنامج الأسلحة النووية السري العراقي عقب عاصفة الصحراء والوجود العسكري الأميركي الدائم في المنطقة في اتخاذ طهران قراراً بتسريع البحوث النووية[965]. ولمّا استانفت إيران، في العام 1991، برنامجها للطاقة النووية طلبت المساعدة من الدول الأوروبية والصين، فوقّعت طهران اتفاقية مع الصين لبناء محطة لتوليد الكهرباء، كما وقعت اتفاقية أخرى في العام 1995 مع روسيا لاستكمال محطة بوشهر للطاقة النووية بعد مفاوضات استمرت أكثر من عام. غير أن هذه الخطوات لا تشكّل دليلاً على وجود برنامج للأسلحة النووية، كما وأن عملية

التفتيش التي أجرتها الوكالة الدولية للطاقة الذرية (IAEA) في العام 1992 لم تظهر أي أدلة تشير إلى وجود برنامج سري.

على الرغم من ارتياب وكالة الاستخبارات المركزية في دوافع إيران ظلّت المعلومات الاستخباراتية المتوفرة ضئيلة، كما وتبين أن التقديرات الأميركية بشأن تقدم برنامج إيران النووي غير صحيحة. ففي العام 2002 توقعت الحكومة الأميركية أن تتمكّن إيران من اكتساب الخبرة اللازمة لإنتاج سلاح نووي، بينما توقعت وكالة الاستخبارات المركزية ألاّ تتمكن إيران من امتلاك سلاح نووي إلا بعد مرور ثماني أو عشر سنوات أخرى.

وفي حين كانت التوقعات المروّعة بشأن برنامج إيران النووي مبالغاً فيها، تبيّن أن التوقعات المتعلقة بمعارضة إيران لعملية السلام العربية الإسرائيلية دقيقة جداً. فإيران تنظر إلى السلام بين إسرائيل والعرب على أنه تهديد خطير لمصالحها لاسيما وأن نجاحه يُبشّر بوحدة خصمي إيران ليبقى بعدها البلد الفارسي معزولاً، تماماً كما تنبأت إدارة كلينتون. وعلى الرغم من أن الرئيس رفسنجاني لم يفقد الأمل في التقرّب من واشنطن، إلا أن المرشح السابق لرئاسة الجمهورية الإيرانية هوشنك أمير أحمدي أوضح قائلاً: «لن تسمح أي حكومة إيرانية لعدوّيْها بالتحالف أو حتى بولادة تحالف بينهما»[966].

ترى الحكومة الإيرانية أن الاحتواء المزدوج وعملية السلام يهدفان بشكل مباشر إلى إسقاط الجمهورية الإسلامية. فقد اعتاد القادة في طهران على النظر إلى كافة الإجراءات الأميركية في المنطقة من خلال عدستهم الخاصة، حيث اعتبروا كل عملية انتشار جديدة للقوات الأميركية المسلحة موجّهة نحوهم. فعقب نشر ثلاثين ألف جندي أميركي في منطقة الخليج أشار كين بولاك، العالم في شؤون الشرق الأوسط والمحلل السابق في وكالة الاستخبارات المركزية، إلى أن الراديكاليين - وعامة الشعب الإيراني- اعتبروا هذا الإجراء خير دليل على التطلعات الخبيثة للولايات المتحدة وتركيزها بشكل أساسي على إيران»[967].

تصاعد التوتر في المنطقة عقب الهجوم الذي شنّته الطائرات الإسرائيلية على قاعدة تدريب لحزب الله، ما أسفر عن مقتل العشرات من المجنّدين وعددٍ من المستشارين الإيرانيين. هذا ونفذ حزب الله بالتعاون مع إيران عملية تفجير مركز الجالية اليهودية في بوينس آيرس في 18 تموز/يوليو 1994، ما أدّى إلى مقتل خمسة وثمانين شخصاً وجرح المئات. في تلك الحقبة أظهرت إيران اهتماماً خاصاً بمجموعات فلسطينية رافضة لوجود إسرائيل، وخصوصاً حركة حماس، وهي حركة أصولية دينية تربطها علاقات سطحية بجماعة الإخوان المسلمين في مصر. ظهرت حركة حماس خلال الانتفاضة الفلسطينية في العام 1987 بمساعدة بسيطة من إسرائيل التي كانت تأمل أن تتمكن الحركة من تقويض سلطة عرفات. وعلى الرغم من اعتراف الأصوليين بياسر عرفات واحترامهم إياه، إلا أنهم اعترضوا بشدة على التوقيع على معاهدة سلام مع إسرائيل، لكونها يمكن أن تضع حداً لمطالبة الفلسطينيين باستعادة أرضهم التي كانت ملكاً لهم قبل العام 1948. لم يكن من المرجح أن تتوصل إيران الشيعية إلى عقد تحالف مع حماس السنّية، فإيران لم تكترث يوماً للقضية

الفلسطينية، وظلت حماس مجرد مجموعة محلية تُعنى بشكل حصري بالمسائل الطارئة مع الإسرائيليين. ولكن مارتن إنديك لم يخطئ عندما أشار إلى أن إيران كانت وراء التحالف بين الشطر الشرقي والشطر الغربي في الشرق الأوسط.

من بين الأشخاص الذين أوفدتهم حماس إلى طهران لترسيخ العلاقات بينهما مهندس كيميائي يبلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً اسمه أسامة حمدان. أسامة ابن لاجئ فلسطيني يعيش في قطاع غزة، يتميز بلحيته المشذبة بعناية ووجهه الشاحب السمح. وصل حمدان للمرة الأولى إلى طهران في العام 1992 بصفة موفد من حركة حماس ومن ثم بصفة الممثل الرئيسي للحركة، وقد قضى ست سنوات في السعي جيئةً وذهاباً من منزله القائم في ضواحي بيروت إلى إيران باعتباره أحد المفاوضين الرئيسيين المساعدين على تعزيز الدعم السياسي الإيراني لحركة حماس. وعلى غرار العديد من العرب المقيمين في المنفى بين الفرس وجد حمدان الإيرانيين متعجرفين. ولكنه أدّى دوراً رئيساً في صقل الدعم الإيراني لحماس، حيث تمكن من إقناع إيران بإيجابيات دعم حركة حماس على حساب حركة فتح التي يتزعمها عرفات. كما تمكّن حمدان، بأسلوبه المهذب وطلاقته في اللغة الإنكليزية، من تطوير شخصية شبيهة بشخصية نجم موسيقى الروك خلال جولاته المكوكية على الفنادق الفاخرة في مدن الخليج العربي، وساهم في اكتساب اعتراف الحكومات العربية، المعادية بصور عامة للجماعات الإسلامية، بشرعية حركة حماس. حرصاً منها على الحفاظ على أمنها فصلت حماس جناحها السياسي في إيران عن جناحها العسكري، ليتمكن حمدان من الاهتمام بالجانب الدبلوماسي بعيداً عن عناصر الحركة الآخرين المعنيين بشؤون الأسلحة والمتفجرات. غير أن ذلك لم يمنعه من الاضطلاع بشكل دقيق ومفصل في أنشطة حماس على الرغم من سلبيتها[968].

لم يحاول أسامة حمدان أن يوهم نفسه بأن إيران تهتم حقاً بمحنة الفلسطينيين، فالتوافق بينهم، بالنسبة إليه، أشبه بزواج مصلحة، لاسيما وأن العلاقات الأيديولوجية والدينية التي تربط حزب الله بإيران غير متوفرة في حالة حماس[969].

الدعم الذي تقدمه إيران لحماس إنما يوفر لطهران الوسائل اللازمة لضرب الإسرائيليين وتوسيع نفوذها إلى أبعد من لبنان. أما بالنسبة إلى حركة حماس فقد أشار حمدان إلى أن إيران توفر لها وسائل المقاومة. فإذا وافقت دول أخرى على دعم قضية حركة حماس فلن يأبه بعدها أحد لإيران بمن فيهم الحركة نفسها[970].

خلال العقدين التالين حرصت إيران على تأمين الأسلحة والمتفجرات لحركة حماس حيث طوّر عملاء الحرس الثوري الإيراني السريين، أو فيلق القدس، شبكة معقدة لتأمين وصول الأسلحة إلى حماس. فكانت السفن الإيرانية المزودة بمخابئ سرية للأسلحة في جزئها السفلي تُبحر عن طريق البحر الأحمر لنقل الأسلحة إلى مهربين سودانيين يتقاضون رواتبهم من ضباط فيلق القدس الإيراني. وبعد إخفاء الأسلحة في أكياس من الإسمنت أو مواد أخرى غير ضارة يشقّ المهربون السودانيون طريقهم، بواسطة القوافل، عبر السودان ومصر، وصولاً إلى غزة والضفة الغربية. أتاح

ذلك للحركة تنفيذ عمليات واسعة النطاق في إسرائيل، ما ترك انعكاساً سلبياً على محادثات السلام ودفع بحكومة الليكود، التي لم تظهر أي اهتمام بتحقيق المصالحة مع حركة حماس، إلى اتخاذ موقف متشدد. في المقابل، عزز الحرس الثوري علاقاته مع السودان، ومع حلول العام 2008 بدأت المناقشات بشأن إنشاء قاعدة بحرية للحرس الثوري في السودان حيث يمكن للقوات البحرية الإيرانية أن تتمركز وتهدّد الممر البحري الثاني من حيث الأهمية في الشرق الأوسط بعد مضيق هرمز، أو قناة السويس.

وفي حين بدت واشنطن وكأنها تجد صعوبة في فهم ما يجري، أثارت السياسة الأميركية المتشددة الداعية إلى الاحتواء المزدوج والردّ الإيراني الدموي تجاه عملية السلام سلسلةً من ردود الأفعال دفعت بالبلدين إلى سلوك مسار الحرب من جديد. لم يكن أيٌّ من الطرفين قادراً على فهم نظرة الآخر إلى أفعاله، وكان سوء التقدير هذا يهدّد بتفاقم الأزمة المتنامية.

تركت الحرب العراقية الإيرانية والانتصار الأميركي السريع على العراق خلال عملية عاصفة الصحراء أثراً في التفكير العسكري الإيراني. ففي ربيع العام 1991 اجتمع ضباط الجيش في طهران لمناقشة المتطلبات المستقبلية في ضوء كلٍّ من الحرب الراهنة على العراق ومواجهتهم الأخيرة مع البحرية الأميركية. وعلى الرغم من أن المجتمعين كرّسوا الجزء الأكبر من هذا الاجتماع للإشادة مطولاً بالجهود البطولية التي بذلوها خلال الحرب الإيرانية العراقية لصد قوى الإكبار العالمي، استخلص الجنرالات والأدميرالات دروساً هامة من خلال استعراضهم أحداث الماضي القريب. واستنتج ضباط البحرية أن استراتيجيتهم ضد الولايات المتحدة كانت سليمة، ولكنهم كانوا يفتقرون إلى الوسائل اللازمة لتنفيذها بشكل صحيح، فصاروخ واحد أُطلق من زورق «جوشان» (Joshan) دمّر أكبر سفينة حربية أميركية في الخليج العربي، ما يعني أنه لو تمّ إرسال المزيد من القوارب والصواريخ لكانت المعركة مكلفة بالنسبة إلى البحرية الأميركية.

من جهتهم، رأى عناصر الحرس الثوري أن السفن التقليدية الكبيرة ساهمت في دعم الأميركيين. فالسهولة التي ضربت بها البحرية الأميركية للمركبين «سهند» و«سبلان» أثبتت ضعف سفن البحرية القتالية الرئيسة، لاسيما وأن الهجمات التي نُفّذت بواسطة الزوارق الصغيرة والألغام حققت الأغراض المرجوة. وفي حين تزايدت هذه الهجمات بدافع الضرورة، كشفت إيران عن وسائل غير متكافئة للتصدي للأسلحة الأميركية المتفوقة؛ فقد اختارت البحرية الإيرانية مراكب صغيرة قادرة على التسلل خفيةً ومواجهة القوات الأميركية. وحال العجز المالي وتردد القوات البحرية الجوية عن استخدام الأجهزة الأميركية، دون إجراء أي تحديث، كما وأدركت إيران أنها لن تتمكن من منافسة القوات الأميركية إن لم تلجأ إلى تحسين تكنولوجياتها العسكرية بالاستناد إلى عقيدتها الجديدة[971].

ضاعفت إيران مشترياتها من الأسلحة ما بين عامي 1990 و1993، فاشترى الحرس الثوري من الصين مئة لغم بحري ليرتفع بالتالي حجم مخزونها من الألغام إلى أكثر من خمسة آلاف لغم، معظمها من نوع الألغام التي استخدمت في الثمانينيات. في نهاية الحرب العراقية الإيرانية

كانت الترسانة الإيرانية تفتقر إلى صواريخ مضادة للسفن صالحة للاستعمال، وفي حين وحاولت إخفاء هذا النقص في عروضها العسكرية باستخدام الصواريخ المعطّلة، كان عليها أن تبذل الكثير من الجهد لتغطية هذا النقص. ففي العام 1995 تمكنت من الحصول على صواريخ كروز C-802 المضادة للسفن، الصينية الصنع، وهي البديل الصيني لصواريخ إكزوسِت التي استخدمها العراق بفعالية ضد السفن التجارية الإيرانية خلال حرب الناقلات. وفي العام التالي اشترت إيران زوارق صاروخية سريعة صينية الصنع قادرة على حمل تلك الصواريخ، وحرصت على إضافة هذه المشتريات كلها إلى ترسانة الحرس الثوري. ففي الحرب القادمة مع قوات البحرية الأميركية لن تكون إيران مزودة بصاروخ واحد أو ببضعة زوارق سريعة ترسلها لمهاجمة طراد أميركي، بل سترسل هذه المرة سرباً من الزوارق، المجهزة بالصواريخ والمدافع الرشاشة والقذائف، والطوربيدات المصمّمة لاختراق دفاعات السفينة.

باشرت إيران العمل على برنامج ضخم لإنتاج الصواريخ الباليستية، فعجز إيران عن صدّ العراق سيترك أثراً كبيراً على المرشد الأعلى الجديد. وقد أنفقت إيران ملايين الدولارات على أبحاث إنتاج صواريخها وبنائها، حيث يتميز كل جيل جديد من الصواريخ بدقته الفائقة وبعد مداه. وقد شكّلت سلسلة صواريخ «شهاب» العمود الفقري لبرنامج إيران للصواريخ الباليستية؛ القادرة على حمل رأس حربي يزن 122 باوند إلى مسافة طويلة يمكن أن تصل إلى إسرائيل. وقد وصف وزير الدفاع الإيراني علي شمخاني في كثيرٍ من الأحيان استراتيجية إيران بالردع الاستراتيجي، لكونها تستهدف العراق وإسرائيل معاً، كما وأنها ثمرة عدم قدرة إيران على الرد على الهجمات الصاروخية العراقية في العام 1988.

حفرت إيران نفقين ضخمين يبلغ عمقهما أكثر من مئة متر في التراب وتحت الصخور لحماية مخزونها من الصواريخ من الصواريخ الأميركية الموجّهة بدقة، وبنى الحرس الثوري أكثر من ستمئة مستودع من الخرسانة المسلّحة، في محيط مضيق هرمز، لتخزين الألغام الإيرانية أو الصواريخ المضادة للسفن التي امتلكتها إيران حديثاً، وتمّ نشر المرافق المخصصة لإخفاء الصواريخ بطريقة تجعل من الصعب على الأميركيين تدميرها عبر الهجمات الجوية.

في البنتاغون، اعتُبر برنامج إيران النووي وتعزيز الترسانة العسكرية تحدياً جديداً للتفوق الأميركي في الخليج العربي. وحذّر تقويم عسكري أجري في العام 1994 من كون طهران تمتلك الآن «القدرة على تهديد سفن الشحن في أي مكان على طول الساحل الإيراني». وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة كانت لا تزال تتباهى بنصرها على العراق، وباحتفاظها بقوة جوية مكثفة في أجوائها، إلا أن إيران عادت لتشكّل تهديداً للهيمنة الأميركية على الخليج العربي. وللمرة الأولى منذ العام 1988 تكشف القيادة المركزية الأميركية عن خططها العسكرية حيال إيران، وهي هذه المرة لن تكون موجّهة ضد الجيش السوفيتي الغازي بل سترسم الخطوط العريضة لإسقاط الجمهورية الإسلامية.

الفصل الحادي والعشرون

حرب أم سلام

في العام 1995 بدا أن الولايات المتحدة وإيران تتجهان نحو الحرب. كان قائد القيادة المركزية الأميركية، الجنرال جيمس هنري بينفورد «بيني» بي، قد قرّر إخافة إيران بسلسلة من المناورات العسكرية البرمائية في جميع أنحاء منطقة الخليج العربي، وخلال أسبوع كامل، في أيلول/سبتمبر 1994، قام ألفا فرد من مشاة البحرية بإنزال برمائي في سلطنة عمان، وانضمت فرقة كبيرة من نخبة قوات العمليات الخاصة في الجيش والبحرية إلى قوات مشاة البحرية، بالإضافة إلى طائرات حربية انطلقت من حاملة طائرات. وعند الانتهاء من هذه العملية انتقلت قوات المارينز بسرعة إلى دولة الإمارات العربية المتحدة وأجرت مناورات أخرى أُطلق عليها اسم «السحر الحديدي» (Iron Magic)، وهي عبارة عن سلسلة من الغارات البرمائية السريعة التي تحاكي إنزالاً محتملاً على إحدى الجزر التي تحتلها إيران مثل أبو موسى. وكانت القيادة المركزية الأميركية تأمل أن يكون لهذه المناورات تأثيرٌ رادع على القادة الإيرانيين. لكنها أتت بعكس النتائج المرجوة[972].

اعتبرت طهران هذه العملية الوهمية بمثابة تمرين على هجوم أميركي وشيك، ونقل أحد جواسيس طهران في الخليج معلومات زائفة تدعم هذا الافتراض، فعقد قائد الحرس الثوري محسن رضائي اجتماعاً عاجلاً في طهران، وحذر من أن الولايات المتحدة تستعد لاستعادة السيطرة على جزر الخليج لمصلحة العرب، ربما تمهيداً لغزو الجمهورية الإسلامية وإسقاطها. بدأت إيران عملية حشد هائل لقواتها العسكرية في جزر الخليج العربي، وحوّلتها إلى قلاع فعلية، وبنت مرابض إسمنتيّة للدبابات والمدفعية وحفرت شبكة من الخنادق لا نهاية لها، وفي جزيرة أبو موسى وحدها نشرت إيران أربعة آلاف جندي مزوّدين بصواريخ سطح -جو مضادة للسفن. وهكذا أدت الخطوة التي كان يراد منها تخويف إيران إلى زيادة التوتّر إلى أقصى حدّ ممكن.

في 1 آذار/مارس، دقّ رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال جون شاليكاشفيلي ناقوس الخطر في واشنطن. وخلال فطور مع الصحافيين ردّ شاليكاشفيلي، البولندي المولد، صراحةً على سؤال حول التعزيزات الإيرانية في الجزر بالقرب من مضيق هرمز قائلاً بلهجة مضطربة: «لقد بدأوا في اليوم التالي بنصب الصواريخ على منصات إطلاقها، الأمر الذي لم يفعلوه من قبل»، مضيفاً أن هذا يزيد من المخاوف من قدرة طهران على عرقلة إمدادات النفط في العالم[973].

ولكن الرئيس كلينتون قلّل علناً من أهمية التصرفات الإيرانية، بعد أن نقلت وكالات الأنباء مراراً وتكراراً تعليقات رئيس هيئة الأركان المشتركة شاليكاشفيلي، وصرّح للصحافيين قائلاً: «لا داعي لقلقٍ لا مبرر له في هذه اللحظة»، وقد غاب بشكل لافت أي ذكر للإجراءات الأميركية التي عجّلت التعزيزات العسكرية الإيرانية.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

طلب وزير الدفاع وليام بيري من الجيش أن يُعدّ في الخفاء خطة حرب جديدة مع إيران. كانت الخطة العسكرية الوحيدة الموجودة في القيادة المركزية الأميركية هي تلك الخطة التي وضعها إرنست ويل، وهي الخطة التي يراد منها إبقاء الممرات البحرية في الخليج العربي مفتوحة أمام سفن الشحن التجارية. بعث شاليكاشفيلي برسالة شخصية إلى قائد القيادة المركزية الأميركية طالبه فيها بتوسيع هذه الخطة المحدودة لتشمل الدفاع عن عرب الخليج من هجوم صاروخي إيراني والتخطيط لهجمات جوية على الأراضي الإيرانيّة[974].

حاول الرئيس الإيراني رفسنجاني نزع فتيل التوتر وتحسين العلاقات بين البلدين، فقام، بموافقة المرشد الأعلى، بإبرام عقد بقيمة بليون دولار مع شركة النفط الأميركية «كونوكو» لتطوير أحد حقول النفط البحريّة في بلاده بالقرب من جزيرة سيري. عندما وصلت أنباء الصفقة إلى واشنطن دعمها كلٌّ من وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية. اعتقد الدبلوماسيون أن بوسع هذه الصفقة أن تساعد على نزع فتيل التوتر في حين أمل الجواسيس أن تسهّل الوصول إلى المعلومات من داخل إيران.

ولكن في تلك السنة سيطر الجمهوريون على الكونغرس. أثارت صفقة «كونوكو» غضب الجمهوريين المتعاطفين مع إسرائيل والمعادين لإدارة كلينتون، فسنّ مجلسا الشيوخ والنواب في الكونغرس الأميركي تشريعات جديدة تهدف إلى إغلاق باب التجارة بين الولايات المتحدة وإيران التي بلغ حجمها ما يقرب من 4 مليارات دولار سنوياً، وإلى وأد اتفاقية «كونوكو» في مهدها. رضخ كلينتون بسرعة، وفي ربيع العام 1995 وقّع على أمرين تنفيذيين يلغيان اتفاقية «كونوكو» ويحدّان بشكل كبير من التجارة مع إيران. كثّفت وزارة الخارجية جهودها مع روسيا وأوروبا للحدّ بشكل جذري من بيع إيران أي شيء يمكن أن يستخدمه الجيش الإيراني أو يمكن الاستفادة منه في البرنامج النووي الإيراني.

في البداية جاء ردّ رفسنجاني هادئاً تجاه تصرفات الأميركيين، وقال في لقاء مع الصحافيين الروس إن الولايات المتحدة هي الخاسر الوحيد من الحظر التجاري الذي فرضته. كما أنه لم يؤيد مخاوف بعض القادة الإيرانيين في ما يخصّ النوايا الأميركية لقلب نظام الحكم في الجمهورية الإسلامية قائلاً: «لا أميل في الوقت الحاضر إلى رؤية أي تهديد للثورة وللنظام السياسي سواء على الصعيدين الداخلي أو الخارجي»، وأضاف أن بادرة حسن النية من جانب الولايات المتحدة من شأنها أن تولّد البادرة نفسها من الجانب الإيراني[975].

ولكن بعد ذلك دعا الرئيس الجديد لمجلس النواب نيوت غينغريتش والمفكر الجورجي علناً وبلا تحفظ أمام الصحافة إلى إسقاط النظام الإيراني. وقد جادل بأن تطويق العدو بالطريقة المزدوجة التي يعتمدها كلينتون تفتقر إلى الحزم في التعاطي مع الملالي المتعنّتين[976]. وفي الوقت الذي رفضت فيه إدارة كلينتون إمكانية إسقاط الحكومة الإيرانية حثَّ غينغريتش علانيةً على ضخ مبلغ 18 مليون دولار إضافية لدعم عمل وكالة الاستخبارات المركزية السرّي في إيران. كان لدى الوكالة برنامجاً متواضعاً جداً مصمّماً للحصول على معلومات موثوقة عن الولايات المتحدة في إيران، لكن التمويل الإضافي الذي أمّنه غينغريتش لم يضف إلا القليل على تلك الجهود التجسّسية الناشئة. لم يؤدِّ المال إلى بذل جهود لزعزعة استقرار الحكومة الإيرانية، فخفضت «لانغلي» من مستوى تطلعها وقامت بعمليات صغيرة مثل برنامج «الكتب العظيمة» الذي سعى لتهريب كلاسيكيات الأدب الغربي إلى داخل إيران[977]. في حين كان هذا البرنامج يضمن وصول طلاب جامعة طهران إلى أعمال كافكا والاطّلاع على كتاب ألكسيس دي توكفيل «الديمقراطية في أميركا»، إلا أنه لم يؤثر على السلوك الإيراني. إن تصريح غينغريتش العلني بشأن تأمين التمويل للاستخبارات قضى على أيّ فرصة للقيام بعملية سرّية الآن. أدرك رئيس الكونغرس هذا بالتأكيد، لكن النقاش في حدّ ذاته كان كافياً برأيه، فمجرد مناقشة أيّ عمل سريّ ضد إيران يعطي النتيجة ذاتها كما لو أنه كان برنامجاً فعليّاً.

أغضب تمويل غينغريتش لوكالة الاستخبارات المركزية الإيرانيين. الحقيقة أن تدخل «سي. آي. إيه.» في شؤون إيران الداخلية كان يزعجهم حقا، وكان العديد من الإيرانيين يفترضون أن «سي. آي. إيه.» كانت تقوم بمثل هذه الأنشطة، ولكن الآن ظهر سياسي أميركي بارز يتحدث عن مثل هذه العمليات علناً. وفي حين كان مبلغ 18 مليون دولار صغيراً بحسب المعايير الأميركية، إلا أنه يمثل نسبة كبيرة من ميزانية إيران المخصّصة للأعمال السرّية.

قال الضابط في مجلس الأمن القومي، الذي خدم سابقاً في وكالة الاستخبارات المركزية، كين بولاك: «نظر الإيرانيون إلى الأمر باعتباره إعلاناً أميركياً عن حرب سرية ضدهم. الولايات المتحدة لن تقوم بغزو إيران ولكنها سوف تفعل كلّ ما عدا ذلك»[978].

قام نائب وزير الخارجية جواد ظريف، وهو دبلوماسي براغماتي كان يفضّل أن تكون العلاقات مع واشنطن أفضل مما هي، بإدانة الولايات المتحدة لانتهاكها القانون الدولي واتفاقيات

الجزائر المبرمة عام 1981 التي أدت إلى الإفراج عن رهائن السفارة الأميركية في طهران، والتي تعهّد الرئيس كارتر بموجبها «بعدم التدخل، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، سياسياً أو عسكريّاً، في الشؤون الداخلية الإيرانية»[979]. وتلاه المرشد الأعلى آية الله خامنئي في إدانته واشنطن عندما انتقد في خطابه خلال حفل تخريج ضباط الجيش أفعال الولايات المتحدة قائلاً: «طالما أن إيران الحبيبة تواصل تألقها باعتبارها دولة إسلامية بين دول العالم الأخرى فستظل هدفاً للأعمال الإرهابية المخزية التي يقوم بها أعداء الإسلام كوكالة الاستخبارات الأميركية وحلفائها الأشرار من الوكالات الصهيونية»[980].

صادق البرلمان الإيراني بسرعة وعلى مرأى من العالم على ضخ مبلغ 20 مليون دولار لمواجهة نشاط وكالة الاستخبارات الأميركية السرّي، وهي خطة لها حظّ في النجاح بمقدار ما لفكرة غينغريتش. وقتذاك اعتقلت الحكومة الإيرانية خمسة رجال وأعدمتهم شنقاً بتهمة التجسس لصالح كلٍّ من العراق والولايات المتحدة. وفي حزيران/يونيو 1996 اعتقلت ثلاثة رجال آخرين للاشتباه بأنهم عملاء للاستخبارات المركزية الأميركية[981].

تفوقت إيران في حربها السرية، وأجهزة مخابراتها تجاوبت بطريقتها التقليدية. أصبحت البحرين، الدولة الخليجية الصغيرة، أول هدف لها. كانت إيران تعتقد أن لديها قاعدة دعم في البحرين حيث غالبية السكان من الشيعة المحرومين من حقوقهم ويعيشون تحت سلطة أمير سنّي استبدادي. أرسلت إيران عملاء بحرينيين لها إلى لبنان لتدريبهم، وأعادتهم كجزء من خلية نائمة مسمّاة حزب الله - البحرين، شكّلتها طهران قبل ثلاث سنوات. في حزيران/يونيو 1996 كشفت قوات الأمن البحرينية مؤامرة تقودها إيران لإطاحة الأمير، وفي اجتماع في البيت الأبيض قدّم السفير البحريني للأميركيين أدلة دامغة، بما في ذلك صور لمخابئ الأسلحة ووثائق للحرس الثوري تخطط للعملية. اعتقلت الشرطة تسعة وعشرين متآمراً، وفرّ آخرون إلى إيران[982].

أنشأت إيران خلية مماثلة في المملكة العربية السعودية مؤلفة من الشيعة في المنطقة الشرقية. بدأت حملة التجنيد لهذه الخلية في العام 1988، ردّاً على دعم المملكة العربية السعودية لمواكبة الجيش الأميركي لناقلات النفط الكويتية.

كان زعيم الجناح العسكري لحزب الله السعودي هو أحمد المغسل، وهو رجل نحيل ذو لحية سوداء صغيرة مشذبة، وكان مخلصاً لمعتقداته الدينية ولكرهه لنظام الحكم الملكي في السعودية. عاش المغسل في بيروت بصورة أساسية، وأقام علاقات وثيقة مع أقدم جناح لبناني لحزب الله. كان يهرّب مقاتلين سعوديين عبر سوريا إلى لبنان، حيث كانوا يتلقون تدريبات على استخدام الأسلحة وصنع القنابل.

ترأس العميد أحمد شريفي فرعاً سرّياً في فيلق «القدس» الإيراني، يُسمّى الفرع 6000، وهو الذي كان يدير الخلية السعودية. راح شريفي يراقب عن كثب عمليات المغسل، فاقترح على ضباطه مراقبة القواعد والمباني الأميركية، حتى إنه كان يتصل بهم هاتفياً للاستفسار عن تقدمهم

ويحدّد «أهدافاً» إضافية ليستكشفها حزب الله السعودي. كان ضباط فيلق القدس يجتمعون بالمغسل في بيروت لتمويل عملياتها، وكثيراً ما دفعت للسعودي رزماً من فئة المئة دولار أميركي[983].

أصبحت سوريا محطة هامة بين حزب الله السعودي وإيران. فالسفارة الإيرانية هناك كانت تقدّم التمويل والدعم اللوجستي لعمليات المغسل، وكثيراً ما كان يجتمع ضباط فيلق القدس بأعوانهم السعوديين في مقام السيدة زينب جنوب دمشق، وهو صرح ضخم له فناء كبير مكسو بالبلاط الأزرق اللامع وتعلوه قبة ذهبية متلألئة، ويُعتقد أن ابنة عليّ وحفيدة النبي محمد دُفنت فيه. يتوافد إلى هذا المكان آلاف الحجاج الإيرانيين كل عام، ما يجعل من السهل على ضباط فيلق القدس أن يدخلوه ويخرجوا منه دون أن يلفتوا النظر. كان الإيرانيون يجتمعون بأعوانهم السعوديين في زوايا غرفة هادئة ويواظبون على اختيار مرشّحين جدد لتجنيدهم.

في مطلع العام 1993 بدأ رجال المغسل بمراقبة المنشآت الأميركية، وكانت تقاريرهم تشقّ طريقها إلى الفرع 6000. اعتبر فيلق القدس ذلك عملاً حذقاً على الرغم من عدم وجود تخطيط لهجمات في المستقبل القريب. سرعان ما لفتت السفارة الأميركية في الرياض انتباههم، وراح حزب الله السعودي يراقب مجيء موظفيها وذهابهم، بما في ذلك مراقبة سوق للسمك كان الأميركيون يقصدونها. في أواخر العام 1994 مررت إيران بناءً على طلب من القائد شريفي قائمة بأسماء المنشآت العسكرية الأميركية في المملكة العربية السعودية، وأرادت من رجال المغسل أن يقوموا بمراقبتها. كان أحد الأهداف المدرجة مجمعاً سكنياً للقوات الجوية الأميركية يدعى أبراج الخُبر، الذي بني أصلاً في العام 1979 من أجل إسكان البدو فيه، ولكنهم رفضوا الإقامة فيه، فأبقى السعوديون عليه لأجل الجيش الأميركي، فضلاً عن أنه يقع بالقرب من قاعدة جوية مهمة في الظهران في محافظة شيعية في شرق المملكة العربية السعودية. تتألف أبراج الخبر من مبانٍ سكنية شاهقة، من بينها مبنيان يتألفان من ثمانية طوابق على شكل حرف T ويقعان في الطرف الشمالي. بعد عاصفة الصحراء سكن نحو ألفي أميركي أبراج الخبر، على الأقل في خلال نشر القوات الأميركية لإسناد العمليات الجويّة في سماء العراق.

بعد أن ألغت الولايات المتحدة صفقة كونوكو وفرضت حصاراً تجارياً جديداً على إيران، كثّفت المخابرات الإيرانية وقوة القدس التابعة للحرس الثوري المراقبة على القواعد العسكرية الأميركية في الشرق الأوسط بحثاً عن أهداف مستقبلية، بأوامر من المرشد الأعلى آية الله خامنئي على الأرجح. أوضح المغسل في اجتماع عُقد في شقته في بيروت لأحد رجاله - كان قد قدم إلى لبنان ليتلقّى تدريباً على الرماية لدى حزب الله- أن الهدف هو طرد الأميركيين من المملكة العربية السعودية. كان من الواضح أن موعد التنفيذ ومكانه تقررهما إيران. بحلول منتصف العام 1995 استقر خيار المغسل والإيرانيين على مجمع ضخم من أبراج الخبر كي يكون هدفهم، وأصدرت قيادة فيلق القدس الأمر بتنفيذ الهجوم في ربيع العام 1996م[984].

كشف مسؤولو الأمن السعودي جزءاً من العمليات الإيرانية عندما صدر رد فعل عن كلب شمّ قنبلة عند نقطة تفتيش الجمارك الحدودية كانت موجودة في إحدى السيارات فتبيّن أنها تحمل

أكثر من ثمانين رطلاً من المتفجرات البلاستيكية. وبعد استجوابٍ قاسٍ اعترف السائق أنه جاء من لبنان، وأنه كان ينوي تفجير الثكنة الأميركية في أبراج الخبر. كشف المتّهم أسماء ثلاثة من شركائه للمباحث السعودية، بما فيهم اسم مستشار لحزب الله اللبناني داخل المملكة. اقتنعت الحكومة السعودية بأنها وأدت الهجوم الإرهابي في مهده، فلم تبلغ الأميركيين البتة بالتهديد[985].

شكل أحمد المغسل خليةً صغيرة مكونة من خمسة عشر عضواً من أجل تنفيذ الهجوم. اشتروا شاحنة صهريج غاز كبيرة وأخفوها في مزرعة نائية تبعد بالسيارة نحو عشرين دقيقة عن الظهران. خبأ الرجال 5000 رطل من المتفجرات البلاستيكية التي تمّ جلبها سرّاً من لبنان في أكياس سعة الواحد منها خمسون كيلوغراماً، ودُفنت في مخابئ في الصحراء. أخفوا المواد الأكثر حساسيةً، مثل المتفجرات، في علب القهوة القديمة، وبعد ثلاثة أسابيع تحولت شاحنة الصهريج إلى قنبلة ضخمة متنقّلة[986].

في أوائل شهر حزيران/يونيو وصل رجل لبناني ذو بشرة بيضاء وشعر أشقر وعينين خضراوين إلى مزرعة نائية. كان هذا خبير متفجرات، وقد أرسله حزب الله اللبناني للقيام بفحص الشاحنة المفخّخة فحصاً دقيقاً. قضى الرجل الغامض أسبوعاً يعمل في المزرعة، وأقام في منزل أحد المتواطئين. كانت خبرته ضمانة لنجاح الهجوم، ولمّا عاد إلى لبنان أطلع كلّاً من حزب الله والإيرانيين في الفرع 6000 على النجاح المرجّح «للمشروع».

في مساء يوم 25 حزيران/يونيو اجتمع ستة رجال بمن فيهم المغسل في المزرعة، فصلَّوا وقاموا بالاستعدادات النهائية. غادرت المزرعة قافلة صغيرة من السيارات وسارت مجتازةً المسافة الفاصلة حتى أبراج الخبر التي لا تتطلّب سوى 20 دقيقة، وقد قاد المغسل الصهريج الكبير المحمّل بالمتفجرات.

عندما رفض الحراس السعوديون إدخال المغسل من البوابة الرئيسة تحوّل بسرعة إلى الخطة البديلة. في هذا الوقت كان أحد الإرهابيين يقود سيارة داتسون صغيرة وقد أدخلها إلى موقف سيارات فسيح متاخم للطرف الشمالي لأبراج الخبر. أطفأ السائق أضواء السيارة وأضاءها تكراراً لإعطاء إشارة إلى المغسل بأن المكان آمن. تحركت شاحنة الصهريج بتثاقل إلى موقف السيارات، وتوقفت بجانب السياج الذي يفصل المواقف العامة عن المجمع الأميركي، قرب المبنى 131 -على بعد ثمانين قدماً فقط عن المبنى 131 وهو مبنى من ثمانية طوابق يسكنه طيارون، ولاسيما أولئك التابعين للفيلق المختلط 4404 (4404th Coposite Wing). ضبط أحمد المغسل الساعة الميقاتية، ثم قفز ورفيقه الجالس قربه في الشاحنة وأسرعا إلى سيارة شيفروليه كابريس بيضاء كانت بانتظارهم فركبوها بسرعة وانطلقت بهم في الظلام. كانت الساعة قبل العاشرة مساءً بقليل.

كان يوم سكان أبراج الخبر قد مرّ بشكل عادي حتى الآن. أبرز ما في ذلك اليوم هو تخصيص صالة تمارين آيروبيك في النادي الرياضي؛ وكان قائد القاعدة يقصّ الشريط لافتتاح المنشأة الجديدة وسط هتافات الابتهاج. بعض الضباط كان يجلس مسترخياً في غرفة الجلوس يشاهد

فيلم «رجل الماراتون» (Marathon Man) القديم من بطولة الممثل داستن هوفمان، في حين كان آخرون يقومون بالأعمال المنزلية أو يستعدون للنوم باكراً للقيام بمهمة طيران في صباح اليوم التالي.

من أعلى سطح المبنى 131 شاهد ثلاثة ضباط أمن في القوة الجوية شاحنة متوقفة بالقرب من السياج، وسرعان ما أدرك الرقيب ألفريدو غيريرو الخطر حين رأى سيارة من نوع كابريس بيضاء تنطلق بسرعة. بدأ الضباط يهرولون في الممرات ويطرقون على الأبواب صارخين: «اهربوا بسرعة من المبنى. يوجد صهريج وقود متوقف في المبنى. ينبغي الخروج من المبنى الآن»[987]. أخلى الطيارون خلال أربع دقائق الطوابق الثلاثة العلوية في المبنى 131، ثم فات الأوان[988].

انفجر الصهريج بقوة 20.000 باوند من مادة الـ«تي إن تي» مخلّفاً حفرة عمقها 35 قدماً، قاضماً الواجهة الشمالية للبناء 131 بأكملها. تردّدت موجة ارتجاج ضخمة تلتها سحابة ثقيلة من غبارٍ بنّي هبّت على المجمع. يتذكر الرقيب التقني جورج بورجيس، الذي كان ينظف ثلاجته في الطابق الأول من المبنى 131، وكان الأقرب إلى الانفجار، قائلاً: «شعرت أنني قُذفت بانفجار رملي. ثم توقفت عاصفة الغبار وساد هدوءٌ مطبق. وبعد ذلك بدأنا نسمع صوت جريان المياه».

تهشّم زجاج النوافذ الكبيرة، وأصابت شظايا الزجاج الناس الذين كانوا قبل لحظة الانفجار جالسين بهدوء يقرأون أو يشاهدون التلفاز. على بعد مئات الياردات حطّمت الهزة في تتابع سريع كل المرايا المثبتة حديثاً في صالة الألعاب الرياضية التي تم تجديدها.

صادف أن أحد الطيارين كان يختبر ساعته المنبهة لحظة انفجار القنبلة. قال: «ضغطت على زر الغفوة في المنبّه الخاص بي فإذا... بذاك الانفجار يحطّم كل شيء، شعرت وكأني من ضغط على زر تفجير». لقد ألقت به قوة الانفجار من أحد جوانب الغرفة إلى الجانب الآخر. «رأيت الجدران تختفي ويختفي معها كل شيء، ولكني كنت مدركاً أنه كان شيئاً أكبر من مجرد جرس المنبه الذي انطلق»[989]. وانقشع الغبار عن مقتل 19 أميركياً وإصابة 372 بجروح.

بعد يوم من الهجوم اتّصل ريتشارد كلارك، رئيس شعبة مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، بمستشار الأمن القومي أنطوني ليك وأخبره أن فيلق القدس الإيراني يقف وراء التفجير. وكان كلارك الشخص الوحيد في واشنطن المقتنع بشدة بذلك، إذ لم يكن لدى وكالة الاستخبارات المركزية ولا حتى لدى القيادة المركزية الأميركية أي أدلة دامغة على ضلوع إيران، ولن يكون لديها قبل عدة أشهر.

قاد مكتب التحقيقات الفيدرالي التحقيق، وراح مدير المكتب لويس فريه، النائب العام الاتحادي المخضرم، يتعقّب الجناة. للأسف، لم تتعاون السلطات السعودية، ما أثار غضب فريه من تعنّت السعودية، فكتب رسالة إلى الأمير بندر كي يستخدم نفوذه كونه لا يزال سفيراً لدى الإدارة

الأميركية الثانية، كتب فيها: «سيادة السفير، الطريقة الوحيدة للتحرك قدماً في التحقيق وإلقاء القبض على الإرهابيين الذين ارتكبوا هذا العمل الحاقد ضد بلدينا هو التعاون بشكل كامل وفعال»[990].

في البداية، شكّك بندر في تورط طهران، وقال في أحد اللقاءات التي جرت في منزله: «أن تقوم إيران برعاية هجوم جدّي في المملكة العربية السعودية لهو أمر جدي جداً وتحول خطير للأحداث». بعد أن تدخل الأمير بندر، بقوة وبصورة شخصية، استطاع عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي الوصول تدريجياً إلى مسرح الجريمة أولاً وإلى الأدلة في النهاية. ومع ذلك، استغرق الأمر حتى شهر أيلول/سبتمبر 1998 لوصول عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى المشتبه بهم الذين احتجزوا في سجن بالسعودية. وبحلول ربيع عام 1997 ظهر الدليل على ضلوع إيران في العملية، فقد اعترف اثنان من الإرهابيين الذين اعتقلوا في سوريا وكندا، كما كشفت المخابرات السعودية مزيداً من الأدلة على تورّط إيران. وأكّد اعتراض أميركي للاتصالات أن أعلى المسؤولين في الحكومة الإيرانية كانوا على علم بالهجوم وأن المرشد الأعلى وافق عليه[991].

نفت إيران أي ضلوع لها بالهجوم. لقد كان البلدان يعملان سراً على إصلاح العلاقات بينهما، فالرئيس الإيراني كان قد كلّف مستشاره الموثوق حسين موسايان لرئاسة الوفد الإيراني لإجراء محادثات مع السعوديين. جرى أول اجتماع في فيلّا الأمير السعودي المطلة على المحيط بالقرب من مدينة الدار البيضاء، تلته ثلاثة اجتماعات في جدة، اختتمت بنجاح كبير، وأدّت إلى الاتفاق على ضمانات أمنية قبل ثلاثة أشهر من الهجوم. أشار موسويان: «لقد كان ذلك الاتفاق مبادرة استراتيجية. لماذا تخاطر إيران من خلاله بمهاجمة الخبر؟»[992] ولكن تلك لم تكن المرة الأولى التي اليد اليسرى واليد اليمنى الحكومة الإيرانية على الموجة نفسها.

بعد شهرين لاحظ حراس الأمن أفراداً يقومون بمراقبة قاعدة لوجستية أميركية كبيرة تقع غرب مدينة الكويت تدعى معسكر دوحة (Camp Doha). بدا الأمر مماثلاً إلى حدٍّ مخيف لما سبقه من هجوم أبراج الخبر. رجال مشبوهون يولون مساكن الجنود الأميركيين اهتماماً خاصاً. اشتبه ضباط مكافحة التجسس في الجيش الأميركي بأنهم عملاء إيرانيون يتفحّصون القاعدة ويحضّرون لهجوم انتقامي فيما لو ردّت الولايات المتحدة على هجوم أبراج الخبر.

في أيلول/سبتمبر وصل إلى تامبا ضابط بحرية ممتلئ الجسم وداكن الشعر بصفة نائب لرئيس هيئة الأركان المشتركة يدعى أنطوني أو «طوني» زيني، وبعد سنة تولّى منصب قائد القيادة المركزية الأميركية، المسؤول عن جميع القوات العسكرية الأميركية في الشرق الأوسط.

كان زيني معروفاً بلقب «العرَّاب»، وكان خرّيج جامعة فيلانوفا وأدغال فيتنام، وكان ديمقراطياً معتدلاً على الصعيد السياسي، وشارك عندما كان شاباً في حملة جون كينيدي الانتخابية. يمتلك شخصية جذابة وموهبة فطرية في الخطابة، ويخلط الفكاهة بالتحليلات العميقة. كما تبيّن أن له

شعبية كبيرة في القيادة المركزية الأميركية. وعنه قال أحد المؤرخين الذي قضى فترة طويلة في القيادة: «زيني هو القائد الوحيد الذي أسف الموظفون عليه فعلاً عندما تقاعد»[993].

أرّقت إيران طوني زيني وحرمته النوم ليلاً. بعد فرض القيود التجارية الأميركية على إيران في ربيع العام 1995 صعّد الحرس الثوري الإيراني عملياته بالقوارب الصغيرة لمضايقة السفن الحربية الأميركية التي تعبر الخليج العربي، فكانت تقترب منها مراراً بسرعات عالية وتشنّ غارات وهمية على السفن الحربية الأميركية. قال زيني: «كان الأمر منظماً بوضوح ومخططاً له»[994].

في الأول من أيار/مايو 1997 وقع حادث نموذجي. يومذاك كانت المدمرة الأميركية «يو إس إس بول إف. فوستر» (USS Paul F. Foster) تبحر في شمال الخليج لتنفيذ عقوبات الأمم المتحدة ضد العراق من خلال حظر تهريب النفط. ظهر فجأةً زورق إيراني سريع في البعيد، وتوجّه مباشرةً نحو السفينة الحربية الأميركية، ثم انعطف في آخر لحظة ماراً بالبحارة الأميركيين المذعورين على بعد أقل من خمسين ياردة. على الرغم من أن ربان السفينة لم يفتح النار، إلا أن زيني كان قلقاً من ألاّ يبدي قباطنة آخرون ضبطاً للنفس.

كتب زيني رسالةً بعد الحادث قائلاً: «قد تسبّب هذه العدوانية الجلية من قبل الحرس الثوري إطلاق شرارة صراع وتشعل حرباً. في نهاية المطاف، لا بدّ أن يفتح بعض النقباء النار باتجاه زورق إيراني ربما كان يقصد ضربه - لكن ربان السفينة قد لا يعرف أن الزورق الإيراني لا يحمل متفجرات، فنكون عندئذٍ أمام مشكلة خطيرة»[995]. أرسلت وزارة الخارجية تحذيراً من خلال السويسريين إلى طهران لكبح جماح الحرس، ولكن لم يكن له تأثير.

تعود تصرفات الحرس الثوري إلى الحماسة المفرطة أكثر منها إلى السياسات الوطنية. كان ضباط الحرس يتسابقون للقيام بعملٍ ما مفعمين بروح المبادرة وبنوع من الجرأة والمغامرة، فهؤلاء الضباط الذين يظهرون هذه الخصائص يحصلون على ترقيات، وكثيراً ما كان ضباط آخرون يتجاوزون الحدود مع الأميركيين. ففي حالة السفينة «بول إيف فوستر» كان السبب المرجح هو الجشع. فقد اعترض ضابط غاضب من الحرس الثوري كان يستفيد من التجارة العراقية غير المشروعة السفينة الحربية الأميركية لتدخّلها في عمله. ومع ذلك، كانت الحكومة الإيرانية تشجّع تلك الأعمال الاستفزازية، وتواصل الضغط على الجيش الأميركي من خلال المضايقات المستمرة والترهيب.

أمر وزير الدفاع وليام كوهين بوضع خطة عسكرية جديدة. «ينبغي أن يكون الهدف من أي ضربة عسكرية هو إلحاق خسارة كبيرة جداً بحيث ينصرف النظام الإيراني عن التفكير في أي هجوم على الأميركيين مرةً أخرى»، هذا ما قاله كين بولاك في حديث له في مركز البحوث السياسية في واشنطن عاكساً وجهات نظر الإدارة الأميركية[996]. أعدت القيادة المركزية الأميركية خطة سريعة في أواخر الصيف أطلق عليها اسم «البرق الحديدي» (Iron Lightning). تستند هذه

الخطة إلى قيام طائرات حربية وطوافات صاروخية أميركية بقصف قواعد الحرس الثوري الرئيسة، بما في ذلك القواعد البحرية في بندر عباس ومقراتها في وسط طهران. عرض زيني خيارات أخرى، من بينها قصف مواقع لحزب الله في لبنان، وقال الوزير إن خطة «البرق الحديدي» سوف تكون سريعة وعقابية.

في أواخر العام 1997 باشر زيني خطة حربية جديدة من أجل إيران. على عكس خطة البرق الحديدي، التي تم رسمها على عجل للرد على الإرهاب الإيراني، تطلّبت هذه الخطة سنتين من العمل المكثّف لإنجازها. قضت خطّة زيني بأن يختمّ الصراع مع إيران بطريقة منطقيّة وهي إسقاط الجمهورية الإسلامية.

قال لفريق الموظفين الصغير المقرب منه والمكلف بخطة الحرب الإيرانية: «أيها السادة، سوف نفترض أن إيران سترِدّ بكل قدراتها. أريد منكم أن تفكّروا بالخطة كحلقة متكاملة - انطلاقاً من بداية الصراع ووصولاً إلى ما ينبغي عمله لتغيير النظام».

بعد أشهر عدة طار زيني إلى واشنطن لعرض النتائج الأولية التي توصل إليها مع فريق البحث. «أصيب الجميع بالصدمة»، قال متذكراً ردود فعل وزير الدفاع كوهين وهيئة الأركان المشتركة. «كانوا يعتقدون أن الأمر سيكون مثل العراق، حيث تمكّنا من إسقاط النظام في تسعة عشر يوماً. ولكن مع إيران الوضع مختلف»[997].

لسخرية القدر، واجهت الولايات المتحدة العقبات الطبيعية نفسها التي أملت القيادة المركزية الأميركية استخدامها منذ عقد من الزمن من أجل إحباط الغزو السوفيتي. ينبغي على القوات الأميركية أن تتقدم عبر جبال زاغروس الشاهقة والوعرة على طول الطرق الضيقة نفسها، والأنفاق والجسور التي كان الجنرال روبرت كينغستون ينوي استخدامها لضرب الجيش الأحمر.

توقع زيني أن يتّحد الشعب الفارسي خلف حكومته، ما سيؤدي إلى حملة عسكرية طويلة الأمد، وأن الحرب ستمتد إلى كل أنحاء منطقة الخليج العربي، إذ لا بدّ أن تضرب إيران دول الخليج العربي التي تعدّ ملاذاً للقواعد الأميركية. ستكون هناك احتجاجات ضخمة في الشوارع العربية، وسوف يتزعزع استقرار هذه الدول نفسها الموالية للولايات المتحدة. قال زيني في مقابلة أجراها في العام 2010: «لا يمكنك أن تقلل من تأثير الدعاية بمجرد حصول هجوم على بلد إسلامي آخر».

تشترك في تنفيذ خطة زيني فرق عدّة من الجيش والبحرية، ستنطلق من الخليج وتتجه شمالاً بهدف احتلال طهران. أشار رئيس مجلس الأمن القومي لمكافحة الإرهاب ريتشارد كلارك، في أوساط ضيّقة، إلى هذا المخطط بوصفه «خيار أيزنهاور»[998]. أخبر زيني وزير الدفاع أن إطاحة النظام الإيراني سيتطلب ما لا يقل عن نصف مليون جندي أميركي وثلاث سنوات من القتال، وهذا يعني أن الخيار العسكري لتغيير النظام في إيران لم يكن واقعياً.

بدلاً من ذلك نصح زيني أن تشكل الولايات المتحدة تحالفاً عسكرياً ضد إيران، وقال: «لن يصل التحالف إلى مستوى حلف شمال الأطلسي. الاندماج الكامل هدف بعيد المنال، ولكن بوسع الولايات المتحدة أن تلعب وراء الكواليس دوراً مسانداً فتكون بمثابة الغراء الذي يلصق ويجمع الجيوش المتباينة معاً». أحب زير الدفاع كوهين الفكرة.

بدأ زيني يسير بالخطّة بخطوات صغيرة. حصل على موافقة عرب الخليج لاستخدام قواتها العسكرية لتنظيف المواد الخطرة التي خلّفتها عاصفة الصحراء والبحث عن الألغام البحرية التي لا تزال موجودة في شمال الخليج العربي. ثمّ ترأست القيادة المركزية الأميركيّة مؤتمراً تخطيطيّاً أفضى إلى اتفاق بشأن توحيد الجهود لاحتواء أيّ تسرب النفطي.

ثم وضع زيني نصب عينيه بناء نظام دفاع جوي يُغطّي منطقة الخليج بكاملها. كانت القيادة المركزية الأميركية قد دفعت بهذه الفكرة قبل عقد من الزمن، ولكن قلّ الاهتمام بها مع نهاية الحرب العراقية الإيرانية. بسبب تصاعد المشاكسة الإيرانية، وافقت دول الخليج على شراء دفاعات جديدة مضادة للطائرات وعلى التعاون لإنشاء نظام إنذار مبكر يسمح للطائرات الأميركية بالرد على أي هجوم جوي يُشنّ على أي دولة من دول الخليج الست. نظمت القيادة المركزية الأميركية بعض التدريبات للردّ على أي هجوم إيراني. لم يُذكر العدو في السيناريوهات «ولكن الجميع كان يعلم أن إيران هي العدو»، على حدّ قول زيني.

بينما كان البيت الأبيض يرجّح الخيارات العسكرية للردّ على تفجير أبراج الخبر، وافق كلينتون على أن تقوم وكالة الاستخبارات المركزية بشن هجوم مضاد على الاستخبارات الإيرانية التي تورطت في التفجير الذي حدث في المملكة العربية السعودية، وشرعت في تعطيل عمليات الاستخبارات الإيرانية في جميع أنحاء العالم. بدأ ضباط وكالة الاستخبارات المركزية مفاتحة عملاء وزارة الاستخبارات الإيرانية المعروفين علناً ويطلبون منهم العمل لصالح الاستخبارات الأميركية. تحدثوا إلى هؤلاء العملاء في الحفلات والمقاهي وحاولوا اجتذابهم علناً دون الاهتمام بمن قد يسمع المحادثة. إن مجرد رؤية شخص يتحدث إلى ضابط معروف في وكالة الاستخبارات المركزية يخلق الشكوك في أذهان قيادة وزارة الاستخبارات الإيرانية. وكان ضباط وكالة الاستخبارات المركزية يصلون ببساطة إلى منازل الجواسيس الإيرانيين في عواصم أوروبية مختلفة ويطرقون أبوابهم، فيندهش ساكنو هذه المنازل لأن الأميركيين يعرفون أين يسكنون[999]. خلقت هذه «الأساليب البارردة» فوضى شديدة داخل عمليات التجسس الإيرانية. فإذا أخبر العميل الإيراني مخابرات بلاده عن اتصال الأميركيين به، تشتبه إدارته به ويتم التدقيق معه لمعرفة السبب الذي جعل ضابطاً من ضباط الاستخبارات الأميركية يطرق بابه بالتحديد، وإن لم يبلّغ عن الاتصال به وعرف رؤساؤه بالأمر، يكون مصيره أسوأ. لم يكن الإيرانيون متأكدين من أن عملاءهم سيقبلون بالعمل مع الأميركيين أم لا، فكانوا يقيلونهم بكل بساطة. أُحيل بعض ضباط وزارة الاستخبارات على التقاعد، وكان مصير بعضهم حبل المشنقة، واتُّهموا زوراً بالعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية. كما كتب جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية في وقت لاحق: «لا يمكن تصور ما حدث لأسوأ مجموعة من الناس»[1000].

ما إن بدأ البلدان يبدوان كأنهما متجهان إلى الحرب حتى انتهى الصراع الوشيك بينهما، كان المحفّز هو انتخاب الرئيس الإيراني الجديد محمد خاتمي. ففي 23 أيار/مايو 1997 فاجأ خاتمي الهرمية الحاكمة في إيران حين حصل على 70 بالمئة من الأصوات في الانتخابات الرئاسية، حيث هزم بسهولة المرشح المدعوم من المرشد الأعلى وقائد الحرس الثوري وحظي بتأييد لا بأس به حتى في أحياء طهران التي يقطنها ضباط الحرس.

كان خاتمي، الرجل المعتدل والمولع بالمطالعة، من أوائل المؤيدين للثورة، لم يتولَّ أي منصب من المناصب الهامة رغم أنه رجل دين محترم، وكان، في فترة الانتخابات، مدير المكتبة الوطنية الإيرانية. بيد أن خاتمي استغل الاستياء المتزايد في المجتمع الإيراني حيث كان الشعب الإيراني يطالب بالتغيير لأن نسبة البطالة بلغت 30 بالمئة ومعدل التضخم أعلى من ذلك[1001].

دفع خاتمي نحو الإصلاح الاقتصادي والتحرر السياسي، فدعمته الصحف المستقلة المؤيدة للإصلاح في جميع أنحاء البلاد. دافع عن إمكانية أن يكون هناك أكثر من تفسير للإسلام، وعن قراءة معاصرة للقرآن الكريم، مما أغضب المحافظين داخل الحكومة الإيرانية. قال أحد الملالي لرعيته: «من يقول إن لديه قراءة جديدة للقرآن يجب أن يُصفع على فمه»[1002].

توسّعت إصلاحات الرئيس خاتمي في السياسة الخارجية. كان هدفه كسر قطيعة إيران مع الغرب، فدعا إلى «حوار الحضارات» كعلاج للهوة بين الغرب والإسلام، وأعاد تأسيس علاقات جيدة مع أوروبا بالتعهّد بعدم تنفيذ فتوى الخميني بقتل سلمان رشدي بسبب كتابه «آيات شيطانية». انتقل خاتمي في كانون الثاني/يناير 1998 إلى تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة، فمنح مقابلة لمراسلة قناة CNN الإيرانية المولد كريستيان أمانبور.

أعرب الرئيس الإيراني عن أسفه للهجوم على السفارة الأميركية في بداية النظام الإسلامي في إيران، مضيفاً: «ينبغي النظر إلى هذا الحدث في تلك الأيام من منظور الحماسة الثورية». ومع أنه عدّد الإهانات الأميركية لأمته، لاسيما منها إسقاط الطائرة التابعة للخطوط الجوية الإيرانية، وتمويل وكالة الاستخبارات المركزية الأخير، إلا أنه قال إن إيران لا تضمر حقداً تجاه الولايات المتحدة. كما أعرب خاتمي عن رفضه الإرهاب باعتباره يتعارض مع القرآن، وقال للمراسلة الأميركية: «يجب إدانة الإرهاب بكافة أشكاله ومظاهره»[1003].

بل إن خاتمي ذهب أبعد من الكلام فأوقف قتل المعارضين الذي تنفّذه وزارة الاستخبارات خارج نطاق القضاء، وفتح تحقيقاً عندما قُتل العديد من أنصاره الليبراليين في طهران، حيث كشف التحقيق عن لجنة سرية ترعاها وزارة المخابرات والحرس الثوري ويترأسها مكتب المرشد الأعلى، والغاية منها القضاء على الأعداء المحتملين للثورة، فأقال خاتمي رئيس وزارة الاستخبارات لقيامه بعمليات التصفية دون علم المرشد الأعلى[1004].

أراد الرئيس خاتمي الإصلاح لكنه لم يكن ثورياً. فقد كان جزءاً من النخبة السياسية، ولكن لم تكن له مصلحة في إسقاط الجمهورية الإسلامية. في تموز/يوليو 1999، نزل طلاب جامعة طهران إلى الشوارع في أعقاب مقتل العديد من الطلاب في مساكن الطلاب من قبل قوات الأمن بسبب قيامهم باحتجاجات ضد صدور قانون يحدّ من حرّية الصحافة. وقتذاك رفض خاتمي دعم المتظاهرين متّهماً إياهم بتخريب إصلاحاته، ولم يحرّك ساكناً حين تحرّك الحرس الثوري واعتقل آلاف المتظاهرين.

خلق انتخاب خاتمي ضجةً داخل الحكومة الفيدرالية الأميركية والأوساط الحكومية الضاغطة الضيّقة. بعد شهر من الانتخابات الإيرانية أثار معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، وهو المكان نفسه الذي دافع منه مارتن إنديك عن خطّة الاحتواء المزدوج، نقاشاً مع مسؤولين بارزين في السياسة الخارجية حول الآثار المترتبة على الانتخابات. أعرب زلماي خليل زاد عن تخوفه؛ فهو لم يكن مقتنعاً بأن خاتمي يمكنه التغلب على معارضة متشدّدة مناوئة لتنفيذ أي تغيير مفاجئ وكبير. لكن مساعد وزير خارجية ريغان السابق ريتشارد مورفي حثَّ حكومة الولايات المتحدة على الشروع في «حوار نقدي» جديد مع إيران، وأوصى بإجراء محادثات مباشرة حول برنامج إيران النووي، مع التلويح باحتمال استعادة مليارات الدولارات من الأصول المجمّدة المتبقية من أيام الشاه[1005]. رفضت الولايات المتحدة اتخاذ هذه الخطوات إلى أن تتخلى إيران عن الإرهاب وعن برنامجها لإنتاج أسلحة الدمار الشامل[1006].

في صباح يوم السبت من شهر تشرين الأول/أكتوبر 1997 تلقى إنديك اتصالاً هاتفياً من نائب وزير الخارجية ستروبريدج تالبوت. كان إنديك عائداً حديثاً إلى واشنطن بعد قضائه بضع سنوات في إسرائيل بوصفه السفير الأميركي هناك، وكان موكلاً بملف إيران باعتباره مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى. ذهب الرجلان للمشي على طول طريق ترابية في منتزه روك كريك بارك في واشنطن، على حدّ قول إنديك. أراد تالبوت أن يعرف رأي إنديك بخاتمي وما إذا كان قد وجد أي فرصة لتحسين العلاقات. ظل إنديك مشكّكاً وذكّر بسعي إيران المتواصل إلى الأسلحة النووية ودورها في تفجير أبراج الخبر. ولكن تالبوت ظلّ على تفاؤله قائلاً لإنديك: «ولكن إذا كان خاتمي قادراً على تلطيف سلوك إيران، فذلك يغيّر كل شيء»[1007].

ولكن المشهد السياسي كان مشوشاً بسبب أولئك الذين يسعون إلى التقارب مع طهران؛ فعلى الرغم من الانفتاح الواضح إلا أن الرئيس كلينتون توخّى الحذر. أرسلت وزيرة الخارجية الجديدة، مادلين أولبرايت، رسالة إلى خاتمي عبر السفارة السويسرية في طهران تقترح عقد اجتماع بين كبار المسؤولين[1008]. على الرغم من عدم ردّ إيران قررت الولايات المتحدة إدراج منظمة مجاهدي خلق المعادية للحكومة الإيرانية التي تتخذ من العراق مقراً لها على قائمة المنظمات الإرهابية الأجنبية الصادرة عن وزارة الخارجية الأميركية. كما خفّف كلينتون القيود على التأشيرات الخاصة بالإيرانيين، مما سمح للمزيد من الإيرانيين بالسفر إلى الولايات المتحدة،

ورفض فرض عقوبات على شركة النفط الفرنسية توتال التي كانت تستثمر حقلاً نفطياً إيرانياً في جزيرة سيري وهو ما كانت تقوم به في السابق شركة كونوكو.

غيّر انتخاب الرئيس خاتمي النقاش بشأن الرد العسكري على تفجير أبراج الخبر. مع سياسة نبذ الإرهاب التي اعتمدها الرئيس الإيراني الجديد خاتمي وإقالته أحد المحرضين على الهجوم الإرهابي، رئيس وزارة الاستخبارات الإيرانية، فإن الحكمة من محاسبة الرئيس خاتمي على جرائم سلفه تغدو موضع تساؤل. مهاجمة إيران في هذه المرحلة سوف تقضي ببساطة على خاتمي وحركة الإصلاح وتنهي أيّ فرصة لتحسين العلاقات بين البلدين. صرف كلينتون نظره عن الرد العسكري[1009]، واختارت الحكومة الأميركية مرة أخرى عدم الردّ على قيام إيران بقتل الجنود الأميركيين.

لقد غيّر انتخاب محمد خاتمي الديناميات في مياه الخليج العربي أيضاً فتوقفت مضايقة السفن الحربية الأميركية أثناء عبورها الخليج. في وقت متأخر من صباح يوم 19 أيلول/سبتمبر من العام 1999، اعترض الطراد الأميركي «يو إس إس ليك ايري» (USS Lake Erie) سفينة تجارية ترفع علم دولة بِليز، يشتبه بأنها كانت تقوم بتهريب النفط الخام العراقي. أوقف الطراد الحربي الأميركي السفينة على بعد ثلاثة أميال من المياه الإقليمية الإيرانية ولكن في منطقة تطالب بها طهران[1010]. كان من شأن حادث كهذا أن يُصعّد الموقف في الماضي، ولكن طهران رفعت هذه المرة ببساطة شكوى لدى الأمم المتحدة، ولم يتّخذ الحرس الثوري الموقف المهني للبحرية الإيرانية. من الواضح أن خاتمي قد كبح جماح التجاوزات العدائية التي يقوم بها قادة الحرس الثوري، فانخفض التوتر في الخليج بشكل كبير.

واصل كلينتون جسّ نبض الإيرانيين. ففي العام 1998 جرت مباراة بين إيران والولايات المتحدة في فرنسا ضمن بطولة كأس العالم لكرة القدم، فوجّه الرئيس كلينتون رسالة مسجّلة سبقت انطلاق المباراة قال فيها على مسمع الجمهور في جميع أنحاء العالم: «آمل ونحن نهتف لمباراة اليوم بين الرياضيين الأميركيين والإيرانيين أن يكون ذلك خطوة أخرى نحو إنهاء القطيعة بين بلدينا»[1011].

غامر كلينتون في الربيع التالي بتقديم غصن زيتون آخر إلى إيران. في شهر نيسان/أبريل، وخلال مأدبة عشاء مساء ذكرى الألفية في البيت الأبيض، قدم الرئيس كلينتون رداً مرتجلاً مطولاً موجهاً بشكل مباشر إلى خاتمي خلال الأسئلة والأجوبة. «لقد تعرّضت إيران، نظراً إلى أهميتها الجيوسياسية الهائلة على مر الزمن، لسوء معاملة كبير من الدول الغربية المختلفة، وأعتقد أن من المهم جداً أن نقول للناس في بعض الأحيان: انظروا، لديكم الحق في أن تغضبوا من شيء فعله بلدي أو ثقافتي»[1012].

كتب كين بولاك قائلاً: «لم يكن اعتذاراً صريحاً، ولكنه كان أقرب إلى الاعتذار، وهو أمر لم يفعله أي رئيس أميركي من قبل، وهو ما كان يطالب به المتشدّدون منذ عام 1979»[1013].

في الوقت نفسه فاتح كلٌّ من إنديك وبروس ريدل، المسؤول الكبير في وكالة الاستخبارات المركزية ومجلس الأمن القومي، عُمان طالبين تسليم رسالة إلى الرئيس خاتمي بشأن الهجوم على أبراج الخبر. كان هدفهم إعطاء إيران إخطاراً مسبقاً على أمل أن يتّخذ النظام الجديد إجراءات من شأنها أن تسمح لكلا الجانبين بتجاوز الحادث.

قالا إن لدى الولايات المتحدة أدلة قاطعة على تورط الحرس الثوري الإيراني في التفجير. ولكن لأن الولايات المتحدة تسعى لإقامة علاقات أفضل مع إيران، ينبغي على إيران إنهاء أنشطتها الإرهابية وتقديم ضمانات من خلال تسليم المسؤولين عن مقتل تسعة عشر أميركياً إلى العدالة.

سلّم وزير الخارجية العُماني الرسالة، وقرأ خاتمي الاحتجاج بعناية. وعد الرئيس الإيراني بالنظر في هذه الاتهامات بعد أن اتّهم الولايات المتحدة بقيامها بأعمال إرهابية أكبر. مرّت أسابيع قبل أن تردّ إيران على احتجاج الولايات المتحدة عبر وزارة الخارجية العُمانية. كان الردّ فارسياً على نحو نموذجي. جاء في الرسالة أن أي تصرف من هذا القبيل لن يحدث مرةً أخرى، وأن الجمهورية الإسلامية لا تضمر نوايا سيئة للولايات المتحدة. وفي الرسالة تمّ نفي تورّط الحكومة الإيرانية. وفقاً لإنديك، فهمت الولايات المتحدة أنه لن يتم عمل شيء تجاه الذين نفذوا الهجوم، ولكن لن يكون هناك المزيد من الهجمات الوشيكة الأخرى.

في العام 2000 دعم الليبراليون والإصلاحيون خاتمي، فحصل مرة ثانية على نسبة هائلة، 73 بالمئة، من الأصوات في الانتخابات البرلمانية الثانية. حتى ذلك الحين لم تكن المبادرات الأميركية تجاه إيران قد أسفرت عن شيء، وظلّت إيران صامتة. ولكن قلق المتشددين في طهران ازداد، لا سيما المرشد الأعلى الذي كان يخطط لكبح جماح خاتمي وسحق أي تقارب مع واشنطن. أكدت المحادثات التي كانت تُجرى عبر قنوات خلفية، مع الإيرانيين والاستخبارات، قوة كلٍّ من خاتمي وحركة الإصلاح؛ وهنا فكّرت أميركا في أن تقديم عرض صريح من جانب واشنطن قد يرجّح كفة خاتمي.

اختارت الإدارة اجتماعاً للمجلس الإيراني الأميركي في واشنطن العاصمة، لإرسال رسالتها إلى خاتمي. كان رئيس المجلس، هوشنك أمير أحمدي، قد قضى عقدين من الزمن في الولايات المتحدة، حيث كان يُدرّس في جامعة راتغرز. إنه رجل مفعم بالحيوية وواثق من نفسه، حافظ على علاقة وثيقة مع حركة الإصلاح الإيرانية وكذلك مع حكومة خاتمي، وسعى لتوثيق العلاقات بين البلدين. فإذا أراد خاتمي أن يستمع فإن مجموعة أمير أحمدي ستكون أفضل مكبر للصوت.

في 17 آذار/مارس 1999، صعدت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت المنبر كمتحدث رئيس قبل يوم واحد من حلقات النقاش، بما فيها حلقة لتكريم الإعلامية البريطانية الإيرانية كريستيان أمانبور.

قالت أولبرايت للجمهور المزدحم: «الربيع هو موسم الأمل والتجدد؛ موسم زرع بذور محاصيل جديدة. وأملي هو أن نستطيع أن نزرع الآن في كلٍّ من إيران والولايات المتحدة بذوراً لأفضل العلاقات وأحسنها للسنوات القادمة»، وأعربت عن أسفها على الآثام الأميركية الماضية، بما في ذلك التغاضي عن قمع الشاه، وأشارت إلى استعداد واشنطن للقاء المسؤولين الإيرانيين دون شروط مسبقة[1014].

ردّ آية الله خامنئي على ذلك بعد أسبوع في خطاب ألقاه أمام زوّار شيعة لمقام مقدّس قائلاً باستخفاف: «إن الاعتراف بالجرائم الأميركية لا يفيد الأمة الإيرانية». وفي ما يخصّ إجراء محادثات مع واشنطن، وصف المرشد الأعلى هذه الفكرة بـأنها «محادثات 'مخادعة' تهدف إلى تمهيد الطريق من أجل المزيد من العداوات ولكي تستعيد أميركا مصالحها السابقة في إيران»[1015].

قرّر كلينتون القيام بمبادرة ولو كانت غير مضمونة النجاح واستخدام مهاراته في العلاقات الشخصية للتحدث بشكل مباشر إلى خاتمي. كان من المقرر أن يلقي الرئيسان كلمة في الجمعية العامة للأمم المتحدة. بعد أن تحدث كلينتون، وافق على البقاء والاستماع إلى خطاب خاتمي على أمل أن يلتقي الاثنان مصادفةً بعد ذلك في قاعة الجمعية. لقد كانت مقامرة مرتجلة، ولكن كلينتون كان يريد بشدة أن يبدأ بإذابة الجليد بين البلدين قبل أن يترك منصبه. بعد خطاب خاتمي، تريّث كلينتون في الاجتماع على أمل أن يلتقي خاتمي، لكن مستشاري الرئيس الإيراني قلقوا من اجتماع مرتجل بين مسؤولين كبيرين بهذا المستوى، كما أن خاتمي لم يتلقَّ مباركة المرشد الأعلى للقاء كلينتون، لذلك شجّعه مساعدوه على الخروج بطريقة مختلفة للتأكد من أنه لن يلتقي الرئيس الأميركي، فأخفقت محاولة كلينتون مفاتحة الرئيس الإيراني.

تحولت إيران والولايات المتحدة في غضون ثلاث سنوات من العداء الصريح إلى الأمل بتسوية الخلافات. فانتخاب الرئيس خاتمي وضع حداً لعشرين عاماً من القتال. حاولت براغماتية بيل كلينتون مراراً وتكراراً اغتنام الفرصة، فبدأ بخطوات متواضعة بتخفيف القيود على التجارة والسفر التي أدت إلى مبادرات أكثر جرأةً على نحو متزايد تهدف إلى مدّ يد الصداقة إلى إيران. أراد خاتمي أن يرد بالمثل، ولكن المتشددين المسيطرين على مؤسسات السلطة الأخرى -البرلمان، ومجلس صيانة الدستور، والحرس الثوري، والمرشد الأعلى- تآمروا لتقويض سياسته. خدم خاتمي عهدين كاملين، ولكن سلطته واستقلاله كانا يتآكلان سنةً تلو الأخرى، لذا لم يكن قادراً على مصافحة يد كلينتون الممدودة. في النهاية، أثبت خاتمي أنه ليس ثورياً وليس مستعداً للعمل ضد إرادة الحكومة الفعلية التي أمضى حياته المهنية يدعمها.

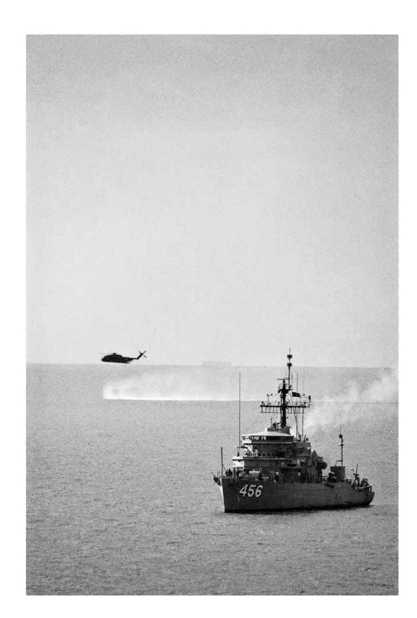
قال كين بولاك: «في النهاية فشل التقارب لأن إيران لم تكن راغبة في المضي قدماً». وأضاف: «لكن إدارة كلينتون فعلت الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله. ظلت العداوة قائمة لأن الجانب الآخر أراد ذلك».

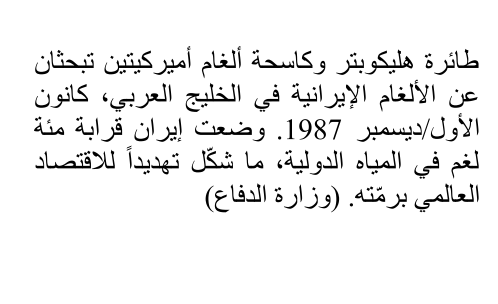
أوصت إدارة الرئيس كلينتون المنفتحة بوجوب إقامة حوار بين الدولتين على الرغم من الخلافات ودون شروط مسبقة. وكتب إدوارد ووكر، المدير السابق لشؤون الشرق الأدنى في وزارة

الخارجية، في مذكرة للإدارة الجديدة قائلاً: «لا يمكن تجاهل دور إيران الحاسم في مسائل الاستقرار والأمن الإقليمي»[1016]. إلا أن الرئيس بوش سيتّخذ قراراته الخاصة بنفسه.



فرقة العمليات الخاصة في البحرية الأميركية تقوم بالاستيلاء على منصة النفط الإيراني «رستم» (Rostam) بعد قصفها من قبل السفن الحربية الأميركية، 19 تشرين الأول/أكتوبر 1987. كان الهجوم انتقامًا لهجوم صاروخي إيراني دمّر ناقلة نفط ترفع علم الولايات المتحدة. (قيادة العمليات الخاصة الأميركية)





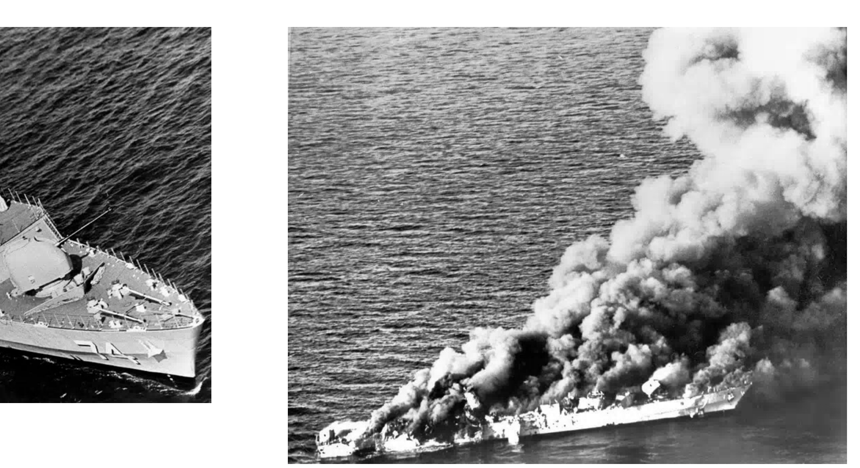
طائرة هليكوبتر وكاسحة ألغام أميركيتين تبحثان عن الألغام الإيرانية في الخليج العربي، كانون الأول/ديسمبر 1987. وضعت إيران قرابة مئة لغم في المياه الدولية، ما شكّل تهديداً للاقتصاد العالمي برمّته. (وزارة الدفاع)

مستشار الأمن القومي كولن باول يطلع الرئيس ريغان على المستجدات، صباح يوم 18 نيسان/أبريل 1988، بشأن الرد العسكري على إيران بعد زرع الألغام التي كادت تُغرق الفرقاطة صموئيل ب روبرتس. (Reagan Library)



منصة النفط الإيرانية «ساسان» تحترق عقب هجوم من قبل البحرية الأميركية ومشاة البحرية. كان هذا المجمع الكبير قاعدة للعمليات الإيرانية ضد القوافل الأميركية. (وزارة الدفاع)







السفينة الحربية الإيرانية: «سهند» قبل وبعد قصفها بما يقرب من عشرين قذيفة وصاروخ من قبل سفن وطائرات البحرية الأميركية، ما أسفر عن مقتل حوالي ثلث الطاقم. (البحرية الأميركية)



المجمع السكني لسلاح الجو الأميركي، (أبراج الخبر)، بعد قصفه من قبل أتباع
إيران، حزيران/يونيو 1996. (وزارة الدفاع)



وضع قائد القيادة المركزية الأميركية، الجنرال أنتوني زيني، مجموعة جديدة من الخطط العسكرية لمواجهة إيران عقب تفجير أبراج الخبر وتزايد مضايقة السفن الحربية الأميركية في الخليج العربي من قبل الحرس الثوري الإيراني. (وزارة الدفاع)



الرئيس جورج دبليو بوش يجتمع بفريقه للسياسة الخارجية في مكتب وزير الدفاع خلال غزو العراق في 25 آذار/مارس 2003. لم تأخذ خططهم الحربية في الاعتبار التأثير الذي قد تتركه إطاحة صدام حسين في الجار الفارسي الأكبر. (Getty Images)





زوارق الحرس الثوري الإيراني تعترض زوارق الولايات المتحدة المتوجّهة إلى شط العرب، 3 نيسان/ أبريل 2003. كان الإيرانيون يسهمون في تدفق أعداد كبيرة من القوات الإيرانية أو عملائها إلى العراق خلال غزو العراق الذي قادته أميركا. (مجموعة للكاتب)



القوات الأميركية تدهم مجمّعاً تستخدمه الميليشيات المدعومة من إيران في العراق، 2007. (وزارة الدفاع)



جنود يكتشفون مخبأً للقذائف المضادة للدروع في العراق. لقد زوّد فيلق القدس الإيراني حلفاءه العراقيين بهذه الأسلحة الفتاكة، التي تسببت بمقتل وجرح آلاف الجنود الأميركيين. (وزارة الدفاع)



رئيس هيئة الأركان المشتركة ريتشارد مايرز (إلى اليسار) وقائد القيادة المركزية جون أبي زيد (إلى اليمين) يدليان بشهادتيهما أمام الكونغرس. واجه الاثنان تنامي النفوذ الإيراني في العراق والعمليات العسكرية السرية المتزايدة في الشرق الأوسط. (وزارة الدفاع)



اجتماع يضمّ السفير الأميركي في العراق رايان كروكر (إلى اليسار)، السفير الإيراني حسن كاظمي قمّي (إلى يمين) ، و رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي (في الوسط) في مكتب رئيس الوزراء العراقي في بغداد في 28 أيار/مايو 2007. وكان واحداً من الاجتماعات القليلة وجهًا لوجه بين إيران والولايات المتحدة خلال ثلاثين سنة، وقد أخفق في حلّ الخلافات بين البلدين. (Associated press)



العالم النووي الإيراني شهرام أميري مع ابنه بعد وصوله إلى مطار طهران، 15 تموز/ يوليو 2010. لجأ أميري إلى الولايات المتحدة، حيث قدّم معلومات قيمة عن البرنامج النووي الإيراني، وادّعى أنه اختُطف ليتمكّن من العودة إلى طهران. (Associated press)



الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد (في الوسط) في زيارة لأجهزة الطرد المركزي
لتخصيب اليورانيوم في منشأة نطنز النووية، 8 نيسان/أبريل 2008. (Associated
press)



13 كانون الثاني/يناير 2012: الإيرانيون يحملون نعش مصطفى أحمدي روشن، مدير منشأة تخصيب اليورانيوم في نطنز بوسط إيران، ملفوفاً بالعلم الإيراني، الذي قتل عندما ألصق مهاجمان على دراجة نارية قنبلة ممغنطة بسيارته في طهران. كان ضحية لحملة اغتيالات ضد البرنامج النووي الإيراني التي حمّلت إيران إسرائيل والولايات المتحدة مسؤوليتها. (Associated Press)



الجنرال جيمس ماتيس (إلى اليسار) يناقش وزير الدفاع روبرت غيتس في عمّان، الأردن، في 25 آذار/مارس 2011. ماتيس، المحارب ذو العقل التكتيكي، كان هو آخر قائد عسكري أميركي يواجه إيران في فترة التوتر المتصاعد في الخليج العربي. (وزارة الدفاع)



صاروخ إيراني مضاد للسفن خلال مناورة تدريبية قرب مضيق هرمز. طوّرت إيران قوة عسكرية غير تقليدية قادرة على إلحاق أضرار كبيرة بالبحرية الأميركية في حال نشوب حرب جديدة في الخليج العربي. (وكالة فارس الإخبارية/وزارة الدفاع)

الفصل الثاني والعشرون

فظاعة

رحّب كبار المسؤولين العسكريين في البداية بإدارة جورج دبليو بوش الجديدة، وأُعجب الكثير من العسكريين بأفراد الإدارة ذوي الخبرة الواسعة الذين جاءوا مع الجمهوريين إلى سدة الحكم. قال الفريق البحري غريغ نيوبولد: «تبدو لي مجموعة رائعة من المواهب»؛ وقد ترأس نيوبولد يومها عمليات هيئة الأركان المشتركة في فريق بوش للأمن القومي، وهو شخص طويل القامة، نحيل الجسم، ذو شخصية صريحة ورتيبة. وقد استحسن عودة كولن باول وريتشارد أرميتاج لإدارة وزارة الخارجية، وتولّي وزير الدفاع السابق ديك تشيني، الذي يحظى بالاحترام، منصب نائب الرئيس. فقد بدا هؤلاء رواداً في فريقٍ مميّز تسلّم مقاليد السلطة، وسيوجّهون سياسة الولايات المتحدة الخارجية في الألفية الجديدة. على الرغم من أن رئيس هيئة الأركان، الجنرال هيو شيلتون، ورؤساء آخرين في هيئة الأركان المشتركة كانوا يحترمون الرئيس كلينتون، إلا أنه لم يحظَ بشعبية كبيرة لدى سلك الضباط بسبب هفواته الأخلاقية وتهرّبه من المشاركة في حرب فيتنام. دعا جورج دبليو بوش خلال حملته الانتخابية إلى جيش أقوى لا يبدّد قوته في بناء الدولة، وقال خلال المناظرة الرئاسية الثانية مع آل غور نائب الرئيس كلنتون: «إن الهدف من جيشنا هو القتال وكسب الحرب»[1017]. بدا أن قلة من القوات النظامية لاحظت أن كثيرين من الذين جاءوا إلى الإدارة الجمهورية -لاسيما الرئيس الجديد- كان لهم الميل نفسه الذي لكلينتون إلى التهرّب من الحرب التي خاضها جيلهم في جنوب شرق آسيا.

دخل وزير الدفاع الجديد دونالد رامسفيلد مبنى البنتاغون برشاقة درويشٍ دوّار. كان، بشعره الأملس ونظّارته التي بلا إطار، الشخص الأكبر سنّاً الذي يتولّى يوماً وزارة الدفاع، إذ كان عمره أربعة وسبعين عاماً، لكنه كان يمتلك طاقة رجل في منتصف عمره ونشاطه. يعدّ رامسفيلد منافساً بيروقراطياً عنيداً، يقوم أسلوبه في الإدارة على تولّي زمام الأمور وإزاحة الجميع من طريقه بطريقة أو أخرى حتى لو لم يكن لديه في الواقع أدنى فكرة عمّا ينبغي القيام به. كان رامسفيلد

يشاطر إدارة الجمهوريين الجديدة الشكوك المتعلقة بولاء القيادة العسكرية التي عيّنها الديمقراطيون. وكان الجنرال شيلتون قد أمضى أشهراً وهو يحاول إقناعه بأنه فوق السياسات الحزبية وأنه سيدعمه كما كان يدعم سلفه.

كانت إحدى البنود الأساسية في جعبة وزير الدفاع الجديد، التي انتقلت إليه منذ نهاية إدارة كلينتون، خطة عسكرية لمهاجمة إيران. في 12 تشرين الأول/أكتوبر عام 2000، كانت المدمّرة الأميركية «يو إس إس كول» (USS Cole) راسية تتزود بالوقود من ميناء عدن باليمن. اقترب زورق صغير أبيض من السفينة الراسية، ولوّح رجلان من على متنه للبحارة الأميركيين ثم فجّرا مئات الأرطال من المتفجرات المخبّأة في بدن السفينة. أحدث الانفجار فجوةً بقطر أربعين قدماً في ميسرة «كول» مما أسفر عن مقتل سبعة عشر بحاراً وإصابة تسعة وثلاثين آخرين في أسوأ هجوم على مدمّرة أميركية منذ الهجوم العراقي على المدمّرة «ستارك» قبل ثلاثة عشر عاماً. أمر الرئيس كلينتون الجيش أن ينفض الغبار عن خطة «الصاعقة الحديدية» التي تم إعدادها بعد حادثة أبراج الخبر، والبحث عن دور إيران في التفجير. عمل نيوبولد مع قائد القيادة المركزية الأميركية الجديد، الجنرال تومي فرانكس، لتفصيل مجموعة واسعة من الخيارات العسكرية صُمّمت للرد على طهران وردعها عن القيام بأي هجمات إرهابية في المستقبل، وراوحت بين قصف واسع النطاق يستمر أسبوعاً بالطائرات والصواريخ ضد مواقع عسكرية في وسط طهران، بما في ذلك تدمير منشآت تصدير النفط الإيراني، وبين القيام بأعمال «غير حركيّة» (nonkinetic) - حسب مصطلح وزارة الدفاع الأميركية- كالعمل مع وزارة الخزانة لتعطيل النظام المالي الإيراني[1018]. وتمّ اقتراح مهام أخرى لا تعدّ ولا تحصى بما في ذلك أن تستهدف وكالة الاستخبارات المركزية مجدداً ضباط المخابرات الإيرانيين والقيام بعمليات سرية لدعم المعارضة الإيرانية. وصف نيوبولد هذه المقترحات بأنها «غير تقليدية ومبتكرة وعقابية»[1019].

في حين أشارت الأدلة سريعاً إلى تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن بوصفهم الجناة المتّهمين بالهجوم على «كول»، ظلّ نيوبولد يشتبه بتورط إيران[1020]. بعد مرور أربع سنوات فقط على الهجوم الإيراني القاتل في المملكة العربية السعودية، بدا أن تفجير «كول» يتوافق مع نمط الضربات التي رعتها إيران واستهدفت الجيش الأميركي.

أطلع مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت الرئيس الجديد جورج دبليو بوش، بعد خمسة أيام من تنصيبه، على التهديد الذي يشكّله الإرهاب، بما في ذلك التهديد الذي تشكّله إيران[1021]. في اليوم التالي طلب رامسفيلد الاطّلاع على آخر الخطط العسكرية، بما فيها تلك المتعلقة بإيران. وضع نيوبولد كلاً من الخطة الطارئة التي وُضعت في عهد كلينتون للردّ على هجوم «كول» والخطة العسكرية الأكبر بكثير لإطاحة النظام الإيراني، والتي تمّت الموافقة عليها في عهد أنطوني زيني. تشبه هذه الأخيرة الخطط القديمة التي تعود إلى أيام الجنرال بول إكس. كيلي وقوة الانتشار السريع، فهي تتطلب نصف مليون رجل لغزو إيران من الشرق والغرب، بحيث يتّجهون صوب طهران على شكل كمّاشة عملاقة.

لم يستسغ رامسفيلد كلتا الفكرتين وحمل بعنف على خطة الغزو التي رسمتها القيادة المركزية الأميركية واعتبرها غير واقعية وأنها من بقايا الحرب الباردة كونها تعتمد على حشود من الرجال والدبابات والمدفعية، وفاشلة من ناحية رفع مستوى أهلية القوّات من خلال الارتكاز على التكنولوجيا الحديثة. والحقيقة أن الموجز المتعلّق بإيران عزّز في ذهنه فكرة أن التخطيط العسكري يفتقر إلى أي خيال، فأمر نيوبولد بوضع خطةً جديدة للردّ على الإرهاب الإيراني إضافةً إلى مجموعة خيارات عسكرية ضد «مراكز الثقل» الإيرانية وإعاقة أي رد يهدّد قوات الولايات المتحدة أو يمنعها من الوصول إلى مضيق هرمز. كان الأمس بعيداً بما فيه الكفاية بالنسبة إلى وزير الدفاع الجديد النافد الصبر.

بعد أقل من أسبوع مثل نيوبولد مرةً أخرى أمام رامسفيلد ومعه الخطة المنقّحة. تقضي الخطة أن تقوم صواريخ كروز والطائرات بقصف معسكرات تدريب فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني قرب طهران؛ ويمكن توسيع نطاق الضربات إلى أهداف أخرى، مثل مباني مقرات فيلق القدس أو وزارة الاستخبارات. وأضاف قائد القيادة المركزية الأميركية تومي فرانكس خياراً مماثلاً لتلك المخططات وُضع عندما صفّت الولايات المتحدة حساباتها آخر مرّة مع إيران في عقد الثمانينيات. في ذلك الوقت، أطلقت القيادة المركزية الأميركية على الخطة اسم «اليد الخفية المعكوسة»، وهي سلسلة من العمليات الأميركية ضد إيران لا يمكن إثبات ضلوع الولايات المتحدة فيها. اقترح فرانكس فكرةً مماثلة مفادها أن تقوم قوات العمليات الخاصة التابعة للبحرية بالتسلل سراً إلى المرافئ الإيرانية وتفجير أهداف فائقة الأهمية مثل الغواصات الثلاث الإيرانية والزوارق الصاروخية التابعة للحرس الثوري، فهذا من شأنه أن يرسل رسالة لا لبس فيها إلى الحكومة الإيرانية عن العواقب المترتّبة على الإرهاب. شدَّد نيوبولد على أنّ من شأن الحفاظ على سرّية المعركة التقليل من احتمالات التصعيد، إذ ستحافظ الحكومة الأميركية على قدرتها على الإنكار، أقلّه في العلن.

استمع رامسفيلد الفظّ في البداية ثم قام بمقاطعة نيوبولد طارحاً في النهاية فكرته الخاصة، حيث أمر القيادة المركزية الأميركية بالتحضير لتنفيذ خطة فرانكس «اليد الخفية المعكوسة»، فضلاً عن حملة قصف واسعة تستمر من ثلاثة إلى أربعة أيام لا تهدف إلى تدمير الأهداف الإرهابية فحسب، بل أيضاً إلى تدمير كلٍّ من الصواريخ البالستية الإيرانية والقواعد البحرية والجوية. في اليوم التالي تم توجيه أمر التأهّب إلى فرانكس في برقيّة صُنّفت بأنها من النوع السرّي الخاص وأطلق عليها الاسم المرمّز «بولو ستِب» (Polo Step)[1022].

في الواقع لم تكن لدى دونالد رامسفيلد نيّة بمهاجمة إيران أو، في تلك الحالة، مرتكبي الهجوم على «كول»، بمن فيهم أسامة بن لادن القابع في أفغانستان. والواقع أن إدارة بوش قلّما اهتمت بالعمل العسكري للانتقام من الهجمات الإرهابية التي وقعت في عهد بيل كلينتون. وقد علّق المسؤول السابق في مجلس الأمن القومي لمكافحة الإرهاب روجر كريسي على ذلك قائلاً: «لم يحدث الهجوم في خلال خدمتهم. إنه الهجوم الذي تمّ تناسيه»[1023]. بيد أن رامسفيلد استخدم الخطة العسكرية الإيرانية بفطنة لإرسال إشارة قوية إلى البنتاغون. فقد كان ينوي إعادة تنظيم وزارة الدفاع على نحو جذري وإجبار الجنرالات والبيروقراطيّة المدنيّة على الانصياع لإرادته، فاستبعد

الموظفين المدنيين الذين قضوا فترة طويلة في الخدمة، واستعاض عنهم بسياسيّين جاء بهم من أدنى المستويات في الوزارة، وقلّص هيئة الأركان المشتركة بنسبة 15 في المئة، ونقل العديد من الوظائف إلى مكتبه الخاص، وصادق شخصياً على كلّ ترقية جنرال بثلاث نجوم. كان رامسفيلد يتذمّر باستمرار من الوضع الراهن ويمطر المرؤوسين بوابل من مذكرات قصيرة سُمّيت «ندف الثلج»، طارحاً الأسئلة ومطالباً بالإجابة عن الصغيرة والكبيرة والشاردة والواردة. وكان يوبّخ أو «يتحدى» الجنرالات على التفكير «الخلاّق»، ويطالب الجيش بتقديم الإجابات في خلال أيام، وفي بعض الأحيان في خلال ساعات، حتى في ما يتعلّق بمشكلات شديدة التعقيد.

جاء أوّل أعمال إدارة بوش، حول صوغ سياسة جديدة حيال إيران، من الرئيس الجديد لفريق التخطيط في وزارة الخارجية، ريتشارد هاس، الذي أعدّ دراسة حول لائحة المواضيع التي ستُبحث في المفاوضات المحتمَلة مع إيران. وعدّدت اللائحة مجالات الخلاف الكبيرة مع الإيرانيين - أي دعم إيران لحزب الله وبرنامجها النووي - كما عدّدت المجالات التي يمكن للبلدين العمل فيها معاً، مثل مكافحة المخدرات. أشرك هاس بذلك كوندوليزا رايس وكولن باول ودعا إلى التحاور مع إيران بدلاً من عزلها[1024]. كما أعدت هيئة الأركان المشتركة أيضاً دراسةً توصي بمحاولة البناء على انفتاح كلينتون على الرئيس خاتمي. على الرغم من أن الحكومة الإيرانية واصلت مساعيها لامتلاك أسلحة دمار شامل وصواريخ بالستية، عرض الجيش تقويماً متفائلاً عن الإصلاحيين وعن نجاح خاتمي في نهاية المطاف. وكتب محلل عسكري لقضايا الشرق الأوسط أن: «التغيير مجرد مسألة وقت بوجود 25 مليون من الإصلاحيين و5 ملايين من المحافظين»[1025]. وافق الجيش هاس الرأي، وأوصى بالتحادث مع إيران في المجالات ذات الاهتمام المشترك، بما في ذلك العراق، مع مواصلة الضغط عليها للتخلي عن الإرهاب وبرامج الصواريخ الخاصة بها.

لم تحظَ الفكرة بأي دعم من قِبل الإدارة الأميركية، فقد كان الكثير من كبار المسؤولين يعتقدون أن الحكومة الإيرانية تترنّح وأنها على وشك السقوط. وقال هاس مستذكراً: «إن أي مبادرة دبلوماسية أميركية سوف تكون بمثابة رمي طوق نجاة لرجل غريق». رفض فريق الدفاع المدني الجديد بشكل قاطع وجهات نظر هيئة الأركان المشتركة، ولم يحظَ التحاور المبكر مع إيران بأي قوة داعمة. وعلّق كين بولاك قائلاً: «كانت إيران في ذيل قائمة الاهتمامات الأميركية الإقليمية»[1026].

اتّخذ رامسفيلد مساراً مختلفاً. على الرغم من أنه كان يعتقد أن إيران ستحصل على السلاح النووي في نهاية المطاف، مغيرةً بذلك توازن القوى في المنطقة، إلا أنه لم يكن ينظر إلى الأمر بوصفه أزمة عاجلة[1027]، ودعا بدلاً من ذلك إلى إجراء مراجعة شاملة لسياسة الولايات المتحدة تجاه العراق. كان رامسفيلد قد عمل مبعوثاً لريغان إلى الشرق الأوسط عندما لعبت الولايات المتحدة دوراً في تحقيق التوازن بين إيران والعراق، وكتب في مذكراته: «كان لدي شك في أن تقود الخلطة المناسبة المكوّنة من المداهنة والضغوط صدام حسين إلى تسوية محسّنة مع أميركا أو تجبره

عليها»، وكان يؤيد فكرة العودة إلى الأيام التي كان فيها العراق حصناً لاحتواء إيران. كما كتب أيضاً: «على الرغم من أنها تسديدة بعيدة، إلا أنها لم تكن خارج الحسبان»[1028].

حمّس موضوع العراق أيضاً المثقفين المحافظين الذين عُيّنوا في المناصب السياسية والذين يشغلونها داخل البنتاغون، بمن فيهم، المنّظر الأشعث بول وولفويتز الذي يعتبره رامسفيلد الرجل الثاني في وزارته. عُرف هؤلاء المثقفون عموماً باسم «المحافظين الجدد» (neoconservatives) أو (neocons)، وهم تجمع فضفاض من رجال يملكون نفس التفكير النابع عن اليسار السياسي، اندمجوا مع الصقور المناهضين للسوفيت في الحرب الباردة، وكانوا يدعون إلى سياسة خارجية أحادية تركّز على تفوق أميركا الأخلاقي واستعدادها لاستخدام القوة العسكرية لمواجهة أشرار العالم، ولم يكن ليُرِعْهم استخدام القوة لإعادة صياغة العالم في صورة ترضي أميركا[1029].

كان وولفويتز ينظر إلى صدام حسين باعتباره التهديد الرئيس للأمن الأميركي. كان وولفويتز، المهذّب والمحبّب والمعسول الكلام، نموذجاً للأستاذ الشارد الذهن، ويمتلك ذهناً سريع البديهة، وذا مظهر خارجي مهمل بشكل دائم. وكان أول من أثار فكرة التهديد العراقي قبل ثلاثين عاماً عندما ترأس في 1979 برنامج بحث سري طارىء كلّفه به الوزير هارولد براون. كان وولفويتز ينظر إلى العراق من منظار المحرقة والتجربة اليهودية خلال الحرب العالمية الثانية، فصدام حسين وحزب البعث يشكّلان بالنسبة إليه الوجه العصري للفاشية. وعندما اقترحت مذكرة في العام 2004 إجراء مصالحة مع مسؤولين بعثيين سابقين بعد الغزو الأميركي وأد وولفويتز الفكرة في مهدها، وردّ عليها مخربشاً على الهامش: «إنهم نازيون!»[1030]

خلال الفترة التي كان فيها الجمهوريون بعيدين عن السلطة، وامتدت بين حكم جورج بوش الأب وجورج بوش الابن، كان المحافظون الجدد يحرّضون على إطاحة النظام العراقي عن طريق العمل السري وتسليح المنفيين المدعومين من القوة الجوية الأميركية[1031]. وما إن عاد الجمهوريون إلى السلطة حتى راحوا يضغطون لاستخدام القوة العسكرية الأميركية لإقامة مناطق آمنة يمكن من خلالها لقوات تحرير العراق أن تحتشد لإطاحة الحكومة العراقية.

كانت مستشارة الرئيس للأمن القومي كوندي رايس على علاقة وثيقة بالرئيس جورج بوش، وهي التي عملت على تدريب هذا المرشّح المبتدئ على السياسة الخارجيّة، فهي سياسية مجتهدة وخبيرة بالشؤون الروسية، وكانت أكثر من مجرد مستشارة، وقد صارت صديقة حميمة للرئيس وللسيدة الأولى، وقد منحها اتصالها الدائم بهما كلّا من البصيرة والاطلاع اللذين يحتاج إليهما أي مستشار أمني كفؤ. بيد أن الرئيس استخدمها كمستشارة شخصيّة في الشؤون الخارجية الشخصية وليس بوصفها ذراعاً حديديّة لتنسيق أهدافه السياسيّة وتنفيذها[1032]. بدلاً من ذلك، عملت رايس على التوصل إلى قرارات إجماعية داخل مجلس الأمن القومي. عندما كان كبار المسؤولين يختلفون، لم تكن رايس ترفع هذه الاختلافات إلى الرئيس ليفصل فيها، بل كانت تُعيد المسائل

المختلف عليها إلى كبار المسؤولين ليحاولوا مناقشة المسألة مرةً أخرى بغية التوصل إلى اتفاق. ولم تؤدِّ أبداً النقاشات التي لا تنتهي حول المسائل السياسيّة المتنازع عليها إلى أي قرار في ما يتعلق بالمسار الواجب اتّخاذه، وهو ما أدّى إلى إضعاف مستشارة الأمن القومي وإلى اختلال وظيفي في الأمن القومي.

كان جورج بوش هو المسؤول الرئيسي عن هذا الجمود، وقد اعترف بذلك شخصياً، فهذا التكساسي المتبختر لم يكن رجلاً متبصّراً متعمقاً في أفكاره، وقلّما اهتم بانتقاد قراراته السياسية والحكم عليها[1033]. فقد صوّر نفسه زعيماً حاسماً، وعنون مذكّراته بـ «قرارات مصيرية» (Decision points)، وقد ناقش فيها سلسلة من الأمثلة التي تُظهر كلّها وصفه لنفسه بـ «صاحب القرار» الذي يتّخذ القرارات المهمة مسترشداً بإيمانه الديني وبصوابية القضيّة. والواقع أن بوش كان يتجنّب اتّخاذ خيارات حازمة. واتفق محبوه ومنتقدوه ممن عملوا معه في البيت الأبيض على أن الرئيس كان يريد من مرؤوسيه التوافق في الآراء بشأن السياسة الخارجية على أن يخرجوا من بعدها إلى صاحب القرار بمسار واحد للعمل. ولكن المشكلة في هذا الأسلوب الإداري تقع عندما يعجز المرؤوسون عن التوصل إلى اتفاق. في الإدارات الأخرى، مثل إدارة الرئيس ريغان، كان مستشار الأمن القومي يكتفي بعرض وجهتي النظر مقرونتين بصفحة غلاف فيوافق الرئيس على الخيار ألف أو باء ويوقّع عليه، ويعرف الجميع بما لا لبس فيه طريقته في الحكم. «ولكن هذا لم يحدث البتة في إدارة بوش»، كما اشتكى منه مسؤول من فئة وظيفية متوسطة في مجلس الأمن القومي. بدلاً من ذلك، كان الرئيس يأمر مستشارة الأمن القومي بمراجعة القضية مرةً أخرى، بالرغم من أن القضية لم تكن لتُحال أبداً إلى المكتب البيضوي لو أمكن لمستشاري الرئيس اتخاذ قرار جماعي[1034].

في 1 حزيران/يونيو 2001، ترأست كوندوليزا رايس اجتماعاً حضره رامسفيلد وباول وتشيني بشأن العراق. وقد سبق لوزارة الدفاع أن حثّت على القيام بعمل سريع، ودعمها نائب الرئيس الذي يتساوى معها في التشدد، متحججين بأن الوقت ليس في مصلحة واشنطن، فقد طرد صدام حسين، قبل ثلاث سنوات، مفتشي الأمم المتحدة، وحذّرت ورقة عمل أعدّتها وزارة الخارجية من أنه، في حال لم يردعه أحد: «يمكن أن يمتلك صدام حسين أسلحة نووية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل»[1035].

في حرارة صيف واشنطن، اجتمعت الدائرة الداخلية لبوش مرتين إضافيتين لدراسة تغيير النظام في العراق. دعا وزير الخارجية كولن باول إلى فرض عقوبات مركّزة أو ذكية بعيداً عن العمل العسكري، تهدف إلى تحجيم صدام. وافق رئيس هيئة الأركان المشتركة المنتهية ولايته هيو شيلتون، وحاجّ بأن حملة الجيش الأميركي الجوية قد قزّمت الجيش العراقي وحوّلته إلى صدفة جوفاء، وأن صدام حسين، رغم أنه دكتاتور متوحش، لا يشكّل تهديداً لجيرانه. لم تعرض رايس آراء جازمة سواء لصالح توصيات البنتاغون أو ضدها. وازداد قلق شيلتون من أن دعاة العمل العسكري أخذوا بالتأثير في الآخرين في النقاشات بين الوكالات.

الشخص الوحيد في الإدارة الذي ركّز اهتمامه على إيران أكثر من تركيزه على العراق كان جون بولتون، المساعد الجديد لوزير الخارجية لشؤون الحدّ من التسلح والأمن الدولي. دعا بولتون، ذو الشعر الأشيب والشارب الأبيض الكثّ، إلى سياسة خارجية قوية. كانت وجهة نظره تختلف عن مثالية وولفويتز، فهي تنبع من الحاجة إلى القيام بعمل أميركي أحادي الجانب وإلى اتخاذ مواقف أميركية متشددة تجاه الشرق الأوسط مماثلة لتلك التي يتّخذها الإسرائيلي آريل شارون. وهو ما وضعه على خلاف مع باول وأرميتاج اللذين يديران وزارة الخارجية وآراؤهما أكثر اعتدالاً. ولكن باول تقبّل بولتون ليتجنّب على الأقل انتقادات الأشخاص الأكثر تطرفاً في الإدارة. شكّ أرميتاج بأن تشيني تعمّد تعيين بولتون ليضع رئيس الدبلوماسية الأميركية تحت ناظريه، ووصفه بأنه واحد من «الخفافيش» قائلاً: «عندما ينتهي النهار وتغيب الشمس، تغادر الخفافيش الكهف وتطير لتقدم تقريراً إلى البيت الأبيض».

كان بولتون يعتبر إيران تهديداً خطيراً. فالبرنامج النووي الإيراني المثابر يشكّل أخطر التحديات، وقد تعاطف مع المخاوف الإسرائيلية من التهديد الوجودي الذي يمثله تسلح إيران النووي. وكان يدفع الإدارة، من خلال وظيفته المتعلقة بالحد من التسلح، للضغط على روسيا لوقف مساعداتها للبرنامج النووي والصاروخي الإيراني لا سيما على صعيد استكمال مفاعلها غير المكتمل منذ عشرين عاماً في بوشهر[1036].

أظهر جورج بوش اهتماماً لا يذكر بكلٍّ من العراق وإيران. خلال الفترة الانتقالية، أطلع نيوبولد الرئيس المنتخب بوش على العمليات الجوية الحالية في العراق لفرض مناطق حظر الطيران. سأل بوش سؤالاً واحداً فقط: كم تبلغ الكلفة المالية لعملية فرض مناطق حظر الطيران العراقي؟ وحتى أنه لم يأتِ على ذكر إيران في سياق الحديث[1037]. ولمّا بدأت حرارة الصيف تنخفض بات على الرئيس اتخاذ القرار في شأن التعاطي مع العراق. أما كيف اختار في نهاية المطاف بين العقوبات الذكية أو التحرّك فهذا لا يزال مدار تكهّنات وشكّل الجدل الأكبر في السياسة الخارجية خلال ولايته الأولى. وقد وضع هجوم القاعدة الإرهابي حدّاً لهذا الجدل.

كان 11 أيلول/سبتمبر 2001 يوماً نموذجياً من أيام أواخر الصيف في واشنطن. كانت السماء الزرقاء المشمسة الساطعة تخيّم على النصب التذكارية البيضاء والمباني المهيبة المبنية من حجر الصوان التي شُيّدت بفخامة اشتراكية في سنوات 1920. فمع انتهاء عطلة عيد العمل وعودة الأولاد إلى المدارس، أدّت حشود العاملين في الحكومة إلى ازدحام الطريق المحيطة بالعاصمة والطرق السريعة الأخرى المتجهة إلى واشنطن بشدة. وفيما كان تشيني ورامسفيلد يعملان في مكتبيهما الواقعين على طرفين متقابلين من نهر بوتوماك، كان الكثيرون من كبار قادة الحكومة منتشرين في كافة أنحاء العالم: الرئيس في ولاية فلوريدا، وهيو شيلتون في طريقه إلى هنغاريا، ومسؤولون كبار آخرون يعملون في الدفاع كانوا هنا وهناك في روسيا وأوروبا.

في صباح ذلك اليوم صعد تسعة عشر رجلاً من الشرق الأوسط على متن طائرات في بوسطن وواشنطن ونيوارك. سرعان ما لاحظ مراقبو الملاحة أن ثمة من أوقف بثّ جهاز الإرسال والاستقبال في الرحلة رقم 11 لطائرة الـ 767 التابعة لشركة «أميريكان إيرلاينز» المتوجهة من

بوسطن إلى الساحل الغربي. غيّرت الطائرة وجهتها بصورة مفاجئة واستدارت عائدةً نحو الشرق. سيطر محمد عطا على الطائرة، وهو زعيم المسلمين اللاسلطويين المؤيّدين للسعودي المتعصّب أسامة بن لادن. حلّق عطا بطائرة الركاب الكبيرة بسرعة وعلى ارتفاع منخفض في سماء مانهاتن مردّداً «الله أكبر» ثم اتجه بها مباشرةً إلى أعلى مبنيين في العالم تُعدّان رمزاً للرأسمالية الأميركية.

عندما اصطدمت الطائرة الأولى بمركز التجارة العالمي عرف ضباط مركز القيادة العسكرية الوطنية الذين يرصدون النقاط الساخنة في العالم من موقعهم في المتاهة الكئيبة لمقصورات المركز بالخبر من الأخبار التلفزيونية. ومركز القيادة العسكرية الوطنية ليس منشأة هوليوودية. بدلاً من أن يكون غرفة حربية مثيرة للإعجاب تحتوي على خرائط إلكترونية ذات تقنيّة عالية كما يصفها الكتّاب من ذوي المخيلة الخصبة، فإنه أشبه في الواقع بمتاهة مهمَلة، فهو عبارة عن مبنى داخل مبنى، ويقع في وسط وزارة الدفاع، يتّصل بسهولة بمكتب رئيس هيئة الأركان المشتركة ووزير الدفاع، اللذين يستطيعان السير عبر الرواق والدخول إليه من أي موقع من مواقع الحراسة. وكان يقع في وسطه قسم العمليات الجارية، وتكدح فيه مجموعة من الضباط الذين يرصدون الأزمات في جميع أنحاء العالم من غرفة كبيرة طويلة وضيّقة ومفتوحة تلتفّ حول أعمدة مربّعة كبيرة تحمل ثقل المبنى. وثمة مكتب صغير خارج هذه الغرفة يجلس فيه عميد على مدار النهار والليل بوصفه كبير ضبّاط الرصد، وقاعة صغيرة للاجتماعات هي بمثابة المركز العصبي أثناء الأزمة، وهي تزخر بهواتف موضوعة على طاولة مستطيلة كبيرة وشاشة فيديو مثبتة على الحائط البعيد. كانت هذا مكتب رئيس هيئة الأركان المشتركة، وغالباً مكتب وزير الدفاع، خلال الأزمة. وبعد عدة عطفات واجتياز بضعة أبواب ثمة مركز إنذار جاهز لإطلاق الترسانة النووية الأميركية وغرفة تحتوي على خط الاتصالات مع موسكو الذي جُهّز بعد وقت قصير من أزمة الصواريخ الكوبية للسماح بتبادل الرسائل الفورية بين البلدين.

في البداية، اعتقد الضباط الذين كانوا يراقبون تحطّم الطائرة في نيويورك أنها قد تكون طائرة مدنية؛ بل إن عدداً قليلاً منهم عاد بذاكرته إلى الطائرة القاذفة التي اصطدمت بمبنى «إمباير ستيت» خلال الحرب العالمية الثانية. إلا أن الاتصال بإدارة الطيران الاتحادية بدّد هذه النظرية.

استهدف الخاطفون البنتاغون أيضاً، فقد كادت طائرة مخطوفة أخرى تلامس مقبرة أرلينغتون الوطنية، وقطعت أحد أعمدة الإنارة في محطة للوقود تابعة للبحرية، قبل أن يقطع جناحها أحد مولّدات الطاقة وترتطم بالمبنى الضخم ذي الطبقات الخمس. جرّ الزخم الطائرة عبر ثلاثة من أطواق المبنى الواسعة الخمس لتلقي أخيراً بجزء من معدات هبوطها في وسط إحدى الطرق الداخلية. «كانت هناك موجة حارة تشبه الضباب تمتد من الجزء الخلفي للغرفة حتى سقفها»، وفق الوصف الذي قدّمه كريستين موريسون، الموظف المدني في وزارة الدفاع. «وقبل أن أتمكن من تسجيل الفكرة أو استكمالها ضربت هذه القوة الغرفة وحوّلت المكتب على الفور إلى جحيم، وأخذ كل شيء في التساقط والتطاير والاحتراق، ولم يكن هناك من مفر»[1038].

كان كلٌّ من رامسفلد ونائب قائد هيئة الأركان المشتركة الجنرال ريتشارد مايرز يرصدان الهجمات على نيويورك والبنتاغون من قاعة الاجتماعات الصغيرة المجاورة لمكتب ضابط المراقبة

الرفيع المستوى في مركز القيادة العسكري الوطني ويتهيئان لأي شيء آخر قد يحدث. كان الجو خانقاً؛ فقد انحشر أربعة وعشرون رجلاً في قاعة الاجتماعات الصغيرة. أما مركز القيادة العسكري الوطني، المصمم ليكون مكتفياً ذاتياً في حالة حرب نووية، فأُغلق بإحكام بفضل زوج من الأبواب الموصدة بإحكام لمنع الدخان من الوصول إلى المنطقة الحساسة. في غضون بضع ساعات بدأ الأوكسجين ينفد، فأعيد فتح الأبواب إلى أن أجبرهم الدخان الخانق على غلقها ثانيةً.

مع انتشار الدخان الكثيف في أروقة وزارة الدفاع الأميركية، اجتمع رامسفيلد بنائب وكيل وزارة الدفاع لشؤون التخطيط ستيفن كامبون ودوغلاس فيث في الساعة الثانية وأربعين دقيقة ليلاً، وناقشوا ما لديهم من معلومات حول من يقف وراء الهجوم، وأخذ وزير الدفاع يستمزج الأفكار في شأن الردّ العسكري. نطق رامسفيلد على الفور بكلمة «العراق»، ودوّن كامبون في مفكّرته: «ضرْب ص. ح. [صدام حسين] في الوقت نفسه - وليس فقط أ. ب. ل. [أسامة بن لادن]»[1039].

كتب وولفويتز في واحدة من سلسلة المذكّرات التي رفعها لرامسفيلد على الفور بعد الهجوم: «أوضحت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أنه لم يعد في وسعنا التسامح وحسب مع شبكات الدول الداعمة للإرهاب -لا سيما تلك التي تسعى إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل- سواء كانت متورطة في هذه المأساة أم لم تكن. إذا كان هناك حتى احتمال 10٪ بأن صدام حسين هو الذي يقف وراء أهوال يوم الثلاثاء، فيتوجّب أن تُخصّص الأولوية القصوى للقضاء على هذا التهديد»[1040].

ليس مستغرباً أن يريد ولفوويتز البدء بالعراق، فقد افتُرض أنّ لدى العراق أسلحة دمار شامل، وقد أبدى رغبة واضحة في استخدامها. وها هو ولفوويتز يعتبر العراق عنصراً أساسيّاً في الحرب العالمية الجديدة على الإرهاب، وكتب إلى رامسفيلد قائلاً: «لن نتمكّن من العثور على كل الثعابين في المستنقع... إلا إذا جفّفناه». أثار ولفوويتز الشكوك حول مسؤولية تنظيم القاعدة عن الهجوم، وذهب إلى حد أنه اقترح على وزير الدفاع أنه ربّما دبّر بلد آخر الهجوم ليبدو أن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر من تنفيذ أسامة بن لادن. «يمكن المرء أن يتخيّل لماذا قد يريد أحدهم أن يبدو الأمر على هذا النحو، كأن يكون العراقيون أو الإيرانيون أو السوريون، مثلاً، وراء هذا العمل»[1041].

بعد أيام قليلة من الهجوم الإرهابي ذهب نيوبولد إلى مكتب فيث بمسوّدة خطّة لضرب مواقع لتنظيم القاعدة في أفغانستان. نظر فيث بازدراء إلى جنرال البحرية قائلاً: «لماذا تخطط لذلك؟ العراق هو الهدف»[1042].

صُدم نيوبولد، «فالعراق لم يهاجم الولايات المتحدة»، لذا تقاعد في العام 2002 احتجاجاً على ذلك، وقبل أن يغادر وزارة الدفاع سلّم رئيس هيئة الأركان المشتركة رسالةً مختصرة لاذعة تصف حماقة الحرب المقبلة على العراق.

في عطلة نهاية الأسبوع، التي أعقبت هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، اجتمع بوش بفريق سياسته الخارجية في كامب ديفيد بولاية ماريلاند، وتركزت المناقشات حول الحرب القادمة في أفغانستان وكيف يمكن للولايات المتحدة أن تتجنّب تكرار أخطاء الإمبراطوريات السابقة. دفع ولفوويتز نحو مهاجمة العراق بدلاً من أفغانستان[1043]. وأوضح دوغ فيث، عاكساً بذلك وجهات نظر العديد من الموظفين المدنيين في البنتاغون، أن مهاجمة تنظيم القاعدة وحركة طالبان في أفغانستان تشبه كثيراً العمل البوليسي، قائلاً: إنكم، بضربكم العراق، تكونون قد عالجتم المشكلة الأكبر وهي مشكلة الدول الراعية للإرهاب، وهذا يُعدّ «تفكيراً استراتيجياً»[1044]. رفض بوش الحجة، ولكن ولفوويتز كان قد أشّر على ما سيأتي بعد أفغانستان.

كُلّف دوغلاس فيث تطوير السياسة الدفاعية لوزير الدفاع رامسفيلد. كان الكثير من الضباط يعتبرون هذا الرجل النحيل ذا الشعر الأسود الكثيف مُنظّراً متغطرساً، ولكن فيث كان يتمتع بدقّة المحامين، وقد دفع بمرؤوسيه إلى الجنون وهو يدقق في تقاريرهم وينتقد حتى موضع الفاصلة في الإيجازات ذات التوقيت الزمني الحسّاس، وقد أثبت مهارته في بلورة أفكار رامسفيلد وولفويتز.

أراد وزير الدفاع إضفاء صفة «العالمية» على الحرب على الإرهاب، وأخذ يبحث عن وسيلة لتبرير العمل الأميركي الأحادي الجانب، ولإثبات قدرة أميركا على الضرب في أي مكان من العالم لاستئصال أعدائها. أراد استراتيجية عسكرية هجومية عدوانية. وقد وافقه ريتشارد بيرل، رئيس مجلس «سياسات الدفاع» ذي النفوذ، وهي لجنة استشارية لوزير الدفاع، ودعا إلى سلسلة من الحملات العسكرية المتعاقبة، بما في ذلك على العراق وسوريا وإيران. بحيث يهزم الجيش الأميركي أحدها ثم ينسحب بسرعة لتجنّب الاحتلال الطويل الذي يستنزف الدعم والموارد العامة، ويتحرك بعد ذلك بسرعة لمهاجمة البلد الثاني. وقد راق هذا رامسفيلد.

في أعقاب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وضع فيث ونائب رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال بيتر بيس مجسّماً للشبكة الإرهابية العالمية كجزء من الاجتماعات المنتظمة لبناء حملة «الحرب العالمية على الإرهاب». وكان أحد الأهداف ضمان عدم الربط بين أسلحة الدمار الشامل والإرهابيين. وفي حين قد يمكن إجبار بعض البلدان المرتبطة بالإرهابيين، مثل سوريا وليبيا، على التخلي عن أسلحتها، إلا أن فيث وبيس اعتقدا أن دولاً أخرى، مثل العراق، قد تجاوزت إمكانية إخضاعها بالوسائل الدبلوماسية أو الاقتصادية. قال فيث: «لقد جُرِّبت على مدى أكثر من عشرة أعوام كل الوسائل الممكنة ضد صدام حسين باستثناء القوّة العسكرية». وكان فيث يعتقد أن إيران تندرج في فئة مختلفة، وأضاف: «لم تحاول الولايات المتحدة الضغط على الإيرانيين بقوة باستخدامها الوسائل الاقتصادية والسياسية. ولم تشكّل القوة العسكرية خياراً جدياً في عامي 2001 و2002»[1045].

ساعدت الاستخبارات الأميركية في التخطيط بلعبها لعبة مزدوجة في الربط بين أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وبين الدول الراعية للإرهاب. ففي 18 تشرين الأول/أكتوبر مرّر مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت تقريراً إلى رامسفيلد يتكهّن فيه بالبلدان التي قد

تمتلك دوافع للقيام بهجوم إرهابي ضد الولايات المتحدة، مركِّزاً على ليبيا وإيران والعراق. تمسّك كلٌّ من رامسفيلد وولفوويتز بهذه الجزئية كذخيرة إضافية في حملتهم الصليبية لمهاجمة العراق. عندما توالى فشل محللي وكالة الاستخبارات المركزية في إثبات هذه العلاقة، أنشأت وزارة الدفاع «مكتباً للخطط الخاصة» تحت إشراف فيث، وقد ترأسه سياسي قليل الكلام، هو آبي شولسكي، وقضت مهمته بإيجاد الروابط، التي فوّتها مجتمع الاستخبارات، بين تنظيم القاعدة والعراق. ولكن لم يردع وزارة دفاع بوش واقع أن مجموعة شولسكي لم تعثر هي الأخرى على مثل هذه العلاقة. ففي 21 تشرين الأول/أكتوبر عام 2001 صدرت مذكرة حررها كبار مسؤولي الدفاع، وهم بيتر رودمان ودوغ فيث ودونالد رامسفيلد، لخّصت آراءهم بإيجاز: «إن عدم وجود أدلة لا يعني بالضرورة غيابها».

تسبّب الخاطفون، الذين جرفت طائراتهم مركز التجارة العالمي في نيويورك والبنتاغون في 11 أيلول/سبتمبر 2001، بتصلّب سياسة إدارة بوش إذ اندمجت الأيديولوجيا مع سياسات السلطة. وسرعان ما اصطفت كلٌّ من باول وأرميتاج مع هذه السياسة. وركّز نائب الرئيس ديك تشيني، المؤمن بسياسات القوة والسلطة التنفيذية، اهتمامه على حجة أسلحة الدمار الشامل، وقال لأحد الموظفين: «إذا حصلت جماعة إرهابية على سلاح نووي أو كيميائي فستستخدمه بالتأكيد وتسبّب ضرراً أكبر بكثير من 11 أيلول/ سبتمبر». تبنّى جورج بوش أهداف ولفوويتز الداعية إلى الحرب إيماناً منه بأن قوة عليا قد نصّبته رئيساً خلال هذه اللحظة الحرجة من التاريخ. كان ينظر إلى الحرب القادمة على الإرهاب بعظمة ويلسون. لقد قدّمت الهجمات الإرهابية الآن فرصة لإعادة تشكيل الشرق الأوسط على أساس القيم الأميركية لحقوق الأفراد وليس على نزوة الأوليغارشية الحاكمة.

«فظاعة» هي العبارة التي استخدمتها قناة التلفزة الإيرانية في طهران «إيران نيوز» (Iran News) في وصف المذبحة. واعتقد بعض المسؤولين الإيرانيين أن الولايات المتحدة قد خلقت القاعدة كأداة ضد الدولة الإسلامية. وبقيت الريبة تراود بعض المسؤولين الذين يعتقدون بنظرية المؤامرة بأنه لم يكن بالإمكان تنفيذ مثل هذه العملية دون معرفة الحكومة الأميركية. لكن حجم الهجوم وكذلك الجناة قد أذهلوا الحكومة الإيرانية وشعبها[1046]. قال الرئيس خاتمي: «أتعاطف من أعماق قلبي مع الأمة الأميركية... الإرهاب مدان وعلى البشرية تحديد جذوره وأبعاده، واتخاذ خطوات حاسمة للقضاء عليه». وسهر المشيّعون في إيران بصورة عفوية على أضواء الشموع، كما خرج الآلاف من الناس إلى الشوارع في شمال طهران احتجاجاً وهم يهتفون: «الموت للإرهابيين». وقبل بدء المباراة مع البحرين وقف مشجّعو كرة القدم الإيرانية دقيقة صمت على أرواح ضحايا الهجمات. كما دان المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي الهجمات قائلاً: «القتل الجماعي خطأ، سواء أكان ذلك في هيروشيما أم البوسنة أم نيويورك أم واشنطن»[1047]. وخلال صلاة الجمعة في مدينة قم قال آية الله إبراهيم أميني إن الشعب الإيراني حزين على أقارب القتلى. وغاب شعار «الموت لأميركا» التقليدي عن هتافات الحشود[1048].

كانت مشاعر طهران بشأن الإدارة الجديدة متضاربة. أراد الرئيس خاتمي يائساً تحسين الاقتصاد الإيراني لضمان بقائه السياسي، ولكي يُظهر أيضاً لمنتقديه داخل الحكومة الفوائد الملموسة من تحسين العلاقات مع الغرب[1049]. بدت روابط عائلة بوش بالصناعات النفطية فألَ خير، واعتقد رفسنجاني أن الضغط على شركات النفط الأميركية قد يؤدي إلى رفع العقوبات. وبالرغم من أن تعيين والده مديراً للاستخبارات المركزية تسبّب بعدم الارتياح في الحكومة الإيرانية، فقد أمل كثيرون داخل مجتمع الأعمال الإيراني أن يكون الجمهوريون أكثر تعاطفاً مع رفع العقوبات كي تكسب الشركات الأميركية المال.

إذا كان الهجوم الإرهابي قد غيّر من تركيز حكومة الولايات المتحدة، فهو بشّر أيضاً بإحداث تغيير في ما يخصّ إيران، وبدا الخصم الأميركي التقليدي فجأةً حليفاً محتملاً. قال ريتشارد أرميتاج: «يبدو أن الإيرانيين قد صُدموا من حجم الهجوم». لم تُظهر إيران أي حماسة تجاه تنظيم القاعدة أو أهدافه ذات المرجعية السنّية.

آوى الطالبان، المعادون بشدة للشيعة وللتحالف القبلي الإيراني الأفغاني، منفّذي هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. فقد دعمت إيران جماعة المعارضة الرئيسة، في تحالف الشمال، التي تتمتع بعلاقات وثيقة مع المقاتل الأسطوري المقاوم أحمد شاه مسعود الذي عارض كلّاً من السوفيت وطالبان. في عام 1998 هددت إيران بغزو أفغانستان عقب مقتل ثمانية دبلوماسيين إيرانيين من قبل قوات طالبان التي اقتحمت مدينة مزار الشريف في شمال أفغانستان. ونتيجةً لذلك زادت إيران من دعمها لقوات تحالف الشمال والقوات المناهضة لطالبان. وفي النصف الأول فقط من العام 1999 وصلت ثلاثٌ وثلاثون طائرة شحن محمّلة بـ 380 طناً من الأسلحة الخفيفة والذخيرة والوقود من القاعدة الجوية الإيرانية الشرقية في مشهد إلى طاجيكستان لتُنقَل بعد ذلك إلى تحالف الشمال.

في أواخر التسعينيات رعت الأمم المتحدة لقاءات جرت في جنيف للدول المجاورة لأفغانستان بالإضافة إلى الولايات المتحدة وغيرها من الجهات ذات المصلحة في آسيا الوسطى لحل المشكلات الكثيرة الناجمة عن الحرب الأهلية الأفغانية وانتصار طالبان. آوت إيران مليوني لاجئ أفغاني، فشقَّ الأفيون الأفغاني طريقه عبر حدود إيران التي يسهل اختراقها واتجه إلى المدن الإيرانية وكذلك إلى شوارع أوروبا. أولى الطابق السابع في وزارة الخارجية الأميركية القليل من الاهتمام لهذه النقاشات التي تقع ضمن صلاحية مكتب الوزارة الذي يعالج موضوعات تخص الهند وباكستان بدلاً من الشرق الأوسط. بيد أن الاجتماع جمع الدبلوماسيين الأميركيين والإيرانيين في الغرفة نفسها، ورأت وزارة الخارجية بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر في هذا المكان غير الرسمي وسيلةً لاستمالة إيران والاستفادة من قدرتها للوصول إلى تحالف الشمال والتعاون معه في الهجوم الأميركي المرتقب على طالبان.

قال فلينت ليفيريت، وهو ضابط في وكالة الاستخبارات المركزية وكان مديراً لشؤون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي: «كان الإيرانيون يمتلكون العلاقات التي من شأنها أن تساعدنا في أفغانستان، وبدا أنهم على استعداد لاستخدام نفوذهم بطريقة بنّاءة»[1050].

أرسل وزير الخارجية باول ريان كروكر للقاء الإيرانيين في جنيف، وأشرك الإيطاليون والألمان كغطاء لتفادي أن تبدو المحادثات بين أميركا وإيران محادثات مباشرة، ولكنها كانت في الواقع أول محادثات تدور وجهاً لوجه بين البلدين منذ العام 1986 إبان كارثة الرهائن في مقابل الأسلحة بإدارة ريغان.

شغل كروكر، الرزين ذو الخبرة الواسعة والذي يجيد اللغتين العربية والفارسية، بعض أكثر المناصب أهمية في الشرق الأوسط. وقد أُصيب في نيسان/أبريل من العام 1983 بجروح طفيفة جراء تطاير زجاج عندما فجّر أحد أعوان إيران سيّارةً محملةً بالمتفجرات أمام السفارة الأميركية في بيروت. وقد ترأس فريق عمل حول العراق في وزارة الخارجية في أعقاب غزو صدام للكويت قبل أن يعود إلى لبنان في العام 1990 ليشغل منصب السفير الأميركي هناك. كان ذلك أول تعيين له من أصل ستة تعيينات كسفير في المنطقة، من بينها سفير في العراق عام 2007 خلال ذروة أعمال العنف في أعقاب الغزو الأميركي، وفي أفغانستان خلال الفورة فيها في عهد الرئيس أوباما. ولكروكر معرفة ما بإيران، فقد تسلّم أول منصب له في العام 1972 بوصفه ضابطاً في الجهاز الخارجي في القنصلية الأميركية في خرمشهر في جنوب غرب إيران. وصل كروكر، وقد فتنته الاحتجاجات الطلابية في الجامعات الأميركية في ذلك الوقت، وهو مقتنع بأن ثورة يسارية سوف ترمي برجعية الشاه والنظام الاستبدادي في «مزبلة التاريخ». أمضى عامين وهو يجول في ريف البلاد متحدّثاً إلى الطلاب ومنظمي النقابات في محاولة لإثبات هذه الفرضية. واستذكر كروكر وهو يتحسّر على سذاجته: «لم أكن قادراً على تمييز الفقهاء المسيّسين حتى لو تعثّرت بأحدهم. ولم تكن لدي أي فكرة عمّا كان يكتبه الخميني في النجف». أدرك كروكر، بعد إطاحة الشاه، المشكلة المتأصّلة المتمثّلة في نظرة المرء إلى مجتمع آخر من خلال عدسته الخاصة، وقال: «تعلمت درساً مهماً وهو أنّ على المرء أن يترك متاعه الفكري على عتبة الباب عندما يصل إلى مجتمع آخر معقّد، وإيران دولة معقدة بشكل لا يصدّق».

لم يتّفق الجميع في الحكومة الأميركية بشأن جدوى الحديث إلى إيران، فعندما سمع بول ولفوويتز بمهمة كروكر أراد إلغاءها. ووافقه جون بولتون الرأي، إذ رأى في ذلك مكافأةً للإيرانيين على سوء سلوكهم، ولأنه لم يكن يثق بأي شيء يتفوه به أي مسؤول إيراني. ومن بين أكثر المعارضين تشدّداً كان نائب مساعد وزير الدفاع لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا وليام لوتي، وهو نقيب متقاعد في البحرية برز على الساحة كمساعد عسكري لنيوت غينغريتش، ونال شهادة الدكتوراه من جامعة «تافتس»، وتناولت أطروحته عملية «إرنست ويل» ومواكبة ناقلات النفط الكويتية خلال عقد الثمانينيات، وكان يعارض العملية المشتركة التي تقودها القيادة المركزية الأميركية. وقد قال عنه الجنرال طوني لِس، وهو أحد القادة في خلال حرب الناقلات: «إنه رجل متألق للغاية وصديق جيد، لكنه يميل إلى الجناح اليميني كثيراً»[1051].

كان لوتي سريع الانفعال عندما يتعلق الأمر بإيران[1052]؛ وقد دعا علناً إلى تغيير النظام عوضاً عن خوض محادثات غير مثمرة مع أمة مخادعة. وطلب من لاري فرانكلين، وهو موظف مدني يشاطره آراءه، صياغة الحجج المناهضة للحوار مع إيران. «إيران دولة معادية»، بهذه

الجملة بدأ فرانكلين في تهجّم لاذع من ثماني نقاط ضد الجمهورية الإسلامية. «لقد تشدقت إيران بكلمات إدانة لهجمات 11 أيلول/سبتمبر، ولكن أفعالها تخالف ذلك»، فقد نكثت بالتزاماتها الدولية، وخادعت، وعملت بالفعل على تقويض الحكومة الأفغانية وتفتيت البلاد. «يجب على إيران وقف برامجها غير المشروعة وإنهاء أساليبها الإرهابية»[1053].

ولكن باول وأرميتاج ظلا صامدين، ولمرة واحدة أقحمت رايس نفسها ووافقتهما على أن الاجتماع بالإيرانيين حول أفغانستان قد يكون مفيداً. وأذعنت وزارة الدفاع هي الأخرى، طالما أن المناقشات ستظل على مستوى منخفض ولن تطال مواضيع أخرى من العلاقات الأميركية الإيرانية، ولم تثر أية اعتراضات قوية باستثناء مداعبة كروكر، من خلال نخزات سليمة النيّة تتعلّق «بالتحدث إلى العدو» عندما غادر في زيارة برفقة رامسفيلد إلى القاهرة للاجتماع مع الإيرانيين[1054].

أيّد كروكر الاجتماع بالإيرانيين، وقال: «أؤمن عموماً بالتحدث إلى كل من يرغب في التحدث إليكم؛ فقد تقنعونهم؛ وربما تحيدونهم؛ وربما يمكنكم العبث بعقولهم وحسب»[1055].

كان الوفد الإيراني مؤلفاً من ثلاثة أفراد. وفي ما بدا وكأنه صدًى لما ردّده ماكفرلين ونورث وكاف قبل خمسة عشر عاماً تبيّن أن لجميع الإيرانيين ارتباطات قويّة بقائد الحرس الثوري، العميد يحيى رحيم صفوي، وبالمرشد الأعلى. كان أحد الثلاثة نائباً لوزير الخارجية وخبيراً في المنظمات السياسية الدولية، والثاني كان جنرالاً في الحرس الثوري عمل كحلقة اتصال بين إيران وتحالف الشمال الأفغاني. أما الرجل الثالث فكان الشخص الأكثر إثارةً لاهتمام الأمركيين؛ وهو السفير الإيراني السابق في أفغانستان والبوسنة والهرسك محمد طاهر الذي لا يمكن التمييز بوضوح ما إن كان دبلوماسياً أم ضابطاً عسكرياً، وقد عمل خلال عقد الثمانينيات، بوصفه سفيراً في كابول، على نقل الأسلحة سرّاً إلى المجاهدين عندما انخرطت إدارة ريغان في النشاط نفسه. وعمل، بعد ذلك بعقد، عندما كان سفيراً لإيران في البوسنة في خضم الحرب الأهلية في البلقان، على تسريب المساعدات العسكرية الإيرانية إلى المسلمين، وشملت هذه العملية نشر بين 200 و300 عنصراً من عناصر الحرس الثوري في وسط أوروبا للقتال دفاعاً عن البوسنة. كما أنه عقد اجتماعاً خاصاً مع وكالة الاستخبارات المركزية حول مواجهة الصرب خلال فترة وجوده في سراييفو، وهي الواقعة التي أبلغ بها وفد كروكر في واحدة من دردشاتهم المطولة[1056].

بدت المناقشات واعدةً منذ البداية. أوضح الإيرانيون خلال الجلسات الجانبية في اجتماع جنيف الأول أنهم يريدون دعم الولايات المتحدة في أفغانستان. واستذكر كروكر: «دعوا إلى القيام بإجراءات سريعة وحاسمة، وإلى عمل عسكري تقوم به الولايات المتحدة ضد حركة طالبان». وقبل نحو يومين من قيام الولايات المتحدة بشنّ هجومها على أفغانستان كان كروكر يناقش نظرياً مع الإيرانيين تشكيلة الحكومة الأفغانية المستقبلية. ونهض أحد الإيرانيين واقفاً وألقى ببعض الأوراق على الأرض قائلاً: «لا شيء من هذا يهم إن لم نمضِ في الحرب!»

بعد ذلك بوقت قصير أخرج الجنرال في الحرس الثوري خريطة مشيراً إلى كل مواقع قوات طالبان، ونصح قائلاً: «هذا ما تحتاجونه لتركيز قصفكم». ومرّر كروكر هذه الخريطة على الفور إلى واشنطن.

شدّد الإيرانيون مراراً على أن البلدين بحاجة إلى العمل معاً، وقالوا: «لدينا قواسم مشتركة أكثر مما لدينا من الخلافات»، وإن لهما خصمين مشتركين - صدام حسين وطالبان- كما أن هناك حاجة لإنهاء ثلاثين عاماً من القطيعة وبناء علاقة جديدة. واستذكر كروكر قول أحدهم: «لقد جعلت حركة التاريخ والجغرافيا السياسية في الشرق الأوسط من إيران والولايات المتحدة الأميركية حليفين طبيعيين». ولكن كروكر لم يكن متأكداً مما إذا كان الإيرانيون يعتقدون ذلك أو إذا كان هناك أي أحد في طهران يشاركهم الرأي نفسه.

أخذ الطرفان يلتقيان مرة كل شهر تقريباً متنقّلين بين جنيف وباريس. وانسحب الألمان والإيطاليون، وتركوا الأميركيين والإيرانيين يجتمعون وحدهم ساعات في ردهات الفنادق، وفي جناح كروكر، أو في الشقة الفخمة لممثل الأمم المتحدة الخاص في أفغانستان الأخضر الإبراهيمي المطلّة على حديقة «لوكسمبورغ» على الضفة اليسرى للعاصمة الفرنسية. كانت المناقشات ودية دوماً ومهنية. ولم تكن تعليمات وزارة الخارجية لكروكر محددة؛ لكونها محادثات شكلية، ولم يعرها أحد في واشنطن اهتماماً شديداً. وعقد كروكر ونظراؤه الإيرانيون محادثات طويلة وطليقة تطرقت إلى مجموعة واسعة من القضايا الخلافية، من التاريخ ولبنان والعراق إلى الإرهاب.

سرعان ما توصّل الأميركيون والإيرانيون إلى اتفاق مشترك حول الحاجة الملحّة لتحقيق الاستقرار في أفغانستان وإلى التعاون فيما يتعلق بتشكيل حكومة ما بعد الطالبان. على الصعيد العسكري، عرضت إيران استخدام مطاراتها وموانئها لدعم الحملة في أفغانستان. رفضت الولايات المتحدة هذا العرض، لكنها قبلت عرضاً إيرانياً لتوفير ملاذ للطيارين الأميركيين في حال سقوطهم. تمّ إخبار الطيارين الأميركيين أن لديهم من ينقذهم، وأن عليهم أن يهبطوا فوق إيران وأن سلاح الجو الإيراني سيقوم بتوفير وحدات البحث والإنقاذ لاستردادهم.

ومع تقدم المناقشات اقترح الوفد الإيراني توسيع نطاق المحادثات. أعدّت وزارة الخارجية مجموعة شاملة من «الجَزَر» و«العصيّ[1057]» بهدف الاستفادة من الانفتاح الاستراتيجي على إيران، وكان الهدف تطبيع العلاقات بين الخصمين. وقد اعتبر أرميتاج ذلك مخططاً متعقلاً، لكنه ظل يشكك في رضوخ إيران لمطالب الولايات المتحدة وهي وقف الدعم لحزب الله وللإرهاب واحترام مبادئ الديمقراطية.

في تشرين الثاني/نوفمبر، وصل الرئيس خاتمي إلى نيويورك لحضور افتتاح الجمعية العامة للأمم المتحدة، الذي تأخر بسبب الفوضى الناجمة عن انهيار مركز التجارة العالمي. كان للإيرانيين مطلبان. أراد الرئيس الإيراني خاتمي الذهاب إلى مركز الانفجار -حيث موقع برجي مركز التجارة العالمي- ليضيء شمعة ويقدّم العزاء؛ وأوصى الإيرانيون، ثانياً، بإحضار المزيد من ضباط الحرس الثوري لتوسيع الحوار الأمني بما هو أبعد من حوارات جنيف.

رفضت الحكومة الأميركية كلا الطلبين، وكتب مسؤول كبير في إدارة بوش أن زيارة يقوم بها رئيس دولة إرهابية ستشكّل إهانة لذكرى الذين قُتلوا؛ وستهدّد بتقويض الطبيعة المتجانسة للحرب على الإرهاب، التي تجمع إيران والعراق وسوريا كلّها في الفئة الشائنة نفسها.

لخّص نيوت غينغريتش أسباب القلق بوضوح أثناء تناوله الغداء مع دوغ فيث وبيتر رودمان بعد أقل من أسبوعين على هجمات 11 أيلول/سبتمبر. احتاجت الولايات المتحدة إلى الحفاظ على رسالة متّسقة وثابتة مفادها أن الحرب على الإرهاب حملةٌ واسعة، ولا تميز بين الدوافع السياسية للإرهابيين. وأعلن الوزير غير الرسمي: «إننا نربك الأميركيين وحلفاءنا وأعداءنا عندما نتحدث عن انضمام إيران إلى التحالف ضد الإرهاب»[1058].

لكن نجاح اجتماعات كروكر مهّد الطريق للقفزة الدبلوماسية المهمة التالية في أفغانستان: مؤتمر بون في كانون الأول/ديسمبر 2001. وفي أواخر الخريف عيّن باول السفير جيمس دوبينز ممثلاً أميركياً لدى المعارضة الأفغانية. وبالرغم من أن دوبينز كان قد خطط للتقاعد بعد ثلاثة عقود من عمله في الحقل الدبلوماسي الأميركي، إلا أنه كان يمتلك تجربةً فريدة في بناء الدولة في منطقة البلقان. كُلِّف دوبينز للعمل في المفاوضات التي تُشرف عليها الأمم المتحدة مع الدول المجاورة لأفغانستان، بما في ذلك إيران، ولهيكلة حكومة ودستور جديدين لمرحلة ما بعد طالبان.

اعترض قلة داخل الحكومة على جهود دوبينز. وبما أن الأمم المتحدة دعت كل الدول المجاورة إلى أفغانستان، بما في ذلك إيران، فليس هناك من معنى لغياب الولايات المتحدة عن حضور منتدى تحتاج إلى ممارسة نفوذها فيه، لمجرّد أنها تريد تحاشي الإيرانيين. واستذكر فيث: «الأمر أشبه بأن يجدع المرء أنفه نكايةً بوجهه»[1059].

ظلت مناقشات دوبينز مستقلة عن اجتماعات كروكر في جنيف. وفيما عرف كلٌّ منهما باجتماعات الآخر، فإن مركز التنسيق بينهما كان في واشنطن مع مارك غروسمان؛ الرجل الثالث في وزارة الخارجية[1060]. على عكس اجتماعات كروكر المحدودة والسرّية، أراد دوبينز وفداً واسع النطاق من داخل الحكومة الأميركية. وأوفد البيت الأبيض الأفغاني المولد زلماي خليل زاد لينضم إلى فريق دوبينز. على الرغم من كونه من صقور الإدارة في ما يتعلّق بإيران كان خليل زاد طليقاً باللغة الفارسية وعلى إدراك تام بتعقيدات أفغانستان ويؤيّد عموماً أهداف دوبينز.

ترأس دوبينز الوفد الأميركي في المؤتمر الذي رعته الأمم المتحدة لتشكيل حكومة جديدة لأفغانستان - وضم الوفد لوتي الذي أُرسل ليبقي عينه على دوبينز - وعُقد الاجتماع في فندق «بطرسبورغ» الرحب، وهو من مخلفات الأيام التي كانت فيها المدينة الصغيرة عاصمة ألمانيا الغربية.

ترأس جواد ظريف الوفد الإيراني. بدا ظريف، الذي شاب قبل الأوان، أكبر سناً من أعوامه الواحدة والأربعين. تلقى ظريف تعليمه في ولاية سان فرانسيسكو ونال الدكتوراه من جامعة دنفر، وهو شخص حساس ودبلوماسي محنك سريع البديهة وواسع المعرفة؛ وقد طاف بمهارة

بغرف أخبار وسائل الإعلام الغربية مبدياً وجهاً عقلانياً للحكومة الإيرانية. ولم يكن المتشدّدون في طهران يثقون به نظراً إلى كونه براغماتياً كما أن المرشد الأعلى كان يميل إلى تفضيل دبلوماسيين من الحرس الثوري مثل أولئك الذين يجتمعون بكروكر. ولكن ظريف كان مدعوماً من خاتمي وكان لاعباً قوياً في الدبلوماسية الإيرانية.

ظل الإيرانيون يدعمون الحوار مع الولايات المتحدة، وأيّد كلٌّ من المرشد الأعلى المتشدد والرئيس الإصلاحي خاتمي الانفتاح على الرغم من اختلاف أسباب كلٍّ منهما. فقد وجد خاتمي في ذلك فرصة لإحياء حركة الإصلاح التي ينادي بها ولتعزيز سلطته في إيران، فيما كان آية الله خامنئي يخشى أن تصبح الجمهورية الإسلامية في مرمى أميركا في حربها على الإرهاب. ومع أن الولايات المتحدة كانت تجري المحادثات عبر مسارين منفصلين عن طريق دوبينز وكروكر، فقد اتجهت إيران إلى إرسال الأفراد أنفسهم للتنقل كالمكوك بين الرجلين الأميركيين. لذا لم يكن مستغرباً أن تكون نقاط حوار الإيرانيين متّسقة ومتناغمة بغضّ النظر عن الأميركي الذي يتناولون الشاي معه في ذلك اليوم. وقد أشار كلٌّ من دوبينز وكروكر إلى أن إيران تريد أن تتعاون في أفغانستان.

في المساء السابق لانعقاد المؤتمر تلقى دوبينز مكالمةً من الإيرانيين يطلبون لقاءً في الفندق الذي ينزلون فيه. خشي دوبينز أن يعمد لوتي إلى تعطيل المحادثات فتقصّد إبعاده وأخذ خليل زاد لمقابلة ظريف. أثبت خليل زاد أنه مساعد قيّم سواء فيما يتعلق بمهارته اللغوية أو بنصائحه الحكيمة التي أسداها خلال المحادثات مع الإيرانيين. قضى ظريف ودوبينز ساعة معاً وهما يقارنان ملاحظاتهما، واتفق الجانبان على القضايا الأساسية: أن يشكّل تحالف الشمال نواة الحكومة الجديدة؛ وحامد كرزاي مرشّح مقبول ليكون الرئيس الجديد[1061].

عندما أطلع دوبينز فريقه الأميركي صباح اليوم التالي على ما تمت مناقشته، فإن هارولد رود، وهو متشدد آخر في حزب لوتي كان يعمل في مكتب شبكة التقييم التابع لوزارة الدفاع وكثيراً ما قام بمهام خاصة من أجل ولفوويتز، «انفعل» وفق تعبير دوبينز الملطّف في وصفه المشهد. اعترض كلٌّ من لوتي ورود بشدة على المحادثات، ورفضا مجرّد فكرة أي التقاء محدود في المصالح بين الولايات المتحدة وإيران. ومن حسن حظ دوبينز أن الرجلين غادرا بون في اليوم التالي[1062].

شرع دوبينز وظريف في وضع إطارٍ لحكومة أفغانية جديدة. وكان الرجلان يلتقيان في العاشرة من صباح كل يوم لتناول القهوة مع الإيطاليين والألمان الذين جاءوا معهما لتوفير ورقة توت المحادثات المتعددة الأطراف. وفي خلال إحدى جلسات الشاي والكعك هذه لفت ظريف انتباه دوبينز إلى إغفال نقطة رئيسة في مسودة الاتفاق النهائي قائلاً بلغته الإنكليزية التي لا تشوبها شائبة: «النص لا يشير إلى انتخابات ديمقراطية، ألا تعتقد أنّ على الحكومة الأفغانية الجديدة الالتزام بإجراء انتخابات ديمقراطية؟»

وافق دوبينز، وشعر ببعض الحرج لأن الوفد الأميركي لم يلحظ غياب هذا المبدأ الأساسي الواضح في السياسة الأميركية في حين لحظه الإيرانيون.

تابع ظريف متلذّذاً بوضوح بسرقة الموضوعات الأميركية المعهودة: «علاوة على ذلك، إن مسودة الاتفاق لا تشير إلى الإرهاب. أليس علينا أن نصرّ على أن تكون الحكومة الأفغانية الجديدة ملتزمة بالتعاون مع المجتمع الدولي في مكافحة الإرهاب؟»[1063].

لم تغب هذه المفارقة عن دوبينز. على الرغم من الانتقاد الأميركي الشديد لإيران واعتبارها نظاماً شمولياً وأصولياً وإرهابياً، فإن إيران تعارض كلاًّ من تنظيم القاعدة وحركة طالبان، وهي أكثر ديمقراطيةً من كثير من حلفاء واشنطن العرب في الشرق الأوسط، بما فيها الدولتان القويتان، مصر والمملكة العربية السعودية. وكشف ذلك عن خلل رئيس في حرب إدارة بوش الآخذة في التطور ضد الإرهاب؛ فبقيامها بوضع إيران والعراق والطالبان والقاعدة كلها في خانة واحدة، فقدت الولايات المتحدة فرصة استغلال الانقسامات الطبيعية والعداء السافر القائم بين تلك الدول المصنّفة ضمن إطار الإرهاب الفضفاض هذا.

بعد مرور أكثر من أسبوعين انتهى المؤتمر الذي لعب فيه ظريف والإيرانيون في ساعاته الأخيرة دوراً حاسماً في توحيد أمراء الحرب الأفغان المختلفين. كما تغلّب تدخل ظريف الشخصي على عقبة أخيرة في وجه توزيع المناصب الوزارية بين المجموعات العرقية، الأمر الذي هدّد بعرقلة الاتفاق كله. اتّحد كلٌّ من إيران والولايات المتحدة وراء الرئيس الجديد، حامد كرزاي، الأفغاني الموالي للولايات المتحدة الذي وصل إلى كابول على أكتاف قوات العمليات الخاصة الأميركية.

في الشهر التالي، التقى دوبينز الإيرانيين مرةً أخرى خلال تنظيم حملة في طوكيو لتمويل صندوق أفغانستان، وكان برفقة وزير الخزانة بول أونيل. وقتذاك تعهدت الولايات المتحدة بدفع حوالي 5 بالمئة فقط من مجموع المليارت الخمسة المخصصة لإعادة إعمار أفغانستان، وهو مبلغ تافه أغضب دوبينز وكان يدلّ على عدم اهتمام إدارة بوش ببناء الدولة في أفغانستان. على النقيض من ذلك، عرضت إيران مبلغ 540 مليون دولار، وهو ضعف ما تعهّدت به واشنطن. أدركت إيران ما لم تدركه إدارة بوش، وهو أن التأثير في توزيع أموال إعادة الإعمار والهيمنة على الحكومة الجديدة إنما يأتيان مع المال. وأتبعت إيران ذلك، على مدى السنوات التالية، بعشرات الملايين من الدولارات من المساعدات الإضافية، هذا إضافةً إلى دفق متواصل من الحقائب المملوءة بالمال تُعطى بشكل مباشر إلى كرازي لضمان التأثير الإيراني في الحكومة الجديدة. في كانون الثاني/يناير 2002، أرسل الإيرانيون فنيين لإعادة تشغيل الإذاعة والتلفزيون، وقُدِّم أكثر من مليار دولار على شكل مساعدات. كما سيّرت طهران رحلات جوية تجارية منتظمة إلى كابول، ووسّعت إلى حدٍّ كبير صادرات السلع التجارية إلى البلاد، وكانت من كبار المزوّدين بالمساعدات الإنسانية.

أثناء انعقاد المؤتمر، نقلت ساداكو أوغاتا، المفوضة السامية السابقة لمفوضية شؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، مذكّرةً من الإيرانيين إلى الوزير أونيل يقترحون فيها مرةً أخرى فتح حوار رسمي مع الولايات المتحدة لمناقشة جميع القضايا العالقة بين البلدين. وقام دوبينز وأونيل

بواجبهما وأعلما بذلك رايس ووزارة الخارجية. واستذكر دوبينز قائلاً: «لم يبدِ أحد أي اهتمام»[1064].

قبل قمة طوكيو مباشرةً ساعد الحرس الثوري صقور الإدارة الأميركية الذين يعارضون أي حوار مع الإيرانيين عندما حاولوا تهريب سفينة كاملة من الأسلحة إلى الفلسطينيين في خضمّ الانتفاضة الثانية، حيث حمّلوا السفينة «كارين إيه» نحو خمسين طناً من الأسلحة بواسطة زورق من جزيرة «قشم». وقد اعترضت قوات كوماندوس إسرائيلية السفينة في البحر الأحمر. بدا من غير المحتمل أن يتمنّى المتشدّدون في طهران إحباط المحادثات مع الولايات المتحدة؛ ويظهر أن عملية الحرس الثوري قد جرت بشكل آلي وأنها كان مخططاً لها قبل حدوثها بوقت كبير. عرضت إسرائيل عبر الصحافة صناديق المتفجرات والصواريخ الإيرانية الصنع، وعلى الفور، وفي خلال اجتماع مشترك بين الوكالات في البيت الأبيض، وصف كلٌّ من بيتر رودمان وبيل لوتي ذلك على أنه دليل على الدعم الإيراني للإرهاب وجادلا بأن على سياسة الإدارة أن تهدف إلى تغيير النظام في إيران لا تسوية الخلافات معه. وقال مسؤول سابق في الدفاع في إدارة بوش إن «ذلك يظهر مرّةً أخرى أنه لا يمكن الوثوق بإيران، إذ لا يمكن المرء تغيير بقع جلد النمر»، وحثّ على إطاحة النظام الإيراني.

على الرغم من الانسجام الظاهر بين الإيرانيين والأميركيين في شأن أفغانستان، فإن الشكوك بوجود تنظيم القاعدة في إيران عززت وجهات النظر المتشددة داخل حكومة الولايات المتحدة. وعلى هامش محادثات كروكر في جنيف التقى نائب مدير العمليات في الـ «سي. آي. إيه.»، جايمس بافيت، بشكل منفصل، وفداً إيرانياً آخر مؤلفاً من عملاء وزارة الاستخبارات[1065]. أثار بافيت المخاوف المتعلقة بعناصر تنظيم القاعدة الذين فرّوا عبر الحدود الأفغانية إلى إيران. قدّرت وكالة الاستخبارات المركزية عدد المشتبه بأنهم من القاعدة وعائلاتهم الموجودين في إيران بنحو خمسمئة بمن فيهم الابن الأكبر لأسامة بن لادن، سعد، وإحدى بناته. ردّ الإيرانيون على بافيت بأنهم لا يملكون ما يكفي من القوات لحراسة الحدود الطويلة والسائبة مع أفغانستان وأن الكثيرين من غير المرغوب فيهم عبروا إلى إيران. لكنهم زعموا أنهم اعتقلوا كثيرين من أعضاء تنظيم القاعدة ووضعوا غيرهم قيد الإقامة الجبرية. مررت الـ «سي. آي. إيه.» أسماء عدة عناصر مهمّين من القاعدة يشتبه بوجودهم في إيران، وطلبت أن يتم تسليمهم إلى الولايات المتحدة. اعتبرت إيران أن هؤلاء الأسرى من تنظيم القاعدة مهمين لأمنها هي، وقد قدّموا معلومات قيمة حول المنظمة التي تعتبرها طهران تهديداً لأمنها. كما أن احتجازهم ضمانة ضد هجمات القاعدة على إيران. وقد احتُجز عدة مئات من عناصر القاعدة وعائلاتهم في ظروف مختلفة من الاعتقال، بدءاً من السجن وانتهاءً بالسماح لبعضهم بحركة محدودة تحت رقابة مسؤولين أمنيين[1066]. رفض الإيرانيون التخلي عن أي فرد من عائلة بن لادن، ولكنهم سلّموا شخصاً مطارداً خطيراً للغاية تابعاً لتنظيم القاعدة إلى حكومة كرزاي في كابول. في المقابل، طلبت إيران معلومات عن عناصر طالبان المسؤولين عن قتل دبلوماسييها في عام 1998. ردّ كروكر أنّ الولايات المتحدة لا تملك معلومات محددة عن الجناة وأنه لا يوجد أحد منهم في السجون الأميركية.

لاسترضاء الأميركيين، طار جواد ظريف إلى نيويورك حاملاً معه نسخاً عن جوازات سفر أكثر من مئتي مقاتل من مقاتلي القاعدة وطالبان تحتجزهم السلطات الإيرانية، فضلاً عن جدول بياني بهويّة كلٍّ منهم وموقعه في الشبكة الأكبر. طلب ظريف، في المقابل، مساعدة الأميركيين على إعادة بعض هؤلاء الأسرى إلى المملكة العربية السعودية ومصر اللتين تتمتع واشنطن بعلاقات دبلوماسية معهما أفضل من علاقاتهم بإيران. كان أحد هؤلاء المحتجزين المنشقّ الأفغاني، المعارض بالحماسة نفسها لكلٍّ من طالبان والولايات المتحدة، قلب الدين حكمتيار. وافق ظريف على الاحتفاظ بالسفّاح المتوحش حكمتيار رهن الاعتقال، طالما أن الولايات المتحدة لن تتهم إيران بأنها تؤوي إرهابيين.

ظلت الحكومة الأميركية، بالرغم من هذه المبادرات، تشكّ في أن الإيرانيين يعرفون أكثر بكثير عن أعضاء آخرين من تنظيم القاعدة موجودين في بلادهم. قال أرميتاج مستشهداً بقول للرئيس ريتشارد نيكسون أثناء ووترغيت: «كان الإيرانيون يحاولون أن يقدّموا لنا معلوماتٍ منقوصة»، عملاً بمبدأ: «أعطهم القليل ودعهم يعتقدون أنّ هذا كل شيء»[1067].

كان أبو مصعب الزرقاوي أحد الذين تشتبه وكالة الاستخبارات المركزية بوجودهم في إيران. كان أسامة بن لادن يموّل هذا الأردني لتشكيل ميليشيا خاصة به بالقرب من هرات في غرب أفغانستان. وقد شارك الزرقاوي السفاح، في وقت لاحق، في قطع رؤوس رهائن وتنظيم هجمات انتحارية ضد القوات الأميركية في العراق، إلى أن قتله أفراد العمليات الخاصة الأميركية، في 2006، بقذيفة موجّهة بالليزر.

توالت الشائعات حول وجود الزرقاوي في إيران في دوائر الاستخبارات وكادت تؤدي، في 2002، إلى القيام بغارة سرية داخل إيران لقتله. فقد علمت الحكومة الأميركية بلقاء مرتقب بين الزرقاوي وأعضاء آخرين في القاعدة بشأن كيفية الحصول على أسلحة كيميائية أو بيولوجية، وافتُرض أن هذا الاجتماع سيتمّ بالقرب من مدينة تشالوس الإيرانية الواقعة في الشمال، في منزل يبعد ثلاثة كيلومترات فقط عن بحر قزوين. وضعت قوات العمليات الخاصة في البحرية خطةً مبتكرة، تنصّ على أن يتمّ إنزال فريق مجوقل صغير في الماء قبالة الشاطئ يتوجه من بعدها إلى المنزل الذي يُشتبه بأن أفراداً من القاعدة يجتمعون فيه، ثم تستدعي القوات البحرية الخاصة غارة جوّية تُسقط قنبلةً ذكية زنتها ألف رطل على رأس الزرقاوي.

أخبر رئيس هيئة الأركان المشتركة ريتشارد مايرز الرئيس بوش بأنها عملية «ذات مخاطر عالية»، فعلى مقربة من المكان ثمة قوات عسكرية إيرانية، كما أن القوات البحرية الخاصة واجهت ثغرات استخباراتية خطيرة - فهم يفتقرون إلى صور المجتمعين وإلى عميل على الأرض لإطلاعهم على التوقيت الفعلي للاجتماع. حذّر مايرز من تنفيذ المهمة ما لم يتم الحصول على معلومات استخباراتية موثوق بها تفيد بالتوقيت الذي سيكون فيه الزرقاوي في المنزل الآمن. فُتن الرئيس بالغارة الجريئة، وأحبّ الصقر ديك تشيني فكرة ضرب كلٍّ من إيران والقاعدة في وقتٍ واحد. بيد أن الرئيس بوش وافق مكرهاً على مخاوف رئيس هيئة الأركان المشتركة من أن المخاطر تفوق المكاسب، وكان قراراً حكيماً اتّخذه بوش. وفيما استخدم المقللون من شأن إيران في

الإدارة الأميركية فشل إيران في تسليم الزرقاوي دليلاً على مكابرة إيران، فإن الرجل المقصود لم يكن في إيران بل في منطقة نائية من العراق غير خاضعة لسيطرة الحكومة[1068].

على الرغم من نكسة شحن الأسلحة على متن السفينة «كارين إيه»، ومن المعارضين لإيران في داخل الحكومة، استمرت الولايات المتحدة والجمهورية الإسلامية بأكثر اتصالاتهما الدبلوماسية أهميةً في خلال عقدين من الزمن. فصدمة توسّع نطاق الإرهاب سمحت للغريمين بإيجاد أرضية مشتركة لإعادة تشكيل المشهد السياسي الأفغاني المثير للمتاعب. وفي غضون ذلك، فإن الهزيمة السريعة التي حلّت بطالبان وبطفيلييها من أفراد القاعدة عنت أن دور العراق سيأتي حتى لو لم يتّخذ صاحب القرار بعد قراره في شأن الحرب القادمة. في أوائل كانون الأول/ديسمبر، طار قائد القيادة المركزية الأميركية تومي فرانكس إلى مزرعة بوش في كروفورد بولاية تكساس، وبعدما جيل به في المزرعة الواسعة أطلع فرانك الرئيس على آخر مستجدات خطة غزو العراق. وفي حين كان دوبينز يأمل أن تكون محادثاته محفّزاً لترميم العلاقات مع إيران بشكل دائم، إلا أنه كان من الصعب التغلب على سنوات من الهواجس. وإيران لن تكون شريكاً في وقت توشك فيه خطة المحافظين الجدد الكبرى على أن تؤتي ثمارها، لا بل ستكون على قائمة «محور الشر» الشنيعة.

الفصل الثالث والعشرون

محور الشر

مشى جورج دبليو بوش بخطوات واسعة إلى المنصة لإلقاء الخطاب المعهود عن حال الاتحاد. فبعد أربعة أشهر فقط على 11 أيلول/سبتمبر أطاحت القوات الأميركية وحلفاؤها الأفغان حركة طالبان من السلطة. في تلك الليلة من 29 كانون الثاني/يناير 2002 مشى الرئيس متبختراً واثقاً بنفسه، فقد بلغت شعبيته في استطلاعات الرأي 85 بالمئة، واستبدّت الحماسة الوطنية في تلك اللحظة حتى بأشدّ الموالين للحزب الديمقراطي، وصار وضع العلم الأميركي على الياقة موضة إلزامية متّبعة. قبل ذلك باثنين وعشرين عاماً وقف الرئيس كارتر على المنبر نفسه ملقياً واحداً من أهم خطبه في السياسة الخارجية تعهّد فيه باستخدام القوة العسكرية الأميركية للدفاع عن حق الوصول إلى نفط الخليج العربي. ويمكن القول الآن إن جورج بوش قد حدّد هدفه المتعلّق بالأمن في الشرق الأوسط في لحظة أكثر محوريةً في التاريخ.

«نجتمع الليلة، وأمتنا في حالة حرب، واقتصادنا في حالة ركود، والعالم المتحضر يواجه أخطاراً لم يسبق لها مثيل، ومع ذلك لم يسبق أن كانت حال اتحادنا أقوى مما هي عليه الآن»، هكذا بدأ بوش خطابه وسط تصفيقٍ مدوٍ. بانتقاله إلى مضمون خطابه ركّز الرئيس على ثلاث دول: كوريا الشمالية والعراق وإيران، قائلاً: «تشكل دول مثل هذه وحلفاؤها الإرهابيون محور الشر، وهي تتسلّح لتهديد السلم العالمي. إن هذه الأنظمة، بسعيها إلى امتلاك أسلحة الدمار الشامل، تشكّل خطراً جسيماً ومتزايداً». أما بالنسبة إلى تجاوزات طهران فقد قال الرئيس إن الإيرانيين يسعون بقوة لامتلاك أسلحة الدمار الشامل وأنهم يصدّرون الإرهاب، في الوقت الذي «تقمع فيه قلة قليلة غير منتخبة أمل الشعب الإيراني في الحرية».

إن العبارة التي لا تُنسى في ما بات يُعرف بخطاب «محور الشر» هي في الأساس من صياغة كاتب الخطابات ديفيد فروم. كان المفترض في الأساس أن يتألف الخطاب من بضعة أسطر تحذّر من خطورة صدام حسين، لكن فروم كان يحبّ مصطلح «محور» بوصفه انعكاساً للحملة

الكبرى في الحرب العالمية الثانية، ولم تكن كوريا الشمالية وإيران أكثر من استدراك، فكلتاهما دولتان ترعيان الإرهاب، ولا يمكن المحور بالطبع أن يتكون من مجرّد دولة واحدة. والخطابات عن حال الاتحاد، كما علّق فروم، أشبه بإطلاق صاروخ إلى القمر، تمتص كل موارد السلطة التنفيذية[1069]. أرسل البيت الأبيض الخطاب إلى جميع الإدارات لمراجعته وطرح أفكارها، ولم تحظَ عبارة «محور الشر» بالكثير من الاهتمام إلى درجة أنه لم يذكرها أيٌّ من كوندوليزا رايس أو ريتشارد أرميتاج. وكان المسؤول الرفيع الوحيد الذي اعترض هو ريتشارد مايرز[1070]. قلّما وقف هذا الطيار الحربي الطيب المعشر واللين العريكة في صفوف المعارضة، لكنه رأى أن للتعبير نتائج عكسية في الحرب الأوسع على الإرهاب. لكن الرئيس أحبّه، وهكذا بقي التعبير بالرغم من المساعدة الإيرانية في تحقيق الاستقرار في أفغانستان والمحادثات الجارية بين البلدين.

استقبل القادة الإيرانيون خطاب الرئيس بوش عن «محور الشر» بسخط، وقال المستشار المقرّب من الرئيس الإيراني حسين موسايان: «لقد صعقت هذه التعليقات الجميع في الحكومة». لقد عززت تصريحات بوش الشكوك الإيرانية حول جدوى الحديث إلى الأميركيين، ووصف المرشد الأعلى تصريحات بوش بأنها مؤشّر على «شخص متعطش للدماء البشرية». وفي الوقت نفسه التقط الرئيس السابق ورئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام القوي، هاشمي رفسنجاني، ملاحظة «القلّة غير المنتخبة» للطعن في فوز بوش نفسه في الانتخابات الرئاسية عام 2000 قائلاً: «من المثير للاهتمام أن تصدر هذه المطالبة بالديمقراطية من شخص نال أقل من 25 بالمئة من أصوات الشعب بعد تدخل من المحكمة»[1071]. وبعث نائب وزير الخارجية برسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة يندّد فيها بالخطاب متّهماً الولايات المتحدة بأنها تُضيّع فرصة تطوير ردّ عالمي يهدف إلى اقتلاع جذور الإرهاب، من خلال «سياسة أنانية وساذجة وأحادية تتوعّد باستخدام القوة الغاشمة وحسب ضد ما تعتبره أميركا وحدها إرهاباً»[1072].

لم يقتصر رد إيران على الكلام، بل انسحبت على الفور من المحادثات الواعدة مع رايان كروكر. ورأى جواد ظريف، الذي شعر بالمهانة، أن الولايات المتحدة قد خانت الانفتاح الإيراني الحسن النيّة. وانتقاماً لذلك أفرجت إيران في شباط/فبراير عن القائد المطلوب في حركة طالبان قلب الدين حكمتيار، الذي عاد على الفور إلى طرقه القديمة وأصبح شوكةً كبيرة في الخاصرة الأميركية من خلال تنظيم المقاومة ضد الحكومة التي تدعمها الولايات المتحدة في أفغانستان[1073]، وشنّت حملة دعائية إذاعية لإثارة المشاعر المعادية للولايات المتحدة في غرب أفغانستان، مما أدى إلى تقويض حكومة كرزاي التي كانت طهران قد ساعدت على إحلالها، وزادت من دعمها العسكري لحليفها الطويل الأمد إسماعيل خان الذي باعها صواريخ ستينغر الأميركية خلال حرب الناقلات.

على غرار كثيرٍ من ضباط الجيش عمل رئيس هيئة الأركان المشتركة ريتشارد مايرز في إيران في زهوة أيام الشاه، حيث سافر في العام 1976 إلى الصحراء لمساعدة سلاح الجو الإيراني على بناء ميدان للحرب الإلكترونية لتدريب طياريه على مواجهة دفاعات العدو الجوية. لاحظ

مايرز أن معظم ركاب الطائرة الذاهبة إلى طهران كانوا من متعهدي الدفاع المتوجهين إلى هناك لبيع الشاه المزيد من الأسلحة، وقال: «لم يتكشّف لي أبداً ما يوحي أن الشاه سيُطاح به بعد ذلك بثلاث سنوات». ولكنه، وهو يشاهد جميع باعة التكنولوجيا الفائقة ينزلون حاملين حقائبهم، قال في نفسه: «هل هذا دائم؟»[1074]

كان مايرز يمتلك شخصية محببة وهادئة، وكان شغفاً بدراجات «هارلي» النارية. يصفه منتقدوه بـ«الرئيس الخانع»، فهو لم يثر، في خلال السنوات الأربع التي قضاها في أرفع منصب عسكري، سوى اعتراضات قليلة على سياسات بوش العسكرية الآخذة في التكشّف. نأى مايرز بنفسه بعيداً عن السياسة؛ فهو يمارس أخلاقيات العمل و«يؤدّي التحية العسكرية على نحو بارع وينفّذ الأوامر». كان رامسفيلد رئيساً قاسياً ولكنه، كما أشار مايرز، لم يحاول قط قمع آراء رئيس هيئة الأركان أمام الرئيس.

أدت السياسة الأميركية تجاه إيران، أو غياب مثل هذه السياسة، إلى إحباط مايرز. ففي ذهنه إن تعبير «محور الشر» يعكس المشكلات الموجودة داخل الإدارة. قال مايرز: «لقد جرت محاولات لمخاطبة إيران استراتيجياً، لكن الأمر أصبح، على مستوى مجلس الأمن القومي، إما حساساً جداً وإما أن الوقت لم يكن مناسباً». اشتبه مايرز بأنه ثمة ما يدور خلف الكواليس، لعلها استراتيجية خفية لم يطّلع على أسرارها؛ بيد أن الواقع هو أن إدارة بوش لم تكن لديها أي استراتيجية تجاه إيران[1075].

قال جون بولتون إن إيران تجسّد نهج مجلس الأمن القومي برمته «فهي تعكس الانهيار الحاصل في اتخاذ قرارات الأمن القومي. ولم تشأ كوندوليزا، التي تفهم أسلوب الرئيس الإداري، عرض الخلافات على الرئيس. وعندما يستنكف المرء عن كشف الخلافات أمام الرئيس فلن يحصل إلا على هريسة سياسية»[1076].

في 6 كانون الثاني/يناير عام 2002، أرسلت كوندوليزا رايس مسوّدة تشتمل على عدد من نقاط البحث تتعلق بالسياسة الإيرانية كجزء من محاولة إصدار قرار جديد لمجلس الأمن القومي، وبخاصة قرار يملي السياسة الأميركية على مستوى الحكومة. اتخذت رايس وجهة نظر إيجابية حول التحدث إلى إيران. وفيما حذّرت من أن استمرار إيران في رفضها تسليم أعضاء من القاعدة قد يؤدي إلى إعاقة أي تحسن ملحوظ في العلاقات، حسب ما جاء في واحدة من نقاط البحث الأولى، أضافت: «إننا مستعدون لمناقشة المسائل العملية المتعلقة بالعراق التي من شأنها أن تكون ذات فائدة متبادلة لكلٍّ من إيران والولايات المتحدة». كما أيّدت رايس تبادل المعلومات بشأن برامج العراق لأسلحة الدمار الشامل والمساعدات الإنسانية؛ فالولايات المتحدة لا تنوي البقاء في العراق بشكل دائم وتدرك أنّ لإيران، التي تلقّت ضربات الأسلحة الكيميائية العراقية، مصلحةً في القضاء على ذلك التهديد. فإذا قدّم الإيرانيون معلوماتهم الاستخباراتية عن برامج أسلحة صدام غير المشروعة، فإن الولايات المتحدة ستستجيب لذلك من خلال تقديم سبل المساعدة لحماية الشعب الإيراني في حال قصف العراق المدن الإيرانية بصواريخ محمّلة برؤوس حربية كيميائية. ويمكن إيران أن تسمح

بوصول المساعدات الإنسانية إلى العراق عبر حدودها وبإقامة مخيمات للاجئين في ما لو تسبّب هجوم كيميائي على القوات الأميركية بنزوح جماعي للمدنيين المذعورين.

وافق رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال مايرز رايس، وقال إن بوسعهم استخدام قناة جنيف لمنع العمليات العسكرية من أن تتسبّب بنزاع مع الجيش الإيراني ولتجنّب أي صراع غير مقصود، وبخاصة بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية، وأضاف أنه سيكون مفيداً أيضاً إن أقدمت إيران على البحث عن طيارين أميركيين قد يسقطون وإنقاذهم. لكن رئيس الأركان المتحفّظ في العادة أراد أن يتم تقديم المسؤولين عن هجوم أبراج الخبر إلى العدالة كجزء من أي استراتيجية مع إيران، فبالنسبة إلى هذا الجنرال في سلاح الجو شكّل الهجوم الذي شنّه وكلاء إيران على ثكنة الطيارين أمراً شخصياً. وقد كتب على عجلة مذكّرةً وجّهها إلى ضابط تخطيطه، الفريق جورج كيسي، أعلن فيها: «أعتقد أنه ينبغي على أي سياسة تتعلق بإيران الاعتراف بأن لهذا البلد يداً مباشرة في تفجير أبراج الخبر. يبدو لي كأن الأمر قد أصبح طي النسيان»[1077].

أطلق موقف رايس على الفور ناقوس الخطر داخل البنتاغون. كتب بيتر رودمان على مسودة نقاط البحث: يبدو أن فحوى المسودة «يُضعف سياستنا الرافضة لشرعية النظام الإيراني (...) لا نريد أن تنسج الصحف قصصاً عن المصالحة»[1078]. اعتقد رودمان أنه قد توجد بعض الفائدة في تبيّن ما تعرفه إيران عن برنامج أسلحة الدمار الشامل في العراق، ولكن ينبغي ألاّ تكون هذه الاستخبارات على حساب التقليل من التهديد الإيراني في أي خطط لما بعد الحرب على العراق. وقد وافقه نائبه بيل لوتي وكتب أن إيران ترى في عراقٍ حرّ تهديداً لها. ففيما أقرّت الولايات المتحدة أن الأسلحة الكيميائية العراقية قد تسببت بالأذى لإيران، لكنها اعتبرت أيضاً أن برامج إيران النووية والكيميائية على الدرجة نفسها من الخطورة، وعلى الولايات المتحدة ألاّ تفكّر في أي دور لإيران في مرحلة ما بعد الحرب، وأن على أي اتصالات مع حكومتها أن تجري فقط لإخبارها بعدم التدخل في العراق بعد الغزو الأميركي، كما ينبغي أيضاً كبح جماح وكلاء إيران، مثل حزب الله أو غيره.

لم يشاطر وزير الدفاع رامسفيلد وجهة نظره في هذه المسألة إلا مع نائب الرئيس. في 9 كانون الثاني/يناير أحال بيتر رودمان مذكرة تتضمن آراء رامسفيلد إلى مكتب تشيني من أجل تنسيق عمل المكتبين كجزء من تنسيق الجهود لتوجيه محادثات جنيف مع إيران انطلاقاً من الحوار معها وانتهاءً بتوجيه إنذار نهائي لها. في أواخر شهر كانون الثاني/يناير كرّر كلٌّ من نائب الرئيس ورامسفيلد في اجتماع جمع المسؤولين النغمة نفسها: يجب على الولايات المتحدة ألاّ تكرّر نموذج أفغانستان في العراق، وأي محاولة من قبل الجيش الإيراني أو جهاز المخابرات «لاختراق العراق» أو «استغلال العملاء الموالين لإيران داخل العراق» يجب أن تُفسَّر على أنها عمل عدائي تجاه الولايات المتحدة.

ظل الموظفون المدنيون المحيطون بوزير الدفاع ونائب الرئيس على قناعة بأن الوقت قد حان لإطاحة النظام الإيراني، وأيّد معظمهم دعم المعارضين المحليين لإثارة الاضطرابات المدنية.

كانت هذه سياسة متشددة تهدف إلى إشعال ثورة من شأنها قلب نظام الحكم. وفي اجتماع موجز عُقد في كانون الثاني/يناير 2002 في مجلس الأمن القومي برئاسة رامسفيلد بعنوان «الحرب العالمية على الإرهاب: الطريق إلى المستقبل»، رفض الوزير بشدة أي تقارب مع النظام الإيراني وأوصى، بدلاً من ذلك، بدعم حركات المعارضة الديمقراطية الداخلية، وكانت حجته في ذلك أن نظام الملالي يترنّح، فالجيل الإيراني الشاب يحتقره ويصفه بالفساد، وأنه إذا توفّر دعم حقيقي فستُسقط جماعات المعارضة الإيرانية في الداخل والخارج الحكومة. قال رامسفيلد: «إن انهيار نظام الملالي الإيراني سوف يُخفض من مستوى التشدد الإسلامي في جميع أنحاء العالم»، دون أن يقدّم أي دليل ملموس على ذلك، مضيفاً أن من شأن ذلك أن يساعد على هزيمة تنظيم القاعدة -على الرغم من أن هذه المنظمة الإرهابية ليست لها أي علاقة بإيران فضلاً عن أنها ليست شيعية.

اعترض كثيرٌ من المحللين من داخل وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية على توصيف وزارة الدفاع للحكومة الإيرانية، وقال مسؤول رفيع في وزارة الخارجية: «لقد كان سخيفاً. هناك سخط على الحكومة الإيرانية، عكسته انتصارات خاتمي، لكن هذا لم يُترجَم إلى دعم تمرّد بقيادة أميركية».

حاولت رايس على مدى الأشهر القليلة التالية تمرير وثيقة تخطيط الأمن القومي عبر الحكومة لوضعها أمام الرئيس. في 21 أيار/مايو، اجتمع كلٌّ من رايس وباول ورامسفيلد وتينيت ومايرز لتحليل وتقويم ورقة مجلس الأمن القومي ومعالجة مخاوف وزير الدفاع ونائب الرئيس. اتفق الحاضرون جميعهم على الأهداف العريضة: حمل إيران على وقف برامج الأسلحة النووية والصاروخية، وقطع علاقتها بحزب الله، والتحول إلى دولة ديمقراطية على النمط الغربي، والرضوخ في شكل عام للرغبات الأميركية في الشرق الأوسط لكنهم ظلوا منقسمين حول كيفية المضي قدماً في هذه الاستراتيجية لتحقيق هذه الأهداف. كان الصقور المدنيون في وزارة الدفاع هم«اللغم الرئيس» أمام متابعة أي حوار بناء، بحسب وصف مقدّم في القوات الجوية. وأعلنت مذكّرة للبنتاغون بصراحة فظّة أن «مكتب وزير الدفاع اتخذ موقفاً قوياً بشأن تغيير النظام، وأنه لا يجد الكثير من الجدوى في الاستمرار بأي التزام تجاه إيران».

لعب بول ولفوويتز، الذي كان نادراً ما يحضر اجتماعات البيت الأبيض، دوراً فعالاً في تحويل وثيقة رايس من المصالحة إلى العداء، وبدعم من نائب الرئيس أصبحت لهجة الوثيقة أكثر حدّةً مع كل مسودة مشروع تلتها، فقد اختفت المقاطع التي تشيد بالرئيس خاتمي لكبحه العناصر المتطرفة وحل محلها رفض حركة الإصلاح التي لم تجرِ «تغييرات ديمقراطية ذات معنى أو لم تكن معتدلة في سياساتها المعادية لمصالح الولايات المتحدة». كما أن الاعتقالات الإيرانية الأخيرة وتسليم المشتبه بانتمائهم لتنظيم القاعدة، أو الدعم الذي قدمته إيران لاتفاقية بون، لم تكن كافية. لا شيء يرضي الصقور سوى رضوخ إيران للمطالب الأميركية. كما ينبغي على إيران، برأيهم، أن تدعم مبادرة السلام الأخيرة بين إسرائيل والفلسطينيين الصادرة عن جامعة الدول العربية والتي لم يقبلها حتى حزب الليكود اليميني في إسرائيل. وفي غياب ذلك، لن تتمكن إيران من الدخول مجدداً إلى المجتمع الدولي.

بدلاً من الحوار مع إيران حثّ مكتب رامسفيلد على إسقاط الجمهورية الإسلامية من خلال دعم جماعات المعارضة الداخلية والخارجية، واقترح تشكيل مؤتمر وطني إيراني لتنظيم جماعات المعارضة[1079]. وسوف تنصّب الولايات المتحدة حكومة علمانية ديمقراطية. وحاجّ فيث وولفوويتز خلال أحد الاجتماعات بأن إيران دولة إرهابية، وأنها عازمة على تقويض المصالح الأميركية وتدمير إسرائيل. لم يكونوا يثقون بأن يحدث خاتمي أو حركة الإصلاح التي ينتمي إليها أي تغيير حقيقي في السلوك الإيراني. كما ضغط المدنيون في البنتاغون باتجاه شطب أي إشارة في المذكرات إلى التعاون البنّاء الذي يصبّ في مصلحة إيران في أفغانستان. وكتب أحد الضباط العاملين في وزارة الدفاع الأميركية في شباط/فبراير 2002: «ثمة إمكانية واضحة بأن يقترح مكتب وزير الدفاع أن تكون إيران الهدف التالي في الحرب على الإرهاب».

أراد دونالد رامسفيلد أن يُعلَن أن سياسة أميركا ستكون إسقاط النظام الإيراني، واقترح في رسالة وجهها إلى بوش في 19 آب/أغسطس 2002 التعامل مع شوكتين في الخاصرة الأميركية قائلاً: «أعتقد أن الأوضاع في إيران وكوريا الشمالية مثيرة للاهتمام وغير مستقرة بما فيه الكفاية، بحيث أن قيام حكومة الولايات المتحدة بجهد كبير، وسرّي في جزئه الأكبر، لإطاحة النظاميين الحاليين والتشجيع على تغييرهما من الداخل أمرٌ يستحق النظر».

علم باول، الذي أُسقط اسمه واسم مايرز عن قصد من مذكّرة رامسفيلد إلى الرئيس، بمسعى رامسفيلد، وذهب ومايرز إلى رايس للتعبير عن رفضهما تسليح أي جماعات معارضة داخل إيران. لم يكن باول واثقاً من أن في إيران جماعة معارضة تتمتع بالقوة الكافية لتحدّي الأوليغارشية الراهنة. والأهم من ذلك أن مخطط إطاحة الحكومة الإيرانية ينتهك اتفاقيات الجزائر التي أُبرمت قبل عقدين، في 1981، كشرط مسبق للإفراج عن الرهائن الأميركيين، وقد تعهّدت الولايات المتحدة بموجبها «ألاّ تتدخل من الآن فصاعداً، سياسياً أو عسكرياً، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، في شؤون إيران الداخلية»[1080].

اتفقت كوندوليزا رايس والمدعي العام جون أشكروفت مع وجهة نظر باول. شملت المسودة النهائية ما يلي: «لا ينبغي للولايات المتحدة في هذا الوقت تقديم الدعم العلني أو السري لجماعات المعارضة أو الدعوة إلى تغيير النظام».

عندما رأى بيتر رودمان ذلك دقّ ناقوس الخطر مرةً أخرى مع رامسفيلد، وقال لوزير الدفاع إن ذلك يقيّد أيدينا في السياسة الخارجية. «إن اتفاقيات الجزائر ليست ملزمة. إن للولايات المتحدة، على أي حال، الحق في الدفاع عن النفس. إن هذا ذرٌّ للرماد في العيون»[1081].

«جيد»! كتب رامسفلد رداً على رسالة رودمان، وأوصى بحذف أي إشارة لغوية تعارض تغيير النظام أو الموجبات المذكورة التي وقّعها الرئيس كارتر.

أما بالنسبة إلى مبادرات الانفتاح الأخيرة للرئيس خاتمي فقد دفع نائب الرئيس ديك تشيني إلى إدراج تعابير في مسودة وثيقة الأمن القومي ترفضها رفضاً باتاً. «لا ينبغي على الولايات المتحدة في هذه المرحلة الاستجابة لمبادرات النظام الحالي، ولكنها سوف تستمر بلقاء ممثلين عن الحكومة الإيرانية في جلسات متعددة الأطراف عندما يصبّ ذلك في مصلحة الولايات المتحدة»[1082].

أدّت مسألة هل يجب أن يكون تغيير النظام الإيراني جزءاً من سياسة أميركا أم لا إلى تجميد السياسة المتعلّقة بإيران في مكانها. قال ريتشارد أرميتاج: «كنا على طرفي نقيض، والرئيس، الذي كان يعتبر نفسه صاحب القرار الكبير، لم يقرّر البتة»[1083]. وبعد أشهر من الجدال والنقاش وضعت رايس وثيقة الأمن القومي على الرفّ. وستنقضي خمس سنوات أخرى قبل أن تحاول الإدارة مرةً أخرى وضع استراتيجية متماسكة للتعامل مع هذا الغريم.

تأثّرت وجهات نظر البنتاغون بقوة بأحمد الجلبي الذي كان يترأس مجموعة من المنفيين العراقيين الذين تموّلهم الحكومة الأميركية، أُطلق عليهم اسم «المؤتمر الوطني العراقي». تأسّس المؤتمر الوطني العراقي، كما بات يُعرف، في 1992، وعمل كمظلة جمعت تحتها معارضي صدام حسين، وكانت اتصالاتها بالداخل العراقي مفيدة للحصول على المعلومات المتاحة. أخبر الجلبي المستمعين الطوعيين في الإدارة، ولاسيما نائب الرئيس تشيني المعجب به، أن من شأن إطاحة القوات الأميركية بصدام حسين أن يضع ضغطاً هائلاً على الحكومة الإيرانية. «حتى إن بوسع الولايات المتحدة بناء قواعد عسكرية في العراق للضغط على إيران»، كما استذكر ريتشارد أرميتاج قول الجلبي[1084].

افتُرض بالمدافعين عن الجلبي التوقّف للنظر في تقويمه للوضع انطلاقاً من واقع أن الجلبي كان يعيش في إيران وأن وكالة المخابرات الأميركية تعلم أن عدداً من مستشاريه يتلقون رواتب من المخابرات الإيرانية -بل إنه دارت شكوك في هذا الشأن حول الجلبي نفسه. والشخص الذي أثار القدر الأكبر من القلق كان رئيس استخبارات المؤتمر الوطني العراقي، وكاتم أسرار الجلبي والمقرّب منه، آراس حبيب، الذي اعتقدت الـ«سي. آي. إيه.» والمخابرات البريطانية أنه عميل للمخابرات الإيرانية. حذّرت الوكالة كبار مسؤولي الدفاع والكونغرس من تغلغل المخابرات الإيرانية في المؤتمر الوطني العراقي. كما أنها أثارت هذه المسألة أيضاً مع مدير استخبارات رامسفيلد المعيّن حديثاً ستيفن كامبون الذي التقى مرات عدة آراس حبيب. بيد أن كبار مسؤولي بوش قللوا كثيراً من أهمية هذا الأمر، ويرجع ذلك جزئياً إلى انعدام الثقة العميق بوكالة الاستخبارات المركزية ومعلوماتها بشأن العراق. وخلص تقرير المفتش العام لوزارة الدفاع في وقت لاحق إلى أن نحو ثلث المعلومات فقط التي قدمها الجلبي والمؤتمر الوطني العراقي أثبت دقته وقابليته للتنفيذ، وسحبت وزارة الخارجية، في 2002، تمويلها للمؤتمر الوطني العراقي، ولكن بقي للجلبي داعمون في مكتب رامسفيلد واستمرت وكالة استخبارات الدفاع تدفع له مبلغ 340,000 دولار شهرياً.

لم ينفِ الجلبي أبداً تورّطه مع إيران؛ فقد اتّخذ كثيرون من جماعات المعارضة العراقية من إيران مقرّاً لهم على مدى أكثر من عقدين من الزمن، وعندما سأله أحد ضبّاط الاستخبارات الأميركيين، في الأول من تشرين الأول/أكتوبر 2002، عن علاقته بإيران، رفض الجلبي هذا النقد قائلاً: «هذه العلاقة طبيعية وضرورية». ولم يقلق ذلك كبار المسؤولين في البنتاغون أيضاً. فمثلاً، افترض فيث دائماً أن أجهزة التجسس الأجنبية قد اخترقت جماعات المنفيين. وطالما أن الجلبي والمؤتمر الوطني العراقي يؤيدان إطاحة صدام حسين، فلا أهميّة، بالنسبة إلى المصممين على غزو العراق، لتلاعب المخابرات الإيرانية بهم.

وسّعت وزارة الدفاع عملها مع المؤتمر الوطني العراقي لتطوير القوات العراقية الحرة. وقد أسرت هذه الفكرة المحافظين الجدد، وعلى رأسهم بيل لوتي، في عهد إدارة كلينتون، عندما اقترح ولفوويتز ونيوت غينغريتش استخدام جيش من المنفيين العراقيين ليكونوا طلائع «تحرير» البلاد، وإنشاء منطقة آمنة في جنوب العراق بدعم من سلاح الطيران الأميركي. سار المحافظون الجدد في وزارة الدفاع، وقد باتوا في السلطة، والجلبي قدماً في الخطة، فقد قدّم المؤتمر الوطني العراقي ما يقرب من خمسة آلاف اسم من «المتطوعين» للخدمة في الجيش، وأقام الجيش الأميركي معسكراً في المجر لتدريب المنفيين، إلا أن الفكرة برمتها أثبتت أنها خادعة، حيث تأكدت وكالة استخبارات الدفاع بسرعة أن معظم الأسماء التي كانت على اللائحة غير موجودة أو أنها أسماء مكررة. تمّ دفع أكثر من 90 مليون دولار من أموال دافعي الضرائب الأميركيين، ولم يظهر سوى أقل من مئة عراقي في المخيم لم يكمل منهم سوى سبعين برنامج التدريب - أي بكلفة أكثر من مليون دولار لكل مجنّد.

فتحت وزارة الدفاع أيضاً جرحاً قديماً يعود إلى عهد إدارة ريغان. ففي أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر 2001 وصل مايكل ليدين إلى البيت الأبيض للاجتماع بأحد معارفه القدامى، نائب مستشار الأمن القومي ستيفن هادلي. كان ليدين، منذ سقوط حظوته قبل عشرين عاماً باعتباره أحد المحرضين على مبيعات الأسلحة الإيرانية التي أدت إلى فضيحة إيران - كونترا، وهاجس إيران يستحوذ عليه. في خلال هذه السنوات تحوّل ليدين من طرف إلى آخر، جنباً إلى جنب مع الحكومة الإسرائيلية، وها هو يطالب بتغيير النظام بدلاً من التقارب. عمل ليدين في «معهد المبادرة الأميركي» (American Enterprise Institute) الذي يضمّ المتشددين، واستمر بترويج المعلومات حول إيران ونقلها إلى أي شخص مستعد للاستماع إليه؛ وقد وجد بعد 2001 عدداً من الآذان الصاغية بين زملائه السابقين من هيئة الخبراء والمفكرين الذين تقلّدوا مناصب عليا في إدارة بوش الجديدة. قال ليدين لهادلي إنه على اتصال مع إيرانيين لديهم معلومات استثنائية حول علاقة إيران بالإرهاب. اعتقد ليدين أن من المهم لفت انتباه الحكومة الأميركية إلى هذه المعلومات، مع أنه لم يكفل دقتها. إلا أن التحذير الوحيد تمثّل في أن مصادر ليدين لا تثق البتّة بالـ«سي. آي. إيه.» وأنها لن تعمل مع لانغلي (مقر الوكالة) وبالتالي فإن قناة العبور الفضلى هي وزارة الدفاع، واقترح ليدين كلاً من هارولد رود ولاري فرانكلين للاجتماع بالإيرانيين، ولكليهما وجهة نظر مماثلة لوجهة نظره في شأن الجمهورية الإسلامية، ويتحدثان اللغة الفارسية بطلاقة[1085].

ما أغفل ليدين قوله لهادلي هو أن قناة المعلومات الإيرانية الرئيسي ليس سوى منوشهر غربانيفار شريكه القديم في أسوأ كابوس سياسي في عهد رونالد ريغان. فقد خضع هذا الإيراني المرن لنفس التحول السياسي الذي خضع له صديقه مايكل ليدين، وها هو يقترح ترتيب لقاء بين مسؤولين أميركيين ومسؤولين إيرانيين رفيعي المستوى لديهم معلومات عن الوضع السياسي في إيران وعن دعمها للمنظمات الإرهابية، بما في ذلك «خطط لقتل أميركيين في أفغانستان». كانت خمسٌ وعشرون سنة من السمعة السيئة بوصفه مفبركاً للأخبار، إضافةً إلى صدور مذكرة من الـ«سي. آي. إيه.» تحظر التعامل معه، مازالت تَصِمُ غربانيفار، وليس مستغرباً بالتالي أن يرفض الأخير لقاء ضباط من وكالة الاستخبارات المركزية.

وافق هادلي على اقتراح ليدين، واتصل في 7 تشرين الثاني/نوفمبر بولفوويتز وطلب من وزارة الدفاع تولّي الاجتماع، وأكّد لولفوويتز أن على الاجتماع أن يظل «سرياً للغاية» بسبب انعدام ثقة الإيرانيين بوكالة الاستخبارات المركزية.

اتصل هادلي عندها بكلٍّ من جورج تينيت وريتشارد أرميتاج قائلاً: «تعتقد وزراة الدفاع أن لديها بعض المصادر في إيطاليا تمتلك معلومات عن الإرهاب، فهل تمانعان إذا ذهبوا إلى روما وأجروا مقابلات معها؟» وافق كلا الرجلين دون كثيرٍ من التفكير. وبالرغم من أن الأمر يقع أكثر ضمن نطاق اختصاص تينيت، فإنه لم يرغب في أن يُنظر إليه على أنه ضيّق الأفق بعد شهرين فقط من تفجيرات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وأهمل هادلي ذكر المعلومات التي أفاد بها مايكل ليدين، والتي قد تثير صيحة احتجاج من جانب أرميتاج، الذي لا يزال يذكر بوضوح فضيحة إيران - كونترا عندما كان مسؤولاً كبيراً في وزارة الدفاع تحت إمرة كاسبار واينبرغر[1086].

انفصل كلٌّ من رود وفرانكلين عن محادثات كروكر بشأن أفغانستان في بون وطارا إلى روما. وفي 10 كانون الأول/ديسمبر عُقد اللقاء في شقة في روما تدبّرها ليدين باستخدام علاقاته بالمخابرات الايطالية. أحضر غربانيفار معه اثنين من الإيرانيين: أحدهما منفي يعيش في المغرب ادّعى أنه ضابط سابق في الحرس الثوري، والثاني قدّم نفسه بأنه مسؤول رفيع المستوى في الاستخبارات الإيرانية. واكتشفت وكالة الاستخبارات المركزية لاحقاً أنه بائع متجول للمعلومات يبيع ذاكرته لمن يعرض السعر الأعلى. وعلى مدى الأيام الثلاثة التالية أمتع غربانيفار والإيرانيان المسؤولين الأميركيين بقصص عن كل شيء تريد الحكومة الأميركية أن تعرفه. وصفوا الظروف السياسية والاقتصادية داخل إيران، وتزايد الاستياء في أوساط الشعب، وعلاقة إيران بالفلسطينيين، وأسلحتها غير المشروعة، وبالطبع صدام حسين. تمثّل أحد موضوعاتهم الأكثر إثارةً في وصفهم للمجموعة الضاربة الإيرانية التي أُرسلت لقتل جنود أميركيين في أفغانستان. وعندما طلب فرانكلين المزيد من التفاصيل عن مجموعات القتل قدّم الإيراني الذي ادّعى أنه من جهاز الاستخبارات أسماءً وصورة فوتوغرافية ادّعى أنها لأحد أعضاء المجموعة[1087].

لكن كانت لغربانيفار أفكاره عن المكان الذي يجب توجيه هذه المحادثات إليه. ذات ليلة، وفيما كان جالساً في حانة الفندق في ساعة متأخرة، وضع على منديل كأس «الكوكتيل» ملخصاً

لخطته الهادفة إلى إسقاط الحكومة الإيرانية، واقترح تنفيذ سلسلة من العمليات تهدف إلى خلق الفوضى وعدم الرضا العام عن الحكومة الإيرانية، تبدأ بعرقلة السير في وقت واحد على كل تقاطعات المرور في طهران الأمر الذي من شأنه أن يخلق حالة من الذعر ويشلّ المدينة. ولم يكن مستغرباً أن يطلب غربانيفار من الولايات المتحدة أن تدفع له، لقاء حيلته، مبلغاً أولياً قدره 5 ملايين دولار لبدء العملية على أن يتقاضى 20 مليون دولار أخرى ما إن يعطّل حركة المرور المزدحمة أصلاً في طهران.

في 12 كانون الأول/ديسمبر، ومع استمرار الاجتماعات في روما، تناول ليدين الإفطار مع السفير الأميركي ملفين سيمبلر. تبجّح ليدين أنه موجود في روما للاجتماع باثنين من الإيرانيين تحت رعاية وزارة الدفاع. حافظ سيمبلر على ودّيته مع ليدين، إلا أن هذا الاجتماع السري الذي يُعقد في بلاده دون معرفته أو معرفة مدير مكتب الـ«سي. آي. إيه.» أجفل السفير وأخافه. بدا الأمر وكأنه بداية لعملية سرية، وهو لم يسمع بقرار رئاسي يجيز أي عملية من هذا القبيل. شرع سيمبلر في الاستفسار لكن الأمر سيستغرق حتى شهر شباط/فبراير قبل أن يعرف كبار مسؤولي الـ«سي. آي. إيه.» في لانغلي وفي فوجي بوتوم (وزارة الخارجية) بدور غربانيفار.

كانت خطة غربانيفار مبالغاً فيها حتى بالنسبة لمن وافقوا في وزارة الدفاع على تغيير النظام. أوصى فرانكلين رئيسه بيل لوتي برفض حرب غربانيفار على ركاب المواصلات في طهران. وقطب بيتر رودمان، رئيس لوتي، حاجبيه حين رأى «فاتورة الحساب» البالغة 25 مليون دولار التي طلبها المنفي الإيراني. بيد أن فرانكلين ادّعى أن المعلومات المقدّمة «أنقذت حياة أميركيين»، واعتبر لوتي أنها تشكّل مبرراً لإبقاء القناة مفتوحة. وأوصى رودمان وولفوويتز بمواصلة الاجتماع بغربانيفار والإيرانيين نظراً إلى قيمة المعلومات الاستخباراتية على أن يتم ذلك من خلال القنوات العادية لوكالة استخبارات الدفاع، الأمر الذي من شأنه إبقاء وكالة الاستخبارات المركزية خارج الصورة.

في 9 شباط/فبراير، حين عُرف دور غربانيفار بالكامل، اعترض كلٌّ من وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية بشدة. اتصل ريتشارد أرميتاج، وقد بدا عليه الاستياء، بهادلي قائلاً بصرامة: «إذا وضع غربانيفار قدمه في أي سفارة فسيتم اعتقاله (...) هذا هو الرجل الذي كاد لوحده أن يطيح والد الرئيس، وأنت المسؤول عن قيامه، مرّةً أخرى، بتزويدنا بمعلومات مضللة. كنا نعلم آنذاك ونعلم الآن أنه عميل إيراني!»[1088]. سرعان ما وافق هادلي على وقف المحادثات.

لكن بقي لليدين أصدقاء في وزارة الدفاع وبقيت أبواب البنتاغون مفتوحة أمامه لنقل معلوماته المريبة المستمدة من غربانيفار. وقد اتصل بمكتب نائب الرئيس بشأن اليورانيوم المخصب الذي كان مدفوناً في العراق وتم نقله إلى إيران، والتقى، في 6 آب/أغسطس، كبار مسؤولي الاستخبارات في البنتاغون بشأن الموقع الذي دُفن فيه اليورانيوم ذات مرة[1089]. وتبيّن زيف ذلك. وفي 2003، اجتمع رود مرة أخرى بغربانيفار في باريس في طريق عودته من رحلة إلى تركيا، ولكن الاجتماع لم يفضِ إلى شيء، وفاز باول في هذه الجولة.

مع تزايد الزخم لغزو العراق، تساءل البعض داخل الجيش لماذا لا تكون إيران الهدف التالي في الحرب الكونية على الإرهاب. في نيسان/أبريل 2002، كان العقيد في الجيش توم ميلتون يعمل في وزارة الدفاع الأميركية على الخطة الخاصة بالعراق، وبنى على هذه الأفكار من خلال نشر بحث بعنوان «الوصول إلى بغداد عبر طهران»، وردّد بعض وجهات نظر نيوبولد، ليحاجّ بأن الدعم العربي المعتدل حيوي للنجاح في الحرب على الإرهاب. لكن الدعم العربي للسياسة الأميركية في العراق كان محدوداً، فهم «لا يرون في العراق تهديداً إقليمياً رئيساً». والاستراتيجية الأفضل هي في تحويل التركيز إلى إيران التي تشكّل خطراً أكبر ولها سجلّ طويل وحافل في استخدام الإرهاب. ويعتقد ميلتون أن من شأن إسقاط النظام في إيران أن يوحّد العرب وراء الولايات المتحدة ويقوّض فعلاً صدام حسين ويؤدي إلى زواله أيضاً.

وافقه عسكريون آخرون على ذلك، وأكّد عقيد آخر في مذكّرة أرسلها إلى آبي شولسكي أنه «يمكن القول إن التهديد الأكثر إلحاحاً هو إيران»، فلدى إيران «صلات مباشرة بالإرهاب في جميع أنحاء العالم كما أنها تقدّم الدعم المباشر لحزب الله... ومن منظور الحرب على الإرهاب فإن إيران هي الأكثر إلحاحاً».

لم يختلف الأعضاء غير العسكريين داخل مكتب وزير الدفاع بالضرورة مع منطق هؤلاء الضباط، لكن إيران طرحت تحدياً مختلفاً جداً عن العراق[1090]. في الأيام التي أعقبت الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، صاغ مرؤوسو فيث ملخصات تم عرضها على شرائح (Power Point) أجمعت كلها على أن إيران جزءٌ من الحرب على الإرهاب. ولكن كما لاحظ آبي شولسكي في وقت لاحق «فإن إيران بلد عسكري أكثر صعوبةً بكثير من العراق، وهدف أصعب. ولدى أميركا، بوجود خاتمي في منصبه ووجود حركة معارضة نابضة بالحياة، وسائل أخرى غير الحرب لتغيير النظام الإيراني». قلق شولسكي وريتشارد بيرل على حدٍّ سواء من أن يؤدي الهجوم على إيران إلى تعثّر الحرب على الإرهاب. فغزو هذا البلد الكبير ذي السبعين مليون نسمة يتطلب جميع الموارد العسكرية الأميركية ويضع حدّاً لأي عمليات قد تتبع، في حين يسمح غزو العراق للولايات المتحدة «بالحفاظ على الزخم» في الحرب[1091]. ومن الأفضل قطف ثمرة العراق اليانعة -أو حتى سوريا- قبل الاشتباك مع إيران.

حتى المتشددون أمثال لوتي كانوا ينفرون من إرسال دبابات وقوات عسكرية إلى إيران، وحاجّ بأن الوسائل الخفيّة لإطاحة الحكومة تقدّم خياراً أفضل، لا سيما وأن الشعب الإيراني يطالب فعلاً بالتغيير؛ ثم إنه قد يكون لإطاحة صدام حسين «تأثير مفيد» على إيران[1092]. فالحكومة الإيرانية كانت هشة ولا تحظى بالشعبية؛ ويمكن التغيير أن يأتي من الداخل. كتب فيث في مذكّرة، في أيار/مايو 2002، بعنوان «التوقيت الاستراتيجي»: «إن تشكيل حكومة تمثيلية في العراق سينشّط القوى المعادية لرجال الدين في إيران».

قال فيث: «أدركنا أنه سيكون لإطاحة صدام تأثير كبير على إيران». وفيما قد يشرع الباب أمام المزيد من النفوذ الإيراني، بدا أيضاً للقيادة غير العسكريّة في البنتاغون أن هناك سيناريو بديلاً

ممكناً. فقد يكون لتمكين الشيعة في العراق وقع كبير على إيران، وقد يكون لمنظر الشيعة العراقيين وهم ينتخبون قادتهم تأثير محرّض على الإيرانيين الذين قد يتساءلون لماذا لا تتوفّر لهم الفرصة نفسها. ثم إنه يمكن لعراق حر توفير صوت بديل لشيعة العالم. لم تتوفّر وسيلة لمعرفة هل إطاحة صدام ستنتهي في نهاية المطاف إلى تعزيز مصالح النظام الإيراني أم إيذائها. قال فيث: «ليس من المحتوم أن تودّي إطاحة صدام مع الوقت إلى تقوية ساعد النظام الإيراني في العراق»[1093].

أعدّ مكتب فيث مسوّدة أخرى عُمِّمت على البنتاغون بعنوان «ماذا سيحدث إن نجحنا؟» وطلب من الجهات الحكومية الأخرى دراسة تبعات إطاحة صدام حسين، متكهّناً أن إطاحة صدام قد تؤدي إلى تغيير العالم العربي، وكذلك الثورة في إيران. وافقت الوكالات الأخرى على هذه الأفكار، فهي، في الحد الأدنى، ستضع إيران في موقف دفاعي، وربما تدفعها إلى وقف برنامجها النووي والصاروخي.

ومع ذلك، ظل الجيش منقسماً، وبخاصة العقداء والجنرالات. تم إعداد تقرير في حزيران/ يونيو 2002 بإشراف مكتب السياسات والاستراتيجيات التابع لرئيس هيئة الأركان، وقد توقّع أن يكون لإسقاط النظام العراقي تأثير ضئيل على السلوك الإيراني، لا سيما على صعيد دعمه للإرهاب أو برنامجه للصواريخ البالستية. في أحسن الأحوال، فإن غزو العراق سوف يضع طهران في موقف دفاعي ويؤدّي «مؤقتاً» إلى وقف الدعم الإيراني العلني لجماعات خارجية. وفي أسوأ الأحوال، فإنه قد يشعل جنون الريبة الإيرانية، لأن طهران تعتقد بالفعل أن الولايات المتحدة تريد تطويق نظام الحكم وقلبه[1094].

ولكن توم بيليك، وهو أحد ضباط القوات الجوية من ذوي الرتب المتوسطة، رأى في إطاحة صدام فرصةً لطهران، ووضع، في 1 آذار/مارس 2002، دراسة حول ردود الفعل الإيرانية المحتملة على الغزو الأميركي للعراق، وكتب: «سيكون الرد الخطابي الإيراني على العمل الأميركي ضد العراق قاسياً، إلا أن إيران ستنظر بعين الرضا إلى إطاحة نظام صدام بوصفها فرصة للتأثير على عراق ما بعد صدام. وقد تزاد إيران، في الواقع، قوةً ونفوذاً برحيل خصمها الرئيس»[1095].

دعم كلٌّ من رئيس هيئة الأركان المشتركة مايرز ونائبه بيتر بيس مدنيي البنتاغون أو سايراهم على الأقل. أوضح مايرز أن «العراقيين ليسوا فرساً. إنهم قوميون، ولم أعتقد أنهم سيخضعون لنفوذ إيران»[1096]. واتفق بيس مع دراسة أخرى، أعدّها موظفوه، تقول: «خلاصة القول: من شأن حملة ناجحة لتجريد العراق من أسلحة الدمار الشامل، وإطاحة نظام صدام حسين، واستبدال حكومة ذات تمثيل واسع به، أن تحدث تغييراً جذرياً في المشهد الجغرافي السياسي في المنطقة». سترى إيران في ذلك تهديداً مباشراً لسلطة رجال الدين في طهران، فهذا الضغط العسكري والدبلوماسي المباشر قد يجبر طهران أو يكرهها على تغيير سياساتها المتعلّقة بدعم الإرهاب وبأسلحة الدمار الشامل.

اتفق حتى قائد القيادة المركزية الأميركية المتقاعد طوني زيني مع بيس. وزيني ليس صديقاً لفيث أو للمحافظين الجدد، إلا أنه يعتقد أن إيران ستخاف حتى الموت لو اصطفّ العراق بصورة وثيقة إلى جانب الولايات المتحدة[1097].

إن فكرة مطاردة إيران بوصفها المرحلة الثالثة في الحرب على الإرهاب أغرت بعض مدنيي البنتاغون. فقد أدلى بيل لوتي بتصريحات متكرّرة عن إسقاط الحكومة الإيرانية، ووصف لاري فرانكلين، الذي يشارك رئيسه وجهة نظره، إيران بأنها «نظام عدائي يؤوي الإرهاب ويموّله ويصدّره، حتى وهو يقمع آمال الشعب الإيراني بالحرية»، وأيّد بشدة أن تكون إيران الهدف التالي بعد العراق.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر Kindle

على الرغم من نظريات المؤامرة عن خطط سرية لغزو إيران، لم تكن القيادة المركزية الأميركية، أو هيئة الأركان المشتركة أو مكتب بيل لوتي، تحضّر لمثل هذا الهجوم بعد غزو العراق[1098]. مع أن البعض في البنتاغون أضمر هذه الآراء إلا أن الأوراق المطروحة للبحث لم تكن خططاً عسكرية. ولو سارت الحرب على العراق على خير ما يرام لربّما احتلت إيران أو سوريا الواجهة بالنسبة إلى المخططين العسكريين. لكن ليس في وسع واشنطن إلا خوض حرب واحدة في الوقت نفسه. وكان رامسفيلد يمتلك ما يكفي من الخبرة ليدرك أنك لا تستطيع ببساطة شطب البلدان. ومع تغيّر المشهد السياسي بعد صدّام، ستتغير الحسابات الإيرانية أيضاً، وسيتوجّب على الإدارة أن تعيد تقويم خياراتها. استهلكت التهيئة لغزو العراق طاقة المسؤولين كلها، وبعد الغزو قضى التمرد على كل المساعي إلى المغامرات.

النقاش الجدّي الوحيد في شأن إيران جرى مباشرةً بعد الإيجاز الذي قدّمه رامسفيلد وتينت إلى الرئيس بوش في كانون الثاني/يناير 2003. ردّاً على التقويمات المتفائلة التي أعدّها موظفو فيث، طلب رامسفيلد من الجنرال مايرز النظر في ما يمكن القيام به لو أن للنجاح في العراق «تأثيراً تتابعياً» وما إذا كان قد يزعزع استقرار إيران. وجّه رئيس هيئة الأركان المشتركة أمراً تحضيرياً إلى الجنرال تومي فرانكس في القيادة المركزية الأميركية لوضع «خيارات استباقية، وكذلك تفاعلية» من شأنها أن تُحدث تغييراً في نظام الحكم في إيران. وبسبب نفاد صبر رامسفيلد المعهود، لم يمتلك فرانكس سوى ثلاثين يوماً فقط للعودة بخطة، بما في ذلك تحديد أهداف عسكرية في إيران يمكن الولايات المتحدة مهاجمتها لتعزيز فرص إسقاط الجمهورية الإسلامية.

«هذا هراء»، قال الجنرال فرانكس للجنرال مايرز عبر الهاتف بطريقته المعتادة النابضة بالحيوية. لم تدعم الاستخبارات الافتراضات، وكان أركانه منهمكون بالفعل في حرب في أفغانستان ويخططون لحرب أخرى في العراق. وافقه مايرز وأقنع رامسفيلد بتأجيل إصدار الأوامر لفرانكس، أقلّه إلى ما بعد العراق.

لم يكلّف أحد نفسه، في كل المشاورات والأخذ والرد عن تأثير اجتياح العراق على إيران، أن يختبر النظريات. والمدهش فيما يتعلق بالجيش الأميركي، الذي يفتخر ببراعته الفائقة في التخطيط، أنه لم يُصنع الكثير بعد اندفاعته الأولية نحو بغداد. وتمّ التدرب مدة عام تقريباً على «الحركة الافتتاحية»، وهو الاسم الذي أطلقه المارينز على الزحف على بغداد؛ ولم يحظَ ما حدث بعد بلوغ بغداد إلا بالقليل من الانتباه الذي لا يتجاوز عرضاً كبيراً قدّمته القيادة الأميركية بوساطة برنامج «باور بوينت» وطاقمين صغيرين جُمعا على عجل قبل ضربة الافتتاح. لكن الجيش الأميركي لم يقم حتى بهذا الترتيب الظاهري في ما يتعلّق بإيران، ولم يتم إنشاء «فريق أحمر» لاستكشاف تداعيات إزالة خصم إيران اللدود، ولم تجرِ القيادة المركزية الأميركية أبداً أي مناورات عسكرية لتصوّر رد فعل إيران على غزو أميركي آخر على حدودها. بحث أسطول البحرية الأميركي الخامس في البحرين في كيفية تجنّب المناوشات غير المقصودة مع البحرية الإيرانية في شمال الخليج، واكتفى كبار المسؤولين، بعد ذلك، بإبداء الرأي وبالنظر في قضايا هامشية.

قَبِلَ الجنرالات بيس ومايرز وفرانكس الافتراضات التي مفادها أن غزو العراق سيكون له تأثير قسري على إيران. وأقرب ما وصل إليه البنتاغون في تمحيص هذه الافتراضات لم يحدث إلا قبل بدء الحرب تماماً. اجتمع فريق من الخبراء في «جامعة الدفاع الوطني» في واشنطن العاصمة للنظر في وقع إطاحة صدام على منطقة الخليج. وقالت الخبيرة في شؤون الشرق الأوسط جوديث يافي إن ذلك لن يقنع إيران بتغيير سلوكها، وإن الحرب الطويلة واحتلال العراق سيقوّضان الأهداف الأميركية[1099]. ولكن لم تلقَ وجهات نظرها أي صدى داخل أروقة السلطة، ولم يعتقد أحد أن إيران سترى، في الواقع، في عمل الولايات المتحدة فرصةً لتوسيع نفوذها.

بالنسبة إلى القادة الإيرانيين، الإصلاحيين والمتشددين على حدٍّ سواء، أزعج احتمال تمركز الجيش الأميركي في بلدٍ ثانٍ مجاورٍ لهم. ورأت طهران، التي تكبّدت نحو مليون قتيل على أيدي الغزاة العراقيين، أن حكومة صديقة في بغداد أمر حيوي لأمنها. وأراد الإيرانيون، في أحال أطاح الأميركيون خصمهم اللدود القديم صدام حسين، أن يكون لهم رأي في تشكيل الحكومة الجديدة، وأملوا في تكرار روح أفغانستان التعاونية في هذه الحرب الجديدة على حدودهم الغربية، وقرروا استئناف الحوار مع الولايات المتحدة على الرغم من أنهم قطعوا المحادثات في أعقاب وضعهم ضمن «محور الشر».

في أيلول/سبتمبر 2002، وصل جواد ظريف إلى نيويورك بوصفه مندوب إيران الجديد في الأمم المتحدة. كانت طبول الحرب العراقية تُقرع بصوت أقوى في واشنطن، فلجأ ظريف مرةً أخرى إلى رئيس «المجلس الإيراني الأميركي» هوشنك أمير أحمدي الذي واصل الدعوة إلى التقارب بين مسقط رأسه وبين وطنه الثاني. وفي الشهر الذي سبق هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر طار إلى كاليفورنيا للقاء جورج شولتز الذي شغل منصب وزير الخارجية في عهد ريغان. جلس الرجلان في فناء منزل شولتز تحت أشعة الشمس الدافئة يجرعان كؤوس النبيذ، واتفقا على أنه في حال تمكّن هوشنك من حمل مسؤول إيراني رفيع المستوى على الإعلان بشكل لا لبس فيه عن الرغبة في تطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة، فسيستخدم شولتز نفوذه لدى مستشار الأمن

القومي الجديد لجعل واشنطن تردّ بالمثل. ظل أمير أحمدي ملتزماً بالفكرة فيما بدّلت الهجمات الإرهابية مواقف شولتز.

في أيلول/سبتمبر، احتل منزل ظريف في نيويورك مركز الصدارة في هذه المحادثات التي تتم عبر قنوات خلفية. وجاء أمير أحمدي بخمسة دبلوماسيين أميركيين سابقين بارزين، بمن فيهم السفيران ريتشارد ميرفي وتوماس بيكرينغ، للقاء السفير الإيراني، وتولّى ظريف معظم الكلام.

لم ترفض حكومته التطبيع مع الولايات المتحدة كما أنها لم تؤيده، فالمرشد الأعلى لا يعارض الفكرة من الناحية الأيديولوجية، لكنه لا يعتقد أنها تخدم مصالح إيران. وأضاف الدبلوماسي الإيراني: «إن عدم الثقة بين الولايات المتحدة وإيران عميقٌ جداً ومتجذّر»، مضيفاً أن ذلك يشمل الجانب الأميركي الذي يسيطر عليه لوبي قوي مناهض لإيران لمصلحة الإسرائيليين.

اجتمع الدبلوماسي المحنّك توم بيكرينغ قبل سفره إلى نيويورك بنائب مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وليام بيرنز في مقر الوزارة في واشنطن. قال بيرنز إن الإدارة مستعدة لتطبيع العلاقات فيما لو اتخذت إيران خطوات ملموسة لوقف برامجها المتعلّقة بالأسلحة النووية والصواريخ البالستية، ووقف الدعم لمنظمات تعتبرها الولايات المتحدة إرهابية، مثل حزب الله وحماس. نقل بيكرينغ ذلك إلى ظريف قائلاً إن على إيران إظهار الإرادة السياسية للقيام بهذه الأمور وأن تكون على استعداد لمناقشة «القضايا الجوهرية». وافق ظريف، لكنه أضاف أنه حتى يحدث ذلك يتوجّب على الولايات المتحدة نفسها أن تظهر درجة من حسن النية الغائبة عن إدارة بوش بشكل واضح حتى الآن.

التقت المجموعة نفسها من جديد في وقت لاحق من ذلك الشهر لتناول العشاء في مقر إقامة ظريف. وفيما انضم إلى وفد أمير أحمدي موظفان يعملان لدى عضوين من أعضاء مجلس الشيوخ، الديمقراطي جوزيف بايدن والجمهوري تشاك هيغل، رفعت إيران بشكل مفاجئ مستوى الاجتماع بإضافة كبير دبلوماسييها وزير الخارجية الدكتور كمال خرازي، وهو شخص يتّصف بالاعتدال داخل الحكومة الإيرانية وينتمي بشدة إلى معسكر خاتمي الإصلاحي. تحدث الجانبان أثناء العشاء عن ضرورة تحسين العلاقات، وأعرب الجميع، ولاسيما خرازي، عن تشاؤمه الشديد بأن ذلك لن يحصل أبداً. وأخيراً، قرابة نهاية المأدبة، دخل أمير أحمدي في صلب الموضوع وسأل وزير الخارجية الإيراني صراحةً: «دكتور خرازي، من فضلك قل لنا بأوضح لغة ممكنة: هل ترغب إيران في تطبيع العلاقات مع الولايات المتحدة؟»

صمت خرازي طويلاً ثم ردّ بشكل قاطع: «أجل! إننا مستعدون لتطبيع العلاقات»، وأضاف أن حكومته مستعدة لمناقشة كل المشكلات القائمة بين البلدين. كان شرط خرازي الوحيد فيما يتعلق بالصفقة هو تأمين الغطاء السياسي في الديار: تحتاج حكومته أن تتخذ واشنطن الخطوة الأولى ببادرة إيجابية وعلنية. كانت تلك المرة الأولى، منذ عام 1979، يعلن فيها مسؤول إيراني رفيع استعداد إيران لإنهاء عشرين عاماً من العداء.

في ذلك المساء، واصل أمير أحمدي وخرازي وظريف الحديث حتى ساعات الصباح حول الخطوة التالية. وافق أمير أحمدي على رعاية مؤتمر يلتقي فيه بيرنز خرازي، على أن يصدر

الرجلان بياناً مشتركاً حول الحاجة إلى تحسين العلاقات بين البلدين.

التقى أمير أحمدي وبيكرينغ بيرنز وكروكر وزلماي خليل زاد، مدير مجلس الأمن القومي لشؤون العراق وإيران، الذي تابع بعناية اجتماعات كلٍّ من دوبينز وكروكر. وكان هناك تفكير في ترئيسه مسار كروكر، لكن البيت الأبيض الذي يعاني الانقسام رأى في خليل زاد شخصية أرفع من الاجتماع مع الإيرانيين في ذلك الوقت. ومع أن خليل زاد كان متشدداً بخصوص إيران، فقد استمع بعناية إلى أمير أحمدي وهو يسرد بيان خرازي حول التطبيع ومؤتمره المقترح والبيان المشترك.

سأله خليل زاد: «هل وافق المرشد الأعلى على ذلك؟»

أجاب أمير أحمدي: «لا، ولكن الدكتور خرازي، حسب معرفتي به، لن يقوم بأي بادرة بمثل هذا الحجم دون علم المرشد وموافقته».

أحب خليل ما سمعه: «من حيث المبدأ، ليست هناك مشكلة بشأن هذا الاقتراح، ولكن عليّ التشاور مع رؤسائي قبل أن أتمكّن من إعطاء إجابة محددة».

وفي الوقت نفسه تواطأ ظريف وأمير أحمدي سراً على مسعى أميركي إيراني مشترك لإطاحة صدام حسين، واتّفق الرجلان على أن لهما عدو مشترك في العراق؛ وأن التعاون بينهما يخدم المصالح الوطنية لإيران والولايات المتحدة بصورة أفضل كما حدث في أفغانستان. ووافقت إيران على مساعدة الولايات المتحدة عسكريّاً من خلال تقديم تفاصيل عن الجيش العراقي وبرامجه بشأن أسلحة الدمار الشامل، والسماح باستخدام مجالها الجوي لضرب العراق، وتقديم المساعدات الإنسانية في حال حدوث أزمة لاجئين. لكن الهدف الحقيقي كان أبعد من مجرّد الحرب. كانت إطاحة صدام حسين مجرد نقطة انطلاق للحصول على الجائزة الكبرى وهي: إنهاء عقدين من العداء بين واشنطن وطهران.

قال أمير أحمدي في وقت لاحق إن «الفكرة تمثّلت في صفقة كبرى»، إذ ستدعو واشنطن علناً إلى تطبيع العلاقات في مقابل المساعدة الإيرانية، وهو ما سيؤدي إلى الدخول في مفاوضات من شأنها أن تعالج ليس فقط دعم إيران للإرهاب بل وإنهاء عقدين من العقوبات الاقتصادية والمالية ضد إيران.

سرعان ما توطدت معرفة رايان كروكر بالسفير ظريف وبالأفكار التي تقف وراء هذه الصفقة الكبرى. فقد وصل ظريف إلى باريس في أيلول/سبتمبر 2002، وتولّى الاجتماعات مع كروكر. وعلى عكس المحادثات الواسعة النطاق مع ضباط الحرس الثوري، وصل ظريف وبحوزته مواضيع محددة للنقاش ينقلها إلى كروكر. وفيما شكّل ذلك بوضوح حواراً منظّماً أكثر رسميةً يتولّاه وزير الخارجية الإيراني، اعتبر كروكر في مجالسه الخاصة أن وصول ظريف خَفْضٌ لمستوى المحادثات من جانب طهران. «لم تكن هذه هي القناة التي علّقوا عليها الأهمية كما فعلوا في البداية»[1100]، فظريف يفتقر إلى ثقل أسلافه، والأهم بالنسبة إلى كروكر هو أن ظريف،

بوصفه إصلاحياً تلقى تعليمه في الغرب، يفتقر إلى العلاقة مع صانعي القرار السياسي الحقيقيين في طهران: المرشد الأعلى والحرس الثوري.

وعلى مدى الاجتماعات الثلاثة التالية نقل ظريف إلى كروكر رغبة حكومته في توسيع المحادثات إلى ما هو أبعد من أفغانستان لتشمل العراق. وتماشت مواضيع بحثه عن كثب مع المخطط الذي وضع مسودته مع أمير أحمدي في نيويورك، والذي أمل بلا شك في أنه قد نُقل أيضاً إلى وزارة الخارجية الأميركية. بدأ ظريف بالإعراب عن مخاوفه من أن يقوم العراق، في حال اندلاع الحرب، بقصف إيران بالأسلحة الكيميائية، وناقش الأفكار المتعلّقة بالعمل جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة لإطاحة صدام حسين، وقال لكروكر إن ما نجح في أفغانستان يمكن أن ينجح مرة أخرى ضد عدو مشترك آخر.

قام كروكر بواجبه ونقل الاقتراح بشأن العراق إلى واشنطن. قبل يومين من عيد الميلاد، وبينما كان الكثير من المسؤولين في واشنطن في عطلة رسمية، اجتمع كبار فريق بوش في السياسة الخارجية في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض وعقدوا اجتماعاً على عجل لمناقشة الاقتراح، واتفقوا على أن يقوم مجلس الأمن القومي بصياغة مجموعة نقاط البحث ينقلها كروكر إلى الإيرانيين، على أن يعاود كبار المسؤولين الاجتماع بعد رأس السنة لاتخاذ قرار بشأن أفضل السبل للرد على الإيرانيين.

أراد ظريف، في الاجتماع التالي في جنيف، معرفة ما الذي تودّ الولايات المتحدة القيام به حيال منظمة مجاهدي خلق الإيرانية. كانت هذه الحركة الثورية اليسارية شبه الإسلامية مكرّسة لإسقاط الشاه ومن بعده الجمهورية الإسلامية، وقد وفّر صدام حسين ملاذاً في العراق لهذه المجموعة، التي نفذت الكثير من الهجمات الإرهابية، وكانت أول من قام بشنّ هجمات بعبوات ناسفة في منطقة الشرق الأوسط، والتي كادت تودي بعميد أميركي في السبعينيات. وفي 1997 صنّفت الحكومة الأميركية منظمة مجاهدي خلق على أنها منظمة إرهابية؛ وخشت إيران أن الولايات المتحدة تريد في السر استخدام مجاهدي خلق لزعزعة استقرار النظام الإيراني.

ردّ كروكر: «كل ما عليك عمله هو أن تنظر إلى سياستنا المعلنة؛ فنحن لا نؤيّد الإرهابيين»[1101]. لكن ظريف ظل متشككاً وكشف عن تصريحات معلنة صادرة عن أشخاص ذوي نفوذ من المحافظين الجدد تشير إلى أن الولايات المتحدة قد تستخدم منظمة مجاهدي خلق كقوة للتحرير.

كان للقلق الإيراني مبرراته، فقد أيّد بعض المدنيين داخل الورشة السياسية لوزير الدفاع استخدام مجاهدي خلق لضرب النظام الإيراني، أو أقلّه لجمع المعلومات الاستخباراتية من داخل إيران. بل إن ولفوويتز اقترح ذلك خلال اجتماع للجنة كبار المسؤولين. وفي عرض نادر للعزم قضت كوندوليزا رايس على هذه الفكرة بقولها: «إذا كانت الولايات المتحدة ترمز إلى شيء فهو إلى أنها ضد العمل مع الإرهابيين!»[1102]

بعد عدة أسابيع من المداولات رفضت إدارة بوش مرة أخرى مبادرات ظريف وإيران. لخصت وثيقة مجلس الأمن القومي وجهات النظر كلها باستثناء وزارة الخارجية وجاء فيها: «لا ينبغي على الولايات المتحدة في هذه المرحلة الاستجابة لمبادرات النظام الحالي، ولكنها ستستمر بلقاء ممثلي الحكومة الإيرانية في اجتماعات متعددة الأطراف عندما يخدم ذلك مصالح الولايات المتحدة. يُسمح للمبعوث الجديد، زلماي خليل زاد، وكروكر بالاجتماع بالإيرانيين، ولكن لتقديم المطالب لا غير. ويمكنه الحديث عن أفغانستان وحمل إيران على تسليم عناصر القاعدة، أو أي موضوع «يُعتبر أنه يصب في مصلحة الولايات المتحدة»[1103].

في 19 آذار/مارس 2003، استخدم الرئيس بوش مرةً أخرى الأثير لإلقاء خطاب وطني. تحدث هذه المرة وهو جالس إلى مكتبه في البيت الأبيض، وافتتح خطابه بتصميم: «أيها المواطنون، في هذه اللحظة تقوم القوات الأميركية وقوات التحالف بالمراحل الأولى من العمليات العسكرية لنزع سلاح العراق، ولتحرير شعبه، وللدفاع عن العالم من خطر عظيم». والواقع هو أن القوات الخاصة الأميركية تسللت في الليلة التي سبقت إلى جنوب العراق وغربه وشكّلت طليعة جيش من نحو مئتي ألف جندي أميركي وبريطاني. وتابع بوش قائلاً: «إن أمتنا تدخل هذا الصراع مكرهة (...) لن يعيش شعب الولايات المتحدة وأصدقاؤنا وحلفاؤنا تحت رحمة نظام خارج على القانون يهدّد السلم بأسلحة القتل الجماعي».

بعد عام ونصف العام من المناقشات حقّق ولفوويتز هدفه القديم. ففي أقل من ثلاثة أسابيع دخل الجنود ومشاة البحرية بغداد وأسقطوا النظام العراقي. ولم يؤدِّ واقع أن كل المبررات تقريباً التي قدمتها الولايات المتحدة لشن الحرب وبخاصة برنامج صدام لأسلحة الدمار الشامل كانت خاطئة إلى إرباك أولئك الذين حثّوا على النزاع. فقد أجهضت إدارة بوش، في سعيها إلى هذه السياسة القصيرة النظر، المبادرات الدبلوماسية التي قدّمتها إيران. فإيران، التي أثارت هجمات القاعدة جزعها وخافت من الرد الأميركي، مدت يدها للتعاون في المجالات التي تتداخل فيها مصالح البلدين، إلا أن الحكومة الأميركية فشلت في تطوير أي ردّ متماسك أو استراتيجية تجاه إيران بخلاف السياسة التي تحدّثت كذباً عن تغيير النظام في طهران. وفي النهاية، لم يؤدِّ هذا الانجراف في السياسة الأميركية إلا إلى كبح التقارب والقضاء على خصم إيران اللدود في بغداد. وإذ تبيّن أن خطة ما بعد الحرب على العراق كانت غير مدروسة، وأنه استُخدم فيها عدد أقل بكثير من المطلوب من الجنود وغابت عنها خطة الاحتلال، فإن الأمر نفسه ينطبق على حسابات إدارة بوس للأمن الإقليمي في الشرق الأوسط. فالذين دفعوا باتجاه الحرب - بمساعدة من منفيين تابعين لإيران بقدر ما هم تابعون لواشنطن - فتحوا الباب أمام التوسع الإيراني.

لكن إن لم يرد الأميركيون الحوار، فلن يتورع الإيرانيون عن القتال. فالمرشد الأعلى لم يكن متفائلاً أبداً بشأن آفاق الحديث مع واشنطن، وبدلاً من أن يرى آية الله الخامنئي في القوات الأميركية في العراق تهديداً للجمهورية الإسلامية، أيّد فكرة الحرس الثوري التي صُمِّمت للاستفادة من علاقاتهم داخل الغالبية الشيعية في العراق. قدّمت أميركا فرصة لإيران كي تحقق ما لم تستطع تحقيقه خلال ثماني سنوات في مذبحة عقد الثمانينيات الدموية، ولكن معظم الدماء التي ستهدر هذه المرّة ستكون دماءً أميركية.

الفصل الرابع والعشرون

هزيمة أم انتصار

سار الأسبوعان الأولان لتحرير العراق بالنسبة إلى النقيب روبرت هارفارد على خير ما يرام. وهارفارد، حتى بالنسبة إلى مغاوير البحرية، هو رجل عملي، وهو في منتصف الأربعينات من عمره وذو لياقة بدنية عالية، أصلع الرأس مع وجود ندبة بارزة وغامضة في أسفل جانب وجهه. وهو دائم الحركة ولا يتوقّف إلا ليحدّق كالصقر بعينيه الزرقاوين الغائرتين في شخص ما وكان القائد الأعلى لكل القوات الأميركية البحرية المقاتلة الخاصة التي شاركت في غزو العراق كانت ليلة بداية الهجوم الأميركي، في 20 آذار/مارس 2003، واحدة من أكثر العمليات التي ينفذها مغاوير البحر تعقيداً. قضت العملية بالاستيلاء في آن على منصتين من منصات النفط البحرية العراقية والأنابيب التي تربط فيما بينهما ومحطات الضخ الموجودة في شبه جزيرة الفاو المجاورة - وهي منطقة طينية كانت ساحة معركة دموية رئيسة خلال الحرب العراقية الإيرانية. فقد خشيت المخابرات الأميركية أن يدمّر صدام هذا المحور المهم في اقتصاد العراق إن لحرمان الأميركيين منه وإن لخلق كارثة بيئية في الخليج العربي عن طريق إغراق المحيط المفتوح بملايين براميل النفط. أُنجزت عملية مغاوير البحر بشكل ممتاز بعد أشهر من التخطيط والتدريب، وحمت هذه القوات صادرات النفط كلها في جنوب العراق دون سقوط أي ضحية أميركية، ولم تواجه إلا مقاومة متفرقة. بعد ذلك أوفد هارفارد قواته للبحث عن أكثر من مئة سفينة في الممرات المائية قبالة الكويت والعراق، وأرسل فرق استطلاع وقناصة لمساعدة مشاة البحرية الذين باتوا بالفعل على مشارف بغداد في أوائل نيسان/أبريل.

قلة من الأميركيين تمتلك خبرة هارفارد فيما يتعلق بإيران، فقد عاش، وهو ابن ضابط في البحريّة كان يقدّم الدعم اللوجستي لبحرية الشاه، سنوات في طهران وتعلّم في المدرسة الأميركية، حيث أتقن اللغة الفارسية، وغالباً ما سافر متطفّلاً في أنحاء إيران، ثم انتقل للدراسة في الأكاديمية البحرية، وتخرج في 1979 من الصف الأخير الذي ضمّ ذكوراً فقط.

كانت لهارفارد تجربة مبكرة مع الجهود التي بذلها وليام كيسي لبناء شبكة تجسس في إيران، فقد تصادق عندما كان طالباً ضابطاً بحرياً مع طالب ضابط بحري إيراني يدعى سعيد أحمدي، ذي الأصول المتواضعة، فقد كان والده ساعي بريد في جنوب طهران. تخرج أحمدي ذو الشعر الداكن والمحب للديسكو مع هارفارد من الأكاديمية البحرية. كتب أحد الأصدقاء لسعيد بمودة في الكتاب السنوي لدفعة «لاكي باغ» (Lucky Bag): «أتمنى أن تكون الرياح الطيبة وحركة البحار التي تتبعها دوماً معك. ابتسمْ ابتسامة رجل»[1104]. بيد أن العواصف والأعاصير التاريخية هبّت على إيران في 1979، وبينما توجّه رفاق دورته الأميركيون للبدء بحياتهم المهنية الجديدة تلقّى سعيد أمراً بالعودة إلى إيران مع تهديد مبطن لوالدته في طهران في حال رفض العودة.

ولكون سعيد من العائدين حديثاً من أميركا وله أصدقاء وزملاء دراسة في الجيش الأميركي فقد كان هدفاً سهلاً للتجنيد في الـ«سي. آي. إيه.»، وذات يوم، بعد الظهر، تلقى الملازم أول، يومها، في البحرية هارفارد مكالمة هاتفية من إيران.

- «اتصل بي جهاز استخباراتكم وسألني إن كنت أرغب في العمل معه. ما رأيك، هل ينبغي أن أفعل؟» سأله سعيد وقد بدت في صوته الإثارة.

أجابه هارفارد بعصبية قائلاً: «لا أعرف ماذا ينبغي لك فعله، لكن، يا رجل، ما كان يجب أن تتصل بي على هذا الهاتف للحديث عن موضوع حساس كهذا». وافقه سعيد؛ وأنهى المكالمة بعد حديث قصير.

لا يزال ما حدث يومها بين الضابط الإيراني الشاب ووكالة الاستخبارات المركزية لغزاً غامضاً، ولم يتضح هل رفض العمل مع الوكالة أم أنه أخفق وحسب في اجتياز أساليب التلقين الرسمية الخاصة بها، لكن أحمدي لم ينضم رسمياً قط إلى حظيرة كيسي الجديدة من العملاء. استقال أحمدي من منصبه في البحرية قرابة الوقت الذي تلقى فيه عرض وكالة الاستخبارات، والتحق بشركة الناقلات الوطنية الإيرانية. ولسوء حظ ضباط الاستخبارات الأميركية، الذي ظلّوا يأملون في تجنيده، أصاب صاروخ عراقي في العام 1984 ناقلته النفطية وهي تنقل شحنة من النفط الخام من حقول النفط الواقعة شمال الخليج العربي فقُتل سعيد واثنان من البحارة على الفور في حريقٍ هائل.

علم هارفارد بوفاة صديقه عندما نشر الصحفي الأسترالي مايكل كوين صورةً في تموز/ يوليو 1985 في مجلة «ناشيونال جيوغرافيك» (National geographic) كجزء من موضوع عن الحياة في إيران في ظل آية الله. فقد صادف أن زار كوين مقبرة «بهشت الزهراء» المترامية الأطراف جنوب غربي طهران، حيث يرقد الكثيرون من جنود البلاد ووجهائها، والتقى، وسط آلاف القبور التي وضعت في صفوف مرتبة بشواهد مبنية من ألواح حجرية بيضاء وزُيّن العديد منها بصور الشبان الذين باتوا يسكنون مدينة الأموات تلك، خمس نساء يرتدين جميعهن الشادور الأسود وينتحبن حول قبر جديد مغطّى بالزهور والفاكهة. التقط كوين بضع صور للمشيعين، فيما رفعت امرأة صورة كبيرة لضابط بحري شاب حليق الذقن، صادف أنها كانت صورة سعيد أحمدي. كانت تلك إما مصادفة غريبة وإما، كما ظن هارفارد، رسالةً متعمدة من عالم الجواسيس الغامض[1105].

مع إطباق جيش الولايات المتحدة ومشاة بحريتها على صدام حسين وبغداد، أنيطت بهارفارد مهمة جديدة. فقد أخذ الجيش البريطاني يطبق شيئاً فشيئاً على مدينة البصرة ذات الميناء في الجنوب، وطلب بعضاً من قوارب هارفارد الصغيرة المدججة بالسلاح في الممر المائي لشط العرب للمساعدة في عزل المدينة ومنع القوات العراقية من الهرب إلى الضفة البعيدة. وفي غضون ذلك انتاب القلق كبير القادة البحريين في الشرق الأوسط، نائب الأدميرال تيموثي كيتنغ، من أن تنطلق زوارق انتحارية عراقية من شط العرب وتهدد أسطوله. ونوى هارفارد، لتحقيق كلا الهدفين، نقل أربعة من زوارقه النهرية - لاسيما منها القوارب الواسعة المنخفضة المموهة بالطلاء والمصنوعة من ألياف كيفلر المقاومة للرصاص والمدججة بالرشاشات - إلى مصبّ شط العرب ومن ثم الإبحار بها لتنضم إلى البريطانيين بالقرب من البصرة. لم يُعرف كيف سيكون رد فعل إيران تجاه هذه المناورة، ويومها لم يبدُ أحدٌ قلقاً من ذلك باستثناء هارفارد.

أمر هارفارد فريقاً صغيراً بالتوجه إلى الفاو للمراقبة قبل إرسال القوارب إلى شط العرب. كان الفريق مؤلفاً من ثمانية عناصر من قوات العمليات الخاصة موزعين في مركبتين محصّنتين ومخصصتين لاجتياز الكثبان الرملية ومجهزتين بمدفعي رشاش ثقيلين؛ وقد تمركزوا في نقطة مراقبة جيّدة تشرف على المياه هجرها الجيش العراقي. أمكنهم أن يروا بوضوح على الضفة المقابلة ثلاثة مواقع إيرانية متقدّمة، كل منها عبارة عن معقل صغير من الخرسانة مركّب على ركائز. لم يكن على جنود مغاوير البحر أن ينتظروا طويلاً ليكتشفوا رأي إيران في وجودهم، فبعد ثلاثة أيام من وصولهم اقترب قارب صغير على متنه مسلحون من الحرس الثوري إلى مسافة ثلاثين ياردة منهم إلى الجانب العراقي من الممر المائي، وعندما شهر مغاوير البحرية أسلحتهم قفل القارب سريعاً عائداً إلى إيران رافعاً في خلال ذلك علماً إيرانياً كبيراً، وما إن حلّ الظلام حتى فتحت إحدى نقاط الحراسة الإيرانية النار، وتواصلت هذه المضايقات كل ليلة مع أنها لم تكن دقيقة تماماً إذ كانت الرصاصات الطائشة وقذائف الهاون تنفجر في محيط قوات العمليات الخاصة. وعندما حل جنود القوات الخاصة البولنديون محل مغاوير البحر استقبلهم الإيرانيون الاستقبال نفسه. كما أن دوريات إيرانية عبرت مرات عدة إلى العراق، وزرعت أعلاماً إيرانية بجانب الطريق المؤدي إلى الموقع البولندي. لم يكن أيٌّ من هذا يبشّر بالخير بالنسبة إلى المرحلة المقبلة المتمثلة في تحريك الزوارق إلى البصرة.

في 3 نيسان/أبريل 2003، أشرقت الشمس، كما سبق الوصف، ساطعةً في شمال الخليج العربي، واندفع على بعد عدة أميال من مصبّ شط العرب مركب ضخم ثنائي الهيكل مطلي باللون الرمادي وأخذت رافعته تُنزل ببطء الزوارق الأميركية الأربعة في المياه البنية. السفينة التي تُعرف باسم «جوينت فنتشور» (Joint Venture) بُنيت في أستراليا بوصفها عبّارة سريعة، وتحتوي على منصّات واسعة قادرة على إيواء عشرات المركبات، وفي وسطها صفوف من مقاعد المسرح مرتّبة حول «بار» حلّت فيه صناديق المياه المعبأة وعصير البرتقال محلّ الجعة، فقد حوّلت قوات العمليات الخاصة البحرية هذه العبّارة إلى سفينة تابعة للبحرية، ووضعت فيها مركز قيادة متطور يزخر برادار وأجهزة كمبيوتر وشاشة كبيرة تظهر مواقع الوحدة في الزمن الحقيقي.

قفز هارفارد إلى قارب الطليعة وقام، في محاولة لإثبات حسن نواياهم، بوضع علم إيطاليا بالعرض ليبدو شبيهاً بعلم إيران يتدلّى على ميمنة قاربه في الجهة المقابلة للشاطئ الإيراني، وتحرّكت القوارب الأربعة ببطء، وهارفارد يراقب من مقدمة السفينة، إلى أن وصلت إلى شط العرب لتنضم، كما تأمل، إلى القوات البريطانية في البصرة. استغرقت الرحلة وقتاً؛ وجنح قارب الطليعة لفترة وجيزة إذ تبيّن أن معظم الخرائط الأميركية الحديثة قد عفّ عليها الزمن في شكل مؤسف، وكانت القناة الرئيسية منقولة بعيداً صوب الشرق. اتصل مترجم اللغة الفارسية الذي كان برفقة هارفارد بجندي إيراني عبر جهاز اللاسلكي، ولمّا أكّد له المترجم أن الولايات المتحدة لن تدخل المياه الإيرانية أجاب الجندي الإيراني: «هذا أفضل لكم. هل تحتاجون إلى أي مساعدة؟».

بعد مرور ساعة، وفيما استدارت الزوارق الأميركية الأربعة إلى شط العرب تحديداً، اقترب من الأميركيين قارب صغير مطلي باللون الأزرق على متنه ثلاثة رجال من الحرس الثوري، وسرعان ما انضمّ إليه قاربان آخران أحدهما مجهّز براجمة صواريخ مثبّتة في وسطه. في حين أوضح مترجم قوات العمليات الخاصة نيتهم البقاء في المياه العراقية، أمر هارفارد أسطوله الصغير بالتوجّه إلى نقطة في الغرب بعيداً عن إيران.

تفاقم الوضع فجأةً، فقد وصل قارب «بوغامر» (Boghammer) السريع السويدي الصنع المجهز بمدفع رشاش مزدوج الفوهة مثبت في مقدمته لينضم إلى زوارق الحرس الثوري الثلاثة الأخرى. اعترض قارب البوغامر، مخلّفاً وراءه ذيلاً من الرذاذ الأبيض، قارب هارفارد وتوقف في مساره في حين أحاطت زوارق الحرس الثوري الأخرى الأميركيين من الأمام والجانب. بدأ الإيرانيون بإزالة أغطية رشاشاتهم وغطاء راجمة الصواريخ، ثم وجّهوا أسلحتهم مباشرةً إلى قارب الطليعة الأميركي.

انتزع هارفارد سماعة اللاسلكي وحاول التحدث إلى كبير الإيرانيين على متن البوغامر، وكان رجلاً ملتحياً ضخم الجثة يرتدي زياً عسكرياً إيرانياً، قاطع هارفارد تكراراً محذراً الأميركي بالعودة على أعقابه أو «مواجهة العواقب»، قبل أن يضيف مهدداً: «سوف نقصفكم ونقتلكم!» وفيما سدّد بعض أفراد قوات العمليات البحرية الخاصة أسلحتهم إلى الرجل، استدعى بعضهم الآخر من على متن «جوينت فنتشور» القريبة القوة الجوية الأميركية. أمر هارفارد بألاّ يطلق أحد النار دون أمرٍ منه، واتصل لاسلكياً بقائده، وهو جنرال بنجمة واحدة، طالباً التعليمات. لذهول هارفارد، طُلب منه أن يعود أدراجه. قرر القادة العسكريون الأميركيون المغادرة بدلاً من المخاطرة بالمواجهة. ولأن هارفارد لم يكن لديه خيار إلا الانصياع للأوامر فقد أمر زوارقه بالاستدارة والعودة صوب «جوينت فنتشور» على مهل كي لا يبدو الأمر على أنه تراجع. استشاط هارفارد غضباً في قرارة نفسه، فبالرغم من أن الأميركيين كانوا في المياه العراقية، فقد أجبرهم الإيرانيون على التراجع.

اقترح هارفارد، على مدى الأيام القليلة التالية، عدداً من الأفكار لاستعادة السيطرة الأميركية على الجانب العراقي من الممر المائي الرئيس. اقترح أن تأتي زوارقه (التي توجّب نقلها جواً إلى البصرة من أجل دعم البريطانيين) من الشمال بمساندة قناصة من قوات العمليات البحرية الخاصة المتمركزين من فوقها في مروحيات إضافةً إلى مروحيات هجومية تابعة للمارينز تحسّباً لأي محاولة من الحرس الثوري للمقاومة.

قال قائد القوة البحرية في شمال الخليج، الأدميرال باري كوستيلو، لهارفارد: «سنؤكد حقنا في المرور (...) لكن في الزمان والمكان اللذين نختارهما». لكن لم يتم الوفاء بهذا الوعد أبداً، وبدلاً من ذلك تنازلت الولايات المتحدة ببساطة لإيران عن السيطرة على الحدود العراقية الإيرانية، واكتفت باعتقال عدد قليل من الموالين لصدام يتسكعون في سفينة مهجورة.

أضاف هارفارد عندما عاد إلى «جوينت فنتشور»: «سنندم لتركهم يفلتون بفعلتهم تلك»[1106].

على الرغم من أن صدام حسين كان على مدى طويل عدواً لدوداً لإيران، فإن احتمال الغزو الأميركي أقلق المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي. وعندما زاد احتمال توجيه ضربة أميركية في شتاء عام 2002، اجتمع المجلس الأعلى الإيراني للأمن القومي تكراراً للتداول في خيارات إيران. عانى القادة الإيرانيون طويلاً من خداعهم لأنفسهم وارتيابهم في أن كل إجراء تتخذه الولايات المتحدة يهدف سراً إلى إطاحة الجمهورية الإسلامية، وكان هذا الخوف مخيماً على النقاش في طهران. لكن بدا أن القيادة الإيرانية كانت بالقدر نفسه من الانقسام الذي كان عليه المسؤولون في واشنطن وحاججت أغلبية المجلس، بما في ذلك الرئيس خاتمي والرئيس السابق للحرس الثوري وأحد المقربين من المرشد الأعلى محسن رضائي، بأن الحياد أو حتى دعم الأميركيين من شأنه أن يثبت نوايا إيران السلمية ويقلّل من فرص حدوث هجوم أميركي، كما أنه قد يخفف بعض الضغوط الأميركية عن البرنامج النووي المتبرعم. ربما أمكن إيران التعاون بطريقة مماثلة كالتي جرت في أفغانستان عبر السماح للطائرات الأميركية باستخدام مجالها الجوي وإنقاذ أي طيارين يتم إسقاطهم.

نقل الملحق العسكري الإيراني في البحرين هذه الرسالة خلال لقاء عَرَضي جمعه بقائد الأسطول الأميركي الخامس الأدميرال تيم كيتنغ. فقد أخبر الإيراني، في حماسة، ضابطاً على مقربة منه قام بدوره بإبلاغ ضابط البحرية الكبير أن إيران ستقوم بعمليات البحث عن أي طيار أميركي يهبط بالمظلة فوق أراضيها وإنقاذه.

جادل المتشددون - لا سيما اللواء يحيى صفوي، قائد الحرس الثوري، واللواء قاسم سليماني الذي كان قد عُيّن مؤخراً قائداً لفيلق القدس- أنه يجب نقل المعركة إلى الأميركيين. فالولايات المتحدة تريد التحرك ضد الجمهورية الإسلامية بعد العراق، وسيستدير الجيش الأميركي الضخم المنتشر في العراق ضد الإيرانيين لإطاحة الثورة. والإيرانيون بحاجة إلى تعبئة جيشهم لصدّ الغزو. وسيكون عليهم، علاوةً على ذلك، التحرك فوراً إلى العراق إن هاجمتها الولايات المتحدة، ويحتاجون إلى إعادة نشر الحرس الثوري للرد على الجيش الأميركي وكذلك إلى إعداد العمل لضمان أن تكون الحكومة العراقية الجديدة مستعدة لتأييد لطهران.

قارن المرشد الأعلى رهاناته بدعم استراتيجية المحادثات والقتال، حيث وافق على استمرار المحادثات مع الأميركيين، وأعلن أن إيران ستقف على الحياد وتقدم المساعدات للطيارين الذين يهبطون بمظلاتهم في إيران، لكنه أمر أيضاً وحدات من الجيش بالتوجه إلى الحدود معلناً أنها ستدافع عن سيادة إيران. وسوف يتحرك في أقرب وقت ممكن عملاء من وزارة الاستخبارات وفيلق القدس إلى العراق ليبدأوا بالتأثير في السكان الشيعة والعمل على ضمان وجود حكومة شيعية موالية

لإيران في بغداد. كما سيخلق فيلق القدس المتاعب للأميركيين حيث يكون ذلك ممكناً دون المجازفة بدخول الحرب للحؤول دون أن يصبح العراق قاعدة انطلاق ضد إيران. كان النهج الإيراني مشابهاً جداً للنهج الذي استُخدم في لبنان قبل عقدين من الزمن. إنه أسلوب تشكيل الحكومة الجامعة ذات القاعدة العريضة التي تعزّز الجيش بقدر ما تعزّز القوى السياسية والاقتصادية لتحقيق أهدافها. يرتكز هدف إيران النهائي على توحيد الأحزاب الشيعية المتباينة في قوة متماسكة لتعزيز السيطرة على الحكومة العراقية الجديدة - حكومة متعاطفة مع طهران[1107].

خلق إرث الحرب العراقية الإيرانية والعلاقات الدينية الشيعية شبكة وثيقة الصلة بين البلدين، جاهزة لتستغلها طهران. كما دعمت إيران عدداً من الجماعات العراقية في المنفى. ولطالما استخدمت إيران حزب الدعوة الإسلامية، الذي يدعو إلى إقامة دولة إسلامية في العراق على غرار الثورة الإيرانية، للقيام بهجمات ضد صدام حسين، وكذلك ضد السفارة الأميركية في الكويت في 1983. وكان بين صفوف حزب الدعوة سياسيون عراقيون سيلعبون دوراً بارزاً في مستقبل العراق، بمن فيهم رئيس وزراء العراق المستقبلي نوري المالكي.

تمثّلت القوة الأكبر لإيران في المجلس الإسلامي الأعلى في العراق وجناحه العسكري فيلق بدر الذي تعود نشأته إلى عقد السبعينيات، عندما شكّل الزعماء الدينيون البارزون الشيعة، بمن فيهم آية الله محمد باقر الحكيم وآية الله محمد باقر الصدر، مجموعة مقاتلة من المنفيين العراقيين المعارضين لحزب البعث العلماني وصدام حسين. حافظ فيلق بدر على مقره في طهران طوال سنوات الحرب العراقية الإيرانية الثماني، فازداد عدد أعضائه وتوسّع بتدريبه الإيراني إلى فصيل قوامه قرابة عشرة آلاف مقاتل، جميعهم من الشيعة العراقيين والكثيرين من الفارين من الجيش العراقي[1108]. وفي حين حافظ باقر الحكيم أكثر على دوره كزعيم ديني، قاد شقيقه عبد العزيز الحكيم هؤلاء المقاتلين في شنّ حرب أهلية مصغّرة جاعلاً إياهم مقاتلين من أجل إيران ضد مواطنيهم العراقيين في المعارك التقليدية أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وشنّوا أيضاً غارات حرب عصابات داخل العراق[1109]. كان لدى الكثيرين من ضباط فيلق بدر علاقات وثيقة بالمخابرات الإيرانية، لاسيما قائد الفيلق هادي العامري، وزير النقل المقبل في الحكومة العراقية التي تشكّلت بعد صدام. وبنت وزارة الاستخبارات الإيرانية في 1989 جناحاً للاستخبارات في فيلق بدر، وكانت المجموعة تتسلل خلال عقد التسعينيات إلى العراق وتهاجم الجيش العراقي.

على الرغم من أن إيران مارست نفوذاً كبيراً على هذه المنظمات إلا أنها لم تكن دمية بيدها؛ فالعداء العربي الفارسي عميق الغور، ودفع الموقف الفارسي المتغطرس بالكثيرين من هؤلاء المنفيين العراقيين إلى الشعور بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية في إيران. واستذكر ريان كروكر، وكان يومها سفيراً، مشاهدته خطاباً للرئيس الإيراني في 2007 احتاج فيه رئيس الوزراء نوري المالكي إلى مترجم. وقد أعرب كروكر عن دهشته قائلاً للمالكي إنه كان يعتقد أنه لا بدّ أن يكون قد تعلّم الفارسية خلال إقاماته الطويلة في إيران، فردّ رئيس الوزراء بازدراء: «لا. لا يمكنك أن تدرك مدى سوء الأمر إن لم تكن عربياً مُجبَراً على العيش مع الفرس!»[1110].

بدأ التدخل الإيراني المعاكس بعد فترة وجيزة من الهجوم الأميركي، فقد وصل ضباط وزارة الاستخبارات الإيرانية وفيلق القدس إلى جنوب العراق في أعقاب توجه الدبابات الأميركية شمالاً إلى بغداد. قاد فيلق بدر طليعة القوات الموالية لإيران، وتدفق خليط غير متجانس من نحو ستة آلاف من المقاتلين المسلحين من إيران إلى العراق. عمل فيلق بدر على تهريب أسلحة ثقيلة وفّرتها إيران، خُبِّئت تحت أغطية قماشية في شاحنات تجارية. وفي حين عبر بعض المقاتلين كعصابات مسلحة، اختلط بعضهم الآخر بآلاف الزوار الإيرانيين الذين يتوافدون لزيارة المواقع الشيعية المقدسة في كربلاء والنجف. وسرعان ما اشتبهت الاستخبارات الأميركية بأن أكثر من ألف جندي مسلح من فيلق بدر اتخذوا مواقع لهم داخل النجف بالذات. ومع تفكك الجيش العراقي، أصبح المعبر الحدودي بلا حراسة، فدخلت القوات الإيرانية ببساطة سيراً أو بالسيارات إلى العراق واختلطت مع الإيرانيين المتجهين إلى المدن المقدسة.

سرعان ما انتشر ضباط وزارة الاستخبارات والأمن القومي لجمهورية إيران الإسلامية في العراق كله بما في ذلك مدينة أربيل الكردية حيث أنشأوا «شركة ماجران السياحية» لخدمة الحجّاج الشيعة المسافرين إلى العراق، وكانت أيضاً بمثابة واجهة لتغطية عملياتهم التجسسية. عملت وزارة الاستخبارات الإيرانية بعد سقوط بغداد من خلال عدة مخابئ في بغداد، وكانت تتجسس على القوات الأميركية. لم يتم كشف هذه العمليات حتى صيف 2004، عندما داهمت القوات الأميركية أحد المنازل في بغداد واعتقلت أربعة أتباع إيرانيين يعملون لحساب وزارة الاستخبارات، وكانوا جميعهم قد استهدفوا الجيش الأميركي.

في الوقت الذي عملت فيه وزارة الاستخبارات كجهاز تجسس تقليدي، كان فيلق القدس يعمل كخليط من القوات الخاصة الأميركية و«كتائب السلام»، فقد انتقل بعد الهجوم الأميركي مباشرةً أكثر من خمسين عميلاً سرياً من فيلق القدس إلى جنوب العراق بينهم ثلاثة جنرالات إيرانيين، وأتوا بالمال والخبرة لفتح العيادات الطبية، وإعادة بناء خدمات المدينة، وإعادة الحياة إلى المزارات الدينية. كما أنشأ فيلق القدس مقراً جديداً في مهران، إيران، ومكتبين تابعين له في جنوب وشمال غرب إيران لتسهيل عملياته. وكانت تصل من هذه القواعد الأسلحة إضافةً إلى مواد البناء والأدوية لكسب قلوب الناس وعقولهم - ولتجهيز الميليشيات الحديثة المنشأ. كما أنه كان يراقب القوات الأميركية. زعم مراسل مجلة «التايم» مايكل وير أنه رأى تقارير لفيلق القدس تعود إلى 2003 تُسجّل تحركات القوات الأميركية في مدينة الكوت، وتزعم: «إننا نسيطر على المدينة»[1111].

وأثبت ذلك كلّه أنه مربح أيضاً. لقد أصبح الحرس الثوري على نحو متزايد مشروعاً تجارياً بقدر ما هو قوة عسكرية، فامتلك شركات تصدير، ومؤسسات مالية، وشركات بناء، وشرع عناصر إيرانيون في فيلق القدس بالقيام بأعمال جانبية داخل العراق محققين أرباحاً مالية في الوقت الذي يثيرون فيه الكراهية للمحتلين.

كما أن المؤتمر الوطني العراقي ساعد المساعي الإيرانية، فكان أعضاؤه ينقلون معلومات تكشف عن مواقع القوات الأميركية أثناء الغزو. كان ذلك يحدث، من الناحية النظرية، لتجنّب أي سوء فهم قد يؤدي إلى مواجهة بين البلدين، لكنه أعطى إيران القدرة على تحريك عملائها إلى

العراق من حول القوات الأميركية التي كانت تراقب حركة المخربين الإيرانيين. اشتبهت الاستخبارات الأميركية أنّ حتى أحمد الجلبي قد أخبر الإيرانيين أن الأميركيين يتنصّتون على اتصالاتهم الحساسة، وفي ذلك توريط لا يصدّق لبعض المصادر الأكثر حساسيةً للاستخبارات الأميركية[1112].

رأت إدارة بوش أن من الملائم تجاهل ذلك، وواصل أحمد الجلبي الفصيح، الذي أبقى على منزله في طهران وعلى علاقاته الوثيقة بكبار المسؤولين الإيرانيين، التبشير بما أرادت وزارة الدفاع والبيت الأبيض سماعه: مزايا عراق ديمقراطي؛ بغداد بوصفها حليفاً في الحرب على الإرهاب، وحصناً ضد التطرف والمتطرفين ولاسيما التطرف الإيراني؛ بل وعراق على استعداد للاعتراف بإسرائيل. وخُصِّص لهذا المنفي العراقي ضابطٌ أميركي يحمل هاتفاً آمناً يستخدمه للاتصال بواشنطن. كان الرقمان المسجلان على زر الاتصال السريع هما لمكتب دونالد رامسفيلد وديك تشيني[1113]. عندما طار الجلبي إلى جنوب العراق على متن طائرة نقل أميركية، في أعقاب الغزو الأميركي، ضمت حاشيته الكبيرة الكثير من الرعاع الذين أتوا من إيران، ولاسيما جنود فيلق بدر.

خُصِّص للجلبي، في خطاب بوش عن حالة الأمة في أعقاب الغزو، مقعد شرف فجلس إلى جانب السيدة الأولى في الصالة. وفي خلال اجتماع عقد في اليوم التالي في البيت الأبيض، وكان بوش لا يزال منتشياً من حفل استقبال الكونغرس المُسْكِر في الليلة السابقة، سأل الرئيس: «من دعا الجلبي للجلوس إلى جانب لورا؟» لم يجب أي شخص من الجالسين حول الطاولة، وصرف الرئيس النظر عن الموضوع. هزّ ريتشارد أرميتاج رأسه، وكان ينوب عن كولن باول الموجود خارج البلاد، وقال: «الشخص الوحيد في الإدارة الذي كان يمتلك هذا النفوذ في الإدارة كان نائب الرئيس، وكان جالساً في المكان ولم يفه بأي كلمة».

في الواقع، وبدلاً من أن تقلق الولايات المتحدة بشأن النفوذ الإيراني، احتضنت وكلاء إيران في العراق، وأصدرت القيادة المركزية الأميركية، في 30 آذار/مارس 2003، أمراً لقواتها بنزع سلاح أي جندي من جنود فيلق بدر يظهر وهو يحمل سلاحاً في الشارع؛ لكن الأمر لم يُطبَّق. خلال فترة الاحتلال الفوضوي لمدينة بغداد سمح مشاة البحرية الأميركية العاملون في الضاحية الشيعية المترامية الأطراف لمدينة الصدر (كان اسمها يومها مدينة صدام) للميليشيات الشيعية بالحفاظ على أسلحتها، فأخذت تطوف في أنحاء المدينة وتعتقل المسؤولين السنّة والبعثيين بدعوى أن في وسعها التفريق بين الأشخاص السيئين والجيدين. وقد قامت هذه الميليشيات بذلك بالفعل، فاجتثتهم وقتلت الكثيرين منهم. وفي إحدى الحالات، ومشاة البحرية على مقربة من المكان، وُضع مسؤول سنّي داخل إطار ورُمي به حيّاً إلى داخل مبنى يحترق. ولما علم مشاة البحرية بالأمر لم يولوه اهتماماً أكبر من اهتمامهم بوقف أعمال النهب المنتشرة في كل أنحاء المدينة، التي كان دخانها يلقي بظلال من الكآبة على العاصمة العراقية[1114].

دقّت السعودية والكويت ناقوس الخطر بشأن تدفق الإيرانيين، ولم يُظهر أيٌّ من البلدين الكثير من الحماسة للغزو الأميركي. وقد خشيتا أن يعزّز الغزو الأميركي نفوذ الشيعة، واعتقدتا أنه سيزيل حاجزاً من أمام إيران عن طريق استبدال الحكومة السنية بحكومة شيعية. في 13 نيسان/ أبريل أعرب أمير الكويت الشيخ صباح الصباح عن قلقه إزاء تزايد الاضطراب في المجتمع الشيعي العراقي، وحثّ الولايات المتحدة على توفير الأمن للمزارات المقدسة في النجف. لأنه في حال فشلت الولايات المتحدة في القيام بذلك، فإن إيران ستدخل وتقوم بالدور المرموق بوصفها الضامن لسلامة المزارات الشيعية الرئيسة[1115]. وبطلب ملح من وزارة الخارجية الأميركية نُقل المزيد من القوات الأميركية لحماية النجف وكربلاء. لكن الإيرانيين كانوا يعرفون اللغة والثقافة أفضل بكثير من الجنود الأميركيين ذوي النوايا الحسنة. وفيما وفّرت القوات الأميركية الحماية للحجاج الشيعة، كان العملاء الإيرانيون يتحركون بين الناس ويرعون المجموعات الشيعية الناشئة.

لم يكن الجيش الأميركي غافلاً عن ظهور إيران المفاجئ في العراق. «علينا أن نوقف مساعي الإيرانيين الهادفة إلى التأثير في العراق»، كتب رامسفيلد إلى دوغ فيث في 1 أيار/مايو 2003 في إحدى مذكراته التي عُرفت باسم «ندف الثلج». قال: «فلنخرج بخطة من أربعة أو خمسة أشياء نقوم بها بحيث نحقق بعض النجاح. من الضروري أن يعلموا أننا جادون». تشاور فيث مع نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة بيتر بي وردّ بعدها بالجملة التي باتت مألوفة عن إيران. على إيران أن تقطع أي دعم للجماعات الإرهابية - وفق التحديد الذي وضعته الولايات المتحدة: أن تحلّ فيلق القدس، وأن توقف برامجها النووية والصاروخية، وتدعم عملية السلام في الشرق الأوسط التي تحافظ على إسرائيل بوصفها دولة يهودية. اقترح فيث أيضاً أن تتبنّى الولايات المتحدة نهجاً متعدد الأوجه مماثل للنهج الذي يعتمده الإيرانيون، وأوصى بقائمة إجراءات مختلفة: إيقاف عملاء المخابرات الإيرانية واعتقال من 50 إلى 75 ضابطاً من فيلق القدس داخل العراق، وتوفير الأمن لرجال الدين الشيعة الكبار، وتطوير حملة دعائية من شأنها تسليط الضوء على قادة الشيعة المعتدلين والنفوذ الإيراني الخبيث في العراق. اقترح فيث أيضاً أن تطرد الولايات المتحدة قوات فيلق بدر، الأمر الذي يحتاج إلى عضلات عسكرية كبيرة لأن عدد أفراده يقارب خمسة آلاف مقاتل، ولم يقدّم فيث أي فكرة عن المكان الذي سيطرد إليه الفيلق.

كلّف رامسفيلد كلاًّ من رئيس هيئة الأركان المشتركة ريتشارد مايرز وقائد القيادة المركزية الأميركية تومي فرانكس بمواجهة النفوذ الإيراني المتزايد، وكان يحبّذ فكرة استهداف فيلق القدس من خلال الاعتقالات أو المضايقات، ولكنه أمر فرانكس بإعداد خطة لإلقاء القبض على الجنرالات الأربعة المعروفين في فيلق القدس في العراق. وافق فرانكس وكلّف عناصر قواته الخاصة من قوة المهمة 20 - التي كانت تبحث في ذلك الوقت عن رجال ذوي قيمة عالية مثل صدام وولديه - بالتحرك بسرعة لخطف الضباط الأربعة العاملين في البصرة وبغداد. أصدرت القيادة المركزية الأميركية توجيهاً جديداً لقادتها لاحتجاز، بالقوة، أي جندي من فيلق بدر يُعثر عليه وهو يحمل سلاحاً أو «منخرطاً في سلوك يتنافى مع حسن سير النظام ويسبّب ضرراً للمجتمع الذي يحترم القانون»[1116].

كتب مايرز إلى رامسفيلد قائلاً: «لا أشك في أن قوات القيادة المركزية الأميركية ستمارس سلطتها الكاملة في تعاملها مع أعضاء فيلق بدر».

عبّر الحاكم الإداري الأميركي إل. بول بريمر أيضاً لرامسفيلد عن مخاوفه من إيران وفيلق بدر في أول أسبوعين له في بغداد. «إيران تنفق أموالاً هائلة في العراق، وحان الوقت للتحرك ضد ما يعتبر استراتيجية إيرانية مركزية طويلة الأمد». أوصى بريمر بالقضاء على مخابرات إيران وإغلاق سفارتها، وعقد اجتماعاً مع عبد العزيز الحكيم، شقيق قائد المجلس الإسلامي الأعلى في العراق، وأبلغه بقلق حكومة الولايات المتحدة في شأن أنشطة فيلق بدر وبأن الإيرانيين لا يبغون أي منفعة للعراق. احتجّ الحكيم على كلا الأمرين لكنه استمع.

أرجأ بريمر انتخابات مجلس الشورى المقررة في النجف في جزء من ذلك لمنع المجلس الإسلامي الأعلى العراقي من الفوز في الانتخابات المحلية عبر لجوئه إلى السلاح والترهيب، وعبّر عن مخاوفه في هذا الشأن في رسالة الكترونية جاء فيها: «تقوم عناصر من حكومة طهران بتسليح وتدريب وتوجيه ميليشيات في العراق. لم تشارك هذه القوات المسلحة حتى الآن بصورة مباشرة في هجمات ضد قوات التحالف، ولكنها تشكّل، على المدى الطويل، تهديداً للقانون والنظام»[1117].

طلب بريمر من قائد القوات البريطانية أن يكثّف قواته على طول الحدود ودقّ ناقوس الخطر مع رامسفيلد بأن القوات البولندية والأوكرانية الواصلة للحلول محل مشاة البحرية الأميركية في جنوب العراق ليست على مستوى مهمة احتواء الإيرانيين[1118].

لم تلقَ تصريحات بريمر حول تأخير إعادة نشر قوات المارينز قبولاً جيداً في البنتاغون. وفي مذكرة من آبي شولسكي إلى كيفن بيرغنر، العقيد المحترف والكتوم في الجيش الذي أدار المكتب العراقي للتخطيط التابع لرئيس الأركان، علّق شولسكي على اجتماع بريمر بالقادة السياسيين العراقيين ومحاولته مواجهة العناصر الموالية لإيران في النجف وكربلاء قائلاً: «لغة قوية جداً... لا يبدو بالتأكيد أنه موافق على تولّي الفرقة المتعددة الجنسيات المؤلفة من بولنديين ذلك القطاع».

أصبحت العلاقات بين رامسفيلد وبريمر كريهة بالفعل، إذ أغضب أسلوب بريمر المستقل وزير الدفاع. فملاحقة فيلق بدر والميليشيات الشيعية موضوع حساس في وزارة الدفاع الأميركية، وسادت وجهات نظر الجلبي والمؤتمر الوطني العراقي، ففي وسع الجيش الأميركي ملاحقة الموالين لصدام ولكن ليس الشيعة. وفي محادثة هاتفية جرت يوم 20 أيار/مايو حذّر رامسفيلد جنراله ذا الأربع نجوم من أن أي تعامل مع إيران يجب أن يتم بتوجيه من مجلس الأمن القومي والبيت الأبيض، وقال: «يريد مجلس الأمن القومي أن يكون مركز الثقل لكل الاتصالات الإيرانية»، ويشمل ذلك أي تعامل مع مجاهدي خلق، وأمر فرانكس بعدم اتخاذ أي إجراء ضد الإيرانيين داخل العراق دون موافقته شخصياً.

دقّ هارفارد أيضاً ناقوس الخطر بعدما أوشك على تبادل النار مع إيران في أوائل نيسان/أبريل. ركز قائد عمليات القوات البحرية الخاصة عمل قسم استخباراته على المشكلة الإيرانية، وسرعان ما كشف الحملة الإيرانية لتسريب القوات إلى العراق. فقد صُمِّمت الأعمال العدوانية التي

كانت قوارب الحرس الثوري الصغيرة تقوم بها لأجل منع الأميركيين من التدخل بإحدى طرقهم الرئيسة في جنوب العراق. كان الملازم البحري الاحتياطي توماس ماهنكن أحد ضباط استخبارات هارفارد. كان ماهنكن، ذو الشعر الداكن، حائزاً على شهادة الدكتوراه من «كلية جونز هوبكنز للدراسات الدولية المتقدمة»؛ ودرّس، لدى خروجه من السلك، العلوم الاستراتيجية في «كلية الحرب البحرية» في مدينة نيوبورت الخلابة في ولاية رود آيلند. بدأ ماهنكن يحلّل طرق التسلل الإيرانية وفيلق بدر التي وصفتها قوات العمليات البحرية الخاصة بـ «خطوط الفئران». وكشف، بعد وقت قصير، عن العديد من الطرق الرئيسة التي تتبع مسالك عمليات التهريب التقليدية المؤدية إلى البصرة وبغداد. كانت العمارة إحدى المدن الرئيسة لحركة الإيرانيين إلى العراق، وتحتل موقعاً استراتيجياً على نهر دجلة ولا تبعد إلا ثلاثين ميلاً عن الحدود الإيرانية. وبما أن معظم سكانها، البالغ عددهم نحو ثلاثمئة ألف نسمة، من الشيعة، فقد وصل إليها بقوة جنود فيلق بدر مع بعض الجنود من فيلق القدس الإيراني، واحتلوا مرافق حزب البعث القديمة، وسيطروا على المدينة بصورة فعلية. اقترح هارفارد، استناداً إلى المعلومات التي استقاها ماهنكن، نشر قوات العمليات البحرية الخاصة لاعتراض «خطوط الفئران» الإيرانية. كان هارفارد يأمل في تجنّب المواجهة المسلحة، إلا أنه يمكن قوات العمليات الخاصة أن تعتقل على الأقل أتباع إيرانيين وتصادر الكثير من الأسلحة التي تتدفق مع جنود فيلق بدر.

واجه هارفارد مقاومة أيضاً من المملكة المتحدة. كان على جنود الملكة أن يوافقوا على أي عمليات تقوم بها قوات هارفارد الخاصة، كون جنوب العراق، بما في ذلك مدينة العمارة، في المنطقة الواقعة تحت المسؤولية البريطانية. توجّه ماهنكن بالسيارة إلى مقر الفرقة البريطانية بالقرب من البصرة لمناقشة الخيارات المتاحة لمواجهة الإيرانيين. و بدلاً من أن يدعم البريطانيون الأميركيين، قال ضابط استخبارات بريطاني كبير لماهنكن إنهم يبالغون في ردّ فعلهم، فقد كان إطلاق النار من قبل الجنود الإيرانيين موجّهاً ضد المهربين، وأن إيران تقوم بعمل جيد في السيطرة على حدودها. وعلاوةً على ذلك، لم يجد البريطانيون أي دليل يثبت أن قوات فيلق بدر تعبر الحدود. حاول ماهنكن أن يجادل في هذه النقطة، ولكن البريطاني رفض ببساطة أن يقبل معلوماته الاستخباراتية، قائلاً: «أعتقد أنك تبالغ؛ الإيرانيون ليسوا مشكلة»[1119].

في النهاية، وبالرغم من «ندف الثلج» والمذكّرات، فإن تصميم رامسفيلد على مواجهة النفوذ الإيراني سار بعكس رغبة وزير الدفاع في سحب القوات سريعاً. وفي رسالة إلكترونية أمر تومي فرانكس مرؤوسه قائد الجيش الفريق ديفيد ماكيرنان قائلاً: «خاطر بالخروج بقدر ما خاطرت بالدخول». لم يكن رامسفيلد يريد توريط الجيش في احتلال واسع، وأصبح مصطلح «أعد التلقيم» (Recock) الكلمة السحرية في القيادة المركزية الأميركية. ستخرج الولايات المتحدة من العراق وتستعدّ للمعركة القادمة في الحرب العالمية ضد الإرهاب، وسط شائعات ترجح أن تكون سوريا هي التالية. وكان الجيش الأميركي موافقاً على ذلك، فقد شكّلت حرب عاصفة الصحراء القصيرة نموذجاً للجنرالات ولم يرد كل الذين كانوا في الخدمة الفعلية احتلالاً طويلاً. كان فرانكس سعيداً بترك تفاصيل ما بعد الحرب على العراق لمدنيي البنتاغون. ومع تزايد النفوذ الإيراني والفوضى التي سادت الوضع الأمني، بدلاً من مواجهة الأزمة الوشيكة ومحاورة الإنكليز في شأن جدارة

المعلومات الاستخباراتية، وضبّبت قوات العمليات الخاصة الأميركية أمتعتها وغادرت العراق. وهكذا ذهبت أفكار هارفارد لمواجهة الإيرانيين أدراج الرياح، وبحلول منتصف أيار/مايو رجعت قوات العمليات البحرية الخاصة وقيادة هارفارد إلى ولاية كاليفورنيا. لقد خاطر فرانكس وترك العراق مفتوحاً أمام الحرس الثوري.

أعطى النجاح المبكر في العراق زخماً جديداً لإدارة بوش لوضع استراتيجية في شأن إيران. اجتمع كبار المسؤولين مرةً أخرى حول الطاولة في غرفة العمليات المحصورة في البيت الأبيض لمناقشة كيف ينبغي أن تكون سياسة الولايات المتحدة تجاه إيران. في 25 نيسان/أبريل 2003 ترأسّت كوندوليزا رايس مؤتمراً عن بعد بالصوت والصورة مع كبار المسؤولين. اتفق المشاركون جميعاً من مختلف أنحاء العالم على أن عليهم محاولة تشويه سمعة نظام رجال الدين في إيران، ووقف برنامجه النووي، ودعوته إلى أن يكون جاراً جيداً للعراق. بيد أن المجموعة لم تتفق مرةً أخرى على كيفية تحقيق هذه الغايات مثلما حدث في تشرين الأول/أكتوبر الماضي عندما صرفت رايس النظر عن فكرة مشروع قرار رئاسي في شأن السياسة الإيرانية. وكذلك لم تحاول مستشارة الأمن القومي، على مدى الأشهر الست التي تلت، دفع القضية مع بوش. والآن، ومع تحرّك إيران لملء الفراغ في عراق ما بعد صدام، أصيبت الحكومة الأميركية بالقلق وعقدت المزيد من الاجتماعات.

طرحت رايس ورقةً أخرى تلخّص الأهداف العريضة، وأشارت الورقة إلى «التحوّل الديمقراطي بدلاً من تغيير النظام» كهدف أميركي. بمعنى أن الولايات المتحدة ستواصل الضغط بلا هوادة على طهران لوقف برنامجها النووي والأنشطة الشائنة في العراق، مع الإبقاء على احتمال القيام بعمل عسكري لكبح جماح إيران. واعتبر البيت الأبيض أن الوجود الأميركي في أفغانستان والعراق سيُبقي إيران في موقف الدفاع.

وُزِّعت الورقة على كبار المسؤولين، وكان الجميع سعداء بها إلى أبعد الحدود لافتقارها إلى النوعية. قالت رايس في 25 حزيران/يونيو 2003 أثناء اجتماع مع كبار المسؤولين إن الورقة تجنّبت الحاجة إلى وثيقة أكثر رسمية، وإنها تنوي رفعها كمذكّرة إلى الرئيس. «علينا أن نوضح تماماً أننا سوف نفعل أي شيء لمنع إيران من تطوير أسلحة نووية، ودعم الإرهاب، وعرقلة استراتيجيتنا في العراق».

ردّ باول أن «المظاهرات الطلابية تدل على الرغبة في حياة أفضل، ولكن لا ينبغي لنا الدفع باتجاه تغيير النظام - فنحن لا نعرف ما قد نحصل عليه».

وأضاف رامسفيلد: «أوافق على أن الورقة تعرض في شكل عام للسياسة الصحيحة، ولكن يجب علينا تشجيع المتظاهرين، ربما من خلال العمليات المعلوماتية. علينا أن نقول للشعب الإيراني إن النظام يؤوي أفراداً من تنظيم القاعدة لإحراجه».

وأضافت رايس أنّ على الولايات المتحدة أن تشجّع الحوار بين الشعبين، وهي فكرة أحبها باول، وعارضها رامسفيلد الذي أوحى أن من شأنها أن تفتح الباب أمام الجواسيس داخل الولايات

المتحدة واعتبر أن الحديث مع الأكاديميين الإيرانيين هدرٌ للجهد، وأضاف: «سوف نتحدث إلى الذين لا سلطة لهم».

وعند نهاية الاجتماع، أبدى نائب الرئيس ديك تشيني رأيه قائلاً: «لست واثقاً من أن الورقة تعكس المخاطر والفرص في العراق. إننا لا نستخدم وضعنا القوي بما فيه الكفاية، فهو ليس على درجة كافية من الهجومية». واعترض تشيني على سحب خيار تغيير النظام عن طاولة البحث، وجادل، علاوةً على ذلك، بأن الغزو الأميركي والتخلص السريع من صدام حسين يشكّلان فرصة، فإيران خائفة من أنها قد تكون التالية، والقوات الأميركية متمركزة على جانبين من جوانب إيران، وعلى واشنطن الاستفادة من ذلك للضغط على إيران كي تذعن لرغبات أميركا. ولم يرَ تشيني أي جدوى من التحدث إلى الإيرانيين، كما أن نافذة الفرصة الإكراهية هذه لن تبقى مفتوحة إلى الأبد.

وردّ بأول: «لا ندري ما قد يحدث إن نحن تمكنّا من تغيير النظام. نحتاج إلى توخي الحذر في المضي قدماً».

وردّ تشيني على باول: «لا نستطيع الاكفاء بعدم القيام بشيء. علينا تحديد الأهداف ولاسيما إذا ضربونا. ونحتاج أيضاً إلى خيارات للاستفادة من هذه النافذة».

وصلت الإدارة مرةً أخرى إلى طريق مسدود. رفضت رايس الخوض في الحديث وانتقلت بالموضوع إلى ضرورة بذل الجهود الدبلوماسية لعزل إيران، فيما أكّد رامسفيلد بصوت مرتفع على الحاجة إلى معلومات استخباراتية أكيدة. ولم يحدث شيء في غياب أي اتفاق والافتقار إلى أمر رئاسي لا لبس فيه. وجنحت السياسة الأميركية تجاه إيران في نهر لا نهاية له من أوراق البحث والمناقشات.

مع ذلك، لقد روّعت المرشد الأعلى حقيقة أن الجيش الأميركي حقق في ثلاثة أسابيع ما فشلت إيران في تحقيقه خلال ثماني سنوات من الحرب. كان المتشددون في الإدارة أمثال تشيني ولوتي على حق: لقد نجحت القوة العسكرية الأميركية في ترهيب إيران. فقد أوقفت إيران برنامجها للأسلحة النووية خوفاً من إثارة هجوم أميركي، مع أنها واصلت تخصيب اليورانيوم على مستوى منخفض[1120]. وازن المرشد الأعلى رهاناته السياسية وقرّر أن يفتح مرةً أخرى باب الحوار مع الولايات المتحدة. كان القادة الإيرانيون يدركون الانقسامات داخل الحكومة الأميركية وكانوا يبحثون عن قناة جديدة تتجاوز تلك الموجودة في جنيف. لقد أوضح خليل زاد أن الولايات المتحدة غير راغبة في توسيع المحادثات بما هو أبعد من أضيق بؤرة متمثّلة في قراءة من جانب واحد للمطالب الأميركية. فكان أن تحول الإيرانيون إلى الوسيلة الوحيدة المعترف بها للاتصال بالولايات المتحدة، وإلى القناة التي عمرها واحدٌ وعشرون عاماً عبر السفارة السويسرية، فربّما أمكن ذلك إيصال رسالتهم إلى مسؤولين كبار على استعداد للكلام.

في 4 أيار/مايو 2003، وصل فاكس غامض من صفحتين إلى وزارة الخارجية الأميركية. كان مصدر الوثيقة، التي سلّمتها وزارة الخارجية السويسرية، سفيرها في طهران تيم غولديمان. في

الصفحة الثانية، وتحت عنوان «خارطة طريق»، قدّم الإيرانيون أجندة مذهلة، طريقةً للمضي قدماً لمعالجة كل القضايا الخلافية بين الجمهورية الإسلامية والولايات المتحدة. قسّمت إيران الأهداف الأميركية والإيرانية إلى سلسلة من النقاط، فوافقت على الشفافية الكاملة في ما يخصّ برنامجها النووي، وعلى وقف دعمها لحماس واتخاذ الإجراءات التي من شأنها أن تؤدي إلى نزع سلاح حزب الله. وأراد الإيرانيون في المقابل أن تتوقف الولايات المتحدة عن محاولة تغيير نظامهم السياسي، وتسليم أعضاء من مجاهدي خلق، والاعتراف بـ«المصالح الأمنية المشروعة لإيران في المنطقة». أرادوا أيضاً بياناً علنياً يفيد بأن إيران ليست جزءاً من محور الشر. وسيدخل البلدان في سلسلة من تدابير بناء الثقة لتحقيق هذه الأهداف، بدءاً بإصدار بيانات مشتركة بشأن الحاجة إلى اللقاء «باحترام متبادل»، مروراً بالاجتماعات المباشرة ووصولاً إلى إنشاء مجموعات عمل لمناقشة تفاصيل تسوية دائمة تنهي ثلاثين عاماً من القطيعة[1121].

كان غولديمان دبلوماسياً محترماً. عندما انتهت سنوات مهمته الخمس في طهران، انتقل إلى مركز مرموق كسفير لبلاده في ألمانيا. وشابت سنواته الأخيرة بلوى عائلية، إذ أُصيبت زوجته بالسرطان ما تطلّب انتقالها إلى هامبورغ فاضطر إلى القيام برحلات مكوكية لزيارتها وهي تخضع لعلاج طويل نجح في النهاية[1122].

بيد أن وزارة الخارجية الأميركية في ظل كولن باول لم تكن سعيدة كثيراً مع غولديمان. فالمسوؤلون توقعوا من غولديمان، بوصفه صلة الوصل بين الولايات المتحدة وإيران، أن يؤدّي وحسب دور رسول دون تعليق. واعتبره ريتشارد أرميتاج مشجّعاً أكثر من اللازم للتقارب بين البلدين وأنه تجاوز مهمته التي انتُدب لها والمتمثلة في نقل الرسائل بين البلدين، ليعمل على إيجاد حل للمأزق الدبلوماسي. والواقع أن الذين عارضوا من داخل الإدارة أي محادثات مع إيران، أمثال إليوت أبرامز في مجلس الأمن القومي وجون بولتون في وزارة الخارجية، استخدموا عبارات أشد قسوةً في الحديث عن غولديمان إلى درجة أنهم نصحوا سويسرا بإقالته من منصبه[1123].

في 21 نيسان/أبريل، اجتمع نائب وزير الخارجية السابق وسفير إيران لدى فرنسا صادق خرازي بغولديمان، وناقشا مشروع خارطة الطريق التي وضعها الإيرانيون لتحسين العلاقات. كان لخرازي نفوذ داخل الحكومة الإيرانية، فأخته متزوجة من نجل المرشد الأعلى. وعلى مدى أسبوعين متتالين اجتمع خرازي عدة مرات بآية الله خامنئي لمناقشة النقاط الواردة في خارطة الطريق المقترحة. ظلت المناقشة سراً من أسرار الدولة، ولم يحضر تلك الاجتماعات أحد سوى المرشد الأعلى والرئيس خاتمي وخرازي.

صادف أن ظريف كان في إيران للتشاور ورؤية عائلته فراجع مشروع خارطة الطريق وأجرى عدداً من التغييرات على الوثيقة التي استُخدم برنامج مايكروسوفت في كتابتها وظهرت ملاحظاته عليها مضيفاً عبارة «احترام متبادل» والحاجة إلى حكومة عراقية منتخبة بشكل ديمقراطي تمثّل جميع العراقيين تمثيلاً كاملاً. بدت أفكار ظريف مماثلة في شكل ملحوظ لتلك النقاط

التي ناقشها في الخريف الماضي مع رئيس المجلس الإيراني الأميركي هوشنك أمير أحمدي في خلال الجهود التي بُذلت في كانون الأول/ديسمبر 2002 لتحقيق اختراق[1124].

وافق المرشد الأعلى على الانفتاح على الرغم من تحفظاته. ولعب السويسريون دور الوسيلة الرسمية للتواصل بين واشنطن وطهران. وكان من المقرر عقد جولة جديدة من المحادثات في جنيف، إلا أن إدارة الرئيس جورج بوش رفضت توسيع نطاق المحادثات إلى ما هو أبعد من أفغانستان، على ألاّ تشمل إلا ما يهم الأميركيين فقط. عاود خرازي التأكيد للقائد الأعلى أن غولديمان يمكن أن يصل إلى أعلى المستويات في وزارة الخارجية الأميركية. وأعرب آية الله خامنئي عن بعض المخاوف، ولكنه وافق بنسبة من 80 إلى 95 بالمئة على النقاط التي وضعت وفق الأهداف الأميركية والإيرانية من المحادثات، وتقصّد الغموض في شأن النقاط التي لم يوافق عليها قائلاً: «كل شيء قابل للتفاوض»[1125].

في 2 أيار/مايو اجتمع خرازي بغولديمان. وبعدما أجرى غولديمان بعض التغييرات الطفيفة على الوثيقة قال خرازي: «إذا وافق الأميركيون على عقد اجتماع ثنائي بعيداً عن الأضواء على أساس خارطة الطريق هذه، فبالإمكان ترتيب الاجتماع في وقت قريب جداً. ويمكن في هذا الاجتماع مناقشة تحفظاتنا المتبقية، وبوسع الولايات المتحدة أن تضع تحفظاتها على هذه الورقة، وأنا واثق من إمكانية معالجة هذه الخلافات». كان خرازي يعتقد أنهم إذا اتفقوا على إطار المحادثات فستكون الخطوة التالية لقاءً مباشراً بين وزير الخارجية كولن باول ووزير الخارجية الإيراني في باريس أو جنيف بمباركة من المرشد الأعلى. وأردف خرازي في تصريح تاريخي: «إننا مستعدون لتطبيع العلاقات».

استحسن الدبلوماسي السويسري غولديمان بوضوح هذا الانفتاح الجديد قائلاً لخرازي: «إنها فرصة ذهبية؛ لا بدّ أن نجد حلاً ذات يوم». وعندما سُئل إن كان يعتقد أن أرميتاج سيمثّل الولايات المتحدة في الاجتماع الأول، ردّ غولديمان أن الممثل سيكون رفيع المستوى جدّاً، وأوصى أن يحاكي الاجتماع الاجتماعات المستمرة مع خليل زاد وظريف حول الإرهاب بالمستوى نفسه، وربما بوجود خرازي أو حتى ظريف.

أرسل غولديمان إلى الخارجية الأميركية، معتمداً القنوات الرسمية، وثيقة خارطة الطريق مع رسالة توضيحية يصف فيها محادثاته مع خرازي، وأتبع ذلك بزيارة سريعة إلى واشنطن حيث التقى عضو الكونغرس القوي في الحزب الجمهوري، بوب ناي، الذي يجيد الفارسية ويشتهر بتأييده المحادثات مع إيران. قدم غولديمان إلى ناي نسخةً من وثيقة خارطة الطريق مؤكداً صحتها. رفع ناي، بعد لقائه السفير السويسري، سماعة الهاتف واتصل بصديق قديم في البيت الأبيض عرفه أثناء دراسته في الكلية، وصادف أنه كارل روف مستشار الرئيس السياسي الحميم. أكّد روف لناي أن العرض الإيراني سيقدَّم إلى الرئيس.

انتشر فاكس غولديمان بالإضافة إلى خارطة الطريق الإيرانية في وزارة الخارجية. وجاء مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى نيكولاس بيرنز بالوثيقة إلى أرميتاج الذي حملها

بدوره إلى باول. وعندما قرأها لاري ويلكرسون، رئيس موظفي باول، تعرّف على الفور إلى الكثير من العناصر التي صاغها ريتشارد هاس حول الموضوع عندما كانت الإدارة حديثة العهد، وادّعى لاحقاً أن مذكرة هاس نُقلت إلى الإيرانيين خلال اجتماع كروكر في جنيف، وقال: «كانوا يردّون على ما قدّمناه لهم»[1126]. وأوصت هيلاري مان، التي عملت مع ريان كروكر خلال محادثاته الأخيرة مع ظريف والحرس الثوري، باختبار صدق إيران، فأعدّت مذكرة وأرسلتها إلى ريتشارد هاس الذي وافق عليها وأحالها إلى مكتب باول وأرميتاج.عندما سمع المشاكس جون بولتون بها استشاط غضباً قائلاً: «هذا وهم»، وظلّ مقتنعاً بأن المحادثات مع إيران عقيمة. «الإيرانيون يستخدمون تقنيات المماطلة الدبلوماسية، وهذا ليس سوى حيلة لشراء المزيد من الوقت لأنشطتهم الشائنة وبرنامجهم للأسلحة النووية»[1127]، وتحدّث إلى باول وأخبره بأن فكرة إجراء محادثات مع الإيرانيين فكرة سيئة، ثم اتّصل هاتفياً بالسفارة السويسرية ووبّخها على تجاوزات سفيرها الذي تجاوز تعليماته في إدارة القناة الرسمية.

بيد أن أرميتاج ظل متشكّكاً في شأن مصدر هذا الفاكس قائلاً: «إننا نعرف غولديمان كشخص جيد جداً، لكنه من الأشخاص الذين ينظرون دوماً إلى الجانب المشرق للأمور. يبدو أنه يسعى لتحسين العلاقات وكانت لدينا أسئلة حول أين انتهت الرسالة الإيرانية وأين بدأت الرسالة السويسرية»[1128]. كما بدا استعداد إيران للتخلي عن حزب الله أمراً غير واقعي إلى حدٍّ كبير. وأخبر أرميتاج باول أن هذه المذكرة تبدو مختلفة عما كنا نسمعه في الاجتماعات التي عقدت في جنيف وفي النقاشات التي أجرتها مخابراتنا، وخلص إلى أنه «لا بد وأن غولديمان يبالغ»[1129].

مرّر باول الفاكس إلى البيت الأبيض للنظر فيه، فرفضته كوندوليزا رايس بعد نفور أرميتاج وباول منه. وسبق لإليوت أبرامز ونائب الرئيس أن عارضا بشدة أية مفاوضات وسارعا إلى استغلال تلاعب غولديمان. ورفض آبي شولسكي، الموظف لدى دوغ فيث، الفاكس برمته بوصفه جسَّ نبضٍ آخرَ صادراً عن موظف متدنّي المستوى، وسُلِّم بطريقة متملّقة.

بيد أن المصدر الحقيقي لخارطة الطريق غاب، لسوء الحظ، عن أرميتاج وباول، ولم يكلّف أحد نفسه عناء التحقق من صحة ما أكّده السفير السويسري من أن المرشد الأعلى قد بارك معظم النقاط لتتم المساومة عليها، ولم يتحرّوا إطلاقاً عمّن وضع مسوّدة الفاكس، وظلت التغييرات التي أدخلها السفير ظريف مجهولة في واشنطن. قال أرميتاج في مقابلة معه إنه لو علم أن يد ظريف كانت وراء المذكرة: «لأخذت الأمر بجدية أكبر بكثير»[1130].

وفي غضون ذلك التقى زلماي خليل زاد وريان كروكر في 3 أيار/مايو مع ظريف والسفير الأفغاني محمد طاهريان في جنيف في أول اجتماع لهذه المجموعة منذ الغزو الأميركي للعراق. وكانت التعليمات التي تلقاها خليل زاد - أعدّها البيت الأبيض في الليلة السابقة في أعقاب مشاورات مع كبار المسؤولين في وزارة الخارجية والدفاع - مباشرة وتميل إلى المواجهة. على الرغم من أن ظريف لم يأت على ذكر فاكس السويسري، إلا أن كلماته كانت منسجمة مع روح

التعاون لديه وقال إن حكومته لا تبحث عن نزاع مع الولايات المتحدة، وتؤيد فكرة تشكيل حكومة ديمقراطية تمثيلية في العراق تضم جميع الفئات الدينية والعرقية، وأنه لا يجب على الإيرانيين أو الأميركيين فرض حكومة في بغداد، وأضاف أن إيران لا تعتقد بأن حكومة إسلامية ستكون مرغوبة في العراق، كما أنها لا تناسب مجتمعاً متعدد الطوائف. قدّم ظريف سلسلة من المعلومات الاستخباراتية التي تمّ جمعها حول طالبان -القواعد الجديدة التي يجري بناؤها، وتقارير عن الدعم الباكستاني السري لجماعات مسلحة تابعة لطالبان معارضة للولايات المتحدة ولحكومة كرزاي- أثبتت كلها صحتها. وعلى ما كتبه خليل زاد لكوندوليزا رايس بعد يومين: «كان اللقاء مفيداً أكثر من الاجتماعات السابقة. قدّم الإيرانيون رؤية براغماتية معتدلة حول العراق».

فاجأ الوفد الأميركي أيضاً الإيرانيين، وعاود خليل زاد التأكيد على أن الولايات المتحدة سوف تنزع سلاح منظمة مجاهدي خلق وتستمر في التعامل معها على أنها منظمة إرهابية، الأمر الذي، كما يتذكّر خليل زاد، «أخذهم على حين غرّة». أراد ظريف إلقاء محاضرة مطوّلة يهاجم فيها الولايات المتحدة لإيوائها إرهابيين، لكنه عندما سمع الموقف الأميركي ابتسم وقال: «سنتعامل مع تنظيم القاعدة بالطريقة نفسها التي تتعاملون بها مع مجاهدي خلق».

وفي ما يتعلّق بتنظيم القاعدة حثّ خليل زاد الإيرانيين على اتخاذ خطوات فورية من شأنها أن تحبط هجوماً مخططاً له. قال المبعوث الأميركي: «هناك معلومات موثوقة للغاية مفادها أن قوات الأمن الإيرانية اعتقلت خمسة أعضاء من تنظيم القاعدة كانوا يعملون في إيران. وقد خطط هؤلاء الرجال أنفسهم لهجوم كارثي في منطقة الخليج العربي. وهذا الهجوم على وشك الحدوث». أرادت الحكومة الأميركية اعتقال هؤلاء الرجال ونقل أي معلومات يتم الحصول عليها إلى قناة المحادثات الموازية بين وكالة الاستخبارات المركزية والمخابرات الإيرانية. وإن لم تتصرف إيران، فستحمّل الولايات المتحدة الحكومة الإيرانية المسؤولية عن الهجوم.

ردّ ظريف بأنه لا يوجد أي مسؤول إيراني يؤوي تنظيم القاعدة، وسيعاقَب إن فعل ذلك، لأن «المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني» أعلن أن تنظيم القاعدة عدو لإيران. لكن بدت المفاجأة على الإيرانيين عندما تلا خليل زاد بسرعة قائمة الأسماء الخمسة. أجاب ظريف أن اثنين من الرجال المطلوبين قد لقيا حتفهما بالفعل. وتدخل جنرال في الحرس الثوري الإيراني يجلس مع ظريف في الحديث وقال إن قوات الأمن التابعة لهم تمكنت قبل أسبوعين من تفكيك خلية تابعة لتنظيم القاعدة واعتقلت خمسة رجال بالإضافة إلى أكثر من أربعين فرداً من أسرهم.

طلب ظريف المزيد من المعلومات حول توقيت الهجوم المقبل، ولكن لم يكن لدى الأميركيين مزيدٌ من التفاصيل أو أنهم رفضوا تزويد الإيرانيين بها. وافق ظريف على النظر في هذا الموضوع، وأُرجئ الاجتماع بعدما اتفق الطرفان على اللقاء في وقت لاحق من أيار/مايو.

وقع الهجوم المخطط له في وقت متأخر من ليلة 12 أيار/مايو 2003 عندما هاجم مسلحون وانتحاريان بسيارتين مفخختين ثلاثة مجمعات سكنية مختلفة تابعة لشركتين غربيتين في العاصمة السعودية. ضمّ أحد المجمعات منازل ثلاثمئة موظف في «شركة فينيل» (Vinnell Corporation)، التابعة لشركة «نورثروب غرومان» (Northrop Grumman) التي كانت قد

وقعت عقداً لتدريب الحرس الوطني السعودي، وعائلاتهم. أطلق مسلحون النار في محاولة لقتل حراس الأمن وفتح الطريق أمام عربات انتحارية تمكنت من شق طريقها بالقوة باتجاه مجمعين من المجمعات المحصّنة حيث فجّرت قنابلها ما تسبّب بأضرار هائلة وأدى إلى مقتل خمسة وثلاثين شخصاً، من بينهم سبعة أميركيين. بعد يومين من الانفجار جال وزير الخارجية باول على مكان الدمار، وكان المشهد مخيفاً ويذكّر بأبراج الخبر، فقد أحدث الانفجار حفرةً عمقها عشرة أقدام وجرّد أحد المباني من واجهته.

في 15 أيار/مايو، اجتمعت لجنة كبار المسؤولين، وقد ناب أرميتاج عن رئيسه الذي كان لا يزال في الرياض. أوحت مكالمة هاتفية بين الجناة وبين عضو في تنظيم القاعدة أن الإرهابيين قد خططوا للهجوم من داخل إيران. على الرغم من عدم وجود أي دليل يشير إلى أن إيران كانت على علم مسبق بالهجوم، إلا أن الولايات المتحدة وجّهت إشعاراً إلى طهران من خلال الأمين العام للأمم المتحدة وسويسرا وقنوات وكالة الاستخبارات المركزية بأن واشنطن لن تتسامح مع المزيد من مثل هذه الهجمات وتتوقع أن يتم تسليمها قادة القاعدة. ولم يأتِ ردّ من طهران.

بينما كانت الولايات المتحدة تتطلّع إلى إعادة بناء القوة العسكرية العراقية، وجد بريمر نفسه، وفي شكل مربك، يستدعي باقر الحكيم، زعيم فيلق بدر، لدمج أفراد ميلشياته العشرة آلاف المدعومين من إيران في الجيش العراقي الجديد. وكانت إيران قد دفعت، بعيد الغزو الأميركي، بالكثيرين من جنود الحكيم إلى العراق للبدء في بناء سيطرتهم على السكان الشيعة، وها هو الحاكم الأميركي يدعوهم إلى المساعدة على تشكيل نواة الجيش الجديد. كان بريمر سعيداً بهذه الفكرة، وروى في مذكراته أنه قابل الحكيم في محاولة لكسب تأييد الزعيم للجيش الجديد: «قلت له: 'أعدك يا سيّد'، مستخدماً لقب التبجيل الخاص به، 'أن يكون قائد الفوج الأول شيعياً'». ووفى الائتلاف بهذا الوعد، لكنه جاء بثمن مدفوع لطهران[1131]. قد يكون من الخطأ توصيف الحكيم بأنه دمية في يد إيران، إلا أن ولعه بطهران كان أكبر من ولعه بواشنطن.

تسلّل عملاء لإيران أو متعاطفين معها إلى قوات الشرطة العراقية الجديدة بالإضافة إلى اختراقهم الجيش. جنّد ضباط من وزارة المخابرات عدداً من ضباط الشرطة لبناء شبكة تجسّس صغيرة تركّز على الكويت للحصول على معلومات عن القوات الأميركية في الإمارة وعن الجيش الكويتي.

وفي محاولة لاحتواء تدفق الإيرانيين اقترح فيث أن تتم السيطرة بصورة أفضل على المعابر الحدودية العراقية التي تُركت دون حراسة تماماً بعد تشتت القوات العراقية والانسحاب المتسرّع للقوات الأميركية الناتج عن رغبة الوزير رامسفيلد في سحبها بأسرع وقت ممكن. وافتُرض، على سبيل المثال، أن يحلّ سلاح الفرسان على طول الحدود السورية محل مجموعة القوات الخاصة الخامسة التابعة للجيش الأميركي. ومع ذلك، تم سحب القوات الخاصة خارج العراق قبل استبدالها، الأمر الذي لم يترك أي أميريكي على طول الحدود السورية. وانسحبت أيضاً قوات مشاة البحرية الأميركية المكلفة بحراسة الحدود الإيرانية قبل توطيد السيطرة على المعابر

الحدودية، وهي إحدى المهام التي أوصى بها الجنرال توني زيني عندما رسم الخطة الأولية لحرب العراق في عقد التسعينيات.

نقلت إيران، وقد اكتسبت الجرأة، نقاط التفتيش العسكرية الخاصة بها عدة كيلومترات إلى داخل العراق على امتداد قسم كبير من الحدود الجنوبية بالقرب من البصرة، وتجاهل الإيرانيون طلباً بريطانياً بسحب قواتهم، وفي النهاية، في 17 تموز/يوليو 2003، توجهت الولايات المتحدة بطلب إلى إيران تعلن فيه أن «تحريك المراكز الإيرانية الحدودية إلى الأمام أمرٌ غير مقبول». ومع أن إيران نفت توغّلها في العراق إلا أنها استجابت للتهديد الأميركي وفكّكت على الفور نقاط التفتيش، وانسحبت عائدةً إلى الحدود المعترف بها[1132].

بدأت إيران بثّاً منتظماً باللغة العربية ذا مواضيع معادية للتحالف كجزء من حملة للتأثير على الجماهير العراقية، تذيعها إلى العراق خمسون محطة إذاعية وتلفزيونية مختلفة. وحاز البثّ على الشعبية لدى العراقيين، وبعض السبب في ذلك أنه كان برّاقاً على الطريقة الغربية. وضعت القيادة المركزية الأميركية عدداً من الأفكار للتصدي للبثّ الإيراني، لكنها أخفقت كلّها بسبب الافتقار الشامل إلى سياسة أميركية حيال إيران. ففي غياب استراتيجية قومية متفق عليها، لم يمنح وزير الدفاع الجيش قط الصلاحيات التي يحتاجها. وهكذا استمرّ البثّ الإيراني في مقابل ردّ أميركي حديث النشأة. كما أن معارضة الحكومة البريطانية قيّدت أيضاً المساعي الأميركية، فقد رفض الجيش البريطاني مناقشة أي تشويش علني على البث، ناهيك بالضربات العسكرية، معتبراً أن قنوات البث الإيرانية غير ذات شأن[1133].

حاولت الولايات المتحدة، بدلاً من ذلك، التأثير على وسائل الإعلام العراقية كوسيلة لمواجهة إيران. وتضمّن ذلك التعاقد مع أفراد لبثّ موضوعات في وسائل الإعلام العراقية يكون لها انعكاس جيّد على الولايات المتحدة. في أيلول/سبتمبر من العام 2003، أجرت الولايات المتحدة حملة «تجييش استمرت ثلاثين يوماً» لزيادة كبرى في حجم ونمط ونوعية معلومات وسائل الإعلام وكلها انعكست بشكل جيد على المساعي الأميركية. كما زادت الولايات المتحدة حجم توزيع الصحف من 60,000 إلى 300,000 نسخة، ووظفت شركةً في دبي لإنتاج البرامج التلفزيونية الشعبية الموالية للغرب. ظل مدى فعالية هذه الجهود مسألة قابلة للجدل، ولكن بدا على الأقل أن هناك رداً أميركياً على جهود وسائل الإعلام الإيرانية.

في يوم الجمعة 26 كانون الأول/ديسمبر 2003، ضرب زلزال هائل مدينة بام في جنوب وسط إيران. وقد أسفرت الكارثة عن مقتل أكثر من خمسة وعشرين ألف شخص وعن تدمير المدينة القديمة والقرى المحيطة بها. وفيما عُبّئت المساعدات الدولية لتقديم الإغاثة، التقى ريتشارد أرميتاج صباح اليوم التالي الرئيس بوش واقترح تقديم مساعدات إنسانية للإيرانيين. أحب الرئيس الفكرة قائلاً: «قم بذلك».

طلب أرميتاج من مركز قيادة وزارة الخارجية الاتصال بجواد ظريف، فقام بذلك بعد ظهر ذلك اليوم. «سيدي الوزير، السفير ظريف على الهاتف».

«صباح الخير أو مساء الخير»، قال ظريف. لقد كان في طهران، وقد دخل بيته للتو.

عرض أرميتاج المساعدة الأميركية، مضيفاً: «لا توجد أجندة سياسية، ولن نناور. إنها لفتة إنسانية محض».

أجاب ظريف بلغته الإنكليزية الطليقة: «مازلنا في الصباح الباكر، ولن أتمكّن من الحصول على جواب لك قبل الغد».

أجاب أرميتاج: «أدرك ذلك. لقد أمرني الرئيس بالاتصال بك. اتصل بي وحسب حين تحصل على جواب».

في اليوم التالي، بينما كان أرميتاج يشاهد مباراة لكرة القدم وهو جالس على الأريكة في منزله، تلقى مكالمة هاتفية من ظريف. «نحن موافقون».

وبعد مرور يومين فقط على الزلزال حطّت طائرة نقل تابعة للقوات الجوية الأميركية مطلية باللون الرمادي في مطار مدينة كرمان الإيرانية، وصعد جنود إيرانيون على متنها وساعدوا الأميركيين على إنزال خمس منصات نقّالة من الإمدادات الطبية. وفي غضون الأيام القليلة التالية امتد جسر جوي صغير إلى إيران لنقل الخيام والبطانيات وطاقم مؤلف من واحدٍ وثمانين شخصاً للعمل في المشافي وفرق للبحث والإنقاذ. وقام الأميركيون خلال أسبوعين بعلاج 727 مصاباً ومن ثم غادروا إيران[1134].

أمل أرميتاج أن يستغلّ الإيرانيون هذه المبادرة الإنسانية ويردّوا بلفتة خاصة منهم، ولكن فور مغادرة العاملين الأميركيين التزمت إيران الصمت. قال أرميتاج في وقتٍ لاحق: «لو أرادوا الانفتاح على الولايات المتحدة لكانت تلك فرصة مناسبة لذلك، وأملت لو استغلوها، ولكن لم يصدر شيء عن الحكومة الإيرانية».

اعتقدت إيران، مطلع العام 2004، أن لها اليد الطولى في العراق، وكانت، مع انحسار التهديد بالغزو الأميركي، قد ركّزت قواتها البديلة وأتباعها في كل المناطق الرئيسة في جنوب العراق، وتعاونت مع بريمر في تشكيل مجلس الحكم العراقي الذي كان عبد العزيز الحكيم ومتعاطفون آخرون مع إيران أعضاء بارزين فيه. وعمدت وزارة الاستخبارات الإيرانية وفيلق القدس إلى تجنيد مسؤولين في الحكومة العراقية، حتى إن أتباعاً إيرانيين اخترقوا المنطقة الخضراء، وتولّى رجال الدين الشيعة الذين تدعمهم إيران أدواراً رئيسة في المدن المقدّسة. ومع تحرّك الولايات المتحدة قدماً كي يسيطر العراقيون على حكومتهم، واصل العراقيون الموالون لإيران احتلال مناصب رئيسة في الحكومة. كان السفير العراقي الذي عُيّن حديثاً في إيران على علاقة قديمة وطويلة بالمخابرات الإيرانية وربما كان عميلاً مأجوراً. كما نال مجلس الحكم الذي تشكّل في صيف 2004 موافقة ضمنية من الإيرانيين من خلال الحكيم[1135].

سبق لسفير إيران المعيّن حديثاً في العراق، حسن قمّي، أن شغل، منذ كانون الأول/ديسمبر 2003، منصب القائم بالأعمال وكان دبلوماسياً تقليدياً وضابطاً في الحرس الثوري، وسبق أن عمل ضابط استخبارات في فيلق القدس في لبنان، وفي وقت لاحق أصبح ممثلاً دبلوماسياً في الحصن الإيراني في مدينة حيرات في أفغانستان. كان واحداً من بين دزينة أو دزينتين من ضباط الحرس الذين يعملون تحت غطاء دبلوماسي في السفارة الإيرانية في بغداد. وانتشر عملاء فيلق القدس الإيراني في جميع أنحاء العراق بدعوى أنهم صحافيون وسياح وزوّار للعتبات المقدسة ورجال أعمال. وفي الوقت نفسه، صبّ التمرد السني المتزايد في مصلحة إيران. وقال الرئيس السابق هاشمي رفسنجاني، في مقابلة في شباط/فبراير 2004، بشماتة: «[الولايات المتحدة] عالقة في الوحل العراقي، وهي تدرك أن إيران بوسعها، لو أرادت، أن تجعل مشكلات الأميركيين أسوأ من ذلك بكثير».

الفصل الخامس والعشرون

أجندة الحرية

ألقى جورج دبليو بوش خطاب تنصيبه الثاني في يوم شتوي مشرق غطت فيه طبقة خفيفة من الثلوج منتزه «ناشيونال مول». في ذلك الخريف أعيد انتخاب بوش بهامش مريح، وأظهر، بعدما قضى أربع سنوات في البيت الأبيض كرئيس في زمن الحرب، ثقةً أكبر بالنفس وبمعتقداته الأساسية. أراد الرئيس أن يكون خطاب التنصيب هذا أكثر من مجرد سرد للأهداف السياسية. أراده إعلاناً كبيراً عن رؤيته، عن عقيدة بوش، فسمّاه «خطاب الحرية».

في ذلك اليوم رسم الرئيس بوش خطوط بيانِ القدر الوطني القاضي بنشر الحرية والديمقراطية. وهذه لم تكن وحسب الدعوة التاريخية للولايات المتحدة، بل أصبحت أيضاً واجباً أمنياً: «ما دامت هناك مناطق بأكملها في العالم تستعر بالطغيان والاستياء، وتخضع لأيديولوجيات تغذّي الكراهية وتبرّر القتل، فسوف يجتمع العنف ويتكاثر في قوة تدميرية». والحرية والتحرر هما الوحيدان القادران على كسر هذه الكراهية. وقال: «باتت المصالح الحيوية الأميركية ومعتقداتنا العميقة واحداً الآن». وليس الهدف الجوهري من بيانه الأساسي بأقل من «إنهاء الاستبداد في عالمنا». واختمرت الفكرة في ذهن الرئيس بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وفي الفترة التي سبقت الهجوم على العراق. فالانتخابات الحرة في العراق أشعلت شرارة من شأنها أن تجتاح منطقة الشرق الأوسط برمته، وقال: «وذات يوم ستبلغ نار الحرّية الجامح هذا أحلك زوايا عالمنا»[1136].

وفيما لم يأتِ بوش قط على ذكر إيران في خطاب تنصيبه، فإن الجمهورية الإسلامية ستشكّل هدف حملة الحرية الجديدة، وستقدّم الولايات المتحدة الدعم للإصلاحيين الديمقراطيين داخل إيران وللناشطين الخارجيين الذين يؤيدون الإصلاحات نفسها. وقد أشار بوش إلى ذلك بصورة مباشرة عندما ألقى خطاب حالة الاتحاد في 2 شباط/فبراير 2005 حين قال: «وأقول للشعب الإيراني الليلة: بقدر ما تناضل من أجل حريتك، بقدر ما تقف أميركا معك»[1137].

ارتكزت أجندة الحرية الخاصة بالرئيس بوش على المثالية والواقعية في آن، وكانت مثاليته نابعة من معتقداته الدينية. كتب بوش في مذكراته: «الحرية هبة كونية من الله العلي القدير»[1138]. وانطلاقاً من نظرية أميركية في العلوم السياسية منتشرة على نطاق واسع مفادها أن الديمقراطيات لا تحارب بعضها بعضاً، اعتقد بوش أن نشر الحرية سوف يعزّز الأمن الأميركي. وغالباً ما استشهد بوش باليابان في دفاعه عن وجهة نظره. فقبل ستين عاماً خدم والد رئيس الوزراء الياباني الحالي في الحكومة الإمبراطورية حينما كان والد بوش نفسه طياراً في البحرية يقاتل ذلك النظام بالذات، وها إن رئيس الوزراء جونتشيرو كويزومي صديق للرئيس الأميركي والحكومة اليابانية حليف قوي للولايات المتحدة.

تلقّى المحافظون الجدد من داخل الحكومة وخارجها خطاب الرئيس بسرور، لاسيما مركز الأبحاث ذو النفوذ في واشنطن معهد «أميركان إنتربرايز». وتماماً بعد إعادة انتخاب بوش، في 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2004، تحدّث الوزير الإسرائيلي والمنشقّ السوفيتي السابق ناتان شارانسكي في المعهد جنباً إلى جنب مع كاتب الافتتاحية المحافظ تشارلز كراوتهامر. وقد سلّط المجتمعون الضوء على كتاب شارانسكي الجديد وعنوانه: «قضية الديمقراطية» (The Case for Democracy)، الذي يستعرض فيه الكاتب الإسرائيلي مصير أميركا الجديد والواضح، مجادلاً بأن على سياسة العالم الحر -ولاسيما سياسة أميركا- أن تقوم على نشر الديمقراطية، وبأن الحرية الفردية أثبتت، كما فعلت في خلال الحرب الباردة، أنها أفضل وسيلة لمكافحة الطغيان. ليس مستغرباً أن يعتقد شارانسكي أنّ الجهود الرئيسية في الضغط من أجل نشر الديمقراطية يجب أن تتركّز في الشرق الأوسط حيث تسود الأنظمة الاستبدادية. وقد أدّت طروحاته تلك إلى دعوته إلى المكتب البيضوي، حيث أكّد بوش أن هذا الكتاب يلخّص آراءه في السياسة الخارجية في ما يتعلق بالحرب على العراق وفي الشرق الأوسط ككل. وذكرت صحيفة «التايم» أن «بوش وجد في كتاب ‘قضية الديمقراطية’ تأييداً لنظريته المركزية حول العراق: أعطِ الناس الحرّية فينجحون ويزدهرون»[1139].

أنيط تنفيذ أجندة الحرية الجديدة بفريق جديد للسياسة الخارجية، فعاد موظفون كبار وصغار إلى القطاع الخاص، واستعيض عنهم بموظفين جدد. بقي ديك تشيني ودونالد رامسفيلد ضمن الثالوث الحكومي الأساسي فيما غادره وزير الخارجية كولن باول (ومعه نائبه ريتشارد أرميتاج)، لتحل محله كوندوليزا رايس، ورُقّي ستيفن هادلي ليصبح مستشاراً للأمن القومي، فضلاً عن تعيين طاقم جديد من الموظفين الشباب في وزارة الدفاع. وانتقل اثنان من كبار المسؤولين في وزارة الدفاع، بول ولفوويتز ودوغلاس فيث، ليشغلا منصبين على التوالي في البنك الدولي والأكاديمية، فيما حلّ محلّ الأخير الدبلوماسي المحافظ إريك إيدلمان الذي شغل سابقاً منصب سفير الولايات المتحدة في تركيا ونائب مستشار الرئيس للأمن القومي. وتوجّه وليام لوتي إلى البيت الأبيض ليتولى إدارة شؤون السياسة الدفاعية مع هادلي؛ وحل محله في وزارة الدفاع العميد الخشن مارك كيميت الذي تقاعد مؤخراً بعد أن قضى فترة مثيرة للجدل في القيادة المركزية الأميركية باعتباره نائباً لرئيس التخطيط.

أصبحت وزيرة الخارجية الجديدة كوندوليزا رايس، على الفور، الشخص الأكثر أهميةً في السياسة الخارجية الأميركية. واكتسبت، على غرار الرئيس، الخبرة والثقة بالنفس بعدما ألقى ثقل البيروقراطية بظلاله عليها في الفترة الرئاسية الأولى. لقيت رايس أذناً صاغية في المكتب البيضوي نتيجة علاقتها الشخصية الوثيقة بـبوش، وكان الجميع في واشنطن يعلمون ذلك أو افترضوه. قال جون بولتون: «كان هناك، في الولاية الثانية، صوت واحد في السياسة الخارجية الأميركية: الوزيرة رايس»[1140].

اعتنقت رايس أيضاً رؤية بوش للحرية، وفي أحد خطاباتها المهمة الأولى عن الشرق الأوسط أمام الجمهور في الجامعة الأميركية بالقاهرة قالت رايس: «سعت الولايات المتحدة على مدى ستين عاماً لإحلال الاستقرار على حساب الديمقراطية في الشرق الأوسط -ولم نحقق أياً منهما». وقالت بنبرة متعجرفة إنها ترفض سياسة تسعة رؤساء أميركيين سابقين، كما حذّرت الحلفاء القدامى المستبدين، مثل المملكة العربية السعودية ومصر، من أن رياحاً جديدة من الحرية على وشك أن تعصف بالشرق الأوسط، قائلةً: «علينا أن نتطلع جميعاً إلى المستقبل الذي تحترم فيه كل حكومة إرادة مواطنيها - لأن مُثل الديمقراطية عالمية»[1141]. أما في ما خصّ إيران، التي شهدت هي أيضاً انتخابات أكثر حيويةً من انتخابات حليف أميركا القوي الذي ألقت فيه رايس خطابها، فقد رفضت عمليتها الديمقراطية: «إن مظهر الانتخابات لا يخفي القسوة المنظّمة في دولة إيران الثيوقراطية. الشعب الإيراني مؤهل لبلوغ الحرية ويتوق إليها. والإيرانيون يستحقون الحرية. لقد حان الوقت لقلة غير منتخبة أن ترفع قبضتها وتلبّي تطلعات الشعب الإيراني الأبيّ».

أدرك الفريق الجديد بإدارة رايس في حي «فوجي بوتوم»، حيث مقر وزارة الخارجية، مدى عدم الأهلية الذي بلغه مكتب الشؤون الخارجية فيما يتعلق بإيران. فما من سفارة في البلاد منذ ما يقارب الثلاثين عاماً، ولا يوجد أي حافز كي يركّز مكتب الشؤون الخارجية على إيران، وقلة هم الذين تكبدوا عناء دراسة اللغة الفارسية، كما شاخَ الدبلوماسيون الذين لديهم تجربة مباشرة في إيران وتواروا عن الأنظار. ولم يكن هناك إلا ضابط واحد في الخارجية، هو هنري ووستر، يعمل بدوام جزئي على الشؤون الإيرانية تحت قيادة مكتب شؤون الشرق الأدنى. كان عدد المخضرمين الذين خدموا في إيران قليلاً، وخلت الوزارة تدريجياً من الخبراء في الشأن الإيراني. «لدينا مشكلة»، هذا ما قاله الرجل الثالث الجديد في وزارة الخارجية نيكولاس بيرنز لرايس.

تولى نائب رايس للشؤون السياسية نيكولاس بيرنز ملف إيران في وزارة الخارجية. هذا الموظف المحترف في الجهاز الخارجي، الرقيق والمهذب والفصيح اللسان، كان قد شغل مؤخراً منصب سفير الولايات المتحدة لدى منظمة حلف شمال الأطلسي في بروكسل، حيث أمّن الدعم الأوروبي للمهمة في أفغانستان. طلبت منه رايس في إحدى المهمات الأولى التي أوكلتها إليه أن يجعل إيران من ضمن أولوياته، فيتولّى كلاً من تطوير سياسة جديدة وتحسين خبرات الوزارة.

ضغط بيرنز، بدعم من رايس، لتطوير المسار الوظيفي للخبراء في الشأن الإيراني في مكتب الشؤون الخارجية، واستعان بصفحة من التاريخ لتنفيذ ذلك. خلال العشرينيات، عندما لم تكن

لدى الولايات المتحدة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتي، أنشأت وزارة الخارجية محطة «ريغا»، حيث راح موظفون يتحدثون الروسية يرصدون الأحداث في الاتحاد السوفيتي، وعندما فتحت الولايات المتحدة بعثة لها في الثلاثينيات شكّل هؤلاء الرجال نواة الدبلوماسيين الجدد في موسكو. قرّر كلٌّ من رايس وبيرنز اتّباع إجراءات مماثلة مع إيران عن طريق إنشاء مكتب إقليمي إيراني في القنصلية الأميركية في دبي كي يستطيع الإيرانيون الحصول على تأشيرات سفر، ويتمكّن الدبلوماسيون أيضاً الذين يتكلمون اللغة الفارسية من أن يقيموا ويتفاعلوا مع العديد من الإيرانيين الذين يسافرون إلى تلك الإمارة المنفتحة نسبيّاً وغير المقيّدة. وأنشأ موظفو الوزارة موقعاً على شبكة الانترنت يحاكي مواقع مماثلة لسفارات حقيقية تقدّم معلومات عن الولايات المتحدة للمواطنين الإيرانيين. وأُنشئ مكتب جديد للشؤون الإيرانية تابع لمكتب شؤون الشرق الأدنى في وزارة الخارجية، وسوف يؤمّن موظفو جهاز الشؤون الخارجية الذي يدير هذا المكتب طليعة الدبلوماسيين الأميركيين الجدد في حال فكّرت حكومة الولايات المتحدة ذات يوم في فتح سفارة لها في إيران[1142].

احتلت إيران الواجهة في رحلة رايس الأولى عبر البحار بوصفها وزيرة للخارجية في مطلع شباط/فبراير 2005. وقد حرص الرئيس بوش في ولايته الثانية على إصلاح الأضرار التي لحقت بالعلاقات الأميركية الأوروبية الناجمة عن غزو العراق وسخرية دونالد رامسفيلد من ألمانيا وفرنسا عندما وصفهما بـ «أوروبا العجوز»، فسافر إلى أوروبا في رحلة أصبحت تُعرف باسم «غصن الزيتون»، والتقى زعماء كلٍّ من فرنسا وألمانيا في بروكسل ومانيز. رافقت رايس الرئيس في رحلته، وتوقّعت أن تسمع أحاديث عن العراق، لأن معظم الأوروبيين وبصورة خاصة المستشار الألماني غيرهارد شرويدر عارضوا الغزو الأميركي بشدة. بدلاً من ذلك، تصدّر البرنامج النووي الإيراني جدول الأعمال الأوروبي. أراد الأوروبيون أن يكسبوا الدعم الأميركي في محادثات الدول الأوروبية الثلاث الكبرى «EU-3» (ألمانيا، فرنسا، والمملكة المتحدة) في شأن وقف تخصيب اليورانيوم الإيراني.

لم تشارك الولايات المتحدة في المحادثات، وبقي كولن باول على اتصال وثيق بوزير الخارجية البريطاني، جاك سترو، وساعد في توجيه النقاش بطرق مقبولة لدى واشنطن، لكن الإدارة الأميركية ظلت تعارض التحدث إلى إيران. وفي العام 2003 خلصت ورقة صادرة عن مجلس الأمن القومي إلى أن «إيران تسعى بشدة لامتلاك أسلحة نووية تحت غطاء برنامج الطاقة النووية السلمي المعلن». بيد أن البيت الأبيض في ولاية بوش الأولى لم يقدّم أي وسيلة أخرى لمواجهة البرنامج النووي الإيراني. والآن، ومع بدء حقبة جديدة من العلاقات عبر الأطلسي، وافق الرئيس على دعم الجهود الدبلوماسية الأوروبية لإيجاد حل سلمي للبرنامج النووي الإيراني. ورأى الألمان أنّ هذا الخطاب الأميركي الجديد الذي يدعم محادثاتهم مع الإيرانيين قد قطع شوطاً كبيراً في إصلاح الضرر الذي سبّبه غزو العراق.

قامت رايس ببادرة حسن نية تجاه الإيرانيين بناءً على طلب من الأوروبيين، فوافقت على إسقاط اعتراض الولايات المتحدة على طلب انضمام إيران إلى منظمة التجارة العالمية والسماح

بتصدير قطع غيار للطائرات الإيرانية المدنية الأميركية الصنع. وفي حين رفضت وزيرة الخارجية سحب الحديث العلني عن تغيير النظام أمام الجمهور، قالت في مؤتمر صحافي إن العمل العسكري «غير موجود وحسب على جدول الأعمال في هذه المرحلة»[1143].

قالت رايس لبيرنز خلال اجتماع عقد في مكتبها في الطابق السابع: «أريدك أن تقود هذه الجهود وتعمل مع الأوروبيين». ظل بيرنز متشكِّكاً في شأن التفاوض مع إيران، لكنه بذل قصارى جهده في الحملة الدبلوماسية العامة التي تصوّرتها رايس للعمل على حل المأزق النووي. بعد ثلاثة أسابيع فقط من تعيينه سافر بيرنز إلى أوروبا واجتمع بنظرائه، الألماني والفرنسي والبريطاني، الذين يتفاوضون في الواقع مع الإيرانيين. وفيما بقيت هناك قيود حول ما يمكن أن تقبل به الولايات المتحدة، إلا أن توقّف إيران عن تخصيب اليورانيوم كان شرطاً مسبقاً. عرض بيرنز على إيران مزيداً من الإغراءات فيما لو قررت أن تتعاون، وضغط في الوقت نفسه على الاتحاد الأوروبي للحدّ من نقل التكنولوجيا التي تحتاجها طهران لبناء برنامجها النووي.

أثار البرنامج النووي الإيراني قلق واشنطن طيلة العقد الماضي، فقد اشتبهت المخابرات الأميركية منذ أوائل التسعينيات بطموحات إيران النووية. وفي 1993 أعلن الجنرال جون شاليكاشفيلي أمام مجلس الشيوخ، خلال جلسة تنصيبه رئيساً لهيئة الأركان المشتركة، أنّ من المرجّح أن تصبح إيران قادرة على إنتاج سلاح نووي في مدة تتراوح بين ثماني إلى عشر سنوات. ظل هذا الرقم يتبدّل لكن الولايات المتحدة بقيت حتى أواخر العام 2004 تتوقع أن يستغرق الأمر من ثماني إلى عشر سنوات[1144]. وكشف منشقون إيرانيون في 2002 عن منشأتين نوويتين إيرانيتين غير معلن عنهما: منشأة الماء الثقيل في آراك ومجمع تخصيب اليورانيوم في أعماق الأرض في نطنز. وفي حين ليس مطلوباً من إيران الإفادة عنهما بموجب معاهدة حظر الانتشار النووي، كشف التحقيق اللاحق الذي أجرته الوكالة الدولية للطاقة الذرية نمطاً من التعتيم من قبل الإيرانيين فيما يتعلق بهذا البرنامج. وفيما أصرّت إيران على أن جهودها النووية هي لأغراض سلمية فقط، وافق الرئيس خاتمي مكرهاً، في تشرين الثاني/نوفمبر 2003، على تعليق تخصيب اليورانيوم والسماح بعمليات تفتيش أشدّ صرامة.

ظل البرنامج النووي يحظى بشعبية كبيرة لدى الشعب الإيراني، وكشف استفتاء سري أجرته وزارة الخارجية الأميركية أن 80 بالمئة من السكان يوافقون على سعي الحكومة لامتلاك الطاقة النووية السلمية. وعلى الرغم من أن الشعب لا يعتقد أن الحكومة تسعى لإنتاج سلاح نووي، ولكن حتى لو كان الأمر كذلك فإنه سيبقى يحظى بدعمٍ قوي. وكرّر الكثيرون من الإيرانيين اللازمة نفسها: إذا أمكن لإسرائيل والباكستان امتلاك القنبلة، فلماذا لا يمكن لإيران؟

شرعت إيران بعد حربها مع العراق في «جهاد الاكتفاء الذاتي» لتحقيق الاستقلال في مجال الطاقة. وأضاف آية الله خامنئي رؤية لإيران بوصفها دولة رائدة في مجال التكنولوجيا، والبرنامج النووي يدعم ذلك. وستسمح الطاقة النووية بتنويع كبير في احتياجات إيران للطاقة، لاسيما وأن انخفاض الإنتاج في بعض حقولها النفطية عزّز القلق داخل الحكومة في شأن القدرة التصديرية الإيرانية على المدى الطويل. وسوف تسمح محطات الطاقة النووية الجديدة للبلد بمواكبة

الطلب على الكهرباء الذي يزداد من 8 إلى 9 بالمئة سنوياً. تعتمد إيران على الغاز الطبيعي والنفط لتوليد 85 بالمئة من طاقتها، وإن تقليص هذه التبعية سيسمح بقدر أكبر من الاكتفاء الذاتي. وقد عززت دروس الحرب العراقية الإيرانية من مخاوفهم بشأن الاعتماد الإيراني على الغرب. أراد المسؤولون الإيرانيون الحصول على قدرات تخصيب محلية حتى لا تضطر إيران إلى الاعتماد على مصادر اليورانيوم من دول الخارج التي قد تحجب هذه المصادر عنها في حال نشوب أيّ نزاعات.

ومع ذلك، لم يسمح المرشد الأعلى للثورة بأن تتم مناقشة البرنامج النووي علناً. كان الإيرانيون العاديون مهتمين أكثر بفرص العمل وبتحسين الوضع الاقتصادي في البلاد؛ وإذا كان البرنامج النووي يساعدهم في تحقيق ذلك فهم يؤيدونه. لكن إذا فاقت تكلفة مواصلة تخصيب اليورانيوم الفوائد بسبب العقوبات والعزلة فستصبح نسبة التأييد الشعبي للبرنامج أقل بكل تأكيد. وأُبلغت الصحف سرّاً أنه ينبغي التعامل مع هذا الموضوع على أنه قضية أمن قومي، وقد دعمت وسائل الإعلام وجهة نظر الحكومة في هذا الصدد مشيرةً إلى أن الغرب يريد أن تظل إيران متخلفة وتابعة له، الأمر الذي يحرم البلاد من حقها في فوائد المنتجات النووية[1145].

لم يكن أحد في إدارة بوش يشكّ في طبيعة البرنامج النووي الإيراني، وخلصت الاستخبارات الأميركية إلى أن إيران تعتزم، على الأقل، امتلاك الخبرة التقنية اللازمة لإنتاج أسلحة نووية. كان مفاعل الماء الثقيل الذي يجري بناؤه في آراك مماثلاً لذاك الذي تستخدمه بلدان أخرى في برامجها النووية، وقد أثار رفض إيران النظر في الاقتراح الأوروبي، المتعلق بمفاعل لأبحاث الماء الخفيف لإنتاج المواد الطبية والصناعية، قلق الكثيرين. وفي منتصف العام 2004 سلّم مصدر قديم في وكالة الاستخبارات المركزية حاسوباً محمولاً يحتوي على كمٍّ كبير من المعلومات تعود إلى فريقٍ من المهندسين الإيرانيين حول تصاميم لرأس حربية نووية مدمجة يمكن لصاروخ شهاب الإيراني الطويل المدى أن يحملها. وتتضمن هذه التصاميم المجال المدمج (compact sphere) والصواعق المصمّمة لتنفجر على علو ألفي قدم فوق الهدف، وهو ارتفاع يُعدّ مثالياً للتفجير النووي[1146]. وثمة تقرير آخر للاستخبارات في شأن برنامج إيران للصواريخ البعيدة المدى يشير إلى أن إيران تسعى إلى امتلاك الوسائل لنشر رؤوس حربية نووية مماثلة. بيد أنّ ثمة آراء متباينة داخل مجتمع الاستخبارات حول ما إذا كان المرشد الأعلى للثورة سيقرر إنتاج سلاح نووي أم سيقنع بما لديه من قدرات.

فاقمت الأحداث التي جرت في إيران من مخاوف واشنطن. ففي شباط/فبراير 2004 اكتسح المحافظون السلطة في الانتخابات البرلمانية الإيرانية، لاسيما بعد أن حرم مجلس صيانة الدستور ألفين وخمسمئة مرشح من الإصلاحيين من الترشّح، بمن فيهم ثمانون نائباً في المجلس. استخدم المرشد الأعلى للثورة نفوذه الديني في عملية التدقيق لاستبعاد المرشحين الليبراليين، وكان قد بقي عامٌ واحد على انتهاء ولاية خاتمي الرئاسية وبدء ولاية رئيس جديد، فبدا المحافظون مصممين على عدم تكرار خطأ العام 1997. ووضع ذلك حدّاً للنقاش القائم من قِبل بعضهم في

داخل الإدارة الأميركية حول قدرة خاتمي على إجراء تغييرات حقيقية ترغبها واشنطن وقدّم مزيداً من المبررات لأولئك الذين لطالما عارضوا التحدث إلى إيران.

كلّف مستشار الأمن القومي ستيفن هادلي نائبه جاك داير «جي دي» كراوتش بالإشراف، داخل الحكومة، على الاستراتيجية الجديدة تجاه إيران. وصل هذا الخبير الأصلع القديم في السياسة الدفاعية المتعلقة بالأسلحة النووية إلى البيت الأبيض بوصفه الرجل الثاني في مجلس الأمن القومي بعد أن خدم، منذ 2001، في وزارة الدفاع وكسفير في رومانيا. في 31 أيار/مايو من العام 2005 أوجزت لجنة نائب مجلس الأمن القومي، التي ترأسها كراوتش، الأهمية التي باتت إيران تتمتع بها الآن في الإدارة: «إن تنفيذ استراتيجية قوية تجاه إيران يجب أن يكون هدفاً مركزياً للسياسة الخارجية».

كُلّف إليوت أبرامز بإضافة المزيد من التفاصيل إلى رؤية الرئيس بوش الجديدة داخل حكومة الولايات المتحدة. كان أبرامز قد تورّط في الجزء المتعلّق بالكونترا من فضيحة إيران - كونترا خلال إدارة ريغان، لكنه ظل متواضعاً ومهذباً وكتوماً. ينتمي أبرامز، على الصعيد السياسي، إلى جناح المحافظين الجدد في الحزب الجمهوري، وهو متشدد ولاسيما فيما يتعلق بسوريا، ويعمل من وراء الكواليس، ولقد جعلته خبرته في البيت الأبيض ماهراً في تحريك القرارات في متاهة الوكالات الحكومية. وسّع هادلي حقيبة أبرامز إلى ما هو أبعد من مجرّد منطقة الشرق الأوسط، وأنشأ منصباً جديداً له كنائب مستشار الأمن القومي للاستراتيجية الديمقراطية العالمية. وهذا المنصب يقضي، وفقاً لبيان صحفي من البيت الأبيض، بمساعدة «السيد هادلي في العمل على تعزيز الديمقراطية وحقوق الإنسان، والإشراف على مديرية الديمقراطية في مجلس الأمن القومي وحقوق الإنسان وشؤون المنظمات الدولية». وها هو يتم رسميّاً دمج الشرق الأوسط وبرنامج الديمقراطية الجديد في خطّة متماسكة تحت إشراف أبرامز.

قضت آخر مهمة لوليام لوتي، قبل أن يعبر نهر بوتوماك ليتوجه إلى وظيفته الجديدة في البيت الأبيض، بالإشراف على وضع مسودة ورقة استراتيجية تهدف إلى البدء بصياغة النقاش حول إيران في الولاية الرئاسية الثانية. أعدّ لوتي وثيقة حادة وخيالية في بعض جوانبها اتّهم فيها إيران بالتعاون مع تنظيم القاعدة في عشرين عملاً إرهابياً منفصلاً[1147]. ومع أنّ لوتي لم يؤمن قط بالتحدث إلى الإيرانيين، فقد حاجّ بأن الخطوة الأولى تتمثل في الاعتراف بأن التقارب مع إيران قد أخفق وأنّ المفاوضات لا تخدم أي غرض سوى أنها توفر للإيرانيين وسيلةً للتحدث وتأخير إرادة المجتمع الدولي، وأنّ من الضروري أن تسلّط الولايات المتحدة الضوء على علاقات طهران بتنظيم القاعدة وأن تواجه عمليات الاستخبارات الإيرانية بشدة. واقترح لوتي تكرار المسار العراقي عن طريق جمع الإيرانيين المنفيين في حركة معارضة جماعية: مؤتمر وطني إيراني.

أحب أبرامز هذه الورقة، وحوّل الأفكار إلى خطة مشتركة بين الوكالات لإجبار إيران على إنهاء دعمها للإرهاب فضلاً عن برامج الصواريخ الباليستية وأسلحة الدمار الشامل، ووافق أيضاً على أنه ينبغي على الولايات المتحدة أن تتحرك بقوة أكبر ضد فيلق القدس في المنطقة وأن تعلن أنه منظمة إرهابية وتنهي عملياته في العراق، واقترح فرض المزيد من العقوبات الاقتصادية

المشددة، المقرونة بحملات نفسية عدوانية، لدعم جماعات المعارضة في إيران وتشويه سمعة النظام في عيون العالم، وكتب: «إن إفشال وتشويه سمعة هذا النظام - الذي يعدّ منبع الإسلاموية الحديثة - سوف يساعد على تشويه سمعة الفكر الإسلامي المتطرف وإضعاف قدرته على نطاق أوسع في المنطقة. يجب أن يشكّل هذا أحد الأهداف الأساسية للحرب العالمية على الإرهاب».

بدا هذا الخطاب شبيهاً في شكل ملحوظ بمواقف صقور الإدارة السابقة. وأعلنت ورقة مشتركة بين الوكالات، أُعدّت في شباط/فبراير 2005، أنه «أظهرت الانتخابات الإيرانية الأخيرة أن قادة إيران لا يمثّلون الشعب الإيراني، ما يعني أنّ النظام فاقد لشرعيته». أرادت الولايات المتحدة تشويه سمعة كلٍّ من خاتمي وحكم رجال الدين علناً بوصفهم غير شرعيين على الرغم من التصريحات الأميركية السابقة المختلفة والاعتراف الدولي بالجمهورية الإسلامية كحكومة شرعية لإيران.

شاطر كراوتش وجهة نظر أبرامز ولوتي القائلة بأن حكومة إيران تفتقر إلى الشرعية بسبب دعمها للإرهاب وفشلها في تلبية رغبات الشعب الإيراني، وبأن أي اتصال رسمي بالجمهورية الإسلامية سوف يعزز شرعيتها ويقوّض معنويات المعارضين والديمقراطيين داخل إيران. وجادل بعض الموظفين العاملين مع كراوتش بأن الحكومة الإيرانية قد فقدت الكثير من شعبيتها بحيث تبدو أنها أينعت وحان قطافها.

وافق آبي شولسكي، في وزارة الدفاع، على هذه اللهجة، واستمر، على المستوى العملي، في لعب دوره الناشط في صوغ سياسة تجاه إيران والحرب على الإرهاب. أراد شولسكي دعم حركة الإصلاح داخل إيران، وكان واثقاً من أن الفرصة سوف تسنح في تموز/يوليو 2004؛ فإيران تقترب من الذكرى الخامسة للاحتجاجات التي قادها الطلاب في العام 1999 وهزت جامعة طهران. حينذاك، وعقب احتجاج طلابي صغير ضد إغلاق صحيفة إصلاحية، انطلقت قوة البلطجة في الحرس الثوري، المعروفة بالباسيج، وعاثت في الحرم الجامعي فساداً وسحبت الطلبة من شعورهم من غرف نومهم وضربتهم بوحشية وقتلت واحداً منهم.

أطلق ذلك شرارة المظاهرات الأوسع في البلاد منذ قيام الثورة الإسلامية في العام 1979، كما هزّت الثقة بالحكومة. اقترح شولسكي إنشاء برنامج سري لدعم الطلاب في يوم الذكرى، متوقّعاً قيام احتجاجات واسعة النطاق كما تعوّد الإيرانيون أن يفعلوا في مناسبة كهذه، وقال في وقت لاحق: «بدا النظام قلقاً». لكن هذا الاقتراح تعارض مع وجهة نظر كولن باول القائلة بأن على الولايات المتحدة أن تبقى منفتحة على العمل مع حكومة الرئيس الإيراني خاتمي لا أن تخرّب موقفها من خلال تقديم المساعدات للقوى المناهضة للحكومة. في الواقع، مرّت الذكرى دون احتجاج إيراني أو دعم أميركي. أما وقد رحل باول، وبوجود دعم جديد في البيت الأبيض لديمقراطيي الشرق الأوسط، فقد دعا شولسكي بنشاط إلى توفير المساعدة لحركات المعارضة الإيرانية.

أعدّت وكالة الاستخبارات المركزية، دعماً لمداولات البيت الأبيض، عدة دراسات مختلفة تبحث في قوة إيران السياسية. ولم يعرب أيٌّ منها عن تفاؤل من في داخل الإدارة يؤيدون نزع الشرعية عن الحكومة الإيرانية، وخلصت وكالة الاستخبارات المركزية إلى أن النظام الإيراني

أصبح أكثر ثقةً بنفسه منذ الأيام العصيبة التي مرَّ بها بعد الغزو الأميركي للعراق. يبدو نفوذ المتشددين في تصاعد، ما أدّى إلى تراجعٍ في الحريات التي بدأت في عهد الرئيس خاتمي. ولم يجد التحليل أنّ في وسع أي زعيم مؤيد للديمقراطية أن يحشد الساخطين سواء داخل إيران أو خارجها. وخلص تقرير أُعدّ في أيلول/سبتمبر 2005، بناءً على طلب هادلي، إلى أنّ الولايات المتحدة قادرة على تحريك النخبة في جامعة طهران، لكنها لا تمتلك فرصة كبيرة في التأثير على المواطنين العاديين المحافظين جدّاً. ظلت وكالة الاستخبارات المركزية تشكّك في وجود تأثير كبير لأنصار الديمقراطية الأميركية، من طلاب ومثقفين وملكيين قدامى، على الإيراني العادي. وقد سيطر أنصار الشاه القدامى على مجموعات المنفى، إلا أنهم بدوا بعيدين كل البعد عن الحياة الراهنة في إيران، فلم يكن لهم الكثير من تأثير على معظم المواطنين. علاوةً على ذلك، فإن أي تصرّف خاطئ أو خطوة ناقصة من الجهة الأجنبية التي تقف وراء جماعات المعارضة يمكن أن يقوّض فعلياً الدعم لهذه المجموعات.

بيد أن إيران، وبخلاف كوريا الشمالية أو الاتحاد السوفيتي القديم، ليست مجتمعاً منغلقاً، وقد سافر مواطنوها إلى الغرب، وحافظ إيرانيو الشتات، ولاسيما في الولايات المتحدة، على الروابط بعائلاتهم وأصدقائهم داخل البلاد. ووجدت دراسة أعدتها وزارة الخارجية أن عدداً كبيراً من الشباب الإيرانيين الذين حصّلوا مستويات عالية من العلم يستخدمون الإنترنت، وأنّ الإيرانيين يحبون المدونات. وأظهر تقرير أعدّته جامعة هارفرد وجود أكثر 700.000 مدونة باللغة الفارسية، معظمها داخل إيران، ما يجعل الفارسية اللغة الثانية من حيث الشعبية بعد الإنكليزية في «عالم المدونات»[1148]. وتعتقد وكالة الاستخبارات المركزية، بحسب مسؤول كبير في إدارة بوش، أن في وسع الولايات المتحدة مساعدة مجموعات حقوق الإنسان والديمقراطية الإيرانية على بناء حركة تحرر قابلة للحياة؛ إلا أنه ينبغي أن يتم ذلك بعناية لتجنّب الظهور بمظهر من يتدخّل في شؤون إيران الداخلية، الأمر الذي يثير قلق الإدارة منذ فترة طويلة لأنه قد يدفع بالجمهورية الإسلامية إلى إطلاق صيحة استنفار لحشد الجماهير وتوحيدها خلفها. لطالما أظهر استطلاع رأي المواطنين الإيرانيين عدم رضاهم عن الحكومة. وحتى في ظل الإصلاحي الشعبي، خاتمي، وصف نحو ستة أشخاص من أصل عشرة الوضع الاقتصادي بالسيئ. وأيّدت الغالبية علاقات أفضل مع الغرب، بما في ذلك الولايات المتحدة[1149]. وفيما أظهرت أيضاً بيانات دراسة أعدّتها وزارة الخارجية أنه بالرغم من وجود نزعة وطنية وتأييد واسع النطاق للإسلام، بدا أن السخط والاستياء بين فئات السكان الأصغر سنّاً قد أينع وبات بالإمكان استغلاله.

بيد أن إدارة بوش لا ترغب في مهاجمة إيران، ولم يمتلك الرئيس الكثير من المصلحة في مغامرة عسكرية أخرى بعدما غاصت الولايات المتحدة في حربي العراق وأفغانستان. وبالرغم من أن الرئيس لم يصرف النظر أبداً عن الخيار العسكري لوقف برنامج إيران النووي، فإنه لم يفكّر فيه جدّياً أبداً. وقالت كوندوليزا رايس الأمر نفسه في رحلتها في 2007 إلى الخليج العربي التي التقت فيها أدميرال الأسطول البحري الخامس في البحرية: إن الرئيس لن يناقش أبداً الخيار العسكري لوقف البرنامج النووي الإيراني، ولم يفكّر قط في هذا الخيار بجدية. وقالت: لكن الغموض الذي

يحيط بالنوايا الأميركية ساعد على إبقاء إيران تتكهّن وساعدها في جهودها الدبلوماسية في جنيف. وفي حين واصل نيوت غينغريتش وغيره من المقربين من الإدارة المطالبة بتغيير النظام، بالقوة إذا لزم، أراد هادلي مقاربةً جديدة لإيران. وضمّ فريقه الخاص بالشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي عدداً من الوجوه الجديدة، بمن فيهم مايكل دوران، الأكاديمي الوافد حديثاً من جامعة برنستون والذي تولّى منصب مدير شؤون الشرق الأدنى وشمال أفريقيا. قال دوران: «لطالما أدركت أن هدفنا يتمثّل في إعطاء الرئيس خياراً ثالثاً. فإذا كان الخياران الوحيدان هما إما الحرب وإما إيران المسلحة نووياً، فهذا يعني أننا قد أخفقنا في عملنا»[1150]

بحلول منتصف عام 2005 كان كراوتش قد امتلك الخطوط العريضة لأهداف السياسة الجديدة تجاه إيران. كانت إيران حاسمة بالنسبة إلى المبادئ الأساسية لسياسة الرئيس الخارجية الجديدة. «يتقدّم الأمن الأميركي عبر نشر الديمقراطية وإنهاء الدعم الصريح أو الضمني للإرهاب». سعت الولايات المتحدة إلى «إيران لا تمتلك أسلحة نووية ولا تسعى لامتلاكها، وأن تكون لديها حكومة ديمقراطية مستقرة، وأن تعزّز بيئة لا تحتضن الإرهاب».

تشارك إليوت أبرامز رئاسة مجموعة جديدة تضم كافة الوكالات مع الشقراء النارية إليزابيث تشيني، ابنة نائب الرئيس، التي عملت نائباً لمساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى. لم تكن تشيني تمتلك أي خلفية عن إيران أو الشرق الأوسط، إلا أنّ هذا لم يمنعها من إلقاء سلسلة من المحاضرات حول طبيعة المجتمع الإيراني وحكومته أمام مسؤولي الشؤون الخارجية، ومن بينهم من يتحدث اللغة الفارسية بطلاقة ومن أمضى سنوات في دراسة البلاد. نسّق «فريق عمل إيران وسوريا»، مثلما كان يسمّى، سياسة حكومة الولايات المتحدة حيال كلٍّ من إيران وسوريا. وأراد أبرامز أن تقود وزارة الخارجية فريق العمل هذا. فقد كانت لديه تجربة شخصية من إيران-كونترا حول محاذير إدارة العمليات من البيت الأبيض، كما أن البنتاغون اتّخذ طوعاً دوراً أقل صراحةً لتفادي اعتبار ذلك غزواً مخططاً لإيران. وشكّل فريق العمل خمس مجموعات فرعية منفصلة تضم ممثلين عن مختلف الوكالات وتجتمع بانتظام في قاعة اجتماعات متهالكة في مبنى المكتب التنفيذي القديم أو في قاعة أفضل مخصصة لها في وزارة الخارجية.

في أواخر 2005، وقّع الرئيس على خطة عمل تتعلق بإيران، وضعتها مجموعة تشيني وأبرامز. وضعت الخطة الخطوط العريضة لسلسلة من الإجراءات لمواجهة إيران، وركّزت على العقوبات الاقتصادية والدبلوماسية وإرسال رسالة مشتركة لتسليط الضوء على أنشطة إيران الخبيثة في جميع أنحاء الشرق الأوسط. وكان لخطة العمل هذه هدفٌ رئيس وهو محاولة الإيقاع بين الشعب الإيراني وحكومته. وعشية عيد جميع القديسين (الهالوين) في العام 2005، حدّد هادلي للمسؤولين الكبار الآخرين عدداً من الإجراءات التي ينبغي اتّخاذها فوراً. وفيما تتحرّك وزارة الخزانة ووزارة الخارجية للحؤول دون وصول إيران إلى المال والتكنولوجيا ذات الاستخدام المزدوج، ستقوم الحكومة الأميركية، بدورها، بحملة إعلامية تهدف إلى تعزيز الحرية في إيران، ويشمل ذلك الترحيب بالمنشقين والمعارضين في واشنطن، والتبادل الأكاديمي، ودعم المدونين الإيرانيين وإنشاء غرف للدردشة على شبكة الانترنت لزيادة التواصل بين الطلاب الإيرانيين والأميركيين. كتب هادلي: «إن توسيع اتصالاتنا مع إيران ومن داخلها (1) سيؤدّي إلى تعزيز قدرتنا على السعي

إلى تنفيذ البرامج الداعمة للديمقراطية في إيران؛ و(2) يساعد على منع سوء الفهم والنزاعات المحتملة مع إيران». أحبّ الرئيس بوش هذه الأفكار وأمل في أن تشجّع على بناء مجتمع أكثر انفتاحاً وعلى إرساء الحريات الأساسية التي من شأنها في النهاية أن تقوّض الطابع الشمولي للنظام الإيراني. وأخيراً، وبعد خمس سنوات في الإدارة، بدت إدارة بوش مجمعةً على هذه الاستراتيجية.

قادت وزارة الخارجية وإليزابيث تشيني جهوداً أخرى لدعم أجندة الحرية، ورعت تشيني أحد المشاريع الأميركية المهمّة المسمّى «مشروع الديمقراطية» الذي يروّج للقيم الأميركية بجرعة قوية من الدعاية، وركّزت جهودها الأولى على مشروع إعلامي يتضمن مؤتمراً عن بعد مع طلبة إيرانيين وبرنامجاً يحاكي الشتات الإيراني، وكلاهما يركّزان على علل ومساوئ الجمهورية الإسلامية. في 2005 أنفقت وزارة الخارجية عشرة ملايين دولار للترويج للديمقراطية والوصول إلى معلومات «غير منحازة»[1151]. واشتمل ذلك على أربعة ملايين دولار تُقدَّم على شكل منح مختلفة لإيران، وهي المنح الأولى من نوعها منذ العام 1979 للترويج للديمقراطية[1152]. وتضاعف المبلغ في السنة التالية عشرين مرة ليصل إلى مبلغٍ ضخم يقُدَّر بـ 75 مليون دولار.

كُلِّف ديفيد دينهي، وهو رجل لطيف أشبه بالدب، بتحديد المشاريع التي يجب أن تحصل على المال. خدم دينهي في وزارة الخارجية قبل أن يُنتدَب إلى وزارة الدفاع حيث عمل لفترة وجيزة مساعداً لبول بريمر في العراق[1153]، وعاد إلى وزارة الخارجية وشغل منصب نائب ليز تشيني وتولى إدارة الاجتماعات اليومية وعمليات «فريق عمل إيران وسوريا». ونظراً لتوفر الكثير من الأموال، انهالت المجموعات الإيرانية على دينهي بفيضٍ من المطالب التي بلغت أكثر من مئة في السنة الأولى، وأوصى بعضهم بإنزال أسلحة بالمظلات لدعم مقاتلي المقاومة المفترضين، وأعادوا صياغة مخططات قديمة لقلب نظام الحكم تعود إلى بداية عقد الثمانينيات. كان المنفيون القدامى الموالون للشاه هم الأسوأ فتجنّبهم دينهي. تجمّع أنصار الشاه الكبار في السن في لوس أنجلوس، وسعوا جميعهم للحصول على هبات وزارة الخارجية، علماً أنّ أياً منهم لا يؤيّد الديمقراطية في الواقع بل يفضّل العودة إلى عهد الشاه. واستذكر دينهي أن كلّ واحد منهم أراد أن يُكلَّف هو بالمسعى ورفض التعاون مع الآخرين[1154].

بدلاً من ذلك ركّزت وزارة الخارجية على دعم جماعات داخل إيران تدعو إلى تعزيز حقوق الإنسان وحرية التعبير والمزيد من الانفتاح والمشاركة الحرة في العملية السياسية. تواصل دينهي مع جمعيات خاصة، لاسيما في أوروبا، تربطها علاقات وخطوط تواصل مع المجتمع المدني وحركات الإصلاح داخل إيران، كما أقام علاقات مع منظمات غير حكومية قد يسعها المشاركة أو التنسيق من أجل الجهود الإصلاحية خارج قنوات الحكومة الأميركية الرسمية[1155]. كانت لبعض هذه المنظمات علاقات قائمة مع وزارة الخارجية الأميركية، لاسيما «مؤسسة الولايات المتحدة للدفاع عن الديمقراطيات» المحافظة. وقدّمت الحكومة الأميركية منحاً للمساعدة في إطلاق منظمات مثل «مركز إيران لتعزيز حقوق الإنسان في جامعة ييل»، الذي تلقّى مبلغاً قدره 1,6 مليون دولار لتعزيز الحرية وبناء منظمات سياسية بديلة داخل إيران والقيام بحملة من أجل حقوق الإنسان.

وعملت ليز تشيني جاهدةً على توسيع برنامج الإعلام الخارجي التابع لوزارة الخارجية. ووزّعت السفارات والقنصليات الأميركية مجلات إلكترونية وبرامج على الإنترنت وأقراصاً مدمجة وكتباً على أمل الوصول إلى المواطنين الإيرانيين الذين يسافرون إلى بلدان الخليج الأخرى.

وتركّزت جهود أخرى على توسيع نطاق البثّ من إذاعة «صوت أميركا» والمحطة الفارسية في «إذاعة أوروبا الحرة/محطة إذاعة الحرية الفارسية وإذاعة فاردا» ليصل إلى إيران. وعمل مسؤولون مع أكاديميين وإيرانيين في لوس أنجلوس على تطوير أفضل الرسائل لتحدث صدىً لدى الإيرانيين[1156]. وعلى رغم أن ميثاق «صوت أميركا» ينصّ على توفير أخبار «دقيقة» و«موضوعية»، أرادتها ليز تشيني وآخرون في الإدارة أن تكون وسيلةً دعائية، وشعروا بالإهانة عندما بدا البثّ متعاطفاً أكثر مما ينبغي مع إيران.

كتب موظف صغير وطالب سابق لولفووفيتز يعمل في مكتب مارك كيميت للشرق الأوسط في وزارة الدفاع تقريراً تمّ تسريبه في وقت لاحق انتقد فيه بشدة «إذاعة صوت أميركا» قائلاً إنه «كثيراً ما تدعو الإذاعة ضيوفاً يدافعون عن رواية الجمهورية الإسلامية (في إيران) للأحداث وتخفق الإذاعة دوماً في الحفاظ على التوازن عبر عدم دعوتها ضيوفاً متنورين يمثّلون المنظور الآخر في القضية نفسها»[1157]. وبدأ نجل الشاه رضا بهلوي يبرز كثيراً كقوة مواجهة موازية؛ ومع أنه روّج بالتأكيد لآراء معادية لرجال الدين بكل ما في الكلمة من معنى، إلا أنّ شعبيته اقتصرت على دائرة صغيرة فقط من المنتقدين المتشددين للحكومة الإسلامية في واشنطن العاصمة. كما أنّ نجل الشاه لا يحظى بأيّ مكانة لدى الشعب الإيراني أو أي دعم ما جعل ظهوره يشوّه الرسالة الأميركية وحسب.

لم تلقَ مبادرة حرية إيران قبولاً لدى جميع العاملين في وزارة الخارجية، فحصر دينهي مسار البرنامج بين وكالتين وزاريتين هما «مكتب الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمل» و«مكتب شؤون الشرق الأدنى»، وكانت لكلٍّ منهما نظرته حول كيفية تشغيل البرامج. كما أدّت تداعيات الحرب على العراق إلى معارضة بعض الدبلوماسيين للمحافظين الجدد، وكان دينهي من هذه الفئة. ورأى مسؤولون آخرون في الشؤون الخارجية أن الجهد المبذول لم يترك أيّ تأثير يذكر على الشعب الإيراني الذي لا يزال يدعم الجمهورية الإسلامية إلى حدٍّ كبير. واتفق آخرون مع هيلاري مان، وهي مسؤولة سابقة في إدارة بوش تحولت إلى منتقد لها، عندما قالت: ما زالت إدارة بوش تريد تغيير النظام وتحاول الآن تحقيق ذلك تحت غطاء الترويج للديمقراطية.

اعتبرت إيران، عن حق، هذه الأعمال والنشاطات كلها محاولة لقلب نظام الحكم باستخدام «القوة الناعمة»، ووصفت الصحف الإيرانية هذا المخطط الأميركي بأنه «بيت عنكبوت»، أيّ شبكة كبيرة من التخريب تموّلها الولايات المتحدة وتمتد لتطال أي شخص في الغرب يبدو عازماً على نشر الأفكار الليبرالية. وردت الحكومة بتضييق الخناق وتجديد الخطط الأمنية الداخلية. ووضع الباسيج (قوات التعبئة الشعبية) خططاً عسكرية جديدة للتعامل مع المعارضة الداخلية، وزجّت هذه القوات بأربعة أميركيين من أصول إيرانية في السجن متّهمةً إياهم بالتجسس. وكان أحد هؤلاء

المعتقلين هالة اسفندياري، الجدة البالغة من العمر سبعة وستين عاماً، وتحمل الجنسيتين الإيرانية والأميركية وتعمل باحثةً في «مركز راند ويلسون للسياسة العامة في الشرق الأوسط»، فقد اعتُقلت في مطار طهران عندما وصلت لحضور جنازة عائلية وأمضت 110 أيام في سجن «أفين» قبل أن يطلق سراحها بكفالة قدرها 300,000 دولار[1158].

في النهاية، لم يُعرف إذا ما أثّر شيءٌ من ذلك في النظام أم لا. فثلاثة أرباع السكان تقريباً تصلهم الأخبار عبر وسائل الإعلام التي تديرها الدولة الإيرانية، وعدد قليل من السكان المقيمين خارج المدن بوسعهم الوصول إلى الإنترنت. حظيت «إذاعة بي بي سي» و«راديو فاردا» بشعبية، لاسيما بين الطلاب دون سن الثلاثين، على الرغم من قيام إيران بالتشويش بانتظام على بثّ الإذاعتين. كما لاقى موقع «مكتب برامج الإعلام الخارجي» في وزارة الخارجية على شبكة الانترنت الناطق باللغة الفارسية نجاحاً، وقد تمّ إطلاقه برعاية باول في شهر أيار/مايو 2003، وأصبح مصدراً لنقل المعلومات على نطاق واسع داخل إيران، وغالباً ما كانت وسائل الإعلام الإيرانية تستخدمه كمصدر للمعلومات[1159]. واصلت وزارة الخارجية توسيع نجاحاتها خلال الولاية الرئاسية الثانية، وأوقفت الحكومة الإيرانية ما بين عامي 2004- 2005 أكثر من خمسين مزوّد خدمة إنترنت عن العمل لعدم الامتثال لأوامر تثبيت «فلاتر» للإنترنت في محاولتها كبح مصادر التضليل الأجنبية هذه. بيد أن الرقابة الإيرانية لم تنتبه إلى الجهود الأميركية الرامية إلى الالتفاف على جدران الحماية وإلى الإبداع الملحوظ لمؤيدي الديمقراطية الملحوظ في التحايل على ضوابط الحكومة مما سمح بتبادل المعلومات والأفكار، أقلّه بين عدد قليل من الإيرانيين الذين لهم وصول دائم إلى أجهزة الحاسوب.

في آب/أغسطس من العام 2005، وبسبب انتهاء ولاية خاتمي الرئاسية، انتخب الإيرانيون محمود أحمدي نجاد رئيساً سادساً للجمهورية الإسلامية. ولد نجاد في شمال إيران، وكان الطفل الأوسط في عائلة كبيرة، وكان والده يعمل في الحدادة تارةً وفي البقالة تارةً أخرى. اجتاز نجاد امتحانات القبول في الجامعة بالتزامن مع الثورة، وكان على غرار الكثيرين من الطلاب مؤيداً ناشطاً لإسقاط الشاه، وشاطر أبناء جيله خبرة الحرب، فخدم في الحرس الثوري في خلال النزاع الذي استمر ثماني سنوات مع العراق، وحافظ على علاقاته بالحرس الثوري. ترقى في المراتب السياسية من خلال هذه القاعدة القوية، وأصبح في نهاية المطاف رئيساً لبلدية طهران قبل أن يرتقي إلى الرئاسة.

كان الرئيس الجديد سياسياً علمانياً وفقاً لمعايير الجمهورية الإسلامية حيث تستند قاعدة سلطته إلى المحافظين في الحرس وليس إلى رجال الدين أو المرشد الأعلى للثورة. وكان أحمدي نجاد شعبوياً، ويخلط في خطابه الصريح بين العدالة الاجتماعية والعقيدة الثورية بطريقة تحاكي الفقراء والبسطاء، وأمكنه أن يكون حضارياً، وكان يدرك أهمية الدفع بالخطاب الإيراني نحو الغرب، وكثيراً ما سافر إلى أوروبا وحتى إلى الولايات المتحدة، وتعاطى بانفتاح مع الصحافة الأميركية.

أعطى انتخابه على الفور مادة إضافية للذين يطالبون بسياسة متشددة تجاه إيران. رفضت ليز تشيني العملية الانتخابية برمتها قائلةً في خلال أحد الاجتماعات إن هذا النظام ينتقي رؤساءه وحسب وينتخبهم. وطرح رامسفيلد سؤالاً: هل زُوِّرت الانتخابات؟ فردّ بيتر رودمان بتقارير عن تزوير واسع النطاق، لكن الأدلة التي قدّمها والتي تدعم هذا الردّ بدت ضعيفة، ومن بينها أن الإيرانيين لم يسمحوا لعدد من النساء بالتصويت نظراً لأن ملابسهن لم تكن لائقة. وجد مراقبون من ذوي الخبرة العملية في شؤون إيران أن العملية الانتخابية شابتها عيوب لكنها كانت قانونية، في ما عدا فرض القيود على المرشحين لمنصب الرئاسة من قبل مجلس صيانة الدستور[1160].

شكلت إعادة تفعيل البرنامج الإيراني لتخصيب اليورانيوم إحدى أولى الخطوات التي اتّخذها الرئيس الإيراني الجديد. وعلى الرغم من أن إيران تتمتع بحق التخصيب بموجب معاهدة حظر الانتشار النووي، إلا أن سجلها حافل بالخداع بشأن برنامجها ما أثار ريبة واشنطن ودول الاتحاد الأوروبي الثلاث الكبرى التي قطعت محادثاتها معها لفترة وجيزة. كما أثار تشكيك الرئيس الإيراني الجديد واستخفافه بالمحرقة اليهودية القلق، يُضاف إلى ذلك تصريحاته الاستفزازية المقصودة بشأن محو إسرائيل عن الخريطة. ونبذ المنتقدون الحكومة الإيرانية بوصفها حكومة رؤيوية تهدف إلى استحضار الإمام الغائب أو المهدي المنتظر كنذير بيوم القيامة ونهاية العالم.

«السيد أحمدي نجاد والنظام الإيراني مُدمِّران»، هذا ما قاله مدير وكالة الاستخبارات المركزية السابق جيمس وولسي خلال جلسة استماع ودية في مجلس الشيوخ في تشرين الثاني/ نوفمبر 2005م[1161]. وعلى الرغم من أن خبراء واقعيين كثراً في شؤون إيران عارضوا فكرة أن يكون لمعتقدات أحمدي نجاد الدينية تأثير في سياساته أكبر مما لمعتقدات بوش من تأثير بوصفه مسيحياً متجدّداً وينتظر المجيء الثاني للمسيح، إلا أن اللهجة المتشددة الواثقة من نفسها الصادرة من طهران أثارت مشاعر أولئك الذين دعوا طويلاً لإسقاط النظام. واصل نيوت غينغريتش رفع شعار إسقاط النظام الذي يردده منذ عقد من الزمن، لكنه أضفى عليه الآن صبغة هرمجدون (نهاية العالم): «أعتقد أن أي شيء غير تغيير الحكومة الحالية خارج أساساً عن الموضوع، وأعتقد أنّ عليكم أن تتوقعوا رؤية حرب كبرى في مرحلة ما من حياتكم، وقد تكون حرباً نووية إن لم يتم تغيير هذه الحكومة»، ودعا إلى خلطة من العقوبات، وإلى دعم مفتوح للمعارضة الإيرانية، وإلى دعم مبطن للمجموعات العرقية الإيرانية المعارضة للحكومة المركزية الفارسية[1162].

وعلى الرغم من أنّ أكثر وجهات النظر تطرفاً، أيّ تلك التي تدعو إلى استخدام القوة لتغيير النظام الإيراني، لم تحظَ بالقبول لدى الإدارة المتورطة في حربين، إلا أنّ المسؤولين الأميركيين صدّقوا الشائعة التي تقول إن السؤال الأول الذي يطرحه أحمدي نجاد كل صباح عند اطّلاعه على نشرة تقاريره اليومية هو: «هل هناك رؤى مؤكدة عن المهدي؟»

في شهر أيار/مايو من العام 2006، أرسل أحمدي نجاد رسالة وعظية طويلة إلى بوش كانت على السواء خطاباً دينياً وسياسة موضوعية. ادّعى أحمدي نجاد في هذه الرسالة، التي صادق عليها المرشد الأعلى للثورة، أنه أراد بها بدء حوار مع واشنطن. اعتقد نجاد على ما يبدو أن بوش،

بوصفه مسيحيّاً متديّناً، سيردّ بشكل إيجابي على الخطاب الديني الشيعي الذي تضمّنته هذه الرسالة[1163].

علم البيت الأبيض لأول مرة بالرسالة عندما قرأ عنها في الصحف. وفي حين لم توضح الإدارة نواياها، بدا أنّ الدخول في نقاش حول الدين هو آخر ما يريده مستشارو بوش، فهذا النقاش لن يؤدي إلا إلى إضافة المزيد من الشرعية إلى حكم الرئيس الإيراني. واعتبر نيكولاس بيرنز أن إيصال الرسالة إلى الرئيس عبر القنوات العامة بدلاً من الخاصة هي حيلة دعائية وليست انفتاحاً جدياً، وقال رافضاً عرض أحمدي نجاد إن «العرض يوحي بمدّ اليد ولكن ليس بطريقة ذات مغزى»[1164]. ومرّة أخرى رفضت حكومة الولايات المتحدة الرد.

عقد هادلي اجتماعاً رفيع المستوى بعد مرور وقت قصير على انتخاب الرئيس أحمدي نجاد لمناقشة تداعياته، فقد أكّد الانتخاب الكثير من الآراء المسبقة. بدا انتخابه انتصاراً للمتشددين في إطار عملية مزورة، ما يجعل الحكومة فاقدة للمصداقية في نظر الشعب الإيراني. وعرض ممثل وكالة الاستخبارات المركزية خريطة أظهرت وجود العديد من الانقسامات العرقية داخل البلاد، فتحول النقاش إلى المنافع الناتجة عن استغلال هذه الانقسامات. ففي ايران، يشكّل الإيرانيون من غير الفرس نحو 40 بالمئة من مجموع السكان الذين يبلغ عددهم 70 مليون نسمة، وقد أسّس الكثيرون منهم، مثل الأكراد في الشمال الغربي والبلوش في الجنوب الشرقي، حركات تمرد تقاتل الحكومة المركزية. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة على علم بالدول الداعمة لهذه الحركات، مثل جند الله في بلوشستان، إلا أنّ احتمال نجاحهم لم يلقَ صدىً إيجابياً في واشنطن، وقال مسؤول سابق في إدارة بوش: «إن تقسيم إيران هو آخر شيء نريده. وقد بذلنا كل ما في وسعنا في حينه لتجنّب حصول كارثة كهذه في العراق»[1165].

عرضت رايس رداً مدروساً قائلةً: «إننا بحاجة إلى اعتماد استراتيجية طويلة الأمد لإضعاف الموقف الجيوستراتيجي الإيراني»، واقترحت زيادة الدعم للبنان كوسيلة لتقويض حزب الله أو «تقويض بعض أصدقاء إيران الإرهابيين»، على حد تعبير رايس. أدّى ذلك إلى مجموعة أخرى من الإجراءات لدعم «خطة عمل إيران» تقضي «بتعزيز موقع الحكومة اللبنانية» فقدّمت الحكومة الأميركية على مدى العامين التاليين مساعدات اقتصادية وعسكرية للبنان بلغت 885,5 مليون دولار لتقويض حزب الله وإيران[1166]. ولكن لم تثبت كل هذه المساعدات فعاليتها، ففي محاولة لتحسين وضع الشرطة اللبنانية الضعيفة قدّمت الولايات المتحدة عشرات السيارات من طراز دودج تشارجر (Dodge Chargers) لأجهزة الشرطة اللبنانية، فانتهى المطاف بالكثير منها في السوق السوداء حيث تم بيعها، لتظهر فجأةً كلها في الشوارع اللبنانية حيث استمتع الشبان بقيادة سيارات قوية رباعية الدفع على حساب دافعي الضرائب الأميركيين.

اقترح وزير الدفاع بيتر رودمان استنساخ المؤتمر الوطني العراقي، وذلك بجمع المنفيين الإيرانيين معاً وتنظيم قواهم ضمن جبهة موحدة ضد إيران، آملاً أن يعزز ذلك وحدة الإصلاحيين

وأن تُترجم هذه الوحدة فعلاً ملموساً داخل إيران. واقترح آخرون استنساخ القوات العراقية الحرة التي استُخدمت في الغزو الأميركي للعراق، لكن هذه الفكرة أثبتت فشلها، فبعد إنفاق 93 مليون دولار لم يشارك سوى مئة عراقي في التدريبات في معسكر المجر. لكن لوتي اعتقد أن سبب فشل الفكرة هو معارضة الجيش وبخاصة تومي فرانكس لها وليس حيثيات العملية. واقترحت وزارة الدفاع التقرّب من مجموعات خاصة ومن منفيين إيرانيين لاستكشاف مسألة تنظيمهم، أو ربما حتى الطلب من وكالة الاستخبارات المركزية إنشاء حركة ديمقراطية داخل إيران. واعتقد لوتي أنّه لو تم القيام بذلك مع بداية الإدارة لكانوا قد قطعوا الآن نحو عقد على طريق الثورة السلمية في إيران.

قُوبل ذلك بالتشكيك من غير المدنيين في البنتاغون والبيت الأبيض. لم تنظر جهات أخرى في الحكومة بحنين إلى تجربة القوات العراقية الحرة والمؤتمر الوطني العراقي بقيادة الجلبي، لاسيما في ضوء تلك العلاقات المشكوك فيها مع إيران والمعلومات الاستخباراتية حول أسلحة الدمار الشامل العراقية. بذلت وكالة الاستخبارات المركزية جهوداً مماثلة في مطلع الثمانينيات، عندما كان عدد كبير من الإيرانيين لا يزال يتعاطف مع الولايات المتحدة، لكنها فشلت في تحقيق أي نجاحات في الجيش أو الحكومة الإيرانية، فماتت فكرة رودمان بين مشاورات أبرامز ومجموعة عمل إيران التابعة لتشيني.

ظهرت فكرة إعادة فتح القنصلية الأميركية في طهران خلال المناقشات التي بُحثت حول كيفية التأثير في إيران. في 16 كانون الأول/ديسمبر 2005، اجتمع كبار المسؤولين في المبنى التنفيذي القديم المجاور للبيت الأبيض لمناقشة فكرة إنشاء قنصلية في إيران. قدم جيه دي كراوتش ورقة تضمنت عدداً من الخيارات، بدءاً بافتتاح قسم بسيط لرعاية المصالح في السفارة السويسرية أو البولندية (حيث يُنظر إليهما بوصفهما أكبر حليفين داعمين لاسيما بشأن العراق) وصولاً إلى بعثة قنصلية أكبر يحرسها ضباط الاستخبارات الخارجية الأميركية. فمن شأن هذا الوجود المباشر في طهران أن يوفر مكاناً أفضل لدفع البرامج الداعمة للديمقراطية قدماً من خلال تيسير حصول الطلاب الإيرانيين على تأشيرات وإجراء اتصالات مباشرة مع الشعب الإيراني من قبل المسؤولين الأميركيين، وسيسمح للإيرانيين الأكثر فقراً بالوصول إلى الولايات المتحدة بدلاً من أن يسافروا إلى دبي أو أي دولة أخرى لتقديم الطلبات والحصول على تأشيرات سفر أميركية.

أحب الفكرة كلٌّ من قائد القيادة المركزية جون أبي زيد ورئيس هيئة الأركان المشتركة بيتر بيس، إذ أملا بشكل خاص أن يؤدي ذلك إلى محادثات مع الجيش الإيراني والتقليل من إمكانية نشوب حرب غير مخطط لها في الخليج. اتّفق مايكل سينغ، الذي احتفظ بحقيبة الشؤون الإيرانية في مجلس الأمن القومي، مع الجنرالين ودفع بفكرة إنشاء قسم لرعاية المصالح في طهران. على الصعيد العملي، لم يتوهم سينغ البراغماتي طبعاً أن تؤدّي هذه الخطوة إلى أي تحسن في العلاقات بين البلدين، وقال: «كانت الفكرة وسيلةً أكثر منها استراتيجية»، لكنه اعتقد أنها ستسمح بفهم إيران وحكومتها الغامضة بصورة أفضل ما يساعد الولايات المتحدة على وضع استراتيجية أفضل لمواجهة الجمهورية الإسلامية، كما سيظهر للعالم أن إيران هي من يقف عقبة أمام تحسين العلاقات لا الولايات المتحدة.

لم تجد الفكرة الكثير من المؤيدين فقد عارضها ديك تشيني وكذلك فعل إليوت أبرامز، لأن أي اتصال دبلوماسي مع إيران يضفي الشرعية على حكم رجال الدين. وقلق هادلي من أن تبدو الخطوة تنازلاً لإيران، إذ سترسل بذلك إشارة خاطئة بعد مرور ثلاثين عاماً على غياب الوجود الدبلوماسي الأميركي في طهران. إن إعادة العلاقات الدبلوماسية خطوة هامة، ولا بد للولايات المتحدة من أن تقدّم بعض التنازلات الكبرى ولكنها تحتاج في المقابل إلى خطوة مماثلة وواضحة وإلا بدا الأمر كما لو أن واشنطن قد استسلمت[1167]. وعارض وليام لوتي الفكرة على الرغم من اعترافه بأنها توفر وسيلة لعودة وكالة الاستخبارات المركزية إلى إيران. وتحفّظ جون ليمبرت على الفكرة أيضاً، فبوصفه أحد الرهائن السابقين من رهائن السفارة وأحد الخبراء الكبار القلائل في الشأن الفارسي المتبقين في الجهاز الخارجي فقد رأى أن على الولايات المتحدة ألاّ تجازف بإرسال دبلوماسيين فيما تواصل إيران التغنّي بالاستيلاء على السفارة عبر إصدار طوابع بريدية ورعاية المسيرات علناً في الرابع من تشرين الثاني/ نوفمبر من كل عام[1168]. فماتت الفكرة.

وفي حين كان الخطاب داخل مجلس الأمن القومي يعارض الدبلوماسية مع طهران، فإن المرأة الوحيدة التي كان الرئيس يصغي إليها باهتمام كانت ترى الأمر بشكل مختلف. عندما كانت رايس مستشارة الأمن القومي تبنّت وجهة نظر الدبلوماسيين التي تركّز على ضرورة التعامل مع إيران بدلاً من فرض وجهة نظر البيت الأبيض عليها، واختارت الدبلوماسية لحل الأزمات مع الخصمين الرئيسين إيران وكوريا الشمالية. وسرعان ما تضارب ذلك مع وجهات نظر نائب الرئيس، الذي يعتبر الحديث مع هذين البلدين مضيعةً للوقت والجهد، وكتب تشيني في مذكراته: «قدمت رايس تنازلاً تلو الآخر للكوريين الشماليين وغضّت الطرف عن جرائمهم وآثامهم»[1169]. وفي حين اتفق أبرامز وآخرون في الرأي مع نائب الرئيس في ما يتعلق بإيران، كانت علاقة رايس الوثيقة بالرئيس (وهادلي) تسمح لها بتجاوز التسلسل الهرمي والحصول على موافقة بوش دون أن يدرس أفكارها أبرامز أو أن تُعرض على مجلس الأمن القومي. «كان تشيني ورايس على خلاف»، كما قال أحد المسؤولين الذين عملوا على الملف الإيراني في مجلس الأمن القومي خلال فترة الولاية الثانية. «أراد تشيني اتخاذ موقف أكثر تشدداً تجاه إيران». وقد وضع هذا الأمر المستشارين القويين على طرفي نقيض، فتأرجحت سياسة بوش وترددت مرة أخرى.

كانت وزيرة الخارجية رايس تأمل في تحسين فرص الدبلوماسية من خلال التواصل مع الداعمَين الرئيسَين لإيران، أي الصين وروسيا، وإشراكهما مع الدول الأوروبية الثلاث في المفاوضات مع إيران. حاولت الولايات المتحدة اجتذاب فلاديمير بوتين خلال ولاية بوش الأولى بعدما نجح جون بولتون في إقناع الرئيس بوش بمناقشة هذه المسألة مع الرئيس الروسي في ربيع العام 2002. وعلى الرغم من أن بوتين أبلغ بوش أنه ينظر أيضاً إلى إيران على أنها تهديد أمني، إلا أنّ تصريحاته العلنية وتصرفاته جاءت مغايرة تماماً. ضغط بولتون على الوكالة الدولية للطاقة الذرية كي تتصرف، لكن عملها كان بطيئاً جداً بالنسبة إليه فألقى باللوم على باول لتدليله الأوروبيين خلال المفاوضات المتواصلة على الرغم من الكشف عن حالات خداع إيراني عديدة تُظهر الهدف

الحقيقي لطموحات إيران النووية[1170]. بذلت رايس الجهود مجدداً في العام 2005، وسافرت إلى موسكو في تشرين الأول/أكتوبر في محاولة منها للتأثير في فلاديمير بوتين وحمله على تغيير رأيه بشأن الخطر الذي تشكّله إيران المسلحة نووياً بعدما وجدت وكالة الطاقة الذرية أن إيران لا تمتثل لشروط معاهدة حظر الانتشار النووي وأحالت القضية إلى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

تابع نيكولاس بيرنز القضية وقام بإحدى عشرة رحلة إلى أوروبا ما أدى إلى صدور قرار جديد عن الأمم المتحدة يدعو إيران إلى وقف تخصيب اليورانيوم. وبدأت الولايات المتحدة بحملة رأي عام داعمة لتقويض حجة طهران فيما يخصّ قدرتها على التخصيب ولتسليط الضوء على انتهاكات إيران لمعاهدة حظر الانتشار النووي وشروط الوكالة. ساعد جون بولتون في وضع هذه السياسة من خلال لقائه رئيس وكالة الطاقة الذرية لمواصلة الضغط على إيران عبر الحدّ من عمليات نقل التكنولوجيا التي تساعد برنامجها وعمليات التفتيش النووية الصارمة. ردّت إيران على الاتهامات بالتحدي واستئناف تخصيب اليورانيوم.

في نيسان/أبريل من العام 2006، قضت كوندوليزا رايس عطلة عيد الفصح في شقتها في مجمع ووترغيت الشهير في واشنطن حيث وضعت اقتراحاً من صفحتين حول استراتيجية جديدة بخصوص المحادثات النووية مع إيران. وكانت رحلتها الأخيرة إلى أوروبا قد كشفت عن انقسامات بين الدول الست المشاركة في المفاوضات، وقد استغلت الدبلوماسية الإيرانية البارعة هذه الخلافات. أوصت رايس باستراتيجية ذات مسارين، فمن ناحية عرضت الولايات المتحدة على إيران حوافز جريئة للتخلي عن برنامج إنتاج الوقود النووي كله، ومن ناحية ثانية اقترحت فرض عقوبات قاسية إن لم تمتثل. أشارت رايس، كجزء من خطتها، إلى إمكانية أن تلعب الولايات المتحدة ورقتها الرابحة: الجلوس فعلاً مع إيران إلى طاولة حوار والتحدث إليها[1171]. قال منسق السياسة الخارجية في الاتحاد الأوروبي خافيير سولانا لرايس: «الإيرانيون يريدون أميركا. هذا كل ما يريدونه - أميركا»[1172]. وسوف تقوم الولايات المتحدة بتغيير مواقفها القائلة بنزع الشرعية عن الحكومة الإيرانية وتجتمع بمسؤوليها تشجيعاً لها إذا ما وضعت حداً لتخصيب اليورانيوم. أثار ذلك اهتمام الرئيس بوش لكنه بقي غير مقتنع.

في 19 أيار/مايو من العام 2006، حضرت رايس اجتماعاً في مجلس الأمن القومي للمضي قدماً بالمبادرة، واقترحت إعادة إشراك أعضاء مجلس الأمن الخمسة وألمانيا في تقديم سلسلة من الحوافز مقابل أن توقف إيران عمليات التخصيب وأن تتخلى عن مخططاتها لصنع سلاح نووي. وستواصل الولايات المتحدة متابعة مسارات عدة تتراوح بين المحادثات وفرض العقوبات. وفي حال وافقت إيران على وقف تخصيب اليورانيوم فسوف تعمل الولايات المتحدة على الإفراج عن بعض الأصول الإيرانية وتعليق أي عقوبات إضافية. ولعل الأهم هو أن الولايات المتحدة ستنضم إلى المحادثات المباشرة مع إيران بشأن أي قضية. واقترحت رايس نقل هذا العرض مباشرةً من خلال قنوات معتمدة إلى كبير المفاوضين الإيرانيين ورئيس هيئة الأمن القومي في إيران علي لاريجاني. ولمرة، أيّد التجمّع هذه الفكرة، حتى إنّ نائب الرئيس وافق عليها، وقال وفقاً لأحد المصادر: «سيكون العرض ناجعاً إلى حدٍّ كبير لأنه سيردّ الكرة إلى ملعب إيران ويجبرها على

الاختيار، وفي حال فشل العرض فلن يكون هناك أدنى شك بأن إيران هي التي أفشلته». من ناحيته، خشي بوش أن يُنظر إلى العرض على أنه مكافأة لإيران، لاسيما أن أفعالها في العراق قوّضت إلى حدٍ كبير جهود الولايات المتحدة. لكنه لم يشأ أن يُتَّهم بأنه لم يسعَ إلى إيجاد أي خيار آخر لحل الأزمة النووية. كان بوش يحب هذا النوع من الإجماع، ولأن رايس كانت تمتلك تأثيراً عليه فقد رجّح رأيها الكفّة.

وافق الرئيس بوش في شهر أيار/مايو على المبادرة، فأعلنت رايس علناً أنّ الولايات المتحدة مستعدة للجلوس إلى طاولة المفاوضات مع إيران لمناقشة القضية النووية الإيرانية أو أي موضوع آخر تريده إذا ما أوجدت هذه الأخيرة الظروف المناسبة للمفاوضات عبر التزامها بقرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القاضي بتعليق جميع أنشطة تخصيب اليورانيوم ومعالجة الوقود النووي. كما ألمحت إلى إمكانية أن يتبع ذلك تطبيع في العلاقات. وأصبح عرض رايس لقاء الإيرانيين في أي زمان ومكان إذا علّقوا عملية التخصيب بمثابة شعار أساسي في كل مؤتمراتها الصحافية.

ومع أن نيكولاس بيرنز أيقن بفشل المحادثات، إلا أنه رأى أن هذا لن يشكّل بالضرورة نهاية المناقشات. «ما نبحث عنه هو الالتزام المستمر. ليس الأمر أننا نحبهم - وقد عارضنا كل ما يفعلونه بنا- لكننا لم نحصل إلا على اجتماعات عرضية على مدى السنوات الثلاثين الماضية. وإذا أمكننا أن نأتي بهم إلى طاولة المفاوضات فسنتمكن من أن نكوّن فكرة عن حقيقة مقترحاتهم وأن نعرف ما إذا كان التوصّل إلى صفقة بين الولايات المتحدة وإيران أمراً ممكناً»[1173].

في 1 حزيران/يونيو 2006، اجتمع الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن فضلاً عن ألمانيا في فيينا وقدّموا إلى إيران اقتراحاً تضمّن وقف تخصيب اليورانيوم والشفافية تجاه برنامجها النووي مقابل أن تخفف الولايات المتحدة العقوبات وتسمح ببيع مفاعل الماء الخفيف، وعرض الأوروبيون المساعدة على تحديث صناعة النفط والغاز في إيران. كما لوّحت الدول الست باحتمال أن يُسمح لإيران باستئناف التخصيب إذا ما امتثلت لكل الشروط وبددت كافة المخاوف، وإذا تم التحقق من أن برنامجها سلمي[1174]. وأضافت كوندوليزا رايس التحول الكبير بالموافقة على إجراء محادثات مع إيران والجلوس معها إلى طاولة المفاوضات في خطوة طرحت تحسين العلاقات على أصعدة أخرى، وكررت مرةً أخرى أنّ هذا لن يحصل إلا بعد أن توقف إيران تخصيب اليورانيوم.

افترضت رايس أن إيران سوف تقبل الصفقة. وكان كبير المفاوضين الإيرانيين علي لاريجاني رجلاً مثقفاً وحائزاً على شهادة دكتوراه في الفلسفة الغربية، وقد قال بصفة شخصية لخافيير سولانا إنّ الشروط مقبولة، وأظهرت تصريحاته العلنية دعماً ملحوظاً للاقتراح. بل إن الرئيس بوش بدا بدوره متفائلاً، وتحدث إلى الصحفيين من مزرعته مجدِّداً العرض لإجراء محادثات مع إيران، ووصف رد لاريجاني بقوله: «يبدو الرد إيجابياً بالنسبة إليّ»[1175].

إلا إن الخلافات برزت في طهران حول ما إذا كان من الواجب الموافقة على ذلك أم لا. وبدا أن لاريجاني يؤيّد الأمر لكنه ما لبث أن تراجع. إن الطبيعة الغامضة للحكومة الإيرانية تجعل من الصعب على المسؤولين الأميركيين التأكد من مسار المشاورات في طهران، «ولكن بدا واضحاً أن ثمة خلافات في الحكومة الإيرانية في شأن قبول الاقتراح»، كما استذكر نيكولاس بيرنز. وعندما طلب الإيرانيون مهلةً إضافية تتجاوز الأسابيع الستة، وهي المدة التي حددتها الأطراف الستة، اتهمت الولايات المتحدة الإيرانيين بأنهم يحاولون المماطلة وكسب الوقت فيما يواصلون التخصيب. واعترض المرشد الأعلى للثورة على لهجة الاقتراح الاستبدادية الذي يُختصر بعبارة: أوقفوا التخصيب وإلا.

في النهاية رفضت إيران العرض. لقد أخطأت رايس في حساباتها، فورقة المحادثات المباشرة مع الحكومة الأميركية الرابحة بدت غير مهمة جداً بالنسبة إلى طهران، فنحن لم نعد في العام 2003، وبعد مرور ثلاث سنوات على بداية حرب العراق لم تعد إيران تخشى الغزو الأميركي، كما أنها لا ترغب كثيراً في التحدث إلى حكومة رفضت مراراً وتكراراً انفتاح إيران عليها. اعتبر المتشددون في إيران أنّ إصرار الولايات المتحدة على وقف التخصيب كشرط مسبق إهانة لحقوقهم في الحصول على برنامج نووي - بصرف النظر عن برامج الأسلحة غير المشروعة.

وهكذا مضت إدارة بوش في سياسة العصا، فزادت الولايات المتحدة الضغوط على إيران بدعم من روسيا والصين، وفي 26 كانون الأول/ديسمبر 2006 وافق مجلس الأمن على القرار رقم 1737 الذي يحظر إيصال التكنولوجيا النووية إلى إيران، ويجمّد أصول الجهات المشاركة في برنامجها لتخصيب اليورانيوم إلى أن تُوقف إيران التخصيب. كما طلب من الدول الحد من سفر الإيرانيين الرئيسيين المشاركين في البرنامج النووي الإيراني. وفي آذار/مارس 2007 اتّخذ مجلس الأمن إجراءات أخرى قضت بحظر بيع الأسلحة إلى إيران وتجميد أصول إضافية. وتمّ التصويت بالإجماع في آذار/مارس 2008 على القرار 1803 الذي يسمح بتفتيش الشحنات المتجهة إلى إيران ويُشتبه بأنها تنقل معدات لبرنامجها النووي، ويضغط على البنوك الإيرانية عن طريق تقييد المعاملات مع «بنك ملي الإيراني» و«بنك صادرات إيران». ونجحت الولايات المتحدة في إضافة 13 فرداً و12 شركة إلى لائحة المتورطين في البرنامج النووي الإيراني وفرض قيود على سفرهم وتجميد أصولهم.

كما جمّد الرئيس بوش أصول إيرانية إضافية بموجب مراسيم تنفيذية، وتولّى ستيوارت ليفي هذه الجهود في وزارة الخزانة بتوصية من آبي شولسكي، ونجح في إنهاء قدرة البنوك الإيرانية على التبادل مع البنوك الأوروبية. كانت هذه ضربة موجعة إلى إيران على الصعيد المالي إذ عزلت طهران عن الاقتصاد العالمي.

كما ساهم السعوديون في الجهود الأميركية، ففي 5 أيلول/سبتمبر 2006 التقى الأمير بندر وزير الخزانة هنري بولسون وأعرب عن تأييد السعودية للجهود الرامية إلى قطع التمويل عن إيران، وعرَض ترأس جولة في أوروبا للفت النظر إلى الممارسات الإيرانية المخادعة التجارية منها والمصرفية والتي ساعدتها على دعم الإرهاب. رحّبت الولايات المتحدة بهذه الفكرة، فاجتمع

في 10 تشرين الأول/أكتوبر كلٌّ من هادلي ورايس مع بندر وأعربا عن التأييد الأميركي لها، كما أبدى الرئيس الرأي نفسه خلال اجتماعه مع بندر في 10 تشرين الثاني/نوفمبر في المكتب البيضوي. زوّدت وزارة الخزانة بندر بقائمة تتضمن نقاط النقاش والمؤسسات المالية التي ينبغي له الاجتماع بها للتأكيد على أهمية عزل كلٍّ من سوريا وإيران، وقام بندر بإخلاص بالجولات في محاولة منه لإقناع الأوروبيين بقطع تعاملاتهم المالية مع إيران.

في كانون الأول/ديسمبر 2007، أصدرت أجهزة الاستخبارات الأميركية تقويماً استخباراتياً وطنياً حول البرنامج النووي الإيراني خفّف من جهود تضخيم الخطر النووي الإيراني. اعتبرت أجهزة الاستخبارات «بدرجة كبرى من الثقة، أن طهران أوقفت برنامج الأسلحة النووية في خريف العام 2003». أمر بوش برفع السرية عن أجزاء من التقرير مفترضاً أنه قد يتم تسريبه. أثار هذا التقرير ضجةً كبيرة حول جدوى مواصلة الضغط على إيران، وتبخّر أي حديث عن الخيار العسكري. وفي غمرة الجلبة التي أعقبت تسريب التقرير حول وقف إيران برنامج الأسلحة النووية تمّ نسيان حقيقة أن إيران قد شغّلت برنامجاً سرياً وأوقفت تصميم رأس حربي نووي بعد وقت قصير من الغزو الأميركي للعراق. حينذاك، كانت إيران تخشى هجوماً أميركياً فتقربت من الولايات المتحدة بصفقتها الكبرى في شهر أيار/مايو. ومع ذلك، عندما سافر بوش إلى المملكة العربية السعودية في كانون الأول/ديسمبر 2008، افتتح اجتماعه بالملك عبد الله قائلاً: «اسمحوا لي يا صاحب الجلالة أن أبدأ الاجتماع بالقول إني واثق من أن جميعكم تعتقدون أنني من كتب التقرير الاستخباراتي الوطني كوسيلة لتجنّب اتخاذ إجراءات إضافية ضد إيران. عليكم أن تفهموا نظامنا. التقويم أعدّته أجهزة استخباراتنا بصورة مستقلة، وأنا غاضب من هذا الموضوع بقدر ما أنتم غاضبون». وبالفعل، كانت السعودية ودول الخليج الأخرى غاضبة، واشتبه كثيرون منها بأن الولايات المتحدة تريد التوصل إلى تسوية سريّة مع إيران.

كتب بوش: «لم يؤدِّ تقويم الاستخبارات الوطني إلى تقويض الجهود الدبلوماسية وحسب، بل ومنع يدَيّ أيضاً من أن تمتد إلى الخيار العسكري»[1176]. وانتهى الحديث داخل الإدارة عن ضربات عسكرية ضد منشآت إيران.

ردت إيران بزيادة عدد أجهزة الطرد المركزي وتوسيع عملية التخصيب. في نيسان/أبريل 2008، أعلن الرئيس أحمدي نجاد خلال زيارةٍ له إلى مجمع التخصيب الرئيس في نطنز عن بدء عملية تركيب ستة آلاف جهاز طرد مركزي في الموقع، أيّ ضعف العدد الذي يقوم حالياً بتخصيب اليورانيوم، وواصلت إيران التأكيد على الطابع السلمي لبرنامجها النووي، وشددت على الفتوى التي أصدرها المرشد الأعلى للثورة ضد الأسلحة النووية في العام 2005، ودعا فيها إلى شرق أوسط خالٍ من الأسلحة النووية. قال آية الله علي خامنئي: «إننا على استعداد للتفاوض في شأن الضوابط، وعمليات التفتيش، والضمانات الدولية»، لكنه كان يرى أن البرنامج النووي حق من حقوق بلاده بموجب معاهدة حظر الانتشار النووي، وأنّ أي جهد لوقف هذا البرنامج سيكون بمثابة اعتداء على حق إيران في الحصول على الطاقة النووية.

حاولت إدارة بوش مع اقتراب انتهاء ولايتها الحفاظ على ضغوط خفيفة لحل المواجهة النووية مع إيران. وعرضت القوى الست مبدأ «التجميد مقابل التجميد»، أي الاتفاق مع إيران على

عدم توسيع برنامجها مقابل عدم فرض عقوبات إضافية، واشتمل الاتفاق على حزمة جديدة من الحوافز الاقتصادية والسياسية مقابل وقف تخصيب اليورانيوم. وطلب البريطانيون من الولايات المتحدة إرسال دبلوماسي أميركي إلى طهران ليقدّم العرض الأخير إلى إيران، لكن الأميركيين رفضوا[1177]. وبدلاً من ذلك، شارك وليام بيرنز، الذي حلّ محل نيكولاس بيرنز[1178] كمساعد لوزيرة الخارجية للشؤون السياسية، في يوم سبت من شهر تموز/يوليو 2008، في المحادثات الجارية في مدينة جنيف بين إيران والدول الست حيث استمرت المفاوضات مع إيران أكثر من ثلاث سنوات. أصبح اجتماع الأميركيين بالإيرانيين على طاولة واحدة مشهداً عاماً، إلا أن بيرنز لم يتحدّث إلى نظيره الإيراني على انفراد أبداً. أراد الوفد الأميركي أن يظهر أن الهدف من تواجده المخطَّط له مسبقاً هو دعم المحادثات، وكرّر أن أيّ محادثات إضافية ينبغي أن تستند إلى شرط مسبق وهو وقف تخصيب اليورانيوم من قبل إيران، إلا أنّ إيران رفضت مجدداً الشرط المسبق.

في النهاية، فشلت الولايات المتحدة في وقف البرنامج النووي الإيراني، لكن الإدارة قطعت شوطاً كبيراً على طريق العقوبات ما سيخلّف أثراً عميقاً في إيران مع مرور الوقت. ظهرت إدارة بوش خلال ولايته الثانية أكثر تماسكاً في شأن إيران، لكن الخلافات أضرّت مرة أخرى بسياستها المتماسكة. انتصرت وجهة نظر رايس التي دعت إلى مسار مزدوج من العقوبات والدبلوماسية بسبب علاقتها الشخصية بالرئيس وغطت على الأصوات الداعية إلى تجاهل إيران. وأدت هذه المشاحنات الداخلية إلى تقويض سياسة نابضة بالحياة. كانت مقاربة «الحرية ضد الاستبداد» قد نجحت كثيراً في تقويض الدعم الشعبي للاتحاد السوفيتي في الحرب الباردة، وسعى كلٌّ من رايس وبوش في أيلول/سبتمبر إلى إيجاد برامج مماثلة تهدف إلى تقويض الحكومة الإيرانية من خلال توفير المعلومات المفتوحة. ولكن هذا كان يتناقض مع مواقف المتشددين الذين أرادوا عزل إيران، وأقلقهم أن توفّر هذه البرامج فرصةً لقدوم المزيد من الطلاب الإيرانيين إلى الولايات المتحدة فيعملون على نقل التكنولوجيا الخطيرة إليها، فضلاً عن إمكانية قدوم الجواسيس الإيرانيين إلى داخل الولايات المتحدة. هذه المواقف أسقطت النيّة التي وُضعت على أساسها أجندة الحرية. لقد تصرّفت الولايات المتحدة بشكل أعمى حين رفضت إجراء محادثات مع إيران، وكانت قدرة الدبلوماسيين الأميركيين ومحللي الاستخبارات على فهم آراء الشعب الإيراني أو حكومته ضعيفة، فاعتمدوا إلى حدٍّ كبير على أطراف ثالثة للحصول على المعلومات وفهم البلاد. في نهاية المطاف، ارتكزت السياسة الأميركية على الأحكام المسبقة والافتراضات بدلاً من أن ترتكز على الواقع.

كانت العراق هي المنطقة الوحيدة التي اتفقت عليها جميع الأطراف في الحكومة الأميركية وأثبتت الوقائع ذلك على نحو لا جدال فيه. فتح الغزو الأميركي للعراق الباب أمام النفوذ الإيراني، فسعت إيران إلى تعزيز سلطتها. وعلى الرغم من أن إيران بدت مستعدة لعقد اتفاق مع الولايات المتحدة في العام 2003، عندما كانت خائفة منها، إلا أنها لم تعد تشعر بالحاجة إلى هذا الاتفاق مع ولاية بوش الثانية. بدلاً من ذلك، قرر الحرس الثوري معاقبة سلطة «الاستكبار العالمي»، فبينما كانت الولايات المتحدة تناقش برنامج إيران النووي بدأ فيلق القدس السري شبه حرب ضدّ الأميركيين. وللمرة الأولى منذ حرب الناقلات وعملية «الإرادة القوية» إرنست ويل (Operation

Earnest Will)، أخذ البلدان يتجهّزان لحرب على مستوى منخفض، كما أن القيادة المركزية الأميركية رسمت خطة جديدة لقتال إيران فانتقلت الحرب من الشفق إلى الظلام.

الفصل السادس والعشرون

شبه حرب

بينما كانت واشنطن تتهيأ للاحتفال بعيد الميلاد في العام 2006، اجتاز موكب الرئيس بوش ونائبه ديك تشيني المسافة القصيرة التي تفصلهما عن وزارة الدفاع. بعد الاستقبال الرسمي في البهو جلس الرئيس ونائبه مع ستة أعضاء من هيئة الأركان المشتركة حول طاولة طويلة في قاعة اجتماعات مؤقتة، فأعمال الإصلاح التي طال أمدها في وزارة الدفاع الأميركية لم تسمح بأن يجتمع الرجال حيث يجتمعون عادةً في الدائرة الخامسة. انضم إليهم ستيفن هادلي ودونالد رامسفيلد، وكذلك المحلِّل السابق في وكالة الاستخبارات المركزية روبرت غيتس الذي سيخلف لاحقاً رامسفيلد، وهو موظف حكومي متمرس يتمتع بمستوىً عالٍ من الحنكة، كما أنه قاسٍ لا يرحم في بعض الأحيان.

قدّم رئيس هيئة الأركان بيتر بيس للرئيس وثيقة من خمس صفحات على شكل عرض «باور بوينت» (PowerPoint) بعنوان: «رأي هيئة الأركان المشتركة العسكرية ـ قبل اتخاذ القرار- سري». تضمنت الوثيقة خطة عسكرية جديدة لتحقيق النصر في العراق. يتميز بيس بقامته الطويلة ومظهره الحسن، وقد خدم ست سنوات في أعلى منصبين في الجيش، وهو صاحب لسان عذب ومهارة اجتماعية، لذا كان زملاؤه أيام الدراسة في أنابوليس يدعونه: «بيتر المثالي»، وتمكَّن بطبعه هذا من التوافق مع وزير الدفاع الصعب المراس رامسفيلد. قدم بيس نصيحته بصورة شخصية فقط، ولم تكن لديه اعتراضات ملحوظة على الاستراتيجية تجاه إيران أو العراق، ولا حتى بَعْد تدهورِ الأخير بفعل ضغوطات الصراع الديني والتمرد المتزايد.

استحوذ العراق على جُلِّ اهتمام هؤلاء الرجال في ذلك الخريف، فقد تدهورت الأوضاع الأمنية بشكل كبير في أعقاب تفجير مرقد شيعي مهم من قبل تنظيم القاعدة في العراق، ما جعل البلاد تنزلق نحو حرب أهلية دينية واسعة النطاق على الرغم من ادعاءات رامسفيلد العلنية عكس ذلك. لخص السطر الأول في الوثيقة الوضع كما يراه رؤساء المؤسسات العسكرية: «إننا لا نخسر،

لكننا نتحرك نحو الانتصار، كما أنّ الوقت ليس في مصلحتنا»؛ وأضاف بيس تعليقه على هذه الجملة: «في الوطن والمنطقة والعراق».

أدرك الرئيس جورج دبليو بوش المتحفظ عادةً تداعيات الفشل، فشارك هذه المرة بشكل كامل في النقاشات التي دارت حول السياسة المتبعة. وأجرى تحقيقاً دقيقاً مع مستشاريه المنقسمين للحصول على إجابات. طلب قائد الجيش ديفيد بتريوس قوات إضافية من شأنها أن تدعم استراتيجية مكافحة التمرد الجديدة لكسب الحرب، ومع ذلك عارض الجنرالات بأربع نجوم في واشنطن وتامبا وبغداد هذه الفكرة. عقد بيس اجتماعاً لرؤساء الأجهزة ليعرضوا آراءهم، لكن كبار الضباط والجنرالات لم يقدموا أيّ أفكار جديدة بل اقترحوا وحسب توسيع الخطة الحالية لزيادة تدريب الجيش العراقي ومنحه الأفضليّة في المواجهة. كان الوضع على حدّ تعبيرهم: «أزمة في الفهم والثقة لا في العنف»، وأوصوا بتوسيع الجهد الاستشاري لتدريب الجيش العراقي بشكل أسرع ليس إلا. «سيدي الرئيس، الوقت ليس مناسباً الآن لزجّ القوات الأميركية في القتال»، هذا ما قاله رئيس أركان الجيش الأميركي الجنرال بيتر شوميكر الذي أعاد رامسفيلد تعيينه بعد التقاعد[1179].

قال بوش: «ما الجديد في الأمر؟ إننا نفعل معظم هذا بالفعل. أنا قلق جداً بشأن الأمن في بغداد». تكمن المشكلة في عدم القدرة على السيطرة على الوضع في العراق وعدم توفر الأمن، وخصوصاً في العاصمة العراقية، والرئيس يدرك ذلك.

في نهاية الاجتماع انتقلت النقاشات إلى دور إيران في إثارة العنف. ومع تزايد المشكلات الأميركية، ازدادت جرأة إيران أكثر فأكثر إذ زادت في تلك السنة من دعمها للميليشيات الشيعية بشكل كبير، وزوّدتها بمتفجرات حديثة متطورة قتلت 140 جندياً من قوات التحالف.

قال بيس: «إننا نعمل على تنفيذ أمر عمليات بتحييد شبكاتهم». سيشكّل هذا جزءاً من خطة عسكرية شاملة لمواجهة إيران تشمل تعزيز القدرات الدفاعية في الخليج العربي للرد على العدوان الإيراني. و اقترحت القيادة المركزية الأميركية نهجين للتعامل مع الإيرانيين في العراق: الطريقة الأولى تتجنب العمل العسكري وتقوم على مضايقة نشطاء إيران وفضحهم، بينما الطريقة الثانية ذات حسم أسرع وتكاليف أكبر، وتقتضي إلقاء القبض فوراً على أتباع إيرانيين داخل العراق واستهداف القوات الإيرانية في الشرق الأوسط. حذّر رؤساء الأجهزة من اتخاذ إجراءات قد تعمّق الأزمة، وسلطوا الضوء على مخاطر اتخاذ خطوات مباشرة دون الحصول على موافقة رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي، لكن بعض المجتمعين في الحجرة أراد إجراءات حاسمة على غرار ما كتب أحد المشاركين في مذكراته: «قتل الإيرانيين في العراق».

عارض بوش الجنرالات بمن فيهم بيس وذلك في أجرأ قرار اتخذه في فترة رئاسته عندما سمح في كانون الثاني/يناير من العام 2007 بإرسال خمسة ألوية أميركية احتياطية مؤلفة من ثلاثين ألف جندي إلى العراق. وبعد يومين فقط من الاجتماع أعطى الرئيس أيضاً الضوء الأخضر للقيام بعمل عسكري ضد إيران. في غمرة احتدام النقاش حول العراق ظهرت الولايات المتحدة وإيران مرة أخرى على مسار تصادمي يسير باتجاه الحرب.

في منتصف عام 2003 تم تعيين الجنرال جون أبي زيد قائداً جديداً للقيادة المركزية الأميركية. وبشّر تعيين أبي زيد بنهج أكثر استنارةً سيعتمده الجيش الأميركي في الشرق الأوسط. أعرب أبي زيد عن شكره لسلفه الجنرال تومي فرانكس في حفل غير مسبوق في تألقه بمناسبة تولّيه منصبه الجديد الذي أقيم في صالة رياضية وسط مدينة تامبا.وكان فرانكس قد رفض طلب رئيس هيئة الأركان المشتركة تمديد فترة توليه للقيادة سنةً إضافية لتأمين الاستمرارية بشأن الحرب في العراق، إذ أراد أن يرتاح وأن يتمم صفقة مغرية لتأليف كتاب. يجيد الأميركي أبي زيد ذو الأصول اللبنانية اللغة العربية، وكان قد شغل منصب ضابط تخطيط رفيع لدى رئيس هيئة الأركان في بداية غزو العراق. حذر أبي زيد في مناقشات سرية سبقت الغزو الأميركي من أن إضعاف العراق من شأنه أن يفتح الباب لإيران، وهذا الأمر لطالما أثار قلق الولايات المتحدة عندما فكرت بإسقاط حكم صدام حسين خلال حرب عاصفة الصحراء في العام 1991. كما شغل أبي زيد منصب نائب قائد القيادة المركزية الأميركية خلال الحرب، وكان واحداً من القلّة التي حذرت من السماح بعمليات السلب والنهب بلا رادع ومن الدعم المفتوح لبعض الميليشيات الشيعية.

ركز أبي زيد منذ البداية على إيران، وكان يخشى أن الولايات المتحدة تفتقر إلى خطة استراتيجية في شأن الشرق الأوسط بسبب تركيز واشنطن كلياً على الحرب في العراق. كما كتب إلى رامسفيلد بعد وقتٍ قصير من توليه القيادة المركزية الأميركية قائلاً: «لا يمكننا إغفال تنامي دور إيران في المنطقة كلها».

خشي أبي زيد نشوب صراع غير مخطط له مع إيران، ففي 21 حزيران/يونيو من العام 2006 تحرشت طائرات البحرية الأميركية من طراز P-3 بغواصة إيرانية عندما أنزلت عوامات سونار من حولها، فطوّقتها على نحو استفزازي، وتكررت هذه الحادثة مرة أخرى بعد ثلاثة أيام. وجّهت طهران مذكرة دبلوماسية إلى الولايات المتحدة احتجاجاً على ذلك. تبادلت الولايات المتحدة أربعين مذكرة مشابهة مع إيران منذ العام 2001، وكان كل بلد يحتج على تصرفات البلد الآخر. وعلى الرغم من أن هذه المناوشات لا تبدو خطيرة، كان من الممكن أن يتم تبادل إطلاق نار في منطقة الخليج العربي لو أن الإيرانيين حَسِبوا العوامات قنابل.

لقد وقع حادث أكثر إثارةً للقلق في أواخر فترة رئاسة أبي زيد للقيادة المركزية. كانت الحدود المائية بين إيران والعراق، المتفق عليها منذ العام 1975، عبارة عن خط مستقيم يبدأ من مصب شط العرب؛ لكن الرمال المتحركة على مر السنين غيّرت الحدود فاختلفت إيران والتحالف على الموقع الدقيق للحدود الدولية. كثف الحرس الثوري من وجوده في المنطقة منذ العام 2003، وشكل منطقة بحرية ثالثة جديدة، كما أنشأ مركز مراقبة على رافعة ضخمة كانت قد مالت وتضررت بشدة من جراء الحرب العراقية الإيرانية، فأطلق البحارة الأميركيون عليها اسم الرافعة الغارقة. في 23 آذار/مارس من العام 2007، أرسلت السفينة «إتش إم إس كورنويل» (HMS Cornwell) فريقاً من مشاة البحرية وبحارة بريطانيين للبحث عن سفينة يُشتبه في أنها تقوم بالتهريب وترسو بالقرب من الحدود البحرية المتنازع عليها.

تنبّهت الرافعة الغارقة لوجودهم، فعبر زورقان سريعان من زوارق الحرس الثوري الإيراني المياه، وسرعان ما أدرك القائد الطموح، القبطان أبو القاسم أمانغاه، أن المياه ضحلة جداً بحيث لا يمكن للسفينة كورنويل أن تتقدم عشرة أميال. وعندما اقتربت الزوارق من الفريق البريطاني الذي يبحث عن السفينة المشتبه بها كان معظم البحارة البريطانيين يفتشون السفينة ولم يكن هناك سوى جنديين في القاربين المطاطيين تحدَّث أمانغاه إلى البحارة على نحو ودي في البداية، لكنه سرعان ما عاد واتهمهم بدخول المياه الإقليمية الإيرانية. بعدئذٍ أمر رجاله بتوجيه أسلحتهم نحوهم من دون أيّ أوامر من قيادته، وطلب منهم أن يستسلموا وأن يتبعوه إلى قاعدته. أمر ملازم البحرية البريطانية مجموعته بالاستسلام بعد أن حاول عبثاً الحصول على دعم من رؤسائه وخوفاً منه على حياته وحياة عناصره، فصعد الإيرانيون إلى القوارب البريطانية وتولوا القيادة إلى أن وصلوا إلى قاعدة أمانغاه في إيران.

عَلِمَ قائد الأسطول الخامس، اللواء البحري كيفن كوسغريف، بالحادث بينما كان الإيرانيون يقودون البريطانيين إلى قاعدتهم. كوسغريف خبير بالحروب البحرية وقد قام بجولات عديدة في الخليج، كما أنه ترأس قافلة إرنست ويل الأخيرة قبل الغزو العراقي للكويت تماماً، فأرسل قوة لمراقبة الأسرى البريطانيين، وبدأ مساعدوه بوضع بعض الأفكار التي تقضي باستخدام القوة لاستعادتهم. لكن نائبه البريطاني طلب منه التوقف لأن الحكومة البريطانية لا تريد تصعيد الموقف، فشاهد كوسغريف ترحيل الجيش الإيراني الأربعة عشر رجلاً وامرأة واحدة بالطائرة إلى طهران[1180].

فاجأ الحادث طهران بقدر ما فاجأ لندن. ومع أن أمانغاه لم يكن لديه أوامر بعمل ما قام به، إلا أن رؤساءه في الحرس الثوري أحبوا هذا النوع من المبادرة. واستفاد الرئيس أحمدي نجاد بسرعة من الهدية فأصبح الأسرى البريطانيون ضربة دعائية للحكومة الإيرانية التي عرضتهم أمام كاميرات وكالات الأنباء، وبعد اثني عشر يوماً أمر أحمدي نجاد بإطلاق سراحهم، وأرسلهم ببذلات إيرانية الصنع وحاملين حقائب تحوي هدايا مجاملة من الجمهورية الإسلامية، وحصل النقيب أمانغاه على مكافأة مجزية على الانجاز الذي حققه فمنحه الرئيس أحمدي نجاد وساماً، وتولى قيادة قوة كبرى في الحرس الثوري متخطياً عدداً كبيراً من كبار الضباط.

تنبه أبي زيد والأميركيون للأمر، وقال أبي زيد: لقد وفر الحادث طريقاً واضحاً إلى المجد والشهرة في الحرس الثوري، وفقاً لمقولة نابليون «كل جندي يحمل عصا الماريشالية في جعبته» إذ إن هذا الحادث ألهم الحرس وحثه على القيام بمزيد من الأعمال المارقة والعدوانية. وقال أدميرال أميركي: «أصبح الحادث نموذجاً لكيفية الحصول على ترقية يرجوها كل ضابط في الحرس».

لم يتفق قائد القيادة المركزية الأميركية مع آراء الإدارة كلها بشأن إيران، واقترح استراتيجية واسعة النطاق لتقويض النفوذ الإيراني في منطقة الشرق الأوسط، فشدد على أهمية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين في المساعدة على تحسين الموقف الأميركي في الشرق الأوسط، واقترح أن تقوم الولايات المتحدة بإغراء حليف إيران الوحيد، ألا وهو سوريا. فبعد إطاحة صدام

وقبل أن يتعمّق التمرد كانت الولايات المتحدة تمتلك قدرة عالية على المساومة مقارنةً بقدرة الأسد القلق، وتمتلك الفرصة لعقد صفقة من شأنها تقليص الدعم السوري لحزب الله.

دعا الجنرال أبي زيد مراراً لعقد اجتماع مع الإيرانيين، وقال بعد تقاعده: «لم أرد التحدث إليهم لأنني كنت أريد أن يصبحوا أصدقاء لنا بل لنتجنّب سوء التقدير الذي يؤدي في كثير من الأحيان إلى صراعات شبيهة بالتي كانت تنشب بيننا وبين الاتحاد السوفيتي خلال الحرب الباردة». كما أنه أيّد ريتشارد أرميتاج في اقتراحه تقديم مساعدات للإيرانيين عقب الزلزال الذي ضرب مدينة بام في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام 2003 على أمل أن يؤدي التفاعل بين الجنود والطيارين الأميركيين والإيرانيين إلى حوار بين الجيشين. واقترح الجنرال أبي زيد إلحاق ضباط إيرانيين ببرامج التعليم والتدريب العسكري الدولي التي ترعاها وكالة التعاون الأمني الدفاعي. فهذه البرامج التدريبية تؤكد على القيم الديمقراطية، وهي مستمرة منذ عقود طويلة بهدف التأثير في الطلبة العسكريين عن طريق إبراز نمط الحياة الأميركية. وكان أبي زيد يرى أن ضم الضباط الإيرانيين إلى هذه البرامج سوف يساعد على إعادة الثقة بالولايات المتحدة. كما اقترح التعاون في المجالات ذات الاهتمام المشترك، لاسيما وأن إيران تعاني من مشكلة الهيروبين الرهيبة، ومن انتشار مدمني المخدرات في الحدائق الإيرانية الذين يحصلون على الأفيون الأفغاني بأثمان زهيدة، ولهذا اقترح تقديم مساعدات من شأنها المساعدة في السيطرة على مهربي المخدرات القادمين من أفغانستان إلى إيران[1181].

لم تجد هذه الأفكار قبولاً في البيت الأبيض، فقد عارض مساعدو نائب الرئيس وأبرامز أي حوار مع إيران، ورأى أن تسوية الخلافات مع سوريا فكرة ساذجة[1182]، وأنَّ أي مساعدة لإيران من شأنها أن تعطي شرعية للنظام فقط، وأن توفير التدريب أو المساعدة العسكرية سوف يمنح الإيرانيين فرصة «لا مثيل لها» للاطلاع على القدرات العسكرية الأميركية. أعرب رامسفيلد عن قلقه إزاء أي برامج للتبادل العسكري، لذا لم تتجاوز أيٌّ من أفكار أبي زيد بشأن إيران مرحلة الأوراق والمناقشات.

اتفق أبي زيد مع الإدارة على الخطر المتزايد الناجم عن الصواريخ البالستية الإيرانية، ووجدت مخاوفه دعماً لدى حكومة الولايات المتحدة. وقعت مسؤولية دعم القيادة المركزية الأميركية على عاتق قادم جديد آخر: جون هيلن. وكان هيلن قد عُيّن مساعداً لوزير الخارجية للشؤون السياسية والعسكرية، ويتمتع بمؤهلات ممتازة في السياسة العسكرية الخارجية، كما ويتميز بلحيته القصيرة وبشعره الحليق وبشدة عنايته بالتفاصيل، وقد نال وسام النجمة البرونزية خلال معركة الدبابات الملحمية «شرق-73» مع الحرس الجمهوري العراقي أثناء عاصفة الصحراء. بعدئذٍ ترك الجيش والتحق بجامعة أوكسفورد لنيل شهادة الدكتوراه في العلاقات الدولية. اقترح هيلن مشروعاً سياسياً جديداً أطلق عليه اسم حوار أمن الخليج. أراد هيلن، بمساعدة من مصر والأردن ولبنان، دعوة عرب الخليج إلى الانخراط في خطة دفاع مشترك ضد إيران. لم يكن عنده أمل في أن يشكل الخليج العربي حلفاً جديداً يشابه حلف شمال الأطلسي، بل اقتصرت أهدافه على أن يمضي عرب الخليج قدماً في ميادين يستطيعون فيها العمل معاً، مثل الدفاع الصاروخي.

عمل هيلن بشكل وثيق مع بيتر رودمان في البنتاغون، واتفق الاثنان على إطار السياسة العامة التي سيستند إليها الحوار، ويشمل هذا الإطار ردع إيران ومكافحة الإرهاب وتوفير الاستقرار في الشرق الأوسط. وقد استخدمت الإدارة هذا الإطار كأساس لزيادة مبيعات الأسلحة على نحو كبير لعرب الخليج.

في أيار/مايو من العام 2006 جال هيلن وريان هنري من البنتاغون على دول الخليج كلها لدعوتها إلى حوار أمن الخليج واستكشاف سبل تحسين التعاون في المجالات الدفاعية. تردد صدى الخوف من إيران في الخليج، ولاحظ بيتر رودمان أيضاً أن السلام العربي الإسرائيلي أصبح مسألة هامشية بعد أن كان موضوعاً رئيساً دائماً في المناقشات. عرض هيلن تسهيل المزيد من التعاون مع القيادة المركزية الأميركية وبين الدول الأخرى. كما عرضت الولايات المتحدة على عرب الخليج صواريخ باتريوت متطورة وطائرات مقاتلة حديثة ورادارات قادرة على تعقب الصواريخ في جميع أنحاء المنطقة، وعرضت أيضاً سفينة حربية جديدة. ومن خلال التعاون مع الجيش الأميركي سوف يتكامل كل هذا في نظام دفاع جوي يشمل منطقة الخليج العربي.

قال أحد المسؤولين متوسطي المستوى في مجلس الأمن القومي: «كان حوار أمن الخليج مسألةً يقتصرُ وجودها إلى حد كبير على العقول والأوراق الأميركية». فعلى الرغم من أن دول الخليج تخشى إيران إلا أنها ظلت غير راغبة في العمل بصورة جماعية، فرفضت تبادل البيانات التي تسجّلها رادارات الدفاع الجوي فيما بينها، ولم توافق إلا على مضض على التدرّب معاً في قاعدة جوية أميركية جديدة في دولة الإمارات العربية المتحدة. كما أنّ قطر وسلطنة عُمان لم ترغبا في معاداة قادة طهران نظراً لعلاقاتهما الاقتصادية الوثيقة مع إيران، وقد أشار ضابط عسكري قطري قائلاً: «حتى الولايات المتحدة لم تشر قط إلى إيران باعتبارها عدواً». واتهم مسؤول قطري الولايات المتحدة بأنها تبالغ بشأن الخطر الإيراني لبيع المزيد من الأسلحة وحسب، فيما قال أحد موظفي وزارة الدفاع: «إن دعوة دول الخليج إلى التعاون في أي شيء هو أشبه برعي القطط».

حاول هيلن ورودمان مواجهة هذه النزعة بالعودة إلى قواعد اللعبة التي كانت تمارسها السياسة الأميركية في وقت سابق: الوصول إلى تأثير متعدد الأطراف من خلال سلسلة من الاتفاقيات الثنائية.أشار أحد موظفي بوش قائلاً: «كانت الفكرة هي إقامة سلسلة من الاتفاقيات الثنائية بين الولايات المتحدة ودول الخليج العربي من شأنها أن تنتهي حكماً بالتحالف مع الولايات المتحدة باعتبارها الركيزة الأساسية التي يعتمد عليها كل شيء». لم يكن ذلك مثالياً لكنه يسمح للولايات المتحدة بوضع حجر الأساس لمزيد من التكامل والتعاون في المستقبل. واستمر التقدم في العمل، وتحسّن التعاون والتنسيق على مدى السنوات التالية، وتم تثبيت خطوط ساخنة بين الجيوش وتبادل بعض المعلومات. وسمّت الولايات المتحدة نظام دفاعها الصاروخي ليكون العمود الفقري الذي يحمي دول الخليج، فوافق أبي زيد على إرسال ثلاث كتائب من صواريخ باتريوت إلى الخليج.

لطالما خضعت عملية بيع الأسلحة لعرب الخليج للتمحيص الدقيق في الكونغرس. وخشي هيلن وأبي زيد من التداعيات السياسية لتسليح دول الخليج العربي، غير أن الرئيس بوش يفهم الكونغرس بصورة أفضل، فخلال اجتماع عُقد في شهر كانون الأول/ديسمبر من العام 2006 في

قاعة روزفلت قال هيلن إن بعض الأنظمة الحربية المقرر بيعها للعرب قد تكون مثار جدل في الكونغرس، لكن الرئيس فاجأه بقوله: «لن تكون كذلك إذا كانت موجهة ضد إيران».

تعتمد إيران سياسةً مزدوجة في ما يتعلق بالعراق. لطالما أرادت طهران أن يكون العراق مستقراً إنما ضعيفاً على المستوى السياسي وتهيمن عليه الائتلافات الشيعية. وفي حين واصلت إدارة بوش إصدار أوراق سياسية تدعي فيها أن إيران تخشى قيام عراق ديمقراطي، كان دبلوماسيو طهران يدعمون بنشاط العملية الديمقراطية التي تديرها الولايات المتحدة، لأنهم يدركون أنها ستضمن غالبية شيعية في الحكومة. ومع ذلك، أرادت إيران على المدى القصير شيئاً من عدم الاستقرار في العراق، فعندما رأت أن وجود الجيش الأميركي على حدودها يشكل تهديداً خطيراً، أرادت استنزافه وجعل تكلفة الاحتلال عالية جداً، كما تسببت بحلٍّ مخزٍ للحكومة العراقية التي شكلتها أميركا عقاباً لها. وشجع الإيرانيون عبد العزيز الحكيم وغيره على المشاركة في هذه العملية السياسية، وقدموا قبل انتخابات العام 2005 صوراً وملصقات لدعم حزب الائتلاف العراقي الموحَّد الشيعي. كانت إيران تدفع للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى العراقي بزعامة الحكيم وفيلق بدر أكثر من 50 مليون دولار سنوياً دعماً للعملية الانتخابية الأميركية، وأعربت عبر سفيرها في المملكة المتحدة عن رغبتها في العمل مع واشنطن من أجل انتخابات حرة ونزيهة في العراق[1183]. تجاهلت إدارة بوش العرض واستمرت بالتأكيد على أن مشاركة الشيعة في انتخابات العراق من شأنها أن تقوض الجارة الشمولية. ومع ذلك، حذر تقرير صدر عن وزارة الخارجية في 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 2005 وسرّبته وثائق ويكيليكس من أنّ «سيطرة إيران في العراق تتنامى في العديد من مستويات الحكومة»[1184].

زادت إيران بالتزامن مع ذلك من حجم مساعدتها للميليشيات الشيعية المعارضة للولايات المتحدة، واستفادت في ذلك من خطة أميركية لنزع سلاح الميليشيات ودمج العديد من جنود فيلق بدر المدعومين من إيران في قوات الأمن العراقية الجديدة[1185]. في ربيع العام 2004 تحدى رجل الدين الشاب المتشدد مقتدى الصدر الولايات المتحدة علناً، وهو نجل رجل دين بارز قتله صدام ومعروف بنسبه العائلي، مما جعل العديد من الشيعة الفقراء يقفون إلى جانبه، ما زاد قوة وعديد الميليشيا التابعة له، والمسماة جيش المهدي، بدعم من إيران. وعلى الرغم من أن الصدر يشاطر آية الله خامنئي وجهات نظره في ما يخص حركة عموم الشيعة، إلا أنه بقي مستقلاً وحذراً بشأن التدخل الإيراني في العراق، ويأتي دعم إيران له لما يلقاه من تأييد واسع النطاق من عامة الناس. وكان قاسم سليماني قائد فيلق القدس الإيراني يحتقره، ويصفه بالمتهور جداً، ويرى أن أفعاله المستقلة وغير المنسقة تقوّض أهداف إيران في العراق وحسب. لكن في شهر نيسان/أبريل، عندما اشتعلت الأزمة، زوّد فيلق القدس ميليشيا الصدر بالإمدادات الطبية وبثلاثمئة قذيفة صاروخية، وعندما سحق الجيش الأميركي انتفاضة الصدر في شهر آب/أغسطس أرسلت إيران دبلوماسيين وضباطاً من فيلق القدس للتوسط في الأزمة وإقناع الصدر بدعم الهيئة الرئاسية العراقية المؤقتة التي أنشأها الأميركيون.

أصبح دعم الميليشيات العراقية إحدى المهام الأكثر أهميةً الموكلة إلى قائد فيلق القدس، ذراع الحرس الثوري السري. كان سليماني في أواخر الأربعينات من عمره، وقد خالط الشيب شعره ولحيته، وهو ذو طبع هجومي ويفضِّل الإشراف شخصياً على العمل. تميز هذا الرجل خلال الحرب العراقية الإيرانية وبرز فيها، وسرعان ما ترقى ليصبح أصغر قائد فرقة عسكرية في الجيش الإيراني، وكان على علاقة وثيقة للغاية بالمرشد الأعلى للثورة الذي عيّنه قائداً لفيلق القدس في العام 1998. وعلى الرغم من أن فيلق القدس جزء من الحرس الثوري إلا أنه يقدّم تقاريره مباشرةً إلى آية الله خامنئي، وقد أنشأ قيادات إقليمية له تسمى منظمات، تتحكم كل منها بالعمليات العسكرية في منطقتها (على سبيل المثال، في لبنان أو شبه الجزيرة العربية) تحت رقابة سليماني الحذرة[1186]. في ما خص العراق، كانت المنظمة المسؤولة هي الفرع 1000، أو فيلق رمضان بقيادة العقيد أحمد فروزنده، وبرز هذا الفيلق في مطلع التسعينيات عبر محاولة تأليب الشيعة لينتفضوا ضد صدام حسين. كان لفوروزنده ثلاثة مقار تابعة له، وجميعها على مقربة من الحدود. وعندما كان فيلق القدس يعمل داخل العراق من خلال سلسلة من المخابئ والشركات الوهمية، كان لفيلق رمضان وجود في كل مكان باستثناء محافظة الأنبار الغربية ذات الغالبية السنية. قام سليماني من جهته بدور حيوي في العمليات التي جرت في العراق، فسافر سراً إلى البصرة واجتمع بالعراقيين، وغالباً ما كان يبقى في المقر المتقدم الذي أنشئ في بلدة مهران على الحدود الإيرانية[1187].

في أواخر العام 2004 وأوائل العام 2005 عقدت إيران سلسلةً من الاجتماعات في طهران لدعم مجموعات ناشئة حديثاً تعمل بالوكالة عن إيران وتعارض الولايات المتحدة وقد حضر عدداً من هذه الاجتماعات عناصر من حزب الله اللبناني إذ كانت إيران تعتزم استخدام هذه العناصر لإجراء تدريبات عسكرية داخل العراق، الأمر الذي من شأنه أن يساعد على تقليل وجود بصمات إيران في أيّ عمليات يتم تنفيذها. وعلى الرغم من أن إيران حافظت على دعمها للمجلس الإسلامي الأعلى والأحزاب الشيعية الكبرى الأخرى المشتركة في الحكومة، إلا أنها زرعت ما لا يقل عن إحدى عشرة مجموعة صغيرة انشقّ العديد منها عن حركة المهدي التابعة لمقتدى الصدر، وشملت هذه أبو سجال الغراوي الذي عمل كقائد تحت إمرة الصدر، وفقد الحظوة لديه بعد أن توقفت الهجمات ضد قوات التحالف. ارتبط الغراوي بعلاقات وثيقة مع ضباط فيلق القدس، والتقى بهم في كثير من الأحيان في مخبأ بالبصرة. ومن ضمن هذه المجموعات أيضاً مجموعة المواطن الإيراني العراقي أبو مصطفى الشيباني الذي ترأس شبكة مكونة من ثلاثمئة رجل تقريباً تعمل في الأصل في مدينة الصدر في بغداد. كان الشيباني ضابطاً في الحرس الثوري، حافظ على علاقات وثيقة مع فيلق القدس[1188].

كان عناصر فيلق القدس يساعدون عملاءهم، فيقومون بمراقبة القوات الأميركية وقواعدها، ويسجلون بدقة نوع القافلة ومواعيد الرحلات. وكانت نقطتا المراقبة المفضلتان لدى فريق فيلق القدس هما قاعدة البكر الكبيرة للقوات الجوية الأميركية والسفارة الأميركية في المنطقة الخضراء. فبعد مداهمة قامت بها القوات الأميركية في العام 2008، اكتشف الأميركيون آلاف

التقارير عن تفاصيل عمليات فيلق القدس وهجماته التي ينفذها عملاؤه ضد قوات التحالف وأعضاء سابقين في حزب البعث، بما في ذلك أعمال القتل الانتقامية ضد السنة الذين شاركوا في المذبحة المرتكبة بحق الشيعة أثناء انتفاضة عام 1991 بعد عاصفة الصحراء. جنّد فيلق القدس العراقيين لمساعدته، لاسيما أولئك الذين يعيشون على طول الحدود الكويتية، بعد أن فرُّوا إلى إيران خلال الحرب العراقية الإيرانية، وذلك ليقدموا معلومات إضافية عن تحركات القوات الأميركية، وتولى جواسيس تابعون لجهاز الاستخبارات الإيراني يعملون في الكويت مهمة تسليم هذه المعلومات الإضافية.

قررت إيران تقديم سلاح جديد للمتمردين العراقيين التابعين لها: قذائف أُدخلت عليها تحسينات. القنابل البدائية المصنوعة من مواد متفجرة والذخائر العراقية القديمة هي التي تسببت بمعظم الخسائر الأميركية في الحرب على العراق، ولكن هذه التعديلات الجديدة زادت من خطورتها بشكل كبير. يتم استخدام أسطوانة مصنوعة من المعادن المتوفرة عادةً أو الأنابيب البلاستيكية، وتُغطى الواجهة الأمامية بسطح نحاسي مقعّر أو قرص صلب، وعندما تنفجر المواد الناسفة تدفع قوة الانفجار القرص النحاسي منصهراً على شكل قذيفة قادرة على اختراق العربات المصفحة بسهولة، وقد أثبت هذا السلاح دقته عندما استطاع المتمردون استهداف مقاعد محددة في السيارة، وعادةً ما يكون الهدف نافذة السائق لقتله فتجنح السيارة، أو مقعد الراكب الأمامي حيث يجلس الضباط عادة.

ظهرت هذه القنابل المضادة للدروع أول مرة في لبنان في أواخر التسعينيات عندما استخدمها حزب الله ضد المدرعات الإسرائيلية. ويتطلب تصنيعها أدوات دقيقة لم تكن متوفرة في العراق لكنها موجودة في إيران، لاسيما في مصنع ذخيرة يقع شمال شرق طهران في منطقة يسيطر عليها الحرس الثوري.

في تموز/يوليو من العام 2004 التقى ضباط من فيلق القدس مصطفى الشيباني في مخبأ في البصرة، وأحضرت إيران مدربين من حزب الله اللبناني إلى كلٍّ من العراق وإيران لتدريب رجال الشيباني على كيفية استخدام القنابل المضادة للدروع وتجميعها علماً أن مصنعاً في أصفهان سينتج المتفجرات فيما يتولى مصنع في طهران تصنيع الأجزاء الأخرى، واتفقوا على شحن قطع القنابل المضادة للدروع عبر الحدود بإخفائها في منتجات غذائية، على أن يعاد تجميعها في العراق بمساعدة ممثل حزب الله الذي قدّم أجهزة الأشعة ما تحت الحمراء للتحكم عن بعد. في الأشهر التسعة الأولى من العام 2005 نفذت هذه المجموعة وحدها خمسةً وثلاثين هجوماً بالقنابل المضادة للدروع ضد قوات التحالف في العراق، مما أسفر عن مقتل سبعة عشر جندياً وجرح أكثر من ستة وثلاثين آخرين. أثبتت هذه القنابل أنها فتاكة جداً، حيث كانت حصيلة قتلاها شخصين في كل هجوم.

وسّعت إيران عملية توزيع القنابل المضادة للدروع. وفي أيار/مايو من العام 2005 وصل إلى البصرة عقيد من فيلق القدس لتوفير المال والقنابل المضادة للدروع لعددٍ من الجماعات المتمردة، والتقى في الشهر نفسه زعيماً شيعياً في مدينة الكوت ودفع له مبلغ مليون ونصف مليون دينار عراقي لمهاجمة القوات الأميركية. اعتمد الإيرانيون طُرقَ تهريب آمنة لإيصال المتفجرات إلى العراق، وإحدى هذه الطرق الرئيسة كانت معبراً حدودياً كبيراً بالقرب من مدينة مهران

الإيرانية حيث يقع مقر سليماني. كان فيلق القدس يُصنّع عناصر المتفجرات المضادة للدروع في مختبر سري، ليتم تهريبها كل شهر بواسطة الحرس الثوري إلى مخابئ في مدينة النعمانية والبصرة. وتُخبّأ هذه المواد عادةً في براميل نفط وأكياس إسمنت وأجهزة تلفاز وحاويات مواد غذائية، فيعمل المتمردون العراقيون على إعادة تجميعها بعد استلامها. وأشار تقرير للاستخبارات الأميركية في خريف العام 2006 أن خسائر قوات التحالف بالقنابل المضادة للدروع بلغت معدلاً أعلى بنحو ست مرات من معدل الخسائر التي سببتها العبوات الناسفة.

ساهم أنصار إيران في الجيش وقوات الشرطة في هذا المجهود. فعلى سبيل المثال، في أواخر العام 2006 قاد رجال قوات الأمن، وهم أعضاء سابقون في فيلق بدر، شاحنةً محمّلةً بالقنابل المضادة للدروع إلى بغداد، بعد أن نُقلت عبر الحدود الإيرانية ومرت عن طريق البصرة، وتم تخزينها في مخابئ في جميع أنحاء المدينة وحتى في مركز الشرطة في بغداد. ولم يهملوا التجارة، إذ كان هؤلاء الشيعة يبيعون هذه القنابل لمنافسيهم من السنّة ما يراكم أرباحاً ضخمة ناتجة عن هذا النوع من التجارة. وعندما كشف الجيش الأميركي الشبكة افترض المحللون وجود تسعين قنبلة خارقة للدروع في بغداد.

سافر أنصار الصدر من مدينة الصدر إلى إيران لتلقي التدريب على التكنولوجيا الجديدة للقنابل المضادة للدروع، ونشأت بين إيران وجيش المهدي علاقة عمل متينة في ما يتعلق بالقنابل المضادة للدروع والأسلحة والمتفجرات المهرّبة من سوريا في شاحنات مبرّدة. كما وأشار أحد التقارير الأميركية إلى «أن استخدام عناصر جيش المهدي يتيح لإيران اعتماد سياسة الإنكار مع تواصل توسيع نفوذها في مناطق مأهولة بسكان شيعة إيرانيين». في 16 و18 كانون الثاني/يناير من العام 2006 نصب مقاتلو جيش المهدي كمينين لدوريتين بريطانيتين كانتا تتنقلان في مياه شط العرب باستخدام الألغام المضادة للأفراد والأسلحة النارية الخفيفة. بعدئذٍ قصفوا مواقع بريطانية بصواريخ من عيار 240 ملم، وهي من أكبر الصواريخ الموجودة في الترسانة الإيرانية.

اعتمدت إيران استراتيجية مماثلة للاستراتيجية التي استخدمتها مع حزب الله في أوائل الثمانينيات، فهي توفر التدريب والمعدات لكنها لا تشارك مباشرةً في الهجمات. وعلى الرغم من أن معظم التدريبات العسكرية الأساسية جرت في العراق، إلا أن التدريب المتقدم للمتدربين يتطلب السفر إلى إيران حسب ما أشارت القوات الأميركية الخاصة. وكشفت وثائق تم الاستيلاء عليها واعترافات سجناء عراقيين عن شبكة مواصلات منظمة، حيث تقوم حافلات وسيارات أجرة بنقل المجندين المختارين وأفراد الميليشيا ذوي الخبرة إلى الحدود، ومن هناك يتم نقلهم في مجموعة متنوعة من السيارات المدنية إلى مخابئ في مهران، ويُقدَّم لهم على طول الطريق الشوكولاته والبسكويت حسب ما أفاد به أحد العراقيين، وفي صباح اليوم التالي تتوجه المجموعة إلى المطار حيث تنتظرها تذاكر السفر إلى طهران[1189]. قامت المجموعة اللبنانية بتشكيل وحدة جديدة باسم «3800» لمساعدة الإيرانيين في معسكرات التدريب الخاصة بهم[1190]، والتي بلغت أوجها في العام 2008، حيث شارك ما بين أربعين إلى ستين لبنانياً في دروس منتظمة للمتفجرات المضادة للدروع

وتكتيكات الوحدات الصغيرة، وذلك ضمن أربعة معسكرات تدريب صغيرة متناثرة في أنحاء إيران: في طهران، والأهواز، وعيلام، وقم.

كانت الولايات المتحدة بطيئة في معالجة التهديد الإيراني الناجم عن القنابل المضادة للدروع. في البداية انضم العديد من العاملين في جهاز الاستخبارات إلى مجموعة مسح العراق بحثاً عن أسلحة دمار شامل غير موجودة، فلم يعد هناك ما يكفي من العناصر القادرين على الاهتمام بمسألة تهريب الأسلحة الإيرانية[1191]. حصل أول اختراق أميركي للشبكة الإيرانية وكشف لألغازها في كانون الأول/ ديسمبر من العام 2004 عندما دخل عراقي إلى إحدى القواعد وقدّم تفاصيل عن تدريبه في إيران وكيف كان فيلق القدس يهرّب القنابل المضادة للدروع إلى العراق. ومع مرور أشهر تدفّق المزيد من المعلومات، فعرفت الاستخبارات الأميركية بدقة أن اليد الإيرانية تقف وراء الهجمات، وحددت معبرين حدوديين يستخدمهما الإيرانيون لتهريب الأسلحة الفتاكة.

عندما ظهرت بصمة إيران واضحةً على الهجمات في العام 2005 جرى نقاش في البنتاغون حول ما إذا كان المرشد الأعلى للثورة على علم بهذه الهجمات أم أن عناصر مارقة داخل الحرس الثوري تقوم بها. في أعقاب الفشل الاستخباراتي في العراق توترت العلاقات بين الموظفين المدنيين في وزارة الدفاع وكبار مسؤولي الاستخبارات الذين انعدمت ثقتهم بالمدنيين، فقد كانوا قلقين من أن يسعى المحافظون الجدد إلى بدء حرب أخرى مستخدمين ذريعة الدعم الإيراني للشيعة، لذا قلل ضباط الاستخبارات من أهمية الأفعال الإيرانية على الرغم من توفر الأدلة الدامغة على أن الحكومة الإيرانية تدير حرباً بالوكالة. في مطلع العام 2005 جرت مناقشات حادة في أحد اجتماعات البنتاغون بعد أن افتخر أحد محللي الاستخبارات أمام موظف سياسي مدني بأنه: «سيقول الحقيقة في وجه السلطة»، وقدادّعى هذا الموظف أن وكالة الاستخبارات لا تمتلك أي دليل يثبت أن الحكومة الإيرانية تسمح بالهجمات على قوات التحالف.

وافق رئيس هيئة الأركان المشتركة بيتر بيس على تحليلات وكالة الاستخبارات وقدّم ردّاً فاتراً بشأن ازدياد عمليات تهريب القنابل المضادة للدروع من إيران. في نيسان/أبريل من العام 2005 قال بيس علناً إن الولايات المتحدة لا يمكنها اقتفاء أثر هجمات القنابل المضادة للدروع وصولاً إلى إيران. وفقاً لرواية آبي شولسكي، لم يكن الأمر واقعياً بل يعكس شكوكاً في البنتاغون. تشبّث بيس بهذا الاعتقاد إلى أن ظهرت أدلة تثبت تورط إيران. وفي شباط/فبراير من العام 2007 عدّل بيس وجهة نظره معتبراً أنَّه حتى لو جاءت القنابل المضادة للدروع من إيران فليس هنالك من دليل يشير إلى أن المرشد الأعلى قد أذن بشن الهجمات[1192].

رفض آبي شولسكي تماماً هذا الرأي، وناقش في مناسبة خاصة تدفق الأسلحة الإيرانية مع محلل بارز في وكالة الاستخبارات الذي ردّد قول بيس: «ليس لدينا أي دليل على أن المرشد الأعلى كان على علم بالهجمات».

«هل إذا كان الكلب لا ينبح يعني ذلك أنَّه لا يعض؟» ردّد شولسكي مصعوقاً. «هل تريد أن تقول لي إنّ هؤلاء الرجال يقومون بعمليات محفوفة بالمخاطر وذات عواقب وخيمة جداً من دون أن

يعلم المرشد الأعلى؟ وهم يعملون تحت إمرته!»

عندما تلفظ بيس بعبارته في العام 2007 كان الرأي السائد داخل مجتمع الاستخبارات ينسجم مع رؤية شولسكي، وحتى كبار المحللين الذين لا يثقون بالمحافظين الجدد وجدوا أنه من غير المعقول أن يشنّ فيلق القدس حملةً كبيرة على الولايات المتحدة دون تأييد المرشد الأعلى للثورة. بقيت القيادة العسكرية في البنتاغون في سبات عميق على الرغم من مقتل المزيد من الأميركيين وتراكم تقارير الاستخبارات التي تشير إلى تورط إيران. في إحدى المذكرات وافق ضابط كبير في وزارة الدفاع على المنطق الملتوي القائل بأن الإيرانيين لم يتسببوا بالأذى بقدر ما يستطيعون، وبالتالي من المفضَّل عدم الرَّد لأن ذلك سيؤدي إلى تصعيد العنف. أراد بعض كبار الضباط غضّ النظر عن حقيقة ما يجري طالما أن إيران تبقي دعمها على مستوى منخفض.

في أوائل عام 2006 صعّدت الميليشيات الموالية لإيران من هجماتها، وكشفت استخبارات الجيش في شباط/فبراير خططاً لهجوم واسع النطاق على قاعدة أميركية هي معسكر بوكا. كان ثلاثة ضباط من فيلق القدس الإيراني يراقبون القاعدة، وخططوا مع مقاتلين من جيش المهدي لمهاجمتها، وتمّ تهريب أسلحة ثقيلة من إيران من أجل هذه العملية خصوصاً، حيث سينفذ 120 مقاتلاً شيعياً هجوماً منظماً على قاعدة أميركية، ولو تمَّ الهجوم لكان ضربةً كبرى. كما أرسلت إيران منصات مدافع الهاون وغيرها من الذخائر إلى المقاتلين الشيعة. في شهر آذار/مارس من العام 2006 وحده قدّرت القوات الأميركية أن إيران شحنت 216 قنبلة مضادة للدروع، فيما لم يصل إلى العراق سوى نصف هذه الكمية على مدى العام 2005، وارتفع بالتالي عدد الإصابات. في الأشهر الستة الأولى من العام 2006 قُتل سبعة وستين جندياً بالقنابل المضادة للدروع الإيرانية.

بينما كان رئيس هيئة الأركان يضيّع الوقت، ضغط القادة العسكريون والمدنيون في العراق لعمل شيء حيال الإيرانيين. بدأت التسريبات تظهر في الصحف الأميركية عبر الضباط في العراق الذين أشاروا إلى الخطر المتزايد الناجم عن القنابل المضادة للدروع. أثار القائد الكبير في العراق جورج كيسي وقائد القيادة المركزية الأميركية جون أبي زيد هذه المسألة مع بيس ووزير الدفاع رامسفيلد. أصدر قسم الاستخبارات المركزية الأميركية في تامبا تقارير عديدة عن تنامي نفوذ إيران بين الشيعة في العراق وعن عبور عناصر فيلق القدس الحدود.

أراد أبي زيد الضغط على الإيرانيين، لكن رئيس الوزراء العراقي المالكي «رفع بطاقته الحمراء. بوسعك ملاحقة السنّة والقاعدة، لكن عندما يصل الأمر إلى الشيعة والإيرانيين تتردد الحكومة العراقية كثيراً، ويجد هذا التردد صداه في واشنطن»، على حد قول أبي زيد.

في 8 أيار/مايو من العام 2006 أرسل أبي زيد مذكرةً من ثلاث صفحات إلى رامسفيلد تصف مخاوفه بشأن إيران وقال فيها: «سيدي الوزير، توفر إيران، وعلى وجه التحديد فيلق القدس التابع للحرس الثوري الإيراني، دعماً فتاكاً للميليشيات الشيعية لشن هجمات ضد قوات التحالف في العراق. وعلى الرغم من عدم وجود دليل يشير إلى أن فيلق القدس هو الذي يحدد الأهداف، إلا أنّ إيران على معرفة تامة باستخدام القنابل المضادة للدروع ضد التحالف». واقترح أبي زيد إرسال رسالة احتجاج شديدة اللهجة إلى إيران، ولفت انتباه طهران إلى أن الولايات المتحدة ستتخذ

إجراءات في حال لم تتوقف هذه الهجمات. لقد أثارت رسالة أبي زيد قلق رامسفيلد فأحال مذكرة أبي زيد مع مسودة احتجاج إلى هادلي ورايس.

في حزيران/يونيو، اجتمع بوش مع مستشاريه وهادلي في كامب ديفيد، حيث ناقشوا مذكرة الاحتجاج وقضية القنابل المضادة للدروع. أثار عدد من المسؤولين، بدءاً بتشيني وانتهاءً بـرودمان، مخاوف من ألّا تؤثر مذكرة الاحتجاج في إيران إن لم يرافقها إجراء عملي، وأوصى رودمان بمحاصرة بعض قوات فيلق القدس في العراق ومن ثم إرسال مذكرة الاحتجاج لإظهار جدية الولايات المتحدة. كتب رودمان إلى رامسفيلد: «إن كلمات شديدة اللهجة من دون إجراءات ملموسة قد ترسل إشارة غير مقصودة إلى إيران بأننا على استعداد لتحمل المزيد مما يجري»[1193]. وقد وافق تشيني قائلاً: «لا أدري لمَ علينا التسامح مع إيران عندما تقتل جنودنا». اقترح نائب الرئيس أن يدرسوا مجموعة أوسع من الخيارات، بما في ذلك ضربة عسكرية سريعة ودقيقة للغاية على مصانع القنابل المضادة للدروع داخل إيران لإثبات مدى التصميم الأميركي وجديته.

أيّدت رايس موقف أبي زيد ومذكرة الاحتجاج القوية، فدفع ذلك الرئيس بوش إلى تغيير رأيه لفترة من الوقت على الأقل. أُرسلت المذكرة عبر السويسريين وقد جاء فيها: «إن التدخل الإيراني في العراق يُعدّ انتهاكاً صارخاً لميثاق الأمم المتحدة. إذا استمرت إيران في دعم جماعات العنف في العراق فسوف نقوم باعتقال أو طرد أو احتجاز أي إيراني متورط».

في الأسبوع الأول من شهر تموز/يوليو عام 2006 عاد زلماي خليل زاد، سفير الولايات المتحدة في بغداد، إلى واشنطن والتقى رامسفيلد وقال له: «إن الإيرانيين يفعلون أشياء ضارة في العراق، ومن الضروري أن تتخذ الولايات المتحدة قراراً بشأن ما سنقوم به حيال هذه الأضرار، وكيف سنضغط عليهم». شجع هذا الكلام رامسفيلد على كتابة مذكرة أخرى من مذكراته القصيرة إلى بيس جاء فيها: «يرجى التفكير في القرار. شكّل فريقاً ودعه يقم بذلك»[1194]. وفي الأسبوع التالي قرأ رامسفيلد تقريراً استخباراتياً يؤكد عمليات فيلق القدس ضد قوات التحالف في العراق. غضب وزير الدفاع وأرسل مذكرةً أخرى إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة قائلاً: «ما زلت أشهد هذا النوع من العمليات. طالما نحن على هذه الدرجة العالية جداً من الذكاء فلِمَ لا نقوم بإسكاتهم؟ لم أعد أفهم ما يجري»[1195].

شكّلت الحدود العراقية مشكلةً كبيرة بالنسبة إلى الولايات المتحدة منذ الغزو في العام 2003، فقد كانت معبراً روتينياً للجنود والمهربين الإيرانيين. ومع زيادة الإيرانيين دعمهم للميليشيات تصاعد التوتر مع الأميركيين على طول الحدود. في صباح يوم 7 أيلول/سبتمبر من العام 2006 توجهت دورية استطلاع مؤللة عراقية أميركية مشتركة كي تبحث عن طرق التهريب، يترأسها ملازم أميركي من فرقة الفرسان 73-5. وقد رصدت الدورية رجلين يركضان في الجانب الإيراني من الحدود. عندما ظهر الجنود الإيرانيون في الجهة المقابلة من الحدود ترجّل العراقيون لبدء محادثات مع الإيرانيين حول حل قضايا الحدود، وسرعان ما بدأ الجانبان تبادل صور أسرهم

واحتساء الشاي. وبينما كان الملازم الأميركي يحاول عبثاً إقناع حلفائه العراقيين بالإسراع في التحرك ظهرت شاحنتان إيرانيتان ترجّل منهما ستة عشر جندياً مسلحاً برشاشات AK-47 وقاذفات صواريخ واتخذوا مواقع لإطلاق النار باتجاه الدورية الأميركية. حاول الملازم دون جدوى أن ينهي اجتماع العراقيين بالإيرانيين وأن يشعرهم بخطورة الوضع، فأمر عرباته الـهمفي الأربع بالتراجع، فإذا بالإيرانيين يفتحون النار.

ردّ الأميركيون التسعة عشر بإطلاق النار فوراً وناوروا مرةً أخرى للخروج من مدى النيران, ورصد جندي على مدفع رشاش من العيار 50 إيرانياً يتقدم بقاذفة من خلف الرتل العسكري فأطلق عليه بضع رشقات من الطلقات الدقيقة فنسفه نسفاً كاملاً ولمّا ابتعد الأميركيون عن الحدود أخذت قذائف الهاون تتساقط كالمطرمن حولهم، لكنها لم تلحق بهم إصابات. واحتجزت إيران العراقيين الذين كانوا يشربون الشاي[1196].

في تشرين الثاني/نوفمبر تعرضت دورية تتألف من ثمانية جنود من البحرية كانت تتفقد الحدود العراقية لإطلاق نار من ثلاثة جنود إيرانيين يرتدون زياً عسكرياً موحداً عبر الحدود، فجرى تبادل لإطلاق النار مما أسفر عن مقتل أحدهم وإصابة آخر وفرار الناجي الوحيد[1197].

خلال المناقشات المكثفة حول زيادة عديد القوات، دعمت القيادة المدنية في البنتاغون الجنود في العراق، وضغط رامسفيلد على هادلي لإدراج دعم القوات على الجدول الأعمال. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ضغط رامسفيلد على بيس مرةً أخرى، بعد أن قرأ تقريراً استخباراتياً آخر يدعو للقيام بشيء حيال الهجمات الإيرانية في العراق. «إذا كنا نعرف الكثير عما تفعله إيران في العراق فلماذا لا نفعل شيئاً حيال ذلك؟»[1198] وأخيراً تمكَّن ضغط الجنرالات والدبلوماسيين في العراق وغضب رامسفيلد من تحقيق نتيجة. واستطاعت واشنطن في غضون شهرين فقط - وهو رقم قياسي بمعاييرها - أن تتصرف، واتفقت مختلف الوكالات على استراتيجية محددة. جاءت المعارضة من مكتب نائب الرئيس فقط، فمستشار تشيني للسياسة الخارجية جون هانا اعتقد أن دعم الميليشيات الشيعية لا يمثل تهديداً كبيراً جداً، لكن رئيسه لم يشاطره هذا الرأي.

في 13 أيلول/سبتمبر، ترأس هادلي اجتماعاً لرؤساء المكاتب حيث اتفقوا على نهج متعدد الخطوات لمواجهة إيران داخل العراق، وأيّدهم في ذلك تشيني. وشمل ذلك إطلاق حملة إعلامية جديدة لتسليط الضوء على أنشطة إيران ودعوة القيادة المركزية الأميركية لوضع خطة تصعيد تدريجي تبدأ بعمليات عسكرية بسيطة غير قاتلة وتنتهي بعمليات فتاكة لمواجهة فيلق القدس. في تشرين الثاني/نوفمبر عاد أبي زيد باقتراح. أعطى الرئيس ووزير الدفاع الضوء الأخضر للانطلاق بعد اجتماعهما في 13 كانون الأول/ديسمبر. لم تكن القرارات قوية كما أراد تشيني؛ إذ لن يتم قتل عناصر فيلق القدس إلا في حال الدفاع عن النفس، ولن تستهدف القوات الأميركية عناصر إيرانية لم تشارك فعلياً في دعم الميليشيات.

بدأ الهجوم المضاد بعد أقل من أسبوع. شكّلت قوات العمليات الخاصة الأميركية فريق المهمة 88 (تغير اسمه لاحقاً ليصبح فريق المهمة 17) للعمل على لجم فيلق القدس الإيراني. سبق عمليات فريق المهمة 88 إجراء اتصالات عسكرية مع عملاء عراقيين وجمع معلومات استخباراتية خاصة ومراقبة العمليات الإيرانية داخل العراق وعبر الحدود. استخدم الفريق الأميركي مصادر الاستخبارات الوطنية، وسرعان ما تشكّلت صورة واضحة عن الإيرانيين والعراقيين الذين يشاركون في الهجمات وشبكات تهريب القنابل المضادة للدروع من إيران.

في مساء يوم 20 كانون الأول/ديسمبر وضعت القوات الخاصة الأميركية خطة لمداهمة مخبأ إيراني مشبوه في بغداد. فقد أبلغ مصدر في الاستخبارات عن سيارة مشبوهة غادرت مبنى مقر المجلس الإسلامي الأعلى العراقي فنصب الأميركيون حاجزاً على وجه السرعة وألقوا القبض على أربعة رجال ثلاثة منهم كانوا يحملون جوازات سفر دبلوماسية ويشتبه بأنهم عملاء لدى وكالة الاستخبارات الإيرانية، وصادف أن أحدهم ملحق عسكري في السفارة الإيرانية في بغداد.

في اليوم التالي اقتحمت القوات الأميركية المخبأ واحتجزت عشرة رجال آخرين كان سبعة منهم ضباطاً في فيلق بدر وأحدهم عميلاً لوكالة الاستخبارات الإيرانية، وعلاوةً على ذلك وضعت الولايات المتحدة يدها على اثنين من كبار الضباط الإيرانيين أشار ضابط سابق في عمليات القوات الخاصة إلى أنهما «كانا صيداً ثميناً، فقد كان أحدهما عقيداً وقائد العمليات في فيلق القدس، وصادف أن شريكه هو العميد محسن شيزاري، قائد عمليات فيلق القدس في العراق»[1199].

أرسلت إيران على الفور مذكرة احتجاج إلى الولايات المتحدة للمطالبة بالإفراج عن «الدبلوماسيين الإيرانيين». عقد جي دي كراوتش اجتماعاً في البيت الأبيض، وقرر الفريق تجاهل الاحتجاج واتفقوا: «سيكون ردنا بأعمالنا»[1200].

غضب رئيس الوزراء نوري المالكي، ومع أنَّ الولايات المتحدة أفرجت فوراً عن المحتجزين الذين يحملون جوازات سفر دبلوماسية، إلّا أنّ رئيس الوزراء العراقي استدعى المكلف بالأعمال الأميركي وجنرالاً في الجيش وطالب بالإفراج عن القائد شيزاري لعدم كفاية الأدلة. رضخت الولايات المتحدة الأميركية وسلمت القائد شيزاري إلى مستشار المالكي للأمن القومي، الذين أوصله بدوره إلى الحدود الإيرانية.

في ساعات الصباح الباكر من يوم 11 كانون الثاني/يناير من العام 2007 هاجمت مروحيات أميركية صفاً من المنازل في وسط مدينة أربيل شمالي العراق. كان المبنى يضم القنصلية الإيرانية، واشتبهت الاستخبارات الأميركية بأنه يُستخدم في الواقع مقراً لنشاطات فيلق القدس في الجزء الكردي من العراق. كانت قوات العمليات الخاصة الأميركية تأمل في إلقاء القبض على القائد المخطط في الحرس الثوري محمد جعفري، فقد ذكرت الاستخبارات أن هذه الغنيمة القيّمة وصلت مؤخراً إلى أربيل[1201]. طوّقت قوات العمليات الخاصة الأميركية المبنى واستخدمت مكبرات الصوت لتدعو من بداخله لتسليم أنفسهم. استجاب خمسة حراس كانوا يقفون في الخارج على الفور،

لكن من في الداخل رفضوا الاستسلام فاقتحم الأميركيون المبنى، وعلى الرغم من أنهم لم يتمكنوا من جعفري إلا أنهم أسروا خمسة ضباط من فيلق القدس الإيراني. وشكّلت الوثائق وأجهزة الحاسوب المحمول كسباً غير متوقع بالنسبة للأميركيين إذ حل لغز شبكة القنابل المضادة للدروع. وقد أكَّدت المعلومات أن فيلق القدس يقوم بتهريب السلاح ودعم الهجمات المرتكبة باستخدام القنابل المضادة للدروع، لاسيما الهجوم الذي نُفذ في حزيران/يونيو من العام 2006 والذي أدّى إلى مصرع ستة جنود أميركيين. لم يكن أيٌّ من الرجال يحمل جواز سفر دبلوماسياً، فألقت الولايات المتحدة بهم في سجن معسكر كروبر بالقرب من بغداد حيث مكثوا حتى العام 2010 على الرغم من مطالبة إيران المستمرة بـ «الدبلوماسيين المختطفين».

في شباط/فبراير شنّت الولايات المتحدة غارة كبيرة أخرى حيث اعتقلت اثنين من كبار المسؤولين في فيلق بدر، من المرجح أن أحدهما من الحرس الثوري الإيراني. كما اعتقلت القوات الأميركية أربعة مواطنين إيرانيين متنكرين في هيئة صحفيين كانت بحوزتهم وثائق تثبت أنهم ضباط في فيلق القدس.

تلقت الاستخبارات الأميركية مفاجأةً أخرى في شباط/فبراير من العام 2007. كانت المفاجأة جنرالاً كبيراً في الحرس الثوري هو علي رضا أصغري الذي انشق عن الحكومة الإيرانية أثناء زيارته تركيا. عمل أصغري على مساعدة حزب الله لسنوات في لبنان، وخدم في ظل حكومة خاتمي، وقد أُصيب بخيبة أمل من الحكومة، فسنحت له فرصة الإنشقاق بينما كان في تركيا على ما يبدو[1202].

ومع إنهاء الولايات المتحدة لمسألة فيلق القدس توجَّه وزير الدفاع الجديد روبرت غيتس إلى المنطقة لحشد التأييد لزيادة القوات والتحرك ضد إيران، حيث اجتمع في كانون الثاني/يناير من العام 2007 بقادة دول الخليج، الذين استقبلوه برأي واحد وهو أن رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي بيدق إيراني. وقد أظهر الملك السعودي عداءه لإيران إلى أبعد الحدود وأعرب لغيتس عن قلقه من أن تجري الولايات المتحدة محادثات سرية مع الإيرانيين وأن تكون على وشك عقد صفقة خاصة، فطمأن غيتس الملك وبدّد مخاوفه بأنه لا توجد صفقات سرية متعهداً بمواصلة الدعم الأميركي للمملكة، فالإيرانيون لديهم الكثير من المشاكل والتدخّل في العراق لن يفيدهم، وقال للملك: «إنهم يبالغون في تقدير حجمهم»[1203]. في 20 كانون الثاني/يناير، عاد غيتس ليطلع مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض على نتائج رحلته، وأخبر هادلي والآخرين بأنّ حلفاءهم في الخليج متوترون، مضيفاً: «إنهم لا يثقون برئيس الوزراء المالكي، ويخشون هيمنة الشيعة ويعتبرونها نفوذاً إيرانياً في العراق». أيّد الجميع الولايات المتحدة في القضاء على فيلق القدس وحلِّه، ولكنهم «كانوا ينظرون جميعاً إلى إيران باعتبارها التهديد رقم واحد».

لقد باغتت قوات العمليات الخاصة الأميركية الإيرانيين على حين غرة، وبعد مرور ما يقارب العامين على بدء الهجمات بدا قائد فيلق القدس قاسم سليماني مرتبكاً لأن الأمور أثارت

غضب الأميركيين أخيراً، وأقلقه بصورة خاصة احتجاز خمسة ضباط من فيلق القدس في أربيل، فهم يعرفون تفاصيل دقيقة عن العمليات الإيرانية في العراق، الأمر الذي من شأنه أن يعرضها كلها للخطر. صُدم سليماني بالموقف الأميركي الشجاع المفاجئ فقلّص عملياته وسحب العديد من قوات فيلق القدس من العراق خشية أن يلقي الأميركيون القبض عليهم أيضاً[1204]. لكن الإيرانيين ظلوا مصممين على تحدي الاندفاع الأميركي وقرروا عدم التخلّي عن العراق بسهولة. صرّح الأمين العام للمجلس الأعلى الإيراني للأمن القومي علي لاريجاني لمسؤول سوري أن إيران تريد إلحاق خسائر أكبر بكثير من تلك التي وقعت. وهكذا بدأت إيران توسيع عمليات تدفق الأسلحة ومدّ أي جماعة شيعية تعارض التحالف بها، وبخاصة ميليشيا جيش المهدي المستقلة بزعامة مقتدى الصدر.

قررت إحدى هذه المجموعات أخذ عدد قليل من الأميركيين رهائن لمبادلتهم بالإيرانيين الخمسة الذين اختطفوا في أربيل أو بأفراد الميليشيات الشيعية الأخرى الذين أسرهم الأميركيون. تشكلت جماعة جديدة تدعمها إيران تحت اسم «عصائب أهل الحق» ويتزعمها قيس الخزعلي، وهو رجل نحيف وذو سحنة متعالية، وبدأت علاقته مع إيران في حزيران/يونيو عام 2003 عندما اجتمع والصدر بخامنئي وسليماني في طهران ثم انشق عن الصدر بعد أن انضم الأخير إلى العملية السياسية في بغداد. نال الخزعلي في اجتماع سري جمعه بضابط من فيلق القدس وحزب الله اللبناني الموافقة على القيام بعملية جريئة ضد مركز التنسيق المشترك في محافظة كربلاء، حيث يقيم ويعمل ما يقارب الستين جندياً من الجيش الأميركي.

في الساعة الخامسة من مساء يوم 20 كانون الثاني/يناير وصلت خمس سيارات رباعية الدفع سوداء كبيرة إلى المعسكر المحصن، وكان في داخل السيارات ما بين تسعة رجالٍ واثني عشر يرتدون الزيّ الأميركي ويعتمرون الخوذات الأميركية بالإضافة إلى العديد من المتحدثين باللغة الإنكليزية. وكانت السيارات ترفع هوائيات وهمية لتبدو مماثلة لتلك التي يستخدمها الأميركيون عادةً فتمكنت بسهولة من خداع الجنود العراقيين الذين كانوا يتولون الحراسة، فشقت طريقها إلى المجمع الذي يضم الفريق الاستشاري الأميركي، واقتحم ركابها تحت وابل من القنابل والرصاص المكتب حيث يتواجد الأميركيون، فقتلوا جندياً وأصابوا ثلاثة[1205]، ومن الوارد أن يكونوا قد حظوا بمساعدة من العراقيين المتواجدين داخل المبنى.

أسر المتمردون أربعة آخرين من بينهم شخصان كانا في سيارة، ثم عادوا أدراجهم إلى سيارات الدفع الرباعي وتوجهوا شرقاً بأقصى سرعة. انتشرت القوات الأميركية في جميع أنحاء المنطقة وأطبقت على الجناة، وعثرت الشرطة العراقية على جندي مقتول ملقى على قارعة الطريق. وبعد حوالى أربع ساعات وجدت القوات الأميركية خمس سيارات رباعية الدفع متروكة في الطريق بالقرب من منطقة سكنية، وفي إحداها جنديان أُعدما معاً بعد تكبيلهما وتُركا في المقعد الخلفي بينما أُطلق الرصاص على الجندي الأخير خارج السيارة.

تعقبت القوات الأميركية والبريطانية أثر المسؤولين عن العملية، وبعد بضعة أشهر لقي الشخص الذي قاد القوة التي قتلت الأميركيين مصرعه في كربلاء على يد القوات الخاصة

الأميركية، وقامت قوات التحالف باعتقال الخزعلي في البصرة في آذار/مارس من العام 2007، ثم اعتقلت شقيقه ومستشاراً لحزب الله اللبناني يدعى علي موسى دقدوق.

كان دقدوق جندياً مخضرماً، فقد أمضى عشرين عاماً في حزب الله حيث شغل منصب قائد العمليات الأمنية، وقد وصل العراق في العام 2005 وعمل مع ضباط فيلق القدس الإيراني من أجل إنشاء نظير عراقي لحزب الله اللبناني في العراق، وقام بأربع رحلات إلى إيران مصطحباً معه عشرات العراقيين ليخضعوا لتدريب شبه عسكري. كان دقدوق جندياً منضبطاً، فعندما قبض عليه الأميركيون لعب دور الأصم والأبكم مدة شهرين، وأُطلق عليه لقب حامد الأبكم. مرّر أخيراً مذكرةً إلى حراسه قال لهم فيها إنه ما زال يسمع ويتكلم؛ ويبدو أنَّه فعل ذلك ليسمح للآخرين خارج السجن بالفرار [1206].

في حين نفى المرشد الأعلى للثورة أي تورط لإيران، ردّ وكلاؤه في عصائب أهل الحق بخطف خمسة بريطانيين بعد أن دخلوا مبنىً حكومياً في بغداد متنكرين بزي رجال الشرطة، وكانوا يعتزمون استخدام الرهائن للإفراج عن زعيمهم، لكنهم أعدموا أربعة بريطانيين من أصل خمسة، فكانوا يخرجون كل واحد من زنزانته ويطلقون النار عليه في الناحية الخلفية من رأسه. توسطت الحكومة العراقية أخيراً في الصفقة أواخر العام 2009، وأدت الوساطة إلى مقايضة الخزعلي بالرهينة الخامسة، وهو البريطاني بيتر مور، فلاذ المقاتل العراقي بعدئذٍ بالفرار فوراً إلى إيران [1207].

درست الإدارة طرقاً أخرى لزيادة الضغط على إيران من خلال استهداف الحرس الثوري، ونسّق هادلي حملة أميركية واسعة لفضح فيلق القدس شملت مجموعة واسعة من الإجراءات كالمؤتمرات الصحفية والتسريبات المنتقاة للصحفيين التي تبرز دور فيلق القدس في استخدام القنابل المضادة للدروع، وكشفت الولايات المتحدة للحكومات في الشرق الأوسط هوية ضباط فيلق القدس المعروفين وطالبت بطردهم.

نفّذ الرئيس بوش أول هجمة مفاجئة في هذا المخطط الجديد، ففي صبيحة يوم 14 شباط/فبراير من العام 2007 عقد مؤتمراً صحفياً في الغرفة الشرقية الكبيرة ذات الستائر الصفر في البيت الأبيض، وعندما سأله الصحفيون عن تورط إيران في القنابل المضادة للدروع أجاب متحدثاً وفق نقاط معدة جيداً: «ما نعرفه هو أن فيلق القدس لعب دوراً أساسياً في توفير هذه العبوات الناسفة لشبكات داخل العراق، ونحن نعلم ذلك، ونعلم أيضاً أن فيلق القدس جزءٌ من الحكومة الإيرانية، وهذا معروف. الشيء الذي لا نعرفه هو إذا ما كان القادة الإيرانيون قد أمروا فيلق القدس ليفعل ما يفعله أم لا. وجهة نظري هي: سواء كانوا يعلمون أم لا، المهم في الأمر هو أنهم كانوا هناك».

ثم حذّر الرئيس الحكومة الإيرانية من أن الولايات المتحدة تنوي توجيه ضربات إلى هذه الشبكات قائلاً: «إذا اكتشفنا جهات تحرك هذه الأدوات في العراق فسوف نتخذ إجراءات في حقها» [1208].

في 20 شباط/فبراير، ترأس دي جي كراوتش اجتماعاً لكبار المسؤولين في غرفة العمليات وأوصى، بطلب من الرئيس، بمجموعة واسعة من الإجراءات لفضح فيلق القدس. تمحور النقاش حول ما إذا كانت الإجراءات تطال الحرس الثوري كله أم فيلق القدس وحده بوصفه منظمة سرية إرهابية تابعة له. وفي حين لم يجرِ خلاف حول معظم الخطط، اختلف الجيش بشأن تحديد أيٍّ من المجموعتين تُعتبر منظمةً إرهابية. كما حضر ضابط في البحرية هو الجنرال جون ساتلر اجتماع هيئة الأركان المشتركة باعتباره رئيس مكتب الخطط والسياسات في هيئة الأركان، وأعرب بشكل ودي وإيجابي عن قلق رئيسه من أن الإشارة إلى ضباط عسكريين من بلد آخر بوصفهم «إرهابيين» في العراق قد يأتي بنتائج عكسية، لاسيما إذا ردُّوا بالمثل معتبرين القوات الخاصة الأميركية إرهابية، فهي غالباً ما تعمل سراً وتقدِّم المساعدة العسكرية والتدريب للمتمردين. وأشار ساتلر: «لطالما تجنبت الولايات المتحدة اعتبار ضباط الجيش الذين يمارسون أنشطة تأمر بها حكوماتهم إرهابيين، وذلك لتفادي التعامل مع ضباطنا ومسؤولينا بالمثل».

لاقت حجة ساتلر قبولاً، وتراجعت على مدى الأشهر القليلة التالية فكرة إعلان الحرس الثوري كله منظمةً إرهابية، وبقي الإجماع قائماً على العمل ضد فيلق القدس.

تم تحديد الأدوات الرئيسة المتاحة للحكومة الأميركية وفق المراسيم التنفيذية، مثل المرسوم (13224) الذي يسمح للرئيس بتعطيل تمويل المتهمين بدعم الإرهاب أو نشر أسلحة نووية. بما أن حكومة الولايات المتحدة فرضت عقوبات شاملة على إيران، فقد ظلّ استخدام هذه المراسيم رمزياً إلى حدٍّ كبير. في تشرين الأول/أكتوبر من العام 2007 أصدر الرئيس أخيراً مرسوماً صيغ بعناية لاستهداف جيوب عدد من قادة الحرس الثوري، فقد أعلن بوش أن فيلق القدس يدعم الإرهاب وأن الحرس الثوري عموماً ووزارة الدفاع وقيادة أركان القوات المسلحة الإيرانية تنشر أسلحة الدمار الشامل. وذكر المرسوم التنفيذي خمسة من كبار الجنرالات في الحرس، لاسيما قاسم سليماني، وتسع شركات يسيطر عليها الحرس، ثم ضغطت وزارة الخزانة للحصول على التزام دولي بموجب قرار مجلس الأمن الدولي رقم (1737) الذي نجح كثيراً في عرقلة قدرة الإيرانيين على العمل خارج إيران.

بينما كان التوتر في أشده، رجحت الإدارة القيام بعمل عسكري ضد فيلق القدس ومنشآت تصنيع القنابل المضادة للدروع في إيران. دعا نائب الرئيس ديك تشيني إلى اتخاذ إجراءات أكثر تشدداً، وأثار مرةً أخرى فكرة ضربة جراحية ضد الإيرانيين خلال ربيع العام 2007م[1209]، وقال في أحد اجتماعات رؤساء الأجهزة بطريقة عاطفية: «إنهم يقتلون قواتنا، ولا أفهم لماذا علينا تحمل ذلك»، واقترح مهاجمة مصنع القنابل المضادة للدروع في مهران باستخدام صواريخ كروز من طراز توماهوك بحجة أن هذا العمل محدود ومن شأنه أن يرسل إشارة قوية إلى إيران. في المقابل لفت رئيس هيئة الأركان المشتركة النظر إلى أنه لا بد من دراسة عواقب أي هجوم على إيران بشكل دقيق، والأخذ بعين الاعتبار إمكانية حصول تصعيد في الخليج أو زيادة الهجمات الانتقامية في العراق، وسأل عن مدى استعداد الولايات المتحدة للعمل إذا ما صعّدت إيران عبر الردّ في أفغانستان أو القيام بهجمات ضد القوات الأميركية في أي مكان في الشرق الأوسط أو ضد دول الخليج العربي؟ لكن نائب الرئيس أصرَّ ببساطة على أنه أمر بغيض أن تقتل عناصر إيرانية الجنود

الأميركيين وتظل دون أي عقاب، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى مزيد من الهجمات ما لم تدفع إيران ثمن أفعالها[1210].

عارض قائد القيادة المركزية الأميركية الجنرال جون أبي زيد فكرة ضرب إيران، فهو أيضاً يعتقد أن ذلك من شأنه خلق المزيد من المشاكل وتوسيع الصراع مع إيران في حين بلغ التمرد السنيّ أوجه»[1211].

أخذت الأمور مساراً آخر بعد استبدال أبي زيد في القيادة المركزية الأميركية. جاء الأدميرال ذو النجوم الأربع جوزيف «فوكس» فالون إلى تامبا بعد أن غادر عمله في قيادة المحيط الهادئ، وقد كان الرئيس بوش معجباً بقيادته. كان الأدميرال يشاطر البحرية رأيها القائل بأن إيران لا تشكّل تهديداً كبيراً، وأن القيادة المركزية الأميركية بالغت في تقدير قوة إيران العسكرية. قام فالون الواثق من نفسه بإيقاف التخطيط الذي بدأه أبي زيد لاعتقاده أن القيادة المركزية الأميركية بحاجة إلى إظهار المزيد من ضبط النفس وإلى عدم توسيع رقعة صراع غير موجود إلى حد كبير مع أنه لا يجهل أنشطة فيلق القدس الإيراني، وسمح لقوات العمليات الخاصة الأميركية بالتحرك ضد بعض عمليات فيلق القدس في أفغانستان، لكنه لم يحدد أولويات حقيقية للقيادة وأصبح غارقاً في الامتيازات والصلاحيات. وقد علّق أحد الأدميرالات قائلاً: «إن تنظيم موقف السيارات له أولوية لدى فالون أكثر من إيران».

وضع قائد البحرية فالون قائمة محدودة ودقيقة تتضمن نحو خمسة أهداف منفصلة داخل إيران في حال صدر الأمر بالمواجهة في أي وقت، وذلك باستخدام صواريخ كروز فقط. فالبحرية قادرة على الوصول بسهولة إلى الأهداف كلها في وقت واحد مع احتمال حدوث أضرار جانبية ضئيلة. على أي حال، بقيت مسألة واحدة تشغل بال فالون وهي قدرة هذه الأهداف على وقف القنابل المضادة للدروع الإيرانية. «لم تكن على هذه المباني علامات تشير إلى أنها مصانع للقنابل المضادة للدروع الإيرانية»[1212].

على الرغم من أنّ حكومة الولايات المتحدة لم تنفِ مسألة اتخاذ إجراءات عسكرية لوقف برنامج إيران النووي، إلا أنّ فالون لفت الانتباه إليها في العلن قائلاً إنها نوع من «التعليقات العدائية» غير المفيدة، الأمر الذي أغضب نائب الرئيس ديك تشيني. روى تشيني في مذكراته تعليقات أدلى بها أحد الدبلوماسيين معبراً عن مخاوفه قائلاً: «إذا كنتم رافضين لمسألة الخيار العسكري، فلماذا لا تقوم وزيرة خارجيتكم على الأقل بالتعليق على الأمر؟ فعندما تأتي التصريحات من قائد القوات الأميركية بذلك، فسوف ينبّه هذا إيران»[1213].

وفقاً لتشيني، كانت وجهة نظر وزير الدفاع غيتس مشابهة في ما يخصّ الحكمة من القيام بعمل عسكري ضد إيران. وغضب نائب الرئيس عندما أخبر غيتس العاهل السعودي أن بوش «سيعاني ضغوطاً إذا قام بعمل عسكري ضد إيران»، فهذا الخبر لا يريد أن يسمعه ديك تشيني ولا

حتى الملك عبد الله، كما أنه «يلغي عنصر تأثيرنا الرئيس ويقنع الحلفاء والأعداء بأننا لسنا جديين في معالجة هذا التهديد»[1214].

تسربت أخبار المداولات بشأن ضرب إيران، فنشأت حالة من الهيجان في وسائل الإعلام ونُشرت مقالات في صحيفة التايم ونيويوركر وغيرها أشارت إلى أنّ من المرجح أن تشنّ الولايات المتحدة هجمة ضد إيران مستخدمةً العراق ذريعةً لتدمير المنشآت النووية الإيرانية. وبدا مكتب الشؤون الإيرانية الذي أنشئ مؤخراً في وزارة الخارجية مشابهاً لمكتب شولسكي الذي وضع الخطط الخاصة التي سبقت غزو العراق[1215]. في الحقيقة، لم يتم قط التفكير بصورة جدية في شنّ هجمات على المواقع النووية بل تركز النقاش حول رد عسكري محدود على هجمات ترعاها إيران داخل العراق. ولكن هذا التمييز لم يصل إلى الرأي العام، فراح مهاجمو الإدارة، مثل المراسل سيمور هيرش، يدقون طبول الحرب القادمة. قال إليوت أبرامز رافضاً: «هيرش مثل الساعة [المتوقفة]، يكون على صواب مرتين يومياً».

دفعت التصرفات الأميركية العدوانية في العراق بإيران إلى طاولة المفاوضات. ونقلت إيران في أواخر العام 2006 من خلال الحكومة العراقية رغبتها في التحدث إلى الأميركيين. كانت إيران تأمل في الحصول على اعتراف رسمي إضافي بمصالحها في العراق وإنهاء هجوم القوات الأميركية الخاصة على وكلائها. انقسمت الإدارة بشأن قبول عرض التفاوض مع إيران. من جانبها اعتقدت رايس أن إيران بوسعها المساعدة في استقرار العراق مثلما فعلت في أفغانستان في العام 2001، أما تشيني فقد أعرب عن تحفظه بشأن الحوار مع إيران، ورأى أن ذلك بمثابة مكافأة على سلوكها السيئ في العراق. ولكن رايس أقنعت الرئيس بالموافقة على هذا الجهد الدبلوماسي والعمل بشكل وثيق مع رئيس الوزراء نوري المالكي للوصول إلى اتفاق، فوافقت واشنطن على المحادثات، وقال المتحدث باسم البيت الأبيض: «كان الغرض من ذلك هو محاولة التأكد من أن الإيرانيين سيقومون بدور مثمر في العراق»[1216].

قرَّر الأميركيون أن مهمة التفاوض ستقع على عاتق السفير الأميركي في العراق ريان كروكر المتمرس في المفاوضات الإيرانية. وصل كروكر إلى السفارة الأميركية في بغداد في آذار/ مارس من العام 2007، وكان انطباعه الأول عن الوضع في العراق هو أنه مخيف ومماثل للوضع في لبنان الذي غادره في الثمانينيات، حيث كانت إيران وسوريا تتعاونان بشكل استراتيجي ضد الولايات المتحدة. لكن العراق لا يشبه لبنان، فعلى الرغم من أن المالكي ظل صديقاً لإيران إلا أنه يكره هذا البلد. ولاحظ كروكر قائلاً: «أمامنا مثال آخر على تعقيدات الحرب العراقية الإيرانية، فالقتال خاضه شيعة تحت إمرة نظام عربي سني ضد نظام شيعي فارسي».

علم كروكر بالتفكير الجاري حول ضربات عسكرية ضد إيران لكنه لم يعتبرها جدية، وكان ليعترض عليها لو حدثت. وإذا أرادت الولايات المتحدة التأثير في النظام فيمكنها أن تستغل الانقسامات العرقية من خلال دعم الأكراد أو البلوش، «فهذا من شأنه أن يثير رعب الإيرانيين».

واعتقد آخرون من خارج الحكومة، مثل مايكل ليدين، أنها لن توافق على هذه الاستراتيجية. لكن كروكر كان يؤيد تأييداً كاملاً الجهود المبذولة لمحاصرة فيلق القدس في العراق.

في 28 أيار/مايو من العام 2007، التقى كروكر نظيره الإيراني حسن كاظمي قمّي في مكتب رئيس الوزراء نوري المالكي. قام المالكي بمهمة تعريف الرجلين ببعضهما، وانتقلوا إلى قاعة الاجتماعات. جلس المالكي على رأس طاولة فخمة كوسيط، وجلس كروكر وقمّي على طرفين متقابلين. كان قمّي قد خدم في الحرس الثوري، وتعيينه يشير إلى الدور القوي الذي يلعبه سليماني وفيلق القدس في العراق[1217]. لم يكن لدى كروكر أمل كبير بالمحادثات، فقد كانت تفتقر إلى الانفتاح الذي ميّز اجتماعاته السابقة في جنيف، فيما هذا الإيراني يعمل سفيراً تحت رقابةٍ مُحكمة. وكلما أثار كروكر قضية ليست على قائمة الإيراني يقوم هذا بطلب استراحة للاتصال بطهران للحصول على إرشادات. قوّضت الأهداف الأميركية المشوشة المحادثات أيضاً. أرادت الولايات المتحدة الحصول على مساعدة إيران من أجل دعم الحكومة العراقية، وأرادت أيضاً معاقبتها على عمليات فيلق القدس في العراق. شوّش هذان الهدفان المتناقضان الإيرانيين. وأثار السفير الإيراني موضوع احتجاز مقاتلي فيلق القدس مرة واحدة فقط، وألقى محاضرة قال فيها إن «اعتقالات رجال الأعمال لا مبرر لها كلياً وهي مؤشر على موقف أميركا المعادي».

حاول كروكر مراراً وتكراراً الحديث عن أفعال إيران الضارة داخل العراق، قائلاً: «من الضروري أن يوقف الإيرانيون هذه الأعمال». بيد أن قمّي رفض التسليم بحجة كروكر، وردّت إيران باقتراح تشكيل آلية ثلاثية تتضمن إيران والعراق والولايات المتحدة لتنسيق القضايا الأمنية في العراق، وعرض قمّي الدعم الإيراني لإعادة بناء الجيش العراقي. وافق كروكر على إحالة الأفكار إلى واشنطن على الرغم من أنه يعرف أنها ستكون غير نافعة في البيت الأبيض. في نهاية الاجتماع عقد كلا الجانبين مؤتمراً صحفياً منفصلاً واتفقا على أن المحادثات كانت مهذبة، ولكنها لم تكن أكثر من ذلك[1218].

في 24 تموز/يوليو التقى الدبلوماسيان مرةً أخرى في مكتب المالكي. أرسلت إيران نائب رئيس أمنها القومي، وهو ضابط في الحرس الثوري، وكان يتابع المحادثات من الطابق الأول حيث مكتب المالكي، وإذا احتاج قمي لطرح سؤال ما كان يوقف المحادثات وينطلق مسرعاً ليسأل ضابط الحرس الثوري. فشلت المحادثات المرتبكة في إحراز أي تقدم، واتّهم كل جانب الآخر بإذكاء العنف في العراق على الرغم من أن كلا الجانبين كان يدعم الحكومة الديمقراطية المنتخبة في بغداد، وتأجلت المحادثات مرة أخرى دون أي تقدم. ناقش الجانبان إجراء جولة ثالثة من المحادثات، لكن الوفد الإيراني كان يغيّر المواعيد، يوافق في اليوم الأول على تاريخ معين فيعود ليغيره في اليوم التالي. في نهاية المطاف توقف الحديث عن إجراء محادثات[1219]، وأحبط إخفاقها المالكي الذي صارح كروكر بأن إيران لم تأخذ المحادثات على محمل الجد.

حاول شقيق قائد الحرس الثوري، سلمان صفوي، إقناع السفارة الأميركية بمحاولة تخفيف الأعمال الأميركية ضد إيران. في آب/أغسطس من العام 2007 شارك صفوي في مناقشة جماعية وأعرب عن رغبة الحرس الثوري في الحديث عن الأمن والبرنامج النووي، وعرض دعم إيران للمساعدة في مجال الأمن على الرغم من اعترافه بأن إيران قدمت مساعدات مادية للشيعة في العراق، لكنه قال إن إدراج الحرس الثوري الإيراني كمنظمة إرهابية من قبل أميركا من شأنه أن يحول دون التعاون. لم تقنع هذه الحيلة الواضحة الأميركيين، ففشل صفوي في قطع الطريق أمام فرض عقوبات أخرى على إيران[1220].

بالغت إيران في بسط يدها في العراق كما توقع وزير الدفاع غيتس. في أعقاب حرب العام 2006 بين إسرائيل وحزب الله، حيث أدّى الجناح العسكري لحزب الله المدعوم من إيران أداءً حسناً، قرر فيلق القدس الواثق من نفسه توسيع عملية توزيع الأسلحة في العراق أملاً في إلحاق خسائر أكبر بالولايات المتحدة[1221]، فصعدت عصائب أهل الحق المدعومة من إيران من هجماتها، وشكّلت إيران مجموعات خاصة جديدة تضم كل منها بين أربعة إلى عشرة رجال تحت قيادة أتباع إيرانيين قدماء، وغالباً ما عملت هذه المجموعات بالوكالة عن إيران، ولكنها أيضاً كانت تعمل لحسابها الخاص أو في القتل المأجور بالقدر نفسه[1222]. لقد أخطأت إيران في توفير الأسلحة؛ فبقدر ما كانت تتدفق الأسلحة الإيرانية بقدر ما يتأجج القتال بين الشيعة. فقد اندلع في العام 2007 القتال في كربلاء بين جماعات شيعية متنافسة تسلحها إيران، وتم اغتيال زعيمين من فيلق بدر بالقنابل المضادة للدروع التي تقدمها إيران، فعمل قائد فيلق القدس سليماني على تخفيف حدة التوتر، وناشد المالكي الإيرانيين لوقف تدفق الأسلحة وكبح جماح ميليشيا جيش المهدي بزعامة الصدر التي كثيراً ما رفضت التعاون مع الحكومة العراقية. نفت إيران توفير الأسلحة، ولكن سليماني أمر بتقديم الأسلحة لمجموعات موثوق بها فقط[1223].

في آذار/مارس من العام 2008 نفد صبر المالكي من الانفلات الأمني في البصرة فأرسل عشرة آلاف جندي لقتال الصدر، وفي غياب التنسيق مع الأميركيين تحوّلت المعركة إلى وضع متكافىء إلى أن وصلت تعزيزات أميركية وعراقية فواصل المالكي الهجوم. كشفت قواته مخابئ أسلحة إيرانية وصلت حديثاً حيث وجدت في أحدها أكثر من ألف قذيفة هاون وثلاثاً وثلاثين رزمةً من المتفجرات البلاستيكية. حدث وقف إطلاق النار عندما تدخلت إيران للوصول إلى اتفاق، وعلى مدى يومين من الاجتماعات في طهران، تفاوض سليماني على وقف إطلاق النار بين الصدر والمالكي. أشار كروكر ساخراً: «طلب سليماني وقف الفوضى التي كان له دور فعال في إثارتها وإدامتها»[1224].

نظر المالكي إلى التصرفات الإيرانية على أنها أعمال تهدف إلى تقويض حكومته، فضغط على كلٍّ من طهران وواشنطن لقطع الأموال عن المجموعات الخاصة المدعومة من إيران. في تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2008 خاضت القوات العراقية معركة بالأسلحة النارية مع خمسة

أشخاص يرجح أنهم نشطاء في فيلق القدس تسللوا مؤخراً عبر الحدود، وقد أسفرت المعركة عن إصابة اثنين منهم[1225]. لم يُنهِ ذلك دور إيران الكبير الذي تؤدّيه من وراء الكواليس في العراق والحكومة، ولكن دور إيران في تأجيج العنف بين الشيعة قد انكشف، فاضطر كلٌّ من سليماني والحكومة الإيرانية إلى تقليص العمليات وخفض تمويل الأحزاب السياسية الموالية لإيران في العراق بشكل مؤقت.

لم توقف قوات العمليات الخاصة الأميركية نشاط الشبكات الإيرانية تماماً، لكنها قتلت من الميليشيات العراقية بمعدل دوري، وعطّلت عملياتها بصورة جدية، ودمّرت مخابئها، ففر العديد منها إلى إيران. في 20 أيلول/سبتمبر من العام 2007 تعقب الجيش الأميركي ضابطاً في فيلق القدس خلال غارة على فندق في المنطقة الكردية؛ كان الرجل متورطاً في تهريب القنابل المضادة للدروع إلى العراق، فأمر سليماني ضباطه بعدم الظهور كما أمر بعودة البعض إلى إيران لتجنب القبض عليهم. بيد أنهم بدأوا يعودون إلى العراق مع انتهاء سياسة زيادة عديد الجنود في أواخر العام 2008 ونهاية عهد بوش. واصل الجنود الأميركيون إنجازاتهم، فكشفوا العراقيين الذين تدرّبوا في إيران على القنص وصنع القنابل[1226]. لكن الروابط بين الجيران الشيعة ظلت قوية جداً. انسحبت قوات الولايات المتحدة من العراق فيما ظلت شبكة وكيلة عن إيران فيه.

كتب الرئيس بوش في مذكراته قائلاً: «يؤسفني أن أنهي رئاستي والمسألة الإيرانية لم تحل بعد. «لقد سلّمت خليفتي نظاماً إيرانياً معزولاً أكثر عن العالم ومعاقباً بشكل أكبر من أي وقت مضى». لكنه ظل واثقاً من أن جهوده سوف تلهم المعارضين الإيرانيين وتساعدهم على «تحفيز التغيير»[1227]. وفرت الإدارة دليلاً وتعليمات لمواصلة احتواء إيران بصورة كبيرة، وأعدّت القيادة المركزية الأميركية نفسها للتعامل مع أي طارئ قد يظهر أثناء تأرجح العراق بين طرفي الصراع، وفشلت سياسات بوش في عزل إيران و«نزع الشرعية» عن النظام، فغزو العراق وضع إيران في موقع استراتيجي أقوى بكثير مما كانت عليه في عهد صدام حسين. وقد أثبتت جهود المفاوضات عقمها أيضاً. وعلى الرغم من أن الإيرانين قبلوا بفتور بالتعاون في العراق، إلا أنهم رفضوا قبول أي نقاش حول قتلهم الجنود الأميركيين. وظل الأمر متروكاً لإدارة جديدة كي تحاول العودة إلى حالة مرضية وتواصل إما السعي للسلام وإما التخطيط للحرب.

الفصل السابع والعشرون

يد ممدودة وقبضة مغلقة

في يوم الأربعاء 7 كانون الثاني/يناير من العام 2009 انضم ثلاثة رؤساء أميركيين سابقين إلى الرئيسين الحالي والقادم في البيت الأبيض، واجتمعوا أمام مكتب الرئيس الخشبي الفاخر. بعد بضعة تعليقات من الرئيس بوش انفض الاجتماع لتناول طعام الغداء. في غضون أقل من أسبوعين سيؤدي باراك أوباما اليمين الدستوري وينضمّ إلى النادي الأكثر خصوصيةً في العالم. عقد الرئيس بوش هذا الاجتماع ليؤكد على الوحدة الوطنية وليدعم الرئيس المنتخب. تصافح الرجلان بحرارة، وقال بوش: «نتمنى لك النجاح. إننا جميعاً حريصون للغاية على هذا البلد سواء أكنا ديمقراطيين أم جمهوريين».

كان لدى بوش سبب آخر غير معلن للاجتماع بأوباما. قبل الاجتماع الرسمي بالقادة العسكريين السابقين، التقى الرجلان منفردين مدة ثلاثين دقيقة، وجلسا في المكتب البيضوي جنباً إلى جنب على كرسيين مخططين باللونين الأزرق والذهبي. تجنّب بوش في أيامه الأخيرة كرئيس اتخاذ أي إجراءات جديدة في السياسة الخارجية من شأنها أن تلزم أوباما بمسار معين قد لا يوافق عليه، بيد أنه أراد التحدث إلى أوباما على انفراد بشأن قضية استثنائية واحدة: ألا وهي إيران.

بدأ بوش كلامه بالقول: «حاولت ألا أقيّد يديك، لكني وافقت في ما يخص إيران على عدد من الإجراءات التي تلزمك بأمور معينة. أرجو أن تكون مطمئناً وأن تدرك سبب قيامنا بذلك». ثم شرع بوش يشرح بدقة تفاصيل برامجه التي كانت تهدف إلى تأخير البرنامج النووي الإيراني وتقويضه، وأوضح آليات التعامل المختلفة، بدءاً بالخيارات العسكرية وانتهاءً بالرسائل العلنية، وأخبر أوباما عن بعض العمليات السرية والعلنية الجارية، ومن بينها السرية جداً التي لم يطلّع عليها سوى عدد قليل من كبار الموظفين. قال بوش إن الكثير من هذه القضايا يتطلب الوقت لتطويره، وإنّ بعض الأنشطة السرية تحتاج إلى دعم الرئيس الجديد كي تنجح كالأنشطة المرتبطة بعالم الحرب الإلكترونية أو التي تعتمد على وسائل سرية أخرى خاصة بحكومة الولايات المتحدة. لم يكن بوش واهماً، فهو يعلم أن هذه الجهود لن تضع حداً لبرنامج إيران النووي، لكنها سوف تؤخره بين ثمانية

عشر شهراً وسنتين، ما من شأنه أن يعطي أوباما وإدارته فترة كافية ليثبتوا أقدامهم على أرض الواقع ويضعوا استراتيجية خاصة بهم بشأن إيران وطموحاتها النووية. قال بوش لأوباما: «أودّ أن أوفّر لك الوقت والخيارات».

أصغى أوباما باهتمام فهو يعرف الكثير عن هذه القضايا بعد أن أطلعه عليها بالفعل نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة، الجنرال البحري جيمس كارترايت. وأفضى الرئيس المنتخب بتفاصيل الحديث لمستشار الأمن القومي الجديد، جيمس جونز، وهو جنرال بحري آخر. أراد بوش تجاوز التوتر السياسي الناجم عن الانتخابات وتمرير عصا السياسة الإيرانية للمرشح المقبل من أجل وضع سياسة أميركية ثابتة تستجيب للتهديد القادم من طهران. وعلى الرغم من أن باراك أوباما أدرك أهمية حديث بوش، إلا أن الرئيس الجديد سيقرر بنفسه ما ينبغي القيام به بشأن إيران.

اعترفت إدارة أوباما منذ البداية بأن إيران ستشكّل أحد تحديات الأمن القومي الأكثر أهمية، وقد انتقد باراك أوباما علناً خلال حملته الانتخابية سياسة بوش تجاه إيران. وخلال الانتخابات التمهيدية لفتت انتقادات أوباما الفَطِنة الانتباه إلى مسألة غزو العراق، حيث أشار إلى أنّ هذا الغزو فتح الباب أمام تعزيز النفوذ الإيراني في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من إعلان أوباما أن إيران تشكل تهديداً خطيراً ورفضه أن تكون إيران دولة نووية، إلا أنه قال إن الولايات المتحدة تحتاج إلى صلابة الرأي وإلى التحدث مع خصومها كما كانت الحال خلال الحرب الباردة، ودعا إلى الحوار مع إيران معلناً أن الأميركيين سوف يجلسون ويجتمعون مع القادة الإيرانيين دون شروط مسبقة، حيث قال: «ليس من الذكاء أن نطلب من بلد ما أن يفي بجميع الشروط المفروضة عليه قبل التحاور معه. هذه سذاجة وتفكير مبني على التمني»[1228].

جرى الانتقال بصورة سلسة ظاهرياً. وقد بذل الرئيس بوش ومستشار الأمن القومي ستيفن هادلي جهداً كبيراً لإطلاع فريق الأمن القومي الجديد على السياسة الإيرانية. وعلاوةً على ذلك، بقي روبرت غيتس في منصبه كوزير للدفاع وواصل وليام بيرنز عمله في مقر وزارة الخارجية، مما زاد من سلاسة الانتقال. ولكن التوتر لا بدَّ أن يحل مع تبديل الأحزاب والإدارات، وهذا الانتقال ليس استثناءً. وعلى الرغم من أن نائب مستشار الأمن القومي الجديد المحامي توم دونيلون كان محامياً فاعلاً وذكياً إلّا أنه كان مجرد عضو في الحزب الديمقراطي لا سياسياً محترفاً في السياسة الخارجية، وقد أكد مراراً في أولى لقاءاته أنّ هذه التغيّرات تندرج ضمن سياسة أوباما إزاء إيران؛ وانطلاقاً من هذه النقطة لا بدّ من استبعاد أي إشارة تذكّر بـ «نهج بوش» مع إيران حتى وإن لم تتغير السياسة بشكل جوهري تجاهها. هذه التصريحات أزعجت كبار الجنرالات وضباط وكالة الاستخبارات المركزية الحاليين مما اضطرهم إلى البقاء صامتين وحياديين.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها بوش لمدّ الجسور بين الإدارتين، إلا أن أوباما وفريق عمله كانا قلقين من استعمال بوش العمل السري في الحرب على الإرهاب. شكّلت عمليات الترحيل السرية التي نفّذتها وكالة الاستخبارات المركزية ومعتقل خليج غوانتانامو قضايا سياسية ساخنة خلال الحملة الانتخابية. وقد وقّع أوباما في اليوم الأول لتوليه منصبه أمراً بإغلاق السجن في كوبا[1229]، وأجرى في الأسابيع الأولى من دخوله البيت الأبيض مراجعة شاملة لجميع نتائج

الاجتماعات الرئاسية الخاصة لاسيما تلك المتعلقة بإيران بحجة تحسين الإشراف الرئاسي، فألغى العديد من العمليات معتبراً أنها غير مناسبة أو غير قابلة للتطبيق. أحبط هذا الإجراء مدير وكالة الاستخبارات المركزية مايكل هايدن الذي عيّنه بوش فضلاً عن الموظفين الآخرين الذين استمروا في مناصبهم، فقد كان لهم دور فاعل في تطوير هذه العمليات، وعليهم الآن أن يبرروا قراراتهم السابقة ريثما يتم «تعليم» نخبة جديدة من كبار الموظفين. وعلى الرغم من أن أوباما رفض عدداً من خطط بوش، إلا أنه تبنى العمليات السرية ووسّع نطاقها، فزادت هجمات الطائرات من دون طيار التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية ضد عناصر تنظيم القاعدة في اليمن وباكستان بمعدل ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في عهد الرئيس القديم[1230].

وفيما كان مستشار الأمن القومي جيم جونز يركّز معظم اهتمامه على أوروبا، ذهبت حقيبة إيران إلى نائبه. احتفظ دونيلون بفريق الشؤون الإيرانية الصغير الذي بدأ العمل مع ستيفن هادلي، وواصل الفريق الاجتماع لمناقشة الملف الإيراني ثلاث مرات في الأسبوع لكن من دون مقبّلات «الناتشو» التي اعتاد هادلي أن يقدمها أحياناً. أثار دونيلون عاصفة عندما نقل اجتماع المجموعة الصغيرة إلى غرفة العمليات الواسعة في البيت الأبيض ودعا عشرة أشخاص من موظفي مجلس الأمن القومي لحضور ما كان يُعرف باجتماع المجموعة الصغيرة السري. في ذلك الوقت لم يكن دونيلون مطلعاً على المعلومات العملية التي نقلها فريق بوش المنتهية ولايته إلى أوباما وجونز، كما لم تكن لديه فكرة عن مدى حساسية تفاصيل الجهود الهادفة إلى إحباط طموحات إيران. رفض الجنرال كارترايت ونائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية ستيفن آر كابس أن يُطلع هذا الجمع الكبير على العمليات التي تُنفذ ضد إيران.

فقال دونيلون غاضباً لكارترايت: «سأخبر الرئيس بذلك!»

أجاب كارترايت بصرامة: «أرحّب بإثارة الموضوع أمام الرئيس. لن أناقش عملياتنا الحساسة أمام هذه المجموعة الكبيرة. سوف تتسرّب المعلومات، وسيحد ذلك من خياراتكم في المستقبل».

حظي كارترايت باحترام بوش لأسلوبه الهادئ والمنطقي، وسيحظى قريباً باحترام أوباما. رضخ دونيلون في نهاية المطاف ووافق على تأجيل المواضيع الشديدة الحساسية إلى اجتماع آخر، لكنه استمر في دعوة عشرين شخصاً إلى اجتماع المجموعة الصغيرة الخاصة بالشأن الإيراني. كان مستشار الأمن القومي يرى أنه لا بد لأي استراتيجية تجاه إيران من أن تستند إلى نهج واسع النطاق يدمج جميع الوكالات التابعة لحكومة الولايات المتحدة. فإذا ما كان العمل سرياً جداً واحتفظ بالتفاصيل حفنة من الناس فقط، فسيكون من المستحيل توفير الأدوات اللازمة للضغط على إيران لوقف برنامجها النووي بصورة سلمية.

ضغط أوباما منذ البداية للتواصل مع إيران، فهو يعتقد شخصياً أنّ إدارة بوش لم تكن جدية في استخدام الدبلوماسية لمعالجة التوتر مع هذا البلد. أراد أوباما اختبار استعداد إيران للتفاوض وحلّ الخلافات بين البلدين[1231]، فعرض إجراء محادثات دون شروط مسبقة مع إيران لاسيما شرط

وقف تخصيب اليورانيوم. وطرحت سلسلة من الخطابات التي ألقاها الخبراء السياسيون في أنحاء واشنطن ومسؤولو الإدارة وجهة نظر جديدة مفادها أن المرفوض هو حصول إيران على السلاح النووي، ولا يعني ذلك بالضرورة رفض امتلاكها قدرة نووية. ظهر الرئيس أوباما بعد مرور ستة أيام فقط على تنصيبه على شاشة قناة تلفزيونية عربية وقال إن الأفكار والآراء السلبية باتت تؤثر في جوهر نزاعات الشرق الأوسط. وقد أرسل بذلك رسالة ضمنية تقول إنّ ثمة حاجة إلى أن تتجاوز إيران والولايات المتحدة ردود الفعل الفورية المعتادة وغير المحسوبة حيث يتعمّد كل طرف، بطبيعة الحال، التسبّب بمشكلات للطرف الآخر.

انقسم المسؤولون في طهران بشأن انتخاب باراك أوباما. فقد فُتنت وسائل الإعلام في إيران بأول رئيس أميركي من أصل إفريقي، وبثّت دفقاً من التقارير مفادها أن الانتخابات عكست رفضاً لسياسات بوش وعرضت احتمال تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة الأميركية. كما أعرب عدد من الدبلوماسيين الإيرانيين عن تفاؤلهم بعلاقات أفضل مع الرئيس الأميركي الجديد، وقال أحد المسؤولين في وزارة الخارجية في هذا الصدد: «كان خطاب أوباما جيداً»، ورحّب الرئيس محمود أحمدي نجاد بهذه التصريحات، وقرّر بعد يومين فقط من الانتخابات أن يتّخذ خطوةً غير عادية وأن يرسل رسالة تهنئة إلى أوباما، كتب فيها: «أتوقع منكم استجابة سريعة وواضحة للحاجة الملحة إلى إحداث تغيير جوهري في السياسة الداخلية والخارجية للولايات المتحدة»، وأضاف: «إيران ترحب بالتغييرات الكبيرة والعادلة والحقيقية في السياسات والسلوك». أشاد مؤيدو الرئيس الإيراني، لاسيما وزارة الخارجية، بخطوة أحمدي نجاد باعتبارها خطوة بناءة نحو إنهاء ثلاثين عاماً من القطيعة المريرة[1232].

في المقابل، انتقد المتشددون داخل الحكومة الإيرانية رئيسهم، وقال أحد المعلقين: «أن تكون سياسياً اليوم في الولايات المتحدة فهذا يتطلب بوضوح الركوع بخنوع للصهيونية». ورأى هؤلاء المتشددون أن اللوبي اليهودي يسيطر على كلا الحزبين، وأنّ أي رئيس أميركي لن يستطيع أن يحدث أي تغيير جوهري وحقيقي في السياسة تجاه إيران بصرف النظر عن خطاب أوباما وكدليل على ذلك أشاروا إلى تعيين دينيس روس مبعوثاً لأوباما إلى إيران والشرق الأوسط. إضافة إلى أنَّه قادم من معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى الذي يعتبره القادة الإيرانيون مركزاً فكرياً رئيساً في المحور الإسرائيلي والأميركي. قال علي لاريجاني المتحدث القوي في البرلمان الإيراني إنه يأمل أن يمثل أوباما التغيير الحقيقي، لكنه يرى أن من السذاجة الاعتقاد أن الولايات المتحدة سوف تجري أي تغييرات جوهرية في سياساتها العدائية، وخصوصاً في الشأن النووي[1233].

أما الرجل الذي يحسب لرأيه أكبر حساب، المرشد الأعلى للثورة، فقد بقي صامتاً. لم يكن آية الله خامنئي في يوم من الأيام من مشجعي تبادل المجاملات مع واشنطن فهو حامي شعلة الثورة التي ترتكز على العداء لأميركا. كان خامنئي قد أيّد قبل عشر سنوات الانفتاح على الولايات المتحدة في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، لكنه، بعد أن رفض الأميركيون مبادرته، لم يرغب في تكرار الخطأ، فظل صامتاً ولم يَدِنْ علناً رسالة أحمدي نجاد إلى أوباما بل لمّح وحسب

إلى مخاوفه في مقال افتتاحي نشره في صحيفة منحازة إليه على نحو كبير، إذ أشار ضمناً إلى أن أحمدي نجاد «واهم» إذا ظنّ أن أوباما يختلف عن بوش[1234].

اتفق المؤيدون لأوباما والمشككون بنواياه في طهران على نقطة واحدة وهي أنّ على الأميركيين القيام ببادرة عملية ورفع بعض العقوبات لتكون البداية جيدة، فإيران بحاجة إلى خطوات عملية لا إلى مجرد أقوال كي تستجيب.

صاغت وزارة الخارجية ردوداً مختلفة للرئيس أوباما على رسالة أحمدي نجاد، إذ قام أوباما بإجراء تحسينات في قسم المراسلات منذ تولّى منصبه. في البدء، تلقت الإدارة سيلاً من الرسائل من أولئك الذين يدعون تمثيل الحكومة الإيرانية أو من الفصائل المعتدلة في طهران. وكان دنيس روس قد شهد التاريخ المخيّب للآمال للتعامل مع هؤلاء الوسطاء، فقرارات حقيقية بهذا الحجم لا يبتّ بها إلا رجل واحد فقط هو المرشد الأعلى. ولهذا لم يرسل أوباما رده إلى أحمدي نجاد بل إلى خامنئي. أرسل الرئيس الأميركي رسالتين إلى الزعيم الروحي، اقترح في الرسالة الأولى إجراء مفاوضات مباشرة لحل الأزمة النووية، وعرض إمكانية فتح مكتب لرعاية المصالح الأميركية في طهران، وكذلك التعاون في المجالات التي هي محلّ خلاف بين البلدين مثل العراق وأفغانستان. تلقّى أوباما رداً على رسالته الأولى من مكتب المرشد الأعلى، وكان الرد مهذباً ومتّسماً بالحذر ولا يُلزم إيران إجراء أيّ محادثات، بيد أنه ركّز على المظالم التي سبّبتها الولايات المتحدة لإيران، بما في ذلك تجميد الأصول الإيرانية التي يعود تاريخها إلى عهد الشاه.

مضى أوباما قدماً فسجّل في آذار/مارس رسالة مدتها ثلاث دقائق هنّأ فيها الشعب الإيراني بمناسبة رأس السنة الإيرانية أيّ عيد النوروز. وكانت هذه الرسالة هي أولى ما بات يُعرف برسائل الرئيس أوباما السنوية بمناسبة عيد النوروز. بدأ رسالته بما يلي: «أودّ التحدث مباشرةً إلى الشعب والقادة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية»، مسمّياً إيران باسمها بعد الثورة في محاولة منه لإظهار أن تغيير النظام ليس هدفه[1235]، وأضاف: «إننا نسعى إلى حوار نزيه يقوم على الاحترام المتبادل»، وبعد أن أشاد بالثقافة الإيرانية الغنية عرض أوباما على إيران أن تأخذ مكانها في المجتمع الدولي وتسعى لإقامة أفضل العلاقات. وختم الرئيس الأميركي رسالته بقليل من الفارسية مقتبساً كلمات الشاعر الفارسي سعدي: «أبناء آدم بعضهم من بعض، ففي أصلهم خُلقوا من جوهرٍ واحد»[1236].

رفضت إيران مصافحة اليد الممدودة. أعرب أحمدي نجاد عن مزيد من التفاؤل، مشيداً بكلمات الرئيس الأميركي، وقال للصحفيين إن الولايات المتحدة بحاجة إلى إجراء تغييرات جوهرية في سلوكها واتخاذ خطوات حقيقية لإظهار حسن نيتها. بيد أن المرشد الأعلى لم يتأثر برسالة أوباما المتلفزة بمناسبة عيد النوروز وكرّس قسماً كبيراً من خطبة يوم الجمعة للرد على الأميركيين، فأعرب عن رفضه لمبادرات أوباما ووصفها بأنها بلاغية وغير واقعية، حيث قال: «إنهم يقولون دعونا نتفاوض، ودعونا نقيم علاقات. لقد غيّروا شعارهم وحسب. هل رفعوا العقوبات الظالمة التي فرضوها علينا؟ هل تخلوا عن دفاعهم غير المشروط عن النظام الصهيوني؟ ينبغي أن يكون التغيير

حقيقياً». وما دامت الولايات المتحدة تواصل سياساتها نفسها فالعلاقات «ستبقى على حالها كما كانت منذ ثلاثين عاماً»، بحسب تعبير آية الله[1237].

واصل أوباما في شهر تموز/يوليو المحاولة عندما ألقى خطاباً هذه المرة في جامعة القاهرة، ودعا إلى بداية جديدة في الشرق الأوسط بين الإسلام والغرب. اعترف أوباما بالأخطاء الأميركية في ما يخصّ إيران، لاسيما إطاحة الحكومة الإيرانية المنتخبة ديمقراطياً في العام 1953؛ كما تحدّث عن أبرز الأخطاء الإيرانية أيضاً مثل احتجاز الرهائن في الثمانينيات وقال: «بدلاً من التمسّك بالماضي، أودّ أن أعلن بوضوح لقادة إيران وشعبها أن بلدي مستعد للمضي قدماً. ثمة الكثير من القضايا التي يتوجّب على البلدين مناقشتها، ونحن مستعدون للمضي قدماً دون شروط مسبقة على أساس الاحترام المتبادل». ولكن أوباما وضع حدّاً للبرنامج النووي الإيراني فاعترف بحق إيران في الوصول إلى الطاقة النووية السلمية لا إلى الأسلحة النووية، فقال: «هذا الأمر لا يرتبط بمصالح أميركا وحسب بل يرتبط بمنع سباق التسلح النووي في الشرق الأوسط الذي قد يدفع هذه المنطقة والعالم إلى طريق محفوف بالمخاطر».

ظلت إيران متمردة، وظل المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني منقسماً حول ما إذا كان هذا الكلام يمثل تغيّراً حقيقياً في السياسة الأميركية من شأنه أن يعود بالفائدة على إيران أم أنه مجرد كلمات فارغة تصدر عن حكومة أميركية لا تزال عازمة على الإطاحة بالجمهورية الإسلامية. ورأى المرشد الأعلى أن لا حاجة للرد على أوباما، خلافاً لموقفه في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر؛ وواصلت أجهزة الطرد المركزي الإيرانية تخصيب المزيد من اليورانيوم.

ومع ذلك ظل المسؤولون الأميركيون متفائلين. طرحت وزيرة الخارجية هيلاري كلينتون فكرة توسيع المظلة النووية الأميركية لتشمل الدول الصديقة في منطقة الشرق الأوسط لتكون ردعاً للسلاح النووي الإيراني. وكتب مستشار أوباما في الشؤون الإيرانية دينيس روس المتفائل بطبيعته قبل وصوله إلى الإدارة: «لم يفت الأوان بعد لمنع إيران من امتلاك القنبلة النووية، وليس واضحاً ما إذا كان المرشد الأعلى للثورة آية الله علي خامنئي سيضحي بكل شيء من أجل الحصول على الأسلحة النووية. في الواقع، أظهر التاريخ أن حكومته تستجيب للضغوط الخارجية، وأنها تلجم أنشطتها عندما تشعر أنها مهددة، وتنتهز الفرصة عندما يسعها انتهازها»[1238]. ولكن روس يعرف مسبقاً ما كان العديد من المبتدئين في الشأن الإيراني في البيت الأبيض على وشك اكتشافه، وهو أنّ التعامل مع إيران عسير. وقد تمنى رسميون كثر مكتئبون من الشأن الإيراني لو أن المسألة برمتها تنتهي.

سقطت الشابة الإيرانية ندى آغا سلطان على الأرض في أحد شوارع طهران وعيناها تحدّقان في المصور في وجوم، ووقعت عباءتها السوداء الطويلة إلى جانبها فكشفت عن بنطالها الجينز الغربي وحذائها الرياضي. هرع نحوها شخصان لإسعافها بينما راح الدم ينزف بغزارة من فمها وأنفها. كانت الساعة السادسة والنصف من مساء يوم 20 حزيران/يونيو من العام 2009. وندى موسيقية طموحة تبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً وتعمل في وكالة سفريات يمتلكها والداها، وقد أصيبت برصاصة عقب ترجّلها من السيارة للانضمام إلى التظاهرات التي شلّت طهران مدة

أسبوع تقريباً عقب الانتخابات الرئاسية. أصيبت ندى برصاصة أطلقها قناص كان على سطح مبنى مجاور أو على متن دراجة نارية على الطريق، فانهارت ووقعت على الرصيف قائلةً: «إنني أحترق، إنني أحترق!» صرخت بهذه الكلمات قبل أن تغمض عينيها ويغطّي الدم وجهها كله. تسبّبت وفاة هذه الشابة في طهران بعاصفة من الاحتجاجات بعد نشر الفيديو الذي يصور الحادثة في أنحاء شبكة الإنترنت، وأصبحت رمزاً للمأساة الانسانية في أكبر مظاهرات أقلقت إيران منذ العام 1979.

في ربيع العام 2009 استعدّ الرئيس أحمدي نجاد لإعادة انتخابه. في أيار/مايو صادق مجلس صيانة الدستور المؤلف من اثني عشر عضواً على أربعة مرشحين فقط من أصل 476 متقدّماً بطلبات ترشيح. فضلاً عن ترشّح الرئيس الإيراني أحمدي نجاد، كان المرشحون الثلاثة الآخرون جميعهم من أركان النظام ومن ذوي النفوذ وهم: محسن رضائي، القائد السابق للحرس الثوري؛ ومهدي كروبي، الرئيس السابق لمجلس الشورى؛ ورئيس الوزراء السابق والداعم السابق للثورة مير حسين موسوي الذي أدّى دوراً رئيسياً في المفاوضات السرية حول الأسلحة خلال إدارة الرئيس ريغان. وفي حين اختلف المرشحون حول السياسة الداخلية، لم يقدّم أيٌّ منهم جديداً بشأن العلاقة مع الولايات المتحدة، وكلُّهم كانوا يدعمون البرنامج النووي الإيراني.

قبل أسبوع من الانتخابات تأهّب المرشحون لسلسلة من المناظرات. في 3 حزيران/يونيو أجرى أحمدي نجاد وموسوي مناظرة محتدمة حيث اتّهم موسوي أحمدي نجاد بأنه «ينشر الخرافات ويتخذ قرارات سياسية متسرّعة»، وقال إنه يحاول التقرّب من الأميركيين، وانتقد تصريحاته السخيفة بشأن المحرقة؛ وقال موسوي أيضاً: «إن أعضاء لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك) راضون جداً عن أداء أحمدي نجاد». فاجأ هجوم موسوي الرئيس الإيراني لكنه دافع عن سجله قائلاً إنه حَسَّنَ موقف إيران واتّهم موسوي بتورطه في الفساد[1239].

في 12 حزيران/يونيو ذهب الناخبون الإيرانيون إلى صناديق الاقتراع. وعلى الرغم من أن العديد منهم أدلوا بأصواتهم على الورق وليس الكترونياً إلا أنّ الحكومة أعلنت بعد مضي ساعات قليلة على إقفال صناديق الاقتراع أن أحمدي نجاد قد فاز فيها، وأُعيد انتخابه، وأنه حصل على 62 بالمئة من الأصوات وفاز في المحافظات كافة باستثناء اثنتين. فاز الرئيس بفارق كبير حتى في المناطق التي لم تصوت له في الانتخابات السابقة. وجاء موسوي في المركز الثاني حيث حصل على أقل من 34 بالمئة من الأصوات. وعلى الرغم من أن طريقة التصويت والإعلان السريع للنتائج بدوا مخالفين للقواعد، إلا أنه كان من الصعب إثبات التزوير الصريح؛ وعلى الرغم من ذلك تدفّق مئات الآلاف من المتظاهرين في اليوم التالي إلى الشوارع مرتدين اللون الأخضر الذي يمثل الإسلام وحزب موسوي. أمر المرشد الأعلى للثورة بإجراء عملية إعادة فرز جزئي للأصوات لكن النتائج بقيت على حالها. خلال الأيام التالية، تصاعدت الاحتجاجات، واستخدم العديد من الطلاب الحاسوب والفيسبوك وتويتر وغيرها من وسائل التواصل الاجتماعي لتنظيم المسيرات وإرسال مقاطع فيديو تصور الاضطرابات إلى العالم الخارجي. بعد ثلاثة أيام من الانتخابات خرج ثلاثة ملايين شخص إلى الشوارع احتجاجاً على النتائج، وردّد المتظاهرون شعارات من مثل «أين صوتي؟»

ردّت الحكومة الإيرانية باستخدام القوة. أراد كبار ضباط الحرس الثوري سحق المعارضة، ولكن شبح الثورة الأخيرة خيّم على الأزمة، وقلق المرشد الأعلى من تداعيات عنيفة إذا ما فتحت قوات الأمن النار على الشعب. سمحت الحكومة في البداية لبعض المتظاهرين بالتنفيس عن غضبهم، لكنهم استمروا في تحدي توجيهات المرشد الأعلى الذي أمر بوقف المظاهرات، فخرجت ميليشيا الباسيج بملابسها السوداء على دراجات نارية وضربت المتظاهرين، وأطلق رجال الشرطة بدعم من عناصر الحرس الثوري الرصاص على المتظاهرين لبثّ الخوف والذعر في قلوبهم، وسقطت ندى آغا سلطان السيئة الحظ من بين الذين سقطوا. اعتقلت الحكومة بشكل انتقائي أقارب المرشحين والزعماء الذين يؤيدونهم، وبعد بضعة أيام أُفرج عن معظمهم من سجن إيفين لكن هذه التصرفات تركت أثراً سلبياً. أذعن كلٌّ من كروبي ورضائي وقبلا بنتائج الانتخابات بينما رفض موسوي الإذعان، فوضع تحت الإقامة الجبرية. وعندما كان ابن شقيقه يوضح الموقف خلال مظاهرة في كانون الأول/ديسمبر أطلق مسؤولون أمنيون عليه النار فأردوه قتيلاً.

ألقت الحكومة الإيرانية باللوم على التدخل الغربي واتهمته بإثارة الاضطرابات، كما اتهمت عمليات القوة الناعمة الأميركية التي تديرها وكالة الاستخبارات المركزية بتأجيج الاضطرابات منذ عهد بوش. وطردت إيران عدداً من الدبلوماسيين البريطانيين واتهمتهم بمساعدة الأميركيين، وأمرت الصحفيين الغربيين بمغادرة البلاد، وقامت الأجهزة الأمنية بإغلاق مواقع وسائل الإعلام التي سمحت بتدفق المعلومات داخل البلاد وخارجها، كما تسببت سلسلة من «المشكلات الفنية» بوقف الانترنت في طهران مرات عدة.

شكلت هذه الأزمة معضلةً بالنسبة إلى الرئيس أوباما: إذا تدخلت الولايات المتحدة لمصلحة المتظاهرين، فمن شأن هذا التدخّل أن يُضعفهم ويجعلهم يبدون وكأنهم ذيول لأميركا، والرئيس لا يريد أن يبدو الأمر تكراراً لما حصل في انقلاب العام 1953 الذي لا يزال مسألةً حساسة لدى العديد من الإيرانيين. أشارت المعلومات الواردة من مواقع الاحتجاجات المنتشرة بثبات في شوارع طهران إلى أنّ المحتجين أنفسهم لا يريدون المساعدة الأميركية، في حين لا تستطيع الولايات المتحدة أن تتجاهل ببساطة قمع مئات الآلاف من الناس الذين يطالبون بإجراء انتخابات حرة ونزيهة.

نظرت الولايات المتحدة في وسائل مختلفة لمساعدة المتظاهرين، لكن الرأي الذي ساد خلال الاجتماعات شبه اليومية في غرفة العمليات هو أن الولايات المتحدة ليس بوسعها أن تقوم بالكثير للتأثير في الأحداث على الأرض. وقال جنرال متقاعد: «الانتفاضة تغذيها ديناميات داخلية، ومن المرجح ألا تؤثر أنشطتنا في العديد من الطلاب».

كان الانترنت المجال الوحيد الذي يمكن للولايات المتحدة أن تستعين به لتساعد المتظاهرين، فلدى الولايات المتحدة الوسائل التي تمكّنها من منع الإيرانيين من إقفال شبكات التواصل الاجتماعي ومواقع المدونات مثل «تويتر» التي أصبحت وسيلة رئيسة يستخدمها المتظاهرون لنشر المعلومات وتبادلها[1240]. عندما أعلن «تويتر» عن وقف الخدمة مدّةً وجيزة

لصيانة المُخدِّم، ضغطت وزارة الخارجية للإبقاء على الخدمة مفتوحة وللسماح للإيرانيين بمواصلة التواصل[1241]. وحاول تويتر، بطلب من الحكومة الأميركية، توفير اتصال أفضل للإيرانيين.

تزايدت الضغوط في الكونغرس وهدّد الحزبان باتّخاذ تدابير صارمة مثل معاقبة أي بلد يبيع المنتجات النفطية المكرّرة لإيران، في حين حذّر كبار المسؤولين في كلٍّ من وزارة الخارجية والدفاع من أن هذه التدابير القاسية يمكن أن تؤدي إلى زيادة الهجمات التي يشنها عملاء إيران في العراق وأفغانستان. عانى أوباما لإيجاد التوازن في وضع حرج، فعليه أن يدين الإجراءات التي تتخذها إيران، وفي الوقت نفسه ألّا يفاقم الأزمة وألّا يغلق الباب أمام تسوية تقوم على التفاوض بشأن القضية النووية.

توسّعت الاحتجاجات لتشمل مدناً إيرانية أخرى، لكن المظاهرات الكبرى ظلت متمركزة إلى حدٍّ كبير في طهران ومقتصرة على الطلاب. وخلافاً للعام 1979، لم تهيّج الانتخابات الشعب كله، وظل النزاع قائماً بين النخبة الحاكمة على وجه الخصوص. حافظ النظام على الدعم القوي الذي يلقاه في المناطق الريفية. دعا كلٌّ من كروبي وموسوي في إحدى المراحل إلى إضراب في بازار طهران، الذي لعب دوراً حاسماً في إسقاط الشاه في العام 1979، والذي لا يزال أحد مراكز القوة في إيران بعد مرور ثلاثين عاماً. في العام السابق وحده قام التجار بتنظيم إضراب عام ناجح ضد الضريبة الجديدة على القيمة المضافة؛ وما هي إلا بضعة أيام حتى تراجع الرئيس أحمدي نجاد عن القرار وعلّق الضرائب. لكن في ظل الأزمة الحالية ظلّ البازار موالياً للسلطة أو على الأقل محايداً. ولن تنطلق ثورة ثانية على الأرض من دون دعم التجار. وتراجع حماس الطلاب على الرغم من استمرار المظاهرات في العام 2010. حاول زعماء المعارضة في شباط/فبراير من العام 2010 حشد الدعم عبر مواقع الانترنت لتنظيم احتجاجات ضخمة خلال الاحتفالات بذكرى عودة آية الله الخميني من المنفى ونهاية حكم الشاه في العام 1979، وقال المستشار القانوني لمير حسين موسوي إن هذه الاحتجاجات سوف تصدم النظام، لكن الحدث حلّ وانقضى من دون أي مظاهرات كبيرة لاسيما أن الشرطة والباسيج طوقا المدينة.

على الرغم من الاضطرابات التي نجمت عن الانتخابات، لم يفقد أوباما الأمل في التوصل إلى اتفاق بشأن الأزمة النووية الإيرانية. في آب/أغسطس من العام 2009 سمحت إيران لمفتشي وكالة الطاقة الذرية بمعاينة مفاعل آراك الذي انتهى إنشاؤه تقريباً والذي يعمل على الماء الثقيل، وسمحت أيضاً بتفتيش موسّع لمنشأة نطنز التي تنتج اليورانيوم الإيراني المخصّب كله. وفي ذلك الخريف طلبت إيران من الوكالة الدولية المساعدة في الحصول على وقود من أجل مفاعل طهران الصغير للبحوث الذي ينتج نظائر مشعة للاستخدام الطبي التي تعالج حوالى عشرة آلاف مريض في الأسبوع، والذي يُتوقع أن تنفد إمداداته بحلول نهاية العام 2010. توسّطت الولايات المتحدة مع وكالة الطاقة الذرية للوصول إلى اتفاق تشحن بموجبه إيران نحو 80 بالمئة من مخزونها من اليورانيوم المنخفض التخصيب إلى روسيا، حيث سيتم تخصيبه وتحويله إلى وقود وإعادته إلى إيران في نهاية المطاف. كان هذا الاتفاق تنازلاً من جانب واشنطن واعترافاً منها بحق إيران في تخصيب اليورانيوم الخاص بها حتى لو حوّلته إلى قضبان وقود نووي في أماكن أخرى. في الوقت نفسه، فاجأت الولايات المتحدة إيران وأحرجتها عندما عرضت منشأة نووية سرية يجري بناؤها في مدينة قم.

حقق الجانبان انفراجاً بفعل الضغوط. رسمياً، قبلت إيران الاتفاق من حيث المبدأ، الأمر الذي يمهّد الطريق لعقد اجتماع بين المفاوضين الأميركيين والإيرانيين. في 1 تشرين الأول/أكتوبر اجتمع وكيل وزارة الخارجية الأميركية وليام بيرنز مع المفاوض الإيراني سعيد جليلي، واستمر اللقاء خمساً وأربعين دقيقة خلال استراحة الغداء في أثناء محادثات مجموعة الدول الكبرى (5+1) في جنيف. وقد أعرب كل طرف عن مخاوفه للآخر؛ وتركزت مخاوف الأميركيين على برنامج الأسلحة النووية وقضايا حقوق الإنسان؛ في حين طالب الإيرانيون بفرض حظر عالمي على جميع الأسلحة النووية والحصول على الطاقة النووية السلمية لإيران. بعدئذٍ وصف جليلي المناقشات بقوله: «كانت محادثات جيدة ومن شأنها أن تشكّل إطاراً لمحادثات أفضل». بدا الأمر مشجعاً، فقد دعم الرئيس الإيراني أحمدي نجاد الصفقة علناً ووصفها بأنها خطوة ناجحة من شأنها أن تمهّد الطريق للمستقبل[1242].

أعرب الرئيس أوباما عن تفاؤلٍ متّسمٍ بالحذر: «نحن لا نرغب في الحديث لمجرد الحديث. إذا لم تتخذ إيران خطوات في المستقبل القريب ترقى إلى مستوى التزاماتها، فلن تستمر الولايات المتحدة في التفاوض إلى أجلٍ غير مسمّى». وأثناء المباحثات مع الأوروبيين توقّع الرئيس إحراز تقدّم بشأن إيران في نهاية العام؛ لن يتخلى أوباما عن الدبلوماسية إذا فشلت هذه الصفقة بين البلدين، لكنه ينوي استخدام عصا العقوبات أيضاً.

تراجعت طهران عن الصفقة وبدّلت كلياً قرارها رغم موقفها الحرج. الدستور الإيراني يقسّم الحكومة إلى مراكز سلطة تتنازع فيما بينها، وبسبب الاضطرابات التي أفرزتها الانتخابات الرئاسية، أصبحت الحكومة عاجزة ببساطة عن اتخاذ قرار بشأن هذه المسألة الهامة. فمن جهة لم يكن المرشد الأعلى للثورة يثق بأحمدي نجاد الشعبوي والعلماني، ومن جهة أخرى لم يشأ منتقدو أحمدي نجاد من داخل النظام أن يسجّل الرئيس نصراً، فتآمروا لإحباط الاتفاق. علّق جون ليمبرت الذي كان يتولى الملف الإيراني في وزارة الخارجية على انهيار الصفقة قائلاً: «يبدو واضحاً أن ثمة انقسامات خطيرة في طهران. لم يتمكنوا من التوصل إلى اتفاق في ما بينهم»[1243]. وعبّر أحد الدبلوماسيين الإيرانيين عن الفكرة بطريقة مختلفة: «إذا وافق فريق التفاوض على شروط معينة فهذا لا يعني أن الحكومة ستوافق. لكن وقبل أن نتمكن من اتخاذ قرار في طهران بدأ الأميركيون والأوروبيون يضغطون لفرض عقوبات، وهذه الطريقة لا تنمّ في الواقع عن احترام متبادل»[1244].

في الربيع التالي ألقى أوباما خطابه السنوي المعتاد بمناسبة عيد النوروز فقال: «قلت في العام الماضي إن اختيار مستقبل أفضل في أيدي قادة إيران، وهذا الكلام لا يزال صحيحاً اليوم»، ثم تابع: «لم يقدِّم قادة إيران رداً على اليد الممدودة إليهم سوى قبضة مغلقة»[1245].

وهكذا توجّه أوباما إلى مجلس الأمن الدولي وتصرّف كما فعل سلفه بوش. في 9 حزيران/ يونيو من العام 2010 أصدر هذا المجلس القرار رقم 1929 الذي تضمّن الجولة الرابعة من العقوبات على إيران. وقد استهدفتها العقوبات الجديدة عسكرياً من خلال حظر بيع الأسلحة لها

وتجميد الأصول المالية للحرس الثوري، واستهداف الأفراد المعنيين والمؤسسات المتورّطة بتطوير برنامج الصواريخ الباليستية الإيراني.

في 6 كانون الأول/ديسمبر من العام 2010، جلست الولايات المتحدة مرة أخرى إلى طاولة المفاوضات مع الوفد الإيراني في جنيف. وقد وضعت وزارة الخارجية في إطار التحضير للمحادثات قائمة البنود التي ستتم مناقشتها، بما في ذلك الدعم الإيراني المتواصل للميليشيات الشيعية التي تهاجم القوات الأميركية في العراق، وتوجب على الولايات المتحدة الاستعداد لمناقشة هذه القضية وغيرها من القضايا المهمة شرط أن تكون القضية النووية هي الأولى على جدول الأعمال.

ومع ذلك أراد المفاوض الإيراني سعيد جليلي مناقشة كافة المواضيع باستثناء القضية النووية، واقترح تشكيل عدد من اللجان لدراسة مختلف القضايا المتنازع عليها بين إيران والغرب. ردّ وليام بيرنز بأن الولايات المتحدة لن توافق على دعم هذا الاقتراح إلا إذا بُحث برنامج إيران النووي أولاً، وختم بقوله إن اللجان تلك ستكون تعاوناً ظاهرياً، كما ستحول دون اتخاذ أي قرارات فعلية، وهذا ما أرادته إيران طوال الوقت. سلّمت الولايات المتحدة رسالة إلى جليلي مفادها أنّ على إيران اتخاذ خطوات عملية لبناء الثقة في ما يخصّ طبيعة برنامجها النووي السلمي، وإلا فإن العقوبات ستتواصل. في نهاية المحادثات لخّصت مذكرة صادرة عن وزارة الخارجية وجهة النظر الأميركية حيث جاء فيها: «كان أداء إيران مخيباً للآمال وغير بنّاء».

على الرغم من أن الرئيس لم يتخلَّ عن الدبلوماسية، إلا أنّ قناعته بضرورة الاعتماد على خيارات أخرى للحد من برنامج إيران النووي ازدادت، ورأى الجنرال كارترايت أن إيران لن توقف برنامجها النووي إلا إذا تمّ غزوها واحتلالها لقلب نظام الحكم فيها. وقد قال ذلك ذات مرة للرئيس أوباما في أولى اجتماعاتهم بشأن إيران. لم يحب الرئيس هذا الاحتمال، لكنه سرعان ما وصل إلى القناعة ذاتها. فهم كارترايت منطق الملف النووي الإيراني، وقال: «ليس لدى الإيرانيين جيش تقليدي قوي. إن أرخص مسار أمامهم لتأكيد سيادتهم هو المسار النووي»[1246].

التقى كارترايت وممثل هيئة الأركان المشتركة المكلّف بوضع سياسة تجاه إيران مع مسؤولين إسرائيليين لمناقشة سبل مواجهة إيران. كانت إسرائيل والولايات المتحدة، أثناء ولاية بوش الثانية، تناقشان القيام بعمليات مشتركة للقضاء على برنامج إيران النووي.اقترح مسؤولون إسرائيليون اتخاذ تدابير متطرفة مثل اغتيال العلماء الإيرانيين ودعم الجماعات المعارضة المسلحة داخل إيران. رفضت واشنطن هذه المخططات تماماً، لكن الدولتين وضعتا ضمن حدود الشرعية الأميركية خططاً مشتركة لعرقلة البرنامج النووي الإيراني فضلاً عن عرقلة عمليات نقل الأسلحة إلى حزب الله والعراق. وبعد أن مرّت إدارة أوباما ببداية صعبة مع إسرائيل في موضوع المستوطنات اليهودية في فلسطين، جددت الدولتان جهود التعاون لإحباط عملية تخصيب اليورانيوم في إيران حتى لو لم تكن سياسات الحليفين متطابقة، وغالباً ما كانت تتعارض. وهكذا صدرت مذكرة في العام 2009 مفادها: «إن تعليق التخصيب بالنسبة إلينا هو وسيلة لتحقيق غاية. أما إسرائيل فتنظر إلى ذلك على أنه غاية في حد ذاته».

وافقت دول أخرى على فكرة القيام بحملة سرية لوقف البرنامج النووي الإيراني. في كانون الثاني/يناير من العام 2010 أخبر فولكر بيرتيس، مدير معهد التمويل الحكومي الألماني للشؤون الأمنية والدولية، مسؤولين أميركيين في برلين أن العمليات السرية ستكون «أكثر فعالية من توجيه ضربة عسكرية» للحد من طموحات إيران النووية. وأشارت مذكرة سرّبتها ويكيليكس إلى وسائل الإعلام البريطانية إلى أنّ «عمليات التخريب السرية (انفجارات، وحوادث، وقرصنة إلكترونية، إلخ) أكثر فعاليةً من ضربة عسكرية قد تكون آثارها مدمرة في المنطقة»[1247].

لعبت الحرب الإلكترونية دوراً جديداً بالغ الأهمية. أنشأ الجيش الأميركي قيادة جديدة من الضباط الكبار حملت اسم القيادة السايبرية (Cyber Command) لتنفيذ عمليات عسكرية في ميدان المعركة المعلوماتية. وفقاً لتقديرات صحفية، وافق الرئيس جورج دبليو بوش قبل أن يغادر منصبه على رصد 300 مليون دولار لمشاريع تهدف إلى تأخير البرنامج النووي الإيراني. ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أن ذلك يشمل جهداً مشتركاً مع إسرائيل في موقع ديمونا النووي الإسرائيلي[1248]. إسرائيل متفوقة بالفعل في بعض جوانب حرب المعلوماتية إذ بدأت جهودها في هذا المضمار في وقت مبكر من العام 1999 بعد أن عثر فريق إسرائيلي داخلي على نقاط ضعف هائلة في الشبكات الإسرائيلية. وقد شنّت إسرائيل سلسلة من الهجمات المعلوماتية ضد إيران باستخدام البرامج الخبيثة. ألقى ضباط الأمن الإيرانيون القبض على رجل أعمال إيراني يدعى علي عشتاري، واتهموه بمحاولة إفساد معدات الاتصالات بالفيروسات على نحو متعمّد بطلب من الإسرائيليين. وقد أُعدم عشتاري شنقاً في سجن أفين في 17 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2008.

في مطلع العام 2010 وجدت سلسلة من الفيروسات الغامضة طريقها إلى المنشآت النووية الإيرانية. كان فيروس «ستكسنت» (Stuxnet) أهم هذه الفيروسات وكان مصمماً بعناية كبيرة. وقد أدّى تعطّل ثلث أجهزة الطرد المركزي لتخصيب اليورانيوم في منشآت نطنز في حزيران/يونيو من العام 2010 إلى تأخر برنامج إيران النووي على نحو خطير، وكان السبب فيروسات مصممة خصيصاً لزيادة سرعة أجهزة الطرد المركزي كثيراً وخداع أنظمة الأمان بحيث تظن أن سرعة أجهزة الطرد في حالتها العادية. وقد وجد خبراء أمنيون أن الأدلة تشير إلى برنامج أميركي إسرائيلي مشترك، ورجحوا أن يكون الفيروس قد وصل إلى نظام المعلوماتية الإيراني عن طريق جهاز تخزين صغير دخل إلى منشأة بوشهر الإيرانية. اشتبه مسؤولون إيرانيون في قرارة أنفسهم بأن تقنياً روسياً هو من نشر الفيروسات. ونفت الولايات المتحدة وإسرائيل معرفتهما بالهجوم، ولكن الاعتراف جاء على لسان المسؤول العسكري الإسرائيلي الفريق غابي اشكنازي المسجل على شريط فيديو خلال حفل تقاعده عام 2011، حيث صرح أن الفيروس «ستكسنت» كان عملية ناجحة في عهده كرئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي[1249].

اتّهمت طهران كلا البلدين بتصعيد هذه الهجمات كجزء من حملة ناعمة لقلب نظام الحكم، وقال مسؤولون إيرانيون إن وكالة الاستخبارات المركزية بدأت برنامجاً يسمح للمعارضين بالبقاء

على تواصل عبر شبكة الإنترنت. ومن جانبه أطلق وزير الاستخبارات الإيراني حيدر مصلحي على هذا البرنامج اسم «إنترنت في حقيبة»، إذ بدا كنظام متنقل موصول بجهاز توجيه قوي، وعندما يتم تشغيله يسمح للمعارضة باختراق الإنترنت وشبكات الهاتف الخليوي، فضلاً عن أنه يخترق جدران الحماية الأمنية المفروضة من قبل الحكومة الإيرانية. قال قائد عسكري إيراني إن هذا النظام بني في مكتب في الطابق الخامس في واشنطن وأنّ وزارة الخارجية رصدت له مبلغاً قدره 2 مليون دولار، ويفترض أن هذا التمويل اعتمدته إدارة بوش. وكي تواجه إيران هجوم القوة الناعمة تلك أنشأت قيادة سايبرية خاصة بها «مجهزة بأحدث التكنولوجيا»[1250].

إن إسرائيل وغيرها لن تتقيد إذا رفضت الحكومة الأميركية التورّط في وسائل أكثر فتكاً. هزت سلسلة من التفجيرات خطوط أنابيب النفط الإيرانية والبنية التحتية، وصعّدت جماعة جند الله الإرهابية هجماتها على إيران، وقتلت سلسلة من التفجيرات العشرات من ضباط الحرس الثوري من بينهم لواء بالإضافة إلى العديد من المدنيين، فاتّهمت إيران إسرائيل بدعم المجموعة وقدّمت بعض الأدلة. ابتداءً من 12 كانون الثاني/يناير من العام 2010 شُنّت خمس هجمات ضد علماء ذرة إيرانيين في طهران، ولقي الفيزيائي النووي الدكتور مسعود علي محمدي البالغ من العمر خمسين عاماً مصرعه جرّاء عبوة فُجّرت عن بعد لدى مغادرته منزله، وكان الدكتور علي محمدي قد دعم مرشحي المعارضة خلال الانتخابات الأخيرة. بعد عشرة أشهر عَلِقَ العالم البارز الدكتور مجيد شهرياري وزوجته في زحمة السير في طهران في أثناء توجههما إلى العمل صباحاً، فإذا بدراجة نارية تشقّ طريقها بين السيارات ويلصق سائقها بخفّة قنبلة مغناطيسية على الباب من ناحية السائق في السيارة وبعد بضع ثوانٍ انفجرت القنبلة فقتلت الدكتور وجرحت زوجته. وبعد عشرين دقيقة وقع عالم في الحرس الثوري يدعى فريدون عباسي ضحية هجوم مماثل، لكنه تمكّن من الخروج من الجانب الآخر من السيارة في الوقت المناسب وتجنب الجزء الأكبر من الانفجار. في تموز/يوليو من العام 2011 قُتل الأكاديمي داريوش رضائي نجاد البالغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً على يد أشخاص يقودون دراجة نارية. اعتقلت السلطات الإيرانية أحد المعتدين المزعومين المسؤولين عن مقتل علي محمدي، وقال ممثلو الادعاء إنه تلقى تدريباً في إسرائيل، وأنه وافق على تنفيذ الهجوم مقابل مبلغ قدره 120,000 دولار[1251].

لا يمكن نسب الانفجارات كلها إلى إسرائيل. في 12 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2011، تجمّع ضباط الحرس الثوري الإيراني في قاعدة للصواريخ تبعد خمسة وعشرين كيلومتراً عن طهران لاختبار المحركات الصاروخية المصممة حديثاً لإطلاق صاروخ بالستي متعدد المقاطع. أشرف على الاختبار اللواء حسن مقدم وفيرنر فون براون من برنامج الصواريخ الإيرانية. لم يكن الجيش الإيراني يلتزم دوماً بأفضل معايير السلامة إذ تعرض لأكثر من عشرة حوادث خطيرة في العامين الماضيين في هذا المرفق. فجأةً هزّ انفجار هائل القاعدة الإيرانية. أظهرت صور التقطت من الجو أن المكان بدا وكأن زوبعة اجتاحته، فقد دمّر الانفجار المباني

القريبة وكان هذا أسوأ حادث في تاريخ برنامج الصواريخ الإيراني، إذ قُتل مقدم ومعه ستة عشر آخرون من ضباط وجنود[1252].

خلق العدد الهائل من الانفجارات حالة من الريبة والذعر داخل الحكومة الإيرانية بصرف النظر عن السبب، وساد شعور بأن قوى خارجية تعمل لمصلحة الأميركيين والإسرائيليين تقف وراء كل حادث. أدّى هذا الرهاب إلى خلق حالة فوضى وتشويش في البرنامج النووي والصاروخي الإيراني بحيث بات العلماء غير متأكدين ما إذا كان سبب نكسة أبحاثهم هو التخريب أم سوء التصميم.

حاولت إيران إلحاق الأذى بإسرائيل ولكن الأداء لم يكن احترافياً. فقد قامت في شباط/ فبراير من العام 2012 بسلسلة من الهجمات ضد دبلوماسيين إسرائيليين في جورجيا وتايلاند والهند. كشف مسؤولون أمنيون هذه الهجمات كلها باستثناء هجوم واحد. حاول الإيرانيون تقليد الاعتداءات الإسرائيلية. فقد قام سائق دراجة نارية بلصق قنبلة مغناطيسية بسيارة زوجة الملحق العسكري الإسرائيلي في الهند مما أدى إلى إصابتها بجروح بليغة، وسرعان ما ألقت الشرطة الهندية القبض على صحافي إيراني يبلغ من العمر خمسين عاماً باعتباره أحد الجناة. وفي تايلاند انفجرت إحدى القنابل قبل أوانها في مخبأ، ففرّ العملاء الإيرانيون منه، وحاول أحدهم إيقاف سيارة أجرة وهو ملطّخ بالدماء لكن السائق رفض التوقُّف على نحو متوقع. وعندما وصلت الشرطة ألقى الإيراني قنبلة يدوية عليهم فارتطمت بشجرة وارتدت عليه لتنفجر بين ساقيه وتبترهما.

لم تقف وكالة الاستخبارات المركزية مكتوفة الأيدي هي أيضاً، فقد تمّ التوقيع على عدد من القرارات الرئاسية التي تعود إلى عهد الرئيس كلينتون لإحباط البرنامج النووي الإيراني، ونفّذ الجيش الأميركي في العام 1994 عملية حملت اسم مشروع سافاير (الياقوت)، حيث هبطت ثلاث طائرات نقل ضخمة من طراز C-5 على متنها واحد وثلاثون أخصائياً في المجال النووي في كازاخستان لتأمين 1,320 باوند من اليورانيوم عالي التخصيب المخزّن بشكل غير سليم؛ وأشارت الاستخبارات إلى أن أتباع إيرانيين كانوا مهتمين بشراء هذه الكمية[1253].

في العام 2000، وضعت وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي خطة لتأخير البرنامج النووي الإيراني، حيث تعاونت مع عالم نووي سوفيتي سابق منشق، فسلّم إيران تصاميم تمّ التلاعب بها لتشغيل وحدة جهاز TBA 480 عالية التوتر وهي الآلية التي تلزم لتفجير قنبلة نووية. وقد أُدخل على التصميم المتطور عيب دقيق يضلل الإيرانيين، فينتهي الأمر بتصاعد سحابة من الدخان بدلاً من إحداث انفجار بحجم شمس صغيرة[1254].

قابلت وكالة الاستخبارات المركزية العالم الروسي في مقر إقامته في فندق سان فرانسيسكو الفاخر، ومن ثمَّ أطلقته في فيينا. وبينما كان يتجول في أنحاء المدينة نجح في العثور على الوفد الإيراني المكلف بالتفاوض مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية في مكتب لا تميزه أي علامات ويقع في شقة من مبنى من خمس طبقات. وبعد أن ترك المخططات، نقلت الاستخبارات

الأميركية التي كانت تراقب المبنى أن مسؤولاً إيرانياً رفيعاً قد غادر إلى طهران. وما زال غير واضح ما إذا أثبتت عملية حصان طروادة تلك فعاليتها. لكن من المرجح أنها أثرت إلى حد ما على ما يبدو، فإيران لا تزال غير قادرة على أن تثبت، بعد مرور أكثر من عقد من الزمن، براعتها في تقنية جهاز التفجير النووي[1255].

تلقت وكالة الاستخبارات المركزية مفاجأةً في حزيران/يونيو من العام 2009. عمل شهرام أميري، وهو فيزيائي نووي شاب متزوج وله أطفال، على النظائر المشعة في جامعة مالك الأشتر للتكنولوجيا في طهران، وكان على صلة وثيقة بالبرنامج النووي الإيراني. فترة عمله لحساب وكالة الاستخبارات غير معروفة بالضبط، ربما عمل لسنوات عدة، ومن الوارد أنَّه استمرَّ بتقديم المعلومات عن البرنامج النووي الإيراني في العام 2007 بحسب تقديرات الاستخبارات. لسبب ما، أراد التخلي عن منصبه أو قرر الانشقاق بينما كان يؤدي مناسك الحج في مكة المكرمة. نقلته وكالة الاستخبارات المركزية بسرية تامة وبمساعدة السعوديين إلى الولايات المتحدة للحصول على معلومات وافية منه عن برنامج إيران السري للأسلحة النووية. عندما لم يعد إلى إيران قامت السلطات الإيرانية القلقة بإجراء تحقيقات، وكانت غير متأكدة مما إذا فرّ أو لقي حتفه على يد المملكة العربية السعودية أو إسرائيل. وحرصاً على سلامته أسكنته وكالة الاستخبارات المركزية في توكسون بولاية أريزونا، بعيداً عن أي تجمعات إيرانية.

اشتاق أميري إلى وطنه بعد مرور سنة على وجوده في المنفى، وخالف نصيحة من يرعونه فاتّصل بمنزله ليكلّم ابنه. تلقّت السلطات الإيرانية المكالمة وعرفت عندئذ أنه هرب ولجأ إلى الولايات المتحدة. أخبروه أن يعود عن انشقاقه أو ستدفع أسرته الثمن. وكي يضمن سلامة عائلته صوّر شريط فيديو في منزله قال فيه إن الأميركيين اختطفوه واحتجزوه رغماً عنه، وقال أيضاً: «تعرضت خلال الأشهر الثمانية التي قضيتها في أميركا لأشد أنواع التعذيب والضغوط النفسية من قبل أجهزة التحقيق في الاستخبارات الأميركية». وقد بثّت إيران الفيديو على التلفزيون الحكومي.

حاولت وكالة الاستخبارات احتواء الضرر وحماية أسرة أميري، فعمدت إلى إنتاج شريط فيديو ذكي أنكر فيه أميري قصة اختطافه وطمأن أسرته إلى أنه آمن في أميركا، وتم نشره على موقع يوتيوب. قال أميري في الشريط: «أنا إيراني، ولم أتخذ أي خطوات ضد بلدي الأم، ولم أشارك في أبحاث الأسلحة وليست لدي خبرة أو معرفة في هذا المجال، وأعرف أن حكومة الجمهورية الاسلامية في إيران سوف ترعى أفراد أسرتي وتحميهم. أريدهم أن يعرفوا أنني لن أتركهم وسوف أحبهم إلى الأبد»[1256].

في 13 تموز/يوليو من العام 2010 ذهب أميري الذي كان يشعر بالوحدة والاضطراب إلى قسم رعاية المصالح الإيرانية في السفارة الباكستانية قرب منزل نائب الرئيس في واشنطن العاصمة، وطلب العودة إلى إيران، فوصل بعد يومين إلى طهران حيث عانق بحرارة ابنه البالغ من العمر سبع سنوات ووالده، وعقد مؤتمراً صحفياً ادّعى فيه أنه فرّ من خاطفيه في وكالة

الاستخبارات المركزية، مضيفاً: «عرضوا علي مبلغ 50 مليون دولار للتعاون معهم، وطلبوا مني أن أقول لوسائل الإعلام إنني شخص مهم جداً في البرنامج النووي الإيراني. أرادوا أن أُظهر جهاز الحاسوب المحمول على التلفاز وأقول إنهم حصلوا على معلومات مهمة جداً حول برنامج السلاح النووي الإيراني، لكنني عاهدت نفسي ألا أقول [لهم] أي شيء يضرّ بلدي». زعمت وكالة أنباء فارس الإيرانية أن أميري كان عميلاً مزدوجاً طوال الوقت، وأنه عمل لصالح الاستخبارات الإيرانية، وكانت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية قد فكرت في هذا الاحتمال أيضاً[1257].

لا يزال مصير أميري بعد عودته غامضاً. أرادت السلطات الإيرانية في بادئ الأمر أن تعرف ما إذا باح بما لديه من معلومات، وبدلاً من رميه في السجن استُقبل استقبال الأبطال مما ساعد الحكومة على حفظ ماء وجهها. ومع ذلك نُشرت تقارير في العام 2011 تتهم أميري بالتجسس فسُجن. وإن لم يعدم فهو يعيش في منفى داخلي وتحت الإقامة[1258].

لم تقتصر لعبة التجسس على إيران. ففي العام 2004 أنشأ حزب الله بمساعدة الإيرانيين وحدة لمكافحة التجسس حملت اسم «وحدة مكافحة التجسس»[1259]. وسرعان ما تطوّرت كفاءة هذه الوحدة في البحث عن عملاء أميركا وإسرائيل. بدأ حزب الله بالعمل مع مسؤولين أمنيين في الحكومة اللبنانية، واستخدم أنظمة معلوماتية للبحث من خلال سجلات المكالمات الهاتفية عن أنماط المكالمات غير العادية، مثل المكالمات القصيرة المتكررة بين اثنين على هواتف محمولة مدفوعة مسبقاً[1260]. وفي العام 2009 أعلن الحزب أنه ألقى القبض على نحو مئة عميل إسرائيلي. وفي حين أنّ من المرجح أن يكون هذا الرقم مبالغ فيه، إلا أن جهد وحدة مكافحة التجسس الجديدة نبّه وكالة الاستخبارات المركزية في لانغلي ودفع الأميركيين إلى إعادة تقييم عملياتهم وجعلت ضباط الوكالة يتوخون الحذر لاسيما في كيفية التعامل مع عملائهم في جنوب لبنان[1261].

في حزيران/يونيو من العام 2011 كشف السيد حسن نصرالله خلال مقابلة تلفزيونية عن أن حزب الله قد عثر على جاسوسين من جواسيس وكالة الاستخبارات المركزية، وأن ذلك أدى إلى الكشف عن جاسوس ثالث. وسارعت قناة تلفزيون المنار الإخبارية التابعة لحزب الله إلى نشر قصص مصوّرة (سكيتشات) تمثّل اجتماعات الفريق السرية مع ضباط وكالة الاستخبارات المركزية في مطعم «بيتزا هت» المعروف في جنوب بيروت، فضلاً عن مطعم ماكدونالدز ومقهى ستاربكس. كشفت المجموعة اللبنانية عن اسم رئيس محطة وكالة الاستخبارات المركزية وعن أربعة ضباط آخرين على علاقة بالوكالة، بالإضافة إلى خمسة أميركيين آخرين يعملون بأسماء مستعارة متهمين بأنهم يعملون لحساب وكالة الاستخبارات المركزية وبمشاركتهم في التجسس في لبنان. وخلال خطبة يوم الجمعة، في 24 حزيران/يونيو من العام 2011، استخدم نصرالله التعبير الإيراني في هذا الشأن ووصف السفارة الأميركية في بيروت بأنها «وكر جواسيس»[1262].

أثار ذلك ردّ فعل من قِبل السفيرة الأميركية مورا كونيلي، وهي موظفة مخضرمة في مجال السياسة الخارجية، فزارت العماد ميشال عون في دارته في الرابية شرق بيروت ونقلت إليه شكوى بشأن اتهامات نصرالله لسفارتها نظراً إلى أنّ من المحظور على الدبلوماسيين الأميركيين التواصل مع حزب الله. كان عون قائد لواء في الجيش اللبناني أثناء معارك عام 1983 التي أرسل روبرت ماكفرلين مذكرته الشهيرة «السماء تسقط» في شأنها. وقد أدت تلك المعارك إلى بدء التدخل العسكري الأميركي المباشر في الحرب الأهلية اللبنانية؛ لكن عون الآن شريك في ائتلاف حكومي لبناني مع خصمه القديم حزب الله. قالت السفيرة كونيلي عقب الاجتماع: «إننا نعتبر هذه الاتهامات محاولة لتحويل الانتباه بعيداً عن التوترات الداخلية في حزب الله». على الرغم من أن الزعيم اللبناني هو الذي يغالي عادةً في الكلام، كانت الدبلوماسية الأميركية هي التي تحاول - هذه المرة - أن تصرف الاهتمام عن كشف شبكة العملاء الأميركيين في لبنان[1263].

قبل شهر من ذلك، في أيار/مايو من العام 2011، ادعت إيران أنها اعتقلت ثلاثين شخصاً يشتبه أنهم عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية، مؤكدةً أنها اكتشفت طريقة اتصال سرية عبر الإنترنت تستخدمها وكالة الاستخبارات المركزية وتمكنت عبر ذلك من الإمساك بالخونة. لكن تعريف الجاسوس عند إيران مسألة فضفاضة، فهو يتضمّن صحفيين وأكاديميين ومسؤولين في شركات الطاقة الإيرانية، جواسيس كانت «جريمتهم» الوحيدة مراسلة زملائهم عبر البريد الإلكتروني في أوروبا أو الولايات المتحدة. واتّهم مسؤولون إيرانيون الولايات المتحدة بإنشاء مواقع خاصة للتواصل مع عملائها. وأكّد موقع شبكة الأنباء الإيرانية أن جهاز الاستخبارات الإيراني استخدم عدداً من العملاء المزدوجين للتحقق من أكثر من اثنين وأربعين عميلاً للاستخبارات المركزية الأميركية، وكشف عن وجود برنامج يهدف إلى «تضليل الشباب والطلاب الإيرانيين وخداعهم»، لاسيما عن طريق البرامج التي تسألهم آراءهم عبر الهواتف[1264]. كان هذا تعريفاً واسعاً فعلاً للجاسوسية الغربية.

استطاعت إيران أن تسدّد ضربة إلى وكالة الاستخبارات المركزية عندما اكتشفت تحليق طائرات أميركية في المجال الجوي للجمهورية الإسلامية. ففي 4 كانون الأول/ديسمبر من العام 2011، كشفت القوات الإيرانية طائرات تجسس دون طيار من طراز RQ-170 تابعة للقوات الجوية الأميركية، تتحكم بها وكالة الاستخبارات المركزية من مطار في جنوب غرب أفغانستان. حلقت طائرة دون طيار على ارتفاع خمسين ألف قدم، الطائرة ذات الأجنحة الشبيهة بأجنحة الخفاش، وهي نموذج مصغر لطائرة B-2 الخفيّة، ومجهزة بمعدات مراقبة متطورة. هذه الطائرة مصممة لتفادي الرادار وهي الأكثر تقدماً في الترسانة الأميركية. ما إن توغّلت الطائرة 150 كيلو متراً في المجال الجوي الإيراني حتى فقد المُشغل في وكالة الاستخبارات الأميركية الاتصال بالأقمار الصناعية الذي يسمح له بالسيطرة على طائرته، فسقطت الطائرة الملونة بلون الكثبان الرملية على رمال الصحراء الشرقية الإيرانية دون أن تتضرر فعلياً. ادّعى مهندس عسكري إيراني أنّ وحدات الحرب الالكترونية في الجيش الإيراني شوشت على موجات الرادار واخترقت نظام

المواقع العالمي الخاص بالملاحة عبر الأقمار الصناعية (GPS)، فاستطاعت بذلك منع الطائرة من العودة إلى قاعدتها الرئيسة بالقرب من قندهار، وحطت بدلاً من ذلك في قاعدة جوية في إيران.

نفى مسؤولون أميركيون تحدثوا عن الحادث إلى الصحافيين الادّعاء الإيراني واعتبروه تباهياً فارغاً، لكنهم اعترفوا أنّ الطائرة دون طيار لم تحلق فوق إيران بالخطأ. كانت وكالة الاستخبارات المركزية، لا القوات الجوية، هي من أطلق الطائرة دون طيار، وقضت مهمتها السرية بالبحث عن المواقع النووية الإيرانية الجديدة. من جانبها تتهم إيران الولايات المتحدة منذ العام 2005 بمواصلة استخدام طائرات دون طيار للتجسس على منشآتها النووية. وعندما تنتهك دولة ما سيادة دولة أخرى على نحو فاضح، تقضي العادة بأن تعتذر على الأقل وأن «تعرب عن أسفها». ولكن ثمة شيء غير سوي في العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران، فبدلاً من الاعتذار تجرّأ الرئيس أوباما وطالب بإعادة الطائرة. كما أن رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال مارتن ديمبسي لم ينفِ قط التجسس الأميركي على إيران، وتحدث إلى مراسل محطة CNN بحزم قائلاً: «إذا أردت أن تعرف ما إذا كنا نجمع معلومات استخباراتية عن إيران من خلال مجموعة وسائل متنوعة فالجواب هو بالطبع نحن نفعل. من الحماقة ألا نحاول فهم ما تفعله دولة أعلنت نفسها خصماً للولايات المتحدة»[1265]. وليس مستغرباً أن ترفض إيران طلب أوباما الغريب، وقد رفعت طهران شكوى إلى مجلس الأمن الدولي تتهم فيها الولايات المتحدة بانتهاك مجالها الجوي[1266].

زادت حدة التوتر بين إيران والولايات المتحدة من احتمال حصول مواجهة عسكرية، وظلت الصواريخ الباليستية الإيرانية تُقلق المخططين الحربيين في القيادة المركزية الأميركية، وصرّح الجنرال بتريوس، من المركز القانوني بجامعة جورجتاون، في 21 كانون الثاني/يناير من العام 2010، علناً أن الولايات المتحدة نشرت ثماني بطاريات صواريخ باتريوت في دول الخليج، في الكويت والإمارات العربية المتحدة والبحرين. كما قرّر كلٌّ من المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة والكويت شراء رادارات وصواريخ أكثر تطوراً.

تسارعت عملية بناء مجموعة الدفاع الصاروخي ضد إيران بدعم من الرئيس أوباما. ونظراً لتلاشي الآمال بالتزام إيران فقد تحركت الإدارة الأميركية لممارسة ضغوط إضافية عليها والاستعداد للحرب، حيث أمر الرئيس بنشر مزيد من القوات في الخليج لمواجهة الصواريخ الإيرانية. وفي شباط/فبراير من العام 2010 نشرت وزارة الدفاع دراسة حول الدفاع الصاروخي تلزم الولايات المتحدة بالدفاع ضد الصواريخ الإيرانية. خلال ندوة أُقيمت في آذار/مارس من العام 2010 في أبو ظبي قال رئيس وكالة الدفاع الصاروخي، الفريق باتريك أوريلي، إن الاستراتيجية الأميركية الشاملة لنظام تغطية البر والبحر تسمح بالكشف عن الصواريخ الإيرانية والاشتباك معها في مختلف أنحاء الخليج وهي قادرة على إسقاط الصواريخ العابرة للقارات حتى لو كانت موجهة إلى أماكن أبعد مثل أوروبا[1267].

نشرت الولايات المتحدة بطاريات باتريوت إضافية، على ارتفاعات عالية، وكذلك سفن حربية مجهزة برادار ايجيس وبصاروخ قياسي3 الذي أثبت مؤخراً قدرته على تدمير أهداف على ارتفاعات عالية باستخدام الأقمار الصناعية. أمر وزير الدفاع غيتس إحدى هذه السفن أن تتمركز بشكل دائم داخل الخليج العربي[1268].

رعت الولايات المتحدة مركز الدفاع الجوي المتكامل القريب من مقر القوات الجوية في أبو ظبي، بالإمارات العربية المتحدة. ويحتوي هذا المركز على منشأة مجهزة بأحدث التجهيزات المصممة لمحاكاة الدفاع ضد أي هجوم صاروخي، ويهدف إلى تطوير التدريب والأساليب المشتركة بين جيوش الخليج[1269]. اعترضت المملكة العربية السعودية على إقامة المركز في دولة الإمارات العربية المتحدة لا في المملكة العربية السعودية، ورفضت في البداية المشاركة في التدريبات، إلا أن الاستراتيجيين العسكريين العرب اعترفوا سراً بضرورة التعاون على نحو أفضل، وكانوا صريحين بشأن نقاط ضعفهم وحاجتهم إلى تبادل المعلومات. ومع أن هذا لم يحقق أي انفراج فوري على صعيد التعاون بين الجيوش، إلا أن مجرد الاعتراف به يعدّ خطوةً كبيرة نحو الأمام ونحو إقامة علاقات عسكرية أوثق مع الولايات المتحدة وفيما بينهم.

قلقت القيادة المركزية الأميركية أيضاً من استمرار الشغب الإيراني في العراق. بعد الغارات الأميركية في عامي 2006 و 2007، أمر المرشد الأعلى للثورة ضباط فيلق القدس بعدم السفر إلى العراق، ومع ذلك بدأ ضباط الحرس الثوري بحلول العام 2009 يعاودون الظهور في العراق، لاسيما في ظل غياب القوات الأميركية عن المدن. أراد قائد فيلق القدس قاسم سليماني ضرب الأميركيين أثناء مغادرتهم العراق. «أراد أن يوجه لنا ركلة على عتبة الباب»، على حد تعبير مسؤول كبير في الجيش الأميركي خلال كلمة ألقاها في معهد واشنطن. في حزيران/يونيو من العام 2011 قُتل خمسة عشر جندياً أميركياً بصواريخ جديدة وقوية زوّد فيلق القدس عملاءه الشيعة في العراق بها، لاسيما كتائب حزب الله. وقع الهجوم الأكثر فتكاً في 6 حزيران/يونيو، عندما قتل صاروخ ستة جنود من فرقة المشاة الأولى في قاعدة جوية قرب بغداد.

انقسم الجنرالات حول كيفية الردّ، تماماً كما حصل في المناقشات التي دارت في العام 2006، فقد دعا عدد قليل من الأصوات إلى قتل بعض عناصر فيلق القدس داخل العراق، أو على الأقل إلحاق الضرر ببعض أعمالهم المربحة في عُمان أو غيرها. حذر قائد بارز في العراق، هو الجنرال لويد أوستن، بشدة من الرد بهذه الطريقة خشية أن تزيد إيران هجماتها ضد القوات الأميركية بشكل كبير. تحركت القوات الخاصة الأميركية لتعطيل العمل في السوق السوداء التي تدر الأرباح على الحرس الثوري الذي يبيع البنزين على طول الحدود مع أفغانستان، وكان لهذ أثر كبير على جيوب الحرس. وأمر أوستن بتوجيه ضربات عسكرية تستهدف الميليشات التي تدعمها إيران داخل العراق. كما أرسلت الولايات المتحدة تحذيراً شديد اللهجة إلى إيران من خلال الروس والصينيين جاء فيه أن الأميركيين سوف يتخذون المزيد من الإجراءات إذا استمرت الهجمات.

واصلت إيران ممارسة نفوذها في العراق، وعمل قاسم سليماني على الحفاظ على مصالح إيران ودورها في العملية السياسية العراقية. ووفد بطلب من آية الله خامنئي أحد كبار مستشاري

حزب الله إلى العراق للضغط من أجل المصالح الإيرانية وتعزيز الوحدة وتوثيق العلاقات مع جماعة الصدر وجيش المهدي، وبذلك احتفظت إيران بمساعدة حليفها العربي بنفوذها على حزبين من الأحزاب الشيعية الرئيسة، لاسيما حزب الدعوة الإسلامية الذي يتزعمه المالكي. خلال الانتخابات العراقية في العام 2010، التي أدت إلى جمود طويل بسبب عدم القدرة على تحديد الجهة التي ستتولى رئاسة الحكومة المقبلة، قامت إيران بالتدخل للتأثير في مناورات ما بعد الانتخابات، فدعمت المالكي، المرشح الذي تدعمه أميركا. بعد التزلُّف الكبير الذي أبداه المرشد الأعلى نجحت إيران في دفع الشيعة العراقيين إلى تشكيل حكومة ائتلافية جديدة.

واصلت زوارق الحرس الثوري الإيراني مضايقة السفن الحربية الأميركية في الخليج، مهدِّدةً بنشوب صراع أكبر بين البلدين. وبما أنّ الحرس يعمل تحت قيادة لا مركزية ويكافئ القادة المغامرين فقد رأى قادة الأسطول الخامس أن أي حادثة يمكن أن تُخرج الوضع عن السيطرة. وقد وقعت حادثة خطيرة في 6 كانون الثاني/يناير من العام 2008، عندما كانت ثلاث سفن أميركية بقيادة حاملة الطائرات هوبر (USS Hopper) تتجه لعبور مضيق هرمز فاقتربت منها خمسة زوارق سريعة تابعة للحرس الثوري. اتصل أحد الإيرانيين من على متن أحد الزوارق عبر جهاز اللاسلكي بالسفينة هوبر قائلاً: «سوف نهاجمكم»، مضيفاً بلغة إنكليزية ركيكة: «سوف نفجركم في بضع دقائق». ثم انطلق زورق إيراني آخر واعترض السفينة الأميركية انغراهام (USS Ingraham) التي كانت خلف هوبر وأسقط أجسام بيضاء عدة في طريقها، فسارعت السفينة الحربية الأميركية إلى التراجع بغية تفادي هذه الأجسام. وعندما بدأ أن زورقين إيرانيين أخرين يتحضران للهجوم طلب قائد السفينة هوبر الإذن بإطلاق النار.

لم تخضع هوبر للتدريبات الاعتيادية التي تسبق الانتشار في الخليج العربي، وأحسَّ كبار ضباط البحرية الذين تابعوا الحادثة أن قائد السفينة هوبر لم يشهد المضايقات الاعتيادية التي يقوم بها البحارة الإيرانيون المراهقون. واتضح أن إعطاء هوبر أمراً بعدم إطلاق النار كان قراراً صائباً، لاسيما بعدما تبيّن أن الأجسام التي رُميت في الماء كانت مجرد صناديق بلاستيكية، فضلاً عن انصراف زوارق الحرس وتركهم الأميركيين يتابعون طريقهم. عندما نقلت الصحافة أخباراً عن تبادل وشيك لإطلاق النار، قلّل رئيس هيئة الأركان المشتركة الأدميرال مايكل مولن من أهمية الحادث خشية أن يزيد ذلك من التوتر وحسب.

واصلت البحرية الأميركية العمل وفق «قواعد ضبط النفس الصارم»، وهو تعبير صاغه قائد بحري كبير في منطقة الخليج، هو اللواء البحري كيفن كوسغريف[1270].

وقعت حادثة خطيرة أخرى في نيسان/أبريل من العام 2011 عندما اعترض زورق سريع للحرس الثوري السفينة الحربية البريطانية (HMS York). أرسلت السفينة تحذيرات شفهية بصوتٍ عالٍ إلى الزورق، وعندما لم يمتثل أمر القائد بإطلاق النار أمامه؛ على أن تكون خطوته التالية إطلاق النار على الزورق نفسه. لحسن الحظ أنّ عنصر الحرس أوقف الزورق ورفع يديه

وانتهت الأزمة. ولكن مع تصاعد التوتر، قلقت القيادة المركزية الأميركية من إمكانية أن تؤدي هذه الحوادث الصغيرة بسهولة إلى تبادل لإطلاق النار.

في ربيع العام 2011 اقترحت البحرية الأميركية إقامة خط هاتفي ساخن بين الأسطول الخامس في البحرين وقائد الحرس الثوري في بندر عباس لتجنّب هذه الحوادث، فإذا وقع حادث في البحر يمكن لأي طرف رفع سماعة الهاتف بسرعة والتحدث إلى الطرف الآخر ونزع فتيل التوتر قبل أن يتحوّل إلى أزمة. كان قائد الأسطول الخامس الجديد اللواء البحري مارك فوكس طياراً مخضرماً وذا كاريزما، وقد أسقط طائرة ميغ عراقية في ليلة بدء معركة عاصفة الصحراء؛ أيّد فوكس فكرة الخط الساخن ولكن أمله في موافقة إيران عليها كان ضعيفاً. وعندما طرحت الحكومة الأميركية الفكرة على الإيرانيين ثبت أن فوكس كان محقاً إذ رفضت إيران مناقشة الاقتراح، وقال قائد البحرية الإيرانية: «إن سبب النزاع الوحيد في الخليج العربي هو وجود البحرية الأميركية»، مضيفاً: «إذا غادر الأميركيون فلن يندلع أيّ صراع». وهكذا ماتت فكرة ترتيب رسمي من هذا النوع.

لم يكن وزير الدفاع غيتس راضياً عن القيادة المركزية الأميركية، فقد وضع قائدها الأدميرال مايكل فالون حداً للكثير من جهود التخطيط التكتيكي للرَّد التي بدأها أبي زيد، إذ خشي أن تزيد هذه الجهود حدة التوتر وتؤدي إلى حروب أخرى، لاسيما مع إيران. في نهاية المطاف أقال غيتس فالون من منصبه بعد إطلاقه تعليقات مسيئة إلى الحكومة نُشرت في مجلة. استغلَّ طيار في البحرية يدعى وليام غورتني الفراغ لعرض أفكاره الخاصة فأعجبت وزير الدفاع، وسرعان ما ترقّى غورتني خلال سنة من جنرال بنجمة إلى جنرال بثلاث نجوم. كان غورتني قائداً عنيداً يفرض على الآخرين مهاماً صعبة، وطياراً واثقاً من نفسه وذا خبرة بعد أن أمضى سنوات في التحليق فوق الخليج العربي. رأى غورتني، بوصفه قائداً جديداً للأسطول الخامس، أن الساعات الأولى من أي نزاع مع إيران ستكون حاسمة، لذا فإن على أسطوله أن يكون مستعداً للقتال بالسفن والطائرات المتوفرة بين يديه في حال تطور النزاع إلى حرب لأن وصول التعزيزات سوف يستغرق وقتاً طويلاً.

أطلق غورتني على فكرته الجديدة اسم «خطة حيث أنت»، وهي تعرض أول رؤية واقعية للجيش الإيراني منذ سنوات. وضع موظفوه مجموعة من الأفكار المبتكرة المصممة للقضاء على الزوارق الصغيرة ونقل المعركة إلى القوات البحرية الإيرانية. لن يتخلى غورتني عن أي بقعة مائية، وسوف يهاجمهم في أي مكان، بدءاً من شمال الخليج حتى مضيق هرمز. قام الأسطول الخامس تحت إشرافه بتجارب وشكّل قوات عمل حددت مهمتها كالتالي: اصطياد القوارب الإيرانية. عندما ترك غورتني مهامه لاستلام منصب رفيع في البنتاغون بقيت أفكاره تنتظر الإكمال. على الرغم من ذلك، بدأت البحرية الأميركية، لأول مرة بعد عقدين من الزمن، بوضع خطة واقعية للتعامل مع القوة العسكرية الإيرانية غير التقليدية.

تحوّلت سياسة باراك أوباما خلال السنوات الثلاث الأولى التي قضاها في منصبه من التفاؤل المفعم بالأمل واليد الممدودة إلى عقوبات قاسية واستعدادات للحرب. اعتمد أوباما بحلول العام 2011 سياسة مماثلة تقريباً لسياسة بوش بعد أن اتّهم سلفه بعدم استخدامه الدبلوماسية بشكل

جديّ مع إيران. وفي حين كان النقاد يتّهمونه بأنه ساذج في نهجه الأولي، كانت سياسته أكثر دقةً من فهم الكثيرين. كان يعرف أن عصا العقوبات أو الضربات العسكرية دائماً موجودة؛ لكن الشيء الذي لم يعرفه هو ما إذا كانت إيران مستعدة جدياً للجلوس إلى طاولة المفاوضات ومناقشة الخلافات الناشبة بين البلدين منذ أكثر من ثلاثين عاماً. وبعد أن واجه الرفض المتواصل، تلاشى لديه أي أمل بالانفتاح مع اندلاع الصراعات الداخلية الناجمة عن الانتخابات الرئاسية الإيرانية. كتب نيكولاس بيرنز مشيداً بمحاولة أوباما الانفتاح على إيران ومد يد الصداقة إليها: «بسببها كان موقف الولايات المتحدة أكثر إقناعاً للمجتمع الدولي، وأمكنها الاستفادة من ذلك لمواجهة الكذب الإيراني وقيادة تحالف دولي لفرض عقوبات شاملة في حال فشلت المحادثات»[1271]. وهذا ما فعله أوباما تماماً عندما رفضت إيران مبادرته.

خاتمة

ذات يوم، كان عبد الرضا شهلايي متوتراً على غير عادته. تولى هذا الضابط البالغ من العمر ستة وخمسين عاماً والهادئ بطبعه نصيبه من المهام الخطرة في فيلق القدس. وقد خدم في لبنان والعراق، وها هو الآن يخدم في اليمن باعتباره واحداً من أصحاب الكفاءة ومن الأشخاص الجديرين بالثقة من بين عناصر قاسم سليماني. أعطى شهلايي الضوء الأخضر لتنفيذ الهجوم على مركز التدريب في كربلاء عام 2007، هذا الهجوم الذي راح ضحيته خمسة جنود أميركيين، وأظهر مراراً وتكراراً قدرة على المبادرة والمناورة، وهي ما تحتاجه منظمة القوات الخاصة المستقلة التابعة للحرس الثوري: فيلق القدس. يترأس شهلايي الآن مجموعة صغيرة لفيلق القدس في اليمن تعمل على تدريب وتجهيز فرقة من رجال القبائل الشيعية في شمال اليمن التي استمر تمردها عقداً من الزمن وأصبحت شوكةً في خاصرة الحكومة السعودية. بيد أن وسائل الإعلام الغربية كلها بدأت تتداول اسمه نظراً لتورطه في مؤامرة اغتيال السفير السعودي في العاصمة واشنطن. وقد فاجأ أسلوب العملية الجريء ألدَّ أعداء إيران. في عهد الرئيس أوباما، شكّل الجيش الأميركي ووكالة الاستخبارات المركزية فريقاً فاعلاً للاستخبارات والاغتيالات من شأنه أن يزيد الضربات الصاروخية بالطائرات دون طيار أربعة أضعاف ما كانت عليه سابقاً ضد القاعدة في باكستان واليمن. وبات شهلايي الآن يخاف أن يتحوّل إلى هدف الصاروخ القادم، لكن سليماني طمأنه إلى أنه سيعيده بأمان إلى إيران.

لقد توترت العلاقات بين إيران والسعودية على مدى العقد الماضي. فإيران تعتبر المملكة السعودية (وحليفتها الولايات المتحدة) مسؤولتين عن تصاعد الهجمات الإرهابية التي تشنّها الجماعة الانفصالية البلوشية «جند الله»، التي قتلت العشرات من جنود الحرس الثوري والمدنيين الإيرانيين على مدى السنوات القليلة الماضية. كما أرسلت الرياض قواتها إلى البحرين للمساعدة على سحق تطلعات غالبية السكان الشيعة هناك إلى المساواة. وشنّ البلدان حرباً بالوكالة في اليمن على إيران التي تدعم الحوثيين الشيعة. في البدء، لم يكن لإيران يد في التمرد الحوثي كما يزعم السعوديون، لكن سرعان ما وضع سليماني يده على هذا التمرد كي يثبّت أقدام إيران على البوابة اليمنية ويوفّر الأسلحة والتدريب لمزيد من المتمردين. شكَّت إيران في أن السعودية تموّل منظمة مجاهدي خلق لتستمر وتقف على أقدامها. وعندما أعلن كلٌّ من رئيس هيئة الأركان المشتركة السابق بيتر بيس وأول مستشار لأوباما في الأمن القومي جيم جونز عن موافقتهما على شطب اسم منظمة مجاهدي

خلق من قائمة الإرهاب العالمي الأميركية، تأكدت الشكوك التي كانت تحوم حول تعاون أميركا الوثيق معها أيضاً.

سرّب موقع ويكيليكس برقيات لوزارة الخارجية الأميركية تصبّ الزيت على نار الغضب الإيراني. فقد كشفت عشرات البرقيات عن ازدواجية دول الخليج العربية لاسيما المملكة العربية السعودية. فعلى الرغم من تصريحات الصداقة التي أدلت بها السعودية لوزير الخارجية الإيراني، إلا أنها كانت تحثّ الولايات المتحدة سراً على اتخاذ موقف صارم ضد إيران، بما في ذلك العمل العسكري. في 15 آذار/ مارس من العام 2009، اجتمع في البيت الأبيض كبير مسؤولي مكافحة الإرهاب جون برينان مع الملك السعودي الذي أكد مراراً وتكراراً على التهديد الذي تشكّله إيران ونفوذها في المناطق العراقية وغيرها من المناطق الشيعية. قال الملك: «هدف إيران هو إثارة المشكلات، وثمة شيء مقلق بشأنهم دون أدنى شك. حمانا الله من الوقوع ضحية شرهم»[1272].

كان سفير المملكة لدى الولايات المتحدة عادل الجبير هدفاً مباشراً لغضب إيران. الجبير رجل نحيل وسفير فصيح وذو حظوة لدى الملك السعودي. عرف الجبير الذي يجيد اللغة الإنجليزية كيف يتعامل مع واشنطن، وعكس صورة جيدة على شاشات التلفزة الأميركية في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. خلال لقاء مع الجنرال بتريوس في نيسان/أبريل 2008 أشار الجبير إلى موافقة الملك السعودي على عمل عسكري ضد إيران، وتحدّث عن رغبة المملكة في «قطع رأس الأفعى». وعندما ظهرت تصريحاته في وسائل الإعلام الغربية ثار غضب العديدين في الحكومة الإيرانية. في المقابل، كانت محاولة اغتيال السفير رسالة لا لبس فيها إلى الملك السعودي مفادها أن الثعبان بوسعه أن ينتقم.

في العام 2010، بدأت إيران بالخطيط بالطريقة نفسها التي اعتمدتها لضرب أبراج الخُبَر، فسعت لمهاجمة أهداف سهلة يمكن أن تعتمد بعدها سياسة الإنكار. بدأت عناصر إيرانية بالبحث عن أهداف سعودية ويهودية في تركيا والقوقاز، وبرصد المباني التجارية التي تملكها الولايات المتحدة في أذربيجان[1273]، وظهر الدبلوماسيون السعوديون على قائمة المستهدفين. في أيار/مايو من العام 2011، باشر فيلق القدس ضرباته حيث أطلق مسلحون يقودون دراجات نارية النار على القنصل السعودي حسن القحطاني في مدينة كراتشي الباكستانية عندما كان متوجهاً إلى عمله فأردوه قتيلاً.

إنه عالم صغير، ففي شهر آذار/مارس من العام 2011 توجّه عبد الرضا شهلايي مسرعاً إلى منزل ابن عمه منصور أربابسيار البالغ من العمر ستة وخمسين عاماً بعد وصوله إلى طهران عائداً من الولايات المتحدة. نشأ الاثنان في مدينة كرمنشاه الإيرانية وقضيا طفولتهما معاً قبل أن يهاجر أربابسيار إلى تكساس في أواخر السبعينيات، وعلى الرغم من أنه شخص محبب وودود إلا أن حياته في أميركا لم تسر بشكل حسن، فقد درس في جامعة تكساس للهندسة الزراعية والميكانيكية لكنه فشل في إنهاء دراسته والتخرج. أقام أربابسيار في مدينة كوربوس كريستي الساحلية في تكساس منتحلاً اسم جاك، وتنقّل في سلسلة من الأعمال: افتتح مطعماً للكباب واللحم المشوي أطلق عليه اسم «جيروس كوباب» داخل مركز للتسوق هو «صنرايز مول»، ثم متجراً، وأخيراً مرآباً

لبيع وشراء السيارات المستعملة[1274]. فشل في كل ذلك، فهجرته زوجته وحصلت على حضانة ابنهما واستصدرت أمراً من المحكمة يمنعه من التعامل معها، فعاد إلى إيران في العام 2010.

حدّث أربابسيار ابن عمه عن رحلاته المتكررة إلى المكسيك وأخبره أنه ساعد أحد أصدقائه ذات مرة في تهريب شقيقتيه عبر الحدود المكسيكية إلى الولايات المتحدة، فقد سافر كثيراً عبر الحدود المكسيكية بحكم عمله في بيع السيارات المستعملة وأقام علاقات مع تجار المخدرات المكسيكيين.

خطرت لشهلايي فكرة، فتساءل إن كان بوسع أربابسيار أن يتواصل مع معارفه من تجار المخدرات ويطلب مساعدتهم في اغتيال أو خطف السفير السعودي في واشنطن، فهذا الأمر سيرسل إشارة قوية إلى كلّ من الأميركيين والسعوديين مفادها: إذا قتلتم علماءنا في طهران، فيمكننا أن نقتل السفير السعودي في واشنطن. لم يكن أربابسيار مهتماً بالدفاع عن الثورة؛ فربّه هو الجشع والمال، ووافق على مساعدة ابن عمه آملاً في الحصول على أموال طائلة لقاء ذلك.

إنها عملية محفوفة بالمخاطر بالنسبة إلى فيلق القدس، ذلك أنه يُستخدم عادةً في عمليات التفجير والاغتيالات عملاء مدرّبون ومنحازون دينياً من السكان المحليين داخل البلد المستهدف، إلا أن إيران لا تملك شبكة من المتعاطفين داخل الولايات المتحدة للاستفادة منهم، لذا لم يجد شهلايي بدّاً من ذلك إذا أراد تنفيذ العملية في العاصمة الأميركية، وظنّ أن الخطر سيكون في حدّه الأدنى، فأربابسيار قريبه ومن غير المرجح أن يشي به، وهو يحمل جواز سفر أميركياً، ومن الواضح أنه ليس عميلاً مزدوجاً. ورأى فيلق القدس أن توجيه الضربة من خلال عصابة مخدرات مكسيكية سيجعل من الصعب تتبع الأدلة وصولاً إلى إيران.

ظلت تفاصيل المكيدة ضمن حلقة ضيقة في فيلق القدس. لم يُعرف ما إذا ناقش سليماني العملية مع آية الله خامنئي لكن المتشددين مثل قائد فيلق القدس ظلوا يهمسون في أذن المرشد الأعلى للردّ على الحرب غير المعلنة التي تُشنّ ضدهم؛ وبدا أن ثمة فرصة لتحقيق ذلك وإرسال رسالة إلى الإدارة الأميركية. تمت مناقشة الخطة في دائرة أكبر، ولربما شكَّك البعض في جدوى استخدام بائع سيارات مستعملة ومهربي مخدرات مارقين لشنّ هجوم إرهابي كبير داخل الولايات المتحدة. لكن المخطط مضى قدماً.

عيّن شهلايي العقيد غلام شكوري نائباً له للتعامل مع أربابسيار. وأعطى ضابطٌ في فيلق القدس من ذوي الخبرة أربابسيار مغلفاً فيه 15000 دولار لتغطية نفقاته ليعود إلى المكسيك ويجري الترتيبات. وأبلغه شهلايي أنّ كلمة سر العملية هي «شفروليه»[1275].

قام أربابسيار في أيار/مايو برحلات عدة إلى المكسيك، والتقى رجلاً ظنّه عضواً في عصابة لوس زيتاس لتهريب المخدرات، إلا أنه كان في الواقع مخبراً لدى إدارة مكافحة المخدرات الأميركية. هذا الرجل كان قد اعتُقل سابقاً في الولايات المتحدة بتهمة تهريب المخدرات لكنه وافق على العمل مع الجهات القانونية الأميركية مقابل إسقاط التهم عنه. في اجتماعهما الأول سأل

أربابسيار المخبر إن كان يعرف أي شيء عن مادة السي فور (C-4) وعن المتفجرات الأخرى، وعهد إليه بمهمة اغتيال السفير السعودي. وافق المخبر على تنفيذ المهمة قائلاً إن الأمر يتطلب أربعة رجال ويكلّف مليوناً ونصف المليون دولار.

سأل المخبر: «هل تريد اغتيال السفير فقط؟»

أجاب أربابسيار: «نعم، السفير فقط».

التقى الرجلان مرةً أخرى في 17 تموز/يوليو. أخبره المخبر في إدارة مكافحة المخدرات أنّ رجاله قد راقبوا السفير بالفعل، وتبيّن أنّ سبعة أو ثمانية رجال أمن يتولون حمايته، وأضاف قائلاً: «إنه يتناول الطعام بانتظام في جورج تاون، لكنني أعرف بالضبط ماذا يريد ابن عمك أن أفعل».

أجاب أربابسيار: «يريد منك أن تقتل هذا الرجل».

ردّ المخبر: «العملية قد تطول أشخاصاً أميركيين في المطعم؟»

أجاب أربابسيار: «لا يهم كيف سيحدث الأمر».

يفضّل ابن عمه أن يتم قتل السفير فقط، لكن: «أحياناً، وكما تعلم، ليس لديك أي خيار آخر».

اتفق الرجلان قبل نهاية الاجتماع على تفجير السفير الجبير وهو يأكل في المطعم الفاخر كافيه ميلانو في جورج تاون. أجرى شكوري تحويلين ماليين بقيمة مئة ألف دولار، كدفعة أولى إلى حساب مصرفي باسم المخبر.

في 28 أيلول/سبتمبر، سافر أربابسيار إلى المكسيك ليقدم ضمانات لعصابة المخدرات وليؤكد لها أنه سوف يدفع ما تبقّى من المبلغ بعد مقتل الدبلوماسي السعودي. كان عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي يتعقبونه، وبعد أن رفضت السلطات المكسيكية دخوله إلى المكسيك تحرك الوكلاء الفيدراليون وألقوا القبض عليه أثناء عودته إلى مطار جون كينيدي في نيويورك.

عندما اعتُقل أربابسيار اعترف أنه يساعد فيلق القدس وأنه أجرى عدة اتصالات بالعقيد شكوري في طهران. في 5 تشرين الأول/أكتوبر أجرى أربابسيار اتصالاً قال فيه: «أريد أن أخبرك أن الشفروليه جاهزة، إنها جاهزة للانطلاق، وينبغي علي الاستمرار بالعملية، أليس كذلك؟»

أجاب شكوري: «نعم، نعم، نعم». و بعد مناقشة عملية شراء سيارة الشيفرليه، وهي رمز تنفيذ العملية، تابع ضابط فيلق القدس كلامه قائلاً: «اشترها، نعم، اشترِ كل شيء يخّصها».

عندما أعلنت وزارة العدل عن الاعتقالات وتفاصيل المؤامرة سخرت إيران علناً من هذه المزاعم، ووصفها وزير الخارجية الإيراني بأنها جزء من «حملة دعائية جديدة»[1276]. ومع ذلك،

اشتد قلق أولئك الذين يعرفون تفاصيل المؤامرة، فأمر سليماني بوقف العديد من عمليات فيلق القدس، وسحب العناصر المكشوفين، مثلما فعل في العام 2007 عندما لاحقته قوات العمليات الخاصة الأميركية في العراق، ومن ثمَّ عمل على إعادة شهلايي إلى إيران ليكون في أمان.

جاء الكشف عن مؤامرة التفجير في وقت سيىء بالنسبة إلى إيران. فقد وصلت رياح الربيع العربي، الذي بدأ في ربيع العام 2011 وأسقط العديد من طغاة العالم العربي، إلى سوريا، الحليف الحقيقي الوحيد لإيران في منطقة الشرق الأوسط وحلقة الوصل الرئيسة بينها وبين حزب الله. وبعد أن قمعت إيران بنجاح الاحتجاجات التي حدثت داخلها في العام 2009، أرسلت عناصر فيلق القدس ومدرّبين لمساعدة الرئيس السوري بشار الأسد على الاحتفاظ بالسلطة، لكن الوضع ظل مضطرباً. علاوةً على ذلك، شكك تقرير الوكالة الدولية للطاقة الذرية الأخير، الصادر في تشرين الثاني/نوفمبر من العام 2011، بشدة في مزاعم إيران التي تنكر امتلاكها برنامجاً سرياً للأسلحة النووية. وفي ضوء التقرير وعملية الاغتيال التي أُحبطت، دعا الرئيس أوباما إلى فرض عقوبات أشد صرامة. عندما وافقت المملكة المتحدة على العقوبات، أخطأ الإيرانيون بالعودة إلى صفحة من صفحات الماضي الإيراني عندما اقتحم عناصر ميليشيا الباسيج مرتدين ملابس مدنية السفارة البريطانية في طهران، حيث قاموا بنهب المبنى، وأحرقوا صور الملكة إليزابيث وبعثروا الأوراق الدبلوماسية على أرض السفارة، فصدرت ردة فعل دولية أدانت إيران بشدة، وأغلقت لندن مقر البعثة الإيرانية ردّاً على ذلك.

حاولت الحكومة الإيرانية إصلاح الأضرار التي تلت سلسلة الانتكاسات فتعهدت بضمانات أمنية أفضل للسفارات الغربية، كما وافق المرشد الأعلى على إرسال وزير الاستخبارات الإيراني حيدر مصلحي إلى الرياض للقاء ولي العهد السعودي نايف بن عبد العزيز آل سعود. أملت إيران أن تتحسّن العلاقات بعدما أنكر مصلحي أن تكون حكومته قد وافقت على اغتيال السفير السعودي في واشنطن. استمع السعوديون، لكنهم ظلوا يشككون في كل ما قالته الجمهورية الإسلامية.

في العام 2011، انشغلت وسائل الإعلام مرةً أخرى بتقارير عن ضربة إسرائيلية محتملة للمنشآت النووية الإيرانية. لقد ظلت هذه القصة تطلّ برأسها كل سنة خلال السنوات القليلة الماضية، ففي العام 2008، أصدرت وكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع تقريراًجاء فيه أن هذا «العام حاسم» بالنسبة إلى أي هجوم إسرائيلي محتمل، وفي العام التالي أخبر وزير الدفاع الإسرائيلي إيهود باراك وزير الدفاع الأميركي غيتس أن عام 2009 هو العام الذي ستهاجم فيه قواته إيران وإلا «سوف تكون العواقب وخيمة جداً». حلّ العامان ورحلا دون أي هجوم ومع استمرار تعثّر برنامج التخصيب الإيراني. ومع كل قصة، يتنبه قادة طهران، فيصبح الجيش الإيراني في حالة تأهب قصوى. ومع قعقعة السيوف والتهديد باستخدام القوة، تهدّد إيران من ناحيتها بالردّ عن طريق إطلاق صواريخ على منشآت نووية إسرائيلية. وعندما أعلنت تركيا أنها ستنصب نظام رادار للدفاع الصاروخي الجديد، هددت إيران بمهاجمته أيضاً.

في البنتاغون، أقلق احتمال الانجرار إلى الصراع كلاً من وزير الدفاع غيتس وخلفه ليون بانيتا ذلك أن إيران ستفترض أن الولايات المتحدة متواطئة في أي هجوم يشنّ ضدها، فتقوم بضرب قواعد أميركية في الخليج العربي، وقد تندلع حرب إقليمية أيضاً على الأرجح. أمضى ليون بانيتا وقتاً طويلاً في إقناع الإسرائيليين بالتفكير جيداً في الآثار التي سيخلفها هجومهم، وأشار جيمس كارترايت إلى ذلك بقوله: «يميل الإسرائيليون إلى اتخاذ القرارات المباشرة، ولا ينظرون في العواقب على المدى الطويل». لكن الإسرائيليين استمروا في التفكير بعمل عسكري ضد إيران بالطريقة نفسها التي شنّوا بها هجمات على خصوم لدودين آخرين مثل حماس أو حزب الله: عملية قص الأظافر. أي إذا نجحت هذه الهجمات بتأخير الخصم سنةً أو نحو ذلك، فسيكون الأمر جيداً بما فيه الكفاية.

بعد أن تمّ استبدال الأدميرال مايكل فالون جرّاء تصريحاته العدوانية التي نشرتها إحدى المجلات في العام 2008، توالى على القيادة المركزية الأميركية سلسلة من القادة الكبار من بينهم الرئيس المستقبلي لهيئة الأركان المشتركة، الجنرال مارتن ديمبسي؛ ومهندس الاستراتيجية الناجحة التي غيّرت العراق الجنرال ديفيد بترايوس؛ ونائبه جنرال البحرية الذكي والمتواضع جون آلن الذي كان على رأس جهود التخطيط في الشأن الإيراني قبل توليه منصب قائد القوات في أفغانستان؛ والمحارب الجنرال جيمس ماتيس المتشبّث بفكرة إطلاق النار على إيران.

استرعى تعيين ماتيس انتباه القادة العسكريين الإيرانيين. يمكن القول إنه أفضل مقاتل في مشاة البحرية وقد ترقّى بسرعة، وكان على رأس أول كتيبة اخترقت الدفاعات العراقية في الكويت في العام 1991، وبعد عقد من الزمان قاد الفرقة العسكرية البحرية التي اجتاحت بغداد في العام 2003. وعلى الرغم من أنه لم يكن سياسياً محترفاً إلا أنه صادق وواضح وضوح الشعر الشائب الذي يغطّي رأسه. إنه رجل عرف الحرب، وهو باحث حقيقي في التاريخ العسكري، ولديه مكتبة تتضمن أعمالاً عسكرية مشهورة إلى جانب الآلاف من الكتب، وكثيراً ما كان يعتمد في إرشاداته لقادته على الحكايات التاريخية لتساعده في توضيح نقاطه. في إحدى جلساته مع مرؤوسيه أمضى ماتيس خمس دقائق في قراءة الرسائل المتبادلة بين الجنرال دوغلاس ماكآرثر والأدميرال تشيستر نيميتز خلال الحرب العالمية الثانية. هذان الاثنان اشتهرا بالصراع على السيطرة على الحرب في المحيط الهادئ، ولكن في هذا الحوار كان ماكآرثر آرثر يطلب المساعدة لإلهاء اليابانيين عن مواقع إنزاله في الفلبين. أجاب نيميتز بقائمة طويلة من الخطوات التي ينبغي اتخاذها في الوقت المناسب لمساعدة قوات منافسه اللدود وضمان نجاح عمليات الإنزال. على الرغم من أن دروس ماتيس التاريخية استعصت على عقل بعض الضباط الأقل ثقافةً، إلا أن صدى الدرس صدح في رؤوس الغالبية منهم: يريدهم أن يكونوا مبادرين ويعملوا على إيجاد سبل لدعم بعضهم بعضاً خلال الحرب.

وافق وزير الدفاع غيتس على خيار ماتيس في أن يكون بوب هارفارد نائبه، فالرجل يعرف الكثير عن إيران. خدم اللواء البحري بوب هارفارد - بعد اصطدامه مع زوارق سريعة للحرس الثوري في نيسان/ أبريل من العام 2003 - في مجلس الأمن القومي كنائب قائد للوحدة الأولى للعمليات الخاصة في فورت براغ، وأدار برنامج المعتقلين في أفغانستان، وهو يجيد اللغة الفارسية ويفهم الفرس بحيث لا يمكن لأي ضابط كبير آخر أن يضاهيه في ذلك، وقد فاجأ الخبراء الإيرانيين مراراً وتكراراً في المؤتمرات الأكاديمية عندما كان يتحدث إليهم باللغة الفارسية بطلاقة.

اعتبر ماتيس إيران واحدةً من أهم تحديات قيادته. قال أحد المسؤولين في كلمة ألقاها أمام المجتمعين في مركز المحافظين، معهد دراسة الحرب، إنّ في ذهن القيادة المركزية الأميركية ثلاث دول هي: «إيران، وإيران، وإيران». بعد أن أوقفت الولايات المتحدة حروبها في أفغانستان والعراق، أرادت الحفاظ على أربعين ألف موظف في الخدمة يتمركزون في الخليج لاحتواء إيران بصورة خاصة[1277]. ونظراً لتوقف الحروب البرية فقد أرادت القيادة المركزية الأميركية العودة إلى حالة أقرب إلى ما كان عليه الوضع خلال حرب الناقلات بحيث تحمي البحرية الأميركية المصالح الأميركية[1278]. بدأ ماتيس بقراءة التاريخ الفارسي وبذل جهداً في فهم الشعر الفارسي كي يفهم بصورة أفضل خصمه المحتمل. لم يكن ماتيس من دعاة الحرب، وفضّل إجراء محادثات مع الجنرالات الإيرانيين بدلاً من قتلهم. «لدي القوة لسحق الجيش الإيراني إن احتجت إلى ذلك، لكنني شهدت الكثير من الحروب ولا أريد في الواقع قتل الشباب الإيرانيين»، هذا ما قاله صراحةً رداً على سؤال طُرح عليه خلال مؤتمر في فندق «ماي فلاور» في واشنطن في ربيع العام 2011.

وصلت العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران في العام 2012 إلى الحضيض مرةً أخرى. حينذاك، صمّمت الولايات المتحدة على فرض مزيد من العقوبات لإخضاع إيران لإرادة واشنطن من خلال مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. صعّد أوباما، بعد أن أخفقت محاولاته الدبلوماسية، الضغط مع وزارة الخزانة بطرق جديدة مبتكرة بغية إغلاق الثغرات في العقوبات وخنق التجارة الإيرانية، وقبل حلول العام الجديد بمدة قصيرة وقّع قراراً يقضي بفرض عقوبات جديدة صارمة على إيران، وقد جاءت العقوبات على شكل بند في موازنة الدفاع وأقرّها الكونغرس بالإجماع تقريباً، وكانت تستهدف للمرة الأولى البنك المركزي الإيراني، وهو الوسيلة التي يمكن للبلاد اعتمادها لاستلام مدفوعات صادراتها النفطية. ولحقت بالولايات المتحدة سبعٌ وعشرون دولة من دول الاتحاد الأوروبي وأعلنت أنها تهدف إلى التخلص التدريجي من جميع واردات النفط من إيران. كانت أوروبا المستورد الرئيس الثاني بعد الصين للخام الإيراني، فهي تستورد 450,000 برميل من إنتاج إيران الذي يُقدّر بـ 2,6 مليون برميل يومياً[1279]. ردت إيران بطريقة عدوانية، حيث حذر قائد البحرية الإيرانية الأدميرال حبيب الله سياري من أن بلاده يمكنها بسهولة إغلاق مضيق هرمز الذي يمرّ عبره سدس النفط المتدفق إلى العالم. ينحدر سياري من صفوف قوات العمليات الخاصة في البحرية الإيرانية، وهو محارب عتيق وعنيف وشارك في الحرب العراقية الإيرانية، وهو أقرب إلى الحرس الثوري من خدمته البحرية. في كانون الأول/ديسمبر من العام 2011 وكانون الثاني/ يناير من العام 2012، أجرت القوات البحرية الإيرانية والحرس الثوري مناورات عسكرية عامة على نطاق واسع حول مضيق هرمز لإثبات تصميم إيران، وحذرت السلطات الإيرانية البحرية الأميركية من إرسال حاملة طائرات أخرى إلى الخليج، وقال قائد الجيش الإيراني الجنرال عطاء الله صالحي: «إن الجمهورية الإسلامية الإيرانية لن تكرّر تحذيرها».

اتّخذ الرئيس أوباما ومستشاره للأمن القومي توم دونيلون قراراً بعدم التراجع أمام هذا التهديد السافر ضد الاقتصاد العالمي، ودعا الرئيس ماتيس للحضور إلى واشنطن يوم الأحد لقضاء

يومين وعقد اجتماع مطول في البيت الأبيض، وصرح الرئيس علناً بأنه سيستخدم القوة لإبقاء مضيق هرمز مفتوحاً. ثبت في النهاية أن تهديد إيران أجوف مع استمرار عبور حاملات الطائرات الأميركية دون وقوع حوادث.

تفاقمت أزمة البرنامج النووي الإيراني إلى درجة لا تحمد عقباها. ففي شباط/فبراير من العام 2012 أصدرت الوكالة الدولية للطاقة الذرية تقريراً لاذعاً يصف إيران بالتشويش على برنامجها النووي، حيث منعت المفتشين من الوصول إلى العلماء وإلى منشأة بارشين المحاطة بالسرِّية لإنتاج الأسلحة في إيران. وواصلت إسرائيل قرع طبول الحرب. في الشهر نفسه توجه كلٌّ من رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال مارتن ديمبسي وفريق يترأسه مستشار الأمن القومي توم دونيلون بصورة متعاقبة إلى تل أبيب في محاولة للتحدث إلى إسرائيل كي تمتنع عن القيام بأي عمل عسكري مباشر، حيث اجتمعوا بمسؤولين إسرائيليين متوجّسين، وبدلاً من الحديث بإسهاب عن النقاط المعتادة بشأن إيران وجد الأميركيون نظراءهم الإسرائيليين أكثر جديةً وحذراً. عاد فريق دونيلون إلى واشنطن وهو على قناعة بأن إسرائيل تنوي ضرب المنشآت النووية الإيرانية عاجلاً وليس آجلاً.

في 5 آذار/مارس من العام 2012، اجتمع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو بالرئيس أوباما في المكتب البيضوي[1280]. كانت العلاقة بين الرجلين متوترة بالفعل، ولم ينجح الاجتماع في التخفيف من الخلافات بينهما، لاسيما بشأن طموحات إيران النووية. شدّد أوباما على عدم وجود حاجة فورية لمهاجمة منشآت إيران لأن جميع المعلومات الاستخباراتية تشير في الواقع إلى أن المرشد الأعلى للثورة لم يقرر إنتاج سلاح نووي. أصرّ الإسرائيلي العنيد على التحرك بسرعة قائلاً إنه لا يستطيع أن ينتظر حتى تدخل إيران «مرحلة الحصانة» وأنّ عليهم توجيه ضربة الآن من أجل منع إيران من امتلاك القدرة على صنع قنابل نووية. حاول أوباما التخفيف من مخاوف إسرائيل، وقال قبل الاجتماع: «سياستي هنا لا تقوم على الاحتواء. سياستي هي منع حصول إيران على أسلحة نووية»، وأضاف: «عندما أقول إن كل الخيارات مطروحة على الطاولة فأنا أعني ذلك»[1281]. اتفق الجانبان على تشديد العقوبات على المصرف المركزي الإيراني، بهدف الحدّ من صادرات إيران النفطية.

زادت هذه العزلة الدولية والضغوط الاقتصادية الجديدة من خوف إيران ومن اعتقادها بأن الهدف الحقيقي وراء تصرفات الولايات المتحدة هو الإطاحة بالجمهورية الإسلامية. ظلّ العداء للولايات المتحدة ركيزةً سياسات الحكومة الإيرانية، وكان واضحاً أن لن يحدث أي تغيير حقيقي في هذا الصدد ما دام الجيل الثوري في السلطة. لم تتغير مواقف هؤلاء الذين خرجوا شباباً إلى الشوارع وأسقطوا الشاه، وخاضوا سنوات من الحرب الدامية مع الحكومة العراقية المدعومة من واشنطن، مع أنهم تقدموا في السنّ ووخط الشيب لحاهم. كما كتب المؤرخ العربي العظيم ابن خلدون، عن صعود وانهيار الإمبراطوريات العظمى وشبّهها بدورات متكررة في التاريخ، ظلّ المرشد الأعلى وبطانته على قناعة بأن الغرب آخذٌ في الانهيار وأنّ إيران هي الإمبراطورية المقبلة الصاعدة. فالولايات المتحدة وعميلتها في المنطقة إسرائيل في طريقهما إلى الانهيار مثلما حدث للسوفيت والشيوعية من قبلهما. وقد أظهر الانسحاب الأميركي من العراق وأفغانستان أن الولاِيات المتحدة

في تراجع في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن القادة الإيرانيين الأكثر واقعيةً، مثل جواد ظريف، يدركون أن الواقع مختلف تماماً، وأنّ إيران لا تستطيع منافسة الولايات المتحدة، إلا أن تداعيات انتخابات عام 2009 همّشت العديد من هذه الأصوات العاقلة.

مع أن ثورة عام 1979 قد غيّرت نظام الحكم في إيران، إلا أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية ظلت متمسكةً بالهدف الإيراني العتيق وهو الاعتراف بها كقوة إقليمية. قال هادي نيسانجاني الذي خدم في حكومة الرئيس رفسنجاني: «يجب أن نكون أعظم قوة في المنطقة وأن نلعب دوراً وفقاً لذلك». وفي حين كانت الحكومة الجديدة تكره أن تستخدم هذه التعابير إلا أن هنالك ما هو أعمق من الدوافع الدينية الشيعية، ثمة شعور متأصل في الحق التاريخي الفارسي. فالإيرانيون كأمة يسبقون الأمم الأخرى في المنطقة بالرجوع إلى نسبهم الذي يعود إلى الإمبراطورية الفارسية التي أسّسها كورش العظيم، ويرون أنّ من حقهم الطبيعي التربّع على رأس طاولة الشرق الأوسط؛ والولايات المتحدة تقف في طريقهم. فضلاً عن هذه السابقة التاريخية، أضافت الثورة الإيرانية مهمةً جديدة هي الدفاع عن الشيعة المضطهدين في جميع أنحاء الشرق الأوسط، وبالتالي الدفاع عن جميع المسلمين المقاومين للغرب وإسرائيل. انطلقت إيران بهذه الفكرة من لبنان مروراً بالعراق الذي سهّل الغزو الأميركي دخولها إليه، وصولاً إلى اليمن والبحرين، وقدّمت دفقاً متواصلاً من الدعم العسكري والاقتصادي لهذه الحركات. وهذا يضع إيران صراحةً على خلاف مع كلٍّ من إسرائيل والحكومات السنيّة التي تدعمها الولايات المتحدة.

إن مشكلة إيران ثابتة دائماً في السياسة الخارجية الأميركية. كانت لكل إدارة أميركية تجربتها مع إيران على مدى عقود، فإيران بلد هام جداً على الصعيد الاستراتيجي بحيث لا يمكن تجاهله. وقد حاولت الإدارات المختلفة جذبها وإعادتها إلى المعسكر الغربي، أو الحديث عن استبدال بالجمهورية الإسلامية أخرى تروق أكثر لواشنطن، لكن النتائج جاءت بائسة دوماً. في التحليل النهائي، ترفض إيران ببساطة أيّ رؤية لشرق أوسط تفرضه إرادة الولايات المتحدة. وتحضر هنا عبارة شهيرة كتبها آية الله الخميني تلخّص الأمر: «سوف نقاوم أميركا حتى الرمق الأخير». للأسف، ساعدت واشنطن على إدامة العداء، واستخفت الولايات المتحدة بالمظالم والمخاوف الأمنية الإيرانية. إن منح ميدالية لقائد سفينة قتل عن غير قصد 290 مدنياً، ومن ثم التساؤل بدهشة لماذا تكبت إيران في نفسها الاستياء والغيظ ما هو إلا المثال الأكثر وضوحاً عن البلادة الأميركية. في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة تدعم العراق، هدّد تدخلها غير المدروس في الحرب الأهلية اللبنانية ضد الشيعة الحكومة الإيرانية الجديدة، فردّت طهران بتفجير مبنى كامل لمشاة البحرية واحتجاز رهائن أميركيين، الأمر الذي أثّر في التفكير الأميركي لأسباب مفهومة. لطالما سلكت واشنطن الطريق الخطأ مع إيران. فعندما ظهرت انفراجات دبلوماسية رفض المتشددون الأميركيون التحدث إلى إيران ودعوا إلى إسقاط الجمهورية الإسلامية، وعندما قتلت إيران جنوداً من البحرية الأميركية في لبنان والعراق أظهرت الإدارات المتعاقبة جبناً على الرغم من دعوة المتشددين إلى الانتقام.

كلما لمع وميض التفاؤل تخنقه رائحة البارود والحديث عن الحرب. بلغت آفاق الصراع في العام 2012 ذروتها مرةً أخرى. دعا مراقبو إيران البراغماتيون المخضرمون إلى فرض عقوبات أكثر صرامةً لمعاقبةِ التعنّت الإيراني بشأن البرنامج النووي. لكن معاقبة إيران على تعنتها

يزيد القادة الإيرانيين صلابةً ويبرّر في عقولهم الحاجة إلى برنامج نووي، سواء لزيادة الاكتفاء الذاتي أو لردع العدوان الغربي. تحولت مناقشات الإدارة الأميركية في غرفة العمليات في البيت الأبيض نحو دراسة إمكانية الضغط لفرض عقوبات على المصرف المركزي الإيراني، الوسيلة التي تعتمدها إيران للحصول على عائدات صادراتها النفطية، ما من شأنه أن يكون عملاً متطرفاً وبمثابة حظر على النفط الإيراني. قال أحد ممثلي rإدارة أوباما الرفيعي المستوى: «عملياً، يمكن أن تعتبر إيران هذا عملاً حربياً».

للأسف، لا يرغب حتى الآن أي طرف من الطرفين في العمل بغية مدّ الجسور بينهما وحلّ خلافاتهما والتغلب عليها. فانعدام الثقة يسود هذه العلاقة، وثلاثة عقود من حرب الشفق حجّرت كلا الجانبين وزادتهما عنتاً. عندما حاول شخص من داخل الطبقة الحاكمة المنقسمة في طهران أن يمد يده إلى الرئيس الأميركي لم تقبل الولايات المتحدة بأقل من الاستسلام، وعندما أبدى الرئيس أوباما انفتاحاً مخلصاً صادراً من القلب نظر إليه القادة الإيرانيون المتعجرفون على أنه إما مُحرّض أو أنها لفتة من زعيم ضعيف، فرفضته إيران بازدراء. اتّجه أوباما مرةً أخرى إلى العقوبات والقيادة المركزية الأميركية؛ واتجهت إيران بدورها مرةً أخرى إلى سرير الإرهاب المريح والترويج للحرب. وقريباً لن تعود هناك حرب شفق؛ إذ غربت الشمس وبدأ الضوء يخفت، وقد يحلّ الليل بعد انتظارٍ طويل.

شكر وتقدير

يقع عبء تأليف أيّ كتاب، في كثيرٍ من الأحيان، على أسرة المؤلف. تحمّلت زوجتي آييس وابني الصغير ماثيو بصبر الأيام العديدة التي قضيتها مختلياً بنفسي في مكتبي أو بعيداً عنهم أجري البحوث. قدّم والداي وجهات نظرهما الشخصية، فضلاً عن تشجيعهما المتواصل بحيث كان هذا الكتاب يتغير مع كل صياغة جديدة.

بلغ عدد الأشخاص الذين قابلتهم في آخر إحصاء أكثر من أربعمئة شخص في الولايات المتحدة وخارجها. دعوني إلى منازلهم وأفسحوا لي المجال ضمن جداول أعمالهم المزدحمة ليشاركوني ذكرياتهم. جلسوا لساعات عديدة يجيبون عن أسئلتي ويحتملون العديد من الأسئلة التي تتطلب تفاصيل ومقابلات. أسفي الرئيس هو أن الكثير من قصصهم الرائعة لم يتّسع لها النص النهائي. العديد من الأشخاص يستحقون اهتماماً خاصاً. قدَّم كلٌّ من الراحلين كاسبار واينبرغر ووليام أودوم رؤيةً فريدة، وأشكر عائلة وزير الدفاع السابق التي وافقت على طلبي لمراجعة أوراقه. وجد ريتشارد أرميتاج دائماً الوقت للإجابة عن أسئلتي. حملتني ذاكرة الأدميرال جيمس ليونس وأوراقه الشخصية على طول مسارات عديدة جديدة ومهمة لكشف هذا التاريخ. احتمل الضباط المتقاعدون توني لِسّ وهارولد بيرنسن وجون بويندكستر بصدر رحب طلبي المتكرر لإجراء مقابلات معهم. أوضحت المقابلات التي أجريتها مع بيتر ويكول ومارك توماس تفاصيل بعض الاشتباكات العسكرية الرئيسة ضد إيران خلال أواخر الثمانينيات. وقدّم لي والدي، جورج كريست، أوراقه ودفاتر ملاحظاته اليومية. كما سهّلت الجمهورية الإسلامية الإيرانية إجراء مقابلات مع مسؤولين. ساعد آخرون في تذليل صعوبات رئيسة وهم: جيمس باران، أنطوني زيني، جون أبي زيد، هوشنك أمير أحمدي، نزهاتون رياحي، جورج كاف، جاك ديفن، جوزيف ستراسر، ريتشارد وليامز، تيم واينر، مارك بيري، بي إكس كيلي، روبرت هارفارد، وكيفن كوسغريف. قدّم آخرون مساعدة لا تقدّر بثمن لكن من الضروري عدم الكشف عن هويتهم، وأنا ممتن للغاية لوقتهم ولمعلوماتهم.

الشعب الأميركي محظوظ لأنه يملك أرشيفاً عسكرياً يمكن الوصول إليه بأسهل طريقة في العالم. ساعدني الموظفون في مركز البحرية التاريخي، ووكالة البحوث التاريخية في سلاح الجو، وتراث الجيش وقيادة التعليم، والقيادة المركزية الأميركية، وقيادة العمليات الخاصة الأميركية، في

الحصول على المعلومات، وتمّ رفع السرية عن العديد من السجلات في المحفوظات الميدانية البحرية، وسمحوا لي بالاستماع إلى مئات الروايات الشفوية الموثقة التي قدمت ذكريات مباشرة لما بعد الأحداث التي تم وصفها. فتح الموظفون في المركز التاريخي لسلاح البحرية القديم في واشنطن مجموعاتهم الواسعة وعرضوا العديد من الوثائق التي رُفعت عنها السرية فضلاً عن المقابلات. كان الموظفون في كلٍ من المحفوظات الوطنية ومكتبة الكونغرس كرماء على الدوام. أنا مدين أيضاً للباحثين في مركز وودرو ويلسون لدراسات الحرب الباردة وأرشيف الأمن القومي إذ زوّدوني بالكثير من الوثائق عن حكومة الولايات المتحدة.

كما أنني ممتن لمعهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، وخصوصاً مايكل آيزنشتات ومايكل نايتس وباتريك كلاوسون الذين سمحوا لي باستخدام مرافقهم وتصفُّح دفاتر العناوين القديمة فيها لمدة ستة أشهر بينما كنت أكتب الفصلين المتعلقين بكلينتون وبوش. لقد ساعدتني زمالتهم ووجهات نظرهم بلا حدود في كشف هذا التاريخ بدقة.

كما أنني مدين لأشخاص عديدين ساعدوني على تأليف هذا الكتاب. مايكل غوردون، مراسل مهم، شجعني على صياغة الكتاب وساعد على فتح الأبواب؛ ووكيل أعمالي أندرو ويلي الذي قدّر أهمية الموضوع واستخدم مواهبه الكبيرة في خدمة المشروع منذ البداية؛ والدكتور جون شورتل الذي سمح لي أن أغيب طويلاً عن العمل لإكمال الكتاب؛ وساعد مستشار أطروحتي، بيتر غاريستون، في المراحل المبكرة كي يُنجز هذا المجلد؛ كما ساعدت سوزان كارول بالتنضيد والتدقيق اللغوي، وساعد جون بارتين، وهو مؤرخ تقاعد مؤخراً من قيادة العمليات الخاصة، هذا المشروع بشكل كبير في مراحل مختلفة، فلديه ثروة من المعرفة غير مسبوقة عن تاريخ قوات العمليات الخاصة.

لا يمكنني أن أحصل على فريق يدعمني أفضل من فريق المهنيين في دار نشر Penguin. قدّم محرر الكتاب سكوت مويرز نصائح مفيدة شذّبت المخطوط ووسَّعت نطاقه ليشمل ولادة الصراع بين الولايات المتحدة وإيران. عملت إميلي غراف بلا كلل للحصول على خرائط وصور، وأدخلت تغييرات اللحظة الأخيرة مبتسمةً دوماً. أنا مدين أيضاً لمحرر الإنتاج نوارين لوكاس ومحرر الطباعة نيكولاس لوفيكيو، فضلاً عن مسؤولة الدعاية، ليز كالاماري، التي وضعت استراتيجية عظيمة لتسويق الكتاب.

استغرقت كتابة هذا الكتاب عدة سنوات. تحسّنت القصة كثيراً عبر كل تغيير ودليل جديد، فإن عالم التأليف في مجال التاريخ المعاصر لا يمنحك رؤية واضحة دائماً. حاولت أن أكون دقيقاً وحيادياً قدر الإمكان، ووضعت جانباً آرائي الخاصة عندما تحدثت عن هذا التاريخ المهم. أنا المسؤول عن أي أخطاء وردت، ولا تمثل استنتاجاتي بأي حال وجهات نظر حكومة الولايات المتحدة.

بدأت إجراء الأبحاث من أجل هذا الكتاب منذ ما يقرب العشرين عاماً كجزء من أطروحة في عهد إدارة ريغان. وقد واصلت البحث بمرور الوقت وقمت بإجراء المزيد من المقابلات مع المشاركين في الأحداث، وقراءة المزيد من المواد التي رُفعت عنها السرية وباتت متاحة للعموم. أي

شخص قام بكتابة التاريخ المعاصر يدرك مدى صعوبة العثور على المصادر الرئيسة للوثائق. قبل العام 1989، كانت تتم فهرسة السجلات ورقيّاً، وغالباً كان يتم حفظها في أرشيفات مختلفة؛ لكن منذ بدأت الحكومة الأميركية باستعمال المذكرات والرسائل الإلكترونية أصبحت الأرشفة تتم عشوائيّاً. لا يزال الكثير من هذه السجلات قابعاً في حواسيب الوكالة الأصل ولم تتم أرشفتها بشكل منهجي. والمحذوف منها يفوق ما حُوفظ عليه. لدي حزمة من وثائق القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) التي رفعت عنها السرية في العام 1993 والتي، ببساطة، لم تعد موجودة إلا في ملفاتي.

لقد حصلت على العديد من الوثائق المذكورة من خلال قانون حق الحصول على المعلومات وطلبات «المراجعة الإلزامية». وقد قدمت بعض هذه الطلبات، كما استفدت من جهود باحثين آخرين. قام كلٌّ من دونالد رامسفيلد ودوغ فيث برفع السرية عن العديد من الوثائق المتعلقة بإدارة جورج دبليو بوش. الوثائق المنتقاة والتاريخ الشفوي الموجودين في مركز البحرية التاريخي ومركز مشاة البحرية التاريخي، الذي أُغلق، في باحة البحرية في واشنطن، رفعت عنها السرية بناءً على طلبي بعد المراجعة.

لحسن الحظ، لا يزال كثير من الناس يحتفظون بمفكّراتهم، ومجموعاتهم الخاصة من السجلات الرئيسية. أثناء عملية البحث من أجل الكتاب أجريت مقابلات مع المئات من المشاركين في الأحداث، الكثير منهم تقلّد مناصب حكومية عليا. وشمل ذلك محادثات «ليست للنشر» مع مسؤولين حكوميين وضباط استخبارات وعناصر من القوات الخاصة. التقيت إيرانيين منفيين ومنشقين عن الحرس الثوري وحتى أفراد عائلة إيرانيٍّ أُعدم بتهمة التجسس.

قدم عددٌ منهم مستنداتهم ومذكراتهم لي لدراستها. للأسف، حالت القيود على حجم المخطوطة دون إدراج العديد من القصص، الرائعة في معظمها، في المخطوطة النهائية. لكنها، مع ذلك، أتاحت للمؤلف أن يغوص أعمق في ثلاثين عاماً من تاريخ الصراع الأميركي الإيراني. كما أتاح لي آخرون إمكانية وصول غير محدودة إلى المستندات الخاصة بهم. منهم: الفريق وليام أودوم، الأدميرال جيمس ليون، الجنرال جورج كريست، عائلة وزير الدفاع كاسبار واينبرغر، والنقيب البحري بيتر ويكول.

قدم مساعد رئيس هيئة الأركان المشتركة، الأدميرال وليام كرو، مذكراته الخاصة، التي سجّل فيها الاجتماعات اليومية والأحاديث التي دارت بين أعلى المسؤولين في الحكومة الأميركية.

ثبت أن المصادر الإيرانية هي الأكثر إشكالية، لكني تمكنت من إجراء مقابلات مع عدد من الدبلوماسيين الإيرانيين السابقين والحاليين ومع ضباط في الجيش، بالإضافة إلى قراءة عدد من وثائق الاستخبارات التي رُفعت عنها السرية. قام عدد من ضباط الاستخبارات، العسكريين والمدنيين، السابقين بمشاركتي رؤيتهم حول سلوك النظام الإيراني.

قدمت وسائل الإعلام الإيرانية ثروة من المعلومات في كلّ القضايا السياسية والعسكرية. كانت خدمة بث المعلومات الخارجية لا تقدّر بثمن في إيجاد مصادر للأخبار الإيرانية القديمة. هناك العديد من الأرشيفات المهمة التي تحتوي على قدر هائل من السجلات المتعلقة بالصراع الأميركي

الإيراني. مكتبات كارتر وريغان وجورج دبليو بوش وكلينتون الرئاسية تحتوي على العديد من السجلات الأكثر أهمية، على الرغم من أن العديد من الوثائق لا تزال سرية.

تحتفظ عدة أرشيفات بسجلات للأنشطة العسكرية ضد إيران، ومن هذه الأرشيفات: مكتب التاريخ التابع لسلاح الجو في واشنطن العاصمة؛ السجلات والتاريخ الشفوي في جامعة سلاح الجو، قاعدة ماكسويل الجوية، مونتغمري، ألاباما؛ أرشيف سلاح مشاة البحرية الأميركية، المستندات الشخصية، والتاريخ الشفوي في كوانتيكو بولاية فرجينيا؛ مجموعة واسعة من الوثائق والتاريخ الشفوي وأرشيف العمليات، تواريخ السفن، وأقسام التاريخ الجوي لدى مقر القيادة المركزية لتاريخ وتراث البحرية، واشنطن العاصمة؛ التاريخ الشفوي والوثائق الشخصية لدى معهد التاريخ العسكري للجيش الأميركي، كارلايل باراكس، بنسلفانيا.

تشتمل هذه الأخير على مجموعة تعود إلى جنرالين من قادة القيادة المركزية الأميركية سنتكوم هما: بينفورد بيي وروبرت كينغستون. كما أذن لي مؤرخو كلٍّ من القيادة المركزية وقيادة العمليات الخاصة للولايات المتحدة بالوصول إلى بعض من سجلاتهم.

العديد من المؤرخين في مكتب التاريخ لهيئة الأركان المشتركة، كما طاقم العمل، شاركوني وجهات نظرهم حول السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط. تحتوي مكتبة الكونغرس على مجموعات مهمة من الوثائق بما فيها تلك المتعلقة بألكسندر هيغ، كاسبار واينبرغر، ووليام أودوم.

ملاحظات

بدأت، منذ ما يقرب من عشرين عاماً، إجراء بحوث متعدّدة في ما تضمَّنه هذا الكتاب، وهو جزء من أطروحة كشفت اللثام عن أسرار أحاطت بعهد إدارة الرئيس الأميركي دونالد ريغان.

وقد واصلت البحث المضني في تفاصيل كانت إلى عهد قريب طيَّ الكتمان؛ فقرأت الكثير من المواد التي رفعت عنها السرية، وأجريت المزيد من المقابلات مع المشاركين في الأحداث في تلك الفترة، إلّا أن من أراد كتابة التاريخ المعاصر يواجه صعوبات جمّة في الحصول على المصادر الرئيسة للوثائق؛ فقبل العام 1989 كانت فهرسة السجلات تتم ورقيّاً، ويتمّ حفظ معظمها في أرشيفات مختلفة؛ لكن، ومنذ أن بدأت الحكومة الأميركية باستعمال المذكرات والرسائل الالكترونية، أصبحت الأرشفة تتم عشوائياً، وبقي كثير من السجلات قابعاً في حواسيب الوكالة الأصل، ولم تتمّ أرشفته بشكل منهجي؛ بل إنّ المحذوف منه فاق ما حُوفظ عليه؛ ومع ذلك، فلديّ حزمة مهمة من وثائق القيادة الأميركية (سنتكوم) التي رفعت عنها السريَّة في العام 1993، وهي بكل بساطة وثائق لم تعد موجودة إلاّ في ملفاتي.

وما ساعدني على التزوّد بكثير من هذه الوثائق هو «قانون حق الحصول على المعلومات» وطلبات «المراجعة الإلزامية» الذي سعى كل من دونالد رامسفيلد ودوغ فيث إلى إصداره، وقضى برفع السرية عن كثير من الوثائق المتعلقة بإدارة جورج دبليو بوش؛ وقد نجحت بعد طلبات متعدّدة في الحصول على هذه الوثائق الموجودة في مركز البحرية التاريخي ومركز مشاة البحرية التاريخي في باحة البحرية بواشنطن، واستفدت كثيراً من جهود باحثين آخرين سبقوني في هذا المجال.

وقد استفدت كثيراً من الناس الذين يحتفظون بمذكراتهم ومجموعاتهم الخاصة من السجلات الرئيسة، فأجريت مقابلات مع مئات من المشاركين في تلك الأحداث، وكثير منهم تقلد مناصب حكومية عليا؛ وقد تمحورت هذه المقابلات حول محادثات «ليست للنشر» مع مسؤولين حكوميين وضباط استخبارات وعناصر من القوات الخاصة. وتعزَّزت هذه المقابلات بلقاء إيرانيين منفيين ومنشقين عن الحرس الثوري، ومن بينهم أفراد عائلة إيراني أعدم بتهمة التجسس.

وقد قدم لي عددٌ منهم مستنداتهم ومذكراتهم لدراستها، إلّا أنَّ القيود على حجم المخطوطة حالت دون إدراج الكثير من القصص، الرائعة في معظمها، في المخطوطة النهائية. ومع ذلك، فقد أتاحت هذه المذكرات والمستندات للمؤلف أن يغوص أعمق في ثلاثين عاماً من تاريخ الصراع الأميركي - الإيراني. وقد أتاح لي آخرون إمكانية الوصول إلى المستندات الخاصة بهم من دون أدنى تحفّظ ومن هؤلاء: الفريق وليام أودوم، الأدميرال جيمس ليونس، الجنرال جورج كريست، عائلة وزير الدفاع كاسبار واينبرغر، والنقيب البحري بيتر ويكول.

بالإضافة إلى هؤلاء، فقد قدم لي مساعد رئيس هيئة الأركان المشتركة، الأدميرال وليام كرو، مذكراته الخاصة، والتي سجّل فيها الاجتماعات اليومية والأحاديث التي دارت بين أعلى المسؤولين في الحكومة الأميركية.

وقد ثبت أن المصادر الإيرانية هي الأكثر إشكالية، لكني تمكنت من إجراء مقابلات مع عدد من الدبلوماسيين الإيرانيين السابقين والحاليين ومع ضباط في الجيش، بالإضافة إلى قراءة عدد من وثائق الاستخبارات التي رُفعت عنها السرية. وقد قام عدد من ضباط الاستخبارات، العسكريين والمدنيين، السابقين بمشاركتي في رؤيتهم حول سلوك النظام الإيراني.

وقد قدمت وسائل الإعلام الإيرانية ثروة من المعلومات في كلّ القضايا السياسية والعسكرية، في وقت كانت فيه خدمة بث المعلومات الخارجية لا تقدّر بثمن في إيجاد مصادر للأخبار الإيرانية القديمة. وهناك الكثير من الأرشيفات المهمة التي تحتوي على قدر هائل من السجلات المتعلقة بالصراع الأميركي الإيراني: مكتبات كارتر وريغان وجورج دبليو بوش وكلينتون الرئاسية تحتوي على الكثير من السجلات الأكثر أهمية، على الرغم من أن عدداً كبيراً من الوثائق لا يزال سريّاً.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ عدة أرشيفات تحتفظ بسجلات للأنشطة العسكرية ضد إيران. ومن هذه الأرشيفات: مكتب الدراسات التاريخية التابع لسلاح الجو الأميركي في واشنطن العاصمة؛ السجلات والتاريخ الشفوي في الجامعة الجوية، قاعدة ماكسويل الجوية، مونتغمري، ألاباما؛ أرشيف سلاح مشاة البحرية الأميركية، المستندات الشخصية، والتاريخ الشفوي في كوانتيكو بولاية فرجينيا؛ مجموعة واسعة من وثائق ومرويات أرشيف العمليات وسجلات السفن في مركز البحرية والتراث التاريخي، واشنطن العاصمة؛ والتاريخ الشفوي والوثائق المحفوظة لدى معهد التاريخ العسكري للجيش الأميركي، ثكنات كارلايل، بنسلفانيا.

وتشتمل هذه الأخيرة على مجموعة تعود إلى جنرالين من قادة القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) هما: بينفورد بيي وروبرت كينغستون. وقد أذن لي مؤرخو كلٍّ من القيادة المركزية وقيادة العمليات الخاصة للولايات المتحدة بالوصول إلى بعض من سجلاتهم.

وقد شاركني عدد كبير من مؤرخي هيئة الأركان المشتركة في وجهات نظرهم حول السياسة الخارجية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط؛ غير أنَّ أهمّ الوثائق السريَّة هي التي تحتويها مكتبة الكونغرس، بما فيها تلك المتعلقة بألكسندر هيغ وكاسبار واينبرغر ووليام أودوم.



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة السّياسة

روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة – الجزء الأول – الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة – الجزء الثاني – الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة – الجزء الثالث – إلى البرية
- زمن المحارب
- ويلات وطن

د. عصام نعمان

- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر – عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- العرب على مفترق
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟
- هل يتغيّر العرب؟

د. محمد حسنين هيكل

- آفاق الثمانينات
- بين الصحافة والسياسة
- حديث المبادرة
- الحل والحرب!
- خريف الغضب
- زيارة جديدة للتاريخ
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- عند مفترق الطرق
- قصّة السويس
- لمصر.. لا لعبد الناصر
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدّعي الاشتراكي

د. سليم الحص

- تعالَوا إلى كلمة سَواء
- سلاح الموقف
- صوتٌ بِلا صدى
- عُصارة العمر
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- قِطاف من التجارب
- للحقيقة والتاريخ
- ما قَلّ ودَلّ
- محطّات وطنيّة وقوميّة
- نحن... والطائفيّة
- ومضات في رحاب الأمة

د. وليد رضوان

- تركيا بين العلمانيّة والإسلام في القرن العشرين
- العلاقات العربية التركية
- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا

جوزيف أبو خليل

- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان وسوريا: مشقّة الأخوّة
- لبنان... لماذا؟

بول فندلي

- أميركا في خطر
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- من يجرؤ على الكلام

كريم بقرادوني

- السلام المفقود
- صدمة وصمود
- لعنة وطن

شكري نصرالله

- السنوات الطيبة
- مذكرات قبل أوانها

شادي خليل أبو عيسى

- رؤساء الجمهورية اللبنانية
- قيودٌ تتمزّق
- الولايات غير المتحدة اللبنانية

إعداد مريم البسّام

- حقيقة ليكس
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل (الجزء الأول)
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل (الجزء الثاني)
- مصر ثورة العشرين عاماً عبر تلفزيون الجديد

سلسلة السّياسة

غادة عيد

- ...؟! أساس الملك
- الخلوي أكبر الصفقات
- سوكلين وأخواتها: النفايات - ثروة... وثورة

موريال ميراك - فايسباخ

- عبر جدار النار
- مهووسون في السلطة
- السياسة الخارجيّة التركيّة: موريال ميراك -فايسباخ وجمال واكيم

جيمي كارتر

- السلام ممكن في الأراضي المقدسة
- ما وراء البيت الأبيض

إسلام كريموف

- أوزباكستان: على تعميق الإصلاحات الاقتصادية
- أوزباكستان: على عتبة القرن الواحد والعشرين

بيار سالينجر - إريك لوران

- حرب الخليج
- عاصفة الصحراء
- المفكرة المخفية لحرب الخليج

د. جمال واكيم

- جريمة ولا عقاب
- سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط
- **السياسة الخارجيّة التركيّة:** موريال ميراك - فايسباخ وجمال واكيم
- صراع القوى الكبرى على سوريا

د. علي وهب

- الأخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية
- الصراع الدولي للسيطرة على الشرق الأوسط

ستيفن غرين

- بالسيف: أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط
- مساومات مع الشيطان

نعوم تشومسكي

- احتلّوا
- صناعة المستقبل
- **غزّة في أزمة** - نعوم تشومسكي وإيلان بابه

د. سمير التنّير

- أميركا من الداخل
- أوباما.. والسّلام المستحيل
- معمودية النار

جون ك. كولي

- تواطؤ ضدّ بابل
- الحصاد

بنازير بوتو

- ابنة القدر
- المصالحة: الإسلام والديموقراطية والغرب

د. عبد السلام المجالي

- بوّابة الحقيقة
- رحلة العمر: من بيت الشعر إلى سدّة الحكم

إيلان بابه

- **غزّة في أزمة** - نعوم تشومسكي وإيلان بابه
- الفلسطينيّون المنسيّون

بالتعاون مع جامعة كولومبيا

- **الانتقال العسكري** - نارسيس سيرّا
- **أنماط الديمقراطية** - أرند ليبهارت
- **الديمقراطية والإسلام في إندونيسيا** - تحقيق: ميرجام كونكلر وألفريد ستيبان
- **الديمقراطية: أبحاثٌ مختارة** - تحرير: لاري دايموند ومارك ف. بلاتنر
- **ديمقراطيات في خطر!** - تحرير: ألفرد ستيبان
- **شرح أسباب الانتفاضات العربية** - تحرير: مارك لينش
- **عن الديمقراطية** - روبرت أ. دال
- **المقاومة المدنية في الربيع العربي** - تحرير آدم روبرتس ومايكل ج. ويليس وروري مكارثي وتيموثي غارتون آش

د. ياسر عبد الحسين

- الحرب العالمية الثالثة - داعش والعراق وإدارة التوحّش
- السياسة الخارجية الإيرانية

تيم واينر

- الأعداء

سلسلة السّياسة

- إرث من الرماد: تاريخ «السي.آي.إيه.»

جيريمي سكاهيل

- بلاكووتر: أخطر منظمة سرية في العالم
- حروب قذرة

نوال السعداوي

- ذكرياتٌ بين الثورة والإبداع
- نوال السعداوي والثورات العربية

إيمانويل ماكرون

- إيمانويل ماكرون تحت الاستجواب - مقالات
- ثورة

هيلاري رودهام كلينتون

- خيارات صعبة
- ما الذي حدث

صادق النابلسي

- حزب الله: من فتنة الربيع العربي إلى جيوبوليتيك المنطقة
- قيام طائفة... أمّة موسى الصدر

مايكل وولف

- الحصار
- نار وغضب

♦ ♦ ♦

- أبي لافرنتي بيريا - سيرغو بيريا
- الأحزاب السياسية في العراق - عبد الرزاق مطلك الفهد
- اختراع الديموقراطية - منصف المرزوقي
- أرض لا تهدأ - د. معين حداد
- الأسد - باتريك سيل
- أسرار مكشوفة - إسرائيل شاحاك
- الأشياء بأسمائها - العقيد عاكف حيدر
- أصوات قلبت العالم - كيري كندي
- أمبراطورية الإرهاب - أليهاندرو كاسترو أسبين
- الأمّة اللبنانية - د. إسماعيل الأمين
- الأمة العربية إلى أين؟ - د. محمد فاضل الجمالي
- الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة - عائشة محمد المحياس
- أوضاع العالم ٢٠١٣ - برتران بادي ودومينيك فيدال
- الأيادي السود - نجاح واكيم
- إسرائيل والصراع المستمر - ربيع داغر
- البعد التوراتي للإرهاب الإسرائيلي - وجدي نجيب المصري
- بكامل رصيدنا - بولا برودويل وفيرنون لوب
- بالعطاء... لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم - بيل كلينتون
- بلا هوادة - د. حسن موسى
- بيتٌ من حجر - أنتوني شديد
- التحدي الإسلامي في الجزائر - مايكل ويليس
- التشكيلات الناصرية في لبنان - شوكت أشتي
- تعتيم - آمي وديفيد جودمان
- تقي الدين الصلح: سيرة حياة وكفاح (جزآن) - عمر زين
- التمادي في المعرفة - نورمان فنكلستاين
- توازن الرعب - هادي زعرور
- الثورات العربية في ظل الدين ورأس المال - راضي شحادة
- ثورات الفيسبوك - مصعب حسام الدين قتلوني
- ثوراتٌ في كل مكان - بول مايسون
- حرب تحرير الكويت - د. حبيب الرحمن
- حرب الشفق - د. ديفيد كريست
- حربا بريطانيا والعراق (١٩٤١ - ١٩٩١) - رغيد الصلح
- حركات ثورية - ستيف كراوشو وجون جاكسون
- حروب الأشباح - ستيف كول
- حروب الظلّ - مارك مازّيتي
- حروب الإمبراطوريات - تحرير روبرت غيروارث وإيريز مانيلا
- الحروب الميسَّرة - نورمان سولومون
- حزب الله والدّولة في لبنان: الرؤية والمسار - الدكتور حسن فضل الله
- الحكّام العرب - رودجر أوين
- حياتي مع طالبان - عبد السلام ضعيف
- الخلوي: أشهر فضائح العصر - ألين حلاق
- خوف - بوب وودورد
- الخيارات الصعبة - د. إيلي سالم
- دارفور: تاريخ حرب وإبادة - جولي فلنت وألكس دي فال
- دروب دمشق - كريستيان شينو - جورج مالبرونو
- الدولة الديموقراطية - د. منذر الشاوي
- الديبلوماسية على نهر الأردن - د. منذر حدادين

- **الرايات السود** – علي صوفان بالاشتراك مع دانيال فريدمان
- **رؤية للمستقبل** – الرئيس أمين الجميل
- **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف (١٩٨٩ – ١٩٩٨)** – محمود عثمان
- **السايفربانك** – جوليان أسانج
- **سجن غوانتانامو: شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** – مايفيتش وخسانا خان
- **السكرتير السابع والأخير** – ميشيل هيلير
- **سورية: مملكة الأسد** – ديفيد دبليو ليش
- **صراعات الجيل الخامس** – إميل خوري
- **الصراع على السلطة في لبنان: جدل الخاص والعام** – زهوة مجذوب
- **الصهيونية الشرق أوسطية والخطّة المعاكسة** – إنعام رعد
- **صيف من نار في لبنان** – الجنرال آلان بيلليغريني
- **ضريبة الدم** – ت. كريستيان ميلر
- **الضوء الأصفر** – عبدالله بو حبيب
- **الطبقة الخارقة** – دايفيد ج. روتكوبف
- **طريق أوسلو** – محمود عباس (أبو مازن)
- **عدوّ عدوّي** – لورا أيزنبرغ
- **العرب والإسلام في أوزباكستان** – بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- **عزيزي الرئيس بوش** – سيندي شيهان
- **العلاقات الأردنية – اللبنانية** – أسعد كاظم جابر العزّي
- **العلاقات اللبنانية السورية** – د. غسان عيسى
- **العودة إلى الصّفر** – ستيفن كينزر
- **الفرص الضائعة** – أمين هويدي
- **فنّ التجسُّس** – هنري أ. كرامبتون
- **الفهم الثوري للدين والماركسية** – زاهر الخطيب
- **في قلب المملكة: حياتي في السعودية** – كارمن بن لادن
- **قراصنة أميركا الجنوبية: أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** – طارق علي
- **قصور من الرمل** – أندريه جيروليماتوس
- **قضيّة سائبة** – يوست ر. هيلترمان
- **قضيّتي ضد إسرائيل** – أنطوني لوينستاين
- **القياصرة الأميركيون** – نايجل هاملتون
- **كل يوم هو إضافة** – جون كيري
- **لبنان بين ردّة وريادة** – ألبير منصور
- **اللوبي** – إدوارد تيفْنن
- **اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأميركية** – ستيفن والت وجون ميرشايمر
- **اللوبي الصهيوني في فرنسا** – شاكر نوري
- **الماسونية: دولة في الدولة** – هنري كوستون
- **المال... إن حَكَم** – هنري إده
- **ما بعد القتال** – حسام مطر
- **مبادئ المعارضة اللبنانية** – الرئيس حسين الحسيني
- **محو العراق** – مايكل أوترمان وريتشارد هيل وبول ويلسون
- **مدن تحت الحصار** – ستيفن غراهام
- **مذكرات نيلسون مانديلا** – نيلسون مانديلا
- **المراقبة الشاملة** – أرماند ماتّلار
- **مزارع شبعا: حقائق ووثائق** – منيف الخطيب
- **مصر على شفير الهاوية** – طارق عثمان
- **مفاتيح السياسة الروسية** – ستيفن وايت
- **منبر الحوار ٢٠٠٨ – لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** – مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- **ميادين التدخّل** – جيمس ستوكر
- **نحو دولة حديثة: بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** – الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- **نظرية الاحتواء** – إيان شابيرو
- **النفط: استراتيجيّاً وأمنيّاً وعسكريّاً وتنمويّاً** – د. هاني حبيب
- **النفط والحرب والمدينة** – د. فيصل حميد
- **هكذا.. وقع التوطين** – ناديا شريم الحاج
- **الهياكل المالية للتنظيمات الإرهابية** – صادق علي حسن
- **الواجب** – روبرت م. غايتس
- **الوجه الآخر لإسرائيل** – سوزان نايثن
- **الولايات المتحدة: الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** – تحرير: برتد هام
- **وهم السلم الأهلي** – حسين يعقوب
- **ويليس من تونس** – ناديا خياري
- **٥٠٠ يوم** – كورت آيكنوالد

Notes

[1←]
في النص الأصل وردت «الخليج الفارسي».

[2←]
القطمران نوع من القوارب له بدنان مشدودان في هيكل واحد.

[3←]
الفيتكونغ (Viêt Công): الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام، وهي حركة مقاومة مسلحة فيتنامية نشطت بين 1954- 1976. قاومت الاستعمار الفرنسي ولاحقاً ضد الوجود الأميركي في جنوب فيتنام.

[4←]
لعب الجنرال الأميركي دوغلاس ماكآرثر(1880 - 1964) (Douglas MacArthur) دوراً بارزاً في الحرب العالمية الثانية، حيث كان قائد القوات البرية الأميركية في منطقة المحيط الهادىء وجنوب شرق آسيا، وأصبح الحاكم العسكري لليابان بعد انتصار الولايات المتحدة عليها واحتلالها بين عامي 1945 و1951. كما تولّى قيادة قوات الأمم المتحدة في كوريا الجنوبية خلال الفترة 1950 - 1951. حذّر ماكآرثر القيادة الأميركية من مخاطر غزو فيتنام وعارض سياسة ترومان في الحرب الكورية، وكان واحداً من بين خمسة أشخاص فقط في التاريخ الأميركي الذين ترفعوا إلى مرتبة جنرال الجيش (General of the Army). توفي عام 1964 وشُيّد له نصب تذكاري ومتحف يعرض مسيرته العسكرية الطويلة. (المترجمة- عن ويكيبيديا)

[5←]
مذكرة صادرة عن وزارة الخارجية، «مهمة هايزر في إيران: من 4 يناير/كانون الثاني/يناير إلى 4 شباط/فبراير، 1979»، شباط/فبراير 1979.

[6←]
روبرت هايزر، مهمة في طهران

Robert Huyser, Mission to Tehran (New York: Harper and Row, 1986), p. 1.

[7←]
جيمي كارتر، خطاب إلى الأمة، «مشكلة النفط»، 18 نيسان/أبريل 1977 الملف 1، ص 656-662.

Address to the Nation, "The Energy Problem", Public Papers of the Presidents of the United States: President Jimmy Carter, Washington, D.C.: Government Printing Office.

[8←]

وزارة الخارجية، العلاقات الخارجية للولايات المتحدة، 1949، الملف 8، ص 359-365.

[9←]
ثمة الكثير من الحقيقة في الاقتباس الذي يُستشْهَدُ به كثيراً والذي نقله نائب القنصل الأميركي في إيران روبرت روسو الابن: «يمكن للمرء وإلى حدّ ما أن يقول إن الحرب الباردة بدأت في 4 آذار/مارس من العام 1946». نصَّ الاتفاق الذي أبرم في عام 1942 بعد الاحتلال الأنغلو- سوفيتي لإيران على وجوب مغادرة كل القوات الأجنبية إيران في غضون ستة أشهر من انتهاء الأعمال العدائية. في أواخر العام 1945، لم يبذل السوفيت أي جهد لسحب قواتهم، وكانوا يدعمون حركتين شيوعيتين تطالبان بالاستقلال: الأولى في أذربيجان الإيرانية، والثانية في المناطق الكردية غرب إيران. تزامن هذا الموقف مع تموضع القوات السوفيتية المهدّد لتركيا على طول الحدود المشتركة بين البلدين وعلى الحدود الممتدة نحو الشمال مع بلغاريا. في 4 آذار/مارس من عام 1946، راقب روسو القوات السوفيتية وهي تتحرك إلى الجنوب من تبريز، مهددةً بتقدمها هذا العاصمة الإيرانية طهران. وقد ذكر قائد في الجيش الأميركي يدعى ألكسيس غاغارين، وعمل ملحقاً عسكرياً لدى حكومة الشاه، أنه شاهد رتلاً مؤلفاً من خمسٍ وعشرين دبابة سوفيتية متوجهاً إلى طهران. في اليوم التالي ألقى رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل في فولتون بولاية ميسوري خطابه الشهير «الستار الحديدي»، علماً أنه يمكن القول إنّ تصريحاته أشارت إلى الظروف في أوروبا الشرقية أكثر مما تطرقت إلى الوضع في شمال إيران. واعترضت الولايات المتحدة بشدة، إنما بتعابير إذ كانت مقتنعة بأن موسكو ليست مستعدة لشن حرب بسبب إيران. في وقت لاحق من ذلك الشهر وصل وفد إيراني برئاسة رئيس الوزراء أحمد قوام إلى موسكو لإجراء محادثات. وبعد أن وافق الإيرانيون على مشروع مشترك للتنقيب عن النفط في شمال إيران، وعلى إعطاء موسكو حصة من أي نفط مكتشف، وافق جوزيف ستالين على سحب القوات السوفيتية فانسحبت في أيار/مايو. أقلقت الأزمة واشنطن. في تشرين الأول/أكتوبر من عام 1949 أقرّت إدارة ترومان الوثيقة 47/2 التي تضع الخطوط العريضة للسياسة الأميركية في الخليج العربي خلال العقود الأربعة المقبلة. باختصار، دعا مجلس الأمن القومي في الوثيقة 47/2 إلى ثلاثة مسارات رئيسية للعمل: 1) تعزيز العلاقات الغربية مع الزعماء المحليين، 2) منع التدخل السوفيتي في المنطقة، 3) الحرص على ألا تقوض النزاعات الإقليمية قدرة الولايات المتحدة على التصدي للعدوان السوفيتي. اعتبر المسؤولون الأميركيون الخليج العربي، بنفطه وموانئه الواقعة في المياه الدافئة، مهماً جداً بحيث لا يمكن السماح بأي اختراق سوفيتي في المنطقة.

[10←]
هنري كيسنجر، مذكرات كيسنجر في البيت الأبيض White House Years (Boston: Little, Brown,) 1979)، ص 1264.

[11←]
السفير ثيودور إليوت، جي. آر.، Foreign Affaires Oral History Program، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، أرلينغتون، فيرجينيا، 24 نيسان/أبريل 1992.

[12←]
القنصل العام موريس دريبر، Foreign Affaires Oral History Program، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، 27 شباط/فبراير 1991.

[13←]
لدعم هذه الاستراتيجية، وضع سايروس فانس معايير صارمة لبيع الأسلحة الأميركية لمنطقة الشرق الأوسط، مؤكداً على أنّ أي أسلحة جديدة لا بد من أن «تعزز فقط قدرة طالب الأسلحة على القيام بمهمة عسكرية» لا يمكنه أن ينجزها بأسلحة أقل تطوراً.

[14←]
وليام أودوم، «The Cold War Origins of the U.S. Central Command»، مجلة دراسات الحرب الباردة، ربيع 2006، ص 61؛ زبيغنيو بريجينسكي، مقابلة، 20 شباط/فبراير 1981، مكتبة ومتحف

كارتر، www.jimmycarter-library.org، ولوج 24 أيار/مايو 2007.

[15←]
مارلين بيرغر، «Cyrus R. Vance, a Confidant of Presidents, is dead at 84»، نيويورك تايمز، 13 كانون الأول/ديسمبر، 2002.

www.nytimes.com/2002/01/13/wworld/cyrus-r-vance-a-confidant-of-presidents-is-dead-at-84.html?pagewanted=all,

ولوج في 23 آذار/مارس 2009.

[16←]
يمقت فانس عموماً استخدام القوة العسكرية على الرغم من أنه خدم بلده كضابط صغير على مدمرة خلال الحرب العالمية الثانية أو ربما بسبب ذلك. بعد أن شهد كارثة فيتنام التي تكشّفت تحت ناظريه في وزارة الدفاع خلال إدارة ليندون جونسون، لم يكن فانس متحمساً لسيناريو مماثل في الشرق الأوسط.

[17←]
هارولد براون، مقتبس في: بول ستاروبين وروبرت ليفيت، «تشكيل هيكلية القيادة العسكرية الوطنية: مسؤوليات القيادة في منطقة الخليج العربي Shaping the National Military Command Structure: Command Responsibilities for the Persian Gulf", Case Program, John F. Kennedy School of Government, Harvard University، 1985، ص 2. ظهرت هذه الآراء المختلفة داخل الإدارة بشكل جليّ في ما خصّ بيع الأسلحة للشاه، وجعلت السياسة الإيرانية متناقضة. بناءً على طلب الوزير فانس، بدأت الولايات المتحدة بتقليص حجم بيع الأسلحة للشاه، ما أغضب العاهل الإيراني لاسيما بعد إلغاء صفقة طائرة مقاتلة متقدمة من طراز F- 18 كان الرئيس فورد قد وعده بها، وكان قد تم الاتفاق عليها بين الشاه والشركة المصنعة للطائرة حتى قبل أن يُقدَّم إلى الجهات الحكومية الأميركية المعنية. في شهر آب/أغسطس من العام 1978 عرقل فانس اقتراحاً لبيع إيران إحدى وثلاثين طائرة مقاتلة من طراز F-4، ومع ذلك أقنع كلٌّ من الوزير براون ومستشار الأمن القومي بريجينسكي الرَّئيسَ كارتر بمواصلة بيع الأسلحة لإيران، ووعدت الولايات المتحدة إيران بـ 648 قطعة مدفعية، على أن يتم تسليمها اعتباراً من أوائل الثمانينيات. كما وافقت الولايات المتحدة على استبدال طائرات F-16 أكثر تطوراً بطائرات F-4، وعلى بيع إيران طائرات الاستطلاع أواكس E-3 المتطورة، التي نُشرت لتوها في قواعد حلف شمال الأطلسي والقواعد الأوروبية. في وقتٍ لاحق تم سحب صفقات بيع طائرات الأواكس بعد معارضة الكونغرس، وهو الموقف نفسه الذي اتخذه مدير وكالة الاستخبارات المركزية ستانسفيلد تيرنر، الذي أفاد بأن بيعها يشكّل خطراً أمنياً إذا أقنع السوفيت أحد الطواقم الإيرانية بالتعاون معهم.

[18←]
وزارة الخارجية، مكتب الاستخبارات والبحوث، مستقبل إيران: الانعكاسات على الولايات المتحدة (The future of Iran: Implications for the U.S.)، 28م كانون الثاني/يناير، 1977، ص 1، 3.

[19←]
آرثر غولدشميت جونيور، موجز تاريخ عن الشرق الأوسط (Concise History of the Middle East (Boulder, CO: Westview, 1996))، ص 332.

[20←]
مسوّدة تقييم الاستخبارات القومية، أيلول/سبتمبر 1978؛ وكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع، «تقييم الوضع السياسي في إيران»، أيلول/سبتمبر 1978.

[21←]
مذكرة جون ستمبل إلى السفير سوليفان، «حين كنت بعيداً... لم يكن الوضع قد تدهور... لكنه لربما كان يبدو كذلك»، 22 آب/أغسطس، 1978، ص 1- 18.

[22←]
غوردون وينكلر، Foreign Affairs Oral History Program، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، 23 آذار/مارس، 1989.

[23←]
وزارة الخارجية، مكتب الاستخبارات والبحوث، «الانشقاق الإيراني يتزايد - Iranian Dissidence on the Increase»، م29 كانون الثاني/يناير 1978، ص 1.

[24←]
رسالة السفير سوليفان إلى وارن كريستوفر، «(GOI Discernment of Dissident Political Action)»، م25 نيسان/أبريل 1978، ص 1- 3؛ رسالة تشارلز ناس إلى وزارة الخارجية، «المزاج السياسي الغامض: تطورات دينية، توجّه ملكي للتعامل بقساوة مع المتظاهرين- Uncertain Political Mood: Religious) Developments, Tougher Royal Line on Demonstrators)"، م1 آب/أغسطس 1978، ص 2.

[25←]
مذكرة ستيمبل، «حين كنت بعيداً - While You Were Away»، ص 2.

[26←]
مذكرة ضابط الاستخبارات الوطني للشرق الأدنى وجنوب آسيا إلى مدير وكالة الاستخبارات المركزية، «اجتماع بشأن إيران، 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1978»، 3 تشرين الثاني/نوفمبر 1978، ص 2.

[27←]
المصدر نفسه، ص3.

[28←]
محسن سازكارا، مقابلة مع المؤلف، أيار/مايو 2009.

[29←]
المصدر نفسه.

[30←]
هنري بريشت، مقابلة أجراها معه تشارلز ستيوارت، Foreign Affairs Oral History Program، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، آذار/مارس 2000.

[31←]

القنصل الجنرال تشارلز مكاسكيل، Foreign Affairs Oral History Program، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، 7 تموز/يوليو 1993.

[32←]
مقابلة مع ضابط متقاعد من وكالة الاستخبارات المركزية، 15 آب/أغسطس 2007.

[33←]
وكالة الاستخبارات المركزية، لجنة الموارد البشرية، «التركيز على إيران، الجزء الثاني: مراجعة العمل»، Focus Iran Part II: Action Review، م27 كانون الأول/ديسمبر 1976، ص 3

[34←]
مقابلة مع ضابط متقاعد من مكتب وكالة الاستخبارات المركزية.

[35←]
لجنة الموارد البشرية التابعة لوكالة المخابرات المركزية، «التركيز على إيران: مراجعة لجنة الاستخبارات بطلب من لجنة الموارد البشرية بشأن بعثة الولايات المتحدة في إيران»، Focus Iran: Intelligence Committee Review of Request by Human Resources Committing for the United States Mission in Iran، م4 تشرين الثاني/نوفمبر 1976، ص 2.

[36←]
لورانس ألتمان، «د. جان إيه برنار، العمر 98، توفي؛ تشخيص السرطان لدى شاه إيران- Dr. Jean A. Bernard, 98, Dies; Found Cancer in Shah of Iran، نيويورك تايمز، 30 نيسان/أبريل 2006.

[37←]
مذكرة وارنر كريستوفر إلى الرئيس كارتر، 13 أيلول/سبتمبر 1978، ص 2.

[38←]
رسالة الرئيس جيمي كارتر إلى شاه إيران، 28 أيلول/سبتمبر 1978.

[39←]
رسالة السفير سوليفان إلى وزير الخارجية، «إيران: فهم الحركة الإسلامية الشيعية» م(Iran: Understanding the Shiite Islamic Movement (031012Z، شباط/فبراير 1978.

[40←]
رسالة سوليفان إلى فانس وبريجينسكي، «توصيات للرئيس من أجل رسالة الشاه»، 29 آب/أغسطس 1978، ص 1-2. اعتقد سوليفان في البداية أن الشاه اعترف أيضاً بهذه الحقائق. في 29 آب/أغسطس 1978، وبعد عطلة غير سارة في الولايات المتحدة استمرت شهرين، كتب سوليفان إلى فانس وبريجينسكي قائلاً: «خلال الأيام القليلة التي مضت على عودتي إلى طهران، اتّضح لي أن الشاه قد اتخذ قراراً سياسياً جوهرياً لتحويل نظامه الاستبدادي إلى ديمقراطية حقيقية». وكتب أنّ المسؤولين في الجيش والأمن موافقون على هذا القرار على الرغم من مخاوفهم من «الوحش الكبير: الشعب الإيراني».

[41←]
وكالة الاستخبارات المركزية، التقرير الميداني اليومي للاستخبارات الوطنية، تقرير عن الوضع في إيران، 6 كانون الثاني/يناير 1979؛ رسالة هنري بريشت إلى وليام سوليفان، 19 كانون الأول/ديسمبر 1978، ص 1.

[42←]
مذكرة ستانسفيلد تيرنر إلى نائب مدير المركز القومي لتقويم السياسة الخارجية، «لقاء مع الدكتور بريجينسكي»، 27 تشرين الأول/أكتوبر 1978.

[43←]
وكالة الاستخبارات المركزية، «رؤى من أجل حكومة عسكرية (Prospects for a Military Government)»، تشرين الثاني/نوفمبر 1978، ص 1- 4.

[44←]
رسالة وليام سوليفان إلى وزير الخارجية، «التطلع إلى المستقبل: الخيار العسكري» - Looking Ahead: The Military Option، م2 تشرين الثاني/نوفمبر 1978.

[45←]
ستيفن وارد، الخالد: تاريخ إيران العسكري وقواتها المسلّحة- A Military History of Iran and Its Armed) Forces (Washington, D.C.: Georgetown University Press, 2009، ص 214.

[46←]
مقابلة مع بريشت، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب.

[47←]
ستانلي أسكوديرو، مقابلة مع المؤلف، 5 تشرين الأول/أكتوبر 2006، و 24 أيار/مايو 2007.

[48←]
ستانلي أسكوديرو، مقابلة مع المؤلف، 5 تشرين الأول/أكتوبر 2006، و 24 أيار/مايو 2007.

[49←]
رسالة من السفارة الأميركية في طهران إلى وزير الخارجية، «لقاء مع آية الله شريعة مداري» (Z101740)، كانون الثاني/يناير 1979، ص 1- 2.

[50←]
وكالة الاستخبارات المركزية، مذكرة استخباراتية، «إيران: الراديكاليون في المعارضة» (Iran: Radicals in the Opposition)، م12 كانون الثاني/يناير 1979، ص 1.

[51←]
مذكرة هنري بريشت إلى هارولد سوندرز، «البحث عن الاستقرار في إيران» (Seeking Stability in Iran)، م19 كانون الأول/ديسمبر 1978.

[52←]
جورج دبليو بال، «مذكرة موجزة للرئيس، مشاكل وتبعات الأزمة الإيرانية (Issues and Implications of the Iranian crisis)»، م12 كانون الأول/ديسمبر 1978. مع تفاقم الأزمة، أمرت وزارة الخارجية بإجلاء الرعايا الأميركيين. ونقل الجيش الأميركي أكثر من تسعة آلاف شخص من الرعايا الأميركيين على مدى الأسابيع القليلة التالية، فيما بدأ البنتاغون يخطط لإجلاء ما بين 40000 و60000 مواطن أميركي آخرين يعيشون في البلاد. أكد بريجينسكي في مذكراته، التي نشرت في العام 1983 بعنوان «القوة والمبدأ» (Power and Principle)، أن الأمر الذي أصدرته وزارة الخارجية عجّل في انهيار نظام الشاه من خلال تقويض الثقة باستمرار حكمه. ولكن مع توقف تصدير النفط بسبب الإضرابات المعارضة للحكومة، والمظاهرات الضخمة في كل مدينة من المدن الكبرى، لم يؤثر إجلاء الرعايا الأميركيين من السفارة في طهران في سقوط الشاه إلَّا بقدر ما أثر إخلاء سفارة الولايات المتحدة في سايغون في سقوط النظام في جنوب فيتنام قبل ذلك بثلاث سنوات. لم يكن السقوط أكثر من انعكاس للواقع. زبيغنيو بريجينسكي، القوة والمبدأ: مذكرات الأمن القومي (Power and Principle: Memoirs of the National Security, 1977-1981 (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1983.

[53←]
رسالة الكترونية من نورب غاريت إلى المؤلف، 16 نيسان/أبريل 2010.

[54←]
مذكرة من بول هينز إلى زبيغنيو بريجينسكي، «أفكار حول إيران» (Thoughts on Iran)، م9تشرين الثاني/نوفمبر 1978.

[55←]
رسالة وليام سوليفان إلى جون غولدن، 24 كانون الأول/ديسمبر 1978، ص 1.

[56←]
هايزر، مهمة إلى طهران (Mission to Tehran)، ص 18.

[57←]
رسالة وليام سوليفان إلى سايروس فانس، "USG Policy Guidance", 101820Z، كانون الثاني/يناير 1979، ص 1- 2.

[58←]
هايزر، مهمة إلى طهران (Mission to Tehran)، ص 78، 99.

[59←]
بريجينسكي، السلطة والمبدأ (Power and Principle) ؛ ص 376- 378 هايزر، مهمة إلى طهران (Mission to Tehran) ص 48- 63.

[60←]
سعيد زنكنه، مقابلة مع المؤلف، 20 حزيران/يونيو 2007.

[61←]

استلمت بحرية الشاه ثلاثة عشر صاروخاً من طراز هاربون قبل أن تحول الثورة دون وصول المزيد من شحنات الأسلحة الأميركية. أظهرت الحربان الأخيرتان بين العرب وإسرائيل بوضوح للشاه قوة الصواريخ. ففي تشرين الأول/ أكتوبر 1967 تمكّن زورق مصري صغير مجهز فقط بصاروخين من طراز ستيكس الروسي الصنع من إغراق المدمرة إيلات، التي يبلغ حجمها أكثر من عشرة أضعاف حجم الزورق المعني، وهي حاملة لواء البحرية الإسرائيلية. وقد غرق معها سبعة وأربعون عنصراً من طاقمها في أعماق البحر المتوسط. بعد ست سنوات، سعت إسرائيل للانتقام. ستة زوارق فرنسية الصنع، مزودة بصواريخ غابرييل الإسرائيلية الصنع وهي صواريخ أصغر حجماً لكنها ليست أقل فتكاً، ومجهزة بنظم إلكترونية مضادة متقدمة، تمكنت من تلافي الصواريخ التي أُطلقت وفتكت بالقوات البحرية السورية والمصرية في سلسلة من المعارك الدراماتيكية في شرق البحر المتوسط. في العام التالي، أيّ في العام 1974، اشترت إيران اثني عشر زورقاً فرنسي الصنع من نوع Combattante II مماثلاً ومجهزاً بصواريخ. وكان من المفترض أن تُسلّح هذه الزوارق كلها بصواريخ هاربون الأميركية المتطورة المضادة للسفن. راجع أبراهام رابينوفيتش

The Boats of Charbourg: The Secret Israeli Operation that Revolutionized Naval Warfare (New York: Seaver Books, 1988).

[62←]
رسالة بروس لينجن إلى وزير الخارجية، «اجتماع مع رئيس الوزراء بازركان» (121002Z)، آب/أغسطس 1979؛ ورسالة السفارة الأميركية إلى وزير الخارجية، «لقاء مع نائب رئيس الوزراء يزدي»، بلا تاريخ.

[63←]
بروس لينجن، Foreign Affaires Oral History Program، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، 1992-1993.

[64←]
الجنرال جورج كريست، مشاة البحرية الأميركية (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 22 شباط/فبراير 2007.

[65←]
الأدميرال جيمس ليونز، البحرية الأميركية (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 6 تشرين الثاني/نوفمبر 2006.

[66←]
مذكرة مجلس الأمن القومي، «إيران-أفغانستان Iran-Afghanistan»، م20 آذار/مارس 1982، ص 5.

[67←]
قوة دلتا أو «دلتا فورس» (Delta Force) هي وحدة خاصة في الجيش الأميركي، أنشئت عام 1978، وتقوم بمهمات تحرير الرهائن والاستطلاع والعمليات الصغيرة والدعم الخاص ومكافحة العمليات الإرهابية. (المترجمة)

[68←]
مبنى الكابيتول الأميركي هو المجلس التشريعي لحكومة الولايات المتحدة الأميركية، ويقع في واشنطن العاصمة فوق تلة تسمى «كابيتول هيل» في الجهة الشرقية من حديقة ناشيونال مول الوطنية. (المترجمة)

[69←]
مذكرة هاملتون جوردان إلى الرئيس كارتر، 22 كانون الثاني/يناير 1980.

[70←]
جيمي كارتر، يوميات البيت الأبيض White House Diary (New York: Fattar, Straus and Giroux,) 2010، م23 كانون الثاني/يناير 1980، ص 394- 395.

[71←]
وثائق حالية، وزارة الخارجية الأميركية، 1983، ص 157؛ جيمي كارتر، «خطاب حالة الاتحاد»، 23 كانون الثاني/ يناير1980، في: كارتر، وثائق رسمية، ص 197.

[72←]
انظر أيضاً:

"America Likes Its New Foreign Policy__Or Does It?", Economist, February 23, 1980, p. 45

[73←]
«كارتر يمسك بزمام الأمور» Carter Takes Charge, Time، م4 شباط/فبراير 1980، ص 12. ليلة إلقائه خطابه حول حالة الاتحاد، انظر جيمي كارتر، يوميات رئاسية، مدونة 23 كانون الثاني/يناير 1980 www.jimcarterlibrary.gov/documents/dairy/1980؛ تعليقات وليام أودوم، «مقابلة مع زبيغنيو بريجينسكي، ومادلين أولبرايت، وليزلي دينيد، ووليام أودوم»، 18 شباط/فبراير 1982، مركز ميلر، جامعة فرجينيا، مشروع كارتر الرئاسي Carter Presidential Project، ص 52.

[74←]
توجيهات الرئيس جيمي كارتر الرئاسية/مجلس الأمن القومي-18، «الاستراتيجية القومية الأميركية، 24 آب/ أغسطس 1977، ص4- 5.

[75←]
بعد الأزمة التي حدثت في الكونغو، في كانون الأول/ديسمبر 1963، وسّع ماكنمارا مسؤوليات القيادة في مقرها في تامبا لتشمل التخطيط للعمليات في جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى والشرق الأوسط وتنفيذها. يقسّم الجيش الأميركي الكرة الأرضية إلى قيادات جغرافية واسعة يطلق عليها اسم القيادات الموحدة، وهي مسؤولة عن القوات الأميركية كلها بغضّ النظر عن المنطقة التي تخدم فيها. ومع ذلك لم تكن لـ «قيادة قوات التدخّل السريع» منطقة جغرافية محددة بل مهمة واحدة وهي تأمين احتياطي عام من القوات الجاهزة للقتال بغية تعزيز القيادات الموحدة الأخرى أو قيادات محددة. وبعد نقاش مستفيض قرر وزير الدفاع توسيع مهمة هذه القيادة (سترايكوم STRICOM) لتشمل اعتباراً من 1 كانون الأول/ديسمبر 1963 البحر الأحمر والخليج العربي.

Jay E. Hines, "From Desert One to Southern Watch: The Evolution of U.S. Central Command," Joint Force Quarterly, Spring 2000, p. 43; Lawrence R. Benson and Jay Hines, The United States Military in North Africa and Southwest Asia Since World war II (CENTCOM History Office, January 1988), p. 30; General George Crist, CENTCOM: The Bastard Command, unpublished 1989, p. 5.

[76←]
على غرار النقاش الذي استمر عامين حول قيادة قوات التدخّل السريع (STRICOM)، أيّد رئيس هيئة الأركان المشتركة ورئيسا أركان الجيش والقوات الجوية أن تضطلع قيادة قوات التدخل السريع بمهمة مراقبة العمليات في إفريقيا والشرق الأوسط، وأن تنشر القوات الموجودة في الولايات المتحدة، في حال حدوث نزاع. عارض مسؤولو

سلاح البحرية ومشاة البحرية الفكرة، فقد أراد هؤلاء أن تبقى مسؤوليات القيادة على حالها، فتبقى قيادة الأطلسي مسؤولة عن أفريقيا وقيادة سلاح البحرية الأميركية في شرق المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط CINCNELM مسؤولة عن الشرق الأوسط. وهذا الموقف ليس مستغرباً بما أن البحرية تسيطر على كلا القيادتين.

[77←]
تمّ التوصّل إلى تسوية مناسبة فقسّمت وزارة الدفاع الأميركية الشرق الأوسط إلى قيادتين يتولاهما قائدان أميركيان بأربع نجوم: القيادة الأوروبية التي يسيطر عليها الجيش، وقيادة الهادئ التي تسيطر عليها البحرية، على أن يتولى الجيش مسؤولية اليابسة في منطقة الشرق الأوسط، في حين تشمل مسؤولية سلاح البحرية الباكستان والمحيط الهندي وخليج عمان. كريست، «القيادة المزيفة»(Bastard Command)، ص 7؛ رسالة من الدكتور جون بارتين، قيادة العمليات الخاصة الأميركية إلى الجنرال جورج كريست، «قوات الانتشار السريع وترتيبات القيادة المشتركة للشرق الأدنى» (Rapid Deployment Forces and Joint Command Arrangements for the Near East)، 11م تشرين الأول/ أكتوبر 1989، ص 1. عمل الدكتور جون بارتين مؤرخاً لقيادة الجهوزية في بداية الثمانينيات.

[78←]
في 27 تموز/يوليو 1978 سعى مجلس الأمن القومي إلى معالجة الأزمة المتنامية في أفغانستان من خلال تعزيز حلف بغداد (CENTO) الذي كانت الباكستان عضواً فيها، وشمل ذلك استثمارات بقيمة 5 مليون دولار في معدات الاتصالات الجديدة. إلا أن إطاحة الشاه وسقوط حلف بغداد (CENTO) أوديا بالفكرة قبل أن تثمر.

[79←]
عندما تمّ الضغط على جونز اقترح على براون نشر حاملتي طائرات من البحرية لفترة قصيرة. تقرير J-5 لهيئة الأركان المشتركة، مذكرة لمساعد وزير الدفاع «U.S Military Response to Minor Contingences in the Persian Gulf»، 5م تشرين الأول/أكتوبر 1978، ص 1- 10.

[80←]
هارولد براون، مقابلة مع المؤلف، 25 آب/أغسطس 2008.

[81←]
مذكرة بريجينسكي للرئيس كارتر، 2 كانون الأول/ديسمبر 1978، التقرير الأسبوعي رقم 81 لمجلس الأمن القومي، مكتبة جيمي كارتر، مجموعة زبيغنيو بريجينسكي، تقارير أسبوعية، الصندوق 41، ملف التقارير الأسبوعية 71-81.

[82←]
الفريق وليام أودوم، الولايات المتحدة الأميركية (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 28 آب/أغسطس 2007.

[83←]
Tim Weiner, "Robert Komer, 78, Figure in Vietnam, Dies", New York Times, April 12, 2000.

وافق كومر بريجينسكي الرأي في أنّ: «إدارة كارتر بطيئة جداً في التنبه إلى واقع الفراغ الاستراتيجي في الخليج». Robert Komer Oral History, Office of the Secretary of Defense History Office، 25م آذار/ مارس 1981 ص 102.

[84←]
مذكرة هيئة الأركان المشتركة إلى وزير الدفاع، «استراتيجية الولايات المتحدة والسياسة الدفاعية لمنطقة الشرق الأوسط والخليج العربي» U.S Strategy and Defense Policy for the Middle East and the Persian Gulf 10 أيار/ مايو 1979، ص 1، الملحق أ، ص 1، 6، 13، 22؛ ذُكرت أيضاً في مذكرة داخلية سابقة لهيئة الأركان المشتركة، «إعادة النظر في الاستراتيجية الأميركية في ما يتعلق بالشرق الأوسط والخليج العربي» Review of U.S Strategy Related to the Middle East and Persian Gulf، م31 كانون الثاني/يناير 1979، ص 1- 3.

[85←]
مذكرة الجنرال ديفيد جونز إلى الوزير هارولد براون، "Potential Joint/Combined Exercises in the Persian Gulf"، م18حزيران/يونيو 1979، ص 1- 2؛ رسالة من CINCEUR إلى هيئة الأركان المشتركة، «مناورت محتملة في الخليج العربي، (Potential Exercises in Persian Gulf (0111507Z»، أيلول/سبتمبر 1979، ص 1- 3؛ مذكرة هيئة الأركان المشتركة إلى وزير الدفاع، «الوجود العسكري الأميركي في منطقة الشرق الأوسط / منطقة الخليج العربي» U.S Military Presence in the Middle East/Persian Gulf Region، م23 تشرين الثاني/نوفمبر 1979، ملحق B، ص 1- 5، ملحق C، ص 1- 2.

[86←]
كان رئيس العمليات البحرية الأدميرال توماس هايوارد، وهو الأكثر اندفاعاً بشأن الشرق الأوسط بين معظم نظرائه في البحرية، الوحيد الذي يقدّم اقتراحات عملية، وقد اقترح تشكيل أسطول خامس جديد لمنطقة الشرق الأوسط، كما اقترح الإبقاء على حاملة طائرات بشكل دائم قبالة الساحل الإيراني. وحثّ براون الجيش على أن يبدأ بالتخطيط لإمكانية نشر قوات أميركية مقاتلة في الخليج العربي. Brzezinski, Power and Principle، ص 182-190.

[87←]
عارضت هيئة الأركان المشتركة نشر القوات في العام 1978، ونظرت بارتياب إلى دوافع السعودية. وأصبح نشر هذه الطائرات معقداً عندما رفضت إسبانيا السماح لها بالهبوط في مطاراتها أثناء رحلاتها من الولايات المتحدة إلى المملكة العربية السعودية.

[88←]
مقابلة مع براون.

[89←]
رسالة هيئة الأركان المشتركة، «الوجود العسكري الأميركي في الشرق الأوسط / منطقة الخليج العربي» (U.S Military Presence in the Middle East/Persian Gulf Region (Z 071725، تموز/يوليو 1979، ص2؛ مذكرة الجنرال ديفيد جونز إلى الوزير هارولد براون، «مناورات مشتركة/متزامنة محتملة في الخليج العربي» Potential Joint/Combined Exercises in the Persian Gulf، م18 حزيران/يونيو 1979، ص 1- 2؛ رسالة القائد العام للقوات الأميركية في أوروبا لهيئة الأركان المشتركة، «مناورات محتملة في الخليج العربي» (0111507Z)، أيلول/سبتمبر 1979، ص 1- 3؛ مذكرة هيئة الأركان المشتركة لوزير الدفاع، «الوجود العسكري الأميركي في منطقة الشرق الأوسط / منطقة الخليج العربي»، 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1979، الملحق باء، ص 1- 5، الملحق جيم، ص 1- 2.

[90←]
رسالة رئيس هيئة الأركان المشتركة، «مناورات في الشرق الأوسط»، 7 أيلول/سبتمبر 1979، ص 1- 2؛ مذكرة هارولد براون إلى الجنرال ديفيد جونز، «مناورات مشتركة/متزامنة محتملة في الخليج العربي/ شمال غرب المحيط

الهندي»، 25 أيار/مايو 1979، ص 2.

[91←]
أثّر تقرير وكالة الاستخبارات المركزية في 29 أيار/مايو 1979 في رأي مستشار الأمن القومي. وجاء في التقرير: «شكّل رحيل الشاه فرصةً سانحة لم يتوقّعها السوفيت؛ فعلى الرغم من أنهم لم يستفيدوا من الشاه بصورة مباشرة، إلا أن ضعف النظام الجديد وانكفاءه عن لعب دوره على مستوى الأمن الإقليمي خلق فراغاً في السلطة في إيران وفي المنطقة عموماً، وهو فراغ سيرغب السوفيت في استغلاله». تمسّك بريجينسكي بهذا التقييم، رفضاً آراء فانس.

CIA Intelligence Assessment, "Changes in the Middle East: Moscow’s Perceptions and Options", May 29, 1979, p. iii; Olav Njolstad, "Shifting Priorities: the Persian Gulf in U.S. Strategic Planning in the Carter Years", Cold Wear History 4:3 (2004), p. 30.

[92←]
مذكرة هارولد براون إلى الرئيس جيمي كارتر، «الوجود العسكري الأميركي في منطقة الشرق الأوسط/الخليج العربي»، 11 تموز/يوليو 1979، ص 1- 3.

[93←]
في 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1979، قدّم الجنرال جونز إلى وزير الدفاع لائحة تقريبية بالقوات المتوفرة للمشاركة في قوة التدخّل السريع الجديدة، التي يمكن تخصيص قوات منها لمختلف الحالات الطارئة. وضمت هذه القوة الجديدة ثلاث حاملات طائرات حربية وقوة برمائية ذات مهام متخصصة وثمانية أسراب طائرات من سلاح الجو وثلاث فرق عسكرية من الجيش (الفرقة 4، و101، و82)، بما فيها فيلق النخبة الثامن عشر المحمول جواً من قاعدة فورت براغ، واللواء المدرع 194 من القوات الصاعقة البرية في الجيش الأميركي. في المحصلة، 170 ألف رجل في جهوزية تامة للانتشار عند الحاجة في إطار قوة الانتشار السريع.

[94←]
المطارات الأربعة هي مصيرة، والسيب، وثمريت، وكساب.

"Logistics Concept in Support of the Rapid Deployment Joint Task Force (RDJTF)", United States Readiness Command, J-4, Rapid Deployment Joint Task Force J-4, April 15, 1981, pp. A5-A6.

[95←]
مذكرة رئيس هيئة الأركان المشتركة إلى رئيس أركان الجيش الأميركي، «وصول الولايات المتحدة إلى المرافق في منطقة الشرق الأوسط/الخليج العربي»، 14 آذار/مارس1980، ص 1؛ مذكرة روبرت كومر لوزير الدفاع، Rear-Staging Areas in Egypt، م7 آذار/مارس1980، ص1- 3.

[96←]
David Isenberg, "The Rapid Deployment Force: the Few, the Futile, the Expendable", Policy Analysis No. 44, CATO institute, November 8, 1984, p. 9, www.cato.org/pubs/pas/pa044.html accessed September 20, 2002.

أبرم السفير الأميركي في الأردن نيكولاس فيليوتس، وهو ضابط في جهاز الشؤون الخارجية، اتفاقاً سرياً مع الملك الأردني لتأسيس قوة أردنية مماثلة لقوات الانتشار السريع الأميركية من شأنها إسناد القوات الأميركية في حال وقوع حرب مع السوفيت. أجرى البلدان مناورات عسكرية على مستوى متدنٍّ، وعرض الأردن استخدام قواعده لتنظيم قوات الانتشار السريع وتجميعها. السفير نيكولاس فيليوتس، Foreign Affairs Oral History Program، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، 29 كانون الثاني/يناير 1990.

[97←]
مذكرة بريجينسكي إلى الرئيس جيمي كارتر، 31 تموز/يوليو 1979.

[98←]
مذكرة هارولد براون إلى الجنرال ديفيد جونز، 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1979. في وقت لاحق، كتب وليام أودوم، مساعد بريجينسكي العسكري، أن كارتر فكر في أن يكتفي بإصدار أمر تأسيسها ووضع هيكلية القيادة، لكنه في النهاية سمح للبنتاغون بتنظيم ذلك.

[99←]
مذكرة وزير الدفاع إلى هيئة الأركان المشتركة، 22 تشرين الأول/أكتوبر 1979.

[100←]
الجنرال بول إكس كيلي، مقابلة مع المؤلف، 13 أيار/مايو 2009.

[101←]
اقتُرح على جونز اسمان هما -الجنرال بول جورمان وبول كزافييه كيلي- كقائدين محتملين لقوة الانتشار السريع. كان جورمان يحظى باحترامٍ كبير في البنتاغون، وبدعمٍ قوي من رئيس أركان الجيش إدوارد ماير. غير أن دبليو غراهام كلايتون جي آر، السكرتير السابق للبحرية والنائب الحالي لبراون، كان يعرف كيلي ويحب المارينز، وعندما ورد اسم جورمان أمام كلايتون اقترح كيلي كخيار بديل. رسالة من السفير الأميركي إلى وزير الخارجية، «لقاء مع دبلوماسي روسي، Meeting with Soviet Diplomat»، م24 حزيران/يونيو 1979، ص 3.

[102←]
مذكرة روبرت اتش بارو إلى الرئيس، هيئة الأركان المشتركة، «قوة الانتشار السريع»، 14 كانون الأول/ديسمبر 1979، ص 1- 2، وثائق الجنرال روبرت أتش بارو الشخصية، أرشيف مشاة البحرية الأميركية، مركز غراي للبحوث، كوانتيكو، VA.

[103←]
كانت مناورات «النجم الساطع» تجري سنوياً حتى عام 1985، ثم اتُّخذ قرار بأن تجري كل عامين بسبب كبر حجمها وكثرة عدد القوات المشاركة فيها.

[104←]
سوف تأتي الهجمات السوفيتية الرئيسة من منطقة القوقاز وتركستان باتجاه طهران على أربعة محاور رئيسة، مع هجوم داعم من تركستان وأفغانستان على طول المحور الإيراني الشرقي لاحتلال مشهد وزاهدان.

[105←]
قُدمت الخطة الأولى إلى هيئة الأركان المشتركة للمراجعة في 31 تموز/يوليو من العام 1980، وتم تعديلها خلال العام التالي، وأعيد تقديمها في 13 شباط/فبراير من العام 1981.

[106←]
RDJTE OPLAN 1001-81, February 15, 1981, Annex C, pp. C1-C13

[107←]
حملت الخطة الأولى الرمز 1001، لكن سرعان ما ظهرت ثلاث خطط بديلة، حملت الأرقام (1002، 1003، 1004)، استناداً إلى الظروف التي قد تعجّل الغزو، وفي حال تزامنه مع حرب شاملة في أوروبا. (COMRDJTF message to Joint Chiefs of Staff, "OPLAN 1001-81" (132306Z، شباط/فبراير 1981، ص 2.

[108←]
ضمّت القوات المخصصة لقوة العمل المشتركة للانتشار السريع في العام 1981: الجيش: الجيش الأميركي الثالث، الفيلق الثامن عشر المنقول جواً، الفرقة المجوقلة 82، فرقة الهجوم الجوي 101، فرقة المشاة 24، لواء الفرسان 6، كتيبتين من كتائب الحرس، مجموعة واحدة من القوات الخاصة. القوات الجوية: 17 سرباً تكتيكياً مقاتلاً، سربا استطلاع، 19 سرب نقل جوي. ومن سلاح المشاة: سلاح مشاة البحرية الأول، الفرقة البحرية الأولى، الجناح البحري الأول، قيادة دعم خدمة القوات البحرية الأولى. سلاح البحرية: 3 ناقلات جند بحرية، مجموعة عمل سطحية واحدة، مجموعة خاصة للحرب البحرية.

[109←]
رسالة هيئة الأركان المشتركة إلى رئيس أركان الجيش الأميركي، «دليل التخطيط لمواجهة الغزو السوفيتي لإيران (262336Z)، أيلول/سبتمبر 1980؛ رسالة هيئة الأركان المشتركة»، دليل التخطيط لمواجهة الغزو السوفيتي لإيران (DTG 262336Z)، أيلول/سبتمبر 1980، ص 2- 3؛ مذكرة وزارة الجيش، ‘استراتيجية الولايات المتحدة لمواجهة هجوم سوفيتي كبير على إيران، 25 نيسان/أبريل 1981، ص 3- 4. يختلف عدد الفرق العسكرية السوفيتية المعدّة لغزو إيران اختلافاً كبيراً في مختلف الوثائق التي قدّمتها الوكالات العسكرية والاستخبارية الأميركية، وتراوح بين 17 و30 فرقة.

[110←]
بالنسبة لإدارة ريغان، شكّل التخطيط الاستراتيجي أو النووي ضد السوفيت أولوية. بقيت إيران ملحقةً بالتصورات الأوسع. سارع واينبرغر فور تسلمه منصبه الجديد في البنتاغون إلى وضع ثلاثة خيارات بشأن الأسلحة النووية ضد السوفيت. يهدف الخيار الأول إلى ردع المزيد من الهجمات السوفيتية، ويقتصر على مهاجمة القوات العسكرية السوفيتية في إيران وأفغانستان فقط. في حال فشل الردع، ستصعّد الولايات المتحدة إلى حدّ «التصعيد الجغرافي» كي تقضي على القواعد العسكرية السوفيتية في البلدان المجاورة، لاسيما في إثيوبيا واليمن الجنوبي. ويقوم الخيار الأخير على مهاجمة المنشآت العسكرية والوحدات القتالية السوفيتية المنتشرة في إقليم القوقاز السوفيتي.

[111←]
معهد بروكينغز، «مشروع دراسة تكلفة الأسلحة النووية الأميركية»

The U.S Nuclear Weapons Cost Study Project
www.brookings.edu,/projects/archive/nucweapons/madm.aspx, accessed April 4, 2007.

[112←]
رسالة هيئة الأركان المشتركة إلى رئيس العمليات البحرية، «قواعد اشتباك الدوريات في الخليج العربي الصادرة عن رئيس قيادة المحيط الهادئ» CINCPAC Rules of Engagement for Patrol of the Arabian Gulf) (030133Z)، آذار/مارس 1981.

[113←]
توجيه رئاسي/مجلس الأمن القومي 63، «الإطار الأمني في الخليج العربي» Persian Gulf Security Framework، م15 كانون الثاني/يناير 1981.

[114←]
Allan Millet and Shulimson, eds., Commandants of the Marine Corps (Annapolis: Naval Institute press, 2004), p. 453.

[115←]
جون بويندكستر، مقابلة مع المؤلف، 8 آذار/مارس 2008.

[116←]
مذكرة هيئة الأركان المشتركة الموجهة إلى وزير الدفاع، «تحديد الاحتياجات من التسهيلات لدعم استراتيجية جنوب غرب آسيا»، 3 شباط/فبراير 1982.

[117←]
مذكرة ريتشارد آلن الموجهةإلى كاسبر واينبرغر، «رهائن إيران والقضايا ذات صلة»، 1981.

[118←]
مذكرة ريتشارد آلن بشأن توجيهات وقرارات مجلس الأمن القومي ضد إيران، «اجتماع مجلس الأمن القومي»، 29 أيلول/سبتمبر 1981، وثائق واينبرغر، مكتبة الكونغرس، العلبة 638: 1، ملف إيران 2.

[119←]
Casper Weinberger, In the Arena: A Memoir of the 20th Century (Washington, D.C.: Regnery, 2001), pp. 287-288.

[120←]
كاسبار واينبرغر، مقابلات مع المؤلف، 15 كانون الأول/ديسمبر 1994، 1 أيار/مايو 1996 وأيلول/سبتمبر 2000.

[121←]
رسالة الجنرال فولني وارنر إلى كاسبار واينبرغر، 20 كانون الثاني/يناير 1980، الملحق ب، Warner Oral history، وثائق فولني وارنر، معهد التاريخ العسكري للجيش الأميركي، Carlisle, AP. دعا وارنر أيضاً إلى منح قيادة الجاهزية مسؤولية نشر القوات في إطار العمليات العسكرية في كل أنحاء العالم. متخذةً من قوات الانتشار السريع التابعة لها مركز قيادة لها في منطقة الشرق الأوسط.

[122←]
مقابلة مع كاسبار واينبرغر.

[123←]
رسالة الفريق روبرت كينغستون إلى كاسبار واينبرغر في 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1982؛ المقدم تشارلز سيفرت، القوات الجوية الأميركية، مذكرة إلى واينبرغر في 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1982، وثائق واينبرغر، العلبة 1:713، ملف عام 1982 لقائد قوات الانتشار السريع الأميركية.

[124←]

مذكرة رونالد ريغان إلى كاسبار واينبرغر في 29 نيسان/أبريل 1981؛ مذكرة ريتشارد آلن إلى كاسبار واينبرغر، «ترتيبات قيادة الشرق الأوسط»، 13 آب/أغسطس 1981؛ مذكرة رونالد ريغان إلى كاسبار واينبرغر، 17 أيار/مايو 1982؛ وثائق واينبرغر، العلبة 1:713، ملف قائد قوات العمل المشتركة للانتشار السريع في الولايات المتحدة.

[125←]
اعترض السناتور ستيفنز على إلغاء المهمة العالمية لقوات الانتشار السريع، معرباً عن عدم رضاه عن تخصيص قيادة للشرق الأوسط فحسب، ما دفع بسلاح البحرية إلى اقتراح تصنيف قوات الانتشار السريع كقوات ضربة عالمية بدلاً من اعتبارها قيادة موحدة، الأمر الذي يشوّه الطابع الحالي لمهمتها بدرجة كبيرة.

[126←]
في محاولة لاسترضاء البحرية، وافق القادة على استبعاد القوات البحرية من القيادة الجديدة في الشرق الأوسط، باستثناء الأسطول الصغير العامل في الخليج العربي. استُبعدت مجموعات المحيط الهندي والسفن الحاملة للطائرات القتالية المتواجدة في تلك المنطقة لدعم القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم)، وظلت تحت سيطرة أسطول المحيط الهادئ في هونولولو. فالمفهوم الغامض القاضي بتوفير الدعم للقيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) إنما يعني أنّ بإمكان سلاح البحرية الحفاظ على استقلاليته عن القيادة الجديدة، مع التزامه اسمياً بدعم عملياتها، ممّا أثار مشاكل لا نهاية لها خلال السنوات التي تلت، فشكلت البحرية قوات عمل مشتركة جديدة لدعم القيادة المركزية الأميركية، أطلق عليها اسم (CTF-70)، وكانت خاضعة للسيطرة العملياتية لقائد أسطول المحيط الهادئ.

[127←]
رسالة الجنرال فولني وارنر إلى الرئيس رونالد ريغان، 8 تموز/يوليو 1981، ملحق Warner Oral History ,(F).

[128←]
الجنرال فولني وارنر، (متقاعد) أميركي، مقابلة مع المؤلف، 7 نيسان/أبريل 2008.

[129←]
ناقش الرجلان أيضاً إمكانية وجود تحالف سري بين العدوين اللدودين إسرائيل وسوريا لتقسيم لبنان.

[130←]
مذكرة رونالد ريغان إلى كاسبار واينبرغر، 29 نيسان/أبريل1981؛ مذكرة ريتشارد آلن إلى كاسبار واينبرغر، «ترتيبات قيادة الشرق الأوسط»، 13 آب/أغسطس، 1980؛ وثائق واينبرغر، العلبة 1:713، ملف قائد قوات العمل المشتركة للانتشار السريع في الولايات المتحدة.

[131←]
توترت العلاقات بين البلدين بسبب رفض الحكومة الإسرائيلية تجميد بناء المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية الفلسطينية، حيث اعتقد الرئيس كارتر أن رئيس الوزراء مناحيم بيغن وافق على ذلك بموجب اتفاقية كامب ديفيد المبرمة بين إسرائيل ومصر. وفي حين لم تجد هيئة الأركان المشتركة جدوى من استخدام إسرائيل للدفاع عن الخليج العربي، دعت إلى استخدامها للمساعدة في الحفاظ على السيطرة على المناطق الواقعة غرب البحر الأبيض المتوسط ضد الغواصات السوفيتية.

[132←]
مذكرة رونالد ريغان إلى كاسبار واينبرغر، 17 أيار/مايو 1982؛ مذكرة كاسبار واينبرغر إلى رونالد ريغان، «القيادة الموحدة لجنوب غرب آسيا»، 23 تموز/يوليو 1982؛ فرانسيس ويست الابن، مذكرة إلى كاسبار واينبرغر، «قيادة

جديدة لجنوب غرب آسيا»، 20 أيار/مايو 1982، وثائق واينبرغر، العلبة 1: 713، ملف قائد قوات العمل المشتركة للانتشار السريع في الولايات المتحدة RDJTF2.

[133←]
.Henry Cunningham, "Delta Pioneer Dies", Fayetteville Observer, March 22, 2007

[134←]
م(Ho Chi Minh) قائد ثوري فيتنامي (1890- 1975). قاد الحرب ضد الفرنسيين حتى أخرجهم من فيتنام وضد الأميركيين حتى هزيمتهم في فيتنام. أصبح رئيساً للوزراء ثم رئيساً لفيتنام الشمالية. اسمه الحقيقي نيوجنن شن شونج، أما اسم هوشي منه فهو يعني في اللغة الفيتنامية «ذو الروح المشعّة». عرف هوشي منه بخطاباته الحماسية الأبوية إبان حرب فيتنام فقد كان يبدأ خطاباته بقوله: «أبنائي المواطنون، بناتي المواطنات». وقد اتسمت خطاباته دائما بالحكمة والرزانة، وكان يدعو في خطاباته إلى الكفاح ضد الولايات المتحدة، وهو المؤسس الفعلي للحكمة القائلة: «إذا مات أخي أدوس فوقه وأواصل القتال». (المترجمة)

[135←]
ريتشارد شولتز الابن، الحرب السرية ضد هانوي: استعانة كنيدي وجونسون بالجواسيس والمخربين والمحاربين السريين في شمال فيتنام

The Secret War Against Hanoi: Kennedy and Johnson's Use of Spies. Saboteurs, and Covert Warriors in North Vietnam (New York: Harper Collins, 1999), p. 89.

[136←]
كان كينغستون يأمل في أن يُعيّن نائباً لمدير وكالة الاستخبارات المركزية عوضاً عن المدني جون ماكماهون.

[137←]
الرائد سيزار جي سيفيتيلا، (متقاعد) أميركي، مقابلة مع المؤلف، 5 آذار/مارس 2010.

[138←]
وليام وليامز ووليام هاندي، مقابلة مع المؤلف خلال الاجتماع المخصص للاحتفال بالذكرى السنوية الثلاثين لإنشاء قوات العمل المشتركة للانتشار السريع، 4 آذار/مارس 2010، تامبا، فلوريدا.

[139←]
رسالة من قائد القيادة المركزية الأميركية لهيئة الأركان المشتركة، «خطط لمواجهة الغزو السوفيتي لإيران» (021530)، آب/أغسطس 1983.

[140←]
على الرغم من الحفاظ على الخطة الأساسية المتعلقة بالتدخل السلبي للقوات الأميركية، وضعت القيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) خطتين جديدتين مختلفتين قليلاً، بالاستناد إلى نقاط التمركز والقوات المجهزة للغزو المتوفرة في البلدان المجاورة، والرامية إلى إلحاق الهزيمة بالقوات الإيرانية أولاً ومن ثم الجيش الأحمر. عكس التخطيط للمرة الأولى تحديات مواجهة السوفيت في بلدٍ معادٍ للولايات المتحدة. ففي حال فشلت الدبلوماسية الأميركية في تأمين الدعم للإيرانيين، فإن على القوات الأميركية أن تتمركز مسبقاً، «إن التوغل في إيران لمواجهة الغزو السوفيتي، واعتراض تقدمه سوف يكون أصعب بكثير». صُنفت الخطتان الجديدتان بـ الخطة 1008 والخطة 1009.

[141←]
هيئة الأركان المشتركة، «دراسة لتحسين قدرات القوات الأميركية المعنية بالعمليات الخاصة»، 18 آذار/مارس 1981، ص 1- 20.

[142←]
طالب كينغستون أيضاً بالسماح له باستخدام قواته الخاصة لضرب عمق منطقة القوقاز السوفيتية والسعي إلى محاولة التعاون مع خصوم موسكو المسلمين بغية تشكيل عصابات داخل الاتحاد السوفيتي، غير أن البيت الأبيض رفض هذا الاقتراح ولم يسمح لوزير الدفاع سوى بتطبيق الخطة الأولية فحسب.

[143←]
جيفري ريتشلسون، مجتمع الاستخبارات الأميركية (نيو يورك: بالينجر، 1989) (Intelligence Community (New York: Ballinger, 1989)، ص 61- 62؛ ستيفن إيمرسون، محاربون سريون: في قلب العمليات العسكرية السرية في عهد ريغان (Secret Warriors: Inside the Covert Military Operations of the Reagan Era (New York: Putnam, 1988؛ الفريق فيليب غاست، سلاح الجو الأميركي، مذكرة إلى مدير الوكالة، وكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع، «قدرة الاستخبارات»، 10 كانون الأول/ديسمبر 1980، ص 1؛ «هيئة دعم نشاط الاستخبارات في الجيش الأميركي، تقرير تاريخي1987، «هيئة دعم نشاط الاستخبارات في الجيش الأميركي»، 23 تشرين الأول/أكتوبر1987، ص 7- 9؛ مذكرة نائب وزير الدفاع فرانك كارلوتشي إلى نائب وكيل الشؤون السياسية، 26 أيار/مايو 1982؛ «النظام الأساسي لهيئة دعم نشاط الاستخبارات في الجيش الأميركي»، 1983؛ «تاريخ موجز عن الهيئة»، 1986، أرشيف الأمن القومي،

www.gwu.edu/NSAEBB/NSAEBB46, accessed July 4, 2007;
www.specwarnet.net/ameicas/isa.htm

[144←]
مقابلة مع أودوم.

[145←]
عزز مركز أنشطة الوحدات الخاصة البحرية في فورت بلفوار هيئة دعم أنشطة الاستخبارات، وعمل على تنسيق الأنشطة مع مكتب الاستخبارات البحرية في سلاح البحرية الأميركية، الذي بذل جهداً لإجراء عمليات تجنيد منفصلة استهدفت بشل خاص ضباط البحرية الإيرانية.

[146←]
هو اختصار لـ "U.S. Army Mission in Iran/Military Assistance Advisory Group"، «أي خطة مهمة الجيش الأميركي في إيران/ مجموعة استشارية للمساعدات العسكرية». (المترجمة)

[147←]
هوارد هارت، مقابلة مع المؤلف، 26 حزيران/يونيو 2007.

[148←]
حديث لأدوم.

[149←]

تيموثي نفتالي، المناطق العمياء: التاريخ السري لعمليات مكافحة الإرهاب الأميركية (Blind Spot: The Secret History of American Counterterrorism (New York: Basic Books, 2005، ص 124.

[150←]
جوزيف برسيكو، كيسي: حياة وأسرار وليام جي كيسي، من مكتب الخدمات الاستراتيجية إلى وكالة الاستخبارات المركزية (The lives and Secrets of William J. Casey, from the OSS to the CIA (New York: Viking, 1990، ص71.

[151←]
جوزيف برسيكو، كيسي: حياة وأسرار وليام جي كيسي، من مكتب الخدمات الاستراتيجية إلى وكالة الاستخبارات المركزية (The lives and Secrets of William J. Casey, from the OSS to the CIA (New York: Viking, 1990، ص66.

[152←]
المصدر نفسه.

[153←]
جلسات ترشيح روبرت غيتس لرئاسة وكالة الاستخبارات المركزية، الملف 1، مجلس الشيوخ الأميركي، لجنة الاستخبارات التابعة للكونغرس 102، الدورة 1، 16- 20 أيلول/سبتمبر 1991، ص 475.

[154←]
جون برادوس، أمن الديمقراطية: الحروب السرية التي خاضتها وكالة الاستخبارات المركزية، (Safe for Democracy: The Secret Wars of the CIA (Chicago: Ivan R. Dee, 2006، ص 500؛ برسيكو، «كيسي.»..، Casey، ص301.

[155←]
ذُكر أن الأحداث في إيران لم تعد تتسم بالفوضوية بالقدر الذي كانت عليه عام 1985. هذا وقد قال فولر في الشهادة التي أدلى بها أمام الكونغرس: «لم نتمكن بعد من التثبت من بعض الأمور التي تثير قلقنا». جلسات ترشيح روبرت غيتس لرئاسة وكالة الاستخبارات المركزية، التقرير التنفيذي 102- 19، مجلس الشيوخ الأميركي، اختيار لجنة الاستخبارات، الكونغرس 102، الدورة 1، 19 تشرين الأول/أكتوبر 1991، ص 46- 48.

[156←]
جاك ديفاين، مقابلة مع المؤلف، 25 آذار/مارس 2008.

[157←]
مذكرة ريتشارد آلن، «اجتماع مجلس الأمن القومي، مسودة قرارات وتوجيهات مجلس الأمن المتعلقة بإيران»، 29 أيلول/سبتمبر، 1981.

[158←]
روبرت ماكفرلين، مقابلة مع المؤلف، 23 آذار/مارس 2008.

[159←]
«تصريح القاضي وليام كيسي»، 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1986، في جلسات ترشيح روبرت غيتس لرئاسة وكالة الاستخبارات المركزية، الملف 1، ص 106- 107.

[160←]
فيليب جيرالدي، مقابلة مع المؤلف، 15 تموز/يوليو 2010.

[161←]
تيم وينر، إرث من الرماد: تاريخ الـ «سي.آي.آيه»، الصادر بترجمته العربية عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2009؛ Tim Weiner Legacy of Ashes: The History of CIA (New York: Doubleday, 2007)، ص 425- 426؛ تيم وينر، مقابلة هاتفية مع المؤلف، 29 أيار/مايو 2007؛ «إفادات جواسيس أميركيين بشأن أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية» (U.S. Spies' Statements on CIA Activities)، راديو وتلفزيون طهران الناطق باللغة الفارسية، 3 تشرين الثاني/نوفمبر 1989، خدمة معلومات البث الخارجية (FBIS)، م7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

[162←]
مقابلة مع جيرالدي.

[163←]
نزهتون رياحي، مقابلة مع المؤلف، 20 تشرين الثاني/نوفمبر 2008.

[164←]
سعيد زنكنه، مقابلة مع المؤلف، 18 تشرين الثاني/نوفمبر 2007.

[165←]
«الولايات المتحدة ترتكب خطأً بحق الجواسيس» (U. S. Blunder Over Spies)، وكالة الأنباء الإيرانية، 22 نيسان/ أبريل 1989، خدمة معلومات البث الخارجية، 24 نيسان/أبريل 1989؛ ص 24؛ «وزير الإعلام يعلن عن أسماء جواسيس وكالة الاستخبارات المركزية»، وكالة الأنباء الإيرانية، 26 نيسان/أبريل 1989، خدمة معلومات البث الخارجية 27 نيسان/أبريل، 1989 ص 43- 50؛ «نص المؤتمر الصحفي»، راديو وتلفزيون طهران الناطق باللغة الفارسية، 26 نيسان/أبريل 1989، خدمة معلومات البث الخارجية، 27 نيسان/أبريل 1989؛ مقابلة مع زنكنه.

[166←]
من بينهم قائد البارجة الإيرانية المدمرة باهر.

[167←]
مقابلة مع زنكنه.

[168←]
نص المؤتمر الصحفي لوزير الاستخبارات والأمن حجة الإسلام ريشهري. 26 نيسان/أبريل 1989، خدمة معلومات البث الخارجية، 27 نيسان/أبريل 1989، ص 44- 50.

[169←]

رضا خليلي، مقابلة مع المؤلف، 10 تموز/يوليو 2010؛ محمد سحيمي، «انهيار السلطة القضائية في إيران» (Iran's Crumbling Judiciary)، 15م آب/أغسطس 2009، آخر دخول إلى الموقع الالكتروني ذي الصلة في 29 كانون الثاني/ يناير 2011:

www.pbd.prg/wgbh/pages/frontline/tehranbureau/2009/08/irans-crumbling-judiciary.html

[170←]

«تلفزيون طهران: تفاصيل عمليات التجسس السرية، برامج سرية للغاية»، حلقة بعنوان: «العمليات السرية»، راديو / تلفزيون طهران، 4 أيار/مايو 1989، خدمة معلومات البث الخارجية، 8 أيار/مايو 1989.

[171←]

مقابلة مع خليلي.

[172←]

«وكالة الاستخبارات المركزية ترفع الحظر عن أقدم وثائق ضمن مجموعة الحكومة الأميركية»، 11 نيسان/أبريل 2011، آخر دخول إلى الموقع الإلكتروني ذي الصلة في 12 أيار/مايو 2011 www.Foia.cia.gov

[173←]

مقابلة مع جيرالدي: روبرت والاس وإتش كيث ميلتون، مهنة التجسس: التاريخ السري لتقنيات التجسس في وكالة الاستخبارات المركزية، من الشيوعية إلى تنظيم القاعدة (Spy craft: The Secret History of the CIA's Spy techs from Communism to Al-Qaeda (New York: Dutton, 2008، نسخة إلكترونية.

[174←]

More on Sermon on Spies", Tehran Domestic Service in Persian, April 21, 1989, Kahlili" .interview

[175←]

مقابلة مع خليلي.

[176←]

رسالة من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية إلى سفارة طهران (Zم102330)، آب/أغسطس 1979.

[177←]

في بداية شهر آب/أغسطس 1979، أبدت وكالة الاستخبارات المركزية اهتماماً بالجهود المبذولة من قبل ضباط سابقين في الجيش الإيراني لتنظيم معارضة ضد رجال الدين في طهران، حيث جرى الاجتماع الأول في أحد فنادق لندن برئاسة القائد السابق لسلاح الجو الإيراني الجنرال حسن توفانيان. وقد علمت الحكومة الإيرانية بالاجتماع بعد الاستيلاء على السفارة، حيث بذل الطلاب جهداً لتجميع قطع رسالة ممزقة تصف اجتماع توفانيان. رسالة من وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية إلى السفارة الأميركية في طهران (Zم102330)، آب/أغسطس 1979.

[178←]

كينيث تيمرمان، العد التنازلي للأزمة: المواجهة النووية الحاسمة مع إيران، (Countdown to Crisis: The Coming Nuclear Showdown with Iran (New York: Crown Forum, 2005، ص 215.

[179←]
جون برادوس، آمنٌ للديمقراطية: الحروب السرية لـ «سي.آي.إيه»، Safe for Democracy، ص 500؛ Richelson، مجتمع الاستخبارات الأميركي، ص 355- 356.

[180←]
يُعتبر الغزو الأميركي لأفغانستان عام 2001 خير مثال على هذه العلاقة التكافلية. فقد اختار عملاء وكالة الاستخبارات المركزية شبه العسكريين أن يتوغلوا أولاً مستفيدين من علاقاتهم الوطيدة بالقبائل الأفغانية والتي كانت ترقى إلى أكثر من اثنتين وعشرين سنة ليلحق بهم، بعد بضعة أسابيع، جنود من مجموعة القوات الخاصة الخامسة التي تدعمها وحدات العمليات الخاصة في القوات الجوية وسلاح الطيران. وبفضل التغطية التي كانت قوات العمليات الخاصة توفرها لمساعي وكالة الاستخبارات المركزية نجحت القوات العسكرية في إطاحة تنظيم القاعدة وحركة طالبان قبل أن يتسنى لقادة البنتاغون التفكير في إمكانية حدوث ذلك. ومع وصول إدارة ريغان إلى واشنطن، كانت عازمة على تعزيز القوات العسكرية الأميركية، ولاسيما النخبة من قوات العمليات الخاصة. فحجم القوات الخاصة العسكرية، التي لم تلقَ شعبية لدى قادة وحدات المدرّعات وسلاح المشاة ذوي الذهنية التقليدية، تقلّص بعد حرب فيتنام، حيث انخفض عديدها إلى النصف، كما تمّ دمج وحداتها، بطريقة مخزية، بوحدات الحرس القومي وقوات الاحتياط، حتى بات بإمكان الضباط أن يزينوا أزياءهم الرسمية بشارة «القوات الخاصة»، التي يطمح إليها الكثيرون، من خلال متابعة دورة بالمراسلة ودون الحاجة إلى الخضوع إلى فحص دقيق.

بعد فشل مهمة الإنقاذ الايرانية عام 1980، واستلام القيادة المدنية الجديدة دفة القيادة، اضطرّ كلٌّ من الكونغرس ووزارة الدفاع الجيش وسلاح البحرية والجو إلى استدعاء أولئك الرجال المنسيين الذين يتحلون بمؤهلات عالية. وفي محاولة من هيئة الأركان المشتركة لاسترضاء أنصار قوات العمليات الخاصة، أنشئت وكالة العمليات الخاصة المشتركة بهدف تنسيق التدريب على العمليات الخاصة وتنفيذ العمليات عبر الجيش. غير أن ذلك لم يكن كافياً، مما دفع الكونغرس إلى إصدار قانون في العام 1987 لإنشاء قيادة القوات الخاصة، التي تولت، بشكل فعال، تدريب وتمويل قوات العمليات الخاصة بعيداً عن تلك الهيئات الثلاث. رفضت القوات البحرية المشاركة في قيادة العمليات الخاصة، إلى أن أصدر وزير الدفاع دونالد رامسفيلد قراراً بالمشاركة في العام 2005.

Department of Defense, Defense Resources Board-Directed Special Operations Review, "Special Operations Forces (SOF): Roles, Missions, and Organization", June 3, 1982.

[181←]
كانت هذه الخطة مماثلة للخطة التي استعين بها عام 2001 في أفغانستان. وفي حين أثبتت هذه الخطة نجاحاً لافتاً، حققت تلك العمليات شبه العسكرية، بحسب سجلّ وكالة الاستخبارات المركزية، نجاحاً متفاوتاً. فقد صرّح عميل متقاعد من وحدة العمليات في وكالة الاستخبارات المركزية قائلاً: «من الصعب جداً تشجيع حركات التمرد لمناهضة الحكومة في دولة ذات حكم استبدادي؛ وفي حين ينبغي إنشاء شبكة من المناصرين من السكان الأصليين، من الصعب أن تنجح محاولة القيام بذلك خارج البلد المحظور، بالاستعانة بموارد وكالة الاستخبارات المركزية أو المنفيين». في الثمانينيات، نجحت وكالة الاستخبارات المركزية بقيادة كيسي في تعزيز وتشجيع المتمردين المناهضين للساندينية في نيكاراغوا، وشكلت حركة مقاومة كبرى ضد السوفيت في أفغانستان. ولكن بالعودة إلى الخمسينيات، فشلت وكالة الاستخبارات المركزية في تنظيم أي مقاومة ذات صدقية ضد الاتحاد السوفيتي في أوكرانيا ودول البلطيق. كما فشلت الوكالة فشلاً ذريعاً في شمال فيتنام، حيث تعرضت فرق جيش فيتنام الجنوبي، التي ترأستها وكالة الاستخبارات المركزية، للقتل أو الأسر بعد تعرضها للخيانة من العملاء المزدوجين في جيش فيتنام الجنوبي المتعاونين مع الشيوعيين.

[182←]
«الخطوط العريضة لتجنيد الجواسيس وتدريبهم، المخططات الأميركية»، صحيفة طهران تايمز باللغة الإنكليزية، 14 أيلول/سبتمبر 1989، خدمة معلومات البث الخارجية، 21 أيلول/سبتمبر. 1989

[183←]
اعتبرت القيادة المركزية الأميركية مراقبة الموقع مهمة جداً بالنسبة إلى «سنتكوم» حيث كلفت كتيبةً بكاملها من القوات الخاصة بالمهمة.

[184←]
«وكالة الاستخبارات المركزية تُدلي بتعليقات إضافية بشأن أنشطة التجسس» (CIA Spy Comments Further on Activities) راديو وتلفزيون طهران، 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1989، NES-89-215؛ خدمة معلومات البث الخارجية، 8 تشرين الثاني/نوفمبر 1989، ص 57.

[185←]
مقابلة مع هارت.

[186←]
مقابلة مع سازكارا.

[187←]
مغامرات وكالة الاستخبارات المركزية في تركيا: مقابلة مع فيليب جيرالدي، موقع Balkanalysis.com، في 30 تموز/ يوليو 2006، آخر دخول إلى الموقع تمّ في 5 تموز/يوليو 2007:

www.balkanalysis.com/blog/2006/07/30/adventures-with-the-cia-in-turkey-with- philip-giraldi

[188←]
«جواسيس وكالة الاستخبارات المركزية» (CIA Spies)، مؤتمر صحفي مع وزير المخابرات والأمن حجة الإسلام ريشهري، راديو وتلفزيون طهران، 26 نيسان/أبريل 1989، خدمة معلومات البث الخارجية، NES-89-080، م27 نيسان/أبريل 1989.

[189←]
مقابلة مع خليلي.

[190←]
Kevin Woods, Michel Pease, Mark Stout, Williamson Murray, and James Lacey, Iraqi Perspectives Project: A View of Operation Iraqi Freedom from Saddam Hussein's Senior Leadership.

وزارة الدفاع، قيادة القوات المشتركة، 2006، ص 7.

[191←]
ازداد قلق صدام حسين بعد وصول تقارير تفيد بأن ضباطاً شيعة صغاراً في السنّ يقومون بتخريب الطائرات والدبابات دعماً للثورة الإيرانية. «مقابلة مع الفريق رعد حمداني»، وردت في كتاب:

Kevin Woods, Williamson Murray, and Thomas Holaday, Saddam's War: An Iraqi Military Perspective of the Iran-Iraq War, McNair Paper 70 (Washington, D.C.: National Defense University, March 2009), p. 28.

[192←]
Joint Staff, Contingency Planning Group, "Opportunities for U.S. Policy in the Wake of the Iranian Crisis," January 1980, p. 18.

[193←]
تعليقات جورج كاف، «نحو تاريخ دولي للحرب العراقية-الإيرانية 1980- 1988: ورشة عمل للتاريخ الشفوي النقدي»، Toward an International History of the Iran-Iraq War, 1980-1988: A Critical Oral History Workshop», مركز وودرو ويلسون الدولي للباحثين Wilson International Center for Scholars، مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة (Cold War International History Project)، 19م تموز/يوليو، 2004؛ مقابلة كاف.

[194←]
محسن سازكارا، «التعامل مع إيران: دروس من الماضي»

«Engaging Iran: Lessons from the Past», Washington Institute for Near East Policy, Policy Watch Focus 93, May 2009, p.6.

[195←]
رسالة إلكترونية من غاري سيك إلى المؤلف، 22 آذار/مارس 2010.

[196←]
مذكرة زبيغنيو بريجينسكي إلى الرئيس جيمي كارتر، «تقرير مجلس الأمن القومي الأسبوعي رقم 122»، 21 كانون الأول/ديسمبر 1979.

[197←]
لا تزال الشائعات التي تشير إلى أن واشنطن شجعت سراً على الهجوم قائمة. في شهر نيسان/أبريل من عام 1981، أرسل وزير الخارجية الجديد ألكسندر هيغ مذكرة إلى الرئيس رونالد ريغان، أبلغه فيها أن وزير الخارجية السعودي، ولي العهد الأمير فهد أكد أن كارتر طلب منه نقل رسالة إلى صدام حسين، يعطيه فيها «الضوء الأخضر لشن حرب على إيران». وفي حين أنه من الصعب استبعاد تأكيدات فهد تماماً، إلا أنها تتعارض مع الوثائق السرية التي تم الكشف عنها والتي تتعلق بآراء كارتر إزاء الحرب بين إيران والعراق. كان هدف هيغ من المذكرة إثارة إعجاب ريغان عقب رحلته الأولى كوزير للخارجية إلى الشرق الأوسط. كما أعلن هيغ خلال الرحلة نفسه أنه توصل إلى اتفاق مع إسرائيل والدول العربية الموالية للغرب بشأن تشكيل جبهة مشتركة لمواجهة الاتحاد السوفيتي. قال نيكولاس فيليوتس، مساعد وزير الخارجية لشؤون جنوب آسيا والشرق الأدنى حينذاك: «إن ذلك لم يحدث، ما يثير لديّ الشكوك بشأن كل ما ورد في هذه المذكرة تقريباً». تعليقات نيكولاس فيليوتس،

«Toward an International History of the Iran-Iraq War, 1980-1988: A Critical Oral History Workshop», Woodrow Wilson International Center for Scholars, Cold War International History Project», July 19, 2004

[198←]
وارد (Ward)، الخالد Immortal، ص 242.

[199←]

كارل فون كلاوزفيتز (1780-1831)-(Carl von Clausewitz)، جنرال ومؤرخ حربي بروسي. من أهم مؤلفاته كتاب فن الحرب (Vom Kriege). تركت كتاباته حول الفلسفة والتكتيك والإستراتيجية أثراً عميقاً في المجال العسكري في البلدان الغربية. تُدرس أفكاره في العديد من الأكاديميات العسكرية، كما أنها تستعمل في مجالات عدة، مثل قيادة المؤسسات والتسويق. ويعتبر من أكبر المفكرين العسكريين شهرة وتأثيراً على مر التاريخ. (عن موسوعة ويكبيديا) (المترجمة)

[200←]
وارد (Ward)، الخالد Immortal، ص 253- 254.

[201←]
حديث لسازكارا.

[202←]
وارد (Ward)، الخالد Immortal، ص 226.

[203←]
وارد (Ward)، الخالد Immortal، ص 256.

[204←]
مذكرة بينغ ويست لكاسبر واينبرغر، «الانفتاح على العراق Opening to Iraq»، م3 شباط/فبراير 1982، وثائق واينبرغر، العلبة: 1:683، ملف العراق.

[205←]
رسالة من مكتب رعاية المصالح الأميركية في بغداد إلى وزير الخارجية، «لقاء مع طارق عزيز» (231255مY)، أيار/ مايو 1981.

[206←]
مذكرة المقدم إر. إل. هاتشرت إلى مدير الخطط والسياسات، الأركان المشتركة، «اجتماع كبار المسؤولين ما بين الوكالات حول إيران والعراق»، 25 تموز/يوليو 1982.

[207←]
مذكرة بول بريمر، «ورقة عمل لاجتماع مجموعة ما بين الوكالات إيران والعراق، مجموعة الوكالات المشتركة رقم 2»، 23 تموز/يوليو 1982.

[208←]
Sworn Statement by Howard Teicher, U.S. District Court, Southern District of Florida, case number 93-241-CRHIGHSMITH, January 31, 1995,

رسالة من ريتشارد ميرفي إلى دونالد رامسفيلد، «خطوات المتابعة بشأن العراق-إيران» (120318مZ)، كانون الثاني/ يناير 1984.

[209←]
فيليب ويلكوكس، Foreign Affairs Oral History Program، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، أجرى المقابلة ستيوارت كينيدي، 27 نيسان/أبريل 1988.

[210←]
روبرت أوكلي، مقابلة مع المؤلف، 12 كانون الأول/ديسمبر 1994، وليام تافت الرابع، مقابلة مع المؤلف، 16 آب/أغسطس 1996.

[211←]
ريتشارد أرميتاج، مقابلات مع المؤلف، 14 كانون الأول/ديسمبر 1994، 15 شباط/فبراير 2007، 4 آذار/مارس 2008.

[212←]
مذكرة زبيغنيو بريجينسكي إلى الرئيس جيمي كارتر، «التقرير الأسبوعي رقم 157 لمجلس الأمن القومي»، 10 تشرين الأول/أكتوبر 1980.

[213←]
أُضيفت، في عام 1985، ناقلتا وقود من طراز KC-10 إلى ثلاث ناقلات من طراز KC-135S، وبذلك أصبح عدد الطائرات التي تزوّد بالوقود في الجو خمساً، وذلك لدعم مهمة أواكس.

[214←]
اللواء وين شرام، الأسطول الأميركي(متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 26 أيار/مايو 1995؛ مذكرة إلى الجنرال جورج كريست «انتقال»ELF-1، تشرين الثاني/نوفمبر 1988. أيضاً العقيد جورج وليامز، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 13 كانون الأول/ديسمبر 1994. كانت طائرات الأواكس في البداية تحت تصرف القيادة الأوروبية التي كانت مسؤولة عن المملكة العربية السعودية في العام 1980. وبقيت تحمل اسمها الأول، قوة الارتباط الأوروبية-واحد، حتى بعد أن تسلّمت CENTCOM قيادة العمليات من القيادة الأوروبية. عملت ستة أطقم على أربع طائرات أواكس، حيث يقوم كل طاقم بمهمة كل يومين كي تبقى المراقبة مستمرة.

[215←]
ELF-One Fact sheet", United States Air Force, February 1983, Operational Archives, Naval Historical Center, Washington, D.C., JTF/MEF records, Series 3, Box 10, Folder 5, .ELF Exchange, p. 2

[216←]
رسالة وزير الخارجية إلى مكتب رعاية المصالح الأميركية في بغداد، (De-Designation of Iraq as «Supporter of International Terrorism» (272235Z»، شباط/فبراير 1982.

[217←]
كينيث بولاك، الأحجية الفارسية: الصراع بين العراق وأميركا (The Persian Puzzle: The Conflict Between Iraq and America (New York: Random House, 2004، ص 207.

[218←]

رسالة وزير الخارجية الأميركية إلى مكتب رعاية المصالح الأميركية في بغداد، «إمكانيات الائتمان الأميركي مع العراق: متابعة للاجتماع مع الوزير حمادي في 14 شباط/فبراير، 1983

(U.S. Credit Possibilities with Iraq: Follow-up to February 14, 1983, Secretary Hamadi Meeting), « (161515Z),

آذار/مارس 1983؛ مذكرة وزير الخارجية إلى دونالد غريغ، «تمويل بنك الاستيراد والتصدير لخط تصدير النفط العراقي «Eximbank Financing for Iraqi Export Pipeline»، م12 تموز/يوليو 1984.

[219←]
رسالة دونالد رامسفيلد، «الاجتماع المغلق بين رامسفيلد ونائب رئيس مجلس الوزراء العراقي وزير الخارجية طارق عزيز» (م211795Z)، كانون الأول/ديسمبر 1983.

[220←]
رسالة السفارة الأميركية في لندن إلى وزير الخارجية، «مهمة رامسفيلد: اجتماع مع الرئيس العراقي صدام حسين في 20 كانون الأول/ديسمبر» (م21165Z)، كانون الأول/ديسمبر 1983.

[221←]
Bruce Jentlson, With Friends Like These: Reagan, Bush, and Saddam, 1982-1990 (New York: Norton, 1994), p. 45.

[222←]
مذكرة روبرت ماكفرلين، «حاجات الجيش العراقي» 7 أيار/مايو 1984؛ مذكرة الكولونيل جون ستانفورد إلى روبرت ماكفرلين «الخطوات التي اتخذت رداً على توصيات الوكالات بشأن حاجات الجيش العراقي» 15 حزيران/يونيو 1984؛ والتر لانغ باتريك، مقابلة مع المؤلف، 5 نيسان/أبريل 2010.

[223←]
أصبح الأردن إحدى القنوات الرئيسية للمعدات العسكرية المتجهة إلى العراق. في صفقة واحدة فقط، وصلت 32000 قذيفة مدفعية كورية جنوبية إلى العراق عن طريق ميناء العقبة الأردني. وما بين عامي 1984 و1985، وصلت شحنات ضخمة من ناقلات الجند المصفّحة السوفيتية الصنع وسيارات مصفّحة فرنسية إلى العراق. كما تم إنشاء طريق سريع ضخم من العقبة إلى غرب العراق سلكته ثمانية آلاف شاحنة ذهاباً وإياباً لتسليم حمولتها الفتاكة لآلة الحرب العراقية. سمح الملك حسين بشكل غير معلن للطائرات العراقية باستخدام قاعدة جوية غرب الأردن.

[224←]
مذكرة بينغ ويست إلى وزير الدفاع، «بيع مروحيات الى العراق». (Sale of Helicopters to Iraq)، كانون الثاني/يناير 1983؛ مذكرة ديفيد شنايدر وجوناثان هاو إلى الوزير جورج شولتز، «تخفيف القيود المفروضة على الصادرات إلى العراق» (Easing Restrictions on Exports to Iraq)، م30 كانون الثاني/يناير 1984.

[225←]
Kenneth Timmerman, «Fanning the Flames: Guns, Greed and Geopolitics in the Gulf War», Iran Brief, 1988 pp. 1-10, www.iran.org/tib/krt/fanning_ch7.htm, accessed November 16, 2007.

[226←]
رسالة وزارة الخارجية الأميركية إلى السفارة الأميركية في عمان. «اتصال كيتاني بوكيل الوزارة إيغلبرغر» Kittani Call on Under Secretary Eagleburger (180139Z)، آذار/مارس 1984.

[227←]
رسالة وزير الخارجية الأميركية إلى السفارة الأميركية في تل أبيب، «خطوات المتابعة بشأن العراق وإيران» Follow-up Steps on Iraq-Iran (140318Z)، كانون الثاني/يناير 1984، ص 2؛ ريتشارد مورفي، مقابلة مع المؤلف، 21 كانون الأول/ديسمبر 1994؛ ريتشارد فيربانكس، أجرى المقابلة تشارلز كينيدي، Foreign Affairs Oral History Program، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، 19 نيسان/أبريل 1989، جون ستيمبل، مقابلة أجرتها كريستين هامبلين كينيدي، Foreign Affairs Oral History Program، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، 1993.

[228←]
Iraqi Officer Cited on Cooperation with CIA in War with Iran", Tehran Times, March 11," .2002

[229←]
Iraqi Officer Cited on Cooperation with CIA in War with Iran", Tehran Times, March 11," .2002

[230←]
دبليو باتريك لانغ، «بلاد ما بين النهرين» The Land Between the Rivers، غير منشور، نيسان/أبريل 2006، ص 21. كُتب كملحق لملف سيرته الذاتية في أرشيف المعهد العسكري في فرجينيا.

[231←]
Michel Dobbs, «U.S. Had Key Roll in Iraq Buildup» Washington Post,

كانون الأول/ديسمبر 2002، ص. A1.

[232←]
تعليقات جورج كاف، وليام إيغلتون، نيكولاس فيليوتس، ستيفن وارد، «نحو التاريخ الدولي للحرب العراقية الإيرانية، 1980-1988: ورشة عمل حول التاريخ الشفوي النقدي Toward an International History of the Iran-Iraq War, 1980-1988: A Critical Oral History Workshop»، مركز ويلسون وودرو الدولي للباحثين، مشروع التاريخ الدولي للحرب الباردة، ص 263-65. على مشارف القتال، وفي 23 آذار/مارس أصدرت وكالة الاستخبارات المركزية تقريراً يتم فيه تخيّل «أسوأ سيناريو» في حال انتصرت إيران: «إنّ إيران مصممة على استبدال حكم صدام البعثي العلماني بنظام شيعي أصولي متطرف تسيطر عليه طهران». وبما أن ثلاثة أرباع الجيش العراقي من الشيعة، فثمة احتمال أن يتفكك الجيش - تبدو هذه التنبؤات في مكانها عندما ينظر المرء إلى الجيش العراقي خلال الغزو الأميركي في العام 2003. وخلص تقرير وكالة الاستخبارات المركزية إلى ما يلي: «إن انتصار إيران يمكن أن يؤدي سريعاً إلى هيمنة إيرانية على الخليج كله- ستصبح الكويت والبحرين ضعيفتين بشكل خاص». ووصف التقرير في ثماني صفحات الاحتمالات إذا انتصر الإيرانيون: اضطرابات هائلة في إمدادات النفط العالمية، تداعيات الحرب على شمال الكويت، انتقام صدام حسين عبر تخطي جميع الموانع، بما في ذلك ضرب المدن الإيرانية الرئيسية بالأسلحة الكيميائية، وقيام جسر جوي ضخم لتدفق المعدات الجديدة من السوفيت لدعم عميلهم، ما من شأنه أن يعزز العلاقات بين بغداد وموسكو. وكالة الاستخبارات المركزية، «الحرب الإيرانية- العراقية: تبعات أيّ اختراق

إيراني في البصرة Iran-Iraq: Consequences of an Iranian Breakthrough at Al Basra»، م23 آذار/ مارس 1984.

[233←]
توماس تويتن، مقابلات مع المؤلف، 20 و28 حزيران/يونيو 2007.

[234←]
عقدة غورديوس (Gordian knot) هي أسطورة تتعلق بالإسكندر الأكبر، يُستخدم المصطلح عادةً للدلالة على مشكلة صعبة الحل يتم حلها بعمل جريء. (المترجمة)

[235←]
جون بويكين، «ملعون من يصنع السلام: الدبلوماسي الأميركي في مواجهة الجنرال الإسرائيلي، بيروت 1982»، John Boykin, Cursed Is The Peacemaker: The American Diplomat versus the Israeli General, Beirut 1982 (Belmont, CA: Applegate Press, 2002)، ص 43.

[236←]
Peter Slevin and Mike Allen, "Bush: Sharon A man of Peace", Washington Post, April 19, 2002, p. A1.

[237←]
مذكرة فيليوتس الموجهة إلى بريمر، «Telcon with Habib 10 July»، م10 تموز/يوليو 1982، وردت في كتاب بويكين، «ملعون من يصنع السلام»، ص 365؛ زئيف شيف وإيهود يعاري، الحرب الإسرائيلية في لبنان، (Israel's Lebanon War (New York: Simon and Schuster, 1984، ص 31- 108.

[238←]
كانت الاستخبارات الأميركية أول من رصد التعزيزات الإسرائيلية في كانون الأول/ديسمبر من العام 1981، أي قبل ستة أشهر من بدء الهجوم الإسرائيلي. مذكرة نويل كوتش الموجهة إلى نائب وزير الدفاع، «لبنان»، 1 شباط/فبراير، 1982، وثائق واينبرغر، العلبة 1: 687، ملف لبنان 1982؛ ملاحظات كاسبار واينبرغر المدونة بخط اليد أثناء الاجتماع الذي عُقد في 9 أيلول/سبتمبر 1981، وثائق واينبرغر؛ مذكرة بينغ ويست الموجهة إلى كاسبار واينبرغر، «المرحلة التالية من الغزو الاسرائيلي للبنان» (Invasion of Lebanon Next Moves)، م15 حزيران/يونيو 1981.

[239←]
مذكرة بول بريمر الموجهة إلى وليام كلارك، «التقرير المرحلي عن خطط الطوارئ في لبنان»، 12 شباط/فبراير 1982.

[240←]
راجع: «الضوء الأخضر» في مجلة السياسة الخارجية العدد 50، The Green Light", in Foreign Policy 50 (Spring 1983)"

[241←]

مقابلة مع فيليوتس، جمعية الدراسات والتدريب الدبلوماسي.

[242←]
مذكرة واينبرغر الموجهة إلى الرئيس، «تقرير الرئيس الأميركي الأسبوعي» (POTUS Weekly Report)، م11 حزيران/يونيو 1982.

[243←]
واردة في كتاب بويكين، «ملعون من يصنع السلام» (Cursed Is The Peacemaker) ص65.

[244←]
رسالة الرئيس ريغان الموجهة إلى مناحيم بيغن، 9 حزيران/يونيو 1982.

[245←]
بويكين، «ملعون من يصنع السلام» (Cursed Is The Peacemaker)، ص 69- 70.

[246←]
مقابلة مع فيليوتس، جمعية الدراسات والتدريب الدبلوماسي؛ ناثانيال هاول، مقابلة مع المؤلف، 2 كانون الأول/ديسمبر 1994. بعد أن عُيّن الرئيس فيليب حبيب مبعوثاً له للتفاوض على وقف إطلاق النار، اجتمع هيغ به أثناء وجوده في باريس وأعطاه تعليمات تتناقض مع رغبة الرئيس في السعي لوقف الحرب.

[247←]
مذكرة وزارة الخارجية الموجهة إلى وليام كلارك، «لبنان: عناصر الاستراتيجية الأميركية» (Lebanon:) Elements of a U.S. Strategy) م5حزيران/يونيو 1982.

[248←]
رونالد ريغان، سجل يوم 25 حزيران/يونيو 1982، في كتاب دوغلاس برينكلي «يوميات ريغان» (نيويورك، هاربر كولينز، 2007)، ص 91.

[249←]
مذكرة ريغان، غير المؤرخة، وثائق واينبرغر. أعقبها الرئيس ريغان بمكالمة هاتفية في 12 أب/أغسطس اتسمت بالغضب. في نهاية المطاف، نزل رئيس الوزراء الإسرائيلي عند رغبة الإرادة الأميركية وأمر بوقف القصف المدفعي، واتصل بـالرئيس ريغان مرة أخرى يناشده الحفاظ على علاقات الصداقة بين البلدين. «يوميات ريغان»، سجل يوم 12 آب/أغسطس 1982، ص 98.

[250←]
وردت في كتاب بويكين، «ملعون من يصنع السلام»(Cursed Is The Peacemaker)، ص 74.

[251←]
اشتبهت وكالة الاستخبارات المركزية في بادئ الأمر في أن يكون الدافع وراء قتله هو الانتقام لمقتل طوني فرنجية. مقابلة مع ضابط متقاعد من وكالة الاستخبارات المركزية في العام 2009.

[252←]
تصريحات العقيد روبرت جونستون والعقيد ميد، «معلومات عن لبنان»، 1 كانون الأول/ديسمبر 1982، مخطوطات تاريخ بيروت الشفوي، أرشيف القوات البحرية الأميركية، مركز غراي للأبحاث، العلبة 2، ص 31.

[253←]
تقرير لجنة التحقيق في أحداث مخيمات اللاجئين في بيروت، 8 شباط/فبراير 1983، وزارة الخارجية الإسرائيلية، آخر دخول إلى الموقع تمّ في 12 شباط/فبراير 2011، www.mfa.gov.il

[254←]
العميد البحري جوناثان هاو، «بيان أمام لجنة الخدمات المسلحة في مجلس النواب»، 2 تشرين الثاني/نوفمبر 1983، مجلس النواب الأميركي، لجنة الخدمات المسلحة، الجلسة ال98 للكونغرس، الدورة 1؛ «استعراض مدى كفاية الترتيبات الأمنية لقوات المارينز في لبنان وخطط لتحسين الأمن»، لجنة الخدمات المسلحة في مجلس النواب، التقرير رقم 98- 58، 1985، ص 96.

[255←]
في 19 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1982، سافر الرئيس أمين الجميل إلى واشنطن. وافقت الولايات المتحدة على شراء خمسٍ وثلاثين دبابة إسرائيلية من طراز M-48 لصالح الجيش اللبناني، وهي الدفعة الأولى من أصل حوالى مئتي عربة مدرعة سيتم تزويد الجيش اللبناني بها.

[256←]
رسالة إلكترونية من ضابط متقاعد في وكالة الاستخبارات المركزية إلى المؤلف، 13 تشرين الأول/أكتوبر 2009.

[257←]
ورقة عمل، مقر قوات البحرية، نائب رئيس هيئة الأركان، خطط وسياسة وعمليات، «هجوم على مواقع بحرية»، 10 آب/ أغسطس 1983، أرشيف قوات البحرية الأميركية، مركز غراي للأبحاث، وثائق خاصة بلبنان، القرص 23.

[258←]
David Martin and John Walcott, Best laid Plans: The Inside Story of America's War Against Terrorism (New York: Harpet and Row Publisher, 1988), p. 115.

[259←]
اتفاق بين الحكومة اللبنانية والحكومة الإسرائيلية، «17 أيار/مايو 1983؛ المقابلة التي أجراها والتر بول مع اللواء أندرو كولي، 10 نيسان/أبريل 1984.

[260←]
مذكرة كاسبر واينبرغر الموجهة إلى وليام كلارك، «مبادرة لبنان»، 28 تموز/يوليو 1983.

[261←]
مقابلة أجراها بينيس فرانك مع العقيد تيموثي جيراغتي في 28 أيار/مايو 1983، مخطوطات تاريخ بيروت الشفوي، أرشيف القوات البحرية الأميركية، مركز غراي للأبحاث، العلبة 2، ص 5- 6.

[262←]
رسالة إلكترونية من تيموثي جيراغتي إلى المؤلف، 3 آذار/مارس 2011.

[263←]
تيموثي جيراغتي، «قوات حفظ السلام في حرب بيروت 1983- قائد في مشاة البحرية يروي قصته» (العاصمة واشنطن: بوتوماك بريس، 2009) ص 40؛ العقيد جيري والش، القوات البحرية الأميركية (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 18 حزيران/يونيو 2010.

[264←]
مقابلة أجراها بينيس فرانك مع العقيد تيموثي جيراغتي في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1983، مخطوطات تاريخ بيروت الشفوي، أرشيف القوات البحرية الأميركية، مركز غراي للأبحاث، العلبة 2، ص 6- 7.

[265←]
التفويض بموجب قانون سلطات الحرب - لبنان: جلسات الاستماع والشؤون التشريعية أمام لجنة الشؤون الخارجية، مجلس النواب الأميركي، الجلسة 98 للكونغرس، الدورة 1، 1983، ص 2- 7.

[266←]
بحثت القيادة الأوروبية في أيار/مايو 1983 إمكانية توسيع نطاق تواجد المارينز على طول طريق صيدا السريع من بيروت إلى نهر الأولي. كانت تلك الخطوة تتوقف على الانسحاب الإسرائيلي الذي لم يحدث حتى شهر أيلول/سبتمبر. المقدم وليام سليمان، «الدروس المكتسبة في بيروت» (Beirut Lessons Learned)، بلا تاريخ [1983]، أرشيف قوات البحرية الأميركية، مركز غراي للأبحاث، العلبة 1، ملف التسلسل الزمني للأحداث.

[267←]
إدارة الجيش، DAMO-SSM، «آخر المستجدات في لبنان» 19 آب/أغسطس1983؛ والتر بول «ضلوع هيئة الأركان المشتركة والولايات المتحدة في الحرب في لبنان: تمو/يوليو 1982 -شباط/فبراير 1984»، الأمانة المشتركة، هيئة الأركان المشتركة، أيار/مايو 1988.

[268←]
بوول، «ضلوع هيئة الأركان المشتركة والولايات المتحدة في الحرب في لبنان»، ص 27.

[269←]
كاسبار واينبرغر، «النضال من أجل السلام: سبع سنوات حرجة في وزارة الدفاع الأميركية» (Fighting for Peace: Seven Critical Years in the Pentagon (New York: Warner, 1990، ص 360.

[270←]
كارل ستينر، مقابلة مع المؤلف، نيسان/أبريل 2009؛ مقابلة مع ماكفرلين.

[271←]
رسالة من قائد أسطول الولايات المتحدة السادس إلى قائد القوات البحرية الأميركية في أوروبا، (deployment of FASTAB to Beirut) (0816Z)، آب/أغسطس 1983، مركز غراي للأبحاث، وثائق خاصة بلبنان، القرص 23.

[272←]
القوات البحرية الأميركية، «تقرير عن الضحايا في بيروت، لبنان»، 8 أيلول/سبتمبر 1983، مركز غراي للأبحاث، وثائق خاصة بلبنان، القرص 26.

[273←]
رسالة من قائد فرقة العمل السادسة إلى قائد الأسطول السادس، «ملخص المعلومات اليومية 095 عن الفترة 05000Z) «031800Z-041759Z)، أيلول/سبتمبر 1983؛ رسالة من قائد فرقة العمل 6- 2 إلى قائد فرقة العمل 6- 1 «معلومات محدثة» (04117مZ)، أيلول/سبتمبر 1983، أرشيف القوات البحرية الأميركية، مركز غراي للأبحاث، وثائق خاصة بلبنان، القرص 26.

[274←]
Tom Clancy, Carl Stiner, and Tony Coltz, Shadow Warriors: Inside the Special Forces .(New York: Putnam's Sons, 2002), p. 238

[275←]
مارتن والكوت، «أفضل الخطط الموضوعة» (Best Laid Plans)، ص 121.

[276←]
يوميات واينبرغر، سجل يوم 11 أيلول/سبتمبر1983، وثائق واينبرغر.

[277←]
مذكرة رونالد ريغان الملحقة بالتوجيهات الرئاسية إلى مجلس الأمن القومي، «بشأن لبنان في 10 أيلول/سبتمبر»، 11 أيلول/سبتمبر 1983، وثائق واينبرغر، العلبة 1:729، ملف لبنان.

[278←]
رسالة من قائد فرقة العمل السادسة إلى قائد الأسطول السادس، «نشر فرق 'أنجليكو' لدعم القوات المسلحة اللبنانية بشكل مباشر» (131630مZ), أيلول/سبتمبر 1983، وثائق خاصة بلبنان، القرص 28؛ رسالة من قائد الاسطول السادس إلى قائد فرقة العمل 6-0، «الدعم الجوي في عمليات الدفاع عن سوق الغرب» (191139مZ)، أيلول/سبتمبر 1983؛ رسالة من قائد فرقة العمل 6-0 إلى قائد الأسطول السادس، «مفهوم العمليات لدعم سوق الغرب» (160517مZ)، أيلول/سبتمبر 1983، أرشيف القوات البحرية الأميركية، مركز غراي للأبحاث، وثائق خاصة بلبنان، القرص 29.

[279←]
جيراغتي، «قوات حفظ السلام في الحرب»، ص 65.

[280←]
جيراغتي، «قوات حفظ السلام في الحرب»، ص 62- 63.

[281←]

مقابلة أجراها جيراغتي مع فرانك في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1983، ص 11- 12. ردت الولايات المتحدة قبل ثلاثة أيام. في 16 أيلول/سبتمبر سقطت قذائف من سلاح المدفعية التابع للدروز قرب السفارة الأميركية، فردت مدفعية القوات البحرية الأميركية بإطلاق ستين قذيفة من عيار 5 إنش باتجاه سلاح المدفعية في جبل الشوف. في اليوم التالي سارع ستينر، الذي لم يكن ضمن دائرة القيادة، بإلغاء الأوامر من خلال اتصاله بسلاح الجو اللبناني المتداعي بدلاً من الوحدة الاستطلاعية البحرية 24. ملاحظات مكتوبة بخط اليد، «تقرير 19 أيلول/سبتمبر الذي تلا الأعمال»، 19 أيلول/سبتمبر 1983، أرشيف قوات مشاة البحرية الأميركية، مركز غراي للأبحاث، القرص 29؛ رسالة من قيادة سلاح البحرية الأميركية في أوروبا (CINCUSNAVEUR)، «النقاط الرئيسية في المعلومات الجغرافية السياسية» (191820مZ)، أيلول/سبتمبر 1983؛ ملخصات واستنتاجات، «استعراض مدى كفاية الترتيبات الأمنية»، لجنة الخدمات المسلحة في مجلس النواب؛ كلايد مارك «الأمن البحري في بيروت: مقارنة بين تقرير لجنة مجلس النواب للخدمات المسلحة وتقارير لجنة لونغ»، خدمات البحوث بالكونغرس، كانون الثاني/يناير 1984، ص 4.

[282←]

روبرت باير، الشيطان الذي نعرفه The Devil We Know (New York: Three Rivers، 2008م)، ص 53-63؛ رونين بيرغمان، الحرب السريّة مع إيران: 30 عاماً من الصراع السري ضد القوة الإرهابية الأخطر في العالم The Secret War with Iran: The 30-Year Clandestine Struggle Against the World's Most) Dangerous Terrorist Power (New York: Free Press, 2007، ص 59؛ ديفيد هيرست، حذار الدول الصغيرة: لبنان، ساحة القتال في الشرق الأوسط Beware of Small States: Lebanon, Battleground of) the Middle East (New York: Nation Books, 2010، ص 185.

[283←]

مارتن ووالكوت، أفضل الخطط الموضوعة Best Laid Plans، ص 100.

[284←]

سيد علي هو لقب أحد مقاتلي حزب الله السابقين. قابله المؤلف في مدينة تقع جنوب الولايات المتحدة في آذار/ مارس من العامّ2010.

[285←]

نعيم قاسم، ترجمة داليا خليل، حزب الله: القصّة من الداخل Hizbullah: The Story From Within، (بيروت: دار الساقي، 2010)، ص 58.

[286←]

جيراغتي، جنود حفظ السلام في الحرب Peacekeepers at War، ص 9.

[287←]

عمار الموسوي، مسؤول العلاقات الدولية في حزب الله، وحسين حيدر، رئيس الاتصالات الدبلوماسية والسياسية في حزب الله، مقابلات مع المؤلف، 19 شباط/فبراير 2010، بيروت، لبنان؛ وأيضاً هيرست، حذار الدول الصغيرة Beware of Small States، ص 183.

[288←]

مقابلة مع لينجن، جمعية الدراسات الدبلوماسية.

[289←]

أوغسطس ريتشارد نورتون، حزب الله Hezbollah (Princeton: Princeton University Press)، 2007، ص 33.

[290←]
حديث لـ سيّد علي.

[291←]
باير، الشيطان الذي نعرفه The Devil We Know، ص 59- 63.

[292←]
مارتين كرامر، «حزب الله في لبنان Hizbullah in Lebanon»» موسوعة أكسفورد حول العالم الإسلامي الحديث، الملف 2 (نيويورك وأكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 1995)، ص 130- 33.

[293←]
هاني عبد الله، مستشار سياسي وإعلامي، مكتب المرجعية الدينية السيد محمد حسين فضل الله، مقابلة مع المؤلف، 19 شباط/فبراير، 2010، بيروت، لبنان.

[294←]
اختار فضل الله الحداثة. وأعلن أن التغيير بما في ذلك التكنولوجيا الحديثة جزء من إرادة الله، كما أيّد حقوق المرأة واعتبرها مساوية للرجل. لم يكن يستعجل إقامة دولة إسلامية، إذ اعتقد أنّ التطوّر الطبيعي للأمور سيوصل إليها مع الوقت. كان لديه الكثير من الأتباع في صفوف الشباب من كافة المذاهب. في السنوات الأخيرة من حياته، أنشأ مدونة خاصة على شبكة الإنترنت، حيث أجاب عن كافة أنواع الأسئلة المتعلقة بالحياة والدين، بما في ذلك مواضيع مثل ما إذا كان يجوز للرجل أن يُجامع زوجته عن طريق الشرج.

[295←]
مقابلة مع عبد الله، ومقابلة مع الموسوي، ومقابلة مع ضابط متقاعد في وكالة الاستخبارات المركزية.

[296←]
بيرغمان، الحرب السرية مع إيران Secret War with Iran، ص 63- 64.

[297←]
جيمس كلارتي، «إسرائيليون قُتلوا في انفجار في جنوب لبنان Israelis Killed in Blast in Southern Lebanon»، نيويورك تايمز، 12 تشرين الثاني/نوفمبر 1982. أعلن رئيس الوزراء بيغن قائلاً: «أعداء البشرية يرتكبون اعتداءً جديداً»، تزامن هذا الحدث مع مأساة خاصة ألمّت بحياته وهي وفاة زوجته عن عمر يناهز ثلاثة وأربعين عاماً.

[298←]
هيرست، حذار الدول الصغيرة Beware of Small States، ص. 183.

[299←]
اعتقدت السلطات الإسرائيلية أنه قد يكون ناتجاً عن انفجار قارورة غاز وليس عن قنبلة.

[300←]
قاسم، حزب الله Hizbullah، ص 168- 70؛ بيرغمان، الحرب السرية مع إيران Secret War with Iran، ص. 65.

[301←]
«الجهاد الإسلامي The Islamic Jihad، 25 أيلول/سبتمبر 1984، وثائق واينبرغر، Box I:77910, Folder Lebanon 10.

[302←]
تشارلز آلن، مقابلة مع المؤلف، 7 تشرين الأول/أكتوبر 2009.

[303←]
باير، الشيطان الذي نعرفه The Devil We Know، ص 60-64.

[304←]
مقابلة آلن.

[305←]
أسامة حمدان، مقابلة مع المؤلف.

[306←]
مقابلة أودوم.

[307←]
مذكرة وليام أودوم إلى مايرز، «تقرير رحلة الشرق الأوسط، ملاحظات عامة»، 4- 14 نيسان/أبريل 1983، وثائق أودوم، مكتبة الكونغرس، Box 4، ملف عام 1983، ملاحظات المذكّرة.

[308←]
Robert Baer, See No Evil: The True Story of a Ground Soldier in the CIA›s War on Terrorism (New York: Three Rivers, 2002), pp. 65-67, 120.

[309←]
اريك هاني، داخل قوّة الدلتا: قصّة وحدة النخبة الأميركية لمكافحة الإرهاب Inside Delta Force: The Story of America’s Elite Counterterrorism Unit (New York: Delacorte, 2002)، ص 235- 36.

[310←]
تفجير السفارة الأميركية في بيروت، جلسات استماع، مجلس النواب الأميركي، لجنة الشؤون الخارجية واللجنة الفرعية حول العمليات الداخلية، أوروبا والشرق الأوسط، الكونغرس 98، الجلسة الأولى، 28 حزيران/يونيو 1983.

[311←]

برسيكو، كيسي Casey، ص 316.

[312←]
CTF Six Two message, «Higher Alert Condition, Setting of» (081308Z), August 1983, U.S. Marine Corps Archives, Gray Research Center, Lebanon Papers, Disc 23.

[313←]
رسالة، «لبنان/القوة المتعددة الجنسيات، السفير الإيراني يدعو إلى تنفيذ هجمات على القوات الأميركية والكتائب والجيش اللبناني»، 27 أيلول/سبتمبر 1983.

[314←]
لا تزال هوية الرجال الذين نفذوا العملية غامضة. وجّه تقرير استخباراتي أميركي في العام 1984، استند إلى مقابلات مع ضباط استخبارات لبنانيين وسوريين، أصابع الاتهام إلى شابٍ فلسطيني فقد ثلاثة من أفراد عائلته في مذبحة صبرا وشاتيلا. وأدلى مصدر من حزب الله بشهادته أمام محكمة أميركية في العام 2003 قائلاً إن منفّذ العملية التي استهدفت المارينز هو في الواقع إيراني، يدعى إسماعيل العسكري، وقد أُحضر خصيصاً للقيام بهذه المهمة. صدق الكولونيل جيراغتي قصة هذا الرجل، وقال إنها تتطابق مع معلومات من مصادر أخرى. إذا صحّ هذا، فهو تحوّل كبير عن أي عملية انتحارية أخرى موّلتها إيران. فهي تفضّل البقاء في الظل، وتستخدم لذلك السكّان المحليين، ولا ينقص الرجال الجاهزون للقيام بمثل هذه العمليات في لبنان ما يعني أنها لا تحتاج إلى استقدام أحد. وعلى الرغم من أن الإيرانيين لا يمانعون في إرسال الشباب إلى الجنة، إلا أنّهم أقل حماسةً للقيام بذلك بأنفسهم. راجع: محكمة مقاطعة كولومبيا، نصّ المحاكمة، الدكتور بيترسون وآخرون ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية، 17- 18 آذار/ مارس 2003.

عممت وكالة الاستخبارات المركزية في وقت لاحق تقريراً حاز اهتماماً كبيراً في واشنطن عن طقوس غامضة يترأسها الشيخ فضل الله لمباركة الانتحاريين، تتضمن لربما تدخين الحشيش. وعلى الرغم من أن آية الله العظمى لم يكن يعارض الهجمات الانتحارية على الجنود، إلا أنّ مسألة المدنيين مختلفة برأيه. وقد ثبت أن التقرير خاطئ، ومن المرجح أنه من مصدر غير موثوق.

[315←]
مقابلة مع ليونز.

[316←]
العريف إدي دي فرانكو، شهادة، 13 تشرين الثاني/نوفمبر 1983، إعادة النظر في الترتيبات الأمنية لقوات المارينز في لبنان وخطط لتحسين هذا الأمن، مجلس النواب الأميركي، لجنة القوات المسلحة، 98 الكونغرس، الجلسة 1، ص 307 -26.

[317←]
إيريك هامل، الجذر The Root (Orlando: Harcourt Brace Jovanovich, 1985)، ص 293.

[318←]
«تقرير لجنة وزارة الدفاع بشأن العمل الإرهابي في مطار بيروت الدولي»، 23 تشرين الأول/أكتوبر 1983، 20 كانون الأول/ديسمبر 1983، ص 99.

[319←]
بيترسون ضد جمهورية إيران الإسلامية Peterson vs. Islamic Republic of Iran، ص 55.

[320←]
ميشال بوتي، قوات حفظ السلام في الحرب: رواية أحد أفراد مشاة البحرية عن كارثة بيروت Peacekeepers at War: A Marine›s Account of the Beirut Catastrophe (Winchester, MA: Faber and Faber, 1986)، ص 172.

[321←]
مقابلة جيراغتي مع فرانك، 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1983، ص 18- 21.

[322←]
جيراغتي، قوات حفظ السلام في الحرب P eacekeepers at War، ص 188.

[323←]
مقابلة مع ماكفرلين؛ روبرت تيمبرغ، «غناء العندليب» (The Nightingale’s Song) (نيويورك: سيمون أند شوستر، 1995)، ص 336- 37.

[324←]
يوميات واينبرغر وملفات التعيينات، 23 تشرين الأول/أكتوبر1983، وثائق واينبرغر.

[325←]

ملاحظات الجنرال بول إكس كيلي على مسودة مخطوطة التاريخ الرسمي لقوات البحرية الأميركية، بينيس فرانك، قوات البحرية الأميركية في لبنان، 1982- 1984، 23 حزيران/يونيو 1986. نسخة قدّمها بينيس فرانك.

[326←]
الرئيس رونالد ريغان، «خطاب موجّه للأمة بشأن الأحداث الجارية في لبنان وغرينادا»، 27 تشرين الأول/أكتوبر 1983، www.reagan.utexas.edu/archives/speaches/1983/83oct.htm، آخر دخول إلى الموقع تمّ في 22 نيسان/ أبريل 2011.

[327←]
توجيهات مجلس الأمن القومي الرئاسية 111، 28 تشرين الأول/أكتوبر 1983.

[328←]
مقابلة مع واينبرغر.

[329←]
مقابلة مع بويندكستر.

[330←]
آيس (Ace): ورقة «الآص» الرابحة في ورق اللعب. وتعني أيضاً البارع، المتفوق. (الناشر)

[331←]
بيترسون في مواجهة الجمهورية الإسلامية، ص 146.

[332←]
غريغوري فيستيكا، «السقوط عن عرش المجد، الرجال الذين تسببوا في غرق الأسطول الأميركي» (Fall from Glory: The Men Who Sank the U.S. Navy) (نيويورك، سيمون أند شوستر، 1995) ص 116.

[333←]
نخبة أعمال الجنرال جون وو. فيسي الابن: الرئيس العاشر لهيئة الأركان المشتركة 22 حزيران/يونيو 1982 - 30 أيلول/سبتمبر 1985، وزارة الدفاع الأميركية، مكتب التاريخ المشترك، 2008، ص 86- 91.

[334←]
Terence Smith, «At Least 39 Die as Truck Bomb Rips Israeli Post in Lebanon,» New York Times, November 5, 1983; Thomas Friedman, «Israeli Jets Bomb Base of Suspects in Marine Attack,» New York Times, November 19, 1983.

[335←]
ملاحظات عن 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1983، يوميات واينبرغر.

[336←]
كشف سجل المكالمات عن تلقي الرئيس مكالمتين فقط بعد اجتماع مجلس الأمن القومي: الأولى من ماكفرلين والثانية من السفير التونسي. المكالمة الهاتفية محفوظة لدى أمين المحفوظات في مكتبة ريغان.

[337←]
واينبرغر، «القتال من أجل السلام» (Fighting for Peace)، ص 161- 162؛ ملاحظات عن 17 تشرين الثاني/نوفمبر 1983، يوميات واينبرغر.

[338←]
Thomas Friedman, «French Jets raid Bases of Militia Linked to attacks», New York Times, November 22, 1983; John Vinocur, «questions Arise on French Raid in Lebanon", .New York Times, November 22, 1983

[339←]
Alessandra Stanely, Bruce van Voorst, and Jack E. White, «an Officer and Gentleman .Comes Home: Lieut. Robert O. Goodman», Time, January 16, 1984

[340←]
مذكرة روبرت ماكفرلين إلى رونالد ريغان، «تقرير لجنة لونغ»، غير مؤرخة، وثائق واينبرغر.

[341←]
مذكرة كاسبار واينبرغر إلى رونالد ريغان، «تقرير لجنة لونغ عن أعمال القصف في 23 تشرين الأول/أكتوبر»، 23 كانون الأول/ديسمبر 1983.

[342←]
Robin Wright, Sacred Rage: The Wrath of Militant Islam (New York: Touchstone, 2001), .p. 89

[343←]
مذكرة ريتشارد أرميتاج إلى كاسبار واينبرغر، «قوة الأمن الخارجي في السفارة الأميركية في بيروت»، 27 تموز/يوليو 1984.

[344←]
الاستخبارات الأميركية وأعمال القصف في بيروت في 20 أيلول/سبتمبر 1984، مجلس النواب الأميركي، لجنة الاستخبارات الدائمة، الجلسة 98 للكونغرس، الدورة 2، 3 تشرين الأول/أكتوبر 1984.

[345←]
Francis Clines, «Intelligence Cuts by Predecessors Had a Role in Blast, Reagan Says», .New York Times, September 27, 1984

[346←]

مقابلة مع ماكفرلين؛ مقابلة بويندكستر؛ مقابلة مع آلن.

[347←]
رسالة إلكترونية من ماكفرلين إلى المؤلف؛ برينكلي، «يوميات ريغان»، ص 267- 268.

[348←]
Brnard Gwertzman, «Shultz›s Address Touches Off Stir in Administration», New York Times, October 25, 1984; «Shultz Days U.S. Should Use Force Against Terrorism», New York Times, October 26, 1984.

[349←]
إنه لاعب كرة القدم الأميركية جورج «جيبر» جيب (George ‘Gipper’ Gipp) الذي لعب دور شخصيته الرئيس رونالد ريغان عام 1940 في فيلم شهير بعنوان: نوت روكني، الأميركي الخالص (Knute Rockne, All American). استقطب هذا الفيلم الاهتمام أثناء حملة ريغان للانتخابات الرئاسية، فأصبح الصحفيون يطلقون اسم «The Gipper» على الرئيس رونالد ريغان. (المترجمة)

[350←]
على الرغم من مرور ما يقارب الثلاثين عاماً، ما زالت الجمهورية الإسلامية تثير مسألة مصير هؤلاء الرجال في الأمم المتحدة، حيث اتهمت إيران الكتائب ببيع الرهائن الأربعة إلى إسرائيل، وادّعت طهران أنهم لا يزالون يرزحون في السجون. عندما توفي والد الدبلوماسي أحمد متوسليان في العام 2008 حضرت جنازته شخصيات لا تقل أهميةً عن الرئيس محمود أحمدي نجاد. «أحمدي نجاد يحضر جنازة والد الدبلوماسي الإيراني المخطوف»، الموقع الإلكتروني لرئاسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية، 6 حزيران/يونيو 2008، www.president.it/en آخر دخول إلى الموقع تمّ في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 2009.

[351←]
Baer, See No Evil, p. 74; Ihsan Hijazi, "Iran Ties Help to Hostages to Fate Its Nationals", New York Times, December 28, 1988.

[352←]
Baer, See No Evil, p. 100.

[353←]
Norton, "Hezbollah", p. 42.

[354←]
مقابلة مع آلن آلن.

[355←]
السفير روبرت أوكلي، برنامج التاريخ الشفوي للشؤون الخارجية، جمعية الدراسات والتدريب الدبلوماسي، 7 تموز/ يوليو 1992.

[356←]
السفير روبرت أوكلي، برنامج التاريخ الشفوي للشؤون الخارجية، جمعية الدراسات والتدريب الدبلوماسي، 7 تموز/يوليو 1992.

[357←]
دوان كلاريدج، «جاسوس لجميع الفصول: حياتي في وكالة الاستخبارات المركزية» (نيويورك، 1997)، ص 341.

[358←]
ورد في كتاب بوب وودوارد (Bob Woodward): «الحجاب» (Veil)، أن كيسي التقى السفير السعودي في منزله في ولاية فرجينيا، واتفق الجانبان على أن تقوم الحكومة السعودية بتمويل مؤامرة اغتيال باستخدام الكتائب اللبنانية، وبإشراف عميل سريّ سابق في الخدمة الجوية الخاصة البريطانية. أفاد الصحفي الإسرائيلي رونين بيرغمان (Ronen Bergman) أن وكالة الاستخبارات المركزية جنّدت، بصورة مباشرة، ثلاثة عناصر من الكتائب وزوّدتهم بالمتفجرات، ودفعت لهم مبلغ مئة ألف دولار لتنفيذ الهجوم. وخلال مقابلة أجريتها مع ضابط متقاعد من وكالة الاستخبارات الأميركية في العام 2008، أخبرني بشيء من هذا القبيل. مول السعوديون العملية لتتمكن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية من الحفاظ على القدرة الكاملة على الإنكار، لاسيما وأن العملاء كانوا ينتمون إلى فريق لمكافحة الإرهاب وتم تجنيدهم من قبل جهاز الاستخبارات في الجيش اللبناني. وعلق الضابط قائلاً إن محاولة قتل فضل الله كانت عملية قذرة نفذها عناصر من الكتائب خضعوا للتدريب في الولايات المتحدة. بوب وودوارد، «الحجاب: الحروب السرية لوكالة الاستخبارات المركزية 1981- 1987» (نيويورك: سيمون أند شوستر، 1987)، ص 395- 397؛ بيرغمان، «الحرب السرية مع إيران»، ص 72- 73؛ التاريخ الشفوي لأوكلي؛ مقابلة مع ضابط متقاعد من وكالة الاستخبارات المركزية، أرلينغتون، فرجينيا، 2008.

[359←]
«سليبي هولو» (Sleepy Hollow) هو اسم شارع في تامبا، أي مكان مقر القيادة المركزية الأميركية في فلوريدا. والمعنى الحرفي للاسم هو «المهجع (أو الفجوة) النائم».

[360←]
رسالة إلى اللواء تيكسير (Tixier)، «التكتيكات الجوية الإيرانية» (211600Z) Iranian Air Tactics، أيار/مايو 1984؛ بيان كولن إيغلينغتون، 8 أيار/مايو 1997، القضية المتعلقة بمنصّات النفط (الجمهورية الإسلامية الإيرانية ضد الولايات المتحدة الأميركية) Case Concerning Oil Platforms (Islamic Republic of Iran vs.) The United States of America، محكمة العدل الدولية، معارضة الشكوى والدعوة المضادة المقدمة من قبل الولايات المتحدة الأميركية، مستند قانوني 31، الملحق، الملف 2، حزيران/يونيو 1997.

[361←]
رسالة كريستيان فيير بنترفولد، «رد على رسالة: الهجمات المسجلة ضد سفن شحن محايدة خلال الأعمال العدائية بين إيران والعراق في الخليج العربي»، جمعية السفن النرويجية، 6 كانون الثاني/يناير 1989؛ بيان النقيب كريستيان فيير بنترفولد، القضية المتعلقة بمنصات النفط، ومعارضة الشكوى ودعوى مضادة، مستند قانوني 11، ملحق، ملف 1، 23 حزيران/يونيو 1997.

[362←]
على الرغم من أن الولايات المتحدة لا تعترف بقانونية هذه المنطقة، إلا أنها التزمت وتجنبت دخول منطقة الحظر الإيراني. رسالة الجنرال روبرت هيريس إلى الجنرال جورج كريست، 28 تشرين الأول/أكتوبر 1987.

[363←]

كانت إيران واليابان تتفاوضان لتجديد عقد لشحن النفط بشكل يومي إلى طوكيو. ولعل المقصود من هذا التصعيد ثني اليابان عن شراء النفط الإيراني.

[364←]

Martin Navias and E. R. Hooton, Tanker Wars: The Assault on Merchant shipping During the Iran-Iraq Crisis, 1980-1988 (London: I. B. Tauris, 1996), pp. 74-76; Sreedhar and Kapil Kaul, Tamker War: Aspects of Iran-Iraq War (New Delhi, India: ABC Publishing House, 1989), pp. 89 - 90.

وجدت سفينة حربية أميركية نفسها على مقربة من مرمى صاروخ عراقي عندما فشل طيار عراقي في بلوغ منطقة «الشرك الفارسي» واتجه شرقاً قبل أن يطلق صاروخ إكزوسيت. ضرب الصاروخ قاطرة سيئة الحظ، تبعد بضعة أميال فقط عن سفينة حربية أميركية في شمال الخليج. حذرت الحكومة الأميركية العراق وطلبت منه إبقاء طائراته على مسافة لا تقل عن خمسة أميال بعيداً عن السفن الحربية الأميركية وإلا فإنها ستسقطها، ووافق واينبرغر على تغيير قواعد الاشتباك الخاصة بأسطول البحرية الأميركية في الخليج، ومقره في البحرين، وهو يُعرف بقوة الشرق الأوسط، وأذن لهذا الأسطول باستخدام القوة ضد أي سفينة تزرع ألغاماً في المياه الدولية أو إذا اقتربت منه طائرة وفي نيتها ضربه بصاروخ. عندما اندلع القتال في أيلول/سبتمبر من عام 1980، أصدر وزير الدفاع هارولد براون قواعد اشتباك تقضي بأن يُطلب إذنه قبل الردّ على أي هجوم ضد السفن المحايدة. وحتى إذا حصلت القوات الأميركية على هذا الإذن، فلا يمكن لها أن تدخل المياه الإقليمية الإيرانية أو العراقية. أكد واينبرغر هذا التوجّه عندما تولّى منصبه. مذكرة مساعد وزير الدفاع لشؤون الأمن الدولي إلى وزير الدفاع، «قواعد الاشتباك لحماية ناقلات دولة أخرى في الخليج العربي»، 29 أيلول/ سبتمبر 1980، ص 2؛ الرقيب ديفيد غريف، الأسطول الأميركي، (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 11 أيار/مايو 1995، و14 آب/أغسطس 1995.

[365←]

رسالة وكالة الاستخبارات الأميركية، «إيران والعراق: هدوء مؤقت في حرب الناقلات في الخليج Iran-Iraq: Lull in the Gulf Anti-shipping War»، م17 حزيران/يونيو 1987.

[366←]

قرار 522، مجلس الأمن الدولي، وثيقة S/RES/522, 17، حزيران/يونيو 1987.

[367←]

Tom Cooper and Farzad Bishop, Iran-Iraq War in the Air, 1980-1988 (Atglen, PA: Schiffer, 2000), p. 172.

[368←]

تشارلز هورنر، مقابلة مع المؤلف، 28 تموز/يوليو 1995؛ أنطوني كوردسمان وأبراهام واغنر، «دروس الحرب الحديثة» (Lessons of Modern War) المجلد الثالث (Boulder, CO: westview, 1990)، ص 214، الحاشية 7.

[369←]

مذكرة كاسبار واينبرغر إلى روبرت ماكفرلين، «إشعار التخطيط للأزمة- وضع الخليج العربي Crisis Planning Notice-Persian Gulf Situation»، م27 شباط/فبراير 1984.

[370←]

اعترف واينبرغر بأن إيران قد تحاول مهاجمة إحدى السفن الحربية الأميركية الخمس المتمركزة في الخليج العربي. فأمر بإطلاق صواريخ ستينغر نُصبت على السفن الحربية في حال تعرضت هذه السفن لهجوم من طائرة انتحارية، وأصدرت حكومة الولايات المتحدة إشعاراً تحذر الطائرات والزوارق من الاقتراب لمسافة خمسة أميال من موقع أيّ سفينة حربية أميركية لئلا تتعرض لخطر إطلاق النار. إن الأساس القانوني لهذه المناطق المحظورة مشكوك فيه، ومن المرجح أنها تنتهك القانون الدولي حول حق حرية الملاحة. رسالة هيئة الأركان المشتركة، «إشعار بشأن الخليج العربي، ومضيق هرمز، وخليج عمان» (210100Z)، كانون الثاني/يناير 1984.

[371←]
مما يتذكره رئيس جهاز الاستخبارات ومدير العمليات توم تويتن أنه شارك في إنشاء قاعدة لوجستية في منطقة الخليج العربي، تنطلق منها طائرات النقل العسكري الأميركية لتحلّق فوق أفغانستان، وتقوم بإنزال معدات عسكرية مباشرة إلى المجاهدين. عندما قيل لإيكله إنّ السوفيت يملكون قوة جوية كبيرة، ومن المحتمل أن يضربوا طائرات النقل ما من شأنه أن يؤدي إلى حرب عالمية ثالثة، فكر للحظة وعلّق: «حسناً، قد لا يكون ذلك سيئاً». مقابلة مع تويتن، ومقابلة أيضاً مع ضابط متقاعد من وكالة الاستخبارات المركزية.

[372←]
مذكرة فريد إيكله إلى كاسبار واينبرغر، «الحرب العراقية الإيرانية وتهديدات الخليج Iran-Iraq War and Gulf Threats»، م10 نيسان/أبريل 1984.

[373←]
ساندي تشارلز، «وضع ملاحظات للنقاش أثناء اجتماع الإفطار مع الوزير شولتز، 11 نيسان/أبريل 1984»، 10 نيسان/ أبريل 1984.

[374←]
كانت هذه توجيهات قراري مجلس الأمن القومي 139 و 141.

[375←]
مذكرة الجنرال جون فيسي إلى واينبرغر، «Status of DOD Actions from NSDD 139»، م29 أيار/مايو 1984.

[376←]
اللواء صموئيل سوارت، (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 25 أيار/مايو 1995.

[377←]
اللواء دونالد بنزلر، (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 14 كانون الأول/ديسمبر 1994. الجنرال كريست، مقابلة لـ «End of Tour Report»، تاريخ مكتب القيادة المركزية الأميركية، 1988، ص 11. بينما عمل بنزلر على التخلّص من الأحمال الزائدة، ركّز الجنرال كريست على بناء القدرات الاستخباراتية.فكلّف مدير استخباراته الكفؤ، اللواء كلويد فيستر تحويل القيادة المركزية الأميركية من أجل منطقة الشرق الأوسط «المصدر الأول للمعلومات». عمل فيستر أولاً على تطوير القدرات الاستخباراتية المستقلة عبر جمع وكالات الاستخبارات الثلاث أي وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، ووكالة الأمن القومي (NSA)، ووكالة استخبارات الدفاع (DIA) في محاولة لصهر قدراتها الاستخباراتية في مواجهة كلٍ من السوفيت وإيران. في حزيران/يونيو من عام 1986، طلب من كريست فيستر أن يشكل فريقاً للأبحاث يطلق عليه اسم «خلية التدخّل الأفغانية». يقوم الفريق بجمع المعلومات من كل فئات المجتمع ليدرس حالة الجيش السوفيتي في أفغانستان، ويدرس هذه المعلومات المتعلقة بالجيش في ما إذا شنت القوتان الضخمتان هجوماً في أوروبا والشرق الأوسط. بحلول عام 1988، أنجز الفريق ثماني دراسات تبحث في جميع

جوانب العمليات العسكرية، بما في ذلك موضوعات متنوعة تتحدث عن الروح المعنوية للجندي السوفيتي، والدافع الذي يدفعه للقيام بعمليات ليلية بالمروحيات. ظلت وكالة استخبارات الدفاع (DIA) وحدها فاترة الهمة تجاه مبادرة القيادة المركزية الأميركية. كانت البيروقراطية المترسخة في وكالة استخبارات الدفاع تثير استياء مديرية استخبارات سنتكوم التي شككت في كفاءة محلليها.

[378←]
في نيسان/أبريل من عام 1986، كتب كريست إلى واينبرغر تقويماً متشائماً بشأن التقدم الحاصل في الحرب، مشيراً إلى: «أن التقنيات العملانية المتطورة جداً وقمع السكان بوحشية يؤثران سلباً في مقاومة المجاهدين».

[379←]
مقابلة جورج كريست مع الفريق الإعلامي في وزارة الدفاع، غالانت إيغل 86، 10 آب/أغسطس 1986.

[380←]
القيادة المركزية الأميركية، «معلومات موجزة عن التوسع السوفيتي والروسي نحو الجنوب A Brief History of Russian and Soviet Expansion toward the South»، 30م حزيران/يونيو 1985، ص v.

[381←]
مقابلة مع كريست؛ مقابلة مع أرميتاج.

[382←]
مشاة البحرية الأميركية، الدروس المكتسبة: الحرب العراقية الإيرانية Lessons Learned: The Iran-Iraq War، الملف 1، وزارة البحرية، 1990، ص 17- 19؛ كينيث بولاك، العرب في الحرب: الفعالية العسكرية، 1948-1991 Arabs at War: Military Effectiveness، 1948م- 1991 (Lincoln: University of Nebraska Press)، 2002م، ص 217- 18.

[383←]
المجلس العام للنقل البحري البريطاني، إيران/ العراق: الوضع في الخليج، ملاحظات إرشاد للنقل البحري Iran/Iraq: The Situation in the Gulf. Guidance Notes for Shipping، شباط/فبراير 1988، ص 70- 73.

[384←]
رسالة الجنرال جورج كريست إلى الأدميرال وليام كرو، «تزايد التهديد في الخليج العربي» (Increased Threat in the Persian Gulf (242130Z، أيلول/سبتمبر 1986.

[385←]
Bernard Gwertzman, «Iran's Navy Stops U.S. Ship in Search near Persian Gulf», New York Times, January 13, 1986.; also Bernard Gwertzman, «U.S. Says Halting of Vessels by Iran May Be Justified», New York Times, January 14, 1986.

[386←]
رسالة وزير الخارجية إلى السفارة الأميركية، برن، «رسالة إلى إيران بشأن المضبوطات البحرية» (Message to Iran on Naval Seizures (DTG 012225Z، شباط/فبراير 1986، ص 1.

[387←]
مذكرة رئيس هيئة الأركان المشتركة إلى وزير الدفاع، «مبادرة الولايات المتحدة اتجاه ايران»، تشرين الأول/أكتوبر 1985، ص 1.

[388←]
رسالة من قائد القيادة المركزية الأميركية إلى قائد هيئة الأركان المشتركة، «قيود على عمل قوات الشرق الأوسط» (MIDEASTFOR Operating Restrictions) (132130Z) كانون الثاني/يناير 1986؛ قوات الشرق الأوسط ، «تاريخ القيادة» Command History، 1986. بما أنه سبق أن قدمت سفينتان حربيّتان من كل من «الساحل الشرقي» و«الساحل الغربي» فإن على «قيادة الهادئ» (PACOM) حصرياً تأمين سفينة الاحتياط القتالية الإضافية. ورغم أن هذه السفينة الخامسة كانت جزءاً من قوات «أسطول المحيط الهادئ»، فقد كانت تحت إمرة غرفة عمليات «قوات الشرق الأوسط». وقد تقرر تخصيص «يو إس إس جاك وليامز» كأول سفينة لهذا الغرض. كان ذلك، لكلٍّ من السفينة وغريف، مجرد بداية علاقة طويلة الأمد مع الخليج.

[389←]
رسالة قائد الأسطول الأميركي في المحيط الهادئ، «إعلان الزيارة والبحث: (190432مZ)، آذار/مارس 1986. أكد مكتب التوجيه التابع لوزير الدفاع للقيادة المركزية الأميركية (سنتكوم) أن عليها أن تراقب وتتابع السفن التي ترفع علم الولايات المتحدة فقط، وتتتبع مواقعها، لكن هذه السلطة الممنوحة لا تعني مواكبة السفن التجارية. لو كان الأمر كذلك، لتوجّب على السفن الحربية الأميركية أن ترافق السفن التجارية أثناء عبورها، ما يستلزم إرسال سفن إضافية إلى قوة الشرق الأوسط؛ وهذا لن يلقى ترحيباً حسناً من قبل البحرية الأميركية، التي كانت تشتكي من الكلفة الباهظة وتحوّل مسار السفن عن المحيط الهادئ. فُرض على سفن قيادة النقل البحري العسكري مراقبة بث موجات وإشارات الجيش الأميركي العادية كسفن قوات الشرق الأوسط؛ وحافظت السفن التجارية الأميركية على الاتصال عبر تردد الاستغاثة الدولي، عبر القناة. 16 مذكرة جون بويندكستر إلى اللواء كولن باول «زيارة السفن التي ترفع علم الولايات المتحدة في الخليج العربي وتفتيشها»، 7 آب/أغسطس 1984.

[390←]
رسالة قائد الأسطول الأميركي في المحيط الهادي، «زيارة السفن التي ترفع علم الولايات المتحدة في الخليج العربي وتفتيشها: (190432مZ)، أيار/مايو 1985، ص 4- 3.

[391←]
CENTCOM briefing, «Invoke Resolve Decision Brief", February 6, 1987, pp. 3-9

[392←]
في خطوة مثيرة للجدل إلى حد ما، أوصى كريست بضرب مصنع الغاز الرئيسي في بندر عباس، الذي يؤمن الطاقة الكهربائية لإدارة العمليات العسكرية الإيرانية، والذي يعد أيضاً مصدر الطاقة الرئيسي للمدينة.

[393←]
مذكرة كريست إلى واينبرغر، «تحديث القيادة المركزية»، بلا تاريخ [شباط/فبراير 1986]، ص 1- 2.

[394←]

NewSplendor

تعني حرفياً العظَمة الجديدة.

[395←]
وافق الوزير واينبرغر على المبادرة الجديدة "New Splendor"، وكتب إلى كريست قائلاً: «أحيي جهودكم لوضع خطط حملة عسكرية تتضمن أيضاً مبادرات ثنائية جديدة مع عدد من دول الخليج وتعزيزاً لتبادل المعلومات الاستخبارتية المهمة. أوافقكم الرأي تماماً على أن هذه المسائل حيوية لنجاح قواتنا في القيادة المركزية الأميركية وبقائها». رسالة الوزير واينبرغر إلى كريست، 2 شباط/فبراير 1987. حصلت القيادة المركزية الأميركية أيضاً على دعم مهم إنما غير مصرّح به من معظم دول الخليج. في حال حدوث صراع مع إيران، وافقت سلطنة عُمان على السماح باستخدام مطاراتها الخاصة كما وافق كلٌّ من البحرين والمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان على السماح للقيادة المركزية الأميركية بوضع طائرات قتالية من نوع F-16 في إحدى هذه الدول إذا نشبت حرب جوية مع إيران.

[396←]
مقابلة كريست، «End of Tour Report»، ص 4.

[397←]
اللواء كلويد فيستر، الأسطول البحري الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 1994.

[398←]
ربطت علاقة صداقة جيدة بيرسون بكل من وزير الدفاع البحريني وولي العهد، الشيخ سلمان بن حمد بن عيسى آل خليفة، الذي كان موقف الولايات المتحدة اتجاهه إيجابياً.

[399←]
ركز واضعو الخطط من البحرين والولايات المتحدة على ثلاثة سيناريوهات إيرانية محتملة: 1-هجوم جوي إيراني على البحرين؛ 2-هجمات بحرية أو هجمات ينفذها الحرس الثوري على سفن شحن متوجهة إلى الجزيرة؛ 3-التهديد الإيراني بإغلاق مضيق هرمز، حيث سيكون دور البحرين الرئيسي هنا توفير القواعد للطائرات الأميركية. أمل كلا الجانبين في ردع العدوان الإيراني، فأجريا عدداً من المناورات المشتركة الواضحة للغاية (بدأت أولى المناورات في كانون الثاني/يناير من عام 1988)، ودوريات بحرية وجوية واسعة حول الجزيرة. وبعد سنوات قليلة، استخدم بيرسون مرافق البحرين حيث شكّل مطار الشيخ عيسى القاعدة الرئيسية لسلاح الجو في البحرية الأميركية، خلال عمليتي درع الصحراء وعاصفة الصحراء. مذكرة اللواء جريميا بيرسون إلى وزير الدفاع، «مبادرات التخطيط العسكري الأميركي / البحريني،» 27 تشرين الأول/أكتوبر 1987؛ مذكرة المقدم إدوارد روبنسون، «جدول أعمال اجتماع مبادرة New Splendor»، م10 حزيران/يونيو 1987، ص 1-2؛ معلومات إلى هيئة الأركان المشتركة، «تحديث معلومات بشأن New Splendor Planning»، م8 تموز/يوليو 1987، ص 2-13.

[400←]
مقابلة بنزلر.

[401←]
راسيل فيولت، مقابلة مع المؤلف، 13 تشرين الثاني/نوفمبر 2007.

[402←]
الأدميرال وليام كرو، الأسطول البحري الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 11 نيسان/أبريل 2001.

[403←]

ثمة الكثير من الكتب والمقالات حول قانون إعادة تنظيم الدفاع الصادر في العام 1986 (قانون غولدووتر-نيكولاس)، وكان أفضلها ما كتبه رئيس لجنة وضع القانون:

James R. Locher III, Victory on the Potomac (College Station: Texas A&M University Press, 2002). Also James R. Locher, «Taking Stock of Goldwater-Nichols", Joint Force Quarterly, Autumn 1986, pp. 10-16; Gordon Lederman, Reorganizing the Joint Chiefs of Staff: The Goldwater-Nichols Act of 1986 (Westport, CT: Greenwood Press, 1999).

حدد قانون إعادة تنظيم الدفاع أيضاً إجراءات لترقية الضباط، بحيث تتطلب الترقية إلى رتبة جنرال أو أدميرال الخدمة في مركز ذي مهام مشتركة. أجبرت هذه الإجراءات الأجهزة على أن ترسل ضباطها الأكفاء إلى مراكز ذات مهام مشتركة مثل القيادة المركزية.

[404←]
مقابلة أرميتاج.

[405←]
مقابلة مع واينبرغر.

[406←]
مقابلة مع ماكفرلين.

[407←]
أشار جون ماكماهون، الذي عُيّن لاحقاً نائباً لمدير وكالة الاستخبارات المركزية، إلى أن الإسرائيليين قد طرحوا عليه هذه المسألة في أوائل عام 1980، عندما حاول مسؤولون إقناعه خلال زيارته إسرائيل بإيجابيات بيع أسلحة إلى إيران. في أيار/مايو 1982، على سبيل المثال، اجتمع وزير الدفاع آرييل شارون بالوزير شولتز لمناقشة قضية إيران والخلافات بين البلدين بشأن الحرب. اعترف شارون صراحةً أنّ إسرائيل أعربت عن رغبتها في الحفاظ على التواصل مع الجيش الإيراني، وأنها تسعى إلى فرض نفوذها على النظام الذي سيستلم دفة الحكم بعد الخميني لحماية اليهود الإيرانيين. وفي المقابل، سعى شارون جاهداً لإقناع الولايات المتحدة بعدم الحثّ على إرسال الأسلحة إلى خصم إسرائيل اللدود صدام حسين. في هذا السياق، قال شارون، إن القلق الرئيسي كان ناجماً عن بيع كمية كبيرة من الدبابات المصرية الصنع من طراز T- 62 إلى العراق، هذا إلى جانب تزويد الولايات المتحدة القاهرة بدبابات M- 60 حديثة الطراز. بعد مناقشات صريحة استمرت ساعة انتهى الاجتماع، كغيره من الاجتماعات غير الحاسمة، باتفاق الطرفين على عدم الاتفاق. رسالة السفارة الأميركية في باريس إلى وزير الخارجية، «ادعاءات في الصحافة الفرنسية عن بيع إسرائيل أسلحة الأميركية الصنع إلى إيران» (191109Zم)، آب/ أغسطس 1983 ؛ رسالة السفارة الأميركية في تل أبيب إلى وزير الخارجية، «تقارير عن إرسال أسلحة أميركية إلى العراق عبر مصر- بنود محتملة مدرجة على جدول أعمال زيارة وزير الدفاع شارون» (241534)، أيار/مايو 1982؛ مذكرة تعليمات صادرة عن وزارة الخارجية الأميركية، «حُدد موعد لاجتماعك بوزير الدفاع الإسرائيلي آرييل شارون نهار الثلاثاء في 25 أيار/ مايو»، أيار/مايو 1982؛ السفير صموئيل لويس ووكر، برنامج تاريخ الشؤون الخارجية الشفوي، جمعية الدراسات والتدريب الدبلوماسي، 9 آب/أغسطس 1998.

[408←]
أوليفر نورث، «مشروع خاص بإيران»، 5 كانون الأول/ديسمبر 1985. صرح جون بويندكستر بذلك خلال اجتماع في المكتب البيضوي في 10 تشرين الثاني/نوفمبر 1986.

[409←]

تعاملت إدارة ريغان عند تشكّلها، بصورة سطحية مع هذه الفكرة. في 21 تموز/يوليو 1981 اقترحت وزارة الخارجية تشجيع بلدان العالم الثالث على تزويد إيران بالأسلحة. اقترح الفكرة الوزير ألكسندر هيغ، الذي كانت مبرراته المنطقية مشابهة لتلك التي طرحها ماكفرلين بعد أربع سنوات: إن تشجيع الدول الموالية للغرب على تأمين الأسلحة يخفف من تبعية إيران للسوفيت، ويحدّ من إمكانية زيادة نفوذ موسكو. غير أن هيئة الأركان المشتركة عارضت الفكرة بشدة. في مذكرة لمساعد وزير الخارجية الخاص بول بريمر، وهو شاب يبلغ من العمر تسعة وثلاثين عاماً، تمكن فيما بعد من الارتقاء ليصبح مسؤولاً أميركياً كبيراً في العراق في أعقاب الغزو عام 2003، كتب إلى الرئيس قائلاً: «إن زيادة الإمدادات العسكرية قد تشجّع إيران على تكثيف عملياتها العسكرية والاستمرار في رفض خيار التسوية عن طريق التفاوض، بدلاً من تعزيز إمكانية إحلال السلام». بقيت المعارضة العسكرية سيدة الموقف على مدى السنوات الأربع المقبلة. مذكرة الفريق بول جورمان الموجهة إلى بول بريمر، «سياسة إرسال الأسلحة إلى إيران (Arms Transfer Policy toward Iran)»، م3 أيلول/سبتمبر 1981.

[410←]

رسالة وكالة الاستخبارات المركزية، «بيان المصنع - منوشهر (غربانيفار)»، 25 تموز/يوليو 1984، ص1- 3،

www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB210/index.htm.

[411←]

Michel Ledeen, Perilous Statecraft: An Insider›s account of the Iran-Contra Affair (New York: Charles Scribner's Sons, 1988), p. 120.

[412←]

اتصل ماكفرلين بكلٍّ من شولتز ووابنبرغر. اتصل ماكفرلين يوم السبت في 13 تموز/يوليو بمنزل وزير الدفاع في ماكلين بولاية فيرجينيا مستخدماً الخط الآمن. كان واينبرغر جالساً في حديقة منزله يتصفح بعض الأوراق التي أحضرها معه إلى المنزل ليعالجها في عطلة نهاية الأسبوع. في المكالمة الأولى التي أجراها ماكفرلين من أصل خمس مكالمات مع واينبرغر، فضلاً عن مكالمة إضافية مع باول، ناقش الاقتراح الإسرائيلي قائلاً: إن مهدي كروبي على استعداد للعمل على إطلاق سراح المواطنين الأميركيين السبعة المحتجزين كرهائن في لبنان، مقابل أن تزوّدهم إسرائيل بمئة صاروخ من طراز TOW ليُثبت لمؤيديه إيجابيات التعامل مع الغرب. بقي رد واينبرغر على ماكفرلين محاطاً بالغموض، لاسيما وأنه أكد في وقت لاحق أنه لا يتذكر شيئاً عن المكالمات الهاتفية المتكررة مع ماكفرلين. ولكن شولتز، الذي كان في أستراليا، أعرب عن تأييده الحذر للاقتراح الإسرائيلي، قائلاً: «أوافقك الرأي لجهة محاولة إظهار القليل من الاهتمام ولكن دون أي التزام. لا أعتقد أن بوسعنا تبرير تغاضينا عن إمكانية التوصل إلى حل في قضية الرهائن السبعة الآخرين، واحتمال تجديد العلاقات مع إيران في ظل نظام أكثر شفافية، لاسيما وأن رئيس وزراء إسرائيل هو صاحب الاقتراح». في وقت لاحق حاول بولد ماكفرلين أن يُضخِّم هذا الرد الإيجابي المبدئي من جانب شولتز، كدليلٍ على أن وزير الخارجية أيد بشكل مبدئي صفقة الأسلحة مع إيران. غير أن شولتز طلب توخي الحذر في رسالته الموجهة إلى ماكفرلين، ولكنه لم يرفض، من جهة أخرى، الانفتاح الدبلوماسي الواعد على إيران، خصوصاً وأنه كان في المقلب الآخر من العالم في كانبيرا. ولكن مع عودته إلى واشنطن واطلاعه بشكل دقيق وكامل على صفقة الأسلحة التي تقدمت إسرائيل بها، أيّد شولتز واينبرغر في معارضته الشديدة لمشروع الأسلحة الإيرانية. وفي حين أنكر واينبرغر أي معرفة له بمكالمات ماكفرلين في كتابه الذي يحمل عنوان «نضال من أجل السلام» (Fighting for Peace)، عثر مكتب المجلس المستقل في العام 1991 على رسالة قصيرة أتى الوزير فيها على ذكر المكالمات التي تلقاها في 13 تموز/ يوليو. راجع كتاب واينبرغر، «نضال من أجل السلام» (Fighting for Peace)، ص 366؛ التقرير النهائي للمجلس المستقل المتعلق بقضية إيران كونترا [المشار إليها باسم تقرير والش]، الجزء الثامن، «ضباط من وزارة الدفاع الأميركية، كاسبار واينبرغر والتحقيقات ذات الصلة»، الحاشية 9؛ رسالة جورج شولتز إلى روبرت ماكفرلين، (142333Z) «Reply to Backchannel No. 3»، تموز/يوليو 1985؛ «فضيحة إيران كونترا: نشر التاريخ السري» (واشنطن العاصمة: أرشيف الأمن القومي، 1993)، ص 261.

[413←]

روبرت ماكفرلين، ثقة خاصة (نيويورك: كاديل أند دايفيز، 1994)، ص 27؛ تقرير والش، الفصل 1.

[414←]
مقابلة مع واينبرغر، واينبرغر، «نضال من أجل السلام» (Fighting for Peace)، ص 368- 369؛ ماكفرلين، «ثقة خاصة»، ص 32- 33.

[415←]
المدعي العام إدوين ميدي الثالث، هيئة المحلفين، 20 تشرين الثاني/نوفمبر 1987، ص 83

[416←]
ماكفرلين، «ثقة خاصة» (Special Trust)، ص 34.

[417←]
تم تسليمها عن طريق وزير الخارجية الباكستاني، ووزير الخارجية الياباني، ونائب وزير الخارجية الألماني.

[418←]
مقابلة مع بويندكستر.

[419←]
اعترضت كلٌّ من وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة استخبارات الدفاع على ذلك مؤكدتين على أن الطيران السوفيتي لم يحلق فوق إيران. وعلى الرغم من أن المسألة كانت مجرد قصة من نسج الخيال، إلا أن كذب غربانيفار أسهم في إثارة شكوك كيسي وسواه في الإدارة الأميركية إزاء السوفيت ونوايا موسكو حيال إيران.

[420←]
في نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر، اجتمع ليدين بكروبي في جنيف. وقد كثرت الروايات بشأن ما دار خلال هذا الاجتماع، لكن غربانيفار أكّد من جديد على استعداد الحكومة الإيرانية لإطلاق سراح جميع الرهائن مقابل هذه الدفعة من الأسلحة الأميركية المتطورة. أطلع ليدين نورث وماكفرلين على ما حدث، ويذكر أوليفر نورث في مذكراته التي كتبها بخط يده حول هذا الاجتماع أن كروبي «أراد أن يكون حليفاً للولايات المتحدة بدعم من طهران». وإذ شعر ليدين بعدم الارتياح في ما يخصّ موضوع السلاح مقابل الرهائن فقد حثّ ماكفرلين على دعم جهود الانفتاح على الحكومة الإيرانية.

[421←]
Trita Parsi, Treacherous Alliance: The Secret Dealing of Israel, Iran, and the U.S. (New Haven, CT: Yale University Press, 2008), p. 118.

[422←]
كلاريدج، جاسوس لكل المواسم، ص 309، مقابلة مع كلاريدج.

[423←]
«ملاحظات الإعلان عن استقالة روبرت سي. ماكفرلين من منصبه كمساعد لرئيس شؤون الأمن القومي وتعيين جون إم. بويندكستر»، 4 كانون الأول/ديسمبر 1985، وثائق عامة لرئيس الولايات المتحدة: الرئيس رونالد ريغان، 1985، ص 1440.

[424←]
يوميات واينبرغر، 7 كانون الأول/ديسمبر 1985.

[425←]
قرر ريغان إرسال ماكفرلين ونورث إلى لندن، حيث كان نورث قد اجتمع مع الإسرائيليين. خلال الاجتماع الذي عُقد في مبنى يعود إلى عهد الملكة فيكتوريا في وست إند في لندن، شعر ماكفرلين على الفور، بالنفور من غربانيفار، ووصفه في وقت لاحق «لا يُعرَف له رأسه من ذنب». استهل ماكفرلين كلامه قائلاً: «ترّحب الولايات المتحدة بالمباحثات وتؤيد تحسين العلاقات مع إيران. إننا نرغب في التواصل مع شخصيات سياسية ملتزمة بتغيير السياسة الإيرانية. عندما تصبح وحلفاؤك على استعداد لهذا الأمر، أعلمونا بذلك..، ولكن حتى ذلك الحين ليست لنا أي مصلحة في توريد المزيد من الأسلحة». انفجر غربانيفار غضباً، وضرب بقبضة يده على طاولة خشبية صغيرة قائلاً «ما الذي تقوله؟! هل فقدت صوابك؟ حلفائي يطمحون إلى التغيير ولكن موقفهم لا يزال ضعيفاً ولا يمكنهم التباحث معك في الوضع السياسي في الوقت الحالي. ينبغي أن يعززوا قواهم ليتمكنوا من الاستيلاء على السلطة. إذا نقلت هذا الكلام إلى حلفائي سينفجرون غضباً ويقولون «فليذهب الرهائن إلى الجحيم! لندع حزب الله يقتلهم!» من جهته، تبنى قمحي رأياً مماثلاً ولكن أكثر اتزاناً، معرباً عن ثقته بأن ذلك من شأنه أن يحدث تغييراً داخل القيادة الإيرانية مع الوقت. وقال: «أعتقد أنكم تضيعون فرصةً كبيرة. فهذه الحركات تستغرق وقتاً كي تتماسك وتتوحد؛ وهؤلاء الأشخاص يقدمون لنا معلومات على قدر كبير من الأهمية، واستخباراتنا تؤكد أنهم يحرزون تقدماً». عاد ماكفرلين من مهمته وأطلع الرئيس على وقائع الاجتماع. وبصفته أحد المنسقين الرئيسيين لعملية بيع الأسلحة إلى إيران، غادر ماكفرلين اجتماع لندن وهو على ثقة تامة من أن غربانيفار شخصٌ فاسد ومخادع ولا يهمه سوى الحصول على أسلحة للنظام الإيراني.

[426←]
رونالد ريغان، «حيثيات بالاستناد إلى الفصل 662 من قانون المساعدات الخارجية للعام 1961 وتعديلاته، المتعلق بالعمليات التي تقوم بها وكالة الاستخبارات المركزية»، 17 كانون الثاني/يناير 1986، ص 1.

[427←]
مذكرة نورث إلى جون بويندكستر وروبرت ماكفرلين، «الخطوات التالية»، 9 كانون الأول/ديسمبر 1986، فضيحة إيران - كونترا: كشف التاريخ السري، ص 280- 282.

[428←]
يوميات ريغان، سجل يوم 17 كانون الثاني/يناير 1986، ص 384.

[429←]
شهادة تشارلز آلن، جلسات استماع بشأن ترشيح روبرت غيتس لرئاسة لوكالة الاستخبارات المركزية، الملف 2، ص4.

[430←]
مجلس المراجعة الخاصة التابع للرئيس يستجوب روبرت غيتس، نائب مدير وكالة الاستخبارات المركزية، 12 كانون الثاني/يناير 1987؛ جلسات استماع بشأن ترشيح روبرت غيتس لرئاسة وكالة الاستخبارات المركزية، لجنة الاستخبارات المختارة التابعة لمجلس الشيوخ الأميركي، 1991، 319- 320.

[431←]
مقابلة مع لانغ.

[432←]
المصدر نفسه.

[433←]
مقابلة مع آلن.

[434←]
وردت عن تشارلز آلن، في كتاب تيم واينر «إرث من الرماد» الصادر بالعربية عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، النسخة الإنكليزية ص 404؛ تقرير لجنة الكونغرس المعنية بالتحقيق في قضية إيران - كونترا، ص 206.

[435←]
مكتب المفتش العام، إدارة الجيش، التقرير النهائي للتحقيقات في الوقائع والظروف المحيطة ببيع ونقل الصواريخ وقطع الغيار والمعدات الأخرى ذات صلة إلى بلدان معينة في الشرق الأوسط، 3 شباط/فبراير 1987، ص 6؛ كولن باول، «رحلتي الأميركية» (نيويورك، راندوم هاوس، 1995) ص 311.

[436←]
رسالة نورث إلى ماكفرلين، 27 شباط/فبراير 1986، جلسات استماع مشتركة أمام لجنة مجلس النواب المختارة للتحقيق في صفقات الأسلحة السرية إلى إيران، الملحق أ، ص 1179.

[437←]
مقابلة مع أودوم.

[438←]
تقرير والش، الفصل 24، «التحقيق مع مسؤولي وزارة الخارجية: شولتز، هيل وبلات»، www.fas.org/irp/offdocs/walsh/chap_24htm، آخر دخول إلى الموقع تمّ في 12 كانون الأول/ديسمبر 2010.

[439←]
مقابلة مع أرميتاج؛ وليام جي. كرو، «خط النار: من واشنطن إلى الخليج، سياسات ومعارك الجيش الجديد»

The Line of Fire: From Washington to the Gulf, Politics and Battles of the New Military (New York: Simon and Schuster, 1993), pp. 300-301.

[440←]
Theodore Draper, A very Thin Line: The Iran-Contra affairs (New York: Hill and Wang, 1991), p. 314.

[441←]
رسالة إلكترونية من نورث إلى بويندكستر، 6 أيار/مايو 1986، وردت في تقرير لجنة الكونغرس المعنية بالتحقيق في قضية إيران - كونترا، ص 231.

[442←]
ذكر علي هاشمي، بهرماني ابن شقيقة رفسنجاني، ذلك لجورج كاف خلال اجتماعهما في وقت لاحق.

[443←]
Notes by Oliver North, cited in Walsh Report, Chapter 1, «United states v. Robert C. McFarlane", fas.org/irp/offdocs/walsh; George Cave memorandum on the McFarlane mission to Tehran, May 30, 1986. National Security Archive Document Reader, pp. 295-296.

وفقاً لبهرماني، بحثوا في سجلات السفارة ولم يجدوا شيئاً بشأن ماكفرلين، لكنهم عثروا على وثائق تخص جورج كاف عندما كان في إيران قبل عقد من الزمن، لذلك قرروا الالتقاء بهم.

[444←]
رسالة ماكفرلين إلى بويندكستر، 27 أيار/مايو 1986، وردت في تقرير لجنة الكونغرس المعنية بالتحقيق في قضية إيران - كونترا، ص 238.

[445←]
رسالة ماكفرلين إلى بويندكستر، جلسات الاستماع المشتركة أمام لجنة الكونغرس المعنية بالتحقيق في صفقات الأسلحة السرية مع إيران، الملحق أ، ص 1270، العمود 1.

[446←]
علم كاف في ذلك اليوم أن الإيرانيين قد أرسلوا وفداً إلى بيروت للقاء مسؤولين من حزب الله ومناقشة مسألة إطلاق سراح الرهائن. وفي ظل انعدام أي أعمال تحضيرية مسبقة، لم يكن بإمكانهم التفاعل بشكل سريع مع قضية على هذا القدر من الحساسية، فقد كان عليهم العمل مع حزب الله لإطلاق سراح الرهائن بناءً على طلب من الأميركيين.

[447←]
يوميات ريغان. سجل يوم 28 أيار/مايو 1986، ص 415.

[448←]
نقل نورث إلى بويندكستر قلقه وخوفه من ألا تستجيب الولايات المتحدة لإطلاق سراح جينكو، ما يمكن أن يعرض سلامة الرهائن الباقين للخطر. مذكرة نورث إلى بويندكستر، 29 تموز/يوليو 1986، وردت في تقرير لجنة الكونغرس المعنية بالتحقيق في قضية إيران - كونترا، ص 246.

[449←]
اختلف الفريقان بشأن الحرب الإيرانية العراقية، لاسيما مسألة إطاحة صدام حسين. ففي حين أيّد بهرماني وجهة نظر نورث مؤكداً أن بلاده تريد إحلال السلام مع جارتها العراق، أضاف أن إيران ترغب في تسجيل انتصار معين، مصراً على ضرورة إطاحة الرئيس وسأل عن مدى استعداد الولايات المتحدة لاستخدام نفوذها في التخلص من صدام حسين. أجاب نورث بأنه لا يملك السلطة في اتخاذ قرار مماثل، غير أن الولايات المتحدة لم تكن ترغب في أن تخسر إيران أو في أن يُهزم العراق، ما دفعها إلى استجرار التدخل السوفيتي.

[450←]
تقرير لجنة الكونغرس المعنية بالتحقيق في قضية إيران - كونترا، ص 253.

[451←]
تقرير لجنة الكونغرس المعنية بالتحقيق في قضية إيران - كونترا، ص 257.

[452←]
أفادت وسائل الإعلام في بادئ الأمر، أن الإفراج عن جاكوبسن تم بفضل الجهود التي بذلها المبعوث الخاص لرئيس أساقفة كانتربري تيري وايت. راجع إحسان حجازي، «المبعوث الأنجليكاني يجدد الجهود بشأن رهائن بيروت»، نيويورك تايمز، 1 تشرين الثاني/نوفمبر 1986،

http://select.nytimes.com/search/restricted/article?res=F50711FA38580C728CDDA80994DE484D81

[453←]
Bernard Weinraub, «Iran Says McFarlane and 4 Others Went to Tehran on a Secret Trip», New York Times, November 5, 1986.

[454←]
تصريحات الرئيس ريغان بشأن توقيع قانون إصلاح الهجرة والمراقبة لعام 1986، 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1986

November 6, 1986, www.reagan.utexas.edu/arrchivesr/speaches/1986/86nov.htm.

[455←]
مذكرة كاسبر واينبرغر من أجل السجلات، «اجتماع في 10 تشرين الثاني/نوفمبر من العام 1986 في المكتب البيضوي، ضم الرئيس رونالد ريغان ونائب الرئيس ووزير الخارجية شولتز ومدير وكالة الاستخبارات المركزية كيسي والمدعي العام ميس والأدميرال بويندكستر وآل كيل»، بلا تاريخ، ص 2، «أدلة في فضيحة إيران كونترا: كشف التاريخ السري»، ص 315- 17.

[456←]
تقرير والش، ص 263.

[457←]
«رسالة سينقلها دنبر إلى مهدي نجاة»، كانون الأول/ديسمبر 1986؛ مذكرة إلى وزارة الخارجية، «اجتماع غير مقرر مع مسؤول إيراني في فرانكفورت»، بلا تاريخ.

[458←]
مذكرة كاسبار واينبرغر إلى مساعد رئيس شؤون الأمن القومي بالوكالة، 22 كانون الأول/ديسمبر 1986؛ مذكرة ريتشارد أرميتاج الموجهة إلى كاسبار واينبرغر، «وضع المناقشات مع إيران»، 22 كانون الأول/ديسمبر 1986.

[459←]
جون بويندكستر «الخيار الحذر في إيران»، صحيفة Wall Street، م24 تشرين الثاني/نوفمبر، 1986. نسخة مرفقة بتعليق الرئيس ريغان من قبل الأدميرال بويندكستر.

[460←]

يوميات واينبرغر، مدونة يوم 23 تشرين الثاني/نوفمبر 1986.

[461←]
«مذكرات ريغان»، مدونة يوم 24 تشرين الثاني/نوفمبر 1986، ص 453.

[462←]
بيتر بورليه، مقابلة مع المؤلف، 16 كانون الأول/ديسمبر 1994.

[463←]
مقابلة أوكلي.

[464←]
ريتشارد مورفي، مقابلة مع المؤلف، 21 كانون الأول/ديسمبر 1994؛ تقرير لزعيم الأغلبية بقلم السيناتور جون غلين والسيناتور جون وارنر، مجلس الشيوخ الأميركي، لجنة الخدمات المسلحة، جلسة الكونغرس رقم 100، الدورة 1، 17 حزيران/يونيو 1987، ص 15.

[465←]
ساندرا تشارلز، مقابلة مع المؤلف، 21 آذار/مارس 1995.

[466←]
Christopher Joyner, ed., "The Persian Gulf War: Lessons for Strategy, Law, and Diplomacy" (New York: Greenwood Press, 1990), p. 121.

[467←]
كان العاهل الأردني الملك حسين غاضباً جداً من الأميركيين، ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى أنّ آخر المعلومات المهمة التي تلقاها حول إيران جاءت قبل أيام من انتشار خبر صفقات السلاح السرية. مقابلة مورفي؛ مقابلة أرميتاج؛ كريست، "End of Tour"، مقابلة.

[468←]
رسالة الجنرال جورج كريست إلى كاسبر واينبرغر، 3 نيسان/أبريل 1987.

[469←]
استُخدمت طائرة الـ Badger الحربية للمرة الأولى لمهاجمة إيران في آب/أغسطس 1987، عندما هاجمت إحداها سفن الشحن عند جزيرة لارك.

[470←]
CENTCOM History Office, Command History, 1987, pp. ii-61; National Security Policy Implications of United States Operation in the Persian Gulf: Report of the Defense Policy Panel and the Investigations Subcommittee to the Committee on Armed Service, U. S. House of Representatives, Committee on Armed Services, 100th Congress, 1st Session, 1987, p. 8.

[471←]
رسالة جورج كريست إلى وليام كرو، «الخليج العربي» (162000Z)، كانون الأول/ديسمبر 1987، ص 8.

[472←]
CENTCOM, "Lessons Learned: Operation Earnest Will, July 1987-Present", slides 3L, 3R; Michel Heger and Yves Boyer, "U. S. and Iran issues in the Gulf", Case Concerning Oil Platforms (Islamic Republic of Iran vs. The United States of America), International Court of justice, Corrigendum, tab B, pp. 8-17; Middle East Force, Command History, 1986, p. 2-3-3.

[473←]
فُقد صاروخ هاربون آخر من على متن القارب بيكان في تشرين الثاني/نوفمبر 1980. أعطى قائد البحرية المتعاطف مع الشيوعية الإحداثيات للسوفيت، فأرسلوا حينذاك سفينة إنقاذ لاستعادة الصاروخ.

[474←]
رسالة قائد القيادة المركزية الأميركية، «حماية السفن التي ترفع العلم الأميركي» (Protection of U. S. Flagged Vessels) (270515Z)، أيار/مايو 1987، ص 1- 4.

[475←]
المجلس العامّ للتجارة البحرية البريطانية، «إيران/العراق: الوضع في الخليج: ملاحظات توجيهية للشحن»، شباط/فبراير 1988، ص 30- 40.

[476←]
صرّح خورناري: «وعدت إيران بألّا تعترض السفن اليابانية» (Iran Promised to Leave Japanese Shipping Alone)، وكالة أنباء كيودو (Kyodo News)، 4م تموز/يوليو 1987.

[477←]
قضية منصات النفط (الجمهورية الإسلامية الإيرانية ضد الولايات المتحدة الأميركية)، محكمة العدل الدولية، دعوى عرض الوقائع ودعوى مقابلة: القوات المسلحة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، أسطول المنطقة البحرية الأولى (المخابرات)، «تعليمات لمحطات الرادار»، 9 شباط/فبراير 1986، الدليل 114؛ القوات المسلحة للجمهورية الإسلامية الإيرانية، أسطول المنطقة البحرية الأولى (المخابرات)، «تعليمات لنشر مراقبين على منصّات النفط في الخليج العربي»، تشرين الأول/أكتوبر 1980، الدليل 115؛ أرشيف الرسائل الواردة، المنطقة البحرية 1، «تحويل مركز القيادة إلى منصة رستم، 1986- 1987»، الدليلان 118- 19.

[478←]
قضية منصات النفط،

Case Concerning Platforms. Counter-memorial and Counter-claim, pp. 61-63

[479←]
خطاب الجنرال كريست، "Cincs’ Wargaming Conference"، م1987، ص 9.

[480←]
رسالة من قائد القيادة المركزية الأميركية إلى هيئة الأركان المشتركة، «حماية السفن التي ترفع علم الولايات المتحدة» (270515مZ)، أيار/مايو 1987، ص 2. بلغ عدد الهجمات ضد الكويت في الفترة الممتدة بين أيلول/سبتمبر 1986 وتموز/يوليو 1987 حسب مصدر آخر 30 من أصل 44 هجمة. راجع: جانيت جي. شتاين، «الاستراتيجية الخاطئة في المكان المناسب» (The Wrong Strategy in The Right Place)، الأمن الدولي، شتاء 1987- 1988، ص 148.

[481←]
«التأمين ضد مخاطر الحرب» (War Risk Insurance)، ص 1.

[482←]
المصدر السابق.

[483←]
أنطوني كوينتون، مقابلة مع المؤلف، 21 آذار/مارس 1995؛ مقابلة بيرلي. على حد تعبير ريتشارد مورفي، «إن إيجاد توازن بين القوى العظمى... هو أحد عناصر السياسة الكويتية على مرّ السنين». مجلس الشيوخ الأميركي، لجنة العلاقات الخارجية، السياسة الأميركية في الخليج، ص 30.

[484←]
مقابلة هاول.

[485←]
Shawn Tully, "The Biggest Bosses 48. Ali Khalifa al-Sabah Kuwait Petroleum Dealmaker for Dynasty", Fortune, August 3, 1987.

[486←]
مقابلة تشارلز.

[487←]
فضلاً عن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، طلبت الكويت من بريطانيا العظمى أن تضع علمها على ناقلات النفط. في نهاية المطاف تم تغيير علم ناقلتي نفطة كويتيتين وواكبتهما لندن.

[488←]
«التسلسل الزمني» (Chronology)، تفعيل عملية إرنست ويل: غير سري، ص 2. خلاصة مفصلة عن عملية إرنست ويل وضعتها أركان حرب القيادة المركزية الأميركية وقدّمتها إلى الجنرال كريست.

[489←]
مذكرة إلى الجنرال جورج كريست، «متطلبات خفر السواحل الأميركي» (U.S Coast Guard Requirements)، 1987م.

[490←]
برقية من السفارة الأميركية في الكويت إلى وزير الخارجية، «استخدام الكويت سفناً ترفع علم الولايات المتحدة» (Kuwaiti Use of U.S Vessels) (131344Z)، كانون الثاني/يناير 1987؛ فرانك كارلوتشي، مقابلة مع المؤلف، 20 آذار/مارس 1995، واشنطن العاصمة.

[491←]
رسالة وزير الخارجية (290850مZ)، كانون الثاني/يناير 1987، ص 1.

[492←]
مقابلة كوينتون.

[493←]
الجنرال جورج كريست، مقابلة مع المؤلف، بوفورت، ساوث كارولينا، 5 شباط/فبراير 1993؛ أوردها مايكل بالمر أيضاً في: «الأوصياء على الخليج» (Guardians of the Gulf) (New York: The Free Press)، 1992م، ص 123.

[494←]
مقابلة واينبرغر.

[495←]
مقابلة أرميتاج.

[496←]
مقابلة أوكلي.

[497←]
أوضح شولتز في 29 كانون الثاني/ يناير موقف الولايات المتحدة في رسالة أرسلها إلى علي خليفة، وأتبعها باتصال هاتفي بعد خمسة أيام. أكّد شولتز للكويتيين أن مسؤولية حماية سفن الشحن الخاصة بهم تعود للكويتيين ولدول الخليج أنفسها. يمكن للكويت أن تسجّل سفنها في الولايات المتحدة مثل أي دولة أخرى شرط أن تفي بكافة الشروط الموضوعة من قبل خفر السواحل، وأنّ الجيش الأميركي على استعداد لتقديم أي مساعدة لحماية الكويت من إيران، وحثّ الكويتيين على المشاركة أكثر وبفاعلية أكبر بالتخطيط للطوارئ في القيادة المركزية الأميركية. برقية هيئة الأركان المشتركة إلى CINCCENT، «طلب الكويت سفناً ترفع العلم الأميركي» (Kuwait Request for U.S Flagged Vessels) (290850z)، كانون الثاني/يناير 1987؛ برقية وزير الخارجية، «طلب الكويت سفناً ترفع العلم الأميركي» (Kuwait Request for U.S Flagged Vessels) (290850z)، شباط/فبراير 1987.

[498←]
رسالة وزير الخارجية، «المفاوضات الكويتية مع الولايات المتحدة والسوفيت لأجل الحماية البحرية» (Kuwaiti Negotiations with U.S and Soviets for Naval Protection) (050840Z)، آذار/مارس 1987.

[499←]
واينبرغر، «كفاح من أجل السلام» (Fighting for Peace)، ص 396؛ مقابلة واينبرغر.

[500←]
مذكرة ساندي تشارلز إلى كاسبار واينبرغر، «الكويت تطلب من الولايات المتحدة والسوفيت حماية سفنها» (Kuwait Request to the U.S and Soviets to Protect Shipping)، 2م آذار/مارس 1987.

[501←]
واينبرغر، المصدر السابق، ص 397.

[502←]
رسالة وزير الخارجية، «حماية سفن النقل الكويتية» (070909مZ)، آذار/مارس 1987؛ رسالة رئيس هيئة الأركان المشتركة إلى الجنرال كريست، «حماية الناقلات البحرية الكويتية» (071801مZ)، آذار/مارس1987. أرسل واينبرغر وبالتزامن رسالة إلى الحكومة الكويتية وأخرى إلى السفراء في المنطقة لإطلاعهم على قرار الولايات المتحدة بخصوص مرافقة إحدى عشرة ناقلة نفط كويتية. بالمقابل، قال واينبرغر :«نتوقع من الكويت أن تنهي خطتها المتعلقة بإتمام الاتفاق مع السوفيت بخصوص حماية السفن المدنية في الخليج»، كتب واينبرغر أيضاً: «إذا قرر الكويتيون لسبب ما المضي قدماً في اتفاقهم مع الاتحاد السوفيتي، نريد أيضاً أن نكون واثقين من أنّ أي دولة خليجية أخرى لن تسمح للسوفيت بالتزود بالوقود أو بإصلاح أو تجهيز مرافق من شأنها أن تمثل تقدماً كبيراً لموقعهم في الخليج». رسالة وزير الدفاع (م070911Z)، آذار/مارس 1987.

[503←]
رسالة وزير الخارجية (DTG 050710Z)، آذار/مارس 1987، القسم 2، ص 1.

[504←]
رسالة شخصية من الجنرال جورج كريست إلى الأدميرال وليام كرو (DTG 101020Z)، آذار/مارس 1987.

[505←]
العميد البحري هارولد بيرنسن، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلتان مع المؤلف، 10 أب/أغسطس 1995، و22 شباط/فبراير 2007؛ العميد البحري جوزيف ستراسر، مقابلة مع المؤلف، 10 آذار/مارس 2007.

[506←]
رسالة العميد البحري هارولد بيرنسن إلى الجنرال جورج كريست، «جواهر خاصة» ((Private Jewels 110547Z))، آذار/مارس 1987؛ رسالة الأدميرال بيرنسن إلى الجنرال كريست (DTG 110547Z)، آذار/ مارس 1987.

[507←]
رسالة الأدميرال وليام كرو إلى الوزير كاسبار واينبرغر، «حماية سفن الشحن الكويتية» (121330مZ)، آذار/مارس 1987؛ كرو، «خط النار» (Line of Fire)، ص 178.

[508←]
مقابلة سوارت.

[509←]
كانت خطة الطوارئ 1012 الخطة الوحيدة المماثلة لهذه العملية. وقد ركّزت على الدفاع عن خطوط الإمداد والاتصالات الأميركية في الخليج ضد التهديد السوفيتي، وكان أثرها ضئيلاً جداً على المهمة الحالية. الفريق روبرت نيل، مشاة البحرية الأميركية، مقابلة مع المؤلف، 25 أيار/مايو 1995.

[510←]
Peter W. DeForth, "U.S. naval presence in the Persian Gulf: The Middle East Force since World War II", Naval War College Review, summer 1975, p. 30.

[511←]
مقابلة غريف.

[512←]
برقية من سفارة الولايات المتحدة الأميركية في الكويت، «الحوادث الأخيرة التي أحاطت محاكمة الشيعة الكويتيين»، 3 أيار/مايو 1987.

[513←]
«سيلكوورم»: صواريخ صينية الصنع، بسيطة نسبياً. يصل مدى الصاروخ إلى تسعين كيلومتر تقريباً، ويحمل رأساً حربياً وزنه ألف رطل. يتم إطلاقه على زاوية سمت محددة ومبرمجة، فينزلق بخفة فوق سطح الماء لفترة محددة من الزمن ثم يشغّل راداره ليضرب أول هدف يصادفه. إذا تحرك الهدف أو أصبح موقعه أبعد بأكثر من ثلاثة كيلومترات، ما من شيء يضمن أن يصيب الصاروخ هدفه. وكالة الاستخبارات المركزية، «خصائص وقدرات صاروخ سيلكوورم»، 16 نيسان/أبريل 1987؛ «نشاط تهديدي: إيران».

[514←]
Richard Norton-Taylor and William Raynor, "Jailed" Go-Between' on UK-Iran Arms Deals Is Freed to keep M16 Secrets out of Court, "Guardian, February 6, 1999; Marie Colvin", "Secrets of the Silkworm Spy", Sunday Times, June 15, 1997, p. 15.

[515←]
مقابلة واينبرغر.

[516←]
وكالة الاستخبارات المركزية، «إيران- الخليج العربي: تصاعد التهديد لسفن الشحن»، 27 شباط/فبراير 1987، و«تفاقم الخطر على سفن الشحن في الخليج العربي»، 30 أيار/مايو 1987.

[517←]
قائد القيادة المركزية الأميركية، «تقديرات قائد عملية جواهر خاصة»، آذار/مارس 1987؛ مقابلة بيرنسن؛ رسالة الجنرال روبرت هيريس إلى الأدميرال وليام كرو، «جواهر خاصة» (141845مZ)، آذار/مارس 1987.

[518←]
ميشيل فالوس، «تقرير ستارك»، محاضر اجتماعات معهد البحرية الأميركي، أيار/مايو 1988، ص 36.

[519←]
Jeffrey L. Levinson and Randy L. Edwards, Misile Inbound: The Attack on the Stark of the Persian Gulf (Annapolis: Naval Institute Press, 1997), p. 12.

[520←]
مقابلة مع كريست؛ مقابلة مع بيرنسن.

[521←]
مقابلة مع بيرنسن.

[522←]
رسالة قائد القيادة المركزية الأميركية، «التسلسل الزمني للهجوم على السفينة الأميركية ستارك» (Attack on USS Stark Chronology) (DTG 221500Z)، أيار/مايو 1987، ص2.

[523←]
المصدر السابق.

[524←]
العميد البحري غرانت شارب، «تحقيق رسمي في ملابسات الهجوم على المدمرة الأميركية ستارك (FFG 31) في 17 أيار/مايو 1987، وزارة الدفاع، 1987 [المشار إليه في ما يلي بتقرير شارب]، «استنتاجات متعلقة بالوقائع»، البند 1.

[525←]
تقرير شارب، «استنتاجات متعلقة بالوقائع»، البند 3.

[526←]
كانت قواعد الاشتباك ترتكز على وثيقتين: أمر العمليات رقم 400- 85 الصادر عن قيادة قوات الشرق الأوسط بدءاً من 1 تشرين الأول/أكتوبر 1985، ورسالة قائد قوات الشرق الأوسط، في 21 آب/أغسطس 1986.

[527←]
تقرير شارب، «استنتاجات متعلقة بالوقائع».

[528←]
استناداً إلى التحقيق الرسمي: «فشل الضابط القائد في تقدير أهمية المعلومات الاستخباراتية المرسلة إليه، والمتعلقة بالاتجاه الأخير للهجمات العراقية ضد السفينة جنوبي الخط 30' 27º شمال خط العرض في الخليج الأوسط». تقرير شارب، «خيارات»، البند 27.

[529←]
اعتقد بريندل أنهم دخلوا وضعية الإنذار الأصفر اللون التي توفّر حرية أكبر في استخدام أسلحة «ستارك» النارية، غير أن الضباط لم يُبلّغوا بهذا الأمر، وظن مركز المعلومات القتالية أنهم لا يزالون في وضعية الإنذار الأبيض اللون حيث استخدام الأسلحة مقيد، فضُبطت الأنظمة وفق وضعية التشغيل التي تمنع أي استجابة سريعة.

[530←]
تقرير شارب، «استنتاجات متعلقة بالوقائع»، البند 24- 25.

[531←]
تمّ البث عبر دائرة الاتصال الصوتي الآمن بالراديو ضمن النطاق الضيق.

[532←]
الرائد البحري غريغ ماكنيل، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع مؤلف، 22 آذار/مارس 1995.

[533←]
تقرير شارب، «استنتاجات متعلقة بالوقائع»، البند 51.

[534←]
المصدر أعلاه: «آراء»، البند 14.

[535←]
في أعقاب الهجوم حاولت طائرات الأواكس دفع طائرتين سعوديتين من طراز F-15 إلى مهاجمة طائرة عراقية، غير أن الطيارين السعوديين رفضا القيام بذلك لعدم تلقيهم أوامر من قادتهم.

[536←]
مقابلة مع السفير صامويل زاخم، مجموعة التاريخ الشفوي، المحفوظات الخاصة بالعملية، مركز البحرية التاريخي، العاصمة واشنطن، بلا تاريخ.

[537←]
رسالة قائد القيادة الأوروبية، «الهجوم على فرطاقة يو إس إس ستارك» (DTG180208Z3)، أيار/مايو 1987، ص 1؛ رسالة قائد العمليات البحرية، «العدو الشخصي» (DTG230140Z3)، أيار/مايو 1987، ص 1.

[538←]
.Levinson and Edwards, Missile Inbound, p. 33

[539←]
مقابلة مع ضابط الصف هوارد ال. غيغر، من الأسطول الأميركي؛ أجرى المقابلة بول ستيلويل، المحفوظات المتعلقة بالعمليات، مركز البحرية التاريخي، 29 كانون الثاني/يناير 1988.

[540←]
يوميات واينبرغر، 17 أيار/مايو 1987؛ «يوميات ريغان»، ص 497.

[541←]
مقابلة مع كريست؛ مقابلة مع سيتشرام.

[542←]
مُنح عشرة رجال «وسام البطولة للبحرية ومشاة البحرية» في الولايات المتحدة الأميركية، من بينهم الرائد البحري غاجان والملازم أول مونكريف.

[543←]
تقرير شارب، «آراء»، البند 28.

[544←]
تلقى الجنرال كريست تقريراً، من خارج قنوات الاستخبارات المعتادة، يفيد أن الهجوم كان متعمداً في محاولة لزجّ الولايات المتحدة في الحرب. غير أنه لم يتمكن من التثبت من صحة المعلومات الواردة في التقرير.

[545←]
مقابلة مع لانغ.

[546←]
National security Policy Implications of United States Operations in the Persian Gulf, p. 81.

[547←]
صرّح السيناتور بريسلر في إحدى جلسات الاستماع في الكونغرس في حزيران/يونيو قائلاً: «قبل تلك الحادثة [حادثة ستارك]، لم يكن الوضع في الخليج العربي يثير اهتمام أحد. ولسحن الحظ أن تلك الحادثة قد أسهمت في لفت الانتباه إليه». مجلس الشيوخ الأميركي، لجنة العلاقات الخارجية، سياسة الولايات المتحدة في الخليج العربي، 29 أيار/مايو، 16 حزيران/يونيو، 23 و28 تشرين الأول/أكتوبر 1987، ص 32؛ مقابلة مع تشارلز.

[548←]
Jacob Lamar, Steven Holmes, and Barrett Seaman, "Escort Service for the Gulf", Time, June 24, 1987.

[549←]
رسالة نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة، «رسالة شخصية إلى الجنرال كريست» (DTG 222350Z)، أيار/مايو 1987، ص 1.

[550←]
«ملاحظات الأدميرال وليام كرو إلى مجموعة التخطيط المعنية بالأمن القومي»، غير مؤرخة، [أيار/مايو أو حزيران/يونيو 1987].

[551←]
يوميات واينبرغر، 22 أيار/مايو 1987.

[552←]
رسالة الجنرال كريست إلى الأدميرال بيرنسن، «خطة لحماية سفن الشحن الكويتية» (230130Z)، أيار/مايو 1987.

[553←]
رسالة الأدميرال بيرنسن إلى جورج كريست، «مضاعفة الجهوزية في الخليج العربي» (م211510Z)، أيار/ مايو1987. كان بيرنسن يعتقد أن ربان فرطاقة ستارك هو السبب في المأساة التي حصلت وليس أوجه القصور في قواعد الاشتباك.

[554←]
إن دمج النية العدائية في الحقّ الطبيعي بالدفاع عن النفس يعتبر من القضايا الشائكة. وحدهما الولايات المتحدة وإسرائيل تعترفان بهذا الحق وتدخلانه في صلب قواعد الاشتباك الخاصة بقواتهما العسكرية. يمكن تحديد العمل العدائي من خلال الأمثلة التالية: 1) إطلاق صواريخ أو قذائف صاروخية على القوات الأميركية؛ 2) زرع ألغام لعرقلة حرية الملاحة في المياه الدولية؛ 3) مهاجمة قوات صديقة معنية بعمليات مكافحة وإزالة الألغام أو التدخل في شؤونها؛ 4) إظهار طائرة أو سفينة أو منشأة برية عدوة نية عدائية عن طريق التهديد باستعمال القوة ضد القوات الصديقة، ويشمل ذلك التشويش إلكترونياً على قوات الولايات المتحدة أو زرع الألغام في المياه الدولية.

[555←]
رسالة هيئة الأركان المشتركة، «قواعد الاشتباك في زمن السلم - بحر العرب الشمالي/ خليج عمان/ مضيق هرمز/ الخليج العربي» (Zم3002035)، حزيران/ يونيو 1987.

[556←]
رسالة قائد القيادة المركزية الأميركية إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة، «حماية السفن التي ترفع علم الولايات المتحدة» (Zم270515)، أيار/مايو 1987.

[557←]
مذكرة قائد القيادة المركزية الأميركية إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة، «وضع مهمة التخطيط للهجوم بالقذائف الأرضية التقليدية»، 24 أيار/مايو 1987.

[558←]
مختبر الفيزياء التطبيقية في جامعة جونز هوبكنز، «البارجة الأميركية ميسوري في مضيق هرمز»، 28 نيسان/أبريل 1987، ص 14- 16؛ وثيقة إحاطة صادرة عن القائدين جون مورغان وهاري أولريش، «رد فعل المجموعة القتالية في السفينة الحربية ميسوري إزاء الاستفزاز المتعمّد»، 9 حزيران/يونيو 1987.

[559←]
رصدت السفن الحربية الأميركية أيضاً ترددين إضافيين لا يتغيران شهرياً: تردد UHF الثانوي 243,0 ميغاهرتز ومجموعة VHF الطارئة في 121,5 ميغاهرتز.

[560←]
رسالة قائد القيادة المركزية الأميركية، «رسالة شخصية للأدميرال كرو: اقتراح عراقي أميركي مشترك لتجنّب الحوادث» (DTG 032200Z)، حزيران/يونيو 1987، ص 1- 2.

[561←]
تمثّل رد الطائرات العراقية في تحويل مجيب نظام التمييز الإلكتروني IFF الخاص بها، وتغيير مسارها على الفور بمعدل 90 درجة، ووقف أي انبعاثات للرادار.

[562←]
مذكرة الأدميرال وليام كرو إلى وزير الدفاع، 3 أيلول/سبتمبر 1987.

[563←]
القيادة المركزية الأميركية، «المستجدات الأسبوعية»، 30 آب/أغسطس 1987.

[564←]
ظهرت بعض العثرات. في إحدى الحالات تعطّل لاسلكي الطيار العراقي، ولم يكن مساعده يجيد التحدث باللغة الإنكليزية. لم يكن الملحق العسكري الأميركي يستلم إحداثيات المواكب والسفن الأميركية بشكل منتظم، وكان الطيارون العراقيون يفتقرون إلى الدقة والانتباه. في 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1987، التقطت طائرة أواكس ثلاث طائرات عراقية من نوع ميراج متجهة جنوباً، لكنها لم تستطع التواصل معها بواسطة اللاسلكي. ناور الطراد ريتشموند K. تيرنر (Richmond K. Turner) ليكشف أسلحته، وسدد عبر رادار التحكم بإطلاق النار على العراقيين لما صاروا على بعد ثمانية وعشرين ميلاً. حاول العراقيون، الذين لم يدركوا أن المصدر سفينة حربية أميركية، دون جدوى التشويش عليها. أطلقت ريتشموند تيرنر شعيرات التشويش واستعدت لإطلاق الصواريخ. وأمكن العراقيين فقط وهم على بعد عشرين ميلاً عن الطراد إقامة اتصال صوتي، وعدّلوا على الفور مسارهم قبل ثوانٍ قليلة من بلوغ طيرانهم نهاية مأساوية غير متوقعة. رسالة من الجنرال جورج كريست إلى كاسبار واينبرغر، «مستجدات القيادة المركزية الأميركية»، أيلول/سبتمبر وتشرين أول/أكتوبر 1987؛ آدم سيغل، «التسلسل الزمني للأحداث المرتبطة بعمليات إرنست ويل»، مركز التحليلات البحرية، حزيران/يونيو 1991، ص 30. استدعت الهجمات العراقية عقد اجتماع إضافي في شباط/فبراير 1988. في ذلك الشهر، كانت بغداد قد ضاعفت هجماتها مستخدمةً القاذفة TC-16 Badger السوفيتية الصنع، المسلّحة بصواريخ C- 601، وهي صواريخ مختلفة عن صواريخ «سيلكوورم» المضادة للسفن. لم تكن قواعد فض الاشتباك القائمة، المرتكزة على صواريخ إكزوست القصيرة المدى التي يبلغ مداها 100 كيلومتر، كافية. في 12 شباط/فبراير أطلقت قاذفة بادغر صاروخاً من طراز C- 601 فأصاب خطأً ناقلة «كيت مايرسك» (Kate Maersk) التي ترفع علم الدنمرك، شمال «رستم»، ما أسفر عن مقتل بحار واحد. وعقب تلك الحادثة أطلقت القاذفة بادغر صاروخاً آخر انفجر على بعد تسعة أميال من السفينة الحربية الأميركية «تشاندلر» USS Chandler (DDG-996)، التي كانت ترافق قافلة متجهة إلى داخل الخليج، ما حثّ على التفاوض بشأن اتخاذ إجراءات جديدة تمنع قاذفات بادغر من العبور جنوباً على مسافة «28 درجة شمال» دون الحصول على الإذن من القوات الأميركية. تركت هذه التحسينات تأثيرات إيجابية حيث حققت التوازن ما بين رغبة الولايات المتحدة في حماية سفنها والسماح لسلاح الجو العراقي بمهاجمة الأهداف الإيرانية بأقصى قدر من المرونة مع حرية التحليق فوق المياه الدولية.

[565←]
مذكرة الأدميرال كرو إلى وزير الدفاع، «المصادقة الرابعة على تحقيق العميد البحري شارب في 12 حزيران/يونيو 1987»، 3 أيلول/سبتمبر1987، ص 1.

[566←]
حديث لكرو؛ الأدميرال وليام كرو، مقابلة مع العقيد تشارلز غروس في إطار التاريخ الشفوي، مكتب تاريخ سلاح الجو، قاعدة بولينغ الجوية، 16 تموز/ يوليو 1991، ص 16- 18.

[567←]
رسالة قائد القيادة المركزية الأميركية إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة، «نظام المرافقة» (27051مZ)، 5 أيار/مايو 1987، ص 3؛ القيادة المركزية الأميركية j-2، «ردود الفعل الإيرانية على عمليات المرافقة الأميركية»، 5 أيار/ مايو 1987، ص 1؛ مقابلة مع كريست.

[568←]

المصدر السابق.

[569←]
لم يتفق بات لانغ مع التقييم العام الذي أجرته منظمته.فقد شارك في تقييم استخباراتي على الصعيد المحلي تميّز بكونه أكثر حذراً حول خطر الألغام الإيرانية، وكانت وكالة الاستخبارات المركزية عموماً أكثر قلقاً من وكالات الاستخبارات الأخرى. مقابلة لانغ.

[570←]
تضررت خمس سفن بالقرب من قناة السويس، بما فيها السفينة الأميركية "Big Orange XII" (المسجلة في بنما)، في حين تضررت سفينتان أخريان بالقرب من باب المندب.

[571←]
Juan Carlos Gumucio, «Iran Threatens to Block Persian Gulf Entrance,» Washington Post, August 18, 1984, p. A1.

[572←]
أفضل من قدم رواية شاملة عن هذه العملية هو الدكتور سكوت سي. تروفر، «ألغام شهر أغسطس: رواية جريمة دولية» (Mines of August: An International Whodunit)، وقائع معهد البحرية الأميركية، أيار/مايو 1985.

[573←]
المصدر أعلاه، ص 102؛ تصريحات الرائد ريتش باري، مشاة البحرية الأميركية، «أزمة الألغام في خليج السويس: الإرهاب في البحر» (The Gulf of Suez Mining Crisis: Terrorism at Sea)، ندوة معهد البحرية الأميركية، 30 أيار/مايو 1985، ص 21.

[574←]
أُطلق على العملية اسم «عملية البحث المكثف» (Operation Intense Look). استجابت ست دول أخرى لطلب المساعدة من السعودية ومصر. فقد أرسلت المملكة المتحدة خمس سفن لإزالة الألغام، بالإضافة إلى سفينة دعم، وصلت إلى ميناء «الأدبية» المصري في 15 آب/أغسطس. كما أرسلت فرنسا سفينتين لإزالة الألغام إلى جدة استجابةً لطلب المملكة العربية السعودية. وفي شهر أيلول/سبتمبر أرسل الإيطاليون والهولنديون سفينتين. والغريب أنّ الاتحاد السوفيتي كانت من أولى الدول التي سعت لمعالجة الأزمة علماً أنه هو من قام بتزويد ليبيا بالألغام في بادئ الأمر. بدأت ثلاث سفن لإزالة الألغام، بالإضافة إلى الطوافة لينينغراد، المتمركزة في ميناء عدن، بالبحث عن ألغام أخرى قرب باب المندب.

[575←]
Loren Jenkins, "Italian Ships Join Red Sea Mine Hunt", Washington Post, August 29, 1984, pp. A1, A20.

[576←]
تصريحات الدكتور سكوت تروفر، «أزمة الألغام في خليج السويس: الإرهاب في البحر»، ندوة معهد البحرية الأميركية، 30 أيار/مايو 1985، ص 32- 33.

[577←]
في شباط/ فبراير 1984، زرع الإيرانيون ألغاماً في جزر مجنون، وبعد ذلك بعامين، في شباط/فبراير 1986، زرعت الوحدة نفسها ألغاماً في المياه قبالة شبه جزيرة الفاو لدعم هجوم فجر

VIII, CENTCOM History Office, Command History, 1988, March 27, 1990, p. 76.

[578←]
الحقيقة أنها نسبة إلى موضع اسمه «غدير خم»، وقصته معروفة.

[579←]
مقابلة كوينتون.

[580←]
مقابلة كوينتون.

[581←]
رسالة الجنرال كريست إلى الأدميرال كرو، «زرع الألغام في شمال الخليج» (Z11620م)، حزيران/يونيو 1987.

[582←]
كان يتألف من: تسعة رجال من كتيبة التخلص من الذخائر المتفجرة؛ وفريق من ستة رجال يعمل على نظام البحث وهو مجهز بأجهزة استجابة دقيقة وسونار متطور لعمليات المسح؛ وفريق للمساعدة مكون من ثلاثة رجال لتقديم الخبرة للجيش الكويتي بشأن عملية إزالة الألغام. عُرفت عملية الجيش الأميركي هذه بـ«المطرقة الهوائية». فضلاً عن إرسال الفريق إلى الكويت تمّ، في 16 حزيران/ يونيو، وضع خمس طائرات هليكوبتر RH-53D Sea Stallion مع طواقمها وموظفي الصيانة من الفرقة 14 للمروحيات مضادة للألغام (HM-14) في نورفولك بولاية فرجينيا في جهوزية تامة على مدى 72 ساعة، تحسباً لإمكانية نشرها في الخليج العربي. وبما أن استخدامها يعني زيادة الوجود الأميركي في الكويت عشرة أضعاف، كما يعني الالتزام العلني والعام بالتعاون العسكري الكويتي-الأميركي، فقد ظل خياراً غير مقبول بالنسبة إلى الحكومة الكويتية بالمجمل إلا في الحالات القاهرة. اتفقت كلٌّ من القيادة المركزية الأميركية وهيئة الأركان المشتركة على إرسال مروحيات مضادة للألغام (HM-14) فقط إن كان هناك دليل على وجود ألغام بشكل كبير في القناة. الفرقة 14 للمروحيات المضادة للألغام، تاريخ القيادة، 1987، مدونة 16 حزيران/ يونيو 1987؛ رسالة الجنرال هيريز إلى الجنرال كريست، «زرع الألغام في شمال الخليج العربي: فريق المساعدة APF/MNM» (DTG 242120Z)، تفعيل إرنست ويل، ص 1.

[583←]
عثرت طائرة هليكوبتر كويتية على لغم فقام الغواصون الكويتيون بتدميره. مكتب قائد العمليات البحرية، مذكرة إلى قائد العمليات البحرية، «دعم عمليات قوات الشرق الأوسط Sitrep-6»، م24 حزيران/يونيو1987، ص 1؛ مكتب الاستخبارات البحرية، «خطر زرع الألغام من قبل إيران في الخليج العربي»، 11 حزيران/يونيو 1987، المحفوظات العملية، مركز البحرية التاريخي، ملفات الاستخبارات، العلبة 1، السلسلة الثانية.

[584←]
رسالة الأدميرال كرو إلى الجنرال كريست، «أمن القوات العسكرية الأميركية في الخليج العربي» (Z172330م)، تموز/ يوليو 1987.

[585←]
النقيب جيمس برودي، خفر السواحل الأميركية، مذكرة، «ناقلات كويتية تغير العلم»، 23 شباط/فبراير 1987.

[586←]
«ناقلات كويتية تغير العلم»، تفعيل عملية إرنست ويل، ص 3؛ مذكرة كولن باول، «تغيير العلم»، 10 تموز/يوليو 1987؛ برقية السفارة الأميركية في الكويت، «تأكيد مواعيد تغيير العلم» (081039مZ)، تموز/يوليو 1987. غيرت إحدى عشرة سفينة أعلامها، وحملت أسماء جديدة، وكانت مواعيد تغيير العلم على النحو التالي:

غاز المناقيش: غاز برينس، 20 تموز/يوليو 1987.

الركاب: بريدجستون، 20 تموز/يوليو 1987.

أم المرديم: سيي إيزلاندز سيتي، 6 آب/أغسطس 1987.

أم القصبة: أوسيان سيتي، 6 آب/أغسطس 1987.

غاز البرقان: غاز كينغ، 6 آب/أغسطس 1987.

أم ترابة: شيسبيك سيتي، 14 آب/أغسطس 1987.

قصيم: تاون سيند، 14 آب/أغسطس 1987.

غاز الأحمدي: غاز برينس، 16 آب/أغسطس 1987.

غاز الكويتي: غاز كوين، 18 آب/أغسطس 1987.

أم العيش: سورف سيتي، 23 آب/أغسطس 1987.

الفنطاز: ميدلتون، 6 أيلول/سبتمبر 1987.

[587←]
جرى هذان اللقاءان في 2 تموز/يوليو و14 تموز/يوليو 1987.

[588←]
واينبرغر، «كفاح من أجل السلام» (Fighting for Peace)، ص 410- 411.

[589←]
الرائد البحري جوزيف ستراسر، دفتر ملحوظات، مدونة 15 تموز/يوليو 1987.

[590←]
مقابلة كوينتون. كان العلم الذي رُفع يرفرف فوق مبنى الكونغرس الأميركي، وقد حمله إلى الكويت عضو في الكونغرس عن ولاية كنتاكي أصرّ على رفعه بنفسه على أول ناقلة تغيّر علمها. وبما أن الكويت لم تتقبّل هذا تماماً، أنقذ كوينتون هذا الوضع السياسي المربك فرفع العلم بنفسه.

[591←]
مقابلة كوينتون.

[592←]

رسالة الأدميرال وليام كرو إلى الجنرال كريست، «تهديد السفن التي غيرت أعلامها في خورفكان» (171605Z)، تموز/يوليو 1987.

[593←]
The air force tanker support for the navy headquarters Strategic Air Command message, "Tanker Support for Earnest Will" (DTG 301804Z), June 1987, p. 2; CINCPAC message, ."Earnest Will Tanking" (DTG 100001Z), July 1987, p. 1

[594←]
ماخ-3، أو سرعة 3 ماخ، تعادل 3 أضعاف سرعة الصوت.

[595←]
أطلق على هذه المهمة اسم «الميزان العملاق III» م(Giant Scale III) وهي المهمة الأولى من مجموع أربع مهام خلال عملية إرنست ويل.

Paul F. Crickmore, Lockheed SR-71: The Secret Missions Exposed (London: Osprey Aerospace, 1993), pp. 154 - 56; Pfister interview; "Giant Scale III/Earnest Will/Giant Express", Air Mobility Command Document, Excerpts from an unspecified command history, undated, p. 2.

[596←]
.Alan Cowell, "Navy Enter the Gulf without Incident," New York Times, July 23, 1987

[597←]
مقابلة بيرنسن؛ مقابلة غريف.

[598←]
مقابلة مع النقيب فرانك سي. سيتز، الابن، البحرية التجارية الأميركية، «بريدجتون: القافلة الأولى»، معهد البحرية الأميركية - وقائع، أيار/مايو 1988، ص 52؛ رسالة قائد قوة الشرق الأوسط إلى قائد القيادة المركزية الأميركية، «بعد تقرير العمل بشأن عملية المواكبة إرنست ويل 770001، 22- 24 حزيران/يونيو 1987»، (310500مZ) حزيران/ يونيو1987.

[599←]
مقابلة بيرنسن؛ مقابلة ستراسر؛ رسالة الأدميرال وليام كرو إلى نادي نيويورك لليخوت، 27 آذار/مارس 1987.

[600←]
Harold Lee Wise, Inside the Danger Zone: The U.S. Military in the Persian Gulf , 1987 - .1988 (Annapolis: Naval Institute Press, 2007), p. 72

[601←]
رسالة العميد البحري بيرنسن إلى الجنرال كريست، «الألغام الإيرانية» (240824مZ)، تموز/يوليو 1987.

[602←]
خدمة إذاعة المعلومات الأجنبية، «خطبة هاشمي رفسنجاني السياسية»، 24 تموز/يوليو 1987، القضية المتعلقة بمنصات النفط، مذكرة مضادة ودعوى مضادة، الدليل 50، 23 حزيران/يونيو 1997، ص 2.

[603←]
آلان كويل، «باخرة كويتية بمواكبة أميركية تصطدم بلغم في الخليج العربي»، نيويورك تايمز، 25 تموز/يوليو 1987،

Alan Cowell, «A Kuwaiti Tanker under U. S. Escort Hits Mine in the Persian Gulf,» New York Times, July 25, 1987.

[604←]
ستستخدم المروحيات السفن المعدة لهبوط المروحيات الهجومية (LHA) والمجهزة بمنصات المروحيات (LPH)، وهي مصممة لحمل المروحيات وإقلاعها. رئيس هيئة الأركان المشتركة، الجدول اليومي، 24 تموز/يوليو 1987.

[605←]
برقية هيئة الأركان المشتركة إلى USCINCCENT، «خطر الألغام الكويتية والإجراءات المضادة» (14011مZ)، تموز/يوليو 1987.

[606←]
رسالة كاسبار واينبرغر إلى جورج شولتز، 27 تموز/يوليو 1987.

[607←]
.Larry Martz et al., "Ollie Takes the Hill", Newsweek, July 20, 1987, p. 14

[608←]
مقابلة بويندكستر.

[609←]
مقابلة بويندكستر.

[610←]
سيغل، «تسلسل زمني للأحداث» (A Chronology of Events)، ص 12؛ مقابلة بيرنسن.

[611←]
النقيب جيري مانلي، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 17 آب/أغسطس 1996؛ النقيب روبرت مكابي، الأسطول الأميركي، مقابلات مع المؤلف، 10 أيار/مايو و16 آب/أغسطس 1995؛ مقابلة غريف؛ النقيب كونواي زيغلر، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 15 حزيران/يونيو 1995.

[612←]
مقابلة بيرنسن؛ النقيب بروس فان بيل، الأسطول الأميركي، مقابلة مع المؤلف، 2 أيار/مايو 1996.

[613←]
النقيب فرانك ديماسي، مقابلة مع المؤلف، 10 آب/أغسطس 1995.

[614←]
القائد ستيفن نرهيم، USN، مقابلة مع الكاتب، آب/أغسطس 1995.

[615←]
إدوين سيمونز، "Mining at Woosan and in the Persian Gulf"، صيف 1987، ص 3- 7.

[616←]
تامارا ميليا، Damn the Torpeder: A Short History of U.S Naval Mine Countermeasures (واشنطن العاصمة، المركز التاريخي التابع للبحرية، 1991) ص 76.

[617←]
القائد ستيفن نيرهايم، "Enabling the Enabling Force: A Naval Mine Countermeasure Force for the Twenty-First Century"، وثائق الأكاديمية الحربية لسلاح المشاة، جامعة مشاة البحرية، أيار/مايو 1993.

[618←]
ملاحظات كرو؛ كاسحة الألغام الأميركية USS Illusive م(448 كاسحة ألغام)، «تاريخ القيادة»، 1987، قسم تاريخ السفن، مركز البحرية التاريخي، ص 3. صدر أمر الانتشار عن هيئة الأركان المشتركة في 14 آب/أغسطس. مذكرة الجنرال روبرت هيريس إلى الوزير وليام تافت، «نشر كاسحات ألغام عابرة للمحيطات في الخليج العربي»، 20 آب/أغسطس 1987.

[619←]
السفن الست التي نُشرت في الخليج هي: أسطول المحيط الأطلسي: Inflict, Fearless, Illusive أسطول المحيط الهادئ: Esteem, Conquest, Enhance.

[620←]
مقابلة مانلي؛ مقابلة فان بيل؛ مقابلة أليس كاستين، أجرى المقابلات بول ستيل ويل، مقابلات غير مكتوبة وغير متوفرة للعموم؛ محفوظات العمليات، المركز التاريخي التابع للبحرية، 15 كانون الثاني/يناير 1988، ص 12.

[621←]
مقابلة ديماسي؛ النقيب ستيفن هولمز، أجرى المقابلات بول ستيل ويل، مقابلات غير مكتوبة وغير متوفرة للعموم؛ محفوظات العمليات، المركز التاريخي التابع للبحرية، 15 كانون الثاني/يناير 1988.

[622←]
برقية COMIDEASTFOR: «MCM/AMCM Concept of Operations in Support of Earnest Will» م(081315مz)، آب/أغسطس 1987.

[623←]

مقابلة كرو.

[624←]
رسالة من قائد أسطول المحيط الهادئ إلى القائد العام للمحيط الهادئ، «فرصة سانحة لعمليات طارئة» (120410مZ)، آب/أغسطس 1987.

[625←]
مقابلة واينبرغر؛ مقابلة ليونس؛ مقابلة أرميتاج، النقيب كيفين هيلي، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 2006.

[626←]
Vistica, Fall from Glory, p. 261.

[627←]
كارلايل تروست، مقابلة مع المؤلف، 9 كانون الأول/ديسمبر 2006.

[628←]
رسالة قائد أسطول المحيط الهادئ، «فرص سانحة لعمليات طارئة»، ص 1.

[629←]
رسالة الأدميرال جيمس ليونس إلى الأدميرال وليام كرو، 7 آب/أغسطس 1987.

[630←]
النقيب موريس سينور، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 12 أيار/مايو 2007.

[631←]
حديث لليونس.

[632←]
نص محادثة هاتفية بين ليونس واللواء البحري هاو، 5 آب/أغسطس 1987.

[633←]
James Brewer, "Iran Warning as Bridgeton Begins Leading", Lloyd’s list, August 1, 1987, p. 1.

[634←]
سيغل، «تسلسل زمني للأحداث»، ص 13.

[635←]

تشاور كرو وليونس لاحقاً ودعما قرار القضاء على موقع صواريخ Silkworm: «من الضروري أن تتخذ القيادة الميدانية كافة الخطوات الاحترازية للدفاع عن القوات الأميركية وعن السفن التي ترافقها ضد صواريخ silkworm التي يمكن أن تطلقها إيران».

[636←]
مقابلة خليلي.

[637←]
رضا خليلي، A Time to Betray (New York: Threshold, 2010)، ص. 252-532.

[638←]
مفكرة ستراسر.

[639←]
رسالة قائد العمليات البحرية، «تحذير بشأن التهديد في الخليج العربي» (032242Z)، آب/أغسطس 1987.

[640←]
آلان كويل، «إيران تحذر من أنها ستجري مناورات واسعة في الخليج» (Iran Warns It Has Extended Maneuvers in The Gulf)، نيويورك تايمز، 7 آب/أغسطس 1987؛ يوميات الجنرال جورج كريست، مدونة 7 آب/أغسطس 1987.

[641←]
مقابلة زيغلر؛ رسالة الأدميرال كرو إلى الجنرال كريست، «تهديد السفن التي غيّرت أعلامها في خورفكان» (Zم081907)، آب/أغسطس 1987؛ مقابلة بيرنسن.

[642←]
مقابلة زيغلر؛ مقابلة بيرنسن. ورد وصف موجز لهذا أيضاً في القضية المتعلقة بمنصات النفط؛ «مذكّرة مضادة ودعوى مضادة»، ص 25.

[643←]
المرجع السابق. وهذا ما أكّده حديث آخر بين المؤلف وضابط في البحرية الأميركية.

[644←]
كان هذا دلالة واضحة على أن اليد اليسرى الإيرانية لا تدري ما تفعله اليد اليمنى. زرعت طهران الألغام لضرب القافلة الأميركية القادمة، وأول سفينة أصيبت كانت ناقلة تحمل النفط الإيراني.

[645←]
Norman Hooke, Modern Shipping Disaster, 1963 -1987 (London: Lloyd’s of London Press, 1989), p. 34.

[646←]
«دروس تمّ تعلمها» (Lessons Learned)، ص 6.

[647←]
وزارة دفاع المملكة المتحدة، «عمليات إزالة الألغام قبالة فونجهرة من قبل سفن الحكومة، من 21 أيلول/سبتمبر 1987 حتى 25 تشرين الأول/أكتوبر 1987»، نيسان/أبريل 1997.

[648←]
مقابلة تروست؛ مقابلة زيغلر. التقى ليونس قائد القوة الضاربة الفرنسية لوقت قصير وشرح للأدميرال أفكاره بالتفصيل، وفي حين أراد الفرنسيون التعاون مع الولايات المتحدة إلا أنهم لم يرغبوا في أن تكون قواتهم تحت قيادة الولايات المتحدة.

[649←]
«رئيس مجلس الشورى الإسلامي الإيراني يتحدث عن صادرات النفط وإنتاج الألغام»، وكالة الأنباء الإيرانية باللغة الإنكليزية، BBC Summary of World Broadcast، م16 آب/أغسطس 1987.

[650←]
«خطبة الجمعة لرئيس مجلس الشورى الإسلامي المتضمنة وجهات نظره حول أحداث الخليج»، خطبة علي أكبر هاشمي رفسنجاني، FBIS، Tehran Domestic Service، م21 آب/أغسطس 1987.

[651←]
وزارة الخارجية، «رسالة إلى الحكومة الإيرانية»، 31 آب/أغسطس 1987.

[652←]
برقية COMIDEASTFOR إلى CJTFME، م«87-3» (230030مZ)، تشرين الثاني/نوفمبر 1987، ملفات العمليات JTFME/MEF، المحفوظات الخاصة بالعمليات، المركز التاريخي للبحرية، السلسلة VI، العلبة 18، الملف 8، «حقل ألغام جزيرة فارسي»، أيلول/سبتمبر 1987- كانون الثاني/يناير 1988، ص 1.

[653←]

رسالة من قائد أسطول المحيط الهادئ إلى القائد العام للمحيط الهادئ، «قواعد الاشتباك - مؤشرات تراكمية» (050535مZ)، آب/أغسطس 1987؛ رسالة قائد القيادة المركزية إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة، «قواعد الاشتباك - مؤشرات تراكمية» (071730مZ)، آب/أغسطس 1987.

[654←]
مقابلة بفيستر؛ رسالة وزير الخارجية إلى السفارة الأميركية في الكويت، «مهمة SR-71 في الخليج العربي» (080542مZ)، آب/أغسطس 1987، ص 1.

[655←]
مقابلة مع أدميرال متقاعد في البحرية؛ انظر أيضاً: فيستيكا، «خريف من المجد» (Fall from Glory)، ص 267.

[656←]
رسالة من قائد الأسطول السابع إلى قائد الأسطول الأميركي في المحيط الهادئ، ("Reef Point Incident 091625Z)"، آب/أغسطس 1987، وثائق ليونس، المحفوظات الخاصة بالعمليات، المركز التاريخي للبحرية.

[657←]
ثمة تناقض في ما يتعلق بهذه الإجراءات. في كتاب «خريف من المجد» (In Fall from Glory)، ص 267، تشير الوثيقة إلى أن الطيارين، الرائد روبرت بيل والملازم كليمنت فيران، أطلقا ثلاثة صواريخ سبارو وأنهما واجها طائرتين إيرانيتين من طراز F-4 من أصل ست طائرات أرسلها الإيرانيون ذلك الصباح. تشير البرقيات والتقارير الواردة ما بعد العملية التي استعرضها المؤلف إلى طائرة F-4 واحدة ويحتمل أيضاً أن تكون طائرة C-130. رسالة الجنرال كريست إلى الأدميرال كرو، «رسالة من قائد قوة الشرق الأوسط» (1121100مZ)، آب/أغسطس 1987، وثائق ليونس، المحفوظات الخاصة بالعمليات، المركز التاريخي للبحرية. راجع أيضاً كوردسمان واغنر، «دروس الحرب الحديثة» (Lessons of Modern War)، المجلد 3، ص 303.

القى المؤلف محاضرة في «الكلية الحربية البحرية» في نيسان/أبريل 2007. جاء إليه أحد الطلاب الذين كانوا على متن E-2 التي تعقّبت طائرة الـ F-4 وقال إنّ ما من شك في أن الطائرة هي من طراز F-4، لكن الإيرانيين أرسلوا أيضاً طائرة C-130 لتقوم بالمراقبة.

[658←]
العميد البحري لايل بول، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 2006.

[659←]
نسخة عن مكالمة هاتفية بين ليونس والأدميرال كرو، وبين الأدميرال ليونس والنقيب ستراسر، 8 و9 آب/أغسطس، 1987؛ مفكرة ستراسر، مدونة 6 و9 آب/أغسطس.

[660←]
رسالة من قائد القيادة المركزية الأميركية إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة، «قيادة القوات المشتركة» (Z140519مZ)، آب/أغسطس 1987؛ كريست، "End of Tour"، مقابلة.

[661←]

مقابلة كريست.

[662←]
رئيس هيئة الأركان المشتركة، برنامج يومي، 14 آب/أغسطس 1987؛ يوميات واينبرغر، 14 آب/أغسطس 1987.

[663←]
«ما كنت لأختار بروكس ولو بعد مليون سنة»، هذا ما قاله ليونس في مقابلة مع المؤلف. «قائد طائرة قتالية في البحرية لم يكن يوماً في فيتنام - هذا يخبرك كل ما تحتاج أن تعرفه».

[664←]
قبل تقاعده، حاول ليونس حشد أنصاره لمواجهة قرار واينبرغر، فاتصل بويب لكن وزير البحرية رفض الرد على اتصالاته أو معاودة الاتصال به، وتحدث إلى جون ليمان، الذي اتصل بدوره بكلٍّ من كرو وواينبرغر لجعلهما يتراجعان عن القرار، لكن دون جدوى. دافع الرئيس السابق لمجلس الأمن القومي والأدميرال بوبي راي إنمان، وهو نائب سابق لرئيس وكالة الاستخبارات المركزية في عهد كايسي، عن ليونس واتصلا بتروست. كان الرجلان يكرهان بعضهما بعضاً، فرفض تروست تغيير رأيه. في النهاية، لم يجد ليونس مؤيدين له في واشنطن.

[665←]
Tom Burgess, "Adm. Lyons Retires from Pacific Post", San Diego Union, October 1, 1987, p. A2.

[666←]
برقية الأدميرال وليام كرو إلى الأدميرال جيمس ليونس (281915Zم)، أيلول/سبتمبر 1987.

[667←]
مقابلة بيرنسن.

[668←]
برقية رئيس العمليات البحرية، مكتب الاستخبارات البحرية إلى وكالات عدة، «تحذير من المخاطر في الخليج العربي» (032242Zم)، آب/أغسطس 1987، ص 2.

[669←]
رأى منتقدوه أنه يقضي «الكثير من الوقت الثمين في تحليل المعلومات الاستخباراتية المركّبة بدلاً من تحليل الوضع التكتيكي الحالي». الرائد بيتر ويكول، «القتال في وسط المياه الضحلة المضيئة: دراسة حالة حول الدعم الاستخباراتي للصراع المنخفض الحدة» (Combat Action at Middle Shoals Light: A Case Study of Intelligence support for Low-Intensity Conflict)، كلية استخبارات الدفاع، 10 كانون الأول/ديسمبر 1989، ص 15.

[670←]
رسالة «شخصية» من قائد قوة الشرق الأوسط إلى الجنرال كريست، «مستويات قدرة قوة الشرق الأوسط» (MEF Force Levels) (062107Z)، آب/أغسطس 1987، ص 2.

[671←]
مقابلة بيرنسن؛ مقابلة غريف؛ القيادرة المركزية الأميركية، «دروس تمّ تعلمها» (Lessons Learned)، نصوص على شرائح -16R 16L

[672←]
المقدم جيمس آر. برودن، CO HML-263، مجموعة Oral History، قسم تاريخ مشاة البحرية، 5 كانون الثاني/ يناير /dkhdv 1988. تم نشر المزيد من عناصر الجيش من أجل الدعم الاستخباراتي وقد جهزوا بمعدات لتحديد الاتجاه وموجات التردد، وقد عملوا على إرسال المعلومات التي يتم جمعها إلى وكالة الأمن القومي لإجراء مزيد من التحليل.

[673←]
اعتباراً من العام 1985 حظرت القيادة المركزية الأميركية على السفن التحرك شمال خط 30 27º’ أيّ على بُعد نحو 30 ميلاً جنوب جزيرة فارسي، باستثناء السفن التي تكون جزءاً من مواكبة، وذلك بسبب مخاطر الحرب العراقية الإيرانية.

[674←]
مقابلة بيرنسن.

[675←]
مقابلة بيرنسن.

[676←]
رفض مصدر المعلومات الخاص بـيرنسن أن يُذكر اسمه.

[677←]
CENTCOM History Office, Command History 1987, pp. iii-88; Commander Norman Carley, USN (Ret.)

مقابلة مع الكاتب، 28 حزيران/يونيو 1995.

[678←]
مقابلة بيرنسن؛ الرائد البحري غريغ ماكانيل، البحرية الأميركية، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 22 آذار/مارس 1995.

[679←]
رسالة من قائد قوة الشرق الأوسط، «مستويات قدرة قوة الشرق الأوسط»، ص 3.

[680←]
وزارة البحرية، مكتب رئيس العمليات البحرية، «مذكرة إلى رئيس العمليات البحرية SITREP 12»، م24أيلول/ سبتمبر 1987، ص 1؛ السفينة الأميركية رالي، تاريخ القيادة، 1987، قسم تاريخ السفن، المركز التاريخي للبحرية. بالإضافة إلى ذلك، وصل المركب «ماونت فيرنون» وعلى متنه أربعة زوارق للدوريات في الأنهار تبيّن أنها غير مجدية في أعالي البحار في الخليج.

[681←]
وصل كذلك جاك غانتلي، نظيره من الفرقة الثانية للقوارب الخاصة في الساحل الشرقي، إلى «لا سال»، وخلص الاثنان إلى أن من المرجح أن تستمر المهمة فترة طويلة. عاد غانتلي في نهاية آب/أغسطس إلى الولايات المتحدة بنيّة إعفاء فلاناغان بعد أشهر قليلة. النقيب جاك غانتلي، الأسطول البحري الأميركي، مقابلة مع المؤلف، 31 أيار/مايو 1995.

[682←]
إنّ أخوية ضباط قوات العمليات الخاصة مجتمع صغير جداً، وهي تشبه في بعض الأحيان مجموعة الحياكة التي تكثر فيها الشائعات والأقاويل. خلال إعداد هذا الكتاب، قلة هم ضباط قوات العمليات الخاصة الذين تحدثوا بتقدير عن فلاناغان، لاسيما أولئك الذين عملوا في الخليج. إلا أنه تلقى الثناء أكثر من الضباط العاملين في قوة الشرق الأوسط، ولاسيما فيما يتعلق بالقاعدة البحرية المتنقّلة.

[683←]
مقابلة الأدميرال هارولد بيرنسن مع جون بارتين، 10 أيار/مايو 1989، مكتب تاريخ قيادة العمليات الخاصة الأميركية، تامبا، فلوريدا؛ مقابلة تروست. خدم لوغو دورتين كضابط صغير، وجولتين في فيتنام كقائد سفينة «أنتيلوب» (USS Antelope)، وهي سفينة مزودة بمدافع وبنادق 76-mm م من بين أسلحتها، وتعمل في مياه الأنهار البنية ومياه ساحل دلتا الميكونغ. غالباً ما كان يعمل بعيداً عن البحر، فقد ساعد الزوارق السريعة والقوات الخاصة البحرية في المواجهات التي لا حصر لها في العالم المظلم والرطب لقوات العمليات الخاصة في الدلتا. وفي حادث جرى في عيد الفصح من العام 1971 اعترض زورق لوغو الحربي سفينة تحمل ذخيرة للثوار. بعد إطلاق طلقة تحذيرية على مقدمة السفينة، رد الفيتناميون الشماليون بوابل من الرصاص. أعقب ذلك معركة بالأسلحة النارية، إلى أن أصابت رصاصة من عيار 40 ملم انطلقت من سفينة «أنتيلوب» الذخيرة التي تحملها سفينة الصيد. «انفجرت مثل مصنع للألعاب النارية»، كما روى لوغو في وقت لاحق. بقيت هذه الصورة الدرامية محفورة في ذهنه رغم مضي عقود. مقابلة عبر الهاتف مع النقيب فرانك لوغو، الأسطول البحري الأميركي (متقاعد)، 10 أيلول/سبتمبر 2006.

[684←]
رسالة من قائد القوة المركزية الأميركية إلى هيئة الأركان المشتركة، «مفهوم الدعم المتحرك في بحر الخليج العربي» (Arabian Gulf Sea Mobile Support Concept)، آب/أغسطس 1987، ص 1- 3.

[685←]
المصدر السابق، ص 4.

[686←]
مقابلة هاول.

[687←]
وصلت كتيبة مماثلة مؤلّفة من أربعة قوارب من الوحدة الخاصة 11 في كاليفورنيا، وكان يتولى قيادتها الرائد بيرت كالاند، نظير إيفانكو الذي تولى لاحقاً قيادة قوات العمليات الخاصة في القيادة المركزية الأميركية بعد 11 أيلول/سبتمبر.

[688←]
برزت فكرة استخدام طائرات الهليكوبتر لدعم إرنست ويل قبل حادثة ارتطام بريدجتون بلغم. رسالة من قائد القيادة المركزية في البحرية الأميركية إلى قائد القيادة المركزية المشتركة، «قدرة المروحية الهجومية في مقابل قارب

الدوريات السريع» (Zم092046)، تموز/يوليو 1987، ص 1- 2.

[689←]
Kenneth Finlayson, «Task Force 160 in Operation Urgent Fury,» Veritas: Journal of Army Special Operations History 2:2 (2006), pp. 36 - 41.

[690←]
الكولونيل لاري أوتلو، مشاة البحرية الأميركية، مقابلة مع المؤلف، 9 آب/أغسطس 1995.

[691←]
رسالة من قائد القيادة المركزية إلى قائد قوة الشرق الأوسط، «دعم المروحيات لعمليات إرنست ويل» (Zم261915)، تموز/يوليو 1987، ص 1.

[692←]
مقابلة المقدم براين «دوغ» براون مع جون بارتين، 28 حزيران/يونيو 1989، ص2- 3.

[693←]
رسالة من قائد قوة الشرق الأوسط إلى قائد القيادة المركزية، "LAMPS Upgrades" م(240900Z)، تموز/يوليو 1987، ص 1- 2؛ مقابلة بنزلر.

[694←]
رسالة من قائد القيادة المركزية، «دعم المروحيات لعمليات إرنست ويل»، ص 1- 2.

[695←]
مقابلة أرميتاج؛ مقابلة بنزلر.

[696←]
وفي حين تُعدّ هذه القدرة محددة ومعيارية في الجيش اليوم في أفغانستان والعراق، إلا أنها شكلت حينذاك تغييراً كبيراً لا بل ثورة في طريقة استخدام الولايات المتحدة لاستخباراتها. كانت وكالات الاستخبارات تميل إلى رفض إرسال المعلومات غير المحللة إلى القوات التكتيكية، دون أن تمر أولاً بموظفي الوكالات من المحللين. مقابلة فيستر.

[697←]
راجع: www.specwarnet.net/americas/isa.htm؛ ستيفن إيمرسون، «المحاربون السريون من داخل العمليات العسكرية السرية في عصر ريغان»

Secret Warriors Inside the Covert Military Operations of the Reagan Era. (New York: Putnam, 1988)

[698←]
الرقيب الأول جيمس باران، مشاة البحرية الأميركية (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 2006.

[699←]
الكولونيل ويان لونغ، الولايات المتحدة الأميركية (متقاعد)، مقابلة، 24 كانون الثاني/يناير 2007.

[700←]
الكولونيل ويان لونغ، الولايات المتحدة الأميركية (متقاعد)، مقابلة، 24 كانون الثاني/يناير 2007.

[701←]
مقابلة بيرنسن مع بارتين، ص19.

[702←]
رسالة من قائد القيادة المركزية الأميركية إلى قائد قوة الشرق الأوسط، (15163Z) "Barge OICs"، أيلول/سبتمبر 1987، ص 1.

[703←]
مقابلة سوارت. بعد ثلاث سنوات سينتقل مور إلى قيادة الجناح الجوي في البحرية أثناء عاصفة الصحراء. ملف السيرة الذاتية، اللواء رويال مور، الابن، قسم تاريخ مشاة البحرية.

[704←]
مقابلة ليونس وملاحظاته.

[705←]
مقابلة واينبرغر؛ مقابلة أرميتاج.

[706←]
مقابلة بيرنسن.

[707←]
شدّد لوغو على أن قوة الشرق الأوسط ترى التهديد بشكل عام على أنه ألغام أو إرهاب. كان الخطر الذي يشكّله الطيران الإيراني محدوداً، فعدد الطائرات الإيرانية في الشمال لا يتجاوز العشرين وهي منشغلة بالحرب مع العراق. كما أنهم لم يهاجموا بالطائرات أي سفينة خلال ما يقارب العام، ولم يظهروا أي ميل لخرق «خط فهد». وهو يعتقد أن تهديد السباحين محدود ولا يتطلب بناء شبكات مضادة لاعتراضهم. إلا أن لوغو أشار إلى احتمال تهريب قنبلة مع الإمدادات الآتية من «براون أند روت»، ما يعني أنه من الضروري التحقق من الخلفية الأمنية للموظفين المدنيين، وغالبيتهم من الفلبين وباكستان، لئلا يندسّ أي إرهابي انتحاري بين طاقم السفينة.

John Partin, special Operations Forces in Operation Earnest Will/Prime Chance I (Tampa: special Operations Command, April 1998), pp. 44 - 45.

[708←]
القطلس: سيف قصير مقوّس كان يستخدمه البحّارة. (الناشر)

[709←]

مقابلة لـوغو.

[710←]
CNO-OP 6B memorandum for the record, "Mobile Sea Base", CM-3-88 Document Collection, Marine Corps Historical Center, Folder USMC Ops in Persian Gulf, Folder #2, p. 1; Major, pp. 1 - 4; CINCCENT message to COMIDEASTFOR, "Barge OIC's" .(151639Z), September 1987, p. 1

[711←]
رسالة من الجنرال رويال مور إلى الأدميرال فوغارتي شخصياً، «موجز عن القاعدة البحرية المتحركة» (151820مZ)، أيلول/سبتمبر 1987.

[712←]
Joint Chiefs of Staff, J-3 Decision paper, September 1987. CM—3-88 Document .Collection, Marine Corps Historical Center

[713←]
رسالة من الأدميرال كرو إلى الجنرال كريست شخصياً، «زيارة إلى قائد قوة الشرق الأوسط»، (172330مZ)، أيلول/سبتمبر 1987، ص 3- 8.

[714←]
مقابلة باران؛ رسالة إلى قائد قوة الشرق الأوسط، «إيران أجر» (252035مZ)، أيلول/سبتمبر 1987.

[715←]
أثار هذا الشكّ في أنّ ايران على علم مسبق ببرنامج «لا سال».

[716←]
عُثر على متن «إيران أجر» على مجموعة كاملة من الرسائل وأوراق البرقيات، تم إبرازها في قضية «منصات النفط»، مذكرة مضادة ودعوى مضادة، الدليل 70- 72، حزيران/يونيو 1997.

[717←]
مقابلة زيغلر.

[718←]
COMIDEASTFOR message, «Force Intelligence Advisory—175/87—Landing Craft Engagement» (221735Z), September 1987, Earnest Will Collection, Operational .Archives, Naval Historical Center, Series VI, Box 10, Folder 9

[719←]
مقابلة غريف، مقابلة بيرنسن.

[720←]
النقيب مارك توماس، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 15 آب/أغسطس 1995، وأيضاً في العام 2007؛ مقابلة باران.

[721←]
USS Jarrett message for COMIDEASTFOR, "SITREP" (212313Z), September 1987; COMIDEASTFOR message, "Force Intelligence Advisory-175/87-Landing Craft Engagement" (212245Z), September 1987, Earnest Will Collection, Operational Archives, Naval Historical Center, Series VI, Box 18, Folder 10.

[722←]
يوميات واينبرغر، مدونة 21 أيلول/سبتمبر 1987.

[723←]
مقابلة توماس؛ الرقيب جيلبير كير، USMC Oral History، قسم تاريخ مشاة البحرية، 5 كانون الثاني/يناير 1988.

[724←]
مقابلة مع بيرنسن أجراها بارتين.

[725←]
مقابلة غريف؛ مقابلة لوغو؛ برقية قائد قوة الشرق الأوسط، «خطة الاستيلاء على مرسى المراكب الإيراني» (212315مZ)، أيلول/سبتمبر 1987.

[726←]
مقابلة توماس. سجل المصورون الحربيون الهجوم كله على شريط فيديو. انظر: «عملية الخليج العربي»، مركز المعلومات البصرية في وزارة الدفاع، قاعدة سلاح الجو - آذار، Pin No D5-208DM-002، عنوان السلسلة DN-DEE-92-0009، شريط 5.

[727←]
مقابلة توماس.

[728←]
مقابلة باران.

[729←]
الرائد بول إيفانسو USN (متقاعد)، مقابلة مع الكاتب، 22 أيار/مايو 1995؛ الرائد بيتر ويكول، مقابلة مع الكاتب، 17 آب/أغسطس 1995.

[730←]
مقابلة ويكول.

[731←]
المصدر السابق.

[732←]
«مقتطفات من خطاب الرئيس الإيراني أمام الجمعية العامة»، صحيفة نيويورك تايمز، 23 أيلول/سبتمبر 1987.

[733←]
كان معظم الإيرانيين الذين تم القبض عليهم مطيعاً جداً. أظهر ضابطان فقط عداءاً حقيقياً للأميركيين. الملازم جون إم. ايكس، USN Oral History، م28 كانون الثاني/يناير 1988، المحفوظات الخاصة بالعمليات، المركز التاريخي للبحرية.

[734←]
يقصد القول إن عثورهم على الألغام على متن السفينة ليس مجرّد دليل بل دليل دامغ على تورّط إيران. (الناشر)

[735←]
جون كيفنر «الولايات المتحدة تفجّر السفينة الإيرانية المحتجزة»، صحيفة نيويورك تايمز، 26 أيلول/سبتمبر 1987.

[736←]
تم إغراق «إيران أجر» شمال 27º00’ وشرق 051º23’. برقية قائد قوة الشرق الأوسط، «بعد التقرير حول إغراق السفينة إيران أجر» (Zم260030)، أيلول/سبتمبر 1987، مقابلة إيفانكو.

[737←]
وكالة الاستخبارات المركزية، «راقبنا الخليج» Studies in Intelligence 33:1, (We Watched the Gulf) (ربيع 1989)، ص 6؛ رسالة هيئة الأركان المشتركة، «التخطيط لمهاجمة منشآت النفط السعودية» (Zم01150)، تشرين الأول/أكتوبر 1987، ص 1-2؛ رسالة من قائد قوة الشرق الأوسط، «قوة إنتل الاستشارية 187 /87، تحديث بشأن التهديد في الخليج العربي» (Zم271650)، أيلول/سبتمبر 1987. ملفات الاستخبارات، 1985- 1987، عمليات قوة الشرق الأوسط/قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، الأرشيف الخاص بالعمليات، المركز التاريخي للبحرية، السلسلة السادسة، العلبة 18.

[738←]
Michel Gordon and Bernard Trainor, The General’s War (New York: Little, Brown, 1995),

(الحرب الشاملة)، ص 38.

[739←]
دفتر ملاحظات ستراسر، مدونة يوم 29 أيلول/سبتمبر 1987، الأدميرال ستراسر، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 7 نيسان/أبريل، 2007.

[740←]
مقابلة رياحي.

[741←]
وكالة الاستخبارات المركزية، «راقبنا الخليج» (We Watched the Gulf)؛ رسالة هيئة الأركان المشتركة، «التخطيط لمهاجمة منشآت النفط السعودية»، ص 1- 2؛ رسالة من قائد قوة الشرق الأوسط، «قوة إنتل الاستشارية 187/ 87».

[742←]
دفتر يوميات الجنرال كريست؛ كرو، الجدول اليومي، 1 تشرين الأول/أكتوبر 1987. في أيار/مايو 9881 أُضيفت طائرتا P-3 وتمركزت مع الطائرات الأخرى في الظهران. تاريخ القيادة، 1988، ص 121-II؛ السفير إدوارد غنيم، مقابلات مع المؤلف في 16 أيار/مايو و29 حزيران/يونيو 1995.

[743←]
سفينة «غوادالكنال» الأميركية، تاريخ القيادة، 1987، 3 تشرين الأول/أكتوبر، قسم تاريخ السفن، المركز التاريخي للبحرية.

[744←]
مقابلة بنزلر؛ مقابلة كريست. يعتقد كثيرون أن رادار طائرة الأواكس عندما كان يعمل على الموجة البحرية التقط موجات صغيرة واعتقد خاطئاً أنها تعود للمراكب الصغيرة. وبما أنه لا بد من ضبط رادار الأواكس مسبقاً ليلتقط الأشياء التي تسير بسرعة معينة، و في هذه الحالة بسرعة من 20 إلى 25 عقدة، لا يمكن استبعاد احتمال أن يكون رادار الأواكس قد سجّل في 3 تشرين الأول/أكتوبر سرعة مماثلة في المياه. يعتقد كلٌّ من الجنرال شارل هورنر والعقيد جورج وليامز، اللذين ارتبطا بشكل كبير بعمليات الأواكس في الخليج خلال هذه الفترة أنّ هذا ما حصل. إنما، وعلى ضوء ما حدث في 8 تشرين الأول/أكتوبر، والمؤشرات الاستخباراتية الإضافية، كان التهديد الذي شكلته الزوارق الإيرانية المحتشدة حقيقياً. الجنرال شارل هورنر، القوات الجوية الأميركية (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 28 تموز/ يوليو 1995؛ العقيد جورج وليامز، القوات الجوية الأميركية، مقابلة مع المؤلف، 13 كانون الأول/ديسمبر 1994.

[745←]
Fariborz Haghshenass, «Iran›s Asymmetric Naval Warfare,» Washington Institute for Near East Policy,

«حرب إيران البحرية غير المتناسقة»، معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، أيلول/سبتمبر 2008، ص 5.

[746←]
مقابلة إيفانكو؛ مقابلة غريف؛ المقدم جيمس ر. برودن، مجموعة التاريخ الشفوي، قسم تاريخ فيلق مشاة البحرية، 5 كانون الثاني/يناير 1988. طلب قائد قوات الشرق الأوسط من رئيس العمليات البحرية إرسال فريق من قيادات منظومة البحر والجو في البحرية إلى الخليج للاطلاع على المراكب مباشرةً ووضع توصيات إضافية. وفي حين شكّلت NavSea خلية أزمة تعمل على مدار الساعة لتسهيل الدعم للمراكب، وصل فريق الاستطلاع إلى الخليج في 23 أيلول/ سبتمبر. كرر العديد من توصياته المخاوف السابقة، وخاصةً التعامل مع الذخيرة. لعل إحدى أفضل أفكار الفريق هي إعادة تصميم الحظائر المقترحة للمروحيات على متن "Hercules" ما يسمح بصيانتها دون التأثير سلباً في الحركة على سطح السفينة الرئيسي المخصص للعمليات. كما أوصى الفريق بشدة ببناء مدرج ثانٍ للمروحيات على متن السفينة «ويمبرون» (Wimbrown). فسطح السفينة الحالي، البالغ مساحته 30 قدماً مربعة ليس قوياً بما يكفي ليحمل طائرات الهليكوبتر الأكبر حجماً التابعة للقوات البحرية، وإن كان قوياً بما يكفي لحمل المروحيات الصغيرة التابعة للجيش.

راجع أيضاً: جون دبليو باترون، «قوات العمليات الخاصة في عملية إرنست ويل - الفرصة الأولى 1» (Special Operations Forces in Operation Earnest Will-Prime Chance I)، ص 44- 45: في حال تحداهم الإيرانيون مباشرةً فسيتم تعزيز المراكب بصفائح معدنية وأكياس رمل فيما يُزوّد جنود مارينز بمجموعة متنوعة من

الأسلحة: بنادق عيار 50، وقاذفات قنابل MK-19، وصاروخ TOW، ومدافع هاون 81 ملم، وصواريخ ستينغر. وجرى نقاش حول وضع دبابة على متن البارجة، ولكن هذا الاقتراح رُفض لأنه سيجعلها ثقيلة جداً. لحماية المراكب سيتم نقلها عشوائياً كل بضعة أيام بين الجزر السعودية ومنصات النفط. وتم تصميم ضوابط دفاعية على مستويات متعددة لمنع وقوع أي هجوم على البارجة. فالمروحيات قادرة على إصابة أيّ هدف ضمن مدى يصل إلى خمسين ميلاً بحرياً، في حين ستغطي المدفعية MK-IIIs المسافات المتوسطة من عشرة إلى عشرين ميلاً، وتقوم زوارق السيفوكس الصغيرة وقوارب الدوريّات بحراسة الأميال الخمسة التي تحيط بالبارجة. إذا فشلت هذه الدفاعات كلها، ستشكّل قوات الأمن البحرية خط الدفاع الأخير، وهي مجهزة بأسلحة آلية، من مسدسات وبنادق M16، لصد أي هجوم إذا لزم الأمر. تعليق قائد المجموعة الأولى في البحرية الأميركية، ديت. 12 (Zم26170) أيلول/سبتمبر 1987؛ «وجهات نظر حول دعم القواعد البحرية المتحركة في الخليج العربي»، 30 أيلول/سبتمبر 1987.

[747←]
قوة الشرق الأوسط/القوة العاملة المشتركة في الشرق الأوسط، تاريخ القيادة، 1988، الملحق 5، ص 7.

[748←]
مقابلة مع ضابط عسكري كبير.

[749←]
مقابلة إيفانكو؛ مقابلة ويكول.

[750←]
مقابلة ويكول.

[751←]
المقدم إدوارد بي. كامينغز، مشاة البحرية الأميركية، مقابلة مع السيد بينيس فرانك، 4 كانون الثاني/يناير 1988، والنقيب إرني إل. غيليسبي، كتيبة الاتصالات اللاسلكية، مقابلة مع السيد فرانك، 6 كانون الثاني/يناير 1988، مجموعة التاريخ الشفوي لمشاة البحرية، قسم تاريخ مشاة البحرية.

[752←]
مقابلة غيليسبي مع فرانك.

[753←]
عمليات الخليج العربي، عنوان السلسلة DN-DEE-29-0009، الشريط 4.

[754←]
برقية القنصلية الأميركية، «جزء من ملاحظات المعتقلين الإيرانيين/ تقرير المترجمين» (Zم181215)، تشرين الأول/أكتوبر 1987، السلسلة IIII: الشؤون العامة للقوة العاملة المشتركة في الشرق الأوسط، هجوم السفن الحربية الإيرانية على قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، تشرين الأول/أكتوبر 1987- نيسان/أبريل 1988، ص 10، المحفوظات الخاصة بالعمليات، المركز التاريخي للبحرية.

[755←]

لا ندري كيف علم الإيرانيون أن الولايات المتحدة قد نشرت قاعدة بحرية متنقلة. عمليات الخليج العربي، عنوان السلسلة DN-DEE-29-0009، الشريط 4؛ رسالة القنصل الأميركي، «جزء من ملاحظات المعتقلين الإيرانيين/ تقرير المترجمين».

[756←]
مقابلة ويكول.

[757←]
مقابلة إيفانكو.

[758←]
النقيب جيري أودونيل، الأسطول الأميركي (متقاعد)، رسائل إلكترونية للمؤلف، 27 نيسان/أبريل 1 و2 أيار/مايو 2001.

[759←]
Sreedhar and Kaul, p. 61.

[760←]
راجع: «أرشيف الرسائل الواردة، منصة رستم النفطية»، القضية المتعلقة بمنصة النفط، مذكرة مضادة ودعوى مضادة، الدليلان 118- 119، ملحق، الملف 4.

[761←]
رسالة من قائد القيادة المركزية الأميركية، «تنفيذ أمر- عملية نبيل آرتشر» (180350مZ)، تشرين الأول/أكتوبر 1987.

[762←]
برقية قائد قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «عملية نبيل آرتشر بعد تقرير العمل» (Operation Nimble Archer after Action Report) (260958z)، تشرين الأول/أكتوبر 1987؛ السفينة الأميركية (Hoel DDG-13) تاريخ القيادة، 1987، ص 3.

[763←]
بلغ مجموع الطلقات التي أُطلقت على المنصة 1065 طلقة. قائد العمليات البحرية، «تقرير عن الدروس المستفادة في الخليج العربي (Arabian Gulf Lessons Learned report): نيسان/أبريل- تشرين الثاني/نوفمبر 1987»، ص 16.

[764←]
Frederic Lert, Wings of the CIA (Paris: Histoire and Collection, 1998), pp. 279-84; Wayne Mutza, Loach: The Story of the H-6/Model 500 Helicopter (Atglen, PA: Schiffer, 2005), pp. 71-75.

[765←]

مقابلة تويتن.

[766←]
في الخامس والسادس والثالث عشر من تشرين الأول/أكتوبر توجّه الأدميرال كرو إلى الكونغرس لإطلاع اللجان الفرعية المعنية على كلٍّ من القرار السعودي المتعلق بقبول طائرات وكالة الاستخبارات المركزية وبرنامج Eager Glacier، واصفاً كيف شكّلت هذه القدرة إضافةً إلى الجيش الأميركي. في ما يتعلق بعملية «إرنست ويل» على الأقل، بدا الكونغرس راضياً، ولم يبدِ أي اعتراض. «بيان مفتوح» (Opening Statement)، مجلس النواب الأميركي، لجنة الخدمات المسلحة، 21 تموز/يوليو 1992، -www.fas.org/news/iran/1992/920722 236124.htm آخردخول إلى الموقع تم في 1 أيلول/سبتمبر 2005.

[767←]
مقابلة هارت.

[768←]
مقابلة هورنر.

[769←]
مقابلة بنزلر؛ مقابلة كريست.

[770←]
كتب ليرت في Wings of the CIA، ص 279- 280، أن طائرات الاستطلاع هي من نوع «كينغ إير بيتشكرافت» (Beechcraft King Air 100)، التي تشبه إلى حدٍّ بعيد طائرة ميرلين (Merlin).

[771←]
مقابلة غريف؛ القيادة المركزية الأميركية، «الدروس المستفادة» (Lessons Learned)، مشروع مخطوطات الشريحتين 16L و16R.

[772←]
مقابلة غريف.

[773←]
العميد البحري دونالد داير، الأسطول الأميركي، مقابلة مع المؤلف، 19 كانون الأول/ديسمبر 1994، نورفولك، فيرجينيا.

[774←]
برقية الجنرال جورج كريست إلى الأدميرال وليام كرو، Eager Glacier، م30 تشرين الثاني/نوفمبر 1987.

[775←]
أصرّت وكالة الاستخبارات المركزية على الحفاظ على قدرات البحث والإنقاذ الخاصة بها في حال تحطمت أيٌّ من طائراتها أو أُسقطت. وصرّح هوارد هارت: «ليست لدينا أيّ حماية إذا أسقطت الطائرة، فطيّارنا ليس كطيار القوات الجوية أو البحرية الذي يتمتع ببعض الحماية القانونية. إن طيار وكالة الاستخبارات المركزية هو جاسوس مرتزقة

يمكن إطلاق النار عليه فوراً. إذا قُتل طيار عسكري فيعتبر ذلك عمل من أعمال الحرب؛ إما إذا قُتلنا نحن فلا أحد يأبه. أنت جاسوس قذر فمن يأبه».

[776←]

USS Esteem (MSO-438)

تاريخ القيادة، 1988، قسم تاريخ السفن، المركز التاريخي للبحرية، ص 1.

اصطدمت الكاسحة الثانية (the Conquest) بسفينة المواكبة أثناء عملية تجديد الموارد في البحر، ما أدّى إلى تأخير وصولها إلى حين إجراء التصليحات اللازمة.

[777←]

لم تستخدم البحرية مصطلح «حقل ألغام». (minefield) فقد زرع الإيرانيون خطوطاً من الألغام وليس حقولاً كثيفة واسعة مثل الحقول التي زرعها العراق أثناء عاصفة الصحراء. بدلاً من ذلك أسمتها البحرية «منطقة خطر الألغام»، نظراً إلى أن الألغام يمكن أن تُزرع في أي مكان من منطقة جغرافية واسعة.

CTG 801.4 Message to USS Conquest, "Part II AGM MCM OPMEMO 1-5A (AG Minehunting Procedures)" (210701Z), March 1988, and "Arabian Gulf MCM OPMED 1-5A", March 21, 1988, JTFME/MEF Operation Files, Operational Archives, Naval Historical Center, Series VI, Box 18.

[778←]

مقابلة فان بيل.

[779←]

مقابلة ديماسي.

[780←]

USS Fearless (MSO-442)

تاريخ القيادة، 1987، قسم تاريخ السفن، المركز التاريخي للبحرية، ص 3.

[781←]

مقابلة فان بيل.

[782←]

مقابلة نيرهيم.

[783←]

مقابلة بيرنسن. في الواقع تطلب نشر ويمبرون بالقرب من جزيرة فارسي أمراً مباشراً من كرو.

[784←]

اللواء جيمس ركورد، القوات الجوية الأميركية، مقابلة مع المؤلف، 28 تشرين الثاني/نوفمبر 1995 و29 كانون الثاني/يناير 1996.

[785←]
مقابلة بيرنسن.

[786←]
أمرالرئيس مساعده، اللواء البحري جوناثان هاو، بالتوجه إلى الخليج للقيام بمهمة تقصّي حقائق. بعد لقائه كلاًّ من بيرنسن وبروكس قدّم توصية إلى كرو تقضي بأن يُعفى بروكس من مهامه، وأن تُدمج القيادتان بإمرة شخص واحد. وبما أن بيرنسن سيجري تبديله، كان من المنطقي أن يحل لِسّ محل الرجلين، ووافق كرو على هذا القرار. الرائد البحري جوناثان هاو، USN (Ret.)، مقابلة مع المؤلف، 8 آب/أغسطس 1996.

[787←]
«ملاحظات الجنرال جورج كريست بشأن تغيير القيادة في قوة الشرق الأوسط»، المنامة، البحرين، 27 شباط/فبراير 1988.

[788←]
"JTFME/MEF Ops Officer Lessons Learned----Overarching", February 1989, JTFME/MEF Operations Files, Operation Archives, Naval Historical Center, Series VI, Box 21, Folder 8.

أجرى لِسّ عدداً من التغييرات لتنظيم القيادة والتحكّم بالعمليات، ووضع مفهوماً بنيوياً رسمياً أكثر لقيادة الحرب من أجل قوات البحرية في منطقة الخليج، وهي الطريقة المعتمدة في البحرية لتشغيل مجموعة المعركة. في ظل هذا النظام فوّض لِسّ قادة محددين للتحكّم بمهام معينة، مثل التحكّم بالعمليات الجوية والسفن (بما في ذلك القوافل)، أو التدابير المضادة للألغام. مقابلة دير.

[789←]
CENTCOM, «Persian Gulf Escort Matrix---As of 13 June 1989,» 1989. A Recap of every escort convoy.

[790←]
النقيب بول رين، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 1 شباط/فبراير 2004.

[791←]
مقابلة داير.

[792←]
Bradley Peniston, No Higher Honor: Saving the USS Samuel B. Roberts in the Persian Gulf (Annapolis: Naval institute Press, 2006), p. 91.

[793←]
"To See the Dawn: The Night-Long Battle to Save USS Roberts"

اقتباس في كتاب شاك ميسي All Hands، آب/أغسطس 1988، ص 4.

[794←]

بدلاً من استخدام المحركات الرئيسة أمر رين بإنزال وحدات الدفع الاحتياطية الخاصة بالسفينة -التي تستخدم لتحريك السفينة في الحالات الصعبة مثل الرسو- والابتعاد قليلاً عن الوسط وتوجيه الدفة إلى اليسار.

[795←]
الغريب أن العديد من أفراد الطاقم، بمن فيهم رين، اعتقدوا في البداية أن مروحية لامبس (Lamps) قد تحطمت وسببت الانفجار؛ وسرعان ما تبددت هذه الفكرة وأصبح واضحاً على الفور أنه لغم.

[796←]
كان تلك غرفة الماكينات الرديفة الثالثة.

[797←]
Kenneth A. Heine, "This Is No Drill: Saving the ‘Sammy B.", Surface Warfare Magazine, .July/August 1988

[798←]
مايكل تيلي، مقابلة مع المؤلف، 1 حزيران/يونيو 2005؛ مقابلة رين.

[799←]
حديث لـتيلي؛ حديث لـرين.

[800←]
تقرير، «حادثة ارتطام يو إس إس صموئيل ب. روبرتس (FFG-58) بلغم، الجدول الزمني 14 نيسان/أبريل 1988»، بلا تأريخ، [يشار إليه في ما يلي بالجدول الزمني المذكور في تقرير صموئيل ب. روبرتس]، زوّد النقيب بول رين المؤلف به.

[801←]
غرقت السفينة الأولى صموئيل ب. روبرتس (DE-413) قرب سمر أثناء معركة خليج ليتي، 25 تشرين الأول/أكتوبر 1944، وقضى تسعون فرداً من طاقمها.

[802←]
مقابلة رين.

[803←]
CENTCOM, Command History, 1988, pp. iii-72; USS Trenton, Command History, 1988, Ships History, Naval Historical Center Enclosure 1, p. 3; Samuel B. Roberts Timeline .briefing

[804←]
Contingency Marine Air-Ground Task Force 2-88, "Command Chronology", November 23, 1987-February 29, 1988, Historical Overview Section, Archives Section, Marine .Corps Historical Center, p. 10; Outlaw interview

[805←]
تقرير حول السفينة صموئيل بي. روبرتس.

[806←]
مقابلة رين؛ موسي، «رؤية الفجر» (To See the Dawn)، ص 10.

[807←]
مقابلة رين.

[808←]
مقابلة رين.

[809←]
النقيب روبرت كانيبا، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 15 آب/أغسطس 2005.

[810←]
الأدميرال البحري غي زيلر، الأسطول البحري (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 10 نيسان/أبريل 1995.

[811←]
أبدى زيلر بعض التحفظ على هذا الإجراء. كما وحذّر قائلاً: «قد ينجم عنه الكثير من الأضرار الجانبية»، وخصوصاً بالنسبة للمستشفى المدني الواقعة بالقرب من مبنى قيادة البحرية في بندر عباس. وأضاف أن التداعيات التي قد تنجم عن فقدان طائرة ووقوع أسرى تفوق أي فائدة عسكرية. سجّل لِسّ مخاوف زيلر إلا أنه أمره، رغم ذلك، بأن يعود إليه بلائحة أهداف للطائرات. القيادة المركزية الأميركية جي-3، الدروس المستفادة المنتظمة والمشتركة لنظام (JULLS) عدد 50343- 51944، «ملخص عملية فرس النبي»، 23 آب/أغسطس 1988، ص 2 [بعد تقرير JULLS]؛ مقابلة زيلر؛ اللواء البحري أنتوني لِسّ، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 28 تشرين الثاني/نوفمبر 1994، 6 تموز/يوليو 2005، 14 تشرين الثاني/نوفمبر 2006، 21 حزيران/يونيو 2007.

[812←]
كانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها نشر فكرة قائد المجموعة الجوية (CAG) الكبير أو «السوبر». وضع هذه الفكرة وزير البحرية جون ليمان لتكون جزءاً من سلسلة واسعة من التغييرات في سلاح الجو التابع للبحرية في أعقاب الضربة الجوية في لبنان في العام 1983، وقضت برفع رتبة قائد المجموعة الجوية لتعادل رتبة عقيد في القيادة ما يوازي قائد ناقلة بحرية، فيعود إليه عندئذٍ اتخاذ القرار بشأن توجيه ضربة جوية ضمن قيادة المجموعة القتالية. ولمساعدته تمّ تعيين مساعد له برتبة نقيب أو أكثر تكون مهمته الرئيسة الإشراف على تنفيذ مهمة الهجوم. الأدميرال آرثر (بولد) لانغستون، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 12 تموز/يوليو 2005.

[813←]
تسلسل زمني، «مجموعة المعركة في المناورة البحرية»، بلا تاريخ [1988]، قدمه للمؤلف النقيب جيمس إنغلر، الأسطول البحري (متقاعد)؛ مقابلة لينغستون.

[814←]
الخيار الثاني الذي اقترحه هو أن تقوم ثماني طائرات هجومية بقصف جزيرة أبو موسى، بينما يتم قصف جزيرة فارسي ومنصة فوروزان النفطية في آن بأسلحة البحرية. تسلسل زمني لقائد المجموعة الجوية 11 (CAG-11)،

«عملية فرس النبي»، 18 نيسان/أبريل ص1، حصل المؤلف عليه من النقيب إنغلر.

[815←]
وضع فريق عمل لِسّ ثلاث خطط عمل بغية مهاجمة المنصة. -1 مهاجمة المواقع الثلاثة بسلاح البحرية فقط؛ 2- قصف المواقع الثلاثة، ولكن يتم إنزال قوات العمليات الخاصة على أحدها لجمع المعلومات في حين تقدّم قوات المارينز الدعم؛ 3- يقوم المارينز بمهاجمة منصتين في وقت واحد، فتستولي قوات المارينز على إحداهما في حين تقوم قوات العمليات الخاصة بالاستيلاء على المنصة الثانية. هانز بوليش، «عملية فرس النبي»، VFW، كانون الثاني/ يناير 1989، ص 35. كان الدكتور بوليش مؤرخ القيادة في سانتكوم.

[816←]
مقابلة لِسّ.

[817←]
السفينتان الأخريان هما حاملة الطائرات «يو إس إس ميريل» (USS Merrill) و«يو إس إس ماكورميك» (USS Lynde McCormick)

[818←]
الفرقاطتان المدمرتان هما يو «إس إس سيمبسون» (USS Simpson) و«يو إس إس باغلي». (USS Bagley)

[819←]
إن لم يُعثر على السفينة «سبلان» فسوف يدمّر منصة إيرانية ثالثة هي «رَخش». لم يكن هناك (SAG A). كانت لدى القوة المشتركة دائرة اتصالات تسمّى «ألفا»، وتُستخدم لايصال البرقيات والرسائل الإدارية. أعرب الضباط في جلسات التخطيط عن القلق بشأن تسمية إحدى مجموعات العمل على السطح بـ "SAG A" خشية أن يحصل لَبْس في ذروة العمليات القتالية. اللواء البحري جيمس ب. بركينز الثالث، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 9 آب/أغسطس 2005.

[820←]
الجنرال جورج كريست، مدونة عمليات الخليج العربي، 16 نيسان/أبريل 1988، بحوزة المؤلف؛ رسالة الجنرال جورج كريست إلى وزير الدفاع فرانك كارلوتشي، 20 أيار/مايو 1988، ص2؛ مقابلة زيلّر؛ «عملية فرس النبي»، حرب الناقلات، تشرين الثاني/نوفمبر-كانون الأول/ديسمبر 1988، ص17.

[821←]
مقابلة كريست.

[822←]
تساءل الكثيرون عما إذا كان تزامن الهجمات التي شنتها الولايات المتحدة والعراق مصادفة فعلاً. في 13 تموز/يوليو 1992 نشرت مجلة نيوزويك مقالاً لجون باري وروجر تشارلز أشارا فيه إلى أن البلدين تواطآ معاً لشن هجوم مشترك على إيران، إلا أن الجنرال كريست رفض رفضاً قاطعاً هذه الاتهامات وقال إن الهجوم العراقي فاجأ الولايات المتحدة. المواد التي اطّلعتُ عليها تدعم ادّعاء الجنرال كريست. حتى الآن ما من دليل على أن المسؤولين الأميركيين قد خططوا لعملية «فرس النبي» قبل اصطدام السفينة صموئيل ب. روبرتس بلغم في 14 نيسان/أبريل. وكما ذكرنا، لم تبدأ المناقشات في القيادة المركزية الأميركية حول توجيه ضربة عسكرية إلى إيران إلا بعد حادثة روبرتس بخمسٍ وأربعين دقيقة، في حين أنّ العراقيين خططوا قبل أشهر لشن هجومهم، وكانوا حذرين في تحركاتهم لإخفاء تعزيزاتهم عن الإيرانيين. لم تكن الولايات المتحدة تعلم أن إحدى سفنها ستصطدم بلغم ما يوفّر بالتالي ذريعة

للانتقام العسكري الأميركي. من المرجح أن العراقيين اختاروا يوم السابع عشر للهجوم لأنه صادف اليوم الأول من شهر رمضان، وليس لأن قراراً اتُّخذ بالتعاون مع واشنطن.

[823←]
ريك فرانكون، Ally to Adversary: An Eyewitness Account of Iraq's Fall from Grace) (Annapolis: Naval Institute Press, 1999)، ص 23- 24.

[824←]

Persian Gulf Operations, Series Title T-1, 2, 3 (89-0003), Tape 3

«عمليات الخليج العربي».

[825←]
Case Concerning Oil Platform, Memorial, Submitted by Islamic Republic of Iran, Volume 1, June 8, 1993, p. 47.

[826←]
Persian Gulf Operations, Series Title T-1, 2, 3 (89-0003), Tapes 1, 2; James B. Perkins III, "The Surface View: Operation Praying Mantis," U.S. Naval Institute Proceedings, May 1989, p. 68.

[827←]
أرسل دينكلبيرغر تقريراً جاء فيه: «المنصة رقم 1 خالية من النيران، المنصة رقم2 تحترق، وهي غير صالحة للاستخدام، فالنار مشتعلة فيها». وجّه أوتلو وبرينكلي طائرة CH-46 بسرعة لإدخال القوة الهجومية إلى المنصة رقم 3 المتاخمة والواقعة في الجنوب. توماس هاستينغز، مشاة البحرية الأميركية، مقابلة مع المؤلف، 22 حزيران/يونيو 1995؛ مقابلة أوتلو؛ عمليات الخليج العربي، عنوان السلسلة (89-0003) T-1, 2, 3، الشريطان 1 و2.

[828←]
مجموع ما استهلكته طائرات الكوبرا من ذخيرة: 15 صاروخ TOW و140 صاروخاً من عيار75,2 بوصة، وأكثر من 6.200 طلقة من عيار 20 ملم.

[829←]
بينما كانت المروحيات التابعة للبحرية تقترب من ساسان، كشفت طائرات الهليكوبتر Lamps التي كانت على متن «صموئيل بي روبرتس» فجأةً زورقاً مجهولاً يقترب بسرعة تسع وعشرين عقدة من الشمال الغربي. حُدد الزورق على أنه «بوغمر» (Boghammer) على الأرجح، وزاد القلق عند بلوغه مسافة أربعة عشر ألف ياردة، وتبيّن أنه مسلح بصاروخ هاربون، ومن الممكن أن يكون زورقاً إيرانياً. لحسن الحظ، لم تطلق قوات بيركن النيران نحوه، وأظهر التدقيق أنه زورق تابع لدولة الإمارات العربية المتحدة، وغافل على ما يبدو عن العمليات العسكرية الأميركية الجارية في ساسان. التزم القارب الإماراتي على الفور التحذيرات التي طالبته بالابتعاد عن المنطقة. وبعد وقت قصير، كشفت السفن الأميركية طائرةً مجهولة الهوية تقترب من الغرب. تجاهلت الطائرة التحذيرات المتكررة بالابتعاد، فأرسلت السفينة طائرتين كوبرا تابعتين للبحرية لاعتراضها. وتبين أن الجاني مروحية لتغطية الأخبار أُرسلت من دبي لتغطية العملية دون أن تدرك كم كانت على وشك أن تصبح جزءاً منها.

[830←]

في حين أن المايجور كلايد برينكلي تولى قيادة القوة الضربة من على متن مروحية UH-1 Huey للقيادة والتحكم، تولى هاستينغز قيادة القوات التي نزلت في ساسان. جلس النقيب فيرنون سكوجين من سرية الارتباط الناري في الأسطول الجوي الثاني في مروحية برينكلي، وقد أوكلت إليه مهمة السيطرة على نيران البحرية. الكولونيل وليام إم. راكو، «مارينز في الخليج -Marines in the Gulf- 1988, Marine Corps Gazette 1988، كانون الأول/ ديسمبر 1988، ص 66.

[831←]

Persian Gulf Operations, Series Title T-1, 2, 3 (89- 0003), Tapes 1, 2.

«عمليات الخليج العربي».

[832←]
النقيب ديفيد شاندلر، الأسطول البحري (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 12 آب/أغسطس 2005.

[833←]
المصدر السابق.

[834←]
المصدر السابق.

[835←]

Persian Gulf Operations, Series Title T-1, 2, 3 (89-0003), Tape 3

«عمليات الخليج العربي».

[836←]
للأسف، لم تعلن «واينرايت» «انتهاء الجولة»، وهي الإشارة لتحرك قوات العمليات الخاصة. أدى ذلك إلى تأخير مدة عشر دقائق إذ لم تكن UH-60 وقوات العمليات الخاصة - التي سبق أن أربكتها مشاركة سمبسون غير المتوقعة في القصف- متأكدةً مما إذا كان إطلاق النار من السفينة للتمهيد للتدخّل البري قد انتهى. قائد فريق المهام الخاصة في الحرب البحرية، «تقرير بعد المعركة - After Action Report»، ص 2.

[837←]
القائد نورمان كارلي، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 28 حزيران/يونيو 1995؛ الأدميرال توماس ريتشارد، الأسطول الأميركي، مقابلة مع المؤلف، 11 آب/أغسطس 1995؛ راجع أيضاً:

Middle East Force Naval Special Warfare Task Unit Atlantic message to CJTFME, "After Action Report at Sirri DTG" (072315), May 1988.

[838←]

USS Wainwright message to CJTFME, "OPREP-3 Feeder After Action Report, Operation Praying Mantis" (190730Z), April 1988, p. 1.

بعد العملية، عبّر ريتشاردز وغيره من القوات الخاصة عن اعتراضهم في التقارير التي رفعوها على «سوء إدارة» العملية، وأعربوا عن استيائهم من كافة القيادات في الخليج تقريباً. إن القوات المخصصة كانت قليلة، حيث إن العملية تتطلب ما لا يقل عن فصيلة كاملة من القوات الخاصة. إن غياب سفينة حربية من نوع A-6 لدعم التوغّل عرّض

القوات المهاجمة للخطر. لم تكن القيادة والتحكّم ما بين قوة العمليات الخاصة ومجموعة السطح محددتين بشكل واضح. رأى كلّ من ريتشاردز وماي أنه كان ينبغي إدخال القوات المهاجمة بعد القصف الأول من قبل SAG C وفيما الإيرانيون لا يزالون تحت تأثير عنصر المفاجأة. لكن غياب التنسيق بين SAG C والقوات الخاصة على مستوى القيادة أخّر تدخّل القوات، ولم يدرك ضباط السطح أهمية تزامن القصف التحضيري مع دخول القوات الخاصة. في نهاية الأمر، سوء التنسيق هذا أدى إلى قصف إضافي «غير ضروري» دمّر المكان. باختصار، وكما جاء في تقرير ريتشاردز: «تم التخطيط من دون التفكير بقوات العمليات الخاصة... إن فريق عمل JTFME لا يجيد استخدام القدرات الحربية الخاصة، فقد عامل الجنود الذين قاموا بالانزال كحاجة مضافة لا كعنصر مركزي أساسي». برقية CNSWTG، أيار/ مايو 1988، «ما بعد عملية فرس النبي»، ص 2؛ CNSWTG «تقرير ما بعد العملية»، ص 2.

[839←]
برقية قائد القيادة المركزية الأميركية إلى هيئة الأركان المشتركة، «تحديث معلومات» (190900مZ)، نيسان/أبريل 1998، ص 3.

[840←]
رسالة من قائد سرب المدمرة 22 إلى قائد قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «جدول زمني لمهمة عملية فرس النبي»، (Operation Praying Mantis Post Mission Timeline (210215Z، نيسان/أبريل 1988، ص 2؛ نائب قائد سرب المدمرة 22، متوفر على شريط VHS لعمليات لخليج العربي، TimeLine 10-52، شاهد المؤلف نسخة عنها تعود للعميد البحري داير.

[841←]
CT 501.1 message to CINCCENT, "Praying Mantis OPREP-3 Feeder 002" (DTG 180645Z), April 1988, Naval Historical Center, Box 20, Folder 9 Praying Mantis .Messages

[842←]
مقابلة مع داير.

[843←]
برقية من قائد المهمة المشتركة في الشرق الأوسط إلى السفينة الحربية الأميركية واينرايت، «تعليمات لمجموعة القتال» (DTG 180728Z)، نيسان/أبريل 1988، قائد المهمة المشتركة في الشرق الأوسط/ قوة الشرق الأوسط - ملفات المدعي العام، برقيات قائد المهمة المشتركة في الشرق الأوسط/قوة الشرق الأوسط 1985 و20 كانون الثاني/ يناير- 19 نيسان/أبريل 1988، أرشيف العمليات، المركز التاريخي البحري، العلبة 14، السلسلة الرابعة.

[844←]
مقابلة تشاندلر؛ النقيب مارتن دريك، الأسطول الأميركي، مقابلة مع المؤلف، 1 أيلول/سبتمبر 2005.

[845←]
رسالة من السفينة واينرايت إلى قائد المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «عملية فرس النبي» (241748مZ)، نيسان/أبريل 1988، مركز البحرية التاريخي، العلبة 230، الملف 9، ص 2، 5؛ بيركنز "The Surface View".

[846←]

مقابلة شاندلر؛ مقابلة دراك.

[847←]
رسالة من قائد المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «ملخص عن عمليات مجموعة القتال الرابعة، 18 نيسان/أبريل» (201223مZ)، نيسان/أبريل 1988، ص 2؛ رسالة من السفينة واينرايت إلى قائد المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «الانطباع الأول لعملية فرس النبي/ التسلسل الزمني» (202330مZ)، نيسان/أبريل 1988؛ كريغ سيموندس، قرار في البحر: خمس معارك بحرية تشكل التاريخ الأميركي،

Decision at Sea: Five Naval Battles that Shaped American History (New York: Oxford University Press, 2005), p. 305..

[848←]
Symonds, Decision at Sea, p. 305

[849←]
مقابلة مع دريك.

[850←]
برقية السفينة واينرايت إلى قائد المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «عملية فرس النبي- الانطباع الأول/ التسلسل الزمني» (Operation Praying Mantis First Impression Chronology) (DTG 202330Z)، نيسان/أبريل 1988، أرشيف العمليات، المركز التاريخي للبحرية، السلسلة السادسة، العلبة 20، الملف 9: رسائل عملية فرس النبي.

[851←]
حديث لشاندلر.

[852←]
برقية السفينة الأميركية واينرايت إلى قوة المهمة المشتركة 800، «بيانات اشتباك صاروخ سطح-سطح» (200246مZ)، نيسان/أبريل 1988، ص 1. في وقت إطلاق صاروخ هاربون باتجاه «جوشان» كانت «واينرايت» تميل إلى الجانب الأيمن نحو الزورق الإيراني، وبالتالي لم يكن للشرائط المعدنية أي فائدة.

[853←]
مقابلة مع ريتشارد.

[854←]
السفينة الأميركية واينرايت، برقية بشأن إطلاق صاروخ سطح-سطح، ص 2.

[855←]
لم تكتشف واينرايت الصاروخ الإيراني المنطلق. وقد رأى خبراء أميركيون في وقت لاحق أن الصاروخ لم ينطلق نظراً لقدمه وسوء صيانته. اعتقد النقيب تشاندلر أن التدابير الإلكترونية المضادة منعت الصاروخ من إصابة الباخرة. مقابلة مع ليس؛ وأيضاً «التقرير النهائي» لقائد قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، ص 2؛ رسالة قائد قوة

المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «التقرير النهائي، عملية فرس النبي» (DTG 030855Z)، حزيران/يونيو 1988، ص 2.

[856←]
القارب الصاروخي جوشان، قائد قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط/ قوة الشرق الأوسط G-م3، «موجز عن عملية فرس النبي»، 1988.

[857←]
USS Wainwright, Command History, 1988, Entry for April 18

[858←]
برقية من السفينة الأميركية واينرايت (202330مZ)، نيسان/أبريل 1988، ص 2؛ رسالة من السفينة الأميركية واينرايت إلى قائد قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «تقرير ما بعد المهمة، عملية فرس النبي» (181638)، نيسان/أبريل 1988، ص 1.

[859←]
رسالة السفارة الأميركية في أبو ظبي إلى قائد قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «وضع الأميركيين في حقل مبارك» (Status of Americans in Mubarak Field) (181732Z)، نيسان/أبريل 1988، ص 1؛ تاريخ القيادة، 1988، ص A6; Navias and Hooton, Tanker Wars, p. 171

[860←]
ثمة تباين في المعلومات حول عدد الطائرات الإيرانية المعنية، فقد ذكر النقيب تشاندلر ثلاث طائرات في حين أشار آخرون إلى أن طائرة أو اثنتين توجهتا جنوباً بعد أن انطلقتا من بندرعباس، وتحولت واحدة نحو مجموعة عمل السطح الثانية. أشار التقرير النهائي بعد المهمة إلى أن طائرة إيرانية واحدة فقط توجهت جنوباً وانتهى الأمر بأن أطلقت عليها واينرايت النيران، JULLS Report, p. 7

[861←]
JULLS Report, p. 7

[862←]
في البداية كانت هناك مؤشرات إلى احتمال وجود طائرتين إيرانيتين، هبطت إحداهما في جزيرة كيش والأخرى في بندرعباس. في وقتٍ لاحق، أشار المسؤولون الأميركيون إلى وجود طائرة إيرانية واحدة، وأنها هبطت في بندرعباس.

[863←]
رسالة من مجموعة المعركة 22 إلى قائد قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «عملية فرس النبي - الجدول الزمني 15» (DTG 210215Z)، م20- 22 نيسان/أبريل 1988، أرشيف العمليات، المركز التاريخي للبحرية، السلسلة السادسة، العلبة 20، الملف 11، برقيات فرس النبي؛ برقية قائد قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط لقائد القيادة المركزية الأميركية، "SPOT Report 021-88 (291950Z)، نيسان/أبريل 1988، ص 1.

[864←]

كانت سهند شقيقة السفينة سبلان. وكان الشاه قد اشترى أربع سفن من هذه السفن الحربية التي تزن الواحدة منها 1.250 طناً من بريطانيا العظمى في مطلع السبعينيات.

[865←]
.CTG 800.1 message, "Praying Mantis Ops-Summary of Lessons learned," p. 1

[866←]
.COMDERSON 22 message, "Timeline," p. 2

[867←]
نفد وقود طائرة F-14 الثانية فاضطرت إلى التزود بالوقود من طائرة في الجو. مقابلة كارلوتشي؛ مقابلة كريست؛ مقابلة كرو؛ مجموعة المعركة CAG 11، «تسلسل زمني»، ص3. الحقائق الأساسية لهذا الحادث لا جدال فيها، وقد استطاع المؤلف أن يستشفّ الحقيقة عندما تم الكشف عنها أولاً عن طريق مراسل شبكة سي بي إس، ديفيد مارتن. ولكن هناك روايات مختلفة حول حاجتهم إلى إذن الرئيس لمهاجمة زوارق بوغامر. عزا كريغ سيموندس، في كتابه الذي بعنوان "Decision at Sea"، ذلك إلى القلق الذي يحيط بالمطاردة الحامية في المياه الإقليمية الإيرانية. (راجع: Symonds, Decision at Sea, pp. 311-312.) جرت الأحداث بسرعة وتمّت جميعها عبر اتصالات هاتفية. ولكن السؤال الأساسي يتمحور بوضوح حول هجوم وقائي استناداً إلى إشارات نجاح الاستخبارات في تحديد النوايا الإيرانية.

[868←]
تزن القنابل الصغيرة 1,32 باوند وعليها رأس حربي يزن 0,4 باوند يحتوي على مواد شديدة الانفجار تحدث تفجيرات تصل إلى 250,000 بساي "psi" عند نقطة الارتطام، مما يتيح اختراقها لما يقارب 7,5 بوصة في المدرعات. تستخدم معظم القنابل الصغيرة بفاعلية ضد أهداف تتطلب الاختراق بهدف القتل.

[869←]
النقيب جيمس إنغلر، الأسطول الأميركي (متقاعد)، مقابة مع المؤلف، 16 تموز/يوليو و 16 آب/أغسطس 2005.

[870←]
مقابلة داير.

[871←]
مقابلة انغستون؛ 11CAG، «تسلسل زمني»، ص 4.

[872←]
جورج بيرك، رسالة نشرت في منتدى على شبكة الإنترنت، 1 آذار/مارس 2002، http://ussjosephstraus.org/posted_messages.htm؛ جوزيف شتراوس، تاريخ القيادة السنوي، 1988، المصنّف1، ص2، قسم تاريخ السفن، المركز التاريخي للبحرية.

[873←]
مقابلة تشاندلر؛ مقابلة داير؛ برقية من قائد مجموعة المهمة 800,1 إلى قائد قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط، «فرس النبي الدروس المستخلصة» (231800مZ)، نيسان/أبريل 1988، ص 4؛ G-3 قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط/قوة الشرق الأوسط، «موجز عن عملية فرس النبي- النيران الصديقة»؛ تقرير JULLS، «فرس

النبي»، ص 7؛ قائد سرب المدمرة، «جدول المهمة الزمني»، ص 2. عقب عملية فرس النبي، درست القوة المشتركة في الشرق الأوسط سبب حادثة إطلاق النيران الصديقة، لكنها لم تصل إلى استنتاجات حقيقية لأنها سرعان ما تلاشت من الذاكرة باستثناء ذاكرة المعنيين. من الواضح تماماً أن طائرة A-7 لم تنسّق بشكل دقيق مع قوات السطح، لكن ما من أحد في قوات الحرب البحرية فعل ذلك. مما لا شك فيه أن السفينة واينرايت أو مجموعة عمل السطح الثالثة لم تمنحها السلطة. لا بد من الإشارة إلى أن مجموعات العمل المشترك حاولت أن تتصل طوال اليوم بالسفن، وعندما أبلغوا قوة المهمة المشتركة في الشرق الأوسط أنهم أطلقوا مجموعة من الضربات لإغراق سهند، كانوا يفترضون أن هذه المهمة منوطة بهم، والجميع يعرف ذلك. ربما كان لدى حاملات الطائرات أفضل صورة عن المعركة وفق النظام العملياتي التكتيكي المشترك (JOTS)، وفكرة واضحة عن المكان الذي تتمركز فيه قوات السطح الأميركية. ومما زاد من تعقيد المشكلة عدم تزويد السفينة جوزيف شتراوس بمسارات جوية يتم نقلها بواسطة E-2، فاضطرت إلى الاعتماد على النظم العضوية الخاصة بها لتحديد الصورة الودية الجوية.

[874←]
على الرغم من عدم وجود تخطيط مسبق بين المجموعة الجوية وداير لإحداث هذا الدمار، إلا أنه كان أول هجوم صاروخي سطح- جو منسّق بواسطة سلاح البحرية الأميركية، وهو موضوع مبشّر جداً في التغطية التي تسبق الاشتباك. برقية من قائد المهمة المشتركة في الشرق الأوسط إلى قائد القيادة المركزية الأميركية ("SITREP" (DTG 181245Z)، نيسان/أبريل 1988؛ برقية قائد المهمة المشتركة في الشرق الأوسط إلى قائد القيادة المركزية الأميركية (DTG 181308Z) "SITREP"، نيسان/أبريل 1988، ص 1؛ مقابلة داير؛ مقابلة انغستون.

[875←]
جاء الدعم الرئيس لطائرات البحرية خلال النهار من الطائرات الصهاريج KC- 10 التي تؤمن الوقود والتابعة لسلاح الجو. قبل ساعة الصفر، وفي مفاوضات اللحظة الأخيرة، حصلت حكومة الولايات المتحدة على الإذن بالتحليق لطائرات الدعم الأميركية من المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، ومن عُمان وهي الأهم. بعد أن بدأت الهجمات أخذت الطائرات الأميركية تحلّق فوق عُمان، وكانت تدخل الخليج وتخرج منه، مما أدى إلى تقصير مسار الرحلة بشكل كبير، وتجنّب الجيش الإيراني المتمركز في مضيق هرمز. بناءً على طلب القيادة المركزية الأميركية، حصلت وزارة الخارجية الأميركية على إذن من عُمان بهذا التحليق في وقت لاحق من اليوم نفسه، وكانت مسقط قد وافقت بالفعل وبقيت الأمور الشكلية. وأذنت دولة الإمارات العربية المتحدة للولايات المتحدة بالتحليق مدة يومين. حلّقت طيلة اليوم طائرات التزويد بالوقود KC-10 في أجواء عُمان، جنوب موقع العملية ولكنها كانت قريبة بما يكفي لتزويد الدوريّات الجوية لمعارك السطح (SUCAPs) في منطقة الخليج. خلال الاثنتي عشرة ساعة الأولى من عملية «فرس النبي» تزوّدت القوات الجوية البحرية بأكثر من 700,000 باوند من الوقود. عندما نفد مخزون ELF-One من وقود الطائرت JP-5 في الظهران، تطوعت السعودية وزوّدت بكمية غير محدودة من الوقود لطائرة A-1 للمواصلة العمليات.

كانت مسألة وقود طائرات حاملة الطائرات مصدر إزعاج للأدميرال «لِسّ» أثناء عملية «فرس النبي». عندما انخفض مخزون طائرة JP-5، أصبحت طائرة JP-4 للتزود بالوقود، التابعة لسلاح الجو، متاحة لطائرة KC-10S وكذلك لطائرة A-1 التجارية التابعة للحكومة السعودية. ولكن لدى طائرة JP-4 نقطة وميض منخفضة، أي إن السائل قابل للاشتعال عبر الاحتكاك بالهواء، وكانت البحرية دائماً مترددة في وقت السلم بشأن تزويد الطائرات بها خشية التعرض لخطر محتمل يؤثر في سلامة حاملة الطائرات. تلقّى «لِسّ» في منتصف النهار اتصالاً هاتفياً من أدميرال زميل من أركان البحرية، هاجمه على الفور متذمراً معتبراً أن من الأفضل عدم السماح لناقلات سلاح الجو التزود بالوقود من طائرة JP-4 وأضاف: «لا يمكننا أن نجعل هؤلاء المقاتلين يعودون إلى الناقلة للتزوّد بالوقود، فهذا يشكّل خطراً على السلامة». في منتصف المعركة، كان «لِسّ» قد نفد صبره من هذه الاعتراضات فقال له: «لا بدّ أنك تمازحني بإجرائك هذه المكالمة! لعنة الله عليك، ثمة عناصر هناك قد يتعرضون للقتل. إنها الحرب، وكل ما يمكنك التحدث عنه هو عدم تزويد تلك الطائرات من JP-4؟ سنستخدم JP-4 طوال اليوم إذا اضطررنا لذلك، للإبقاء على الطائرات في الجو هناك! وعندما تعود إلى الحاملة سيتم تزويدها بالوقود من طائرة JP-5». حديث لـ «لِسّ»؛ رسالة جورج كريست إلى وزير الدفاع فرانك كارلوتشي، 20 أيار/مايو 1988، ص 3؛ تقرير JULLS، ص 9. على مدى يومين، في 18- 19 نيسان/أبريل، استهلك سلاح الجو أكثر من مليون باوند من الوقود لطائرات البحرية، وكثيرٌ منها من المخزون السعودي.

[876←]

مقابلة داير.

[877←]
النقيب براين ديفيس، مشاة البحرية الأميركية، 17 آذار/مارس 1994؛ مقابلة كريست.

[878←]
مقابلة كارلي.

[879←]
مقابلة كارلي؛ برقية من CT801.1 إلى CINCCENT، «عملية Praying Mantis OPREP-3 Feeder 002»

[880←]
مقابلة إنغلر؛ مقابلة زيلر.

[881←]
كرو، «خط النار» (Line of Fire)، ص 202؛ حديث لكارلوتشي.

[882←]
.CINCCENT, "Update" (109900Z), April 1988, p. 4

[883←]
مقابلة أوكلي.

[884←]
مقابلة لانغ؛ لانغ، «بلاد ما بين النهرين» (The Land Between the Rivers).

[885←]
لتجنّب التورط في المعضلة الكردية أو مع تركيا، استثنى لانغ أي أهداف إيرانية قريبة من المناطق الكردية في شمال العراق وإيران وركّز كلياً على تلك التي تسهّل الهجمات الإيرانية على الجبهة الجنوبية بين البصرة وجبال زاغروس. فضّل العراقيون العمل لحساب وكالة استخبارات الدفاع، إذ شكّوا في أن وكالة الاستخبارات المركزية هي التي وفّرت المعلومات الاستخباراتية التي نقلها أوليفر نورث خلال صفقة الأسلحة مقابل الرهائن في العام 1986. راجع: حديث مجلس المراجعة الخاصة الرئاسية لروبرت غيتس، جلسات استماع بشأن ترشيح روبرت غيتس ليكون مديراً للاستخبارات المركزية (Hearings on the Nomination of Robert Gates to be Director of Central Intelligence)، ص 319- 320.

[886←]
تلقى العراق أيضاً صوراً التقطتها الأقمار الصناعية من الفرنسيين. وعلى الرغم من أنها لم تكن مفصّلة على النحو الذي توفّره وكالة استخبارات الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية إلا أنها سمحت للقيادة العليا في الجيش العراقي بتأكيد المعلومات التي قدّمتها واشنطن حول القوات الإيرانية. (مقابلة أجرها المؤلف مع عميد سابق في الجيش العراقي).

[887←]
كان المدفع من عيار 1.070ملم ذاتي الدفع ومركّب على هيكل دبابة، وقد صمّمته كوريا الشمالية لقصف سيول. (مقابلة لانغ؛ مقابلة غنهيم).

[888←]
مقابلة غينهم؛ مقابلة أرميتاج.

[889←]
مأخوذة من برقية أبرزها ضابط في البحرية. درس المؤلف العديد من البرقيات التي تظهر عدوانية النقيب روجرز.

[890←]
Commander David Carlson, comments on article "The Vincennes incident," U. S. Naval Institute Proceedings, September 1989, p. 88

القائد دافيد كارلسون، تعليقات على مقالة "The Vincennes incident"، قضايا المعهد البحري الأميركي، أيلول/سبتمبر 1989، ص 88.

[891←]
John Cushman, "U. S. Expands Protection in Gulf to Any Neutral Vessel Attacked",

نيويورك تايمز، 30 نيسان/أبريل 1988، ص A3.

[892←]
العميد البحري وليام فوغارتي، تحقيق رسمي في ملابسات إسقاط الرحلة 655 التابعة للخطوط الجوية الإيرانية في 3 تموز/يوليو عام 1988، وزارة الدفاع، 1988 [في ما يلي تقرير فوغارتي]، ص 11.

[893←]
وليام كرو، «المصادقة الثانية على تقرير العميد البحري فوغارتي في 28 تموز/يوليو 1988»، تقرير فوغارتي، ص 2.

[894←]
تقرير فوغارتي، ص 14- 15.

[895←]
تقرير فوغارتي، ص 2.

[896←]
تقرير فوغارتي، ص 12.

[897←]
تسمح قواعد الاشتباك، الصادرة عن القيادة المركزية الأميركية والمصادق عليها من قبل هيئة الأركان المشتركة، للسفن الحربية الأميركية بدخول المياه الاقليمية الإيرانية أثناء الاشتباك أو كجزء من مناورة. لا يمكن أن تصبح المياه

الإيرانية ملاذاً آمناً تُشنّ منه الهجمات على قوات الولايات المتحدة وتفلت هذه الهجمات من العقاب. ومع ذلك، ولحماية السفن، كان محظوراً على أيّ قبطان دخول المياه الإقليمية الإيرانية بسبب القانون الدولي من ناحية ولتجنّب التعرض لإطلاق نار عن طريق الخطأ من سلاح الجو العراقي. انتهكت المروحية التي أقلعت عن السفينة «فينسين» هذا الحظر بشكل واضح، كما انتهكه روجرز بتوجّهه إلى المياه الإيرانية لحماية مروحيته من معركةٍ أثارها هو.

[898←]
ما من شك في أن السفينة فينسين كانت في المياه الإقليمية الإيرانية عندما أطلقت النار على الطائرة التابعة لشركة الطيران الإيرانية. وأكّد الأدميرال كرو ذلك في البرنامج الإخباري Nightline على محطة ABC الأميركية في العام 1992. كما أيّد الجنرال كريست كلام كرو خلال مقابلة مع المؤلف.

[899←]
Kristen Ann Dotterway, "System Analysis of Complex Dynamics Systems: The Case of the USS Vincennes", Naval Postgraduate School

حزيران/يونيو 1992، ص 13.

[900←]
ذُكر في مصادقة القيادة المركزية الأميركية على التحقيق الرسمي أن الأحرف الأولى "IFF" لطائرة F-14 قد تكون صادرة عن طائرة إيرانية كانت على الأرض في بندر عباس.

[901←]
أشار التحقيق إلى أن قبطان طائرة الايرباص كان على الأرجح مشغولاً بالحديث مع المراقبين الجويين ما بين مطاري بندر عباس ودبي، ولم يراقب ببساطة التردّد المناسب.

[902←]
مقابلة كرو.

[903←]
تقرير فوغارتي، ص 41.

[904←]
إحاطة إعلامية في وزارة الدفاع لوزير الدفاع فرانك كارلوتشي ورئيس هيئة الأركان المشتركة الأدميرال وليام كرو، 19 آب/أغسطس 1988.

[905←]
كارلسون، تعليقات على «حادثة فينسين» (the Vincennes Incident)، ص 92.

[906←]
نائب الرئيس جورج بوش، «نزاع الخليج العربي ورحلة الخطوط الجوية الإيرانية رقم 655» The Persian Gulf Conflict and Iran Air 655), Current Policy No. 1093)، وزارة الخارجية الأميركية، 1988، ص 1.

[907←]

Stephen C. Pelletiere, The Iran-Iraq War: Chaos in a Vacuum (New York: Praeger, 1992), pp. 144-145,

الحرب الإيرانية- العراقية: فوضى في فراغ؛ ص 144- 145.

[908←]
جون بولوك وهارفي موريس، حرب صدام: أصل النزاع الكويتي والاستجابة الدولية،

Saddam’s War: The origins of the Kuwait Conflict and the International Response (New York: Fabar and Faber, 1991),

ص 248.

[909←]
.CENTCOM, Command History, 1988, pp. ii-102

[910←]
Robert Pear, Radio Broadcast Shows Iran Leader Indorsed Decision for Truce,

نيويورك تايمز، 21 تموز/ يوليو 1988.

[911←]
«نص رسالة إيرانية إلى الأمم المتحدة»، نيويورك تايمز، 19 تموز/يوليو 1988.

[912←]
.CENTCOM, Command History, 1988, pp. ii-104

[913←]
رسالة من القيادة المركزية الأميركية إلى هيئة الأركان المشتركة، «الشؤون العامة - قوات دعم لارنست ويل» (151200مZ)، تموز/يوليو 1989.

[914←]
رسالة من القيادة المركزية الأميركية إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة، «مراجعة لعملية إرنست ويل» (121225مZ)، كانون الأول/ديسمبر 1989، ص 2.

[915←]
وينر، ميراث الرماد Legacy of Ashes، ص 426؛ مقابلة وينر؛ مقابلة جيرالدي. روى ضابطان متقاعدان وضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية الأحداث نفسها.

[916←]
مقابلة مع ضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية وضابطين متقاعدين منها في العام 2008؛ مقابلة جيرالدي؛ غريغ ميلر «فشل عملية Miller, "CIA Operation in Iran Failed When Spies Were Exposed"،

وكالة الاستخبارات المركزية في إيران بعد انكشاف الجواسيس»، لوس أنجلس تايمز، 12 شباط/فبراير 2005، ص A1.

[917←]
وصف للغطاء غير الرسمي للجواسيس، راجع: Ed Finn, "How Deep Is CIA Cover?"، ايد فلين، «ما مدى عمق غطاء وكالة الاستخبارات المركزية؟»، سلايت، 30 أيلول/سبتمبر 2003.

http://www.slate.com/articles/news_and_politics/explainer/2003/09/how_deep_is_cia_cover.html

[918←]
مقابلة مع ضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية جرت في العام 2008.

[919←]
مقابلة جيرالدي.

[920←]
للاطّلاع على مثال عن العقوبات النموذجية وعن إلقاء القبض على جاسوس أميركي آخر احتُجز في سجن «أفين»، راجع:

Roger Cooper, Death Plus Ten Years: My Life as the Ayatollah's Prisoner (New York: HarperCollins, 1993),

ص98، 224.

[921←]
«أشار المتحدث باسم المجلس إلى أن شبكات الجواسيس الأميركيين قد كُشفت» وكالة الأنباء الإيرانية، طهران، 21 نيسان/أبريل 1989، FBIS، م21 نيسان/أبريل 1989، ص 44- 45.

[922←]
«وزير الإعلام يكشف أسماء جواسيس وكالة الاستخبارات الأميركية»، وكالة الأنباء الإيرانية، 26 نيسان/أبريل 1989؛ FBIS، م27 نيسان/أبريل 1989، ص 43- 44؛ «الحاجة اليومية إلى القضاء على دوافع الخيانة»، وكالة الأنباء الإيرانية، 27 نيسان/أبريل 1989؛ FBIS، م27 نيسان/أبريل 1989، ص 51.

[923←]
أُطلق سراحه عام 1991، وكتب كوبر في وقت لاحق أن اعترافاته انتُزعت منه بالإكراه عبر الضرب والحبس الانفرادي لأشهر.

[924←]
«التلفزيون الإيراني يفصّل عمليات الجواسيس السرية، التلفزيون الإيراني، 4 أيار/مايو 1989، FBIS، م8 أيار/مايو 1989، ص 57.

[925←]
«محتشمي يخطب في مسيرة»، وكالة الأنباء الإيرانية، 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1989، FBIS, NES-89-2013، م6 تشرين الثاني/نوفمبر 1989.

[926←]
في شهر آذار/مارس أذاعت إذاعة «علم الحرية الإيرانية» خبر إعدامه مع تسعة وخمسين ضابطاً آخرين من ضباط الجيش. تبيّن أن الخبر كاذب، مما أراح زوجته وطمأنها، وسُمح للعائلة بزيارة أخرى بعد شهر. راجع: «الحديث عن إعدام 60 عنصراً من القوات البحرية والجوية»، إذاعة علم الحرية، 24 آذار/مارس 1989؛ FBIS، م27 آذار/مارس 1989، ص 50.

[927←]
برقية من العميد البحري فرانك كولينز إلى جيمس وولسي، مدير وكالة الاستخبارات المركزية، 28 نيسان/أبريل 1994.

[928←]
«وزارة الإعلام حول إعدام عملاء وكالة الاستخبارات الأميركية»، تلفزيون طهران، 5 تشرين الثاني/نوفمبر 1989، FBIS, NES-89-213، م6 تشرين الثاني/نوفمبر 1989.

[929←]
"The CIA's Darkest Secrets", US News &World Report,

4 تموز/يوليو 1994، ص 34- 44.

[930←]
مقابلة وينر.

[931←]
غوردون وترينور، The General's War، ص 10.

[932←]
حسين موسوي، مقابلة مع المؤلف، 7 تشرين الأول/أكتوبر 2011.

[933←]
جورج بوش الأب، يوميات الرئيس، مدونات 4 و5 شباط/فبراير 1990، سجلات بوش الرئاسية، مكتبة بوش الرئاسية، College Station، تكساس، مكتب البيت الأبيض للتعيينات والجدولة، الحقيبة 29؛ "George Lardner, "Bush Took Bogus Call on Hostages، واشنطن بوست، 9 آذار/مارس 1990.

[934←]
باير، See No Evil، ص 115.

[935←]
John Greenwald, Sam Allis, and David X. Jackson, "Terrorism Nightmare on Flight 422",

التايم، 25 نيسان/أبريل 1988.

[936←]
جون كيلي، أجرى المقابلة توماس ستيرن، برنامج التاريخي الشفوي في وزارة الخارجية، جمعية الدراسات الدبلوماسية والتدريب، 21 كانون الأول/ديسمبر 1994.

[937←]
مقابلة موسوي.

[938←]
Giandomenico Picco, Man without a Gun: One Diplomat's Secret Struggle to Free the Hostages, Fight Terrorism, and End a War (New York: Times Books, 1999), p. 112.

[939←]
اعتقدت وكالة الاستخبارات المركزية أن إيران لا تستطيع أن تأمر من طرف واحد بالإفراج عن الرهائن إنما عليها أن تساوم حزب الله. مذكرة وكالة الاستخبارات المركزية إلى روبرت أوكلي، «إيران والرهائن الأميركيون في لبنان»، 1 آب/أغسطس 1988.

[940←]
مقابلة تويتن؛ مقابلة ألين؛ بنيامين غيلمان وآخرون. رسالة إلى الرئيس، 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1989؛ رسالة من مساعد وزير الخارجية جانيت مولينز إلى عضو الكونغرس بنيامين غيلمان، 22 كانون الثاني/يناير 1990. سجلات بوش الرئاسية، مكتبة بوش، مكتب البيت الأبيض لإدارة السجلات. كان قائد القيادة المركزية الأميركية السابق الجنرال جورج كريست يشتبه أيضاً بتورط إيران في تفجير طائرة بان آم.

[941←]
Statement by Representative Henry Gonzalez, Congressional Record, U.S. House, March 9, 1991, pp. 4699–703; J. Stapleton Roy memorandum for Brent Scowcroft, U.S. Department of State, "Iraqi Options Paper," May 16, 1990, in Congressional Record, U.S. House, March 9, 1991, p. 4703.

[942←]
رسالة قائد القيادة المركزية الأميركية إلى هيئة الأركان المشتركة، «إنهاء عملية إرنست ويل» (172200مZ)، آب/أغسطس 1990.

[943←]
مناقشة وثيقة «خيارات من أجل إيران»، سجلات بوش الرئاسية، مكتبة بوش، مجلس الأمن القومي، ملفات روبرت غيتس، مجلد ملاحظات، آب/أغسطس 1990.

[944←]

مذكرة دبلوماسية من الجمهورية الإسلامية الإيرانية إلى السلطات المختصة في الولايات المتحدة، ترجمة مكتب رعاية مصالح الولايات المتحدة، السفارة السويسرية في طهران، 23 شباط/فبراير 1991؛ مذكرة مايكل كارنس إلى مساعد وزير الدفاع (الشؤون الأمنية الدولية)، «مبادرة نحو إيران»، 4 آذار/مارس 1991.

[945←]
مقابلة كيلي مع سترن.

[946←]
بيكو، «رجل بلا بندقية» (Man Without a Gun)، ص 157.

[947←]
ادعت إيران أن المقدم البحري وليام هيغينز قُتل انتقاماً للباحث اللبناني الذي اختطفته إسرائيل. قال مسؤول لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الإيراني سعيد رجائي خراساني: «أشعر بالأسف العميق لمقتل الرهينة الأميركي، لكن ينبغي إلقاء اللوم في هذه المأساة على إسرائيل»، "Majlis Official Regrets Higgins Execution"، طهران تايمز باللغة الإنكليزية، 5 آب/أغسطس 1989، FBIS، م10 آب/أغسطس 1989.

[948←]
جعل مقتل العديد من المعارضين الإيرانيين الكثيرين في البيت الأبيض يعتقدون أن الإيرانيين استبدلوا احتجاز الرهائن بالاغتيالات. بروس ريدل، مقابلة مع المؤلف، 22 كانون الأول/ديسمبر 2011.

[949←]
جورج بوش الأب وبرنت سكوكروفت، «عالم متحول» A world Transformed (New York: Vintage,) 1999، ص 383- 384، 399، 432- 433.

[950←]
بيكو، «رجل بلا بندقية» (Man Without a Gun)، ص 6.

[951←]
مقابلة مع مسؤول إيراني سابق؛ مقابلة موسويان.

[952←]
Richard Haass, War of Necessity, War of Choice: A Memoir of Two Iraq Wars (New York: Simon and Schuster, 2009), p. 38.

[953←]
«هيئة الرئاسة الجديدة: مقتطفات من مقابلة مع كلينتون بعد الضربة الجوية». نيويورك تايمز، 14 كانون الثاني/يناير 1993، تحت ضغط من وسائل الإعلام ومستشاريه تراجع الرئيس كلينتون في اليوم التالي عن موقفه الذي اعتبره الكثيرون عرضاً لصدام حسين لتحسين العلاقة.

[954←]
بولاك، «اللغز الفارسي» (Persian Puzzle)، ص 259- 260.

[955←]
مارتن إنديك، «أبرياء في الخارج: رؤية شخصية لدبلوماسية السلام الأميركية في الشرق الأوسط»

Innocent Abroad: An Intimate account of American Peace Diplomacy in the Middle East (New York: Simon and Schuster, 2009),

ص 39.

[956←]
المصدر السابق.

[957←]
دينيس روس، «السلام المفقود»

The Missing Peace: The Inside Story of the Fight for the Middle east Peace (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2004),

ص 105.

[958←]
مارتن إنديك، أبرياء في الخارج، ص 43.

[959←]
نالت كلمته موافقة الحكومة الأميركية، وكان من المقرر أصلاً أن يلقيها أنطوني ليك الذي اعتذر في اللحظة الأخيرة بسبب خلاف. تصريحات مارتين إنديك، «تحديات المصالح الأميركية في الشرق الأوسط: العقبات والفرص المتاحة» (Challenges to U.S Interests in the Middle East: Obstacles and Opportunities)، ندوة سوريف، 18- 19 أيار/مايو 1993، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ص 1- 8.

[960←]
مارتين إنديك، «تحديات المصالح الأميركية في الشرق الأوسط: العقبات والفرص المتاحة»، ص3.

[961←]
المصدر السابق، ص6.

[962←]
(Anthony Lake, "Confronting Backlash States", Foreign Affairs 73:2 (March-April 1994.

[963←]
تعليقات بول ولفوويتز، «تحديات المصالح الولايات المتحدة في الشرق الأوسط: العقبات والفرص المتاحة»، ندوة سوريف، 18- 19 أيار/مايو 1993، معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، ص 18.

[964←]
أضاف شاليكاشفيلي أن العراق يمكنه أيضاً أن ينتج سلاحاً نووياً مع نهاية العقد إذا رفعت الأمم المتحدة عقوباتها عنه.

General Shalikashvili, confirmation testimony, preparation book, volume 2, enclosure, «Potential Q&A,» 1993, Elaine Sciolino, "CIA Says Iran Making Progress on Atom Arms", New York Times, November 30, 1992.

[965←]

غريغ برونو، «البرنامج النووي الإيراني،» مجلس العلاقات الخارجية، 10 آذار/مارس 2010؛

www.cfr.org/publication/16811/irans_nuclear_program.html, accessed October 8, 2010.

[966←]

هوشنك أمير أحمدي، مقابلة مع المؤلف، 25 حزيران/يونيو 2010.

[967←]

بولاك، «اللغز الفارسي»، ص 266.

[968←]
أسامة حمدان، مقابلة مع المؤلف، 16 شباط/فبراير2010، بيروت، لبنان.

[969←]
أخبر حمدان المؤلف بذلك أثناء تناولهما العشاء في مطعم في ضاحية بيروت الجنوبية التي يسيطر عليها حزب الله.

[970←]
مقابلة حمدان.

[971←]
Michael Eisenstadt, "Déjà vu All over again? An Assessment of Iran's military Buildup", Washington Institute for Near East Policy, McNair Paper 29: Iran's Strategic Intentions and Capabilities, April 1994, p. 12.

[972←]
وحدة مشاة البحرية 15، تسلسل زمني للقيادة، 1 تموز/يوليو، 31 كانون الأول/ديسمبر، 1995، المغلف 1، ص 2- 6- 2- 7؛ باتريك كلاوسون، تعليقات للمؤلف، 14 كانون الثاني/يناير 2010.

[973←]
Eric Schmitt, "U.S Is Wary as Iran Adds Troops in Gulf," New York Times, March 1, 1995.

[974←]
مذكرة شاليكاشفيلي إلى بينفورد بي، «تخطيط موسّع ومدروس ضد إيران (Expanded Deliberate Planning Against Iran)»، م5 تشرين الأول/أكتوبر 1995.

[975←]
«أجوبة رفسنجاني عن أسئلة تعلق بالقضايا الإقليمية»، وكالة الأنباء الإيرانية باللغة الإنكليزية، 30 أيار/مايو 1995.

[976←]
Tim Weiner, "U.S Plan to Change Iran Leaders Is an Open Secret Before It Begins", New York Times, January 25, 1996; Elaine Sciolino, "The Schooling of Gingrich, the Foreign Policy Novice", New York Times, July 18, 1995.

[977←]
بولاك، «اللغز الفارسي»، ص 274.

[978←]
كينيث بولاك، مقابلة مع المؤلف، آذار/مارس 2010. يعتقد بولاك أن المتشددين المعارضين لرفسنجاني استولوا على هذه القضية باعتبارها وسيلة لإلغاء تقارب محتمل بين الولايات المتحدة وإيران.

[979←]
مقابلة مع الدكتور محمد جواد ظريف، تلفزيون (IRIB)، شبكة البرامج الثانية باللغة الفارسية، تعليقات رسمية على حملة الدعاية الأميركية، "FBIS"، م4 كانون الثاني/يناير 1994؛ اتفاقات الجزائر، 19 كانون الثاني/يناير 1981.

[980←]
«خامنئي يهاجم الحركات الإرهابية الصهيونية الأميركية»، تلفزيون (IRIB)، شبكة البرامج الأولى باللغة الفارسية، FBID، م6 آذار/مارس 1996.

[981←]
من المرجح أن الثمانية تعاونوا مع العراق خلال الحرب العراقية الإيرانية؛ ومع ذلك من المستبعد جداً أنهم عملوا لصالح المخابرات الأميركية. «حُكم على خمسة منهم بالإعدام بتهمة التجسس لحساب الولايات المتحدة والعراق»، صوت جمهورية إيران الإسلامية، FBIS، م6 كانون الثاني/يناير 1996؛ «اعتقل ثلاثة أشخاص بتهمة التجسس لصالح الولايات المتحدة»، وكالة فرانس برس، FBIS، م11 حزيران/يونيو 1996.

[982←]
Richard Clarke, Against All Enemies: Inside America’s War on Terror (New York: Free .Press, 2004), p. 112

[983←]
دعوى قضائية، الولايات المتحدة الأميركية ضد أحمد المغسل وآخرين، المحكمة الأميركية، المقاطعة الشرقية في ولاية فرجينيا، Alexandria Division، حزيران/يونو 2001.

[984←]
مع أن العديد من المعلومات الاستخباراتية تشتبه بأن المرشد الأعلى أذن بالهجوم على أبراج الخبر، إلا أنه حتى الآن لا توجد أي أدلة قاطعة تثبت أنه فعل. من الصعب تصور حدوث مثل هذا العمل الضخم دون مباركة المرشد الأعلى، ومع ذلك فإن فيلق القدس يتمتع بالحرية الكاملة للقيام بعملياتها. حديث لريدل.

[985←]
حذر كلٌ من وكالة استخبارات الدفاع ومكتب القوات الجوية للتحقيقات الخاصة من الإرهاب المحتمل في المنطقة، وأجريت دراسة أشارت إلى نقاط الضعف في أبراج الخبر، وخصوصاً محيطها الصغير الذي يسمح للسيارات المدنية بالوقوف على مقربة من الثكنة في الجانب الشمالي. لو علمنا بالمؤامرة التي كشفها السعوديون لاستطعنا دفع المسؤولين إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة وتفادي الكارثة التي أعقبت ذلك. حديث لألين؛

Downing Report, August 30, 1996, Finding 18, p. 38; Lieutenant Colonel Robert Creamer and Lieutenant Colonel James Seat, "Khobar Towers: The aftermath and Implications for Commanders", Air War College, Air University, April 1998, pp. 5-21.

[986←]
.United States vs Ahmed Al-Mughassil, Criminal No. 01-228-A

[987←]
بيري جاميسون، «أبراج الخبر: المأساة والرد»

Khobar Towers: Tragedy and response (Washington, D.C: U. S. Air Force History and Museums Program, 2008),

ص 13.

[988←]
لسوء الحظ لم يقرع أحد جرس الإنذار المصمّم لتنبيه الجميع للخطر؛

Downing Report, Finding 20, p. 13.

[989←]
الرقيب أول إريك زيغلر، وردت في كتاب جاميسون، «أبراج الخبر»، ص 46- 47.

[990←]
رسالة لويس فريه إلى الأمير بندر بن سلطان، 11 تموز/يوليو 1996.

[991←]
وفقا لريتشارد كلارك رحّب بندر وآخرون في القيادة السعودية بالتصدي لإيران، ولكنهم كانوا يخشون أن تبدأ واشنطن حرباً لا تؤدي إلى إسقاط النظام الإيراني استناداً إلى تجربتهم في عاصفة الصحراء. كلارك، «ضد كل الأعداء» (Against All Enemies)، ص 117.

في 15 كانون الثاني/يناير 2004 سأل بول ولفوويتز فيما إذا كان تنظيم القاعدة وراء تفجير أبراج الخبر. أجابت فرقة الاستخبارات المشتركة لمكافحة الإرهاب على نائب الوزير: «لا توجد معلومات استخباراتية موثوقة تشير إلى تورط القاعدة في تفجير أبراج الخبر. حملت الاستخبارات حزب الله السعودي وحزب الله اللبناني المسؤولية القاطعة، فضلاً عن التوجيه الذي قدّمته الحكومة الإيرانية.»

[992←]
حديث لـموسايان.

[993←]
جاي هاينز، مقابلة مع المؤلف، 17 حزيران/يونيو 2002.

[994←]
استمر التوتر بين الولايات المتحدة وإيران بسبب ضمّ الأخيرة اثني عشر ميلاً من المياه إلى أراضيها على نحو مغاير للاتفاقيات المعترف بها، الأمر الذي يعطي إيران السيطرة على بضعة أميال إضافية في الخليج. كانت البحرية الأميركية مسرورة بتحدي إيران عندما أبحرت فرقاطة أميركية إلى المياه المتنازع عليها، فقط لتؤكد مراراً وتكراراً حق «حرية الملاحة»، فردت إيران عليها بإرسال بعض القوارب الصغيرة لإزعاج السفينة الحربية الأميركية. رسالة

من قائد القيادة المركزية الأميركية إلى هيئة الاركان المشتركة، «برنامج حرية الملاحة» (260959مZ)، نيسان/أبريل 1994.

[995←]
رسالة من الفريق أنطوني زيني إلى العميد البحري دينيس بلير، «الحادثة البحرية بين المدمرة الأميركية بول إف فوستر وزورق دورية إيراني سريع» (021912مZ)، أيار/مايو 1997.

[996←]
كينيث بولاك، «ماذا لو كانت إيران وراء تفجير الخبر؟ التخطيط لردّ أميركي» (What If Iran Was Behind Al-Khobar? Planning for a U. S Response)؛ معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، Policy Watch 243، 16م نيسان/أبريل 1997.

[997←]
الجنرال أنطوني زيني، مشاة البحرية الأميركية (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 26 آب/أغسطس 2010.

[998←]
كلارك، «مواجهة كل الأعداء»، ص 119- 120.

[999←]
حديث لريديل.

[1000←]
جورج تينيت، «في قلب العاصفة: مذكرات جورج تينت مدير الـ سي. آي. إيه.»

At the Center of the Storm: My Years at the CIA (New York: Harper Collins, 2007),

ص 124.

[1001←]
Con Coughlin, Khomeini’s Ghost: The Iranian Revolution and the Rise of Militant Islam (New York: Harper Collins, 2010), p. 279.

[1002←]
Cited in Said Amir Arjomand, After Khomeini: Iran under His Successors (New York: Oxford University Press, 2009), p. 82.

[1003←]
«نص المقابلة مع الرئيس الإيراني محمد خاتمي»، 7 كانون الثاني/يناير 1998، نشرت على الرابط التالي في 31 تشرين الأول/أكتوبر 2010:

www.cnn.com/world/9801/07/iran/interview.html

[1004←]
حديث لزيني؛ Coughlin, Khomeini’s Ghost, p. 282

[1005←]
ريتشارد مورفي وزلماي خليل زاد، «إيران بعد انتخابات خاتمي: سياسة الاحتواء الأميركية، إلى أين؟» (Iran?after Khatami’s Elections: Whither U. S Containment Policy)، معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، Policy Watch 256، 20م حزيران/يونيو 1997.

[1006←]
مذكرة نائب مساعد وزير الدفاع جوزيف ماكميلان، «إيران: السياسة الداخلية والخارجية» (Iran: Domestic and Foreign Policy)، 3م شباط/فبراير 2001.

[1007←]
إنديك، أبرياء في الخارج، ص 215- 217.

[1008←]
المصدر السابق، ص 219.

[1009←]
حديث لبولاك، حديث لزيني.

[1010←]
رسالة السفير هادي نجاد حسينيان إلى الأمين العام للأمم المتحدة، sم/ 1999/ 1274، مغلف، 22 كانون الأول/ديسمبر 1999؛ رسالة وزير الخارجية إلى بعثة الولايات المتحدة، الأمم المتحدة، «رداً على انتهاكات مزعومة للمياه الإقليمية الإيرانية»، بلا تاريخ.

[1011←]
خطاب الرئيس وليام كلينتون، 21 حزيران/يونيو 1998،

www.youtube.com/watch?v=PrsEhjm1DS0, accessed October 30, 2010.

[1012←]
الرئيس وليام كلينتون، «تعليقات أمسية ذكرى الألفية في البيت الأبيض»، 12 نيسان/أبريل 1999، أوراق عامة لرؤساء الولايات المتحدة: وليام جيفرسون كلينتون، الجزء الأول (واشنطن العاصمة: المطبعة الحكومية، 2000)، ص 545.

[1013←]
بولاك، «اللغز الفارسي»، ص 323.

[1014←]

وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت، «تعليقات قبل انعقاد المجلس الإيراني الأميركي»، 17 آذار/مارس 2000، واشنطن العاصمة، كان وقع الخطاب جيداً جداً باستثناء سطر واحد عندما قالت الوزيرة: «على الرغم من الاتجاه نحو الديمقراطية، ما زالت أيدي غير منتخبة تتحكّم في الجيش والقضاء والمحاكم والشرطة». عندما سمع كين بولاك، وهو محلل محترم لوكالة الاستخبارات المركزية يعمل الآن ضمن موظفي مجلس الأمن القومي، عبارة «أيدي غير منتخبة» انكمش خوفاً. ضغط بشدة دون جدوى لإزالتها، معتقداً أنه سوف يُنظر إلى الخطاب في طهران كما لو أنه يشكّك في شرعية المرشد الأعلى.

[1015←]
إيران: خامنئي يصف تعليقات أولبرايت «بالمخادعة»، وكالة الأنباء الإيرانية، FBIS، م25 آذار/مارس 2000.

[1016←]
مذكرة مساعد وزيرة الخارجية لشؤون الشرق الأدنى إدوارد ووكر، «السياسة الإيرانية»، 16 شباط/فبراير 2001.

[1017←]
تشرين الأول/أكتوبر 2000، مناظرة رئاسية، www.debates.org/index.php?page=october-11-2000-debate-transcript آخر دخول إلى الموقع تمّ في 1 تموز/يوليو 2010.

[1018←]
تعليمات قائد القيادة المركزية، «تقييم الخيارات العسكرية تجاه الإرهاب الذي تدعمه إيران»، كانون الثاني/يناير2001.

[1019←]
العميد البحري غريغ نيوبولد، من مشاة البحرية الأميركية (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 18 حزيران/يونيو 2010.

[1020←]
في 25 تشرين الثاني/نوفمبر عام 2000، بعث كلٌّ من ريتشارد كلارك ومستشار الأمن القومي ساندي بيرغر رسالةً إلى كلينتون أبلغاه فيها أن مكتب التحقيقات الفدرالي ووكالة الاستخبارات المركزية على ثقة من أن القاعدة تقف وراء الهجمات. غير أن الجنرال شيلتون لم يكن متأكدا من الجهات التي نفذت الهجوم. تقرير لجنة 11/ 9: التقرير النهائي للجنة الوطنية حول الهجمات الإرهابية التي استهدفت الولايات المتحدة (نيويورك: نورتون، 2004)، ص 194-195. كانت وكالة الاستخبارات للدفاع تملك تقارير استخباراتية عدة غير مؤكدة من مصادر بشرية، تشير إلى أن حزب الله اللبناني درّب الفاعلين وزوّدهم بالمتفجرات.

[1021←]
تقرير لجنة 11/ 9، ص 201.

[1022←]
قدّم نيوبولد وثيقة معلومات عن الخطط العسكرية ضد تنظيم القاعدة. استخدمت القيادة المركزية الأميركية اسم «بولو ستيب» لحماية الخطط العسكرية العراقية. راجع «السيرة الذاتية للجنرال تومي فرانكس»،

General Tommy Franks Autobiography American Soldier (New York: Regan Books, 2004), p. 384.

[1023←]

ورد في مقال لغريغ وايت لوك في صحيفة «واشنطن بوست»: «الكشف عن صاعق تفجير يو إس إس كول»، 4 أيار/ مايو 2008، ص أ1.

[1024←]
لاري ويلكرسون، مقابلة مع المؤلف، 24 حزيران/يونيو 2010؛

Haass, War of Necessity, p. 176.

[1025←]
المقدم كيم أولسون، مذكرة القوات الجوية الأميركية، «إيران 101»، 1 شباط/فبراير 2001.

[1026←]
مقابلة مع بولاك؛ مقابلة مع نيوبولد.

[1027←]
مذكرة من دونالد رامسفلد إلى كوندوليزا رايس، «العراق»، 27 تموز/يوليو 2001.

[1028←]
دونالد رامسفيلد، «المعروف والمجهول»،

Known and Unknown (New York: Sentinel, 2011),

ص 420- 421.

[1029←]
Stefan Halper and Jonathan Clarke, America Alone: The Neo-Conservatives and the Global Order (Cambridge: Cambridge University Press, 2004), pp. 10-12.

[1030←]
Davis Rose, «Heads in the Sand," Vanity Fair, May 12, 2009.

[1031←]
«رسالة مفتوحة إلى الرئيس كلينتون»، مشروع القرن الأميركي الجديد، 26 كانون الثاني/يناير 1998، www.newamericancentury.org/iraqclintonletter.htm، آخر دخول إلى الموقع تمّ في تموز/يوليو 2006؛ روبرت كاغان، «السبيل إلى إطاحة بصدام» (A Way to Oust Saddam)، ويكلي ستاندرد، 28 أيلول/ سبتمبر 1998؛ ريتشارد بيرل، «إعادة النظر في الشرق الأوسط»، خطاب في معهد المبادرة الأميركي، 14 تشرين الأول/أكتوبر 1998، www.aei.org/speech/16436 آخر دخول إلى الموقع تمّ في 3 آب/أغسطس 2010.

[1032←]
فرانك ميلر، مقابلة مع المؤلف، 1 تموز/يوليو 2010. خمسة أشخاص يحتلون مناصب رفيعة داخل إدارة بوش، لم يجهروا بآرائهم، كانوا يشاطرون ميلر وجهة نظره.

[1033←]

خلال مقابلة مع الصحفي الأميركي مات لاور على محطة «إن بي سي» روّج بوش لكتابه «قرارات مصيرية» (Decision points) (صدر بالعربية عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2012) مكرراً رفضه لحكم التاريخ قائلاً: «عند اكتشافهم الحقيقة سأكون قد لقيت حتفي يا مات»، مقابلة الرئيس جورج بوش مع مات لاور، إن بي سي، 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2010.

[1034←]
مقابلة مع مسؤول كبير في مجلس الأمن القومي. انظر أيضاً:

Peter Rodman, Presidential Command: Power, Leadership, and the Making of Foreign Policy from Richard Nixon to Georg W. Bush (New York: Knopf, 2009), pp. 149-50.

[1035←]
مكتب وزير الدفاع، «موقف وزارة الدفاع حول خيارات التحرير»، 1 حزيران/ يونيو 2001.

[1036←]
جون بولتون، مقابلة مع المؤلف، 31 آب/أغسطس 2010.

[1037←]
مقابلة مع نيوبولد.

[1038←]
Alfred Goldberg, Sarandis Papadopoulos, et al., Pentagon 9/11, Office of the Secretary of Defense, Historical Office, 2007, p. 35.

[1039←]
Stephen Cambone notebook, entry for September 11, 2001, redacted copy posted at www.tomflocco.com/Docs/Dsn/DodStaff Notes.htm, accessed August 17, 2010.

[1040←]
مذكرة من بول ولفوويتز إلى دونالد رامسفيلد، «السؤال عن هوية الخاطفين»، 19 أيلول/سبتمبر 2001.

[1041←]
مذكرة من بول ولفوويتز إلى دونالد رامسفيلد، «منع وقوع المزيد من الحوادث»، 17 أيلول/سبتمبر 2001؛ مذكرة من بول ولفوويتز إلى دونالد رامسفيلد، «كيف يمكن التأكد من هوية الخاطفين الحقيقية»، 14 تشرين الأول/أكتوبر 2001.

[1042←]
مقابلة مع نيوبولد.

[1043←]
شهادة كوندوليزا رايس أمام لجنة 11 أيلول/سبتمبر، 8 نيسان/أبريل 2004، في «سي بي سي نيوز أون لاين»، www.cbc.ca/news/background/sep11/rice_transcript.htm آخر دخول إلى الموقع تمّ في 10 نيسان/

أبريل 2010.

[1044←]
دوغلاس فيث، مقابلة مع المؤلف، 22 حزيران/يونيو 2010.

[1045←]
Douglas Feith, War and Decision: Inside the Pentagon at the Dawn of the War on Terrorism (New York: HarperCollins, 2008), pp. 229-234;

مقابلة مع فيث.

[1046←]
مقابلة مع مسؤولين إيرانيين، 9 شباط/فبراير 2011.

[1047←]
.Showdown with Iran", FBS Frontline, October 23, 2007"

[1048←]
«نص بيان خاتمي الذي أدان الهجمات على المدن الأميركية»، وكالة الأنباء الإيرانية، FBIS، م11 أيلول/سبتمبر 2001؛ «إمام صلاة الجمعة في قم يعرب عن تعاطفه مع أقارب الضحايا الأميركيين»، أفتاب إي يزد، FBIS، م22 أيلول/سبتمبر 2001؛ «أستاذ إيراني يحثّ على إسقاط شعار 'الموت لأميركا'»، سيدا نامه عدالت، FBIS، م22 أيلول/ سبتمبر 2001؛ «إيران تندّد بالهجمات المروّعة على الولايات المتحدة وتعرب عن تعاطفها مع الضحايا»، وكالة الأنباء الإيرانية، FBIS، م11 أيلول/سبتمبر 2001.

[1049←]
في أيلول/سبتمبر 2000، سمحت إيران للمصارف الأجنبية بالعمل في مناطق التجارة الحرة، ووافقت على تطبيق المعايير الدولية لحماية حقوق الملكية الفكرية التي طالبت بها شركات الكمبيوتر لحماية برامجها من القرصنة.

[1050←]
فلينت ليفيريت، مقابلة مع المؤلف، 16 آذار/مارس 2010.

[1051←]
مقابلة مع «لسّ».

[1052←]
جيمس دوبينز، مقابلة مع المؤلف، 12 أيار/مايو 2010.

[1053←]
لاري فرانكلين، «نقاط الحوار حول إيران» (Talking points on Iran)، م13 شباط/فبراير 2002.

[1054←]
ريان كروكر، مقابلة مع المؤلف، أيار/مايو 2010.

[1055←]
ريان كروكر، مقابلة مع المؤلف، أيار/مايو 2010.

[1056←]
هيلاري مان، مقابلة مع المؤلف، 28 حزيران/يونيو 2010.

[1057←]
أي مبدأ الثواب والعقاب.

[1058←]
مذكرة من دوغلاس فيث إلى دونالد رامسفيلد، «نقاط البحث الأساسية على مأدبة الفطور لدى نيوت غينغريتش»، 25 أيلول/سبتمبر 2001.

[1059←]
مقابلة فيث.

[1060←]
مقابلة مع كروكر؛ مقابلة مع دوبينز.

[1061←]
جيمس دوبينز، «بعد انهيار طالبان: بناء الدولة في أفغانستان»،

James Dobbins, After the Taliban: Nation-building in Afghanistan Washington D.C.: Potomac Books, 2008), pp. 74-75).

[1062←]
جيمس دوبينز، «بعد انهيار طالبان: بناء الدولة في أفغانستان»،

James Dobbins, After the Taliban: Nation-building in Afghanistan Washington D.C.: Potomac Books, 2008), pp. 74-75).

[1063←]
المرجع السابق، ص 74- 75.

[1064←]
المرجع السابق، ص 121؛ مقابلة دوبينز.

[1065←]

مقابلة مع أرميتاج.

[1066←]
تدعم المقابلات مع مسؤولين إيرانيين والتقارير الاستخباراتية الأميركية وجهة النظر هذه القائمة في البلاد عن علاقة إيران بالقاعدة.

[1067←]
مقابلة مع مان.

[1068←]
حديث لمان.

[1069←]
ديفيد فروم، مقابلة مع ليدين ماكنتاير، 8 نيسان/أبريل، 2002،

www.pbs.org/wgbn/pages/frontline/shows/tehran/interviews/frum.html

[1070←]
الجنرال ريتشارد مايرز، من القوات الجوية الأميركية (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 22 حزيران/يونيو 2011.

[1071←]
«المزيد من المعلومات عن رفض خامنئي اتهامات بوش»، وكالة الأنباء الإيرانية، 31 كانون الثاني/يناير 2002؛ «قال رفسنجاني إن الولايات المتحدة لعبت دور 'محامي الشيطان'»، وكالة الأنباء الإيرانية، 30 كانون الثاني/يناير 2002. لم ينل الرئيس بوش سوى 30% من الأصوات المؤهلة أو 48% من أصوات الذين قرروا التصويت.

[1072←]
Iran’s Kharrazi Answers Bush’s Threats in Letter to UN Head", Nowruz, February 6," .2002

[1073←]
مقابلة مع كروكر.

[1074←]
مقابلة مع مايرز.

[1075←]
المرجع السابق.

[1076←]
مقابلة مع بولتون.

[1077←]
مذكرة الجنرال ريتشارد مايرز، 17 آب/أغسطس 2002.

[1078←]
مذكرة بيتر رودمان الموجهة إلى وزير الدفاع، «نقاط الحوار بشأن إيران»، 2 كانون الأول/ديسمبر 2003.

[1079←]
ورقة معلومات أساسية أعدّها المقدم إس. ماكفرسون، في 7 شباط/ فبراير 2002، لاجتماع رؤساء اللجنة.

[1080←]
اتفاقيات الجزائر، «إعلان حكومة الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية»، 19 كانون الثاني/يناير 1981، ص 1.

[1081←]
مذكرة بيتر رودمان الموجّهة إلى دونالد رامسفيلد، «توجيهات الأمن القومي الرئاسية بشأن إيران»، 16 تشرين الأول/أكتوبر 2002.

[1082←]
ملاحظات أحد المشتركين في وضع مسودة توجيهات الأمن القومي الرئاسية، «سياسة إيران» (Iran Policy)، 8م تشرين الأول/أكتوبر 2002.

[1083←]
مقابلة مع أرميتاج.

[1084←]
المصدر السابق.

[1085←]
«تقرير عن النشاطات الاستخباراتية المتعلقة بالعراق، من إعداد فريق تقييم سياسة مكافحة الإرهاب ومكتب الخطط الخاصة التابع لمكتب وكيل وزير الدفاع للسياسات»، مجلس الشيوخ الأميركي، لجنة الاستخبارات المختارة، جلسة الكونغرس 110، الدورة 2، حزيران/يونيو 2008. يتضمن التقرير لمحة عامة عن اجتماعات ليدين والمحادثات مع غربانيفار. وأيضاً: كنوت رويس وتيموثي فيلبس، «محادثات تاجر أسلحة مع مسؤولين أميركيين بشأن إيران»، سيدني مورنينغ هيرالد، 9 آب/أغسطس 2003، www.smh.com.au/articles/2003/08/08/1060145871467.htm آخر دخول إلى الموقع تمّ في 20 آب/أغسطس 2010. توجّه ليدين إلى بيتر رودمان أولاً، مقترحاً عقد اجتماع مع الإيرانيين يضم مسؤولين من وزارة الدفاع لكن رودمان رفض عرضه، لذا قرر التحدث إلى المستشار الثاني في الأمن القومي.

[1086←]

Tenet, At the center of the Storm, pp. 311-314,

مقابلة مع أرميتاج.

[1087←]
.Tenet, At the Center of the Storm, pp. 311-314

[1088←]
مقابلة مع أرميتاج.

[1089←]
.Tenet, At the Center of the Storm, pp. 11-14

[1090←]
في حين كانت إيران وكوريا الشمالية من الأهداف الأساسية للمحافظين الجدد في الإدارة، شدّد البيت الأبيض خلال أيام قليلة من وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر على امتناع روسيا عن بيع أسلحة متطورة إلى إيران ومناقشتها مسألة معارضة إنجاز المفاعل النووي في بوشهر. مجلس الأمن القومي، "Russia-Iran Proliferation Options Paper for Deputies," م8 تشرين الثاني/نوفمبر 2001.

[1091←]
مكتب وزير الدفاع، ورقة سياسية، «الوضع الحالي للحرب على الإرهاب» (Current State of the War on Terrorism)، م25 أيار/مايو 2002.

[1092←]
المصدر السابق.

[1093←]
مقابلة فيث.

[1094←]
هيئة الأركان المشتركة جي-5، ورقة معلومات، «الاستفادة من تغيير النظام في العراق لدعم استمرار الحرب على الإرهاب»، 11 حزيران/يونيو 2002؛ «الإجراءات الإيرانية المحتملة بما في ذلك ترجيح الردود العسكرية إزاء عمليات الولايات المتحدة ضد العراق»، 1 آذار/مارس 2002.

[1095←]
وثيقة المقدم توم بيليك، «وصف الإجراءات الإيرانية المحتملة إزاء الإجراءات الأميركية ضد العراق»، 1 آذار/مارس 2002.

[1096←]
مقابلة مع مايرز.

[1097←]
مقابلة مع زيني.

[1098←]
مقابلة مع مايرز.

[1099←]
مذكرة المعهد القومي للدراسات الاستراتيجية القومي من أجل السجلات، «الأثر الإقليمي لتغيير النظام في العراق»، 20 آذار/مارس 2003.

[1100←]
مقابلة مع كروكر.

[1101←]
المصدر السابق.

[1102←]
مقابلة مع أرميتاج.

[1103←]
ملاحظات بشأن مسودة توجيهات الأمن القومي الرئاسية، «سياسة إيران» (Iran Policy)، م8 تشرين الأول/أكتوبر 2002.

[1104←]
النقيب وليام توتي، مقابلة مع المؤلف، 19 تموز/يوليو، 2007؛ حقيبة الحظ، الأكاديمية البحرية الأميركية، 1979.

[1105←]
مايكل كوين، «إيران في عهد آيات الله» (Iran Under the Ayatollah)، ناشيونال جيوغرافيك، تموز/يوليو 1985، ص120. بقي أحد الأشخاص الذين جرت مقابلتهم مقتنعاً حتى يومنا هذا بأن الصورة التي نُشرت في المجلة استُخدمت كوسيلة لإخبار الأميركيين بأن أحد جواسيسهم قد لقي حتفه بعلم من الإيرانيين. غير أن أحد عملاء وكالة الاستخبارات المركزية المتقاعدين الذين عملوا في إيران كان واثقاً من أن الإيرانيين لم يكونوا ليدفنوه مع الشهداء في مقبرة «بهشت» لو علموا أنه جاسوس. هذا وأصر كوين على أن صورة القبر لم تكن متعمدة بل وليدة المصادفة.

[1106←]
ملاحظات المؤلف، 4 نيسان/أبريل 2007.

[1107←]
تعدّ الملاحظات التي وضعها كلٌّ من مايكل آيزنشتات، مايكل نايتس، وأحمد علي بعنوان «تأثير إيران في العراق» من أفضل الملاحظات عن الأهداف الإيرانية في العراق، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، Policy Focus 111، نيسان/أبريل 2011.

[1108←]
مقابلة مع مسؤولين إيرانيين.

[1109←]
مايكل نايتس، مقابلة مع المؤلف، 28 تشرين الثاني/نوفمبر 2011.

[1110←]
مقابلة مع كروكر.

[1111←]
.Michael Ware, "Inside Iran’s Secret War for Iraq", Time, August 15, 2005

[1112←]
أدى هذا في نهاية المطاف إلى غارة على منزل الجلبي في بغداد بمساعدة من الجيش الأميركي في ربيع عام 2004. أثار ذلك غضب أنصار الجلبي في البنتاغون الذين عاقبوا الرئيس مايرز والقادة العسكريين في العراق وحظروا أي إجراءات مستقبلية ضد الجلبي دون موافقة من وزير الدفاع. تينيت، «في قلب العاصفة»

(At the center of the storm), p. 446; Matthew Aid, The Secret Sentry: The Untold History of the National Security Agency (New York: Blooms bury, 2009), p. 270.

[1113←]
معلومات محدثة عن الجيش العراقي الحر، 8 شباط/فبراير 2003، مقابلة مع قائد الجيش الذي طرح قضية الجيش العراقي الحر أمام الهيئة المشتركة.

[1114←]
مشاهدات للمؤلف في بغداد، 14 نيسان/أبريل 2003.

[1115←]
رسالة وزارة الخارجية، «قلق الكويت إزاء النفوذ الإيراني في العراق»، 13 نيسان/أبريل 2003.

[1116←]
رسالة من القيادة المركزية الأميركية إلى قائد قوات المهمة المشتركة، «إرشادات مجلس التعاون الخليجي في شأن الفيلق بدر» (030218مZ)، حزيران/يونيو 2003. كانت الرسالة تستند إلى الإرشادات المصادق عليها في أواخر آذار/ مارس 2003، والتي تسمح باستعمال القوة ضد فيلق بدر.

[1117←]
رسالة إلكترونية من بول بريمر إلى جيمي دوران، «رسالة إلى وزير الدفاع»، حزيران/يونيو 2003.

[1118←]
مذكرة من دونالد رامسفيلد إلى بول بريمر، «إيران 2»، أيار/مايو 2003.

[1119←]
مذكرة للحفظ، «اجتماع الملازم ماهنكن بالفرقة العسكرية البريطانية الأولى»، G-2، 23 نيسان/أبريل 2003.

[1120←]
مارك مازيتي، «تقرير أميركي يُفيد بأن إيران أوقفت برنامج الأسلحة النووية في العام 2003»، نيويورك تايمز، 3 كانون الأول/ديسمبر 2007.

[1121←]
تيم غولديمان، مذكرة و«خارطة طريق»، 4 أيار/مايو 2003.

[1122←]
تيم غولديمان، مقابلة مع المؤلف، 2011.

[1123←]
إليوت أبرامز، مقابلة مع المؤلف، 5 كانون الثاني/يناير 2011؛ مقابلة مع بولتون.

[1124←]
مسودة مشروع السفير ظريف المتعلقة بـ«خارطة الطريق»، 1 أيار/مايو 2003؛ هوشنك أمير أحمدي، مذكرة سرية، «التسلسل الزمني للصفقة الكبرى»، حزيران/يونيو 2004. رسالة إلكترونية من هوشنك أمير أحمدي إلى المؤلف، 26 نيسان/أبريل 2007.

[1125←]
بعد عدة سنوات أبلغ رجل دين يعمل مستشاراً للمرشد الأعلى فلينت ليفيريت وزوجته هيلاري مان أن «آية الله خامنئي وافق على خارطة الطريق المقترحة»، مضيفاً «لن نكون أسخياء بعد اليوم»، مقابلة مع ليفيريت ومان.

[1126←]
مقابلة مع بولتون.

[1127←]
مقابلة مع ويلكرسون. لم يتذكر كروكر أنه نقل هذه المعلومة إلى الإيرانيين.

[1128←]
مقابلة مع بولتون.

[1129←]
المصدر السابق.

[1130←]
المصدر السابق.

[1131←]
بريمر، «السنة التي أمضيتها في العراق - النضال لبناء غدٍ مملوؤ بالأمل» (My Year in Iraq: The Struggle to Build a Future of Hope) (نيويورك سيمون وشوستر، 2006)، ص 59، 274.

[1132←]
«إيران تنفي نقلها نقاط تفتيش حدودية إلى داخل العراق»، رويترز، 10 تموز/يوليو 2003.

[1133←]
مايكل نايتس، «دور البث الإعلامي في التأثير على العمليات في العراق» (The Role of Broadcast Media in Influence Operations in Iraq)، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، Policy Watch 758، م19 أيار/مايو 2003.

[1134←]
تقديم المساعدة لضحايا الزلزال الإيراني»، الوكالة الأميركية للتنمية الدولية، 15 كانون الثاني/يناير 2004، www.usaid.gov/iran آخر دخول إلى الموقع تمّ في 12 آب/ أغسطس 2011.

[1135←]
مقابلة مع كروكر.

[1136←]
خطاب تنصيب الرئيس جورج دبليو بوش، «لا حرية بدون عدالة»، خدمة الأخبار الفيدرالية في واشنطن بوست، 21 كانون الثاني/يناير 2005، ص 24.

[1137←]
نص الخطاب السنوي عن حالة الاتحاد الذي ألقاه الرئيس بوش عام 2005، 2 كانون الثاني/يناير 2005.

[1138←]
جورج بوش، «قرارات مصيرية» (Decision Points (New York: Crown, 2010»)، ص 397. (صدرت ترجمته العربية عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2012).

[1139←]
جون ديكرسون، «ما يقرأه الرئيس»، تايم، 10 كانون الثاني/يناير 2005.

[1140←]
مقابلة مع بولتون.

[1141←]
وزارة الخارجية، «تعليقات وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس في الجامعة الأميركية في القاهرة»، 20 حزيران/يونيو 2005.

[1142←]
نيكولاس بيرنز، مقابلة مع المؤلف، 1 أيلول/سبتمبر 2011.

[1143←]

ستيفن وايزمان، «رايس تحصل على تعهد من شرودر لبذل المزيد من الجهد لمساعدة مساعدة العراق»، نيويورك تايمز، 5 شباط/فبراير 2005.

[1144←]
بيان السيناتور توم كوبورن، «إيران: استهتار طهران على المستوى النووي ورد الولايات المتحدة - وجهة نظر الخبراء»، جلسات الاستماع، مجلس الشيوخ الأميركي، لجنة الأمن الداخلي والشؤون الحكومية، الإدارة المالية الفيدرالية، اللجنة الفرعية للمعلومات الحكومية والأمن الدولي، الجلسة 109 للكونغرس، الدورة الأولى، 15 تشرين الثاني/نوفمبر 2005، ص 3.

[1145←]
تعليقات أُدلي بها في معهد بروكينغز- ندوة القيادة المركزية الأميركية، 17- 18 تشرين الأول/أكتوبر 2011، الدوحة، قطر.

[1146←]
وليام برود ودايفيد سينجر، «الولايات المتحدة الأميركية تسعى إلى إثبات أهداف إيران النووية بالاعتماد على الحاسوب»، نيويورك تايمز، 13 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.

[1147←]
«استراتيجية إيران» (Iran Strategy)، م17 أيلول/سبتمبر 2004.

[1148←]
شهادة كارل غيرشمان، «دور المنظمات غير الحكومية في تنمية الديمقراطية» (The Role of Non-Governmental Organizations in the Development of Democracy)، جلسات الاستماع، مجلس الشيوخ الأميركي، لجنة العلاقات الخارجية، الكونغرس 109، الدورة 2، 8 حزيران/يونيو 2006، ص 61؛ شين كيني، «ستصبح الثورة حديث المدونات»، صالون، 6 آذار/مارس 2006،

http://www.salon.com/2006/03/06/iranian_bloggers/

[1149←]
وزارة الخارجية، «الإيرانيون يؤيدون بمعظمهم الإصلاح الاقتصادي وتحسين العلاقات مع الغرب» (Iranians Widely Favor Economic Reform and Better Ties with the West)، كانون الأول/ديسمبر 2000.

[1150←]
مايكل دوران، مقابلة مع المؤلف، 22 أيلول/سبتمبر 2010.

[1151←]
وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس، «ملاحظات معدة مسبقاً»، شهادة أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، 15 شباط/فبراير 2006.

[1152←]
«ردود باري لوينكرون على أسئلة السيناتور بايدن»، في: «دور المنظمات غير الحكومية في تنمية الديمقراطية» (The Role of Non-Governmental Organizations in the Development of Democracy)، ص

.85

[1153←]
مقابلة مع ديفيد دينهي، 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2011.

[1154←]
نيغار عظيمي، «الحقائق القاسية عن السلطة المرنة»، نيويورك تايمز، 24 حزيران/يونيو 2007.

[1155←]
وزارة الخارجية، «جهود الإدارة لتعزيز الديمقراطية في إيران» (Department Efforts to Promote Democracy in Iran)، م10 شباط/فبراير 2006.

[1156←]
المصدر السابق.

[1157←]
Warren P. Strobel and William Douglas, "Pentagon Study Claims U. S. Broadcasts to Iran Aren›t Tough Enough," McClatchy Newspapers, September 26, 2006, www.mcclatchydc.com/2006/09/26/v-print/14705/pentagon-study-claims-us-broadcastshtml

[1158←]
الآخرون هم كيان تاج بخش وعلي شاكري ونازي عظيمي.

[1159←]
مذكرة ستيوارت هوليداي الموجهة إلى كولن باول، «موقع باللغة الفارسية» (Persian Language Website)، م25 أيلول/ سبتمبر 2003.

[1160←]
مذكرة بيتر رودمان إلى وزير الدفاع، «مسائل الانتخابات الإيرانية» (Iranian Election Questions)، م30 حزيران/ يونيو 2005.

[1161←]
شهادة جيمس وولسي، «إيران: استهتار طهران على المستوى النووي ورد الولايات المتحدة» (Iran: Tehran’s Nuclear Recklessness and the U. S. Response)، ص 10.

[1162←]
شهادة نيوت غينغريتش، «إيران: استهتار طهران على المستوى النووي ورد الولايات المتحدة» (Iran: Tehran›s Nuclear Recklessness and the U. S. Response)، ص 17، 21.

[1163←]
كان هذا جواب الرئيس الإيراني رداً على سؤال طرحه عليه المؤلف خلال زيارته للولايات المتحدة في أيلول/سبتمبر 2010.

[1164←]
مقابلة مع بيرنز.

[1165←]
أفاد عدد من التقارير التي نُشرت في العام 2007 أن الولايات المتحدة قدمت مساعدات لجند الله. راجع بريان روس وكريستوفر ايشام، «الحرب السرية ضد إيران» (The Secret War Against Iran)، أي.بي.سي نيوز، 3 نيسان/أبريل 2007؛ سيمور هيرش، «تحضير ساحة المعركة» (Preparing the Battlefield)، نيويوركر، 7 تموز/يوليو 2007.

[1166←]
روبرت ويندريم، «الولايات المتحدة تقدّم الملايين لمساعدة الجيش اللبناني» (U. S. Provides Millions in Lebanese Military Aid)، إن.سي.بي. نيوز، 22 أيار/مايو 2007، www.msnbc.msn.com/id/18809618/ns/nightly_news/t/us-provides-millions-lebanese-military-aid آخر دخول إلى الموقع تم في 23 تموز/يوليو 2011.

[1167←]
مقابلة مع موظف سابق في وزارة الخارجية عُيّن في عهد إدارة بوش، 7 تشرين الثاني/نوفمبر 2011.

[1168←]
جون ليمبرت، مقابلة مع المؤلف، 2011.

[1169←]
ريتشارد تشيني، «في زماني: مذكرات شخصية وسياسية» (In My Time: A Personal and Political Memoir (New York: Threshold, 2011، ص 474.

[1170←]
مقابلة مع بولتون؛ جون بولتون، «الاستسلام ليس خياراً: الدفاع عن أميركا في الأمم المتحدة والخارج»، (Surrender Is Not an Option: Defending America at the United Nations and Abroad (New York: Threshold, 2007 ص 130- 164. في 24 آذار/مارس من العام 2003 كتب دوغ فيث في مذكرة موجهة إلى ستيفن هادلي: «من غير المرجح أن تتخلى إيران عن برنامج الأسلحة النووية وتطلعاتها. يجب أن يكون هدفنا على المدى الطويل هو الضغط على روسيا لإلغاء جميع أشكال التعاون مع البرنامج النووي الايراني». قام مساعد وزير الدفاع للأمن القومي جي دي كراوتش بوضع ملخّص لوجهة نظر الحكومة الأميركية في 17 آذار/مارس 2003 في مذكرة بعنوان «استراتيجية قريبة المدى حول برنامج إيران النووي.»

[1171←]
هيلين كوبر ودايفيد إي سنجير، «حديث خلال مأدبة غداء بدّل موقف إيران»، نيويورك تايمز، 3 حزيران/يونيو 2006.

[1172←]
كوندوليزا رايس، «أسمى مراتب الشرف: ذكريات سنين حياتي في واشنطن» (No Higher Honor: A Memoir of My Years in Washington (New York: Crown, 2011، ص 461.

[1173←]
مقابلة مع بورنز.

[1174←]
عقوبات شاملة على إيران، قانون المساءلة وسحب الاستثمارات لعام 2008: تقرير لجنة البنوك والإسكان والشؤون المدينية، تقرير 110-443، مجلس الشيوخ الأميركي، الكونغرس 110، الجلسة 2، 1 آب/أغسطس 2008، ص 3.

[1175←]
نازيلا فتحي واليان سيولينو، «انفتاح إيران على الحوافز المتعلقة بالحوار النووي مع بعض التحفظات»، نيويورك تايمز، 7 حزيران/ يونيو 2006.

[1176←]
بوش، «قرارات مصيرية» (Decision Points)، ص 419. (صدرت ترجمته العربية عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2012).

[1177←]
اليان سيولينو، «الحوار النووي مع إيران يصل إلى طريق مسدود»، نيويورك تايمز، 20 تموز/يوليو 2008.

[1178←]
لا توجد صلة قربى بين وليام بيرنز ونيكولاس بيرنز.

[1179←]
ملاحظات تم تسجيلها في 13 كانون الأول/ديسمبر 2006، خلال لقائه بالمؤلف وتزويده بالمعلومات. ورد بيان آخر لتفاصيل هذا اللقاء في كتاب بوب وودوارد: (A Secret White House History, 2006-2008 (New York: Simon and Schuster, 2008، ص 286- 289.

[1180←]
اللواء البحري كيفن كوسغريف، مقابلة مع المؤلف، 18 حزيران/يونيو 2010.

[1181←]
الجنرال جون أبي زيد، مقابلة مع المؤلف، 22 تشرين الثاني/نوفمبر 2010؛ مذكرة اللواء فيرن فيندلي، «توصية القيادة المركزية الأميركية بشأن خفض مستوى التنسيق مع القوات المسلحة الإيرانية»، 2006.

[1182←]
مقابلة مع أبي زيد، مقابلة مع أبرامز.

[1183←]
منير الخمري، «مساهمة إيران في الحرب الأهلية في العراق» (Iran’s Contribution to the Civil War in Iraq)، مؤسسة جيمس تاون، كانون الثاني/يناير 2007.

[1184←]
مايكل غوردون وأندرو ليهرين، «تسريب تفاصيل التقرير المتعلق بالمساعدات الايرانية المرسلة إلى الميليشيات العراقية»، نيويورك تايمز، تشرين الأول/أكتوبر 2010.

[1185←]
للاطلاع بشكل عام ودقيق على أنشطة الإيرانيين في العراق راجع مقال جوزيف فيلتر وبريان فيشمان، «الاستراتيجية الايرانية في العراق: سياسات وأساليب أخرى»، ويست بوينت، 13 تشرين الأول/أكتوبر 2008.

[1186←]
س. آزاد، «فيلق القدس- عرّاب القاعدة؟»، نيوز بلايز، 7 أيلول/سبتمبر 2007، تم الدخول إلى الموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2009،

http://newsblaze.com/story/20070907025952summ.nb/topstoryhtml

[1187←]
مايكل نايتس، معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، مقابلة مع المؤلف، 12 أيلول/سبتمبر 2010.

[1188←]
مايكل واير، «خفايا الحرب الإيرانية السرية في العراق»، التايمز، 15 آب/أغسطس 2005.

[1189←]
Iranian Strategy in Iraq: Politics and ‹Other Means,›, pp. 55-65; U. S. Army, «Intel Report: Investigation into Dbe find on 10 Nov 05 Near Iranian Border", Serial No. HQ MND (SE_ 202.1.2, November 2005, accessed at «Secret Dispatches from the War in Iraq", New York Times, www.nytimes.com/interactive/world/iraq-war-logs.html#report/D9E9E0BA-0273-46EE-a998-F2FBDA35951A.

[1190←]
«منظمة الأمن الخارجي لحزب الله»، Hizbollah External Security Organization، الحكومة الأسترالية، 8 تشرين الثاني/نوفمبر 2010،

www.nationalsecurity.gov.au/agd/www/nationalsecuri

ty.nsf/A11Docs/7986D1536C0ffD5FCA256FCD001BE859

[1191←]
مقابلة مع مايرز.

[1192←]

«القائد الأعلى يثير الشكوك بشأن تورط طهران مع الميليشيات العراقية»، سي إن إن، 13 شباط/فبراير 2007.

[1193←]
مذكرة بيتر رودمان الموجهة إلى دونالد رامسفيلد، «مساعي إيران، «Demarche Iran»، م28 أيار/مايو 2006.

[1194←]
مذكرة دونالد رامسفيلد الموجهة إلى إريك إيدلمان، «أنشطة إيران في العراق، Iran's Activities in Iraq»، م11 تموز/ يوليو 2006.

[1195←]
مذكرة دونالد رامسفيلد الموجهة إلى بيتر بيس، «وثيقة استخباراتية عن العراق، Intel Paper on Iraq»، م19 تموز/ يوليو 2006.

[1196←]
TF 5-73, Cross Border Complex Attk on 5-73 Cav Balad Ruz: 1 Iranian Army KIA",» summary of incident along Iraq-Iran border on September 7, 2006, accessed at «Secret Dispatches from the War in Iraq", New York Times, www.nytimes.com/interactive/world/iraq-war-logs.html#report/A7868E9B-3E71-4CBE-.93DF-EBEE44E49FD4

[1197←]
.MND_N Report, Event ID: 1202 Report Key, 672E9781, November 21, 2005

[1198←]
مذكرة رونالد رامسفيلد الموجهة إلى بيتر بيس، «الإجراءات المتخذة بناءً على المعلومات الاستخباراتية» (Acting on Intelligence)، تشرين الثاني/نوفمبر 2006.

[1199←]
روبين رايت ونانسي تريخوس، «القبض على إيرانيين داخل العراق»، واشنطن بوست، 21 كانون الثاني/يناير 2007

[1200←]
رسالة إلكترونية من مارك كيميت إلى إريك إيدلمان، 22 كانون الأول/ديسمبر 2006.

[1201←]
.Mohammad, Jafari interview, PBS Frontline, August 2, 2007

[1202←]
دافنا لينزر، «مباحثات مسؤول الدفاع الايراني السابق مع أجهزة الاستخبارات الغربية»، واشنطن بوست، 8 آذار/ مارس 2007.

[1203←]
مذكرة الوزير روبرت غيتس إلى الرئيس جورج بوش، «تقرير تريب، Trip Report»، م14- 20 كانون الثاني/يناير 2007.

[1204←]
مقابلة مع كروكر.

[1205←]
Karballa, PJCC, Direct Fire on 1-501 Pir Ivo Karbala: 3 CF WIA 5 CF KIA 1 Civ WIA, 201800, January 2007.

[1206←]
جون برنز ومايكل غوردن، «الولايات المتحدة تدّعي أن إيران ساهمت في قتل خمسة عناصر من مشاة البحرية الأميركية»، نيويورك تايمز، 3 تموز/يوليو 2007.

[1207←]
جون ليلاند وجاك هيلي، «إطلاق سراح البريطاني المخطوف عام 2007 في العراق»، نيويورك تايمز، 31 كانون الأول/ ديسمبر 2009؛ «ادعاء مسؤول عراقي بإطلاق سراح المشتبه به في قتل عناصر مشاة البحرية الأميركية الخمسة»، نيويورك تايمز، 6 كانون الثاني/يناير 2010.

[1208←]
مؤتمر صحفي للرئيس بوش، 14 شباط/فبراير 2007،

http//georgebush-whitehouse.archives.gov/news/releases/2007/02/20070214-2.html

[1209←]
سكوت كاربنتر، مقابلة مع المؤلف، 14 حزيران/يونيو 2010؛ Fearing Escalation, Pentagon Fought Cheney Plan", Inter Press Service, June 6, 2010, http://ipsnews.net/news.asp?idnews=42696", آخر دخول إلى الموقع تمّ في 14 حزيران/يونيو 2010.

[1210←]
مقابلة مع كارنتر؛ دُعمت أيضاً عبر ثلاث مقابلات مع مسؤولين سابقين في عهد بوش وضابطين في الجيش. راجع أيضاً: Helene Cooper, «In Bush Speech, Signs of Split on Iran Policy", New York Times, September 2007 مؤشرات الانقسام حول السياسة الأميركية تجاه إيران في خطاب بوش، نيويورك تايمز، أيلول/ سبتمبر 2007.

[1211←]
مقابلة أبي زيد.

[1212←]
مقابلة كوسغريف.

[1213←]
مذكرات تشيني، In my Time، ص 477- 478.

[1214←]
المصدر السابق، ص 478.

[1215←]

Paul Krugman, «Scary Movie 2",

نيويورك تايمز، 12 شباط/فبراير 2007

http://select.nytimes.com2007/02/12/opinion/12krugman.html?_r=2

[1216←]
Michael Slackman and Hassan Fattah, «Amid Friction, Plans for U.S.-Iran Talks On Iraq",

نيويورك تايمز، 14 أيار/مايو 2007

[1217←]
Paul von Zielbauer, «U.S Calls Iranian Official Part of Elite Force",

نيويورك تايمز، 8 تشرين الأول/أكتوبر 2007.

[1218←]
«ملاحظات السفير ريان كروكر في قاعة الصحافة بعد الاجتماع مع المسؤولين الإيرانيين»، السفارة الأميركية في بغداد، 28 أيار/مايو 2007؛ «معلومات مسجلة لريان كروكر سفير الولايات المتحدة لدى العراق بعد لقائه المسؤولين الإيرانيين»، السفارة الأميركية في بغداد، 28 أيار/مايو 2007؛ مقابلة مع موظف أميركي في الحكومة السابقة.

[1219←]
مقابلة كروكر.

[1220←]
برقية السفارة الأميركية في لندن إلى وزيرة الخارجية، «إيران: شقيق قائد الحرس الثوري الإيراني صفوي يقول إن تسمية الحرس الثوري منظمةً إرهابية من قبل الولايات المتحدة سوف يحول دون التعاون الأمني العراقي» (170834مZ)، آب/أغسطس 2007.

[1221←]
مقابلة نايتس.

[1222←]
مايكل نايتس، "Iran’s Ongoing Proxy War in Iraq"، معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، Policy Watch، 1492، م16 آذار/مارس 2009.

[1223←]

مايكل نايتس، «تطور المجموعات الخاصة الإيرانية في العراق، The Evolution of Iran’s Special Groups in Iraq»، لجنة سنتينل لمكافحة الإرهاب، 2010.

[1224←]

السفارة الأميركية في بغداد، «تحليل نقاط اتفاق 12 أيار/مايو لوقف إطلاق النار في مدينة الصدر»، 14 أيار/مايو 2008.

[1225←]

MND-C, Friendly Action, Detain RPT 41 Fires BDE: 1UE, Report Key, 3144FC46"," October 23, 2008, www.nytimes.com/interactive/world/iraq-war-logs.html#report/CBEA1920-423D-4561-50EF2C11CE525E79, accessed at "secret Dispatches from the War in Iraq", New York Times..

[1226←]

MND-B EVENT 2, Friendly Action, Confiscation Rpt 2/B/2-30 In: 0 Inj/Dam", October» 5, 2008, www.nytimes.com/interactive/world/iraq-war-logs.html#report/CBEA1920-423D-4561-50EF2C11CE525E79, accessed at «secret Dispatches from the War in Iraq", New York Times.

[1227←]

Decision Points, George W. Bush, p. 420,

صدرت الترجمة العربية عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر بعنوان «قرارات مصيرية»، عام 2012.

[1228←]

Michael Luo, «Obama Talk on Iranians Draws Fire from McCain",

نيويورك تايمز، 20 أيار/مايو 2008؛ محضر، مناظرة رئاسية بين باراك أوباما وجون ماكين، 26 أيلول/سبتمبر 2008، أوكسفورد، مسيسيبي.

[1229←]

تراجع الرئيس أوباما في وقت لاحق عن قرار إغلاق سجن غوانتانامو عندما لم يجد أي موقع آخر مناسب لاحتجاز السجناء من تنظيم القاعدة.

[1230←]

رسم خرائط طائرة بدون طيار أميركية وهجمات المتشددين الإسلامية في باكستان- Mapping U.S Drone and Islamic Militant Attacks in Pakistan»، BBC، 22م تموز/يوليو 2010، html://bbc.co.uk/news/world-south-asia-10648909، دخول الموقع في 22 آذار/مارس 2011؛ «أوباما يزيد هجمات الطائرات بدون طيار- Obama has Increased Drone Attacks، CBS News، 12م شباط/فبراير، 2010، http://www.cbsnews.com/stories/2010/02/12/politics/main6201484.shtml، آخر دخول إلى الموقع تم في 22 آذار/مارس 2011.

[1231←]
دينيس روس، مقابلة مع المؤلف، 6 كانون الثاني/يناير 2012.

[1232←]
قد تستأنف العلاقات بين إيران والولايات المتحدة في عهد أوباما- Iran-U.S Ties May Resume under Obama» وكالة أنباء فارس باللغة الإنكليزية، 11 تشرين الثاني/نوفمبر 2008؛ «قد يعطي أوباما فرصة للعلاقات بين إيران والولايات المتحدة- Obama May Bring Opportunity for Iran-U.S Ties»، وكالة الأنباء الإيرانية باللغة الإنكليزية، 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2008؛ «المتحدث باسم الخارجية الإيرانية يقول إن رسالة الرئيس إلى أوباما هي دليل دبلوماسية نشطة»، وكالة أنباء فارس، 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2008.

[1233←]
«لاريجاني: من السذاجة الاعتقاد أن الرئيس أوباما سوف يسلك درباً جديداً»، وكالة أنباء الطلبة الإيرانية، 9 تشرين الأول/أكتوبر 2008؛ سيد حسين علوي، «دراسة الاستراتيجية الحقيقية للولايات المتحدة: الشيطان الأكبر وراء قناع أوباما- An Examination of the Real Strategy of the United States: the Great Satan behind the Mask of Obama» الجمهورية الإسلامية الايرانية، 5 تشرين الثاني/نوفمبر 2008.

[1234←]
«Iranian Wrestle Over Policy Towards Obama -

الصراع الإيراني بشأن السياسة المتبعة حيال أوباما»، BBC Monitoring، م10 تشرين الثاني/نوفمبر 2008.

[1235←]
مقابلة روس.

[1236←]
رسالة الرئيس باراك أوباما بمناسبة عيد النوروز، 19 آذار/مارس 2009.

[1237←]
«القادة الإيرانيون يدعون إلى تغيير حقيقي بعد رسالة عيد النوروز الأميركية- Iranian Leaders Call for Real Change after U. S. Nowruz Message», Open Source Center Analysis، م23 آذار/مارس 2009؛ «طهران ترحب بتغيير سياسة الولايات المتحدة- Tehran Welcomes U.S. Policy Change»، وكالة الأخبار الإيرانية، 7 نيسان/أبريل 2009.

[1238←]
دينيس روس، افتتاحية نيوزويك، 8 كانون الأول/ديسمبر 2008.

[1239←]
«مناظرة رئاسية»، Visions of the Islamic Republic of Iran Network 3، حزيران/يونيو 2009.

[1240←]
تويتر يسمح بنشر نصوص يصل عدد حروفها إلى 140.

[1241←]
تقرير محطة التلفزة الإخبارية الأميركية MSNBC، م16 حزيران/يونيو 2009.

[1242←]
«أحمدي نجاد يصف محادثات جنيف بأنها خطوة إلى الأمام - Iran’s Ahmadinejad Calls Geneva Talks a Step Forward»، وكالة فرانس برس، 7 تشرين الأول/أكتوبر 2009.

[1243←]
مقابلة ليمبرت.

[1244←]
«ملاحظات حول رسالة الرئيس أوباما بمناسبة عيد النوروز»، 20 آذار/مارس 2010.

[1245←]
مقابلة مع دبلوماسي إيراني.

[1246←]
الجنرال جيمس كارترايت، مشاة البحرية الأميركية (متقاعد)، مقابلة مع المؤلف، 28 تشرين الثاني/نوفمبر 2011.

[1247←]
جوش هاليداي «ويكيليكس: الولايات المتحدة نصحت بتخريب المواقع النووية الإيرانية عن طريق خبراء ألمان U.S. Advised to Sabotage Iran Nuclear Sites by German Think Tank»، الغارديان، 18 كانون الثاني/يناير 2011، www.guardian.co.uk/world/2011/jan/18/wikileaks-us-embassy -cable-iran-nuclear

[1248←]
المرجع السابق.

[1249←]
كريستوفر وليامز، «فيديو إسرائيلي يظهر ستكسنت باعتباره أحد نجاحاتهم»، تلغراف، 15 شباط/فبراير 2011،

www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/israel/8326387/Israel-video-shows-Stuxnet-as-one-of-its-success.html,

ولوج في 4 كانون الأول/ديسمبر 2011.

[1250←]
«ايران تدعم القوة الناعمة من خلال إنشاء قيادة معلوماتية جديدة»، وكالة أنباء فارس، 15 حزيران/يونيو 2011؛ «صرح أحد الوزراء أنّ إيران تستعد لتعطيل مؤامرة الإنترنت الأميركية»، وكالة أنباء فارس، 29 حزيران/يونيو 2011؛ «جبهة الحرب المعلوماتية النشطة ضد إيران»، jam-e-jam، م14 حزيران/يونيو 2011.

[1251←]

سعيد كمالي دهقان، «رجل يقرّ بذنبه في اغتيال عالم نووي إيراني Man Pleads Guilty to Assassinating Iranian Nuclear Scientist»، الغارديان، 23 آب/أغسطس 2011؛ ديفيد سانجر، «ديناميكية أميركا القاتلة مع إيران America›s Deadly Dynamics with Iran»، نيويورك تايمز، 5 تشرين الثاني/نوفمبر 2011؛ «هل يستهدف الموساد العلماء في إيران؟- Is the Mossad Targeting Iran’s Scientists?»، تايم، 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2011.

[1252←]

ديفيد سانجر ووليام برود، «David Sanger and William Broad, «Explosion Seen as Big Setback to Iran›s Missile Program»، نيويورك تايمز، 4 كانون الأول/ديسمبر 2011.

[1253←]

جيفري ريتشلسون، التجسس على القنبلة: الاستخبارات الأميركية النووية من ألمانيا النازية إلى إيران وكوريا الشمالية-

Spying on the Bomb: American Nuclear Intelligence from Nazi Germany to Iran and North Korea (New York: Norton, 2006), p. 507.

[1254←]

جيمس رايزن، دولة الحرب: التاريخ السري لوكالة الاستخبارات المركزية وإدارة بوش- (The Secret History of the CIA and Bush Administration (New York: Free Press, 2006، ص 194- 212.

[1255←]

وفقاً لجيمس رايزن، اكتشف الروسي عيوباً في التصميم، وكي يساعد في الخطة كتب رسالة إلى الإيرانيين تفيد أن المخططات ليست مثالية. وهكذا فتح عيون الإيرانيين للبحث عن العيوب. ظل أكبر قدر من المخططات دقيقاً ويمكنها في الواقع أن تساعد إيران على تصميم جهاز التفجير النووي.

[1256←]

نسخة عن فيديو للعالم الإيراني شهرام أميري»»، BBC News، م8 حزيران/يونيو 2010، www.bbc.co.uk/news، ولوج في 12 تشرين الثاني/نوفمبر 2011

[1257←]

Michael Shuster, «Covert War with Iran: A ‘Wilderness of Mirrors’», «National Public Radio, May 2011, www.npr.irg/2011/05/10/136054851/covert-war-with-iran-a-wilderness-of-mirrors, accessed December 1, 2011; David Sanger, «A Defector Goes Home, But to What End?», New York Times, July 17, 2010.

[1258←]

شوستر، «الحرب السرية مع إيران- Covert War With Iran».

[1259←]

مارك دويل، «لا أعتقد أننا سنراهم مرة أخرى: أكثر من عشرة عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية معتقلين في إيران ولبنان، ومهددين بالقتل»- "I Don’t Think We’ll Ever See Them Again: More than a Dozen CIA Spies Captured in Iran and Lebanon feared executed"، دايلي مايل،

www.dailymail.co.uk/news/article-2064286/CIA-spies-captured-Iran-Lebanon-Hezbollah-feared-executed.html، ولوج في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 2011

[1260←]
روبرت باير، «هل تغلب حزب الله على وكالة الاستخبارات المركزية في لعبة المراقبة التكنولوجية الخاصة بها؟- ?Did Hezbollah Beat the CIA at Its Own Techno-Surveillance Game»، تايم، 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2011، www.time.com، ولوج في 1 كانون الأول/ديسمبر 2011

[1261←]
«حزب الله وراء تفكك شبكة وكالة الاستخبارات المركزية- Hezbollah Behind Unraveling of CIA Network»، أسوشيتيد برس، 26 تشرين الثاني/نوفمبر 2011؛ كين ديلانيان، «وكالة الاستخبارات المركزية تضطر إلى كبح تجسسها في لبنان- CIA Forced to Curb Spying in Lebanon»، لوس أنجلس تايمز، 20 تشرين الثاني/نوفمبر 2011.

[1262←]
Nicholas Blanford, «Collapse of CIA Operations Benefits Iran", Daily Star, December 15, 2011,

«انهيار عمليات وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية يعود بالفائدة على إيران»، ديلي ستار، 15 كانون الأول/ديسمبر 2011؛ «Talk of the Hout- مقابلة مع النائب حسن فضل الله»، المنار، 9 كانون الأول/ديسمبر 2011؛ جنان جمعاوي، «لعنة بيروت على وكالة الاستخبارات المركزية من العام 1983 حتى العام 2011: حزب الله يستفيد من التقنيات العالية ومن حماقة الوكالة»، صحيفة السفير، 5 كانون الأول/ديسمبر 2011؛ Scott Shane, «Hezbollah Station Identifies 10 Supposed CIA Officers- «حزب الله يحدد هوية 10 عملاء مفترضين لوكالة الاستخبارات المركزية»، نيويورك تايمز،13 كانون الأول/ديسمبر 2011

[1263←]
«كونيلي تلتقي عون وتشير إلى قلقها من اتهامات حزب الله» (Connelly Meets Aoun, Says Concerned Over Hezbollah Accusations)، ديلي ستار، 30 حزيران/يونيو 2011؛ «حزب الله سيطلع الدولة على نتائج التحقيق بشأن الجاسوسية» (Hezbollah Will Give Spy Probe Findings to State)، ديلي ستار، 28 حزيران/يونيو 2011؛ «هكذا يجنّد الأميركيون العملاء في عوكر وهذه هي أهدافهم في لبنان»، السفير.

[1264←]
ضربة استخباراتية ثانية توجهها إيران باعتقالها 12 جاسوساً»، Raja News، م29 تشرين الثاني/نوفمبر 2011. قال وزير الاستخبارات والأمن حيدر مصلحي إن أحد هؤلاء العملاء موجود داخل الحكومة. هذه التهمة كان هدفها تشويه سمعة الرئيس أحمدي نجاد. حاول أحمدي نجاد إقالة مصلحي إلا أنّ المرشد الأعلى ألغى القرار في خطوة تأنيب علنية. لطالما شكّل عملاء وكالة الاستخبارات المركزية كبش فداء للمسؤولين الإيرانيين.

[1265←]
General Martin Dempset interview with Barbara Starr, Cable News Network, The Situation Room, December 20, 2011.

[1266←]
سكوت بيترسون، «إيران تخطف طائرة أميركية دون طيار، تصريحات مهندس إيراني» (Iran Hijacked U. S. Drone, Says Iranian Engineer», Christian Science Monitor)، م15 كانون الأول/ديسمبر 2001؛

بوب أور، «مسؤول أميركي: تحتجز إيران طائرتنا التي دون طيار، CBS News Iran Does Have Our) Drone U.S Official) م8 كانون الأول/ديسمبر 2011؛ تيم ليستر، «الطائرة دون طيار التي سقطت كانت تبحث عن مواقع نووية إيرانية» (Crashed Drone Was Looking at Iranian Nuclear Sites)، CNN، 15كانون الأول/ديسمبر 2011.

[1267←]
الفريق باتريك أوريلي، «مراجعة حول الدفاع الصاروخي البالستي في الندوة الدولية للدفاع الجوي الصاروخي»، آذار/مارس2010.

[1268←]
تعليقات الجنرال ديفيد بتريوس في معهد الدراسات الحربية، 22 كانون الثاني/يناير 2010.

[1269←]
مركز الدفاع الجوي والصاروخي المتكامل: معلومات للندوة الدولية السنوية الثالثة ومنتدى الدفاع الصاروخي» Integrated Air and Missile Defense Center of Excellence: Information Briefing to 3rd) Annual International Air and Missile Defense Symposium)، آذار/مارس 2010؛ معلومات استخلصها المقدم أحمد الشحي والمقدم مايكل ترونولون، «مركز الدفاع الجوي والصاروخي المتكامل» (Integrated Air and Missile Defense Center)، آذار/مارس 2010.

[1270←]
مقابلة كوسغريف.

[1271←]
نيكولاس بيرنز، «فرصة أوباما في إيران» (Obama's Opportunity in Iran)، بوسطن غلوب، 1 تشرين الأول/أكتوبر 2009.

[1272←]
السفارة الأميركية، رسالة الرياض، «العاهل السعودي يصرّح بأن المحادثات مع وزير الخارجية الإيراني ساخنة»، آذار/مارس (Z161418م)م 2009؛ ورد التصريح في صحيفة جيروزالم بوست 3 كانون الأول/ديسمبر 2010.

[1273←]
ماثيو ليفيت، «Prepared Statement and Testimony»، «عمليات إرهابية إيرانية على الأرض الأميركية» (Iranian Terror Operations on American Soil)، جلسة استماع مشتركة، مجلس النواب الأميركي، لجنة الأمن الداخلي، 26 تشرين الأول/أكتوبر 2011، ص 6.

[1274←]
Justin Rohrlich and Don Fresard, «So, How Does an Iranian Terror Suspect Pay the Bills?», Minyaville, october 11, 2011
www.minyaville.com/businessmarkets/Articles/manssor-arbabsiar-mansour-arbabsiar-,iranian-bomber/10/13/2011/id/37367

آخر دخول في3 كانون الأول/ديسمبر 2011.

[1275←]
الولايات المتحدة ضد منصور أربابسيار، شكوى جنائية، المنطقة الجنوبية في نيويورك، 11 تشرين الأول/أكتوبر 2011؛ وزارة الخزانة الأميركية، «إعلان العقوبات ضد خمسة أفراد مرتبطين بمؤامرة إيرانية لاغتيال السفير السعودي لدى الولايات المتحدة»، تشرين الأول/أكتوبر 2011.

[1276←]
ريتش غلادستون، «إيران تسخر من تصريحات الولايات المتحدة بشأن مؤامرة الاغتيال المزعومة» (Iran Scoffs at U.S. Account of Alleged Assassination Plot)، نيويورك تايمز، 13 تشرين الأول/أكتوبر 2011.

[1277←]
لارا جاكس، «تصريحات وزير الخارجية الإيراني: التعزيزات الأميركية حول العراق تفتقر إلى الحكمة» (Iran FM Says Associated Press U.S Buildup Near Iraq Lacks Prudence)، م31 تشرين الأول/أكتوبر 2011.

[1278←]
اللواء البحري مارك فوكس، مقابلة مع المؤلف، 11 كانون الأول/ديسمبر 2011.

[1279←]
«أوروبا توافق على حظر واردات النفط الإيرانية فيما الغرب يشدّد قبضته» (Europe Agrees to Ban Oil Imports Moneynews.com from Iran as West Tightens Its Grip)، م4 كانون الثاني/يناير 2012، http://www.monetnews.com/Markets/Europe-Ban-Oil-Iran/2012/01/04/id/423032 آخر دخول في 7 كانون الثاني/يناير 2012.

[1280←]
الوكالة الدولية للطاقة الذرية، «تطبيق ضمانات اتفاق معاهدة الحد من الأسلحة النووية والبنود المتعلقة به في قرارات مجلس الأمن في الجمهورية الإسلامية الإيرانية» (Implementation of the NPT Safeguards Agreement and relevant provisions of Security Council resolutions in Islamic Republic of Iran)، م24 شباط/فبراير 2012.

[1281←]
مارك لاندلر، «أوباما يضغط على نتنياهو لمنع الضربات على إيران» (Obama Presses Netanyahu to Resist Strikes on Iran)، مNew York Times م5آذار/مارس 2012.